مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ التّاسِعُ والعِشرونَ

سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

مَوْسُوعَة التَّفْسِيرِ البَلاغِيّ

المُجَلَّدُ التَّاسِعُ والعِشرونَ

سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 29 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-26-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 29 : المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-26-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6484549 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزءُ الخَامِسَ عشَرَ

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العِبادات عواصِمُ، وشكرانٌ يستجلبُ النِّعمَ

لمّا ذكَر في الآيةِ السّابقةِ تثبيتَه لنبيِّه ﷺ بالسُّنَنِ الإلهيَّة الخاصَّةِ في عصمةِ الرُّسل مِنَ النّاس؛ أمَره في هذه الآية أنْ يشكر ذلك بالتَّعبُّد برأس الأمر الصَّلاةِ، ليزداد تثبيتًا على تثبيتٍ، وعِصمةً فوق العِصمة، فـ"مناسبةُ أقمِ الصَّلاة لما قبلها: أنَّه تعالى لمّا ذكرَ كيدَهم للرَّسول، وما كانوا يرومون به؛ أمرَه تعالى أن يُقبِلَ على شأنه من عبادة ربِّه وألّا يشغلَ قلبَه بهم، وكان قد تقدَّمَ القولُ في الإلهيّات والمعادِ والنُّبوّات، فأردف ذلك بالأمر بأشرفِ العبادات والطّاعاتِ بعد الإيمان، وهي الصَّلاةُ"[(1)]، و"مناسبةُ موقعِها عقبَ ما قبْلَها أنَّ الله لمّا امتنَّ على النَّبيّ ﷺ بالعصمةِ وبالنَّصر؛ ذكَّره بشكرِ النِّعمة بأنْ أمرَه بأعظم عبادة يعبدُه بها، وبالزّيادة منها طلبًا لازدياد النِّعمة عليه، كما دلَّ عليه قولُه في آخر الآية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾"[(2)]، وجاء في نظم الدُّرر: "ولمّا قرَّر أمرَ أصول الدّين بالوُحدانية والقُدرةِ على المعاد، وقرَّر أمرَهم أحسنَ تقرير، واستعطفَهم بنِعمه، وخوَّفهم من نِقمه، وقرَّر أنَّه سبحانه عصمَهُ عليه الصلاة والسلام من فتنتِهم بالسَّراء والضَّرّاء بما أنار به من بصيرتِه، وأحسنَ من علانيته وسريرته؛ صار منَ المعلوم أنَّه قد تفرَّغ للعبادة، وتهيَّأ للمراقبة، فبدأ بأشرفِها"[(3)].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 97.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 181.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 491.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِدُلُوكِ﴾: (دلك) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى زَوالِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ، ولا يَكونُ إلّا بِرِفْقٍ[1]، ودَلَكَ الشَّيءَ يَدْلُكه دَلْكًا: مَرَسه وعَرَكه[2]، والدَّلوك: ما دلكتَه من طيب، ودُلوك الشَّمسِ: ميلُها للغروب[3]، واسْمُ ذَلِكَ الوقْتِ: الدَّلَكُ، ودُلوك الشَّمسِ زَوالُها في وقْتِ الظُّهْر، وذلكَ مَيلُها للغُروبِ، وهو دُلوكها أَيضًا[4]، والمرادُ بالدُّلوكِ في الآية: مِنْ أَحْوالِ الشَّمسِ، يَجْمَعُ ثَلاثَةَ أَوْقاتٍ باسْتِعْمالِ المُشْتَرَكِ في مَعانيه[5].

2) ﴿غَسَقِ﴾: (غسق) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على ظُلْمَةٍ، فالغَسَق، مُحرَّكةً: ظُلْمَةُ أَوَّلِ اللَّيْلِ[6]، والغاسِقُ: اللَّيْلُ[7]، ويُقالُ: غَسَقَتْ عَيْنُهُ: أَظْلَمَتْ، وأَغْسَقَ المُؤَذِّنُ؛ إذا أَخَّرَ صَلاةَ المَغْرِبِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ، وأَمّا الغَسّاقُ الَّذي جاءَ في القُرْآنِ [ص: 57، والنبأ: 25]؛ فَقالَ المُفَسِّرونَ: هو ما تَقَطَّرَ مِنْ جُلودِ أَهْلِ النّارِ[8]، والمرادُ بالغَسَقِ في الآية: الظُّلْمَةُ، وهي انقطاعُ بَقايا شُعاعِ الشَّمسِ حينَ يُماثِلُ سَوادُ أُفُقِ الغُروبِ سَوادَ بَقيَّةِ الأُفُقِ، وهو وقْتُ غَيْبوبَةِ الشَّفَقِ، وذلكَ وقْتَ العَشاءِ، ويُسَمَّى العَتَمَةَ، أَي: الظُّلْمَةَ[9].

3) ﴿مَشْهُودًا﴾: أَصْلُ (شهد) يدلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإِعْلامٍ[10]، لا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْ فُروعِهِ عنْ ذلك، ومِنْه الشَّهادَةُ، والمَشْهَدُ: المَجْمَعُ مِنَ النّاسِ، والمَشْهَد: مَحْضَرُ النّاسِ، يُقالُ: شَهِدَ الشَّيْءَ؛ إذا حَضَرَهُ، وعايَنَهُ[11]، والشَّهيدُ: القَتيلُ في سَبيلِ اللهِ، وقالَ قَوْمٌ: سُمّيَ بذلك؛ لِأَنَّ مَلائِكَةَ الرَّحْمَةِ تَشْهَدُهُ، أَي: تَحْضُرُهُ[12]، والمَشْهود: صَلاةُ الفَجْرِ، ويَومُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دلك).
(2) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (دلك).
(3) الرّاغب، المفردات: (دلك).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/ 255، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (دلك).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 182.
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (غسق).
(7) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (غسق).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غسق).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 182.
(10) بن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).

مشهودٌ: يَحْضُره أَهلُ السَّماءِ والأَرضِ[1]، والمرادُ بقوله: ﴿مَشْهُودًا﴾ في الآية: مَحْضورَةٌ، وفُسِّرَ ذَلِكَ بِأنَّها تَحْضُرُها مَلائِكَةُ اللَّيْلِ ومَلائِكَةُ النَّهارِ[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

قيامُ اللَّيلِ يوجِبُ عُلوَّ الدَّرَجاتِ في الجنَّةِ

يقولُ اللّه تعالى: أدِّ - يا مُحَمَّدُ ﷺ - الصَّلَواتِ المكتوباتِ على وجهِ التَّمام بجَميعِ أركانِها وشُروطِها، في أوقاتِها، مِن مَيلِ الشَّمسِ للزَّوالِ - فتدخُلُ في ذلك صَلاتا الظُّهرِ والعَصرِ - إلى إقبالِ الظَّلامِ واجتماعِه، ويدخُلُ في ذلك صلاتا المَغربِ والعِشاءِ، وأقم صَلاةَ الفَجرِ؛ إنَّ صلاةَ الفَجرِ تَحضُرُها مَلائِكةُ اللَّيلِ ومَلائِكةُ النَّهارِ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآيةِ:

العبادةُ هي المقصودُ قبل كلِّ غرضٍ وبعدَ كلِّ غرضٍ

جملة ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ[4]، بعد أنْ فرَّغ قلْبَ النَّبيِّ ﷺ مِنَ الاكتراث بكيد الكافرين، بأنْ عصَمَهُ منهم، ولاحَقَهم بالخزي والوعيد؛ ابتدأ في هذه الآية بأمرِ نبيِّه بأنْ يتفرَّغ لعبادة ربِّه، بإقامة رأسِ العبادات: الصَّلاةِ.

بلاغةُ الاكتفاءِ في الآيةِ:

فصَلَ وقتَ الفجرِ لِما بينَه وبين العشاءِ مِن انقطاعٍ

في الآية فنُّ الاكتفاء ببيانِ المبدَأ والمُنْتهى في أوقاتِ الصَّلواتِ من غيرِ فصْلٍ بينها، ولعلَّ ذلك لِما أنَّ الإنسانَ فيما بين هذه الأوقاتِ على اليقظة، فبعضُها مُتَّصلٌ ببعض، بخلافِ أوَّلِ وقْتِ العشاءِ والفجْرِ، فإنَّه باشتغالِه فيما بينهما بالنَّوم ينقطِعُ أحدُهما عن الآخرِ؛ ولذلك فصَلَ وقْتَ الفجرِ عن سائرِ الأوقاتِ[5].

---

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (شهد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 183.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 101، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 464، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 179.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 181.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 189.

دلالةُ الأمرِ ﴿أَقِمِ﴾:

الأمرُ في قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على حقيقتِه الظّاهرة من طلب إقامةِ الصَّلاة بالبدن والأعضاءِ على جهة الإلزام، وعلى المجازِ بطلبِ انتوائِها والعزمِ والقصدِ إليها[1].

حين يقولُ (أقم الصّلاة) فكأنَّ الصَّلاةَ في انتظار مَن يُقيمُها ويقومُ بها

بلاغةُ الاستعارةِ والكنايةِ والمجازِ في لفظ الإقامةِ:

إقامةُ الصَّلاة صيانتُها مِنَ الخللِ في أركانها وشروطِها

أصلُ الإقامة: الانتصابُ والنُّهوضُ من قعودٍ واضطجاعٍ، وإقامةُ الصَّلاة: التَّشمُّرُ لأدائها وإيقاعِها على نحوٍ مِنَ العنايةِ والمواظبة، وإقامتُها استعارةٌ تبعيَّةٌ في تشبيهِ صيانتِها مِنَ الخلل في أركانها وشروطِها، بجعْلِ الشَّيءِ قائمًا بعد اعوجاج (تقويمٌ وتعديل)، أو كنايةٌ عنِ الدَّوام مِنْ بابِ قولِهم: (قامَتِ السّوقُ)؛ إذا راجَتْ، ونَفَقَتْ سِلَعُها؛ لأنَّ نَفادَ السِّلَعِ في السّوقِ مُشعرٌ بتوجُّه الرَّغبات إليها، وذلك يَستدعي استدامتَها، فإذا لم تَكنْ قائِمةً؛ لم تكنْ دائِمةً، أو مجازٌ في الإسناد، بمعنى: يجعلون الصَّلاةَ قائمةً؛ فيفيدُ التَّجلُّدَ والتَّشمُّر، وأنَّها تقعُ عنْ مَزيدِ نشاطٍ كقولهم: قامتِ الحربُ على ساقِها، أو مجازٌ مرسلٌ من بابِ إطلاقِ مُعظَم الشَّيءِ على كُلِّه، وهو ركْنُ القيامِ فيها، أي: يوجِدون قيامَها، أي: يَقومون فيها، فأسندَ القيامَ إليها؛ لأنَّه أظهرُ أجزاءِ الصَّلاة وغالِبٌ فيها، وأرادَ بِه أداءَها وتحصيلَها كامِلَةً[2].

دلالةُ التَّعريفِ في الصَّلاة:

التَّعريفُ في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للعهد الذِّهنيِّ، أي: الصَّلاةُ المفروضةُ[3].

معنَى اللّامِ في قوله تعالى: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾:

اللّام في قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ للتَّوقيت، أي: عند وقتِ زوال

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 491.
(2) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 2/ 91، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 126.

الأوقاتُ عامِرةٌ بالصَّلوات، فلكلِّ وقتٍ واجبُه

الشَّمس من وسط السَّماء، أو مِنْ وقتِ الدُّلوك، أو بعد الدُّلوك، كما تقول في توقيت أعمالك أوِ الحوادث: كان هذا لِثلاثٍ خَلَوْنَ من رجب أو نحوِ ذلك، ويصحُّ أن تكون للتَّعليل، أي: أقم الصَّلاةَ لأجل دخول وقتِ دلوك الشَّمسِ إلى غسق اللَّيل، ولهذا يقول علماءُ الأصول: إنَّ الوقتَ سببُ وجوب الصَّلاة، من حيث إنَّ الصَّلاة لا تجبُ إلّا بدخوله[1].

دلالةُ إضافةِ الدُّلوكِ إلى الشَّمس:

الصَّلاةُ دليلُ الإيمان كالشَّمس دليلُ الميقاتِ

إضافةُ ﴿لِدُلُوكِ﴾ إلى ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾ للبيان؛ لأنَّ الدُّلوكَ من أحوال الشَّمس، وهي سببُه[2]، وقالَ الأزهريُّ: "والقَوْلُ عِنْدي أَنَّ دُلوك الشَّمسِ زَوالُها نِصْفَ النَّهارِ؛ لِتَكونَ الآيةُ جامِعَةً للصَّلَواتِ الخَمسِ"[3].

معنى حرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾:

الغايةُ تدخلُ في المُغيّا إذا كانت طَرَفًا ممتدًّا عنه

﴿إِلَىٰ﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ لانتهاء الغاية، وهو يدلُّ على أنَّه في أوَّل الغاية وابتدائها - أوَّلَ الغسَق - صلاةٌ تُقام، وهي صلاةُ العشاء، ويدلُّ التَّنصيصُ على الغاية بحرف ﴿إِلَىٰ﴾: أنَّ ما قبل الغاية فترة دلوكِ الشَّمس من أوَّلها إلى آخرها صلواتٌ متكرِّرةٌ، وهي الظُّهرُ والعصر والمغربُ[4].

إيثارُ لفْظِ الغسَقِ:

الغسَقُ والدُّلوكُ كلاهما من أعمالِ الشَّمس

التَّعبير بلفظِ الغسق في قوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾، ولم يقل: (ظلمة الليل)؛ لأنَّ (الغسَق) يجمعُ في دلالته بين شيئَين: الأوَّل: غيابُ الشَّفَق، وهو انتهاء آخِرِ الضَّوء، وبداية أوَّل الظُّلمة، والثّاني: اجتماعُ الظَّلام وهو اللَّيل الكثيفُ، وهذا الاشتراك لا يدلُّ عليه لفظُ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 97، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 182، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4437.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 182.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (دلك).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 492، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 182.

(ظلمة)، وأيضًا لفظُ ﴿غَسَقِ﴾ شديدُ التَّناسبِ مع لفظ ﴿لِدُلُوكِ﴾، فهو في موضع المقابلةِ معه، ومن حيث المعنى: فكلا اللَّفظين يشتملان على معنى تدحرُجِ الشَّيء برفْقٍ وترَوٍّ شيئًا فشيئًا، فأصلُ الغسق يدلُّ على السَّيلان والتَّقطُّر، وأصلُ الدَّلك يدلُّ على موالاةِ التَّنقُّل والتَّحوُّل عنِ الموضع للَّذي يليه، فكلا اللَّفظين يُلمَحُ فيهما معنى الجريان والانزلاق، وهذا من بديع المناسبةِ بين الألفاظِ في موضعِ التَّقابل[1].

دلالةُ إضافةِ الغسق إلى اللَّيل، وتعريفِ اللَّيل:

اختصَّ الغسقُ باللَّيل المعهودِ

إضافةُ الغسق إلى اللَّيل للبيان والتَّعريف، والتَّعريفُ في لفظ: ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ للعهد، بحسَبِ كلِّ قُطْر، أو لحقيقة الجنسِ وماهيته.

وجهُ العطفِ بالواو:

دخـــولُ صـلاةِ الفجرِ يدلُّ على خــتــام غـسـقِ اللَّيل

جملة ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ معطوفةٌ على ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: أَقِم الصَّلاةَ، وأقِم قرآنَ الفجر، وعطفَ الجملةَ بتغيير السّياق، ولم يقل: (وصلاةَ الفجر)، للدَّلالة على الانقطاع، وعدمِ اتِّصال هذه الصَّلاة بما قبلَها، فصلاةُ الفجر مسبوقةٌ بالنَّوم واتِّصالِ اللَّيل، والصَّلواتُ قبلها موْصولةٌ بالنَّهار وحركةِ المعاش، فكأنَّه قيل: أقم الصَّلاة لدلوك الشَّمس إلى غسق اللَّيل، ثمَّ نَم، ثمَّ قُم، وأقم صلاةَ الفجر مُستأنفًا قراءةَ القرآن في الصَّلاة وعائدًا إليها، ولذا عطفها بغير لفظ الصَّلاة، للتَّنشيط إليها والتَّذكير بغايتها التي تقتضي الحرصَ وعدمَ الكسل، وهو قراءةُ القرآن؛ لأنَّه الغايةُ منَ الصَّلاة، كما قال في آية أخرى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: 14]، والقرآنُ هو ذِكْرُ الصَّلاة الأعظمُ، ولا تصحُّ الصَّلاةُ إلّا بهذا الذِّكر، فكان العطفُ به في: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ تذكيرًا واستنهاضًا بعد سكونٍ وانقطاعٍ ونوم،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 383، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غسق، دلك).

وهذا من باب تجديدِ الخطاب بما يستنْبِهُ السّامعَ له بعد فَتْرةٍ منه وفجوةٍ عنه، ويجوزُ أن يكون عطفُ ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ عطفَ جملةٍ، والكلامُ على الإغراء، والتَّقدير: (والْزم قرآنَ الفجر)، فيُعلمُ أنَّ قراءة القرآن في كلِّ صلاةٍ حَتْمٌ[1].

دلالةُ تعريفِ القرآن بالإضافةِ:

المقصودُ القرآنُ المتلوُّ في صلاة الفجرِ

تعريفُ القرآنِ بإضافته إلى وقت الفجر في قوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾؛ لتأكيد أنَّه القرآنُ المتلوُّ في الصّلاة وليس مطلقَ القراءة، فإنَّ تناولَ القرآن من غير صلاة لا يختصُّ بوقتٍ معيَّن، بل في كلِّ وقتٍ من ليلٍ أو نهارٍ، وكأَنَّ معنى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ على تقدير مضاف، أي: (وقرآنَ صلاةِ الفجر).

دلالةُ القرآن على صلاة الصُّبحِ:

القرآنُ فجرُ الهداية والنّور فأَوْلى الأوقاتِ به وقتُ الفجْر

عبَّر عن صلاة الصُّبح خاصَّةً بـ(القرآن)؛ لأنَّ القرآن كثيرٌ فيها؛ لأنَّه يُجهَر بالقرآن في جميع ركوعِها، ولأنَّ سنَّةَ القراءة في فريضة الفجر أنْ يُقرأ بسورٍ من طوال المفصَّل، فاستماعُ القرآن للمأمومين أكثرُ فيها، وقراءتُه للإمام والفذِّ أكثرُ أيضًا، فيكونُ من باب التَّعبير عنِ الشَّيء بما غلَب عليه[2]، ثمَّ إنَّ الفَرَج موصولٌ بالقرآن وصلاةِ الفَجْر، ومادَّةُ الفَرَجِ والفجْر واحدةٌ.

وجهُ تعريفِ ﴿ٱلۡفَجۡرِۖ﴾:

من داومَ على الفجْرِ؛ تجدَّدتْ له البداياتُ والفُرَصُ

التَّعريفُ في لفظ ﴿ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ في قوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ لأنَّ المرادَ وقتُ الفجر المخصوصُ بالصَّلاةِ المكتوبة.

بلاغةُ المجازِ المُرسلِ في ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ أطلقَ الجزءَ على الكلِّ، أي:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 383، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 398، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 492.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 98، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 183.

قراءة الفجر، والمرادُ بها الصَّلاةُ؛ لأنَّ القراءة جزءٌ منها، فتسمية الصَّلاة بالقرآن مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الجزئيَّةُ[1] فسُمّيت صلاةُ الفجر قرآنًا؛ لأنَّه ركْنٌ، كما سُمّيت ركوعًا وسُجودًا وقُنوتًا.

بلاغةُ التَّوكيدِ بإنَّ:

اجتماعُ القرآنِ وساعةِ الفجْرِ والصَّلاةِ هو موضعُ الشُّهداءِ

جملةُ ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ تذييلٌ تعليليٌّ لمضمون ما قبلَه مِنَ الأمر، أي: أقم قرآنَ صلاةِ الفجر؛ لأنَّ قرآنَ الفجر مشهودٌ مِنَ الملائكة محضورٌ بالبركةِ والفتْح، ولذا صدِّرت بحرف التَّأكيد؛ إغناءً عنِ الرَّبط بالعاطفِ بحرف الوصلِ، وللمبالغة في تقرير مضمونِ الجملة مِنَ الفضل الجزيل المذكورِ بالشُّهود، لئلّا يتردَّدَ أحدٌ مِنَ السّامعين في اعتقاد الأفضليَّةِ أوِ التَّهوين منها، أو مساواتِها بالصَّلوات الأخرى، ويصحُّ أنْ تكون الجملةُ استئنافًا بيانيًّا، فهي في معنى جوابٍ على سؤالٍ مقدَّر: كأنَّ سائلًا سأل: ما سببُ تخصيص قرآنِ صلاةِ الفجر بالأمر؟ فأجيب ببيان السَّبب: إنَّ قرآن الفجر كان مشهودًا[2].

بلاغةُ تَكرارِ ﴿قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾:

إذا تكرَّرَ الشَّيءُ تقرَّرَ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ إظهار في مَوْضع الإضمار؛ للتَّقرير في الذِّهن، لِما في الإظهار من مزيدِ البيان والإشعارِ بشرف صلاة الفجر، وتعظيمِها، ولم يقلْ: (إنَّه كان مشهودًا)، لمزيد الاهتمام والعنايةِ بالمُظهَر[3]، وللاحترازِ لئلّا يُفهَمَ أو يُتوهَّمَ أنَّ الضَّميرَ يعودُ على ﴿ٱلۡفَجۡرِ﴾؛ فإنَّه لو قال: (إنَّه)؛ لأَوهمَ عَوْدَ الضَّميرِ إلى ﴿ٱلۡفَجۡرِ﴾[4].

---

(1) صافي، الجدول: 15/ 99.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 183.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 189، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 568، وصافي، والجدول: 15/ 100.

(4) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/ 489.

علّةُ ذكرِ ﴿قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، ولم يَقُلْ (صلاة):

مَنِ استصفى بقرآن الفجْر؛ ذَمَّمَه اللهُ وصفَّى حياتَه

ذكرَ ﴿قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، ولم يقل: (صلاة الفجر)؛ لأنَّ القرآن في هذا الوقت حيث سكونُ الكونِ وصفاءُ النُّفوس، فتتلقَّى القرآنَ نديًّا طريًّا، وتستقبلُه استقبالًا واعيًا قبل أن تنشغلَ بأمور الحياة، وتزدحمَ عليها خواطرُ أشغالها والفِكر في شؤونها[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بفعل الكوْنِ الماضي:

مؤدَّى سوْق الوعودِ محقَّقةً بلوغُ عينِ اليقين

لم يقل في السّياق الكريم: (إنَّ قرآن الفجر مشهود)، بل أقحم الكَوْن الماضي بين الاسم والخبر، فقال: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾؛ لتحقيق النِّسبة بين المبتدأ والخبر، والمبالغةِ في الثُّبوت الإسناديِّ بينهما، ونكتةُ ذلك: أنْ يسوق اللّهُ الوعودَ مؤكَّدةً محقَّقةً لعباده؛ ليبلغوا فيها عينَ اليقين، كأنَّهم يشهدونها؛ لأنَّ قوله: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ بمنزلة الوعد بعد التَّكليف، وفيه - أيضًا - دلالةُ الاستمرارِ، فإنَّ فعلَ الكينونةِ يشملُ الأزمنةَ كلَّها ماضيًا منقطعًا، وماضيًا مستمرًّا، وحاضرًا ومستقبلًا[2].

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ ﴿مَشۡهُودٗا﴾:

صيغةُ المفعول (مشهودًا) تدلُّ على أنَّ من لم يشهدْه محرومٌ

في قوله: ﴿مَشۡهُودٗا﴾ كنايةٌ عنِ التَّعظيم وتقريرِ الأفضليَّة، وكنايةٌ عنِ الشَّواهد والدَّلائل التي يجبُ أن تُستصحَب، وتُستحضَر منَ المكلَّفين ساعةَ صلاة الفجر كشواهدِ القدرة من تبدُّل الظُّلمة بالضّياء، والنَّوم الذي هو أخو الموت بالانتباه، وكنايةٌ أيضًا عنِ الأمر بشهوده، فهو حقيقٌ بأن تشهدَه الجموعُ الغفيرةُ منَ النّاس، فكأنَّه إنشاءٌ بصيغةِ الخبر[3].

---

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8698.

(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 15/ 96.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 569، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4438.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء: 79]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

للنُّبوَّة خصائصُ في التَّكليف توازي خصائصَها في التَّشريفِ

لمّا أمر تعالى بالصَّلوات الخمسِ على سبيل الرَّمز والإشارة؛ أردفَه بالحثِّ على صلاة اللَّيل[1]، ولمّا ذكرَ في الآية السّابقة التَّكليفَ بالصَّلوات المكتوبةِ، وكان ذلك عامًّا للنَّبيِّ ﷺ وأمَّته؛ زاد هنا في الآية تكليفًا خاصًّا به ﷺ لا تُشاركه فيه أمَّتُه في الإلزام به، كما لم تُشاركْه في خصائص النُّبوَّة ومَقامِها[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَهَجَّدْ﴾: (هجد) أصلٌ يدلّ على رُكودٍ في مكان، والهُجود هو النَّوْمُ باللَّيْلِ، يُقالُ: هَجَدَ الرَّجُلُ يَهْجُدُ هُجودًا، فهو هاجِدٌ، أَيْ: نامَ لَيْلًا[3]، والتَّهَجُّدُ: الاسْتيقاظُ بَعْدَ النَّوْمِ، يُقالُ: تَهَجَّدَ وهَجَدَ، أي: اسْتَيْقَظَ بَعْدَ نَوْمِه، وهَجَّدْتُهُ؛ إذا أَيْقَظْتَهُ، والتَّهْجيدُ: التَّنْويمُ، ويُطْلَقُ التَّهَجُّدُ أَيْضًا بِمَعْنَى: السَّهَرِ وتَرْكِ النَّوْمِ، وسُمّيَتِ الصَّلاةُ لَيْلًا تَهَجُّدًا؛ لأَنَّه أَلْقَى الهُجودَ، أيِ: النَّوْمَ[4]، والمرادُ بالتَّهَجُّدِ في الآية: الصَّلاةُ في أَثْناءِ اللَّيْلِ.

2) ﴿نَافِلَةً﴾: (نفل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على عَطاءٍ وإِعْطاءٍ، مِنْهُ النّافِلَةُ: عَطيَّةُ الطَّوْعِ مِنْ حَيْثُ لا تَجِبُ، ومِنْهُ نافِلَةُ الصَّلاةِ، والنَّوْفَلُ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 386.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 99.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هجد).
(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (هجد).

الرَّجُلُ الكَثيرُ العَطاءِ[1]، والتَّنفُّل (تفعُّلٌ): الزّيادَةُ، أي: ما كان زيادَةً على الأَصل، سُمّيت بذلك؛ لأنَّها زائِدَةٌ على الفَرائِض، أو لأنَّها زيادَةٌ في الأَجْرِ لَهُم، يُقال: تَنَفَّلْتُ، أيْ: فَعَلْتُ فِعْلًا زيادَةً على الواجِبِ[2]، وحقيقةُ النّافِلَةِ في الآيَة: الزّيادَةُ مِنَ الأمرِ المَحْبوب.

3) ﴿مَقَامًا﴾: أصلُ (قوم) يدلُّ على انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ، يُقالُ: قامَ يَقومُ قَوْمًا وقيامًا، أي: وقَفَ وانْتَصَبَ، والقَوْمَةُ المَرَّةُ الواحِدَةُ؛ إذا انْتَصَبَ[3]، والإقامَةُ: الثَّباتُ والاِسْتِقْرارُ[4]، والمَقامُ: موضع القَدَمَيْنِ، والمُقامُ والمُقامةُ: الموضِعُ الَّذي تقيمُ فيه[5]، والمَقامُ المَحْمودُ: الشَّفاعَةُ العُظْمَى[6]، والمَقامَة، بالفَتْح: المَجْلِسُ والجَماعَةُ مِنَ النّاسِ، والمقصودُ بالمَقام في الآية: مَحَلُّ القيام، والمُرادُ بِهِ: المَكانُ المَعْدودُ لِأَمرٍ عَظيم؛ لِأَنَّهُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَقومَ النّاسُ فيهِ، ولا يَجْلِسوا، وإلّا فَهو المَجْلِسُ[7].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

قيامُ اللَّيل يُطهِّرُ القَلْبَ، وتَسْمو بِه النَّفْسُ إلى مراقي الفلاحِ

يقولُ الحقُّ سُبحانَهُ: ومِن بَعضِ اللَّيلِ قُم يا مُحَمَّدُ ﷺ مِن نَومِك، فصَلِّ بالقُرآنِ زيادَةً لك، مخصوصةً بك دون الأمَّة، وهي فريضةٌ عليك خاصَّةً، دونَ غيرك، وأمّا أُمَّتك؛ فهي لهم مندوبةٌ أو تطوُّعٌ لهم، وهذا أوَّل أمرٍ له ﷺ بقيام اللَّيل زيادةً على الصَّلوات المفروضة، افعَلْ هذا الَّذي أمَرْتُك به أيُّها النَّبيُّ ﷺ، فيَبعَثَك ربُّك يومَ القيامةِ شَفيعًا في أهلِ المَوقِف، فيَحمَدَك الأوَّلونَ والآخِرونَ[8].

---

(1) بن فارس، مقاييس اللّغة: (نفل).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نفل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(5) الخليل، العين: (قوم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حمد).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 185.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 43، 47، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 309، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 103.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواو:

أراد الله لعبادِه ألّا يَخلو وقتٌ لهم عن عبادتِه وذِكْرِه

جملةُ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ معطوفةٌ عطْفَ جُمَلٍ على جملة: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أو جملة: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾، بنصبِها على الإغراء، أي: الزم بعضَ اللَّيل، أو ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ متعلِّقٌ بفعل محذوف تقديره: واسهر مِنَ اللَّيل، أو قُم مِنَ اللَّيل[1].

معنى (مِنْ):

من أراد الحظَّ الوافرَ فليأخُذْ مِنَ اللَّيل حظَّه

(مِنْ) في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ إمّا تبعيضيَّةٌ، أي: بعضًا مِنَ اللَّيل؛ للإشارَة إلَى عدم استغراق اللَّيل للعبادة، فإنَّه ليس بممدوح[2]، وإمّا بمعنى (في)[3]، أي: اسهرْ في اللَّيل، أو قُم في اللَّيل، ويصحُّ حملُها هنا على الظَّرفيَّة، أي: بعضَ اللَّيل، أوِ الاسميَّة، بمعنى (بعض) كالتي في قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ [النساء: 46][4].

سِرُّ تَكرارِ لفظ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

انفكاكُ الجِهةِ وتبايُنُ السّياقِ مِن مُسوِّغاتِ التَّكرارِ

﴿ٱلَّيۡلِ﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾، في سياقِ فرضيَّةِ الصَّلواتِ الخمس، و﴿ٱلَّيۡلِ﴾ في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ في سياق تكليفِ النَّبي ﷺ خاصَّةً بقيام اللَّيل نفْلًا، فتَكرارُ لفظِ: ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ لانفكاك الجهة، وتغايُرِ المحلِّ.

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملة:

تهجُّدُ اللَّيل مرغوبٌ مطلوبٌ

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾؛ عنايةً به وحثًّا عليه، قال ابنُ عاشور: "وقدَّمَ المجرورَ المتعلِّقَ بـ ﴿فَتَهَجَّدۡ﴾ على متعلّقِه اهتمامًا به وتحريضًا عليه"[5].

(1) صافي، الجدول: 15/ 97.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 570.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 189.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 132، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 184.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 184.

معنَى الفاء:

الفاءُ في جملة: ﴿فَتَهَجَّدۡ﴾ فاءُ الجزاء، لاكتساب متعلَّقِه المتقدِّم مِنَ الجارِّ والمجرور ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ معنَى الشَّرطِ والجزاءِ، فوقع الفعلُ المتعلِّقُ به موقعَ الجزاء عليه، ولذا وُصِل بالفاء، وهذا مُستعملٌ في الظُّروف والمجروراتِ المُتقدِّمةِ على متعلِّقاتِها، وهو استعمالٌ فصيحٌ، ونظيرٌ له قولُه تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: 26][1].

كأنَّ التَّهجُّدَ عِلَّةٌ وجزاءٌ ينفعلُ بهما العبدُ لدخولِ اللَّيلِ

دلالةُ الأمرِ المُضعَّفِ ﴿فَتَهَجَّدۡ﴾:

صيغةُ (تفعَّل) في قوله: ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ تدلُّ على الإزالةِ والتَّرك، كالتَّحرُّجِ والتَّحنُّث والتَّأثُّم ونظائرِها، أي: أزِلْ وألْقِ الهُجودَ - أي: النَّومَ - عنك[2]، مع دلالة هذه الصّيغة أيضًا على التَّكلُّفِ والتَّدرُّج الذي يستصحبُ النُّهوضَ مِنَ النَّوم عادةً، والصَّيرورة بالانتقال من طورٍ إلى طور، مِنَ النَّوم إلى اليقظة[3].

من تكلَّفَ لأجلِ اللهِ تعالى؛ تكفَّلَ الله به

أسلوبُ الاستخدامِ في عوْدِ الضَّمير ﴿بِهِۦ﴾:

الضَّميرُ في قوله: ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ عائدٌ على القرآن المذكور في قوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ إلّا أنَّ المقصودَ بالضَّمير مطلقُ القرآن، وليس المرادُ القرآنَ بمعناه على التَّقييد السّابق في التَّركيب؛ لأنَّ المرادَ بالقرآن في: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾، أي: الصَّلاةُ المضافةُ لوقت الفجر، فهو على غير معناه المرادِ في الضَّمير العائدِ عليه، وهذا أسلوبٌ بديعٌ يُسمّى الاستخدامَ؛ لأنَّ مرجعَ الضَّمير صار كالتّابع والخادم في الدَّلالة على معنًى في الضَّمير يغايرُ المعنى المرادَ في مَرجِعِه[4].

خيرُ الأوقاتِ ما عُمِّرَ بالقرآنِ

معنى (الباء) في ﴿بِهِۦ﴾:

الباء في قوله: ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ للآلة، أي: فتهجَّدْ بالقرآن، فهو

بسببِ القرآنِ كانَ القيامُ للتَّهجُّد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 184.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 189.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/ 71، 4/ 73، وابن مالك، شرح التّسهيل: 3/ 452.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 493، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 184.

وسيلتُك في هذا التهجُّد، ويمكن أن تكونَ للسَّببيَّة[1]، أي: تهجَّد بسببه، ومعنى السَّببيَّة: جَعْلُ القرآنِ هو الأساسُ، والسَّببُ الذي يحصل به التَّهجُّد، وفي معنى السببيَّة: تعظيمٌ لشأن القرآن، كأنَّه لولا القرآنُ ما كان التَّهجُّدُ، فبسببِ القرآن كان قيامُك للتَّهجُّد.

إيثارُ لفظِ ﴿نَافِلَةً﴾ دون (تَهجُّدًا):

التَّهجُّدُ نفلٌ يزيدُ على الفرض، فيزيدُ فيها التَّكلُّف في إقامتها

لم يقل في السّياق الكريم: (فتهجَّد به تهجُّدًا لك)، فوضعَ ﴿نَافِلَةً﴾ موضعَ (تهجُّدًا)؛ لأنَّ التَّهجُّد عبادةٌ زائدةٌ، فكان التَّهجُّدُ والنّافلةُ يجمعُهما معنًى واحدٌ، ولا يخفى أنَّ إيرادَ التَّهجُّد بوصفه ﴿نَافِلَةً﴾ دون تأكيده بلفظِه (فتهجَّد تهجُّدًا) أبلغُ في زيادةِ المعنى، وهو أنَّ التَّهجُّدَ زيادةٌ لك على الصَّلوات المفروضةِ[2].

نكتةُ تنكيرِ ﴿نَافِلَةً﴾:

من زاد لله حسنةً؛ زادَه الله إحسانًا

تنكيرُ ﴿نَافِلَةً﴾ للتَّعظيم والتَّنويه بالشَّأن، أي: نافلةً زائدةَ القدرِ والمقدار في نفسها، وتزيدُك أجرًا، وترفعُك قدرًا.

معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾:

في الإلزاماتِ فضائلُ وإكراماتٌ

اللّام في قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ للتَّعليل والتَّخصيصِ، أي: زيادةً وفضيلةً مختصَّةً بك، ولذا فهي تجبُ عليك؛ لأنَّ في التَّخصيص أمارةَ إلزامٍ وإيجاب، مع دلالته على مقام الإحسانِ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿عَسَىٰٓ﴾:

خيرُ الوعودِ ما جاء بصيغةِ التَّشويقِ والتَّأميلِ

﴿عَسَىٰٓ﴾ فعلٌ ماضٍ جامدٌ ناقصٌ، وهو من أفعال المُقاربةِ في الرَّجاء التي تدلُّ على الإطماع منَ اللّه والرَّجاء منَ العبد في قُربِ حصول الشَّيء، ولذا لم يقل: لعلَّ اللّه أنْ يبعثك؛ للدَّلالة على معنى القُربِ لِما يؤمَّلُ من إنعام ربِّه، ويصحُّ في ﴿عَسَىٰٓ﴾ في هذه الآية أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 184.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 687.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 264.

تكون تامَّةً غيرَ ناقصة، وهو حسَن، ويكونَ المصدرُ المؤوَّل مفعولًا لها مقدَّمًا، و﴿رَبُّكَ﴾ فاعلَها مؤخَّرًا[1]، وجاءت هذه الجملة ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ على معنى التَّعليل والتَّهوين لمشقَّة قيام اللَّيل في التَّكليف السّابق به[2]، والتَّعليلُ لتَخصيصِه ﷺ بإيجابِ التَّهجُّدِ عليه، والرَّجاءُ من اللّهِ تعالى وعدٌ[3].

إيثارُ لفظِ (البعث) دون غيرِه:

النَّبيُّ ﷺ مبعوثُ الخير في الدُّنيا والآخرة

عبَّر بلفظ البعث في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ﴾ استحضارًا للنَّقْلَةِ الواسعةِ والتَّرقّي العظيم في الفضل، فكأنَّ بلوغَ المقام المحمودِ بعْثٌ جديد، فلا يُقارنُ بما قبله من أحوالٍ مهما كانت شريفةً، فلِبُعدِه في المنزلة كان بمنزلة الإحياء والابتعاث، فيكونُ التَّعبيرُ بالبعث تنويهًا بشرف المقام المحمودِ، كما يُطلَقُ على الإرساليّات الكبيرةِ ذاتِ الخصوصيَّة صفةَ البعث، فيقال: (بَعثات)، أو عبَّر بالبعث؛ لأنَّ المقامَ المحمودَ إنقاذٌ وبعْثٌ؛ لِما يكون فيه منَ الشَّفاعة التي تبعثُ وتنقِذُ، فيبلغُ به النَّبيُّ عليه السلام مقامَ المبعوث، فهو مبعوثٌ ليبعثَ غيره وينقِذه، أو عبَّر بذلك لكون المقام المحمود بعد موت النَّبيِّ عليه السلام، فهو مقارنٌ ليوم البعث في اليوم الآخر، فأشار به إلى هذه المقارنة، وهو مبالغةٌ أيضًا في تعظيم هذه الدَّرجة؛ لأنَّ النَّبيَّ يجتمعُ عليه بعثان: بعثٌ الذي هو منَ الموت، وبعثٌ للمقام المحمود الذي لا يبلغه أحدٌ سواه، وفي التَّعبير بالبعث - حينئذٍ - تعليلٌ وتهوينٌ لمشقَّة التَّكليف بالتَّهجُّد، وفيه إشارةٌ إلى مقابلةٍ بديعةٍ بين البعث الأصغرِ بالانتباه منَ النَّوم لصلاة اللَّيل، والبعثِ الأكبرِ بالإحياء منَ الموت يومَ القيامة لبلوغ المقام المحمود، ويكأنَّه يقول له: إنَّ معالجة المشقَّةِ بقيام اللَّيل ومفارقةِ النَّوم تهونُ في سبيل

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 6/ 129؛ 2/ 429.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 134.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 185.

ذلك البعثِ العظيم للمقام المحمودِ، وفي التَّعبير باللَّفظ إلماحٌ إلى أنَّ الجزاءَ من جنس العمل[1].

دلالةُ صياغةِ لفظِ البعث مضارعًا:

ما ثبت استحقاقُه ضُمِنَ وقوعُه

التَّعبيرُ بالمضارع في قوله: ﴿يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ﴾ للدَّلالة على ما سيكون، فهو للاستقبال، ويصحُّ أنْ يكون للحال باعتبار أنَّ ﴿عَسَىٰٓ﴾ من اللّه سبحانه مضمونةُ التَّحقُّق والوقوع، فالبعثُ للمقام المحمود حاصلٌ في الحال، ولا يُقال: إنَّه لن يتلبَّسَ به إلّا يومَ القيامة، فيتمحَّضَ المضارعُ للاستقبال؛ لأنَّ المرادَ استحقاقُ النَّبيِّ لهذا المقام، ولو من قبْلِ ملابسته له؛ لأنَّ جملةَ الإطماع بالجزاء: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ﴾ مُقارنةٌ لتهجُّده ﷺ ووفائِه بالتَّكليف، وهذا حاصلٌ في الحال، فهو مجزيٌّ بالمقام المحمود في الحال كذلك، أي: باستحقاقِه له، والجزاءُ بالاستحقاق كالجزاء بالملابسة والوقوع، لتحقُّقِ الضَّمان في كلٍّ، ولا يخفى وجهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان متحقِّقًا بالأمر بالتَّهجُّد في الحال والاستقبال؛ لأنَّه كان يقومُ اللَّيلَ من قبلِ نزول هذه الآية، بدليل قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ [المزمل: 2]، وهو سابقٌ في النُّزول.

إيثارُ لفظِ الرُّبوبيَّة:

النَّبيُّ ﷺ أوسعُ الخلْق حظًّا من إنعامِ ربِّه

إسنادُ البعث إلى لفظ الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ﴾ بديعُ المناسبة مع فعل الإطماع والتَّرجية ﴿عَسَىٰٓ﴾؛ إذْ في الإطماع فضلٌ وإحسان، فيناسبُه التَّعبيرُ بالرَّبِّ، وفيه توسعةُ الإحسان على النَّبيِّ ﷺ، وفي توسعة الإحسان إشارةٌ إلى تحقُّق المقام المحمودِ له، كأنَّه قيل: ﴿رَبُّكَ﴾، أي: (المحسِنُ إليك بعد الموت الأكبر وقبلَه، كما بَعثَ نفسَك مِنَ الموت الأصغر إلى خدمتِه بالعبادة والصَّلاة)[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 190.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 494.

سرُّ إضافةِ لفظ (الرّب) إلى ضميرِ الخطاب:

مقامُ النُّبوَّة يطَّرِدُ بالفتوحات العظيمةِ التي لا تنفدُ

في إضافة لفظ الرَّبِّ إلى كاف الخطاب في قوله: ﴿يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ﴾ جريٌّ على نسقِ الخطاب بالأمر في الآية، فكذلك لا بدَّ أن يُسندَ الجزاءُ عليه لكاف الخطاب، مع ما في إسناد الرُّبوبيَّة لكاف الخطاب في سياق التَّرجية بالجزاء منَ التَّطمين والإيناس وزيادةِ التَّكريم.

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾:

النَّبيُّ ﷺ لا ينفكُّ عن مقام الحمدِ أبدًا

التَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ "يدلُّ على أنَّه يحصلُ للنَّبيِّ ﷺ في ذلك المقامِ حمدٌ بالغٌ، عظيمٌ كاملٌ"[1]، ومعنى التَّعظيم، أي: مقامًا عظيمًا يفوقُ كلَّ مقام، أو لإرادة العموم، فلا يختصُّ بمقام معيَّن؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ ذو المقامِ المحمود في كلِّ أمرٍ وشأن، فيتناولُ كلَّ مقامٍ محمودٍ صدقَ عليه إطلاقُ اللَّفظ[2].

دلالةُ لفظِ ﴿مَقَامٗا﴾ على هذه الصّيغة:

لا يُنزِلُ الله نبيَّه في مقامٍ إلّا ويحمدُه به ويحمدُه فيه

كلمة ﴿مَقَامٗا﴾ من قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ مصدرٌ ميميٌّ أو مكانُ القيام، فيحتمل المصدرَ واسمَ المكان، والمصدرُ الميميُّ يدلُّ على الحدثِ، وعلى التباسه بذاتِ القائم، وهو النَّبيُّ ﷺ، والمقيمُ له وهو اللّه سبحانه، ويدلُّ على منتهى الجزاءِ وتمامِه، مثل: المتابِ والتَّوبة، فالمتابُ توبةٌ تامَّة، فالمصدر الميميُّ دالٌّ على الذّاتِ غالبًا، وعلى منتهى الحدَث[3]، والمعنى على الاحتمالين؛ أي: يقيمك مقامًا، أو يبعثُك في مقام أو ذا مقام، وهو مقامُه ﷺ في الشَّفاعة العظمى العامَّةِ أو شفاعتِه لمُذنبي أمَّتِه لإخراجهم منَ النّار، أو كلُّ مقام يُحمَد[4].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 387.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 101.
(3) فاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 32.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 101، وصافي، الجدول: 15/ 99، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).

إيثارُ لفظِ المقام دون المقعد:

المقامُ موضعُ القيامِ والمقعدُ مكانُ القعود

لم يقل في السّياق الكريمِ: (مقعدًا محمودًا) لِبُعدِ ما بين اللَّفظَين في المعنى، فالمقامُ موضعُ القيام، وهو أدلُّ على التَّكريم؛ لأنَّه انتصابٌ في موضع الشِّدَّةِ والهولِ يومَ القيامة للشَّفاعة، والشَّفاعةُ دفْعٌ لهذه الشِّدَّة وإزالةٌ لها، والانتصابُ لإزالة الهَوْلِ، والقيامُ له لا يكون إلّا من متصدِّرٍ ذي كرامةٍ وجاه، فالتَّعبيرُ بالمقام لاقتضاء المناسبة مع الموقفِ الشَّديد؛ لأنَّ ذلك ممّا يُقام لأجله، ولدلالتِه على التَّكريم العظيم، وأمّا المقعدُ؛ فهو موضعُ القعود، وهذا غيرُ مناسبٍ وغيرُ مُراد[1].

بلاغةُ الوصْفِ بالمحمودِ:

تُحمَدُ المقاماتُ بـورودِ النَّبـيِّ عليها

قوله: ﴿مَّحۡمُودٗا﴾ إمّا وصفٌ للرَّسول ﷺ، فهو حالٌ من كاف ﴿يَبۡعَثَكَ﴾ أي: يبعثك مقامًا حالَ كونِك محمودًا، وإمّا وصفٌ للمقام؛ لأنَّه مقامُ تخليصٍ من شدَّةٍ، فلا يختلفُ على حمدِه أحدٌ[2]، وإسنادُ الحمد للمقام مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ المحمودَ هو القائمُ في المقام على الحقيقة، أي: يُحمَدُ هو، ويُحمَدُ أثرُه فيه، ولذلك فُسِّر المقامُ المحمود بالشَّفاعة العظمى الَّتي تكون سببًا في زوال الشِّدَّةِ والعذابِ[3].

دلالةُ مجيءِ الفاصلةِ على صيغة اسمِ المفعول:

خيرُ الأوصافِ الحمدُ

قوله: ﴿مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ جاء الوصْفُ فيه على صيغة اسمِ المفعول؛ للدَّلالةِ على ثبوت الصِّفة واستمرارِها وكثرةِ أفرادها، أي: محمودًا حمدًا كثيرًا دائمًا لا ينقطعُ، ولم يعبِّر بالفعليَّة؛ لأنَّ الوصفَ بالاسميَّة أمكنُ وأتمُّ، وفي الوصف بصيغة المفعولِ إشارةٌ إلى ثبوت الاستحقاقِ بالوصفِ، وإنْ لم يحمدْه السّامعون، مع تحضيض الغافلين عن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 388.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 387.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 185.

حمدِه إلى حمدِه، أي: هو المقامُ الجديرُ بالحمد، فأوْلَى بكلِّ أحدٍ أن يحمَده، وألّا يغفلَ عن قدْرِه.

بلاغةُ تناسُبِ خواتيم الآي: ﴿قَلِيلًا﴾ - ﴿تَحْوِيلًا﴾، ﴿مَشْهُودًا﴾ - ﴿مَّحْمُودًا﴾:

تناسُبُ الفواصِلِ في ألفاظها بحسبِ مقامِها الموحَّدِ الذي تَنتمي إليه

من بلاغة الفواصلِ في هذا المقطع: مجيئُها على نمطَيْن أو مجموعتَيْن، المجموعةُ الأولى: قولُه: ﴿قَلِيلًا﴾ مع قوله: ﴿تَحْوِيلًا﴾، والفاصلتان واردتان في معنى واحد، وهما مِنَ الفواصل المتطرّفة، التي اتَّفقتْ في الحرف دون الوزن، فطَرَفُ الفاصلتين واحدٌ في المقطع (يْلا)، والمجموعة الثانية: قوله: ﴿مَشْهُودًا﴾ مع قوله: ﴿مَّحْمُودًا﴾ والفاصلتان واردتان في سياقٍ متَّفِقٍ معنًى، ومتَّفق لفظًا ورسْمًا، فهما من نوع الفواصل المتوازيَةِ التي هي أكملُ الفواصل، لاتِّفاقها في الوزن والحرف.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾ [الإسراء: 80]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رأسُ العباداتِ البدنيَّةِ الصَّلاةُ، ورأسُ العباداتِ القوليَّةِ الذِّكْرُ والدُّعاءُ

بعد أن ذكر في الآية السابقة تكليفَه لنبيِّه ﷺ بأرفع العبادات العمليَّةِ: الصَّلاةِ؛ أخبر في هذه الآية عن تكليفه له ﷺ بأعلى العبادات القوليَّةِ: الدُّعاءِ الجامعِ الوافي، وقد نقل القاسميُّ عنِ المهايمي توجيهَ ارتباط الآية بما قبلها في معناها بقوله: "﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي﴾، أي: في هذه العبادات، فإنَّها لا توصلُك إلى المقام المحمود؛ إلّا إذا صدق دخولُك فيها وخروجُك عنها، ولا يتمُّ إلّا بإمداد اللّه بعد استمدادِك منه"[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾: أَصلُ الدُّخولِ: الوُلوجُ، يُقال: ولَجَ البَيْتَ، وولَجَ فيه، أي: دَخَلَه، وضِدُّهُ: الخُروجُ، ويَأْتي الدُّخولُ بِمَعْنَى الابْتِداءِ، تَقولُ: دَخَلَ في الأَمرِ؛ إذا بَدَأَ، وأَخَذَ فيه، وداخِلُ كُلِّ شَيْءٍ: باطِنُهُ، ومِنْهُ داخِلَةُ الرَّجُلِ، أَيْ: بِطانَتُهُ، والمَدْخَل، بالفَتْحِ: الدُّخول ومَوْضِعُ الدُّخول أَيضًا، تَقولُ: دَخَلْتُ مَدْخَلًا حَسَنًا، ودَخَلْتُ مَدْخَلَ صِدْقٍ[2]، والمُدْخَل، بِضَمِّ الميمِ: الإِدْخالُ والمَفْعولُ مِنْ أَدْخَلَه، تَقولُ: أَدْخَلْته مُدْخَلَ صِدْقٍ[3].

والصِّدقُ هُنا: الكَمالُ وما يُحْمَدُ في نَوْعِه؛ لِأَنَّ ما لَيْسَ بِمَحْمودٍ، فهو كالكاذِبِ؛ لِأَنَّهُ يُخْلِفُ ظَنَّ المُتَلَبِّسِ بِهِ[4].

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 495.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (دخل)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 164.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (دخل).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 186.

2) ﴿مُخۡرَجَ صِدۡقٍ﴾: أصلُ الخروج النَّفاذُ عن الشَّيْءِ، يُقالُ: خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا، والخُروجُ: البُروزُ والظُّهورُ، ومنه سُمّي الخوارِجُ بذلك؛ لِخُروجِهِم على النّاس[1].

والخَراجُ والخَرْجُ: الإتاوةُ؛ لأَنَّهُ مالٌ يُخْرِجُهُ المُعْطي[2]، والمَخْرَجُ: مَوْضِعُه، أَي: الخُروج، يُقال: خَرَجَ مَخْرَجًا حَسَنًا، وهذا مَخْرَجُه، المُخْرَجُ (بالضَّمِّ)، قد يكون مَصْدَر قولِكَ: أَخْرَجَهُ، أَي: المصدر الميميُّ، وقد يكون اسْمَ المَفْعولِ بِهِ على الأَصل واسْم المَكانِ - أَي: يَدُلُّ عَلَيْهِ - والزَّمان أَيضًا دالًّا على الوقْتِ[3]، والصِّدقُ هُنا الكَمالُ وما يُحْمَدُ في نَوْعِه.

3) ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾: أصلُ (سلط) يدلّ على القوَّةِ والقَهْرِ[4]، والسُّلْطانُ: الحاكِمُ والوالي، وأَصْلُ الكَلِمَةِ مِنَ السَّلاطَةِ، يُقالُ: سَلَّطَهُ عليْهِ، أَيْ: مَكَّنَهُ مِنْهُ، وحَكَّمَهُ فيه، ويأْتي بمعنى الخَليفَةِ والإِمام والقاضي[5]، والسُّلْطانُ أيضًا: الوِلايَةُ والحُجَّةُ والبُرْهانُ[6]، والسُّلْطان كذلك: قُدرةُ المُلْكِ، وقُدرةُ من جُعِلَ ذلك له، وإنْ لم يكن مَلِكًا[7]، سُمّيَ سُلطانًا؛ لأَنَّهُ يُكسِبُ المُستدِلَّ به سُلطةً على مُخالفهِ ومُجادِله[8]، والمقصودُ بالسُّلطان في الآية: كَلِمَةٌ جامِعَةٌ عَلَى طَريقَةِ اسْتِعْمالِ المُشْتَرَكِ في مَعانيه، أَوْ هو مِنْ عُموم المُشْتَرَكِ، تَشْمَلُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ اللّه تَأْييدًا وحُجَّةً وغَلَبَةً ومُلْكًا عَظيمًا، وقَدْ آتاهُ اللّه ذَلِكَ كُلَّهُ[9].

4) ﴿نَّصِيرٗا﴾: أصلُ (نصر) يَدُلُّ على إِتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِه، النَّصرُ: عَوْنُ المظلوم، والنُّصْرة: حُسْنُ المَعونة[10]، والنَّصير فَعيلٌ بِمَعْنَى فاعِل أَو مَفْعولٍ؛ لأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ المتَناصِرَيْن ناصِرٌ ومَنْصورٌ، والاسْتِنْصار: اسْتِمدادُ النَّصْر، والتَّناصُر: التَّعاونُ على النَّصْر[11]، وأَمّا الإِتيانُ؛ فالعَرَبُ تَقولُ: نَصَرْتُ بَلَدَ كَذا؛ إِذا أَتَيْتَهُ؛ ولِذَلِكَ يُسَمَّى المَطَرُ

---

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خرج).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (خرج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، والفيوميّ، المصباح المنير: (سلط).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلط).
(7) الخليل، العين: (سلط).
(8) الخليل، العين: (سلط)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 232.
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 187.
(10) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(11) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).

نَصْرًا، والنَّصْرُ: العَطاءُ[1]، والمرادُ بالنَّصيرِ في الآية: مُبالَغَةٌ في النّاصِرِ، أَيْ: سُلْطانًا ينصرني[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

أعلى حالةٍ يُنزِلُها اللهُ تعالى العَبْدَ أن تكون أحوالُه كلُّها خيرًا ومقرِّبَةً له إلى ربِّه

لمّا وعد اللّه رسولَه المقامَ المحمود؛ أَمر نبيَّه الكريمَ أَن يتَّجه إليه بدعائه لينجزَ له وعدَه، فقال: قل مناديًا ربَّكَ يا محمَّدُ ﷺ: ربِّ أدخلني فيما أَمرتَ به مِنَ الطّاعات إِدخالًا مرضيًّا، وأَخرجني عمّا نهيت عنه إخراجًا نظيفًا مِنَ المعاصي، واجعَلْ لي - يا رَبِّ - مِن عِندِك حُجَّةً بَيِّنةً، ومُلكًا وسُلطةً وغلبةً تُظهِرُ بها ديني، وتَنصُرُني بها على مَن عاداني، حتَّى أَكون أهلًا لما وعدتَني مِنَ المقام المحمود، وقيلَ: علَّمه - جلَّ شأنه - أَن يدعوه بأَن يُخرجه من دار المشركين دارِ الإيذاء والغَدْر، وأَن يُدخله مَوطنًا للطُّمأنينة والأمن، فدعا ربَّه - كما أَمره - فأَخرجَه من مكَّة، وأَدخله المدينةَ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

إتْباعُ التَّكاليفِ الخاصَّةِ بالوسيلةِ والمناجاةِ العامَّةِ

الواو في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ عاطفةٌ؛ عطفَ بها التَّكليفَ بالدُّعاء، وهو عملُ اللِّسان والقلب، على التَّكليف بالعبادة، وهو عملُ البدن والجوارح، وتأخيرُ العطف به بديعٌ؛ لأنَّ فيه تحضيضًا على ختْم العبادات بالدُّعاء، فيكونُ موصولًا باللّه بأداء العبادة، وموصولًا باللّه بعد فراغه واستراحته منها بلهَج الدُّعاء والذِّكْر، فهو موصول الحضور، ولأجل هذا الوصل المعنويِّ وُصِلَتِ الجملةُ بحرف الوصل مع ما قبلَها[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 187.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 58، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 111، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 793.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 186.

إشارةُ الأمرِ بالتَّكليف إلى وُثوقيَّةِ مصدَرِه

دلالةُ الأمرِ ﴿وَقُل﴾:

الأمرُ بالفعل ﴿وَقُل﴾ يدلُّ على تعليم التَّكليفِ بما في حيِّزه، وأنَّ النَّبيَّ تلقّاه، وأدّاه كما تلقّاه، وهو دليلٌ على وُثوقيَّة القرآن في ثبوتِه الإلهيِّ، فلو كان من عنديّاتِ الرَّسول ﷺ وحاشاه؛ لما تصدَّر بفعل ﴿وَقُل﴾ الدّالِّ على الجهة العليا التي تأمرُه، والدّالِّ على عدم تصرُّفه فيما يؤمَر، فيؤدّيه كما تلقّاه بلفظه ومعناه، وفي تصدير الآية بالفعل ﴿وَقُل﴾ توسيعٌ لمجال الخطاب بهذا التَّكليف الدُّعائيِّ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ يقرأ هذه الآية سيتلوها بلفظ: ﴿وَقُل﴾، وكأنَّه يخاطبُ بها كلَّ من يَسْمَعه، أو من يريد أن يُسْمِعَه، فيتَّسعُ حيّزُ الخطابِ المباشر بها لكلِّ مؤمنٍ على جهة التَّعيين والتَّحديد.

عطاءُ الله أوسعُ من رجاء العبدِ ودعائِه

توجيهُ النِّداء المُضمر في المطلَع:

قوله: ﴿رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي﴾ جملةٌ ندائيةٌ من حرف النِّداء المحذوف والمنادى المذكورِ وجوابِه، والتَّقدير: (يا ربِّ أدخلني)، وجملةُ النِّداء في محلِّ نصب مقولِ القول[1]، وهذه الجملة يكتنفُها إيجازٌ بديعٌ بحذف أداة النِّداء تسريعًا في إدخال الدّاعي على ربِّه ﷻ، فيكونُ لفظُ الرَّبِّ أوَّلَ مَنطوقٍ في الدُّعاء، وإيجازُ التَّخفيف بحذف ياء الإضافةِ مِنَ المنادَى، وأصلُ الكلام: (يا ربّي) وفي حذف الياء - فضلًا عنِ التَّخفيف - إسراعٌ في ذِكْر الحاجة وعرضِها بين يدي ربِّ العالمين، بعد افتتاح الدُّعاء بالتَّوجُّه باسمه، وكأنَّ الدّاعيَ حين يدعو لا يُفصَلُ عن مناجاة ربِّه بفاصل، ولا تُفْصَلُ حاجتُه عنِ اللّه بفاصِل، ففي هذا الحذف زيادةُ تقريبٍ للعبد من ربِّه، وهو يدعو فضلًا عن قُرب الدُّعاء نفسِه، فهو قُربٌ على قُرب، وفي حذف ياء الإضافة كذلك إشارةٌ بديعةٌ، وهو أنَّ الدّاعيَ حين يحذف ياءَ المتكلِّم من (ربّي) الدّالةَ على خصوص الرُّبوبيَّة بالنسبة له، فيقول:

---

(1) صافي، الجدول: 15/ 98.

﴿رَّبِّ﴾، كأنَّه يسألُ اللّٰه بعموم ربوبيَّته، لا بخصوصِها، فكأنَّه ينسى ذاتَه، ويستحضرُ اسمَ (الربِّ) مجرَّدًا عن ضميره، هكذا بعمومِه الواسعِ المطلقِ من غير إضافةٍ ولا تقييد، ليكونَ العطاءُ أوسعَ من رجائه وسؤاله.

إيثارُ لفظِ الرُّبوبيَّة:

التَّصديرُ باسمِ الرُّبوبيَّة إيذانٌ بالاستجابةِ والقَبول

حُقَّ للدَّعواتِ أن تتصدَّر بلفظ الرُّبوبيَّة؛ لأنَّها استغاثةٌ يُستَنْزَلُ بها عطاءُ المَلِك الكريم، فلا بدَّ أن يُقدِّم الدّاعي بوصفٍ يناسبُ الإحسانَ الذي يرجوه، فكأنَّه يعلِّلُ رجاءه بنداء اسم الرُّبوبيَّةِ الجليلِ، أي: لكونك أنت الرَّبَّ الواسعَ توجَّهتُ بمسألتي إليك، ففي التَّصدير باسم الرُّبوبيَّة إيذانٌ بالاستجابة والقبولِ.

دلالةُ الأمرِ ﴿أَدۡخِلۡنِي﴾:

الأمرُ إلزامٌ وتكليفٌ، والدُّعاءُ إخفاضٌ وتضرُّعٌ

صيغةُ الأمر في قوله: ﴿أَدۡخِلۡنِي﴾ مجازٌ مرسلٌ، علاقتُه الإطلاقُ والتَّقييدُ، فخرج الأمرُ عن معناه الحقيقيِّ، وأُريد به الدُّعاءُ والاسترحامُ، وبين المعنيَين الحقيقيِّ والمجازيِّ لِلفظِ الأمر مُقابلةٌ واسعةٌ؛ لأنَّ الأمرَ إلزامٌ وتكليفٌ واستعلاء، والدُّعاءَ إخفاضٌ واستكانةٌ وتضرُّعٌ.

وجهُ اتّصال الفعل بضميرِ المتكلّم:

إدخالُ العبدِ نفسَه في المناجاةِ مع الله إشهادٌ عليه بالإيمان

اتّصالُ الفعلِ بضمير المتكلِّم في قوله: ﴿أَدۡخِلۡنِي﴾ من ضرورات المعنَى في النَّظم، إسنادًا للحاجةِ إلى مُبتغيها؛ لأنَّه بدون الضَّمير لا يتحدَّدُ هلِ السُّؤالُ لنفسه أم لغيره؟ وهذه جهالةٌ تُخِلُّ بالمعنى المقصودِ منَ النَّظم.

بلاغةُ التَّعبير بالمفعول المطلقِ ﴿مُدۡخَلَ﴾:

على اعتبار المصدريَّةِ في لفظ: ﴿مُدۡخَلَ﴾ من قوله: ﴿أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ﴾، فيدلُّ المفعولُ المطلقُ على تأكيد مصدرِ العامل، وهو الحدثُ

خيرُ الدُّعاءِ ما اشتملَ على المقاصدِ الجوامعِ

الذي أخرجه العاملُ أوِ الفعلُ لحيِّز الوجود[1]، وفائدةُ التَّنصيصِ على المصدر ﴿مُدۡخَلَ﴾ بعد ذكر العاملِ ﴿أَدۡخِلۡنِي﴾ المبالغةُ في تعيين المطلوب وتحقيقِ الدُّعاء، كأنَّ الدّاعيَ يريد أن يدخلَ في الحدث نفسِه، وهو مُدخَلُ الصِّدق، فيعيشُ فيه، ويُحاطُ به، ويدومُ في كَنَفِه، فما أبدعَ التَّعبيرَ بالمصدر في تصويره الحدثَ نفسَه، وقد صار حِرزًا يدخلُ فيه الدّاعي، فلا يخرجُ عن وِعاء الصِّدق أبدًا، وعلى ذِكْر أنَّ المبالغةَ المقصودة تصيُّرُ الحدثَ المدلولَ عليه بالمصدر مكانًا أو موضعًا يغيبُ في أمانه الفاعلُ، فيصحُّ - هنا - أن يكونَ ﴿مُدۡخَلَ﴾ اسمَ مكان لا مفعولًا مطلقًا، فيُنْصَبُ على الظرفيَّة، أي: أدخلني مكانَ الصِّدق، فلا أفارقُه في الدُّنيا والآخرة.

يقتضي المقامُ المحمودُ مباركةَ الحالِ

واختيرَ الاسمُ المُشتقُّ ﴿مُدۡخَلَ﴾، و﴿مُخۡرَجَ﴾ "من الفعلِ المُتعدّي؛ للإشارةِ إلى أنَّ المطلوبَ دُخولٌ وخُروجٌ مُيسَّرانِ منَ اللّهِ تعالى وواقعانِ بإذْنِه، وذلك دُعاءٌ بكلِّ دُخولٍ وخُروجٍ مباركَينِ؛ لتتمَّ المُناسبةُ بين المسؤولِ وبين الموعودِ به، وهو المقامُ المحمودُ"[2].

فائدةُ إضافةِ المُدخل والمُخرج إلى الصِّدق:

تزدانُ المواقعُ بانتسابِها إلى الصِّدقِ

إضافةُ المُدخَل والمُخرَجِ إلى الصِّدق في قوله: ﴿مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ و﴿مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ للبيان والتَّعيين، فالإضافةُ تقيِّد الإطلاقَ في لفظَيْ: مُدخَل ومُخرَج، والصِّدقُ هنا: مكانُ الصِّدق - على اعتبار أنَّ مفعَل اسمُ مكان - وما يُحمَد في نوعه؛ لأنَّ ما ليس بمحمودٍ فهو كالكاذب؛ لأنَّه يُخلِف ظنَّ المتلبِّس به[3]، أوِ الصِّدقُ صفةٌ للحدَث، على أنَّ (مُفعل) مصدرٌ ميميٌّ، أي: إدخالًا وإخراجًا صِدقًا، أي: مرضيًّا في الأحوال والأعمال والواقعِ والمواقعِ، وهو من إضافة الموصوف

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 150.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 186.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 186.

إلى الصِّفة، والغرضُ: المبالغةُ كحاتمِ الجودِ[1]، والمدحُ كأنَّه سأل اللّه تعالى إدخالًا حسنًا وإخراجًا حسنًا، لا يرى فيهما ما يكرهُه[2]، و"الصِّدقُ إنَّما هو من أوصافِ ذوي العلم، فإذا وُصف غيرُه؛ كان دالًّا على أنَّ ذلك الشَّيءَ مرضيٌّ في بابه، فمعنى الإضافة في ﴿مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾، و﴿مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ نحوُ الإضافة في (رجُلُ صدۡقٍ)، و(رجلُ سوء)"[3]، وصفةُ الرِّضا في "مُدخل الصِّدق ومخرج الصِّدق: أن يكون دخولُه وخروجُه حقًّا ثابتًا باللّه ولله وفي مرضاته، متَّصلًا بالظَّفر بالبُغية، وحصولِ المطلوب، ضد مُخۡرَجِ الكذب ومُدۡخَلِه، الذي لا غايةَ له يوصلُ إليها، ولا له ساقٌ ثابتةٌ يقوم عليها"[4].

سرُّ تقديمِ الإدخالِ على الإخراجِ:

من أخلصَ للهِ سعيَه استراح

قدَّم الإدخالَ على الإخراج من قوله: ﴿أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾؛ لأنَّ الخروجَ هو الغايةُ النّاتجة عنِ الدُّخول، والدُّخول سابقٌ، وإنَّما ذكر الإخراجَ مع أنَّه ثابتٌ بالمفهوم من قوله: ﴿أَدۡخِلۡنِي﴾، ليدلَّ على أنَّ دخوله كان للّه، وخروجَه كان للّه، وليدلَّ على رجاء اصطحاب الصِّدقِ في جميع الأقوالِ والأفعالِ والواقعِ والمواقِع، وهذا هو مغزى المقابلةِ البديعةِ بين لفظ: ﴿مُدۡخَلَ﴾ و﴿مُخۡرَجَ﴾ في الدَّلالة على تمام الأحوالِ بالصِّدق، ولن يكون ذلك إلّا بتحقُّقِه في جميع المواقع والمواقفِ[5].

توجيهُ العطفِ بالواو:

خيرُ الدُّعاءِ ما اشتملَ على مبادئ الأمورِ وعواقبِها

جملة ﴿وَٱجۡعَل لِّي﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿أَدۡخِلۡنِي﴾؛ فهي داخلةٌ في حيِّز جوابِ النِّداء المقدَّرِ في قوله: ﴿رَّبِّ﴾ استتمامًا للدُّعاء وإكمالًا للغرض[6].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 572، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4439.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 389.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 360.
(4) ابن القيّم، التّفسير القيّم: 360 - 361.
(5) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 14/ 8705.
(6) صافي، الجدول: 15/ 98.

السُّلطانُ النّاصِرُ لا يحصلُ إلّا منه سبحانَه

بلاغةُ تقديم شِبْهَيِ الجملة ﴿لِّي﴾، و﴿مِن لَّدُنك﴾:

تقديمُ الجارِّ والمجرور على المتعلَّق في: ﴿لِّي﴾ للاختصاص، أي: لي خاصَّةً، وفي ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ للاختصاص والحصرِ؛ لأنَّه لا يبتغي سلطانًا إلّا من جهته وحدَه سبحانه، ولأنَّ السُّلطان النّاصرَ لا يحصلُ إلّا منه سبحانه.

القُربُ مِنَ الله والاستغناءُ به خيرُ ما يرجوه العبدُ في هذه الفانيةِ

سرُّ إيثارِ لفظِ ﴿لَّدُنكَ﴾ دون (منك)، أو (عندك):

لم يقل في السّياق الكريم: (واجعل لي منك أو عندك سلطانًا)؛ لأنَّ ﴿لَّدُنكَ﴾ تكاد تكونُ في القرآن خاصَّةً بالعنديَّة لدى الذّاتِ العليَّةِ[1].

سؤالُ التَّوفيقِ الفرديِّ ثمَّ التَّوفيقِ الجماعيِّ بمعونةِ السُّلطانِ والتَّمكينِ

إيثارُ لفظِ ﴿سُلۡطَٰنًا﴾ منكَّرًا:

عبَّرَ بلفظ ﴿سُلۡطَٰنًا﴾ في ختْم دعائه، ليدلَّ على شُمولِ الحماية التي يبتغيها بعد توفيقه للصِّدق في جميع الأحوالِ، أي: اعصمني، وامنعني بسُلطانٍ يضمن استمرارَ الصِّدق والوفاءِ بالحقِّ، فكلمة ﴿سُلۡطَٰنًا﴾ اسمُ مصدرٍ مِنَ السُّلطة، وهي كلمة جامعةٌ في الدَّلالة على التَّسلُّطِ المعنويِّ بالحجَّة والبرهان، والتَّسلُّطِ المادّيِّ بالتَّمكين والغَلبَة، ولذا وصفه بـ﴿نَّصِيرًا﴾؛ ليدلَّ على أنَّه سلطانٌ من أوصافه النَّصرُ، ولذا جاء على صيغة (فعيل)؛ ليدلَّ على أنَّه السُّلطانُ الكاملُ الذي يحقِّق النَّصرَ التّامَّ المستمرَّ، فكلمةُ (السُّلطان) مستعملةٌ على طريقة استعمالِ المشترك في معانيه، أو هو من عموم المشترك، في الدَّلالة على المعاني الجامعةِ في الحُجَّة والملك والغلبةِ والتَّمكين[2]، وتنكيرُها للتَّعظيم والكمال والعمومِ، أي: سلطانًا عظيما تامًّا عامًّا.

الصّالحون يَبتغون الدُّنيا لأجلِ مَرضاةِ الله

سرُّ وصفِ السُّلطانِ بالنَّصير:

وصفُ السُّلطان بالنَّصير في قوله: ﴿سُلۡطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ بيانٌ لغرضِ سؤالِه السُّلطانَ، وهو أنَّه لم يبتغِ به عُلوًّا في الأرض ولا

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4440.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 187.

فسادًا، وإنَّما سألهُ لِنَصْرِه فيما يستلزمُ النُّصْرةَ، وهو إظهارُ الحقِّ وإنصافُ الدِّين[1].

دلالةُ تنكيرِ ﴿نَّصِيرًا﴾:

تحقيقُ الصِّدقِ والنَّصرِ هما سُلطانُ العبدِ في حياته الدُّنيا

التَّنكيرُ في الوصف ﴿نَّصِيرًا﴾ للتَّعميم، أي: يستوعبُ كلَّ ألوان النَّصر وأنواعِه، وفيه إشعارٌ بالهجرة بتعدُّد وجوهِ فضائلها، وعلى الوجه الذي كشف عنه الزَّمانُ منَ العظمة التي ما لأحدٍ بها من يدٍ[2].

علَّةُ صَوْغِ ﴿نَّصِيرًا﴾ على (فعيل):

لا خيرَ في سُلطانٍ لا يُحرِّكُ ولا يغيِّرُ

صيغَ ﴿نَّصِيرًا﴾ على زِنَةِ (فعيل) للمبالغة[3] في معنى الفاعل، أي: سلطانًا ناصرًا لا يتخلَّف نصرُه عنه، وللمبالغة في معنى المفعول، أي: سلطانًا لا تزولُ عنه صِفةُ النَّصر في ذاته؛ لأنَّه قد يكون سلطانًا مسلوبَ النَّفاذ والفاعليَّة لزوالِ خصوصيَّةِ النَّصر عنه، فسألَ سُلطانًا منصورًا في نفسِه وناصرًا لغيره على الدَّوام والاستمرارِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 187.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 496.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 187.

﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ [الإسراء: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مجيءُ الحقِّ وزَهوقُ الباطلِ مِنَ السُّلطانِ النَّصيرِ

بعد أنْ ذكرَ في الآيةِ السابقةِ تعليمَه لنبيِّه ﷺ سؤالَ مواقعِ الحقِّ ومقامِ الصِّدقِ، والسُّلطانِ النَّصيرِ؛ بَشَّره في هذه الآيةِ بتحقُّقِ مُسوِّغاتِ إجابةِ سُؤْلِه، بمجيءِ الحقِّ وزهوقِ الباطلِ، بما يُفْسِحُ لتحقيقِ سلطانِه ونصرِه وتمكينِه، أي: "لمّا سألَ اللّهَ النُّصرةَ؛ بيَّنَ اللّهُ له أنَّه أجابَ دعاءَه، فقال: وقل..."[1]، فـ"أعقَبَ تلقينَه الدُّعاءَ بسَدادِ أعمالِه، وتأييدِه فيها، بأنْ لقَّنَه هذا الإعلانَ المُنْبِئَ بحُصولِ إجابةِ الدَّعوةِ المُلْهَمةِ، بإبرازِ وعْدِه بظُهورِ أمرِه في صورةِ الخبَرِ عن شَيءٍ مضَى"[2].

في الآيةِ دفعُ توهُّمِ عدمِ استجابةِ الدُّعاءِ

ولمّا كان الدُّعاءُ قد يتطرَّقُ إليه احتمالُ عدمِ الإجابةِ؛ قال مبشِّرًا له بأنَّه ليس بين دعائِه وبين استجابتِه إلّا قولُه، ومحقِّقًا لتلك البشرى بالأمرِ بأن يخبرَ بها: ﴿وَقُلۡ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَزَهَقَ﴾ و﴿زَهُوقًا﴾: أصلُ (زَهق) يَدُلُّ على تَقَدُّمٍ ومُضيٍّ وتَجاوُزٍ[4]، مِنْ ذلك: زَهَقَتْ نفسُه، وهي تَزْهَقُ زُهوقًا، أي: ذَهَبَتْ، وكلُّ شيءٍ هَلَكَ وبَطَلَ؛ فقد زَهَقَ[5]، وزَهَقَ الباطلُ؛ إذا غَلَبَهُ الحقُّ[6]، ويُقالُ: زَهَقَ الفَرَسُ أَمامَ الخَيْلِ؛ وذلك إذا سَبَقَها، وتَقَدَّمَها، ومِنَ البابِ الزَّهَقُ، وهو قَعْرُ الشَّيءِ؛ لِأَنَّ الشَّيءَ يُزْهَقُ فيه؛ إذا سَقَطَ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 389.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 187.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 496.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زهق).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زهق).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زهق).

والزَّهوقُ، وهو البئْرُ البَعيدَةُ القَعْرِ[1]، والمراد بالزَّهْق والزَّهوق في الآية: الاضمحلالُ بَعْدَ وُجودٍ، والبطلانُ والهلاكُ[2].

2) ﴿ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾: أَصْلُ (بطل) يَدُلُّ على ذَهابِ الشَّيْءِ، وقِلَّة مُكْثِه ولُبْثِه، يُقال: بَطَلَ الشَّيءُ؛ إذا ذَهَبَ ضياعًا وخُسْرانًا، والباطِلُ: اسْمُ فاعِلٍ مِن بَطَلَ الشَّيءُ يَبْطُلُ بُطْلًا وبُطْلانًا، ومَعْناهُ: نَقيضُ الحَقِّ والصِّحَّةِ، والباطِلُ أيضًا: التّالِفُ والضّائِعُ مِنَ الأَشْياءِ، وجمعُهُ: بواطِلُ، وقيل: أباطيل، والمرادُ بالباطِلِ في الآية: الشَّيْءُ الَّذي يَذْهَبُ ضَياعًا وخُسْرانًا.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الباطل ذاهبٌ مُتَلاشٍ لا يثبت أمام الحقِّ

وقل - أيُّها الرَّسول ﷺ - لهؤلاء المشركين: جاء الإسلامُ، وتحقَّق ما وعدَ اللّه به من نصرِهِ، وذهب الشِّركُ والكفر، إنَّ الباطل ذاهبٌ مُتَلاشٍ لا يثبت أمام الحقِّ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواو:

التَّحدُّثُ بالنِّعمة العامَّةِ بعد تمامِها

قوله: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي﴾[4]؛ للإيذان باستجابة الدُّعاء في: ﴿أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾، فإنَّ مجيءَ الحقِّ وزهوقَ الباطل هو منَ السُّلطان النَّصير الذي سأله، فالجملةُ تحضيضٌ على إظهار النِّعمةِ والفرحِ بها تحدُّثًا وشُكرًا بعد تحقُّقها إثْرَ سؤالها والدُّعاءِ بها.

دلالةُ الأمرِ ﴿وَقُلۡ﴾:

العبدُ مأمورٌ بإظهار الحقِّ والاحتفاءِ بتمكينه

الأمرُ في قوله: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ إلزامٌ بِمَقولِه؛ لأنَّه منَ اللّه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زهق).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 496.
(3) المختصر في التّفسير، مركز تفسير.
(4) صافي، الجدول: 15/ 98.

سبحانه، فهو واجبُ الامتثال، واجبُ القول به، فضلًا عمّا في الأمرِ بالإخبار بـ ﴿وَقُلۡ﴾ من تحقيقٍ للبشرى[1]، وإعلامٍ "بأنَّ الأمرَ تمَّ، والفرجَ جاء، ودُحر الباطلُ، ورجع إلى أصله، وهو العدمُ"[2].

سرُّ التَّعبيرِ عنِ المجيء بالماضي:

الحقُّ لا يُغالَبُ؛ لأنَّه من صفاتِ الله الأزليَّةِ

عبَّر عن المجيءِ بصيغة الماضي لتحقيق الفعل والإخبارِ بانقضائه، وغرضُ التَّحقيق: الإيماءُ إلى أنَّ الحقَّ غالبٌ ظاهرٌ، فلا يُمكن الانقلابُ عليه أو تحييدُه أو إزالتُه؛ لأنَّه قدَرٌ مقدورٌ، وقضاءٌ ثابتٌ.

دلالةُ تعريفِ الحقِّ:

الحقُّ معروفٌ غيرُ منكور، لكنَّ القلوبَ محجوبةٌ!

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ للعهد، أي: الدّينُ الخاتمُ المنزَّلُ على رسول اللّه ﷺ، وهو دينُ الإسلام، ويصحُّ أن تكون للجنس مبالغةً في الكمال؛ لأنَّ دينَ الإسلام مُستوعبٌ لأفراد كمالِ الجنس، جنسِ الحقِّ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَزَهَقَ﴾ مقابلًا للفعل ﴿جَآءَ﴾:

حضورُ الحقِّ بظهورِه، غيَّبَ الباطلَ ودَحَرَهُ

بين قولِه: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾، وقولِه: ﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ مقابلةٌ بديعةٌ لشهود الحقِّ - وهو يحضُر، ويَبِينُ - وشهودِ الباطل - وهو يأفل، ويتلاشى، ويضمحلُّ - كأنَّ حضورَ الحقِّ بظهوره غيَّبَ الباطلَ، ودَحَرَه، فحلَّ مَحلَّه، وجرى موقِعَه.

(زهوقُ الباطل) بين المجاز العقليِّ، والاستعارةِ المكنيَّةِ:

الباطلُ هو فريسةُ الحقِّ المُخَنِقَةُ به

إسنادُ الزُّهوق إلى الباطل في قوله: ﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾، يصحُّ أن يُحمَل على المجاز العقليِّ؛ لأنَّ الباطل لا يزهقُ من تلقاء نفسِه، بل يزهقُ بمدافعة الحقِّ له، بدليل قوله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: 18]، أي: الحقُّ زاهقٌ للباطل،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 496.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 496.

فيزهقُ، ويصحُّ أن يكون في زهوق الباطل استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ إذ شبَّه زهوقَ الباطل في ذهابه وزواله بعد وهَجِهِ وحيويَّتِه بانخناق الرّوحِ وزهوقِها بالموت وذهابِها وزوالِها عنِ البدن بعد فاعليَّتِها فيه وتحريكِها له، فالباطلُ كذلك مُنْخَنِقٌ وزائلٌ، ولو بعد حين[1].

بلاغةُ الطِّباقِ بين ﴿ٱلۡحَقُّ﴾، و﴿ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾:

الحقُّ معروفٌ نورُه مشهودٌ سُرورُه

بين كلمتَي ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ و﴿ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ طباقُ إيجابٍ، بالجمع بين الضِّدَّينِ، بين ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ و﴿ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾، وبلاغة الطِّباقِ تُظهِر الفجوةَ الوسيعةَ بين ماهية الحقِّ وماهيةِ الباطل، فالحقُّ معروفٌ نورُه، مشهودٌ سُرورُه، والباطلُ مُنكَرٌ ظلامُه مُستبِدَّةٌ آثامُه، حتى إنَّ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في لفظه ومعناه بحبوحةٌ وفُسْحةٌ وإسراعٌ وسهولةٌ، و﴿ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ في نُطقِه وضِمنِه لَجْلَجَةٌ وعنَتٌ وبُطْءٌ وانحباسٌ.

بلاغةُ توكيدِ الفاصلةِ بـ﴿إِنَّ﴾، والجملةِ الاسميَّةِ، وبفعل الكينونةِ:

التَّثبيتُ على اليقين يحتاجُ إلى تأكيدٍ وتحقيقٍ

جملةُ ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ تذييلٌ مؤكِّدٌ لمضمون السّياق قبلَه، وهو منه في معنى التَّعليل له، ولذلك فُصِلتْ؛ لأنَّ حرفَ التَّوكيد رابطٌ واصِلٌ في المعنى أغنَى عنِ العاطفِ وفاءِ التَّفريع، واستقلَّ بإفادةِ التَّعليل وربطِ مضمون جملتِه بمضمون الجملة التي قبلَه، والافتتاحُ بـ﴿إِنَّ﴾ لمحضِ الاهتمام والعنايةِ بتقرير الجملة، وكأنَّ الغرضَ بالافتتاح المؤكِّدِ إجراءُ التَّركيب مجرى القانونِ المحدَّدِ والمَثَلِ السّائرِ المحكَم، وقرينةُ خلوِّ المخاطَبين عنِ التَّردُّد في هذا الخبر تجعلُه مَسوقًا لأجل تأكيدِ انتفاعهم به لا لإثبات أصلِه، فيكونُ خبرًا بمعنى الإنشاء، أي: أكِّدوا انتفاعَكم بمقتضى ذلك بدوامِكم على استقامة الحقِّ وعدمِ التَّجاوزِ لاعوجاج الباطلِ، أو لأجل أن يَسوقوه إلى غيرِهم بهذا المساق المؤكَّدِ للتَّرهيبِ والتَّرغيبِ، فإنَّ المؤمنَ مُبَلِّغٌ عن ربِّه.

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 573.

بلاغةُ تَكرارِ لفْظِ الباطلِ دون الاستعاضةِ عنه بالضَّميرِ:

الـكـلامُ حين يـجـري مـجـرَى الأمثالِ يخلو مِنَ الإضـمـارِ الـذي يُبْهِمُه

أظْهَر في مقام الإضمار، فلم يقل: (وزهق الباطل إنَّه كان زهوقًا) بالإضمار، بل أعاد ذِكْرَ الباطِل، لينفصِل هذا التَّركيبُ في نفي الباطل بعمومِه، كأنَّه قال: (وزهقَ الباطلُ الذي تعهدونه معتنقين له من أصناف الشِّرك والضَّلال المعهودةِ لكم)، ذلك أنَّ الباطل بكلِّ أنواعِه أيًّا كان لا يتماسكُ، بل يتلاشى، فعمَّمَ بعدَ تخصيصٍ، ومن معاني الانفصال التي يُقرِّرُها الإظهارُ مقامَ الإضمار: إجراءُ التَّركيب مجرى الأمثالِ السّائرةِ، والكلامُ حين يجري مجرى الأمثالِ لا بدَّ أن يخلو مِنَ الإضمار الذي يُبْهِمُه.

سرُّ التَّعبيرِ بفعلِ الكينونةِ الماضي:

الزَّهوقُ شِنْشِنَةُ الباطل، وشأنُه في كـلِّ زمـانٍ أنَّـه يظـهـرُ ثم يضمحِلُّ

مجيء فِعل الكون الماضي بين المبتدأ والخبر، يفيدُ تحقيقَ ثبوت النِّسبة بينهما إذًا فتركيبُ: ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ أُكِّد بإنَّ، ثمَّ أُكِّد بفعل الكون الماضي بين اسم إنَّ وخبرها، وجملةُ الكوْن ذاتُها ﴿كَانَ زَهُوقٗا﴾ فيها إعادةٌ لاسم إنَّ مضمرًا، أي: كان هو زهوقًا، وهذا تأكيدٌ ثالثٌ، وهو من مُستتبعات إقحام فعلِ الكون. ثمَّ تأكيدٌ رابعٌ، وهو مجيءُ فعل الكون ماضيًا يفيدُ التَّحقيقَ الزَّمنيَّ القديمَ منذ أنْ كان الباطلُ؛ ليفيد دلالةَ أنَّه كان زهوقًا في نفسه بجبلَّتِه وطبعِه، قضاءً قضاه اللّٰه تعالى مِنَ الأزل[1]، فـ"الزَّهوقُ شِنْشِنةُ الباطِل، وشأْنُه في كلِّ زمانٍ أنَّه يظهَرُ، ثمَّ يضْمحِلُّ"[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿زَهُوقٗا﴾:

الباطلُ زهوقٌ في نفسِه، وزهوقٌ لـغـيره، فـهـو زاهِقٌ ومزهوقٌ

لفظُ ﴿زَهُوقٗا﴾ - في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ - صفةٌ مشبَّهةٌ مِنَ الثّلاثيِّ (زَهَقَ) (يزهَقُ) بابِ (فتَح) بمعنى: اضمحلَّ وزالَ، ويجوز أن يكون صيغةَ مبالغةٍ مِنِ اسم الفاعل[3]، أوِ اسمِ المفعول

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 496.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 188.
(3) صافي، الجدول: 15/ 99.

(زاهِق ومزهوق)؛ لكونه من أسبابِ التَّدمير والإفسادِ، فهو زاهِقٌ لمنتَحِليه، ولكونِه يتلاشى بحضور الحقِّ، فهو مزهوقٌ به، وزنُه (فَعول)، ومعنى الصِّفةِ المشبَّهةِ إفادةُ الدَّيمومة، أي: دائمُ الزَّهوق، ومعنى المبالغةِ إفادةُ الكثرة، أي: كثيرُ الزَّهوق.

فنُّ التَّذييل في الآية وبلاغتُه:

الـخـتْـمُ على الـكـلام بـمـا يُـؤيِّـدُ مضمونَه ويُلخِّصُ غرَضَه

هذا الفنُّ هو: أن يذيِّلَ النّاظمُ والنّاثرُ كلامَه، بعد تمامه وحسْنِ السُّكوت عليه، بجملةٍ تُحقِّقُ ما قبلها مِنَ الكلام، وتزيدُه توكيدًا، وتجري فيه مجرَى المثلِ، لزيادة التَّحقيق، وهذه الآية من أعظم الشَّواهد عليه، فالجملة الأخيرةُ ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ هي التَّذييلُ الذي خرج مخرجَ المثلِ السّائرِ[1].

بلاغةُ التَّذييلِ في جملةِ الفاصلةِ:

الـبـاطـلُ عـرَضٌ زائلٌ، والحقيقةُ جوهرٌ خالِدٌ

ولم يختم الفاصلةَ في السّياق الكريم بالتَّذييل عنِ الحقِّ، فلم يقل: (جاء الحقُّ، وزهق الباطل، إنَّ الحقَّ كان ظاهرًا أو غالبًا)، بل ختم بذِكْر الباطل: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾؛ ليدلَّ بمفهومه على ثبوت الحقِّ، ولذا نسَبَ المجيءِ إليه، كأنَّه أمرٌ ذاتيٌّ فيه، فلم يأْتِ به أحدٌ[2]، وبمنطوقه على طروء الباطلِ، وأنَّه أجنبيٌّ على الحقِّ، والأجنبيُّ لا يستقرُّ، ولا يستمرُّ، وليدفعَ عادةَ النّاس في اغترارهم بالباطل وانجذابِهم إليه لِتَمَوُّهِهِ عليهم وتزيُّنِه لهم، وهذا التَّمَوُّه هو مظنَّةُ الرُّكون إليه والاطمئنانِ به، فختَمَ بذِكْر ما هم أحوجُ إلى التَّحذير منه والفصلِ في شأنه، والتَّعريفُ بالشَّرِّ مُقدَّمٌ؛ ولذا جعل الفاصلةَ فيه.

۞ الفروقُ المُعْجَمِيَّة:

الزّهوق والزّوال:

أصلُ (زهق): خروجُ الشَّيء وانفصالُه عن كاملِ المحلِّ الذي كان

(1) صافي، الجدول: 15/ 100.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8708.

الزَّهوقُ يتعلَّقُ بزوال الشَّيء من أصلِه وقعرِه، فلا يقبلُ التَّقويمَ أوِ التَّدارُكَ

فيه، أو تعلَّقَ به، فهو خروجٌ عن أصلِ الشَّيء في الباطن والظّاهر، ولذا ارتبط هذا اللَّفظ بالرّوح، فقيل: زهقَتْ روحُه أو نفسُه؛ لأنَّها خرجَتْ من قعرِ جوهرِه، وغادرتْ باطنَه إلى ظاهِره، فانقطع أثرُها بالكلّيَّة عنه(1).

وأصل (زال) تنحّي الشَّيءِ عن ثباته، وخروجُه عن موضعه، ومنه زال مُلْكُه عنه: إذا فارقه، فخرج عن محلِّه الثّابت(2)، والفرقُ بين الزَّهوقِ والزَّوالِ: أنَّ الزَّهوقَ يتعلَّق بزوال الشَّيء من أصله وقعرِه، فلا يقبلُ التَّقويمَ أوِ التَّدارُك، ولذا فهو يعبِّرُ عنِ الاستئصال التّامِّ، وأمّا الزَّوال؛ فهو مجرَّدُ انتقالٍ عنِ المحلِّ، سواءٌ كان كلّيًا أم جزئيًّا، وسواء صحَّ معه أن يعود كما كان أم لا، ولذا عبَّر في الآية بزهوق الباطلِ، ليدلَّ على زوال أصلِه وانقطاعِ أثرِه بالكلّيَّة، وأمّا الزَّوالُ؛ فلا يلزمُ عنه انقطاعُ الأثر، أو عدمُ إمكان العودة للمحلِّ المستقِرِّ، وإيثارُ لفظِ (الزَّهوق) يناسبُ دحْرَ الباطل والرُّجوع إلى أصله، وهو العدمُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زهق).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زول)، والرّاغب، المفردات: (زال)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زول).

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ٨٢﴾ [الإسراء: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نزول القرآن بالشّفاء والرّحمة يدحض الأباطيل ويُزهقها

بعد أن ذكرَ في الآية السّابقةِ ما يُشير به إلى أنَّ الحقَّ لا خوفَ عليه، وأنَّ الباطل لا خوفَ منه؛ لأنَّ الحقَّ جاءَ، والباطلَ زهقَ؛ أخبر في هذه الآية عن كيفيةِ مجيءِ الحقِّ، وهو تنزُّلُ القرآن بالشِّفاء والرَّحمةِ، وهذا التَّنزُّلُ يدحضُ الأباطيل، ويُزهقُها، فأشار إلى كيفيَّة زهوقِ الباطل كذلك، بوصْفِ القرآن - الذي نوَّه به في آية ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ - هو مصدرُ الحقِّ، والسَّببُ الأعظمُ في إزهاق الباطل الذي هو كالسِّحر، ودحضِه، وهو الجامعُ لجميع ما مضى مِنَ الإلهيّات والبعثِ وما تبعَ ذلك؛ قال عاطفًا على ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا﴾ [الإسراء: 70]: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَسَارًا﴾: أصلُ (خسر) يَدُلُّ على النَّقْصِ، فالخَسارة والخَيْسَرَى: الضَّلالُ والهَلاكُ والنُّقصانُ، والخاسِرُ: الَّذي وُضِعَ في تجارتِه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

ونُنَزِّلُ من آيات القرآن العظيم ما يَشفي القلوبَ مِنَ الأمراض، كالشَّكِّ والنِّفاقِ والجهالةِ، وما يَشفي الأبدانَ برُقْيتِها به، وما يكونُ سببًا للفوز برحمة الله بما فيه مِنَ الإيمان، ولا يزيدُ هذا القرآنُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 497، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 188.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).

الكفّارَ عند سماعه إلّا كُفرًا وضلالًا وهلاكًا؛ لأنَّ سماعَه يغيظُهم، ويزيدُهم تكذيبًا وإعراضًا عنه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواو:

القـرآنُ عنـوانُ الحقِّ وموضوعُه ومصدرُه

جملةُ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ معطوفةٌ[2] على جملة ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ لبيان أنَّ الباطلَ ما يزال يزهقُ، والحقَّ ما يزال يتنزَّلُ، فيظْهَرُ، وخُصَّ الحقُّ بالقرآن؛ لأنَّه مصدرُه ووعاؤه، أوِ الجملةُ استئنافيَّةٌ[3] بعد تقرير المُفاصَلَة بين الحقِّ والباطل في ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ للانتقال ممّا يدلُّ على الموت والهلاك، وهو وصفُ ﴿زَهُوقًا﴾، إلى ما يدلُّ على الحياة والشِّفاءِ، وهو ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾، فإنَّ التَّنزيلَ لفظٌ يدلُّ على الحركةِ والانطلاقِ والتَّجدُّد الذي هو من أسباب الحياة، ووصْفُ شفاء يدلُّ على التَّعافي وزوالِ أسباب الموت مِنَ المرض والاعتلال، ففي هذا التعاقُبِ بالواو مقابلةٌ بديعةٌ تَشفي وتعصِمُ، "فإنَّه بعد أنِ امتنَّ عليه بأن أيَّده بالعصمة مِنَ الرُّكون إليهم وتبشيرِه بالنُّصرة عليهم وبالخلاص من كيدِهم، وبعد أن هدَّدهم بأنَّهم صائرون قريبًا إلى هلاكٍ، وأنَّ دينَهم صائرٌ إلى الاضمحلال؛ أعلن له ولهم في هذه الآية: أنَّ ما منه غيظُهم وحنقُهم، وهو القرآنُ الذي طمعوا أن يسألوا النَّبيَّ أن يبدلَه بقرآن ليس فيه ذكرُ أصنامهم بسوء، أنَّه لا يزالُ متجدِّدًا مستمرًّا، فيه شفاءٌ للرَّسول وأتباعِه، وخسارةٌ لأعدائه الظّالمين"[4].

---

(1) الميسّر، مجمع الملك فهد، ص: 290، والمختصر في التفسير، مركز تفسير.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 188.
(3) صافي، الجدول: 15/ 102.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 188.

إيثارُ لفظِ الإنزالِ:

الحركةُ والفاعليَّةُ من مقوِّماتِ الشِّفاءِ

لفظُ التَّنزيل في قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ بديعُ المناسبةِ مع وصْفِ القرآن بـ﴿شِفَآءٌ﴾، فإنَّ كلا الوصفَين من أوصاف القرآنِ، فهو منزَّلٌ، وهو شفاءٌ، والشِّفاءُ إذا كان نازلًا؛ فهو شفاءٌ مضمونٌ خالصٌ؛ لأنَّه بعيدٌ عنِ اللَّوثات الأرضيَّةِ ومشحونٌ بنقاءِ العُلوِّ، ولفظُ الإنزال يدلُّ على الحركةِ والفاعليَّةِ التي هي من مقوِّمات الشِّفاء، ويدلُّ على وُثوقيَّة القرآن وعِصمةِ مصدرِه؛ لأنَّه نازلٌ من علوٍّ فلا تطالُه أيادي التَّحريف والتَّخريف، ولذا كان شفاؤه - أيضًا - لا ريبَ فيه؛ لأنَّه عُلْويٌّ لم يُكدَّر بعوارضَ دونيَّةٍ تُنْقِصُ من تمامِه، أو تمنعُ من كمالِه.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع المضعَّف ﴿وَنُنَزِّلُ﴾:

صفةُ الشِّفائيَّةِ لا تنفكُّ عنِ القرآنِ

التَّعبيرُ بـ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ مضارعًا مضعَّفًا، للدَّلالة على التَّجدُّدِ والتَّكرارِ والكثرةِ، وهو وعدٌ بأنَّه يستمرُّ هذا التَّنزيلُ زمنًا طويلًا[1]، أي: ما يزال يتنزَّلُ بالشِّفاء الكثير الذي لا يُعدَمُه أحدٌ متى طلبَه، وقام بشرطه، وفائدةُ ذلك: الإشارةُ إلى أنَّ صفةَ الشِّفائيَّةِ لا تنقطعُ عنِ القرآن؛ لأنَّه ما يزال ذلك الشِّفاءُ يتنزَّلُ منه، وينحدِرُ.

وجهُ الإتيانِ بالفعل على صيغةِ الجمعِ المُعظِّمِ:

التَّنزيلُ من خصائصِ الألوهيَّةِ

قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ بنون العظمةِ؛ للدَّلالة على أنَّ شأنَ التَّنزيل عظيمٌ، فلا يقومُ به إلّا اللّٰه العظيمُ الجليلُ الواحدُ الأحدُ، ولذا فالجمعيَّةُ المُرادةُ منَ النّون مجازيَّةٌ؛ لأنَّه لا يُراد حقيقةُ الجمع، لتنزُّه اللّٰه عنِ التَّعدُّد، بل كمال العظمةِ، ولا يخفى أنَّ تَكرارَ مرّات النُّزول، ونزولَ الملائكة بالقرآن من إشارات نون الجمع هنا، كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ [النحل: 2]، فاللّٰه سبحانه وملائكتُه يصدرُ منهمُ التَّنزيلُ، وهذه جمعيَّةٌ، فيمكنُ على هذا الاعتبار إرادةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 189.

المعنى الحقيقيِّ للجمع منَ التَّعدُّدِ ونفيِ الأحاديَّة، مع عدمِ نفيِ ذلك لمعنى التَّعظيم والجلالِ.

معنى ﴿مِنَ﴾:

الشِّفاءُ مخلوقٌ لله، والقرآنُ من كلامِه وصفاتِه، فالشِّفاءُ أثَرٌ من آثارِ صِفَتِه وفِعلِه

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ بيانيَّةٌ، أي: ننزِّلُ شفاءً هو القرآنُ، كقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: 30]، أي: الرِّجس الذي هو الأوثانُ، وتقديمُ البيان على المُبَيَّن، لتحصيل غرضِ الاهتمام بذكر القرآن[1]، ويصحُّ أن تكون للتَّبعيض[2]، مُلاحظةً لمعنى التَّبعيضِ والتَّفريقِ في لفظ: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾، أي: مع كلِّ دُفعةٍ تنزلُ منَ القرآن شفاءٌ، فيؤولُ إلى أنَّ الشِّفاء مستغرقٌ لجميع أبعاضِ القرآن، وتفاريقِه، ويصحُّ أن تكون على بابها منَ الدَّلالة على ابتداء الغايةِ[3]، أي: وننزِّلُ ما هو شفاءٌ من جهة القرآن، وجميعُ هذه الاعتبارات بديعٌ في تخريجِه ويؤولُ - لِمَنْ تأمَّل - إلى المعنى الأوَّل، وهو بيانُ الجنسِ.

دلالةُ تعريفِ القرآن:

القـرآنُ دائـمُ الحضورِ بعينِه وأثَرِه

تعريفُ القرآن في ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ للعهد الذِّهنيِّ باعتبار ما ثبتَ في اعتقادهم من تنزُّلِ القرآن بالفعل، وللعهد الحُضوريِّ باعتبار شهودِهم لما حضر منَ القرآن مكتوبًا بين أيديهم في الصَّحائف والسُّطورِ ومُلَقًّى إليهم في الأسماع والصُّدورِ.

إيثارُ الموصولِ ﴿مَا﴾:

القـرآنُ عافيةُ القلوبِ والأبدانِ

التَّعبيرُ بالموصول المشتركِ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾ لعوْده على مقصودٍ غيرِ عاقلٍ، وهو أنواعُ الشِّفاء التي لا تنحصرُ، فتدلُّ على معانٍ لا أعيانٍ، وهي بهذا المعنى تفيد العمومَ أيضًا في أفراد الشِّفاء الماديَّةِ والمعنويَّةِ في الأرواح والأبدانِ، وتفيدُ الإبهامَ الذي جاءت

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 189.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 402.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 403.

﴿مِنَ﴾ لتبيينِه وتعيين مجالِه وجنسه، في قوله: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، وأفادت ﴿مَا﴾ تعريفَ القرآن بالصِّلة ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ لغرض الثَّناء عليه، للدَّلالة على تمكُّن ذلك الوصفِ منه بحيث يُعرفُ به[1]، ففي التَّعريف بالصِّلة إشارةٌ إلى أنَّ الاستشفاءَ بالقرآن مألوفٌ مشتهرٌ، وفيه تعريضٌ بمن يستبعِدُ ذلك، ويستغربُه؛ لأنَّ التَّعريف بالصِّلة مُؤْذنٌ بذلك.

بلاغةُ التَّعبير بالضَّميرِ المنفصل ﴿هُوَ﴾:

نِسبةُ الشِّفاء إلى القرآنِ عيْنُ يقينٍ لا يجحدُها إلّا مُسرِفٌ مُرتابٌ

مجيءُ صِلة الموصول بطريق الاسميَّةِ مِنَ الضَّمير المنفصل وخبَرِه في قوله: ﴿هُوَ شِفَآءٌ﴾، ولم يقل بالفعليَّة: (ما يشفي) للدَّلالةِ على يقينيَّة مضمونِ الصِّلة وللزيادة في تقريرها، فالتَّعبير بالاسميَّةِ ينفي استهجانَ المُستهجنين واستغرابَ المُستغربين لِكون القرآن شفاءً، وبدءُ جملة الصِّلةِ بالضَّمير زيادةٌ في تأكيد ذلك وتحقيقِه.

نكتةُ تنكيرِ ﴿شِفَآءٌ﴾:

كلُّ امرئٍ يصِلُ إلى شفاءِ القرآنِ بحقِّه وشرطِه

تنكيرُ لفظِ ﴿شِفَآءٌ﴾ من قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ لإفادة العموم، أي: مشتملٌ على صنوف الشِّفاء الرّوحيَّةِ والبدنيَّةِ، وليس معنى العموم في الشِّفاء أنَّه يشفي كلَّ أحد، فالعمومُ فيه، لا في المتناوِلين له؛ لأنَّ العمومَ في أفراد المتناولين له لا يحصلُ إلّا بتوفُّر شرطِه من تناوله بحقِّه، شأنَ كلِّ دواءٍ لا يشفي كلَّ متناولٍ له، إلّا بمراعاة شروطه وضوابطه والتَّجرُّدِ عن موانعه، ولذلك عبَّر بالمصدر، ولم يقل: (ما يشفي) أو (ما هو شافٍ)، ليَصِلَ كلُّ امرئٍ إلى شفائه بحقِّه الذي لا يصلُ إليه إلّا بوجوب مراعاتِه له.

بلاغةُ المجازِ في لفظ ﴿شِفَآءٌ﴾:

لفظُ شفاءٍ استعارةٌ تصريحيَّةٌ حيث شبَّهَ زوالَ النَّقائصِ الخُلُقيَّة بزوال الأدواءِ الخَلقيَّةِ

الشِّفاء حقيقتُه زوالُ الدّاء، ويستعملُ مجازًا في زوال ما هو نقصٌ وضلالٌ وعائقٌ عنِ النَّفع مِنَ العقائد الباطلةِ والأعمالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 189.

الفاسدة والأخلاقِ الذَّميمة؛ تشبيهًا له ببُرْءِ السَّقَم[1]، فهو استعارةٌ تصريحيَّةٌ؛ إذ شبَّه زوالَ النَّقائص الخُلُقيَّة بزوال الأدواءِ الخَلقيَّةِ.

نكتةُ حذفِ متعلِّقِ الشِّفاءِ ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

شفـاءُ الـقـرآن تُلازِمُه الرَّحمةُ

لم يقل في السّياق الكريم: (ما هو شفاء للمؤمنين ورحمة)، فأخَّر المتعلِّقَ، ليدلَّ على أنَّ شفاءَه لا يكون إلّا رحمةً أو مصحوبًا بالرَّحمة، ولو قال: شفاء للمؤمنين، لم يدلَّ على أنَّه في شفائه مقترنٌ بالرَّحمة، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّه شفاءٌ خاصٌّ، فليس كسائر أنواع الشِّفاءِ التي تحصل من سائر الأدويةِ، وليس معنى أنَّه شفاءٌ خاصٌّ، أنَّه ينحصرُ في مجالٍ دون مجال، بل معناه: أنَّه خاصٌّ في كماله وأثرِه؛ لأنَّ معنى اقترانه بالرَّحمة، أي: لا يترتَّبُ عليه أعراضٌ مصاحبةٌ أو آثارٌ ضارَّةٌ كالتي لا تنفكُّ عن غالب الأدويةِ، بل هو شفاءٌ تلازمُه الرَّحمةُ، أي: شفاءٌ خالصٌ تامٌّ.

دلالةُ العطفِ بالواو:

الشِّفاءُ مصاحِبٌ الرَّحمةِ

العطفُ بالواو في قوله: ﴿شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ﴾ يفيدُ الجمعَ بين الشِّفاء والرَّحمةِ، فهما مشتركان في دخولهما حيِّزَ الصِّلة، أي: يُنزِّلُ من القرآن الشَّيءَ الذي هو شفاءٌ ورحمةٌ، فالوصْفان يتواردان على الموصول: ﴿مَا﴾.

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾:

آثارُ رحمةِ الله لا تنحصرُ

تنكيرُ ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ للتَّعميم والتَّكثيرِ، أي: رحمةٌ عامَّةٌ كثيرةٌ وعظيمةٌ، لا حصرَ لها ولشواهدها، ولا عدَّ.

سِرُّ تقديمِ الشِّفاءِ على الرَّحمة:

حصولُ الشِّفاءِ من تمامِ الرَّحمةِ

قدَّم الشِّفاءَ على الرَّحمة في: ﴿شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ﴾؛ لكون الرَّحمة لا تتمُّ إلّا بالشِّفاء، فالشِّفاءُ بادِرةُ الرَّحمة، وفردٌ من أفرادها، وصورةٌ لتحقُّقِها.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 574، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 189.

معنى اللام:

اللّامُ في قوله: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لامُ الأجل؛ للانتفاعِ والاختصاصِ، أي: شفاءٌ ورحمة لأجل انتفاعِ المؤمنين.

للمؤمنين حظٌّ خاصٌّ من عنايةِ الله

وجهُ التَّعبير بالجمع السّالم ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

التَّعبيرُ بجمع المذكَّر السّالمِ بصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أفاد معنى الاسميَّةِ والفعليَّة معًا، فاسمُ الفاعل دلَّ على ثبوت الوصفِ بالإيمان لهم والتَّحقُّقِ به في الماضي والحال واستمرارِه في المستقبل، فدلَّتْ صيغتُه على الذّات والحدَثِ والزَّمن، مع إرادة الفعليَّة الدّالَّةِ على مُزاولتِهم لخصالِ الإيمان وأعمالِه لجرَيان الجمع السّالم مجرى علامةِ الجمع في الفعل، فـ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قائمٌ مقامَ (يُؤمنون)؛ ليقعَ الإيمانُ لهم من أتمِّ الوجوهِ، وأيضًا (ال) التَّعريف في ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بدخولها على الوصفِ المشتقِّ وهو اسمُ الفاعِلين، أفادت معنى الكمالِ في الصِّفة؛ مبالغةً في استجماعِهم خصائصَ الإيمان وخصالَه، كأنَّه قيل: (هو شفاء ورحمة للمؤمنين الرّاسخين في إيمانهم)، ومثلُ هذه الدَّلالات حاصلةٌ بضدِّها في لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾، فإنَّه على نفْس صيغةِ مُقابِلِه ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: الظّالمين العَريقين في الظُّلم المتحقِّقين به[1].

(ال) الموصولةُ الدّاخِلةُ على أسماء الفاعلين لها دلالةٌ على إفادةِ الكمال

دلالةُ العطفِ بالواو:

جملة ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ معطوفةٌ على قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾[2] من باب عطفِ الحال على الحال، أي: حال المؤمنين مع القرآن الشِّفاءُ والرَّحمة، ومع الظالمين زيادةُ الخَسار والبوارِ، وبين المعطوفَين مقابلةٌ بين الحال وضدِّه.

العبدُ من القرآن دائمًا في زيادة، فإمّا إلى إيمانٍ وإمّا إلى خُسرانٍ

---

(1) خالد الأزهريّ، التّصريح: 1/ 583، وفاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 126.

(2) صافي، الجدول: 15/ 102.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَزِيدُ﴾:

الزّيادةُ إضافةٌ على موجودٍ، وبناءٌ على حاصلٍ

اصطفاءُ فعل الزّيادة في قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ﴾ فيه زيادةُ تهكُّمٍ بهم؛ لأنَّ الزّيادة فعلٌ مُحبَّبٌ، فحينما تتوجَّه إلى المكروه والخُسران، يكون مبالغةً في التَّيئيس والتَّقبيح، وفي استعمال الزّيادة تنويهٌ إلى عراقتهم في الظُّلم والخسارة؛ لأنَّ الزّيادة لا تكون إلّا على أصلٍ ثابتٍ متحقِّقٍ، فهم يزدادون قُبحًا ونقصًا على نقصِهم وقبحِهم.

بلاغةُ المجازِ العقليّ في إسناد الزّيادةِ إلى القرآن:

سببُ الخسرانِ شُؤمُ الأفعالِ

إسنادُ الزّيادة إلى القرآن في قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ مجازٌ عقليٌّ أُسنِد فيه الفعلُ إلى غير فاعله؛ لأنَّ سببَ خُسرانهم هو شؤمُ أفعالهم، وما كسبتْ أيديهم منَ الظُّلم والكفر، لكنْ لمّا كان القرآنُ سببًا في امتحانهم وإظهارِ غيظهم؛ أُسنِد الفعلُ إليه[1]، وفائدةُ الإسناد إليه: التَّعجيبُ من شأن القرآن حيث كان مَورِدًا لضدَّيْن متقابلَين: الشِّفاءِ للمؤمن والهلاكِ للظّالم.

علّةُ العُدولِ من (الكافرين) إلى ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

لا يلومُ العبدُ إلّا نفسَه ولا يخافُ إلّا ذنبَه

اختير وصفُ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في السّياق الكريم دون غيره كـ(الكافرين)، ليدلَّ على أنَّهم وضعوا القرآنَ في غير موضعِه من جحوده وعدمِ التَّصديق به، فوُضِعوا في مواضعِ النَّقص والهلاكِ[2].

نكتةُ تنكير ﴿خَسَارًا﴾:

شرُّ الخسارةِ ما لا تَدارُكَ بعدَها

تنكيرُ ﴿خَسَارًا﴾ للتَّعميم، والتَّعظيمِ، أي: خسارًا مُستحكِمًا، جامعًا لألوان النَّقص والهلاك.

إيثارُ صيغةِ المصدرِ ﴿خَسَارًا﴾ دون غيره:

وزنُ (فَعال) يجري في الجزاءاتِ التّامَّةِ كالثَّوابِ والهلاكِ والبَوارِ

لفظُ ﴿خَسَارًا﴾ في قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ مصدرٌ سماعيٌّ لفعل (خسِر) الثُّلاثيِّ باب (فرِح)، على زنةِ (فَعال)، وثمَّةَ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 139.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 498.

مصادرُ أخرى للفِعل هي (خَسْر - خَسَر) بفتح فسكون أو فتح، و(خُسْر - خُسُر) بضمٍّ فسكون أو بضمَّتين، و(خَسارة) بفتح الخاء، و(خُسْران) بضمِّ الخاء[1]، ومع ذلك اختار التَّعبيرَ بـ﴿خَسَارٗا﴾ دون (الخُسر أو الخَسارة أو الخُسران)، ونُكتة ذلك: أنَّ (الخُسر) هو مطلقُ الخسارة، يُستعمَلُ لعموم الخسارة، فكلُّ إنسانٍ هو في خُسرٍ قليلٍ أو كثير، حتى المؤمن يرى أنَّه خسِر شيئًا كان يمكن أن يستزيد منه، ولم يستزِد، هذا الخُسر، و(الخَسار) لم يستعمله القرآنُ إلّا للزّيادة في الخسارة، أي: ما زاد من الخُسْر فوق الخسارة، هذه الزّيادةُ يسمّيها خَسارًا، كقوله في هذه الآية: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ٣٩﴾ [فاطر: 39]، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١﴾ [نوح: 21]، ولذا يقترن هذا المصدرُ بفِعل الزّيادة، و(الخُسران) هو أكبرُ الخسارة وأعظمُها؛ ولذا وصف بـ(المُبين) في قوله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحج: 11]، فهو لم يخسر شيئًا بسيطًا، أو لم يزددْ خسارةً فقط، إنَّما خسر الدُّنيا والآخرةَ؛ ولذا يزيدُ في بناء المصدر، ليدلَّ على الزّيادة في معنى الخسارة، فالخسارُ زاد فيه الألفَ على الخُسر، والخسرانُ زاد فيه الألف والنّونَ عليهما، فالخُسرُ هو البداية، والخسارُ فوقها، فزادَ الألف، والخسرانُ أعظمُ الخسارة، فزاد الألف والنون[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ (الخُسران):

مآلُ عملِ الكافر خيبةٌ، وحبوطُ عملٍ

الإِخْسارُ: نُقْصانُ التِّجارَة، واسْتُعيرَ في الآية لِخَيْبَةِ العَمَلِ؛ إذ شَبَّهَ عَمَلَهُم في الكُفْرِ بِعَمَلِ التّاجِرِ والخاسِرِ الَّذي بارَتْ سِلْعَتُهُ، فَباعَ بِأَقَلَّ مِمّا اشْتَراها بِه، فَأَصابَهُ الخَسارُ، فَكُلَّما زادَ بَيْعًا؛ زادَتْ خَسارَتُهُ حَتَّى تُفْضيَ بِهِ إلى الإِفْلاسِ[3].

(1) صافي، الجدول: 15/ 103.

(2) فاضل السّامرائي، برنامج لمسات بيانيّة، قناة الشّارقة.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 190.

النَّفيُ التّامُّ دليلٌ علـى الـثُّـبـوت التّامِّ لضدِّه

بلاغةُ الاستثناءِ المُفَرَّغِ:

جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ بطريق الاستثناء المُفرَّغ، ليدلَّ على تمام ظلمِهم وعظيم حرمانهم، فلم ينتفعوا بالقرآن طرفةَ عينٍ، وهو مصدرُ المنافع ومجْمَعُ المواهب، فنفَى عنهم الانتفاعَ به من جميع الوجوه، والنَّفيُ التّامُّ دليلٌ على الثُّبوت التّامِّ لضدِّه، ولذا ثبتَ لهم كاملُ الضَّرر بزيادة الخُسران والهلاكِ.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ۝٨٣﴾ [الإسراء: 83]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحالُ مع الله مَقيسَةٌ بالحالِ مع كتابِه

بعد أن ذكر في الآية السّابقةِ انقسامَ النّاس في حالهم مع القرآن إلى مؤمنين وظالمين؛ أشار في هذه الآية إلى انقسام النّاس في حالهم مع اللّه سبحانه عند الإنعام بما يحبّون، وعند البلاء بما يكرهون، فأخبرَ عن حالة الأكثرِ فيهم، وهي الإعراضُ بعد العطاء، واليأسُ بعد المنع، فربَطَ الحالَ معه سبحانه بالحال مع القرآن، فالحالُ معه مُتَوجِّهةٌ بالحال مع كتابِه، قال ابنُ عاشور: "لمّا كان القرآنُ نعمةً عظيمةً للنّاس، وكان إعراضُ المشركين عنه حرمانًا عظيمًا لهم من خيراتٍ كثيرةٍ، ولم يكن من شأن أهلِ العقول السَّليمةِ أن يرضوا بالحرمان منَ الخير؛ كان الإخبارُ عن زيادتِه الظّالمين خسارًا مستغربًا، من شأنه أن يثيرَ في نفوس السّامعين التَّساؤلَ عن سبب ذلك؛ أعقبَ ذلك ببيان السَّببِ النِّفسانيِّ الذي يوقعُ العقلاءَ في مَهواةِ هذا الحرمانِ، وذلك بعد الاشتغالِ بما هو فيه من نعمةٍ هَويَها، وأولعَ بها"[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعْرَضَ﴾: أَصْلُ كَلِمَةِ الإِعْراض مِنَ العَرْض، وهو الظُّهورُ والبُروزُ، يُقالُ: عَرَضَ الشَّيْءُ، وعَرِضَ يَعْرِضُ ويَعْرَضُ عَرْضًا، أي: ظَهَرَ وبَرَزَ[2]، وقيلَ: أَصْلُها مِنَ العَرْضِ، وهو خِلافُ الطّولِ، يُقالُ: اعْتَرَضَ الطَّريقَ؛ إذا سارَ عَرْضًا، وسُمّيَ الرَّفْضُ إِعْراضًا؛ لِأَنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 191.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).

الرّافِضَ أَظْهَرَ خِلافَ الشَّيْءِ، أَوْ لأَنَّهُ كالواقِفِ عَرْضًا في وجْهِ الشَّيْءِ[1]، والإعراض أيضًا: الصَّدُّ والتَّولّي والرَّفْضُ، تَقولُ: أَعْرَضَ عَنْهُ، أَي: صَدَّ وتَولّى عنهُ، والمُعْرِضُ: المُتولّي، ويُطْلَقُ الإعْراضُ بِمَعْنَى الانْصِرافِ عَنِ الشَّيْءِ بالقَلْبِ، وضِدُّ الإعْراضِ: الإِقْبالُ والانْقيادُ والطّاعَةُ[2]، والمقصودُ بالإعراضِ في الآية: الصَّدُّ والتَّولّي والرَّفْضُ، وضِدُّ الإِقْبالِ.

2) ﴿وَنَـَٔا﴾: أصلُ النَّأْيِ البُعدُ، نَأَى يَنْأَى: بَعُدَ، بِوزْنِ نَعى يَنْعَى، ونَأَوْتُ: بَعُدْتُ، لُغَةٌ في نَأَيْتُ، وتَناءَوا: تباعَدوا، والمُنْتَأَى: المَوْضِعُ البَعيدُ، والنَّأْيُ: المُفارقة، ويُقالُ للرَّجُلِ؛ إذا تَكَبَّرَ وأعرَضَ بِوجْهِهِ: نَأَى بِجانِبِهِ، ومَعْناهُ أَنَّه نأَى جانِبَه مِنْ وراء، أَي: نَحّاه، وقيلَ: نأَى بِجانِبِه، أَي: تباعَدَ عَنِ القَبولِ[3]، والمرادُ في الآية: البُعْدُ[4].

3) ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾: أصلُ الجَنْبِ الجارِحَةُ، ثمَّ استُعيرَ للنّاحيةِ الَّتي تليها[5]، والجانِبُ: شِقُّ الإِنْسانِ وغَيْرِهِ، تَقولُ: قَعَدْتُ إِلَى جَنْبِ فُلانٍ وإِلى جانِبه، بِمَعْنًى، والجَمعُ: جُنوبٌ وجَوانِبُ وجَنائِبُ، الأَخيرة نادِرَةٌ، والجَنْبُ مِنْ كُلِّ شيءٍ: ناحيته[6]، ويأتي الجَنْبُ بمعنى القُرْبِ، ومنه قولهم: وفي جَنْبِ اللهِ، أي: في قُرْبِهِ وجِوارِهِ[7]، والمقصودُ بالجانِبِ في الآية: الجَنْبُ، وهو الجِهَةُ مِنَ الجَسَدِ الَّتي فيها اليَدُ، وهُما جانِبانِ: يَمينٌ ويَسارٌ، والمُفادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: صَدَّ عَنِ العِبادَةِ والشُّكْرِ[8].

4) ﴿مَسَّهُ﴾: أصلُ (مسَّ) يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[9]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أَمَسُّه مَسًّا: لَمَسْتَه بيَدِكَ، وهو مجازٌ في إِصابةِ الشَّيءِ وحُلولِهِ، وأَكْثَرُ ما يُطلَقُ في إِصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا﴾ [الزمر: 8]، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عرض).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نأي).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 192.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنب).
(6) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (جنب).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (جنب).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 192.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسس).

[فصلت: 51]، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: 73][1]، والمَسوسُ من المياه: ما نالته الأيدي[2]، وحاجةٌ ماسَّةٌ، أي: مُهِمَّةٌ[3]، وحقيقةُ المَسِّ في الآية مُسْتَعْمَلٌ في الإصابَةِ على وجْهِ المجاز.

5) ﴿ٱلشَّرُّ﴾: مادّة (شرر) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على الانْتِشارِ والتَّطايُرِ[4]، والشَّرُّ: السّوْءُ، والفِعْلُ للرَّجُلِ الشِّرّيرِ؛ لانْتِشارِهِ وكَثْرَتِه، ومَصْدَرُه: الشَّرارَةُ، والفِعْلُ: شَرَّ يَشُرُّ[5]، والشَّرُّ ضِدُّ الخَيْرِ، وجَمعُهُ شُرورٌ[6]، والشَّرُّ أيضًا: بَسْطُكَ الشَّيءَ في الشَّمسِ من الثّياب وغيره[7]، والمُرادُ بالشَّرِّ في الآية: الأَذَى، مِثْلُ المَرَضِ والفقْرِ.

6) ﴿يَـُٔوسًا﴾: أَصْلُ اليأسِ انْقطاعُ الرَّجاءِ[8]، واليَأْسُ: القُنوطُ، يُقال: يَئِسَ فُلانٌ، وأَيِسَ يَيْأَسُ يَأْسًا وإياسًا؛ إذا قَنِطَ، وانْقَطَعَ رَجاؤُهُ، وضِدُّه: الرَّجاءُ والطَّمَعُ، ويأتي بِمعنى قَطْعِ الأَمَلِ، تقول: يَئِسَ من النَّجاةِ؛ إذا انْقَطَعَ أَمَلُهُ منها، وانْتَفَى طَمَعُهُ فيها، ويُسْتَعْمَلُ أيضًا بِمعنى السِّنِّ التي يَنْقَطِع فيها الحَيْضُ عنِ المَرْأَةِ، فهي يائِسٌ، وآيِسٌ[9]، وحقيقةُ اليأْسِ في الآية: فِعْلٌ قَلْبِيٌّ هو اعْتِقادُ عدم حُصوله الميئوس مِنْهُ، وصيغَ لَهُ مِثالُ المُبالَغَةِ؛ لقوَّةِ يَأْسِهِ[10].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يُصوِّر الحقُّ تعالى حالَ الإنسان عند اليُسر والعُسر، وعند الرَّخاء

كثيرٌ مِنَ النّاس يَكفرون بنِعَم الله، ويستقبلونَها بالجُحودِ والنُّكرانِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 316.
(2) الخليل، العين: (مسس).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرَّ).
(5) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (شرر).
(6) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (شرر).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شرر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يأس).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (يئس).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 193، 25/ 10.

والشِّدَّة فيقول: وإذا أنعَمنا على الإنسانِ بنِعمةٍ، كرِزقٍ أو نَصرٍ، أو صِحَّةٍ أو فَرَجٍ؛ أعرض عمّا دعوناه إليه من طاعتنا، واستكبر عنِ الانقياد لأمرنا، وإذا أصاب الإنسانَ الضُّرُّ، كفَقرٍ أو مرضٍ أو بُؤسٍ؛ كان قانِطًا مِنَ الفَرَجِ بعدَ الشِّدَّة، يائِسًا مِن رَحمةِ رَبِّه سُبحانَه(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا﴾ ممّا قبْلَها:

الإعــــراضُ عــن اللــه سببُ كلِّ حرمانٍ

جملةُ ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، لبيان سبب الحرمانِ الذي يحول بين الإنسان وبين انتفاعِه بالقرآن، فبدلًا من أن يكون سببًا في شفائه ورحمتِه، يزيغُ عنه، ويُعرض طغيانًا بنعمة اللّه عليه، فيكونُ سببًا في زيادة خُسرانه، فهذه الجملة مضمونُها مقصودٌ بذاته، استُفيد بيانُها بوقوعها عقبَ التي قبلَها(2).

بلاغةُ الشَّرطِ بظرفِ الزَّمان (إذا) دون (إنْ):

إنــعــامُ اللــه محقَّقٌ مضمونٌ لا يُعْدَمُهُ أحدٌ

افتتاحُ جملةِ الشَّرط بـ(إذا) في: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ﴾ لتحقيق مضمونِ الجملة مِنَ الإنعام للّه، والإعراضِ مِنَ الإنسان، أي: أنعمنا عليه إنعامًا محقَّقًا ذاقَه وعرفَه، وصيغتِ الجملةُ على أسلوب الشَّرطيَّة، لاستخراج المقابلةِ بين الضِّدَّين (حال الإنعام وحال الإعراض) على طريقة الجزاءِ التي تفضحُ حالَ الإنسان، وتكشفُ انحطاطَه حين يُقابل الفضلَ بالإنكار، ويواجه الحسنةَ بالسَّيِّئة، فأسلوبُ الشَّرط أتمُّ في تعريَتِه حيث رتَّبَ إعراضَه على الإنعام عليه، قال ابنُ القيِّم" أتَى هنا بـ(إذا) المشعِرةِ بتحقيق الوقوعِ المستلزِم لليأس؛ فإنَّ اليأسَ إنَّما حصل عند تحقُّق مسِّ الشَّرِّ له، فكان الإتيانُ بـ(إذا) هاهنا أدَلَّ على المعنى المقصودِ من (إنْ)،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 65، والقرطبيّ، والجامع لأحكام القرآن: 10/ 321، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 113، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 191.

بخلاف قَولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١﴾ [فصلت: 51]، فإنَّه بقلَّةِ صَبره وضَعفِ احتماله متى توقَّع الشَّرَّ؛ أعرض، وأطالَ في الدُّعاءِ، فإذا تحقَّق وقوعُهُ؛ كان يؤوسًا"(1).

لا ينفكُّ الإنسانُ عن إنعامِ الله أبدًا

سِرُّ التَّعبيرِ بفعلَي الإنعام والإعراض ماضيًا:

جاء فعلا الإنعام والإعراض بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على أنَّ إنعامَ الله بالإنسان قديمٌ ودائمٌ، وأنَّ إعراضَ الإنسان في مقابلة النِّعمة قديمٌ ومستمرٌّ، فكأنَّه لا ينفكُّ عنِ الإعراض، ولا يرجعُ عنه(2).

النِّعمةُ أثرٌ من آثارِ قُدرةِ الله ورحمتِه

وجهُ إسنادِ فعْلِ الإنعامِ إلى ضمير التَّعظيم:

أُسند فعلُ الإنعام إلى ضمير التَّعظيم في قوله: ﴿أَنۡعَمۡنَا﴾ لتعظيم المُنعِم سبحانه في ذاته، وتعظيم فِعله بالإنعام، فإنَّه لا يقدرُ عليه إلّا هو، وتعظيم أثرِ الفِعل، وهو النِّعمةُ ذاتُها؛ لأنَّها أثَرٌ من آثار قُدرته القاهِرة وعظمتِه الباهِرة.

الإنسانُ مطلوبٌ مـن رزقِ الله وإنعامِه وإن لم يسألْه هو

نكتةُ تعْديةِ فعلِ الإنعام بـ ﴿عَلَى﴾:

﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ للاستعلاءِ المجازيِّ، لتصوير أنَّه كان يعيشُ في ظلِّ نعمةِ الله، فهو كائنٌ تحتها، مستظِلٌّ بها، ويكأنَّها تطلبُه لتستوليَ عليه استيلاءَ مَرحمَةٍ وإكرام، فالتَّعدية بـ﴿عَلَى﴾ تدلُّ على إغراقِه بالإنعام.

أكثرُ النّاس مُعْرِضون إلّا من عافاه الله

دلالةُ تعريفِ الإنسان:

(أل) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ من قوله: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ للعهد؛ أي: الإنسانُ المعهودُ بالكفر والعصيان(3)، بقرينة جواب الشَّرط: ﴿أَعۡرَضَ﴾؛ لأنَّه لا يُعرِضُ إلّا الفاسقون، ويصحُّ أن يكون التَّعريفُ

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 47 - 48.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 576.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 480.

للجنس، وهو يفيد الاستغراقَ، وهو استغراقٌ عُرفيٌّ، أي: أكثرُ أفراد الإنسان؛ لأنَّ أكثرَ النّاس يومئذٍ كفّارٌ، وأكثرُ العرب مشركون[1].

نكتةُ إفرادِ الإنسان:

لكلِّ إنسانٍ حظُّه في الإعراض

لم يقل في السّياق الكريم: (وإذا أنعمنا على النّاس)، وقال: ﴿أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بالإفراد، لدلالة الإنسانِ على شيئين: الأوَّلُ: الكثرةُ المُرادةُ منَ الجمع، لدلالتِه على حقيقة الجنس في بعض أفراده ممَّن هو على هذه الصِّفة[2]، فالمرادُ بالجنس حقيقةُ الأفراد لا عددُهم؛ إذ ليس كلُّ النّاس على هذه الحال[3]، ولو جمعَ، وقال: (النّاس)؛ لأوهم عمومَ الأفراد لا عمومَ الماهية، الثّاني: دلالةُ الإفراد على إعظام النِّعمة لكلِّ فردٍ من أفراد الإنسان، وأمّا الجمعُ؛ فيقتضي إعظامَ الإنعام لمجموعِهم لا لجميعِهم، فلا يلزمُ منه مواجهةُ كلِّ فردٍ بالإنعام العظيم المفهوم من نون العظمة ﴿أَنْعَمْنَا﴾، فالإفرادُ أبلغُ في إجراء الموعظة بالتَّوبيخ والإنكار، ليأخذَ كلُّ إنسانٍ هذا الخطابَ على نفسِه، فيكونَ أنجعَ في انتباه كلِّ فردٍ على حِدَة.

دلالةُ العطفِ بالواو:

الأعمالُ براهينُ ما في القلوبِ

جملة ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ معطوفةٌ على قوله: ﴿أَعْرَضَ﴾[4]، فهي داخلةٌ في حيّز جواب الشَّرط، لتعديد صفاتِه الرَّديئةِ؛ إذا أصابه إنعامُ اللّٰه سبحانه، وفائدةُ العطف بالواو: الإشارةُ إلى تغايُر الحالَين: الإعراضِ والنَّأيِ، أي: أعرضَ وتباعد، فالإعراض حالٌ قلبيَّةٌ والنَّأيُ بالجانب حالٌ عمليَّةٌ.

بلاغةُ الإطنابِ في ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾:

الاستطرادُ في التَّعقيب بقوله: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾، ولم يكتفِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 191.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 191.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 418.
(4) صافي، الجدول: 15/ 103.

ليس كلُّ تأكيدٍ يقتضي الفصلَ وتركَ العطفِ إلّا بقصدٍ

بقوله: ﴿أَعْرَضَ﴾؛ للدَّلالة على المغايرة بين الحالَين، وأفاده العطفُ بالواو، والاستطرادُ بجملة نأْيِ الجانب توضيحٌ للإعراضِ وتصويرٌ لكيفيَّته، فيكون أوفى بتأدية المُراد، فهو تأكيدٌ للإعراض أو كالتَّأكيد له[1]، ومثلُه يجوز عطفُه لمعنى المغايرة بين المؤكِّد والمؤكَّد، وفي هذا المقام نكتةٌ بديعةٌ: وهي أنَّ العطفَ لا ينافي التَّأكيدَ، وأنَّ كلَّ تأكيدٍ لا يقتضي الفصلَ وتركَ العطف، وإنَّما يقتضي ذلك إذا قُصِد التَّأكيد، فالتَّأكيدُ المقتضي لإخلاء العاطف هو المبنيُّ على الإرادة والقصدِ[2].

معنى الباء:

الإشاحةُ بالجانِبِ إعراضٌ للبدنِ يدلُّ على إعراضِ القلبِ

الباء في قوله: ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ للمصاحبةِ، أي: بَعُد مصاحِبًا لجانبه، أي: مبْعِدًا جانبَه[3].

إيثارُ التَّعبير بـ(نأي الجانب):

الانصرافُ بالجانبِ هو أمارةُ المباعَدةِ النَّفسيَّة التّامَّةِ

آثر التَّعبيرُ بنأي الجانب، ليدلَّ على معنى المباعدة التّامَّة بالوجه والجسم؛ لأنَّ الإعراضَ انصرافٌ بِعُرض الوجهِ عنِ الشَّيء، ونأيُ الجانب: تحوُّلٌ عنِ الشَّيء بسائر الجسد من أحد جانبَيْه اليمينِ واليسارِ[4].

بلاغةُ الكنايةِ والمجازِ المُرسل في ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾:

عادةُ المتكبِّرِ الانصرافُ بجانبه عمّا ينبغي الإقبالُ عليه

في تركيب: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ كنايةٌ عنِ الإجفال والنُّفور منَ الشَّيء، والنَّأيُ هو البُعد، وقيَّده بالجانب؛ لأنَّه أوَّلُ ما يحصلُ به المباعدةُ والانفصالُ، فهو أوَّلُ أمارات الاستغناء وعدم الاكتراث، ولذا كان كنايةً عنِ الاستكبار والاستبداد، فعادةُ المتكبِّر أن ينصرف بجانبه عمّا يستوجبُ الإقبالَ عليه، ويصحُّ أن يكون التَّقييدُ بالجانب مجازًا مُرسلًا علاقتُه الجزئيَّةُ، حيث عبَّر بالجزء، وأراد الكلَّ، وهو

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 140، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 576.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/ 7.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 192.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 690.

النَّفسُ، أي: نأى بنفسه وذاته عن ملاحظة النِّعمة، كما يقال: جئتك من جانب فلان، وتريد ذاتَه[1].

التَّوسُّعُ في المعنى عند اختلافِ القراءاتِ أولى من حمل القراءةِ على معنى واحدٍ

توجيهُ القراءاتِ في ﴿وَنَـَٔا﴾:

قرأ ابنُ ذكوان وأبو جعفر في هذا الموضع وفي موضع سورة فصِّلت: ﴿وَنَـآءَ بِجَانِبِهِۦ﴾[2]، بمعنى: نَهَضَ، وفُسِّر (نهض) - هنا - بـ(أسرع) بدلالة حرف التعدية، والكلامُ على تقدير مضاف، أي: أسرع بصرفِ جانبه، وهو دليلٌ على مفهومه المقابلِ مِنَ التَّثاقلِ والاستبطاء عن شكرِ النِّعمة وأداءِ حقِّها[3].

كلٌّ يُعرِضُ بحسبِ مَنزعِه في الهوى والمِزاجِ

نكتةُ حذفِ متعلّقِ ﴿أَعۡرَضَ﴾ ﴿وَنَـَٔا﴾:

حذفَ متعلِّقَ ﴿أَعۡرَضَ﴾ و﴿وَنَـَٔا﴾ لدلالة المقام عليه، من قوله: ﴿أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾، أي: أعرض عنّا، وأجْفَل مِنّا، أي: من عبادتنا وأمرنا ونهينا[4]، ولا يخفى ما في الحذف أيضًا مِنَ الإيجاز والدَّلالة على تنوُّعِ مجالِ الإعراض والنَّأي الصّادِرَين عنه وتعدُّدِهما، أي: أعرض ونأى بوجوه الإعراض والنَّأي كافَّةً، فيعسُر تعيينُها لتوزُّعها على أفراد المُعرضين بحسب مسلكِ كلٍّ واحدٍ فيهم ومنزَعِه في كيفية الإعراض وكيفيَّة النَّأي.

لا يَخلو العبدُ من مَسِّ البلاءِ

دلالةُ العطفِ بالواو:

جملة ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ معطوفةٌ على الجملة الشَّرطيَّة قبلَها ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾؛ لاستتمام المقابلةِ بين حاله مع الله في الرَّخاء، وحالِه معه في الضَّرّاء، وللإشارة إلى أنَّ الإنسانَ يتردَّدُ دومًا بين هذين الواقِعَين.

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 576، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 191، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 140.

(2) ابن الجزريّ، تحبير التّيسير في القراءات العشر، ص: 440.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 140.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 192.

بلاغةُ الاحتراسِ بالمقابلةِ:

دفعُ التّوهُّمِ سبيلُ إقامةِ الحجّةِ

واحترس بهذه المقابلة من أن يَتوهَّم السّامعُ مِنَ التَّقييد بقوله: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا﴾ أنَّه إذا زالت عنه النِّعمةُ؛ صلح حالُه، فبيَّن أنَّ حاله ملازمٌ لنكران الجميل في السَّرّاء والضَّرّاء، فإذا زالتِ النِّعمةُ عنه؛ لم يُقلع عنِ الشِّرك والكفر، ويتبْ إلى اللّه، ولكنَّه ييأسُ منَ الخير، ويبقى حنِقًا ضيِّقَ الصَّدر، لا يعرف كيف يتدارك أمرَه(1).

إيثارُ لفظِ المسِّ دون غيره (الإصابة، اللّمس):

الابتلاءُ بالمكروه تهذيبٌ لا تعذيبٌ، فهو تجليةٌ وتحليةٌ

التَّعبير بالمَسِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، تَكتَنِفُه ثلاثُ دلالاتٍ معنويَّةٍ:

الأولى: معنى اللُّطف، فالإصابةُ بالشَّرِّ مَشوبةٌ باللُّطفِ والمَرحمة، ولذا فهي ليستْ إصابةً محضةً به أو خالِصةً فيه.

الثّانية: معنى الظّاهر، فالإصابةُ بالشَّرِّ هي مَسٌّ ظاهريٌّ، كما تَمَسُّ اليَدُ الأجسامَ والأجرام، فليستْ إصابةً تَجوزُ إلى بواطنِ الأشياء بالتَّلَفِ والإهلاك.

الثّالثة: معنى التَّخفيف، فأضرارُ الشَّرِّ مُخَفَّفةٌ بالألطاف، ولو نالتِ العبدَ من غير تخفيفٍ؛ لأهلكتْه، ولو كانتْ كذلك؛ لم يكن مجالٌ لِكشْفِها، ولذلك استوجبَ الملامةَ على يأسِه وجزعه مِنَ الشَّرِّ، لكون مَسِّه به صالحًا للاستدراك والتَّعافي، ولا يكون كذلك إلّا بِخفَّتِه وعدمِ استحكامِه.

والذي أعانَ على هذه التَّوجيهات الثَّلاثة: أنَّ المَسَّ يُقال في تأثُّر الحاسَّةِ بالمؤثِّر، وتأثُّرُ الحاسَّةِ هو أوَّل بوادرِ التأثُّر وأسرعُه حصولًا فيها، فإنْ زال المؤثِّر؛ كان أسرعَه زوالًا عنها، فَلِسُرْعَةِ الحصول

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 193.

وسرعة الزَّوال؛ كان المسُّ خفيفًا لطيفًا ظاهرًا، وهذا لا يتعارضُ مع قوَّة انفعال الحاسَّةِ بالشَّيء الماسِّ ونفاذِه فيها[1].

العبدُ ضعيفٌ مع الابتلاءِ ولو كان إصابةً ضئيلةً

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في التَّعبيرِ عنِ الإصابة بالمسِّ:

في التَّعبير عنِ الإصابة بالمسِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، مجازٌ مرسلٌ علاقتُه اللزوميَّةُ؛ إذ أطلق الملزومَ، وهو المسُّ، وأراد لازِمَه، وهو الإصابةُ، لتقرير هيئة الإصابة، وأنَّها ليستْ كأيِّ إصابة، بل هي إصابةُ المسِّ.

إنَّما يُصاب النَّاسُ بنوعٍ في الشَّرِّ لا بأصلِ الشَّرِّ

دلالةُ تعريفِ الشَّرِّ:

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلشَّرُّ﴾ من قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ للعهد، أي: نوعٌ من أنواعه بحسبِ كلِّ مُصابٍ على حِدة[2].

القصدُ عمومُ الشَّرِّ لا خصوصُه

إيثارُ لفظ الشَّرِّ دون غيره (السّوء)، (الضُّرّ):

عبَّر بلفظ ﴿ٱلشَّرُّ﴾ دون غيره، في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ للدَّلالة على عموم حاله مع كلِّ أنواع الشَّرِّ التي يُصابُ بها ممّا يرغبُ عنه، سواءٌ كان يضرُّه حقيقةً أم لا، أو هو ممّا يَسوء حقيقةً أم لا، ولو عبَّر بالضُّرِّ أوِ السّوء؛ لكان تعيينًا لنوعٍ خاصٍّ في الشَّرِّ لا يلزمُ أن يكون قد مَسَّه.

الأصلُ الثّابتُ في أحوال الإنسان الإنعامُ، والابتلاءُ عارِضٌ

بلاغةُ إسنادِ الخيرِ إلى الله دون الشَّرِّ:

في إسناد الإنعام للّه سبحانه في قوله: ﴿أَنْعَمْنَا﴾، وإسنادِ المسِّ للشرِّ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، فلم يُسند لضمير الجلالة كالخير، لبَعثِ التَّفاؤل بالخير؛ لأنَّه منَ اللّه، وللدَّلالةِ على أنَّه الأصلُ في أحوال الإنسان، وهو الأكثرُ فيها، وأنَّ الشرَّ عارضٌ طارئ لا يستلزمُ التَّشاؤم واليأسَ، وفيه أنَّ اللّه يريد الخيرَ لذاته بالنّاس، فهذا أصلٌ

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (مسس)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مس).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 499.

في إرادته، والشَّرُّ ليس كذلك[1]، وفي تحاشي إسنادِ الشَّرِّ إليه تعالى بوصفِه مضرَّةً مقامُ تنزُّهٍ يناسبُ ذاته العليَّةَ.

وجهُ التَّعبيرِ بفعل الكينونةِ ماضيًا:

الإنسانُ لا ييأسُ عند الضُّرِّ، بل يصِلُ في اليأس لدرجةِ الإتقانِ والتَّحقيقِ

إقحامُ فِعلِ الكون في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾؛ للدَّلالة على رسوخ الفعلِ، تعجيبًا من حاله في وقت مَسِّ الضُّرِّ إيّاه؛ لأنَّ حالة الضُّرِّ أدعى إلى التَّفكير في وسائل دفعِه، بخلاف حالةِ الإعراض في وقت النِّعمةِ، فإنَّها حالةٌ لا يُستغرب فيها الازدهاءُ والافتخارُ بما هو فيه منَ النِّعمة[2].

نكتةُ إيثارِ المصدرِ ﴿يَـُٔوسًا﴾ وتنكيره:

لا يكتفي الإنسانُ بأن يكون يائسًا بل يتسربلُ باليأس حتى يكونَ يؤوسًا

جاء قولُه: ﴿يَـُٔوسًا﴾ على بناء المبالغة (فَعول) الدّالِّ على كثرة الفعل أوِ الدَّوام عليه أوِ القوَّة في مزاولته[3]، وهو يدلُّ على ذات الشَّيء الذي يُفْعَل به الفعلُ، كالوقود اسمٌ للمادَّة أو للشَّيء الذي توقد به النّار، والوضوءُ اسمٌ للماء الذي يقع به فِعلُ الوُضوء، وكذلك (يَؤوس) يدلُّ على قوَّته في اليأس، كأنَّ له فيه عزْمًا، وعلى كثرةِ يأسِه أو دوامه عليه، وكأنَّ ذاتَه أو نفسَه وروحه صارت مادَّةً تُسْتَنْفَدُ في اليأس، وتَفنى فيه، كالوقود الذي يُستَهلكُ في الاتِّقاد، ويَفنى فيه[4].

بلاغةُ الكنايةِ في جملة الفاصلةِ:

لا يكونُ المرءُ يؤوسًا حتّى يكونَ عَجولًا

وصفُ الإنسان باليؤوس كنايةٌ عنِ استعجاله ونتيجةِ إعراضِه عن ربِّه في حال الرَّخاء؛ لأنَّه لو كان مُقبِلًا على اللّه عارِفًا به في حال النِّعمة، لدعاه ذلك إلى الإقبال عليه والتَّفاؤلِ به سبحانه في حال البلاء[5].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 141.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 193.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 193.
(4) فاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 100.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8716.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّأْيُ والإعراضُ والصُّدودُ والبُعدُ:

البُعدُ أعمُّ مِنَ النَّأيِ والإعراضِ والصُّدودِ

النَّأْيُ: هو الصَّرف والإبعادُ بقوَّة، فهو إبعادٌ يشتمِلُ على مُبالَغةٍ وشِدَّة، ولذا أسنده في الآية إلى الجانب، ولم يقل: (وبَعُد بجانبه، أو ابتعد بجانبِه)؛ ليدلَّ على أنَّه ابتعادٌ من نُفورٍ ومُجافاةٍ، فهو ليس كأيِّ ابتعادٍ[1].

والإعراضُ: هو الانصرافُ عنِ الشَّيء بِلا مُبالاةٍ وعدمُ اكتراثٍ بتوليةِ وجْهِه وإبداء عَرضِه، وهو مأخوذٌ منَ العَرض، وهو النّاحيةُ التي تُقابِل الطّولَ، ومنه العُرض بضمِّ العين، وهو النّاحية والجانبُ العريض في الشيء[2].

والصُّدودُ: مِنَ الصَّدِّ وهو المنعُ، والصَّدُّ: الحاجزُ المانع بين الشَّيئين، والصُّدودُ: الانصرافُ عَنِ الشَّيء مع حيلولةٍ وتمنُّعٍ، ففيه معنى الابتعاد بفجْوةٍ وغِلْظَة[3].

والبُعدُ: خلافُ القُرب، وهو جعلُ فُسْحةٍ ومسافةٍ بين الشَّيء والشَّيء، فلا يلتقيان، وليس لذلك حدٌّ محدودٌ، وإنَّما ذلك بحسب اعتبار المكان بغيره، فهو أعمُّ مِنَ النَّأيِ والإعراضِ والصُّدود؛ لأنَّه قد لا يكون عن قصد مُجافاةٍ أو تمنُّعٍ أو انصرافٍ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نأى)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نأو، نأى).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرض).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صد)، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدد).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعد).

﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤﴾ [الإسراء: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يَصدُرُ المرءُ في عَمَلِه عن شاكِلتِه التي اختارَ أن يكونَ عليها

لمّا ذكر في الآية السّابقةِ أنَّ حالَ الإنسان الإعراضُ أوِ اليأس، وكان هذا مفهومًا منه الحالُ الغالبةُ على المجموعِ لا الجميع؛ أخبر في هذه الآية عن سبب هذا الانقسام بينهم، وهو أنَّ كلًّا منَ الشّاكر والكافر إنّما يَصدُر في عَمَلِه عن شاكِلتِه التي اختار أن يكون عليها، قال الآلوسيُّ: "إنَّه سبحانه بعد أن ذكر حالَ القرآن بالنِّسبة إلى المؤمنين وإلى الكافرين، وبيَّن حالَ الكافر في حالَي الإنعام ومقابلِه؛ ذكرَ ما يصلحُ جوابًا لمن يقول: لمَ كان الأمرُ كذلك؟ فقال عزَّ قائلًا: قُلۡ كُلّٞ، أيْ: واحد منَ المؤمن والكافر والمُعرض والمُقبل والرّاجي والقانطِ يَعۡمَلُ عملَه عَلى شاكِلَتِهِ، أي: على مذهبه وطريقته التي تُشاكلُ حالَه، وما هو عليه في نفس الأمر، وتُشابهُه في الحسن والقُبح"[(1)].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَاكِلَتِهِۦ﴾: (شكل) من باب المُماثَلةِ واجتماع المتماثل، ومنه: شَكَلْتُ الدّابَّةَ، أي: قيّدتُها، وذلك بضمّ قوائمها المتشاكلة، والشِّكالُ: ما يقيَّدُ به، ومنه استُعير: شَكَلْتُ الكتاب، كقوله: قيَّدته، ودابَّة بها شِكالٌ؛ إذا كان تحجيلُها بإحدى رجليها وإحدى يديها كهيئة الشِّكالِ[(2)]، وقولُه: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، أي: على سجيَّته التي قيَّدته، وذلك أنَّ سلطانَ السَّجيَّة على الإنسان قاهرٌ[(3)]، وذهب

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 143.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكل).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شكل).

ابنُ عاشور إلى أنَّ أَصْلَ الشّاكلة مِنَ شاكِلَةِ الطَّريقِ، وهي الشُّعْبَةُ الَّتي تَتَشَعَّبُ مِنْهُ، قالَ النّابِغَةُ يَذْكُرُ ثَوْبًا يُشَبِّهُ بِهِ بُنَيّاتِ الطَّريقِ(1):

لَهُ خُلُجٌ تَهْوي فُرادَى وتَرْعَوي *** إلَى كُلِّ ذي نَيِّرَيْنِ بادي الشَّواكِلِ

وقال: وهذا أَحْسَنُ ما فُسِّرَ بِهِ الشّاكِلَةُ هُنا، وعليه فالمُرادُ بالشّاكِلَةِ في الآية: الطَّريقَةُ والسّيرَةُ الَّتي اعْتادَها صاحِبُها، ونَشأَ عليها(2).

2) ﴿أَهۡدَىٰ﴾: أصلُ (هدي) الرَّشادُ والبَيانُ والدَّلالةُ بلُطْفٍ إلى ما يوصِلُ إلى المَطْلوبِ، يُؤَنَّثُ، ويُذَكَّرُ، وهو لازِمٌ ومُتَعَدٍّ، يُقالُ: هَداهُ، هُدًى، وهَدْيًا، وهِدايَةً، وهِدْيَةً، وهَداهُ للدّين وإلى الدّين، أي: أَرْشَدَهُ إليه، وبَيَّنَهُ له، وعَرَّفَهُ به، وضِدُّه: الضَّلالُ(3)، والهِدايَةُ: الإرشادُ على المقصد النّافِعِ والدَّلالةُ عليه(4)، والمرادُ بقوله: ﴿أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾ في الآية: أبينُ منهاجًا، وأرشدُ طريقًا.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الله تعالى أعلمُ بالمؤمن والكافرِ وما سيحصلُ من كلِّ واحدٍ منهما

يُبَيِّنُ الحقُّ سبحانه أنَّه لا يخفَى عليه شيءٌ من أحوال النّاس وأعمالِهم، فقال: (قُلْ يا مُحَمَّدُ ﷺ مُخبِرًا للنّاسِ: كُلُّ إنسانٍ يعمَلُ على وفقِ نيَّتِه، وبحَسَب طريقَتِه التي تَليقُ به، وتُناسِبُ أخلاقَه وطَبيعَتَه، ومَذهَبَه وعادَتَه التي أَلِفَها)، فالكافِرُ يعمَلُ بما يُشبِهُ طَريقَتَه مِن مُقابَلةِ النِّعَمِ بالمعاصي، والإعراضِ عنِ المُنعِم، والمؤمِنُ يعمَلُ بما يُشاكِلُه مِن شُكرِ النِّعَم، ومَحبَّةِ المُنعِمِ بها، والثَّناءِ عليه، والتودُّدِ إليه، والحياءِ منه، والمُراقبةِ له، وتَعظيمِه وإجلالِه ﷻ،

(1) البيت منَ الطَّويل، في ديوانه، ص: 142، والأعلم الشّنتمري، أشعار الشُّعراء السّتة الجاهليين، ص: 41.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 194.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (هدي)، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 277، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 343.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 101.

فرَبُّكم - أيُّها النّاسُ - أعلَمُ بالمُؤمِنِ والكافِرِ منكم، ومَن هو أهدى طريقًا إلى الحَقِّ مِن غَيرِه، وسيُجازي كلَّ عاملٍ بعَمَلِه(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

اللّـــه أعـلـمُ بمعادنِ النّاسِ من أنفسِهم

فُصِلَتْ جملةُ ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ لتنزيلها منزلةَ البيان العامِّ والعِلَّة الفاصلةِ في تصنيف النّاس، بعد تفصيل أحوالِهم مع الحقِّ والباطل، فالمؤمنون بالقرآن ينتفعون به شفاءً ورحمةً، والظّالمون يزدادون به بُعدًا وشؤمًا؛ لأنَّهم مُنجذبون للباطل مغرورون به، فالحقُّ كريهٌ لهم، وعبءٌ عليهم، فكأنَّه كشفَ هنا عن عِلَّة هذا الانقسام، وساقه مساقَ الأمثال المَصوغة في قوالب الانفصالِ عنِ الكلام، ليصحَّ انتزاعُها والاستشهادُ بها استقلالًا في عموم مواقفِ التَّصنيف والمفاضَلةِ بين أنواع الإنسانِ في الخصائص والحقائق، ويصحُّ إجراءُ الجملة في فصْلِها عمّا قبلها استئنافًا بيانيًّا، فبينها مع ما قبلَها شبهُ كمالِ اتِّصالٍ(2).

توجيهُ التَّذييلِ في الآية:

نِعمُ الله واجبةُ التَّذكُّرِ الدّائمِ، وعواقبُ كُفرانِها وخيمةٌ

قولُه تعالى: ﴿كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ تذييلٌ؛ لِما في كلمةِ ﴿كُلّٞ﴾ مِنَ العُموم، وهذا التَّذييلُ تَنهيةٌ للغرَضِ الَّذي ابتُدِئَ من قولِه: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ [الإسراء: 66] الرّاجعِ إلى التَّذكيرِ بنِعَمِ اللّهِ تعالى على النّاسِ، في خلال الاستدلال على أنَّه المُتصرِّف الوحيدُ، وإلى التَّحذير من عواقبِ كُفْرانِ النِّعم، فهذه الجملةُ في الآية تجري مجرَى المثلِ(3).

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 65، والواحديّ، البسيط: 13/ 459، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 481، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 322.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 143.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 193 - 194.

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

افتتاحُ الخطاب بـ(قُل) مُبالغةٌ في الإلزام به والتَّنبيهِ على خطر مضمونه

فعلُ الأمر ﴿قُلۡ﴾ على حقيقته من إلزام البلاغ بما في حيّزه من مَقوله، وفي الافتتاح به إشارةٌ إلى الجُهوريَّة في الخطاب، وقوَّةِ التَّوجيه لمضمونه بطريق الأمرِ الإلزاميِّ، وشدَّةِ الانفعال لِما سيُلقَى بعده، بتصدير فِعل القولِ قبل الشُّروع فيه، للدَّلالة على أنَّه لأهمّيَّته وخطورتِه ساقَه، كما أُلقي عليه بـ﴿قُلۡ﴾، مع ما في هذه القوليَّةِ منَ الدَّلالة على التَّداوليَّة المُتَواليةِ لهذا الخطاب، فكلُّ أحدٍ سيتلوه، ويسمعُه، سيُجريه بلفظ ﴿قُلۡ﴾، فيكون إلزامًا مطَّردًا لكلِّ سامعٍ وتالٍ بخصوصِه وحسبِه.

دلالةُ التَّنوين في ﴿كُلّٞ﴾:

يعودُ النّاسُ فريقين فريقًا هدى وفريقًا ضَلَّ

التَّنوينُ في ﴿كُلّٞ﴾ للعوض عنِ الإضافة، أي: كلُّ قسم أو كلُّ فريقٍ من هذين[1]، فالتَّنوين قائمٌ مقامَ المضاف إليه الذي يقدَّرُ بما يناسبُ المقام، وحُذِفَ المضافُ لغرض الإيجاز؛ لاستيضاح مدلولِه ومعناه من غير التباسٍ.

إيثارُ لفظِ العمل:

الأعمالُ مقاصِدُ الأفعالِ

إيثار لفظ العمل من قوله: ﴿يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ للدَّلالة على القصد والإرادةِ، فهي أعمالٌ مكتسبةٌ لأصحابها من غير سهوٍ أو خطأ، بل على جهة العمد، وهذا يومئُ إلى أنَّهم مؤاخَذون على تلك الأعمال إن خيرًا وإن شرًّا.

نُكْتةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَعۡمَلُ﴾:

العادةُ أمارةُ الانطباعِ والمُلازَمةِ

التَّعبيرُ بالمضارع في قوله: ﴿يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ يدلُّ على استمرار الإنسان على إحداث الأعمالِ التي توافقُ طبعَه منَ الخير أوِ الشَّرِّ، فما يزال يتحرَّكُ بالعمل بناءً على هذا الوازعِ فيه، وفي هذا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 499.

إيماءٌ إلى ضرورة التَّوقّي من أعماله التي تصدرُ عنه طوعًا وسهولةً تَبَعًا لشاكلتِه المألوفةِ بالهوى، حتّى لا يتعسَّرَ عليه الإصلاحُ والتَّزكية بما يوافقُ الهدى.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿عَلَىٰ﴾:

شاكِلةُ الإنسانِ هي ظاهِرُه الذي يتولَّدُ عن باطنِه

﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ للاستعلاءِ المجازيِّ، كأنَّ عمَلَه سائرٌ على طريق حالِه وطبْعه الذي تَشكَّل من صفاته وعاداته، فمذهبُه وطريقتُه التي تُشاكِل حالَه أصلٌ ثابتٌ ينشأ العملُ عليها، كالأرض الثّابتة التي ينشأ عليها المرءُ في حركةِ معاشِه، وفي هذا المعنى من حرف الاستعلاء في التركيب، استعارةٌ تمثيليَّة؛ إذ شبَّه العاملين بالإيمان أوِ الكفر بناءً على طرائقهم وشواكِلِهم، بالسّائرين على طريقٍ يحدِّدُ وِجْهتَهم، ولولا هذا الطَّريقُ؛ ما كانت وِجْهةٌ ولا سَيْرٌ، فكذلك هم تتحدَّدُ أعمالهم بناءً على شواكلهم التي هي الأساسُ والأصل، وباعتبار معنى الحرف دون النَّظر لكامل التَّركيب، فالاستعارةُ مكنيَّةٌ حُذِفَ منها المشبَّهُ به، والأوَّل أحسنُ.

بلاغةُ المجازِ: ﴿شَاكِلَتِهِۦ﴾:

الشّاكِلةُ هي العادةُ والطَّبْعُ والدّينُ، وأصلُه المِثْل والنَّظير، ليدلَّ على أنَّ العملَ شبيهُ النَّفْس، وناتجُ الطَّبْع والرّوح، فهو مُحاكاةٌ لها وانعكاسٌ لِشَكْلِها[1]، وفي التَّعبير بـ﴿شَاكِلَتِهِۦ﴾ مجازٌ مرسَل علاقتُه الإطلاقُ والتَّقييدُ[2]، فالشّاكلَةُ تتعلَّقُ بالهيئةِ الظّاهرةِ فأطلقَها على الهيئةِ الكامنة.

دلالةُ الفاء:

مَنْ يعلَمُ يُجازي ويُحاسِبُ

جملةُ ﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ﴾ تفريعٌ على جملة ﴿كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ لترتُّبِها عليها ترَتُّبَ المُجازاة عنِ العمل، ولذا وصلَها بالفاء.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 265.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 577.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ﴾:

أعمالُ الإنسانِ قرينةُ الجزاءِ

قوله: ﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ﴾ كنايةٌ عنِ الجزاء والحُكم عليهم بعد الإخبار عن أعمالِهم وطرائقِهم في قوله: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، فعقَّبَ على ذلك بما يتضمَّنُ الحسابَ عليه، وهو لازمُ العِلم المذكور[1].

إيثارُ لفظِ الرُّبوبيَّةِ:

الرُّبوبيَّةُ هي علَّةُ المُجازاةِ والحسابِ

لم يقل في السّياق الكريم: (فاللّه أعلم بمن هو أهدى)؛ لأنَّه أسندَ العِلم إلى المُهتدي الذي يقتضي العِلمُ به الإحسانَ إليه ومثوبتَه، فناسب الرُّبوبيَّة إطماعًا في حذْو شاكلتِه وطريقتِه في الهدى، ولأنَّ العِلم المذكورَ هو أثرٌ من آثار الرُّبوبيَّة، وهي العلمُ بخَلْقِهم وصورِهم، بما يُؤذِن بالإحاطة بأعمالهم وأحوالِهم، وهذا من أفعال الرُّبوبيَّة، كأنَّه قال: (ربُّكم الذي خلقكم وصوَّركم هو الأعلمُ بشاكلتِكم)، فالرُّبوبيَّةُ هي عِلّةُ المجازاة على جهة التَّفصيل، و"الرَّبُّ: المُتولّي للتَّربية، والمُتولّي للتَّربية - لا شكَّ - يعلمُ خبايا المُربَّى، ويعلمُ أسرارَه ونياته"[2].

إضافةُ لفظِ الرُّبوبيَّةِ إلى ضميرِ الخطابِ الجمعيِّ:

الإيمانُ بربوبيَّة اللهِ يُنافي التَّشاؤمَ

أضاف لفظَ الرُّبوبيَّة إلى ضمير الخطابِ الجمعيِّ ﴿فَرَبُّكُمۡ﴾؛ لترغيب المهتدي في الاستمساك بسبيلِه منَ الهدى، فالخطابُ لتثبيته وتشريفه، ولاستمالة المُعرِضِ ألّا يتشاءمَ أو ييأس، ففيه تعريضٌ به بمواجهته بخلاف حالِه.

دلالةُ التَّفضيل في قوله: ﴿أَعۡلَمُ﴾:

التَّفضيلُ مُؤْذِنٌ بكمال الصِّفةِ

جاء بناءُ التَّفضيل في قوله: ﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ﴾ لغير قصد المفاضلةِ، فاسمُ التَّفضيل قد يُستعمَلُ لا لتفضيل شيءٍ على شيءٍ

---

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 332، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 194.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8717.

آخَرَ معيَّن، بل قد يُرادُ به مجرَّدُ الزّيادة في أصل الوصفِ، فيُرادُ باسم التَّفضيل تجاوزُ صاحبِه وتباعدُهُ عنِ الآخر في الفعل، لا بقصدِ تفضيله بالنِّسبة إلى غيره، بل بمعنى: أنَّ صاحبَه متباعِدٌ في أصل الفِعل، متزايدٌ في كمال الصِّفة، فيفيدُ التَّفضيل المطلَقَ والكمالَ المتفرِّدَ، وهذا هو المرادُ من قوله: ﴿أَعْلَمُ﴾[1].

معنَى الباء في ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ﴾ للتَّعدية، فاسمُ التَّفضيل لا يتعدّى بنفسه إلى المفعول، بل يتعدّى بوساطة حرف الجرِّ، فإن كان من فعلٍ دالٍّ على علمٍ أو جهلٍ؛ عُدّي بالباء[2].

عِلمُ الله لَصيقٌ بالمعلومات كشفًا لها وإبانةً عنها

إيثارُ الموصول (مَن) دون غيره:

إيثارُ التَّعبير بـ(مَنْ) في قوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ﴾ دون غيره منَ الموصولات، للدَّلالة على الذّواتِ العاقلةِ المُكلَّفة، واستعملَ الموصولَ المشترك دون الخاصِّ، ليدلَّ على الذَّكر والأنثى في عِلمِه بهما على السّواء، ولذا لم يقل: (أعلم بالذي).

النِّساءُ شقائقُ الرِّجال في التَّكاليفِ والعواقبِ

نكتةُ التَّعبير بالضَّمير ﴿هُوَ﴾:

ذُكِرَ الضَّمير المنفصل في قوله تعالى: ﴿بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ﴾، ولم يقل: (أعلم بمن أهدى)، للمبالغةِ في تعيين كلِّ عاملٍ بذاته.

كلٌّ مرصودٌ تحتَ عِلمِ الله

دلالةُ صيغةِ (أفعل) في ﴿أَهْدَىٰ﴾:

عبَّر بصيغة التَّفضيل في ﴿أَهْدَىٰ﴾ من قوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾؛ لأنَّ العِلم بالأفضل يقتضي العلمَ بالمفضول، ولأنَّ الآياتِ في سياق القرآن وتنزُّله بالرَّحمة والشِّفاء، فكأنَّه قال: الأليقُ بالقرآن أنْ يَصِل للدَّرجةِ القُصوى بالعبدِ في الهداية، وهو المُعبَّر عنها باسم التَّفضيل، فاصطفاه لذلك، وأيضًا هو سبحانه قال:

كلَّما حدث تنزُّلٌ بالشِّفاء والرَّحمةِ؛ حدثَ معه قدرٌ زائدٌ في الهداية

---

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 39، وفاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 313.

(2) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 313.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، فكلَّما حدثَ تنزُّلٌ بالشِّفاء والرَّحمة؛ حدثَ معه قدرٌ زائدٌ في الهداية، حتى يصِل إلى كمال الصِّفةِ وإلى درجتها القُصوى، فناسَبَ ذلك التَّعبيرُ بـ﴿أَهْدَىٰ﴾.

بلاغةُ اصطفاءِ جملةِ الفاصلةِ دون مُقابِلِها:

الإعراضُ قد يَصدرُ عن تصبُّرٍ وإمهالٍ، لا عن مجافاةٍ وإغلاظٍ

لم يقل في السّياق الكريم: (أعلم بمن أضلَّ سبيلًا)، بل قال: ﴿أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾، مع أنّ السّياقَ يشمل الفريقَين، ولكنَّه ذكرَ الأهدى دون الأضلِّ، ونكتةُ ذلك: ليدلَّ على أنَّ الأصلَ الذي يقوم عليه القرآنُ الكريم هو الهدى، وأمّا الضَّلالُ الحاصلُ؛ فليس بسببه أصالةً، بل بسبب زيْغِ قلوبِهم عنه، وأيضًا: توافقًا مع المقام، فإنَّه نسبَ الإنعام إلى ذاته، ونسب الشَّرَّ لغير ضميره، فوافق هنا ألّا يُسنِد عِلمَه إلّا إلى جانب الهداية، أو طوى ذِكْرَ (مَنْ أضلّ) إعراضًا عنه على جهة الوعيدِ له، ففي الإعراض وعيدٌ، أو طوى ذِكْرَه إفساحًا له وإمهالًا؛ لينضمَّ لسبيل المهتدين المذكورين، فلم يذكُرْه لا للإعراض والمُجافاة، بل للإمهال والصَّبرِ عليه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشّاكِلةُ والمِثْلُ والنَّظيرُ:

إطلاقُ الشّاكلةِ على المُتَّصفِ طَبْعُه وروحُه مع هيئته وصورته

الشّاكِلَة: من الشَّكْل: وهو الهيئةُ والصّورة، وأصلُه منَ الشَّكْل وهو تقييدُ الدّابَّة بالشِّكال، أي: القيد[1]، ولذا اختُصَّ الشكلُ بالهيئة والصّورة؛ لأنَّ المرءَ مُتَقَيِّدٌ بهما، لا ينفكُّ عنهما، ولأنَّهما أوَّلُ ما تقع فيه المُحاكاةُ والمُماثلة، والمُشاكلَة: المُماثَلةُ حين تقعُ فيهما، أي: في الهيئة والصّورة، والشّاكِلَة: اسمُ فاعل للمُتَّصِف بذلك، أي: بمن تماثَل طَبْعُه وروحُه مع هيئته وصورته، وهو كنايةٌ عنِ اتّحاد الحال

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكل).

وعدمِ تعدُّد الوجوهِ، فله حالٌ واحدة ووجْهٌ واحدٌ، ولذا كان إطلاقُ الشّاكلة على الباطن والجوهر مجازًا؛ لأنَّها تتعلَّقُ بالهيئة والشَّكل والصّورة الظّاهرة لا الخفيَّةِ، ولكن لمّا كان الأصلُ اتِّحادَ الباطن مع الظاهر في هيئته وصورته، بحيث يتماثلان، ولا يتنافران؛ شبَّه الطَّبْعَ والسَّجيَّةَ المعتادة بالصّورة والهيئة في اعتيادهما وعدمِ تغيُّرِهما، على جهة الاستعارة التَّصريحيَّةِ، أو أطلقَ الشّاكلةَ التي يرادُ بها الهيئةُ والصّورةُ الظاهرة، وأراد بها الهيئةَ النَّفسيَّة الباطنةَ على طريقة المجازِ المرسلِ بعلاقة الإطلاق والتَّقييد[1]، ومن هنا كان اختيارُ لفظِ الشّاكلة أنسبَ لسياق الآيةِ بكونِه وصفًا لمن تماثَل طَبْعُه وروحُه مع هيئتِه وصورتِه.

والمِثل: أصلُ (مثل): انتصابُ الشَّيء على صورةٍ معيَّنةٍ، ومنه: (المِثْل)، وهو المُشابِه الذي يُحاكي الشَّيء في صورتِه وأجزائه، وتقعُ المُماثلة في الاتِّفاق الكيفيِّ بين شيئين؛ لأنَّها مُشابَهةٌ في التَّفاصيل والكيفيّاتِ الدَّقيقةِ، ولذا أطلِقَ المَثَلُ على الصِّفة والحالِ العجيبةِ للشَّيء، لوقوعها على مِثالِ كيفيَّةٍ معيَّنةٍ ومخصوصةٍ[2].

والنَّظيرُ: من (نظر) وهو تقليبُ البصر وتوجيهُه إلى جهة المنظور، ومنه النَّظيرُ: وهو الشبيه المُماثِل؛ لأنَّهما سواءٌ في نَظَر الرّائي، أو لأنَّ التَّشابه بين النَّظيرَين يُعرَف بمجرَّد النَّظر، أو لأنَّ آلةَ إدراكِ المماثلة بينهما النَّظرُ[3]، ولذا يُقال: النَّظيرُ في التَّشابه المعقول بنظرِ العقل، أوِ التَّشابه المحسوس بنظر العَيْن، وهو أخصُّ منَ (الشَّكل)؛ لأنَّ الشَّكل يقعُ في عموم الهيئةِ والصّورة من غير اعتبارٍ بآلةِ ذلك، أمّا النَّظير؛ فيُراعَى فيه التَّقيُّدُ بفِعل الآلة، وهو النَّظَرُ بمواجهةِ البصر أوِ البصيرة للشَّيء، وأمّا المثيلُ؛ فهو أخصُّ - أيضًا - لأنَّه يتعلَّق بحال الانتصابِ والظُّهورِ التي يقع عليها المُحاكاةُ في النَّمط والتَّفصيل، فهو أكثر دِقَّةً في التَّشابه.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 577.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مثل).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نظر).

السَّبيلُ والطَّريقُ والجادَّةُ:

السَّـبيلُ هو الطَّريقُ الذي يتحدَّرُ بسالِكِه لسهولتِه

السَّبيلُ: هو الطَّريق السَّهلةُ المعبَّدة؛ لأنَّ أصلَ (سبل) يدلُّ على إرسال الشَّيء من أعلى إلى أدنى[1]، فيتحدَّر في سهولةٍ، فكذا السَّبيلُ هو الطَّريقُ الذي يتحدَّر بسالكه لسهولتِه، **والطَّريقُ:** مِنَ الطَّرْق، وهو الضَّربُ، وهو السَّبيل الذي يُطرَقُ بالأرجل في الأرض[2]، سواءٌ كان سهلًا أم وعِرًا، فهو أعمُّ، وأمّا الجادَّة؛ فهي القِطعةُ السَّويَّة مِنَ الطريق، فهي أسلمُ وأكملُ ناحيةٍ فيه، وأصلُ (جدد) القطْعُ، فكأنَّ الجادَّةَ قُطِعتْ مِنَ الطَّريق واختيرتْ للسُّلوك السَّويّ[3]، ويُلاحظُ في معنى **الجادَّة**: القطعُ والمُفاصَلَةُ، وفي معنى السَّبيل: الإرسالُ والتَّسهيل، ولذا قال هنا: ﴿أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾، ليدلَّ على سهولة الهدايةِ في اعتناقها؛ لأنَّها مُرسَلَةٌ في النَّفْسِ مُنسابَةٌ فيها بأصل الفطرة، فلا عُسْرَ فيها، ولا عَنَتَ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سبل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طرق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جدد).

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّغاضي عن ملاحظةِ النّاسِ دليلُ نقاوةِ الرّوحِ

لمّا ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ شاكِلةَ الإنسانِ التي تَصدُرُ أعمالُه عنها، وكانت هذه الشّاكِلةُ موصولةً بروحِ الإنسانِ وسِرِّه، فلا اطِّلاعَ على نيَّةِ الإنسانِ في عملِه إلّا له سبحانه؛ لئلّا ينشغلَ النّاسُ بأعمالِ بعضِهم بعضًا منَ الإعراضِ واليأسِ أوِ الإيمانِ والتَّفاؤلِ؛ أخبرَ في هذه الآيةِ عن مُتعلَّقِ هذه النيّاتِ وتلك الأعمالِ والأحوالِ، وهي الرّوحُ التي لا يعلمُ سِرَّها أحدٌ سواه سبحانه[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرُّوحِۖ﴾: أصلُ (روح) مُطَّرِدٌ يَدُلُّ على سَعَةٍ وفُسْحَةٍ واطِّرادٍ، وأَصْلُ ذلكَ كُلِّهِ الرِّيحُ، وأَصلُ الياءِ في الرِّيحِ: الواوُ، وإنَّما قُلِبَتْ ياءً لِكَسرَةِ ما قَبلَها، فالرّوحُ روحُ الإنسانِ، وإنَّما هو مُشْتَقٌّ مِنَ الرِّيحِ، وكذلكَ البابُ كُلُّهُ[2]، والرّوحُ: يُطْلَقُ على المَوْجودِ الخَفيِّ المُنْتَشِرِ في سائِرِ الجَسَدِ الإنْسانيِّ الَّذي دَلَّتْ عَلَيْهِ آثارُهُ مِنَ الإدْراكِ والتَّفْكيرِ، وهو الَّذي يَتَقَوَّمُ في الجَسَدِ الإنْسانيِّ حينَ يَكونُ جَنينًا بَعْدَ أَنْ يَمضيَ على نُزولِ النُّطْفَةِ في الرَّحِمِ مئةٌ وعِشْرونَ يَوْمًا[3]، ويُطلَقُ على جبريلَ، كما في قَولِه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشُّعَراء: 193 - 194]، والرّوحُ: المَلَكُ، قالَ تعالَى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ [مَرْيَم: 17]، أيْ: مَلَكًا مِنْ مَلائِكَتِنا، والمرادُ بالرّوحِ في الآيةِ: بَعْضُ الأَشْياءِ العَظيمَةِ الَّتي هيَ للهِ[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 391.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (روح).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 196.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 198.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

إذا كانَ الإنسانُ في معرفة نَفْسِهِ جاهلًا حقيقتَها؛ كان عَجْزُهُ عن إدراكِ حقيقةِ الحقِّ أَوْلَى

ذَكَرَ اللّه تعالى بعضَ الأسئلةِ التي كانت توجَّهُ إلى الرَّسولِ ﷺ، وهذا منها، فقال: (ويسألُك الكُفّارُ عن ماهيَّةِ الرّوحِ الَّتي بها الحياةُ؛ ما حَقيقتُها؟ قُلْ لهم: الرّوحُ مِن شَأنِ رَبّي، استأثَرَ بعِلمِها؛ فهو الَّذي خَلَقها، ولا يعلَمُ حَقيقَتَها أحدٌ غيرُ اللّه، وما آتاكم اللّهُ - أيُّها النّاسُ - مِنَ العِلْمِ إلّا شَيئًا قَليلًا ممّا يَعلَمُه سُبحانَه)(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في الآية:

الجدالُ والمِراءُ ديدنُ مَن لا يريدُ الهداية

(الواو) في ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾: للاستئناف، وهي في نظمها هذا، إنَّما تنادي بصوتٍ عالٍ فاضح لهؤلاء الذين يسألون هذا السُّؤالَ الذي لا يريدون به هُدًى، ولا يَبغون منه معرفةً، وإنَّما هو المِراء والجدلُ، واللَّجاجُ في الضَّلال والعنادِ(2).

موضوعُ الأسئلةِ كاشِفٌ عن موضوعِ الأفكارِ

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتُقِل فيه إلى الإخبار عن سؤالهم عنِ الرّوح - حقيقتِها وأحوالِها - وهو وإن كان استئنافًا جديدًا عمّا قبله، إلّا أنَّه بديعُ المناسبة معه، وهو أنَّه في الآية السابقة أخبرَ عنِ الشّاكِلة: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ وشاكِلةُ الإنسان كائنةٌ في روحِه ساريةٌ فيها، فجاء هنا، وأخبر عن مثالٍ يتعلَّق بذلك، فسؤالُهم عنِ الرّوح تمثيلٌ للعمَل الصّادرِ عنِ الشّاكلة، فبحسبِ حقيقة الإنسان يكون سؤاله وفِكْرُه، ويتحدَّدُ منه تصنيفُ موقِعه منَ الخير والشرِّ والصَّواب والخطأ، وكأنَّ الإخبارَ بسؤالهم عنِ الرّوح تعريضٌ بسوء شاكِلتِهم وتشوُّهِ أرواحِهم؛ لأنَّ الرّوحَ هي الوعاءُ الذي تستقرُّ فيه رحمةُ القرآن وشفاؤه، فالشِّفاءُ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 67، 71، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 324، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 466.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 539.

والرَّحمة المذكوران في قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ﴾ المقصودُ بهما الأرواحُ التي يتوزَّع منها ما استقرَّ فيها على الأبدانِ والأحوال، والآيةُ هذه مع ما قبلها عجيبٌ ترتيبُها؛ لأنَّه بقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ﴾ أشار إلى أدويةِ الأرواح من خارجها، وبقوله: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أشار إلى هذه الأرواح المتشكِّلةِ بأعمالها مِنَ الخير والشَّرِّ، فمن شاء؛ استشفى، واسترحمَ بدواء القرآن المذكورِ، ومن شاء؛ أعرض، وخسِرَ نفْسَه وروحَه، وبقوله: ﴿ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أشار إلى أنَّ هذه الرّوحَ في حقيقتها من مكنونات عِلم الغيب، ومع ذلك لا ترتابون في وجودها، ولا تنكرونَها؛ لأنَّكم تعرفونَها بآثارها وأعراضِها، فكيف يَكفرون بتنزُّلِ القرآن، وقد وجدوا آثارَه، وشهِدوا مَصاديقَه؟ ولا يخفَى ما في ذلك مِنَ الإشارة إلى أنَّهم مُمتَحَنون بتعاطي ما يَصونُ هذه الرّوحَ منَ الذِّكر الحكيم، وليسوا مَعنيّين بمعرفة حقيقتها وكيفيِّتها.

إيثارُ صيغةِ المضارعِ المجموعِ في قوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾:

صيغةُ المضارعةِ تُصوِّرُ حالةَ التَّناوُبِ في صدورِ السُّؤالِ منهم

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع في هذا السّياقِ لاستدعاء الصّورةِ المتواليةِ لِلفعل، فضميرُ الجمع يدلُّ على أنَّ السُّؤال صدَرَ عن عدَدٍ، وصيغةُ المضارعة تصوِّرُ حالةَ التَّناوبِ في صدورِ السُّؤالِ منهم، فهذا يسألُ، وهذا يسأل، فالفعلُ بينهم مُتوالٍ ومتجدِّدٌ بِتَوارُدِ السّائلين حول الغرضِ الواحد، وصيغةُ المضارع تدلُّ على أنَّ الحدثَ لم يكن عارضًا سُئِل عنه، وانقضى زمنُه سريعًا، بل استمرَّ إلحاحُهُ في مَواجيدِهم حتى استتمّوا بيانَه، واستكمالُ الجواب يقتضي تَدرُّجَ الذِّهْن في استيفاء أجزائه، وهذا التَّدرُّجُ مَلحوظٌ بقوَّةِ المُضارَعة، وفائدةُ ذلك: أنْ يَقعَ التَّسليمُ في شأنِ الرّوح منَ النّاس في كلِّ عصرٍ، فكأنَّ فِعلَ السُّؤالِ ما زالَ جاريًا في كلِّ جيلٍ، ويُجابُ عليهم بِجوابِه كلَّ حين.

السِّرُّ في وضعِ المُضمر موضعَ المُظهر في قوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾:

شهرةُ الفاعلِ من مُسوِّغات إضمارِه

وُضِعَ المُضمرُ موضِعَ المُظهَر، فلم يقلْ: يسألك النّاسُ، لِشهْرةِ السّائِلين وتَعيُّنِهم، وهُم فئةٌ مِنَ اليهود، أو مِنَ المشركين بتحريضٍ منَ اليهود، فلمّا كان السّائلُ عن هذا السُّؤالِ معلومًا مُعيَّنًا وقْتَ نزولِ الآية؛ انصرف هذا اللَّفظُ إليهم مِنْ غيرِ التَّصريحِ بهم، لِتَوفُّرِ العنايةِ على إظهارِ المسؤولِ عنه، وهو أمرُ الرّوح، دون فاعِلِ السُّؤال، فأظهرَ ما المقامُ أحوجُ إلى إظهاره من غيره.

الاسْتِغناءُ عن ذكرهم تجهيلٌ لهم يناسبُ مقامَهم

والحديثُ عنِ السّائلين "بضمير الغيبة (الواو) في ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ دون أن يجري لهم ذكرٌ؛ تجهيلٌ لهم، وإتاحةُ الفرصة لمنِ اشترك في هذه الجريمة أن يفرَّ بنفسه، وأن يطلب السَّلامةَ بالبُعد عن هذا الموطن، الذي من ضُبط فيه متلبِّسًا بهذا التَّساؤل - المنحرفِ عن طريق الاستفادةِ والمعرفة - كان في وجه الاتِّهام والمؤاخذةِ"[1].

توجيهُ عوْدِ ضميرِ الجمعِ في ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾:

اليهودُ هم الأولى بوصف العِلم من المشركين

الضَّمير لليهود أو إلى قريشٍ بإيعازٍ مِنَ اليهود، ففي الحالَين مَرجِعُ السّياق لليهود؛ لأنَّهم المَعنيّون بمسائل العِلم مِنَ المشركين، فحتّى لو كان الضَّميرُ للمشركين، فمَردُّ الجوابِ إلى مَنْ حرَّضَهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بحرف الجرِّ ﴿عَنِ﴾ وفائدتُه:

التَّعْدية بِ(عن) تفيدُ السُّؤالَ عن حكم الشَّيءِ لا سؤالِ الشَّيءِ

تعدّي الفِعل ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ بـ﴿عَنِ﴾؛ لأنَّهم سألوا عنِ الحقيقة والمعنى، فالكلامُ على حذف مضاف، أي: يسألونك عن ماهيةِ الرّوح، ولا يصحُّ أن يتعدّى الفِعل بنفسِه؛ لأنَّ الرّوح ليستْ ذاتًا أو عيْنًا تُعطَى.

دلالةُ التَّعريف في ﴿ٱلرُّوحِۖ﴾:

التَّعريفُ في ﴿ٱلرُّوحِۖ﴾ للجنس، أي: حقيقةُ الجوهر الموجودِ الذي

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 539.

الرّوحُ هي وعاءُ استقبال القرآن ومحلُّ فيضِه بالشِّفاءِ والرَّحمةِ

تصيرُ به الأجسام حيَّةً، والمراد: أرواحُ المخلوقات، والرّوحُ هو ما يُجْعَلُ في مقابلة البدَن[1].

بلاغةُ الفصلِ في جملة ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ﴾:

لا يُجيبُ رسولُ الله إلّا بوحْيٍ

فُصِلتْ جملةُ ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ لوقوعها جوابًا عن جملة السُّؤال في قوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾، فبين الجملتَين شبهُ كمالِ اتِّصال، وجملةُ الجواب استئنافٌ بيانيٌّ[2].

بلاغةُ تَكرار لفظِ ﴿ٱلرُّوحُ﴾:

التَّكرارُ أمارةُ العنايةِ والتَّأكيدِ

لم يقل في السّياق الكريم: (قل هي من أمر ربّي) اعتمادًا على الظّاهر قبلَه، فأظهرَ في مقام الإضمار إظهارًا لكمال الاعتناءِ بشأن المسؤول عنه[3]، ولتجريَ جملةُ الجواب مجرى الأمثال بإيرادِها استقلالًا عن جملة السُّؤال، وهذا يستوجبُ الإظهارَ.

معنى ﴿مِنۡ﴾، وسرُّ تخصيصِ الأمرِ بالذِّكْر:

الرّوحُ من مكنوناتِ الغيبِ التي اختصَّ الله بعلمِها

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ تبعيضيَّةٌ، وقيل: بيانيَّةٌ، والأمرُ بمعنى الشَّأن، والإضافةُ للاختصاص العلمي لا الإيجادي، على معنى: (الرّوح من عِلم ربّي) لا بمعنى (من خلْق ربّي)؛ إذ ما من شيءٍ إلّا وهو مضافٌ إليه ﷻ بهذا المعنى التَّكويني، ففيها من تشريف المضاف ما لا يخفى، أي: هي من جنس ما استأثر اللّه تعالى بعلمه مِنَ الأسرار الخفيَّةِ التي لا تكاد تدركُها عيونُ عقول البشر[4]، وإشارةٌ إلى أنَّه لا سببَ من غيره يتوسَّطُ بينها وبين أمره، بل هو يُبدعُها مِنَ العدم[5].

حقيقةُ النّهي أمرٌ بالتَّركِ

(الأمرُ) بمعنى الشَّأنِ، وخُصَّ بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَمۡرِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 501.
(2) صافي، الجدول: 15/ 105.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 192.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 192.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 501.

﴿رَبِّي﴾؛ لأنَّ النَّهيَ في حقيقته أمرٌ بالتَّرك للمنهيِّ عنه، ومجانبتِه، فهو داخلٌ حكمًا في الأمر[1].

إيثارُ الرُّبوبيَّة دون غيرها من أسمائِه سبحانه:

لا يطَّلعُ على حقائقِ الأرواحِ وما فيها إلّا باريها

أسندَ الأمرَ إلى وصف الرُّبوبيَّةِ في قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ للإشارة إلى أنَّها سِرُّ خلْقِه وتكوينِه الغيبيّ[2].

وجهُ إضافةِ الرَّبِّ إلى ياء المتكلِّم:

أكَرَمَ نفْسَه من وصَلَ باللهِ نفسَه

أضاف الرُّبوبيَّةَ إلى ياء المتكلِّم في قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ تَعظُّمًا منه بذاتِ الجليل سبحانه، وإكرامًا لنفْسِه بإضافتِها لربِّها، وإشارةً إلى أنَّ هذه الرّوحَ موصولةٌ بربِّ العالمين الذي أوجدها، وإذا كانت كذلك؛ فلا استغرابَ أنْ يختصَّها بما يحجبُ حقيقتَها عن علوم الخلْق وإدراكِهم، ولا يخفَى ما فيه من تشريف الأرواحِ بأنَّها من مكنوناتِ عِلم ربِّنا سبحانه.

دلالةُ العطفِ بالواو:

يكفي في الجوابِ تمامُ البيانِ ولو لم يقعْ على قصدِ السّائلِ

جملة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ تذييلٌ بتعليلِ الجواب المذكور بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾، فهذا الجوابُ صرفٌ عنِ الاستعلامِ عن حقيقتِها بتقرير أنَّها من مكنونات الغيبِ، وجملة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ تعليلٌ لذلك، فكأنَّه قيل: لا يصحُّ الإفصاحُ عن حقيقتِها؛ لأنَّ عِلمَكم القليلَ غيرُ صالحٍ للكشْف عن مِثْل هذه الحقيقة، فلا تَعلُّقَ له بها البتَّة[3].

بلاغةُ النَّفيِ بـ(ما):

نقصُ العلمِ مانعٌ من كمالِ الحقيقةِ

(ما) تأتي ردًّا على قولٍ أو ما نُزِّل هذه المنزلةَ، وهي هنا على هذا النَّحو، فإنَّ جملة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ داخلةٌ في حيِّز الرَّدِّ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 541.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4446.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 146.

عليهم وجوابِهم، كما أنَّها ردٌّ على اليهود في تباهيهم بِعلْمِ التَّوراة، وهي تأتي لنفي الماضي القريبِ منَ الحال، وقد تأتي لنفي الماضي البعيدِ كذلك، وهذه الآية من هذا القبيل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: ما حصل لكم منَ العلم في الماضي البعيد أوِ القريب هو قليلٌ، وهي تنفي الحدثَ الماضي بصورتِه التّامَّة المنقضيةِ إلى قُبَيْل اللَّحظة التي وقع فيها خطابُهم[1].

سِرُّ الخطابِ بالفعلِ المبنيِّ للمفعولِ ﴿أُوتِيتُم﴾:

جاء الفعلُ ﴿أُوتِيتُم﴾ بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعِلُه، لتعديد مصادرِ العِلم وجِهات إمدادِه، وفيه: تعميمٌ لأنواع العِلم ذاتِه.

عِلْمُ الإنسانِ ناقِصٌ لنقْصِ جوهرِ الإنسان في ذاتِه

معنى ﴿مِّنَ﴾ في ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بيانيَّةٌ، لتعيين جنسِ الشَّيءِ المُؤتَى.

الأصلُ في العِلمِ الموهبةُ قبلَ الكسْبِ

دلالةُ تعريفِ العلم:

(أل) في ﴿ٱلْعِلْمِ﴾ لتعريف الجنس[2]؛ لإفادة العِلم بعمومه في أنواعه، فيدخلُ فيه عِلمُ الدُّنيا وعِلمُ الدّين، وسائرُ العلوم التي يُستعان بها على إدراك الحقائقِ وتحصيلِ الكواشفِ.

عِلمُ المخلوقاتِ في مجموعِهم ناقصٌ، فكيف بآحادِهم؟

بلاغةُ الكنايةِ والتَّعريضِ في جملة الفاصلةِ:

في جملة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كنايةٌ عنِ استجهال المُخاطَبين منَ اليهود وغيرهم ممّن حذا حذوهم، ممّن يستكثرُ بالعِلم تباهيًا واغترارًا، وقد قالوا: أوتينا علمًا كثيرًا - التوراةَ - ومن أوتي التَّوراةَ؛ فقد أوتي خيرًا كثيرًا، فكأنَّه يقول لهم: جهلُكم أكثرُ من عِلمكم، فنِسبتُكم إلى الجهل أقربُ إليكم من نِسبتِكم إلى العِلم، أو ما عندكم منَ العلم النّاقصِ لا يستأهِلُ إدراكَ ما يُحتاجُ في إدراكِه إلى العلم الكاملِ.

قصورُ الآلةِ مُؤْذِنٌ بقصورِ عمَلِها وأثَرِها

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 193.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 503.

وجهُ تنكيرِ ﴿قَلِيلٗا﴾:

تفاوتُ النِّسبةِ في إسنادِ الصِّفاتِ إلى أصحابها

تنكيرُ ﴿قَلِيلٗا﴾ للتَّهوينِ والإقلال من موصوفِه؛ أي: شيئًا قليلًا هيِّنًا قاصِرًا عنِ الإحاطة بكثيرٍ من حقائق المعلوماتِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّفسُ والرّوحُ:

النَّفْسُ تُطلقُ على عمومِ التَّكوينِ وهو الذّاتُ المُنقسِمةُ للبدنِ والرّوحِ

النَّفْس - بسكون الفاء - هي مَحلُّ تَرَدُّدِ النَّفَسِ وقيامِه وخروجِه، والنَّفَس - بفتح الفاء - هو مادَّةُ الرّيحِ والنَّسيمِ الخارِجِ من جَوفِ الحيِّ إلى مِنْخارِه، وهو دليلُ حياتِه وأمارةِ تعلُّقِ الرّوحِ ببدنِه، والرّوحُ: هي الجوهرُ اللَّطيفُ الخفيُّ المُنْسابُ في البدن والمُستغرِقُ له، وهو سببُ قيامِ الحياةِ والحركة بالحيِّ، فهي مادَّةُ الحياة، وأصلُ (روح) يدلُّ على سعةٍ وانبساطٍ واطِّرادٍ وشمول، وهذه المعاني مشمولةٌ في روحِ الحيِّ؛ لأنَّ الرّوحَ كائنةٌ فيه على تلك الوجوه[1].

والنَّفْسُ أعمُّ منَ الرّوحِ؛ لأنَّ النَّفْسَ تُطلقُ على عموم التَّكوين وهو الذّاتُ المنقسِمةُ للبدن والرّوح، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: 28]، وتُطلَقُ على الرّوح خاصَّة دون البدن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ [الأنعام: 93]، وأمّا الرّوحُ؛ فهي قسيمةُ البَدن، فهي جزءٌ منَ الذّات، وليست هي الذّات، وهي مادَّةُ الحياة والحركة في الجِسم، ولذا كان خروجُ النَّفَسِ من وعاء النَّفْسِ دليلًا على وجودها وتعلُّقِها بالبدن، ولذا أُطْلِقَتِ الرّوحُ على النَّفَس، تعريفًا للشَّيء بأثَرِه، وإلّا فبينهما فرقٌ، فالنَّفَسُ معلومُ الماهية، والرّوحُ غيرُ معلومة، وعليه: فالنَّفْسُ أوسعُ مِنَ الرّوح، وهي

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (روح، نفس).

الوعاء الكاملُ منَ الرّوح والبدن، والرّوح جزءٌ وبعضٌ منها، ويدلُّ على ذلك: أنَّ الرّوح لا تُنسَبُ للميّت، وأمّا النَّفْس؛ فتُقال على الميّت والحيِّ، ويرى الرّاغبُ الأصفهانيُّ رحمه اللّه أنَّ "النَّفْس بعضُ الرّوح كتسمية النَّوع باسم الجنس، نحو تسميةِ الإنسان بالحيوان"(1)، وهذا ليس بظاهر، بناءً على ما تقدَّم.

(1) الرّاغب، المفردات: (روح).

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦﴾ [الإسراء: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأمرُ لا يتعلَّق بذاتِ الأشياء خفاءً أو ظهورًا، بل بمشيئة الله لها أن تكون كذلك

لمّا ذكرَ في الآية السّابقة عِلْمَ الرّوح الذي استأثر به دون العالمين من خلْقِه، وكان ذلك من خوارق إبداعِه وقدرتِهِ: أنْ يخلُقَ في النّاس شيئًا يوقِنون بوجوده، ولا يعلمون شيئًا عن حقيقته؛ فأجرى عليهم اليقينَ وضِدَّه في الشيءِ نفْسِه، بل ويُسْلَبُ منهم بالموت، ولا يعرفون كيف يُسلَب، ولا يرونه، وهو يُسْلَبُ، ولا يقدرون على استرداده بعد سلْبِه، ولا يتعلّق عِلْمُهم بشيءٍ من هذا أبدًا، فأخبَر هنا في هذه الآية عن أنَّ هذا العجْزَ في العِلم والقُدرة هو ذاتيٌّ فيهم، فلا يتعلَّقُ لشيءٍ في الرّوح ذاتِها لخفائِها أو مجرَّدِ طبيعتها، فلو شاء اللّهُ؛ لسَلَبَ منهم روحًا أخرى يشهدون تنزيلَها، ويعلمون بها، وهي روحُ القرآن، روحُ الوحي، ومع ذلك سيعجزون عنِ استرداده، ولا يقدرون عليه برغم عِلمِهم به وشهودِهم له، لإثبات أنَّ الأمرَ لا يتعلَّق بذاتِ الأشياء في خفائها أو ظهورِها، بل يتعلَّق بمشيئة اللّه الذي أراد للأشياء أن تكون في محلِّ الخفاءِ أوِ الظُّهور، ومع ذلك لا يقدرون عليها في الحالَيْن؛ إذا سُلِبَتْ منهم، ولا يعلمون بها حقَّ العِلم، وهي بين أيديهم، وكائنةٌ فيهم، قال الرّازي: "اعلم أنَّه تعالى لمّا بيَّن في الآية الأولى أنَّه ما آتاهم منَ العلم إلّا قليلًا؛ بيَّن في هذه الآية أنَّه لو شاء أن يأخذَ منهم ذلك القليلَ أيضًا؛ لقدرَ عليه، وذلك بأن يمحو حفظَه منَ القلوب وكتابتَه منَ الكتب، وهذا وإن كان أمرًا مخالفًا للعادة إلّا أنَّه تعالى قادرٌ عليه"[1].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 405.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾: أصلُ (وحي) يَدُلُّ على إلقاءِ عِلْمٍ في إخْفاءٍ أو غَيْرِه إلى غَيرِكَ، والوحْيُ: الإشارةُ السَّريعة، ولتضمُّنٍ السُّرعة، قيل: أمرٌ وحْيٌ؛ وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض، وقد يكون بصوتٍ مُجرَّدٍ عنِ التَّركيب، وبإشارةٍ ببعض الجوارح، وبالكتابة[1]، وكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إلى غَيْرِكَ حَتَّى عَلِمَهُ؛ فهو وحْيٌ كيفَ كانَ[2]، والوحْيُ: الإعلامُ مِنَ الله بِواسِطَةِ المَلَكِ، وأَوْحى إليه: بَعَثَه، وأَوْحى إليه: أَلْهَمَه[3]، واستَوْحَى الشَّيْءَ: حرَّكه، ودعاهُ ليرسله[4]، والمقصودُ بالوحْيِ في الآية: إفادَةُ المَقصودِ بِطَريقٍ غَيْرِ الكلام[5].

2) ﴿وَكِيلًا﴾: أَصْلُ (وكل) يَدُلُّ على اعْتِمادِ غَيْرِكَ في أمرِكَ، مِنْ ذلك الوُكَلَةُ، والوكَلُ: الرَّجُلُ الضَّعيفُ[6]، والتَّوَكُّلُ يُقال على وجهين، يُقالُ: تَوَكَّلْتُ لفلان بمعنى: تولَّيتُ لَه، ويُقالُ: وكَّلْتُه فتَوكَّلَ لي، وتَوكَّلْتُ عليه بمعنى: اعتمدته، قال ﷻ: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة: 51][7]، وواكَلَ فُلانٌ؛ إذا ضَيَّعَ أَمرَهُ مُتَّكِلًا على غَيْرِه، وسُمّيَ الوكيلُ؛ لأَنَّهُ يوكَلُ إليه الأَمرُ، والمواكَلَةُ؛ إذا اتَّكَلْتَ عليه، واتَّكَلَ عليكَ[8]، والمقصودُ بالوكيلِ في الآية: مَنْ يوكَلُ إِلَيهِ المُهِمُّ، والمُرادُ بِهِ هُنا المُدافِعُ عَنْكَ والشَّفيعُ لكَ[9].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ الحقُّ سبحانه مظهرًا مِنْ مظاهر قُدرته، بعد أن بيَّن أنَّ

كما أنَّ الله قادرٌ على إنزال القرآنِ، قادرٌ على إذهابه، ولكن لم يشأ رحمةً منه بعباده

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وحى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (وحى).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (وحى).
(4) ابن سيده، المحكم: (وحى).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 31.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وكل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 201.

الرّوح من أمره، فقال تعالى: ولو أردنا أن نذهبَ بالقرآن الَّذي أوحيناه إليك، وثبَّتناك عليه حينما حاولوا فتنتك؛ لذهبنا به، ثمَّ لا تجدُ لك بالقرآن وكيلًا يلتزمُ باسترداده مِنّا، كما يُلزمُ الوكيلُ باسترداد ما ذهب منه، ووُكِّل فيه، ولكنَّ اللّه تفضَّل بإبقائِه في صدرك وصدورِ المؤمنين ومصاحفِهم رحمةً بعباده[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ ﴿وَلَئِن شِئۡنَا﴾ ممّا قبْلَه:

مخاطَبةُ الأعلى بما فيه تأديبٌ للأدنى

الواوُ في جملة ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ للاستئنافِ النَّحويِّ[2]، انتُقِلَ بها من تقريرِ قِلَّةِ عِلْمِهم، وإثباتِ إيتاءِ القليلِ لهم منه، وأنَّ إحاطتَهم لأمر الرّوح هي بِقَدرِ هذه القِلَّة، إلى تقريرِ إمكانِ سلْبِ الكثيرِ الأعلى منه، وهو انتزاعُ الوحي واستردادُه بعد تنزيله، كأن لم يكن، فكيف بانتزاع الأدنى منه منَ العِلم المنسوخِ الذي عند اليهودِ؟ ففيه قصْدُ الأدنى بتوجيه الخطاب إلى الأعلى منه، ليلزمَ القومُ حدَّهم، فلا يَقِفوا ما ليس لهم بهم عِلمٌ من كثرة السُّؤال فيما لا طاقةَ لهم به، كسؤالِهم عنِ الرّوح.

دلالةُ توجيه الخطابِ للرَّسول ﷺ:

أُخِذَ من توجيه الخطابِ له الامتنانُ عليه، وأخِذَ لهم مِنْه التَّهديدُ والوعيدُ

جاء قوله: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ﴾ بخطاب الرَّسول ﷺ لا بخطابهم مُبالغةً في التَّبكيت لهم، من باب مخاطبةِ الأعلى بما فيه تأديبُ الأدنى، ولأنَّ الخطابَ في شأن القرآن وهو للرَّسول ﷺ، فخوطِبَ بما هو له، فأُخِذَ منَ الخطاب له الامتنانُ عليه، وأخِذَ لهم منْه التَّهديدُ والوعيدُ والتَّعريض، أي: إنْ قَدَرَ اللّهُ على إذهابِ عِلْمِ القرآن، وهو الحاكِمُ على جميع الكتب، وحاكِمٌ على عِلم التّوراة الذي تتفاخرون

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 73، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 325، وابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/ 454، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 799.

(2) صافي، الجدول: 15/ 106.

به، فكيف بسائرِ العِلْم دونه، وكيف بما عندكم منَ العِلم! فالآية هذه بعد الآية قبلها ترَقٍّ وقياسٌ من الأدنى للأعلى في الخطاب والمضمون.

معنى اللام:

اللّام في قوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا﴾ هي اللّام الموطِّئَة للقَسَم، فتدلُّ على حذْفِه[1]، وهي لامٌ تزيدُ القسمَ تأكيدًا، وتحقيقًا لمضمونها.

القَسَمُ مُـؤْذِنٌ بأنَّ الخبَرَ محلُّ استبعادٍ منَ السّامعين

دلالةُ الشَّرطِ بـ(إنْ):

(إنْ) الشَّرطيَّةُ في قوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا﴾ جيءَ بها دون غيرها؛ لتدلَّ على إجراء الشَّرط مجرى الافتراضِ التَّحذيريِّ، للدَّلالة على أنَّه وإنْ كان غيرَ واقعٍ، إلّا أنَّه مقدورٌ عليه.

يُـهـدِّدُ الله بإمكان الوقوعِ لا بالوقوعِ

إضافةُ فِعلِ المشيئةِ إلى ضميرِ التَّعظيم:

إضافةُ لفظِ المشيئة إلى ضمير التَّعظيم في قوله: ﴿شِئْنَا﴾ لتعظيمِ اللّٰه سبحانه، بتعظيم فِعلِه في مشيئته، كأنَّه قال: (ولئن شِئنا - ومشيئَتُنا لا يتعاظمُها شيء، ولا يردُّها رادّ)[2].

مشيئةُ الله لا تُـدافَعُ، فما يَشاؤه واقعٌ

معنَى اللّام:

اللّام في قوله: ﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ لتأكيدِ جواب القسمِ وتحقيقِه بوصْفِه حقيقةً ثابتةً لا مبالغةَ فيها ولا تغليبَ.

القَسَمُ على الوعيدِ تحقيقٌ لإمكانِه، وتقريبٌ لِشُهوده واستحضارِه

بلاغةُ التَّوكيدِ في ﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾:

جملةُ ﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ جوابُ القسم، وعند وقوع جواب القسم فعلًا مضارعًا فيؤكَّدُ باللّام، فإذا كان الفعل المضارع، مثْبَتًا، مستقبَلًا، غيرَ مفصولٍ عن لامِه بفاصلٍ؛ وجَبَ توكيدُه بالنّون، واللّام وحدها تُخلِّص المضارعَ للحال، وقد تحتمِل - مع الحال - الاستقبالَ؛ إذا دلَّ دليلٌ على ذلك، فإذا دخلتِ النّون معها؛ خلَّصتِ المضارعَ للاستقبال، فكأنَّه قيل: ﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ فيما بعد وقت الخطاب[3].

إيرادُ المؤكِّداتِ لاستيعاب متعلَّقاتِها الزَّمنيَّة

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 506.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 506.

(3) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 176.

وجهُ تعدية الفعل بالباء في ﴿لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ﴾:

تـعديةُ الفعلِ بالباء أبلغُ من تعْديته بالهمزةِ

لم يقل في السّياق الكريم: (لأذْهبنا بالذي أوحينا إليك) بتعدية الفعل بالهمزة، بل عدّاه بالباء، فقال: ﴿لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ﴾ وباءُ التَّعدية هنا للمصاحبةِ؛ لتدلَّ على الاستصحاب والإمساكِ، وما أخذه اللّه سبحانه، فأمسَكَه، فلا مرسِلَ له من بعده، ذلك أنَّ التَّعدية بالباء أبلغُ مِنَ التَّعدية بالهمزة؛ لأنَّ الأولى تقتضي مشاركةَ الفاعل المفعولَ في الفعل، فأصلُ ذهب به: أنَّه استصحبه، كما يقال: ذهبَ السُّلطانُ بمالِه، وأذهبَ السُّلطانُ مالَه، فالأولى تقتضي أنَّه أمسك المالَ عنده، وذهبَ هو كذلك معه، والثّانية لا تقتضي استصحابًا، بل ربَّما أخرج المالَ عن حوزته بعيدًا عنه، حتى لو انتزعه من غيره[1]، فقولُه: ﴿لَنَذۡهَبَنَّ﴾ فيه أنَّ اللّهَ ووحيَه ذاهبان، فذهابُ اللّه سبحانه بالإعراض والتَّخليَة، وذهابُ الوحي بمحْوِه وانتزاعِه منَ السُّطور والصُّدورِ.

دلالةُ التَّعبير بالموصولِ (الذي):

القرآنُ وحيٌ من الله غيرُ مخلوقٍ

التَّعريفُ بالصِّلة للمفعول (المذهوب به) في قوله: ﴿لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ تفخيمٌ لشأن الوحي، ووصفٌ له بما في حيِّز الصِّلة ابتداءً، وإعلامٌ بحاله من أوَّل الأمر، وبأنَّه موَحًى، فليس من قبيل كلامِ المخلوقِ[2].

نكتةُ التَّعبير بالفعلِ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ ماضيًا:

انـتـزاعُ الـشَّيء بعد وقوعِه أشدُّ من منعِه ابتداءً

التَّعبيرُ بالفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ ماضيًا، أفادَ المبالغةَ في التَّحذير؛ لأنَّه انتزاعٌ لِما هو مُحقَّقٌ وحاصلٌ، وانتزاعُ الشَّيء بعد وقوعه، أشدُّ من منْعِه أنْ يقع أصلًا، فهو لم يقل: (نمنع استتمام الوحي أو نمنع تنزُّلَه)، بل أخبر بخلْعِ ما نُزِّلَ عنهم، وهذا يقتضي بالضرورة عدمَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 507، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 201.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 193.

استئناف الوحي بالتَّنزيل من بابٍ أولى، ففي صيغة الماضي إيماءٌ إلى الوصول بالتَّحذير أقصى غاياتِه.

دلالةُ شبْهِ الجملةِ ﴿إِلَيۡكَ﴾:

الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَيۡكَ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، ولم يقل في السّياق الكريم: ﴿بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ﴾ دون ﴿إِلَيۡكَ﴾؛ ليدلَّ على خصوص الوحيِ لا عمومِه، وهو القرآنُ الكريمُ الموحَى إلى النَّبيِّ الأمين، ولو رُفِعَ الجارُّ والمجرورُ منَ الكلام؛ لأوهَمَ الموحَى في عمومه، فتدخلُ فيه كافَّةُ الكتب المنزَّلةِ.

إذهابُ الأخصِّ الأعلى إيذانٌ بأنَّ إذهابَ ما دونَه أهونُ

إيثارُ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ للتَّرتيب الرُّتبيِّ؛ لأنَّ نفيَ الطَّمع في استرجاع المسلوبِ أشدُّ على النَّفْس من سَلْبِه، فذِكْرُه أدخَلُ في التَّنبيه على الشُّكر والتَّحذير مِنَ الغرور[1].

استردادُ المسلوبِ أصعبُ مِنِ انتزاعِه ابتداءً

بلاغةُ اجتماعِ أشباهِ الجُمل: ﴿لَكَ﴾ - ﴿بِهِۦ﴾ - ﴿عَلَيۡنَا﴾:

اجتماعُ أشباهِ الجُمَل في قوله: ﴿لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾ أفاد تمامَ العناية بتعيين الذّواتِ التي عادت عليها الضَّمائرُ الثَّلاثة المجرورة، وهذا أفاد في تضييق نطاقِ الوكالةِ المذكورة وتحديدِ مجالها، فالوكالةُ المنفيَّةُ مخصوصةٌ، وليست عامَّةً، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ السّياقَ سياقُ امتنانٍ للرَّسول، وتحذيرٍ لغيره، ولذا لم يقل: (ثمَّ لا تجد وكيلًا) أو (ثمَّ لا تجد لك وكيلًا).

التَّحذيرُ بالإيماء إلى المقصودِ منه، أفسحُ له في التَّداركِ والأوبةِ

بلاغةُ تقديمِ أشباهِ الجُمل على المفعول:

تقديمُ أشباهِ الجُمل على المفعول في قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾ لمراعاة الفاصلةِ ألّا تنخرِمَ، ولمزيد الاهتمامِ والعنايةِ بعوائد الضَّمائر المقدَّمة مع جارِّها، لإفادةِ اختصاصِهم بمضمون الوكالة المنفيَّة كلٌّ بحسبِه منها.

ترتيبُ المقاماتِ في المُضمَراتِ أعْوَنُ على الفهمِ والاستحضارِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 201.

الوكالةُ نيابةٌ عنِ الأصلِ في التَّعهُّدِ والضَّمانِ

إيثارُ لفظِ الوكيل:

جاء لفظُ ﴿وَكِيلًا﴾ من قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾، كنايةً عنِ التَّعهُّد والالتزامِ باستردادِ ما يمكن انتزاعُه ومَحوُه من الوحي[1]، ولذلك فقد ذكر هنا ﴿وَكِيلًا﴾، وفي الآية قبلها ﴿نَّصِيرًا﴾؛ لأنَّ المعنى هنا جارٍ على فرضِ انتزاعِ نعمةِ الاصطفاء، والمطالبةُ باسترداد ذلك شفاعةٌ ووكالةٌ عنه، وأمّا الآية قبلها؛ فهي جاريةٌ على افتراض إلحاق عقوبةٍ به، فمدافَعةُ تلك العقوبة أوِ الثَّأرُ بها نَصرٌ، ولذا عبَّر بـ﴿نَّصِيرًا﴾[2].

الوكيلُ في محلِّ مَن ينوبُ عنه في التَّصرُّفِ والضَّمانِ

دلالةُ التَّعبير بلفظِ ﴿وَكِيلًا﴾:

التَّعبيرُ بلفظِ ﴿وَكِيلًا﴾ اختيرَ للدَّلالة على معنى النّيابة في الموكولِ إليه، ومعنى الاعتماديَّةِ في الموكولِ عنه، وجاءت على صيغة (فعيل)؛ لإفادة المبالغةِ في معنى الوصف، و(فعيل) - هنا - يصحُّ إجراؤها على معنى (فاعِل)، أي: قائمٌ بالوكالة، أو (مفعول) أي: موكولٌ إليه الأمرُ، ومجيئها على (فعيل) دون (فاعل) أو (مفعول) للدَّلالة على ثبوتِ الصِّفةِ لصاحبِها - فكأنَّها سَجيَّةٌ له - واتصافِه بها حالًا واستقبالًا، أي: الوصف قائمٌ بصاحبه، لا أنَّه سيتَّصِفُ به مستقبلًا مع إمكان عدمِ اتِّصافه به في الحال، وفي مجيءِ اللَّفظ على هذا الوزن إيماءٌ إلى أنَّ وصفَ الوكالة في استرداد الوحي - على افتراض الذَّهاب به - منفيٌّ من جميع الوجوه، فلا وكيلَ في ذلك لا في الحال ولا في الاستقبال ولا على جهةِ الدَّوام ولا على جهة الاستمرار؛ لأنَّ وجودَه منفيٌّ أصلًا بقوله: ﴿لَا تَجِدُ﴾[3].

لا وكيلَ عنِ الله إلّا بما شاء الله

عِلَّةُ تنكير ﴿وَكِيلًا﴾:

تنكيرُ لفظِ: ﴿وَكِيلًا﴾ لإفادة العموم في نفيِ الوكيل؛ تنبيهًا على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 156.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 201.

(3) فاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 55.

أنَّ المشيئةَ بذلك لا يمنعُها مانعٌ من قهرٍ، فيردُّها، أو مِن اختيارٍ باتِّخاذ الوكلاء للشَّفاعة، فيحولُ بين إنفاذها، بل فيها نفيٌ أنْ يوجد وكيلٌ أصلًا يتصدَّر لها.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المشيئةُ والإرادةُ:

الإرادةُ احتماليةٌ، والمشيئةُ قطعيَّةٌ

المشيئة في الأصل: إيجادُ الشَّيءِ وإصابتُه، فهي تقتضي وجودَ الشَّيء، فإذا شاء الله أمرًا؛ أوجَدَه لا مَحالةَ، والإرادةُ في الأصل: قوَّةُ النُّزوع والقصدِ المركَّبةُ في النَّفْسِ نحو الشَّيءِ مع الحكم فيه بأنَّه ينبغي أن يُفعَل، أو لا يُفعَل، وإذا استُعمِلتْ في حقِّ الله؛ فالمرادُ بها حُكْمُه تعالى في الأمور أنَّها كذا، وليستْ بكذا، ولا يُرادُ بها النُّزوعُ؛ إذْ هو سبحانه متنزِّهٌ عن ذلك، فالإرادةُ أعمُّ مِنَ المشيئة من حيث التَّحقُّقُ والنَّفاذُ، فالإرادةُ قد يُراد بها التَّحقُّقُ، فيجب أن تقعَ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ [الرعد: 11]، وقد يُرادُ بها الحكْمُ والأمرُ مع احتمال عدم وقوعِها، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185] أي: يأمر باليسرِ ولا يأمرُ بالعسر، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾ [النساء: 28] أي: حكَمَ بالتَّخفيف، لكن لا يلزمُ إنفاذُها، وأمّا المشيئةُ؛ فهي أخصُّ، وهي جاريةٌ في الواقعِ النّافذِ الحاصِلِ وجوبًا؛ ولذا عُلِّقَتْ مشيئاتُ الخلق، قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: 30]، وقولُه ﷺ: (ما شاء الله كان)[1]، أي: وقع وحصل وجوبًا، ولذا عبَّر هنا ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ﴾ بالمشيئةِ دون الإرادة؛ لأنَّ الإرادةَ احتماليَّةٌ، والمشيئةَ قطعيَّةٌ، وهو يُقسِمُ على إمكانٍ قطعيٍّ، وعلى شيءٍ يُفْتَرَضُ تصوُّرُ إيقاعِه في حيّزِ القطعِ لا الاحتمالِ، فعلَّقه على ما يفيد

(1) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (5075).

الوقوعَ قطعًا لو وقَع، وهو فِعل المشيئة، ومنَ الفرق بينهما: أنَّ إرادةَ الإنسانِ قد تحصُل من غيرِ أن تتقدَّمها إرادةُ اللّه، فإنَّ الإنسانَ قد يريدُ ألّا يموتَ، ويأبى اللّه ذلك، وأمّا مشيئةُ الإنسان؛ فلا تكون إلّا بعد مشيئتِه تعالى[1]، ولِما تقدَّم ذكرُه؛ اختير لفظُ المشيئة بدلالتِها القطعيَّةِ، على أنَّ إذهابَ الوحيِ لا يتمُّ إلّا بعد مشيئتِه تعالى.

الوكيلُ والكفيلُ:

الوكالةُ تبرُّعٌ، والكفالةُ إلزامٌ

الوكيلُ هو الذي يَتولّى مُباشَرةَ أمرٍ لغيرِه نيابةً عنه فيه، والكفيلُ هو الذي يتحمَّلُ أمرَ المكفولِ، ويَضْمَنُ القيامَ به.

والفرقُ بينهما: أنَّ الوكيلَ يقومُ بالنّيابةِ عنِ الموكِّل على جهةِ التَّبرُّعِ لا الإلزام، أي: ليس مُلزمًا بإتمام الأمرِ؛ إذا عجز عنه الموكِّلُ، وأمّا الكفيلُ؛ فهو ضامِنٌ للقيام بالشَّيء عنِ المكفول، ويلزمُه الإتمامُ عند عجز المكفول، أو يَلزمُه الاستمرارُ في كفالتِه حتّى يتحقَّقَ الغرضُ، ولذلك قالوا: الوكيلُ مؤتمَنٌ، والكفيلُ ضامِنٌ، والوكيلُ متبرِّعٌ، والكفيلُ مُلتَزِمٌ، وعليه: فالوكيلُ أعمُّ، والكفيلُ أخصُّ، فليس كلُّ وكيلٍ كفيلًا، وكلُّ كفيلٍ وكيلٌ[2]، ونفيُ الوكالة في الآية نفيٌ للعامِّ، وهو النّيابةُ بالمطالبةِ بإرجاعِ النِّعمة شفاعةً ووكالةً عنه من غير ضمانٍ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (شيء، رود)، وابن منظور، لسان العرب: (شيأ، رود)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شيأ، ريد).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفل، وكل).

﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ٨٧﴾ [الإسراء: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين السّؤال عن سرّ الرّوح، وكون رحمة الله سببًا في بقاء الوحي وتنزّله

لَمّا علَّقَ ذهابَ ما يوحيهِ تعالى بفعلِ المشيئةِ، وأنَّهُ تعالى لا يتعاظمهُ شيءٌ منْ ذلكَ؛ أعقبه ببيان أنَّه استثناهُ برحمة مِنْ ربِّكَ المحسنِ إليكَ الَّذي لا ينقطعُ إحسانهُ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المانعُ منْ محوِ الوحيِ من القلوبِ؛ هو التّفضُّلُ برحمة علّام الغيوب

بعدَ أنْ أخبرَ الحقُّ سبحانَهُ رسولَهُ ﷺ بأنَّهُ قادرٌ إن شاءَ على أنْ يُذهبَ ما أوحى إليهِ من القلوبِ والكتبِ؛ بيَّن أنَّه "أثبتَ ذلكَ في قلبكَ وقلوبِ المؤمنين"[2]، برحمة منه وفضل كبير.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستثناءِ بين الانقطاع والاتِّصال:

إظهارُ الامتنان برحمته تعالى وفضله، مفيدٌ في البيان

قولهُ تعالى: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ الاستثناء هنا فيه منقطع، وليس من جنس نفي النّصير عند مراد الذّهاب بالوحي، وكأنَّ المعنى: ولئن شئنا؛ لنذهبنَّ بالذي أوحينا إليك، لا يمنعنا مانع، ولاينصرك نصير، لكنَّ رحمتي المُتفضِّل بها عليك سبب بقائه. "فالرَّحمةُ ليستْ منْ جنسِ نفيهِ أنْ يكونَ لهُ ناصرٌ ومعينٌ؛ فالاستثناءُ هنا منقطعٌ[3] وموجز المعنى: ولكنَّ رحمةً من ربِّك تركَتْه غيرَ مذهوب به.

وعلى كونه متّصلًا يكون المعنى: ولوْ شاءَ اللّهُ؛ لذهبَ بالقرآنِ محوًا من المصاحفِ والصُّدورِ، فلا يبقى لهُ أثرٌ، وتبقى أنتَ لا تعلمُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 507.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 51.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 482، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 201 - 202.

ما الكتابُ؟ ثمَّ لا تجدُ لكَ وكيلًا بأنْ يعيدهُ إليكَ محفوظًا، إلّا رحمةً من اللّهِ تعالى، فكأنَّ رحمتَهُ تتوكَّلُ عليهِ بالرَّدّ[1]؛ فيكونُ ذلكَ منْ باب الاستثناءِ المتَّصل[2]، فالرَّحمةُ منْ جنسِ الوكيلِ، وهو القائمُ بالأمرِ انتصارًا أو مخاصمةً، والغرضُ من الاستثناءِ إظهارُ الامتنانِ برحمتهِ تعالى وفضله، بألّا يصيبهُ ما يصيبهُ منْ أنْ يذهبَ بالوحي والقرآنِ، فإنَّه باقٍ محفوظٌ، وفيهِ أيضًا تعريضٌ بأهلِ العلم، وتحذيرٌ لهم[3] في أنَّ العلمَ خاضعٌ لمشيئتهِ سبحانه فلا يغترَّ بتحصيلِ العلم إنسانٌ.

الغرض من الحذف قبل جملة ﴿إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾:

حفظ الوحي والإنزال، كان برحمة الله ذي الجلال

قبل قولهِ تعالى: ﴿إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾، إضمار محذوف؛ فإنَّ استثناءَ الرَّحمةِ ممّا سبقَ على تقديرِ "وإنَّما أنزلناهُ عليكَ رحمةً من ربِّكَ"[4]، وفي الحذف إيجاز واختصار تعويلًا على ما سبق، وليتّجه النَّظم الكريم لإثبات الامتنان بالرّحمة والعناية به.

الغرض من تنكيرِ ﴿رَحۡمَةً﴾ في السّياق:

رحمة الله جلّ في علاه، لا يُدرِكُ كنهَها سواه

في قولهِ تعالى: ﴿إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾ أوردَ رحمتهُ ﷻ بصيغة التَّنكيرِ لأجلِ التَّعظيم والتَّفخيم، فرحمتهُ تعالى عظيمةٌ[5]، وحسبُك مِن عظمةٍ منعُها ذهابَ الوحي! فبقاؤه رحمة كبرى ونعمة جُلّى.

معنى حرف الجرّ ﴿مِّن﴾ ودلالته:

ابتداءُ الرّحمة من الله تعظيمٌ لقدرها، وانتهاؤها إلى العبد إشعارٌ بأثرها

استعملَ حرفَ الجرِّ ﴿مِّن﴾، الدّالَّ على ابتداءِ الغاية[6]؛ تعظيمًا لقدرها؛ فعظمة الشّيء بعظمة مقدار مَن كان منه مبتداها، وتعظيمًا لأثرها على من كان إليه منتهاها؛ فالهدايا على قدر مُهديها.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 691.
(2) الاستثناء المتّصل: ما كان المستثنى فيه بعضًا من المستثنى منه، كقولهم: قامَ الرّجالُ إلّا زيدًا، فزيد بعض القوم، يُنظر: ناظر الجيش، تمهيد القواعد: 5/ 2123.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 201.
(4) يحيى بن سلّام، تفسير يحيى بن سلّام: 1/ 161.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 507.
(6) وهو الأصل في معانيها، المبرّد، المقتضب: 1/ 44.

سرُّ إيثار لفظِ الرُّبوبيَّةِ:

عبَّرَ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ ﴿رَّبِّكَۚ﴾ دونَ الألوهيَّةِ؛ لما يشتملُ عليهِ لفظُ الرَّبِّ من النَّظرِ في مصالحِ العبادِ، وتدبيرِ أحوالهِم؛ فهو أطمعُ لهُ، ولإشعارهِ ﷺ بالطُّمأنينةِ والاستقرارِ؛ فإنَّ الَّذي خلقهُ، وربّاهُ في أحسنِ صورةٍ هو الَّذي سيحفظُ لهُ وحْيَهُ وقرآنَهُ من المحوِ والزّوالِ رحمةً منهُ، ورعايةً، وفضلًا.

في الرّبوبيَّة إشعارٌ لرسولهِ بالطُّمأنينةِ والاستقرارِ، وإطماعٌ له بالعطاء المدرار

سرُّ إضافة لفظِ الرُّبوبيَّةِ إلى ضميرِ الخطابِ:

في إضافتهِ لفظَ الرُّبوبيَّةِ إلى ضميرِ الخطابِ في قولهِ تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَۚ﴾ تشريف، وقد رامَ النَّظم الكريم أن يوصلَ رسالةً مُتضمِّنةً أو: مضمونُها أنَّ الرَّحمةَ آتيةٌ ممَّن أحسنَ إليكَ بإيجادكَ وتربيتكَ، وأنَّه لم يقطعْ إحسانهُ عنكَ[1].

رحمةً منه وإحسانًا إليكَ، أوجدكَ ومَنَّ عليك

دلالة موقع جملةِ ﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ﴾ ممّا قبلها:

أردفَ جملةَ الاستثناءِ بقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ تعليلًا للاستثناءِ؛ فإنَّ رحمةَ اللهِ تعالى "منعتْ تعلُّقَ المشيئةِ بإذهابِ الَّذي أوحينا إليكَ؛ لأنَّ فضلَهُ كانَ عليكَ كبيرًا، فلا يحرمكَ فضلَ الَّذي أوحاهُ إليكَ"[2].

لولا رحمتهُ لمنع الرّسولَ الأكرم، فضلَ إبقاءِ القرآنِ والوحي

دلالة التَّوكيدِ بالأداة ﴿إِنَّ﴾، واسميّةِ الجملة:

التأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾، واسميّةِ الجملة في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ دالٌّ على توكيدِ فضلهِ سبحانه في نزولِ القرآنِ على رسولهِ، وأنَّه معجزتهُ الكبرى؛ لأنَّ المشركينَ ظنّوا أنَّ المعجزاتِ الحسّيَّةَ منقضيةٌ بانقضاءِ زمانِها كمعجزةِ عيسى، أمّا معجزتهُ ﷺ فإنَّها باقيةٌ خالدةٌ[3].

القرآنُ معجزةٌ خالدةٌ، وفضله به لا حدود له

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 507.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 202.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4449.

سرُّ الإضافةِ إلى الضَّميرِ العائدِ على الرَّبِّ:

أهمّيّة التّعريف والبيان، في قصد تشريف سيّد ولد عدنان

تعريفُ الفضلِ بإضافتِه إلى الضَّميرِ العائدِ عليهِ سبحانه في قوله: ﴿فَضۡلَهُۥ﴾ تعريفٌ وبيانٌ لرفيعِ قدره وعظيمِ شرفه ﷺ لِما لهُ من المنزلةِ عندَ مولاهُ.

سرُّ التَّعبيرِ بفعلِ الكينونةِ الماضي (كان):

توكيدُ جملة الفضل، زيادةً على توكيدها

السِّرُّ في التَّعبيرِ بفعلِ الكينونةِ بصيغةِ الماضي في قولهِ تعالى: ﴿كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ توكيدُ جملةِ الفضلِ؛ لدلالة فعل الكينونة على رسوخِ الصِّفةِ وثبوتِها، والمعنى: ثبوت فضله[1] سبحانه لنبيِّه ﷺ.

دلالة حرفِ الجرِّ (على) في السّياق:

بيان علوّ الحقّ سبحانه وسُموّه، بدلالة حرف المعنى على ذلك

التَّعبيرُ بحرفِ الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾، دالٌّ على علوِّ المتفضِّلِ وسموِّه، وهو الحقُّ سبحانه على المتفضَّلِ عليهِ، وهو الرَّسولُ ﷺ.

فائدة التعبير بالخطاب في ﴿عَلَيۡكَ﴾:

بيان أنّ في إبقاءِ القرآنِ، فضلًا وتكرمة لرسول الإسلام

وفي إضافةِ حرفِ الجرِّ (على) إلى ضميرِ الخطابِ ﴿عَلَيۡكَ﴾ تمييزٌ للرَّسولِ ﷺ فإنَّ فضلَ الحفظ في المصاحف والصُّدور مخصوص به ﷺ فالكلام مسوقٌ لبيانِ فضله[2].

نكتة تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَلَيۡكَ﴾، على خبر ﴿كَانَ﴾:

الإلماح إلى أنّ الرّسول ﷺ، ذو منزلة خاصّة

قدَّمَ شبهَ الجملةِ ﴿عَلَيۡكَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾، من بابِ التّخصيص، والتّفرُّد[3]؛ عنايةً بمنزلةِ الرَّسولِ ﷺ وفضلهِ سبحانه عليه؛ ومئنَّةُ ذلكَ أنَّه أكَّدهُ بـ﴿إِنَّ﴾ الدّاخلةِ على الجملة الاسميّة و﴿كَانَ﴾ الدّالَّة على الاستمرارِ والثّبوت[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 423.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 423، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 583.

(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 368.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4449.

الغرض من تنكيرِ لفظِ ﴿كَبِيرًا﴾:

أفضال الله على الرّسول ﷺ كثيرة ومتنوّعة

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿كَبِيرًا﴾ بصيغةِ التَّنكيرِ دلالتهُ على العمومِ والفيضِ والتَّعدُّدِ؛ فإنَّ فضلَهُ عليكَ جزيلٌ لكثرته، جليلٌ لعظيم خطرِه[1]، بالغُ الكِبرِ[2]، ممّا لا يُعدُّ ولا يُحصى، "باصطفائهِ إيّاكَ لرسالتهِ، وإنزالهِ عليكَ كتابه، وسائر نعمه عليك الَّتي لا تُحصى"[3]، وعن "ابن عباس: يريد: حيث جعلتُكَ سيِّدَ ولد آدم، وختمتُ بك النَّبيّين، وأعطيتُكَ المقام المحمود"[4]. "فلمّا كان كذلك لا جرم؛ أنعم عليك أيضًا بإبقاء العلم والقرآن عليك"[5].

---

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 272.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 423.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/ 546، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 483.

(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 126.

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 406.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

[الإسراء: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين التَّهديد بمحو القرآن، وبين نفي القدرة على إتيان الإنس والجانّ بمثله

لَمّا هدَّد بمحو القرآن - لولا رحمته - أعقبه بأمرِه للنَّبيِّ هنا أنْ يقولَ لهم: إنَّ الإتيان بمثله محالٌ، ولوْ كانَ ذلكَ مقيَّدًا باجتماعِ الثَّقلينِ من الإنسِ والجنِّ؛ فإنَّهم لنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ، ولوْ كانَ بعضُهم لبعضٍ معينًا وناصرًا(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَهِيرًا﴾: جذرُهُ اللغويُّ (ظهر) والمصدرُ منهُ الظُّهورُ، وهو البُدُوُّ، وهو ضدُّ الاستتارِ، مِنْ ذَلِكَ: ظَهَرَ الشَّيْءُ، ويقال: ظاهرته، أي: عاونته، وأصل ذلك من الظَّهْر الذي هو الجارحة؛ لأنَّ المعاون يساعد صاحبه بجوارحه وأقواها ظهره، ثم جعل عبارة عن كلِّ معاونةٍ، وإن كانت بغير الظَّهْر حتى باللِّسان(2)، والظَّهيرُ في الآيةِ بمعنى المظاهرِ، أي: المناصرِ والمعينِ(3).

المَعْنى الإجْماليُّ:

تأكيد العجز عن الإتيان بمثل القرآن، ولو اجتمع لتحقيق ذلك الثّقلان

إنِ اجتمعَ أهلُ الثَّقلينِ مِنَ الإنسِ والجنِّ بما أوتوا مِنْ قوَّةٍ وتمكينٍ على أنْ يعارضوا الكتابَ الحكيمَ، ويأتوا بمثلِهِ؛ فلنْ يستطيعوا أبدًا(4)، ومصيرهمُ الفشلُ والخيبةُ والخسرانُ وحدانًا وزرافاتٍ؛ بأنْ يكونَ بعضُهم لبعضٍ نصيرًا ومعاونًا.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 508.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ظهر).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 221.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 546.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في الجملة المصدّرة بالفعل ﴿قُل﴾:

فضلُ الله تعالى الكبيرُ بمعجزة القرآن، مدعاةٌ لمزيد الامتنان

قولُه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لزيادةِ الامتنانِ لمضمونِ جملةِ الفضلِ الكبيرِ[1].

دلالةُ الأمرِ بالفعل ﴿قُل﴾:

العنايةُ بالقرآنِ والتّنويهُ بشرفِه، والتّعجيز عن الإتيان بمثله

استهلَّ الحقُّ ﷻ الاستئنافَ البيانيَّ بفعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾؛ لغرضِ الاهتمام بِهِ، وهو تنويهٌ بأنَّ القرآنَ لهُ من الشَّرفِ والتَّعظيم ما لا يدركه إلَّا هو سبحانه، وهو جارٍ في معرضِ الامتنانِ على المؤمنينَ في أنَّهُ شفاءٌ لهم ورحمةٌ، أمّا غيرهُم مِن المُعرضينَ؛ فقدْ تحدّاهُم على أنْ يأتوا بمثله، فعجزوا فما ازدادوا إلّا خسارًا[2]، وقد يرادُ من فعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾ إظهارٌ لعجزِ من يكونُ هذا الفعلُ موجَّهًا إليه، فهو داخلٌ تحتَ بابِ التَّحدّي[3]؛ تحدّي من كانَ شاعرًا أو خطيبًا أو مترسِّلًا أو غيرهُم.

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لَّئِنِ﴾:

التّأكيد على أنّه لا سبيلَ إلى معارضةِ القرآنِ، ولو اجتمعت الإنس والجانّ

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ لإرادةِ القسمِ، وهي موطِّدةٌ مؤكِّدة لهُ[4]، وفي القسم إشارةٌ إلى أنَّه لا سبيلَ إلى معارضتِه على وجهِ التَّأكيدِ على من يظنُّ ذلكَ مِنَ الإنسِ والجنِّ؛ فإنَّ التَّوكيدَ بالقسمِ ينقضُ دعواهُم في أنَّهم لو شاؤوا؛ لأتوا بمثلِه[5].

سرُّ التّعبير بأداة الشَّرطِ (إنْ):

الإتيانُ بمثل القرآنِ مع فرضِ اجتماعِهم وتظافرِهم، أمرٌ مستحيل

عبَّرَ عنْ حصولِ الشَّكِّ في اجتماعِهم على أنْ يأتوا بمثلِ القرآنِ بأداةِ الشَّرطِ (إنْ) في قولِه: ﴿لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ﴾، ولم يستعملْ نظيرتَها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 202.
(3) ابن الشّجريّ، أمالي ابن الشّجريّ: 1/ 413.
(4) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 437.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 508.

(إذا)[1]؛ زيادةً في تعجيزهم؛ فإنَّ اجتماع الثَّقلين على الإتيان بمثل كتاب اللّه مشكوكٌ فيه؛ لِما يعرفونه في قرارة أنفسهم من عجزهم عن ذلك، فالإتيانُ بمثلِ هذا الكتابِ المعجزِ بعدَ اجتماعِهم وتظافرِ جهودِهم مِن المحالِ، فكيف إذا كان اجتماعُهم على ذلك غيرَ حاصل؟! وفي ذلك إثباتُ عجزِهم، وعجزِ مَن استعانوا بهم إنْ هم أرادوا ذلك.

دلالة التَّعبيرِ بالفعل ﴿ٱجۡتَمَعَتِ﴾ ماضيًا:

مصيرُ الاجتماع على معارضة القرآن، الخيبة والفشل في كلّ زمان

لّما كانَ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي دالًّا على الثُّبوتِ والتَّحقُّقِ والوقوعِ[2]؛ عبَّرَ عن اجتماعِهِمُ المزعومِ المفترضِ بهذهِ الصّيغةِ: ﴿لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ﴾، فكأنَّ اجتماعَهُم لأجلِ معارضةِ القرآنِ قد وقع.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ الافتعالِ:

اجتماعُ الثَّقلين لمعارضة القرآن تكلُّفٌ وخسار

عبَّرَ بفعلِ الاجتماعِ ﴿ٱجۡتَمَعَتِ﴾، على صيغةِ الافتعالِ (افْتَعَلَ)، وهي صيغةٌ مؤذنةٌ بالتَّكلُّفِ والتَّعمُّلِ وتحميلِ النَّفسِ[3]؛ إعلامًا بأنَّ اجتماعَ الإنسِ والجنِّ؛ لتحدّي إعجازِ القرآنِ لهو أمرٌ فيه من الكلفةِ والمشقَّةِ ما فيه، فهو اجتماعٌ مفترضٌ لا يُتصوَّرُ عقلًا وقوعهُ؛ فالكلامُ سيقَ مساقَ التَّعجيزِ[4].

دلالةُ عطفِ الجنِّ على الإنسِ بالواوِ:

بيان أنّ التَّعميم، إنّما كان لدحض زعمهم قيامَ الجنّ بالأعمالِ العظيمةِ

معَ أنَّ المعهودَ في التَّحدي بمعارضةِ القرآنِ ينصرفُ إلى الإنسِ؛ لأنَّهمُ المتكلّمونَ بهذهِ اللُّغة، وأنَّ الجنَّ لا يندرجونَ تحتَ اللِّسانِ العربيِّ وما نزلَ على أساليبهِ وصورهِ[5]، إلّا أنَّهُ عطفَ عليْهِمُ الجنَّ قصدًا إلى التَّعميمِ؛ ولأنَّ المُتَحَدّينَ يزعمونَ بأنَّ الجنَّ قادرونَ على

(1) (إذا) تستعمل للمقطوع بحصوله والكثير الوقوع، بخلاف (إن) الّتي أصلها الشك والإبهام، يُنظر: فاضل السّامرائيّ: معاني النّحو: 4/ 75.

(2) ديكنقوز، شرحان على مراح الأرواح، ص: 47.

(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/ 190 - 191.

(4) القمّاش، الحاوي في تفسير القرآن: 541/ 450.

(5) الزّركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 111.

الأعمالِ العظيمةِ[1]، كما أنَّ عطْفَ الجنّ عليهم يُستدلُّ به على دخولِهم تحتَ دعوته، وأنَّهُ مرسلٌ إلى الإنسِ والجنِّ[2]، ولولا ذلكَ؛ لَما وقعَ التَّحدّي على الاثنيْن.

نوع اللّام ودلالتها في ﴿ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾:

التَّحدّي يستغرقُ الإنسَ والجنَّ جميعًا، وهو مطلق التّحدّي وغايته

اللّام في ﴿ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ للاستغراقِ[3]؛ للدَّلالةِ على أنَّ التَّحدّيَ يشملُ جميعَ الإنسِ والجنِّ من غيرِ تقييدٍ بزمانٍ أو مكانٍ، المعروفين بالفصاحةِ والبلاغةِ وغيرِ المعروفين، فالخطابُ يشملُ الجميعَ، والجنَّ المعروفين بإتيانهم الكهّانَ[4].

الغرض من تقديم ﴿ٱلۡإِنسُ﴾ على ﴿ٱلۡجِنُّ﴾:

بيان أنّ للإنس شرفًا وتفضيلًا؛ لاشتمالِهم على الأنبياءِ والأولياءِ

في تقديمِ الإنسِ على الجنِّ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ دلالةٌ عامَّةٌ تشملُ أكثرَ الواردِ في القرآنِ، وهو أنَّه يقدِّمُ الإنسَ على الجنِّ؛ لفضلِهم وكمالِهم وشرفِهم[5]؛ فإنَّهم مشتملونَ على الأنبياءِ والأولياءِ والصّالحينَ، وفي تقديمِ الإنسِ على الجنِّ في الآيةِ دلالةٌ أخرى، وهيَ سهولةُ اجتماعِ الإنسِ لتحقيقِ ما يزعمونَ تحقيقَهُ، وأنَّهم الأصلُ في البلاغةِ[6]، كما أنَّ تقديمَ الإنسِ على الجنِّ منْ بابِ تقديمِ الأضعفِ على الأقوى؛ فإنَّ للجنِّ قوَّةً تفوقُ قوَّةَ الإنسِ، فختمَ بالجنِّ؛ لأنَّهم إنْ عجزوا كانَ غيرُهم أعجزَ[7]، فهو من رعاية أسلوب التَّرقّي من القويِّ إلى الأقوى.

فائدةُ اجتماعِ الثَّقليْنِ في السّياق المحكم:

تعاونُ الأرواحِ، كتعاونِ الأبدانِ، ذو أثر في البيان

في اجتماعِ الثَّقلينِ الإنسِ والجنِّ "تقويةُ قلوبِ أربابِ البيانِ، وأهلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 203.
(2) الطّوفي، الإشارات الإلهيّة إلى المباحث الأصولية، ص: 402.
(3) ابن مالك، شرح الكافيّة الشّافية: 4/ 1810.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 508.
(5) يحيى العلويّ، الطّراز: 2/ 35.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 508.
(7) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/ 260.

اللِّسانِ؛ لأنَّ في الاجتماعِ تعاونَ الأرواحِ، وهو كتعاونِ الأبدانِ"[1]؛ ولذلك عقَّبهُ بقولِه: ﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ لإرادةِ المبالغةِ[2] في الاتِّحادِ والتَّناصرِ المتأتّي من الاجتماعِ، وإذا ظهر عجزهم مجتمعين؛ كانوا في عدم الاجتماع أعجز.

نكتة عدمِ ذكرِ الملائكةِ مع الإنسِ والجنِّ، في سياقِ التَّحدّي:

المُنكِرون هم المقصودون بالتّحدّي دون سواهم من المخلوقين

لم يُدْرَجِ الملائكةُ معَ الإنسِ والجنِّ، في تحدّي الإتيانِ بهِ؛ لأنَّ هذا الإتيانَ داخلٌ تحتَ الكفرِ والإنكارِ، وهو متصوَّرٌ ممَّنْ يُنكِرُ القرآنَ، والملائكةُ معصومونَ بعصمة اللّه لهم؛ لأنَّهم يؤمنونَ بهِ، ولا يتصوَّرُ أنْ يكونوا منكرينَ له[3].

دلالة حرف الجرّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في السّياق:

الإيذانُ بفشلِ تحدّي القرآنِ، ولو كانوا مستعلينَ متمكّنينَ

لَمّا كانَ الحرفُ ﴿عَلَىٰٓ﴾ دالًّا على الاستعلاءِ في لسانِ العربِ[4]، وهو يفيدُ التَّمكُّنَ؛ لأنَّ المُستعليَ متمكِّنٌ في موضعِه؛ ناسَبَ ورودُهُ هنا؛ للإيذانِ بأنَّهُ لوْ وجدَ منْ يتحدّى القرآنَ من الإنسِ والجنِّ، فاجتمعوا، وكانوا على الغايةِ من التمكُّنِ المعنويِّ؛ لما استطاعوا إلى ذلكَ سبيلًا، ومنْ كانَت حالهُم هذه معَ تمكُّنهِم؛ فغيرهُم أعجزُ وأعيا.

دلالة التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَن يَأۡتُواْ﴾:

القرآنُ باقٍ على تحدّيه وإعجازه، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا

عبَّرَ بالمصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَن يَأۡتُواْ﴾، ولم يوردِ المصدرَ الصَّريحَ؛ لأنَّ المصدرَ المؤوَّلَ ذو دلالةٍ تجدُّديَّةٍ الآنَ وفي المستقبلِ، بدلالةِ ﴿أَن﴾ الَّتي تخلِّصُ الفعلَ للاستقبالِ[5]؛ فهو دالٌّ على الحدثِ والزَّمنِ، فجاءَ النَّظمُ الكريمُ بالمصدرِ المؤوَّلِ دالًّا على دوام العجز عن معارضة القرآن ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا.

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 583.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 203.
(3) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 5/ 489.
(4) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 190.
(5) العكبريّ، اللّباب في علل البناء والإعراب: 2/ 45.

سرُّ إسناد الفعلِ ﴿يَأۡتُواْ﴾، إلى واو الجماعة:

لا يدفع اجتماع المعارضين، العجز عن معارضة القرآن المبين

في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، أوردَ فعلَ الإتيانِ مضارعًا مسندًا إلى واو الجماعة؛ للإشارةِ إلى أنَّهم - وإن كانوا مجموعينَ متظافرينَ يعضدُ بعضهُم بعضًا، وتتجدَّدُ محاولاتُهم المرَّةَ بعدَ المرَّةِ وقتَ اجتماعِهم[1] - محكومٌ عليهم بالفشلِ والخذلانِ معَ علوِّ كعبِهم في البلاغة، ورسوخِ عرقِهم في أساليبِها وفنونِها، ففضَّلوا حملَ السَّيفِ والسِّنانِ على المقارعةِ باللِّسانِ.

سرُّ تقييد الإتيان بشبه الجملة ﴿بِمِثۡلِ﴾:

العجز عن الإتيان بالمثل، أبين في العجز عن الإتيان بالأصل

في إيثارِ لفظِ المماثلةِ في قولِه: ﴿بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ على غيرِها؛ دلالةٌ على شمولِها للمعاني العديدةِ المنتظمةِ، في نواحي الإعجازِ القرآنيِّ العلميِّ واللَّفظيِّ، وتشملُ الفصاحةَ والبلاغةَ والمعانيَ والآدابَ والشَّرائعَ وسواها[2]؛ ذلك أنّ (مثل) لفظٌ موغلٌ في التّنكير؛ لإفادته العُموم؛ فلا تنحصرُ فيه أوجهُ المغايرة والمشابهة[3]، وهذا أبين لعجزهم في كونه تحدّيًا بالإتيان بالشّبيه، ويفوت ذلك لو قيل: بقرآن.

الغرض من التَّعبيرِ باسمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

الإشارة إلى حاضرٍ موجودٍ، كمال تمييز، يسفر عن المراد

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿هَٰذَا﴾ الإشارةُ إلى حاضرٍ موجودٍ، والمرادُ أنْ يأتوا بمثلِ هذا الحاضرِ الموجودِ[4]، وفي التعبير باسم الإشارة كمال تمييز، وبيان لمكانة المشار إليه.

دلالة (أل) على العهد، في لفظ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾:

بيان كمال المعرّف من جهةِ البلاغةِ الجليلةِ، والمعاني العجيبةِ

اللّام في ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ للعهد، ويرادُ به الكتابُ المخصوصُ المعروفُ "الذي اشتُهر في الكائنات، وتعورف بين الأسود والأحمر، الموصوفُ بالكمالات التي لا نهاية لها"[5]، "المنزَّلُ منْ عندِ اللّه، الموصوفُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 509.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 203.
(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 126.
(4) القمّاش، الحاوي في تفسير القرآن: 541/ 455.
(5) الطّيّبي، فتوح الغيب: 11/ 453.

بالصّفاتِ الجليلةِ منْ كمالِ البلاغةِ وحسنِ النَّظمِ وجزالةِ اللَّفظِ"[1]؛ ولذا تبعَ الإشارةَ كقولهم: هذا الرَّجلُ، وإنَّما جاءَ بهِ معرَّفًا للإشارة إلى كماله؛ "لأنَّكَ إذا قلتَ: هذا الرَّجلُ؛ فقدْ يكونُ أنْ تعنيَ كمالَهُ"[2]، واشتمالَهُ على الأخلاقِ الرّوحانيةِ والهدايةِ القويمةِ.

بلاغةُ النَّفي بالحرف (لا) في السّياق:

سياق النّفي تأكيد على أنّ الإتيان بمثل القرآن لم يقعْ، ولن يقعَ منهُم

التَّعبيرُ بـ ﴿لَا يَأۡتُونَ﴾ على صيغةِ (لا يَفْعَلُ) له دلالتهُ في لسانِ العربِ، المنسجمةُ مع سياقِ الآيةِ الدّالَّةِ على نفي هذا الفعلِ بأبلغ صورةٍ؛ لأنَّ النَّفيَ بـ﴿لَا﴾ يشمل الحاضر والمستقبل، فهي تفيد أنَّ الإتيانَ بمثلِ هذا القرآنِ منتفٍ على مرِّ الزَّمنِ، وأنَّه لا طاقةَ للإنسِ والجنِّ عليهِ[3]، فهي قد تكون للحال، وقد تكون للاستقبال، وقد تكون للاستمرار[4].

سرُّ تكرارِ الفعلِ منفيًّا، مسندًا إلى واو الجماعة:

فشلُ الإتيانِ بمثلِ القرآن مؤكَّدٌ، وإن اجتمعوا في الحاضر والمستقبل

قوله: ﴿لَا يَأۡتُونَ﴾ تكرارٌ لفعلِ الإتيانِ، وهو بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ المسند إلى واو الجماعة؛ للإشارةِ إلى تأكيدِ انتفاءِ الإتيانِ، وفشلِ تحدّيهم، وإن اجتمعوا، وظاهرَ بعضهُم بعضًا، ويقوّيه التَّعبيرُ بـ﴿لَا﴾ الدّالَّةِ على الحال والاستقبالِ في أصلِها[5]، فإنَّهم عاجزون في الحاضرِ والمستقبلِ.

الغرض من التَّعبير بالإظهار في موضع الإضمار:

أهمّيّة الاحتراز مِن توهُّمِ أنَّ له مثلًا، ونفي الإتيان بمماثل له

لَمّا ذكرَ المثلَ في قولهِ تعالى: ﴿بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾؛ أعادهُ مظهرًا لا ضميرًا يعودُ على الأوَّلِ بقولهِ: ﴿لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ احترازًا من أن يتوهَّمَ أحدٌ أن يكونَ لهُ مثلٌ معيَّنٌ يشبههُ، وهو مؤذنٌ بأنَّ المرادَ

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 305.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 94.
(3) القمّاش، الحاوي في تفسير القرآن: 541/ 450.
(4) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 206.
(5) الرّمانيّ، شرح كتاب سيبويه، ص: 1064.

نفيُ الإتيانِ بكلامٍ مماثلٍ لهُ من الصِّفاتِ البديعةِ، وفيهم العربُ من أربابِ البراعةِ والفصاحةِ والبيانِ[1]، كما أنَّ في تكرارِ لفظِ المثلِ في قولهِ: ﴿لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ فائدةً، وهي أنَّه جارٍ على سبيلِ التَّوكيدِ والإيضاحِ في أنَّ المرادَ أن يأتوا بمثلهِ لا أن يأتوا بالقرآنِ، ففي تكرارهِ رفْعٌ لهذا الاحتمالِ[2]، فالمثلُ هو الدّاخلُ في حيّزِ النَّفيِ؛ فإنَّهُ لا ينفي عنهم الإتيانَ بالقرآنِ نفسهِ، بلْ بمثلهِ، وهو أشبهُ ما يكونُ بصورتهِ في الحقيقةِ والماهيَّةِ، فإذا عجزوا عن الإتيانِ بصورتهِ؛ فهلْ هم قادرونَ على الإتيانِ بالأصلِ[3]؟

سرُّ تحدّيهم بالإتيان بمثله أو عَشرِ سورٍ أو آية:

تـصـعـيـد التّحدي، إيغالٌ في الاحـتـيـاطِ، وشدَّةُ استبصارٍ في الإنكارِ

لعلَّ سائلًا يسألُ عنْ تحدّيهم في هذهِ الآيةِ بأنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ، فيما تحدّاهم في آياتٍ أخرى أنْ يأتوا بعشرِ سورٍ بقولهِ تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود: 13]، أو أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ بقولهِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: 38]، والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّهُ داخلٌ تحتَ بابِ الإيغالِ في الاحتياطِ، "كما يقولُ الرَّجلُ لمنْ يجحدهُ: ما يستحقُّ عليَّ درهمًا ولا دانقًا ولا حبَّةً، ولا كثيرًا ولا قليلًا، ولوْ قالَ: ما يستحقُّ عليَّ شيئًا، لأغنى في الظّاهرِ عنْ ذلكَ، لكنَّ التَّفصيلَ والتَّنزُّلَ دلَّ على الاحتياطِ، وعلى شدَّةِ الاستبصارِ في الإنكارِ"[4].

دلالة (الواوِ) في قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾:

العـجـز عن الـتّـحـدّي، مجتمعينَ أو وحدانًا

الواوُ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ دالَّةٌ على الحالِ[5]، والمرادُ منها استقصاءُ الأحوالِ جميعًا، أي: وجودُ الفعلِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 193.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 110.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8731.
(4) ابن أبي الإصبع، تحرير التّحبير، ص: 236.
(5) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 628.

على كلِّ حالٍ، وهي على وِزانِ قوله ﷺ: "أعطوا السّائلَ ولو جاءَ على ظهرِ فرسٍ"(1)، أي: أعطوهُ في الأحوالِ كلِّها لا مقيَّدًا بحالٍ واحدةٍ؛ فإنَّهم لن يأتوا بمثلِه في أحوالِهم جميعًا مجتمعينَ كانوا أو وحدانًا.

سرُّ التَّعبيرِ بالأداة ﴿لَوۡ﴾:

أثر التّأكيد بالأداة الوصليّة الرّابطة في إفادة المبالغةِ

﴿وَلَوۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ دالَّةٌ على الوصلِ والرَّبطِ في مقامِ التَّأكيدِ، وهي منزوعةُ الشَّرطِ يؤتى بها للمبالغةِ؛ فما بعدَها مظنَّةٌ ألّا يشملَهُ ما كانَ قبلَها(2)؛ لأنَّ ما قبلَها يأتي على سبيلِ الاستقصاءِ(3)، فلو تظاهرَ الإنسُ والجنُّ؛ فلن يأتوا بمثلِ هذا الكتابِ المعجزِ، فلا يتوهَّمَنَّ متوهِّمٌ، أنَّ تظاهرَهُم وتظافرَهُم، فيه تحقيقُ مرادِهم، بمعارضتِه بعدَ اجتماعِهم، فـ(لو) مستقصيةٌ أحوالَهُم جميعَها مِن اجتماعِهم، وأنْ ينصرَ بعضُهم بعضًا.

علَّةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿كَانَ﴾ ماضيًا:

المكلَّفونَ مجبولونَ على المخالفةِ، وتنافي الأغراضِ

عبَّرَ بفعلِ الكينونةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾؛ للإيذانِ بأنَّ المكلَّفينَ مجبولونَ على المخالفةِ وتناقضِ المقاصدِ، وأنَّ هذا مِنْ طباعِهم، وعاداتِهم(4) الَّتي جُبلوا عليها، ولا يستطيعونَ عنها حَيْدةً.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ﴾:

المُباعضة دليلُ التّعاضد، وهو دليل على عجزهم عن التّحدّي

البعض: الجزء أو الطّائفة من الشَّيء قلَّت أو كثرت(5)، والتَّعبير بـ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ﴾ دالٌّ على التَّلاحم والتَّعاضدِ، أي: ضمِّ أقوى ما في كلِّ واحدٍ إلى أقوى ما في صاحبه، فيتعاضدون عونًا؛ لتحقيق

---

(1) ابن عادل، اللّباب: 12/ 383، والحديث ذكره بنصّه هذا ابن الأثير، جامع الأصول في أحاديث الرّسول: 6/ 454.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 203.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 480 - 481.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 509 - 510.

(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (بعض).

ما يتوخَّوْنه من الإتيان بمثله[1]، فالمُباعضةُ دليلُ التَّعاضد، والهمَّة على الإنجاز.

دلالة اللّام، في شبه الجملة ﴿لِبَعۡضٖ﴾:

يعينُ بعضهُم بعضًا، بضمِّ أقوى ما فيهِ إلى أقوى ما في بعضهِم الآخرِ

اللّام في قولِه تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ تدلُّ على المِلكِ والاستحقاقِ بطريقِ الملابسةِ[2]، أي: أن يكونَ بعضهُم معينًا لبعضهِم الآخرِ؛ بأن يضمَّ أحدهم إلى الآخر أشدَّ ما عنده، وأقواه، ولفظُ ﴿ظَهِيرٗا﴾ بمعنى المعينِ المظاهرِ، وفيهِ دلالةٌ على زيادةِ القوَّةِ والتمكُّن؛ فيكونُ المعاونُ كالظَّهرِ لصاحبهِ في الدَّفع عنهُ[3]، ولذا استُعملَ هذا اللَّفظُ في الآيةِ، "قالَ ابنُ عبّاسٍ: يريدُ: مُعينًا مثلَما يتعاونُ الشُّعراءُ على بيتِ شِعرٍ، فيقيمونهُ"[4]، وقدْ كانَ الشِّعرُ ديوانَ العربِ، فخيرُ ما يتَّخذونهُ - بحسبِ ظنِّهم وفرطِ جهلهِم - أنموذجًا يبنونَ عليهِ محاولاتِهم في تحدّي القرآنِ هو الشِّعرُ.

إيثار استعمال ﴿ظَهِيرٗا﴾ نكرة على وزنِ (فَعيل):

الظَّهيرُ بمعنى المُعينِ والنّاصرِ إفرادًا وجمعًا، مفيد في بيان المراد

لفظُ ﴿ظَهِيرٗا﴾ بمعنى المعينِ المظاهرِ، وفيه دلالةٌ على زيادةِ القوَّةِ والتمكُّن؛ فيكونُ المعاونُ كالظَّهرِ لصاحبهِ في الدَّفعِ عنهُ[5]، وقد جاءت ﴿ظَهِيرٗا﴾ على صيغةِ (فَعيل)؛ لأنَّ هذهِ الصيغةَ ممّا يجوزُ استعمالها للمفردِ والجماعةِ[6]؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [التحريم: 4]، وسياقُ الجملةِ يحتملُ هذا وذاكَ، وفيهِ مع التنكيرِ فائدةٌ أخرى، وهيَ المبالغةُ في النُّصرةِ والإعانة؛ فإنَّ فعيلًا يأتي لإفادةِ المبالغةِ[7]، فـ﴿ظَهِيرٌ ٤﴾ [التحريم: 4] دالٌّ على المبالغةِ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 510.
(2) وهو من معاني اللّام في كلام العرب، وابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 480.
(3) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 2/ 100.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 127.
(5) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 2/ 100.
(6) ابن هشام، أوضح المسالك: 1/ 192.
(7) الشّهاب الخفاجيّ، شرح درّة الغوّاص، ص: 245.

المظاهرةِ والإعانةِ والإسنادِ، وفي ذلكَ تعريضٌ بهم؛ فمهما كانتْ مظاهرتهُم؛ فَهُم مغلوبونَ مردودونَ.

فائدةُ جملةِ الفاصلةِ، في سياقِ الآية:

تأكيدُ معنى اجتماعِ الثَّقلَيْن، المتضافرِ على عملٍ واحدٍ، ومقصدٍ واحدٍ

ختمَ الآيةَ بقولهِ: ﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾، وهي جملةٌ أفادت تأكيدَ معنى قولهِ: ﴿لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ المؤذن بمعنى اجتماعِ الفريقينِ المتظافرِ على عملٍ واحدٍ مُشتركٍ، ومرمًى واحدٍ مقصودٍ[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المِثْل والشَّبيه:

الشَّبهُ يستعملُ في المشاهَدِ، والنَّظيرُ تشابهٌ في جنسِ الفعلِ، والمِثْلُ تطابقٌ في الذّاتِ

ذكرَ المِثْلَ في قولهِ تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، ولم يذكرْ مرادفَهُ الشَّبيهَ؛ لأنَّ الشَّبَهَ مستعملٌ في الشَّيءِ المشاهَدِ؛ فيعبَّرُ عن السَّوادِ بشبهِ السَّوادِ، ولا يقالُ في القدرةِ؛ فإنَّها مستعملةٌ في المثلِ[2]، ولَمّا كانَ الإتيانُ بمثلِ القرآنِ أمرًا متعلِّقًا بالقدرةِ، وليسَ شيئًا محسوسًا مشاهدًا؛ عبَّرَ عنهُ بالمِثْلِ، ولم يعبِّرْ عنهُ بالشَّبيهِ.

الظّهير والعضيد:

الظَّهيرُ أدقُّ في التَّعبيرِ عن العجزِ عن المعارضة

أصل الظّهور واحد، يدلُّ على قوَّة وبروز، والظّهير: المعين، كأنَّه أسند ظهره إلى ظهرك[3]، وعضُد الرّجل: أنصارُه وأعوانه، والاعتضاد: التّقوّي والاستعانة، والمعاونة[4]، وكلّ شَيْء أعانك؛ فَهو عَوْن لَك، كالصَّوْم عَوْنٌ على العِبادَة، والجميع الأعوان، فالعَوْنُ: الظهيرة على الأمر[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 203.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 294.
(3) ابن فارس، المقاييس: (ظهر).
(4) الأزهريّ، التّهذيب، والرّاغب، المفردات، وابن فارس، المقاييس: (عضد).
(5) الأزهريّ، التّهذيب، والرّاغب، المفردات، وابن فارس، المقاييس: (عضد).

ولَمّا أرادَ إظهارَ عجزِهم، ولوِ اجتمعوا، وتعاونوا؛ قالَ فيهِم: ﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾، فذكرَ الظَّهيرَ، ولم يذكرْ ما سواهُ من المرادفاتِ كالعضيدِ، مع تقاربها في المعنى معَ الظَّهيرِ، إلّا أنَّ التَّعبيرَ بالظَّهيرِ أدقُّ في سياقِ التَّظاهرِ على الإتيانِ بكلام يماثلُ القرآنَ، فجعلَ اجتماعَ الإنسِ والجنِّ للإتيانِ بمثلِ هذا القرآنِ مشابهًا لاجتماعٍ الشُّعراءِ على إقامةِ البيتِ وتحبيرِه، وهو وإنْ كانَ ممكنًا إلا أنَّ الإتيانَ بمثلِ القرآنِ محالٌ.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩﴾ [الإسراء: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا تحدّى البلغاءَ بالإعجازِ؛ أردفه بوجه من وجوه إعجازه، في تصريف الأمثال فيه

لَمّا كانَ التَّحدّي واقعًا على بلغاءِ العربِ المشركينَ بالإعجازِ في الآيةِ السّابقةِ؛ تطاولَ عليهم هنا بإيرادِ جزءٍ منْ فضائلِ القرآنِ على ما سواهُ منْ سائرِ الكلامِ، ناعيًا عليهم ما حرموا أنفسهُم من الإفادةِ من القرآنِ، فذكرَ ضربًا منْ ضروبِ إعجازِهِ، وهو اشتمالهُ على الأمثالِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَرَّفۡنَا﴾: (صرف) أَصْلٌ يَدُلّ على اشتقاق الشَّيءِ من الآخرِ، وتصاريف الأمورِ؛ أيْ: إنَّها تتقلَّبُ بالنّاسِ، وذكرَ في القرآنِ تصريفَ الرّياحِ، أيْ: تقليبَها منْ وجهٍ إلى آخرَ، ومنهُ التَّقلُّبُ والتَّحايلُ في الأمورِ، كالرَّجلِ يتصرَّفُ، ويكتسبُ قوتَ عيالِه، وتصريفُ الآياتِ تبيينُها، والصّادُ والرّاءُ والفاءُ أصلٌ يدلُّ على رجعِ الشَّيءِ، وتصريفُ الكلامِ تزيينهُ لجلبِ الاستماعِ إليهِ، والصَّرفُ ردُّ الأمرِ منْ شيءٍ إلى آخرَ أوْ تبديلهُ، وتصريفُ الكلامِ تفضيلُ بعضهِ على بعضٍ؛ لأنَّ التَّفضيلَ صرفٌ عنْ أشكالهِ ونظائرِه[2].

2) ﴿مَثَلٖ﴾: (مثل) أصل يدلّ على مناظرة الشَّيءِ[3]، وجمعُ (مَثَل): أمثال، ومعنى المَثَلِ "شِبْهُ الشَّيءِ في المِثالِ والقَدْرِ ونحوِهِ حتّى في المعنى، ويقال: ما لهذا مَثِيلٌ، والمِثالُ ما جُعِلَ مقدارًا لغيره،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 204.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (صرف).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والعسكريّ، الوجوه والنّظائر: (مثل).

وجمعُه مُثُل"[1]، وضربُ المَثَلِ جعْلُهُ يسيرُ في البلادِ من قولكِ: ضربَ في الأرضِ؛ إذا سارَ فيها والمثلُ يأتي بمعنى الحديثِ والخبرِ، ومعنى المثَلِ في الآيةِ: الكلامُ المشتملُ على الموعظةِ والحجَّةِ[2].

3) ﴿فَأَبَىٰ﴾: (أبى) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الامتناعِ، فالإباءُ: عرضكَ الشَّيءَ على الرَّجلِ، فيرفضُ قبولَهُ، وذُكِرَ في معناهُ المحوريّ الامتناعُ إحساسًا بالاستغناءِ وانعدامِ الحاجةِ، وهو الامتناعُ الشَّديدُ المقترنُ بالكراهةِ[3]، يقالُ: أبى فلانٌ؛ إذا عصى، وتركَ الطّاعةَ، ومصدرهُ الإباءُ، وإباءُ الشَّيءِ بمعنى كُرْهِهِ، ومعنى إبائهم في الآيةِ: ثباتهُم على الكفرِ، وامتناعهُم عن الشُّكرِ، وعدمُ قبولهِ، واستبدالُهمُ الكفرَ بذلك[4].

4) ﴿كُفُورًا﴾: (كفر) أصل يدلّ على التَّغطيةِ والسَّترِ، فلَّما كانَ منْ شأنِ الكافرِ تغطيةُ عقلِه وقلبِه بعدم قبولِه الإيمانَ؛ سمّي كذلكَ، والكافرُ مَن يُغطّي نعمَ اللّهِ وتوحيدَهُ فيُناقضُ الإيمانَ، ويناقضُ الشُّكرَ إذا اقترنَ بالنِّعمةِ، ويجوزُ أنْ يأتيَ ضدَّ الإسلامِ، وأعظمُ الكفرِ: جحودُ الوحدانيَّةِ أو الشَّريعةِ أو النُّبوَّةِ، والكفرانُ في جحودِ النِّعمةِ أكثرُ استعمالًا، والكفرُ في الدّينِ أكثرُ، والكُفورُ فيهما جميعًا، وإذا كانت التَّغطيةُ كثيفةً تامَّةً لا يظهرُ معها شيءٌ من المغطّى؛ سُمّيتْ كفرًا، وسُمّي الكافر؛ لأنَّهُ قدْ غطّى قلبَهُ تغطيةً كثيفةً على الرَّغمِ من الشَّواهدِ الواضحاتِ البيّناتِ على وجودِ اللّهِ وعظمتهِ[5]، ومعنى الكَفورِ في الآيةِ: الجَحودُ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كانَ منْ عادةِ القرآنِ الحكيمِ ونهجهِ معَ منْ أُنزلَ إليهم مِنْ بني آدمَ أنَّ الحقَّ سبحانه قدْ صرَّفَ، وبيَّنَ، وضربَ فيهِ من الأمثالِ الدّالةِ على الموعظةِ والاعتبارِ، مثلًا إثرَ آخرَ؛

(1) الخليل، العين: (مثل).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 299.
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أبى).
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 328.
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفر).
(6) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 19/ 441.

نهجُ القرآن ضَربُ الأمثالِ الحقّة، ولكنَّ أكثر النّاس يجحدون

رحمةً منهُ وفضلًا "ما لو تفكّروا فيهِ، وتأمّلوا؛ لعرفوا صدقَ رسولِ اللّهِ ﷺ وكذبَ أنفسِهم وسفهَهُم"[1]، لكنَّهم أعرضوا، ولم يتفكّروا، وعاندوا جحودًا ونكرانًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواوِ في السّياق:

اشتراك الجمل في الحكم تجلية لمعاني الامتنانِ والتّعجيز

الآيةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ وصلًا؛ لمشاركتِها إيّاها في الحكمِ المتقدِّمِ بيانهُ من بابِ الزّيادةِ والفضلِ في الامتنانِ والتّعجيز[2].

دلالةُ الفعل ﴿صَرَّفۡنَا﴾ في السّياق:

فضلُ القرآن سابغٌ، ومنكرُه جاحدٌ خاسرٌ

التّصريفُ في قوله: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ﴾، تنبيهٌ "على فضل اللّهِ في القرآنِ على العالم، وتوبيخٌ للكفّارِ منهم على قبيحِ فعلهِم"[3]؛ بأن امتنَّ عليهِم بتصريفِ القرآنِ، معَ كثرةِ ما ردَّدَ من الأمثلةِ، وأسبغَ عليهم منَ النِّعمِ، فما كانَ منهم إلّا الجحودُ وكفرانُ نعمهِ[4].

دلالة اللّامِ، في قوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

تأكيد القولِ لدفع التّكذيب، والدّعوة للإيمان

اللّام موطِّئةٌ للقسم دالَّةٌ على التَّوكيدِ في ﴿وَلَقَدۡ﴾؛ فهي لتوكيدِ القولِ[5]؛ لعلَّهم يؤمنونَ.

بلاغةُ التَّوكيدِ باللّامِ، و(قد) التَّحقيقيَّة:

فعل التّصريف بقدر اللّه الشّريف، ردٌّ لأفكار المشركينَ المنكرينَ

جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ﴾ بمؤكِّدينِ؛ هما لامُ القسمِ وحرفُ التّحقيقِ[6]، وغرضُ التَّوكيدِ هنا ردٌّ لأفكارِ المشركينَ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 7/ 110.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 204.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 484.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 111.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4450.
(6) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري: 15/ 89.

المنكرينَ أنَّه من عندِ اللّهِ، وآيةُ ذلكَ الفعلُ ﴿صَرَّفۡنَا﴾ الدّالُّ على أنَّ هذا القرآنَ من الجليلِ سبحانهُ[1].

بلاغة الكناية، في جملة ﴿صَرَّفۡنَا﴾:

التَّصريفُ هنا كنايةٌ عن التَّبيينِ والتَّوضيحِ بمختلفِ أنواعِ البيانِ؛ بأن يأتيَ مرَّةً بمشاهداتٍ من السَّمواتِ والأرضِ، ومرَّةً بما في النُّفوسِ، ومرَّةً بأحوالِ الأممِ الَّتي خلتْ، في أساليبَ متفاوتةٍ كي تحيطَ بالأفهامِ على تفاوتِ مداركِ العقولِ[2].

التَّبيينُ بمختلفِ ضروبِ البيانِ؛ لتكونَ المعاني في متناولِ الأفهامِ

دلالة إسناد الفعلِ ﴿صَرَّفۡنَا﴾ ماضيًا إلى الضّمير:

عبَّرَ بالفعلِ ﴿صَرَّفۡنَا﴾ بصيغةِ الماضي؛ لدلالتِه على الحكمِ الثّابتِ القائمِ على المشاهدةِ والتَّجربةِ الكثيرةِ المتكرِّرةِ؛ فإنَّ التَّصريفَ واقعٌ متحقِّقٌ؛ فلا يبقى شكٌّ في ذلكَ، وإسناده إلى ضميرِ الغائبِ العائدِ عليهِ سبحانه لغرضِ التَّعظيمِ[3]، وإدخالِ المهابةِ في نفوسِ المخاطَبينَ.

كلّ ما نسب إلى اللّه من تصريف، دالٌّ على عظمته بيقين

دلالة (اللّامِ) في شبه الجملة ﴿لِلنَّاسِ﴾:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ﴾ دالَّةٌ على التَّعليلِ والسَّببيةِ[4]؛ فإنَّ تصريفَ الأمثالِ في القرآنِ إنَّما هو لأجلِ النّاسِ، فقد وجَّهَ الحقُّ سبحانه القولَ لهم، وفيهِ من الأمثالِ الرّائعةِ في الحِكَمِ الإلهيَّةِ والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ والأمرِ والنَّهيِ وما شابهَ الكثيرُ[5].

بيان مناسبة السّياق؛ لاختلاف المخاطَبين، وتنوُّع طبائعهم

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿لِلنَّاسِ﴾ :

في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ رتَّبَ متعلّقاتِ فعلِ التَّصريفِ بادئًا بالنّاسِ، ثمَّ أتبعَهُ بالقرآنِ، والسِّرُّ في

ذكرُ النّاسِ أهمُّ هنا؛ لأنَّ الكلامَ مسوقٌ لتحدّيهم والحُجَّةِ عليهِم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 204.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 109، و: 7/ 235 - 236.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 510.

(4) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 275.

(5) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 801.

هذا التَّرتيبِ متعلِّقٌ بالمقام، صحيحٌ أنَّ ذِكْرَ القرآنِ أهمُّ أصالةً، إلّا أنَّ الاعتباراتِ الطّارئةَ قد تُقدَّمُ، ومن هذا البابِ فإنَّ ذِكْرَ النّاسِ هنا أهمُّ وأنسبُ؛ لأنَّ الكلامَ قد سيقَ لأجلِ التَّحدّي، وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم[1]، وعادةُ العربِ في تقديمِ الألفاظِ أنَّهم يقدِّمونَ ما عنايتهُم بهِ أهمُّ، وحرصهُم عليهِ أتمُّ، ولا يكفي ذلك ما لم يبيّنوا سببَ هذهِ العنايةِ، وغرضَ ذلكَ الاهتمام[2]؛ فقدَّم لفظَ ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ لينبِّهَهُم على أنْ يهتمّوا بفهمِ القرآنِ، ويعتنوا بتدبُّرِه، ويكونوا وقّافينَ عندَ أوامرِه، منتهينَ عنْ زواجرِه[3].

الغرضُ من التَّعبيرِ باسمِ الإشارة:

بيان أنّ الأمثال، صرّفت في القرآن الكريم آخرِ الكتب نزولًا

عبَّرَ باسمِ الإشارة في قولِه تعالى: ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ الكتابَ المعنيَّ هو القرآنُ الحاضرُ المحسوسُ الَّذي صُرِّفتْ فيهِ الأمثالُ، وهو القرآنُ العربيُّ[4] المقروءُ المعهودُ الَّذي يعرفهُ النّاسُ بهذا الاسم.

دلالة إظهار لفظ ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ دون التّعبير عنه بالإضمار:

القرآن محلُّ تعظيم وتشريف، وذكره تنويه بسموّه وعظمته

في إظهارِ القرآنِ بدلَ الإضمارِ مع لِحاظِ قربِ التَّصريحِ به بلفظِهِ في الآيةِ السّابقة؛ تعظيمُ شأنِه، وإعلاءِ مكانتِه بوصفه المشتمل على عظيم الآياتِ مناطِ الوصفِ بالتَّصريفِ من كلِّ مثل.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ في آيتي الإسراء (89) و(41) وآية الكهف (54):

ذكر النّاس في مقام التَّحدّي والإعجاز، يقابله عدم ذكرهم في مقام اللَّومِ والتَّوبيخ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾ [الإسراء: 41]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: 89]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ

---

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 15/ 204 - 205.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 78.
(3) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/ 860 - 861.
(4) ابن قدامة، المناظرة في القرآن، ص: 27.

﴿أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾ [الكهف: 54]، وُجوهُ تشابُهٍ وافتراق؛ إذ اختصرَ في الآيةِ الأولى، وبسطَ في الأخريين، وقدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿لِلنَّاسِ﴾ في الآيةِ الثّانيةِ، وأخَّرَ ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، وعكسَ في الآيةِ الثّالثةِ، فيُسألُ عن ذلكَ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ الخطابَ في الآيةِ الأولى كانَ معنيًّا بكفّارِ العربِ، فلم يذكر كلمةَ (النّاسِ) الدّالّةَ على العمومِ لخصوصيَّةِ الخطابِ هنا، أمّا الآيةُ الثّانيةُ؛ فالخطابُ فيها للإنسِ والجنِّ، وخَصَّ النّاسَ بالذِّكرِ اعتناءً بهم، وهم الجنسُ الإنسانيُّ، أمّا تقديمُ النّاسِ؛ فلدرءِ الثِّقلِ فيما لوْ قيلَ: (ولقدْ صرَّفنا في هذا القرآنِ منْ كلِّ مثلٍ للنّاسِ، فأبى أكثرُ النّاسِ إلّا كفورًا)، فإنَّ لفظَ النّاسِ عندئذٍ يبدو كأنَّهُ أعيدَ على وجهِ الاتِّصالِ؛ فيكونُ مستثقلًا، فقدَّمهُ؛ ليستحكمَ الفصلُ، فلا يستثقلَ، وليسَ ذلكَ حاصلًا معَ آيةِ الكهفِ، فلم يتكرَّر لفظُ النّاسِ؛ فلا حصولَ للاستثقالِ، فأخَّرهُ، وقدَّمَ القرآنَ؛ لما فيهِ منَ التَّنبيهِ على شرفهِ ورفعته(1).

وفي الآيةِ الأولى عبَّرَ بـ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الإسراء: 41]؛ لأنَّهُ وردَ بعد آياتٍ في الوصايا والعظاتِ والتَّسويفِ، فقالَ: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الإسراء: 41] للعملِ بها، أمّا الآيةُ الثّانيةُ؛ فجاءتْ في أقوامٍ مخصوصينَ منها تحدّي اجتماعِ الإنسِ والجنِّ لمعارضةِ القرآنِ؛ فناسبَ ذكرُ النّاسِ وتقديمُهُم، وقيامُ الدَّليلِ على عجزِهم عن الإتيانِ بمثلهِ، أمّا آيةُ الكهفِ؛ فواردةٌ بعدَ ذكرِ إبليسَ وعداوتهِ، والتَّشنيعِ على مَنْ يتَّخذهُ وذرّيَّتَهُ أولياءَ؛ فناسبَ تقديمُ القرآنِ الدّالِّ على عداوتهِ وتبعيدهِ(2).

وفي تقديم ﴿لِلنَّاسِ﴾ على ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ في الآيةِ الثّانيةِ، وتأخيرهِ في آيةِ الكهفِ؛ لما تقدَّمَ في الإسراءِ من الكلامِ على الإنسانِ ونعمِ اللهِ عليهِ ورحمتهِ، بقولهِ: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣﴾ [الإسراء: 83]، فالسّياقُ في الإنسانِ هنا ممّا يناسبهُ تقديمُ النّاسِ، وليسَ شيءٌ منْ ذلكَ في آيةِ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ [الكهف: 54]، ثمّ إنَّ مبتدأَ الكهفِ كانَ في الكتابِ الكريمِ(3) بقولهِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ [الكهف: 1]؛ فناسبَ تقديمهُ جريًا على سياقِ ما بدأ به السّورة.

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/ 311 - 312.
(2) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني: 232 - 233.
(3) فاضل السّامرائي، أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ، ص: 501.

وفي الآيتين الثّانية والثّالثة ذكرَ متعلّقَ فعلِ التّصريفِ ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، فيما لم يذكرهُ في الآية الأولى [الإسراء: 41]؛ لأنَّ ذِكرهُ فيهما أدخلُ في الإعجازِ؛ لما تحقّقهُ كثرةُ أغراضِ الكلامِ من شدّةِ التّعجيزِ لمن رامَ معارضتهُ؛ فإنَّ البليغَ قد يقدرُ على غرضٍ، ويعييهِ غرضٌ آخرُ؛ فيكونُ عجزهُم عن معارضةِ القرآنِ معَ كثرةِ الأغراضِ عجزًا من جهةٍ أخرى بعجزهِم عن أن يأتوا بمثلهِ، ولو في بعضِ أغراضهِ[1].

معنى حرف الجرّ، في قوله: ﴿مِن كُلِّ﴾:

بيان جنس المثل المضروب، زيادة في المنّة وتأكيد لها

يجوزُ أن تكونَ ﴿مِن﴾ في قولهِ تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ لابتداءِ الغايةِ؛ فيضمرُ مفعولُ ﴿صَرَّفۡنَا﴾، أيّ: صرَّفنا التّنبيهَ والعِبرَ منْ كلِّ مثلٍ، ويجوزُ أنْ تكونَ زائدةً للتّوكيدِ، على تقديرِ: صرَّفنا كلَّ مثلٍ[2]، ويجوز أن تكون بيانيَّةً؛ والمعنى: فإنَّنا صرَّفنا، وحوَّلنا لهم من ضروبِ القولِ من كلِّ مثلٍ، أي: إنَّنا ذكرناها في كلِّ حالٍ لتشابهها معَ الوجودِ الإنسانيِّ[3].

دلالة التّعبيرِ بلفظةِ ﴿كُلِّ﴾:

التّنويع يلائم المخاطَب، وفيه تعزيز للنِّعم من الله

التّعبيرُ بقولهِ تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يفيدُ العمومَ المؤسَّسَ على لفظةِ ﴿كُلِّ﴾، وهي من صيغِ العمومِ[4]، والمرادُ هنا الإشارةُ إلى أنَّ الكتابَ الكريمَ يشتملُ على أبعاضٍ من ضروبِ المثلِ جميعًا[5].

السرّ في تنكيرِ لفظةِ ﴿مَثَلٍ﴾ وتنوينها:

التّعظيم والتّشريف في المقصودِ مِن التّمثيلِ

وردَ لفظُ ﴿مَثَلٍ﴾ منكَّرًا منوَّنًا؛ لإرادةِ التّعظيمِ والتّشريفِ، والمعنى: صرَّفنا من كلِّ ما شرُفَ من الأمثالِ، والمرادُ من شرفه مقصودهُ من التّمثيلِ بهِ، وضربهِ للنّاسِ[6]، ويجوزُ في معنى المثل

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 205.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 484.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4451.
(4) ابن فرحون، العدّة في إعراب العمدة: 2/ 274.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 205.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 205.

في قولهِ تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أن يرادَ بِهِ الحالُ، أيْ: منْ كلِّ حالٍ حسنةٍ ممّا يحملُ من المعاني الجديرةِ بالتَّمثيلِ والتَّشبيهِ بما يزادُ بيانُهُ في نوعِهِ[1].

بلاغة الاستعارة التّصريحيّة في لفظة ﴿مَثَلٍ﴾:

لا يـرادُ بالمثل معناهُ المتعارفُ بل ما هو مشابهٌ لهُ في الغرابة

قولهُ في الآيةِ: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ؛ فليسَ القصدُ من المثلِ ما تعورفَ عليهِ في جانبهِ الاصطلاحيِّ، إنَّما أرادَ الحالةَ الَّتي تشبهُ المثلَ في غرابتهِ وندرتهِ[2]، وسيرهِ في الأقطارِ وما يجبُ أن يعتبرَ به.

معنى الفاءِ ودلالتها في جملة ﴿فَأَبَىٰٓ﴾:

إباؤهُم لما في القرآنِ من الشِّفاءِ والهدى، توبيخٌ لهم على عدم الاهتداء

الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ دالَّةٌ على السَّببيَّةِ، والمعنى: "فتسبَّبَ عن ذلكَ الَّذي هو سببٌ للشِّفاءِ والشُّكرِ والهدى"[3] تصديقًا لقولهِ تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء: 82]، وفي ذلكَ من التَّوبيخِ والتَّقريعِ ما فيهِ، فلا يُقابَلُ تصريفُ القرآنِ منْ كلِّ مثلٍ بالرَّفضِ والإباءِ إلّا مِنْ جاهلٍ محرومٍ.

دلالةُ قوله: ﴿أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾، في السّياق:

تنويع المواعظ وتقليل المتذكّرين، فضحٌ لجحودهم المهين

في ذكرِ الأكثرِ دلالةٌ قائمةٌ على إنصافِ القلَّةِ القليلةِ الَّتي آمنتْ، وفتحتْ صدورَها للقرآنِ، وعملتْ بما جاءَ بِهِ مِنْ أوامرِهِ ونواهيهِ[4].

دلالة الإظهار في موضع الإضمار:

التّأكيد والتّوضيح إقامة للحجّة، والتزام بالمحجّة

لَمّا ذكرَ النّاسَ أوَّلًا بقولِهِ: ﴿صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ﴾ كانَ من مقتضى الظّاهرِ أن يعيدهُ مكنيًّا بالضَّميرِ، إلّا أنَّه أعادَ ذكرهُ ظاهرًا بقولهِ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾، فآثرَ الإظهارَ على الإضمارِ خلافًا لمقتضى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 204.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 585.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 11/ 510.
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 8/ 426 - 427.

الظّاهرِ؛ لما فيهِ من التَّوكيدِ والتَّوضيحِ والتَّبيينِ[1]، كما أنَّ في إعادةِ ذكرِ النّاسِ إشارةً إلى كونهِم ناسًا، وأنَّ الكفرانَ منْ دأبِ الإنسانِ، والجحودَ من طبيعتِه، وفي إعادةِ ذكرِه إشارةٌ إلى ذلكَ المعنى، وفيه توبيخٌ وتقريعٌ لذلكَ الإنسانِ الجاحدِ.

دلالة الاستثناءِ في جملةِ الفاصلةِ:

أكثر النّاس مبالغون في الكفر، منكرون للهدى

ظاهرُ قولهِ تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ أنَّهُ استثناءٌ موجبٌ، وفي ذلك إشكالٌ؛ إذ لا يستثنى من الموجب من دون ذكر المستثنى منه، فلا يقال: ضربت إلا زيدًا! والجواب عن ذلك: أنَّه مُتأوَّلٌ بالنَّفي، كأنَّه قيلَ: (ما قبلَ أو ما رضي أكثرهُم إلّا كفورًا)[2]؛ أي: جحودًا، فهو استثناءٌ مفرَّغٌ، وأصل الجملة قبل حذف المستثنى منه: ولم يرضوا شيئًا إلّا كفورًا[3]، وفي التَّعبير بهِ من المبالغةِ ما لا يتحقَّقُ فيما لو قال: أَبَوُا الإيمانَ؛ فإنَّهم لم يرتضوا بأيِّ خصلةٍ سوى الكفرِ، وبالغوا في عدمِ رضاهُم حتّى وصلوا إلى مرتبةِ الرَّفضِ والإباء[4]، ويمكن أن يكون المراد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا كُفُورٗا﴾ تأكيدَ الأمرِ بما يشبهُ ضدَّهُ، أي: تأكيدًا في صورةِ النَّقصِ؛ إطماعًا لهم بأنَّ امتناعهُم غيرُ مطَّردٍ، فالمستثنى توكيدٌ لمعنى المستثنى منهُ، والكُفورُ أخصُّ من المفعولِ المحذوفِ[5].

إيثارُ التَّعبير بلفظ ﴿كُفُورٗا﴾ دونَ (كفرًا) أو (كفرانًا):

الكفور يلازم أهله، حتّى يصيرَ وصفًا من أوصافهم

استعملَ لفظةَ ﴿كُفُورٗا﴾، وهو مصدرٌ على زِنَةِ (فُعول)، ولم يستعمل الصّيغَ الأخرى مثل: (كفرًا) أو (كفرانًا)؛ لما تدلُّ عليهِ هذهِ اللَّفظةُ من اللُّزومِ، حتّى باتت وصفًا من أوصافهم[6] المقارِنَةِ لهم.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 194.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 692.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 585.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 194.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 205.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4451.

سرُّ تنكير لفظ ﴿كُفُورًا﴾ في السّياق:

كفرانهم فعلٌ عظيم، يدلّ على سوء تقديرهم للعواقب

تنكير لفظ ﴿كُفُورًا﴾ في جملة الفاصلة دليل على شدَّة الوصف؛ فقد أتوا فعلًا عظيمًا مبالغًا فيه؛ ليثبتوا نكرانهم وجحودهم، وظلمهم لأنفسهم وأهليهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإباءُ والامتِناعُ والإعْراضُ:

الإبـاءُ رفـضٌ وامـتـنـاعٌ وإعـراضٌ، مـعَ التّكبُّرِ والتّشامخ والكراهةِ

في قوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، وردَ الفعلُ (أبى) الدّالُّ على النَّفي، وهو عدمُ رضاهُم معَ التَّكبُّرِ والشَّماخةِ[1]، فهو امتناعٌ معَ الأنفةِ والكراهةِ، وهو بذلكَ أخصُّ من فعلِ الامتناعِ ومرادفهِ؛ لدلالتهِ على الشِّدَّةِ[2]، أمّا فعلُ الإعراضِ؛ فهو في أصلهِ على نيَّةِ المجازِ، يقالُ: "طوى كَشْحَه عنهُ؛ إذا أعرضَ عنهُ"[3]؛ فلا يناسبُ سياقَ الآيةِ من هذهِ الأفعالِ إلّا الفعلُ (أبى) الدّالُّ على ما في هذهِ الأفعالِ معَ زيادة في المعنى عليها.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 511.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 8.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عرض).

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾

[الإسراء: 90]

الرّبط بين تصريف الله المعجز، وانتقالهم إلى طلب تفجير ينبوع من الأرض

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ظهرَ إعجازُ القرآنِ معَ المعجزاتِ الأخرى على مَنْ كانَ التَّحدّي واقعًا عليهِم، فلزمتهمُ الحجَّةُ، وقُطِعتْ ألسنتهُم، وأفحِموا، وغُلبوا، وبُهتوا، وتحيَّروا، ولم يجدوا وسيلةً للرَّدّ؛ أرادوا المراوغةَ؛ بأن اقترحوا عليهِ أنْ يأتيَ بالآياتِ[1]، مستهلّين طلباتهِم بتفجيرِ ينبوعٍ من الأرضِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَفۡجُرَ﴾: (فجر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على التَّفتُّحِ في الأشياءِ كانفجارِ الصُّبحِ، وانفجارِ الماءِ[2]، "ومنهُ تفجيرُ الأنهارِ، وإنَّما هو تشقيقها، ومفارقةُ أحدِ الجانبينِ الآخرَ"، والتَّفجيرُ أنْ تشقَّ الشَّيءَ شقًّا واسعًا كبيرًا، وذُكِرَ في معناهُ المحوريِّ أنْ ينبثقَ الماءُ بعدَ احتباسهِ؛ فيندفعَ بغزارةٍ فاتِحًا فرجةً في محبسهِ، ومعنى ﴿تَفۡجُرَ﴾ في الآيةِ: "تشقيقُ الأرضِ؛ لينبعَ الماءُ منها، ومنهُ سُمّي الفجرُ؛ لأنَّه ينشقُّ عن عمودِ الصُّبحِ، ومنه سُمّي الفجورُ؛ لأنَّه شقَّ الحقَّ بالخروجِ إلى الفسادِ"[3].

2) ﴿يَنۢبُوعًا﴾: اسمٌ على وزنِ (يَفْعول) من نبعَ الماءُ؛ إذا ظهرَ[4]، و(نبع) أصلٌ يدلُّ على نبوعِ الماءِ، والموضعُ الَّذي يخرجُ منه يسمّى ينبوعًا[5]، فالعينُ الَّتي يخرجُ منها الماءُ هي الينبوعُ، والجمعُ

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 276.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فجر).
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 272.
(4) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 512.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبع).

(ينابيع)، وقد يكونُ الينبوعُ بمعنى الجدولِ الغزيرِ بالماءِ، وهو مُفَجَّرُ الماءِ؛ أي: الموضعُ الَّذي يتفجَّرُ بالماءِ، ومنهُ ينبثقُ الماءُ المتجمِّعُ من غيرِ جهدٍ، ومعنى الينبوعِ في الآيةِ "العينُ الجاريةُ، سألوهُ أن يُجريَ لهم عيونًا مَعينًا في أرضِ الحجازِ"[1].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

رَبْطُ الكافرين تصديقَهم، بتفجير ينبوع مِنَ الأرضِ

كانَ مِنْ إبائهم ونفورهم أنْ شرعوا في طلبِ الآياتِ المعجزاتِ الَّتي أرادوها وفقًا لأهوائهم ونزواتهم؛ رَوْمًا إلى تكذيبِ رسولهِ ﷺ فكانَ أنْ شرعوا بالقولِ: إنَّهم لنْ يصدِّقوا دعوتَه حتّى يفجرَ لهم من الأرضِ عيونًا[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطفِ في جملة: ﴿وَقَالُواْ﴾:

طلبُ المعجزاتِ موصولٌ بما كانَ من إبايتهم الإيمانَ

في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ عُطفت الآيةُ على ما سبقتْها من إبايةِ أكثرِ النّاسِ، واتّخاذهم الجحودَ والكفرانَ طريقًا، ثمَّ جاءتْ مطالبتهُم بالمعجزاتِ الأخرى[3]؛ فهذا موصولٌ بذاكَ فهما في نسقٍ واحدٍ.

دلالةُ الماضي ﴿وَقَالُواْ﴾ مسندًا إلى واو الجمع:

صدور القول بينهُم وهم راضونَ بهِ، دليل على تمالئهم عليهِ

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ جاءَ فعلُ القولِ ماضيًا مسندًا لواو الجماعة؛ لأنَّ الفعلَ قد وقعَ منهُم حقًّا، والضَّميرُ في فعلِ القولِ راجعٌ إلى أكثرِ النّاسِ الّذينَ أبَوا؛ فإنَّه صدرَ منهم على رِضًا منهُم، وهم متمالئونَ عليهِ عندَ علمهم بهِ، فالقولُ منهُم جميعهُ أو بعضهُ، لا فرقَ في ذلكَ، ولا يلزمُ أن يكون قولَ الجميعِ[4].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 110.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 328.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 206.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 206.

سرُّ إيثار النَّفي بـ﴿لَن﴾ في السّياق:

تأكيد عدم إيمانهم، بالنّفي الصّريح له

لّما أرادوا نفيَ الإيمانِ بما جاءَ بهِ ﷺ عبّروا عن ذلكَ بحرفِ النَّفي ﴿لَن﴾[1]؛ لإفادة تأكيد نفي الفعلِ في المستقبلِ[2] بقولهِم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾.

دلالة التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نُّؤۡمِنَ﴾:

عدمُ إيمانهم واقعٌ ومستمرٌّ متجدِّدٌ؛ لكونهم متشبّثين بالكفر

استعملَ الفعلَ الدّالَّ على إبائهم الإيمانَ بصيغة المضارع بقولهِم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ﴾؛ لأنَّ امتناعَ الإيمانِ باللّهِ منهم متجدِّدٌ مستمرٌّ؛ لما تعطيهِ صيغةُ المضارع من التَّجدُّدِ والاستمرارِ.

نكتةُ تعديةِ فعلِ الإيمانِ باللّامِ:

تأكيدُ نفي التّصديق، دلالة على استمرارهم في المراوغة والجحود

معنى الإيمانِ في الآيةِ التَّصديقُ، أيْ: لنْ نصدِّقَ كونكَ رسولَ اللّهِ إلينا، فالفعلُ متعدٍّ بنفسه، إلّا أنَّ الأكثرَ فيه أنْ يعدّى إلى مفعوله باللّام[3]، فمجرورُها مفعولٌ في أصله، وإنّما تُذكرُ هذه اللّامُ للتَّبيُّنِ والتَّوكيدِ[4].

سرُّ التّقييد بشبه الجملة ﴿لَكَ﴾، وعود الضّمير فيها:

الخطابُ للرَّسول بخلاف الإيمان به، فهو إيمان العقيدة

أوردَ شبهَ الجملةِ في قولهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ بعودِ الضَّميرِ عليهِ ﷺ على معنى: نصدِّقكَ، ولم يقولوا: نؤمنُ بكَ؛ لأنَّهُ إذْ ذاكَ يرادُ بهِ الإيمانُ بمعناهُ الاصطلاحيِّ، وهو الإيمانُ باللّهِ، أوْ هو إيمانُ العقيدةِ[5]، فيكونُ ضميرُ الخطابِ العائدُ على الرَّسولِ غيرَ مناسبٍ في هذا السّياقِ.

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ ودلالتها:

دلالة السّياق على أنّ تفجير الأرض ينبوعًا، غايةٌ لطلبهم

لّما لزمتهُم الحجَّةُ، وغُلبوا؛ تعلَّلوا بما اقترحوهُ من الآياتِ

---

(1) حرف نفي ونصب واستقبال، وفي معنى التّأبيد والتأكيد خلاف عند النّحويين، ينظر: ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 373 - 374.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8739.

(3) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 292.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 207 - 208.

(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 15/ 90.

المعجزاتِ، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾، فعلَّقوا نفيَ إيمانهِم هذا بغايةٍ طلبوها، وعبَّرَ عنها بـ﴿حَتَّىٰ﴾[1] بقولِهِم: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾؛ فإنَّ تفجيرَ الأرضِ ينبوعًا غايةٌ لطلبهِم[2].

دلالة تنوُّع القراءات في ﴿تَفْجُرَ﴾:

القــــراءتــــان تصوِّران طلبهم، وتدلّان على ثراء المعنى

اختلفوا في قراءةِ ﴿تَفْجُرَ﴾ بينَ فتحِ التّاءِ وتسكينِ الفاءِ وضمِّ الجيمِ، وهي قراءةُ عاصمٍ وحمزةَ والكسائيِّ وخلف العاشر ويعقوب، وبينَ ضمِّ التّاءِ وفتحِ الفاءِ وكسرِ الجيمِ مُشدَّدةً ﴿تُفَجِّرَ﴾، وهي قراءةُ ابنِ كثيرٍ ونافعٍ وأبي عمرٍو وابن عامرٍ وأبي جعفر[3]، فالتَّفجيرُ مصدرُ الفعلِ المضعَّفِ العينِ (فجّرَ)، وهو يدلُّ على الشّقِّ باتِّساعٍ وشدَّةٍ ومبالغةٍ، فقراءةُ التَّخفيفِ ﴿تَفْجُرَ﴾ مضارعُ (فَجَرَ)[4]، وهي تدلُّ على أن طلبهم محال أن يتحقّق أقلُّه، ولَمّا كانَ الينبوعُ هو عينَ الماءِ الجاريةَ الَّتي لا ينضبُ ماؤها، وهو صفةُ مبالغةٍ للماءِ الكثيرِ الغزيرِ[5]، و﴿تُفَجِّرَ﴾ على زنة (تُفَعِّل) بالتَّشديدِ دالٌّ على المبالغةِ والتَّكثيرِ[6]؛ كانت قراءةُ التَّثقيلِ متوافقةً مَع سياقِ الآيةِ ودلالتها؛ فإنَّ العينَ الَّتي لا ينضبُ ماؤها مؤذنة بكثرةِ ذلكَ الماءِ واستمرارهِ وغزارتهِ وعدمِ انقطاعهِ.

وتحسنُ قراءةُ مَنْ قرأَ بالتَّثقيلِ ﴿تُفَجِّرَ﴾؛ لأنَّهُ أرادَ كثرةَ الأشجارِ مِن الينبوعِ، وإنْ كانَ الفاعلُ واحدًا، كتثقيلِ فعلِ الضَّربِ من الفاعل في قولنا: (ضرَّبَ زيدٌ)؛ إذا كَثُرَ منه[7].

(1) إذا انتصب ما بعد حتى، فهي حرف يفيد الغاية أو التّعليل، ناظر الجيش، تمهيد القواعد: 8/ 4177.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/ 452.
(3) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات: 384 - 385.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 207.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 484، والشربيني، السراج المنير: 2/ 336.
(6) النّحاس، إعراب القرآن: 2/ 284.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 408.

إيثارُ استعمالِ ﴿مِنَ﴾، في قولِه: ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾:

اشتراطهم أن يكونَ الينبوعُ مشاهدًا للنّاسِ، مزيد من اللّجاج والعناد

آثرَ النّظم استعمالَ حرفِ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ على (في) في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ "إشارةً إلى أنَّ الينبوعَ يكونُ مشاهدًا للنّاسِ احترازًا من أن يعجزهُ، ولا يردَّهُ"[1].

دلالةُ (أل) في لفظةِ (الأرضِ):

الأرض المذكورة في الآيـة، هي أرضُ مـكّـةَ بمياهِها القليلةِ

الألفُ واللّامُ في قولِه: ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ دالّةٌ على العهدِ بقرينةِ مكوثِهم فيها[2]، فهي أرضُ مكَّةَ، وقد خصَّصها هنا؛ لأنَّ أرضَها شحيحةُ المياهِ، نائيةٌ عن الجنّاتِ[3].

نكتة تقديم ﴿لَنَا﴾ و﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿يَنۢبُوعًا﴾:

بيان غرابة طلبهم تفجيرَ الينبوع في أرضهم دون سواها

قدَّم شبهَي الجملتين على المفعولِ في قولِه: ﴿لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾؛ لإفادةِ القصرِ، أي: فجِّرْ لنا وحدَنا من أرضِنا هذهِ - وهي مكَّةُ - ينبوعًا، وهو قصرٌ حقيقيٌّ؛ فإنَّهم أرادوا الاستئثارَ بهذهِ الخِصّيِّصى، فضلًا عن محاولةِ تعجيزِه.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿يَنۢبُوعًا﴾ دونَ غيرِه:

التّعبير بصيغةِ المبالغةِ للإشعارِ بأنَّهم يريدونَ ماءً غزيرًا

عبَّر بلفظةِ ﴿يَنۢبُوعًا﴾ ووزنُها (يَفْعول)، مثل: (يَعْبوب)؛ إذا عبَّ الماءَ عبًّا، وكانَ زاخرًا[4] دونَ غيرِها من المسمّياتِ كالعينِ ونحوِها إشعارًا بأنَّهم ما طلبوا من الماءِ ما يكفيهم، ويسدُّ حاجتَهُم فحَسْبُ، بلْ هم يريدونَ من الماءِ ما كثُرَ وغزُرَ؛ فلا ينقصُ وقتًا ما؛ بدلالةِ الياءِ في اللَّفظِ فإنَّها دالَّةٌ على المبالَغةِ[5]، والمبالغةُ هنا متصوَّرةٌ بعدمِ انقطاعِ ماءِ الينبوعِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 76.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 586.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 207.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/ 229.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 429.

الغرض من تنكيرِ لفظ ﴿يَنۢبُوعٗا﴾:

المبالغة في إنكارِ تصديقِهِ، كأنَّهم يطلبونَ أيَّ ينبوعٍ، زيادة في التّحدّي

عبَّروا عن طلبِهِم بقولهم: ﴿يَنۢبُوعٗا﴾ بصيغةِ التَّنكيرِ؛ للمبالغةِ في إنكارِ تصديقهِ ﷺ كأنَّهم يطلبونَ أيَّ ينبوعٍ، مع أنَّ القرآنَ الكريمَ أعظمُ آيةٍ وأدومُها.

﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١﴾ [الإسراء: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن طلبوا معجزةً لأنفسهِم، ثنَّوا بمعجزةٍ تكونُ للرَّسولِ المرسل إليهم

بعدَ أنْ طلبوا من المعجزاتِ ما كانَ لأنفسهم في أنْ يفجِّرَ لهم من الأرضِ ينبوعًا، وقدْ قوبلَ بالرَّفضِ منهُ ﷺ ثنَّوا بطلبِ المعجزاتِ الَّتي تكونُ لأجلهِ ﷺ بأنْ تكونَ لهُ جنَّةٌ منْ نخيلٍ وأعنابٍ تتفجَّر فيها الأنهارُ، يأكلُ منها، ويتمتَّعُ، "كأنَّهم قالوا: هبْ أنَّكَ لا تفجِّرُ هذهِ الأنهارَ لأجلِنا، ففجِّرها منْ أجلكَ"(1).

المَعْنى الإِجْماليُّ:

طلب جنّة للرّسول مع الأنهار رمز للتّعجيز في الطّلبات، وإمعانٌ في الافتئات

خيَّروهُ تخييرَ تعجيزٍ، لا تخييرَ تيسيرٍ بأنَّهُ إنْ لم يستطعِ الأولى لهم، فليفعلْ شيئًا لنفسهِ، بأنْ يكونَ لهُ بستانٌ فيهِ من النَّخيلِ والأعنابِ يأكلُ منهُ، وتتفجَّرُ فيهِ الأنهارُ، وتجري؛ فتسقي الزَّرعَ والثِّمارَ، وما علموا أنَّهُ إذا "كانَ لهُ جنَّةٌ منْ نخيلٍ وأعنابٍ يفجِّرُ الأنهارَ خلالَها تفجيرًا؛ كانَ في هذا منَ التَّوسُّعِ في الدُّنيا ما يقتضي نقصَ درجتِهِ، وانخفاضَ منزلتِهِ"(2).

الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الوصلِ بالحرف ﴿أَوۡ﴾:

التّخيير توسُّع في التّعجيز، وإمعانٌ في المراوغة

قولهُ تعالى: ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ﴾ الآية موصولةٌ بما قبلَها بحرفِ العطفِ ﴿أَوۡ﴾ تخييرًا له(3) بعدَ أن طلبوا منهُ أن يفجِّرَ الينبوعَ، فلمّا رفضَ؛ خيَّروهُ(4) هنا بأن يأتيَ بمعجزةٍ أخرى تكونُ لأجلهِ، وهو البستانُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 408.
(2) ابن تيمية، الجواب الصّحيح: 6/ 436.
(3) لدلالة هذا الحرف على العطف والتّخيير، يُنظر: الزّجاجي، حروف المعاني والصّفات: 13/ 48.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري: 15/ 91.

المشتملُ على النَّخيلِ والعنبِ، والجامعُ بينَ المعجزتينِ هي الأنهارُ، فإذا لم تفجِّرْ لنا ينبوعًا؛ ففجِّرِ الأنهارَ الَّتي تسقي البستانَ؛ فيكونَ لكَ معَ أنهارِها[1]، وتخييرهم توسُّع في التعجيز إمعانًا في المراوغة.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكينونةِ مضارعًا:

عُبِّرَ بفعلِ الكينونةِ مضارعًا بقولِه: ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم طلبوا أنْ تكونَ معجزتُه هذهِ متَّصفةً بالدَّوام والتَّجدُّدِ والاستمرار؛ لأنَّ فعلَ الكينونةِ يدلُّ على رسوخِ الصِّفةِ وثبوتِها، ويشملُ الأزمنةَ كلَّها ماضيًا منقطعًا وماضيًا مستمرًّا وحاضرًا ومستقبلًا، حتّى يعرفوا فضلَه كرسولٍ؛ فإنَّهم يَعجَبونَ مِنْ قيامِه في الأسواقِ، والتماسِه المعاشَ مثلما يلتمسونَ[2].

تعجيزُهم له، متَّصفٌ بصفةِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ

الغرض من تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿لَكَ﴾:

تقديمُ شبهِ الجملةِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ والتَّخصيصِ، أي: أن تكونَ الجنَّةُ لكَ وحدكَ[3]، فإنَّما طلبناها لكَ لا نبتغي الانتفاعَ منها، فإنْ زعمتَ أنَّكَ رسولٌ من اللهِ؛ فإنَّكَ مكرَّمٌ عندهُ ولا شكَّ، فهلّا يخصُّكَ بجنَّةٍ حاويةٍ النَّخيلَ والأعنابَ التي تُسقى ممّا يتفجَّرُ فيها من الأنهارِ[4].

بيان أنّ الجنَّة مخصَّصةٌ للرّسول وحدَه، وهو مطلب نفعه عائد عليه

معنى حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ ودلالته:

(مِن) في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ﴾ دالَّةٌ على الابتداءِ[5]، والمعنى: أنَّها جنَّةٌ مركَّبةٌ ابتداءً من النَّخيلِ والعنبِ، وفيه دلالة على التَّعجيز بتفصيل المطلوب بدقَّةٍ وتحديد.

تفصيل المطلوب زيادة في التّعجيز

الغرض من تنكيرِ ﴿نَّخِيلٖ﴾:

قولُه: ﴿مِّن نَّخِيلٖ﴾ جاءَ بالنَّخيلِ منكَّرًا؛ لإفادةِ التَّكثيرِ والتَّعظيمِ

تكثير المطلوب زيادةٌ في تعجيزه ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 208.
(2) الإيجيّ، جامع البيان في تفسير القرآن: 2/ 414.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 511، والشّربيني، السّراج المنير: 2/ 336.
(4) أبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 9/ 478.
(5) وهو الأصل في معانيها في كلام العرب، المبرّد، المقتضب: 1/ 44.

كمًّا وكيفًا، ليسَ إكرامًا لرسولهِ ﷺ بلْ زيادةً في تعجيزِهِ؛ فَهُم ما طلبوا منهُ هذهِ الآياتِ إلّا لتعجيزِهِ وردِّه عنْ دعوتهِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بثمرةِ العنبِ، دونَ شجرتِها:

الانتفاعُ بشجرةِ العنبِ سوى ثمرتِها قليلٌ، لأنّه غير متاح لعموم النّاس

في جملة: ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ﴾، بعدَ أنْ ذكرَ النَّخيلَ بصيغةِ الشَّجرةِ عطفَ عليهِ العنبَ بصيغةِ الثَّمرةِ لا بصيغةِ الشَّجرةِ، ولعلّ سبب ذلكَ هو أنَّ الانتفاعَ بالعنبِ شجرةً قليلٌ[1]، بخلافِ النَّخيلِ؛ ففي كلِّ جزءٍ منهُ نفعٌ وفائدةٌ.

فائدةُ تخصيصِ (النَّخيلِ) و(العنبِ) دونَ غيرِهما:

بيان أنّ التّمر والعنب شائعان في مكّة، وأنّ لهما قيمةً وقدرًا هناك

وخصَّهما "بالذِّكرِ؛ لأنَّهما كانا الغالبيْنِ في هاتيكَ النَّواحي معَ جلالةِ قدرِهما"[2]، واكتفى بهما أيضًا؛ لفضلِهما على سائرِ الأشجارِ[3].

معنى (الفاءِ) ودلالتها في ﴿فَتُفَجِّرَ﴾:

العطفُ على جملةِ الكونِ أو الإتيانِ بالجنَّةِ، سببٌ لتفجيرِ الأنهارِ فيها

الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ عاطفةٌ[4]، عطفت جملةَ التَّفجيرِ على جملةِ ﴿تَكُونَ﴾، ويجوزُ أن تكونَ دالَّةً على السَّببيَّةِ[5]؛ فإنَّك إن أتيتَ بهذهِ المعجزةِ، وهي الجنَّةُ المشتملةُ على النَّخيلِ والعنبِ؛ كانَ ذلكَ سببًا في أن تفجِّرَ الأنهارَ فيها لسقياها.

دلالة تضعيفِ عينِ المضارعِ ﴿فَتُفَجِّرَ﴾:

المبالغة الملمحة في التّضعيف، لإبانة تعدُّدِ الأنهارِ وكثرتِها

أوردَ فعلَ التَّفجيرِ مضعَّفَ العينِ فقال: ﴿فَتُفَجِّرَ﴾؛ للدَّلالةِ على المبالغةِ في فعلِ الفَجْرِ[6]، وهو الاتِّساعُ في الشَّقِّ، ويكونُ أكبرَ من مُطلَقِ الفجرِ؛ لأنَّهُ لَمّا تعدَّدتِ الأنهارُ؛ كانَ إيرادُ الفعلِ الدّالِ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 511.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 160.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 586.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/ 226.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 586.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 209.

المبالغةِ أليقَ وأنسبَ؛ فإنَّ التَّفجيرَ بهذهِ الصّيغةِ يفيدُ كثرةَ الأنهارِ[1]؛ لكون "التَّشديد يدلُّ على التَّكثير"[2].

الغرض من تعريفِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ وجمعِها:

تعظيم المطلوب، إمعانٌ في التّعجيز والجحود

اللّامُ في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ هي لام الجنس، وهي تدلُّ على مطلبهم العظيم زيادة في التَّعجيز، و"جمع الأنهار باعتبار تشعُّب ماء النَّهر إلى شُعَبٍ عديدة"[3]، أو الجمعُ دالٌّ على كثرتِها.

سرُّ التّقييد بالظّرف ﴿خِلَٰلَهَا﴾، وعود الضّمير فيه:

تحديد مكان المطلوب، تعنُّت في التّعجيز عجيب

قولُه تعالى: ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا﴾ (خلال) ظرفٌ بمعنى الوسطِ، أي: إنَّ الأنهارَ تتوسَّطُ تلكَ الجنَّةَ وفي أثنائِها، وفي داخلها، وبينها في أصولها[4]، فشُعَبُها تتخلَّل الجنَّة لسقي الأشجار[5]، وفي تفاصيل المطلوب مكانًا وعددًا إعناتٌ ومشقَّة، والضَّميرُ يعودُ على الجنَّةِ، وهي مزيَّةٌ لسقي الأشجارِ؛ فإنَّها في موقعِها من الجنّةِ ذاكَ تكونُ أقربَ ما تكونُ من أشجارِها.

سرُّ التّقييد بالمفعولِ المطلقِ المؤكِّدِ ﴿تَفۡجِيرًا﴾:

بيان أنّ الدّلالة على التّكثير، والمبالغةِ في العددِ، تصعيد في التّحدّي

قولُه تعالى: ﴿تَفۡجِيرًا﴾ مفعولٌ مطلقٌ مفيدٌ للتَّوكيدِ، وعبَّرَ به هنا؛ لإرادةِ التَّكثيرِ؛ والمبالغةِ في العددِ، يؤيِّده قوله: ﴿خِلَٰلَهَا﴾؛ فإنَّ شُعَبَ الأنهار تتخلَّل الجنَّة لسقي الأشجار، وعلى هذا جاءت الأنهار جمعًا - بحسب ما مرَّ ذكره - اعتبارًا بتشعُّب ماء النَّهر إلى شُعَبٍ عديدة، ويؤيِّد هذا المعنى إجماع القُرّاء على قراءة ﴿فَتُفَجِّرَ﴾ هنا بالتَّشديد مع اختلافهم في الذي قبله، وهذا من لطائفِ معاني القراءات المَرْويَّة عن النَّبيِّ ﷺ، فهي من أفانينِ إعجاز القرآن[6].

---

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 128.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4452.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 209.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 550، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 484، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 277.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 209.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 209.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

خلال وبين:

لفظ خلال بمعنى الوسط، والبين بمعنى الوصل، والأوّل أنسب للسيّاق

عُبِّرَ بالظَّرفِ (خلال) في قولِهِ تعالى: ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا﴾، ومعنى خلالها: وسطَها[1]، والوسطُ أقربُ الأماكنِ لسقي الأشجارِ، أمّا بينَ؛ فقد جُعِلَ من الأضدادِ في لغةِ العربِ؛ فيأتي للفراقِ، ويأتي للوصلِ[2]، وتأسيسًا على ما تقدَّمَ فلا يناسبُ سياقَ الجملةِ إلّا لفظةُ (خلال) بمعنى الوسطِ؛ لدقَّتهِ في التَّعبيرِ.

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 277.

(2) ابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 75.

﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾ [الإسراء: 92]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد تعجيزه بطلب الخير، أعقب بتعجيزهم بطلب العذاب، وتنزّل الملائكة

لَمّا طالبوهُ بمعجزةِ تفجيرِ الينبوعِ، فرفضَ، ثمَّ طالبوهُ بأنْ تكونَ لهُ جنَّةٌ منْ نخيلٍ وعنبٍ، فرفضَ، فليسَ له من الأمرِ شيءٌ، قالوا لهُ على سبيلِ الاستهزاءِ: إنْ كنتَ لا تقدرُ على الإيتاءِ بالخيرِ ممّا طلبنا، فاستطعِ الشَّرَ، وأرسلْ علينا كسفًا من السَّماءِ[1]، أو ائتِ بربِّك وملائكته لنراهم عيانًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُسۡقِطَ﴾: السُّقوطُ هو الوقوعُ، ومنهُ مساقطُ الطَّيرِ مواقعُها[2]، وكلُّ مَنْ وقعَ في مهواهُ؛ فقد سقطَ، ومنْ معانيهِ طرْحُ الشَّيءِ، منْ مكانٍ عالٍ إلى مكانٍ منخفضٍ كسقوطِ الإنسانِ من السَّطحِ، والسُّقوطُ الهويُّ بقوةٍ واندفاعٍ من مكانٍ ما بعدما كانَ ممسكًا بهِ، والمعنى في الآيةِ: (أنْ تسقطَها علينا طِبقًا علينا)[3]، أي: تُطْبِقَها علينا.

2) ﴿زَعَمۡتَ﴾: من معاني (زعم) الشَّكُّ، ووقوعهُ يحصلُ كثيرًا معَ الباطلِ، والزّايُ والعينُ والميمُ لهُ أصلان صحيحان: الأوَّلُ: يدلُّ على القولِ الخالي من الصِّحةِ واليقينِ، والثّاني يدلُّ على التَّكفُّلِ بالشَّيءِ، والزَّعمُ مثلما يكونُ باطلًا، قد يكونُ حقًّا، والزَّعمُ أنْ يُحكى

(1) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 59.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سقط).
(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 306.

القولُ والمظنونُ فيهِ الكذبُ[1]، والمعنى في الآيةِ: كما زعمتَ أنَّكَ نبيٌّ، أوْ كما زعمتَ أنَّ ربَّكَ يفعلُ ما يشاءُ[2].

3) ﴿كِسَفًا﴾: (كسف) أصل يدلُّ على قطعِ الشَّيءِ كالقطعةِ من الغيمِ؛ فتكونُ هذه القطعةُ ممّا تغطّي عينَ الشَّمسِ و(الكِسَفُ) جمعٌ مفردهُ كِسفةٌ، وهي قطعةُ السَّحابِ الواقعةُ من السَّماءِ[3]، وهي أن تسقطَ القطعةُ أو القطع عليهم طباقًا فتغطّيَهم، وتقول: كسفتُ الشَّيءَ إذا غطَّيتَهُ، وكِسْفَةُ الثوب قطعتُه، وسُمّيَ الكسوف لانقطاع النّور منه، ومعنى ﴿كِسَفًا﴾ في الآيةِ قِطعًا،[4].

4) ﴿قَبِيلًا﴾: القبيلُ هم الجيلُ المتكوِّنُ من النّاسِ[5]، ويردُ القبيلُ بمعنى الصِّنفِ، وإذا كانَ جيلٌ من النّاسِ والجنَّةِ؛ فهو قبيلٌ، "والقبيلُ: الكفيلُ، يقالُ: قَبلَ بهِ قبالةً، وذلكَ أنَّهُ يُقبلُ على الشَّيءِ يضمَنُهُ"، فإنَّهُ إذا قيلَ: قبلتُ فلانًا وتقبَّلتُهُ؛ فإنَّه يكونُ قدْ تكفَّلَ به، وقدْ يردُ بمعنى المعاينِ من المقابلةِ، وذُكِرَ القبيلُ في الآيةِ بأنَّهُ يحتملُ معنى العيانِ من المقابلةِ، وذُكرَ بمعنى الكفيلِ والزَّعيمِ، وذُكِرَ بمعنى أنْ تأتيَ بهم قبيلةً قبيلةً[6]، وكلُّها واردةٌ في المعنى اللُّغوي في كلامِ العربِ.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الاســتــمــرار في التعنُّت، بطلب مــا لا يــعــقــل، فضْحٌ لعنادهم وإظهارٌ لحقيقة أمرهم

زادوا في تعنُّتِهم وعنادِهم بأنْ طلبوا شرًّا لأنفسِهم على سبيلِ الاستهزاءِ والتَّبكيت؛ فإنَّ المرءَ لا يطلبُ الشَّرَّ لنفسِه، فطلبوا أنْ يسقطَ كسفًا عظيمةً تطبقُ عليهم، فتغطّيهم، أوْ أنْ تأتيَ لنا باللّٰهِ والملائكةِ فنقابلَهُم، ونراهُم عيانًا[7].

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والهروي، الغريبين، والراغب، المفردات: (زعم).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 13/ 477.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كسف).
(4) العز بن عبد السلام، تفسير القرآن: 2/ 230.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قبل).
(6) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 54.
(7) القنوجيّ، فتح البيان: 7/ 453.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بـ﴿أَوۡ﴾:

انـتـقـالٌ مـنْ تحدّيهِ بخوارقَ فـيـهـا مـنـافـعُ لهم، إلى تحدّيهِ بـخـوارقَ فيها ضرر لهم

قولهُ تعالى: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ﴾ الآية، موصولٌ بما قبلَه بحرفِ العطفِ ﴿أَوۡ﴾ تخييرًا لهُ في أنْ يأتيَهُم بآيةٍ أخرى، منتقلينَ بهِ من الخوارقِ الَّتي تنفعُهُم إلى الخوارقِ الَّتي تضرُّهُم؛ توسعةً عليهِ بحسبِ ظنِّهم بقولِهم: فأتِنا بآيةٍ، ولوْ كان فيها ضررٌ علينا[1].

إيثارُ لفظِ ﴿تُسۡقِطَ﴾:

إظـهـارُ الإغـراقِ في التَّعـجيـبِ، منْ طلبهِم الَّذي يـعـودُ عليـهـم بالسّوء

في التَّعبيرِ بلفظِ الإسقاطِ بقولِهم: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ﴾ إغراقٌ في التَّعجيبِ، وإظهارُ الاندهاشِ من طلبهِم الَّذي فيهِ مضرَّتهُم؛ فجعلوا الإسقاطَ للسَّماءِ نفسِها[2]، معَ أنَّ المقصودَ إسقاطُ كسفِ السَّماءِ.

دلالة (ألْ) في لفظ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾:

أوردَ لفظَ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ معرفةً؛ للإيذانِ بأنَّ سقوطَ الكسفِ ليسَ منْ أفقٍ واحدٍ، فإنَّ كلَّ أفقٍ منْ آفاقِها سماءٌ على حدةٍ ولا يكون إلّا معجزة خارقة.

دلالة (الكافِ) في سياق الآية:

صـفـةُ المـصـدر المـحـذوف، مفيدة في بيان المراد

في قولِه: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ﴾، الكافُ هنا "اسمٌ في محلِّ نصبٍ على أنَّهُ صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أيْ: إسقاطًا مماثلًا لما زعمتَ"[3]، فالكاف للتَّشبيه، والزَّعمُ الّذي في الآية يعنونَ به قولَهُ تعالى من قبلُ: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [سبأ: 9].

دلالة الفعل ﴿تُسۡقِطَ﴾ على السّماء لا السّاقط منها:

المـبـالـغـة في المطلوب إمعانٌ في الاستكبار

أظهر النظم الكريم طلبهم من النبي ﷺ بصورة تعبّر عن مدى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 209.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 209.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 160.

استخفافهم، وهو أن تتحوَّل السّماء كِسفًا مُطبِقًا عليهم، وهذا إغراق في العذاب الذي يرجونه مستهزئين، مُظهِرًا كبرهم وعنادهم.

الغرض من التّعبير بالموصول (ما):

بيان أنّ وصفهم صادق القول بالإبهام، غايته الاستهانة والتّكذيب

آثرَ الموصولَ الاسميَّ (ما) الدّالَّ على العموم في قولهِ: ﴿كَمَا زَعَمۡتَ﴾؛ للتعبير عمّا طلبوه معاجزين معاندين، إمعانًا في وصف ما ذكروا - أنَّه زعم - بالإبهام؛ استهانة به، وتكذيبًا.

دلالة التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿زَعَمۡتَ﴾ ماضيًا، وعودِ الضَّمير:

حكايةُ الزَّعمِ ماضيًا تنبيهٌ على تحقيقِهِ، وأنَّهُ مؤكَّدُ الوقوعِ لا محالة

التَّعبيرُ بفعلِ الزَّعمِ في قوله تعالى: ﴿كَمَا زَعَمۡتَ﴾ فيه إشارة إلى معنى تكذيب مقالة النَّبيِّ بما يتضمَّنُه لفظ (الزّعم) من دلالة الشّكِّ، والضَّميرُ يعودُ عليهِ ﷺ وإيرادهُ ماضيًا لإفادةِ وقوعهِ وتحقُّقهِ بقولهِ في آيةٍ أخرى: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [سبأ: 9].

بلاغةُ التّعبيرِ بالاعتراضِ ﴿كَمَا زَعَمۡتَ﴾:

تعزيزُ تعجيبهم ممّا توعَّدهُم، إنباءٌ بأنَّ ذلكَ لا يصدِّقُ بِهِ أحدٌ

قولهُ تعالى: ﴿كَمَا زَعَمۡتَ﴾ جملةٌ معترضةٌ، غرضهُم منها تعزيزُ تعجُّبهِم إنباءً منهُم بأنَّ ذلكَ ممّا لا يُصدَّقُ، يعنونَ بهِ قولهُ تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [سبأ: 9][1]، فإنَّهم لا يؤمنونُ بما يتهدَّدهُم، ولا يهتمّون بما يتوعَّدُهُم[2].

معنى حرف الجرّ (على) وعود الضَّمير (نا) فيه:

بيان أنّ المراد بالعذابِ الَّذي وعدوا بهِ، كونه آتيًا من جهةِ العلوِّ

في قولهِ تعالى: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ استعملَ الحرفَ (على) للدَّلالةِ على العلوِّ؛ فإنَّ العذابَ الَّذي وُعِدوا به آتيهم من علٍ، كقولهِ تعالى: ﴿يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ [الأنعام: 65][3]، والضَّميرُ يعودُ عليهم، وهم من طلب المعجزاتِ، ويُلمح

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 209.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 512.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 512.

في التَّعبير بعليّة العذاب المُنبئ بالشِّدَّة تهكُّمهم بطلب أشدِّ العذاب إمعانًا في إنكار وقوعه.

نكتة التَّعبيرِ بأسلوبِ البدلِ في الآيةِ:

يتضمّن السّياق التَّخويفَ والتَّرهيبَ، كأنَّ السَّماءَ كلَّها تنزلُ على رؤوسهم

قولُه تعالى: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾، جاءَ بأسلوبِ البدلِ؛ فإنَّ الكسفَ بدلٌ من السَّماءِ، بدلَ بعضٍ منْ كلٍّ، وجاء ذلكَ "للإشارةِ إلى أنَّ نزولَ القِطَعِ تساوي منْ حيثُ الرُّعبُ والإفزاعُ والإنذارُ نزولَ السَّماءِ كلِّها"[1]، وفي ذلكَ مزيدٌ من التَّرهيبِ والتَّخويفِ.

دلالةُ العطفِ بالحرفِ ﴿أَوۡ﴾:

التّخييرُ الوارد بينَ أمرينِ، مُفادُه الزّيادة في تحدّيهم؛ قطعًا للعذر المحتمل

التَّعبيرُ بحرفِ العطفِ ﴿أَوۡ﴾ الدّالِ على التَّخييرِ بينَ فعلي إسقاطِ الكسفِ، وبينَ أنْ يأتيَ باللّهِ والملائكةِ قبيلًا؛ منْ بابِ زيادةِ التَّحدّي منهم لهُ ﷺ وقطعًا لعذرِهِ بحسبِ ظنِّهم، أيْ: نحنُ نتحدّاكَ بهذا، وإنْ شئتَ؛ فاخترْ ذاكَ.

دلالة حرف الجرّ الباءِ في ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الملابسةُ والمصاحبةُ، كنايةُ عن تولّيهم إتيانهما على جهة التَّوكيد

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ﴾ دالَّةٌ على المصاحبةِ والملابسةِ، وهو من أشهرِ معانيها[2]، فهو قولُ من لا ينزّه اللّه تعالى ولا يعظّمه ولا يُقدّسه، كأنهم يقولون: (أنْ تأتي ملابسًا ومصاحبًا للّهِ والملائكة تقدّس اللّه تعالى وتنزّه)، كنايةً عن تولّيهم إتيانهما تحقيقًا وتوكيدًا.

الغرض من التّعبير باللّفظ الجليل (الله):

مطالبتهم الإتيان باللهِ تعالى إليهم، منتهى الزّيغ، وغاية الضّلال

إيرادُهُم اسمَ اللّهِ الأعظمَ، والقولُ قولهم هو منْ بابِ محاجةِ الرَّسولِ ﷺ على معنى أنْ "تأتيَ باللّهِ الّذي ادَّعيتَ الرِّسالةَ والنُّبوَّةَ منْ عندهِ جهرةً ظاهرةً"[3]، فإنَّهم أرادوا حجاجَهُ بأعلى الأسماءِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4453.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 140.
(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/ 465.

وأعظمِها، الجامعِ لسائرِ الصفاتِ، "أي: الملك الأعظم"[1]؛ مبالغةً في الإنكار والاستهزاء، أو طمعًا في الانتصارِ عليهِ.

دلالةُ عطف الملائكة على الاسم الجليل (الله):

الملائكة مخلوقات نورانيّة، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون

عطفَ الملائكةَ على الاسمِ الجليلِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، دلالة على زيادة الإعنات بطلب المستحيلات، وفي عطْفِ الملائكةِ على لفظِ الجلالةِ أيضًا بيانُ أنَّهم أرادوا أنْ يأتيَهم بالملائكةِ الَّذين ادَّعى وساطتَهُم ورسالتَهُم بينَهُ وبينَ اللّهِ[2].

دلالة تعريف الملائكة بـ(ألْ):

المرادُ الملائكة المبلِّغون، أو عموم الملائكة، في المستفاد من السّياق

تحتمل (اللّام) في (الملائكة) العهديَّة، والمُراد بهم في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ مَنْ بلَّغ الرَّسول ﷺ وحي اللّه، وتحتمل الجنسيَّة بإرادة مشاهدة؛ أي: جمع من الملائكة؛ لأنَّهم في الأصل ينكرون وجودهم[3]، "أيْ: هم قبيلٌ خاصٌّ غير معروف، كأنَّهم قالوا: أو تأتي بفريق من جنس الملائكة"[4].

دلالة تقديم قوله: ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على ﴿قَبِيلًا﴾:

مكمنُ طلب رؤية الله تعالى والملائكة، التّكذيب، فالإنكار، فالسّخرية

الأصل في التّقديم عند العرب، أنَّهم يقدِّمون الّذي هُم أعنى به، يقول سيبويه: "إنَّما يقدِّمون الّذي بيانه أهمُّ لهم، وهُم ببيانه أعنَى، وإنْ كانا جميعًا يَهُمّانهم ويَعْنيانهم"، وتحدّيهم الرّسول ﷺ ههنا برؤية اللّهِ تعالى والملائكةِ موطنُ عناية بوصفه مظنَّةً للعجز والتَّكذيب، المؤدّيَين إلى الإنكار، والسُّخرية، "فهم يتحدَّون النّبيّ ﷺ بأن ينزِّل عليهم الملائكة قبيلًا يشهدون بالصِّحَّة، وهم يعلمون أنَّ الملائكة لا ينزلون أفواجًا بهذا الشَّكل"[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 425.
(2) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/ 465.
(3) سيبويه، الكتاب: 1/ 34.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 210.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4453.

سرّ التّقييد بالحال ﴿قَبِيلًا﴾:

طلبوا أن يأتيَهُم بالملائكةِ عيانًا، لجرأتهم في طلب ما لا ينبغي

قولهُ: ﴿قَبِيلًا﴾ حالٌ من لفظِ الملائكةِ[1]، للدَّلالة على أنَّهم خيَّروهُ بأن يأتيَ بفريقٍ من الملائكةِ؛ إتيانًا عيانًا ومقابلةً، يُنظر إليهم لا يخفى على أحد منهم شيء منهم، وكان أصله الاجتماع الذي يلزم منه المواجهة بالإقبال[2].

الغرض من تنكيرِ ﴿قَبِيلًا﴾:

المطلوب الإتيان من الملائكة بقبيل، وهو مطلب عسير ليس بالقليل

جاءَ بالقبيلِ نكرةً في قولهِ تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾؛ إذ إنَّهم قبيلٌ خاصٌّ ليسَ معروفًا[3]، أي: أن يأتيَهُم بأيِّ قبيلٍ، أو جنسٍ من الملائكةِ لا نظيرَ له عندهُم، ونكَّرَ لفظَ ﴿قَبِيلًا﴾ لدلالتهِ على متعدِّدٍ غيرِ معيَّنٍ، كما هو شأنُ النَّكرةِ، بخلافِ المعرفةِ الدّالَّةِ على التَّعيين[4]، فقدْ ذكرَ المفسِّرونَ معانيَ عدَّةً لهُ: الأوَّلُ: كلُّ قبيلةٍ على حدتِها، والثّاني: المقابلةُ والمعاينةُ، والثّالثُ: الكفيلُ الضّامنُ، والرابعُ: بمعنى المجتمعينَ[5]، فالقبيل: اسم جنس جمعيٌّ لقبيلة، أي: تأتي بهم قبيلةً قبيلةً؛ ليشهدوا بصدق نبوَّته، ويتضافرون على الحكم بصدقها[6].

۞ الفروقُ المُعجَميَّةُ:

السّقوط والوقوع والإنزال:

الإنزالُ التَّحوُّلُ مِنْ علوٍّ إلى سفلٍ، والسُّقوطُ يُلمَحُ فيهِ السّوءُ، والوقوعُ يقالُ للدَّوابِّ

قولهُ تعالى: ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: 95] استعملَ فعلَ التَّنزيلِ في الآيةِ للدَّلالةِ على التَّحوُّلِ من علوٍّ إلى سُفلٍ[7]، وقد جاءَ في النَّظم الحكيم كثيرًا لما ينزِّلهُ الحقُّ سبحانه من الكتبِ السَّماويَّة، وما لهُ من فضلٍ أو شرفٍ أو عقوبةٍ أو عذابٍ، مؤثِرًا إيّاهُ على ما

(1) العكبريّ، التّبيان: 2/ 832.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 426.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 210.
(4) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 1/ 212.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 273، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 409.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4453.
(7) الخليل، العين: (نزل).

يرادفهُ في المعنى كالسُّقوطِ الدّالِ على معنى عامٍّ، فضلًا عمّا يوحيهِ من ملمحِ السّوءِ في الفعلِ كالسُّقوطِ من أعينِ النّاسِ[1]، أمّا فعلُ الوقوعِ؛ فيقالُ للإبلِ والدَّوابِّ؛ إذا ربضتْ، وبركتْ[2].

الزَّعم والادِّعاء:

الزَّعمُ أكثرُ ما يقعُ في الباطلِ، وما فيهِ ارتيابٌ، والادِّعاءُ يكونُ لكَ أو عليكَ

وفي قولهِ تعالى: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾، أوردَ فعلَ الزَّعم حكايةً عن الكافرينَ في وصْفِهِمُ النَّبيَّ ﷺ فآثروا هذا الفعلَ؛ لأنَّهُ أكثرُ ما يكونُ وما يقعُ في الباطلِ[3]، وما فيهِ ارتيابٌ، وقدْ يُعبَّرُ بهِ عن الكذبِ، فهو مناسبٌ لتقوُّلهِم وتشكيكهِم، وإنْ كانَ الادِّعاءُ قريبًا منهُ؛ مرادفًا لهُ، فالأصلُ في الدّالِ والعينِ والواوِ ميلُ الشَّيءِ بصوتٍ أوْ نحوهِ إليكَ، ومنهُ الادِّعاءُ، ويكونُ في الخيرِ وغيرهِ[4].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (سقط).
(2) الصّاحب بن عبّاد، المحيط في اللغة: (وقع).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (زعم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعو).

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ٩٣﴾ [الإسراء: 93]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين طلب العذاب حين اليأس من تحقيق المطلوب، وبين العودة إلى طلب المرغوب

عندَما عرضَ الَّذينَ كفروا على الرَّسولِ ﷺ أنْ يأتيَ بالمعجزاتِ منْ لدنِ تفجيرِ الأرضِ ينبوعًا، حتّى الإتيانِ باللّهِ والملائكةِ قبيلًا؛ كانَ ردُّهُ عليهم الرَّفضَ، فكانَ آخرَ ما خيّروهُ هنا أنْ يكونَ لهُ بيتٌ منْ زخرفٍ، أوْ أنْ يرقى في السَّماءِ، وما علموا أنَّ كلَّ شيءٍ بيدهِ سبحانه وأنَّهُ ليسَ لهُ مِنَ الأمرِ شيءٌ في "تنزيهٍ للّهِ وتعجيبٍ منهُ؛ لوضوحِ عنادِهم بطلبهِم ما لا قدرةَ عليهِ، إلّا للإلهِ ممَّنْ لا قدرةَ لهُ على شيءٍ منهُ إلّا بإذنِ اللّهِ"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زُخْرُفٍ﴾: اسمٌ رباعيٌّ مجرَّدٌ، ويدلُّ على معنى الزّينةِ عمومًا، وإنْ كانَ الأصلُ فيهِ الذَّهبَ، وإذا شُبِّهَ بكلِّ مموَّهٍ مزيَّفٍ؛ سُمّيَ زخرفًا، وإذا زَيَّنتَ البيتَ، وأكملتَهُ، وزوَّقتَهُ؛ فقدْ زخرفتَهُ(2)، ومعنى ﴿بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ الوارد في الآية: "مِنْ ذهبٍ، وأصلهُ الزّينةُ، والمزخرفُ: المزيَّنُ، وهذا أقربُ إلى الأصلِ الَّذي قرَّرناهُ، وإنَّما غلبَ على الذَّهبِ؛ لأنَّهُ أشيعُ جواهرِ التَّزيُّنِ والتَّمويهِ وأنفَسُها حيثُ يُطلى بهِ ظاهرُ الشَّيءِ"(3).

2) ﴿تَرْقَىٰ﴾: (رقي) أصلٌ يدلُّ على الصُّعودِ، ومنْ صعدَ في السُّلَّمِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 513.
(2) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (زخرف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زخرف).

والدَّرجِ؛ فقدِ ارتقى ومعناهُ الصُّعودُ والارتقاءُ في الجبلِ والدَّرجةِ، "ومن المجازِ: ما زالَ فلانٌ يترقّى بهِ الأمرُ حتّى بلغَ غايتَهُ، والجودُ مرقاةٌ إلى الشَّرفِ، والمجدُ صعبُ المراقي، ولقدِ ارتقيتَ - يا فلانُ - مرتقًى صعبًا، ورقّاكَ اللّهُ أعلى الرُّتَبِ"[1]، ومعنى ﴿تَرۡقَىٰ﴾ في الآيةِ: تصعدَ، مِنْ رقيتَ في السُّلَّمِ رُقيًّا عندَ صعودكَ عليهِ وارتقائك مثله[2].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

استنكار طلبهم بيتًا منْ ذهبٍ، أوْ رقيًّا في السّماءِ، واصطحاب كتابٍ شاهد بذلك

كانَ خامسَ طلباتِهِم بالإتيانِ بالمعجزاتِ شرطًا لإيمانِهمُ المزعومِ، أنْ طلبوا منهُ أنْ يكونَ لهُ بيتٌ منْ ذهبٍ وزينةٍ، فإن لم تفعلْ؛ فهلّا وضعتَ سلَّمًا، وارتقيتَ في السَّماءِ صعودًا، مشترطينَ في رقيِّهِ هذا أنْ يكونَ متبوعًا بأنْ ينزِّلَ عليهِم كتابًا يجدهُ أحدهُم عندَ رأسِهِ، فيقرأُ ما فيهِ، وأن يشهدَ على ذلكَ أربعةٌ من الملائكةِ أنَّ هذا الكتابَ من اللّهِ تعالى[3]، فلمّا يئسَ منهم؛ أطلقَ تعجُّبهُ بأمرٍ منْ ربِّهِ، ونزَّهَ نفسهُ منْ أنَّ تلكَ الآياتِ المعجزاتِ ما ينبغي أنْ تكونَ لهُ منْ تلقاءِ نفسهِ بجامعِ بشريَّتِهِ ورسالتِهِ، الَّتي يتلقّاها من الحقِّ سبحانهُ؛ فلا يقترحُ ما ليسَ فوقَ طاقتِهِ وقدرتِهِ، و"هلْ أنا إلّا بشرٌ، أي: عبدٌ منْ عبيدِهِ منْ بني آدمَ؟ فكيفَ أقدرُ على ما تكلِّفونني"[4]؟!

۞ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالحرف ﴿أَوۡ﴾:

العطف على ما سبقَ، وتخييرهم بين مضامين طلباتهم التّعجيزيّة الغريبة

صدَّرَ الآيةَ ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ بحرفِ العطفِ والتَّخييرِ، ﴿أَوۡ﴾ استمرارًا لتعدُّدِ طلباتِهم في الآياتِ الَّتي سبقتْ من بابِ التَّعجيزِ؛ فطلبوا هنا أن يكونَ لهُ بيتٌ من

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (رقي).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 331.
(3) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 2/ 233.
(4) مكّي القيسيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 6/ 4290.

زخرفٍ، معَ أنَّهُ كانَ فقيرًا يتيمًا[1] عطفًا على طلبهِم أن يأتيَ باللّهِ والملائكةِ قبيلًا، معَ علمهِم باستحالةِ ذلكَ.

دلالة التَّعبير بفعل الكينونة مضارعًا:

عبَّر بفعل الكينونة الدّالِّ على رسوخِ الصِّفةِ وثبوتِها ودوامها على هيئةِ المضارع في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٌ﴾ للدّلالة على ترغيبه بتملُّكه على وجه الدّوام والثُّبوت والتّحقُّق، وفي الأزمنةِ كلِّها ماضيًا منقطعًا، وماضيًا مستمرًّا وحاضرًا ومستقبلًا.

متاع الدُّنيا المطلوب، لا دوام له ولا ثبوت، وظنُّ غيرِ ذلك وهمٌ وخداع

سرُّ التَّعبيرِ بشبهِ الجملة ﴿لَكَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٌ﴾، استعملَ شبهَ الجملةِ ﴿لَكَ﴾ للدَّلالةِ على خصوصيَّةِ البيتِ لهُ وحدهُ ﷺ[2]؛ بدلالةِ لامِ الملِكِ، وكافِ الخطابِ إمعانًا في تعجيزِه.

الإغراء بالخصوصيّة والملكيّة الفانية، لا يخدع القلوب المتعلّقة بالله

الغرض من تقديم شبهِ الجملةِ على الاسمِ:

قدَّمَ شبهَ الجملةِ على الاسمِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٌ مِّن زُخۡرُفٍ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ، فإنَّه لَمّا كانَ هذا البيتُ له من الخصائصِ والمزايا من كونهِ من زخرفٍ ذهبٍ أو نحوِه ما لهُ؛ طلبوا ألّا يكونَ مثلُه لأحدٍ غيره.

ما طلبوا من بيتٍ مخصوصٍ بهِ وحدهُ ﷺ؛ ليس مقصدَهُ ولا مأمولَه

الغرض من تنكيرِ لفظ ﴿بَيۡتٌ﴾:

استعملَ لفظَ ﴿بَيۡتٌ مِّن زُخۡرُفٍ﴾ بصيغةِ التَّنكيرِ على إرادةِ التَّعظيمِ والتَّفخيم، أيْ: "وليكنْ لكَ بيتٌ مزخرفٌ كأهلِ التَّرفُّهِ والتَّنعُّمِ"[3]؛ لأنَّكَ إذْ ذاكَ تكونُ منْ أهلِ الأرضِ العظماءِ الأغنياءِ، ذلك "أنَّهم رأوا النَّبيَّ ﷺ كان يتيمًا ثم كان فقيرًا، وقد حسبوا أنَّ النُّبوَّة مقترنة بالثَّروة، فالنَّبيُّ يجب أن يكون ثريًّا ليكون عظيمًا،

ظنّهم أنّ النُّبوَّة مقترنة بالغنى، مؤشّر غرور وطغيان

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4453.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 512.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4454.

فالعظمة عندهم بالمال ولا عظيم من غير مال، ولذا قال ﷻ عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، أي: الطّائفِ أو مكَّةَ "[1].

دلالة حرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في السّياق:

معنى ﴿مِّن﴾ في قولهِ تعالى: ﴿بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾، دالٌّ على بيانِ الجنسِ، أي: إنَّهم طلبوا أن يكونَ بيتهُ من الذَّهبِ المتَّصفِ بكمالِ الحسنِ والزِّينةِ[2].

بيانُ جنسِ البيتِ المطلوب، مع كمالِ الزّخرف، وتمام الزّينة

الغرض من تنكيرِ لفظ ﴿زُخۡرُفٍ﴾:

أوردَ لفظةَ ﴿زُخۡرُفٍ﴾ بصيغةِ التَّنكيرِ؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، لا للاهتمام به ﷺ، بل للزّيادة في إظهارِ عجزهِ.

زيادة التَّعظيم للمطلوب؛ زيادةٌ في التّعجيز عن تحقيق المرغوب

دلالةُ العطفِ بالحرف ﴿أَوۡ﴾ في السّياق:

عُطِفَ بحرفِ التَّخييرِ ﴿أَوۡ﴾، فهذهِ هي الآياتُ الَّتي اقترحوها على النَّبيِّ ﷺ تحدّيًا؛ ليختارَ أيًّا منها، وإن عجزَ عن واحدةٍ منها؛ اختارَ غيرَها[3]، فيما ظاهرهُ توسيعٌ عليه، إلّا أنَّ حقيقتهُ من بابِ التَّعنُّتِ والعنادِ وفرطِ الحماقةِ.

التّنوُّع في المطلوب، يدلّ على أنَّ الاقتراح كان من أكثرَ من جهة

دلالة التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَرۡقَىٰ﴾ مضارعًا:

آثرَ التَّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَرۡقَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على تصويرِ حالةِ رقيّهِ في السَّماءِ درجةً درجةً، وهم ينظرونَ إليه[4]، وفي ذلكَ تقريبُ استحضارِ ذهنِ السّامعِ، وتصويرُ هذا المشهدِ، ولا يؤدّي هذهِ الصّورةَ إلّا الفعلُ المضارعُ الدالُّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ.

تصويرُ حالةِ رقيّهِ في السَّماءِ، درجةً درجةً وهم ينظرونَ إليهِ

معنى حرف الجرّ ﴿فِي﴾ وسرُّ تعديةِ ﴿تَرۡقَىٰ﴾ به:

عدّى فعلَ التَّرقّي بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ بقولهِ تعالى: ﴿تَرۡقَىٰ فِي

التّفصيل في الطّلب تعنُّتٌ غريب، وعنادٌ عجيب

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4454.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 512.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 548.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 512.

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَن يترقّى صعودًا متدرِّجًا في السَّمواتِ كمن يصعدُ في المرقاةِ والسُّلَّم[1].

الغرض من المجازِ بالحذفِ، في قولِه: ﴿تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

بيان أنّ رقيَّهُ مطلوب في معارجِ السَّماءِ، لا في السَّماءِ نفسِها

في قولِه: ﴿تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ مجازٌ بالحذفِ على تقديرِ: ترقى في معارجِ السَّماءِ[2]، فحذفَ المضافَ، وأقامَ المضافَ إليهِ مُقامَهُ تعظيمًا وتفخيمًا، والمعنى: أن يضعَ سلَّمًا، فيرقى؛ "لأنَّ القومَ قالوا: أو ترقى في سلَّم إلى السَّماءِ"[3]، فتكونُ ﴿فِي﴾ دالّةً على المحذوفِ وهو السُّلَّمُ؛ ولأنَّ السَّماءَ ليستْ محلًّا للتَّرقّي، إنَّما ما فيها منْ معارجَ.

دلالةُ التَّعريفِ بـ(ألْ) في لفظ (السَّماءِ):

سواء دلّت على الجنسِ أو العهدِ، فهيَ السَّماءُ الّتي ينزلُ منها خبرُ اللهِ

جاءَ بلفظِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ معرفةً لإرادةِ الجنسِ، فهم يعنونَ: في الهواءِ علوًّا، فهم يسمّونَ ما علا من الهواءِ سماءً؛ لأنَّهُ في حيِّزِ السُّموّ، ويجوزُ أنْ تكونَ للعهدِ، والمقصودُ السَّماءُ المعهودةُ لديهِم؛ لأنَّه ﷺ أعلمهُم بأنَّ اللهَ فيها، وأنَّ الخبرَ ينزلُ منها[4].

دلالةُ العطفِ بحرف (الواوِ):

وصلٌ بالعطفِ بينَ جملتَي التَّرقّي وانتفاءِ الإيمانِ، إن لم ينزلْ عليهم الكتابُ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ عاطفةٌ[5]، فقد عطفتْ هذهِ الجملةَ على قولِه تعالى: ﴿تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، والوصلُ ظاهرٌ بينَ الآيتينِ؛ فقد علَّقوا رقيَّهُ في السَّماءِ بأن يأتيَهُم بكتابٍ منزَّلٍ.

وجهُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ المنفيّ ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ﴾:

نفيُ إيمانهم بالمضارعِ، مؤذنٌ بتجدُّدهِ واستمرارهِ

نَفَوا إيمانَهُم بصيغةِ المضارعِ الدّالِّ على الحالِ والاستقبالِ بقولهِم: ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ﴾؛ للإيذانِ بتجدُّدِ نفي هذا الإيمانِ واستمرارِهِ حالًا واستقبالًا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 210.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 693، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 195.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 554.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 485.
(5) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 629.

معنى اللّامِ في شبه الجملة ﴿لِرُقِيِّكَ﴾:

بيان أنّه لو رقى في السّماءِ؛ لكذّبوه، حتّى ينزل كتابٌ يرونَهُ ليؤمنوا

اللّامُ في قولِه: ﴿لِرُقِيِّكَ﴾ تحتملُ أن تكونَ للتّبيينِ، ورقيُّهُ مفعولُ الفعل ﴿نُّؤۡمِنَ﴾ فهم لم يصدِّقوا الرُّقيَّ حتّى يُنزلَ عليهمُ الكتاب، ويجوزُ أنْ تكونَ اللّامُ للعلَّةِ على معنى: أنّنا لنْ نصدِّقكَ لأجلِ رقيِّك حتّى يَنزلَ علينا مِنْ أمرِكَ كتابٌ، وفي كلٍّ؛ فالمعنى عدمُ تصديقهم للرَّسولِ، وإنْ ترقّى في السَّماءِ، ورأوهُ بأعينِهم حتّى يُرسِلَ كتابًا نازلًا يرونَهُ[1].

وجهُ تكرار لفظ الرُّقيِّ، وتعريفه بالإضافة:

اشتراط الإيمان بتنزُّلِ كتابٍ يؤكّد أنّ الرّقيّ حقّ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ كرَّرَ لفظَ الرُّقيّ، وعرَّفهُ بالإضافةِ إلى الضَّميرِ؛ لأنَّهم ما أرادوا أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ حجّةً عليهم، فيؤمنوا بنبوّتهِ لأجلِ رقيِّهِ وحدهُ[2]، فقد يكونُ من قبيلِ السِّحرِ؛ حتّى علَّقوا رقيَّهُ بغايتِهم، وهو أنْ ينزِّلَ عليهم كتابًا مفصَّلًا طِبقَ رغباتِهم.

نكتة عودِ ضميرِ الخطابِ (الكاف):

بيان أنّ رُقيَّهُ في السّماءِ، ليسَ بكافٍ عندَهم، حتّى يُسنَدَ بدليل مادّيّ

أضافَ ﴿لِرُقِيِّكَ﴾ إلى ضميرِ الخطابِ (الكاف) العائدِ عليه ﷺ تبكيتًا له؛ أيْ: إنَّ رقيّكَ ليسَ بكافٍ عندَنا في الإيمانِ بدعوتكَ ما لم يكنْ مؤيَّدًا بكتابٍ تنزِّلهُ علينا.

دلالة الحرف ﴿حَتَّىٰ﴾ في السّياق:

الدّلالة على الغاية، تنفي إيمانَهُم برقيِّهِ، حتّى يأتيَهُم بكتابٍ يقرؤونهُ

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا﴾ يفيدُ الغايةَ؛ فإنَّهمُ اشترطوا عليهِ أنْ يرقى في السّماءِ، ثمَّ نفَوا هذا الإيمانَ، وعلَّقوهُ بالغايةِ، وهو أنْ يأتيَهم بكتابٍ مقروءٍ بوساطةِ ﴿حَتَّىٰ﴾، ولوْ لم يفعلوا؛ لكانَ منافيًا لما تقدَّمَ مِنَ الإيمانِ المطلقِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 210.

(2) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 60.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 588.

دلالة التَّعبيرِ بالمضارعِ المضعَّفِ ﴿تُنَزِّلَ﴾:

الكتاب المطلوب، أرادوه مشتملًا على الكثيرِ من الطَّلباتِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تُنَزِّلَ﴾ مضارعًا مضعَّفًا مضعَّفَ العينِ، هي الحكايةُ عن مقصودِ كلامِهم، فإنَّهم أرادوهُ "كتابًا مكتوبًا من عندِ ربِّك مشتملًا على أسامينا، وعلى دعوتكَ إيّانا إلى الإيمانِ، وتصديقنا بكَ"[1]، فهذهِ جملةُ أشياءَ كثيرةٍ طلبوا أن يشتملَ عليها كتابهُم المطلوبُ، وهو مناسبٌ لدلالةِ التَّضعيفِ في الفعلِ على التَّكثيرِ.

نكتةُ تعديةِ التَّنزيلِ بالحرف (على):

السّياق مفيد تحقيقًا، لمعنى كون الكتاب مُنزَّلًا من السَّماءِ

جعلَ فعلُ التَّنزيلِ متعدّيًا بحرفِ الاستعلاءِ (على) بقولِه: ﴿تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا﴾؛ لأنَّهم أرادوا تحقيقَ معنى كونِه من السَّماءِ[2]، فجاؤوا بما يدلُّ على نزولِه من علٍ، وتعيين الجهة بالعلوِّ زيادة تعنُّت منهم، ولو قيل: (إلينا) لما أدّى هذا المُؤدّى.

سرُّ تقديم ﴿عَلَيۡنَا﴾، على المفعولِ ﴿كِتَٰبٗا﴾:

إيضاح أنّهم أرادوا كتابًا خاصًّا بهم، دون سواهم، تعجيزًا له

في تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَلَيۡنَا﴾ على المفعولِ ﴿كِتَٰبٗا﴾ فائدةُ الاختصاصِ والحصرِ؛ فإنَّهم أرادوا كتابًا يُنَزَّلُ عليهم وحدهُم، كتابًا خاصًّا بهم؛ إغراقًا في تعجيزِه، وتكثيرِ الطَّلباتِ عليهِ.

الغرض من تنكيرِ لفظ ﴿كِتَٰبٗا﴾:

قد يُفهمُ قولُهم معنى أنزلْ على كلِّ واحدٍ منّا كتابًا بعينِه، لا كتابًا واحدًا

أورد قولَهُ: ﴿كِتَٰبٗا﴾ بالتَّنكيرِ على إرادةِ التَّعدُّدِ والشُّمولِ وعدمِ التَّعيينِ، فإنَّهم أرادوا كُتبًا لا كتابًا واحدًا، أرادوا لكلِّ واحد منهم كتابًا بعينه[3]، يؤيِّدهُ قولهُ تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ٥٢﴾ [المدثر: 52].

سرُّ تقييد (الكتاب) بالصّفة ﴿نَّقۡرَؤُهُۥ﴾:

قولُه: ﴿نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ صفة للكتاب المطلوب، وفي التَّقييد بالصِّفة

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/ 465.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 512.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 331.

مبالغة في التَّعجيز عن تحقيق المطلوب؛ إذ الكتب لا تكون إلّا على الرُّسُلِ، فكأنَّهم يريدون أن يكونوا مثله، ووقتَها لن يحتاجوه؛ لأنَّ كلًّا منهم صار رسولًا، وفيه بيان لبغضهم اصطفاءه ﷺ بالرِّسالة، وضميرُ الفاعلِ يعودُ عليهم، وضميرُ المفعولِ يعودُ على الكتابِ المطلوبِ، وهو دالٌّ على تعنُّتهم؛ لأنَّهُ على معنى: نحنُ نقرؤهُ على أسلوبِنا ولغةِ كلامِنا حتّى نعيَ ما فيهِ؛ فإنَّنا لا نعتمدُ على تفهيمكَ أنتَ، وهذا غايةُ التَّعنُّتِ والتَّعصُّبِ(1).

كونهم يقرؤونه هم، غيرَ معتمدينَ على الرّسول، هو غايةُ التَّعنُّتِ والغرور

دلالة قوله: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي﴾، وموقعه ممّا قبله:

الجملةُ استئنافيَّةٌ، وقعت إغلاقًا لمطالبهم المُتعنِّتةِ، فقطعت الطَّريقَ عليهم، وفيها أيضًا بيان لهم أنَّ أمره وحي، ولا سبيل له في الاجتهاد في الجواب، لذا جاء المعنى ملقّنًا بالفعل ﴿قُلۡ﴾، والتَّعبيرُ بهذا الفعلِ لهُ دلالةٌ تعجُّبيَّةٌ منْ شكيمتهم، وللتَّنزيه لهُ عمّا لا يليقُ بمثلِ هذهِ الاقتراحاتِ الشَّنيعةِ الَّتي تكادُ السَّمواتُ يتفطَّرنَ منها، وللإيماء إلى أنَّ ما قالوهُ، وطلبوهُ باطلٌ مردودٌ(2).

التّسبيح تعجُّبٌ من شدَّةِ شكيمتِهم، وتنبيهٌ على بطلانِ أقاويلهم

تنوّع القراءات في ﴿قُلۡ﴾ وثراء المعنى:

قرأَ الجمهورُ الفعلَ ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي﴾ بصيغةِ الأمرِ، فيما قرأهُ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ، بصيغةِ الماضي ﴿قَالَ﴾(3)، على كونهِ حكايةً لجوابهِ ﷺ عن قولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ على طريقةِ الالتفاتِ(4).

القراءتان كأنَّهما آيتان، واحدة للأمر، والثّانية لتنفيذه

سرّ ورود مقول القول أسلوبَ تعجُّبٍ ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي﴾:

المتأمِّلُ فيما اقترحوهُ عليهِ من الآياتِ يُلفي أنَّهم ما اقترحوا إلّا للمُلاجَّةِ والتَّعنُّتِ والعنادِ، فأمرَهُ الحقُّ سبحانهُ بأنْ يقدِّم بين يدي

اقتضاء اقتراح المُلاجَّة والعناد؛ تقديم التعجُّب بين يدي الجواب

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 589.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 195.

(3) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 385، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 309.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 211.

الجوابِ التعجُّبَ، فقالَ لهُم: ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي﴾، وهي المستعملةُ في إظهارِ التَّعجُّبِ والاندهاشِ[1]، وفيه تنزيهٌ عن أنْ يكونَ لهُ شريكٌ، فيطلبَ منهُ ما لا يكونُ إلّا من الإلهِ، وتعجيبٌ لوضوحِ عنادِهم بأنَّهم يطلبونَ ما لا قدرةَ عليهِ إلّا للّهِ وبإذنه؛ فإنَّ الرَّسولَ لم يدَّعِ قطُّ قدرتَهُ عليهِ[2].

إيثارُ لفظِ الرُّبوبيةِ، وعودُ الضَّميرِ فيه:

الـرَّبُّ الجليل مـنـزَّهٌ عـنْ أن يـتـحـكَّـمَ فيه أحدٌ، أوْ يشاركَهُ في القدرةِ

آثر لفظَ الرُّبوبيَّةِ بقولِه: ﴿رَبِّي﴾، والضَّميرُ يعودُ عليهِ ﷺ لشعورِه بمعاني الرُّبوبيَّةِ الكاملةِ، فهو الَّذي خلقهُ، وربّاهُ، وكمَّلهُ[3]، فمَنْ كانتْ هذهِ صفتَهُ؛ فهو حريٌّ بأنْ يكونَ منزَّهًا عنْ أنْ يأتيَ، أوْ يتحكَّمَ عليهِ أحدٌ، أو يشاركهُ في قدرتِه.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ مع الآيةِ (108):

إضافةُ (سبحانَ) إلى ضميرِ الإفرادِ والجمعِ حسب مـا جـرى فيـهِ السّياقُ القرآنيُّ

قولُه تعالى: ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي﴾، وقولُه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ [الإسراء: 108]، في الآيةِ الأولى أضافَ لفظةَ الرَّبِّ إلى الضَّميرِ المفردِ، فيما أضافهُ إلى ضميرِ الجمعِ في الآيةِ الثّانيةِ، وسببُ ذلكَ أنَّ الآيةَ الأولى قدْ تقدَّمها قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾، وهو سياقٌ مُتعلّقٌ بالرَّسولِ ﷺ؛ فناسبهُ الإفرادُ، أمّا الآيةُ الثّانيةُ؛ فقدْ بدأها بقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ [الإسراء: 108]، والقائلون هم الَّذينَ أوتوا العلمَ، فناسبهُ الجمعُ، فكانَ السّياقُ القرآنيُّ محدِّدًا لما أضيفتْ إليهِ لفظةُ ﴿سُبۡحَانَ﴾ إفرادًا وجمعًا.

دلالة التَّعبيرِ بالاستفهامِ بالحرف ﴿هَلۡ﴾:

بـيـان انـحـصار وصفهِ ﷺ بأنَّه بشرٌ رسولٌ

قولُه تعالى: ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ استفهامٌ بمعنى النَّفي، دالٌّ على إنكارِ وقوعِ مطلوباتِهم؛ فالاستفهامُ تقريرٌ للنَّفي والإثباتِ،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 210.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 513.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4454.

فوصْفُهُ الكاملُ ﷺ منحصرٌ بأنَّه بشرٌ رسولٌ لا غيرِه، وهو وصفٌ على الغايةِ من أوصافِ الكمالِ الإنسانيّ"[1].

بلاغة التّعبير بأسلوب القصر، في السّياق:

التَّأكيد على بشريَّته ﷺ أبلغ ردٍّ

عبَّر النّظم الكريم بأسلوب القصر، بطريق النّفي والاستثناء، وهو أقوى أدوات القصر؛ للتّأكيد على بشريّته، بيانًا لهم أنَّ البشريّة لا تعارض كونه رسولًا، وذلك على أنَّ الاستفهام معناه النَّفيُ، فقد "قصرَ نفسَهُ علَى البشريَّةِ والرِّسالةِ قصرًا إضافيًّا، أيْ: لستُ ربًّا متصرِّفًا أخلقُ ما يطلبُ منّي، فكيفَ آتي باللّه والملائكةِ، وكيفَ أخلقُ في الأرضِ ما لم يخلقْ فيها؟!"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ ﴿كُنتُ﴾ ماضيًا، وعودِ الضَّميرِ:

البشريَّةُ لا تتعارض مع اختياره للرِّسالةِ

في قوله: ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ عبَّرَ بفعلِ الكونِ ماضيًا، والضَّميرُ المتَّصلُ بهِ يعودُ عليهِ ﷺ؛ للإيذانِ بجبلَّتهِ البشريَّةِ، التي لا تتعارض مع اصطفائه رسولًا.

الغرض من تنكيرِ لفظتَي ﴿بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾:

للرّسول مواصفات البشر، مع كونه يوحى إليه، كسائرِ الرُّسلِ مِن قبلِه

أوردَ لفظتي ﴿بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ نكرتينِ؛ لأنَّهُ مجرَّدُ إنسانٍ لا يستطيعُ ما لا يستطيعهُ البشرُ، وهو رسولٌ كسائرِ الرُّسلِ قبلهُ، لا يتعدّى ما يؤمرُ بهِ ممّا يبلِّغهُ اللّهُ؛ فلا يأتي بشيءٍ من تلقاءِ نفسهِ غيرِ ما يأذنُ له اللّهُ[3].

وجهُ الجمعِ بينَ اللَّفظينِ ﴿بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾:

مَلمَحُ دفعِ حجَّتِهِم في بشريَّتهِ، فهيَ ليستْ مطلقةً، ولكنّه مبلِّغٌ عن ربِّهِ

في قوله: ﴿بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ جمعَ بينَ لفظتي البشرِ والرَّسولِ دفعًا لحجَّتهم؛ لأنَّهم طلبوا منهُ ذلكَ على أساسِ بشريَّته، "وأنَّ كونهُ رسولًا لا يخرجهُ عن بشريَّتهِ، إنَّما يعطي ما تقدِّمهُ لهُ السَّماءُ"[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4454.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 211.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 513.

(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 550.

نكتةُ تقديم ﴿بَشَرًا﴾ على ﴿رَّسُولًا﴾:

بشريَّتهُ موطِّئةٌ لصفةِ الرِّسالةِ، مع كونها إشارةً إلى أنَّه ليسَ في مقدورِه ما طلبوا

قدَّمَ ﴿بَشَرًا﴾ على ﴿رَّسُولًا﴾ في قولِه: ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؛ لأنَّ الرَّسولَ هو الوصف الذي تستندُ المحاورة عليه؛ فقدَّمَ بشريَّتهُ توطئةً لذلكَ الوصفِ، وللإشارةِ إلى أنَّه بشرٌ، وليسَ في مقدورِهِ ما تقدَّمَ من طلباتِهم، فهو كسائرِ النّاسِ[1]، وفي تقديم ﴿بَشَرًا﴾ على ﴿رَّسُولًا﴾ فائدةٌ أخرى، وهي عزمهُ على إفحام هؤلاءِ المشركينَ المشكِّكينَ الَّذين جهلوا تلكَ البديهيّاتِ، فإنَّ الرَّسولَ الَّذي يقترحونَ عليهِ ذلكَ هو بشرٌ قبلَ أن يكونَ رسولًا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الارتقاء والصّعود:

الـرُّقــيُّ أعـمُّ مـن الـصُّـعـودِ؛ لأنَّـــه يـشـمـلُ العلمَ والشَّرفَ والفضلَ

في قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ذكرَ الفعلَ ﴿تَرۡقَىٰ﴾ مؤثِرًا إيّاهُ على فعلِ الصُّعودِ؛ ذلكَ أنَّ الارتقاءَ أعمُّ من الصُّعودِ، فيقالُ: "رقى في الدَّرجةِ والسُّلَّم، كما يقالُ: صعدَ فيهما، ويقالُ: رَقيتَ في العلم والشَّرفِ إلى أبعدِ غايةٍ، ورُقّيَ في الفضلِ، ولا يقالُ في ذلكَ: صعدَ، والصُّعودُ على ما ذكرنا مقصورٌ على المكانِ"[3]، ولا شكَّ أنَّ انتقالهُ ﷺ إلى الأعلى ليسَ صعودًا مادّيًّا فحسب؛ فقد كرَّمهُ الحقُّ سبحانه وأعلى مقامهُ في العلمِ والشَّرفِ والمجدِ والمكانةِ ما لا يوصفُ بالصُّعودِ، بلْ بالارتقاءِ؛ لأنَّهُ يشملُ كلَّ ما علا وارتفعَ.

---

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 589.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 8/ 550.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 259 - 260.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾ [الإسراء: 94]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين أزمة كفّار مكّة، وأزمة الكفّار في الإنكار

عدَّدَ الحقُّ سبحانه فيما مضى منْ آياتٍ أشكالَ عنادهِم، ومظاهرَ تكذيبهِم، فذكرَ هنا علّةَ جحودِ الأمم رسلَها، فهم توهّموا أنَّ من المستحيلِ أنْ يبعثَ اللّهُ رسلًا للنّاسِ بشرًا مثلَهُم، فكانَ هذا التَّوهُّمُ علّةً لما يأتونَ من الأعذارِ، ومثلُ هؤلاءِ لا يُرتَجى إيمانهُم[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المانعُ من هداية المنكرين، قولهُم لِمَ بعثَ الله بشرًا لتبليغِ رسالتهِ؟

كانَ منْ فرطِ جهلهِم وبلوغِ عنادهِم أنَّهم ظنّوا ألّا يبعثَ اللّهُ رسولًا من البشرِ، فإنَّهُ مانعٌ مِنْ حصولِ الهدايةِ بالقرآنِ والإسلامِ والرَّسولِ، فإنَّ الكفّارَ "كانوا يقولونَ: لنْ نؤمنَ لكَ؛ لأنَّكَ بشرٌ، وهلّا بعثَ اللّهُ إلينا ملكًا"[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئنافِ في: ﴿وَمَا مَنَعَ﴾:

ما قصدُهُم منْ مختلفِ المقترحاتِ إلّا إرضاءُ أوهامِهم تنصُّلًا من الدّين

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ الآية، استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالِ سائلٍ مُفادهُ: هل يحصلُ إيمانُ هؤلاءِ بعدَ أن نزَّهَ الرَّسولُ نفسَهُ من أنْ يأتيَ بالآياتِ المعجزاتِ من تلقاءِ نفسهِ؟ فإنَّه ليسَ إلّا بشرًا رسولًا، والجوابُ عن ذلكَ: أنَّ هؤلاءِ لن يؤمنوا؛ فإنَّه ما كانَ قصدُهُم من كثرةِ المقترحاتِ إلّا أن يرضوا أوهامهُم بالتَّنصُّلِ في الدُّخولِ في الدّينِ، وأنَّه لو أتاهُم بما سألوا؛ لأنكروا، وقالوا: سحرٌ أو نحو ذلكَ[3]، وعليه فالواو استئنافيّة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 211.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 182.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 211.

ويحتمل وجه الاستئناف[1] بأنَّه لَمّا حكى الحقُّ سبحانهُ ما كانَ من اقتراحاتِهمُ الباطلةِ، وأجابَ عنها؛ حكى عنهم شبهةً أخرى هنا، وهيَ أنَّهمُ استبعدوا أنْ يبعثَ رسولًا من البشرِ، وأنَّهُ يجبُ أنْ يكونَ من الملائكةِ، فأجابَ عنهم في هذهِ الآيةِ بأنَّ الفيصلَ في الإيمانِ هو ظهورُ المعجزِ إنْ كانَ على يدِ البشرِ، أوْ على يدِ غيرِهِ، فثبتَ أنَّ قولَهُم: إنَّ الرَّسولَ يجبُ أنْ يكونَ مَلَكًا إنَّما هو تحكُّمٌ فاسدٌ وتعنُّتٌ باطلٌ[2].

بلاغة أسلوب القصر في السّياق:

تحديد السّبب الحقيقيّ في عدم الهداية، نفي لكلِّ ادّعاء في عدم الهداية

جاءت الآية بأسلوب القصر حصرًا لسبب عدم إيمانهم، ببيان الدافع إلى ذلك، فليس لهم مانع من الهداية سوى إنكارهم البشريَّةَ مع الرِّسالة، وهذا داء النّاس أجمعين مع كلِّ رسول، فقد أفاد أسلوب القصر تمكين المعنى وقوَّتَه مع الإيجاز؛ ولإفحام المشركين وقطع أيِّ علَّةٍ في عدم هدايتهم، وهذا بيان أنَّ عدم إيمانهم بدافع الاستكبار على من هو منهم، وهذا إزهاق لكلِّ الدّعاوي، وكشف لزيفها في أسلوب حاسم.

دلالةُ تعريفِ النّاسِ بـ(أل):

بيان أنّه ما منعَ جميعَ النّاسِ أنْ يؤمنوا إلّا ذلكَ التَّوهُّمُ الباطلُ

أوردَ لفظَ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ معرَّفًا، والتَّعريفُ هنا يرادُ بِهِ الاستغراقُ، والمعنى: شمولُ المنعِ جميعَ النّاسِ مِن أنْ يؤمنوا هو ذلكَ التَّوهُّمُ الباطلُ، وسببُ التَّعميم والاستغراقِ أنَّ الحقَّ سبحانهُ قدْ حكى مثلَ ذلكَ عنْ كلِّ أمَّةٍ كذَّبتْ رسولها؛ فذكرَ قومَ نوحٍ وما كانَ منْ تكذيبِهم، وحكى مثلَهُ عنْ قومِ هودٍ، وذكرَ قومَ صالحٍ بمثلِهِ، وكذا شعيبٌ، وحكى عنْ قومِ فرعونَ وما كانَ منْ شأنِهم، وختمَ بقومِ محمَّدٍ ﷺ ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢﴾ [ق: 2][3].

(1) السّمين، الدرّ المصون: 7/ 413.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 410.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 212.

اللّفظ في السّياق مخصوصٌ بمكذّبي الرُّسل، إيماءً إلى أنَّهم أكثرُ النّاسِ

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

جاءَ بلفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾؛ لدلالتهِ على العموم، غيرَ أنَّ المرادَ بهِ الخصوصُ، وهم مَنْ كذَّبَ الرُّسلَ من الأمم جميعًا؛ فهو مِنْ بابِ المجازِ المرسلِ[1]، وعلاقتهُ الكلّيَّةُ، وسرُّهُ البلاغيُّ الإيماءُ إلى أنَّ النّاسَ في أكثرِهِم متَّصفونَ بهذهِ الصِّفةِ؛ لقولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103][2].

إيثار المضارع خلافَ الظّاهرِ الماضي، ليشملَ بهِ الأزمنةَ جميعًا

دلالة التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالمصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾ الواقعِ مفعولًا لفعلِ المنعِ[3]؛ لإخراجِهِ خلافًا للظّاهرِ؛ لأنَّ عاملهُ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ واردٌ على صيغةِ الماضي، فجاءَ بِهِ هنا مضارعًا؛ ليشملَ منعَ الإيمانِ في الأزمنةِ جميعًا[4]، ولا يؤدّي ذلكَ الغرضَ إلّا المضارعُ الدّالُّ على الحالِ والاستقبالِ؛ لينضمَّ إلى الماضي، فتتحقَّقَ الأزمنةُ كلُّها.

عدم تحديد ما لم يؤمنوا به، تعظيم لجرمهم

الغرض من حذفِ متعلّقِ الإيمانِ:

قولهُ تعالى: ﴿أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾ يقتضي مفعولًا هو متعلّقُ الإيمانِ، تقديرهُ: أن يؤمنوا بالرِّسالاتِ الَّتي أرسلَها اللّهُ على يدِ الرُّسلِ الَّذين بعثهُم، وقد حذفهُ إيجازًا[5]؛ للعلم به بديهةً، وتهويلًا لجرمهم.

المانعُ من إيمانِ النّاسِ وقتَ مجيءِ الهدى، إنكارهم أن يبعثَ اللهُ بشرًا رسولًا

سرُّ التّقييد بالظَّرفِ ﴿إِذۡ﴾ في السّياق:

التَّعبيرُ بالظَّرفِ في قولهِ تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ دالٌّ على الوقتِ، والمعنى: أنَّ الَّذي منعَ النّاسَ من الإيمانِ وقتَ مجيءِ الهدى

(1) المجاز المرسل: (ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه، وما وضع له ملابسةً ومناسبة غير المشابهة، كاليد إذا استُعمِلت في النّعمة، ولما جرت به العادة من صدورها عن الجارحة، وبواسطتها تصل إلى المقصود بها)، يُنظر: الصّعيديّ، بغية الإيضاح: 3/ 462 - 463.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الكريم: 2/ 223.
(3) النحّاس، إعراب القرآن: 2/ 284.
(4) المطعنيّ، التفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الكريم: 2/ 224.
(5) المرجع السّابق: 2/ 224.

لهم هو قولهُم مع اعتقادهِم باستحالةِ أن يبعثَ اللّهُ بشرًا رسولًا[1]، والتَّقييد بالظَّرف تسجيل عليهم زمن مجيء الهدى إليهم، وفيه تجريم لرفض أعظمِ النِّعَم على الرَّغم من مجيئها إليهم.

بلاغة المجاز العقليّ، في إسناد المجيء إلى الهدى:

التّكذيب بالهدى والإعراض عنه مآلُهُ العقابُ والاستئصالُ

قوله تعالى: ﴿جَآءَهُمُ﴾ فيه مجاز عقليّ؛ إذ أسند المجيء إلى الهدى من إسناد الفعل إلى مسبِّبه تنبيهًا على عماهم ورفضهم النِّعمةَ الكبرى، وعبَّر بالماضي لتقرير حقيقةٍ حاصلة واقعة فعلًا؛ لأنَّ هذهِ الصّيغةَ أدلُّ على الثُّبوت؛ فقد حصلَ الفعلُ، وانقضى، وقدَّم المفعول به (هم) على الفاعل بيانًا لاختصاصهم بقصد الهدى، وفيه زيادةُ تبكيتٍ لهم؛ لرفضهم ما قصدهم خصّيصًا، وحقيقة الجائيّ هو الرّسول ﷺ المنزَّل عليه القرآن.

وقد جاءَ لفظُ ﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ معرَّفًا، وهو مصدرٌ، فيكونُ استعمالُهُ هنا من إقامةِ المصدرِ مُقامَ اسمِ الفاعلِ؛ لإرادةِ المبالغةِ في تصويرِ معنى الهدايةِ وتوكيدِهِ[2]؛ فإنَّ المصدرَ يدلُّ على خلوصِ الحدثِ من جميعِ الشَّوائبِ والنّواقصِ الَّتي يمكنُ أن تعتريَ الفاعلَ؛ فيُعبَّرُ بهِ؛ إذا أُريدَ المبالغةُ.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيّ في آية الإسراء (94)، وآيةِ الكهف (55):

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: 94]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ [الكهف: 55].

الفرق بين ما مبدؤه الإنكارُ وما مناطه الاستغفارُ، الّذي ذكره في الثّانية دون الأولى

ولسائلٍ أن يسألَ عن الفرقِ بينَ الآيتينِ بزيادةِ ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ [الكهف: 55]، والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ ما منعهُم عن الإيمانِ هنا إنكارهُم أنْ يبعثَ اللّهُ الرَّسولَ على هيئةِ البشرِ، وما علموا أنَّ

---

(1) السّمين، الدّر المصون: 7/ 412.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الكريم: 2/ 224.

التَّجانسَ يورثُ التَّآنسَ، والتَّغايرَ يورثُ التَّنافرَ، أمّا آية الكهفِ؛ فإنَّ المانعَ من الإيمانِ إتيانُ سنَّةِ الأوَّلينَ، فلمّا ذكرَ قومَ نوحٍ وهودٍ وصالح وشعيبٍ، وقدْ أُمروا كلُّهم بالاستغفارِ؛ زادَ في الآيةِ قوله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ [الكهف: 55][1].

ولهذا الاختلافِ بينَ الآيتينِ بزيادةِ ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ [الكهف: 55] توجيهٌ آخرُ، وهو أنَّ آيةَ الإسراءِ قد تقدَّمها قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾، ثمّ ما طلبوا من آياتٍ معجزاتٍ أوَّلُها قولهُ: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى غيرِها من مقترحاتِهم الثَّمانيةِ الدّالَّةِ على المبالغةِ في شنيعِ اقتراحاتِهم، وبُعدهِم عن الإيمانِ؛ فلم يكنْ ليناسبهُ ذِكرُ الاستغفارِ، أمّا الآيةُ الثّانيةُ؛ فلا يبلغُ مبلغَ الواردِ في آيةِ الإسراءِ، فذكرَ فيهِ الاستغفارَ مناسبةً لحالهِم[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾:

الإصـــرار على الـكـفـر، سببه اســتــمــرار مـقـولـتـهـم في الماضي والحاضر والمستقبل

قولهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ مصدرٌ مؤوَّلٌ يقعُ فاعلًا للفعلِ ﴿مَنَعَ﴾[3]، وجاء بلفظ المصدر المؤوَّل؛ ليجتمع لهم الإخبار عن الحدث مع الدَّلالة على الزَّمان[4]، بمعنى: أنَّ المراد تحديد زمان القول ماضيًا، وحاضرًا، ومستقبلًا، فهو قول الجاحدين السّابقين نفسه، يُكرَّر في كلِّ زمان، ومع كلِّ رسالة، فَهُم قد قالوا ذلك، ومُستمرّون عليه، ومعنى الاستمرار هذا هو المقصود؛ إذ إنَّه يَشمل الزَّمن عمومًا؛ ماضيًا، وحاضرًا، ومستقبلًا، وجاء بلفظِ الفعلِ المشتقِّ منه مع ﴿أَن﴾ أيضًا للدَّلالةِ على مجرَّدِ معنى الحدثِ دونَ احتمالٍ زائدٍ عليه، ففيها - أي: (أنْ) - تحصينٌ للمعنى من

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار: 166 - 167.
(2) ابن الزّبير الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/ 315 - 316.
(3) العكبريّ، التّبيان: 2/ 832.
(4) السّهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 97.

الإشكالِ، وتخليصٌ من شوائبِ الاحتمالِ، وعوارضِه المتصوَّرةِ في الأذهانِ[1]، بمعنى أنَّ المرادَ: القولُ نفسُه لا كيفيَّتُه، ولا محدِّداتُه من دليلٍ، أو حجَّةٍ، ذلك أنَّ نفيَهم لأن يكونَ البشرُ رسولًا، إنَّما هو قولُهم لا حقيقةُ أمرِهم، فهم لا يؤمنون بألّا يكونَ البشرُ رسولًا، ولكنَّهم يقولونه قولًا من غيرِ برهانٍ ولا إيمانٍ[2].

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾:

قولهُم بإنكارِ كونِ الرَّسولِ بشرًا، مسبَّبٌ عن اعتقادِهم ذلك

جملة ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾ وإن كانَ قولًا من جهةِ اللَّفظِ إلّا أنَّه يرادُ به الاعتقادُ معنًى؛ فهو على طريقةِ المجازِ المرسلِ، وعلاقتُه المسبَّبيَّةُ، فالقولُ مسبَّبٌ عن ذلكَ الاعتقادِ، فأُطلِقَ المسبَّبُ، وأريدَ السَّببُ[3]، فلسانُهُم يُنكرُ بشريَّةَ الرَّسولِ، وهذا الإنكارُ صورةٌ عمّا في معتقدِهِم.

ويصحُّ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ كنايةً؛ إذ يقتضي بصريحِه أنَّهُ قولٌ باللِّسانِ منهم، ومعَ ذلكَ فهو كنايةٌ عنْ مُعتقَدِ قولِهم، فجعلَ هذا القولَ مانعًا منْ إيمانِهم؛ لأنَّ اعتقادَهُ يمنعُ التَّحوُّلَ عنهُ إلى ضدِّهِ، ونطقهُ يمنعُ سامعيهم ومتَّبعيهِم من التَّصديقِ بهِ[4].

الغرض من الاستفهامِ بالهمزةِ في ﴿أَبَعَثَ﴾:

مناطُ التَّهكُّمِ عندَهم أنْ يفوزَ برتبةِ الرِّسالةِ بشرٌ

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَبَعَثَ﴾ دالٌّ على غايةِ الإنكارِ والتَّعجُّبِ والتَّهكُّمِ[5]، فكيفَ يبعثُ الحقَّ سبحانه بشرًا رسولًا؟! وكيفَ يفوزُ برتبةِ الرِّسالةِ والوحي والقربِ من اللهِ سبحانه بشرٌ مثلُهُم[6]؟! فهذا من أعجبِ ما يرونَه، وهو مَدْعاةٌ لتهكُّمِهم.

(1) السّهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 97.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4458.

(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الكريم: 2/ 224.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 212.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 514.

(6) الغزاليّ، إحياء علوم الدّين: 3/ 193.

وفي قولِه: ﴿أَبَعَثَ﴾ فعلُ البعثِ دالٌّ على معنى الاستبعادِ والتَّعذيبِ، فإنَّهم لَمّا كانَ جهلُهُم مفرطًا؛ ظنّوا أنَّ البشريَّةَ منافيةٌ للرِّسالةِ، وهو اعتقادٌ باطلٌ ووهمٌ ظاهرٌ، ولم يقتصر على هؤلاءِ، بلْ مارسهُ مكذبو الرُّسلِ قبلَ بعثتِه ﷺ[1].

وفي التَّعبيرِ بالهمزةِ المقتضيةِ الاستفهامَ الإنكاريَّ التعجُّبيَّ دلالةٌ قدْ تكونُ خافيةً، وهيَ جهلُهُم في تعظيمِ الحقِّ سبحانه وتنزيهِهِ؛ فإنَّهم يرونَ أنَّ اللّهَ تعالى أعظمُ منْ أنْ يبعثَ رسولهُ منْ جنسِ البشرِ، مثلَما توهَّموا أنَّ عبادةَ الأصنامِ تعظيمٌ للّهِ[2].

الغرض من إسناد ﴿أَبَعَثَ﴾، إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

إدخال المهابة والتّعظيم، في مقامات الإنكار، كذب من الكفّار

أظهرَ الاسمَ الجليلَ في قولِه: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ إيذانًا بما لهُ من التَّعظيمِ الباهرِ، وما يتَّصفُ به من الجلالِ والإكرامِ[3]، فكيف يبعث الموصوف بالعظمة بشرًا رسولًا؟

سرُّ تكرارِ لفظَتَي ﴿بَشَرًا﴾ و﴿رَّسُولًا﴾ مُنكَّرتين:

التّأكيد على تحقير شأن الكافرين، من المنكرين المعاندين

في قولِه تعالى: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾، أوردَ لفظتَي البشرِ والرَّسولِ نكرتينِ للتَّحقيرِ، لا على وجهِ الحقيقةِ، بل بحسبِ زعمهِم الخاطئ الآثمِ[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البعث والإرسال:

البعثُ يدلُّ على إخراجٍ وإنهاضٍ، وهو يسبقُ الإرسالَ

عبَّرَ بفعلِ البعثِ في قولِه تعالى: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾، وهو الدّالُّ على إثارةِ عملٍ، ولا تكونُ الإثارةُ إلّا بعدَ وهنٍ وجمودٍ، وفيهِ تحفيزٌ وتنشيطٌ، أمّا الإرسالُ؛ فيدلُّ على السُّهولةِ واليسرِ[5]،

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الكريم: 2/ 223.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 484.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 514.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم: 2/ 224.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).

وفي البعثِ إخراجٌ و"إنهاضٌ بعدَ موتٍ مؤقَّتٍ، أو نومٍ أو نحوِهِ"[1]، أَوْ إحياءُ منهجٍ كانَ موجودًا سابقًا، أمّا الإرسالُ؛ ففيهِ رسالةٌ يبلِّغها الرَّسولُ؛ لذلكَ يكونُ البعثُ سابقًا على الإرسالِ، وهو ما كانَ في الآيةِ، وأنْ يكونَ الإخراجُ معَ الإثارةِ والقوَّةِ أوَّلًا، ثمَّ الإرسالُ معَ السُّهولةِ واليسرِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث).

﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥﴾ [الإسراء: 95]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط ضلالهم في إنكار بشريّة الرّسولِ، بكونه من جنس مَن يُرسَلُ إليهم

ظهرَ إنكارهُم وتعجُّبهُم بمدعاةِ ضلالهم وفرطِ جهالاتهم في الآيةِ السّابقةِ منْ أنْ يكونَ الرَّسولُ بشرًا اقتضاءَ أنْ يبعثَ إليهم مَلَكًا، كأنَّهُ قيلَ بعدَ الإنكارِ: هلّا بعثَ اللهُ مَلَكًا؟ فكانَ الجوابُ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ﴾ الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡشُونَ﴾: (مشي) أصلان يدلّ أحدُهما على حركةِ حيّ، والآخرُ النَّماءُ والزّيادةُ[2]، والمعنى المحوريُّ للمشي: هو الانتقالُ بالأرجلِ منْ غيرِ حدَّةٍ وقوَّةٍ؛ فهو أخفُّ مِنَ الجري، وهو الانتقالُ منْ مكانٍ إلى آخرَ، ومشيُ الإنسانِ يكونُ على رجليهِ سريعًا أوْ بطيئًا، وقدْ يردُ المشيُ بمعنى الهدي، ومعنى ﴿يَمۡشُونَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ، وهو وصفٌ للملائكةِ المفترضينَ: أنَّهم يمشونَ، كما يمشي بنو آدمَ[3].

2) ﴿مُطۡمَئِنِّينَ﴾: (طمن) أصلٌ في اطمئنان النَّفسِ وسكونها واستئناسها، والسُّكونُ يحصلُ بعدَ التَّهيُّجِ والانزعاجِ، والنَّفسُ المطمئنَّةُ هيَ المؤمنةُ الَّتي أخبتتْ لربِّها، وكلُّ ما جاءَ في القرآنِ من الاطمئنانِ والطُّمأنينةِ يأتي على معنى السُّكونِ النَّفسيِّ والقلبيِّ ونبذِ القلقِ والوجلِ والحذرِ[4]، ومعنى ﴿مُطۡمَئِنِّينَ﴾ أنَّهم مستوطنون مقيمون قارّون في الأرضِ[5].

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 484.
(2) الراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مشي).
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 267.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طمن).
(5) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 147.

3) ﴿مَلَكًا﴾: (ألك) يدلّ على تحمّل الرسالة، وإنّما سُمّيتِ الرّسالَةُ أَلوكًا لأنَّها تُؤْلَكُ في الفَمِ، مُشْتَقٌّ من قَوْلِ العرب: الفَرَس يَأْلُكُ باللِّجام ويَعْلُكُه، إذا مضَغَ الحديدةَ[1]، "والمَلَكُ هوواحدُ الملائكة، ولفظهُ مَفْعَلٌ من الألوك والألوكة بمعنى الرِّسالةِ"، وجعله النَّحويون منْ لفظِ الملائكةِ، "وجُعِلَ الميمُ فيهِ زائدةً، وقالَ بعضُ المحقّقينَ: هو من الملكِ، قالَ: والمتولّي من الملائكةِ شيئًا من السّياساتِ، يقالُ لهُ: مَلَكٌ بالفتحِ"[2]، ومعنى المَلَكِ في الآيةِ: هو واحدُ الملائكةِ[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

طبيعة الملائكة تختلف عن البشر، ولا يكون رسولُ الملائكة إلّا ملكًا

لوْ كانَ في مقدورِ الملائكةِ أنْ يكونوا كبني آدمَ؛ فيحلّوا محلَّهم من الأرضِ، فيمشونَ مشيتَهُم، قارّينَ في مساكنهم، لا يصعدون إلى السَّماءِ، لما كانَ منّا إلّا أنْ ننزِّلَ عليهم مَلَكًا منْ جنسهم، يَفهَمُهم، ويَفهمونَهُ، ويبلِّغهم رسالاتِ ربِّهم؛ ذلكَ "أنَّ أهلَ الأرضِ لوْ كانوا ملائكةً لوجبَ أنْ يكونَ رسولُهم منَ الملائكةِ؛ لأنَّ الجنسَ إلَى الجنسِ أميلُ، أمّا لوْ كانَ أهلُ الأرضِ مِنَ البشرِ؛ لوجبَ أنْ يكونَ رسولُهم مِنَ البشرِ"[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في جملة: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ﴾:

إنكارهُم إرسالَ الرُّسلِ من البشر، يقتضي أن يكون الرّسول ملَكًا

استأنف النّظم الكريم معنًى جديدًا ردًّا على سؤال ناشئ من معنى الآية السّابقة، فقال: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ﴾؛ لأنَّ إنكارهُم إرسالَ الرُّسلِ بشرًا واعتقادَهُم ذلكَ يفضي إلى طلب أن يكون الرَّسولُ من الملائكة، فجاء الجواب بأنَّ اللّه "يُرسلُ الرَّسولَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ألك).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ملك).
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 329.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 410.

لقومِه منْ نوعِ جنسِهم تمكينًا لمخالطتِهم؛ فاتِّحادُ النَّوعِ ممّا يعينُ على تيسيرِ المعاشرةِ[1].

دلالة الأمر بلفظ ﴿قُل﴾:

في القول تبيينٌ للحكمةِ، وتحقيقٌ للحقِّ المُزيحِ للرَّيبِ

استهلَّ الآيةَ بالفعلِ ﴿قُل﴾، وهو أمرٌ من الحقِّ سبحانهُ، غرضهُ أن يكونَ تبيينًا وتوضيحًا للحكمةِ، وتحقيقًا وتوكيدًا للحقِّ؛ لإزاحةِ الرَّيبِ والتَّردُّدِ[2]، ودفعًا للمكابرةِ والعنادِ، بعدَما قامت دلائلُ شهادتهِ وبراهينُ وحدانيَّتهِ، لذا أورد النَّظمُ المعنى ملقَّنًا إعلانًا عن كمال الحجَّة والرَّدِّ بالوحي.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿لَّوۡ﴾:

امتنعَ أنْ ينزِّلَ ملَكًا رسولًا؛ لامتناعِ وجود ملائكة تمشي على الأرض

﴿لَّوۡ﴾ حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ؛ فهو على إرادةِ امتناعِ أنْ ينزِّلَ عليهم من الملائكةِ رسولًا؛ لامتناعِ أنْ تكونَ الأرضُ لهم مُستقَرًّا، يمشونَ فيها، ويسكنونَ بما يتَّفقُ معَ هيئتِهم الرّوحانيَّةِ، ووجهُ ذلكَ أنَّ الأرضَ ذاتُ طبيعةٍ مادّيَّةٍ منْ زرعٍ وشجرٍ وحجرٍ وسواها، أمّا الملائكةُ؛ فهيَ أرواحٌ نورانيَّةٌ لا تُرى، فلا مناسبةَ بينَ هيئتِهم والأرضِ المادّيَّةِ بانقطاعِ الخطابِ بينهُم وبينَ منْ أُرسلوا إليهم، فحينئذٍ لا محيدَ منْ أنْ تتجسَّدَ هيئاتُهُم على صورةٍ مادّيَّةٍ، فيكونوا كالبشرِ[3]، عندَها يسقطُ اعتراضُهُم، فلمّا امتنعَ الأوَّلُ معَ ﴿لَّوۡ﴾؛ امتنعَ الثّاني بديهةً وعقلًا، فلَمّا كانَ سكانُ الأرضِ منْ جنسِ البشرِ؛ أرسلنا لهم بشرًا رسولًا منْ جنسِهم، فلو كانوا ملائكةً؛ لأرسلنا لهم ملائكةً منْ جنسِهم؛ لتحصلَ المؤالفةُ والمجانسةُ[4] في التَّبليغِ والأداءِ، وذلك أدعى إلى القناعة والقبول.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 213.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 196.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4459.
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 370.

دلالة التَّعبيرِ بفعلِ الكينونةِ الماضي:

دلالة على تحقُّقِ وجودهِم في الأرضِ واستقرارهِم فيها

في قولهِ تعالى: ﴿لَّوۡ كَانَ﴾ عبَّرَ بفعلِ الكينونةِ بصيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على معنى الوجودِ والتَّحقُّقِ والاستقرارِ في الأرضِ[1]؛ ليؤذنَ باكتسابهِم صفةَ البشريَّةِ أو شبهَها، فينزلُ الملكُ عليهِم، وامتناع الكينونة أدلُّ على النَّفي من امتناعِ الفعل.

غرض تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على الاسمِ ﴿مَلَٰٓئِكَةٞ﴾:

ظرف الحوار أولى بالتَّقديم؛ لأنّ الأرض هي مقصد الإرسال ومحلّه

قدَّمَ شبهَ الجملةِ في قولهِ تعالى: ﴿لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ﴾ على الاسمِ لغرضِ الاهتمامِ والتَّخصيصِ؛ فإنَّ مساقَ الآيةِ يجري في افتراضِ إحلالِ الملائكةِ محلَّ الآدميّينَ في موطنهِم ومسكنهِم، وهيَ الأرضُ[2] لا غيرُها، فالأرضُ محورُ الكلامِ والافتراضِ، وهو الشُّبهةُ الَّتي دخلَ بها المشكِّكونَ ببشريَّةِ الرُّسلِ.

سرُّ التّقييدِ بالوصفِ بجملةِ ﴿يَمۡشُونَ﴾:

تصويرُ المشهدِ المتحرِّكِ لحالِ الملائكةِ، أبلغ في الدّلالة على الامتناع

قولُهُ تعالى: ﴿يَمۡشُونَ﴾ جملة وقعت وصفًا لـ﴿مَلَٰٓئِكَةٞ﴾، والنَّظمُ الجليلُ بهذه الجملة يصوِّرُ المشهدَ المتحرِّكَ لحالِ الملائكةِ المجموعينَ في اتِّصافهِم بصفاتِ الآدميّينَ تصويرًا رائعًا؛ بدلالةِ الفعلِ المضارعِ المؤذنِ بالتَّجدُّدِ؛ فهو يقرِّبُ استحضارَ ذهنِ السّامعِ، فهم يمشونَ على الأرضِ، متصرِّفينَ فيها بالمشي، لا يصعدونَ إلى السَّماءِ ليسمعوا، أو يعلموا، فإذا علموا؛ فلا فائدةَ من إرسالِ الملائكةِ إليهِم عندئذٍ، بل هم مقيمونَ في الأرضِ، يلزمهُم ما يلزمُ البشرَ المكلَّفينَ من العباداتِ والأحكامِ المخصوصةِ الَّتي لا تُدرَكُ بالعقلِ[3]، والجملة الفعليَّة أمكنُ في تقريبِ الصّورةِ دونَ الصّيغِ الأخرى الاسميَّةِ والفعليَّةِ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 196.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 514.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 114.

القيد دالٌّ على الاستقرار والتّعايش، الّذي يفترضه السّياق للملائكة المقصودين

سرُّ التّقييد بالحال في ﴿مُطۡمَئِنِّينَ﴾:

قولُه: ﴿مُطۡمَئِنِّينَ﴾ منصوبٌ على الحاليَّةِ من فاعلِ المشي[1]، ولمّا كانَ المطمئنُّ هو السّاكنَ؛ فإنَّ المعنى هنا التَّمكُّنُ وعدمُ الاضطرابِ، فمشيهُم مشيُ قرارٍ وهدوءٍ في الأرضِ، وهو منْ صفةِ الإنسانِ؛ ليؤولَ المعنى إلى أنَّكُم لوْ كنتُم ملائكةً؛ لنزَّلنا عليكُم مَلَكًا، لكنْ لمّا ثبتَ كونُكم بشرًا؛ أرسلنا إليكُم بشرًا منْ جنسكُم[2]، وهذا القيد يفيد الثَّباتَ التّامَّ كثباتِ البشر على الأرض.

المنزَّل عظيم مهيبٌ، وما كان من العظيم فهو عظيم

سرُّ إسناد الفعل للضّمير الدالِّ على التّعظيم ﴿لَنَزَّلۡنَا﴾:

أسنَدَ فعلَ التَّنزيلِ إلى الضَّميرِ (نا) الدّالِّ على العظمةِ[3]، وفي ذلكَ دلالةٌ على شرفِ المُنَزَلِ، وهو الملَكُ الرَّسولُ؛ لشرفِ إضافتِهم إليهِ سبحانه ولتهويلِ الأمرِ وتربيةِ المهابة.

تشبيه حال المُنزَّل بحال مَنْ في الأرض، بإنزال الوحي عليهم من السّماء

وجهُ تعديةِ ﴿لَنَزَّلۡنَا﴾ بـ(على) وعودِ الضَّمير فيه:

لمّا ذكرَ فعلَ التَّنزيلِ جعلهُ متعدّيًا بحرفِ الاستعلاءِ (على) بقولهِ: ﴿لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وأعادَ الضَّميرَ عليهم، والمقصودونَ هم الملائكةُ، ووجهُ التَّعديةِ بـ(على) الإشارةُ إلى قوَّةِ اتِّصافهم بصفاتِ الآدميّينَ في كونهم على الأرضِ لا في السَّماءِ، و"كما فعلْنا في تنزيلِ جبريلَ عليه السلام على الأنبياءِ من البشرِ، وحُقِّقَ الأمرُ"[4] بأنْ أنزلهُ من السَّماءِ؛ فلا يشكُّ أحدٌ في قرارهم على الأرضِ، فقدْ غدا حالُهُم كحالِ البشرِ بأنْ ينزلَ عليهمُ الوحيُ منْ علٍ، كما أنَّ تعديةَ فعلِ التَّنزيلِ بحرفِ الاستعلاءِ (على) إشارةٌ إلى سموِّ المنزِّلِ واستعلائهِ على المنزَّلِ عليهِ، وتمكُّنهِ منهُ، فيكونُ ملابسًا لهُ مختلطًا بهِ، وهو أدعى إلى تحقيقِ غرضِ التَّنزيلِ، بخلافِ (إلى) الدّالةِ على الانتهاءِ والوصولِ.

---

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 7/ 413.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 213.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 514.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 514.

سرّ تقديمِ الجارَّينِ والمجرورين على المفعول ﴿مَلَكٗا﴾:

توكيد أنَّه مُنزَلٌ من السَّماءِ، وهو ذو قداسة وخصوصيّة لذلك

في قولهِ تعالى: ﴿لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾، قدَّمَ شبهَ الجملةِ ﴿عَلَيۡهِم﴾، وشبهَ الجملةِ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعولِ ﴿مَلَكٗا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذا التَّنزيلَ المحقَّقَ من السَّماءِ[1] تعظيمٌ لهُ وتفخيمٌ وتوكيدٌ لما افترضه من أنَّهم إنْ حلّوا محلَّ الآدميّينَ، فسيعاملونَ مثلهُم بأن يكونَ الملكُ نازلًا عليهِم من فوقِهِم من السَّماءِ كما يفعلُ مع الآدميّينَ حقيقةً، وفي تقديم ﴿عَلَيۡهِم﴾ تخْصيصُهم بالإنزال بوصفهم مناطَ الحديث إنكارًا، وجحودًا، واعتراضًا.

الغرض من تنكيرِ لفظتي (مَلَكٍ) و(رسولٍ):

أعظم المخلوقات الرّسل المعظّمون، والملائكة المكرمون

نكَّرَ الملَكَ الرَّسولَ في قولهِ تعالى: ﴿مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾؛ لإفادةِ التَّعظيمِ والتَّكريمِ، أي: رسولًا عظيمًا كريمًا منهُم؛ فإنَّه من أهلِ السَّماءِ.

الغرض من تقديم لفظ (ملك) على لفظ (رسول):

إنكارهُم غيرُ متوجِّهٍ للرِّسالةِ بل لهيئةِ المرسَلِ، لأنّهم لا يتصوّرونه بشرًا

تقديمُ الملَكِ على الرَّسولِ في قولهِ تعالى: ﴿مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ غرضهُ الاهتمامُ؛ فإنَّ الإنكارَ ليسَ متوجِّهًا إلى الرِّسالةِ نفسِها، فهو أمرٌ حتميٌّ لا خلافَ فيهِ، بل إلى هيئةِ المرسَلِ في كونهِ بشرًا في الآيةِ السّابقةِ، "واعتقادًا منهُم بأنَّ اللّهَ سبحانهُ لو بعثَ رسولًا إلى الخلقِ؛ لوجبَ أن يكونَ من الملائكةِ"[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 514.

(2) المراغيّ، تفسير المراغي: 15/ 96.

﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦﴾ [الإسراء: 96]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين محاججة المنكرين لبشريّة الرّسول، وكون الله شهيدًا على المغالبة بعدئذٍ

كانَ منْ شأنهِ ﷺ أن نصبَ لهمُ البرهانَ القاطعَ على أنَّ القرآنَ منهُ سبحانه وردَّ ما أنكروا منْ كونِ الرَّسولِ بشرًا، فلمْ يخرجْ عنْ عادةِ منْ سبقوهُ؛ فإنَّ الجنسَ للجنسِ أفهمُ وآلفُ؛ فالبشرُ لا يفهمُ عنِ المَلَكِ إلّا بخارقةٍ، فلمّا تمحَّضَ عنادهُم؛ أمرهُ الحقُّ سبحانه بالرُّجوعِ إلى السَّيفِ بقولهِ: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَىٰ﴾: الكفايةُ هي مِن القيامِ بالأمرِ[2]، والكفايةُ أنْ تسدَّ الخلَّةَ، وتبلغَ المرادَ في الأمرِ، وهو بمعنى الاستغناءِ والاقتناعِ بالشَّيءِ، وكلُّ ما وردَ في آياتِ الكتابِ الحكيمِ يدلُّ على الإغناءِ وعدمِ الاحتياجِ[3]، والمعنى في الآيةِ: أنَّ الحقَّ سبحانه يكفيني على تبليغي الرِّسالةَ، وأنَّكم كذَّبتم، وعاندتم[4].

2) ﴿شَهِيدَۢا﴾: أصلُ (شهد): يدلُّ على حضورٍ وعلمٍ وإعلامٍ[5]، منْ ذلكَ الشَّهادةُ، وهي المصدرُ، والمشهَدُ: محضرُ النَّاسِ، وشهدَ الشَّيءَ؛ إذا حضرَهُ، وعاينهُ، والشَّهيدُ: القتيلُ في سبيلِ اللهِ، قالَ قومٌ: سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّ ملائكةَ الرَّحمةِ تشهدهُ، أي: تحضرُهُ[6]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 515.
(2) الخليل، العين: (كفي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفى).
(4) النّسفيّ، حقائق التّأويل: 2/ 278.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).

والشَّهيدُ أيضًا: الشّاهدُ، وهو المؤيِّدُ والمصدِّقُ لدعوى مدَّعٍ، والمقصودُ بالشَّهيدِ في الآية: الشّاهدُ، وهو المخبرُ بالأمرِ الواقِعِ[1].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

(لا تعتدَّ باعتراضاتهم، ومعارضاتهم فكفى بمَنْ كانَ خبيرًا بخفايا الأمورِ وبواطنِها، بصيرًا بشواهدِها وظواهرِها! فأنعم به كافيًا وحسيبًا! فاصبر، ولا تحزن)، فاللّه تعالى خبيرٌ بصيرٌ بعباده حين اختصّ النبيَّ محمدًا ﷺ بالرسالة[2].

اللـه كـفـيـل بـرسـلـهِ شهيدٌ عليهم، ولا عبرة بأقوال المشركين المعاندين

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿قُلۡ كَفَىٰ﴾:

لم يعطفْ قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا﴾؛ لأنَّه نزَّله منزلَةَ الجوابِ للآيةِ السّابقةِ، فقد ذكرَ الحقُّ سبحانه أن لو كانَ في الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنّينَ إلى آخرِ الآيةِ، "فلمّا قالَ لهم ذلكَ؛ قالوا له: مَنْ يشهدُ لكَ بأنَّك رسولُ اللّهِ؟"[3] فقالَ اللّهُ تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾.

اللـه حسيبُ مـن يـتـوكَّـلُ عليه وكـافٍ له ممَّن يـعـارضُـهُ ويعاديه

دلالةُ فعل الأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ يجري فعلُ الأمرِ في الآيةِ مجرى التَّهديدِ والتَّخويفِ، أي: قلْ لهم يا رسولَ اللّهِ ﷺ كفى باللّهِ وحدهُ شهيدًا على ما بلَّغتكُم من أمورِ رسالتهِ[4].

كفَى بالله وحدَهُ شـهـيـدًا، عـلَى إبلاغِ رسالتِهِ

معنى الباءِ ودلالتها في ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الباءُ الدّاخلةُ على الاسم الجليلِ في قولهِ: زائدةٌ[5]؛ لإفادةِ

تـأكـيـدُ معنى الكفاية بشهادة الله تعالى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 214.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/55.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 329.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 309.
(5) وقد ذكرها سيبويه، وأنَّ أصلها (كفى اللهُ) لكنّها لمّا دخلت على الاسم عملت فيه لفظًا، وفصار (كفى باللهِ)، الكتاب: 1/ 92.

التَّوكيدِ، توكيدِ لصوقِ فعلِ الكفايةِ واتِّصالهِ بفاعلهِ على تقديرِ: (كفى اللّهُ شهيدًا)[1].

سرُّ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿بِٱللَّهِ﴾:

كون الله محيطًا بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا، وهو كافٍ عبدهُ، يقتضي الإظهار

أظهرَ الاسمَ الجليلَ في قولهِ تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه "المحيطُ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا"[2]، ومنْ كانتْ هذهِ صفتَهُ؛ فهو كافٍ عبدَهُ وناصرُهُ.

سرّ تقديم ﴿بِٱللَّهِ﴾ على التَّمييز ﴿شَهِيدًا﴾:

اللهُ وحدهُ هو الشَّهيدُ عليهم لا غيرهُ، وكفى بالله شهيدًا

قولُهُ تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ جملةٌ دالَّةٌ على الاختصاصِ والحصرِ بموجبِ تقديمِ لفظِ الجلالةِ ﴿بِٱللَّهِ﴾ على التَّمييزِ ﴿شَهِيدًا﴾، والمعنى: حصرُ الشَّهادةِ عليهِ ﷻ وهو أدعى لإيمانهم وتصديقهم؛ إذا ما علموا أنَّه تعالى الشَّهيدُ والرَّقيبُ عليهم لا غيرُهُ.

نكتةُ صوغِ الخبرِ على صيغةِ (فَعيل):

الله تعالى عالم بأفعالهم، بصيرٌ بتدبيرهم وتصريفهم

في قولهِ: ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ تعبيرٌ عن صفتينِ من صفاتهِ تعالى؛ فصاغهُما على زنةِ (فَعيل)، وهي هنا في حقِّ الذّاتِ العليَّةِ لا تدلُّ على المبالغةِ، فهو "ذو خبرةٍ وعلم بأمورِهم وأفعالِهم؛ المحقِّ منهم والمُبطلِ، والمَهْديِّ والضالِّ، بصيرٌ بتدبيرِهم وسياستِهم وتصريفِهم فيما شاء، وكيف شاء، وأحَبَّ، لا يخفَى عليه شيءٌ من أُمورِهم"[3].

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ (الشَّهيد):

الشَّهيدُ نصير وحاكم للمحقِّ على المبطِلِ؛ لأنَّ الشَّهادةَ سببُ الحكمِ

الشَّهيدُ في اللُّغةِ الَّذي يخبرُ بالأمرِ الواقعِ مثلما حصلَ، أمّا في الآيةِ ﴿شَهِيدًا﴾؛ فالمرادُ بهِ أن يشهدَ للمحقِّ على المبطلِ كنايةً[4] عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 214.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 515.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 92.

(4) الكناية: "لفظ أريد به لازم معناه، مع جواز إرادته معه، أي: إرادةِ ذلك المعنى مع لازمه كلفظ: طويل النّجاد، والمراد به طول القامة، مع جواز أن يراد حقيقة طول النّجاد أيضًا"، التفتازاني، مختصر المعاني: 1/ 257.

المناصرِ والحاكم والآمرِ، فالحكمُ مسبَّبٌ عن الشَّهادةِ، والقرينةُ أنَّه قالَ: (بيني وبينكُم)، فالظَّرفُ يناسبُ معنى الحكم، وآيةُ ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٧﴾ [الأعراف: 87][1].

سرُّ التّقييد بالظَّرفينِ ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ دونَ (بيننا):

أثرُ السّياقِ في تحقيقِ المفارقةِ، وفي إبانةِ المباينةِ

في قولهِ تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ عبَّرَ بالظَّرفينِ ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾، فقد أعادَ الضَّميرَ عليهِ ﷺ ﴿بَيۡنِي﴾، ولم يعبِّرْ بصيغةِ الجمعِ (بيننا)؛ كي يحقِّقَ المفارقةَ بينَ الطَّرفينِ، وكي يوضِّحَ المباينةَ، ويبيِّنَ الاختلافَ[2].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ في ﴿شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ معَ آيةِ العنكبوتِ:

وضعُ اللّفظِ في السّياقِ، متناسبٌ مع الدّلالةِ في كلّ آيةٍ يَرِدُ فيها

بين قوله تعالى هنا: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾ [العنكبوت: 52] وجهُ تشابه؛ ففي الآيةِ الأولى قدَّمَ وصفَ الشَّهادةِ على الظَّرفينِ، وفي الآيةِ الثّانيةِ عكسَ الأمرَ؛ فيُسألُ عنْ تقديمِ ما قدَّمَ وعن تأخيرهِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ بخواتيمِ الآيتينِ، فإنَّهُ لمّا ختمَ الآيةَ الأولى بصفتَينِ منْ صفاتهِ ﷻ، وهما (الخبيرُ) و(البصيرُ)؛ قدَّمَ صفةَ الشَّهيدِ المرادَ بها اللَّهُ تعالى في أنَّهُ الشَّهيدُ والحاكمُ عليهم يومَ يلقونهُ بأنَّهُ ﷺ قدْ بلَّغَ الرِّسالةَ، ونصحَ الأمَّةَ[3]، أمّا الآيةُ الثّانيةُ؛ فقدْ ختمَها بتوكيدِ خسرانِ أهلِ الباطلِ من الَّذينَ كفروا، وهذهِ منْ صفاتِ البشرِ، ولمّا كانت البينيَّةُ متعلِّقةً بالبشرِ أيضًا؛ ناسبَ تقديمُ الظَّرفينِ ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [العنكبوت: 52] على ﴿شَهِيدٗاۖ﴾ [العنكبوت: 52][4]، وقدَّمَ ﴿شَهِيدَۢا﴾ على ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 214.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 196.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 434.

(4) فاضل السّامرائي، لمسات بيانية، ص: 512.

هنا؛ لأنَّه جارٍ على الأصلِ من تقديمِ المفعولِ على الظَّرفِ، أمّا في آيةِ العنكبوتِ؛ فقد عكسَ الأمرَ بتقديمِ الظَّرفين، فهو على خلافِ الأصلِ، وغرضهُ أن يتَّصلَ وصفُ الشَّهيدِ بقولِه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [العنكبوت: 52]؛ كي تكونَ الصِّفةُ تابعةً لموصوفِه، فلا يقعَ حائلٌ بينهُما[1].

سرُّ التّوكيد بأكثرَ مِن مؤكِّدٍ في السّياق:

في تـوالي المؤكِّداتِ، مزيدُ تهديدٍ ووعيدٍ، للمكذِّبينَ المنكرينَ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ توالتِ المؤكِّداتُ في الجملةِ، فبدأها بـ(إنَّ) المؤكِّدةِ، وثنّاها بالجملةِ الاسميَّةِ، وثلَّثها بـ﴿كَانَ﴾ الدّالةِ على رسوخِ الصِّفةِ وثبوتها، ثمَّ بالباءِ الدّاخلةِ على متعلِّقِ الخبرِ[2]، والخامسُ أنْ أتبعَ الخبيرَ بالبصيرِ، وفيه توكيدٌ بالمعنى؛ لما بينَ الخبيرِ والبصيرِ من تعالُقٍ في المعنى، فالأوَّلُ متعلِّقٌ ببواطنِ الأمورِ والثّاني بظواهرِها، وفي حشدِ هذهِ المؤكِّداتِ نكتةٌ بلاغيَّةٌ، وهيَ أنَّها تأتي في سياقِ التَّهديدِ والوعيدِ لهؤلاءِ، فإنَّهم لا يذكرونَ هذهِ الشُّبهاتِ إلّا لمحضِ الحسدِ وحبِّ الرّياسةِ والإعراضِ عن الرُّضوخِ للحقِّ[3].

الغرض من العدولِ عن الإظهارِ إلى الإضمارِ:

تناسب الجملة مـعَ الجملةِ السّابقةِ؛ لما بينهُما من التّعالُقِ والتَّتميمِ

لمّا ذكرَ الاسمَ الجليلَ في مفتتحِ الآيةِ معَ فعلِ الكفايةِ، بقولهِ تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا﴾؛ أعادهُ مضمرًا بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾، معَ جوازِ التَّعبيرِ بالظّاهرِ، لكنَّه أرادَ التَّناسبَ بينَ هذهِ الجملةِ وما سبقتْها؛ لما بينهُما من تعالُقٍ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ تتميمٌ لما أوردهُ الحقُّ سبحانه من أنَّه الشَّهيدُ الحاكمُ الَّذي يكفي عبدهُ، فهو الخبيرُ الَّذي يطَّلعُ على دواخلِهم، وبواطنِ أنفسِهم، وما يرتبطُ بهم من سوابقِهم

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 236.
(2) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 204.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 410.

ومصائرِهم، البصيرُ بجميعِ ما كان من أمورهِم[1]، فالضَّميرُ يدعمُ العلاقةَ بينَ الجملتين؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ موصولةٌ بسابقتِها.

دلالةُ التّعبير بفعلِ ﴿كَانَ﴾ الماضي:

فعل الكينونة يشمل الأزمنةَ كلَّها ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا

التَّعبيرُ بفعلِ الكينونةِ بصيغةِ الماضي في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ للدَّلالةِ على رسوخِ هذهِ الصِّفاتِ واستمرارِها؛ فإنَّ فعلَ الكينونةِ يشملُ الأزمنةَ كلَّها ماضيًا منقطعًا وماضيًا مستمرًّا وحاضرًا ومستقبلًا[2].

نكتة التّعبير بالباءِ، في شبه الجملة ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾:

الإلصاقُ فهو أقربُ إليهم من حبلِ الوريدِ

الباءُ في قولهِ تعالى: ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ دالَّةٌ على الإلصاقِ[3]، والمعنى: أنَّ الحقَّ سبحانَهُ هو الخبيرُ بعبادهِ يعرفُ بواطنَهُم وخفيّاتِ ضمائرِهم، البصيرُ المحيطُ بظواهرِ أعمالِهم على الغايةِ من ذلكَ، وهو أقربُ إليهِم من حبلِ الوريدِ.

سرُّ إضافة العبادِ إليهِ تعالى:

التَّنبيهُ على عظمِ الأمرِ واختصاصِهِ بخالصِ العبوديّةِ لعبادهِ جميعًا

في نسبةِ العبادِ إليهِ بقولهِ: ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ تنبيهٌ على عظيمِ الأمرِ المتحدَّثِ عنهُ في كونهِ خبيرًا بصيرًا بهم، واختصاصهِ بخالصِ العبوديَّةِ؛ أطاعوهُ، أم حادوا عن طريقهِ، فكلُّهم: ﴿ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: 93].

سرّ تقديمِ ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ على الخبرين ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾:

اللهُ تعالى الخبيرُ البصيرُ بعبادهِ، ولا أحدَ سواهُ يوصف بذلك

قدَّمَ شبهَ الجملةِ ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ على الخبرين ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ والحصرِ، فهو الخبيرُ بأحوالِ عبادهِ وما يصيرُ إليهِ أمرهُم بعدَ إيجادهِ لهم، البصيرُ بما يصلحُ لهم، وما لا يصلحُ، وما يكونُ منهم بعد وجودهِ[4]، لا يخفى عليهِ شيءٌ من أمورهِم، وكلُّ ذلكَ راجعٌ إليهِ، لا سواهُ ولا غيرهِ.

(1) ابن باديس، في مجالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 88.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 15/ 96.
(3) المرجع السّابق: 15/ 96.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 515.

سرُّ التّعبير بالاسمين ﴿خَبِيرَۢا﴾ و﴿بَصِيرٗا﴾ في الفاصلةِ:

شرطُ صدقِ المجازاةِ، العلمُ بظواهرِ أحوالِهم وبواطنِها

ختمَ فاصلةَ الآية باسمينِ من أسمائهِ تعالى بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾؛ لأنَّه أرادَ الإحاطةَ بظواهرِ أحوالِهم وبواطنِها، فتقعُ منهُ المجازاةُ على ذلكَ، وهو علَّةٌ لما ذكرهُ من الكفايةِ؛ تسليةً لرسولِه ﷺ وتهديدًا للكفّارِ[1].

نكتة تقديمِ (الخبيرِ) على (البصيرِ):

علمُ بواطنِ الأمورِ وخباياها، أخصُّ من ظواهرِها

قدَّمَ الخبيرَ على البصيرِ في قولِه: ﴿خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾؛ لأنَّهُ أخصُّ، فالخبيرُ ما كانَ وصفًا للعلمِ ببواطنِ الأمورِ وخفيّاتِ الضّمائرِ، أمّا البصيرُ؛ فلمعرفةِ أحوالِهم الظّاهرةِ[2].

دلالةُ عمومِ الآيةِ في السّياق:

مقتضى الشّهادةِ، مجازاةُ كلٍّ من العبادِ، بما يستحقُّ

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ دالٌّ على الوعيدِ الشّديدِ؛ فقد أوردَ عليكُم الآياتِ، وبلَّغَ الرِّسالاتِ، وهو الخبيرُ العالمُ البصيرُ المشاهدُ لأفعالكُم، يشهدُ عليكُم يومَ القيامةِ تبليغًا، وما أعرضتُم، وكذَّبتُم، فيجازيكُم بأعمالكُم[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 196.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 593.

(3) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 9/ 481.

﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾ [الإسراء: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إرداف الوعيد الإجماليّ من الخبير البصير بالوعيد التّفصيليّ بسوء المصير

لَمّا أجابَ اللّهُ ﷻ عن شُبُهاتِ القوم في إنكارِ النُّبوَّة، وأَرْدَفَها بالوعيدِ الإجماليّ، وهو قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦﴾ [الإسراء: 96]، ذكرَ بعدَه في هذه الآيةِ الكريمة الوعيدَ الشَّديدَ على سبيلِ التَّفصيل[1]، فإنَّ من شأن التّفصيل بعد الإجمال، تقويّة الخطاب في سبيل إقامة الحُجّة على المُنكِرين، ففي الآية السّابقة جاء التّهديد بشهادة اللّه تعالى على المُنكِرين، وشهادةُ اللّه كافية في بيان صدق النّبيّ ﷺ، واستحقاقِ الكافرين الجزاءَ الأوفى، فكان موقع هذه الآية من السّابقة بيان التّفصيل في موقف النّاس من الهداية والضّلالة، على سبيل التّرغيب والتّرهيب؛ لاكتمال عناصر الدّعوة إلى التّوحيد.

ونضيف أنّ الآيات الّتي سبقت هذه الآية، قد تكشّفت عن مُنكرٍ من قول المشركين وزورٍ، حيث عموا وصمّوا، فلم يروا من آيات القرآن إشراقها، ولا من بيّنات النّبوّة نصاعتها، بل ندبوا أنفسهم للاستهزاء الأخرق، والقال الأحمق، فراحوا يتحدّون الرّسول المُبلِّغ، بما تقترحه أهواؤهم السّقيمة من طلبهم معجزاتٍ تعجيزيّةً ماكرةً، فناسب ذلك نزول قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾، ليكون السّياق هاهنا مُكرّسًا للكشف في هذا المجال الدّلاليّ عن واقع هؤلاء المُشركين، نفسيًّا وعقائديًّا،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 411.

مُنبئًا بأنّهم في صَمَم عن الهُدى، وأنّهم لا خير منهم يُرتجى، ولو علم فيهم خيرًا لهداهم، ولكنّهم آثروا مسلك التّحدّي وسبيل المشاقّة، فآلوا إلى سوء المصير[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَهْدِ﴾ ﴿ٱلْمُهْتَدِۖ﴾: هَدَى يهدي هدايةً، والهدايةُ: دلالةٌ بلُطف، وهَدَيتُه الطَّريقَ هدايةً؛ أيْ: تقدَّمتُه لِأُرشدَه، وكلُّ مُتقدِّمٍ لذلك هادٍ، والهُدَى خلافُ الضَّلالة، قالَ تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ﴾ [الإسراء: 15][2]، يقول الجوهريُّ: ورد (هدى) في الكتاب العزيز على ثلاثة أوجه: هدى بنفسه؛ كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ١٠﴾ [البلد: 10]، و(هدى) باللّام؛ كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّۗ﴾ [يونس: 35]، وهدى بـ(إلى)؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾ [ص: 22][3]، ويُقالُ: (المُهتدي) لمَن يقتدي بعالمٍ نحو: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة: 104]، تنبيهًا أنَّهم لا يعلمونَ بأنفُسِهم ولا يقتدونَ بعالم، فالهدايةُ تكونُ بالاقْتداء[4]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ﴾؛ أيْ: مَن يُرِدِ اللّهُ هدايتَه فهو المهتدي إلى الحقِّ أو إلى كلِّ مطلوب[5].

2) ﴿يُضْلِلْ﴾ (ضلل) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على معنًى واحد، وهو ضياعُ الشَّيءِ وذَهابُه في غير حقِّه، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ لُغتان، وكلُّ جائرٍ عنِ القَصْدِ ضالّ، والضَّلالُ والضَّلالةُ بمعنًى؛ وهو العدولُ عن الطَّريقِ المستقيم[6]، قالَ تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: 7]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾؛ أيْ: يُرِدْ إضلالَه عن الحقِّ[7]، والضّلال والضّلالة: ضدّ الرّشاد، وقد ضللتُ أضلّ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ﴾ [سبأ: 50]، فهذه لغة نجد؛ وهي الفصيحة، وتضليل الرّجل: أن تنسبه إلى

(1) عبد الكريم الخطيب: التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 553.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (هدى).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (هدى).
(4) الرَّاغب، المفردات: (هدى).
(5) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 361.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (ضلّ).
(7) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 361.

الضّلال، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [القمر: 47]؛ أيْ: في هلاك[1]، وضلّ عَمَلي؛ أيْ: حاد عن الحقّ، ومَن عصى الله فقد ضلّ، قال الشّاعر في شربه الخمر:

شَرِبْتُ الإثْمَ حتَّى ضَلَّ عَقْلي *** كَذاكَ الإثْمُ يَذْهَبُ بالعُقولِ[2]

3) ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ (ولي) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قُرْب، من ذلك: الولْيُ: القُرْب، ومن الباب: المَوْلى: المُعتِقُ والمُعتَقُ، والصّاحبُ، والحليفُ، وابنُ العمّ، والنّاصرُ، والجار، وكلُّ مَنْ وليَ أمرَ آخَرَ فهو وليُّه[3]، والوِلايةُ[4]: النُّصرة، والوَلايةُ: تولّي الأمر، وقيل: هما واحد، نحو: الدَّلالةُ والدِّلالة، والوليُّ والمَوْلى يُستعملانِ في ذلك، كلُّ واحدٍ منهما يُقالُ في معنَى الفاعل؛ أيْ: الموالي، وفي معنَى المفعول؛ أيْ: الموالَى، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 257][5]، وقولُه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أيْ: أنصارًا[6].

4) ﴿وُجُوهِهِمْ﴾: (وجه) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على مقابلةٍ لشيء، وأصلُ الوجْهِ الجارحة، قال تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: 50]، ولمّا كان الوجْهُ أوّلَ ما يستقبلُك، وأشرفَ ما في ظاهرِ البَدَنِ اسْتُعمِلَ في مُستقبَلِ كلِّ شيء، وفي أَشْرَفِه ومَبْدئه، فقيل: وجْهُ كذا، ووجْهُ النَّهار، وربَّما عُبِّرَ عن الذّاتِ بالوجه[7]، قالَ ﷻ: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصص: 88]، وقولُه تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾؛ أيْ: وجوههم حقيقةً؛ وهي جمعُ (وجْه)؛ وهو الجارِحَة[8].

5) ﴿عُمْيًا﴾: (عمي) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على سَتْرٍ وتَغطية، من ذلك: العَمَى: ذهابُ البَصرِ من العَيْنَيْن كلتيْهِما، والفعلُ منه عَميَ يَعْمَى عمًى، يُقالُ: رجلٌ وامرأةٌ عَمياء، وهذا في

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (ضلل).

(2) البيت لم يُنسب إلى شاعر معيّن، وهو مذكور في نهاية الأرب: 87/ 4، وغيرها، ويُنظر: أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر: 2/ 21.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ولي).

(4) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/ 418، وقال رحمه الله: "وكسرُ الواو في الولاية أعجبُ إليَّ من فتحِها، ولأنَّها إنَّما تُفتَحُ أكثر من ذلك إذا كانت في معنى النُّصرة، وكان الكسائيُّ يفتحها ويذهب بها إلى النُّصرة".

(5) الرَّاغب، المُفردات: (ولي).

(6) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/ 467.

(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (وجه).

(8) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 467، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 62، ويدلُّ على أنّ المُراد بالوجهِ الجارِحةُ ما أخرجه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (4760)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2806)، عن أنس ﷺ قال: «قيل: يا رسول الله كيف يُحشرُ النَّاسُ على وجوهِهم؟ قال: الَّذي أمشاهم على أرْجُلهم قادرٌ أن يُمشيَهم على وجوهِهم».

عَمَى العَيْنَين، ويُقالُ: رجُلٌ عَم؛ إذا كان أَعْمَى القلب، وقومٌ عَمون، ويقولون في هذا المعنى: ما أَعْماه، ولا يقولون في عَمى البَصَرِ: ما أَعْماه؛ ومن عَمَى البصرِ قولُه تعالى: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس: 2]، ومن عَمَى البصيرةِ قولُه تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: 18]، وهو عَم؛ وهي عَميَّة من قوم عَمين، وعَميَت الأَخْبار والأمور عنه وعليهِ: خفيتْ والتبستْ، وفي التَّنْزِيل العَزِيز: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾ [القصص: 66]، ويُقال: عَمي عليهِ طَريقُه؛ إذا لم يهتد إليه(1)، وقولُه تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ مُحتمِلٌ لعمَى البصرِ، أو أنَّهم لا يرون شيئًا يسرُّهم(2).

6) ﴿وَبُكْمًا﴾: (بكم) أصلٌ واحدٌ قليل؛ وهو الخَرَسُ، وبُكْمٌ: جمعُ أَبْكَم، وبَكِمَ يَبْكَمُ بَكَمًا، وهو الَّذي يولَدُ أَخْرس، فكلُّ أَبْكم أَخْرس، وليس كلُّ أخرسَ أبْكم، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [النَّحل: 76]، والأَبْكمُ: الأخرسُ لا يتكلَّم، وإذا امتنعَ الأَبْكَمُ من الكلام جَهْلًا أو تعمُّدًا يُقال: بَكِمَ عن الكلام(3)، ويُقالُ: رجالٌ بُكْمٌ، وامرأة بكماء، ونساء بَكْماوات، وبُكْمٌ، قال الله ﷻ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾ [البقرة: 18]، فسّر المفسّرون البُكم: الخُرس، ويُقال أيضًا: البُكم: المسلوبو الأفئدة(4)، وقولهم: بَكِمَ الرّجل بَكَمًا: عجز عن الكلام خِلْقَة، وقد يُقال لِمَن لا يُفصح: بَكِمَ، تَشْبيهًا ومبالغةً(5)، وقولُه تعالى: ﴿وَبُكْمًا﴾ محتمِلٌ لفُقدانِ النُّطقِ، أو عدم التَّكلُّم بما ينفعُهم(6).

7) ﴿وَصُمًّا﴾ (صَمّ) أصلٌ يدلُّ على تَضامِّ الشَّيءِ وزوالِ الخَرْقِ والسَّمّ، من ذلكَ: الصَّمَمُ في الأُذُن، يُقالُ: صَمِمتُ وأنتَ تصَمُّ صَمَمًا، وربَّما قالوا: صُمَّ؛ بمعنَى: صَمَّ، والصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّةِ السَّمع، وبه يوصَف مَن لا يُصغي إلى الحقِّ ولا يَقبلُه، قال تعالى: ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣﴾ [الفرقان: 73](7)، "قال اللّيث: الصّمم في الأُذُن: ذهاب سَمعِها، وفي القناة: اكتناز جوفها، وفي الحَجَر: صلابته، وفي الأمر: شِدَّته، ويُقال: أذنٌ صمّاء، وحَجَرٌ أصمّ، وفتنةٌ

(1) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (عمي).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 168، والنَّحّاس، معاني القرآن: 4/ 197، وابن الجوزي، زاد المَسير: 5/ 90.

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (بكم).

(4) أبو بكر الأنباريّ، الزاهر: 1/ 277.

(5) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (بكم).

(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 168، والنَّحّاس، معاني القرآن: 4/ 197، والماوَرْدي، النُّكت والعيون: 3/ 275.

(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (صمم).

صمّاءُ"[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَصُمًّا﴾ مُحتمِلٌ لفُقدانِ السَّمع، أو لعدمِ سماعِ ما يسرُّهم[2].

8) ﴿خَبَتْ﴾: خَبَتِ النّارُ تخبو خَبْوًا وخُبوًّا: سَكَنَ لَهَبُها وطُفِئت، وصارَ عليها خِباءٌ من رَمادٍ؛ أيْ: غِشاء، وأصلُ الخِباءِ الغِطاءُ الَّذي يُتغطَّى به[3]، وقالَ الكُمَيت: مُؤَجِّجُ نيرانِ المكارمِ لا المُخْبي[4]، وقولُه تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾؛ أيْ: سَكَنَتْ[5]، أو لانَتْ وضَعُفتْ[6].

9) ﴿سَعِيرًا﴾: (سعر) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على اشْتعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارْتفاعِه، من ذلك السَّعيرُ: سَعيرُ النّار، واسْتعارُها: توقُّدها[7]، قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ١٣﴾ [الفتح: 13]، وزِدْناهم نارًا تَتَسعَّر؛ أيْ: تتلهَّب[8]، وسعّر النّار والحرب يُسعّرهما سَعْرًا، وأَسْعَرَهما وسَعّرهما: أوقدهما وهيّجهما، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ٥٥﴾ [النّساء: 55]، قال الأخفش: هو مثل دَهين وصَريع، لأنّك تقول: سُعّرت، فهي مسعورة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ [الملك: 11]؛ أيْ: بُعدًا لأصحاب النّار[9]، وقولُه تعالى: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾؛ أيْ: سُعِّرَ العذابُ عليهم وتوقَّدَ بأشدَّ ممّا كان[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى مُخبِرًا عن تصرُّفِه في خلقِه ونُفوذِ حُكْمِه، وأنَّه لا

مَـن أرادَ اللـهُ هدايتَه اهتدى، ومَن أرادَ إِضْلالَه فالنّار مثواه، ولا ناصرَ له

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صمّ).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 168، والنَّحّاس، معاني القرآن: 4/ 197، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 5/ 90.
(3) الرَّاغب، المُفردات: (خبو)، وابن منظور، لسان العرب: (خبا).
(4) عَجُز بيتٍ، وصدرُه: "ومنَّا ضرارٌ وابْنَماه وحاجبٌ"، يُنظر: أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/ 391، وابن الأنباريّ، الأضداد، وورد بلا نسبة في: ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: 3/ 1308، وأَخْبيتُ النَّارَ: أضمدتُها، والمُخْبي: الَّذي يُطفئُ النَّار، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (خبا).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 168 عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد.
(6) عبد الرَّزَّاق، تفسير القرآن العظيم: 1/ 390، عن قتادة.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، (سعر).
(8) ابن قتيبة، الغريب: 1/ 262.
(9) ابن منظور، لسان العرب: (سعر).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 168، وابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 176.

مُعقِّبَ له؛ بأنَّه مَنْ يُرِدِ اللّهُ هدايتَه، فهو المهتدي إلى الحقِّ أو إلى كلِّ مطلوب، ومَنْ يُرِدْ إضلالَه، فلن يكونَ لهم أولياءُ ينصرونَهم من دونِ اللّه، ويَهدونَهم إلى الحقِّ الَّذي أضلَّهمُ اللّهُ عنه، أو إلى طريقِ النَّجاة، وهؤلاء الَّذين يحشرُهمُ اللّهُ يومَ القيامةِ على وجوهِهم، لا يُبصِرون، ولا يَنْطِقون، ولا يَسمعون، جزاءً لهم كما كانوا في الدُّنيا بُكمًا وعُميًا وصُمًّا عن الحقّ، فجوزوا في مَحْشرِهم بذلك، وهم أَحْوجُ ما يحتاجون إليه، ومصيرُهم جهنَّم، كلَّما سكَنَتْ زادَها اللّهُ بأمرِه وقُدرتِه لهيبًا وجَمرًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواوِ) في الآية بين العطف والاستئناف:

تــــلاؤم الآيــــة مع السّياقات السّابقة لتأكيد هــدايــة الـلـه السّامقة

تحتمل الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ أن تكون اسْتئنافيَّةً في كلامٍ مُبتَدأ، يفصِلُ ما أشارَ إليه الكلامُ السّابقُ من مجازاةِ العبادِ إشارةً إجماليَّة؛ أيْ: مَنْ يَهْدِه اللّهُ إلى الحقِّ، فهو المهتَد[2]، وتحتملُ أن تكونَ عاطفة، وذلك على وجهيْن؛ **الأوَّل:** أن تكون عَطفَتْ جُملتَها على جملة: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [الإسراء: 94]، جمعًا بين المانعِ الظّاهرِ من الهُدَى من تكذيب المشركين أن يكون اللّه تعالى قد بعث بشرًا رسولًا، وبينَ المانعِ الحقيقيّ، في كون الأمور كلّها بيد اللّه تعالى.

والآخر: أن تكونَ الجملةُ معطوفةً على جملة: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الإسراء: 96] ارْتقاءً في التَّسلية؛ أيْ: لا يَحْزُنْك عدمُ اهْتدائهم، فإنَّ اللّهَ حَرَمَهُمُ الاهْتداءَ لَمّا أخذوا بأسباب العنادِ قبلَ التَّدبُّرِ في حقيقةِ الرِّسالة[3].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 62، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 361.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/ 484.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 214 - 215.

المتشابهُ اللّفظيُّ بين آية الإسراء (94) وآيتي الأعراف (178) والكهف (17):

دلالةُ المتشابهاتِ اللّفظيّةِ من الفَصْل والوصْل في هذه الآيات السّنيّة

في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾، جاءتِ الواوُ في صَدْرِ الآيةِ عاطفةً لجملتِها على ما تقدَّمَها في جملة: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [الإسراء: 94]، كما سبق في بيان معنى الواو، وأمّا في قولِه تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾ [الأعراف: 178] وفي قوله تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ [الكهف: 17]؛ فليس هنا عطفٌ على ما تقدَّمَ؛ فلم يَقُلْ: (ومَنْ) لاسْتِئنافِ هذه الجملةِ في معنًى جديدٍ في كلا السّورتَيْن: الأعرافِ والكهف، ولم يَذكُرْ في سياقِهما مصيرَ أولئكَ الَّذين كتبَ اللهُ عليهم الضَّلالةَ وعَدَمَ الهداية[1]، وكذلكَ فإنَّ آيةَ الإسراءِ جاءتْ بزيادةِ الواوِ في صَدْرِها لتُناسبَ تفصيلَ ما جاءَ في سياقها، فإنَّ زيادةَ المَبْنَى تدلُّ على زيادةِ المعنى، وفي كلٍّ من آياتِ: الإسراءِ والأعرافِ والكهف قدَّمَ الهدايةَ على الضَّلالة؛ فالأولى خيرٌ لصاحبِها، والثّانيةُ سوءٌ عليه، فقدَّمَ النَّفعَ على الضُّرّ[2]، فلكلٍّ من الألفاظِ - قلَّتْ أو كَثُرَتْ ذِكْرًا أوْ حذفًا بما يُلائمُ السّياقاتِ الَّتي وردتْ فيها - ما يُعبِّرُ عن دقَّةِ البيانِ القرآنيِّ وعُلوِّ بلاغته.

نكتةُ استعمال ﴿وَمَن﴾ الشَّرطية في السّياق:

هـدايـة الـلـه الصّمد لا يُحرم منها أحد

جاء استعمال ﴿وَمَن﴾ الشّرطية في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾ بديعًا لوقوعه على العاقل، ولتضمُّنه معنى العموم، ففيه دعوةٌ ترغيبيَّة للعبادِ في أن يدخلوا جميعًا في دين اللّه تعالى، فليس بأحدٍ ممنوعٌ أو محرومٌ ابتداءً، فالآيةُ تحمل قيمةً هدائيَّةً وعَقَديّةً في أنَّ اللّه تعالى عدْلٌ في هداية النّاس وإضلالهم؛ لأنّه تعالى"المنفرد بالهداية والإضلال؛ فمَن يَهده فييسّره لليُسرى ويُجنّبه العُسرى؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 215.

(2) الكِرمانيّ، البرهان، ص: 130.

فهو المهتدي على الحقيقة، ومَن يُضلله فيخذله، ويَكِله إلى نفسه؛ فلا هادي له من دون اللّه، وليس له وليّ ينصُرُه من عذاب اللّه"[1].

دلالةُ صيغة المضارع المجزوم ﴿يَهۡدِ﴾:

الهدايةُ مُتجدّدةٌ للنّاس اختيارًا، ولـلـمُـهـتـديـن تثبيتًا وإقرارًا

استُعملت مُفرَدة الهدى في هذا السّياق توطئةً لمقابلة الضّلالة، والهُدى هو عنوان باب الصِّراط المستقيم، فمَن استمسك ببداية طرق الهداية فقد أفلح، ومَن ضلَّ عنها فقد أبعد، والهُدى شاملٌ للإرشاد، وهو طريق الإيمان والإسلام، وجيء بهذه المُفرَدة بصيغة الفعل المضارعِ ﴿يَهۡدِ﴾ ليُفيد التَّجدُّدَ والاستمرارَ في إمدادِ اللّهِ لعبادِه الذين يبحثون عن الهدايةِ وتثبيتِها في قلوبِهم، حتَّى تكونَ الهدايةُ صِبْغَتَهم في جميعِ أحوالِهم، لا ينفكّون عنها ولا تغادرُهم، ونكتة المضارع في كون هداية اللّه تعالى مُتجدِّدةً لجميع العبادِ الضّالين لهدايتهم ابتداءً، ومُتجدّدةً لجميع المُهتدين تثبيتًا.

نكتةُ استعمالِ المُسنَدِ إليه بصيغة لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

هـدايـةِ الـلـهِ العظيم تقتضي الاهـتـداءَ لصاحب الهداية والتّعظيم

آثرتِ الآية ذِكرَ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ بغرض تشريف شأن الهداية، فإنَّ الهداية الصّادرة عنه ﷻ هي الهداية الكاملة المَرجوَّة لَمن يرجو النّجاة والسَّداد، ولتعظيم قَدْرِ هداية اللّهِ لعبادِه، وتفخيم شأنِ مَنْ أَدْرَكَتْه هدايةُ اللّه، فكانَ مَحَلًّا وأهلًا، لإرادةِ اللّهِ له بتلكَ الهداية، وتوفيقِه إليها وإيصالِه لحقيقتِها.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾:

هـدايـةُ الـلـه تعالى النّضرة معذوقةٌ بأصل القرآن والسُّنّة العطرة

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ بفعلِه وأداته، بما يُفيدُ تحقُّقَ الهدايةِ، فيمَن أرادَ اللّهُ له الهدايةَ وعدمَ تخلُّفِها عنه؛ أيْ: إن أراد اللّه هداية أحدٍ فهو المهتدي على الحقيقة، وما دونه لا يوصف إلّا بالضّلال، وهداية اللّه تعالى تكون بشَرْعه الّذي أنزله على رسوله محمّدٍ ﷺ، وما سوى ذلك فضلالٌ مبين،

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 467.

لا يقبل اللّه لصاحبه صَرْفًا ولا عدلًا، فكلّ انتسابٍ دينيٍّ لا يكون للقرآن والسُّنّة فهو ضلالٌ، ومعنى ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ﴾: "أيْ: مَن اهتدى بنور الحقّ، وسار في طريقه، فهو المُهتدي حقًّا وصدقًا، وهو البالغ الكمال في الهداية، والآخذ بالرّشاد، والسّالك طريق النّجاة"[1]، وعليه فقد التأم السّياق باتّساق عناصر الجملة الشّرطيّة، لتأكيد هذا المعنى القَدَريّ الرّاسي، في كون الهداية الّتي يُقرُّها اللّه بأمره العظيم وتدبيره الحكيم هي الحاصلة فعلًا في انسلاك المُهتدي بها في طريق اللّه المستقيم.

بلاغةُ القَصْرِ في الجملة الاسميّة:

قصرُ الهدايةِ على اللهِ دون سواه، هو لبّ الاعتقاد الصّحيح وفحواه

جاءَتِ الجملة الاسميّة في قولِه تعالى: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ﴾ في جوابِ الشَّرطِ، لإفادةِ قَصْرِ الهدايةِ على الَّذي هداهُ اللّهُ قصْرًا إضافيًّا؛ أيْ: دونَ مَنْ تُريدُ أنت هُداه وأَضلَّهُ اللّه، والهُدَى هنا هدًى واحدٌ، وهو الهُدَى إلى الإيمان، وهذا قائمٌ محصورٌ بمَنْ هداه اللّهُ فَحسْب[2].

دلالة التّعريف بـ(ال) في لفظ ﴿ٱلْمُهْتَدِۖ﴾:

أصلُ الهدايةِ من اللهِ، وتحقُّقُها يكون منه لا من سواه

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْمُهْتَدِۖ﴾ للتّعريف، وهو تعريفُ العَهْدِ الذِّهنيّ، فالمُعرَّفُ مُساوٍ للنَّكِرة، من حيث المعنى المُجرَّد لا من حيث سرُّ التَّعبير، فكأنَّه قيل: (فهو مُهْتَدٍ)، ويجوزُ أن يكونَ التَّعريفُ تعريفَ الجِنْس، وفي كلا المعنَيَيْنِ دَلالةٌ على أنَّ أصلَ الهدايةِ وكمالَها مُتوقِّف على اسْتمدادِها من اللّهِ تعالى[3].

فائدةُ الإخبارِ باسم الفاعل ﴿ٱلْمُهْتَدِۖ﴾:

التّوطئةُ إلى ذِكرِ ما يُقابلُه من الإضلال

الإخبار باسم الفاعلِ ﴿ٱلْمُهْتَدِۖ﴾، عمَّن هداه اللّه تعالى بأنَّه مُهْتدٍ أفاد التَّوطئة إلى ذِكْرِ مُقابِله، وهو ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾،

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 461.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 215.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 215.

كما يُقالُ: مَنْ عَرَفَني فقد عَرَفني؛ ومَنْ لم يعرفْني فأنا فُلان[1]، ومجيئُه بصيغة اسم الفاعل لبيان أنَّ الهداية أصبحت سلوكًا له باختيارِه، وأنَّه سيجازيه على أعمالِه الّتي تُسند إليه عن قوَّة اختيارٍ وإرادة، علمًا بأنّ "علمه تعالى في مثل هذا الموضع مُستعمَلٌ بمعنى المُجازاة؛ أيْ: مَن يهد اللّهُ تعالى إلى الحقّ؛ فَهو المُهْتَدِ إليه، وإلى ما يؤدّي إليه من الثّواب، أو المهتدي إلى كلّ مطلوب"[2].

معنى الواو في جملة: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾:

بنور الهدايةِ تنقشعُ ظُلمة الضَّلالة

الواوُ في قولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ عطفتْ فعلَ الإضلالِ على فعلِ الهداية، فكلاهما بإرادةِ اللّهِ تعالى، والثّانيةُ ضدُّ الأولى، وفي هذه الضِّدّيَّةِ يتبيَّنُ قَدْرُ الهداية، وتميُّزُها عن الضَّلالة، فهي من عطف الجملة الشّرطيّة على الشّرطيّة، لبيان التَّقابل بين الأضداد.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يُضۡلِلۡ﴾:

مَنْ حقَّتْ عليه الضَّلالةُ بلا خلاصٍ، فلا يكونُ له منها مَناص

دلَّتْ صيغةُ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿يُضۡلِلۡ﴾ على أنَّ مَن شاءَ اللّهُ إضلالَه ستستمرُّ تلكَ الضَّلالةُ ملازِمةً له لا تنفكُّ عنه، فهو الضّالُّ لا هاديَ له[3]، "ومَنْ يُضْلِل يخلق فيه الضّلال لسوء اختياره وقبح استعداده كهؤلاء المعاندين ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾؛ أيْ: أنصارًا مِنْ دونِه ﷻ، يهدونهم إلى طريق الحقّ، أو إلى طريق يوصِلهم إلى مطالبهم الدّنيويّة والأخرويّة، أو إلى طريق النّجاة من العذاب الّذي يستدعيه ضلالهم"[4]، وفيها تحذيرٌ شديد لِمَنْ ضلَّ، ووعيدٌ أكيدٌ من ملازمة الضَّلال لصاحبه.

معنى حرف (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ﴾:

الفاءُ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ وجزائه، في قولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 215.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 165.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 11/ 516.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 165.

﴿لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾، بفِعْلِه وأداتِه ربطًا يُفيدُ التَّحقُّق واللُّزوم، فهي قاعدةٌ لا تتخلَّفُ: أنَّ مَن أرادَ اللّهُ إضلالَه، فلن يكونَ له ناصرٌ ولا مُؤازِرٌ، وهذا لا يكون إلّا بسبب اختيار العبد؛ فإنَّ إضلالَ اللّه تعالى لا يكون إلّا بما يختاره العبد من ارتكاب أسباب الضَّلالةِ، فيترك أسباب الهداية، والالتجاء إلى اللّه تعالى، فحينها يتركه اللّه تعالى لنفسِه، ويُضلُّه الضَّلالَ البعيدَ.

مَن تَرَكَهُ اللهُ عَدِمَ الشُّفعاءَ والأنصار، ومَن حماه فلا يضرّه عدوان ولا ثار

بلاغةُ النَّفي بأداة (لَنْ) في السّياق:

آثر النَّظم الكريم النَّفيَ بأداة ﴿فَلَن﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾ لدلالتها على التَّوكيد، وهي مُتلائمةٌ مع الاستغراق في الجملة، لنفي وجدان الأولياء، مع ذِكْر قيد ﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾، المُتضمِّن لاستغراق كلِّ مَن هم دون اللّه تعالى دون استثناء، فاستعمالها أبلغُ وآكَدُ في هذا السّياق من رديفاتها من أدوات النّفي.

اصطفاءُ الأداةِ الأليق بالسّوابق واللّواحق مُفيدٌ في البيان

بلاغة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾ انتقل التّعبير من الإخبار عن المهتدي بالغيبة، إلى الإخبار عن الضّالِّ بالخطاب، ونكتة ذلك التَّنبيهُ على معنًى آخر، وهو فقدان الأمل من أسباب الولاية الظّاهرة، بالإضافة إلى كونه الضّالَّ، وهذا من ذِكْر الدّليل على الدَّعوى، ردًّا على مَن يزعم أنَّ له أولياء من دون اللّه تعالى؛ وعليه فإنّ مَنْ يُضْلِلِ اللّه، فلن تَجِدَ من دون اللّه أولياء يوالونهم ويُظاهرون عليهم، ويُنقذونهم من بأس اللّه وبطشه، بعد ما أخذتهم العزّة بإثمهم[1].

قَرْنُ الدَّعوى بدليلِها أبلغُ في الإقرار بمضمونها ابتداءً

---

(1) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/ 466.

تعيينُ المخاطَب في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ﴾:

الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾ يحتمل أن يكون للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ هذا الكلامَ مَسوقٌ لتَسْليتِه على عدم اسْتجابتِهم له[1]، ويحتملُ أن يكونَ الخطابُ موجَّهًا لكلِّ مَنْ يَصْلُحُ له، وهو الأَوْلى بالقبول، ويدخل رسول اللّه ﷺ دخولًا أوَّليًّا، وعند الماورديّ "فيه وجهان: أحدهما: ومَن يحكم بضلاله؛ فلن تجد له أولياء من دونه في هدايته، الثّاني: ومَن يقضِ اللّهُ تعالى بعقوبته، لم يوجَد له ناصرٌ يمنعه من عقابه"[2].

الخطابُ عامٌّ يدخل فيه رسولُ الله ﷺ دخولًا أوّليًّا

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿تَجِدَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾ جاءَ الفعلُ ﴿تَجِدَ﴾ بصيغةِ المضارعِ، ليتناغمَ مع التَّأبيدِ في قولِه: ﴿فَلَن﴾ مع تأكيدِ استمرارِ تعذُّرِ وجودِ مَن يَهْدي مَن أضلَّهُ اللّهُ تعالى[3]، ولإفادة تجدّد النّفي الدّالّ على استحالة وجود أولياء من دون اللّه تعالى، وهذا أدعى في اليأس، وأشدُّ في فقد الأمل النّفسيّ، ولذلك فإنّ معنى قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾؛ أيَ: أنصارًا في هذه الدّنيا يَهدونهم؛ بل إنّهم لا ينفعونهم بشيء أراد اللّه غيره، ولذلك نُفوا أصلًا ورأسًا، لأنّهم إذا انتفى نفعُهُم؛ كانوا كالعدم[4].

اليأسُ عنوان الضّالّين في البحث عن النّاصرين المتوهّمين

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على المفعول:

قُدّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على المفعول ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ للاختصاص، على طريق المبالغة، كأنَّه قال: (لن يكون لهم هؤلاء على وجه الخصوص أولياء)، والنّفي شاملٌ لهم ولغيرِهم، ونكتةُ ذلك زيادة اليأس في نفوسِهم أن يكون لهم أولياء من دون اللّه تعالى؛ فإنَّ

زيادةُ اليأس في النّفوس من أسباب الارتداع

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 411، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 216.
(2) الماوَرْديّ، النّكت والعيون: 3/ 274.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/ 484.
(4) البقاعيّ: نظم الدّرر: 1/ 516.

النَّفس إن علمت ذهاب أسباب النَّجاة والولاية والنُّصرة لها على وجه الخصوص؛ فإنَّ ذلك سيردَعُها عن غيِّها، وسيقودُها إلى رشدها، فإن أصرَّتْ فذلك هو الضَّلال المبين.

سرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾:

نفيُ الوليّ عن الأفراد والجماعات سواء

لَمّا كانَ الضّالّون لن يجدوا من دونِ اللّهِ أنْصارًا يهدونَهم إلى طريقِ الحقّ، أو إلى طريقٍ يوصّلُهم إلى مطالبِهم الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّة، أو يدلّونهم على طريقِ النَّجاةِ من العذابِ الَّذي يستدعيه ضلالُهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾ على معنَى: لن تجدَ لأحدٍ منهم وليًّا على ما تَقْتضيه قضيَّةُ مقابلةِ الجمعِ بالجمعِ، من انْقسامِ الآحادِ إلى الآحاد؛ أيْ: لن تجدَ لكلِّ واحدٍ وليًّا، ولا لجماعتِه وليًّا[1]، "ووجهُ الملاءمة في ذلك: "أنّه لمّا كان الهَدْيُ شيئًا واحدًا، غيرَ متشعّبِ السّبلِ؛ ناسَبَه التّوحيدُ، ولمّا كان الضّلالُ له طرقٌ نحو: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]، ناسب الجمعُ الجمعَ، وهذا الحَملُ الثّاني مِمّا حُمِل فيه على المعنى وإن لم يتقدَّمه حَملٌ على اللّفظ"[2].

بلاغة ذِكْرِ القيد ﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾:

كلُّ وليٍّ من دون الله ففي الدّون حسبانه

جاء ذكر القيد ﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾ وهو حالٌ لـ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾؛ لبيان أنَّ الأولياء المَنْفيّ وجودهم مُطلقًا هم كلُّ وليٍّ كائنٍ من دون اللّه تعالى، والتَّعبير بـ﴿دُونِهِۦۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾؛ فلم يَقُلْ: (فَلَنْ تَجِدَ لَهُم أَوْلياءَ غَيْرَهُ)؛ لبيان أنّهم في الدّون - إنْ وجدوا -.

بلاغةُ الكنايةِ ودلالتها الاستغراقيَّة:

نفيُ الوجدانِ يلزم عنه نفيُ الوجود

في قولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾، نفيُ وُجدانِ الأولياء، وهو كنايةٌ عن نَفْي وجودِ الأولياءِ لهم؛ لأنَّهم لو كانوا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/ 484، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 216.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 414.

موجودينَ لوجَدَهم هو وعَرَفهم، وهو إقرارٌ بالدَّليل الحِسّيِّ على عدمِ رؤيةِ أولئك الأولياءِ المَزعومين[1]، وهذا التَّعبير أشمل في استغراق كلِّ مَن يُظنُّ أنَّه داخلٌ في الولاية، كأنَّه قال: (ابحث عن الأولياء المزعومين؛ فلن تجد لهم أولياء من دونه).

بلاغةُ الاحْتباكِ في السّياق الحكيم:

اختزالُ المعاني والاقتصادُ في المباني من فصيحِ البيان القرآني

جاءَ نفيُ الأولياء للضّالينَ الّذين يزعمون أنَّهم يهدونَهم من دونِ اللّه، أو ينفعونَهم بشيءٍ أرادَ اللّهُ غيرَه، ولذلك نُفوا أصلًا ورأسًا؛ لأنَّهم إذا انْتفَى نفعُهم كانوا كالعدَم، وإذا انْتفَى عن الجمعِ؛ انْتفَى عن المُفردِ من بابِ الأَوْلى؛ فالآيةُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾ حفلتْ بالاحْتباك، حيث إنَّ خبرَ الأوَّلِ يدلُّ على حَذْفِ ضدِّه ثانيًا، ونتيجةَ الثّاني تدُلُّ على حذفِ ضدِّها من الأوَّل[2]، والتّقدير: (ومَن يهد اللّه فهو المهتد وستجد اللّه لهم وليًّا، ومَن يُضلل فهو الضّالّ، ولن تجد لهم أولياء).

نكتةُ اختلاف التَّعبير بالإفرادِ والجمعِ في التّقابل:

وحدةُ سالكي طريقِ الهداية وكَثرةُ سالكي طُرُقِ الضَّلالة

في جانبِ الهدايةِ جاءَ إفرادُ الضَّمير ﴿فَهُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾، وفي جانبِ الإضلالِ جاءَ جمعُ الضَّمير ﴿لَهُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾، ففي الإفرادِ أشارَ إلى قلَّةِ المهتدي على طريقةِ الإحسان، فقالَ تعالى: ﴿فَهُوَ﴾؛ أيّ: لا غيره ﴿ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾، ولا يمكنُ لأحدٍ غيره أن يُضلَّه، وفي الجمعِ أشارَ إلى كَثْرةِ الضّالّين، فمَن يُضلُّه اللّهُ فهو الضّالُّ لا هاديَ له، ولذلك لن يكونَ للضّالّينَ أنصارٌ في هذه الدُّنيا من دونِ اللّه يَهدونَهم، ولا ينفعونَهم بشيءٍ أرادَ اللّهُ غيرَه[3]، ففي الإفرادِ حملٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 216.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 516.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 516.

على اللَّفظ، وتلويحٌ بوحدةِ طريقِ الحقِّ وقلَّةِ سالكيه، وفي الثّانية مراعاةٌ للمعنى وإيماءٌ بتعدُّدِ سُبُلِ الضَّلالِ وكَثرَةِ الضّالّين[1].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ﴾:

استئنافُ المعاني لبيانِ تبايُنِ الأحوالِ من فصيح البيان

الواو في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ﴾ للاستئنافِ، وقد بدأت بذِكْر معنًى جديد، وهو ما يكون يوم القيامة من الحشر، فبعد أن ذكرتِ الآية نفي الولاية عن كلِّ ما يُتوقَّع منه ذلك ممّا يزعمه الزّاعمون، جاء ذِكْر الدّليل الّذي يُصوِّر مشهد الحشر، وبيان حال الضّالين الّذين اتّخذوا من دون الله أولياء.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ مع نون العَظَمَة ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ﴾:

تصويرُ مشهدِ حَشْرِ الضّالّين بما فيه من هَوْلٍ وهَوانٍ

دلَّتْ صيغةُ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ﴾ على تصوير ذلك المشهد المَهول يوم القيامة، وأنَّ الحَشْر سيكون شيئًا فشيئًا حتى يكتمل في صورةٍ لم تعرفها البشريَّة، ولم تشهدها قبل ذلك اليوم، ولَمَّا كانَ يومُ الفَصْلِ يومًا يَظْهرُ فيه لكلِّ أحدٍ في كلِّ حالةٍ من عظمتِه تعالى ما يَضمحِلُّ معه كلُّ عَظَمة؛ جاءَ التَّعبيرُ بنونِ العَظمة في ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ﴾؛ أيْ: نجمعُهم بِكُرْهٍ[2].

نكتةُ الالتفاتِ من الغَيبةِ إلى التَّكلُّم:

بعد بيان الهُدى والضَّلال حَسُن التَّنبيهُ على أمرِ الحشر

التفت النَّظم من الخطابِ بالغَيبةِ فيما سبقَ إلى الخطابِ بالتَّكلُّمِ في ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ﴾، إيذانًا بكمالِ الاعْتناءِ بأمرِ الحَشرِ، في ذلك اليومِ العَصيب[3]، وكأنَّ الالتفاتَ يُشير إلى بدايةٍ جديدةٍ، من إنشاءِ المعنى، وهو الإخبار عن مستقبل النّاس بعد بَعثِهم وجمعهم، وهو أدلُّ على الهيبةِ والوعيد الشّديد لما يجب أن ينتبهوا إليه الانتباهة الكبرى بعد بيان أمر الهُدى والضَّلال.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 115، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/ 484.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 516.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/ 484.

دلالةُ تقديمِ الظَّرف على بقيَّة القيود:

تشويق المخاطَب بتهويل ذِكر القيامة

قُدِّم الظَّرف ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على بقيَّة القيود ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾؛ فلم يَقُلْ: (ونحشرُهم على وجوهِهم يومَ القيامةِ)؛ لِما في ذلك من تهويل الحَدَث، فإنَّ حشرَهم سيكون في ذلك الزّمان المهول، ففيه إشعارٌ بالاختصاصِ، وهذا هو الواقع، إذْ لا يُحشر النّاس الضّالون على وجوههم إلّا في القيامة، وفيه من التَّشويق لمعرفة ما بعد ذِكر زمن القيامة، لأنّه يوم الفصل، وفيه تتحدّد المصائر، وتظهر الحقائق، وينتهي النّاس إلى العدل المُطلق، الّذي لا يُغبَنُ فيه أحدٌ، وعلى قدر عظمة الظّرف تكون قيمة المظروف، وفي ذلك إشارة إلى تنبيه النّاس إلى يوم القيامة؛ لأنّ الغفلة عنه هي الّتي أودَتْ بالمشركين؛ فاتّخذوا من دون اللّه أولياء، ولم يخشوا مَغَبّة المصيرِ في ذلك اليوم الخطير.

نكتةُ اخْتيارِ عنوان القيامة:

تلاؤم القيامة ابتداءً مع الحشر الأعظم انتهاءً

آثَرَ النَّظم الكريم الإتيانَ بعنوان القيامة في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ وهو الاسم العَلَم الأشهر على يوم الحشر والجزاء؛ لأنَّ كلمةَ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فيها إشارةٌ إلى قيام النّاسِ من قبورهم، قالَ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطفِّفين: 6]، والقيامةُ أصلُها ما يكونُ من الإنسانِ من القيام المرَّةَ الواحدة؛ أيْ: دُفعةً واحدة أُدخِلَت فيها الهاءُ تنبيهًا على وقوعِها دُفعةً واحدة، كما قالَ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ [الزُّمر: 68][1]، فكان في ذِكْرها تلاؤمٌ مع معنى الحشر؛ فهم يقومون ابتداءً ليُحشروا للحساب والجزاء.

بلاغةُ تضمينِ فعل الحَشرِ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

لَمَّا كان الحَشْرُ يَستَدْعي مَشيَهم؛ فقد عُدّيَ بحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (قوم).

التَّفسير النَّبويُّ المبينُ رافدٌ من روافد البلاغة مَكينٌ

لتضمينِه معنَى (يَمشون)(1)، وقد فهمَ الصَّحابةُ ﷺ ذلكَ من الآية، فسألَ أحدُهمُ النَّبيَّ ﷺ: قال: يا رسول الله، كيف يُحشَرُ النَّاسُ على وُجوهِهم؟ قالَ ﷺ: "الَّذي أمشاهم على أَرْجُلِهم قادرٌ أن يُمشيَهم على وُجوهِهم"(2)، "فإذا حُشروا يوم القيامة؛ سُحبوا على وجوههم إلى جهنّم، وجُرّوا إليها جرًّا، كما يقول ﷻ: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾ [القمر: 48]، وفي سَحْبهم على وجوههم إذلالٌ لهم، وامتهانٌ لإنسانيّتهم، وقد كانت هذه الوجوه تلبس ألوانًا من الكِبْر والصّعر والتّعالي على العباد"(3).

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ على الأحوال:

زيادةُ تشنيعِ حالِ أهلِ الضَّلالةِ في الآخرة

لَمّا كانَ المقامُ مقامَ إذلالٍ للضّالّينَ عنِ الإيمانِ باللّهِ تعالى، قدَّم النَّظم الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ على قولِه تعالى: ﴿عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾ زيادةً في تشنيعِ حالِهم، حيث لم ينتفعوا في الدُّنيا بأبصارِهم ولا نُطقِهم ولا أسْماعِهم؛ بل كانوا يستعملونَها ويوجِّهونَها بما فيه بعدٌ عن الحقّ وإيغالٌ في الضَّلال، فلم يكنْ لهم في الآخرةِ شيءٌ إلّا حصلَ أوَّلُه ومَبْدؤه في الدُّنيا وتمامُه في الآخرة(4).

سرُّ تخصيص الوجوهِ بالذِّكر:

مَن لم يُذلَّ لله في الدُّنيا طوعًا؛ خضع لإرادته في الآخرة جَبْرًا

في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾، عبَّر بلفظِ الحشرِ على الوجوهِ، دونَ غيرِها من أعضاءِ الإنسانِ، جزاءً مناسبًا للجُرْم الَّذي فعلوه في الدُّنيا، إهانةً وإذلالًا لهم فيها، كما لم يُذِلّوها بالسُّجودِ لخالقِهم ﷻ، ولأنَّهم روَّجوا الضَّلالةَ في صورةِ الحقّ، ووسَموا الحقَّ بسِماتِ الضَّلال، فكان جزاؤهم أنْ حوِّلتْ وجوهُهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 217.

(2) البخاري، الصَّحيح، الحديث رقم: (4760)، ومسلم، الصَّحيح، الحديث رقم: (2806).

(3) الخطيب، التّفسير القرآني: 8/ 554.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 411، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 516 - 517.

أعضاءَ مَشيٍ عِوضًا عن الأَرْجُل[1]، والمقصود من ذلك الجمعُ بين التّشويه والتّعذيب؛ لأنّ الوجه أرقّ تحمّلًا لصلابة الأرض من الرِّجل[2]، ولا ريب أنّ هذا التّهديد بشنيع العذاب وأقساه لفتٌ إلى قدرة اللّه، وتحذيرٌ لَمَن يكون هذا مصيره ومُنتهاه ممّن لا يرعوي عن غيّه، ولا يعود إلى رُشْدِه باعتبار أنّ ذلك أخزى العذاب وآلَمُهُ، ومَن ساءت في الحشر بدايته، ساءت نهايته.

الحَشْرُ على الوجوهِ بين الحقيقةِ والمجاز:

تُحمَلُ أخبارُ الغيبِ على حقيقتِها باعتبار أنّ الله تعالى لا يُعجزه شيءٌ

الظّاهرُ من النَّصِّ القرآنيِّ أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ محمولٌ على الحقيقة، ويُؤيِّد ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: 34]، وقولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ [القمر: 48]، والأصل أن تُحمل أخبار الغيبِ على الحقيقةِ؛ لأنَّها إخبارٌ عن أحوالٍ غيبيَّة لا نعلم عن حقيقتها إلّا ما جاء به الخبرُ، والأصل أن يُحمل الخَبَرُ على ظاهره إلّا أن يأتي دليلٌ غيبيٌّ آخر، يدلّ على خلاف الظّاهر، وقد حملها بعضُ المُفسِّرين على المجاز، فيُقال للمُنْصَرِفِ عن أمرٍ خائبًا مَهْمومًا: انْصرَفَ على وجْهِه، ويُقالُ للبعير: كأنَّما يمشي على وجْهِه، أو هو مجازٌ عن سَحْبِهم على وجوهِهم على سُرْعة، من قولِ العرب: قَدِمَ القومُ على وُجوهِهم؛ إذا أسرَعوا[3]، ولا يظهر هذا المعنى في سياق الآخرة، لا أسلوبًا ولا دلالةً، فما نُقل عن العرب مُسندٌ إلى الفاعل، وهو الانصراف والإسراع، وأمّا الحشرُ على الوجوه، فيُستعمل في كلام العرب على الحقيقة بإرادة الإهانة، فيُقال: سحبتُهُ على وجهه؛ أيْ: جررتُه على وجهه مُهينًا له.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 516، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 217.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 217.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 115.

نكتةُ ترتيب الأحوال ﴿عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾:

التّرتيب على طريقِ التّدلّي من الأهمّ إلى ما دونه

لَمّا كان المقامُ للانْتقالِ من مقام إلى آخر، قدَّمَ البَصَر؛ لأنّه العمدةُ في ذلك، وثنّى بالنُّطق؛ لأنَّه يمكنُ لأعمى أن يسترشد بالسُّؤال، وختمَ بالسَّمع؛ لأنَّه يمكنُ معه وحدَه نوعُ رشاد، وعطفَ كلَّ واحدةٍ على أُخْتِها بالواو، فإنْ كانَ هذا العطفُ لتشريكِ الكلِّ في كلٍّ من الأوصافِ فللتَّهويل؛ لأنَّ المُتكلِّمَ إذا نطقَ بالعاطفِ ظنَّ السّامعُ الانْتقالَ إلى شيءٍ آخر، فإذا أتى بالوصفِ كان أروعَ للعلمِ بأنَّ صاحبَه عريقٌ فيه، وإن كانَ هذا العطفُ بالواوِ للتَّنويع، فلتصويرِهم بأقبحِ صورةٍ من حيث إنَّه لا ينتفعُ فريقٌ منهم بالآخَرِ، كبيرَ نفعٍ[1].

العَمى والبكَمُ والصَّمَمُ بين الحقيقةِ والاسْتعارة:

الأصلُ حملُ كلامِ اللهِ على حقيقتِه في الغيبيّات

صفة العَمى والبَكَم والصَّمم، في قولِه تعالى: ﴿عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾، إمّا أنَّها حقيقة؛ أو هي اسْتعارات؛ والظّاهرُ أنَّها حقيقةٌ، وذلك عند قيامِهم من قبورِهم، ثمَّ يردُّ اللّٰهُ إليهم أبصارَهم وسمعَهم ونُطقَهم، فعندَ ردِّ ذلك إليهم يَرَوْنَ النّارَ ويسمعونَ زَفيرَها ويتكلَّمونَ بكلِّ ما حُكيَ عنهم في ذلك[2]، وكما كانوا في الدُّنيا لا يَستبصرونَ بالحقّ، ويَتصامُّونَ عن اسْتماعِه؛ فهم في الآخرةِ كذلك لا يُبصِرونَ ما يُقرُّ أَعْيُنَهم ولا يسمعونَ ما يلذُّ مسامعَهم، ولا ينطقون بما يُقبَلُ منهم، كما في قولِه ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء: 72]، وقولِه ﷻ: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥﴾ [طه: 124 - 125][3]، قال الشّعراويّ: "ولك أنْ تتصوَّر إنسانًا جُمعت عليه كلّ هذه الوسائل، ليس في يومٍ عاديٍّ؛ بل في يوم البعث والنّشور، فإذا به

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 517.

(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 486، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 115.

(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 467.

يُفاجأ بهَول البعث، وقد سُدَّت عليه جميع منافذ الإدراك، فهو في قلب هذا الهَوْل والضّجيج، ولكنّه حائرٌ لا يدري شيئًا، ولا يدرك ما يحدث من حوله"[1]، وقيل: هي اسْتعاراتٌ؛ إمّا لأنَّهم من الحَيْرَةِ والهمِّ والذُّهولِ، يُشبهونَ أصحابَ هذه الصِّفات، وإمّا من حيث لا يَرَوْنَ ما يسرُّهم ولا يَسمعونَه، ولا يُنصِفونَه بحُجَّة[2].

دلالة المتشابهِ اللَّفظيّ بين آية الإسراء (97) وآياتٍ أخرى من القرآن:

أحوالُ الضّالّينَ ما بين الحقيقةِ والاستعارة

في قولِه تعالى: ﴿عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾، جمعَ اللّهُ لِمَنْ أضلَّهم في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾، بين عَمَى البصرِ، وعدم النُّطق، وعدم السَّمع، مع كونِهم مسحوبين على وجوهِهم، بقولِه تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾[3]، وهذه الآية في الآخرة، بينما في قولِه تعالى: ﴿صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [الأنعام: 39] اختلف التّرتيب، وذلك أنَّه لَمّا تقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿۞إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ [الأنعام: 36] أخبرَ - هنا - أنَّ المُكذِّبينَ بالآياتِ صُمٌّ لا يسمعونَ مَن يُنبِّهُهُم، فلا يستجيبُ أحدٌ منهم، ولّما كانَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 38] مُنبِّهًا على عظيمِ قُدرةِ اللّهِ تعالى ولطيفِ صُنعِه وبديعِ خَلْقِه؛ ذكرَ أنَّ المُكذِّبَ بآياتِه، هو أَصَمُّ عن سماعِ الحقِّ، أَبْكَمُ عنِ النُّطقِ به؛ فجاءَ الإخبارُ عنهم بقولِه: ﴿صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [الأنعام: 39]، فهو اسْتعارةٌ عن عدمِ الانْتفاعِ الذِّهنيِّ بهذه الحواسّ، لا أنَّهم صمٌّ وبُكْمٌ في الظُّلماتِ حقيقة، وجاءَ قولُه: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [الأنعام: 39] كناية عن عمى البَصيرة، فهو يَنْظُرُ كقولِه: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: 18، 171]، فهذه الآية في الدّنيا، ويمكنُ أن يكونَ الإخبارُ عنهم بأنَّهم صمٌّ وبكمٌ في الظُّلُماتِ حقيقةً، وذلك يوم القيامة، يجعلُهمُ اللّهُ تعالى صُمًّا وبُكْمًا في الظُّلمات، يُضِلُّهم بذلكَ عن الجنَّةِ ويُصيِّرُهم إلى النّار،

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 4/ 3760.
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 486، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 115.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 115، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 361.

ويَعضُدُ هذا التَّأويلَ - هنا - قولُه تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾[1].

نكتةُ الاسْتعارةِ التَّهكُّميَّةِ بإضافة المأوى إلى الضَّمير:

جهنَّم قرارُ الضّالّين وسكَنُهم المُخزي المُهين

المأوى هو موضعُ القرارِ والاطْمئنان، والتَّعبيرُ به في قولِه تعالى: ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾، فيه تَهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ جهنَّمَ لا تكونُ موضعَ اسْتقرارٍ واطْمئنان؛ بل تكونُ موضعَ قلَقٍ وآلام، وهذا ما سَيحُلُّ بهم في مأواهم الأخير[2]، ويزيد التَّهكّم إضافة المأوى إليهم، لما تُشعره الإضافة من معنى اللّام، فهو مأوى لهم على وجه الخصوص.

سرُّ اخْتيارِ اسم ﴿جَهَنَّمُۖ﴾ في السّياق المُحكَم:

بيان شِدَّةِ اتِّقادِ جهنَّم وبُعْدِ قعرِها

آثَرَ النَّظم الكريم ذِكْر لفظ ﴿جَهَنَّمُۖ﴾؛ لما فيه من معنَى الاسْتعارِ والاتِّقادِ المُستمرِّ والتَّجهُّم وبُعْدِ قَعرِها[3]، فهي تَسْتعِرُ عليهم وتتجهَّمُهم، كلُّ واحدٍ منهم يُقاسي عذابَها وحدَه وإن كانَ وجهُه إلى وجهِ صاحبِه؛ لأنَّه لا يُدرِكُ سوى العذابِ للخَتْم على مشاعرِه[4]، فناسب ذِكْر ﴿جَهَنَّمُۖ﴾ لما فيه من الإشارة إلى تعذيب تلك الوجوه الضّالة، ولكون جهنّم هي مأوى الطّاغين ومنتَهَى المُفسدين، وأنّها تجمع كلَّ همٍّ مُرهِقٍ، وتحوي كلّ غمٍّ مُقلقٍ، وأنّ داخلها يكون مأواه النّار؛ وبئس القرار.

بلاغةُ الاسْتئنافِ البيانيِّ في السّياق:

هولُ الأحوال يقود الذِّهن إلى افتراض السُّؤال

بعد بيان شديد حال أهل النّار فيها، وأنَّها مأواهم، فلسائلٍ أن يسأل: تلكَ النّارُ الّتي أصبحتْ مقرًّا لهم، هل يُفتَّرُ عنهم عذابُها؟ فجاءَ الجوابُ على طريقة الاستئناف البيانيِّ: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾، فهم في كلّ ساعةٍ في زيادة؛ لأنَّها كلَّما أخذَ لهبُها في السُّكونِ

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/ 505.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 463.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (جهنَّم)، والبِقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 517.

(4) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 517.

عندَ إنضاجِها لجلودِهم، زدْناهُم بما لنا من العَظَمةِ بإعادةِ الجلود، ليُعاوِدَهُمُ العذابُ مرَّةً إثْرَ مرَّة، دونَ انْقطاع[1]؛ والمعنى: "كلّما سكن لهيبُها، بأن أكلت جلودهم ولحومهم، ولم يبق ما تتعلّق به وتحرقه، زدناها لهبًا وتوقُّدا، بأن نُعيدَهم إلى ما كانوا عليه، فتستعر وتتوقّد ... وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما أنّه قال: إنّ الكفّار وقودُ النّار؛ فإذا أحرقتهم ولم يبق شىءٌ؛ صارت جمرًا تتوهّج، فذلك خبوّها، فإذا بدّلوا خلقًا جديدًا عاودتهم"[2].

براعةُ استعمال لفظ ﴿كُلَّمَا﴾ في إثبات دوام العذاب:

غايةُ التَّهكُّمِ بأهلِ النّارِ إطماعُهم المُسفرُ عن الخيبة السّاحقة

لَمّا جعلَ اللّهُ تعالى ازْديادَ السَّعيرِ مُقترِنًا بكلِّ زمانٍ من أزمنةِ الخُبوِّ بقولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا﴾ الَّتي هي بمعنَى: كلِّ زمان، وهذا في ظاهرِه إطْماعٌ بحصولِ خَبْوٍ، لورودِ لفظِ الخَبْوِ في الظّاهر، ولكنَّه يؤولُ إلى يأسٍ منه، إذ يدلُّ قولُه: ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾، على دوام سعيرِها في كلِّ الأزمان، لاقْترانِ ازدياد سعيرِها فيهم بكلِّ أزمانِ خَبْوِها، فهذا الكلامُ من قبيل التَّمليح، وهو مثل قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40][3].

وزيادةُ العذابِ هنا تكون بعد الإفناء؛ أي: لا يزالونَ على الإفْناءِ والإعادةِ والإسْعار؛ ليزيدَ ذلكَ في تحسيرِهم على تكذيبِهم؛ ولأنَّه أدْخلُ في الانْتقامِ من الجاحد[4].

بلاغةُ المجازِ في لفظِ ﴿خَبَتۡ﴾:

بعضُ الظُّنون تأتي بالعذابِ لأصحابِها وتوردُهم المهالك

قولُه تعالى: ﴿خَبَتۡ﴾ مَجازٌ عن سكونِ لَهَبِ جهنَّم مقدارَ ما تكونُ إعادتُهم، كأنَّهم لَمّا كذَّبوا بالإعادةِ بعدَ الإفناء، جعلَ اللّهُ جزاءَهم أنْ سلَّطَ النّارَ على أجزائهم، تأكلُها وتُفنيها ثمَّ يُعيدُها[5]، وفي هذا

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 517.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 99.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 218.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 116.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 116.

السّكون مزيدُ عذابٍ، لما يظنُّه المُعذَّب من أنَّ النّار ستخبو وتذهب، فيكون ضدُّ ظنِّه زيادةً في العذاب.

نكتةُ إسنادِ فعلِ الزّيادةِ إلى ضميرِ العظمة:

بيانُ عظيم غضب الله على المُكذّبين الضّالين

أُسند فعلُ الزّيادةِ ﴿زِدۡنَٰهُمۡ﴾ إلى الضّمير (النّون)، للتّعبيرِ عن عظمةِ مَن أُسنِدَ إليه فعلُ الزّيادة، وهو اللّهُ ﷻ؛ أيّ: زِدْناهم بما لنا من العَظَمة[1]، ولم يُبْن للمفعولِ زيادةً في تهويل الأمر، ولبيان عظيم غضبِ اللّه عليهم، فهو ﷻ الّذي يتولّى زيادةَ عذابِهم في الآخرة.

سرُّ إيقاع الفعل على أهل النّار لا على النّار:

زيادةُ أهلِ النّار سعيرًا باعتبارِهم مقصود التّسعير وغاية التّعذيب

آثر النَّظم الكريم أن يقع فعل زيادة السّعير على أهل النّار لا على النّار نفسِها في قوله تعالى: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾، فلم يَقُل: (زِدْناها سَعيرًا)، والنّار هي الّتي تُسعَّر، وذلك لبيان أنَّ تسعير النّار هم مقصودُها، فما سُعِّرت النّار إلّا لأجلِ أصحابِها، فعلى المآل هم الّذين زادهم اللّه سعيرًا، وزيادةُ العذابِ هنا تكون بعد الإفناء؛ أيّ: لا يزالونَ على الإفْناءِ والإعادةِ والإسْعار؛ ليزيدَ ذلكَ في تحسيرِهم على تكذيبِهم؛ ولأنَّه أَدْخلُ في الانْتقامِ من الجاحد[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الضَّلالُ والغيُّ:

الضَّلالُ أوسعُ دلالةً وأبلَغُ من لفظ الغيِّ

أصلُ الضَّلالِ: الهلاك، ومنه قولُهم: ضلَّتِ النّاقةُ، إذا هلَكتْ بضياعِها، قالَ تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السّجدة: 10]؛ أيّ: هَلَكْنا بتقطيعِ أوصالِنا، ويُقالُ أيضًا: ضلَّ عن الصّواب، ومنه قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ [غافر: 74]، وأَصلُ الغيّ: الفساد، ومنه يُقالُ: غَوى الفصيل، إذا بَشِمَ[3] من كثرةِ شُربِ اللَّبن، وإذا لم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 517.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 116.

(3) البَشَمُ: التُّخمة، يُقال: بَشِمَ من الطَّعام، وبَشِمَ أيضًا من فُلان، وأيْ: سَئِمَ منه.ابن منظور، لسان العرب: (بشم).

يَرْتو من لبنِ أُمِّه فماتَ من الهُزال، فالكلمةُ من الأَضْداد، فالَّذي يوجِبُه أصلُ الكلمَتَيْنِ أن يكونَ الضَّلالُ عن الدّينِ أبلغَ من الغَيِّ فيه، ويُستعمَلُ الضَّلالُ أيضًا في الطَّريقِ كما يُستعمَلُ في الدّين، فيُقالُ: ضلَّ عنِ الطَّريقِ إذا فارقَه، ولا يُستعمَلُ الغَيُّ إلّا في الدّين خاصَّة، فالضَّلال أوسع دلالةً من الغيِّ؛ لاشتماله على الغيِّ وزيادة، ورُبَّما اسْتُعمِلَ الغَيُّ في الخَيبَة، يُقال: "غوى الرَّجُلُ"؛ إذا خابَ في مطلبِه.

(خبَتْ) و(انْطَفَأت):

الخَـبْـوُ سكـونُ الـلَّـهَـبِ، والانْطفاءُ ذهابُ النّار بالكُلّيّة

خَبَتِ النّارُ: سَكنَ لَهَبُها؛ أي: أخذَ لَهَبُها بالسُّكون، وطَفِئت، وصارَ عليها خِباءٌ من رَماد؛ أيْ: غِشاء[1]، وطَفِئَتِ النّارُ تَطْفَأُ طُفوًّا وانْطَفأتْ، وأنا أَطْفَأتُها[2]، فالخبو انطفاءٌ نسبيٌّ، والنّار إذا خبت لا يعني أنّها انطفأتِ انطفاءً تامًّا، وإنَّما يعني أنَّها قاربت على الانطفاء، أمّا الانطفاء، فهو الانطفاء التّامُّ الّذي لا يبقى بعده ارتفاعٌ للنّار.

(1) الرَّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خبا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (طفو).

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ٩٨﴾ [الإسراء: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عِلَّةُ عذابِ الضّالّين كفرُهم بآياتِ ربّ العالمين وإنكارُهمُ ليوم الدّين

لَمّا بيَّنتِ الآيةُ السّابقةُ عذابَ الضّالّينَ وزيادةَ عذابِهم كلّ حين؛ ناسب أن يَذكر في هذه الآيةِ علَّةَ تعذيبِهم، ليرجعَ منهم مَن قضى بسعادتِه، فذلكَ العذابُ العظيمُ جزاءُ أهلِ الضَّلالة، بسببِ كفرِهم بآياتِ اللّه تعالى، مع ما لها من العَظَمةِ بنسبتِها إلى اللّه وإنكارِهم لبعثِهم من قبورِهم بعد الموت[1]، فالمناسبة بين الآيتَين، هو الانتقال من بيانِ أحوال النّاس في الهدى والضّلال ومآل أهل النّار، إلى بيان أسباب دخولِها والعياذ باللّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَزَآؤُهُم﴾: (جزي) أصل يُذكَرُ في قيام الشَّيءِ مقامَ غيرِه، ومكافأتِه إيّاه، يُقالُ: جَزَيْتُ فُلانًا أَجْزيهِ جَزاءً، وجازيتُه مُجازاةً، والجزاءُ: ما فيه الكفايةُ من المقابَلة، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرّ، قالَ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: 40][2]، وكما في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ﴾ أي: اسْتحقاقُهم من العذابِ بسببِ كُفرِهم[3]، "وتقول: جزى عنّي هذا الأمر يجزي، كما تقول: قضى يقضي، وتجازيتُ دَيْني على فلان؛ أيْ: تقاضيته، وأهل المدينة يُسمّون المُتقاضي المُتجازي، قال اللّه جل ثناؤه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48]؛ أيْ: لا تقضي"[4]، وقد جرى على ألسُن العرب، ومَثَلٌ من أمثالهم: جزاءُ سِنِمّار، قال الشّاعر:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 517 - 518.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (جزي).

(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 362.

(4) أحمد بن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).

جَزاني جزاهُ اللّهُ شَرَّ جزائِهِ *** جزاءَ سِنِمّارٍ بما كان يَفْعَلُ[1]

2) ﴿وَرُفَٰتًا﴾: (رفت) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على فَتٍّ ولَيٍّ، ورَفَتُّ الشَّيءَ أَرْفُتُه رَفْتًا: فَتَتُّه، والرُّفاتُ والفُتاتُ: ما تَكسَّرَ وتفرَّقَ من التِّبن[2]، ورُفِتَ رفْتًا فهو مَرْفوت؛ نحو: حُطِمَ حَطْمًا؛ فهو مَحْطوم[3]، والرُّفاتُ والحُطامُ الاسْمُ، كالجُذاذِ والرُّضاض[4]، والرُّفاتُ: لا واحدَ له؛ نحو الدُّقاق والحُطام[5]، وقولُه تعالى: ﴿وَرُفَٰتًا﴾؛ أيْ: غبارًا[6]، وتُرابًا[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَــنْ كــذَّبَ بالبعثِ وأنكر المــآب، جــوزيَ في الآخرة بأشدّ العذاب

تُبيِّن الآية سببَ عذابِ أهل النّار؛ فهذا الَّذي جازى اللّهُ به الضّالين من البعثِ على العَمَى والبَكَمِ والصَّمم، جزاؤهُمُ الَّذي يستحقّونه؛ لأنَّهم كذَّبوا بأدلَّة اللّه وحُجَجه، واسْتبْعَدوا وقوعَ البعث، فقالوا: بعد ما صِرْنا إلى ما صِرْنا إليه من البِلَى والهلاكِ والتَّفرُّق، والذَّهابِ في الأرض نُعادُ مرَّةً ثانية؟![8].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصلِ الجملةِ عمّا قبلَها في سياق الآية:

تعليلُ الكلامِ سبيلُ الإفهامِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ اسْتئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ العقابَ الفظيعَ المَحْكيَّ يُثيرُ في نفوسِ السّامعينَ السُّؤالَ عن سببِ تَركُّبِ هذه الهيئةِ من تلكَ الصّورةِ المُفظعة، فجاء الجوابُ التَّعليليُّ بأنَّ ذلك بسببِ الكُفرِ بالآياتِ وإنكارِ المَعاد، فهما عِلَّةُ تعذيبِهم[9].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (باب ما جاء على فعلال).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (رفت).
(3) النَّحاس، معاني القرآن: 4/ 162.
(4) الرَّضُّ: دقُّكَ الشَّيء، ورُضاضُ الشَّيء: فتاته، وكلُّ شيء كسَّرته فقد رَضَضتَه، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (رضض).
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 125.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 97، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 273.
(7) الزَّجاج، معاني القرآن: 3/ 244، والفرَّاء، معاني القرآن: 2/ 125.
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/ 63.
(9) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 517، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 218.

فائدةُ استعمالِ اسْمِ الإشارةِ للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تجسيد عذاب الكافرينَ كأنّما يُشاهَد ويُبصَر

دلَّ التَّعبيرُ باسْمِ الإشارةِ للبعيدِ، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ على شدَّةِ ذلك العذابِ وعظمتِه[1]، فإنَّ الإشارة بالبعيد مع العلم ببُعده، تدلُّ على معانٍ تُنتزع من السّياق، ولمّا كان السّياق في بيانِ عذابِ الضّالين عن قصدٍ وإرادةٍ؛ ناسب أن تكون الإشارةُ إليه بالبعيدِ المفيد لتعظيم الجزاء الذي استحقّوه، كما أنَّ فيه إشارةً إلى تحاشي الجزاء من أهل البصائر والعقول، كأنَّه قال: (احذروا ذلك الجزاء)، وفيه تجسيدٌ للجزاءِ؛ فإنَّ الإشارة تكون للمحسوسات المشاهدة، فتكون الإشارة لجهنَّم وما يكون فيها من عذاب أولئك بذلك.

بلاغةُ القصر في تعريفِ طرفي الجملة الاسميَّة:

كلُّ جزاءٍ دون جهنَّم ليس معدودًا على الحقيقةِ عذابًا

دلَّ تعريفُ طرفي الجملةِ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ على قَصْرِ جزاءِ الكافرين بما وردَ في قولِه تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾؛ لبيان تحقُّق ذلك العذابِ الَّذي ينتظرُهم في اليومِ الَّذي أنكروا وجودَه، فقصر الجزاءَ على ما أُشير إليه، وما دونه فهو مُقدِّمات الجزاء، كأنَّه قال: (ذلك هو جزاؤهم الحقيقيُّ الّذي يستحقّونه، وما دونه ليس بجزاءٍ إذا ما قيس بهذا الجزاء).

دلالةُ إضافةِ الجزاءِ إلى ضميرِ الكافرين:

إقامة الجزاء مقامَ الصّاحب المُلازِم من فصيح البيان

أُضيفَ لفظُ الجزاءِ إلى ضميرِ الكافرين في قولِه تعالى: ﴿جَزَآؤُهُم﴾ للدَّلالةِ على أنَّ العذابَ الواقعَ بهم، هو جزاءٌ مُستحَقٌّ لهم بسببِ كفرِهم بآياتِ ربِّهم، وإنكارِهمُ البعث، وليس فيه أيُّ ظُلم لهم، كما أنَّ في هذه الإضافة إيماءً إلى أنَّ هذا الجزاء مصاحبٌ لهم صحبةَ الشَّيء للشَّيءِ، فهو الجزاء الحقيق بهم دون غيره.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر، ص: 517.

معنَى الباءِ ودلالتها في سياق الجملة:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ﴾ هي باءُ السَّببيَّة؛ أي: استحقّوا الجزاءَ بسبب كفرهم بآيات اللّه؛ أي: الآيات الدّالّة على وحدانيَّةِ اللّه، والمعجزاتِ الدّالَّة على إرسالِ الرُّسُل، وخصوصًا معجزة القرآن؛ وهو المعجزةُ الكُبْرَى[1]، وكفرُهم كائنٌ بمقتضى قولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا﴾؛ أيْ: (لَمُحْيَوْنَ خلقًا جديدًا، بإعادة الرّوح فينا؛ إذا تلف لحمُنا، وبقينا عظامًا، بل رقّت عظامنا؛ فصارت رُفاتًا)[2].

الكفرُ باللهِ تعالى أعظمُ أسبابِ التَّعذيبِ في الآخرة

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

دلَّت صيغةُ الماضي في قولِه تعالى: ﴿كَفَرُواْ﴾ على تحقُّقِ كفرِهم بآياتِ اللّه تعالى، ومجيئها بعد ذِكْر الجزاء لبيانِ أنَّ الكفر قد صدر عنهم صدورًا راسخًا، وأصبح صفةً ثابتةً لأفعالِهم، حتّى قيل فيهم: (إنَّهُم كَفَروا)، فاستحقّوا الجزاء الأوْفى.

ثباتُ الكفرِ وتحقُّقُه هو سببُ العذابِ وشدّته

فائدةُ جمعِ الآياتِ في قوله ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

جُمعت الآية في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: للإيماءِ إلى كثرتِها وتَنوُّعِها؛ إذِ المرادُ بها: الآياتُ الشَّرعيَّةُ والكونيَّة، العقليَّةُ والنَّقليَّةُ الدّالَّةُ على صحَّةِ الإعادةِ دلالةً واضحةً[3]، فالجمعُ شاملٌ للأنواعِ والأفراد الكائنة في الأنواع.

شمولُ أنواعِ الآياتِ وأفرادِها شرطٌ في الإيمان بكلّ ما أنزل الله

نكتةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ العَظَمةِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أُضيفتِ الآياتُ إلى ضميرِ (نا)؛ أي: الآياتُ القرآنيَّةُ وغيرُها، مع ما لها من العَظَمةِ بنسبتِها إلينا[4]، وفي هذه الإضافة مزيد تشنيعٍ على أولئك الضّالين الكافرين؛

الإيماءُ إلى تعليل الجزاء توخّيًا للإنصاف وعدم الظّلم

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4464.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 516.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 485.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 518.

فإنَّ الكفر بالآيات الّتي هي لله تعالى، مع التَّصريح بذلك مُشعِرٌ بالتَّعليل كذلك، والعذاب المذكور هو جزاؤهم الّذي أوجبه اللّه لهم، واستحقّوه عنده جزاءً وفاقًا بكونهم كفروا بآيات اللّه النّاصعة، ولم يصدّقوا بالآيات التّنزيليّة، ولا تَفكّروا في الآيات التّكوينيّة[1]، وآيات اللّه هي دلائل قدرته البارزة: في كونه خلقةً وتصويرًا، والمُنزلة على رسله بلاغًا وتعبيرًا.

بلاغةُ عطفِ الجُمل في سياق الآيات:

الانتقال من ذِكر الكفر بالبعث إشارة إلى ذِكْره صراحةً

عُطفت جملة ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾ على السّابقة من باب عطف الأسباب القوليَّة على الأسباب الفعليَّة، فالعطف انتقل من ذِكْر الأفعال؛ وهي الكفر بالآيات إلى ذِكْر الأقوال؛ وهي إنكار البعث؛ فالكفر بالآياتِ الدّالّة على البعث إشارةً، جاء التَّنبيه عليه بذِكْر الكفر بالبعث صراحةً، وكلاهما ناشئٌ عن الاعتقادِ الباطلِ باللّه تعالى وبآياته.

غرضُ الاسْتفهامِ وبلاغتُه في السّياق:

كمالُ استبعادِ الكُفّارِ للبعثِ واستنكارِهم لحدوثه في الأساس

الاستفهام في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾، استفهامٌ إنكاريٌّ ليوم البعثِ، وهو إنكارٌ شديدٌ مُتمكِّنٌ منهم لا تراجعَ عنه إلى الإيمان[2]، "إنّهم كفروا بآيات اللّه، وبرسول اللّه، وبما دعاهم إليه من الإيمان باللّه، وباليوم الآخر، ولم يقع في تصوُّرهم أنّهم يُبعثون بعد الموت، وشكّوا في قدرة اللّه أن يعيد إليهم الحياة، بعد أن يموتوا ويُصبحوا عظامًا نخرة، ورفاتًا ضائعًا في التّراب"[3]، والإنكار ليس للجدال والحوار الهادفِ بل للاستبعادِ واستحالة تصوّر البعث، فهو أشدّ أنواع الإنكار، الّذي استحقّوا بسببه أشدّ أنواع الجزاء.

(1) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 7/ 459.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 485.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 8/ 555.

نكتةُ تقديمِ الظَّرفِ في جملة: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا﴾:

استدلال الكفّار قائمٌ على كَذِبِهم الصّراحِ وإفكِهِم البواحِ

جاءَ تقديمُ الظَّرفِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ للاهتمامِ به؛ لأنَّ مضمونَه هو دليلُ الاسْتحالةِ في ظنِّهم[1]؛ أيِّ: وقت أن نصير عظامًا ورُفاتًا، سنعود كما كنّا خلقًا جديدًا، فمَكْمَنُ الإنكار دائرٌ حول استحالة رجوع العظام خلقًا كما كان، وهذا الإنكار وتلك الاستحالة هي دليل كفرِهم القائم على طرح أدلّة تبدو مقنعةً، وهي في حقيقتِها دليل الكذب الصُّراح، والإفك البواح.

بلاغةُ الكنايةِ في أثناء هذه الآية:

إظهارُ الدَّليلِ المحسوسِ موضعَ الشّاهدِ في الإنكارِ

لَمّا كان الإنكارُ مُتسلِّطًا عل جملة ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾؛ فقد كانت غايةُ إنكارِهم ذاك اسْتبعادَ البعثِ بإيرادِ الشُّبَهِ الواهيةِ، لتقويةِ عقيدتهمُ الباطلة في قضيَّة البعث بعد الموت، وكأنَّهم قالوا: (أإذا مِتْنا سَنُبعثُ كما كنّا من قبل)[2]، فقوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ كنايةٌ عن الموت، والتَّعبيرُ به دون أن يقولوا: (متنا) لقصد إظهار الدَّليل المحسوس الّذي هو موطن الشّاهد من الإنكار.

نكتةُ ذِكرِ الفعل ﴿كُنَّا﴾ دون (صرنا):

النَّظمُ القرآنيُّ يأتي بأدقِّ التّعبيرات الموحية بما تُضمره النُّفوس

آثر النَّظم ذِكرَ الكون الماضي في قولِه تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ دون أن يقول: (أإذا صرنا عظامًا)، ومعنى ﴿كُنَّا﴾؛ أيِّ: صرنا، ونكتة ذلك أنَّ التَّعبير بالكون، هو إيحاءٌ نفسيٌّ لما يعتقدونه، فهم يعتقدون أنَّهم سيكونون عظامًا ورفاتًا، كونًا ثابتًا لا رَجعة عنه، ولو قالوا: (صرنا)؛ لاحتمل الكلامُ أنَّهم بعد أن يصيروا عظامًا ورُفاتًا؛ سيصيرون بعدها شيئًا آخر، وهذا لا يُريدونه.

توجيه ذِكْرِ العظامِ والرّفات في السّياق:

دلَّ ذِكْر ﴿عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ على المبالغةِ في إنكارِ البعث وإعادةِ ما

---
(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 123.

كان عظامًا مُتحلِّلةً ورُفاتًا، كالغبارِ أو ترابًا مع التُّراب، وفي ذلكَ تأكيدُ ما هُم عليه من الإنكارِ الشَّديدِ للحياةِ الثّانية بعد الموت، فهي في مذهبِهم مُحالٌ صِرْفٌ؛ إذْ بين غَضاضةِ الحيِّ ويُبوسةِ الرَّميمِ من التَّنافي ما هو ظاهرٌ حَسْبَ وهْمِهم(1).

تأكيدُ الكفّار لإنكارهمُ البعثَ والنُّشور

بلاغةُ التّعبير بالبعث عن الإحياء:

البَعْثُ: الإرسالُ، وأُطلِقَ في قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ على إحياءِ الموتى؛ لأنَّ الميِّتَ يُشبِهُ الماكِثَ في عدمِ مُبارحةِ مكانِه(2)، ففي هذه اللّفظة بيانٌ لحقيقةٍ يعلمُها الكافرون، وهي أنَّهم ماكثون مُكثًا لا يبرحونه، وهم يعلمون أنَّ الّذي سيحدث لهم هو بعثٌ يُثير الأرض بترابِها ورمالِها وغُبارِها، ليخرجوا من باطن الأرض.

تصوير الإحياء بتوابعه الّتي تُثير الأرض من باطنِها

دلالة لفظ ﴿خَلۡقٗا﴾ بين المصدريّةِ والحاليَّة:

لفظُ الخَلْق في قوله تعالى: ﴿خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ مصدرٌ بمعنَى المفعول، ولكونِه مصدرًا لم يتبعْ موصوفَه في الجمع، وهو مصدرٌ مؤكّدٌ من غيرِ لفظِه؛ أيْ: لَمبعوثونَ بعثًا جديدًا، ويمكنُ أنْ يكون ﴿خَلۡقٗا﴾ حالًا من ضميرِ ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾؛ أيْ: مخلوقينَ مُستأنَفينَ، وذُكِرَ الحالُ هنا لتصويرِ استحالةِ البعثِ بعد الفناء؛ لأنَّ البعثَ هو الإحياء، فإحْياءُ العظامِ والرُّفاتِ مُحالٌ عندَهم، وكَونُهم خلْقًا جديدًا أوْلَى في الاستحالة(3).

التَّقييدُ بالحالِ أدْخَلُ في اسْتحالةِ البعث في وهمِ الكُفّار

دفعُ توهّمِ التَّكرار في سياق الآية الكريمة:

جاء قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩﴾ [الإسراء: 49] من هذه السّورة وتكرّر ذِكْرها هنا؛ فالجملة الأولى من كلامِهم في الدُّنيا، حين جادَلوا الرَّسولَ ﷺ وأنكروا

مفادُ جملة واردةٍ من كلام المشركين وأخرى من كلام ربّ العالمين

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 169.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 123.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 485، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 219.

البعث، والثّانية من كلامِ اللّهِ تعالى في الإخبار عن قيلهم حين جازاهم على كُفرِهم وقولِهم وإنكارِهمُ البعث.

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ، بين آية الإسراء (98) وآية الكهف (106):

مراعاة مُقتضيات المعنى والسّياق في حالتيْ ذِكْر اللّفظ وحذفه

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هنا بدون ذِكْر (جَهَنَّمُ) لتقدُّم ذِكْرُها، وقولُه تعالى في الكهف: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ﴾ [الكهف: 106] لم يقتصرْ على الإشارةِ دون العبارةِ لما اقْترنَ بقوله: ﴿جَنَّٰتُ﴾ [الكهف: 107]؛ فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦﴾ [الكهف: 106]، ثمَّ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾ [الكهف: 107] ليكونَ الوعدُ والوعيدُ كلاهما ظاهِرَيْنِ للمُستَمِعين(1).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العِظامُ والرُّفاتُ:

الرُّفاتُ ما تفتَّت من العظامِ بعد الموت، والعظامُ ما بقي سالمًا في الحياة وبعد المات

العَظْمُ جمعُه عِظام، قالَ تعالى: ﴿عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾ [المؤمنون: 14]، وعَظُمَ الشَّيءُ أصلُه: كَبُرَ عَظْمُه، ثمَّ اسْتُعيرَ لكلِّ كبير، فَأُجريَ مَجْراه، مَحْسوسًا كانَ أو معقولًا، عَيْنًا كان أو مَعْنًى، قالَ تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧﴾ [ص: 67](2)، والرُّفاتُ والفُتاتُ: ما تكسَّرَ وتفرَّقَ من التِّبْنِ ونحوِه، والرُّفاتُ والحُطامُ الاسْم، كالجُذاذِ والرُّضاض(3)، والفرق بين العِظام والرُّفات؛ أنَّ العظامَ لِما يكون بعد الموت وقبل التّفتيت، والرُّفات خاصٌّ بما تفتَّت منها.

البعثُ والحَشْر:

البعثُ: اسْمٌ لإخراج الموتَى من قبورِهم إلى الموقفِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52](4)، والحَشْرُ: هو الجَمعُ مع

(1) الكرمانيّ، البرهان، ص: 165 - 166.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (عظم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رفت).
(4) العسكريّ، الفروق، ص: 103، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).

البعثُ إخراجُ الموتى من القبور، والحَشْرُ جمعُهُم يومَ النّشور

السَّوق، والشّاهدُ قولُه تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشُّعراء: 36]، ومنه يومُ الحَشْر؛ لأنَّ الخَلْقَ يُجمعونَ فيه ويُساقونَ إلى الموقف، والحشرُ كذلك: إخراجُ الجماعةِ عن مَقَرِّهم، وإزعاجُهم وسَوْقُهم إلى الحربِ ونحوها، ثمَّ خُصَّ في عُرْفِ الشَّرع عند الإطلاقِ بإخراجِ الموْتى عن قبورِهم، وسَوْقِهم إلى الموقفِ للحسابِ والجزاء[1].

(1) العسكري، الفروق، ص: 189، ولامنس، الفرائد، ص: 69.

﴿۞أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ٩٩﴾ [الإسراء: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المـنـاسـبـةُ بين إنـكـارِ البعث وتـأكـيـدِ قـدرة الله على الخَلْقِ إيجادًا وإعادةً

لَمّا أجابَ ﷺ عن شُبُهاتِ مُنكِري النُّبوَّة، وعادَ إلى حكايةِ شُبهةِ مُنكري الحَشْرِ والنَّشْرِ ليُجيبَ عنها، وتلكَ الشُّبهةُ هي أنَّ الإنسانَ بعد أن يَصيرَ رُفاتًا ورَميمًا، يبعُدُ أن يعودَ هو بعينِه، فناسبَ أن تُذكر الآية جوابًا عن تلك الشّبهة، وهو أنَّ مَنْ قدَرَ على خلقِ السَّماواتِ والأرض، لم يَبعُدْ أن يقدِرَ على إعادتِهم بأَعْيانِهم، بأجلٍ قدَّرَه اللّهُ لهم لا يتخلَّفُ عن موعدِه، ولكن بعد هذه الدَّلائلِ الظّاهرةِ أبَى الظّالمونَ إلّا الكُفْرَ والجُحود[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجَلٗا﴾: (أجل) أصلٌ صحيح، يدلُّ على الأَجَل، وهو المدَّةُ المضروبةُ للشَّيء، قال تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ [غافر: 67]، وأَجِلَ هذا الشَّيءُ وهو يأجَلُ، والاسْمُ الآجِلُ: نقيضُ العاجل، والأجيلُ: المُرجأُ؛ أي: المُؤَخَّرُ إلى وقت، وقد أجَّلْتُه: جعلتُ له أَجَلًا، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبةِ لحياةِ الإنسان: أَجَل، فيُقال: دنا أجلُه، كنايةً عن دُنوِّ الموت، وأصلُه: اسْتيفاءُ الأَجَل؛ أيْ: مُدَّةُ الحياة[2]، وحيث إنّ الأجل هو مدّة الشّيء؛ فإنّ الآجلة ضدّ العاجلة[3]، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا﴾؛ أيْ: حدَّ الموت، أو: يومَ القيامة[4].

2) ﴿فَأَبَى﴾: (أبي) أصلٌ يدُلُّ على الامتناع، أَبَيْتُ الشَّيءَ آباهُ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 412.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (أجل).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (أجل).
(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 467.

وقومٌ أَبيّون وأُباةٌ، قالَ: أَبيُّ الضَّيم: من نَفَرٍ أُباةٍ[1]، والإباءُ: شدَّةُ الامتناع، فكلُّ إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناعٍ إباءً، قالَ تعالى: ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ [التَّوبة: 8]؛ أي: امتنَعوا عن قَبولِ الحقِّ[2].

3) ﴿كُفُورٗا﴾: (كفر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنًى واحد، وهو السَّترُ والتَّغطية، ويُقالُ للزّارع: كافر؛ لأنَّه يُغطّي الحَبَّ بترابِ الأرض، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: 20]، والكُفرُ: ضدُّ الإيمان؛ سُمّيَ لأنَّه تغطيةُ الحقِّ، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾[3]، و"(الكفرُ) أيضًا: جحود النّعمة، وهو ضدّ الشّكر، وقد كفره من باب (دَخَلَ)، وكُفرانًا أيضًا بالضّمّ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ٤٨﴾ [القصص: 48]؛ أيْ: جاحدون، وقوله تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾، قال الأخفش: هو جمعُ: كُفر؛ مثل: بَرْد وبُرود"[4].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

النّظر في خلق الكون يقينٌ وإيمانٌ، والنّأي عنه ضلالٌ وكفران

يقولُ اللّهُ تعالى: أَولم يعلم الكُفّارُ أنَّ اللّهَ الّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ قادرٌ على أنْ يُعيدَ أَبدانَهم يومَ القيامة، ويُنشِئَهم نشأةً أُخرَى كما بَدَأهم، وقد جعلَ لإعادتِهم وإقامتِهم من قبورِهم أجلًا مَضروبًا، ومدَّةً مُقدَّرةً لا بدَّ من انْقضائِها، فأبَى الظّالمونَ بعد قيامِ الحُجَّةِ عليهم إلّا تماديًا في باطلِهم وضلالِهم[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة (الواو) وتعيينُ المعطوف عليه:

إبطالُ فاسد الاعتقادِ بالاسْتدلالِ بعدَ الزّجْرِ عن إنكارِ البعث والمآل

الواو في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ للعطف، وفي تعيين المعطوف عليه احتمالان:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أبى).
(2) الرّاغب، المُفردات: (أبى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (كفر).
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (كفر).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 63.

الأوّل: أن يكون العطف على جملةِ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾، باعْتبارِ ما تضمَّنتْه الجملةُ المعطوفُ عليها من الرَّدْع عن قولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾، فبعدَ أن زَجَرهم عن إنكارِهمُ البعثَ بأسلوبِ التَّهديد؛ عطَفَ عليه إبطالَ اعْتقادِهم بطريقِ الاسْتدلالِ، بقياسِ التَّمثيل في الإمكان، وهو كافٍ في إقناعِهم هنا؛ لأنَّهم إنَّما أنكروا البعثَ، باعتقادِ اسْتحالتِه، كما أَفْصحَ عنه حكايةُ كلامِهم بالاسْتفهام الإنكاريّ، وإحالتُهم ذلكَ مُستنِدةٌ إلى أنَّهم صاروا عِظامًا ورُفاتًا؛ أيْ: بتعذُّرِ إعادةِ خَلْقِ أمثالِ تلك الأجزاء، ولم يستدلّوا بدليلٍ آخر؛ فكانَ تمثيلُ خلقِ أجسامٍ من أجزاءٍ باليةٍ بخلقِ أشياءَ أَعْظمَ منها من عَدَمٍ أَوْغَلَ في الفناءِ دليلًا يقطعُ دعْواهم[1].

والثّاني: أنْ يكون العطف على فعلٍ مُقدَّر بما يناسبُ السّياق، وتقديره: (أقالوا ذلك، ولم يروا أنَّ اللّه الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ قادرٌ على أنْ يَخلُقَ مثلهم؟!).

غَرَضُ الاسْتفهامِ في جملة ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾:

الاسْتفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ﴾ إنكاريٌّ مَشوبٌ بتعجيبٍ من انْتفاءِ علمِهم؛ لأنَّهم لَمَّا جَرَتْ عقائدُهم على اسْتبعادِ البعثِ كانوا بحالِ مَنْ لم تظهرْ له دلائلُ قدرةِ اللّهِ تعالى، فيؤولُ الكلامُ إلى إثباتِ أنَّهم علموا ذلكَ في نَفْسِ الأمر[2]، وفيه توبيخٌ للمُنكِرين لما صدر عنهم من استبعاد الإحياء بعد الإماتة، وهم يشاهدون عيانًا آثار قدرة اللّه تعالى في السّماوات والأرض؛ فإنَّ مَنْ يشاهد يَعلم، وحقُّ العالم أن يُقرَّ بما يعلم.

إذا ظـهـرتْ بـراهـينُ الـحقِّ فالإقرارُ لا مناص مـنـه عـنـد أهـلِ الحقّ

سرُّ استعمال لفظ الرّؤية دون الإبصار:

اختيرت الرّؤية دون البصر، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، ولم يَقُلْ: (أو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 220.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 220.

الرُّؤيةُ مشاهدةُ المـبـصَـرات على حقائِقِها

لم يُبْصِروا)، وذلك لتوقُّف الرّؤية على البصر، فقد يُبصر الإنسان دون أن يرى؛ أيْ: يُبصر الجزئيّات، دون أنْ يراها على حقائقها، فإن رآها فهو مُبصِرٌ على الحقيقة، وهو المُراد بالرّؤيةِ، فكانت الرّؤية أعمَّ من الإبصار، فالإبصار مشاهدةٌ بحاسّة البصر، وآلتُها العين الباصرة، والرّؤية إبصارٌ مُؤدٍّ إلى معرفة حقائق المُبصَرات.

نكتةُ الاسْتعارة في سياق العبارة:

تشبيه بصيرة القلب ببصر العين في التَّحقُّق والثّبوت

الرُّؤيةُ في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، بعيونِ البصائرِ لا بعيون الأَبْصار، ولكنْ لَمّا كانت رؤيةُ البصائرِ مُتحقِّقةً كتحقُّقِها في رؤية الأبصار لِما قام على العلم بها من الدَّلائلِ الواضحة، اسْتُعيرتْ فكانت في مقامِ رؤيةِ الأَبْصار، وتعلَّقَ الإنكارُ بأصحابِها ما بين البَصَرِ والبصيرةِ سواءً بسواء[1]، والأبصار في العيون وسيلةٌ موصلةٌ إلى البصائر المُستقرّة في القلوب، فإن غفلَ الإنسانُ عن استعمالِها كان كالأعمى سواءً بسواء.

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَرَوۡاْ﴾:

تجدّد النّظر والاعتبار مُفضٍ إلى تفادي الكفر والإنكار

حَسُنَ الإتيانُ بصيغة المضارع ﴿يَرَوۡاْ﴾ المنفي بأداة (لم)، ليتوجَّه الاستفهام الإنكاريّ إلى أمرٍ مُتجدِّدٍ في الحياة، وهو مشاهدةُ خلق السّماوات والأرض، فالرُّؤية مُتجدِّدةٌ بتجدُّدِ السّير في الحياةِ، وتجدُّد الاعتبار بخلقِ اللّٰه تعالى، ففيه تقويةُ الإنكار عليهم، لما يُشاهدونه على الدَّوام.

دلالة التَّأكيد في سياق الآية المجيد:

تأكيد المُؤكَّد من شأنه تحفيز الأفئدة وتحريك الأذهان

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ جاءتْ أداة ﴿أَنَّ﴾ قبلَ اسْم العَلَم - لفظ الجلالة - اللّٰه؛ لتأكيدِ أنَّ اللّٰهَ هو الملكُ الأَعْلى المحيطُ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا لا غيرُه الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرض، وإذا كانَ قادرًا على خلقِ هذَيْن الجرمَيْن العظيمَيْن فهو قادرٌ - لا محالة -

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 518.

على إعادتِهم خَلْقًا جديدًا يومَ البعثِ والنُّشور[1]، ولمّا كان المذكورُ أمرًا مُؤكَّدًا في النَّفس البشريَّة، كان تأكيدُه لتحريك النُّفوسِ تِجاه الحقِّ، وهمز الأفئدة نحو الأسئلة الموصلة إلى الجواب الشّافي.

دلالةُ تعريفِ المُسنَدِ إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ بالعَلَميَّة:

تعظيمُ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ تعظيمٌ لخالقِهنَّ في عليائه

دلَّتِ العَلَميَّةُ في لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ على أنَّ عظمةَ خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ هي من عظمةِ خالِقهنّ، وهو اللّهُ لا أحدَ غيرُه، والمعنى: "أولَم ينظر هؤلاء المُنكرون البعث أنّ اللّه (ﷻ) الّذي ابتدع خلق السّموات والأرض من غير شيء، وأقامها بقُدرته، قادر بتلك القدرة على أن يخلق أشكالهم وأمثالهم من الخلق، وإنّ إعادتهم لا تتعذّر على مَن يقدر هذه القدرة"[2]، وفي ورود لفظ الجلالة من زيادة الإنكار على مَن يُنكر البعث، وعليه فإنَّ ذِكْر لفظ الجلالة يزيد من مهابةِ الموقف وجلاله.

فائدةُ استعمال الاسم الموصول صفةً للاسْمِ الأَعظم:

الإيماءُ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ وهو الإنكارُ عليهم

وُصِفَ اسْمُ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ للإيماءِ إلى وجْهِ بناءِ الخَبر، وهو الإنكارُ عليهم؛ لأنَّ خلقَ السَّماواتِ والأرضِ أمرٌ مُشاهَدٌ معلوم، وكونُه من فعلِ اللّهِ لا يُنازِعونَ فيه[3]، كما أنَّ هذا الوصف فيه تخصيص الخلق به سبحانه دون سواه؛ أيِ الخالق لهنَّ بالانفراد، فمجيء الاسم الموصول بصلته لبيانِ اختصاص الصّلة بالموصوف، فإذا كان كذلك؛ كان إثبات البعث للّه وحدَه من مقتضيات الإيمان بأنَّه الخالق وحدَه.

نكتةُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

جمعُ السّماواتِ لشرفِها، وإفرادُ الأرضِ لخفّةِ لفظِها

جُمِع لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وأُفرِد ذِكْر ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿۞أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ﴾ للإشارة إلى

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 518، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4465.
(2) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 6/ 4298.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 221.

تفاوتهما في الشّرف، فجمع الأشرف اعتناءً بسائر أفراده، وأشرفيّة السّماء؛ لأنّها محلّ الملائكة المُقيمين على تفاوت مراتبهم[1]، ولما تميَّزت به من كونها موضِعًا للعبادة والتّقديس والتّمجيد وأنواع العبادات كلّها، ولكونها محطًّا للرّحمة ونفوذ الأوامر والأقضية والتّدبيرات، ثمَّ عقّبها بذِكْر الأرض، مشيرًا إلى عِظَم منافعها، وكونها متصرّفًا للخلق، وبساطًا ممهّدًا للتّصرّفات، واستصلاح الأقوات من الزّروع والثّمار، والفواكه وأنواع المعادن[2]، مُؤكّدا "أنَّ مَنْ قدر على خلق السّموات والأرض في عظمتها وشدَّتها، قادر على أن يخلق مثلهم في صغرهم وضعفهم؛ نظيره قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57][3]، كما أنَّ القرآن آثر إفرادَ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ لخفّة لفظها؛ لأنَّ الجمع ثقيل، وليس ذلك الثّقل في لفظة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ فجاء جمعًا، علمًا بأنَّ لفظة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾، وردت في القرآن ثلاثمئة وواحد وستين مرّةً كلُّها على الإفراد[4].

معنى التَّعريف في لفظِ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

لامُ الجنسِ المفيدةُ عُمومَ البقاعِ المُندرجة في لفظِها

اللّامُ في ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ للجِنْس؛ أي: الجمع لما تحتَه من مُفردات الخلقِ الرَّبانيِّ العظيمِ في كِبَرِ أجرامِها، وعِظَمِ أحكامِها، وشدَّةِ أجزائها، وسَعَةِ أرجائها، وكَثْرَةِ ما فيها من المرافقِ والمعادن[5].

سرُّ تنكيرِ المُسنَد ﴿قَادِرٌ﴾:

المعاندون يُخاطَبون بما يُقرّون، ويحدّثون بما يفهمون

جاء المُسنَد نكرةً في قولِه تعالى: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ دون أن يقول: (هو القادر)؛ وذلك لإقرارِهم في أمر المعاد بما يُثبتونه من القدرة على الخلقِ ابتداءً، فهم يُفردونه بالخالقيَّة، قال تعالى:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/ 80.
(2) العلويّ، الطّراز: 1/ 76.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 394.
(4) الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 81.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 518.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١﴾ [العنكبوت: 61]، فإذا كانوا كذلك فمجيء المُسنَد نكرةً لمجرَّد الإخبار بتلك القدرة، دون إثبات اختصاصه بها، إذْ هم لا يُنازعون فيها.

نكتةُ ذِكْرِ حرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾:

أهميّة حرف المعنى في سوق الدّلالة وإبرازها

آثر النَّظمُ الإتيانَ بحرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ﴾، ولم يَقُلْ: (قادرٌ أنْ يخلُق)، وذلك لتوريث معنى التّمكّن والاستعلاء، "وإذا كانَ قادرًا على أن يخلق مثلهم، فبالأولى هو قادر على أن يُعيدَ بعضهم أو كلّهم، فهذا إثباتٌ لإعادتهم خلقًا جديدًا بطريق دلالة الأَوْلى، ذَكَر مقدّم الدّليل وترك لهم أن يأخذوا التّالي من المقدّم"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿أَن يَخۡلُقَ﴾:

تجدُّدُ خَلْقِ اللهِ بقدرتِه الباهرة، من دلائل عظمته الظّاهرة

آثر النَّظمُ التَّعبيرَ بأداة ﴿أَن﴾ الدّاخلة على الفعلِ المضارعِ ﴿يَخۡلُقَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ﴾، فلم يَقُلْ: (قادر على خلق)؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ هذا الخلقِ في أيِّ وقتٍ أرادَ ﷻ بقدرتِه العظيمةِ المُطلَقَة[2].

سرُّ استعمال لفظ ﴿مِثۡلَهُم﴾:

من الأدلَّةِ على حقيقةِ البعث ابتداءُ الخلق، والإعادةُ أَهْون

آثر النَّظم ذِكرَ المثل في قوله تعالى: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ دون أن يقول: (قادر على أن يخلق مثلهم مثل ما خلقهم)، ففيه اختزالٌ لبَسْطِ الأدلّةِ على تحقُّقِ البعث، فاللهُ سبحانه تعالى قادرٌ على خَلْقِ مثلِهم بدءًا، وقد خلقَهم هم أنفسَهم بدءًا، فكيفَ بالإعادة وهو أيسرُ في منظورِ البشر؟! ونكتةُ ذلك أنَّ استعمال ﴿مِثۡلَهُم﴾ يدلُّ عليهم، كأنَّه قال: (خلقكم كما ترون ويخلق مثلكم كما رأيتم ذلك

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4465.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 519.

في أنفسكم؛ فكيف بإعادتكم؟) فجعل الرّؤية واقعةً عليهم عند الإعادة، وهذا من بديع القياس في إثبات الحقائق المنكرة.

ويجوزُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿مِثۡلَهُمۡ﴾ في السّياقِ، كنايةً عن نَفْسِ ما أُضيفَ إليه، كقولِ العرب: مثلُكَ لا يَبْخَلُ، والمعنَى هنا: قادرٌ على أن يخلقَهم؛ أيْ: أن يُعيدَ خلْقَهم، فإنَّ ذلك ليس بأَعْجَبَ من خلقِ السَّماواتِ والأرض[1].

معنى الواو ودلالتها في السّياق:

موعد القيامة قَطْعٌ كرؤية خلق الخلائق

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا﴾ واو عطفٍ، عطفت الجملة على قوله تعالى: ﴿۞أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾؛ فالمعنى: قد علموا أنّ مَن قدَر على خلق السّموات والأرضِ، فهو قادرٌ على خلق أمثالِهم من الإنس، وجعل لهم ولبعثهم أجلًا مُحقّقًا لا ريبَ فيهِ هو يومُ القيامة[2]، فنزَّل الأجل المضروب منزلة ما يرونه من الخَلْق، وهذا قوّة في الاستدلال المُستفاد من العطف، وفي محاسن التّأويل "أنّ الشّهاب قال: قد علموا بدلالة العقل أنّه قادر على البعث والإعادة، وجعلَ لهم؛ أيْ: لإعادتهم أَجَلًا وهو يوم القيامة؛ يعني أنّهم علموا إمكانها، وإخبار الصّادق بها، وضربه لها أجلًا، فيجب التّصديق به، أو جعل لهم أجلًا، وهو الموت والانسلاخ عن الحياة، ولا يخفى على عاقلٍ أنّه لم يُخلق عبثًا، فلا بدّ أن يُجزى بما عمله في هذه الدّار، فلا معنى للإنكار؛ فظهر ارتباط المتعاطفين لفظًا ومعنًى"[3].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على المفعول:

تنزيلُ المُنكَر منزلةَ المُختصّ بالأجل

قُدِّم الجارّ والمجرور في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا﴾ على المفعولِ ﴿أَجَلٗا﴾؛ للاهتمام، فإنَّ الخلائق جميعًا قد جعل اللّٰه لها آجالًا، أو للاختصاص بقصد لفت أنظار أولئك المُنكِرين بتنزيلهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 220.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 197.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 517.

منزلة مَن لم يُجعل له أجلٌ سواهم، وهذا أدّعى في تبكيتهم بسبب إنكارهم لما هو ظاهرٌ مُشاهَدٌ عيانًا.

براعةُ استعمالِ مفردة الأجل وتنكيرها:

تعظيمُ الموتِ لكونه من الأحداث الجسام والمصائب العظام

الأجلُ عامٌّ محتملٌ للموتِ وللموعدِ الَّذي ضُرِبَ لهم لبعثِهم من قبورهم، ولأجلِ الحياةِ الدُّنيا المُقدَّرةِ لهم، وفي ذلك كلِّه تعظيمٌ وترهيبٌ لهذا الأجل، وما يتبعُه من أحوالٍ جليلةٍ ومواقفَ عصيبة[1]، فحملُ الأجلِ على الأجلِ الخاصِّ وهو موت كلِّ واحدٍ منهم، والأجل العامّ وهو يوم القيامة، يأخذ دلالةً عجيبةً في قرن انتهاء الأجل في الدنيا ببداية الأجل في الآخرة، وكأنَّه هو هو.

نكتةُ نفي جِنْسِ الرّيب في السّياق:

الرَّيبُ في الأَجل صدودٌ عن الأثر أو إعراضٌ عن النَّظَر

نفيُ جنس الرّيب عن تحقّق الأجل المضروب، في قوله تعالى: ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾، وهذا أبلغ من نفي الوحدة، إذِ النَّفي مُنصَبٌّ على جميع الوجوه الّتي قد يتطرّق منها الرّيب، فجنس الرّيب مَنْفيٌّ جُملةً وتفصيلًا، لِما تكرَّرَ لهم من مُشاهدةِ أنَّه لا تُؤَخَّرُ نفسٌ إذا جاءَ أجلُها، وكذا لا تقدَّمُ على أَجَلِها[2]، ورَيْب المرتابينَ فيه مُكابرةٌ وإعراضٌ عن النَّظَر السَّديد، والتَّأمُّلِ الرَّشيد، فهو من بابِ قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: 2][3].

بلاغةُ التَّعريضِ في السّياق السّديد:

امتنانُ اللهِ تعالى على عبادِهِ بالإمهال وتذكيرهم بإنعام ذي الجلال

تضمَّنَ قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ تعريضًا بالمِنَّةِ بنعمةِ الإمهال، وتعريضًا بالتَّذكيرِ بإفاضةِ الأرزاقِ عليهم في مدَّةِ الأَجَل؛ لأنَّ في ذِكْرِ خلقِ السَّماءِ والأرضِ تذكيرًا بما تحتويه السَّماواتُ والأرضُ من الأرزاقِ وأسبابِها[4].

---

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 467، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 221.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 519.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 221.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 222.

بلاغة التَّفريع على جملة الإنكار:

الإنكارُ عليهم والتعجيبُ من شَأنِهم مفيدٌ في الإبانة عن المعنى

صُدِّرَتْ جملةُ ﴿فَأَبَىٰٓ ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ بفاءِ التَّفريعِ، وهو تفريعٌ على الجُملتَيْنِ باعتبارِ ما تضمَّنتاهُ من الإنكارِ والتَّعْجيب؛ أيِ: علموا أنَّ الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ قادرٌ على إعادةِ الأجسام، ومع عِلْمِهم أَبَوْا إلّا كُفورًا، فالتَّفريعُ من تمامِ الإنكارِ عليهم والتَّعجيبِ من حالِهم[1]، بل هو محزُّ الإنكار والتّوبيخ والتّقريع، لاسيّما مع استعمال صفتَي الإباء والظّلم.

بلاغةُ استعمال لفظ ﴿فَأَبَىٰٓ﴾:

الجمع في الإباء بين شدَّة الامتناع وشعور الكراهيّة

استعمَلَ النَّظم مفردة الإباء في قوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾، وذلك لبيان شدَّة التَّمنُّع عن الاعترافِ بالحقِّ، فإباؤهم إباءُ ظُلم مقرونٌ بالعناد والإصرار، وهذا أبلغ من أن يُقال: (فكفر الظّالمون)، وذلك لما في هذا اللّفظ من الدّلالة على شدّة الامتناع مع كراهيَة الاعتراف، ودوام هذا الحال[2].

نكتةُ وضعِ المُظْهَرِ مَوْضعَ المُضْمَرِ:

تعميمُ الحُكمِ عليهم بوصفِهم بالظُّلم المُفضي إلى الكفر

لَمّا بيَّن اللّهُ تعالى أنَّه المُنفردُ بالقدرةِ على الإيجادِ والإعدام، وأنَّ المشركين قد علموا ذلك علمًا كالمَحسوسِ المرئيِّ، فتسبَّبَ عن ذلك السَّببِ للإيمان أن أَبَوْا؛ فكان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (فأبوا إلّا كفورًا)، لكنَّ النَّظم آثر التَّصريح بوصفهم، فقال: ﴿فَأَبَىٰٓ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لتسجيل سبب كفرهم، وهو ظلمهم، والمُراد بالظّلم هنا: الشّرك.

نكتةُ اخْتيارِ لفظِ ﴿كُفُورًا﴾:

التَّنبيهُ على الكفرِ بالملّة، والكفران بالنّعمة

اخْتيرَ لفظُ ﴿كُفُورًا﴾ في قولِه: ﴿فَأَبَىٰٓ ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ تنْبيهًا على أنَّهم كفروا بما يجبُ اعتقادُه، وكفروا نعمةَ المُنعِمِ عليهم، فعبَدوا غيرَه[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 222.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (أبي)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أبي).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 222.

عناد الكفرة لا ينضبط بعقل ولا يرتدع بضمير

دلالةُ التَّعبير بصيغة ﴿كُفُورًا﴾:

أُتي بصيغة فعول ﴿كُفُورًا﴾ دون (كُفرًا)؛ لبيان أنّ كفرهم مبالَغٌ فيه خارجٌ عن دائرة المعقول والمقبول، لأنَّ المُرادَ أنَّه كُفرٌ مُلِحٌّ موغل، وليس مجرَّدَ كفرٍ عاديٍّ، فزيادةُ المبنَى تدلُّ على زيادةِ المعنَى(1).

منهج السّياق في الاسْتدلال على إبطالِ الكُفر بدليلٍ حِسّيٍّ مُشاهَدٍ

توجيهُ المُتشابهِ اللَّفظيِّ بين آية الإسراء (99) وآية الأحقاف (33):

جاء قوله تعالى: ﴿۞أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ معطوفًا على السّابقة، إذ هي متَّصلةٌ بها من حيث إنكارُ الكافرين ليوم البعثِ بقولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾، فجاءَ الاسْتدلالُ على إبطالِ كُفرِهم بدليلٍ حِسّيٍّ مُشاهَدٍ لهم، بقولِه تعالى: ﴿۞أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾، وهو نفسُ الدَّليلِ الّذي ساقتْه آيةُ الأحقاف بقولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأحقاف: 33]، وهو كذلك عَوْدٌ إلى الاسْتدلالِ على إمكانِ البعث مُتَّصلٌ بقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ [الأحقاف: 17] فهو انْتقالٌ من الموعظةِ بمصيرِ أمثالِهم من الأُمَمِ إلى الاسْتدلالِ على إبطالِ ضلالِهم في شِركِهم، وهو الضَّلالُ الَّذي جرَّأهم على إحالةِ البعث.

والواو في كلتا الآيتَيْن في الإسراء والأحقاف عاطفةٌ جملةَ الاسْتفهام، وهو استفهامٌ إنكاريٌّ والرُّؤيةُ علميَّة، وهي حُجَّةٌ بيِّنةٌ مُشاهَدَةٌ، وهي دلالةُ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ من عدم، وذلك من شأنِه أن يُفْرَضَ بالعقلِ إلى أنَّ اللّٰهَ كاملُ القُدرةِ على ما هو دونَ ذلكَ من إحياءِ الأموات.

وفي آيةِ الأحقافِ وقعتِ الباءُ في خبرِ ﴿أَنَّ﴾ [الأحقاف: 33] وهو

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4466.

﴿بِقَٰدِرٍ﴾ [الأحقاف: 33] باعْتبارِ أنَّه في حيِّزِ النَّفْي، مع ما أفادتَه الباءُ من التَّوكيد، وما أفادتْه الآيةُ كذلك من نَفْي العَجزِ عن العملِ مع تَعديتِه بالباءِ من بلاغةٍ ضافية، ليفيدَ بالنَّتيجةِ انْتفاءَ عَجْزِه في تدبيرِ مقاديرِها ومناسباتِها، فكانتْ باءُ المُلابَسَةِ صالحةً لتعليقِ الخَلقِ بالعيِّ بمعنَيَيْه، وذلك كلُّه مُستنبَطٌ من جملةِ ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: 33] الَّتي زادتْ تأكيدَ قدرةِ اللّهِ وجلالِ عظمتهِ في خَلقِه، ممّا يستَتْبعُ قدرتَه العظيمةَ ﷻ على إحياءِ الموتى وبعثِهم من قبورِهم بقولِه تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ [الأحقاف: 33] ممّا زاد تجليةَ هذا المعنى في آيةِ الأحقافِ عمّا هو عليه في آيةِ الإسراء[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 517 - 518، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 63 - 64.

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مواصلةُ الرّدّ على الكَفَرة وتَبكيتِهم بالحُجج الواقعيّة المُفحِمة

لَمّا قالَ الكفّارُ: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90] طلَبوا إجراءَ الأنهارِ والعُيونِ في بلدتِهم، لِتكْثُرَ أموالُهم، وتتَّسعَ عليهم مَعيشتُهم، فبيَّنَ اللّهُ تعالى لهم أنَّهم لو مَلَكوا خزائنَ رحمةِ اللّهِ تعالى، لَبَقَوْا على بُخْلِهم وشُحِّهم، ولَما أَقْدموا على إيصالِ النَّفعِ إلى أَحَد، وعلى هذا التَّقدير فلا فائدةَ في إسْعافِهم بهذا المطلوبِ الَّذي التمَسوه[1]؛ فهذه الآية ردٌّ على كلامٍ سابقٍ لمعرفة حقيقةِ أنفسِهم فيما يطلبونه من غيرهم، وبه يظهر فسادُ دواخلهم الأخلاقيّة، إثر بيان فساد عقائدهم الفكريّة، وفيها إيماءٌ إلى أنَّ أحد أسباب الخشية هو إنكار البعث، وما إنكار البعث إلّا تسويغٌ للامتناع عن الإنفاق، وهذا سرُّ ذِكْر هذه الآية في هذا السّياق.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَزَآئِنَ﴾: (خزن) أصلٌ يدُلُّ على صيانةِ الشَّيء، والأصلُ في الخَزْن: حفظُ الشَّيءِ في الخِزانة، ثمَّ يُعبَّرُ به عن كلِّ شيءٍ حُفِظَ كحِفْظِ السِّرِّ ونحوه، قالَ تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحِجر: 21][2]، وقولُه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾؛ أيّ: خزائنَ الأرزاق[3]، قال ابن الأنباريّ في الآية: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [هود: 31]؛ معناها: غيوب علم اللّه الّتي لا يعلمها إلّا اللّه[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 412.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (خزن).
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 362.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 7/ 96.

2) ﴿لَّأَمۡسَكۡتُمۡ﴾: (مسك) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على حَبْسِ الشَّيءِ أو تَحَبُّسِه، والبخيلُ مُمسِك، والإمساكُ: البُخلُ، ورَجُلٌ مُسَكَةٌ، إذا كانَ لا يَعْلَقُ بشيءٍ فيتخلَّصُ منه[1]؛ فإمساكُ الشَّيءِ: التَّعلُّقُ به وحفظُه، قال تعالى: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: 229]، وأمسكتُ عنه كذا؛ أيْ: منعتُه، والمعنَى المُرادُ في قولِه تعالى: ﴿لَّأَمۡسَكۡتُمۡ﴾؛ أيْ: لمَنَعتم غيرَكم من الرِّزق شُحًّا وبُخلًا[2].

3) ﴿ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾: (نفق) أصلانِ صحيحان، يدُلُّ أحدُهما على انْقطاعِ شيءٍ وذهابِه، والآخرُ على إخفاءِ شيءٍ وإغماضِه، فالأوَّلُ - وهو ما يَعْنينا - نَفَقَ الشَّيءُ: مَضَى ونَفِدَ، يَنْفَقُ وأَنْفَقَ الدَّراهمَ من النَّفقة، وفيه معنَى: نَفادُ ما أنفقَه وصَرْفُه، قالَ تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195][3]، وقولُه تعالى: ﴿خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾؛ أيْ: خَشْيةَ الفَقْر[4]، أو خَشْيةَ الفاقَة[5].

4) ﴿قَتُورٗا﴾: (قتر) أصل يدلّ على تضييق وتجميع، فالقُتْرَةُ بيتُ الصّائد، وسُمّيَ قُتْرَةً لضيقه وتَجَمُّعِ الصّائِدِ فيه[6]، والإقْتارُ: التَّضْييقُ. يقالُ: قَتَرَ الرَّجُلُ على أَهْلِه يَقْتُرُ، وقَتَّرَ تقتيرًا[7]: قصَّرَ في الإنفاق، والقَتْرُ: تقليلُ النَّفقة، وهو بإزاءِ الإسراف، وقد قَتَّرتُ الشَّيءَ وأَقْتَرْتُه وقَتَّرته؛ أيْ: قَلَّلْتُه، قالَ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: 236]، وأصلُ ذلك من القُتارِ والقَتَر، وهو الدُّخانُ السّاطعُ من الشِّواءِ والعودِ ونحوِهما، فكأنَّ المُقتِرَ والمُقتِّرَ يتناولُ من الشَّيءِ قُتارَه[8]، وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾؛ أي: بخيلًا[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخاطبُ اللّٰهُ تعالى رسوله ﷺ: آمرًا أن يُخاطب قومَه، بأن يقول لهم: لو أنَّكم أيُّها

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مسك).
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 362.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (نفق).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 170، عن ابن عباس رضي الله عنهما، والنَّحاس، معاني القرآن: 4/ 198.
(5) عبد الرَّزّاق، تفسير القرآن العظيم: 2/ 390 عن قتادة، والنَّحاس، معاني القرآن: 4/ 198.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قتر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قتر).
(8) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قتر).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 170، والنَّحّاس، معاني القرآن: 4/ 199.

كشفُ بواطن النُّفوس من خصائص الإعجاز الغيبيّ النّفيس

النّاسُ تملِكونَ التَّصرُّفَ في خزائنِ اللّهِ لأَمسكتُم الإنفاقَ منها خشيةَ الفقر، مع أنَّها لا تفرُغُ ولا تنفدُ أبدًا؛ لأنَّ هذا البُخلَ من طباعِكم وسَجاياكم(1)، وفيه إيقافٌ على حقيقةِ النَّفس البشريّة ممّا يعرفه المخاطَبون من بواطنِهم، وإن كانوا يُظهرون خلافَ ذلك، وهذا من الإعجاز الغيبيِّ في إظهار غيب النفوس، وكشفه على الملأ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الاسْتئناف واردٌ تكملةً لردِّ شُبهاتِهم

قولُه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾، اعتراضٌ ناشئٌ عن بعضِ مُقترحاتِهم الَّتي توهَّموا عدمَ حصولِها، دليلًا على انْتفاءِ إرسالِ بشير، فالكلامُ اسْتئنافٌ لتكملةِ ردِّ شُبُهاتهم، وهذا ردٌّ لما تضمَّنَه قولُهم: ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90] إلى قولِه: ﴿تَفۡجِيرًا ٩١﴾ [الإسراء: 91]، وقولُهم: ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾ [الإسراء: 93]، من تعذُّرِ حصولِ ذلك لعظيمِ قيمتِه، ومعنَى الرَّدِّ: أنَّ هذا ليس بعظيمٍ في جانبِ خزائنِ رحمةِ اللّهِ لو شاءَ أن يُظهِرَه لكم(2).

بلاغةُ فنِّ الإدماج في سياق الآية:

من فصيح البيان القرآنيّ ضمُّ السّياق لجملةٍ من المعاني

قوله ﷺ: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾، أُدْمِجَ في هذه الآيةِ الّتي هي ردٌّ على المُنكِرين، بيانُ ما فيهم من البُخْلِ عن الإنْفاقِ في سبيلِ الخَيْرِ، وأُدْمِجَ في ذلك أَيْضًا تَذْكيرُهُم بأنَّ اللّهَ أَعْطاهُم من خَزائِنِ رَحْمَتِه، فَكَفَروا نِعْمَتَهُ وشَكَروا الأَصْنامَ الَّتي لا نِعْمَةَ لها، ويصْلُحُ لِأَنْ يَكونَ هذا خِطابًا لِلنّاسِ كُلِّهِم مُؤْمِنِهِم وكافِرِهِم كُلٌّ على قَدْرِ نَصيبِهِ(3).

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 63.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن: 3/ 261، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 223.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 223.

دلالةُ فعل الأمر ﴿قُل﴾ في الآية:

تأييدٌ ربّانيٌّ لرفعِ شأن المُخاطَب، وتنبيهٌ إلى تبكيت المُنكِرين

افْتُتحتِ الآيةُ بقولِه: ﴿قُل﴾ للدّلالةِ على أمرَيْن: **الأوّل**: مَنْزلة مَنْ وُجِّه إليه الخطابُ ابتداءً وهو رسولُ اللّهِ ﷺ؛ أيْ: قلْ يا محمَّدُ ﷺ، **والثّاني**: أهميَّةُ ما يتضمَّنُه الخطابُ، وهو الرَّدُّ عليهم بإقامةِ الحُجَّةِ عليهم بإمساكِهمُ الخيرَ عنِ العباد، وبُخلِهم في الإنفاقِ على الفُقراء[1] ففيه رِفْعةٌ لشأن النَّبيِّ ﷺ بأن يكون المُعلّم له مباشرةً وعلى مَسْمَعِ العالمين هو ربّ العالمين، وتوبيخ المُنكِرين في ردِّ كلامهم.

دلالةُ إيجازِ حذفِ الفعل بعد ﴿لَّوْ﴾:

الشُّحُّ المذموم أصلٌ قائمٌ في سلوكِ الضّالّين

في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ﴾ حذفٌ على رأي البَصْريّين، والتّقدير: (لو تملِكونَ أنتُم)، فقولُه: ﴿أَنتُمۡ﴾ مرفوعةٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ يفسِّرُه الفعلُ الَّذي بعدَها وهو ﴿تَمۡلِكُونَ﴾، والتَّقديرُ: لو تَملِكونَ، فأَضمرَ تلكَ على شريطةِ التَّفسير، وأُبْدِلَ من الضَّميرِ المتَّصلِ الَّذي هو الواوُ، ضميرٌ منفصِلٌ هو ﴿أَنتُمۡ﴾، لسقوطِ ما يتَّصلُ به من اللَّفظ، وهذا هو الوجهُ الَّذي يقتضيه علمُ الإعراب، وهو مفتاحٌ لإظهارِ ما يقتضيه علمُ البيان، وهو أنَّ ﴿أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ﴾ فيه دَلالةٌ على الاخْتصاصِ، وأنَّ النّاس همُ المختصّونَ بالشُّحِّ المتبالغ[2]، ونحوُه قولُ المُتَلَمِّس:

فلو غيرُ أخوالي أرادوا نقيصَتي *** نصبتُ لهم فوقَ العرانينَ ميسَما[3]

والمعنَى: لو أرادَ غيرُ أخوالي[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 170، والزَّجاج، معاني القرآن: 3/ 261.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/ 468، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 223.

(3) المتلمّس، ديوانه، ص: 29، والبغداديّ، الخزانة: 10/ 59، والعَرانين: جمع عِرْنين، وهو أعلى قصبة الأنف، والمِيْسَم: هو الآلةُ الّتي يوسَمُ بها، ومقصوده: أَسِمُهم على العرانين، أي: أهجوهم هجاءً أثره في وجوههم ويلزمهم لزوم الميسَم للأنف، ينظر: ابن منظور، اللّسان: (عرن) و(وسم)، وابن الجوزي، تفسيره: 5/ 91.

(4) الزَّجّاج، معاني القرآن: 3/ 262.

نكتةُ تعليقِ الشَّرطِ بالحرفِ ﴿لَّوۡ﴾:

تعلُّقُ الشَّرطِ بالأعراضِ لا بالذَّوات

لّمّا تعلّقَ الشَّرطُ في قوله: ﴿أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ﴾ بالحرفِ ﴿لَّوۡ﴾، - وهذا قليلٌ حيث إنَّ ما يأتي بعدَها يكونُ فعلًا وليس اسمًا كما تقدَّم آنفًا - فإنَّ من تخريجِ صحَّةِ ورودِه على ما وردَ عليه، هو أنَّ الشَّرطَ إنَّما يتعلَّقُ بالأمورِ العارضةِ للذّاتِ لا بنَفْسِ الذّات، فالأمورُ العارضةُ للذّاتِ هي أفعالٌ، ومهما كانت فيها غَرابةٌ، وكانَ المُرادُ نفسَ الذّاتِ وليَها اسْمٌ لا، وكذلك هنا؛ لأنَّه ليس المرادُ مُطلَقَ المُلْك، وإنَّما المُرادُ ملكُهمُ الخاصّ، فكانت فائدةُ تعلُّقِ الشَّرطِ بالحرفِ ﴿لَّوۡ﴾ مُلازمةَ الشَّرطِ للجزاءِ على الوجهِ المذكور[1].

دلالةُ ذِكْرِ ضميرِ الفصلِ ﴿أَنتُمۡ﴾:

تخصيصُ المخاطَبين بالحُكْمِ دون غيرهم

شأنُ ﴿لَّوۡ﴾ أنْ يَليَها الفعلُ ماضيًا في الأكثرِ، أو مضارعًا في اعْتبارات، فهي مختصَّةٌ بالدُّخولِ على الأفعال، فإذا أوقعوا الاسْمَ بعدَها في الكلامِ وأَخَّروا الفعلَ عنه، فإنَّما يفعلونَ ذلك لقصدٍ بَليغ، ومن ذلك أن يكون للانْتقالِ من التَّقوّي إلى الاخْتصاص، بناءً على أنّه ما قُدِّمَ الفاعلُ من مكانِه إلّا لمقصدِ طريقٍ غيرِ مَطْروق، وهذا الاعْتبارُ هو الَّذي يتعيَّنُ التَّخريجُ عليه في هذه الآيةِ ونحوِها من الكلامِ البليغ، ومنه قولُ عمرَ لأبي عُبيدةَ رضي الله عنهما: "لو غيرُكَ قالَها!"[2]، فمجيءُ ضميرِ الفصل ﴿أَنتُمۡ﴾؛ لأنَّ المقصودَ الحكمُ عليهم باديءَ بدء، فقالَ تعالى: ﴿أَنتُمۡ﴾؛ أي: دونَ غيرِكم[3].

نكتةُ تقديمِ الفاعلِ المعنويِّ على الفعلِ:

تقديم الفاعل للاختصاص مفيدٌ للبيان المُتوخَّى في السّياق

قولُه: ﴿أَنتُمۡ﴾ هو بعينِه ضميرُ ﴿تَمۡلِكُونَ﴾ المؤخَّر، فهو في المعنَى فاعلٌ مُقدَّم، وتقديمُ الفاعلِ المعنويِّ، يفيدُ الاخْتصاصَ إذا ناسبَ

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 78.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 223.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 520.

المقام، فيفيدُ الكلامُ حينئذٍ تَرتُّبَ الإمساك[1]، وهذه النّكتة هي تتمّةٌ للنّكتة السّابقة.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿تَمۡلِكُونَ﴾:

تجدُّدُ الامتلاك على الدَّوام يقابله تجدُّدُ الإمساك على الدَّوام

اخْتيرَ الفعلُ المضارع ﴿تَمۡلِكُونَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ فَرَضُ أنْ يَملِكوا ذلكَ في المستقبل[2]، ويدوم لهم المِلْك، ويتجدّد حالًا بعد حالٍ، وزمانًا يتلوه زمان، فإنَّهم مُمسكون خشيةَ أن تُصيبهم الفاقة، ففيه بيان الضَّعف الأخلاقيّ والفكريّ، والاعتقاديّ الّذي يتّصف فيه هؤلاء الّذين تتحدّث عنهم الآية، وفيه فائدةٌ مرجوَّةٌ من المؤمنين؛ وهي أن يتحلّوا بالكرم والجود والسّماحة، كي يُخالفوا مَنْ رَكَزَ في قلبه الخوف من الإنفاق.

نكتة استعمال لفظ ﴿خَزَآئِنَ﴾:

تحريكُ أذهان الأتباعِ يُحرِّك اشمئزاز المتبوعين

آثرت الآية الكريمة استعمالَ مفردة ﴿خَزَآئِنَ﴾ لنكتةٍ بديعةٍ؛ وهي بيانُ أنَّ هؤلاء لو امتلكوها وهم يعلمون بما فيها، علمًا لا يعلمه سواهم، إذ الخَزْن فيه معنى السِّرِّ للمخزون، لأمسكوا خشية الإنفاق، ففيه تلويحٌ بالخيانة؛ إذ مَنْ يمتلك الخزائن المليئة والنّاس بحاجةٍ إلى شيءٍ منها، فهو غير حَريٍّ بأن يكون قائدًا ومتبوعًا لأتباعه؛ بل فيها تلميحٌ آخر وهو أنَّ هؤلاء عندهم من الأموال الطّائلة، لكنَّهم لا يُنفقون على مَن يتبعونهم، وعليه فالآية دعوةٌ للأتباع بأن يتأمّلوا واقع متبوعيهم، وأنَّهم لا يُنفقون عليهم إلّا الفتات، فليُراجعوا أنفسهم وليلتفتوا إلى الرّزّاق، وهذا الّذي أقضَّ مضاجع القوم وأثار حميَّتهم، أن رأوا من أتباعهم نشوزًا لم يروه من قبل، فبدأ تهديدٌ تحريضيٌّ أثارته الآية الكريمة بتلميحٍ وتلويحٍ مليحٍ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 170.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 223.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ مُنتهَى الجُموع ﴿خَزَآئِنَ﴾:

العبرةُ بإرادةِ المُنْفِقِ لا بامتلاكِ الرِّزق

آثر النَّظم استعمالَ صيغةِ مُنتَهَى الجُموع ﴿خَزَآئِنَ﴾؛ لأنَّ المقامَ جديرٌ بالمُبالغة، فخزائنُ اللهِ مَلْأَى لا تُغيضُها نَفَقَة، ولو أُتيحتْ للكافرينَ لَأَمسَكوا بما فيها، وبخِلوا بالإنفاقِ منها[1]، ففيها إشارةٌ إلى أنَّ خزائن اللّه تعالى لا منتهى لها، وعلى فرض أنَّ هؤلاء يمتلكونها، فإنَّهم يُمسكون خشيةَ الإنفاق، فدلّ ذلك على أنَّ المخلوق الضّعيف، لا يقدر على إرادة الخالق القويّ، ولو امتلك مُلْك الرّحمن؛ فالعبرة بإرادة المُنفِق، لا بامتلاك الرّزق.

سرُّ ذِكْرِ الرّحمة دون الاكتفاء بذِكْرِ الرّبوبيّة:

رزقُ العبادِ مُتعلّقٌ برحمةِ المعبود، ولولاها لهلكَ كلّ موجود

ذكرتِ الآية الرّحمة ﴿خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾، دون الاكتفاء بذكر الرّبوبيّة، فلم يَقُلْ: (خزائنَ ربّي)! والخزائن للّه تعالى - فهو مالكها - وذلك للإيماء إلى أنَّ هذه الخزائن الّتي هي للّه تعالى وحده، إنَّما كانت للرّحمة، لا للتّقتير والإمساك والبخل والشّحّ، وفي ذلك ردٌّ على سلوك النّاس، في بخلهم وشحّهم وإمساكهم، خلاف ما يزعمون، وعلى اليهود الّذين وصفوا اللّه، تعالى عمّا يقولون علوًا كبيرًا، بأخصّ صفاتهم، وهو البخل، فكان ذكر الرّحمة للتّنويه بهذه الخزائن، وأنَّها قائمةٌ على الرّحمة والإحسان، لا العدل والميزان، ومع هذا المذكور فإنّ هؤلاء لن تُحرِّكهم تلك الرّحمة للبذل والعطاء، بل ستُحرّكهم صفاتهم للإمساك والشّحّ، وفيه دلالةٌ عظيمةٌ على أنَّ الرّزق لا يكون إلّا للّه وحده، وإلّا لهلك النّاس جميعًا، وأنَّ الرّزق إنّما ينشأ عن صفة الرّحمة، لا عن وفرة الرّزق وكثرته، فكم من مالكٍ للمال الوفير، ولا يُنفق منه قليلًا ولا كثيرًا.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 520.

نكتةُ اخْتيارِ عنوان الرّبوبيَّة:

اللّه هو المحسنُ بكلِّ خير وإحسانُه تعالى عميمٌ على جميع الخَلْق

اختارَ النَّظم الكريمُ عنوانَ الرّبوبيَّة في قولِه تعالى: ﴿خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾؛ فلم يَقُلْ: (خزائنَ رحمةِ اللّهِ)؛ لأنَّ من معاني الرَّبِّ: الرّازق والمُعطي والنّافع، واللّهُ ﷻ هو المحسنُ بإيتاءِ ذلكَ كلّه، وهي مقدوراتُه الَّتي يرحمُ بها عبادَه بإضافتِها عليهم[1]، فعنوان الرُّبوبيَّة هو الألصق بالرّزق، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هؤلاء المشركين الّذين يعترفون بأنَّ اللّه تعالى هو الرّزّاق، لن ينتفعوا باعترافهم هذا عند الإنفاق والعطاء، وهو دليلٌ على أنَّ توحيد الرّبوبيَّة، لا يكتمل إلّا بتوحيد الأُلوهيّة.

فائدةُ استعمالِ ﴿إِذٗا﴾ في السّياق:

كشفُ بواطنِ النُّفوس المَخفيّة من إشارات الإعجازِ الغيبيِّة

جاءَ حرفُ ﴿إِذٗا﴾ لتقويّةِ معنَى الجوابيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾، ولأنَّ في ﴿إِذٗا﴾ معنَى الجزاء، كما في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢﴾ [الإسراء: 42][2]، فاجتمع فيه بيان النّتيجة؛ وهي: إنْ حصل لكم هذا الافتراض؛ فإنَّ النّتيجة هي كيت وكيت، وهي نتيجةٌ حتميَّةٌ قطعيَّةٌ في بيان السّلوك البشريِّ، ودليلها لمَنْ لا يؤمن بالقرآن الكريم معرفته لبواطن نفسِه، وهذا من إقامة الحُجَّة على المُنكِرين فيما يعلمون من بواطن نفوسهم، ويُظهِرون خلافَ ذلك، وهذا من إشارات الإعجاز الغيبيِّ الّذي يغفل عن تدبرِّه مَنْ نظر في ظاهر ألفاظ الآية، دون الغوصِ في أعماقِها.

دلالة اللّامِ في قوله: ﴿لَّأَمۡسَكۡتُمۡ﴾:

يحسُن التّأكيدُ مع الادِّعاء الكاذب والزَّعم الباهت

جاءتِ اللّامُ في قولِه تعالَى: ﴿لَّأَمۡسَكۡتُمۡ﴾ للتَّأكيدِ، وتحقيقِ المعنَى المُرادِ في فعلِها، وهي هنا داخلةٌ على جوابِ قَسَمٍ محذوف،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 520.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 224.

والتَّقديرُ: (واللّهِ لَأمسَكتُم)، فدلَّت على تأكيدِ أمرٍ يُنكره المخاطَبون، ويزعمون أنَّهم على خلاف مُقتَضى الإمساك من الجود والكرم، لذا حسُن التَّأكيد لباطنٍ يُخفونه بظاهرٍ برّاقٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ عن المستقبلِ بصيغة الماضي:

تصويرُ الافتراض واقعًا مُتحقِّقًا

قولُه تعالى: ﴿لَّأَمۡسَكۡتُمۡ﴾ فعلٌ ماضٍ أُريد به الزَّمن المستقبل؛ لتأكيدِ هذا الفعلِ وتحقّقه منهم في المستقبَل، وكأنَّه قد وقعَ منهم فعلًا؛ أيْ: لَأمسكتُمُ الأموالَ على فَرْض ملكيَّتِكم لها في المستقبَل، فالإمساكُ على هذا يكونُ على اسْتمرارِ المِلْك[1]، ويمكنُ أن يكونَ هذا التَّعبيرُ لوجودِ ﴿إِذٗا﴾؛ لأنَّها تقتضي الاسْتقبالَ في تحقُّقِ جوابِ الشَّرطِ ﴿لَّأَمۡسَكۡتُمۡ﴾[2]، ولا مانع من تعاضد القرائن على المعنى الواحد، ونكتة ذلك تصوير الأمر واقعًا مُتحقِّقًا في المستقبل؛ فهو أدعى لفهمه وأرسخ في إدراكه.

دلالةُ استعمالِ مُفرَدَة الإمساك:

واقعُ المَتبوعين مع التّابعين طبعٌ عليلٌ وشُحٌّ أصيلٌ

اختار النَّظم الكريمُ مُفردة الإمساك في قولِه تعالى: ﴿لَّأَمۡسَكۡتُمۡ﴾، دون الامتناع أو البخل، وذلك أنَّ مُفردة الإمساك، تدلُّ في أصلها اللّغويّ على الحَبْس، فهم يمتلكون الأموالَ ويحبسونها دون تحصيل منفعةٍ من ورائها، فدلَّ ذلك على أنَّ بُخلَهم قائمٌ على عدم رجاءِ نفع أحد، فإنَّ حبس الأرزاق عن الخلق دون الانتفاع بها خُلُقُ أصحاب اللّؤم، فكان في اختيار هذه المُفرَدة دون غيرِها لبيان طبائع القوم وسجاياهم، وفيه تلويحٌ لأتباعِهم أن يعرفوا مَتْبوعيهم على وجه الدِّقَّة المطابقة لواقعهم الأليم، فينفروا عن اتِّباعهم، ويتركوا مصاحبتَهم.

(1) العُكبَريّ، التّبيان: 2/ 97، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 170.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 89.

نكتة حذف مُتعلّقِ الإمساكِ:

الإمساكُ كائنٌ عن كلِّ وجهٍ من وجوه الخير المتصوَّرة من النّاس

الفعلُ المتعدّي: ﴿لَّأَمۡسَكۡتُمۡ﴾ مُنزَّلٌ مَنزلةَ اللّازم، فلا يُقدَّرُ له مفعولٌ؛ لأنَّ المقصودَ: إذًا لاتَّصفتُم[1] بالإمساكِ اتّصافًا ثابتًا، وذلك على سبيلِ المبالغةِ في إظهارِ إمساكِهم؛ أيْ: لوقعَ منكمُ الإمساكُ عن الإنفاقِ في بعضِ الوجوهِ الَّتي تحتاجونَها[2]، ووجه المبالغةِ في كونِ الإمساك أصبح سلوكًا متأصِّلًا فيهم، فهم مُمسِكون خشيةَ الإنفاق بطبائعهم الّتي أَلِفوها بسبب اعتقادِهم الباطل، وهذا وجهٌ في بيان حذف المُتعلّق، وهناك وجهٌ آخر؛ وهو أن يكون الإمساك مُتعلّقًا بمحذوفٍ عامّ مُقدَّرٍ؛ أيْ: لأمسكتم عن مساعدةِ النّاس، أو: لأمسكتم عن نَجْدة المحتاج، أو لأمسكتم عن وجوه الخير والإحسان، أو: لأمسكتم عن إسعاد الآخرين، وما إلى ذلك من تقديراتٍ يصحّ معها توجيه الحذف، ونكتةُ ذلك الذَّهاب في أشكال إمساكهم عن الخير فيما يتوقّعه النّاس، ويعلمونه من واقعهم.

سرُّ اختيار مُفردة ﴿خَشۡيَةَ﴾:

كثرة التَّفكير في المحذور توقع الإنسان في الموهوم

اختيرت مُفردة الخشية في قوله تعالى: ﴿خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ دون أن يقول: (خَوْفَ الإِنْفاقِ)؛ وذلك لما بين الخشية والخوف من اختلافٍ دلاليّ، فالخوف هو ذُعرٌ[3] يُصيب الإنسان، بسبب توقّع مكروهٍ مُجملٍ[4]، بخلاف الخشية، فهي لأمر مخشيٍّ منه عن علم، واستحضار الخاشي المخشيَّ منه وصفاته، فالخشية أعلى رتبة من الخوف، فالفرقُ بينهما أنَّ الخوفَ فيه إجمالٌ لما يُخافُ منه، والخشية فيها تفصيلٌ لما يُخشى[5]، وفي هذه الآية يظهر أنَّ هؤلاء المسكين قد أكثروا من التَّفكير في عاقبة الإنفاق، فدخلوا في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 223.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 520.
(3) ابن فارس، المقاييس: (خوف).
(4) الرّاغب: المفردات: (خوف).
(5) المثنّى، الإيضاح والتّقييد، ص: 226 - 227.

التّفاصيل والدّقائق، حتّى أصبح خوفهم خشيةً، ولم يخافوا خوفًا طبيعيًّا تفرضه الطّبيعة البشريّة، بل أكثروا من التَّفكير، حتّى ظهر لهم ما ظهر من الإمساك.

بلاغةُ المجازِ بحذف المُضاف:

المقصودُ خشيةُ عاقبةِ الإنفاق، وذلك مقصد أصيل

قولُه تعالى: ﴿خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ مفعولٌ من أجلِه، والظّاهرُ أنَّ الإنفاق على مشهورِ مَدْلولِه، فيكونُ على حذفِ مضاف؛ أيْ: خشيةَ عاقبةِ الإنفاق؛ وهو النَّفاد، فأنفَقَ وأملَقَ، وأَعْدَمَ وأَصْرَمَ؛ بمعنًى واحدٍ، فيكونُ المعنَى: خشيةَ الافْتقار[1]، وهذا هو مُقتَضى ظاهر النَّظم، فإنَّ المقصودَ هو العاقبة؛ لا ذات الإنفاق، لما في العاقبة من خوف النَّفاد، وما تؤول إليه الأمورُ في توقّعات علم البشر.

غَرَضُ الخبرِ بذِكْر الشّرط وجوابه:

البشر في عَوزٍ شديدٍ إلى خالقهم لتسيير شؤونهم

قد بلغتْ هذه الآيةُ في الوصفِ بالشُّحِّ، الغايةَ القُصوى الَّتي لا يبلُغُها الوهمُ، حيث أفادتْ بشرطِها وجوابه، أنَّهم لو ملَكوا خزائنَ رحمةِ اللّه الَّتي لا تتناهَى، وانْفَرَدوا بمِلكِها من غيرِ مُزاحِم، أَمسَكوها من غيرِ مُقْتَضٍ إلّا خشيةَ الفَقْر[2]، قوله: ﴿إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾، "فيه وجهان: أحدهما: لأمسكتم خشية الفقر، والإنفاقُ الفقرُ، قاله قتادة وابن جريج، الثّاني: يعني أنّه لو ملك أحد المخلوقين خزائن اللّه تعالى، لما جاد بها كجود اللّه تعالى، لأمريْن: أحدهما: أنّه لا بدّ أن يُمسك منها لنفقته، وما يعود بمنفعته، الثّاني: أنّه يخاف الفقر ويخشى العدم، واللّه ﷻ يتعالى في جوده عن هاتيْن الحالتيْن"[3]، ففيه ما فيه من الإيماء إلى خبر الغيب؛ لبيان الواقع البشريّ، وأنَّه بعوزٍ شديدٍ إلى خالقٍ يُدبِّر له أمر حياته ومعاشه.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 119.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 171.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 276.

بلاغةُ استعمال لفظ ﴿ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾:

استعمل النَّظم الكريم مفردة ﴿ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾؛ لبيان واقع أولئك المُمسِكين، وأنَّهم ينظرون إلى المال المُنْفَق بأنَّه نافقٌ لا رجعة له، وأنَّه قد ينشأ عن نفوقه نفوقُ غيرِه ... وهكذا دوالَيْكَ إلى أن ينتهي المال كلُّه بالإنفاق، وممّا يُعزِّز ذلك استعمال الخشية - كما سبق بيانه - فهم يتصوّرون أنَّ النَّفقة ستأتي على المال، فينفق دون رجعة، وهذا في غاية البؤس واللّؤم الصّادر عن ضعف الأذهان، عن تصوُّر حقيقة الرّزق، من حيث إنَّه بيد اللّه تعالى وحده، وأنَّه سيبعث العباد يوم القيامة، ويُجازيهم الجزاء الأوفى، ففي الآية إيماءٌ إلى أنَّ أحد أسباب الخشية هو إنكار البعث، وما إنكارُ البعث إلّا تسويغٌ للامتناع عن الإنفاق، وهذا سرُّ ذِكْر هذه الآية في هذا السّياق.

النّاس يظنّون أنَّ نفقاتهم نافقةٌ بسبب إنكار البعث في العاقبة

بديعُ فنِّ الإدْماجِ في سياق الآية:

أَدْمجَ بيانُ الآيةِ الكريمةِ أمرَيْنِ اثْنَينِ في غايةِ الأهميَّة: **الأوَّل:** بيانُ ما فيهم من البُخلِ عن الإنفاقِ في سبيلِ الخير، **والثّاني:** تَذْكيرُهم بأنَّ اللّهَ تعالى أَعْطاهم من خزائنِ رحمتِه، فكَفَروا نعمتَه وشَكَروا الأصنامَ الَّتي لا نعمةَ لها، فهم كما حَرموا أنفسَهم من نعمةِ الإيمانِ باللّه، سيَحرِمونَ غيرَهم من الإنفاقِ عليهم من أرزاقِ اللّهِ، من خزائنِ اللّهِ الَّتي لا تنفَدُ، لو قُدِّرَ لهم مِلكُ هذه الخزائن[1]، ففي الأوَّلِ جاءَ ذمُّهم بالشُّحِّ المُفرط، وفي الثّاني جاءَ ذمُّهم بالكفر، وهما صفتان سَيِّئتانِ، ضرَرُ إحداهما قاصِرٌ، وضَررُ الأُخْرَى مُتعدّ[2].

ما أقبح اجتماع الكفر بنعمة اللّه تعالى مع الإمساك والاقتار

معنى الواو ودلالتها في السّياق:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ واو الحال، وهي تُبيِّن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 223.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 520.

إنفاق الإنسان إمّا إلى غايةٍ دينيّةٍ باقيةٍ أو دنيويّةٍ فانية

حال الإنسان في الدّنيا، وقد أورد بعض المُتعنّتين سؤالًا، اعترض فيه على قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾، وقال على طريق التّعنّت والجدل اللّفظيّ: كيف يصحّ هذا السّلب الكلّيّ؟ وكيف يكون عموم الجنس الإنسانيّ مُمسِكًا بخيلًا، ونحن نرى من بني الإنسان الجواد الكريم؟ والجواب في غاية البساطة، وهو أنّ بناء أمر الإنسان في الأصل قائمٌ على الحاجة والبُخل بما يحتاج إليه، وذلك للحفاظ على ما فيه قوام معيشته وملاك أمره، وكسب الذّكر الجميل والثّناء العطر غاية لما يبذله[1]، فيكون هذا الأصل قائمًا في حياةِ معظم النّاس، والإنسان لا يُنفق إلّا إذا ابتغى من وراء ذلك غايةً دنيويّةً أو دينيّةً، فأمّا الدّنيويّة؛ فإلى تَبار، وأمّا الأخرويّة فإلى نماء.

فائدةُ ذِكْر فعلِ الكَوْن ﴿وَكَانَ﴾:

الإقْتارُ طبعٌ للإنسانِ وجِبلّةٌ فيه

دلَّ التَّعبيرُ بفعلِ الكَوْنِ الماضي ﴿وَكَانَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ دون أن يذكر ذلك خبرًا مَحضًا فيُقال: (والإنسانُ قتورٌ)، على أنَّ الإقْتارَ جِبِلَّةٌ وطَبْعٌ في الإنسان، كما قالَ تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النِّساء: 128][2]؛ أيَ: هذا حال الإنسان الّذي لا ينفكّ عنه، وهذا ديدنه في الأمور كلِّها، "أنَّ في طبعه ومنتهى نظره أنّ الأشياء تتناهى وتفنى، فهو لو ملك خزائن رحمة اللّه، لأمسك خشية الفقر، وكذلك يظنّ أنّ قدرة اللّه تعالى تقف دون البعث، والأمر ليس كذلك، بل قدرته لا تتناهى، فهو مخترع من الخلق ما يشاء، ويخترع من الرّحمة الأرزاق، فلا يخاف نفاد خزائن رحمته"[3].

دلالة اللّامِ في لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

الشّحّ طبعٌ، ومَن خالف ذلك فلِعِلَّةٍ لا يبخل

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ للجِنْس[4]؛ أيَ: جميع النّاس لا

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 508.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 119، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 118.
(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 3/ 488.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 172.

يخرج صنفٌ؛ فالشّحُّ طَبْعٌ في الإنسان، وإنّما يُنفق بالمغالبة وكريم الأخلاق، وموازنة المصالح وطلب المزيد من المصالح، والنَّظر في العاقبة الأخرويّة، وهي أعزُّ مطلوبٍ وأرجى منال.

بلاغةُ التَّشبيه الضّمنيّ في جملة: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾:

كُفرُ المُنكِرين في غاية الكفرِ كما أنَّ شُحَّهم في غايته

لا شَكَّ أنَّ جِنْسَ الإنسان مَجْبولٌ على البُخْل؛ لأنَّ مَبْنَى أمرِه الحاجةُ، ولكنَّ بيانَ الآيةِ الكريمةِ، أرادَ التَّشْنيعَ على الكُفّارِ، بأنَّهم في غايةِ الشُّحّ، وهم مع ذلك يَقْترحونَ ما يَقْترحون من الآيات، فلا فائدةَ في إسعافِهم بما طلبوا، فقد بلغتْ هذه الآيةُ في وصْفِهم بالشُّحِّ الغايةَ القُصْوى الَّتي لا يبلُغُها الوهْم، حيث أفادَتْ أنَّهم لو ملَكوا خزائنَ رحمةِ اللّهِ تعالى الَّتي لا تَتَناهَى، وانْفردوا بملكِها من غيرِ مُزاحِمٍ، لأَمسكوها من غيرِ مُقتَضٍ إلّا خشيةَ الفقر، فالآيةُ في مَعْرِضِ ذمِّهم بالشُّحِّ المُفرط، وهذا مُرتبطٌ بكفرِهم، فكما شحّوا على أنفُسِهم بعدمِ الإيمانِ باللّه، ضَنّوا على غيرِهم في الإنفاق[1].

بلاغةُ التَّذييلِ في السّياق الجليل:

تعميمُ الحُكْمِ بعد تخصيصِه بالمخاطَبين من فصيح البيان

جاءتْ جملةُ: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ حاليَّةً أو اعْتراضيَّةً في آخِرِ الكلام، وهي تفيدُ تَذْييلًا؛ لأنَّها عامَّةُ الحُكْم، فالواوُ فيها ليست عاطفةً، وإنَّما هي مبيِّنةٌ لعمومِ الحُكم على عمومِ الإنسانِ بعد تخصيصِه من قبلُ بالمخاطَبين، وهم كُفّارُ مكَّة[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإمساكُ والامتناع:

الإمساكُ: البُخلُ، وهو حبسُ الشَّيءِ مع التَّعلُّق به وحفظِه، قال تعالى: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾ [البقرة: 229]، وأمسكتُ عنه كذا؛ أيّ:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 171 - 172.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 171، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 224.

الإمساك بُخلٌ مع حبسٍ مُضرٍّ، والامتناعُ أعمُّ من ذلك

منعتُه، قال تعالى: ﴿لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾[1]، والامتناعُ: المَنْعُ: ضدُّ العَطيَّة، يُقالُ: رجلٌ مانعٌ ومَنّاع؛ أيْ: بخيل، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: 7]، وقال سبحانه: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ [ق: 25]، ويُقالُ في الحماية، ومنه: مكانٌ منيعٌ، وفلانٌ ذو مَنَعَة؛ أيْ: عزيزٌ ممتنِعٌ على مَن يَرومُه، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ [النِّساء: 141][2].

الإنْفاقُ والإسْرافُ:

الإنفاقُ صرفُ المالِ على وجهِ العموم، والإسرافُ تجاوزُ الحَدِّ في صَرْفِه

الإنفاقُ: مُضيُّ الشَّيءِ ونفادُه، وأنْفَقَ الرَّجُلُ: افْتقَرَ وذهبَ مالُه، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾، وأنفقَ الدَّراهمَ من النَّفقةِ، قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: 134][3].

والإسرافُ: صرفُ المالِ زيادةً على ما يَنْبغي، وهو تجاوزُ الحدِّ في صَرْفِ المال، والإسرافُ ليس مُتعلِّقًا بالمالِ فحسب؛ بل بكلِّ شيءٍ وُضِعَ في غيرِ موضعِه اللّائقِ به، كما في وصفِ اللّهِ ﷻ لقومِ لوطٍ عليه السلام بالإسرافِ في وضْعِهم البِذْرَ في غيرِ المحرَث، قال ﷻ: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ۝٨١﴾ [الأعراف: 81][4].

القَتر والبخل:

القَترُ ضدُّ الإسراف، والبُخلُ ضدُّ الجود

القَتْرُ تقليلُ النَّفَقة، وهو ضدُّ الإسراف، وكلاهُما مَذْموم؛ قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء: 29][5]، والبُخْلُ: مَنْعُ الحقِّ، فلا يُقالُ لِمَنْ يؤدّي حقوقَ اللّهِ تعالى: بخيلٌ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفرَدات: (مسك).
(2) الرَّاغب، المفردات: (منع)، والكفوي، الكُلِّيَّات: 1/ 191.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (نفق).
(4) الرَّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرف).
(5) ابن دُرَيد، جَمهرةُ اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (قتر).

والبخيلُ يبخَلُ بما في يدِه، ويكونُ بالمالِ خاصَّة، وهو إمساكُ المُقتَنياتِ عمّا لا يحقُّ حبسُها عنه، ويُقابلُه الجود، والبخيلُ: هو الَّذي يُكْثِرُ من البُخل، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ [النِّساء: 37][1].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 295 - 296، والرَّاغب، المُفردات: (بخل)، والكفويّ، الكلِّيَّات: 1/ 419.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ١٠١﴾

[الإسراء: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تسليةُ رسولِ اللهِ ﷺ في تكذيبه بالقياس على تكذيب الأمم السّابقة

لَمَّا حَكَى سُبحانَه عن قريشٍ ما حَكَى من العَنَتِ والعِنادِ مع رسولِه ﷺ؛ سلّاهُ تعالى جَدُّه بما جرَى لموسى عليه السلام مع فرعونَ، وما صنعَ سُبحانَه بفرعونَ وقومِه، فقالَ عزَّ قائلًا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ﴾ الآية[1]، وكذلكَ فإنَّ لهذه الآيةِ وجْهَ اتِّصالٍ بما قبلَها، ذلكَ أنَّ المعجزاتِ المذكورةَ فيها، كأنَّها مساويةٌ لتلكَ الأمورِ الَّتي اقترحَها كُفّارُ قريش؛ بل أقوى منها، فليس عدمُ الاسْتجابةِ لما طلبوه من الآياتِ إلّا لعدمِ المصلحةِ في اسْتئصالِهم إنِ لم يؤمنوا بها[2]، فهذه الآيةُ على صلةٍ وثيقةٍ بما تَقدَّمها، والمقصودُ: أنَّنا آتينا موسى عليه السلام تسعَ آياتٍ بيِّناتِ الدَّلالةِ على صدقِه، فلم يَهْتَدِ فرعونُ وقومُه، وزعموا أنَّ ذلك سِحْرٌ، ففي ذلك مَثَلٌ للمُكابرينَ كلِّهم، وما قريشُ إلّا منهم، ففي هذا مَثَلٌ للمعاندينَ وتسليةٌ للرَّسولِ ﷺ، فالانتقال هو انتقالٌ من بيان واقع المنكرين في زمن الدَّعوة إلى بيان واقع المُنكرين زمن موسى عليه السلام، بغرض التَّسلية والتّسرية والتّخفيف، فإذا كان قومُك قد أنكروا آيةً، فهناك مَنْ أنكرَ تسعَ آيات بيِّنات.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسْحُورًا﴾: (سحر) ممّا يدلُّ عليه الخَدْعِ والشُّبهة، وهو إخراجُ الباطلِ في صورةِ الحقّ، ويُقال: هو الخَديعة؛ أيِ: الخداعُ والتَّخييلاتُ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 172.

(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 364.

الَّتي لا حقيقةَ لها، نحو ما يفعلُه المشَعبذُ، بصَرْفِ الأبصارِ عمّا يفعلُه، لخفَّةِ يدٍ كما قالَ تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ۝١١٦﴾ [الأعراف: 116]، وقالَ سُبحانه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ﴾ [طه: 66][1]، وقولُه تعالى: ﴿مَسۡحُورٗا﴾؛ أيْ: سُحِرتَ فتخبَّطَ عقلُك[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

جحودُ المعاندِ لا ينفعه صدقُ البيِّنات

يُخبرُ تعالى أنَّه بعثَ موسى عليه السلام بتسعِ آياتٍ بيِّنات، وهي الدَّلائلُ القاطعةُ على صحَّةِ نبوَّتِه وصدقِه فيما أخبرَ به عمَّن أرسلَه إلى فرعون، ومع ذلك كلِّه قالَ له فرعونُ - وقد شاهدَ ما شاهدَ من هذه الآيات - إنّي لأظنُّك يا موسى ساحرًا[3]، فقد بلغ الغاية في الكفرِ عنادًا وتكذيبًا وكِبرًا، فلا يحزنك تكذيبُ قومك.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها في ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا﴾:

توافـق زعم فرعون وقريش بأنّ البيِّنات المُنزَّلة إليهم سِحْرٌ

حصلت بقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ الحُجَّةُ على المشركينَ الَّذين يقترحونَ الآيات، وفي ذلك تنظيرٌ بين إيتاءِ موسى الكتاب، وإيتاءِ القرآنِ في قولِه في أوَّلِ السّورة: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الإسراء: 2]، ثمَّ قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، فتكونُ جملةُ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ إمّا عطفًا على جملةِ: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ۝٩٣﴾ [الإسراء: 93]، أو على جملةِ: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾[4]، أو أن تكون الواو استئنافيَّةً بغرضِ إنشاءِ معنًى جديد، مبنيٍّ على السّابقِ كما سبق في المناسبات، فبين العطف والاستئناف نوعُ تقارب.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (سحر).

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 487، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 364.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 171، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 63 - 64.

(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 364، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 224 - 225.

نوعُ اللّامِ ومعناها في سياقِ الآيةِ الكريمة:

جوابُ القَسَمِ المحذوف مفيدٌ في بيان السّياق وتأكيده

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا﴾ جوابٌ للقَسَمِ المحذوف؛ أيّ: واللّهِ لقد آتينا موسى تسعَ آيات[1]، والمقصود من هذا الكلام، في دلالة القسم على المقسم عليه، هو الجواب عن قولهم: لن نؤمن لك؛ حتّى تأتينا بهذه المعجزات الباهرة[2].

غرضُ تأكيدِ الجملةِ بقوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

تقوية عنصر التّسلية وإلهاب المُخاطَب وتهييجه

جاءَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ﴾ مؤكِّدان: القَسَم، و(قد)؛ وغرض التَّوكيد طمأنة النّبيِّ ﷺ، لا لأنَّه مُنكِرٌ لمضمون الخطاب؛ وإنَّما لتقوية عنصر التَّسلية، وهي كذلك من باب الإلهاب والتَّهييج؛ فإنَّ القسَمَ من شأنه أن يُحرِّك المُخاطَب بالمسارعة بالإقرار لما في الآية من مضامين، والعمل بمقتضاها.

سرُّ التَّعبيرِ بالإيتاءِ دونَ الإعطاء:

الإيتاء يكون لما هو مقدارٌ محدّدٌ بخلاف الإعطاء

اختار النَّظم الكريم استعمالَ مُفردة الإيتاء دون الإعطاءِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾؛ لأنَّ الإيتاءَ يقتضي المشاركة، فحيث إنَّ بني إسرائيلَ مُشاركونَ لنبيِّهم موسى عليه السلام في فوائدِ هذه الآياتِ، إن آمنَ فرعونُ وقومُه وإن لم يؤمنوا، فستكونُ هذه الآياتُ في الحالةِ الأولى رِدءًا لهم وإنقاذًا من تسلُّطِ فرعونَ عليهم بعد مسالمتِه لهم، وستكونُ في الحالةِ الثّانية خلاصًا لهم ونجاةً بهلاكِ فرعونَ وجنودِه أجمعين، وهذا ما حصلَ بقولِه تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [القصص: 40]، وأمّا الإعطاءُ ففيه معنَى التَّمليكِ دون المشاركة، وليس هذا المُرادَ هنا[3]، بالإضافة إلى أنَّ الاستعمال القرآنيّ لمفردةِ

(1) درويش، إعراب القرآن: 5/ 510.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 2/ 397.

(3) العسكريّ، الفروق، ص: 86، والكفويّ، الكُلِّيَّات: 1/ 360.

الإيتاء يغلب فيما هو مقدارٌ محدّدٌ كالزَّكاة، والمُلك والنّبوّة والآيات، وهنا حُدِّد الإيتاء بتسع آياتٍ، بخلاف الإعطاء؛ فيكون لما هو غير محدّدٍ؛ كالكوثر والعطاء غير المجذوذ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي وإسناده إلى ضمير العظمة:

عظمةُ الآيات لا تُحقِّقُ الإيمان وحدَها

عبَّرَتِ الآيةُ بصيغة الفعلِ الماضي ﴿ءَاتَيۡنَا﴾، للدَّلالةِ على تحقُّقِ هذا الإيتاءِ ووقوعِه بتمامِه وكمالِه، وأسند الفعل الماضي إلى ضميرِ العَظَمةِ، وهو اللّهُ ﷻ؛ أيّ: ولقد آتَيْنا بما لَنا من العَظَمةِ موسى بنَ عمرانَ عليه السلام تِسعَ آياتٍ بيِّناتٍ[1]، لتعظيم هذه الآيات؛ أيّ: على عظمة هذه الآيات التي آتيناها موسى، فقد أنكرها فرعون واتَّهم موسى بأنَّه مسحور، فلا يغرنَّك صدقُ ما أنت عليه من البيّنات؛ فإنَّ ذلك وحدَه لا يجعل النّاس مؤمنين.

غَرَضُ إبْهامِ الآيات والتَّخصيصِ بالعدد ﴿تِسۡعَ﴾:

العِبرةُ كامنةٌ في البيان لا في العدد

المقصودُ من قولِه تعالى: ﴿تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ﴾ الدَّلائلُ القاطعةُ على صحَّةِ نبوَّتِه وصدقِه فيما أخبرَ به عمَّن أرسلَه إلى فرعون، وهي العصا واليدُ والسِّنين والبحرُ والطّوفانُ والجرادُ والقُمَّلُ والضَّفادعُ والدَّمُ آياتٌ مُفصَّلات، ولم يذكرها هنا مجموعةً نصًّا، بل أجملَ ذِكْرها وأبهمَها، واكتفى بذِكْر عددِها؛ لأنَّ العبرة كامنةٌ في كونها آياتٍ بيِّناتٍ، لا بكونها آياتِ كذا وكذا، وتخصيصُ العددِ ﴿تِسۡعَ﴾ بالذِّكر لا يَقْدَحُ فيه ثبوتُ الزّائدِ عليه، ولا يدلُّ على نَفْي ما عداه[2]؛ بل يدلُّ على عِظَم هذه الآياتِ؛ من حيثُ الوقوعُ والأثر.

نكتةُ وصفِ الآياتِ بالبيِّنات:

رغم وضوح الآيات كُذِّبت الرِّسالات

وُصِفتِ الآياتُ بالبيِّناتِ في قولِه تعالى: ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾، والآيات هي المعجزات الحِسيَّة، ولا تكون الآيات إلّا بيّناتٍ، فيكون وصفها

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 522.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 414.

بهذا الوصف المقصود به توكيد هذه الصّفة من صفات الآيات؛ أيْ: إنّها آياتٌ واضحاتٌ، لا تقبل المِراء والجدال، ومع ذلك كُذِّب موسى ﷺ، دون تراخٍ من فرعون عن ذلك.

بلاغةُ التَّعريضِ باليهودِ في السّباق:

استواءُ اليهودِ والمشركين في المُحاجة على صحّة الحقّ المُستَبين

في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍۢ﴾، إقامةُ الحُجَّةِ على اليهودِ في إنكارِهم لنبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ، فأولئك اليهودُ ظاهَروا المشركينَ ولقَّنوهم شُبَهَ الإلحادِ في الرِّسالةِ المحمَّديَّة؛ ليصفو لهم جَوُّ العلمِ في بلادِ العرب، وهم ما كانوا يَحْسِبون لما وراءَ ذلك حسابًا، وفي هذه الآيةِ كذلك اعْتناءٌ بالمقارنةِ بين رسالةِ محمَّدٍ ﷺ ورسالةِ موسى ﷺ؛ إقامةً للحُجَّةِ على المشركين الَّذين كذَّبوا بالرِّسالةِ المحمَّديَّةِ، بعلَّةِ أنَّ الَّذي جاءَهم بَشَر[1].

نوعُ الفاءِ وأثرها في تقدير المحذوفات:

الفاءُ محتملةٌ للفصيحةِ أو العاطفةِ

الفاءُ في قولِه: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، هي الفاءُ الفصيحة، إذا كانَ الخطابُ لمحمَّدٍ ﷺ، والتّقدير: (إذا جاء هذا الخبر؛ فاسأل بني إسرائيل عن تمامه وبيانه)، وإذا كانَ الخطابُ لموسى ﷺ، فتكونُ عاطفةً على قولٍ محذوف؛ أيْ: (فقلنا له: اسألْ بني إسرائيل)[2].

غرضُ الأمرِ ودلالته في الفعل ﴿فَسْـَٔلْ﴾:

التَّنبيهُ على انْحرافِ اليهودِ في أَوْديةِ الضَّلال

غرضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أن يتوجَّهَ رسولُ اللّهِ ﷺ بهذا السُّؤالِ احْتجاجًا به على المشركين، لا سؤالَ اسْترشادٍ كما هو بيِّن؛ أيْ: فاسْألهم عن تلك الآيات لتزدادَ يقينًا وطُمأنينةً؛ أو ليظهرَ صدقُك فتُحاجَّ به قومَك الَّذين عانَدوا فكفَروا بدعوتِك، فالتَّذكيرُ بحالِ فرعونَ وقومِه، إذ قالَ له فرعونُ: إنّي لأظُنُّكَ يا موسى مَسْحورًا، تعريضًا بهم بأنَّهم ساووا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 225.
(2) درويش، إعراب القرآن: 5/ 511.

المشركينَ في إنكارِ نُبوءةِ محمَّدٍ ﷺ ومظاهرتِهم المشركينَ بالدَّسِّ وتلقينِ الشُّبَه[1].

دلالةُ الاعْتراضِ في السّياق المحكم:

الاحْتجاجُ على عوامِّ اليهود بإقرارِ علمائِهم

قولُه تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ اعتراضٌ في الكلام، والتَّقديرُ: (ولقد آتَيْنا موسى تسعَ آياتٍ بيِّناتٍ، إذْ جاءَ بني إسرائيلَ فاسألهم)، وليس المطلوبُ من سؤالِ بني إسرائيلَ، أنْ يستفيدَ هذا العلمَ منهم؛ بلِ المقصودُ أنْ يظهرَ لعامّةِ اليهودِ صدقُ ما ذكرَهُ الرَّسولُ ﷺ، فيكونُ هذا السُّؤالُ سؤالَ اسْتشهادٍ[2].

تقدير حذفِ مُتعلَّقِ فعلِ السُّؤال:

دعوةُ اليهودِ للإيمانِ برسولِ اللهِ ﷺ ومعاضَدَتِه

حُذِف متعلّق السّؤال في قولِه تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ والتَّقدير: (سَلْهم عن فرعون، وقلْ له: أرسلْ معيَ بني إسرائيل)، ويمكنُ أن يكونَ حذفُ متعلَّقِ فعلِ السُّؤالِ، ذا دلالةٍ على الموافقةِ والتماسِ الإيمان؛ أيْ: (سلْ بني إسرائيلَ أن يوافقوك، والتَمِسْ منهمُ الإيمانَ الصّالح)، وعلى هذا التَّأويل؛ فالتَّقديرُ: (فقُلْنا لهم سَلْهم أنْ يُعاضِدوكَ، وتكونَ قلوبُهم وأيديهم معك)[3].

نكتةُ الحذف في قوله: ﴿إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾:

الأبناءُ مُحاسَبون على استمرارِهم في منهج الآباءِ

المقصودُ بالضَّمير في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾؛ أيْ: حين جاءَ آباءهم، فالمحذوف هو الآباء، وهو مأخوذٌ من سياق الكلام، فوقعَ له من التَّكذيب بعدَ إظهارِ المعجزاتِ الباهراتِ ما وقع لك، ولم يُكذَّبْ لِخَلَلٍ من أمره، ولا لِقوَّةٍ من عدوِّه على مُدافعةِ العذاب، وإنَّما كانَ جهلًا وعنادًا، ليكونَ ذلكَ مَسْلاةً لكَ وعَلَمًا على خُبثِ طباعِهم، وحُجَّةً قاطعةً عليهم، فأبناءُ اليهود داخلون في خطابِ القرآنِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 486، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 225.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 414، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 120.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 414.

لهم، حيث إنَّ العنادَ هو العناد، والخُبْثَ هو الخُبْث(1)، فدلَّ ذلك على استمرار المنهج، وأنَّ الباقين عليه مُحاسَبون على فعل الآباء، لا لفعلهم بل لاستمرارهم فيه.

معنَى الفاءِ وتقدير المحذوف في السّياق:

طَيُّ الكلامِ الَّذي دلَّ على السّياقِ اقْتصادًا في اللَّفظ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ﴾ هي الفصيحة؛ أيْ: (فأظهرَ عندَ فرعونَ ما آتيناهُ من الآياتِ البيِّنات، وبلَّغه ما أُرسِلَ به، فقالَ له فرعونُ: إنّي لأظنُّكَ يا موسى مسحورًا)(2)، وشأن مثل هذه الفاء الإعانة على تقرير المحذوف المقدَّر المنتزع معناه من السّياق، وهي تدلُّ على سرعة الرَّدِّ من فرعون، إذ الإنكار مبيَّتٌ، وليس فرعون باحثًا عن الحقِّ، ليحاور ويجادل، بل هو منكرٌ عن سابقِ إصرارٍ لا ينتظر معه الابتكار.

غرضُ التَّأكيدِ ودلالته في الآية الكريمة:

أكَّد فرعون كلامَه لتقوية الحجَّة وتخفيف وطأةِ كَذِبِه

التَّأكيد في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ﴾، بـ(إنَّ) واللّام المُزحلَقة، تأكيدٌ من فرعونَ مقابِلٌ لقوَّةِ ما أظهرَه موسى عليه السلام، من المعجزاتِ الباهراتِ المؤيَّدِ بها من ربِّه تعالى، الموجبةِ للإيمانِ الكاملِ والإذْعانِ التّامِّ لدعوته عليه السلام، والإنكار لأنْ يُكذِّبَه أحدٌ من بعدِ ما شاهدوه من تلكَ الآيات(3)، فهو يُؤكِّد كلامه ليُقوّي حجّته، وليُقنع نفسَه أمام النّاس، فهو يعلم أنَّه كذّاب أفّاك، فأراد أن يُخفّف وطأة ذلك، بتأكيد كلامه.

غرضُ النِّداء في قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾:

شأنُ أهلِ الباطلِ الاستهزاءُ بأهلِ الحقِّ

جاء ذكر المُنادى بحرفِ النِّداء (يا) في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ دون أن يقول: (وإنّي لأظنُّكَ مَسْحورًا) لمزيد الاستهزاءِ والسّخرية، فإنَّ النِّداء يُستعمل لغير غرض النِّداء بحسب

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 525 - 526.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 487.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 526.

السّياق - كما هنا - فكان غرضُ فرعون أن يهزأ بموسى عليه السلام أمام النّاس، فهو بمثابةِ تنبيهٍ للغافل أن ينتبه ليسمع كلمة ﴿مَسۡحُورٗا﴾.

احتمال صيغة ﴿مَسۡحُورٗا﴾ بين الفاعليّة والمفعوليّة:

المبالغةُ في رَمي موسى عليه السلام بالسِّحْرِ تنفيرًا للنّاسِ عن قَبولِ الحقّ

لَمّا قالَ فرعونُ لنبيِّ اللّهِ موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾؛ أيْ: إنَّك قد سُحِرْت، فكلامُكَ مُختلٌّ، وما تأتي به غيرُ مستقيم، فهو مفعول على بابه، ونكتةُ ذلك الجمع بين أنَّه مسحور، وأنَّه مختلٌّ - حاشاه ممّا يفتري المفترون عليه - ويحتمل أن يكونَ بمعنَى فاعل؛ أيْ: (ساحر)، وهذا لا يتخرَّجُ إلّا على النَّسَب؛ أيْ: ذا سِحْر، فأنتَ صاحبُ سِحْرٍ ملكتَه وعلّمتَه، فأنت تأتي بهذه الغرائب لذلك، وهذه مخاطبةٌ فيها اتّهامٌ وتَنَقُّصٌ لموسى عليه السلام، فيستقيمُ أن يكونَ مَسْحورًا على ظاهرِه، وعلى أنْ يكونَ بمعنَى ساحِر، ولكن يعارِضُ هذا التَّأويلَ ما حُكيَ عنهم أنَّهم قالوا له على جهةِ المدْح: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزُّخرف: 49]، وتخريجُ هذا هنا هو أن يكونَ القائلونَ هنالكَ، ليس فيهم فرعون، وإمّا أن يكونَ فيهم، لكنَّه تنقَّلَ من تنقُّصِه إلى تعظيمِه، ولكنَّ هذا لا يسلمُ كذلكَ من النَّظر[1]، والأَوْلى بالمقامِ وبالظّاهر، والأوفق بعمود البلاغة؛ أن يبقى المفعول على صيغته؛ فيكون ﴿مَسۡحُورٗا﴾ مُرادًا به المسحور بأثرٍ من غيرِه، وأنَّه لا إرادةَ له، وهذا أقربُ إلى سياق الاستهزاء الّذي يحفل به فرعون في مجلسه.

۞ الفروقُ المُعْجَميَّة:

السّحر والخداع:

السّحرُ مهارةٌ وخفَّةٌ محسوسةٌ، والخداعُ يكون في المعنويّات والمحسوسات

السِّحرُ قائمٌ على الخديعة؛ أيِ: الخداعِ والتَّخييلاتِ الَّتي لا حقيقةَ لها، كما قالَ تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ﴾ [طه: 66]، فهو

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 489.

إخراجٌ للباطلِ في صورةِ الحقّ، والمَسْحورُ: هو مَن جُعِلَ له سِحْر، تنبيهًا على أنَّه مُحتاجٌ إلى الغذاء، والمَسْحورُ كذلك: مَنْ جُعِلَ له سِحْرٌ يُتوصَّلُ بلُطفِه ودقَّتِه إلى ما يأتي به ويَدَّعيه، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧﴾ [الإسراء: 47][1].

وأمّا الخِداعُ: فهو إنزالُ الغَيْرِ عمّا هو بصددِه، بأمرٍ يُبديه على خلافِ ما يُخفيه، قالَ تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: 9]، وطريقٌ خادعٌ وخَيْدَع: مُضِلٌّ، كأنَّه يخدَعُ سالكَه، والمخدوعُ هو مَنْ وقعتْ به الخديعة، فأُبديَ له خلافُ ما أُظهِرَ له[2].

والفرق بينهما أنَّ السّحر يحتاج إلى مزيد مهارةٍ وخفَّةٍ وأساليب محسوسةٍ، أمّا الخداع فيكون في المحسوسات والمعنويّات.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (سحر).

(2) الرَّاغب، المُفردات، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (خدع).

﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ [الإسراء: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مناسبةُ الجواب في ردِّ التُّهمةِ والتّوبيخ في حوار موسى مع فرعون

لَمّا اتَّهم فرعون موسى عليه السلام بأنَّه مسحورٌ؛ ناسبَ أن يأتيَ الجواب بليغًا بما يَردُّ التُّهمةَ والتَّوبيخ؛ فردَّ عليه تهمته بأنَّه يعلم أنَّ الآيات البيِّنات منزَّلةٌ من الله تعالى، فهو كاذبٌ فيما يقول، كما ردَّ توبيخ فرعون له بالمقابلة فوصفه بالثُّبور.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَصَآئِرَ﴾: (بصر) يدلُّ على العلم بالشَّيء، يُقال: هو بَصيرٌ به، ومن هذه البَصيرة، وهي قوَّةُ القلبِ المدرِكة، وجمعُ البَصيرة بَصائر، قالَ تعالى: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: 108]؛ أيْ: على معرفةٍ وتحقُّق[1]، وقولُه تعالى هنا: ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي: بيِّناتٍ مَكْشوفاتٍ، تُبَصِّرُكَ صِدْقي[2].

2) ﴿مَثۡبُورٗا﴾: (ثبر) أصولٌ ثلاثةٌ: الأوَّلُ السُّهولةُ، والثّاني الهلاكُ، والثّالثُ المواظَبةُ على الشَّيء، والثّاني - وهو ما يعنينا هنا -: الهلاك، وهو الثُّبور، ورجُلٌ مَثْبورٌ: هالِك، قالَ تعالى: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾ [الفرقان: 13][3]، وهو المراد في الآيةِ وهو أنَّه هالكٌ ممقوتٌ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ردُّ التُّهم والإهانةِ عدلٌ وكرامة

ردَّ موسى عليه السلام على فرعون تهمته واستخفافه وتوبيخه، بأن أثبت له أمام النّاس، أنَّه يعلم أنَّ هذه الآيات البيّنات لا تكون إلّا من عند

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (بَصَرَ).
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 468.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (ثبر).

اللّه تعالى، وبذلك أثبت كذبه، وبإثبات كذب فرعون يُثبت براءته ممّا اتّهمه به، ثمّ وجّه له وصف الثّبور؛ ليُبيِّن له أنّه ممقوتٌ هالكٌ، بعد إصراره على الكفر.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الفصْلِ في صدرِ الآية الكريمة:

الأسئلةُ المقدَّرة تُنبئ عن حسنِ تجاوبٍ مع الكلامِ

لَمّا لم يؤمنْ فرعونُ على تواتُرِ تلكَ الآياتِ وعِظَمِها، فكأنَّه قيل: (فما قالَ موسى عليه السلام؟) فقيل: (قالَ لفرعونَ: لقد علمتَ أنَّ ما أنزلَ على يديَّ هذه الآياتِ إلّا ربُّ السَّماواتِ والأرض)[1]، وهذا جارٍ على طريقةِ المحاورات المبنيَّة على الاستئناف البيانيّ.

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَقَدۡ﴾:

جلالة القَسَم في السّياق تؤكّد يقين المُقْسَم عليه

اللّامُ في قولِه: ﴿لَقَدۡ﴾ هي الواقعةُ في جوابِ القَسَم المحذوف؛ أيّ: واللّهِ لقد علمتَ[2]، وإدراج القَسَم بين يدي الحُكم المُراد إقراره وترسيته، يؤكّد يقين الحقيقة المُراد عرضُها في سياق الاستدلال على عظمة ذي الجلال، بحيث أنّه ما أنزل الآيات المذكورات إلّا ربّ الأرض والسّماوات، ممّا يؤكّد صدق موسى عليه السلام الّذي كان يقينًا من الحقّ الأعلى جلّ في عليائه على عكس سحر السّحرة، الّذي هو خيالٌ لا حقيقة له، ولا مصداقيّة للآتي به، وإن خدع الأبصار في أوان التّحدّي.

دلالةُ تأكيدِ الجملةِ بأكثرَ من مُؤكِّد:

تحقيقُ وتأكيدُ علم فرعون بأنَّ مُنزِّل الآيات هو مُسَيِّرُ الكون

جاء توكيد صدر الآية في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ بالقَسَم و(قد)، لترفعَ ظنَّ فرعونَ بموسى عليه السلام باتِّهامه بكونه مسحورًا، وتُحِلَّ محلَّه بتأكيدِ ﴿لَأَظُنُّكَ﴾، ولما كانَ مع فرعونَ مَنۡ يُنكِرُ قولَه، ويُظهِرُ القطعَ بسعادةِ فرعون بتحقُّقِ القطعِ بخلافِ ذلك، بتأكيدِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 527.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 227.

علم فرعونَ بأنَّ تلكَ الآياتِ المُنَزَّلةِ على موسى عليه السلام هي حقٌّ وصدقٌ مُؤيَّدٌ بها من اللّه، وأنَّ إنكارَه قائمٌ على الكِبرِ والعناد[1].

توجيهُ القراءاتِ في التَّكلّم والخطاب:

فتحُ التّاءِ خطابٌ لفرعون، وضمُّها كلامٌ يُفيد علم موسى المُنَزَّل من ربّه تعالى

في قولِه تعالى: ﴿عَلِمۡتَ﴾ قراءتان[2]: الأولى: بفتح التّاء خطابًا لفرعون، والثّانية: بضمِّ التّاء ﴿عَلِمۡتُ﴾؛ أيْ: علم موسى عليه السلام، فَقراءةُ الضَّمِّ هي إخبارُ موسى عليه السلام عن نفسه بالعِلْم بِذَلِكَ؛ أيْ إنَّ العالمَ ذلك ليس بمسحورٍ، وقراءةُ فتْح التّاءِ أنَّه أسندَ هذا العِلْم إلى فرعون مُخاطَبَةً من موسَى له بذلك على وجه التَّقْريعِ لشدَّةِ مُعانَدَتِه للحقِّ بعد علْمه[3].

نكتةُ اختيارِ مفردة العلم ﴿عَلِمۡتَ﴾:

مقابلةُ العلمِ للظَّنِّ دليلُ قوّةِ البرهانِ وصدق البيان

اختير لفظ العِلْم في قولِه: ﴿عَلِمۡتَ﴾؛ لإثبات أنَّ علمَه بالأمرِ ليس بمجرَّد ظنٍّ، بل هو عِلمٌ قطعيٌّ، وهو خطابُ موسى عليه السلام لفرعونَ وتبكيتُه في قولِه عنه أنَّه مسحور؛ أيْ: لقد علمتَ أنَّ ما جئتُ به ليس من بابِ السِّحر، ولا أنّي خُدِعتُ في عقلي؛ بل علمتَ أنَّه ما أَنْزَلَها إلّا اللّه، فقولُه: ﴿مَآ أَنزَلَ﴾ جملةٌ في موضعِ نصبٍ عُلِّق عنها علمتَ؛ أيْ: لقد علمتَ بيقينٍ أنَّ هذه الآياتِ الباهرةَ أنزلَها اللّهُ عزَّ سُلطانه[4]، كما أنَّ مفردةَ العلم جاءت لتُقابل الظّنّ؛ أيْ: إذا كنتَ تظنُّ ظنًّا بي؛ ما قلتَ باتِّهامي بالسِّحر؛ فأنت تعلم عِلْمًا لا يشوبه شكٌّ في أنّي صادقٌ فيما أقول، وما عندي هو مُنزَلٌ من اللّه تعالى.

علَّةُ حذف النِّداء في نداء فرعون:

النَّظْم متآخٍ في ألفاظه مترابطٌ في معانيه

لمّا قال فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾؛ جاء الجواب:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 527.

(2) قراءة الضَّمّ للكسائي، وقراءة الفتح لباقي العَشرة، يُنظر: ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 386، وابن الجَزَري، النَّشر: 2/ 309.

(3) ابن الجَزَري، النَّشر: 1/ 51.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 121، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 487.

﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ دون أن يقول: (لَقَدْ عَلِمتَ يا فِرْعَوْنُ ما أَنْزَلَ هَؤُلاءِ)؛ وذلك لأمرَيْن اثنَيْن؛ أمّا الأوّل: فهو احتمال النَّظم للقراءتَيْن، في ﴿عَلِمۡتَ﴾ و﴿عَلِمۡتُ﴾ كما تقدّم، والآخر: أنَّ النِّداء جاء في موقعه الأليق، في فاصلة الآية كما سيأتي.

بلاغةُ التَّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

استحضارُ الآياتِ في الأذهانِ أَدْعَى لإقامة الحُجَّة مع البيان

استعمل النَّظم الكريمُ اسمَ الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ دون أن يقول: (ما أنزل الآيات إلّا ربُّ السّماوات)، للإيماء إلى قربها في الذّهن والواقع، ولمعرفة فرعون لها ومَن معه معرفةً يقينيَّةً تُنبئ عن إدراكٍ حقيقيٍّ لها، والإشارةُ تُفيد استحضار الآيات وتشخيص الغائب حاضرًا.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿رَبُّ﴾:

التَّعريضُ ببطلان ربوبيّة فرعون المُدّعاة زورًا وغرورًا

جاء ذِكرُ عنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِه ﷻ: ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ للإيذانِ بأنَّه لا يقدِرُ على إيتاءِ مثلِ هاتيكَ الآياتِ العظامِ إلّا خالقُهما ومُدبِّرُهما، وإذا كانَ ذلك كذلكَ فأنَّى لفرعونَ المخلوقِ أن يكونَ ربًّا؟![1] ففي الآية تعريضٌ بفرعون حين ادَّعى الرُّبوبيّة، فهو يردُّ عليه بما يقدر عليه الرَّبُّ سبحانه؛ ليُظهر له ولغيرِه أنَّه عبدٌ فاجرٌ قد تجاوز حدودَه مع خالقِه سبحانه.

بلاغةُ القصر في سياق الآية الكريمة:

إثباتُ زيف فرعون وتأكيد ربوبيّة الله دون سواه

جاءت الجملة الخبريَّة ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على طريق القصر، لتبدأ بالنَّفي الدّالِّ على انتفاء أيِّ قدرةٍ تستطيع الإنزال، ثم ليأتي بعد هذا العموم استثناءٌ يفيدُ أنَّ القادر على ذلك هو ربُّ السّماوات والأرض وحدَه دون سواه؛ وهي مقدِّمةٌ لبيان كذب فرعون في ادِّعاء الرُّبوبيّة وإثبات ثبوره، وأنَّه كذّابٌ أشِر.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 487، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 227.

سرُّ جمع لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

جُمعت السّماواتُ لشَرَفِها، وأُفردت الأرضُ لواحديّتِها

جُمعت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وأفرد ذِكر ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ للإشارة إلى تفاوتهما، فجمع الأشرف اعتناء بسائر أفراده، والسّماء محلّ الملائكة المُقيمين على تفاوت مراتبهم[1]، ثمَّ عقّبها بذِكْر الأرض، مُشيرًا إلى عِظَم منافعها، وكونها مُتصرَّفًا للخَلْق، وبساطًا ممهّدًا للتّصرُّفات، واستصلاح الأقوات من الزّروع والثّمار والفواكه وأنواع المعادن[2]، ولذلكَ لمّا قال فرعونُ لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣﴾ [الشُّعراء: 23]؛ أجابَه قائلًا: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤﴾ [الشُّعراء: 24]؛ أي: بما هو معهودٌ عندَه ومعلومٌ لديه من تعدُّدِ السَّماواتِ وإفرادِ الأرض.

دلالةُ (ألْ) في لفظ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

الأرض كوكبٌ عجيبٌ يدلّ على عَظَمَة المُنعِم المُجيب

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لامُ الجِنْس؛ أيْ: ما يُفيدُ عمومَ البقاعِ المندرجةِ في لفظِها، في أيِّ قطعةٍ أو منطقةٍ أو ناحيةٍ منها، والأرضُ محلّ تشريفٍ لبني آدم، ومنها تمّ الخلق، وفيها يكون المثوى، ومنها يكون البعث بعد الموت، وهي مقترنةٌ بالعطف مع لفظ السّموات، للاستدلال على ربوبيّة اللّه لهما معًا، وكونه خالقًا لهما، رغم ما يتّسمان به من عظمةٍ واتّساعٍ، للإقناع بأنّ مَن خلق الأعظم، لا يُعجزه خلقُ العظيم من المعجزاتِ المُنوّه بها في السّياق المُحكَم.

نكتةُ اختيار لفظ ﴿بَصَآئِرَ﴾ وإعرابها وجمعها:

كثرة أوجه البصائر في البصيرة الواحدة

معنى قوله تعالى: ﴿بَصَآئِرَ﴾؛ أيْ: حُجَجًا بيّنةً، كأنَّها بصائرُ العقول، ولَمّا كانتِ المعجزةُ فعلًا خارقًا للعادة، فهي تحقِّقُ الغرضَ المُناطَ منها، وهو تصديقُ المُدَّعَى، وحالُ معجزاتِ موسى عليه السلام، كونها أفعالًا خارقةً للعادة، وصرائحُ العقولِ تشهدُ بعظمتِها، وأنَّه لا يقدِرُ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/ 80.

(2) العلويّ، الطّراز: 1/ 76.

عليها إلّا اللّهُ ﷻ، فيثبتُ بذلك أنَّ تلك الآياتِ ما أنزلَها إلّا ربُّ السَّماواتِ والأرض، وكذلك فإنَّ غرضَها الدّلالةُ، على صدقِ موسى في دعوى النُّبوَّة، وهذا هو المُرادُ من قولِه: ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ حالَ كونِها بصائر[1].

وكلمة ﴿بَصَآئِرَ﴾ حالٌ من ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وجاءتْ بعد ﴿إِلَّا﴾، وهي حالٌ ممّا قبلَها[2]، ولمّا كان - على رَأْيِ بعضِ اللُّغويين - ما بعدَ إلّا، لا يكونُ معمولًا لما قبلَها، قُدِّر قبلَ ﴿بَصَآئِرَ﴾ فعلٌ مناسبٌ لها؛ أيْ: أَنْزَلَها بصائر؛ أيْ: حالَ كونِها بصائر[3].

وقد جُمعت ﴿بَصَآئِرَ﴾ لجمع الآيات البيّنات في كلِّ آيةٍ من البصائر المجتمعة، فأدَّت هذه المفردة معنى الإبصار في الآيات، وعَبَّرت عن كثرة البصائر فيها.

نكتةُ التَّأكيدِ في جملة: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ﴾:

تأكيدُ موسى عليه السلام مقالتَه لإنكارِ فرعونَ مضمونَها

قولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي﴾؛ أيْ: وإنْ ظنَنْتَني يا فرعونُ مسحورًا، ﴿لَأَظُنُّكَ﴾ مُؤكِّدًا أنَّكَ يا فرعونُ مع كونكَ تُنكِرُ قولي فإنّي لأَظُنُّكَ يا فرعونُ ملعونًا مغلوبًا مُهلَكًا ممنوعًا من الخير، فاسدَ العقل[4]، فحسُنَ التَّأكيد لمقام التّأكيد السّابق.

بلاغةُ استعمال مُفردة الظَّنِّ:

جزاءُ سيّئةٍ سيّئةٌ مثلها

استعمل النَّظم مُفردة الظَّنِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ﴾ لمقابلة ظنِّ فرعون، مع أنَّه قد تقدَّم ذِكرُ مفردة العلم ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾، لكن لأجل المقابلةِ الّتي توجب ردَّ السّيئة بالسّيئة؛ أتى بمفردة الظَّنِّ، كما أنَّها عبارةٌ نطقَ بها موسى عليه السلام تدلُّ على تأدُّبِ موسى عليه السلام مع اللّهِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 415.
(2) العُكْبَريّ، التّبيان: 2/ 97، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 487.
(3) درويش، إعراب القرآن: 5/ 511.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 527.

ﷻ[1]، فإنَّ الثّبور وهو الهلاك والخسارة لا تكون على وجه اليقين إلّا للّه بأمرِ اللّه تعالى.

بلاغةُ المقابلةِ بين الفاصلتيْن:

ظنُّ فرعونَ إفْكٌ مبين، وظنُّ موسى يُتاخِمُ اليقين

جاءَ جوابُ موسى عليه السلام لفرعونَ بمثلِ ما شافَهَهُ فرعونُ به، من قولِه: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ مُقارعةً له، وإظْهارًا لكونه لا يخافُه، وأنَّه يعاملُه معاملةَ المِثْلِ، قالَ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: 194][2]، وهذا من عزّة الخطاب المُنبئ عن ثبات أهل الحقِّ، وعزّتهم في دينهم.

فقارع موسى عليه السلام ظنَّه بظنِّ فرعون، كأنَّه قال: (إنْ ظننْتَني مَسْحورًا، فأنا أَظُنُّكَ مَثْبورًا هالكًا، وظَنّي أصحُّ من ظنِّك؛ لأنَّ له أمارةً ظاهرةً؛ وهي إنكارُكَ ما عرَفتَ صحَّتَه، ومكابرتُكَ لآياتِ اللّهِ بعدَ وضوحِها، وأمّا ظنُّكَ فكذِبٌ بَحْت؛ لأنَّ قولكَ مع علمِك بصحَّةِ أمري: إنّي لَأَظُنُّكَ مسحورًا قولُ كذّابٍ)[3].

بلاغةُ مقابلة النِّداء للنِّداء:

تنزيلُ فرعونَ مَنزلةَ البعيدِ تحقيرًا له مع وصفِه بالهلاك

في نداءِ فرعونَ لموسى عليه السلام، بقولِه: ﴿يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾؛ أيْ: (قد سَحَرْتَ بكلامِكَ هذا)، وهو مختَلٌّ وما يأتي به غيرُ مستقيم، وهذا خطابٌ بنقيضِ الحقِّ وصِدْقِ هذه الآيات، أو: (أنت ساحرٌ؛ فهذه العجائبُ الّتي تأتي بها من أمرِ السِّحر).

ولكنَّ خطابَ موسى عليه السلام لفرعونَ وتبكيتَه في قولِه عنه بأنَّه مَسْحور؛ أيْ: (لقد علمتَ أنَّ ما جئتُ به ليس من بابِ السِّحر، ولا أنّي خُدِعتُ في عقلي؛ بل علمتَ أنَّه ما أَنْزلَ تلكَ الآياتِ إلَّا اللّه)، ولذلك جمعَ موسى مع ندائِه بالبعيدِ لفرعونَ تحقيرًا له

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 227.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 228.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 469، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4470.

بوصفِه له أنَّه مثبور؛ أيْ: هالكٌ لا محالة، زيادةً في التَّبكيتِ والازْدراءِ والتَّوبيخ[1].

نكتةُ المقابلة باستعمال الاسم الصَّريح للطَّرفَيْن:

إعلاءُ اللهِ تعالى لموسى عليه السلام بمقامِ الرِّسالة

يُلاحَظُ أنَّ موسى عليه السلام نادَى فرعونَ بلقبه؛ لأنَّه إذا كانَ فرعونُ قدِ اسْتَعْلَى بجَبروتِه، فموسى عليه السلام قد أَعْلاهُ اللّٰهُ بمقامِ الرِّسالة، فحُقَّ له أنْ يُخاطِبَه باسْمِه الصَّريح[2]، وفيه مقارعةُ الخصومِ بقوَّة الخطابِ وباستعلاءِ الإيمان، فليس لفرعون أن يُنادِيَ بالاسم الصَّريح، ويُنادى هو بألقاب الجلال، وقد جرى لفظ فرعون مجرى الاسم العَلَم من حيث الاستعمال.

دلالةُ التَّعبيرِ باسْمِ المفعول ﴿مَثۡبُورٗا﴾:

النِّذارة بقُرْبِ هلاكِ فرعون إخبارٌ من عالِم الغيب ومُسيِّر الكون

لفظ ﴿مَثۡبُورٗا﴾ اسْمُ مفعول بمعنى: الَّذي أصابَه الثُّبور؛ وهو الهلاك، ودلَّ هذا التَّعبيرُ على التَّهديدِ والوعيدِ لفرعون، فهو نذارةٌ بقُرْبِ هلاكِه[3]، ولا يكون هذا إلا إخبارًا من اللّٰه تعالى، فيكون الإخبار غيبيًّا لا علاقة لموسى عليه السلام به.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الثُّبورُ والهَلاك:

الثُّبورُ هلاكٌ مع لَعْنٍ وتعذيبٍ، والهلاك الموت والفقد

الثُّبورُ: الهَلاك، ورجلٌ مَثْبورٌ: هالِك، قالَ تعالى: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾ [الفرقان: 13][4]، والمَثْبورُ: الملعونُ المحبوسُ عن الخَيْر[5]، والمَثْبورُ: المُعذَّبُ المردودُ عنِ الشَّيء، يقالُ: ثَبَرْتُ فلانًا عنِ الشَّيء: ردَدْتُه عنه[6]، **والهلاكُ**: السُّقوط، ولذلكَ يُقالُ للميِّتِ: هَلَكَ، والهلاكُ يأتي

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 121.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4470.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 227.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثبر)، والنَّحّاس، معاني القرآن: 4/ 203.
(5) الفرَّاء، معاني القرآن: 2/ 132.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ثبر).

بمعنى افْتقادِ الشَّيء عنك وهو عندَ غيرِك موجود، كقوله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقَّة: 29]، وهلاكُ الشَّيءِ باسْتحالةٍ وفسادٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: 205]، والهلاكُ: بطلانُ الشَّيءِ من العالمِ وعدَمُه أصلًا، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: 88].

﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣﴾

[الإسراء: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من الغطرسة الفكريّة إلى الغطرسة الماديّة المنتهية بالغرق

لَمّا ذكرتِ الآية السّابقة كذب فرعونَ وقد زادته الآياتُ الحِسّيَّةُ عُتوًّا في الأرضِ وفسادًا ولم تُقْنِعْه، وكذلك لم تُقْنِعْ أشباهَ فرعونَ من طواغيتِ ملكِه؛ خرجَ فرعونُ عن عَهْدِه، فحاولَ إخراجَ موسى وبني إسرائيلَ بزيادةِ طُغيانِه عليهم، فناسب أن يَذكُرَ إرادته باستفزاز بني إسرائيل: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم﴾[1]؛ فهو انتقالٌ من الغطرسة الفكريّة إلى الغطرسة الماديّة.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَفِزَّهُم﴾: (فزز) أصلٌ يدُلُّ على خِفَّةٍ وما قاربَها، تقول: فزَّه واسْتفزَّه، إذا اسْتخفَّه، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الإسراء: 76]؛ أيْ: يحملونَكَ على أنْ تَخِفَّ عنها، وأفزَّه الخوفُ وأَفْزَعُه: أَزْعجَهُ واسْتخفَّه[2]، قالَ أبو ذُؤَيْب: (شَبَبٌ أفزَّتْهُ الكلابُ مُرَوَّعُ)[3]، وقولُه تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم﴾؛ أيْ: يُخرجَ بني إسرائيل، ويُزعجَهم من الأرض، أو يَنفيَهم عن ظهرِها بالقتلِ والاسْتئصال[4].

2) ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾: (أرض) أَصْلٌ يتفرَّعُ وتكثُرُ مسائلُه، وأصلانِ لا يَنقاسان؛ بل كلُّ واحدٍ موضوعٌ حيث وضَعَتْه العرب، والأصلُ الأوَّلُ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4470.

(2) الزَّجّاج، معاني القرآن، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فزّ).

(3) وصدره: والدَّهرُ لا يَبْقَى على حَدَثانه، يُنظر: الشُّعراء الهذليّون، وديوان الهذليين، ص: 10، والجوهري، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (فزَّ)، والشَّبب: الثَّوْر المُسِنّ.

(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/ 469، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 365.

- وهو المُرادُ هنا - فكلُّ شيءٍ يَسْفُلُ ويُقابِلُ السَّماء، يُقالُ لأَعْلى الفرَس: سَماء، ولقوائمِه: أَرْض، قال الشّاعرُ في صفةِ فرس[1]:

وأَحْمَرَ كالدّيباجِ أمّا سَماؤُهُ *** فَرَيّا وأمّا أَرْضُهُ فَمُحولُ[2].

والأرضُ الَّتي نحن عليها، هي الجِرمُ المقابلُ للسَّماء، وتُجمَعُ أَرَضين، ولم تجئ في كتابِ اللّهِ مجموعةً، وقولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أيْ: عموم الأرض، أو أرضِ مصر[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

أهلك الله فرعونَ من حيث أراد إهلاك بني إسرائيلَ

أرادَ فرعونُ أن يستخفّ بني إسرائيلَ ويُزيلَهم من أرضِ مصر إمّا بالقتل أو بالإجلاء، فأَغْرقناه ومَنْ معه من جُندِه فأهلكناهم، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ[4]، وقد أوجزتِ الآية الحدثَ بإرادة فرعون إهلاكَ بني إسرائيل؛ فأهلكه اللّه بالإغراق.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الفاء ودلالتها في جملة: ﴿فَأَرَادَ﴾:

قد يكون من الإرادة ما يرمي بالمريد في مهاوي الهَلَكة

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَرَادَ﴾ للسَّببيَّة؛ أيْ: فما تسبَّبَ عن هذا الَّذي هو موجِبُ الإيمانِ في العادةِ إلّا أنَّ فرعونَ أرادَ أنْ يستخِفَّ موسى ومنْ آمنَ معه ويُخرجَهم[5].

نكتةُ استعمال لفظ ﴿يَسۡتَفِزَّهُم﴾:

الخلاص من بني إسرائيل بتحريكهم وإزعاجهم لإهلاكهم

الاسْتفزازُ: الحَملُ على التَّرحُّل، وهو اسْتفعالٌ من فَزَّ؛ أيْ: طلبُ الفَزِّ، وهو الخِفَّةُ والانْزعاجُ وتركُ التَّثاقل، والسّينُ والتّاءُ فيه، للجَعْل النّاشئ عن شدَّةِ الطَّلب، والحثِّ الَّذي هو معنَى السّين والتّاء؛ أي:

(1) البيت لطفيل الغنوي، وهو من ملحقات شعره، ص: 62، والحِميَري، شمس العلوم: 1/ 72.
(2) الخليل، العين: 7/ 56، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (أرض).
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/ 469، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 365.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/ 64، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 365.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 528.

اسْتخفَّهم وأزعَجهم، وفزَّ بمعنَى: بارَحَ المكان؛ أيِّ: أرادَ فرعونُ أن يكونَ موسى ومَن آمن معه فازّين؛ أيِّ: خارجينَ من أرض مصر، والمُرادُ بالإخراج: مفارقةُ المكانِ دونَ رُجوع، والاسْتفزازُ أعمُّ من الإخراج، فهو يريدُ أن يَبْرَحوا أرضَ مصر، مع قَتْلِهم واسْتئصالِهم ليضمنَ عدمَ رجوعِهم بالكُلّيَّة(1).

وهذا المعنَى يمكنُ أن يكونَ من قولِهم: فزَّ الجُرحُ؛ أيِّ: سالَ، فيكونُ إخراجُهم كالماءِ إذا سال، وذلك يَقْتضي - كما تقدَّمَ آنفًا - النَّفيَ والقتلَ، للتَّمكُّنِ من اسْتبعادِ الباقين، والبقاءِ على ما هو عليه من الكفرِ والعنادِ، وتَنْصيبِ نَفْسِه إلهًا على مَنِ اسْتخفَّهم فأطاعوه(2).

فالّذي أراده فرعون هو إزعاج بني إسرائيل، بحيث يقومون بأفعالٍ من شأنها أن تُسوِّغ قتلهم وإخراجهم وإهلاكهم، وهذا ديدن الظّالمين في كلِّ زمان.

كيد الظّالمين ينتهي بالبَوار والخسار كما وقعَ لفرعون وجنده

بلاغةُ الكنايةِ في أثناءِ الآية:

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ كنايةٌ عن الإبعاد؛ أيِّ: إخراجُهم من الأرضِ أرضِ مصرَ الّتي هم فيها، أو من جميع الأرض، ويلزمُ من ذلك قتلُهم واسْتئصالُهم وهو المُراد(3)، ونكتة الكناية أنَّه ذكر الاستفزاز، مريدًا به ما بعده، للتَّنبيه على مسلك الظّالمين في اصطناع المواقف مع المخالفين؛ لإيقاعهم بكلامٍ يصدر عنهم من شأنه تضخيم غضب المستفزِّ، ولذا كان الصَّبر هو مسلك عقلاء المؤمنين.

دلالةُ (ألْ) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

اللّامُ في قولِه: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعَهْدِ؛ أيِ: الأرض المعهودة عندَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 153، 178، 228.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 528.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 176، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 228.

المقيمينَ فيها، وهي أرضُ مصر، فيُخرجُهم منها، ويمكنُ أن تكونَ للجِنْس؛ أيْ: من الأرضِ مطلقًا وذلك بالقَتل[1]، ومتى ذُكرت الأرض عمومًا، فإنّما يُراد بها ما يناسب القصّة المُتكلَّم فيها، وقد يَحسُن عمومها في بعض القصص[2].

مِنْ أكبرِ الظُّلمِ وأعظَمِ المكرِ إخراجُ المستضعفين من أرضهم

براعةُ استعمال الفاء في الجزاء بالمقابلة:

دلَّت الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ﴾ على التَّعقيبِ، في بيان جزاء الفعلِ المأفون على جهة الفور، كما قال تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]؛ أي: فَعَكَسْنا عليه مَكْرَه، واسْتفززناهُ وقومَه بالإغراق، وهذا التَّعكيسُ أَظْهرُ من الشَّمسِ على الثّاني - أيِ: الإخراجُ من الأرض - وظاهرٌ على الأوَّل - أيِ: الإخراج من أرض مصر - لأنَّه أرادَ إخراجَهم من مصر، فأُخرِجَ هو ومَنْ معه أشدّ الإخراجِ بالإهلاك، والزّيادةُ لا تضرُّ في التَّعكيس؛ بل تؤيّدُه[3]، فهو أراد إخراجهم بالقتل من الأرض كلِّها، أو بالإجلاء من أرض مصر، فأخرجه اللّه من الأرض كلّها بالإغراق، والمعنيان لا يتعارضان بل يلتقيان، فأفادت الفاءُ الجزاء بالمقابلة.

مَنْ مَكَرَ بالآخرين مُكِرَ به ولو بعد حين

دلالةُ إسنادِ فعلِ ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ﴾ لضميرِ العَظَمَة:

قولُه تعالى: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ﴾؛ أيْ: فتسبَّبَ عن ذلك أنْ رَدَدْنا - بما لنا من العَظَمة - كيدَه في نَحْرِه، فلم نُقدِرْه على مُرادِه، واسْتَفْزَزْناه نحن بعظَمتِنا، فلم يقدِرْ على الامتناع؛ بل خفَّ غير عالم بما نُريدُ به حتَّى أَدْخلناه في البحر حيث أَدْخلنا بني إسرائيل، فأَنجيناهم وأغرقناه، وهذا كلُّه فعلُ اللّهِ بعظَمتِه وجَبَروته وانْتقامِه[4].

تعظيمُ انْتقامِ اللهِ تعالى من فرعونَ بالإغراق

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/ 469، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 487.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 490.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 487، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 176.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 528.

نكتةُ عطف الكلِّ على الواحد:

مَن يتبع أهلَ الباطلِ يُحسب معهم ويُجازى بجزائهم

آثر النَّظم ذِكْر فرعون، وعطف مَن معه عليه في الإغراق في قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ دون أن يقول: (فأغرقناهم جميعًا)؛ وذلك للتَّنبيه على أثر القيادة الفرعونيَّة في إهلاك مَن يُطيعها في الدُّنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ٩٨ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ٩٩﴾ [هود: 97 - 99].

دلالة استعمال الاسم الموصول ﴿وَمَن﴾:

لـم يـنـجُ أحـدٌ ممَّـن كـان مع فرعـون لعموم العذاب

استُعمل الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ بلفظ ﴿وَمَن﴾ دون (الّذين) لاستغراق الجميع؛ فإنَّ العادة قد جرت أنَّ الجيوش إذا ذهبت في قتالٍ، أو وقعت في كمينٍ؛ فإنَّه ينجو بعضها، فأتى بالاسم الموصول بهذا اللّفظ لدفع أيِّ استثناءٍ كان، وهذا ما أكَّده قوله: ﴿جَمِيعًا﴾.

نكتة استعمال المعيّة ﴿مَّعَهُۥ﴾:

مَن لازمَ الظّالمين طاله ما يطالُهم

استُعملت المعيَّة في قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ دون أن يقول: (ومنْ تبعَهُ)؛ لبيانِ أنَّهم كانوا معه بقلبهم وإرادتهم وصُحبتهم، فهم يرضون بصنيعه وقيادته وإمامته، ففيه بيان عدل الله تعالى، وأنَّه لا يظلم النّاس شيئًا، فهم كانوا معه عند تعذيب بني إسرائيل في أرض مصر، وهم كانوا معه في ملاحقتهم لقتلهم، وهم كانوا معه في كلِّ ظلم وفسق وفجورٍ قام به، وهم كذلك كانوا معه في الغرق الواضح، والإغراق الصّارخ.

بلاغةُ التَّعريضِ بعقاب المشركين:

في الآيةِ الكريمةِ تعريضٌ بتمثيلِ الحالَيْن - حالِ المشركين وحالِ فرعونَ وجُنده - ذلك أنَّ فيها إنذارًا للمشركين، بأنَّ عاقبةَ مَكْرِهم وكَيْدِهم ومحاولاتِهم صائرةٌ إلى ما صارَ إليه مكرُ فرعونَ وكَيْدُه، ففرَّعَ على تمثيلِ حالَي الرِّسالتَيْن وحالَي المُرسَلِ إليهما ذِكْرَ عاقبةِ الحالة

الممثَّلِ بها نذارةً للمُمثَّلين بذلك المصير، فقد أضْمَرَ المشركونَ إخراجَ النَّبيِّ ﷺ والمسلمينَ من مكَّة، فَمُثِّلَتْ إرادتُهم بإرادةِ فرعونَ إخراجَ موسى وبني إسرائيلَ من مصر، قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ [الإسراء: 76][1]، فمن حيث أراد استفزازهم لقتلهم وإجلائهم؛ وقع عليه ذلك بالإغراق والإخراج من الأرض كلِّها، وهذا ما سيكون للمشركين إن هم صنعوا ما صنع فرعون وجندُه، ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾ [فاطر: 43 - 44].

التَّلويح بالعذاب وقايةٌ لمَنْ تبصّر وهلاكٌ لمَنْ تجبّر

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الاسْتفزازُ والاسْتخفافُ والنَّفْيُ:

الاسْتفزازُ اسْتخفافٌ بغرض الإخراج، والاستخفاف خاصّ بالاستجهال

معنى الاسْتفزاز: الاسْتخفافُ والإزْعاج، والإخراجُ من المكان والنَّفي[2]، والاسْتدعاءُ اسْتدعاءً تستخِفُّه به إلى جانبِك[3].

وأمّا الاسْتخفافُ: فهو الاسْتجهال، يُقالُ: اسْتخفَّه فلان: إذا اسْتجهَلَه فحَملَه على اتِّباعِه في غيِّه، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ﴾ [الرّوم: 60]؛ أيْ: (لا يزعجنَّك ويُزيلنَّك عنِ اعتقادِك بما يوقعونَ من الشُّبَه)[4].

والنَّفْيُ: تعْرية شيءٍ من شيءٍ وإبعادُه عنه، ونفَيْتُ الشَّيء أَنْفيه نَفْيًا، وانْتفَى هو انْتفاءً، ونفيُّ الرّيح: ما تَنْفيه من التُّراب؛ أيْ: تُبعِدُه حتَّى يصيرَ في أصولِ الحيطان[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 228.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فزّ).
(3) الزَّجّاج، معاني القرآن: 3/ 250، والأزهري، تهذيب اللُّغة: (فزّ).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (خفّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفى).

﴿وَقُلْنَا مِنْۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ١٠٤﴾ [الإسراء: 104]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ هلاك المتجبّرين بصبرِ المؤمنين وما أوتوا من السّكينة والتّمكين

لَمّا ذكرتِ الآيةِ السّابقة إنجاءَ اللّه تعالى موسى وبني إسرائيل من فرعونَ، إذْ خَرجوا من البحرِ ناجين، وغَرِقَ هو وجيشُه الَّذي يُسيطرُ عليه مغترًّا باغْترارهم، ومُسْتقْويًا بضلالِهم؛ ناسب أن يذكر ما حصل لبني إسرائيل من رعاية اللّه تعالى وإكرامه لهم، بأن يسكنوا الأرض، ليتمتّعوا ويطمئنّوا بعد الخوف والحزن، وهذا جزاء المؤمنين بأنْ تكون لهم العاقبة، إن صبروا على الابتلاء، ورضوا بقَدَرِ اللّه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَفِيفًا﴾: (لفف) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على تلوّي شيءٍ على شيءٍ، يُقالُ: لَفَفْتُ الشَّيءَ بالشَّيءِ لَفًّا، والأَلْفافُ: الشَّجَرُ يَلْتَفُّ بعضُه ببعض، قالَ تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ١٦﴾ [النّبأ: 16]، واللَّفيفُ: ما اجْتمعَ من النّاسِ من قبائلَ شتّى[1]، وهو معنَى قولِ الفرّاء: من هاهنا وهاهنا[2]، وقولِ الزَّجّاج: من كلِّ قبيلة[3]، وقولُه تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾؛ أيْ: جميعًا من كلِّ موضعٍ ومن كلِّ قوم[4].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

أمرُ الله نافذٌ وحكمه قاهرٌ في استقرار الدّنيا ومآل الآخرة

قُلنا على لسانِ موسى ﷺ من بعدِ إغراقِ فرعونَ ومَنْ معه لبني

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لف).
(2) الفرّاء: معاني القرآن: 2/ 132.
(3) الفرّاء: معاني القرآن: 3/ 263.
(4) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/ 371، وابن جرير، جامع البيان: 15/ 177، والماوَرْديّ، معالم التَّنزيل: 3/ 278.

إسرائيلَ الَّذين أرادَ فرعونُ اسْتفزازَهم: اسْكنوا الأرضَ الَّتي أرادَ فرعونُ أنْ يَستفزَّكم منها؛ وهي أرضُ مصر، فإذا جاءَ وعدُ يومِ القيامةِ، جئنا بكم جميعًا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطف الجملة على الجملة:

ملمح الانْتقام مِن الظّالمين والتَّمكين للمؤمنين

هذه الآيةُ الكريمةُ وشيجةُ الصِّلةِ بما قبلَها، وهذه الصِّلةُ تُظهرُ انْتقامَ اللّهِ ﷻ من أعدائه والتَّمكينَ لأوليائه، فالحكمُ للّهِ ﷻ، فكأنَّ بيانَ اللّهِ تعالى قال: حَكَمنا بين الفريقيْنِ في الدُّنيا بِغرقِ الكَفَرةِ وتمليكِ المؤمنين، وسَنحكُمُ بينَهم يومَ القيامة[2]، فالواو عَطَفت خبرًا على خبرٍ، وفي الخبريْن بيانٌ لسُنَّة اللّه تعالى في جزاء الظّالمين، وإنصاف المظلومين، إن استعانوا باللّه تعالى حقَّ الاستعانة وفقَ مراده، وعلى هدي أحكامه.

نكتةُ جملة ﴿وَقُلۡنَا﴾ مع ضميرِ العَظَمة:

سنَّةُ الله ماضيةٌ في المؤمنين بقول (كُنْ)

قولُه تعالى: ﴿وَقُلۡنَا﴾؛ أيْ: بما لَنا من العَظَمة، فدلَّ إسنادُ فعلِ (قال) إلى (نا) الدّالَّةِ على العَظَمةِ، على أنَّ حُكْمَ اللّهِ وقُدرةَ اللّهِ لا يتعاظمُهما شيء[3]، وأتى بمفردة القول لبيانِ أنَّ أمرَه ﷻ في تبديل الأحوال، إنَّما يكون بقولٍ، فقوله الفعل، والإرادة والمشيئة والحكم، فلم يقل: (فأسْكَنّاهُم الأَرْضَ)، والمعنى متقارب، وذلك لبيانِ أنَّ سنةَ اللّه تعالى ماضيةٌ في عبادِه المؤمنين، وهي تأتي من غير تبديلٍ أو تغيير.

معنَى حرفِ الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ ودلالتُه:

تخليةُ الظّالمين من الأرضِ مقدِّمةٌ لتحليَتِها بالمؤمنين

لَمّا كانَ هذا القولُ في ﴿وَقُلۡنَا﴾ غيرَ مُستغرقٍ لزمانِ البُعد؛ أُثبتَ الجارُّ؛ فقالَ تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: الإغراق[4]، ومعنى ﴿مِنۢ﴾

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 176.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 229.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 528.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 529.

الابتداء؛ أي: ابتداءً من بعد أن أغرق فرعون، وبه تكون التَّخلية من الظّالمين مقدّمةً للتَّحلية بالمؤمنين، فاللّه ﷻ أخلى الأرض وقمَّها من أدران الكافرين، ثمّ أسكن فيها المؤمنين؛ ليُعظِّموا شعائره ويُقيموا أركانَ دينه، وبذلك يتمكَّنون ويبقون.

نكتةُ تقديم ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾:

البعديَّة هي الفاصل بين حالَيْن متناقضيْن

قُدِّم ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ على قوله: ﴿لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ لبيانِ أنَّ ما بعد الإغراق هو الأصل في هذا الموقف، وهو الفاصل بين حال تمكّن الظّالمين، وحال استخلاف المؤمنين، وأنَّ البعديّة هي للّه تعالى، فلا تكون إلّا بأمره وتدبيره.

دلالةُ إضافة الظَّرف للضّمير:

لا سبيل للخلاص من الظّلم إلّا بطاعةِ ربِّ العالمين

أُضيف الظّرف إلى الضَّمير ﴿بَعۡدِهِۦ﴾، لبيانِ أنَّ إغراق فرعون، يُمثِّل النَّجاة الحقيقيَّة للمؤمنين، وأنَّ بقاء الكفر حاكمًا متغطرسًا متجبِّرًا لا سبيل للخلاص منه إلّا بالصّبر، وطلب الإعانة من اللّه تعالى، فهو صاحب الإغراق والإنجاء، وصاحب الإهلاك والتَّمكين، وبدون ذلك فإنَّ مصير المؤمنين إلى عذابٍ باقٍ، وقهرٍ وذلٍّ لا يُرفع، ومَن لجأ إلى غير اللّه ليُعينه على الظّالمين، فلْيلُذ بمَن شاء، وليلق جزاءَ اختياره؛ فإن عاد إلى اللّه تعالى بما يُريد، وعلى ضوء ما أمر، أنقذه ممّا هو فيه.

نكتةُ ذِكْر قيدِ: ﴿لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

لا يستخلف اللّه في الأرض إلّا مَنْ عَمِل صالحًا وأخلص له

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ للتَّعدية، وقد ذُكر هذا القيد مع وضوح معناه، لبيان موضع المنَّة، وهو أنَّ الأمر بالسَّكن - وهو الاستخلاف - كائنٌ لهم، وهو محضُ مِنّةٍ وتَكْرِمَةٌ اختصّ اللّه بها أولئك المُضطَهدين من بني إسرائيل، الّذين عانوا الأمرَّيْن، وذاقوا العذاب ذلّةً وهوانًا، والتّضييقَ أشكالًا وألوانًا، فكانوا ثلّةً من المُناصرين والمُصطَفَيْن، في معيّة موسى وأخيه هارون، فحازوا

التّمكين قبل أن ينحرفوا عن الجادّة ويتّخذوا العِجل إلها ويرتكبوا المخازي، ممّا لعنهم الله به لأسبابٍ موضوعيّةٍ وواقعيّةٍ معلومةٍ، وقد عبّر القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: 78 - 79].

نكتة الأمرِ في الفعل ﴿ٱسۡكُنُواْ﴾:

منّةُ الله محيطةٌ بعباده؛ بل تأتيهم أمرًا لازمًا

جاءَ الأمرُ الإلهيُّ لبني إسرائيل ﴿ٱسۡكُنُواْ﴾، والمقصود به الامتنان، فإنَّ أمرَ الجائع بأن يأكل هو أمر امتنانٍ وعطاءٍ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ فرعونَ كانَ يريدُ مَحْوهم عنِ الأرض، أو إلى أنَّ سُكناهم مع وجودِه كانت عدَمًا لما بهم من الذُّلّ، فأمرَهمُ اللّهُ أن يسكُنوا الأرضَ بحيث يسكنونَها لا يَدَ لأحدٍ عليهم، ولا مانعَ لهم ممّا يُريدونَ منها[1]، وهذا من عظيم الامتنان عليهم.

توجيهُ المتُشابِه اللّفظيّ بين الأمر بالسّكنِ والدّخول:

السُّكنى بعد مجاهدة النَّفس، والدُّخول قبل مجاهدة العدوّ

قال تعالى في سورة المائدة: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: 21]، في حين قال هنا: ﴿ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾، والفرق بينهما أنَّ السُّكون: ثبوتُ الشَّيء بعدَ تحرُّكٍ، ويُستعمَلُ في الاسْتيطان؛ نحو: سكنَ فلانٌ مكانَ كذا؛ أي: اسْتوطنَه، واسْمُ المكان: مَسْكَن، قال تعالى: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [يونس: 67]، وقالَ سُبحانه: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: 25]، فمنَ الأوَّل يُقالُ: سكَّنْتُه، ومنَ الثّاني، يُقالُ: أَسْكَنْتُه، كما قالَ تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: 37][2].

وأمّا الدُّخولُ: فهو نقيضُ الخُروج، ويُستعمَلُ ذلك في المكان والزَّمان والأعمال، قالَ تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النَّحل: 32]، وقالَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 529، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 176.

(2) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سكن).

سُبحانه: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الإنسان: 31]، وقالَ تعالى: ﴿رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ [الإسراء: 80].

فاستعمل فعل الأمر ﴿ٱسۡكُنُواْ﴾ في سياق الاستقرار، فإنَّ سكناهم أرض مصر لم يكن بعد جهادٍ وقتال؛ بل بعد صبر ومجاهدة نفس، وأمّا الأمر ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ﴾ [النحل: 32]؛ فقد جاء أمرًا لهم بقتال عدوِّهم بدخول الأرض المقدّسة فافترق المقام، ولذلك ناسبَ كلَّ مقامٍ اللّفظُ الواردُ فيه.

معنَى (ألْ) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ هنا:

الأرضُ المعهودةُ أرضُ مصر

قولُه تعالى: ﴿ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أيْ: أرضَ مصر، وهي الأرضُ الَّتي أرادَ فرعونُ أنْ يستفزَّهم منها لتُصبحَ أرضَهم مملَّكينَ فيها، بعد أن كانوا عبيدًا يُسامون فيها سوءَ العذاب[1]، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنّها أَرْضُ الشّامِ، وهي المعهودةُ لبني إسرائيلَ بوعْدِ اللّه إبراهيمَ إيّاها[2]، والصَّحيح أنَّها أرض مصر لقوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾ [الشعراء: 57 - 59].

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَإِذَا﴾:

دفعُ توهّمِ أنَّ تحصيلَ الدُّنيا هي مقصودُ إغراقِ فرعون

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عاطفةٌ، ودلَّت على سرعةِ مجيء الوعد الحقِّ، ومناسبتها في السّياق دفعُ توهُّم أنَّ السُّكنى في الأرض الّتي هي رغدٌ ونعيمٌ، هي المقصود بالإغراق والإنجاء، فإنَّ القيامةَ هي الأصل الّذي يجب أن يعمل له العاملون، في خدمة دين اللّه تعالى، لا الدُّنيا الفانية، ففي ذلك تنبيهٌ على سرعة العاقبة في الآخرة، وأنَّها المقصود الحقيقيّ لا الدُّنيا.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 529، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 176.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 228.

نكتةُ استعمال ﴿فَإِذَا﴾:

لفتُ الأنظارِ إلى يقينيَّة مجيءِ الآخرة

استعمل النَّظم ﴿فَإِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الدّالّة على تحقُّق الوقوع وهي للأمر المستقبل، لتنبيه المخاطَبين بيقينيَّة الوقوع، وأنَّها تحصيل حاصلٍ؛ ليلتفتوا إلى الآخرة التفات المقبلِ، ويُدْبِروا عن الانشغال في الدُّنيا إدبار المُنْقطِع.

نكتةُ الإسناد المَجازيِّ في الآية:

تـحـقُّـقُ وقــوعِ وعْـدِ القيامة، ممّا لا مندوحة عنه

في قوله تعالى: ﴿جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أُسند المجيءُ إلى الوعد؛ وهو إسنادٌ مجازيٌّ المقصود منه تصوير الوعد بأنَّه جاءٍ، وهو أدعى لامتثال مضمون الخطابِ، ولإفادةِ تحقُّقِ مجيءِ الوعد؛ أيْ: وقوع القيامةِ لا محالة، فبعدَ أنْ سَكنْتُم الأرضَ أحياءً ودُفِنْتُم فيها أمواتًا؛ سنبعثُكم جميعَكم في هذا اليوم[1].

بلاغةُ الاسْتعارةِ المَكْنيّة في السّياق:

تجسيد الحقائق أقوى أثرًا وأرسخُ نفعًا

شُبِّه الوعد في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بشخصٍ يجيءُ، وحُذف المُشبّه به وذُكر لازمٌ من لوازمه وهو المجيء، وذلك على سبيل الاستعارة المَكنيَّة الأصليّة، وبلاغة الاستعارة تكمُن في أنَّ تشخيص المعاني وتجسيد الحقائق أقوى في نفس المُتلقّي من ذِكْر المعاني مجرَّدةً عن ذلك.

فائدةُ الإطلاقِ في لفظِ: ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

يومُ اللّقاءِ الأكبر هو المُعوَّلُ عليه

أُطلق لفظ: ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون تقييدٍ بزمنٍ؛ لإفادةِ أنَّ العبرةَ بالمآلاتِ والخواتيم، وما يحدُثُ في الدُّنيا ماضٍ، والآخرةُ للّه؛ لأنَّ فيها الجزاءَ والحساب، لا حُكمَ لأحدٍ على آخَر، ولا دَفْعَ لأحدٍ عن آخرَ على غيرِ الحالةِ الّتي كانت في الدُّنيا، وفيها تمييزُ بعضِ النّاسِ عن بعضٍ، فكيف بهؤلاءِ المشركين الجَهلَةِ يَستنصِحونَ اليهودَ الَّذين

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 529.

جَحَدوا ما أنعَم اللّهُ عليهم من إنقاذِ آبائهم وأجدادِهم من فرعونَ يُقتِّل أبناءَهم ويَسْتَحْيِي نساءَهم، وقد أخبرَ بذلك كلِّه القرآنُ الكريمُ، وهم يعلمونَ صِدْقَه، ويُنكرونَ ما جاءَ به من أخبارِهم تكبُّرًا وعنادًا؟!(1).

التراتب النظمي بين: ﴿جَآءَ﴾ و﴿جِئۡنَا﴾:

ترتُّبُ مجيءِ النّاس على مجيءِ الوعد كترتُّب المشروطِ على الشَّرط

في قولِه تعالى: ﴿جَآءَ﴾ و﴿جِئۡنَا﴾ جناسٌ ناقص، وهو هنا واقعٌ في اختلافِ الكلمتَيْنِ السّابقتَيْنِ في عددِ الحروف وترتيبها(2)؛ فجاءَ قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ يجمعُ الفعلَيْن: ﴿جَآءَ﴾ و﴿جِئۡنَا﴾ في سياقٍ واحد، وفيه بيانُ ترتُّبِ حدوثِ المجيءِ الثّاني - وهو مجيءُ بني إسرائيل - على حدوثِ المجيءِ الأوَّل؛ وهو مجيءُ وعدِ الآخرة.

وهذا الجناسُ بين الكلمتَيْن، مع ترتُّبِ الحدَثِ المتعلِّقِ بكلِّ واحدةٍ إثْرَ الأُخْرى، يجعلُ النَّفْسَ مُتشوِّقةً إلى سماعِ ما يأتي، متوافقًا مع النَّغْمةِ نَفْسِها، مع اختلافِ المعنى، ومع تصوُّرِ المشهدِ وكأنَّه أصبحَ قريبًا حاضرًا أمامَ السّامع، فيزدادُ تدبُّرُه ثمَّ تأثُّرُه به، وتقعُ العِبرةُ المُتوخّاةُ منه والمقصَدُ المنشود(3).

نكتةُ إسنادِ الفعل ﴿جِئۡنَا﴾ إلى ضميرِ العَظَمة:

مجيء الله بهم لفيفًا دالٌّ على قدرته القاهرة

قولُه تعالى: ﴿جِئۡنَا﴾ أُسْنِدَ فيه الفعلُ (جاءَ) إلى (نا) الضَّمير الدّالِّ على العَظَمة؛ أيْ: جئنا بما لنا من العَظَمةِ بكم جميعًا، لا حُكمَ لأحدٍ على أحد، ولا دَفْعَ لأحدٍ عن آخر؛ بل لنا الحُكمُ كلُّه(4)؛ فمجيءُ اللّه بهم لفيفًا دالٌّ على التَّمكُّنِ والاقتدار، والإحاطةِ والشّمول.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 530.
(2) نور الدِّين عتر، علوم القرآن، ص: 205 - 206، والمطعني، خصائص التَّعبير القرآني: 2/ 437.
(3) عيَّاش، نماذج من جناس الاشتقاق في القرآن، ص: 113 - 114، والمفتي، الجناس القرآني في تفسير فتح القدير، ص: 72.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 529.

سرُّ استعمال ضميرِ المُخاطَبينَ ﴿بِكُمۡ﴾:

تـغـلـيـبُ المخاطَبينَ على الغائبين

جاءَ التَّعبيرُ بضميرِ المخاطَبينَ ﴿بِكُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ﴾ تغليبًا للمخاطَبينَ على الغائبينَ، لمناسبتِه مع ﴿لَفِيفًا﴾، والمُرادُ بهم وبكم؛ فالمخاطَبونَ همُ المَعْنيّونَ أوّلًا بما وردَ في سياقِ الآية، ويأتي غيرُهم تَبَعًا لهم[1].

براعةُ استعمال مُفرَدَة اللّفيف:

إشارات القرآن إلى الغيبِ كامنةٌ في نفوس المُخاطَبين

استعمل النَّظم مفردة اللّفيف في قوله تعالى: ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفًا﴾ استعمالًا إشاريًّا بديعًا، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ بني إسرائيل بعد أن يسكنوا أرض مصر سوف ينتشرون في الأرض كلِّها، وأنَّهم سيكونون موزَّعين في البلاد والدّيار، واللّه تعالى سيأتي بهم يوم القيامة من هنا وهناك، فإنَّ تفرُّقَهم في الأرض لا يعني أنَّهم فارّون من قدر اللّه تعالى؛ بل سيأتون مجتمعين في الآخرة كما اجتمعوا في الدُّنيا سابقًا، ففي الآية إشارةٌ غيبيَّةٌ تُلامس فيها قلوبَ المخاطَبين، وتُحاكي مشاعرهم وأحاسيسهم، ولو قال: (جميعًا) لتحقَّق المعنى؛ لكنَّ الآية تُريد هذه الإشارة الّتي عرفها مَن عرفها من واقع القوم في التّاريخ كلِّه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآخِرةُ والأخيرةُ:

الآخِـرةُ النَّـشـأةُ الآخرة، والأخيرةُ مَقابِلُ الأوْلى

الأخيرُ: يُقابَلُ به الأوَّل، والأخيرةُ يُقابلُ بها الأولى، ويُعبَّرُ بالدّارِ الآخرةِ عنِ النشأةِ الثّانية، نحو: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: 64]، كما يُعبَّرُ بالدّارِ الدُّنيا عنِ النَّشأةِ الأولى، وربَّما تُرِكَ ذِكْرُ الدّار كما في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾[2].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 176.
(2) العسكري، الفروق، ص: 6، 86، والرَّاغب، المُفردات: (أخر).

اللَّفيفُ والجميع:

اللَّفيفُ جمع المفترق، والجميع مطلق الاجتماع

اللَّفيفُ: ما اجْتمعَ من النّاسِ من قبائلَ شتَّى، ومن كلِّ موضعٍ ومن كلِّ قوم، وأصلُه من الشَّجرِ يلتفُّ بعضُه ببعضٍ، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦﴾ [النَّبأ: 16][1].

والجماعةُ: أصلُها من الجَمع؛ أيّ: ضمُّ الشَّيءِ بتقريب بعضِه من بعض، يُقالُ: جَمَعتُه فاجْتمع، قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩﴾ [القيامة: 9]، ويُقالُ للمجموع: جَمعٌ وجَميعٌ وجَماعة، ويُقالُ: مَسْجِدُ الجامع، لاجْتماعِ جماعةٍ من المسلمينَ للصَّلاة فيه[2].

والحاصل أنّ (اللَّفيفَ) يكون لِما اجتمع بعد تفرُّقٍ، و(الجميعُ) لما هو مجتمِعٌ.

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لفف)، والفرَّاء، معاني القرآن: 2/ 132، والزَّجّاج، معاني القرآن: 3/ 263.
(2) الرَّاغب، المُفردات، والرَّازيّ، مختار الصِّحاح: (جمع).

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾ [الإسراء: 105]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

استمرارٌ في تعظيمِ شأنِ القرآنِ بِصِفَتَيْنِ عَظيمَتَيْنِ فيهما ثَناءٌ عَظيمٌ وتَنْبيهٌ لِلتَّدَبُّرِ فيهما

في هذه الآية عَودٌ إلى التَّنويهِ بشأْنِ القُرآنِ، فهو مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩﴾ [الإسراء: 89]؛ فلمّا عَطَفَ عليه: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ [الإسراء: 90] الآياتِ إلى هُنا، وسمَحَت مُناسبةُ ذكْرِ تكذيبِ فرعونَ موسى عليه السلام؛ عادَ الكلامُ إلى التَّنويهِ بالقُرآنِ لتلك المُناسَبةِ[1]، وهكذا طريقةُ العرب في كلامها؛ تأخذُ في شيء وتستطردُ منه إلى آخر، ثمّ إلى آخر، ثمّ إلى آخر، ثمّ تعود إلى ما ذكَرَتْه أوَّلًا[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَزَلَۗ﴾: النّزول كَلِمَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى هُبوطِ شَيْءٍ ووُقوعِه[3]، يُقالُ: نَزَلَ الشَّيء، ينزِلُ، نُزولًا، أي: هَبَط وانحَدَرَ مِنْ عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، وأنزلَ الشَّيء: جعله ينزِلُ[4]، والتَّنْزيل: ترتيبُ الشَّيْءِ ووضْعُهُ مَنْزِلَهُ، والتَّنَزُّلُ: النُّزول في مُهْلَةٍ[5].

2) ﴿مُبَشِّرٗا﴾: (بشر) أصلٌ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمالٍ، فالبَشَرَةُ ظاهِرُ جِلْدِ الإنسانِ، وسُمّيَ البَشَرُ بَشَرًا لِظُهورِهم، والبشيرُ: الحَسَنُ الوجْهِ، والبَشارَةُ: الجَمالُ[6]، والبُشْرى: الخَبَرُ الَّذي

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 416، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 229.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 176، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 229.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نزل).
(4) الجوهري، الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (نزل).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (نزل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).

يُغيِّر البَشَرة مِن حُزْنٍ أو سُرورٍ، ثمَّ خُصَّ في عُرْفِ اللُّغة بالسُّرور، ولا تكون إلّا بالخبر الأوَّل[1]، والبِشارَةُ: هي الحادِثُ المُسِرُّ لِمَنْ يُخْبَرُ بِهِ والوعد بالعَطيَّة، وسُمّيَتْ بذلك مِنَ البِشْرِ وهو السُّرورُ؛ لأنَّها تُظْهِرُ طَلاقَةَ وجْهِ الإنْسانِ وفَرَحَهُ، والمقصود بالمُبَشِّرِ في الآية: المُخْبِرُ بالبُشْرى، والنبي ﷺ مُبَشِّرٌ لأَهْلِ الإيمانِ والمُطيعينَ بِمَراتِبِ فَوْزِهم[2].

3) ﴿وَنَذِيرًا﴾: أَصْلُ (نذر) يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ[3]، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، وهو المُحَذِّرُ مِنْ شَرٍّ يُتَوَقَّعُ، والجَمعُ: النُّذُرُ، والتَّناذُرُ: إنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا[4]، ومِنْهُ النَّذْرُ، وهو أَنَّهُ يَخافُ إذا أَخْلَفَ، والنَّذْرُ أَيْضًا: ما يَجِبُ، كَأَنَّهُ نُذِرَ، أَيْ أوجِبَ[5]، والمُراد بالنَّذيرِ في الآية: المُحَذِّرُ مِنْ شَيءٍ يَضُرُّ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

كتاب الله العزيز قَيِّمٌ لا اختلافَ فيه ولا تناقضَ في لفظه ومعناه

يُبَيِّنُ الله تعالى شأنَ القرآنِ فيقولُ تعالى: وإنَّ هذا القرآن ما أنزلناه إلا مُلتبسًا بالحقِّ الَّذي تَقْتَضيهِ حِكْمَتُنا، وما أنزلناه إلّا وهو مُشتملٌ على كلِّ ما هو حقٌّ من العقائد والعبادات وغيرهما، نَزَل به جِبريلُ القَويُّ الأمينُ على سيِّدِنا مُحمَّدٍ ﷺ بلسانٍ عَربيٍّ مُبينٍ، مَحروسًا مِنَ الشَّيطانِ، مَحفوظًا مِن الزِّيادةِ والنُّقصانِ، لم يَقَعْ في طريقِ إنزالِه تَبديلٌ، ولم يَحدُثْ له تغييرٌ ولا تَحويلٌ، فالحقُّ سَداهُ ولُحْمَتُهُ، والحقُّ مادَّتُه وغايتُه، وما أرسَلْناك يا مُحَمَّدُ ﷺ إلّا لِتُبَشِّرَ الطّائِعينَ بالخَيرِ والثَّوابِ في الدُّنيا، والجَنَّةِ في الآخرةِ، وتُنذِرَ العاصينَ بالعِقابِ في الدُّنيا والآخِرةِ[6].

(1) النَّووي، تحرير ألفاظ التَّنبيه، ص: 267، والبقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 184.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 53.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نذر).
(4) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن عباد، المحيط في اللُّغة: (نذر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نذر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 113، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 127، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 468، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 448.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ الواو في قوله ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾:

الانتقال إلى الحديثِ عن القرآنِ تنويهٌ بعظمتهِ ومكانتِهِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ استئنافيَّة[1]، ويكون الكلام عن قصّة موسى وفرعون قد انتهى عند قوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الإسراء: 104]، ثمّ استأنفَ من جديد الحديثَ عن القرآن الكريم الذي سبقَ في الآيات: [الإسراء: 88 - 89] استئنافًا نَحْويًّا أي: عاد هُنا إلى تعظيمِ حالِ القرآن، وجلالةِ قدره، وبيان أنَّه هو الثّابتُ الذي لا يزول.

دلالة الباء في قوله ﴿وَبِٱلۡحَقِّ﴾ في الموضعين:

كتابٌ ممتزجٌ بالحقّ لا ينفكُّ عن الحقِّ ولا ينفكُّ الحقُّ عنه

جاء قوله: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ﴾ مكرّرًا في جملة ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ فأمّا الباء في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ فقد تكون للسَّببية، والجارُّ والمجرور متعلّقان بـ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ أي: "بسبب إقامة الحقِّ أنزلناه"[2]، وقد تكون للمُصاحَبة والمُلاصَقة بمعنى (مع)، والجارَّ والمجرور متعلّقان بحال من فاعِله، أي: (مُتلبِّسين بالحقِّ)[3]. يُقال: نزلَ بعُدَّتِهِ وخرجَ بسلاحه، أي معه عُدَّتُه وسلاحُه، والمعنى عندئذ: أنّ اللّهَ أنزلَ هذا القرآن ومعه الحَقّ[4]، والمُصاحَبة تشبهُ الظَّرفيَّة، فالقرآنُ مُشتملٌ على الحقِّ والهُدى[5]، أي: (وما أنزلناه إلّا مُتلبِّسًا بالحَقِّ الذي تقتضيه حكمتُنا)، فَكُلُّ ما فيه حقٌّ، فأخبارهُ صدقٌ، وأحكامهُ عدلٌ، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 115][6].

وأمّا الباء في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ فتحتملُ الوجهين كذلك،

---

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 128، وبهجت صالح، الإعراب المفصّل: 6/ 336.
(2) ابن التَّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 607.
(3) السَّمين الحلبي، الدُّر المصون: 7/ 424.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 417.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 229.
(6) سيِّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 448.

وهما: **الأوّل**: المُلابَسَةُ أو المُصاحَبَةُ[1]، والجارُّ والمجرور متعلِّقان بحالٍ من القرآن، والمعنى: وما نَزَلَ إلا متلبِّسًا بالحَقِّ والحكمةِ؛ لاشتماله على الهداية إلى كلِّ خيرٍ[2]؛ من العقائد والعبادات وغيرهما، فالحَقُّ سَداه ولُحمته، والحَقُّ مادَّته وغايته، أو أنَّه لم يقعْ فيه تغيير ولا تبديل في طريق إنزاله؛ لأنَّ الرَّسول المُؤتمَن على إنزاله قويٌّ لا يُغلَبُ عليه حتى يُغيِّر فيه، أمينٌ لا يُغيِّر ولا يُبدِّل، كما أشار إلى هذا سبحانه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ [الحاقة: 40][3].

الثّاني: الباء سببيَّةٌ، والجارُّ والمجرور متعلِّقان بـ ﴿نَزَلَ﴾، والمعنى: (نَزَلَ بسببِ الحقِّ)[4].

معنى ﴿وَبِٱلْحَقِّ﴾ وسِرُّ تكرار لفظه:

في التَّغايرِ بين الحقَّيْنِ تأسيسٌ وتنويعٌ، وفي تَساويهما تأكيدٌ

ذُكِرَ فِعْلُ النُّزول مرَّتين في قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ وذُكِرَ له في كُلِّ مَرَّة مُتَعَلِّقٌ مُتماثِلُ اللَّفظِ لكنَّهُ مُختَلِفُ المعنى، فَعَلَّقَ إنزالَ اللّٰه إيّاه بأنَّه بالحقِّ فكان معنى الحقِّ الثّابِتِ الذي لا ريب فيه ولا كذب، فهو كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2]، وهو رَدٌّ لتكذيبِ المُشركين أنْ يكون القرآن وحيًا من عند اللّٰه، وعُلِّق نزول القرآن - أي بلوغه للنّاس - بأنَّه بالحَقِّ، فكان معنى الحقِّ الثّاني مُقابلَ الباطل، أي مُشتمِلًا على الحَقِّ الذي به قِوامُ صلاحِ النّاس، وفوزُهم في الدُّنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: 81]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: 105][5]، وقيل المُراد بالحقِّ الأوَّلِ: التَّوحيد، وبالثّاني: الوعد والوعيد والأمر والنَّهي، أو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 229.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 698.
(3) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 448.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 424.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 229.

الحقُّ الأوَّل: الحكمة الإلهيَّة التي اقتضت إنزالَه، والثّاني: ما اشتملَ عليه هذا القرآن من عقائدَ وعباداتٍ وآدابٍ وأحكامٍ ومُعاملاتٍ[1]، أو الحقُّ الأوَّل: هو حفظه بالرَّصدِ من الملائكة، والحَقُّ الثّاني: هو حفظهُ من تخليطِ الشياطين[2].

وقال بعضُ المفسّرين كالطَّبري بأنّ الحقّ الثّاني هو عينُ الأوَّل[3]، وأنَّ قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ هو تأكيدٌ لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾، "وذلك أنّه يُقال: أنزلْتُه فَنَزَل، وأنزلْتُه فلا يَنْزِلُ، فَجيءَ بقولِه ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ دَفْعًا لهذا الوهْم"[4].

عَوْدُ الضَّمير في قوله ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ و﴿نَزَلَ﴾:

الكمالُ المُطلقُ في الحقيَّة لا يكونُ إلا للقُرآن

ضميرُ الغَيبة في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ و﴿نَزَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ الظّاهر أنّه عائدٌ إلى القرآن: إمّا المذكور في قولِه قبل ذلك ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: 88]، ويكون ذلك جَرْيًا على قاعدةِ أساليب كلامِهم، وهو أنْ يستطردَ المتكلّمُ في ذِكر شيءٍ لم يَسْبِقْ له كلامُه أوَّلًا، ثُمَّ يعودُ إلى كلامِه الأوَّلِ، وإمّا للقرآنِ غيرِ المذكور أوّلًا؛ لدلالةِ الحالِ عليه كقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: 1][5]، أي المعروف من المقام[6]، وهذا يُشيرُ إلى علوِّ مقامِ القرآن، وأنّه أظهرُ وأشهرُ من أنْ يُذكَر للدَّلالة عليه[7].

نُكتة الإضمار في موضع الإظهار في قوله ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ و﴿نَزَلَ﴾:

تعظيم القرآن الكريم وتفخيم شأن حقّيّتِه فهو أَعْرَفُ مِنْ أنْ يُعرَّف

عَبّر النَّظم الكريم عن القرآن بالضَّمير دون الاسم الظّاهر، في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾؛ تفخيمًا لشأنه وتعظيمًا

(1) السَّمين الحلبي، الدُّر المصون: 7/ 424، وسيد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 448.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 698.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 573.
(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 7/ 424.
(5) السَّمين الحلبي، الدُّر المصون: 7/ 424.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 229.
(7) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 8/ 565.

لأمره؛ لمعلوميَّته؛ إذ لا يَتَّصف بهذا الكمال المُطلق في الحقيَّة إلّا القرآن، ولأنَّ الإنْزالَ من خواصِّه فيُغني عن ذِكْرِه[1]، ولكثرةِ ذكره في سورة الإسراء، ولدلالةِ المقام عليه، فالقرآنُ حاضرٌ في الآياتِ بدلالةِ المقال وبدلالةِ الحال، ولذلك كان الإضمارُ أبلغَ اختصارًا وأكثرَ موافقةً للسّياق.

سِرُّ اختلاف الصّيغتين في قوله: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ و﴿نَزَّلۡنَٰهُ﴾:

التّنزيلُ تدريجيٌّ والإنزالُ دَفْعيٌّ

ذُكِرَ فعلُ النُّزول مرَّتين وبصيغتين مُختلفتين في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ وللعلماء في ذلك رأيان:

الأوَّل: أنَّ الإنزالَ غيرُ التَّنزيل؛ لأنَّ التَّحوُّل عن صيغةٍ من الألفاظ إلى صيغةٍ أخرى لا يكون إلّا لنوعِ خصوصيّةٍ اقتضتْ ذلك، وهو لا يتوخّاه في كلامه إلّا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطَّلعَ على أسرارها[2]، ومن ثَمَّ فلفظ (نزَّل) يدلُّ على التَّفريق، وأمّا لفظ (أنزل) فيدلُّ على الجمع[3]، فالتَّعبيرُ بلفظ (التَّنزيل) ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ﴾ مَرَدُّه إلى أنَّ القُرآن نَزَل مُتتابعًا على فتراتٍ استغرقتْ ما يزيد عن عشرين سنة، في حين أنَّ التَّعبيرَ بلفظ (الإنزال): ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، مَرَدُّه إلى أنَّ القرآن نَزَل جملةً واحدةً من اللَّوحِ المحفوظ إلى السَّماء الدُّنيا دفعةً واحدة[4]، وممّا يُؤكِّد ذلك أنَّ الآية ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ ناظرةٌ إلى القرآن الكريم كاملًا دون مُلاحظة أيّ خصوصيّات زائدة أخرى سوى وصفِه بأنَّ إنزاله كان حقًّا وبالحقِّ، بخلاف الآية التي بعدها ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ فقد وردت في سياقٍ يَلحظُ هذه الخصوصيّة، وهي نزول القرآن الكريم

(1) القونوي وابن التَّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 607.
(2) ابن الأثير، المثل السَّائر: 2/ 145.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 429.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 301.

مُفرَّقًا مُنَجَّمًا في فترةٍ زمنيَّةٍ مُتباعدة، ولذا تناغمتْ دلالة التَّنزيل مع دلالةِ السّياق.

ويكون البيانُ الإلهيُّ قد جمعَ عند حديثه عن القرآن بين الصّيغتين للدَّلالة على النُّزولين التَّدريجيّ والدَّفعيّ، بخلاف إنزال التَّوراة والإنجيل فقد عبَّر بصيغة واحدة هي (أنزل) للدَّلالة على أنَّه لم يكن لهما إلّا نزولٌ واحد[1].

الثّاني: التَّغايرُ بين الفعلين ليس من باب أنَّ القرآن نَزَلَ دفعةً واحدة أو على دفعات، وإنَّما مرجعه إمّا إلى: قوَّة أحد الفعلين؛ إذْ إنَّ الفعلَ المُضَعَّف يَدُلُّ دلالة أقوى على الحدثِ من الفعل غير المضعّف، أو إلى أنَّ الأمرَ لا يعدو أنْ يكونَ من بابِ التَّنويع والتَّغيير في اللَّفظ، من غير أنْ يحملَ دلالاتٍ أُخَرَ، يقول أبو حيّان: "غايرَ بين (نَزَّلَ) و(أَنْزَلَ)، وإنّ كانا بمعنى واحد؛ إذ التَّضعيفُ للتّعدية، كما أنَّ الهمزة للتّعدية"[2].

نُكتة تقديمِ المجرورِ ﴿وَبِٱلْحَقِّ﴾:

الـحـقُّ مـادّةُ القـرآنِ وغايتهُ ومـن الـحـقِّ قـوامهُ وبالحقِّ اهتمامه

تقديمُ المجرورِ ﴿وَبِٱلْحَقِّ﴾ في الموضعينِ على عامِله للقصْر؛ رَدًّا على المُنكرين الَّذين ادَّعَوا أنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ، أو سِحْرٌ مُبينٌ، أو نحوُ ذلك[3]، فإنَّه "ما أُنزلَ لمقصودٍ آخر سوى إظهارِ الحَقِّ"[4]، والمعنى: وإنَّ هذا القرآن ما أنزلناه إلّا مُتلبِّسًا بالحقّ الذي تقتضيه حكمتنا، وما أنزلناه إلّا وهو مشتملٌ على كلّ ما هو حقّ من العقائد والعبادات وغيرهما، فالحقُّ سَداه ولُحمته، والحقُّ مادَّته وغايته[5]، أو ما أنزلناهُ من السَّماء إلا محفوظًا، وما نَزَلَ على الرَّسولِ إلّا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/ 75.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/ 16.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 230.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 416.
(5) سيد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 448.

محفوظًا من تخليطِ الشَّياطينِ[1]، أو أنزلناه غضًّا طريًّا محفوظًا لم يطرأْ عليه طارئ، ووصلَ إليهم على لسانك بعد إنزاله عليك، دون تحريفٍ ولا تبديلٍ كما وقعَ في كتاب اليهود[2].

نكتة الإظهارِ في موضعِ الإضمار:

في التَّصريح تفخيمٌ له وتعظيمٌ لشأنه وبيانٌ لكماله بتغايرِ الحقّيْنِ

في قوله ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾: الذِّكرُ أو التَّصريحُ بقولِه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ هو إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ لنُكتةٍ بَديعةٍ؛ فإنَّه لو ترَكَ الإظهارَ، وعدَلَ عنه إلى الإضمارِ - كما يَقْتضي السّياقُ - فقال: (وبالحقِّ أنزَلْناه وبه نَزَل) لم يكُنْ فيه من الفخامةِ ما فيه الآن، أي: عَدَلَ تعظيمًا للحقِّ المُمتَزَجِ بالقُرآن، فلا ينفكُّ عن القرآن ولا ينفكُّ القرآنُ عنه، ولبيانِ كمالِ المُنْزِل والمُنزَل، فالمُنْزِلُ هو اللّه سُبحانه بعظمته، والمُنزَل هو القرآن بفخامته، وذلك من خلال تغاير الحقّين، "وإنَّ تلازما مثل تلازم الإنْزال والنُّزول، ولذا أظهرَ ولم يُضْمِر"[3].

دلالة الواو في ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾:

تحقيقٌ لحقيَّة بعثته ﷺ إثرَ تحقيقِ حقيَّة إنزالِ القرآن

الواو اعتراضيَّة، وجُملةُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ مُعترضةٌ بين جُملةِ ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ وجُملة ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾؛ للرَّدِّ على الَّذين سألوه أشياءَ من تصرُّفاتِ اللّهِ تعالى، والَّذين ظنّوا ألّا يكونَ الرَّسولُ بَشَرًا[4]، وفيها ثناءٌ على الرَّسول ﷺ الذي نُزِّل عليه القرآن، بعد الثَّناء على القرآن في ذاته[5].

بلاغة القصر:

القصرُ في قوله ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ للرَّدِّ على الَّذين

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 531، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 199.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 531.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 607.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 417، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 520.
(5) سيد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 449.

قصرٌ يفيدُ غاية تمكّن النّبيّ ﷺ في كلٍّ من التّبشيرِ والإنذار

سأَلوه أشياءَ من تصرُّفاتِ اللّهِ تعالى، والّذين ظنّوا ألّا يكونَ الرّسولُ بشَرًا[1]، والمعنى: "وما أرسلناك أيُّها الرّسول الكريم إلا مبشرًا لمن أطاعنا بالثّواب، وإلّا مُنذرًا لمن عصانا بالعقاب، ولم نرسلْكَ لتخلقَ الهداية في القلوب، أو لتفعلَ أمورًا يطلبونها، وإنّما هي من شأن اللّه تعالى"[2]، وفي القصرِ دلالةٌ على غايةِ التّمكّن في كلٍّ من الوصفين (التّبشير والإنذار)، وأنّه ﷺ لم يُرسل عليهم وكيلًا، وإنّما مُبشّرًا ونذيرًا[3].

ويرى الطّيبيُّ أنَّ التّركيب من القصرِ الإفرادي نُزّل صلواتُ اللّه عليه - لحرصِه على إيمان قومه - منزلةَ من يُعتقَد أنّه بشيرٌ ونذير، ومع ذلك: يُكرِهُ النّاس على الدّين أيضًا، فقُصِر على البشارة والنِّذارة، ونفي كونِه مُكرِهًا، فالمعنى: وما أرسلناك إلّا لتبشّرهم بالجنَّة وتُنذرهم من النّار ليس إليك وراء ذلك[4].

إيثار استعمال لفظ الإرسال دون البعث:

لفظُ الإرسالِ أنسبُ لمقامِ الإنزالِ على مُكثٍ وعلى من يحملُ رسالةَ البشارة والنِّذارة

آثرَ القرآنُ استعمالَ لفظِ الإرسالِ دون البعثِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ فلم يقل: (وما بعثناك) مع أنَّ لفظَ الإرسال والبعث مُتقاربان في المعنى؛ إذ قد يُعبّر بأحدهما عن الآخر[5]؛ إلّا أنّه آثرَ لفظَ الإرسالِ؛ لكونِه أكثرَ مُناسبةً للسّياقِ الذي يتحدَّث عن إنزالِ القرآن ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ والإرسالُ لا يكونُ إلّا برسالة، وما يجْري مجْراها[6]، وخاصَّةً أنَّ بعضَ المُفسّرين عدَّ الإرسال والإنزال في الآية بمعنى واحد، وأنّ لفظ ﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ معطوفٌ على الكاف في ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 230، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 520.
(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 449.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 531.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 392.
(5) الكفوي، الكليات، ص: 244.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289.
(7) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 425.

ويتحدث عن إنزاله مُفَرَّقًا ﴿فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، والإرسالُ يتميَّز بملمحِ الرِّفقِ والتُّؤدة والسُّهولة؛ ومنه الرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ[1]، والرِّسْل: الرِّفْق والتُّؤَدة ومنه: الرَّسولُ[2]، بخلاف البعث الذي يتميَّز بملمح الإثارة والدَّفع[3]، فالإرسالُ أنسبُ مع نزولِ القرآن على مُكْثٍ.

ويتحدث أيضًا عن الرِّسالة التي يحملها الرَّسول، وهي رسالة البشارة والنِّذارة في قوله: ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، والإِرْسال يكونُ برسالةٍ وما يجْري مَجْراها[4].

نُكتة إسناد الفعل إلى ضمير المتكلّمين:

عظمةُ الرَّسولِ ﷺ والرِّسالة من عظمة المُرسِلِ سُبحانه

أسندَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ إلى ضمير المُتكلِّمين في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي جاء الضَّمير بصيغةِ الجمعِ مع أنَّ اللهَ واحدٌ أحدٌ، وجاء التَّعبيرُ عنه بضمير التعظيم (نا) الدال على الفاعل بصيغة الجمع لأمور:

الأوّل: الإشعارُ بعظمةِ الرُّبوبيَّة؛ كأنَّه يقول: (أَرْسَلْناكَ بعظمتنا)، والسَّببُ في كونِ ضميرِ الجمع يُعبَّرُ به عن العظمةِ هو أنَّ الأمر إذا قامتْ به الجماعة جاء على أكمل وجهٍ وأقواه، ولا يكونُ عرضةً للنَّقصِ أو الخللِ.

الثّاني: الإشعارُ بعظمةِ المُرسَل ﷺ، واستعظامِ الإقدام على تكذيبه، كما في إضافةِ الكاف إلى ضمير العظمة تشريفٌ أُضيفَ إلى تعظيمه ﷺ.

الثّالث: الإشعارُ بعظمةِ الرِّسالة التي تقومُ على هذا الحقّ المُنزَل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(2) الرَّاغب، المُفردات، ص: 352.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بعث).
(4) العسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 289.

وهو القرآن الكريم، وتأكيد مضمونها الذي ينحصرُ في التَّبشير للمُؤمنين والإنذار للكافرين.

سِرُّ العُدول عن تماثل الصّيغتين في قوله ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾:

المُبالغةُ في البِشارة في مُقابل النِّذارة منهجٌ قرآنيٌّ

عَدَل البيانُ القُرآنيُّ عن تماثلِ الصّيغتين في قوله: ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، فلم يَقُلْ: (مبشِّرًا ومُنذِرًا، أو بشيرًا ونذيرًا)؛ للمُبالغةِ في البِشارة في مُقابلِ النِّذارة؛ إذْ إنّه عَبَّر عن البِشارة بلفظ (المبشِّرُ)، وهو أبلغُ في الوصفِ من البشيرِ؛ لأنَّ لفظ (المُبَشِّر) اسم فاعل من المضعَّف (بَشَّرَ) أي بشَّر يُبشِّر فهو مبشِّر، والفعلُ المضعَّف يدلُّ دلالةً أقوى على الحدث من الفعل غير المضعَّف، فقولك: (فسَّر) أقوى من (فَسَر)، و(فرَّق) أقوى من (فَرَق)، وبالمُقابل عبَّر عن النِّذارة بلفظ (نذير) وهو اسم فاعل على وزن (فعيل) من الفعل (نَذَر)، ولم يُعَبِّر باللَّفظ (مُنذرًا) الذي هو أَبْلَغُ في الوصفِ بالإنذار من النَّذير؛ إذ إنَّ زيادةَ المبنى تَدُلُّ على زيادةِ المعنى.

وبناءً على ذلك دلَّ الفعل المُضَعَّف على تقويةِ فعلِ التَّبشير وتكثيره، وبيانِ أفضليَّة التَّبشيرِ على الإنذار والتَّرغيبِ على التَّرهيب، فقد سَبَقَتْ رحمتُه سُبحانه غضبَه، وهذا يتناسبُ مع تقديم التَّبشير على الإنذار الذي هو عادةٌ غالبةٌ في القرآن الكريم ومنهجٌ نبوي، قال ﷺ: "وبشِّروا ولا تنفّروا"[1].

بلاغةُ الطِّباقِ في ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾:

تقابلُ التَّرغيبِ مع الترهيبِ يزيدُ الكلام حُسنًا ويَدُلُّ على كمالِ الرِّسالةِ الخاتمة

جمعَ البيانُ القرآنيّ بين لفظين مُتضادَّين، هُما: ﴿مُبَشِّرًا﴾ و﴿وَنَذِيرًا﴾ مِمّا زادَ الكلام حُسنًا وطَرافة، ودلَّ على كمالِ رسالة النَّبي ﷺ، فقد جمعتْ بين البشارة (التَّرغيب) وبين النِّذارة (التَّرهيب).

(1) صحيح البخاري، كتاب: العلم، باب: ما كان النَّبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، الحديث رقم: (69).

فائدة تقديم البِشارة على النِّذارة:

البَدءُ بالتَّبشير عادةٌ قرآنيَّة وأثرٌ من آثارِ رحمته ﷺ

قدَّم اللّهُ تعالى البِشارة على النِّذارة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾؛ لأمور:

الأوّل: تكريمًا للمُؤمنين المُبشَّرين، وإشعارًا بأنَّ الأصلَ في رسالته ﷺ التَّبشير، فقد أرسله اللّه تعالى رحمةً للعالمين، فغلبَ عليه التَّبشير، ولكثرةِ عدد المُؤمنين في أمّته[1]، ولأنَّ المقامَ خطابٌ للنَّبي ﷺ، فالبشارةُ أَعْلَقُ به من النِّذارة.

الثّاني: "لأنَّ البِشارةَ تجري مجرى حفظِ الصِحَّة، والإنذارُ يجري مجرى إزالة المرض، ولا شكَّ أنَّ المقصودَ بالذّاتِ هو الأوَّل دون الثّاني، فلا جَرَمَ وجبَ تقديمه في الذِّكر"[2]، أو الأوَّل لكونه مقصودُ الغذاء، والثّاني كتناول الدَّواء.

الثّالث: لأنَّ القاعدةَ في محاولةِ الأمورِ الصَّعبة أنْ يُبدأ فيها بالتَّلَطُّف والتَّيسير؛ ليكونَ أدعى للقبول، وهي عادةٌ قرآنيَّة غالبةٌ؛ ولذا أمرَ اللّهُ موسى أنْ يبدأَ خطابه لفرعون بلطفٍ ورفقٍ ولينٍ، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه: 44][3].

الرّابع: لأنَّ "البِشارةَ أثرُ الرَّحمة، والإنذارُ بالإهلاك أثرُ الغضب، ورحمتهُ سُبحانه سبقتْ غضبه، فقدَّم البِشارةَ على الإنذار"[4].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الحَقّ والصِّدق والعدل والصَّحيح والصَّواب:

الحـقُّ أوسعُ دلالةً وأكثر مُتَعَلَّقًا

تتقاربُ هذه الألفاظ (الحَقُّ، الصِّدق، الثّابت، العدل، الصَّحيح، الصَّواب) في دلالاتها اللُّغويَّة، فنجد أنَّ اللُّغويّين يُعَرِّفون أحدَ هذه الألفاظ بالآخر، ولكنْ هناك فروقٌ بينها، وذلك على النَّحو الآتي:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 53.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 6/ 375.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 408.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 51.

أوّلًا: أصلُ الدلالة في كلمة (حقّ) أنها تدلُّ على إحكام الشَّيء وصحَّته، وحقَّ الشَّيءُ: ثبتَ ووجبَ، والحقُّ: نقيض الباطل[1]، والحقُّ: الصِّدق والصَّواب[2]، والحقُّ: الصَّواب والصَّحيح[3].

ثانيًا: وأصلُ (صَدَق) يدلُّ على قوَّة في الشَّيءِ قولًا وغيره، وهو خلافُ الكذب[4]، وأصلُ الصِّدق يكون في القول وفي الخبر خاصَّة، وقد يُستعمل الصِّدق في كلِّ ما يحقُّ ويحصل في الاعتقاد، نحو: صَدقَ ظنّي وكَذَبَ، وفي أفعال الجوارح كقوله: صَدَقَ في القتال[5].

ثالثًا: وأصلُ (عَدَلَ) يَدُلُّ عَلَى اسْتِواءٍ، فالعَدْلُ: الحُكْمُ بالِاسْتِواءِ، والعَدْلُ: قيمَةُ الشَّيْءِ وفِداؤُهُ، والمُساواة، والعَدْلُ: نَقيضُ الجَوْرِ[6].

رابعًا: وأصلُ (صَوب) يَدُلُّ عَلَى نُزولِ شَيْءٍ واسْتِقْرارِهِ قَرارَهُ، مِنْ ذَلِكَ الصَّوابُ في القَوْلِ والفِعْلِ، كَأَنَّهُ أَمْرٌ نازِلٌ مُسْتَقِرٌّ قَرارَهُ[7]، والصوابُ: خِلافُ الخَطَأ؛ لموافقته الحقّ أو المراد[8]، والصواب: السداد والحقّ[9]، وقيل: الصوابُ: إصابةُ الحقّ[10].

وبَعْدَ النَّظر في الأصلِ اللُّغويِّ لهذه الألفاظ نلْحظ أنَّ الحقَّ أوسعُ دلالةً؛ فهو يُطلَقُ على بقيّة الألفاظ؛ فيُفسَّر بالصِّدق (المُطابق لما وقع) وبالصَّحيح الصَّواب (أي ما كان ضدَّ الباطل الزّائف)، ويُفسَّر بالعدل، ويأتي بمعنى ثَبَتَ ووجَبَ[11].

وكذلك فإنَّ كُلَّ هذه الألفاظ - ممّا يُفسَّر به الحقُّ - يرجعُ إلى معنى الثَّبات، فالصَّوابُ أصله من إصابةِ الشَّيءِ، أي الالتقاءِ به نزولًا عليه بقوَّة وهذا استقرارٌ وثباتٌ، وأنَّ الصِّحَّة والصِّدق هُما من التَّماسكِ وعدم التَّسيُّبِ وهذا ثباتٌ، والعدلُ من التَّوازن وهو يؤدّي إلى الثَّبات[12].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (حقق).
(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 265.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(5) الراغب، المفردات، ص: 478.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (ثبت).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حقق).
(9) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (صوب).
(10) الجرجاني، التعريفات، ص: 135.
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤَصَّل: (حقق).
(12) المرجع نفسه.

فالحقَّ أعمٌّ؛ لأنَّه وقوعُ الشَّيءِ في موقعه الذي هو أولى به، والصِّدقُ: الإخبارُ عن الشَّيءِ على ما هو به، والحَقُّ يكونُ إخبارًا وغير إخبارٍ.

ومعنى الحقّ هو المَوْجودُ الثّابِتُ الَّذي لا يَسوغُ إِنْكارُه، من حقَّ الشَّيءُ، يحقُّ إذا ثبتَ ووجبَ.

وفي اصطلاحِ أهل المعاني: الحكمُ المُطابق للواقع، ويُطلق على الأقوالِ والعقائد، والأديانِ، والمذاهب باعتبارِ اشتمالها على ذلك، ويُقابله الباطل، وأمّا الصِّدقُ فقد شاعَ في الأقوال خاصَّة، ويُقابله الكذب، وقد يُفرَّق بينهما بأنَّ المُطابقة تعتبرُ في الحقِّ من جانبِ الواقع، وفي الصِّدقِ من جانبِ الحكم، فمعنى صِدْقِ الحكم: مُطابقته للواقع، ومعنى حقيقته: مُطابَقَةُ الواقِعِ إيّاه[1]، والصوابُ هو الأمرُ الثابتُ في نفسِ الأمرِ الذي لا يسوغُ إنكاره[2].

الإرسالُ والبَعْثُ:

الإرسالُ توجيهٌ برسالة وبرفق وتؤدةٍ، والبعثُ إثـارةٌ ودفـعٌ وإيقاظٌ

(الإرسال، والبعث) يتقاربان لفظًا، إذ يشتركان في معنى لغويٍّ عام وهو التَّوجيه، كما أنَّه قد يُستعمل كُلٌّ منهما بمعنى الآخر[3]؛ إذ أحدُ معاني الإرسال هو البعث[4]، وأحدُ معاني البعث هو الإرسال، إلّا أنَّهما يفترقان ببعض الملامح المميِّزة لكلٍّ منهما، ومن هذه الفروق ما ذكره العسكري، فقال: "الفرقُ بين البَعْث والإرسال: أنَّه يجوز أَنْ يَبْعَثَ الرَّجلُ إلى الآخرِ لحاجةٍ تخصُّه دونك ودون المبعوث إليه، كالصَّبيِّ تبعثهُ إلى المكتبِ فتقول: بعثته، ولا تقول: أَرْسلتهُ؛ لأنَّ الإِرْسال لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يجْري مجْراها"[5].

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة بترتيب وزيادة، ص: 194.
(2) الجرجاني، التَّعريفات، ص: 135، والتَّهانوي، كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 2/ 1098.
(3) الكفوي، الكليَّات، ص: 244.
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 151.
(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 289.

بالإضافة إلى أنَّ الإرسالَ يتميّزُ بملمحِ الرِّفقِ والتُّؤدةِ والسُّهولةِ؛ إذ إنَّ أصل (رسل) يدلُّ على الانْبعاثِ والامتدادِ، والرَّسَلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ[1]، والرِّسْل: الرِّفْق والتُّؤَدة، والإِرْسالُ: الإِطْلاق، والإهمال، والتَّخْلِيَة، والتَّوجيه[2]، والإِرْسال: في المَحْبوس إِطْلاقُه، وفي المُطْلَقِ بَعثُه[3].

في حين يتميّزُ البعثُ بملمحِ الإثارةِ والاندفاعِ والإيقاظِ، إذ إنَّ أصلَ (بَعَثَ) يدلُّ على الإثارة[4]، والتَّوجيه، ويختلفُ البعثُ بحسب اختلافِ ما عُلِّق به، فبَعَثْتُ البعير: أثرتهُ وسيّرته، وبعثَ اللّهُ الموتى: أخرجهم وسيَّرهم إلى القيامة، وبعثَ رسولًا: أرسله ووجّهه[5]، وانْبعثَ الشَّيءُ: اندفعَ، وبعثَهُ من نومه: أيقظهُ وأهَبَّه، والبَعْثُ: النُّشور[6].

المبشِّر والبشير:

المبشِّرُ أبلغُ في الوصفِ من البشيرِ والمعنى في كليهما الذي يبشِّر القوم بالخير مُطلقًا

يتقارب لفظا (المبشر والبشير) إلى درجة التَّرادف؛ إذ يُعرَّف كلٌّ منهما بالآخر، وكلاهما من البِشْر وهو السُّرور، والبِشارةُ أوَّل خبرٍ سارٍّ[7]، والبِشارةُ: اسمُ ما يُعْطاه المُبَشِّرُ بالأَمر، والبَشيرُ: المُبَشِّرُ الَّذي يُبَشِّرُ القَوْمَ بأمرِ خيرٍ أَو شَرٍ، والبِشارةُ إذا أُطلِقتْ اختصَّتْ بالخَيْرِ، وإِنَّما تكونُ بالشَّرِّ إِذا كانَت مُقَيَّدَةً[8].

ومع هذا التَّقارب لا نكاد نجد فرقًا بينهما إلّا من حيث أنَّ لفظ البشير هو اسم فاعل من المخفّف (بَشِرَ)[9]، أي: بشِر يبشر فهو بشير[10]، في حين أنَّ لفظ المبشِّر اسم فاعل من المضعّف (بَشَّرَ)

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رسل).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (رسل).
(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 152.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بعث).
(5) الرَّاغب، المفردات، ص: 132.
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(7) السَّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: 193/ 1.
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (بشر).
(9) جاء على صيغة (فعيل) لأنّ الصيغة الأصلية (باشر) مماتة، أي لم يستعمل العرب صيغة (باشر) على وزن (فاعل) بمعنى المبشر أو البشير، فلم تكن مثل (كفل كافل كفيل).
(10) الفيومي، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس: (بشر).

أي بشّر يبشّر فهو مبشّر، والتضعيفُ فيه تكثيرٌ، والزيادةُ في المبنى تدلُّ على الزّيادة في المعنى، فيكون اسم (مُبَشِّر) أبلغ في الوصف بالبشارة من لفظ (بشير).

النَّذير والمُنْذِر:

النَّذيرُ اسمٌ من الإنـذار وصفةٌ بمعنى المنذر وهو المُعْلِم والمحذِّر والمخوِّف

يتقارب لفظا (النذير والمنذر) إلى درجة التَّرادف؛ إذ أَصْلُ مادَّتهما واحدة وهي (ن ذ ر) والتي تدلُّ على التَّخويف والتَّخوُّف والإبلاغ، ويُعرَّف كلٌّ منهما بالآخر، فيُقال: النَّذير: المُنْذر[1]، وأنذره: خوَّفه وأعلمه، والإنذار: الإعلام والإبلاغ ولا يكون إلّا في التَّخويف، والمُنْذِرُ: المُعْلِم الَّذي يُعرِّف القومَ بما يَكونُ قَدْ دَهَمهم، مِنْ عدوٍّ أو غيره، والمُنذر: اسم فاعل ومعناه: المُعْلِمُ والمحذِّر والمخوّف[2]، والنذيرُ اسمٌ من الإِنْذار، والنَّذيرُ صفة، ويكون بِمَعْنى المُنْذِر وكانَ الأَصلُ نَذَرَ، إلّا أنَّ فِعلَه الثُّلاثي مُماتٌ[3].

إذن: النَّذيرُ اسم فاعل على وزن (فعيل) من الفعل (نذر)، والمُنذِر أيضًا اسم فاعل من الفعل (أنذر)، والزّيادة في المبنى تدلُّ على الزّيادة في المعنى، فيكون المُنذر أبلغ في الوصف بالإنذار من النَّذير.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نذر).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (نذر).
(3) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (نذر).

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾

[الإسراء: 106]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في نزولِ القرآنِ مُفرَّقًا إقامةٌ للحقِّ الذي امتزجَ به وتثبيتٌ لهُ في القلوب

في مناسبة الآية لِما قبلها وجهان:

الأوّل: بعد أنْ تحدَّث البيانُ الإلهيُّ عن إنزالِ القرآن مُمتزجًا بالحقِّ في إنزاله جُملةً ونزوله مفرّقًا أتبعَ ذلك ببيان الحِكَم التي من أجلها أُنزلَ القرآنُ مُفصلًا ومنجمًا، وهي إقامةُ الحَقِّ وتثبيته في القلوب، وتمييزٌ له بالحقيقة عن كُلِّ باطلٍ، وبالإعجازِ عن كلِّ كلام فقال: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾.

الثّاني: بعد الثَّناءِ على الرَّسول ﷺ - الذي نزلَ عليه القرآنُ - بأنَّه مبشِّرٌ ونذيرٌ ذكرَ في هذه الآية أثرًا من آثار هذا التَّبشير والإنذار؛ وهو نزول القرآن مفرَّقًا فقال: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾: أصلُ التَّفْريقِ: الفَصلُ، يُقال: فَرَّقَ بين شَيْئَيْنِ، يُفرِّقُ، تَفْريقًا: إذا فَصَلَ بَيْنَهُما وباعد[1]، ويأتي بمعنى التَّفْكيك، وضِدُّه: الجَمعُ والضَّمُّ، ومِن مَعانيهِ: التَّشْتيتُ، يُقال: فَرَّقَ بين القَوْمِ، أيْ: شَتَّتَهُم وأَحدَثَ بَيْنَهُم الفُرْقَةَ[2]، والفُرْقانُ: كِتابُ الله تعالَى فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، ويُطلَقُ الفَرْقُ على البَيانِ؛ لِأَنَّ البَيانَ يُشْبِهُ تَفْريقَ الأَشْياءِ المُخْتَلِطَة، فَيَكونُ ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ في الآية مُحتَمِلًا مَعْنَى:

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فرق).

(2) الجوهري، الصِّحاح، وابن سيده، المُحْكَمُ، وابن منظور، لسان العرب: (فرق).

بَيَّنّاهُ وفَصَّلْناهُ، ويكون مُحتمِلًا معنى: جَعَلْناهُ فَرْقًا، أَيْ: أَنْزَلناهُ مُنَجَّمًا مُفرَّقًا غَيْرَ مُجْتَمِعٍ صُبْرَةً واحِدَةً[1].

2) ﴿مُكۡثٖ﴾: أصلُ (مكث) يدُلُّ على توقُّفٍ وانْتِظارٍ، ومَكَثَ مَكْثًا ومُكْثًا ورَجُلٌ مَكيثٌ: رَزينٌ غَيْرُ عَجولٍ[2]، وتَمَكَّثَ إذا انتَظَر أَمرًا وأَقام عَلَيْه، فهو مُتَمَكِّثٌ مُنتظِر، وتَمَكَّثَ: تَلَبَّث، والمُكْثُ: الإقامةُ مَعَ الانْتِظارِ والتَّلَبُّث في المَكانِ، والاسْمُ المُكْث والمِكْثُ، بِضَمِّ الميم وكَسْرِها[3]، والماكِثُ: المُنتظر[4]، والمقصودُ بالمُكث في الآية: التُّؤَدَةُ والتَّرسُّلُ والبُطْء، وأُطْلِقَ المُكْثُ هُنا على البُطْءِ؛ لِأَنَّ المُكْثَ يَسْتَلْزِمُ زَمَنًا.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

تنزيلُ القرآن مُنجَّمًا ليتمكَّن النّاسُ من قراءته على مَهَل وتدبُّر وإمعان

البيان الإلهي يقول: (وقُرآنًا فَصَّلْناه وبَيَّنّاه وأحْكَمناه، وفرَّقْنا فيه بينَ الحَقِّ والباطِلِ، والهُدى والضَّلالِ؛ لِتَتلوه يا مُحَمَّدُ ﷺ على النّاسِ بتَمَهُّلٍ وتُؤَدةٍ وتَرتيلٍ، ولا تَعجَلْ في تِلاوتِه؛ فإنَّ ذلك أيسَرُ للحِفظِ، وأعونُ على الفهمِ؛ ليَتَدَبَّرَه النّاسُ ويتَفكَّروا في معانيه، ويَستَخرِجوا مِن عُلومِه وأسرارِه ومَراميه، ونَزَّلْناه مُفرَّقًا شَيئًا بعد شَيءٍ؛ حتَّى يتمكَّنوا من تطبيق تشريعاته وتوجيهاته تطبيقًا عمليًّا دقيقًا)[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله ﴿وَقُرۡءَانٗا﴾:

قرآنٌ نزلَ بالحقّ وربّى الأمَّة وتدرَّجَ بها لتعيشَ الحقَّ وتَثْبُتَ عليه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾[6]، وقد جاءَ العطفُ هنا لوجودِ مُناسبةٍ بين الجملتين؛ إذ كلاهما أسلوبٌ خبريٌّ؛ يخبرُ اللهُ فيهما بإنزالِ القرآنِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 231.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مكث).
(3) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (مكث).
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (مكث).
(5) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 339 - 340، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 127، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 468.
(6) محمَّد الأمين الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 16/ 268.

لكن في الجُملةِ المعطوفةِ عليها يخبرُ بإنزاله مُمتزِجًا بالحَقِّ، وفي الجُملة المعطوفة يخبرُ بإنزاله مُفرَّقًا على مراحِلَ زمَنيّةٍ مُتَباعِدَةٍ ومُبيَّنًا ومُفصَّلًا ومُحكمًا، قد فرّق اللّه به بين الباطِلِ والحقِّ، ففي العطفِ أثبتَ وصفًا آخر للقرآن، أي كما أنّه نزلَ بالحقِّ، وبالحقِّ استقرَّ وثبتَ، هو كذلك نزلَ قرآنًا مُنجَّمًا، ولم ينزلْ مرَّةً واحدة[1].

وجْهُ النَّصب في ﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ ودلالته:

أنّ حالة القرآن العظيمة أنه يُقرَأ ويُحفَظ؛ مما يوحي للمؤمن أن يكون من القارئين الحافظين

انْتَصابُ ﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾ قد يكون على الحالِ مِنَ الضَّميرِ المَنصوبِ في ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ مُقَدَّمَةً عَلَى صاحِبِها؛ تَنويهًا على كَوْنِه كِتابًا مَقْروءًا؛ فَإِنَّ اسْمَ القُرآنِ مُشتقٌّ من القراءةِ، وهي التِّلاوة؛ إشارةً إلى أنَّه من جنسِ الكلامِ الذي يُحفظ ويُتلى[2]، والمعنى: (فَرَقْناهُ وأَقْرَأْناهُ)[3]، وفي هذا إشارةٌ إلى وجوبِ العُكوفِ على قراءتِه وحفظِه لمن أرادَ أنْ يتحقّق بالإسراءِ في روحه وأخلاقه، فمن حالِ القرآنِ العظيمة عند اللّه أنّه كتابٌ أُنزِل ليُقرأ ويُحفظ.

وقد يكون منصوبًا بفعل مُضْمَرٍ يُفسِّره ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾[4]، تَقْديره: (وفَرَقنا قُرْآنًا فَرَقْناه)[5] أو أنَّه منصوبٌ عطفًا على الكافِ في ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ من حيث كان إرسالُ هذا وإنزالُ هذا معنى واحدًا[6]، ويُحتمَلُ أن يكون مَعْطوفًا على ﴿مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ على معنى وصاحبَ قُرْآن، ثُمَّ حُذِفَ المُضاف فَيكون ﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ نعتًا لِلْقُرْآنِ[7].

نُكتة تنكيرِ ﴿وَقُرۡءَانٗا﴾:

في التَّنكيرِ تعظيمٌ وتفخيمٌ للقُرآنِ المُستغني عن كُلِّ تعريف

نَكَّر البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 8/ 567.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 230.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 231.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 9/ 392، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 199.
(5) مكي بن أبي طالب، مُشكل إعراب القرآن: 1/ 435.
(6) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/ 490.
(7) مكي بن أبي طالب، مُشكل إعراب القرآن: 1/ 435.

﴿فَرَقْنَٰهُ﴾؛ لإفادةِ التَّعظيم والتَّفخيم للقرآن الكريم، وفي هذا التَّنكير تنويهٌ به، ورفعٌ لشأنه، وأنَّه لتفرُّدِه بهذا الوصف مُستغنٍ عن كُلِّ تعريفٍ، إذ كان هو وحده المُستأهِلَ لأنْ يُقرأ، وأنْ يُؤْثَرَ بالقراءة من كلِّ قارئٍ[1].

عِلَّة إسناد الفعل إلى ضمير المُتكلِّمين ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾:

في الإسنادِ إلى ضمير المُتَكَلِّمين إشارةٌ إلى عظيم حكمةِ إنزال القرآن مُفَرَّقًا

أسند البيان القرآنيُّ الفعل ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ إلى ضمير العظمة (نا) في قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ﴾؛ إشارةً إلى عظيمِ حكمةِ إنزالِ القرآن مفرّقًا بتحقيقِ البناءِ التَّكوينيِّ من عقيدة في صورةٍ مُنَظَّمة حيّةٍ لا في صورةٍ نظريّةٍ معرفيّة، وبإظهارِ إعجازِ القرآنِ البيانيِّ والتَّشريعي، وفق الآتي:

الأوَّل: بكونه أثبتَ لقلبِ النَّبيِّ ﷺ، وأيسرَ لحفظِ الصَّحابة، وأعونَ لهم في الفهم، وبكونه مَوَاكِبًا للحوادث المتجدِّدة ومُراعيًا للمصالح المتعدِّدة[2]، بما يُحَقِّق التَّدرُّج في تربية الأمة دينيًّا وخلقيًّا واجتماعيًّا، فلو أنَّ القرآنَ نزلَ جملةً واحدةً وطالبهم بالتَّخلي عمّا هم مُنغمسون في حمأته من كفرٍ ومُنكرات مرَّة واحدةً لَمَا استجابَ إليه أحد، ولَما وفّق الرَّسول في أداء مُهمَّته[3].

الثّاني: الدَّلالة على الإعجازِ البياني، والتَّشريعي للقُرآن، فإنَّه وإنْ كان قد نزلَ مُفرَّقًا في نحو ثلاث وعشرين سنة، وفي أوقات مُتباينة، وأحكام مُختلفة، وحوادث متعدِّدة إلّا أنّه قد رُتِّبَ ترتيبًا عجبًا لا ترى فيه بترًا ولا خللًا بين آياته، ولا تنافرًا بين ألفاظه، ولا تناقضًا في معانيه، ولا اختلافًا في مقاصده ومراميه، بل ترى إعجازًا في تناسبِ آياته وسوره التي انتظمتْ في عقدٍ فريدٍ لا يبلغُ

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 8/ 567.
(2) مُحمَّد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، ص: 32.
(3) أبو شَهبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص: 74.

كلامُ أحدٍ شأوه، ولا يَعرفُ كنْهَ جلالهِ وجماله إلّا من أنزله، وكأنَّها نزلتْ جملةً واحدة[1].

دلالة اللّام في قوله ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ﴾:

إنــزالُ الـقـرآنِ مُـفـرَّقًا تحقيقٌ عـمـليٌّ لـتربـيـةِ الأمّـةِ الخاتمةِ والارتقاءِ بها

لامُ ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لامُ جرٍ وتعليلٍ، فهي تعليلٌ للسَّبب الذي من أجله أنزلَ اللّهُ ﷻ القرآنَ مفرّقًا، فنزل منجّمًا، في نحو ثلاث وعشرين سنة، وهي مُتعلّقة بـ ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾، وتُفيد عِلّتين، الأولى: أنْ يُقْرَأَ على النّاسِ، وتلك عِلَّةٌ لجعْلِه قُرآنًا أي في تسميته قرآنًا، والثّانية أنْ يُقْرَأَ على مُكْثٍ، أي: مَهَلٍ وبُطْءٍ، وهي عِلَّةٌ لتفريقه[2]، بما يحقّقُ تربية الأمَّة الخاتمة والارتقاء بها، قالَ الآجُرّيُّ مُحَمَّدُ بْنُ الحسينِ: "والقليلُ مِنَ الدَّرسِ لِلقُرآنِ مَعَ الفكرِ فيه وتَدَبُّرِه أَحبُّ إليَّ من قراءةِ الكثير من القرآنِ بغيرِ تَدبُّرٍ، ولا تفكُّرٍ فيهِ، وظاهِرُ القُرآنِ يدلُّ على ذلك، والسُّنَّةُ وقول أئمَّةِ المسلمين"[3].

بلاغة جناس الاشتقاق في ﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ و﴿لِتَقۡرَأَهُۥ﴾:

الغايةُ العُظمى من إنزالِ القرآنِ هــو فـهـمُـه والعملُ به وهذا مـتـوقّـفٌ على قراءته

في قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ﴾ أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ ولفظ ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ﴾ وهذا يُسمَّى جناس الاشتقاق، فقد اجتمعَ اللَّفظان في الأصلِ الاشتقاقيِّ (قرأ)، وفي هذا التَّعبير لونٌ من ألوانِ البديع جاء على أحسنِ صورةٍ، وأجمل موقعٍ، والمُناسبةُ بين لفظي ﴿وَقُرۡءَانٗا﴾، ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ الغايةَ العظمى من إنزالِ القرآن هو فهمُه والعملُ به وهذا متوقّفٌ على قراءته، ولأنَّ حفظه في الصُّدور يكون بقراءته، كما أنَّ في ورود اللَّفظين استدلالًا لمن رأى أنَّ القرآنَ مشتقٌّ من الفعل (قرأ) فهو مصدرٌ

(1) مُحمَّد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، ص: 32.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 231.
(3) الآجُرِّيُّ، أخلاق أهل القرآن، ص: 169.

مُرادفٌ للقراءة، وقيل: سُمّيَ قرآنًا؛ لأنَّ القراءة عنه والتِّلاوة منه، وقد قُرئت بعضها عن بعض[1].

سِرُّ تعدّي الفعل ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ﴾ بحرف ﴿عَلَىٰ﴾، ومعناه في موضعَيْه:

تصوير فخامة المستعلي وهو التمكين الإلهي لقراءة القرآن وفهمه والعمل به

يتعدَّى الفعل ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ بحرف الجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وقوله ﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾، إلّا أنَّ بينهما اختلافًا، فالأوَّل في موضعِ المفعول به، والثّاني في موضع الحال[2]، وصاحبُ الحال هو الفاعل، وهو رسول اللّه ﷺ، والمَعنى: لتقرأه على النّاس حالةَ كونِك مُتمهِّلًا، ومتأنّيًا، وقارئًا شيئًا بعد شيءٍ، رعايةً لمصالحِ العباد ومعايشهم[3].

ومعنى حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في الموضعين الاستعلاء الذي يُفيد أنَّ الآيات التي تنزل عليهم مفرَّقة كانت تُقْرأ على مَسْمَعٍ منهم، ومن حالِ قوَّةٍ وعلوٍّ وفخامةٍ لا ضعفٍ وذلٍ ودونٍ؛ لأجل أنْ يتدبّروها ويؤمنوا بها، فهي حقيقةٌ بأنْ تُسمع، ويُفيدُ كذلك معنى تمكُّن النَّبي ﷺ من قراءته هذه الآيات على النّاس على أكمل وجهٍ وتمكّن النّاس من أخذ القرآن وحفظه وفهمه والعمل به؛ لنزوله مفرّقًا مواكِبًا حياتهم، كما يُفيد التَّأكيد على مكانة المقروء وعلوِّه وفخامته وشرفه، "وأنَّه بحيث يُشرف عليهم من عليائه، فيملأ وجودهم نورًا وألَقًا، وبحيث يكشفُ لهم كلَّ خفيَّة، إذا هم جعلوا أبصارهم إليه، ووجَّهوا عُقولهم وقلوبهم له، فلا تعمى عليهم المسالك، ولا تتفرّق بهم السُّبل"[4].

فائدة الجارِّ والمجرور في: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ و﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾:

قيَّد النَّظم الكريم الفعل ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ﴾ بالجارِّ والمجرور في كلٍّ من

(1) الزَّركشي، البرهان في علوم القرآن: 1/ 277.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/ 215.
(3) مُحمَّد الأمين الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 16/ 268.
(4) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 8/ 568.

غايةُ تفرّق نزولِ القرآن تبليغُه للنّاس وتحقيقُ مقصوده في تربيتهم والارتقاءِ بهم

﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ و﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾؛ لإفادةِ أمرين:

الأوّل: بيانُ الغايةِ من إنزالِه مُفرَّقًا؛ وهي قراءته وتبليغه للنّاس على وجهِ قوّةٍ وتمكُّنٍ للعمل به، أي لم يُنزله على رسوله ليحتفظَ به لنفسه، وليعمل به وحده، وإنَّما أنزله للعالمين.

الثّاني: الإشارةُ إلى أنَّ قراءةَ القرآن على تمَهُّل وتأنٍ فيها رعايةٌ لمصالح العباد، ومعايشهم والرَّحمة بهم؛ ليحفظوه ويفهموه ويطبِّقوه، فيتدرَّج بهم من حال نقصٍ كانوا عليه إلى حالِ كمال.

وجوه تقديم شبه الجُملة ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ على قوله ﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾:

تبليغُ القرآن للنّاس هو الغايةُ الأهمُّ وفقَ ما يُناسبُ حالهم

قدَّم النَّظم الكريم الجارَّ والمجرور ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ على الجارِّ والمجرور ﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ مع أنَّ كليهما متعلّقٌ بالفعل ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾؛ لأمور:

الأوَّل: الاهتمامُ بالمُقدَّم، وهو تبليغُ القرآن للنّاس كلِّهم وإخراجهُم من الظُّلمات إلى النّور؛ إذ هو الغايةُ الأهمُّ لرسالته، قال البقاعي: "﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي عامَّةِ كُلِّ من أمكنك منهم، فإنَّك مُرسَلٌ إليهم كُلِّهم"[1].

الثّاني: تقديمٌ تراتُبيّ متناسِبٌ مع حكمة التّدرّج وعلّة الإنزال؛ حيث إنَّ حالَ النّاس وقتَ نزول القرآن هو حالُ اضطرابٍ وتذبذبٍ وتموُّجٍ في ظُلماتِ الجهلِ والمُنكرات، فلا يتهذَّبون إلّا في أزمانٍ طويلة وعلاجٍ كبيرٍ، مِمّا استدعى أنْ يكون نزولُ القرآن على مُكث، أي تؤدةٍ وتَرَسُّل؛ بأنْ تقرأَ منه كُلَّ نجمٍ في وقته الذي أنزلناه فيه، في مُدَّة ثلاث وعشرين سَنَة[2].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 532.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 532.

الثّالث: موافقةُ الأصلِ في ترتيبِ الكلام بمجيء المفعول به قبل الحال؛ إذ إنَّ الجارَّ والمجرور الأوَّل ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في موضعِ المفعول به، والثّاني ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في موضع الحال(1).

إيثارُ استعمال لفظ ﴿مُكۡثٍ﴾:

المـُكْـثُ أوسـعُ دلالـةً، وأوضح حـالًا نـزولًا وغايةً، وأنسبُ لحال المنزل عليه

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿مُكۡثٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٍ﴾ دون لفظ (المَهَل)؛ لأمور منها:

أوَّلًا: لكونِ لفظ المُكْث أوسعَ دلالةً؛ إذ يشملُ التَّمهُّل وعدمَ العجلة والتَّوقّفَ وطولَ إقامةٍ مَعَ انْتظارٍ وتَّلَبُّثٍ في المَكانِ(2)، أو ثباتٍ مع انتظارٍ(3).

ثانيًا: لكونه أنسبَ لحالِ نزول القرآن، وحالِ المنْزَلِ عليه مِن النَّبيِّ ﷺ والنّاس؛ فقد نزلَ على فتراتٍ زمنيَّةٍ مُتطاولة؛ ليعيش النبيُّ والمؤمنون معه، على هذا الزّاد الكريم، طَوال تلك المُدَّة التي كان القرآن يتنزّل فيها، وهم يرصدون مطلع كلِّ آية، ويشهدون بزوغ كُلِّ كلمة(4)، كما في انتظارِ النَّبي ﷺ لآياتِ حادثة الإفك، أو انتظارِ المؤمنين الجوابَ عن أسئلةٍ سألوها، أو انتظارِ المُشركين الرَّدَّ عن شُبَهٍ طرحوها، فيكون معنى ﴿عَلَىٰ مُكۡثٍ﴾ أي: (عَلى تَمَهُّلٍ، وتوقُّفٍ، وانْتِظارٍ، رَيْثَما تَثْبُتُ مَعْرِفَةُ القِسْمِ المُنَزَّلِ)؛ مُراعاةً لمصالح النّاس وتدرجًا بهم في التربية والانتقال من حالٍ إلى حال؛ فقد أَنزل أوّلًا آيات الإيمان والأخلاق حتَّى إذا ثابَ النّاس إلى الإيمان أنزلَ جزئيّات الأحكام مُتدرِّجة كذلك.

ثالثًا: لكونه أنسبَ مع الغايةِ من نُزوله مُفرَّقًا، وهي التَّوقُّف عند حدوده، وإقامتُه في حياتهم، والإقامة على قراءته وحفظه، وفهمه،

(1) أبو حيَّان، البحر المُحيط: 6/ 215.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير: (مكث).
(3) الرَّاغب، المُفردات، ص: 772، والسَّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: 4/ 103.
(4) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 8/ 568.

والثَّباتُ على ما تضمَّنته آياته، "و﴿مُكۡثٖ﴾ تتضمَّن امتدادَ الزَّمن امتدادًا يمكثون فيه من قراءته وحفظه، وتفهُّمه، وتعريف غاياته ومراميه"[1]، وهذا ما كان عليه الصَّحابة رضوان اللّٰه عليهم، قال أبو عبد الرحمن السُّلمي: "حَدَّثَنا مَنْ كانَ يُقْرِئُنا مِنْ أَصْحابِ النَّبيِّ ﷺ، أَنَّهُم كانوا يَقْتَرِئونَ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ عَشْرَ آياتٍ، فَلا يَأْخُذونَ في العَشْرِ الأُخْرَى حَتَّى يَعْلَموا ما في هَذِهِ مِنَ العِلْمِ والعَمَلِ، قالوا: فَعَلِمنا العِلْمَ والعَمَلَ"[2].

نُكتة عَدَمِ ذكر الحكمة من نزول القرآن مُفرَّقًا:

في طيِّ حكمةِ نزولِ القرآنِ مفرّقًا إيجازٌ في التَّعبيرِ وإفادةٌ للشُّمول

طوى القرآنُ الكريم بيانَ الحكمةِ من نزول القرآن مُفرَّقًا في قوله: ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾، ولم يُبيِّنها كما صرَّح ببعض هذه الحكم قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفُرقان: 32]، وذلك لأمورٍ:

أوَّلًا: ايجازًا؛ لكونها معروفةً لدى من نزل عليهم القرآن؛ إذ تتعلَّق بحالهم وواقعهم، فهم عايشوا نزول القرآن.

ثانيًا: لتعددِ وكثرة الحِكَم من نزول القرآن مُفرَّقًا، إذ في ذِكْرِ بَعْضِها تقييدٌ لهذه الحِكَم، واحتمالُ توهُّم اقتصارِها عليه، وعدم إفادة الشُّمول، ومن هذه الحِكَم مثلًا: تثبيتُ قلبِ النَّبي ﷺ، وتسهيلُ حفظِ القرآن، والتدليل على الإعجاز، ومُراعاةُ مصالح النّاس، والتَّدرُّجُ في الأحكام، ومُراعاة الأسباب والحوادث، والإجابة عن الأسئلة، وردُّ الشُّبَه، وغيرُها من الحِكَم.

دلالة الواو في قوله ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ﴾:

العطفُ تأكيدٌ لنُزوله المفرَّق بِحَسَبِ الحوادث، وإشارةٌ إلى أهمّيّته

الواو في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه هو جُملة ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾، والمعنى العامُّ الذي يجمعُ المعطوفَ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4475.
(2) مُسند الإمام أحمد، أحاديث رجال من أصحاب النَّبي ﷺ: 38/ 466، الحديث رقم: (23482).

والمعطوف عليه هو أنَّ كِلَيهما بيانٌ لنزولِ القرآن مُفرَّقًا ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ و﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ﴾، إلّا أنَّ الجُملةَ المعطوفَ عليها أضافتْ مع البيانِ عِلَّة نزولِه مفرَّقًا، في حين أنَّ الجُملةَ المعطوفةَ أضافتْ مع البيانِ معنى تأكيدِ نزوله المفرَّق على حسب الحوادث، والإشارةَ إلى أهمّيَّته، والمعنى: "فرّقنا تنزيله، وأنزلناه شيئًا بعد شيء"[1]، وفائدةُ العطفِ بيانُ مقتضي ذلك التَّنزيلِ؛ وهو التَّنزيلُ بحسب الحوادث[2].

سِرُّ تكرار لفظ النُّزول والتَّنزيل:

في التَّكرار تأكيدٌ لإثباتِ تَنَزُّلِ القرآنِ وحيًا من عند اللهِ على نبيِّه الكريم

كَرّر البيانُ الإلهيُّ لفظَ النُّزول والتَّنزيل في الآتين: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ و﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾؛ تأكيدًا لنزولِ القرآنِ الكريم على النَّبي ﷺ، وهو ما أنكره المُشركون، وفي ذلك إثباتُ أنَّ القرآن الكريم هو وحيُ الله المُنزَّل على قلبِ النَّبي ﷺ، بما لا يدعُ في ذلك أيَّ شكٍّ، وفي ذلك أيضًا إشادةٌ به وبمَنْ أُنزل عليه، وهذا يتوافق مع أهمِّ محاورِ السّورة؛ إذ إنَّ القُرآنَ هو المَوضوعُ الأكثرُ حضورًا فيها، ولا أدلَّ على ذلك من تكريرِ اسمه فيها إحدى عَشْرَةَ مرَّةً[3].

نُكتة استعمال صيغة (فعَّل) بتشديد العَيْنِ في قوله ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ﴾:

التَّضعيفُ بيانٌ للأسلوب الذي نزل به القرآن على قلب النَّبي وأهميَّته

في التَّعبيرِ بفعل ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ﴾ المُضعّفِ في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ إشارةٌ إلى تأكيد تَفريقِ إنزالِه المذكورِ في قولِه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾[4]، أي بيانٌ للأسلوبِ الذي نزلَ به القرآن خلال هذا الزمن الذي نزل فيه، وأنَّه نزَّل تنزيلًا، أي نزل شيئًا شيئًا[5]؛ لأنَّ الفعلَ المُضَعَّف أقوى دلالةً على الحدث - وهو كثرة التَّنزيل - من الفعل غير المضعَّف، فقولك: (نزّل) أقوى من (نزل) أو (أنزل)، وأدلَّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 576.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 15/ 108.
(3) المُستغانمي، جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور، ص: 277، 284.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 231.
(5) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 8/ 568.

على كثرةِ التَّنزيل، وفي هذا التَّضعيف للفعل بتشديد حرف الزاي (نزّل) إفادةُ إنزالِ القرآن مُفرَّقًا بحسبِ الحوادث، وإيماءَةٌ لطيفة بأهميَّة هذا التَّنزيلِ المفرَّق، وبأهميَّةِ أثره في إعدادِ نُخبةِ الأمَّة من الصَّحبِ الكرام، وأنَّه أَعْونُ على فهمهِ وأسهلُ في حفظهِ، كما أنَّ فيه تسليةً للنَّبيِّ ﷺ، وشرحًا لصدره الشَّريف؛ لأنّ أخبارَ المُحِبِّ إذا كانتْ مُتواصلة كان المَحْبوب كُلَّ يوم في عيدٍ بهناءٍ جديد[1].

فائدة استعمال المصدر في قوله ﴿تَنزِيلًا﴾:

في تأكيدِ الفعل ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ﴾ بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿تَنزِيلًا﴾ فوائدُ عديدةٌ:

في تأكيدِ تَفريقِ إنزالِه مُراعاةٌ لِما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة وتحقيق للغايةَ منه

الأوّل: الإشارةُ إلى نوع التنزيل، أي إنّ تَفريقِ إنزالِه المذكورِ في قولِه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾[2] يكون حسبما تقتضيه الحِكْمَةُ والمصلحةُ وما يقعُ من الحوادث والواقعات[3]؛ لأنَّهم لو أخذوا بجميع الفرائضِ في وقتٍ واحدٍ لنفروا ولم يُطيقوا[4]، وفيه المُبالغةُ، وتأكيدُ المعنى المتقدِّم ذكْرُه في ألفاظ الآية[5]، والمعنى: (ونَزَّلْناهُ تَنْزيلًا بأناةٍ وتَمَهُّلٍ وتَحْقيقٍ مع كلّ قِسْمٍ يُنَزّل منه).

الثّاني: الإشارةُ إلى أنّ القرآن تنّزّل بمعانيه وألفاظه، أي تنَزَّل تنزلًا كاملًا، ولعلَّ في هذا ردٌّ على الذين افتروا الكذب، وقالوا إنَّه نزلَ بمعناه، وعبارتهم: كيف نزل[6]؟

الثّالث: الإشارةُ إلى عظمةِ هذا التَّنزيلِ المفرّق بما يدلُّ على إعجازِ القرآني الكريم، فقد نزلتْ آياته مُفرّقة على حسب أحداثٍ ووقائعَ لم تكن على ترتيبٍ أو نسقٍ مُعَيَّن، ثُمَّ قد وُضِعَتْ كلُّ آيةٍ أو مجموعةِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 532.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 231.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 199.
(4) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 16/ 253.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/ 491.
(6) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4475.

آيات نزلتْ في مكان خاصٍّ بها من سوره، ثُم يقرأ القارئ فيجد التَرابط المحكم والاتّساق العجيب، وكأنَّ أحداث السّورةِ الطَّويلةِ صورة مُتناسقةُ الألوان والظِّلال والمشاهد، أو بناءٌ محكَمَ الترابط تامُّ التكوين، مِمّا يَدُلُّ دلالةً قاطعةً على أنَّ هذا القُرآنَ تنزيلُ حكيم عليم، أحاط علمه بما هو كائن، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾ [الفرقان: 6][1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفَرْق والتفريق والفصل والتقطيع:

الفَرْق والتَّفريق خلافُ الجمع، والفَصْل القطع الظّاهِر، والقطعُ تقسيمٌ وتفريقٌ ظاهرٌ وخفيٌّ

تتداخل هذه الألفاظ (فَرَقَ، فرّق، فَصَلَ، قطّع)، لتقارب معانيها، فيستعمل أحدها مكان الآخر، ويُعرَّف أحدها بالآخر، إلا أنّه رَغم هذا التَّقارب فإنَّ لكلِّ لفظٍ ما يميّزه، ويتّضح ذلك من خلال الآتي:

الفَرْق أو التفريق يدلّ على تمييزٍ وتزييلٍ بين شيئين، والفَرْقُ ضدُّ التَّجمّع، والفارِقُ من النّاسِ: الَّذي يَفْرِقُ بَيْنَ الأُمورِ، أي يَفْصِلُها[2] "فصلًا واصلًا إلى العمق"[3].

فالفرق الفَصْل بَين الشَّيْئَيْنِ حُكْمًا أَو خَبرًا، ولِهَذا قالَ تَعالَى: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٥﴾ [المائدة: 25] أي: افصل بَيْننا حُكْمًا في الدُّنْيا والآخِرَة، ومن هَذا فَرْق بَين الحق والباطِل[4].

وأصلُ **الفصل** يدلُّ على تَمييزِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وإبانَتِه عَنْهُ[5]، والفَصْل: الحاجِزُ بَيْنَ الشَّيئين، والفيصلُ: الحاكِمُ؛ لِفَصْله بين الحَقِّ والباطِلِ[6]، فالفصلُ: إبانةُ الشَّيءِ من الشَّيءِ وقَطْعُه حتَّى

---

(1) عتر، علوم القرآن، ص: 34.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة (فرق).
(3) جبل، المُعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (فرق).
(4) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 151.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة (فصل).
(6) الزَّبيدي، تاج العروس: (فصل).

يكون بينهما فُرجةٌ، ويُستعمل ذلك في الأفعال والأقوال[1]، وفَصَلْتُ الشَّيء فانفَصلَ: قَطَعْتُه فانقطع[2].

والفَصْل يكون في جملَة واحِدَة، ولِهَذا يُقال: فَصَلَ الثَّوب، ولِهَذا أَيْضا يُقال: فَصَلَ الأَمر؛ لِأَنَّهُ واحِد، ولا يُقال: فَرَق الأَمرَ؛ لأَنَّ الفرْقَ خلافُ الجمع، وقالَ بَعضهم: الفَصْل ما كانَ من الفَرْقِ ظاهرًا، ولِهَذا يُقال لِما تَضَمَّنَ جِنْسًا من الكلام: فَصْلٌ واحِدٌ لظهوره وتَجَلّيه[3].

وأصل **القطع** يَدُلُّ عَلَى صَرْم، وإبانَة شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ[4]، وقَطَع الشيء أبانه من بعضه فَصْلًا، و(تقطَّع) شُدِّدَ للكثرة، وتقطَّعوا أمرهم: تقسَّموه، أو تَفرَّقوا في أَمرهم، و(قَطَعَ) ضَرْبانِ؛ مُدْرَكٌ بالبصر، كما في الأجسام كقوله: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]، وآخرُ مُدْرَكٌ بالبصيرة، كقَطْعِ السبيل[5].

والقطع يكون ظاهرًا وخافيًا، كالقطع في الشَّيْء الملتصق المُمَوَّه، ولا يُقال لذَلِك فصلٌ حَتَّى يَبِيْنَ أَحَدُ المفصولَيْن عَن الآخر، ومِنْ ثَمَّ يُقال: فَصَلَ بَين الخَصْمَيْن؛ إِذا ظهرَ الحقُّ على أَحدهما فَزالَ تَعَلُّقُ أَحدهما بِصاحِبِه فتبايَنا، ولا يُقال في ذَلِك: قَطَعَ، ويُقال: قَطَعَهُ في المناظرة؛ لِأَنَّهُ قد يكون ذَلِك من غير أَن يَظْهَرَ، ومِنْ غير أَن يقطع شَغَبَهُ وخصومتَه[6].

إذن: تشترك هذه الألفاظ (فَرَقَ، فَرَّقَ، فَصَلَ، قَطَعَ) بمعنى الإبانة، ويتميَّز لفظا (فَرَقَ) و(فَرَّقَ) بمعنى الحُكْم والانفصالِ الواصلِ إلى العمق، وقيل: المُخَفَّف (فَرَقَ) يكون في الأقوال، والمثقَّل (فرَّق) يكون في الأعيان، يُقال: فَرَقْتُ بَيْنَ الكلامَيْنِ فافْتَرَقا، وفَرَّقْتُ بَيْنَ العَبْدَيْنِ فَتفَرَّقا، كما أَنَّ التَّثقيل فيه مُبالغة[7].

ويتميَّز لفظ (فَصَلَ) بمعنى إبانةِ الشَّيء من الشَّيء وقطعه حتَّى يكون بينهما فُرجةٌ، في حين يتميَّز لفظ (قَطَّع) بمعنى الصَّرْمِ والإبانةِ والتَّفريقِ والتَّقسيم الكثير مع الفصل الكامل العميق بين الأجزاء.

(1) الرَّاغب، المُفردات، ص: 638، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفَّاظ: 3/ 233.
(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 4/ 195.
(3) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 150.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قطع).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (قطع).
(6) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 151.
(7) الأزهري، تهذيب اللُّغة، والفيومي، المصباح المنير: (فرق).

المكْث والمهَل:

المُـكْـثُ انـتـظارٌ مع أناةٍ وثباتٍ، والمَـهَـل تُـؤدةٌ وسكونٌ وإنظارٌ مع رفقٍ

يتقاربُ لفظا (المُكْث والمَهَل) في دلالاتهما اللُّغويَّة، ففيهما معنى الانتظار والإنظار، ويفترقان في بعض المعاني التي تُميِّز كُلًّا منهما عن الآخر، وإيضاح ذلك فيما يلي: أصل (مَكَثَ) يَدُلُّ على توقُّفٍ وانتظار، والتَّمَكُّثُ: الانْتِظارُ[1]، والمُكْثُ: الأَناةُ واللَّبَثُ والانْتِظارُ، ومَكَثَ: أقام وتَلَبَّثَ فهو ماكِثٌ، ويُقال المُكْثُ: الإقامةُ مَعَ الانْتِظارِ والتَّلَبُّث في المَكانِ[2]، أو ثباتٌ مع انتظارٍ[3]، والمَكيثُ: المُقيم الثابت، والمعنى المحوريُّ اللَّبْث والتَّلبُّث في المكان زَمَنًا كالمُقيم الثّابت[4].

وأصل (مَهَلَ) يدلُّ على تُؤَدَةٍ، وأَمهلتُه: أَنْظرتُه، ولم أُعْجِلْه[5]، والمَهَل: التُّؤَدَةُ والسُّكونُ، يُقال: مَهَلَ في فعله، وعمل في مُهْلَة[6]، والمُهَلَةُ: السَّكينَةُ، والتُّؤَدَةُ، والرِّفْقُ، وأَمهَلَهُ: أَنْظَرَهُ ورَفَقَ بِهِ ولم يَعْجَلْ عَلَيْهِ[7].

إذن: يتميَّز لفظ المُكث بمعنى الانتظار والأناة والثَّبات والإقامة والتَّوقُّف اللُّبْث والتَّلبُّث.

ويتميَّز لفظُ المَهَل بالتُّؤدةِ والسُّكونِ والإنظار مع رفقٍ من دون عجلة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مكث).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير: (مكث).
(3) الرَّاغب، المُفردات، ص: 772، والسَّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: 4/ 103.
(4) محمَّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مكث).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مهل).
(6) الرَّاغب، المُفردات، ص: 780.
(7) الزَّبيدي، تاج العروس: (مهل).

﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ١٠٧﴾ [الإسراء: 107]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا صَرّفَ اللّهُ في الآياتِ السّابقة للكافرين من كلِّ مَثَلٍ فأبوا إلّا كفورًا، وطالتِ الدَّلائل وزالتِ الشُّبه، وعُلِمَ أنَّ اللّهَ مع الذين اتَّقَوا، وأنَّ الحَظَّ لمن أقبل، والخَيْبَةَ لمن أدْبر، أمَرَ نَبيَّهُ ﷺ أنْ يقول مُنبِّهًا لهم على ذلك مُبَكِّتًا لهم بتقاعسهم عنه وعنادهم فيه: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ﴾ أي بالقرآن ﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ﴾؛ فالإيمان به غيرُ مُحتاجٍ إليكم، ولا موقوف عليكم؛ فإيمانُكم وعدَمُه عندَ اللّه سواءٌ[1].

أن الحجج بعدما أصبحت قائمة على الكافرين، أصبح إيمانهم بالقرآن وعدمه سواء

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخِرُّونَ﴾: أصلُ (خرّ) واحِدٌ، وهو اضْطِرابٌ وسُقوطٌ مَعَ صَوْتٍ[2]، فالخَريرُ: صَوت الماء والرّيح والعِقاب وغير ذلك ممّا يَسقط من علوٍّ[3]، وخَرَّ للّه ساجدًا يَخِرُّ خُرورًا، أَي: سَقَطَ سقوطًا يُسمَعُ منه خَريرٌ[4]، والمُراد بالخُرورِ في الآية: الهويُّ وسُقوطُ الجِسْمِ مِنْ عُلوٍّ إلى الأَرْضِ.

2) ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾: أصلُ (ذقن) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ إِلَيْها يَرْجِعُ سائِرُ ما يُشْتَقُّ مِنَ البابِ، فالذَّقَنُ ذَقَنُ الإِنْسانِ وغَيْرِهِ: مَكانُ اجْتماعِ اللَّحْيَيْنِ أَسْفَلَ الوجْه[5]، واللَّحْيانِ هُما العَظْمانِ اللَّذانِ تَنْبُتُ عَلَيْهِما الأَسْنانُ السُّفْلَى، يُقالُ: ذَقَنَ الرَّجُلُ، يَذْقَنُ، ذَقْنًا، أَيْ: وضَعَ يَدَهُ تَحْتَ ذِقْنِه وذَقَنِه، ويُطْلَقُ بِمعنى الشَّعْرِ الذي يَنْبُتُ أَسْفَلَ الوجْه، وجَمعُه:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 533، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرَّ).
(3) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (خرَّ).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خرَّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذقن).

أَذْقانٌ[1]، والمُراد بالأَذْقانِ في الآيةِ: جَمعُ الذَّقَنِ - بِفَتْحِ الذّالِ وفَتْحِ القافِ - مُجْتَمَعُ اللَّحيَيْنِ.

3) ﴿سُجَّدًا﴾ أصلُ (سجد) واحدٌ مُطَّرِدٌ يَدُلُّ على تطامُنٍ وذُلٍّ، يُقالُ سَجَدَ، إذا تطامَنَ، وكُلُّ ما ذَلَّ فَقَدْ سَجَدَ، وأَسْجَدَ الرَّجلُ إذا طَأطَأ رأسَهُ وانحَنى، وسَجَدَ إذا وضعَ جَبهتَهَ بالأَرْضِ[2]، وجُعل ذلك عبارة عن التَّذلُّل للّه وعبادته، وهو عامٌّ في الإنسان، والحيوانات، والجمادات، والمَساجِدُ: السُّجوْدُ ومَواضِعُه من الجَسَدِ والأَرْضِ، الواحِدُ: مَسْجَدٌ[3]، والإسجاد: إدامة النَّظر مَعَ سُكونٍ[4]، والمقصود بالسُّجود في الآية: وضْعُ الجَبْهَةِ على الأَرْضِ إرادَةَ التَّعْظيمِ والخُضوعِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

هذا القرآن لا يَقْدِرُ قدرَه، ولا يَعرِفُ فضلَه، إلّا من انتفع بعقلِه، وأحسن الاستماع إليه

أَمَرَ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يُخاطب المُشركين بما يدلُّ على هوان شأنهم، وعلى عدم المُبالاة بهم، فجاء التعبير القرآني يأمر النبي ﷺ أن قُلْ يا مُحَمَّدُ ﷺ للمُكَذِّبينَ المُعرِضينَ عن القُرآنِ: آمِنوا بالقُرآنِ أو لا تُؤمِنوا به؛ فسَواءٌ آمَنتُم به أم كَفَرتُم، فهو حقٌّ في نَفسِه، ولن تَنفَعوا اللّهَ إن آمَنْتُم، ولن تَضُرّوه إن كَفرْتُم، وإنَّما ضَرَرُ ذلك واقِعٌ عليكم، وإنْ تَكفُروا بالقُرآنِ، فإنَّ علماء أهل الكتاب الَّذين آتاهم اللّه العِلْمَ قبل نزول هذا القرآن، وميَّزوا بين الحقِّ والباطل، كانوا إذا تُلي عليهم هذا القرآن، - كأمثال عبد اللّه بن سلام وأصحابه يسقطون على وجوههم ساجدين للّه تعالى شُكْرًا له على إنجاز وعده، بإرسالك - أيُّها الرَّسول الكريم - وبإنزال القرآن عليك، كما وعَد بذلك سُبحانه في كتبه السّابقة[5].

(1) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ذقن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سجد).
(3) ابن عبَّاد، المُحيط في اللُّغة، وابن سيده، المحكم: (سجد).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المُحكم: (سجد).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 119، والقُرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 340، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 468، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 450.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل جُملة ﴿قُلۡ﴾ عمّا قبلها:

خِطابُ تلقينٍ للنَّبيِّ بالقولِ للمُشركين بأنَّ إيمانهم وعدمه عند الله سواء

فَصَلَ النَّظم الكريمُ جُملة: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ﴾ عمّا قبلها ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ ولم يربط بينهما؛ لِما بَيْنَ الجُملتين من كمالِ الانقطاع؛ لاختلافهما خبرًا وإنشاءً، فالجُملةُ الأولى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ﴾ خبريّةٌ، والثّانية: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ﴾ إنشائيَّةٌ، ولهذا تعيَّن الفصل بينهما.

وقد جاءتْ جُملة ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ﴾ استئنافَ خطابٍ للنَّبيّ ﷺ؛ ليُلَقِّنَهُ بما يقوله للمُشركين الذين لم يؤمنوا بأنَّ القُرآنَ منزَلٌ من عند اللّهِ بعد أنْ أوضحَ لهم الدَّلائلَ وأقامَ عليهم الحُجَجَ على أنَّ مِثْلَ ذلك لا يكون إلّا مُنزلًا من عند اللّه، فأمره بالقول لهم ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ تسويةً بين إيمانهم وعدمه عند اللّه تعالى[1].

فائدة الأمر بـ﴿قُلۡ﴾، والعُدول عن قوله (فآمنوا به):

خطابٌ يُظهرُ مقامَ الرَّسول ﷺ ويسلّي قلبه ويُظهر أهميَّة المقول

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾، وعَدَل عن قوله (فآمنوا به)، لإفادة أنَّ هذا الأمر من عند اللّه سُبحانه، وأنَّ النَّبي ﷺ مُبلِّغٌ ورسولٌ أمينٌ، لا يُغيِّر ولا يُبدِّل حَرْفًا من عنده، ولبيان علوِّ مقام الرِّسالة، ومقام النَّبي ﷺ، وتسليةً لقلبه الشَّريف ﷺ بجعله الوحيد المكلَّف بإبلاغهم وإنذارهم.

وفيه كذلك دلالةٌ على الاهتمام بالمَقول"فإنَّ أصلَ الأمرِ بالقولِ في مقامِ التَّصدّي للتَّبليغ دالٌّ على الاهتمام"[2].

بلاغة الأمر في قوله ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾:

تفويضٌ بالاختيار بعد البيان، مشوبٌ بالتَّهديد والتَّبكيت والتَّحقير

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ﴾ أمرٌ غايته تفويضٌ بالاختيار بعد البيانِ مشوبٌ بالتَّهديدِ والتَّسوية، يتضمَّنُ الإعراضَ عنهم، واحتقارَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 232.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 192.

والازدِراءَ بهم، وعدَمَ الاكتراثِ بهم وبإيمانِهم أو بامتناعِهم عنه، وأنَّهم إنْ لم يَدْخُلوا في الإيمانِ ولم يُصدِّقوا بالقُرآنِ، وهُم أهلُ جاهليَّةٍ وشِرْكٍ، فإنَّ خيرًا منهم وأفضَلَ - وهم العُلماءُ الَّذين قَرأوا الكُتبَ، وعَلِموا ما الوحيُ وما الشَّرائعُ - قد آمَنوا به وصَدَّقوه، وفي ضمن الأمر ضَرْبٌ من التَّوعُّدِ، والمعنى: أنَّكم لستُم بحُجَّةٍ، فسواءٌ علينا أآمنْتُم أم كفرْتُم، وإنَّما ضَررُ ذلك على أنفُسِكم، وإنَّما الحُجَّةُ أهلُ العلْمِ، وقيل: الآية مُخلَصةٌ للوعيدِ دونَ التَّحقيرِ، والمعنى: فسَتَرون ما تُجازونَ به[1].

دلالة ﴿أَوۡ﴾، ودلالة ﴿لَا﴾ في ﴿لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾، ووجْهُ الجزم:

الـدَّلالـة على الـتَّـسـويـة المُكنَّى بها عن الإعـراض عنهم واحتقارهم وقِلَّة المُبالاة بهم

اختلفَ المُفسرون في معنى ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ على رأيين:

الأوَّل: أنّها للتَّخيير المَشوبِ بالتَّهديدِ والتَّسويةِ والتَّبكيتِ لهم.

الثّاني: ليس المقصود منها في الآية التَّخيير بين الإيمان أو عدمه، وإنَّما المُراد به التَّسوية، أي إيمانكم وعَدَمُهُ سواء، وهذا مِنَ اللّهِ ﷻ على وجهِ التَّبكيتِ لهم والتَّهديدِ[2]، وقال ابن عطيَّة: "تحقيرٌ للكُفّارِ، وفي ضِمنِه ضَربٌ مِن التوعُّدِ"[3].

ولذلك جُزمتْ ﴿لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ بالعطف على المجزوم؛ لأنَّ حرف ﴿لَا﴾ حرفُ نفي، وليس حرفَ نهي؛ إذ لا يقعُ مع الأمر المُراد به التسوية إلّا كذلك، وهو كنايةٌ عن الإعراضِ عنهم، واحتقارهم وقلَّة المُبالاة بهم، ويندمجُ فيه مع ذلك تسليةُ الرَّسول ﷺ[4].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 699، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 124، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 232.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 340.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 491.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 232.

سِرُّ فصل جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ عمّا قبلها:

تعليلٌ فيه تسليةٌ لقلبه الشّريف وازدراءٌ لشأنِ الكافرين وعدمِ المُبالاة بهم

فَصَلَ القرآنُ جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ عن الجملةِ التي قبلها ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بَيْنَ الجُملتين من كمالِ اتِّصال؛ إذ إنَّ الجملةَ الثّانية جاءتْ إمّا تعليلًا لقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾، والمَعنى: إنْ لم تُؤْمِنوا به لقد آمَنَ به مَن هو خيرٌ منكم، "أي سيّان إيمانكم وعدم إيمانكم بالقرآن، فإنَّكم إنْ كفرتم فقد وُجِد مَنْ يؤمنُ به، ويُدرك منزلته"[1] وفي هذا احتقارٌ لهم وازدراءٌ لشأنهم.

أو تعليلًا لقوله ﴿قُلْ﴾ على سبيلِ التَّسليةِ لرسولِ اللّهِ ﷺ، وتَطييبِ نفْسِه، كأنَّه قيل: (تسَلَّ عن إيمانِ الجهلةِ بإيمانِ العُلماءِ)[2]، أي إنْ لم يؤمنْ به هؤلاء الجهّالُ الذين لا علمَ عندهم، ولا معرفة بكتب اللّه، ولا بأنبيائه، فلا تبالِ بذلك، فقد آمن به أهلُ العلم، وخشعوا له، وخضعوا عند تلاوته عليهم خضوعًا ظهرَ أثره البالغُ بكونهم يخرّون على أذقانهم سجّدًا للّه[3].

أو لكليهما؛ شأنُ العللِ التي تردُ بعد جملٍ مُتعدِّدة، ولذلك فُصِلَتْ[4].

نكتة التَّعبير باسم الموصول بدلًا من المُحَلّى بأل (العُلماء):

العلمُ سببُ خشيةِ اللهِ وشُكرِهِ على إنجازِ وعده بإرسال الرسول والرسالة

عُرِّف المُسندُ إليه بالاسم الموصول في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ بدلًا من المحلّى بأل (العلماء)؛ للإيماءِ إلى وجهِ استحقاقهم للثّناء من اللّه سُبحانه، وهو العلمُ الذي أوتوه، والذي كان سببَ إيمانهم وخضوعهم، وخشيتهم عند سماع كلام اللّه تعالى، كما أنَّه يُشير إلى أنَّ أدنى إيتاءٍ للعلم باللّه ينطبقُ عليه حُكم الآية، وليس بالضَّرورة أنْ يكون راسخًا في العلم.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4476.

(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 699، والبيضاوي: أنوار التَّنزيل: 3/ 269، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 124، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 199.

(3) محمَّد الأمين الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 16/ 254.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 233.

فائدة إبهام الاسم الموصول:

قَصْدُ تشريفِهم بالوصفِ الكامل والإشارةِ إلى كثرتهم

تكمن فائدةُ إبهامِ الاسم الموصول في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾: في عدَّة أمور:

الأوَّل: تشريفهم بالوصفِ الكاملِ وهو اتِّصافهم بالعلم والعمل به.

الثّاني: الإشارةُ إلى عموم من أوتي العلم من قَبْلِ النَّبيّ ﷺ، وخاصةً أنّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من ألفاظِ العموم، ولذا وردَ في بيانهم ثلاثة أقوال: أنّهم ناس من أهل الكتاب، أو أنّهم الأنبياءُ عليهم السلام، أو أنّهم طلابُ الدّين، كأبي ذرٍ، وسلمان، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو، قاله الواحدي[1].

ولا مانعَ من التَّوسُّع في معنى أولي العلم بأنّهم أولو الإدراك والتَّأمل والعلم بكلّ ما يتعلّق بالله تعالى من أهل الكتاب، وأهلِ الحكمة والمعرفة الذين أوتوا المعرفة، فإنَّ هؤلاء قد يكونون من أوساطٍ لا إيمانَ فيها، كإيمان مؤمن آل فرعون، وكإيمانِ السَّحرة، وكإيمان الأوس والخزرج[2].

الثّالث: لفتُ الانتباهِ في الإبهام؛ ليقعَ بعده التَّفصيل فيتمكَّن معناه من الذِّهن.

نكتةُ جمعِ الاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾:

إشارة إلى أن الفريقَ الذي يجتمعُ على الخضوعِ لله والإيمان برسوله هم أهلُ الإدراك والتّأمّل والعلم

في إيرادِ الاسم الموصول جمعًا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ إشارةٌ إلى أنَّهم جماعةٌ وفريقٌ آتاهم الله العلمَ قبل نزولِ هذا القرآن، وميَّزوا بَيْنَ الحَقِّ والباطل، ولَمّا سمعوا كتاب الله اتَّفقوا على الخضوعِ له، والشُّكر لله على إنجاز وعده بإرسالِ النَّبيّ ﷺ، وإنزاله القرآن العظيم، وأنَّهم مع سُجودهم يتملَّك نفوسَهم التَّأثُّر به، وكُلّما تُليَ عليهم القُرآن ازدادوا علمًا، وكُلّما ازدادوا عِلْمًا

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 59.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4476.

ازدادوا إيمانًا، وخشوعهم يستمرُّ في نموٍّ، وفي اجتماعهم على الحقِّ تزيينًا له وتثبيتًا عليه في نفوسهم.

دلالة استعمال صيغة المبني للمفعول ﴿أُوتُواْ﴾:

بَنى البيانُ القرآنيُّ الفعل ﴿أُوتُواْ﴾ للمفعول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾؛ لِأمرين:

الأول: للتركيز على حَدَثِ إتيانِ العلم لا على شخص مَن أوتي هذا العلم، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ العِلْمَ الرَّبانيّ، يكون دائمًا حاثًّا على الإيمان بهذا القرآن.

من لم يحمله علمُه على الإيمانِ بالقرآن فلا خير في علمه

الثّاني: للتنبيه على أنَّ من كان يعلمُ ولم يحمله عِلْمُهُ على الإيمان بهذا الكتاب فعلمه كأنّه لا شيء، ومُدَّعيه أجهلُ الجهلة[1]، إذ لا شيء أَبْيَنَ من حقيقته وذلك لمُصادقته لكتبِ الأنبياء الذين ثَبَتَتْ رسالاتهم ومضتْ عليها الدُّهور، واطمأنّتْ بها النُّفوس، ولزيادته عليها بما أودع اللّه فيه من الإعجاز والحكم.

سرُّ تخصيص ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ بالذِّكر:

خَصَّ البيانُ القرآنيُّ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ بالذِّكر مدحًا لهم، وللعلمِ الذي كان سببًا في إيمانهم بالنَّبيِّ ﷺ، وبالقرآن الذي أُنزل عليه، وإشارةً إلى أنَّ العِلْمَ الرَّبانيَّ حاثٌّ على الإيمان بهذا القرآن[2]، وتعريضًا بأنَّ الذين أعرضوا عن الإيمانِ بالقرآنِ جهلةٌ وأهلُ جاهليَّة[3].

العلمُ الحقيقيُّ هو الدّالُّ على الإيمانِ، وإلّا فمُدَّعيهِ أجهلُ الجهلةِ

معنى ﴿مِن﴾ وفائدة القيد بالجارِّ والمجرور في قوله ﴿مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ ابتدائيَّةٌ، والمُرادُ أنَّ من اتّصف بهذا الوصف ولو من زمنٍ يسيرٍ قبل بعثته ﷺ، أو قبل نزولِ القرآن نفعه هذا الوصف[4].

شرفٌ اختصَّ اللهُ به أناسًا كانوا أهلَ علمٍ قبل نزولِ القرآن، فحملهم علمهم على الإيمانِ به

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 533.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 533.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 233.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 533.

وفي الجارِّ والمجرور تقييدٌ لمن اتَّصف بالأوصاف الواردة بالآية بأنَّه ممَّن كان من أهل العلم قبل بعثةِ النَّبي ﷺ، أو قبل نزولِ القرآن كورقةَ بنِ نوفلٍ أو عبد الله بن سلام أو سلمان الفارسي أو النَّجاشي أو غيرهم، وليس ممّن أوتوا العلم بعد بعثته ﷺ.

وفائدة هذا التَّقييد الثَّناءُ على أناسٍ كانوا أهلَ علم قبل نزول القرآن، وحملهم علمهم على الإيمان به، فهو شرفٌ اُخْتُصّوا به لإنصافهم وعدم عنادهم، وبالمُقابل فيه تعريضٌ بالمُشركين وبكلِّ من أوتيَ علمًا، ولم يحمله علمه على الإيمان بالله وبقرآنه وبرسوله عنادًا وكِبْرًا.

عود الضَّمير في قوله ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾:

في التَّعبير بالضَّمير إثراءٌ للمعنى واختصارٌ في الكلام

في هاء الكناية في ﴿قَبْلِهِۦٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ قولان[1]:

أحدهما: أنَّها ترجعُ إلى القرآن، والكلامُ على حذف مُضافٍ معلوم من المقامِ معهودِ الحذفِ، والمعنى: إنَّ الذين أوتوا العلمَ من قبل نزوله[2].

والثّاني: ترجعُ إلى رسول الله ﷺ، قاله ابن زيد، والمعنى: أي من قبل البعث المحمدي[3].

دلالة جملة ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾:

سرعةُ السُّجودِ عند سماع القرآن عادةٌ ثابتةٌ لمن علمَ وانتفعَ بعلمه

دلَّت الجُملةُ الشَّرطيَّةُ ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ على اتِّصال تعلّق حصول الجواب بحصول الشَّرط وتلازمهما[4]، أي تعلَّقِ حصول خرورهم سُجَّدًا بحصولِ سماعهم لتلاوة القرآن وتلازمِ الأمرين، بما يَدُلُّ على فضلهم، وحسن حالهم، وأنَّهم قد

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 59.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 340، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 233.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4476.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 228.

قَدَروا القرآنَ قدْرَهُ، وعرفوا فضْلَه، ولا يقومُ بذلك إلّا من انتفعَ بعلمه وعقله، وأحسنَ الاستماع إلى القرآن، والتَّلقّي عنه، ويُشير كذلك إلى أنَّ أصحابَ العقل وأهل العلم والمعرفة هم أقربُ الناسِ نسبًا إلى هذا القرآن، وأكثرُهم معرفةً به، وأصدقُهم نظرًا إليه، وعرفانًا بقدره وفضله[1].

وفي التَّعبير بـ﴿إِذَا﴾ - التي من شرطها أنْ يكون التَّعليقُ بها على أمرٍ معلومٍ مقطوعٍ بوقوعه دون (إن) التي لا يكون التعليق بها إلا في مُبهم مشكوكٍ فيه[2] - إشارةٌ إلى استحقاقهم لهذا الثَّناء؛ لأنَّها تَدُلُّ على أنَّ سرعة سجودهم للّه وخضوعهم له عند سماع القرآن الكريم أمرٌ محقَّقٌ منهم، لا أنَّه أمرٌ مشكوكٌ فيه أو نادرٌ.

إيثار استعمال صيغة المبنيِّ للمفعول ﴿يُتۡلَىٰ﴾:

الـتَّركـيـزُ على حَـدَثِ الـتِّـلاوة وعـلـى الآيـات المتلوة دليلٌ على تعـلُّقِ قلوبهم بالقرآن

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بصيغةِ المبني للمفعولِ ﴿يُتۡلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا﴾؛ لأمرين:

الأوّل: إفادةُ العمومِ؛ لأنَّ الفعلَ المبنيَّ للمفعول في سياقِ الشَّرط يُفيدُ العموم، قال البقاعي: "من أيّ تالٍ كان في وقت من الأوقات"[3]، فلو أتى بالمبني للمعلوم لقيَّده بتالٍ واحدٍ فقط، وهو رسول اللّه ﷺ.

الثّاني: التركيزُ والانتباهُ على الحدثِ ذاته، وهو المفعول (تلاوة الآيات)، وحصرُ الوعي فيه، فلا يتوزَّع في غيره؛ لعدم تَعَلُّق غرض الآياتِ بشخصِ التّالي، وإنَّما التعلّق بأنَّ المتلوَّ في الحقيقة من أيِّ تالٍ كان حاثًّا على الإيمانِ بهذا القرآن.

إيثار استخدام لفظ ﴿يَخِرُّونَ﴾ بدل (يسجدون) و(يسقطون):

عبّر البيانُ القرآنيُّ بقوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا﴾، ولم يقل:

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 570.
(2) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 84.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 534.

التَّعبيرُ بالخرورِ كنايةٌ عن غايةِ خوفِهم وخشيتِهم من الله

(يسجدون)؛ لاتّساع دلالة ﴿يَخِرُّونَ﴾؛ إذ إنَّها لا تقتصرُ على السُّجود فقط، وإنّما تشملُ معه الاضطرابَ والسُّقوط مع صوت، وهو أصلُ مادَّة (خ ر ر)[1]، ومن معاني خَرَّ: سَقَطَ، وهوى من علوٍ إلى سُفْلٍ، ووقع، وسجد، ومات[2]، وكذلك الشِدَّة، يُقال: خَرَّ الماءُ خرًّا إذا اشتدّ جريُه[3]، ومن معانيه أيضًا: الانخفاضُ عمّا حوله، يُقال: الخرير: المكانُ المُطْمَئِنُّ، أي المُنخفضُ بين الرَّبوتين[4]، ولهذا كان لفظ (الخرّ) هو الأنسبُ للسّياق، فقد ناسبَ الخرورُ خشوعهم، وما نطقتْ به ألسنتهم من صوتِ التَّسبيح، وصوتِ البكاء الذي غلبهم، كما أنَّ المقصود من ذِكْرِ هذا اللَّفظ مُسارعتهم إلى ذلك حتَّى أنَّهم يسقطون على الأرض في معرض السُّجود كالمغشي عليهم، فيكون قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ كنايةً عن غايةِ ولَهِهم وخوفهم وخشيتهم[5].

ويُلْمَح من فعل الخرور أيضًا معنى الانسيابيّة والاختيار، وهذا ممّا يلزم عن الحبّ، فهم يسجدون طواعيَة من غير قَسْرٍ، فالخرور هَوِيُّ الشَّيء بقوَّة وتداركٍ لتسيُّبِهِ أو تسيُّبِ أثنائِه[6].

كما أنَّه لم يُعَبِّر بالسُّقوط، أي لم يقل: (يسقطون للأذقان سجدًا)؛ لعدمِ دلالتها على المعاني التي دلَّت عليها مُفردة ﴿يَخِرُّونَ﴾، ولِما في لفظ (يسقطون) من معنى لا يليقُ بحالِ الذين أوتوا العلم؛ وهو الرَّداءةُ والطرحُ وعدمُ الاعتدادِ بالشَّيء[7]، يُقال: رجل ساقط: أي لئيمٌ في حسبه ونفسه[8]، والسَّقْطَة: العثرة والزَّلَّة[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خرر).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (خرر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خرر).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 417 - 418.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (خرّ).
(7) الراغب، المفردات، ص: 414.
(8) الجوهري، الصحاح: (سقط)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعريف، ص: 195.
(9) الجوهري، الصحاح: (سقط).

إيثار التَّعبير بصيغة المُضارع في ﴿يَخِرُّونَ﴾:

في إيثار التَّعبير بصيغة المُضارع ﴿يَخِرُّونَ﴾ إبرازٌ لمشهدٍ يُصَوِّرٍ ما يلمسُ الوجدان، وهو مشهدِ الذين أوتوا العلم من قبله، وهم يسمعون القرآن، فيخشعون، ويضّطربون، ويهوون ويسقطون بقوّة وشدّة ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدَا﴾ إنّهم لا يتمالكون أنفسهم، فهم لا يسجدون فحسب، ولكن ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدَا﴾، كما تشيرُ إلى استمرارِ وتجدّد هذه الحالةِ منهم كلما سمعوا آياتِ القرآن تتلى عليهم.

استمرارٍ وتجدّد هذه الحالةِ منهم كلما سمعوا آياتِ القرآن تتلى عليهم

دلالة اللّام في ﴿لِلۡأَذۡقَانِ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدَا﴾ تحتمل وجهين:

الأوّل: بمعنى حرفِ الاستعلاءِ (على)، وهو ظاهرُ المعنى يُقال: خَرَّ على وجْهِه، وعلى ذَقَنِه، وإنَّما عُبِّرَ باللّام فقال: ﴿لِلۡأَذۡقَانِ﴾، ولم يقُلْ: (على الأذقانِ)؛ لأنَّ المعنى: أنَّه جَعَلَ ذَقَنَه ووجْهَه للخُرورِ، واختَصَّه به، فعُبِّرَ باللّامِ؛ لأنَّ اللّامَ للاختصاصِ[1]، فكأنَّهم خَصّوا أذقانهم بالخُرور، أو خَصّوا الخرور بالأذقان[2]؛ ولأنَّ العرب تقولُ إذا خرَّ الرَّجلُ فوقعَ على وجههِ خرَّ للذَّقَنِ[3].

شدَّةُ خضوعٍ وخشوعٍ تتمثَّل في اختصاصِ وجوههم بالسُّجودِ لله

وأصلُ هذه اللّام أنّها استعارةٌ تبعيَّة؛ اُستعيرَ حرف الاختصاص لمعنى الاستعلاء؛ للدَّلالة على مزيد التَّمكن كتمكُّن الشَّيء بما هو مُختصٌّ به[4].

الثّاني: اللّام على بابها مُتعلّقةٌ بـ ﴿يَخِرُّونَ﴾، ويكون بمعنى يُدّلون بأذقانهم[5].

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 699، والبيضاوي: أنوار التَّنزيل: 3/ 270، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 124، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 199، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 234.
(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 16/ 253.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 418.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 234.
(5) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1076.

مُبالغةٌ في سجودِ خضوعٍ وتعظيمٍ لله تُرقّيهم في مدارجِ القربِ ومعارجِ الكمال

نكتة إيثار لفظ الأذقان بدلًا من الوجوه:

قيَّد البيان القرآني الخُرورَ وهو السُّقوط بكونه للأذقان؛ أي: عليها؛ لأمور:

الأوَّل: لكون التَّعبير بالأذقان أنسبَ للسّياق الذي جمعَ بين السُّجود ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدًا﴾ وبين البكاء، وحال الخرور للأذقان ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ﴾، ومعلوم أنّ دموعَ البكاء عند كثرتها تُخضِّل اللَّحيَين، كما أنّ الخرورَ هو السُّقوط، "والإنسان إذا استولى عليه خوفُ اللّه تعالى فربَّما سقط على الأرض في معرض السُّجود كالمغشيِّ عليه، ومتى كان الأمرُ كذلك كان خروره على الذَّقَنِ في موضعِ السُّجود"[1]، فإنَّ الإنسانَ مجبولٌ بالطَّبعِ على صيانةِ وجهه، فهو يرفعُ رأسه فتصيرُ ذَقَنُه وفمه أقربُ ما في وجهه إلى الأرض حال السُّقوط[2].

الثّاني: لأنَّ المُرادَ تعفيرُ اللِّحيةِ في التُّراب، فإنَّ ذلك غايةُ الخضوع[3]؛ لأنَّ اللِّحية من كمالِ جمالِ الوجه[4]، أي عبَّر بالأذقانِ كنايةً عن اللِّحى، والإنسانُ إذا بالغَ عند السُّجود في الخضوعِ والخشوعِ ربَّما مسحَ لحيتَهُ على التراب، فإنَّ اللِّحيةَ يبالَغُ في تنظيفها، فإذا عفّرها الإنسان بالتراب فقد أتى بغايةِ التَّعظيم للّٰه والخضوع له[5].

الثّالث: لأنَّ الذَّقَنَ مُجتمَعُ اللَّحيَينِ، وعندما يبتدئ الإنسان بالخُرورِ للسُّجود، فأوَّل ما يُحاذي الأرض به من وجهه الذَّقَن[6]، قال ابن الأنباري: "أوَّلُ ما يلقى الأرضَ من الذي يَخِرُّ قبل أنْ يصوِّب جبهَتَه ذقَنُه، فلذلك قال: ﴿لِلۡأَذۡقَانِ﴾"[7].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 417.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 534.
(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 16/ 253.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4476.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 417.
(6) محمد الأمين الهرري، حدائق الروح والريحان: 16/ 253.
(7) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 3/ 59.

الرّابع: يجوز أنْ يكون المعنى: يَخِرّون للوجوه، فاكتفى بالذَّقَنِ من الوجه كما يُكتفى بالبعض من الكُلِّ، وبالنَّوع من الجنس[1]، للدَّلالة على تمكينهم الوجوهَ كلَّها من الأرض من قوَّة الرَّغبة في السُّجود؛ لِما فيه من استحضار الخضوعِ لله تعالى[2]؛ للمُبالغةِ، وكأنَّه لِشِدَّة تحامله ألصقَ ذَقَنَهُ بالأرض[3].

نكتة استعمال جمع التَّكسير ﴿سُجَّدَا﴾:

﴿سُجَّدَا﴾ جمع ساجد، وهو جمع تكسير، يُعدُّ من جموعِ الكثرة، وهو ما يدلُّ على العدد من الثّلاثة إلى ما لا نهاية، وقد ورد هذا الجمع في القرآن إحدى عشرة مرَّة في إحدى عشرة آية، ونكتةُ استعماله في قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدَا﴾ الإشارةُ إلى كثرةِ هؤلاء السَّاجدين الخاضعين لله سبحانه الذين تفتّحتْ قلوبُهم العارفةُ بطبيعةِ القرآن وقيمته لاستقبالِ فيضه؛ بسبب ما أوتيتْ من العلم قبله.

في الجمع بيانٌ لكثرة من تفتّحت قلوبهم العارفةُ بطبيعةِ القرآن واستقبلتْ فيوضاته

نكتة التَّعبير عن سجودهم بالاسم ﴿سُجَّدَا﴾ دون الفعل:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدَا﴾ عن سجودِ الكمَلَة الذين أوتوا العلم لَمّا تُليَ عليهم القرآن بالاسم ﴿سُجَّدَا﴾، ولم يقل: (إذا يتلى عليهم يسجدون)؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ والاستقرار[4]، وإشارةً إلى دوام ذلِّهم بالسُّجودِ المشروعِ، أو بمطلقِ الخضوعِ، وقيل: لأنَّ حالةَ السُّجودِ لمّا كانت لا تتجدَّدُ في كلِّ وقْتٍ عُبِّرَ عنها بالاسم.

دوامُ ذلِّهم بالسُّجود المشروعِ وبمطلقِ الخضوعِ يُنْطِقُ ألسنتهم بدوامِ التَّنزيه

فائدة تقييد قوله ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ﴾ بالحال ﴿سُجَّدَا﴾:

قيَّد البيان القرآنيُّ قوله ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ﴾ بالحال: ﴿سُجَّدَا﴾؛

سجودُهم لله هو سجودٌ حقيّةٍ وإذعانٍ وخشيةٍ للرَّحمن

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 3/ 59.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 234.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 67.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 429.

لإفادة أنَّ سقوطَ الكَمَلَة الذين أوتوا العلم عندما تُتلى عليهم آيات القرآن، - والذي أشبهُ ما يكون بسقوطِ من ليس له اختيارٌ من شدَّة ما يحصل لهم من الخشوع - هو سقوطٌ ليس سقوطًا اضطراريًا من كلِّ جهة، أي يفعلون ذلك لِما يعلمون من حقيّته بما أوتوا من العلم السّالف، وما في قلوبهم من الإذعان والخشية للرَّحمان[1]، فسجودهم سجودُ تعظيمٍ للّه عند مُشاهدةِ آيةٍ من دلائل علمه، وصِدْقِ رسله وتحقيق وعده[2].

فائدة الجملةِ الخبريّة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾:

إخبارٌ فيه حثٌّ للمخاطب على اقتفاءِ آثار الكَمَلَةِ الَّذين أوتوا العلْمَ والمسير بهداهم

أفادتِ الجُملة الخبريَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ۩ ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ تعريفَ المُخاطَبين - وهم العرب المُشركون - بالحُكم الذي تضمَّنته، وهو مدحُ حالِ العُلماء الذين آتاهم اللّه العِلْمَ قبلَ البعث المُحمَّديِّ مع القرآن إذا يُتلى عليهم، ثُمَّ أفادتْ معنىً مُكمِّلًا لهذا المعنى، فإنَّها مع المدح والثَّناء على العُلماء - الذين ميَّزهم اللّه، وأخبر أنَّهم يعرفون اللّه ويتَّقونه، وأنَّهم أوَّلَ من شهدَ بالوحدانيَّة بعد اللّه وملائكته - فيها حثٌّ للمُخاطبِ على اقتفاءِ آثارهم، والمسير بهداهم في تقديسِ اللّه وطاعته، وتسبيحه والسُّجود له طائعًا مُنيبًا خاشِعًا.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيمان والتَّصديق:

الإيمانُ هو تصديقٌ خاصٌّ معه أمنٌ وسكونٌ وطُمأنينةٌ وأمانةٌ

لم يُفرِّق اللُّغويّون بين الإيمان والتَّصديق، وجعلوهما مُترادفين، فعرَّفوا الإيمان بأنَّه التَّصديق[3]، يقول الأزهري: "اتّفق أهلُ العلم من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 534.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 234.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أمن)، (صدق).

اللُّغويّين وغيرهم أنّ الإيمان معناه التَّصديق"[1]، ويقول الزَّبيدي: "الإيمان: التَّصديقُ، وهو الَّذي جَزَمَ بِهِ الزَّمخشري في الأساسِ واتَّفقَ عليه أَهْلُ العلْمِ مِن اللُّغَويّين وغيرِهم"[2].

إلّا أنَّه رغم هذا التَّقارب الكبير بَيْنَ لَفْظَيّ الإيمان والتَّصديق - والذي يكاد يكون ترادُفًا - إلّا أنَّ هُناك فروقًا دقيقةً بينهما، ومن هذه الفروق:

أوّلًا: أصلُ مادَّة (ص د ق) تَدُلُّ على قوَّة في الشَّيء قولًا وغيره، ومن ذلك الصِّدق: خلاف الكذب، سُمّيَ لِقوَّتِهِ في نَفْسِهِ؛ ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّةَ له فهو باطل[3]، في حين مادَّة (أ م ن) لها أصلان مُتقاربان، أحدهما الأمانة التي هي ضِدُّ الخيانة ومعناها سكون القلب، والآخر التَّصديق[4].

ثانيًا: الصِّدقُ يُقابلهُ الكذبُ، والإيمانُ يُقابلهُ الكفرُ[5].

ثالثًا: الإيمانُ في اللُّغة التَّصديق، وعند كثير من أهل العلم: اعتقادٌ بالجَنان وإقرارٌ باللِّسان وعملٌ بالأركان[6]، فهو في الشَّرعِ يُطلَق على ثَلاثَة أَشْياء: الإِقْرار باللِّسانِ، والاعتقاد بالقَلْبِ - وهو طمأنينةُ النَّفس إِلَى صدقِ ما حصل الإِقْرارُ بِهِ - والعَمَلُ بالأعضاء بِمُقْتَضى ما صدق بِهِ بإقراره واعتقده بِقَلْبه[7].

رابعًا: الإيمانُ أَخَصُّ من التَّصديق؛ لأنَّ الإيمانَ تصديقٌ يُستعمل على نحوٍ مخصوص، فالمخبِرُ عن مشاهدة أو غيبٍ يُقال له صدقتَ، وأمّا لفظُ الإيمان فلا يُستعمل إلّا في الخبرِ عن غائب.

خامسًا: يقول العسكري: "أصلُ الإيمان السكونُ والطمأنينةُ، ومن أَمِنَكَ فقد سكنَ إليك ... ثم اسْتُعْمِلَ الإيمانُ بمعنى التصديق؛ لأنّك لا تصدّقُ الرجلَ إلا وقد سكنتَ إلى خبره"[8].

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: باب النون والميم، (أمن).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (أمن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أمن)، (صدق).
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 124.
(7) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 418.
(8) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 53.

سادسًا: الإيمانُ هو التصديقُ الذي معه أَمنٌ[1]، والإيمانُ مُتضمِّن مع التَّصديق معنى الأمانة، يقول الأزهري: "والأَصْلُ في الإيمانِ الدُّخولُ في صِدْقِ الأمانَةِ الَّتي ائْتَمَنَه اللّه تعالَى عَلَيْها، فإذا اعْتَقَدَ التَّصْديقَ بقلْبِه كَما صدَّقَ بلِسانِه فقد أَدَّى الأَمانَةَ وهو مُؤْمِنٌ، ومن لم يَعْتَقِدِ التَّصْديقَ بقلْبِه فَهو غيرُ مُؤَدّ للأَمانَةِ الَّتي ائْتَمَنَه اللّه عَلَيْها، وهو مُنافِقٌ، ومَن زَعَمَ أَنَّ الإيمانَ هو إِظْهارُ القَوْلِ دونَ التَّصْديقِ بالقلْبِ فَهو لا يَخْلو مِن أَنْ يكونَ مُنافِقًا أَو جاهِلًا لا يَعْلم ما يقولُ أَو يُقالُ لَهُ"[2].

إذن: الإيمانُ هو تصديقٌ خاصّ معه أمنٌ وسكونٌ وطمأنينةٌ وأمانةٌ.

الإيتاء والإعطاء:

لا يكادُ اللُّغويون يفرِّقون بين الإيتاءِ والإعطاءِ؛ إذ يُعرِّفون الإيتاءَ بالإعطاءِ، ويستعملون أحدهما مكان الآخر، إلّا أنَّه عندَ إمعانِ النَّظرِ في معانيهما، واستعمال القرآن لهما يتبيَّن بعض الفروق الدَّقيقة بين اللَّفظين، وإيضاحُ ذلك أنَّ أصلَ الإيتاء يدلُّ على مَجيءِ الشَّيْءِ وإِصْحابِهِ وطاعَتِه، والأَتْوُ: الاستقامةُ في السَّيرَ والسُّرْعةِ، والإيتاءُ: الإِعْطاءُ[3]، واشتهرَ الإيتاءُ في معنى الإعطاءِ، وأصلهُ الإِحْضارُ[4].

الإيتاءُ فيه قوَّة ويكون واجبًا وتفضّلًا، والإعطاءُ له مطاوعٌ ويدلُّ على التَّملُّك ولا يكون إلّا بمحْضِ التَّفَضّلِ

وأنَّ أصلَ الإعطاءِ يدلُّ على أخذٍ ومُناولةٍ، والعَطْوُ: التَّناولُ باليد، والمُعاطاةُ: المُناولةُ، والتَّعاطي: تناولُ ما ليس لهُ بحقٍّ، يُقال: فلانٌ يتعاطى ظلمَ فلانٍ[5].

ومن الفروق بين الإيتاء والإعطاء:

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 124.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمن).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أتو).
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: (أتى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عطو).

أوّلًا: الإعطاءُ يكونُ في الأشياءِ المادّيَّة، إذ أصلهُ التَّناول، وفيه دليلٌ على التَّملُّك، في حين الإيتاءُ يكونُ في الأشياءِ الماديَّة والمعنويَّة.

ثانيًا: الإيتاءُ قد يكونُ واجبًا وقد يكونُ تَفَضّلًا، بخِلافِ الإعْطاءِ فإنَّه لا يكونُ إلاَّ بمحْضِ التَّفَضّلِ[1].

ثالثًا: الإيتاءُ أقوى من الإعطاءِ؛ لأنَّ الإعطاءَ له مُطاوعٌ، يُقال: أعطاني فعَطَوتُ، ولا يُقال: أتاني فأتيتُ، وإنَّما يُقال: أتاني فأخذتُ، والفعلُ الذي له مُطاوع أضعفُ في إثباتِ مفعولهِ من الذي لا مُطاوعَ له[2]، لذلك استعملَ القرآنُ الإيتاءَ دون الإعطاءِ للأشياءِ العظيمة، مثل (الملك والحكمة والسَّبع المثاني والقرآن العظيم).

وقيل: الإعطاءُ أَقْوى من الإيتاءِ، ولذا خُصَّ في دفْعِ الصَّدَقاتِ الإيتاءُ؛ ليكونَ ذلك بسُهولَةٍ من غيرِ تَطَلّعٍ إلى ما يَدْفعه، والكَوْثَرُ لمّا كانَ عَظيمًا شَأْنُهُ غيرُ داخِلٍ في حيطَةِ قدْرَةٍ بَشَريَّةٍ اسْتُعْمِل الإعْطاءُ فيه[3].

الإيتاءُ في أَكثر مَواضِع القُرْآن فيما لَهُ ثبات وقرار، كالحكمة والسَّبع المثاني، والمُلْك الَّذي لا يُؤْتى إلّا لذي قوَّة، والإعطاءُ: فيما ينْتَقل منه بعد قَضاء الحاجة منه كإعطاء كلِّ شَيْءٍ خلقه لتكرُّر حُدوث ذلك باعْتِبار الموجودات، وإعْطاء الكَوْثَر للانتقال مِنْهُ إلَى ما هو أعظم مِنْهُ[4].

ونخلص إلى أنّ الإيتاءَ: يكون مع الأشياء الماديَّة والمعنويَّة، ولا يدلُّ على التَّملُّك، وغالبًا يكون للشَّيء العظيم، وفيه قوَّة فلا يتوقَّف على قبولٍ، وقد يكون واجبًا وقد يكون تَفَضُّلًا.

العلم والمعرفة:

العلمُ والمعرفةُ يشتركان في معنى الإدراك، وقد يُستعمل أحدهما مكان الآخر إذا كان العِلْمُ يتعدّى إلى مفعول واحد، حيث عرَّف بعضهم العلم بالمعرفة فقال: "عَلِمَه يَعْلَمُهُ عِلْمًا: عَرَفَهُ حقَّ المعرفة"[5].

---

(1) الزَّبيدي، تاج العروس: (عطو).
(2) الزَّركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 85.
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (أتى).
(4) الكفوي، الكليات، ص: 212.
(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 88.

العلمُ هو الإدراكُ التَّصديقيّ وهو أعلى درجةً من المعرفة، والمعرفةُ هي الإدراكُ التصوّريُ وهي أخصُّ من العلم

وإذا تعدَّى العِلمُ إلى مفعولين فإنَّه يُفرَّق بينه وبين المعرفة من عدَّة وجوه:

أوّلًا: العلمُ إدراكُ الشَّيء بحقيقته ودليله، أي: العلم بحقائق الأشياء، ولابدَّ في العلم من الدَّليل، فالعلمُ هو الإدراكُ التَّصديقي، في حين المعرفة: إدراكُ الشَّيء بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثره، أي: معرفةُ ذوات الأشياء والظّاهرِ منها، ولا تحتاجُ إلى دليلٍ، فالمعرفةُ هي الإدراك التَّصوُّري.

ثانيًا: المعرفةُ أخصُّ من العلم؛ لأنَّها عِلْمٌ بعينِ الشَّيءِ مُفصَّلًا عمّا سواه، بخلافِ العلم فإنَّه قد يتعلَّق بالشَّيءِ مُجملًا[1].

ثالثًا: المعرفةُ: تصوُّر صورة الشَّيءِ ومثالِه العلمي في النَّفس، والعلمُ: حضورُ أَحوالِهِ وصفاته ونسبتها إليه، فالمعرفةُ: نسبةُ التَّصوّر، والعلمُ: نسبةُ التَّصديق.

رابعًا: المعرفةُ في الغالبِ تكونُ لِما غابَ عن القلبِ بعد إدراكِه، فإذا أَدركه قيل: عَرَفَه، فالمعرفة نسبةُ الذِّكر النَّفسي، وهو حضور ما كان غائبًا عن الذّاكر، ولهذا كان ضدُّها الإنكار، وضدّ العلم الجهل[2].

فالعلمُ إذن أعلى درجةً من المعرفة، إذ تُستعمل المعرفةُ في العلم القاصرِ المتوصَّل به بتفكُّر، فالمعرفةُ يسبقها جهلٌ، أمّا العِلْمُ لا يسبقهُ جهلٌ، لذلك يُقال: اللّهُ عالمٌ، ولا يُقال: اللّهُ عارفٌ، كما أنَّ المعرفةَ يَضادُّها الإنكارُ، والعلمُ لا يَضادُّه الإنكارُ[3].

الخَرُّ اضطرابٌ وسقوطٌ مع صوتٍ وشدَّة، والسُّقوطُ طَرْحٌ ووقوعٌ شديد، والوقوعُ سقوطٌ مع ثُبوت

الخَرُّ والسُّقوطُ والوُقوعُ:

تتقاربُ هذه الألفاظ (يَخِرّون، يسقطون، يقعون) في دلالاتها اللُّغويَّة، وقد يُستعمل أحدها مكان الآخر، ويُعرَّف أحدها بالآخر، إلا أنّه رغم هذا التَّقارب فإنَّ لكلِّ لفظٍ من هذه الألفاظ ما يميُّزه، ويتَّضح ذلك من خلال الآتي:

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 80.

(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 50 - 51.

(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (علم).

أصلُ (خَرَّ) هو اضطرابٌ وسقوطٌ مع صوت، وخَرَّ: سقط[1]، وهَوى مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، وخَرَّ لِوجْهِهِ: وقع، وخَرَّ الماءُ خَرًّا إذا اشْتَدَّ جَرْيُه، وخرَّ: سجد، والخَرُّ: المَوْتُ[2].

وأصلُ (سَقَطَ) يدلُّ على الوقوع[3]، والسُّقوطُ: طرحُ الشَّيء، والوقوعُ من علوٍ إلى سُفْلٍ[4]، وكلُّ مَنْ وقَعَ في مَهْواةٍ يُقالُ: وقَعَ وسَقَطَ، والسَّقْطةُ: الوقْعةُ الشديدةُ[5]، والسَّقَطُ رَديءُ المَتاع والخَطَأُ مِنَ القَوْلِ والفِعْلِ، والسّاقطُ: اللَّئيمُ في حسبِهِ ونفسِهِ، والسَّقْطَةُ: العَثْرَةُ والزَلَّةُ[6].

وأصلُ (وقَعَ) يدلّ على سُقوطِ شَيْءٍ[7]، ووقعَ القولُ: وجبَ، ووقعَ الحقُّ: ثبتَ، ووقعَ الطيرُ: نزلَ، فالوُقوعُ: ثبوتُ الشَّيءِ وسقوطُهُ، وأكثرُ ما جاء في القرآن من لفظ (وقع) جاء في العذابِ والشَّدائد[8].

إذن: يتميَّزُ لفظ (الخَرّ) باتِّساع دلالته؛ إذ يدلُّ على سقوطٍ مع صوتٍ وشدَّةٍ، وهَوْيٍ من عُلْوٍّ إلى سُفْلٍ.

ويتميَّز لفظ (السُّقوط) بالطَّرحِ والوقوعِ الشَّديدِ من عُلْوٍّ إلى سُفْلٍ، وبإطلاقهِ على الرَّديء والخطأ والشَّيءِ غيرِ المُعتَدِّ به.

ويُتميَّز لفظُ (الوقوع) بالسُّقوطِ مع الثُّبوتِ، واستعمالهِ مع العذابِ والشَّدائدِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خرّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (خرر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سقط).
(4) الرَّاغب، المُفردات، ص: 414، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفَّاظ: 2/ 205.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سقط).
(6) الجوهري، الصِّحاح، والفيومي، المصباح المنير: (سقط).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وقع).
(8) الرَّاغب، المُفردات، ص: 880.

﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨﴾ [الإسراء: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

بعد أنْ خضعت أجسامُ العارفين باللّه وذلَّت جباههم له نطقت ألسنتهم بتنزيهه وتعظيمه

بعد أنْ سمعَ الذين أوتوا العلمَ من قَبلِ بعثةِ النَّبي ﷺ القرآنَ الكريم - ولم يتمالكوا أنفسهم فخشعوا وخرّوا للأذقانِ سُجَّدًا؛ بسبب ما في قلوبهم من الإذعان والخشية للرَّحمان - نطقتْ ألسنتهم بما خالجَ مشاعرهم من إحساسٍ بعظمةِ اللّه، وصدقِ وعده، فقالوا على وجهِ التَّجديدِ المُستمرِّ ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُبۡحَٰنَ﴾: أصلُ (سبح) يدلُّ على جِنْسٍ مِنَ العِبادَةِ، وأَصْلُه مِن السَّبْحِ، وهو البُعْدُ، والتَّسْبيحُ: التَّبْعيدُ، ومنه قولُهم: سَبَّحْتُ في الأَرْضِ، أي: أَبْعَدْتُ فيها[1]، والتَّسْبيحُ: التَّنْزيهُ والتَّقْديسُ والتَّبْرِئَةُ، يُقال: سَبَّحْتُ اللّهَ، وسَبَّحْتُ لَهُ، أُسَبِّحُهُ تَسْبيحًا وسُبْحانًا، أيْ: نَزَّهْتُهُ وبَرَّأْتُه من كُلِّ سوءٍ ونَقْصٍ[2]، ويأْتي بمعنى قَوْلِ سُبْحانَ اللّهِ، فيُقال: سَبَّحَ الرَّجُلُ، أي: قال: سُبْحانَ اللّهِ، ويُطْلَقُ التَّسْبيحُ أيضًا على التَّنَفُّلِ والتَّطَوُّعِ بالعِبادَةِ[3]، والمقصود بالتَّسبيح في الآية: التَّقديسُ والتَّنزيهُ والخُضوعُ، ودَلالته التَّعَجُّبُ والبَهْجَةُ مِنْ تَحقُّقِ وعْدِ اللّه في التَّوْراةِ والإنجيلِ بِمَجيءِ الرَّسولِ الخاتمِ ﷺ[4].

2) ﴿وَعۡدُ﴾: أصلُ (وعد) كَلِمَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجيَةٍ بِقَوْلٍ،

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبح)، والخطَّابي، غريب الحديث، ص: 685.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبح).
(3) ابن سيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سبح)، والمناوي، التَّوقيف، ص: 96.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 234.

يُقالُ: وعَدْتُه أَعِدُهُ وعْدًا، ويَكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وشَرٍّ، فأمّا الوعيدُ فَلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ[1]، والوعْد: مَعْروف، وعدتُ الرجلَ أعِده وعْدًا حسنًا من مال وغَيره، وفُلانٌ وفّى الوعْد والموعود[2]، والموعِدُ: مَوضِعُ التَّواعُد، وهو الميعادُ[3]، والمقصودُ بالوعد في الآية: الإخبارُ بأمرٍ مُستَقبلٍ.

3) ﴿لَمَفۡعُولٗا﴾: (فعل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على إحداثِ شَيءٍ مِنْ عَمَلٍ وغَيْرِه، مِنْ ذلكَ: فَعَلْتُ كذا أَفْعَلُهُ فَعْلًا، وكانَتْ مِنْ فُلانٍ فَعْلَةٌ حَسَنَةٌ أو قَبيحَةٌ، والفِعالُ جَمعُ فِعْلٍ، والفَعالُ بفَتْحِ الفاءِ: الكَرَمُ وما يُفْعَلُ مِنْ حَسَنٍ[4]، والمُراد بقوله: ﴿لَمَفۡعُولٗا﴾ في الآية: أَنَّ اللّه يَفْعَلُ ما جاءَ في وعْدِه، أَيْ: يُكَوِّنُهُ ويُحَقِّقُهُ[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الشَّأنُ في وعْدِ الله تعالى كائنٌ لا محالةَ

يُخبِرُ الحَقُّ سُبحانه عمّا يَقولونَهُ في سُجودِهم، فقال: ويقولونَ: تَنزيهًا لربِّنا ممّا يُضيفُه إليه المُشرِكونَ، وعَمّا يَقولُه الجاهلونَ ممّا لا يَليقُ بجَلالِه، وتَعظيمًا وتوقيرًا له على قُدرَتِه التّامَّة، وأنَّه لا يُخلِفُ ما وعَدَ وبَشَّرَ به في الكُتُبِ السّابقةِ من بَعثةِ مُحمَّدٍ ﷺ، وإنزالِ القُرآنِ عليه، إنَّ وعْدَ ربِّنا بإرسالِ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ، وإنزالِ القُرآنِ عليه كائنٌ وواقعٌ[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾:

عطفٌ جمَعَ بين فعْلٍ دالٍّ على خُضوعٍ لله، وقولٍ دالٍّ على تنزيهه، وبهجةٍ بتحقّق وعده

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه جملةُ ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا﴾، وفي هذا العطفِ إشارةٌ إلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وعد).
(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (وعد).
(3) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (وعد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فعل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 234.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 120، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 314، والسَّعدي، تيسر الكريم الرَّحمان، ص: 468.

أنَّهم يَجْمعون بين الفعْلِ الدّالِّ على الخُضوعِ وهو السُّجود للّه، والقولِ الدّالِّ على التَّنزيهِ والتَّعظيم والبهجة من تحقّق وعد اللّه؛ إذ إنَّ في قولِهم: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ دَلالةً على التَّعجُّبِ والبهجةِ من تَحقُّقِ وعْدِ اللّهِ في التَّوراةِ والإنجيلِ بمَجيءِ الرَّسولِ الخاتمِ ﷺ، وجُملةُ ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ من تَمامِ مقولِهم، وهو المقصودُ من القولِ؛ لأنَّ تَسبيحَهم قبلَه تَسبيحُ تعجُّبٍ واعتبارٍ بأنَّه الكتابُ الموعودُ به وبرسولِه في الكُتبِ السّابقة[1].

إيثار صيغة المُضارع ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

حالُ الكَمَلةِ من أهلِ العلم باللّه حالُ تنزيهٍ للهِ مُستمرٌّ نابعٌ من إحساسٍ بعظمته

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بصيغة المُضارع ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾؛ لأمرين:

الأوَّل: لإفادة أنَّ قولهم هذا - بتنزيه اللّه عن كلِّ ما يقوله الجاهلون بشأنه، والتَّأكيد بأنَّ وعده تعالى مُنجَزٌ ومُحقَّقٌ لا شكّ في ذلك - هو قولٌ على وجهِ التَّجدُّدِ المستمرِّ[2].

الثّاني: لتصويرِ مشهدِ الذين أوتوا العلم من قبله، وقد سمعوا القرآنَ فلم يتمالكوا أنفسهم فخرّوا للأذقان سُجَّدًا، ثمّ تنطقُ ألسنتهم بما خالجَ مشاعرهم من إحساسٍ بعظمةِ اللّه وصدق وعده: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾.

سِرُّ إضافة ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ إلى لفظ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضمير المُتكلِّمين:

فـي الإضافة امتثالٌ وتعبيرٌ عن عنايةِ الرّبّ بهم وإحسانه إليهم

أضافَ البيانُ القرآنيّ لفظَ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ إلى لفظِ الرُّبوبيّة (ربّ) التي أضافها إلى ضميرِ العَظمة (نا) في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا﴾ ولم يقلْ: (سبحان اللّه إن كان وعده)؛ لأمور:

الأول: لبيانِ امتثالهم للّهِ سبحانه[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 234.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/ 450.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4477.

الثّاني: للتَّعبيرِ عن مدى رحمةِ اللّهِ بهم ولطفهِ وعنايته؛ فهو الموجدُ لهم المدبِّرُ لأمورهم المُحسنُ إليهم المُنْجِزُ لما وعَدَ به الذين أوتوا العلم من إرسالِ الرَّسول الخاتم، وإنزالِ القرآن الكريم الذي هو من كمالِ تهذيبهم[1]، وفي هذا تعظيمٌ وتنزيهٌ منهم للّهِ ﷻ وشعورٌ بالامتنانِ له.

الثّالث: للإشارةِ إلى تشريفهم ورفعِ مكانتهم، وهذا تطمينٌ لقلوبهم وإزالةٌ للمخاوفِ التي قد تكونُ لحقتهم ممّا قد يضمره لهم الكافرون بسبب إيمانهم؛ لأنَّ في قولهم تعريضًا بهم حيث كانوا يستهزئون بالوعيد، ويطعنون في قدرةِ اللّهِ القادرِ على كلِّ شيء[2].

دلالة ﴿إِن﴾ و﴿كَانَ﴾ في قوله ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾:

وعدُ اللهِ وعدٌ كائنٌ وواقِعٌ ومؤكَّدٌ ومستمرٌّ لا يَنفكُّ عنه التَّحقّق

﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ تحتمل وجهين:

الأوّل: نافيةٌ، واللّام بمعنى إلا، والمعنى: ويقول هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبل نزولِ هذا القرآنِ إذا خَرّوا للأذقان سجودًا عند سماعهم القرآن تنزيهًا لربِّهم: ما كان وعدُ ربِّنا من ثوابٍ وعقابٍ إلّا مفعولًا حقًّا يقينًا، إيمانًا منهم بالقُرآنِ وتصديقًا به[3].

الثّاني: مُخَفَّفَةٌ من الثَّقيلة[4]، واسمها ضمير الشَّأن، أي إنَّ الحال والشَّأن أنَّ وعدَ ربِّنا مُتَحَقِّقٌ لا محالةَ، وقد بَطَلَ عَمَلُ (إنْ) الإعرابي بسَبَبِ التَّخفيفِ، ولكن يبقى أثرها التَّوكيدي للمعنى قائمًا، والتوكيد هنا هو توكيدُ الخبر ﴿لَمَفۡعُولٗا﴾، أي تحقَّقَ وعد اللّه بإرسالِ النَّبي ﷺ، وإنزالِ القرآن الخاتم، بل وكُلُّ وعْدٍ وعَدَ به في كتابهِ من قيام السّاعة وغير ذلك.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 535، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4477.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 535.
(3) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 264، وابن جرير، جامع البيان: 17/ 578.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 125، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 314، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 234.

ووليَ ﴿إِنْ﴾ فعلٌ مِنْ نَواسِخِ المُبْتَدَأِ وهو ﴿كَانَ﴾ جريًا على الغالبِ في استِعمالِ المُخَفَّفَةِ، وهذا الفعل يَدُلُّ على الاستمرار[1]؛ لأنَّه يتعلَّق باللّهِ ﷻ، أي: كان وعدُه كونًا لا ينفكّ عن التَّحقّق[2]، فقد وعدَ سُبحانه وما أخلف.

في الإظهار بيانٌ لكمالِ عُبوديَّتهم وتعبير عن مشاعر فرحهم وفخرهم

وضْعُ الظّاهر موضع المُضمر في قوله ﴿وَعۡدُ رَبِّنَا﴾:

أظهرَ البيانُ الإلهيُّ لفظ ﴿رَبِّنَآ﴾ ولم يُضمره في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ مع سَبْقِ ذِكْرِهُ في الآية ذاتها، أي لم يَقُلْ: (سُبحان ربِّنا إنْ كان وعده لمفعولًا)؛ وذلك لبيانِ كمالِ معنى الخُضوع والرُّبوبيَّة والعُبوديَّة عند هؤلاء الكَمَلَة من أهل العلم[3].

وللإشارةِ إلى حالهم من السُّرورِ والفَرَحِ، والسَّعادةِ بإيمانهم، والافتخارِ بإنجازِ وعد اللّه لهم، وتلذُّذهم بالتَّلفُّظ باسم الرُّبوبيَّة المُضاف إليهم.

اللّامُ بين توكيدِ بالحَصْرِ وتوكيدِ بلامِ الابتداء

دلالة اللّام في قوله ﴿لَمَفۡعُولٗا﴾:

(اللّام) في قوله ﴿لَمَفۡعُولٗا﴾ تحتمل وجهين؛ **الأوَّل:** بمعنى إلا، لكون ﴿إِن﴾ نافيةً، وهذا ذهب إليه الزَّجاج والطَّبريُّ[4]، والمعنى: ما كان وعدُ ربِّنا إلّا مفعولًا، والغرضُ منها التَّوكيد[5].

والثّاني: لام التَّوكيد، وهي الفارقة بين (إنْ) النّافية، و(إنْ) المؤكِّدة[6]، وبالتّالي فإنَّها في قوله تعالى ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ تدلُّ على المُبالغةِ في تأكيدِ تحقّقِ وعدِ اللّه سُبحانه.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4477.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 535.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4477.
(4) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 264، وابن جرير، جامع البيان: 17/ 578.
(5) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 264.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 234.

نُكتة استعمال لفظ ﴿وَعْدُ﴾:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿وَعْدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ مع أنَّ الوَعْدَ مصدرٌ، وهو باقٍ على أصله من المصدريّة، ولم يقل: (إن كان موعود ربِّنا لمفعولًا)؛ ليجمعَ بين تحصيلِ التَّصديق بالوعد والموعود به؛ إذ إنَّ تحقيقَ الوعد يستلزمُ تحقيقَ الموعود به، فحصلَ التَّصديق بالوعد والموعود به[1]، وهذا فيه إيجازٌ يُنبئ عن بلاغةِ القرآن الحكيم، وإشارةٌ إلى كمالِ إيمانِ العارفين باللّهِ بتصديقهم للوعدِ والموعود به.

في التَّعبير بالوعدِ إيجازٌ حصلَ به التَّصديقُ بالوعدِ والموعود به

إيثار استعمال لفظ ﴿لَمَفْعُولًا﴾:

استعمل البيان القرآنيُّ لفظَ ﴿لَمَفْعُولًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾، ولم يقل: (لمحقّقًا)؛ لأنَّ لفظ (مفعول) أكثر مُناسبة للسّياق الذي يُذكَرُ فيه ويُصرِّح بالفاعل لهذا الوعد سُبحانه، والفاعل لتكوينه وتحقيقه وهو قوله ﴿رَبِّنَآ﴾؛ إذ إنَّ لفظَ (مفعول) يتميَّز عن لفظ (المحقَّق) بالإحداثِ والتَّأثيرِ من مؤثّر، فالأمرُ المفعولُ هو الأمرُ الواقعُ والكائنُ لا محالة الذي ينفّذه فاعلٌ مؤثّر، والمفعولُ يُقال إذا اعتُبِرَ بفِعْلِ الفاعلِ[2]، والمعنى "أنّ اللّهَ يفعلُ ما جاءَ في وعدِه، أي يُكَوِّنُه ويحقِّقُه"[3]، وهذا فيه إشارةٌ إلى يقينهم بتحقّق هذا الوعد؛ لأنّ الفاعلَ هو اللّهُ سبحانه، وإشارةٌ إلى سرورهم وفخرهم بهذا الفاعل الذي أنجز وعده ﷻ أكثر من فرحهم بتحقُّق الوعد نفسه.

وعدٌ لا شكَّ في تحقُّقه واقعٌ كائنٌ لا محالة لأنَّ الفاعل هو الرَّبُّ العظيم

الفروقُ المُعجَميَّة:

التَّسبيح والتَّنزيه:

يكاد يكون لفظا (التَّسبيح والتَّنزيه) مُترادفين في اللُّغة؛ إذ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 234.
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (فعل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 234.

التَّسبيحُ أعمُّ من التَّنزيهِ فالتَّسبيحُ تنزيهٌ وتعظيمٌ وعبادةٌ، والتَّنزيهُ تبعيدٌ

يُعرَّف كلٌّ منهما بالآخر، فيُقال: معنى التَّسبيح: التنزيه، ومعنى التَّنزيه: التَّسبيح، إلا أنّنا إذا رجعنا إلى الأصل اللُّغويِّ والاستعمال القرآنيِّ لكلٍ منهما نجد ما يتميَّز به كلُّ لفظٍ عن الآخر، وذلك وفق الآتي:

أوّلًا: أصلُ (سَبَح) يدلّ على جنسٍ من العبادة، والتَّسْبيحُ: تَنْزيهُ اللهِ جَلَّ ثَناؤُهُ مِنْ كُلِّ سوءٍ[1]، وقيل: تَنْزيهُ الله تَعالَى عَن كلِّ ما لا يَنْبَغي لَهُ أَنْ يوصَفَ بِهِ[2]، وأَصلهُ المَرُّ السّريع في عبادةِ اللّه، وجُعِلَ التَّسْبيحُ عامًّا في العبادات قولًا كان، أو فعلًا، أو نيَّة، وقد أتى في القرآن بمعانٍ عديدة منها: الصَّلاة والعبادة والشُّكْرُ والذِّكْرُ وغيرها[3]، فالتَّسبيحُ فيه معنى التَّعظيم والذِّكر ثُمَّ التَّنزيه للّه تعالى[4].

ثانيًا: وأصل (نَزَهَ) يدلُّ على بُعْدٍ في مَكانٍ وغَيْرِهِ، وتَنْزيهُ اللّهِ: تسبيحُه، وهو تبرئتُه عمّا يَصِفُ المُشركون[5]، والتَّنْزيهُ: التَّبْعيدُ[6]، والنَّزاهَةُ: البُعدُ عَن السّوءِ، وتَنْزيهُ اللّه تَعالَى: تبعيدُه وتَقْديسُه عَن الأَنْدادِ والأَشْباهِ وعمّا لا يَجوزُ عَلَيْهِ من النَّقائِصِ[7]، ولم يردْ لفظ التَّنزيه في القرآن الكريم.

فالتَّسبيحُ إذن أعمُّ من التَّنزيه، فهو يشمل معنى التَّنزيه والتَّعظيم والعبادة قولًا أو فعلًا أو نيَّة، في حين يَتميَّزُ لفظ التَّنزيه بمعنى التَّبعيد.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة (سبح).
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (سبح).
(3) الرَّاغب، المُفردات، ص: 392، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 2/ 289.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سبح).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نزه).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة (سبح).
(7) الزَّبيدي، تاج العروس: (نزه).

الوعد والوعيد:

(الوعد) و(الوعيد) أصلُهما (و ع د) ويدلُّ على تَرْجيَةٍ بقولٍ، يُقال: وعَدْتُه أَعِدُه وعْدًا، ويُستعمل في الخير والشَّرِّ، ويُعدَّى بنفسه وبالباء، فيُقال: وعَدَه الخيرَ، وبالخيرِ، وغلبَ الوعدُ في الخير، والإيعادُ في الشَّرِّ، والوعيدُ لا يكون إلّا بشَرٍّ[1]، ووعَدَهُ الأمرَ: قال له إنّه يُجريه له، أو يُنيلُه إيّاه، ووعده بالخير: منّاه به، وبالشرّ: هدّده به[2]، فيُقالُ: وعَدْتُهُ خيرًا، ووعَدْتُهُ شَرًّا، فإذا أَسْقَطوا الخيْرَ والشَّرَّ يكون الوعدُ في الخَيْرِ[3].

إذن: الوعدُ إذا أُطلق يُستعمل في الخير، والوعيدُ لا يكونُ إلا في الشرّ.

> **الوعدُ عند الإطلاق يكونُ بالخير، والوعيدُ لا يكونُ إلّا بالشَّرِّ**

المفعول والمُحَقَّق:

يتقاربُ لفظا (المفعول والمحقَّق) فيشتركان في معنى ثبوتِ الشيءِ وجعله واقعًا، إلا أنّ كلًا منهما له ما يميّزه عن الآخر، ويتّضح ذلك من خلال الرجوع إلى الأصل اللغوي، والاستعمال لكلٍ منها وذلك على النحو الآتي:

> **الأمرُ المفعولُ هو الأمرُ الواقعُ الكائنُ لا محالة والذي ينفّذه فاعلٌ مؤثّرٌ، والأمرُ المحقّق هو الأمرُ الواقعُ بإحكامٍ وثبوتٍ وتأكيدٍ وصدقٍ**

المفعول: اسم مفعول من (فَعَلَ) وأصله يدلّ على إحداث شيءٍ من عمَلٍ وغيرِه[4]، والفِعْلُ: التأثيرُ من جهةِ مُؤَثِّرٍ، والمفعولُ يُقال إذا اعتُبِرَ بفِعْلِ الفاعِلِ[5]، ومعنى مفعولًا في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧﴾ [النساء: 47] كائنًا موجودًا نافذًا واقعًا لا محالة[6].

والمُحقَّق: اسم مفعول من (حقّق) وأصله يدلّ على إحكام الشيءِ وصحّته[7]، وكلامٌ مُحَقَّقٌ أَيْ رَصين، ومحكمُ النّظم[8]، وحقّق الأمرَ: أرساهُ وجعلهُ واقعًا، وأثبتهُ وأكّدهُ وصدّقه[9].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والفيومي، المصباح المنير: (وعد).
(2) مُجمَّع اللُّغة العربيَّة، المُعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (وعد).
(3) الجوهري، الصِّحاح، والرَّازي الحنفي، مُختار الصِّحاح: (وع د).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فعل).
(5) الزَّبيدي، تاج العروس: (فعل).
(6) أحمد عمر، مُعجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة: (فعل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حقّ).
(8) الزَّمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (حقق).
(9) أحمد عمر، معجم اللُّغة العربية المُعاصرة: (حقق).

إذن: يتميَّز لفظ (المفعول) بالإحداثِ والتَّأثيرِ من مؤثِّر، فالأمرُ المفعولُ هو الأمرُ الواقعُ والكائنُ لا محالة الذي ينفِّذه فاعلٌ مُؤَثِّرٌ.

في حين يتميَّز لفظ (المحقَّق) بالإحكام، والصِّدقِ والإثباتِ، فالأمرُ المحقَّق هو الأمرُ الواقعُ بإحكامٍ وثبوتٍ وتأكيدٍ وصدقٍ.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ١٠٩﴾ [الإسراء: 109]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تأثرٌ غامرٌ لا تصوّره الألفاظ بل دموعٌ ترسمُ تأثيرَ هذا القرآن في القلوب

بعد أنْ بَيَّنَ القُرآنُ حالَ الذين أوتوا العلم بأنَّهم يخرِّون للأذقانِ سُجَّدًا للّه عند سماعِ القرآن، وتنطقُ ألسنتهم بما يُخالجُ مشاعرهم من إحساسٍ بعظمةِ اللّه وصدقِ وعده، أتبعَ ببيانِ حالٍ أخرى من أحوالهم عند سماعِ القرآن؛ إذ إنَّهم لأوّلِ الصَّدمة يخرّون على أذقانهم سجّدًا، ثمَّ هم إذا صَحَوا من سكرتهم قليلًا، وفاءَ إليهم ما عزبَ من عُقولهم وجدوا أنفسهم مع آياتِ اللّه تُطالعهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فيغلبهم التَّأثُّر فلا تكفي الألفاظ في تصويرِ ما يجيشُ في صدورهم منه، فإذا الدُّموعُ تنطلقُ مُعَبِّرة عن ذلك التَّأثُّر الغامرِ الذي لا تصوِّره الألفاظ ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبْكُونَ﴾: أَصْلُ البُكاءِ خُروجُ السَّائِلِ مِنَ الجَوْفِ عبر العين قَليلًا قليلًا، يُقالُ: بَكَتْ عَيْنُهُ تَبْكي بُكاءً أَيْ خَرَجَ دَمعُها، وبَكَتِ السَّماءُ، أَيْ: أَمطرَتْ، ومِنْهُ البَكَى وهو شَجَرٌ أَوْ نَبْتٌ إذا قُطِعَ خَرَجَ مِنْهُ سائِلٌ أَبْيَضُ[2]، والبُكاء: سَيَلانُ الدُّموعِ بِسَبَبِ حُزْنٍ ونَحْوِه، يُقالُ: بكَى الشَّخصُ فهو باكٍ دَمَعَتْ عَيناهُ حُزنًا أو أَلَمًا، والمَرْءُ إنْ تَهَيَّأَ لِلْبُكاءِ قيلَ: أَجْهَشَ، فَإِنِ امتَلَأَتْ عَيْنُهُ دُموعًا قيلَ: اغْرَوْرَقَتْ، فَإِنْ سالَتْ قيلَ: دَمَعَتْ[3]، والتَّباكي: تَكَلُّفُ البُكاءِ، والإِبْكاءُ: فِعْلُ ما

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقُرآن: 8/ 573.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بكى).
(3) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بكى).

يُبْكي الغيْرَ، ويُطْلَقُ البُكاءُ بِمَعْنَى: الصَّوْتِ الذي يكونُ مَعَ الحُزْنِ أَوِ الأَلَمِ[1]، وحقيقة البُكاءِ في الآية: مُسْتَعْمَلٌ في لازِمِهِ مِنْ خَشْيَةِ اللّه، والمُرادُ بِه: بُكاءُ فَرَحٍ وبَهْجَةٍ[2].

2) ﴿خُشُوعًا﴾: أصلُ (خشع) واحِدٌ يَدُلُّ على التَّطامُنِ، يُقالُ خَشَعَ، إذا تَطامَنَ وطَأْطَأَ رَأْسَهُ، يَخْشَعُ خُشوعًا[3]، والخُشوعُ: السُّكونُ والتَّذَلُّلُ، يُقالُ: خَشَعَ في صَلاتِه: إذا أَقْبَلَ بِقَلْبِه على ذلك، وهو مَأخوذٌ من خَشَعَتِ الأرضُ: إذا سَكَنَتْ واطْمَأَنَّتْ، وخَشَعَ بَصَرُهُ، أيْ: رَمَى بِبَصَرِهِ نَحْوَ الأَرْضِ، وخفَضَ صَوْتَهُ، واخْتَشَعَ: إذا طَأْطَأَ صَدْرَه وتَواضَعَ[4]، والمُرادُ بالخُشوعِ في الآية: التَّطامُنُ وأَثَرُ انْكِسارِ النَّفْسِ مِنِ اسْتِسْلامٍ واسْتِكانَةٍ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

البُـكـاءُ من خـشـيـة الـلـه يـدلُّ على صِدق الإيـمـان ونـقـاءِ النَّفسِ

البيان القرآني يقول: ويَسقُطونَ على وجوههم ساجدين للّه وهم يبكون من خشية اللّه إذا يتلى عليهم، ويزيدهم القرآن تواضُعًا للّه وخضوعًا واستِكانةً، ورِقَّةً ولينًا في قُلوبِهم، كما يزيدهم عليها ويقينًا باللّهِ تعالى[6].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله ﴿وَيَخِرُّونَ﴾:

بالعطفِ يلتقي أثـرُ الـجـلال والـرَّهـبـةِ بالسُّجودِ مع أثرِ العقلِ والتَّفكُّرِ بالدُّموعِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله سُبحانه: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾، وقد وقعَ

(1) الزَّبيدي، تاج العروس: (بكى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 235.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خشع).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خشع).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 122، والواحدي، البسيط: 13/ 509، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 468.

التَّكرير مع العطف لأجلِ اختلافِ القيودِ، فتكونُ تلك المُغايَرَةُ مُصَحِّحَةً العطفَ[1]، أي يخرّون للأذقانِ حال كونِهم ساجدينَ، ويخرّون حال كونِهم باكينَ[2]، فهُما حالان لهؤلاء المُستمعين إلى آياتِ اللّه؛ الحالُ الأولى: حين تَلَقّاهم آياتُ اللّه، وتطلعُ عليهم كلماته لأوَّلِ وهلةٍ، فإذا هم بَيْنَ يديها في حالٍ من الجلالِ والرَّهبة، تنعقدُ معه الألسنةُ، وتسكنُ معه الجوارح، وتخمدُ الأنفاسُ، شأنُهم في هذا شأن مَنْ تبْغته آيةٌ يرى فيها من الحسنِ والجمال ما لم تشهده عينٌ، ولم يتصوَّره خاطرٌ، فيخرُّ مَغشيًّا عليه جلالًا ورهبةً، والحالُ الثّانية: حين يعيشون مع هذه الآيات وقتًا ما، ويأنسون إليها، ويُزايلهم بعض ما وقعَ عليهم أوَّل الأمر من سطوةِ جلالها وجمالها، فإذا هي لعقولهم أبهى جلالًا، وأروع جمالًا، فيغلبهم التَّأثُّر وتفيضُ أعينهم من الدَّمع مِمّا عَرَفوا من الحَقِّ[3].

سِرُّ تكرار جملة ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾:

تكرارُ خُرورِهم في أيِّ حالٍ أو أيِّ سببٍ يستدعي تعظيمَ اللهِ وفيه دليلٌ على قوَّة إيمانهم

تَكرارُ جملة: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾؛ إمّا لاختلافِ الحالَين، وهما: خُرورُهم في حالِ كونِهم ساجدينَ، وخُرورُهم في حالِ كونِهم باكينَ، أو الأوَّلُ واقعٌ في قِراءةِ القُرآنِ أو سماعِه، والثّاني في غيرِ ذلك[4].

أو لاختلافِ السَّببِ؛ فإنَّ الأوَّلَ لتعظيم اللّه سُبحانَه وتنزيهه، وللشُّكرِ عند إنجازِ الوعدِ، والثّاني لِما أثَّرَ فيهم من مواعظِ القُرآن حالَ كونِهم باكينَ من خَشيةِ اللّه[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 235.

(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 700، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 418، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمان: 1/ 336.

(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 8/ 573.

(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 700، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 418، وزكريا الأنصاري، فتح الرَّحمان: 1/ 336.

(5) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/ 270، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 200، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 314.

وتعدُّد المعاني يدلُّ على حسنِ حالهم، ورقَّةِ قلوبهم ومشاعرهم، وبالتّالي يَدُلُّ على قوَّة إيمانهم وخضوعهم للّه تعالى.

ويجوز أنْ يكون تكرارُ القولِ دلالةً على تكرارِ الفعل منهم[1]، ويرى ابن عاشور أنَّ الخُرورَ المحكي بالجُملة الثّانية هو الخرورُ الأوَّل، وإنَّما خَرّوا خُرورًا واحدًا ساجدين باكين، فَذُكِرَ مرَّتَيْنِ اهتمامًا بما صَحِبَهُ من علاماتِ الخشوع[2].

دلالة نَعتِ هؤلاءِ ومَدْحُهم بخُرورِهم باكينَ:

مـن أوتي مـن العـلـم مـا لا يُكسِبه الخشية فـلـن يـنـفـعَـه عِلمُه

دلَّ قوله تعالى ﴿يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ على استِحبابِ البُكاءِ والتَّخَشُّعِ؛ فإنَّ كُلَّ ما حُمِدَ فيه مِن النُّعوتِ والصِّفاتِ التي وصَفَ اللّهُ تعالى بها مَن أحَبَّه مِن عبادِه، يلزَمُ الاتِّصافُ بها، كما أنَّ ما ذَمَّ منها مَنْ مَقَتَه منهم يجِبُ اجتِنابُه[3]، فيستحبُّ البُكاءُ والتَّباكي لمن لا يقدِرُ على البُكاءِ؛ فإنَّ البُكاءَ عندَ القراءةِ صفةُ العارفينَ، وشعارُ عِبادِ اللّه الصّالحينَ[4]، قال عبدُ الأعلى التَّيميِّ: (مَن أوتيَ مِن العِلمِ ما لا يُبْكيه، لَخليقٌ ألّا يكونَ أوتيَ عِلمًا ينفَعُه؛ لأنَّ اللّهَ نَعَت العُلَماءَ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ﴾[5])، فهذا مَدْحٌ لِمَن أوجبَ له سَماعُ كتابِ اللّهِ الخُشوعَ في قلْبِه[6].

نكتة التَّعبير بصيغة المُضارع ﴿يَبۡكُونَ﴾:

مشهدٌ لحالةٍ شعوريّةٍ غامرةٍ يـرسـمُ تـأثـيرُ الـقـرآن في القلوبِ سجودًا وبكاءً مُستمرًّا متجدّدًا

أُتيَ بالحالِ الثّانيةِ يَبْكونَ فِعلًا بصيغة المُضارع؛ للدَّلالةِ على

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 418.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 235.
(3) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/ 521 - 522.
(4) النَّووي، الأذكار، ص: 107.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 122، والدّارمي، السّنن، الحديث رقم: (299).
(6) ابن رجب، مجموع رسائل ابن رجب: 1/ 297.

التَّجدُّدِ والحُدوثِ[1]، فكأنَّما بُكاؤهم يتجدَّدُ بتجدُّدِ الأحوالِ الطّارئةِ والعِظاتِ المُتتاليةِ، وأيضًا لِما لهم في بعضِ الأحيانِ مِن السُّرورِ ببعضِ ما أُبيحَ مِن الملاذِّ، ولذا لم يأتِ بصيغة الاسم (باكين)؛ لأنَّ الاسم يدلُّ على الاستمرارِ ودوام ذلِّهم بالسُّجودِ المشروعِ.

كما أنَّ في التَّعبير بصيغةِ المُضارع تصويرًا واستحضارًا لحالهم[2] التي ما تمالكتْ نفسَها لَمّا سَمِعَتِ القرآنَ فسقطتْ ساجدةً للّه مُسبِّحة له بما خالجها من إحساسٍ بعظمة اللّه وصدقِ وعده، وكيف غلبها التَّأثُّر فلم تكفِ الألفاظُ في تصويرِ ما يجيشُ في صدورها منه، فإذا الدُّموع تنطلقُ معبِّرة عن ذلك التَّأثُّر الغامر الذي لا تصوِّره الألفاظ فقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ﴾.

دلالة الواو في قوله ﴿وَيَزِيدُهُمۡ﴾:

العَطْفُ زيـادةُ بيانٍ واستكمالٌ للأوصاف الخيِّرة في الكَمَلةِ الَّذين أوتوا العلْمَ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعَا﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه هو قولُ اللّه سبحانه: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ﴾، والمعنى العام الذي يجمعُ المعطوفَ والمعطوف عليه هو بيانُ الأوصاف الخيِّرة المتنوِّعة، وبهذا الوصف وهو زيادةُ خشوعهم تكتملُ صورة الكَمَلةِ الَّذين أوتوا العلْمَ، أي عقَّبَ الحالينِ بحالٍ ثالثةٍ، وهي زيادتُهم خُشوعًا كلَّما قرأوا، وكلَّما سَجدوا؛ فاستوفى بذلك سائرَ أحوالِهم.

نكتة التَّعبير بصيغة المُضارع ﴿وَيَزِيدُهُمۡ﴾:

تجدُّد الأوصافِ الـخَـيِّرة منهم يـجـدِّد عندهم زيـادةَ الخشوعِ لله

عبَّر البيان القرآني بالمُضارع ﴿وَيَزِيدُهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعَا﴾ دون الماضي (زادهم)؛ لأنَّ صيغةَ المُضارع تدلُّ على تجدّدِ زيادة الخشوع كلَّما تُلِيَ عليهم القرآن، وكلَّما سَجدوا، وكلَّما سَبَّحوا، وكلّما بَكَوا من خشية اللّه، وكذلك للتَّناسب مع التَّعبير بالأفعال المُضارعة في سياق الآية ﴿يُتۡلَىٰ﴾ - ﴿يَخِرُّونَ﴾

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 429.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 235.

- ﴿وَيَقُولُونَ﴾ - ﴿وَيَخِرُّونَ﴾ - ﴿يَبْكُونَ﴾ الذي يدلُّ على تجدُّد الأوصاف الخيرة منهم.

عَوْدُ الضَّمير في قوله ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾:

في التَّعبيرِ بالضَّميرِ إثراءٌ للمعنى واختصارٌ في الكلام

ضمير الفاعل في ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ يحتمل أنْ يعود إلى القرآن الكريم وما فيه من المواعظ والعبر[1]، أو أنْ يعودَ إلى البكاءُ[2]، أو إلى السُّجودِ، أو إلى المَتْلوِّ لدلالةِ قوله: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ﴾[3].

وفي هذا التَّعبيرِ بالضَّميرِ دون الاسم الظّاهر إثراءٌ للمعنى، واختصارٌ في الكلام؛ إذ لو صرَّح بالضَّمير لاقتصر الفاعل عليه ممّا يُقيِّد المعنى، والشُّمول أبلغُ؛ لأنَّ زيادةَ الخُشوعِ تحصلُ من مواعظِ القرآنِ وعِبَرِه، ومن البكاءِ عند سماعهِ، ومن السُّجودِ للّه، ومن سماعِ المتلوِّ منه.

سِرُّ المجاز العقليّ بالعدول عن إسناد الزّيادة إليهم (ويزدادون):

من شأنِ سماعِ القرآنِ وما فيه من العِبَرِ أنْ يزيدَ الخشوعَ للهِ والإيمانَ بحقِّ عُبوديَّته

عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ عن إسنادِ الزّيادة إليهم، فلم يقل: (ويزدادون خشوعًا)، وإنَّما أسندها إلى السَّبَبِ مَجازًا؛ إذ الفاعلُ الحقيقيُّ لزيادةِ خشوعهم هو اللّهُ سُبحانه؛ وجيء بالمَجاز العقليِّ هُنا للإشارة إلى أهميَّة السَّبب الذي تسبَّبَ في زيادةِ خشوعهم، وهو البكاءُ، أو السُّجودُ أو القرآن وما فيه من المَواعظ والعبر، أو المتلوُّ عليهم منه.

إيثار لفظ ﴿خُشُوعًا﴾ مادَّةً وصيغةً:

حالُ هؤلاء السّاجدين الخاشعين تعظيمٌ وإخباتٌ وحبٌّ لمَن عَرَفوا عظيم قدره

آثر البيانُ القرآنيُّ استعمالَ لفظ ﴿خُشُوعًا﴾ دون غيره في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾، فلم يقل: (ويزيدهم خضوعًا)؛ لمُناسبة لفظِ الخُشوعِ لسياقِ الآيات، ولحال الذين أوتوا العلم من قبل نزول

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 235.

(2) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1076.

(3) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرّ المصون: 5/ 200.

القرآن؛ فهم أهلُ علمٍ وصدقٍ يخشعون خشوعَ مَن يعلم أنَّ مَن يخضع له فوقَه، فهو العظيمُ سُبحانه، خشوعًا لا تَكَلُّفَ فيه، ولا يكون إلّا مع خوفٍ من المخشوع له، كما أنَّه هو خشوعُ إخباتٍ بكلِّ جوارحهم، وهذا هو معنى الخُشوع في اللُّغة[1]، بخلافِ الخضوع الذي لا يقتضي أنْ يكون معه خوفٌ، فقد يخضع الإنسانُ تكلُّفًا من غير أنْ يعتقد أنَّ المخضوعَ له فوقه، وهذا أبعدُ ما يكون عن حالِ الكَمَلَة من أهلِ العلم الذين تتحدَّث عنهم الآيات، كما أنَّه يُناسبُ السّياق الذي يذكر التِّلاوةَ، والخشوعُ يكون في الصَّوت والبصر، ويُذْكَرُ لفظ الخُرور للأذقان الذي هو سقوطُ مَن لا خيار له ولا تَكَلُّفَ؛ لشدَّة إخباته وخوفه وتأثُّره، ويُذْكَرُ السُّجود والبكاء اللَّذَينِ هُما أثرُ الخشوع في الصَّوت والبصر، بخلاف الخُضوع الذي يكون في القلبِ فقط[2].

وفي التَّعبير بصيغة المصدر مُبالغةٌ توكِّد خشوعهم للّه تعالى بما يحمله من المعاني السّابقة.

ولذلك كان من السُّنَّةِ أنْ يستحضرَ المسلمُ القارئ والمستمع لهذه الآية حالَ هؤلاء السّاجدين الخاشعين، فيسجدَ اقتداءً بهم، بحيث لا يذكرُ المُسلمُ سجودَ أهل الكتاب عند سماعِ القرآن إلّا وهو يرى نفسه أجدرَ بالسُّجود عند تلاوةِ القرآن[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

البكاء والتَّأوُّه:

رغم تقارب لفظ (البُكاء) ولفظ (التَّأوُّه) في دلالتهما، إلّا أنَّهُما يفترقان في ملامحَ دلاليَّة تُميِّز كُلًّا منهما عن الآخر، وذلك من خلال الآتي:

البُكاءُ يكون بالدُّموعِ مع صوتٍ أو من دون صوت، والتَّأوُّهُ لا يكونُ إلّا بصوت

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة بترتيب وزيادة، ص: 216 - 217.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (خشع).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 235.

البُكاءُ من بَكَى يبكي بُكاءً، وهو يُمَدُّ ويُقْصَرُ، فالبُكاءُ بالمَدِّ الصَّوْتُ الذي يكون مع البُكاء، وبالقَصْرِ الدُّموعُ وخُروجُها[1]، وبَكى يُقال في الحزن وإسالةِ الدَّمع مَعًا، ويُقال في كُلٍّ واحد منهما مُنفردًا عن الآخر، والبُكاءُ يكون من حزن أو ألم، وقد يوجد مع الفرح[2]، وأنوعه كثيرة؛ فبكاء الخوف والخشية، يكون من مخوف يُتوقَّعُ حصوله في المستقبل، وبكاء الرحمة والرقة ويكون مما يُرى من حوداثَ مؤلِمةٍ تقع للآخرين، وبكاء المحبة والشوق، ويكون من حرارة الاشتياق، وبكاء الفرح والسرور ويكون من حدث يسرّ، وبكاء الجزع ويكون من ورود الألم وعدم احتماله، وبكاء الحزن ويكون على ما مضى من ألم، وبكاء الخور والضعف ويكون لقلة الحيلة، وبكاء النفاق ويكون بدمع العين مع قسوة القلب، والبكاء المستعار والمستأجر عليه، كبكاء النائحة، وبكاء الموافقة ويكون من تقليد بلا دراية عن السبب[3]، والبَكّاؤون: هم الذين يُكْثِرون البُكاء من خشية اللّه[4].

والتأوّهُ من (أَوَهَ)، وآهٍ أو آهِ أو آهٍ: كلها حكاية المُتَأَوِّه في صوته، ويفعله الإنسان من التَّوجُّع، وبعضهم يقول: آوَّهْ بالمَدِّ والتَّشديد وفتح الواو ساكنة الهاء، لتطويل الصَّوت بالشِّكاية، ويخرج هذا الصَّوت ليتفرَّجَ عَنْهُ ما بِهِ[5]، والتَّأوُّه يكون تعبيرًا عن توجُّع أو حزن أو شكوى من ألمٍ أو مرضٍ أو نحوهما[6]، ويُقال أيضًا تأوَّه من خشيَة، والأوّاه الكثير التَّأوُّه شفقًا وفَرَقًا من التَّقصير في حقِّ اللّه، والكثيرُ الدُّعاء، ومِنْه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ١١٤﴾ [التوبة: 114][7]، وقيلَ: الأَوّاهُ المُسَبِّحُ، أو المُتَضَرِّع يقينًا، وقيلَ: هو الكَثيرُ الثَّناءِ، وقيل: الكثيرُ البكاء[8].

إذن: البكاءُ والتَّأوُّه يشتركان في دلالتهما على الحُزنِ أو الألمِ أو التَّوجُّع، أو من خشية اللّه.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بكوء)، والجوهري، الصحاح، والرازي الحنفي، مختار الصحاح: (بكي).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 222، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 268.
(3) عبد الكريم الديوان، السر المكنون في رقة القلب ودمع العيون.
(4) أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (بكي).
(5) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح: (أوه).
(6) أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (أوه).
(7) الراغب، المفردات، ص: 101، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 142.
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أوه).

ويتميَّز البُكاء بأنَّه قد يكون بصوت، وقد يكون بلا صوت، أي بالدُّموع فقط، وقد يكون من فرح.

في حين التَّأوُّه لا يكون إلّا بصوت شكايةً وتوجُّعًا، وقد يكون أثناء الدُّعاء والتَّضرُّع.

الخُشوع والخُضوع:

الخشوعُ إخباتٌ وخوفٌ يظهرُ في الصَّوتِ والبصرِ، والخضوعُ لينٌ وانقيادٌ بالقلب

يتقاربُ لفظا (خشع وخضع)؛ حيث يشتركان في معنى التَّطامُنِ والتَّذلُّل والسُّكون، وقد يُعرَّفُ أحدهما بالآخر، فيُقال: الخضوع: الخُشوع[1]، ولكن يَنفرد كلٌّ منهما بملامحَ فارقةٍ، وإيضاحُ ذلك أنَّ أصلَ (خَشَعَ) يدلُّ على التَّطامُن، يُقال خَشَعَ إذا تطامَنَ وطأطأ رأسه، والخاشِعُ: المُسْتَكينُ والرّاكِعُ[2]، وخَشَعَ: خَضَعَ وذلَّ وخافَ، فالخُشوعُ: السُّكونُ والتَّذَلُّلُ[3]، والتَّخَشُّع لله: الإخبات والتَّذلُّل[4].

وأنَّ أصلُ (خَضَعَ) يدلُّ على تطامُنٍ في الشَّيءِ، والخضوعُ هو الذُّلُّ والاستخذاء، وخضعَ الرَّجل إذا لانَ كلامه[5]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: 32]، وخَضَعَ: تواضعَ وسكنَ وانقاد[6]، ويفترقُ الخشوعُ عن الخضوعِ في عدَّة وجوهٍ منها:

أوّلًا: الخُضوعُ هيئة تَذَلُّلٍ في البَدَنِ وإِقْرارٌ بالِاسْتِخْذاءِ، أما الخُشوعُ فهيئة تَذَلُّلٍ في الصَّوْتِ والبَصَرِ[7].

ثانيًا: ذكر العسكري بينهما فروقًا؛ وهي أنَّ الخُشوعَ يرى فاعلُه أنَّ مَن يخضعُ هو له يكون فوقه، وأنَّه أعظمُ منه، والخشوعُ لا يكونُ

(1) الراغب، المفردات، ص: 286.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خشع).
(3) الزبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (خشع).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (خشع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خضع).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (حضع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (خشع).

إلّا مع خوفِ الخاشعِ للمخشوعِ له، ولا يكونُ تكلّفًا، ولهذا يُضافُ إلى القلب، فيُقال: خشعَ قلبه.

في حين أنَّ الخضوعَ لا يقتضي أنْ يكونَ معه خوفٌ، ولهذا لا يجوز إضافته إلى القلب، وقد يجوزُ أنْ يخضعَ الانسانُ تكلّفًا من غير أنْ يعتقد أنَّ المخضوع له فوقه، ولا يكون الخشوعُ كذلك.

ثالثًا: قيل: الخشوعُ: الإخباتُ، والخضوعُ: اللّينُ والانقيادُ؛ ولذلك يُقال: الخشوعُ بالجوارح والخضوعُ بالقلب[1].

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة بترتيب وزيادة، ص: 216 - 217.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١١٠﴾ [الإسراء: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دعوةٌ مجدَّدَةٌ للمشركين لتصحيحِ معتقدهم في اللهِ اقتداءً بالكَمَلَة من أهل العلمِ

في مناسبة الآية لِما قبلها وجهان:

الأوَّل: بعد أنْ وقفَتِ الآياتان السّابقتان بالمُشركين إزاءَ أهلِ العلم، وأرتهم منهم أنَّهم يتعاملون مع هذا القرآن الذي لم يُدعَوا إليه بَعْدُ، ويلْقَونه بهذا الاحتفاءِ العظيم، على حين أنَّهم - أي المشركين - يلْقَون هذا القرآن بوجوهٍ مُنكِرة، وقلوبٍ مُغلقةٍ، وعقولٍ شاردةٍ، يعودُ الخِطاب إليهم في هذه الآية؛ دعوةً مجدَّدة لهم إلى أنْ يَتدبَّروا أمرهم هذا الذي هم فيه، وأنْ يُبادروا فيصلحوا موقفهم من القرآن ويصحِّحوا مُعتقدهم في الله[1].

الثّاني: أنَّه لَمّا طالتْ الكَلِماتُ في المُناظَرةِ مع المُشركين ومُنكِري النُّبوّاتِ، والجوابِ عن شُبُهاتِهم؛ أتبَعَها بِرَدٍّ آخر يُبيِّن لهم فيه كيف يَدعون اللّه ويُطيعونَه؛ فتعدُّد الأسماء لا يقتضي تعدُّد المُسَمَّى، فقد قال تعالى لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: ﴿ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱدْعُواْ﴾: الدُّعاءُ: النِّداءُ، وأَصْلُه: استمالَةُ الشَّيْءِ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يكون مِنْكَ، ومنه سُمّيَت الرَّغْبَةُ إلى اللّه ﷻ دُعاءً، تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا دُعاءً ودَعْوةً، أيْ: نادَيْتُهُ[3]، والدَّعْوةُ: المَرَّةُ

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 8/ 573.
(2) الخطيب الشِّربيني، السِّراج المنير: 2/ 344.
(3) الجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث: (دعا - دعو).

الواحِدَةُ مِن الدُّعاءِ[1]، ويأْتي الدُّعاءُ بمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقال: دَعَوْتُ اللّهَ، أَدْعوهُ، أيْ: سَأَلْتُهُ[2]، والدُّعاءُ أيضًا: العِبادةُ والضَّراعة[3]، ويُطلَق على الحَثِّ إلى الشَّيْءِ والتَّرْغيب فيه، فيُقال: دَعا قَوْمَهُ إلى اتِّباعِهِ، أيْ: حَثَّهُم ورَغَّبَهُم[4]، والمقصودُ بالدُّعاء في الآية: الطَّلَبُ والسُّؤالُ بتضَرُّع.

2) ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾: أصلُ (حسن) من الحُسْنُ ضِدُّ القُبْح، يُقالُ رَجُلٌ حَسَنٌ وامرَأَةٌ حَسْناءُ وحُسّانَةٌ[5]، والحُسْنَى مُؤَنَّثُ الأَحْسَنِ، وهو المُتَّصِفُ بالحُسْنِ الكامِلِ في ذاتِهِ، المَقْبولِ لَدَى العُقولِ السَّليمَةِ المُجَرَّدَةِ عَنِ الهَوى، ولَيْسَ المُراد بالحسنِ المُلاءمة لِجَميعِ النّاس، لأَن الملاءمة وصف إضافَة نِسْبِيٌّ، فَقَدْ يُلائِمُ زَيْدًا ما لا يُلائِمُ عمرًا، فَلِذَلِكَ فالحُسْنُ صِفَةٌ ذاتِيَّةٌ لِلشَّيْءِ الحَسَنِ، ووصْفُ ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾ بـ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾؛ لِأَنَّها دالَّةٌ عَلَى ثُبوتِ صِفات كَمالٍ حَقيقيّ، والحُسْنَى أيضًا: لَقَبٌ قُرْآنيٌّ إسْلاميٌّ يَدُلُّ على خَيْراتِ الآخِرَةِ، قالَ تَعالَى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26][6]، والمقصود بالحُسْنَى في الآية: تأنيث الأحسَن، أَفْعَل تفضيل، والمُراد بها: أنَّها أحسن الأسماء وأجلُّها، لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها.

3) ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ﴾: أصلُ (جهر) هو إعْلانُ الشَّيْءِ وكَشْفُهُ وعُلوُّهُ[7]، يُقالُ: جَهَرَ الشَّيءُ: عَلَنَ وبَدا؛ وجَهَرَ بِكَلامِهِ ودُعائِهِ وصَوْتِهِ وصلاتِه وقِراءَتِه يَجْهَرُ جَهْرًا وجِهارًا، وأَجْهَرَ بِقِراءَتِهِ لُغَةٌ، وجَهَرْتُ[8]، ورجلٌ جَهِير الصَّوتِ: أَي عالي الصَّوْت، وكَذَلِكَ رجُلٌ جَهْوَرِيُّ الصَّوْت: رفيعه[9]، والجَهْرَةُ: ما ظَهَرَ، ورَآهُ جَهْرَةً: لَم يَكُنْ بَيْنَهُما سِترٌ؛ ورأَيته جَهْرَةً وكلمتُه جَهْرَةً[10]، والمقصود بالجَهْرِ في الآية: قوَّةُ صَوْتِ النّاطِقِ بالكَلام، والمرادُ به هنا: النَّهْيُ عَنْ شِدَّةِ الجَهْرِ[11].

---

(1) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (دعا).
(2) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (دعو).
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/ 3644.
(4) الأمير، التَّحبير لإيضاح معاني التَّيسير: 4/ 5.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حسن).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 186، 27/ 376.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهر).
(8) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (جهر).
(9) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المُحكم: (جهر).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، لسان العرب: (جهر).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 238.

4) ﴿وَلَا تُخَافِتْ﴾: أصلُ (خفت) هو إِسْرارٌ وكِتْمانٌ، فالخَفْتُ: إِسْرارُ النُّطْقِ، وتَخافَتَ الرَّجُلانِ، قالَ اللّه تعالَى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [طه: 103][1]، وتَخافت القومُ: تَشاوروا سرًّا[2]، والخُفوتُ: ضَعْفُ الصَّوْت مِنْ شِدَّة الجوعِ؛ يُقالُ: صَوْتٌ خَفيضٌ خَفيتٌ، وخَفَتَ الصوتُ خُفوتًا: سَكَنَ؛ ولِهَذا قيلَ لِلْمَيِّت: خَفَتَ إِذا انْقَطَعَ كلامُه وسَكَتَ، فَهو خافِتٌ، والرَّجُلُ يُخافِتُ بقراءَته إذا لَم يُبَيِّنْ قراءَته بِرَفْعِ الصَّوْتِ[3]، والمُرادُ بالمُخافَتَةِ في الآية: مُفاعَلَةٌ، مِنْ خَفَتَ بِكَلامِهِ، إِذا أَسَرَّ بِه، وصيغَةُ المُفاعَلَةِ مُسْتَعْمَلَةٌ في مَعْنَى الشِّدَّةِ، أَي: لا تُسرَّها[4].

5) ﴿وَٱبْتَغِ﴾: أصلُ (بغي) طَلَبُ الشَّيْءِ، تَقول: ابْتَغَيْتُ الشَّيْءَ، وبَغَيْتُه، أَبْغيه بُغْيَةً وابْتِغاءً، أَيْ: طَلَبْتُه[5]، والباغي: الَّذي يَطْلُبُ الشَّيْءَ الضالَّ، وأَبْغاهُ الشَّيْءَ: طَلَبَهُ لَهُ وأَعانَهُ على طَلَبِهِ[6]، وقيل: الابْتِغاءُ هو الاجْتِهادُ في الطَّلَبِ[7]، وهو أيضًا: الإرادَةُ والقَصْدُ، يُقالُ: ابْتَغَيتُ الأَجْرَ في عَمَلي، أي قَصَدْتُهُ، ويأتي بمعنى الاتِّخاذ، تَقول: ابْتَغَيْتُ البَيْتَ سَكنًا لي، أَيْ: اتَّخَذْتُهُ[8]، والمقصود بالابتِغاءِ في الآيةِ: الطَّلَبُ والقصد، والمُراد منه: حصول المَقْصودِ مِنْ إِسْماعِ النّاس القُرْآنَ، ويَنْتَفي تَوهُّمُ قَصْدِ التَّطاول عليهم[9].

6) ﴿سَبِيلًا﴾: أَصْلُ (سبل) يَدُلُّ على إِرسالِ شَيءٍ مِنْ عُلوٍّ إِلى سُفْلٍ، وعلى امتدادِ شَيءٍ، فالأَوَّلُ مِنْ قَولِكَ: أَسْبَلْتُ السِّتْرَ، وأَسْبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وبمائِها، وأمّا الثّاني: فالمُمْتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ مِنْهُ، وهو الطَّريقُ؛ سُمّيَ بِذَلِكَ لِامتِدادِه[10]، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والتَّأنيثُ أَغْلَبُ، وسَبيلُ اللّهِ: طَريقُ الهُدى الَّذي دَعا إِليهِ، وجمعُه: سُبُلٌ[11]، والمقصود بالسَّبيل في الآية: الطَّريق، والمُرادُ: واقصد بَيْنَ الجهر بقراءتك والإسرار بها طريقًا وسَطًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خفت).
(2) ابن سيده، مقاييس اللُّغة: (خفت).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خفت).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 238.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بغي).
(6) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بغي، بغا).
(7) الرّاغب، المُفردات: (بغي)، والمناوي، التَّوقيف على مُهمّات التَّعاريف، ص: 35.
(8) الخليل، العين، والفيروزابادي، القاموس المحيط، وابن منظور، لسان العرب: (بغا - بغي).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 238.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبيل).
(11) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

القراءةُ بَيْنَ المُخافتة والجهر هي الوسط، وخَيرُ الأمور أوسطها

أَمَرَ اللّه تعالى رسولَه ﷺ بالتَّوسط في القراءة، فلا يجهر بصوته ولا يُخافت به فقال: ولا تَرفَعْ صَوتَك يا مُحَمَّدُ ﷺ بقِراءةِ القُرآنِ في صَلاتِك، ودُعائِك وذِكْرِك للّه فيها، حتَّى لا يسمعها المُشركون فيسبّوا القرآن، ولا تُسِرَّ بذلك، حتَّى لا يكاد يسمعها من يكون خلفك، واسلُكْ طَريقًا وسَطًا بينَ الجَهرِ والمُخافَتةِ، وهذا بيانٌ للأُسلوب القاصد، المُستقيم الَّذي يُدعى اللّه ﷻ به، ويُعبَد عليه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّة فصل جُملة ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ عمّا قبلها:

الاستئناف البيانيُّ يدلُّ أنَّ الكِبْرَ منعهم من السُّؤالِ الذي تستلزمه الفطرة والعقل

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ عن سابقتها، ولم يربطْ بينهما بالعاطف؛ لكون جملة ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ وقعتْ استئنافًا بيانيًا؛ إذ بين الجُملتين شِبْهُ كمالِ الاتصال؛ وذلك أنَّه لَمّا كان إيمانُ أهلِ العلم الأول بالقرآن، وإذعانهم له، وتركهم لأديانهم موجبًا لكلِّ من له أدنى إنسانيّة أنْ يؤمنَ به، ويقبلَ عليه ويدعو من أنزله دون غيره دائمًا، كان المُفترض من المُعاندين من العرب أنْ يؤمنوا وأنْ يقولوا: آمنًا فعلِّمنا كيف ندعو وبأيِّ اسم نهتف؟ جاء الجواب ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾[2].

نكتة تلوين الخطاب في الانتقال من الإخبار إلى مُخاطبة النَّبيِّ ﷺ:

في مُخاطبةِ النَّبيِّ ﷺ والإعراضِ عنهم في الخطاب تنبيهٌ لهم على سوءِ حالهم

انتقلَ البيانُ القرآني من الخبر بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾إلى مُخاطبة النَّبيِّ ﷺ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ دون مُخاطبتهم مُباشرةً؛ تلوينًا في الخطاب، وتنبيهًا لهم على سوء حالهم بالإعراضِ عنهم في الخِطاب؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 136، والواحدي، الوجيز، ص: 651، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 468.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 231.

ذلك أنَّ الانتقال من الغَيبة إلى الحُضور يُنشئ عند المُتلقّي نوعًا من التَّنبُّه، ويستدعيه للوقوف والتَّأمُّل لصورةِ الانتقال المُفاجئ، وممّا يزيد هذا التَّنبُّهَ أنَّه لم يلتفتْ إليهم ليُخاطبهم مُباشرةً استخفافًا بهم، بما يُنبِّه الإحساس عندهم بحدَّة التَّحوُّل عنهم، وإنَّما التفتَ في الخِطاب إلى رسول اللّه ﷺ؛ تعظيمًا له وتأكيدًا لرسالته، وأنَّه المُكلَّف بإيصال الرِّسالة إليهم بشارة وإنذارًا، وإيماءً إلى أنَّ الدّين الصَّحيح لا يكون إلّا عن طريقه ﷺ، وفي هذا كُلّه ما يحملهم على الإيمان باللّه وبرسوله.

سِرُّ استعمال الفعل ﴿ٱدۡعُواْ﴾ دون غيره:

في التَّعبيرِ بالدُّعاءِ ثراءٌ في المعنى بما يُناسبُ السّياق

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الدُّعاء في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ دون غيره من الألفاظ، فلم يقل مثلًا: (قل نادوا) أو (قل سمّوا)؛ وذلك لاتِّساع دلالة لفظ ﴿ٱدۡعُواْ﴾؛ إذ يشمل معنى النِّداء، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: 52]، ويُستعمل بمعنى التَّسمية[(1)]، وفيه معنى الجذب ومُحاولة استمالة الشَّيء إليك[(2)]، ومعنى العبادة قال تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾ [يونس: 106] ومعنى التَّضرُّع في طلب أمرٍ ما، والرَّغْبَةُ إِلَى اللّه تَعالَى فيما عنْدَه من الخيْرِ والابْتِهال إِلَيْه بالسُّؤالِ، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف: 55][(3)]، ومعنى الثَّناء، قال تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: 10].

وكذلك فإنّ لفظ ﴿ٱدۡعُواْ﴾ أنسب للسّياق، ولسببِ النُّزولِ الذي ورد فيهما اسم ﴿ٱللَّهَ﴾ واسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾؛ إذ الدُّعاءُ لا يكادُ يُقال إلّا إذا كان معه الاسم، في حين النِّداء قد يُقال بـ(يا) أو (أيا) ونحو ذلك من غير أنْ يُضمّ إليه الاسم[(4)].

(1) الرَّاغب، المُفردات، ص: 315.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دعو).
(3) الزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (دعو).
(4) الرَّاغب، المُفردات، ص: 315.

وكذلك لفظُ الدُّعاء أنسبُ لِما ورد في السّياق من النَّهي عن الجهر؛ إذ النِّداءُ لا يكون إلّا برفع الصَّوت[1].

سِرُّ اختصاص اسمِ ﴿ٱللَّهَ﴾ واسمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ بالذِّكر:

اسمُ (الله) واسمُ (الرَّحمان) أصلُ بقيَّةِ أسماءِ الله تعالى وأعظمها

اختصَّ البيان القرآني اسمَ ﴿ٱللَّهَ﴾ واسمَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ دون غيرهما بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾؛ لأنَّهما أصلُ بَقيَّةِ أسماءِ اللّهِ تعالى[2]، فكل أسماء اللّه الحُسنى ترجِعُ معانيها إليهما وفيه دلالة على أنَّهما أشرَفُ مِن سائِرِ الأسماءِ، فاسمُ ﴿ٱللَّهَ﴾ هو أعظم الأسماء المذكورة؛ لكونه جامعًا لجميع الأسماء والصِّفات، في حين سائر الأسماء لا يدلُّ آحادها إلى على آحاد المعاني، من علم أو قدرة أو فعل أو غير ذلك، وهو عَلَمٌ على الذّات إذ لا يُطلقه أحد على غيره لا حقيقة ولا مجازًا[3]، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ أي المُنعِم بجلائل النِّعم الدُّنيويَّة منها والأخروية كمًّا وكيفًا، الظّاهرة منها والباطنة[4]، ولكونهما ﴿ٱللَّـهَ﴾ و﴿ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ اسمين مُختصين باللّه تعالى، فاللّه للهيبة والعظمة، والرَّحمن للرَّأفة والرَّحمة[5].

ولكون ذِكْرِهما أكثرَ مُناسبة بين سورة الإسراء وبين سورة النَّحل التي سبقتها؛ والتي ورد فيها من التَّنويه باسم الجلالة ما لم يردْ في غيرها، والتي ذُكِرَ فيها من النِّعم ما لم يرد في غيرها أيضًا، ممّا يُناسبُ الرَّحمة العامَّة، ومنها تعليمُ البيان، وهذا أليقُ باسم الرَّحمان، كما أنَّ تَكرارَ الرَّحمة في سورة الإسراء والذي بلغ ثماني مرات يُراد به العموم، فكان اسم الرَّحمان بها أليق[6].

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 38.
(2) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 1/ 379.
(3) الغزالي، المقصد الأسنى، ص: 61.
(4) الصَّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1078.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 266.
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 536 - 537.

نُكتة تقديم اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ على اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ وعلاقة ذلك بسبب النُّزول:

اسم الجلالة هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحُسنى فلا يتقدَّم عليه غيره

قدَّمَ البيانُ القُرآني اسمَ ﴿ٱللَّهَ﴾ على اسمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ اسم ﴿ٱللَّهَ﴾ أعظَمُ الأسماءِ[1]، فهو الاسمُ الجامع لجميعِ معاني الأسماء الحُسنى[2].

وكذلك لمراعاةِ لسببِ النُّزول الذي قُدِّم فيه ذِكْرُ اسم ﴿ٱللَّهَ﴾، فقد ورد "أنَّ المُشركين فيما ذكر سَمِعوا النَّبيَّ ﷺ يدعو ربَّه: يا رَبَّنا اللّه، ويا ربَّنا الرَّحمان، فظنّوا أنّه يدعو إلهين، فأنزل اللّه على نبيِّه ﷺ هذه الآية احتجاجًا لنبيِّه"[3]، وقد رجَّح ابن عاشور هذا السَّبب على غيره؛ لكونه أنسَبَ مع ألفاظِ الآية؛ لاقتِصارِه على اسمِ اللّه واسم الرَّحمان[4].

دلالة ﴿أَوِ﴾ وأثرها في المعنى:

الدَّلالة على الإباحة لأنَّ الجمعَ بين الاسمين في الدُّعاء أكملُ

﴿أَوِ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ للإباحة، أي: إنْ دعوتَ بأحدهما كان جائزًا، وإنْ دعوتَ بهما جميعًا كان جائزًا[5].

وهُناك من المُفسِّرين من عَبَّرَ عن معناها بالتَّخيير، أي: التَّخيير لنا بين أنْ ندعوه بأيِّ الاسمين شئنا، والمعنى: ادعوه بهذا الاسم أو هذا الاسم، أي اذكروا في دعائكم هذا أو هذا، فالمُسَمَّى واحدٌ[6].

والتَّعبير بالإباحة أصحُّ؛ لأنَّ التَّخيير بين المعطوفين يكون حين يمتنع الجمع بينهما، أي هو بيانٌ أنَّ الواجب أحدُها لا الكلُّ وله الخيارُ، أمّا الإباحة فتكون حيث لا يمتنع الجمعُ بينهما[7]، له أن يفعلَهما، وله أنْ يفعلَ أحدهما[8].

---

(1) الخطيب الشِّربيني، السِّراج المنير: 2/ 345.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 537.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 580.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 236.
(5) المُجَاشِعِي القيرواني، النُّكت في القرآن الكريم، ص: 297.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 236.
(7) السُّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 208.
(8) أبو حفص النَّسفي، التَّيسير في التَّفسير: المقدّمة/ 125.

في الإطناب تحقيقٌ وتوكيدٌ لاكتمال التَّسوية بين الدُّعاءِ باسم الله واسم الرَّحمان

الإيجازُ والاختصارُ بعد دلالةِ المقام أبلغُ من الذِّكر

الرَّحمانُ اسمٌ مختصٌّ به سُبحانه ولا يقتصرُ على الرَّحمة فقط

سِرُّ تكرار ﴿ٱدۡعُواْ﴾:

أطنبَ النَّظم الكريم بتكرار ﴿ٱدۡعُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾، ولم يقل: (قل ادعوا الله أو الرَّحمن)؛ تحقيقًا لاكتمالِ التَّسويةِ بَيْنَ تسميةِ الله بالاسم الجليل، وتسميته باسم الرَّحمان، وتوكيدًا لهذه التَّسوية.

عِلَّة الحذف:

في قوله ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ قد يُتوهَّم أنَّ معنى ﴿ٱدۡعُواْ﴾ هو (نادوا) فلا حذف، وهذا لا يصحّ؛ لأنَّه يلزمُ الاشتراك لو كان المُسمَّى متعدّدًا، أو عطف الشَّيء على نفسه إنْ كان واحدًا، بل هو بمعنى سَمّوا فالحذفُ واقعٌ[1]؛ لأنَّ التسمية تتعدّى إلى مفعولين، أي سمّوه اللّهَ أو الرَّحمانَ أيّا ما تُسمّونه فله الأسماء الحُسنى[2]، وحُذف المفعولُ الأوَّل من الفعلين وأُبقيَ الثّاني لدلالةِ المقام[3]، أي حُذف المفعولُ الأوَّل إيجازًا واختصارًا لدلالة المذكور على المحذوف، ولأنّ ذكْرَه بعدَ دلالة المقام عليه يُعدُّ عَبَثًا.

إيثار اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ دون (الرَّحيم):

الرَّحْمان والرَّحيم اسمان مُشْتَقّانِ من الرَّحمة، ولكنَّ البيانَ القرآنيَّ آثر استعمالَ اسم الرَّحمن دون الرَّحيم في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾؛ لأمور:

الأوَّل: لأنَّ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ اسمٌ مختصٌّ بالله تعالى لا يجوز أنْ يُسمّى به ولا يوصفَ به غيره، ولذا عادل في الآية به الاسمَ الذي لا يُشاركه فيه غيره ﴿ٱللَّهَ﴾، والرَّحيم يوصَفُ بِهِ غَيْرُ اللّه تَعالَى، فَيُقالُ رَجُلٌ رَحيمٌ، ولا يُقالُ رَحْمان[4].

(1) السُّبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 1/ 379.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 700، والقزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 161.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 237.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (رحم)، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 1/ 34.

الثّاني: (الرَّحيم) قد يكون بمعنى المرحوم، كما يكون بمعنى الرّاحم[1]، فالأول لا يتناسب مع جلال اللّه، والثاني له دلالة قاصرة بالمقارنة مع اسم الرحمان.

الثّالث: لأنّ العربَ - كما قيل - لا يعرفون الرَّحمان إلّا رحمان اليمامة، وفي صحاح السّيرة أنَّ المُشركين عندما أخذَ عليٌّ ﵁ يكتبُ العهدَ في صلح الحديبية قال: بسم اللّه الرَّحمان الرَّحيم، قالوا أمّا الرَّحيم فنعرفه، وأمّا الرَّحمن فلا نعرفه، اكتبْ باسمك اللَّهم؛ فاللّه سُبحانه بَيَّن بهذا أنَّ الرَّحمانَ اسمُ اللّه، وأنّه كغيره من الأسماء الحُسنى[2].

الرّابع: اكتفاءً بِذِكْرِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ عن (الرَّحيم) حسب رواية أخرى في سبب النُّزول: "كان النَّبيّ ﷺ ساجدًا يدعو يا رحمان يا رحيم، فقال المُشركون: هذا يزعم أنَّه يدعو واحدًا، وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل اللّه الآية"[3]، "فالاقتصارُ على التَّخيير في الدعاءِ بين اسمِ اللّه وبين صفة الرحمان اكتفاء أي: أو الرَّحيم"[4].

الخامس: لأنَّ الرَّحمن لا يدلُّ على الرَّحمة فقط؛ وقد غلطَ من قصَر معناه على ذلك؛ وإنَّما معناه كما ورد في القرآن المَلِكُ العظيم العادل قال تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الفرقان: 26]، والمُلْكُ يَستَدعي العَظَمَةَ والقُدْرَةَ والرَّحمَةَ لِخَلْقِهِ لا أنَّهُ يَتَوقَّفُ عَلَيْها، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: 60]، وإنَّما يَصْلُحُ السُّجودُ لِمَنْ لَهُ العَظَمَةُ والقُدْرَةُ، وقال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [مريم: 18]، ولا يُعاذُ إلّا بالعَظيمِ القادِرِ عَلَى الحِفْظِ والذَّبِّ[5].

معنى ﴿أَيًّا﴾ في قوله ﴿أَيًّا مَّا تَدۡعُواْ﴾، وإعرابها:

(أَيّ) اسمُ استفهامٍ في الأصل، وهو سؤالٌ عن تصوُّرٍ حقيقةِ البعضيَّة، وتقديره في الآية: بأيِّ الاسمين تدعوا[6]، وهو في محلِّ نصب مفعول به لـ﴿تَدۡعُواْ﴾، والتَّنوين عوض عن المُضاف المحذوف.

(1) الرَّازي الحنفي، مُختار الصِّحاح: (رحم).
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4478.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 580.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 236.
(5) الزَّركشي، البُرهان في علوم القرآن: 2/ 503.
(6) المؤيد بالله، الطِّراز لأسرار البلاغة: 3/ 159.

الدُّعاءُ بأيِّ اسمٍ من أسماءِ الله الحُسنى جائزٌ وحَسَنٌ

فإذا اقترنتْ بها ﴿مَّا﴾ التي تأتي للتَّوكيد، أفادتْ الشَّرط كما تُفيدُه (كيف) إذا اقترنتْ بها (ما)، ولذلك جُزِمَ الفعل بعدها وهو ﴿تَدْعُواْ﴾ شرطًا، وجيءَ لها بِجوابٍ مُقتَرِنٍ بالفاء، وهو ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1]، ومعنى الشَّرط فيها أفادَ اتِّصال تعلَّق حصول الجواب بحصول الشَّرط وتلازمهما، أي الدُّعاء بأي اسم من أسماء اللّٰه الحُسنى جائزٌ وحَسَنٌ.

فائدة ﴿مَّا﴾ في قوله ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾:

في (ما) بيانٌ وتوكيدٌ لكثرةِ أسمائه الحسنى سبحانه

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تحتمل معنى التّأكيد، كقوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝﴾ [المؤمنون: 40]، أي لتأكيدِ ما في (أيّ) من الإبهام[2]، وتوكيد الكثرة فيها، أي أيًّا من الأسماءِ تدعو مهما يكن قدرها[3].

وقيل: هي بمعنى (أيَّ شيء) كُرِّرتْ مع اختلافِ اللَّفظين للتَّوكيد، كقولك: ما رأيت كاللَّيلة ليلة[4].

وتحتمل معنى الشرطية، أي دخلَ شرطٌ على شرطٍ، وجُمِعَ بينهما، أي بينها وبين (أيَّ) تأكيدًا لِما تقدّم، وقيل: (ما) شرطيَّةٌ عند مَنْ وقف على ﴿أَيًّا﴾، وجعل المعنى: أيَّ الاسمينِ دَعَوْتموه به جاز، ثم استأنفَ ﴿مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يعني أنَّ ﴿مَّا﴾ شرطٌ ثانٍ، و﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ﴾ جوابُه، وجوابُ الأوَّل مقدَّرٌ، وهذا مردودٌ بأنَّ ﴿مَّا﴾ لا تُطْلق على آحاد أولي العلم، وبأنَّ الشَّرطَ يقتضي عمومًا، ولا يَصِحُّ هُنا، وبأنَّ فيه حَذْفَ الشَّرط والجزاء معًا[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 236.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 700، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/ 270، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 200.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4478.
(4) المُجَاشِعِي القيرواني، النُّكت في القرآن الكريم، ص: 297.
(5) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 7/ 429.

حُسْنُ جميعِ أسمائِه يَستدعي حُسنَ ذَينك الاسمين الشَّريفين

موقع جُملة ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾:

أصلُ الكلام: أيًّا ما تَدعوا فهو حَسَنٌ أو جائزٌ، فوُضِعَ مَوضِعَه ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ للمُبالغةِ في الدَّلالةِ على ما هو الدَّليلُ عليه؛ إذ حُسْنُ جميعِ أسمائِه يَستدعي حُسْنَ ذَيْنك الاسمين[1]، فأقيمَ فيه دليلُ الجواب مقامه، وهو أبلغ[2].

وقولُه: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ عِلَّةُ الجواب، والتَّقديرُ: (أيَّ اسمٍ من أسمائِه تَعالى تَدْعون فلا حرَجَ في دُعائه بعدَّةِ أسماءٍ؛ إذ له الأسماءُ الحُسنى، وإذ المُسمَّى واحدٌ)[3].

لـه وحـده الأسماءُ الكاملةُ في الحُسْنِ

معنى اللّام في قوله ﴿فَلَهُ﴾:

لام ﴿فَلَهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي لامُ الاستحقاق؛ لأنَّها واقعةٌ بين معنى وذات، وفي استعمالها إشعارٌ بقصْرِ تلك الأسماء على اللّهِ ﷻ، وخاصَّة أنَّه جاء مع تقديم اسم الجلالة المُضمَرِ في قوله ﴿فَلَهُ﴾.

الأسـماءُ الـحُسنى لله وحده وتسميته بأيٍّ منها حَسَنٌ فالمُسمَّى واحدٌ

فائدة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فَلَهُ﴾ على المُسند إليه:

قدَّم القرآنُ الكريم ما حقُّه التَّأخير وهو الجارُّ والمجرور ﴿فَلَهُ﴾ على المُسند إليه في قوله تعالى: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ لإفادة القَصْر، أي لإثباتِ حصرِ هذه الأسماء الحسنى باللّه واختصاصه بها، ولتأكيدِ استحقاقه إيّاها، والمعنى: اتِّسامُ اللّه بهذه الأسماء الحسنى واختصاصه بها وحده أمرٌ ثابتٌ، فإذا أُطلقتْ فلا يُرادُ بها إلا اللّه؛ أي: لا يوجد لغيرِ اللّه اسمٌ يوصف بأنّه من الأسماء الحُسْنى[4]، وأنَّ أيَّ اسمٍ من أسمائه تعالى

---

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 700، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/ 270، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 200.

(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/ 522.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 237.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 186.

تدعون فلا حرجَ في دعائه بعدّة أسماء؛ إذ له الأسماء الحُسنى، وإذ المُسمَّى واحد[1].

ولا يبدو هذا الأثر واضحًا في حالِ عدم استعمالِ أسلوب القصر، كما لو قال: (الأسماء كائنة للّه) فهي جملةٌ خبريَّةٌ تحتمل التّصديقَ والتَّكذيب.

الإضمارُ أبينُ للمعنى وأوجزُ وأخصبُ للفظ

عِلَّةُ الإضمار في موضع الإظهار في قوله ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾:

أضمر البيانُ القرآنيُّ الاسم الجليل (اللّه) في قوله تعالى: ﴿أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، ولم يُظهره؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إضمار؛ فقد سَبَقَ التَّصريح باسم اللّه في الآية ذاتها ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾، فإظهاره تكرارٌ لا حاجةَ له، وإضمارهُ أبْيَنُ للمعنى، وأوجزُ وأخصبُ للفظ، كما أنَّ الإضمارَ هُنا أنسبُ لسياقِ الكلام الذي يُقرِّر التَّسوية في أسماء اللّه الحُسنى، وأنَّ المُسمَّى واحد سُبحانه، أي إنَّ الضَّمير في ﴿فَلَهُ﴾ ليس براجعٍ إلى أحدِ الاسمين المذكورين، ولكن إلى مُسمّاهُما؛ وهو ذاته تعالى؛ لأنَّ التَّسميةَ للذّاتِ لا للاسم[2].

الأسماءُ الحسنى أوسعُ دلالةً وأدلُّ على المطلوب

إيثار استعمال ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾ والعدول عن (الصِّفات):

عبَّر البيانُ القُرآنيُّ بالأسماء الحُسنى، وعدلَ عن لفظ الصِّفات في قوله تعالى: ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾؛ لأمور:

الأوّل: لاتّساع دلالة لفظ ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾؛ إذ الأسماءُ الحُسنى تدلُّ على أمرين: الأوَّل: ذاتُ اللّه بالتَّخصيص أو بالغلبة، والثّاني: صفاتُ الكمالِ القائمة به، مثل: أسماء اللّه (الرَّحمن والرَّحيم والحكيم والعليم)، فهي تَدُلُّ على ذاتِ اللّه، وما قام به من الرَّحمة والحكمة والعلم، بخلافِ الصِّفةِ فإنَّها تَدُلُّ على أمرٍ واحدٍ؛ إذ هي نعوتُ الكمال القائمة بذات اللّه تعالى، كالرَّحمة والحكمة والعلم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 237.

(2) الطِّيبي، فتوح الغيب: 9/ 398.

الثّاني: لمُناسبته للسّياق؛ إذ معنى ﴿ٱدۡعُواْ﴾ سَمّوا، أي سمّوه اللّه أو سمّوه الرَّحمن، وهذا يُناسبه التَّعبير بالأسماء الحُسنى التي تتحدَّث عن الذّاتِ لا الصِّفات.

الثّالث: لمُناسبته لسببِ النُّزول الذي يَتَضَمَّن شُبهةَ المُشركين حول أسماءِ اللّه لا حولَ الصِّفات، بأنَّ النَّبيَّ يدعو إلى إلهين اثنين اسمهما ﴿ٱللَّهَ﴾ و﴿ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾، أي المُراد بدعائه بهما المُسمَّى فيلزم منه التَّعدُّد في المُسمَّى، كما ظنَّ أبو جهل، فَرَدَّ عليهم القرآن أنَّ المُراد بهما ﴿ٱللَّهَ﴾ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ الاسم لا المُسمَّى فلا يَلزم التَّعداد إلّا في الاسم[1]؛ ليبيِّن لهم أنَّها أسماءٌ لذاتٍ واحدة.

معنى (أل) في قوله ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾:

(ألْ) التَّعريف في قوله تعالى: ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ استغراقيَّةٌ، تُفيدُ شمول اختصاص اللّه ﷻ بكُلِّ اسم كريم، سَمَّى به نفسه في القرآن أو السُّنَّة، فالبابُ غيبيٌّ توقيفيٌّ لا دخلَ للعقل فيه إلّا الاتِّباع والتَّسليم.

ذات الله واحدة تـدلُّ عليها كـلُّ أسمائه الحُسنى

نُكتة وصف الأسماء بـ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾:

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ مُؤنَّث (الأحسن)، وهي صيغةُ تفضيل مُحلّاةٌ بـ(أل)، والتَّفضيل مَظِنَّةُ العهد، فـ(أل) عهديَّةٌ تشيرُ إلى أسماءٍ بعينها اختصَّ بها مُسمًّى بعينِه لا يُشاركهُ في كمالها أحد، والمعنى: فله وحده الأسماءُ الحُسنى التي بلغتْ غايةَ الحُسْنِ، ومعنى كونها أحسنَ الأسماء: أنَّها مُستقلَّةٌ بمعاني التَّحميد والتَّقديس والتَّعظيم[2]؛ لدلالتها على معانٍ شريفةٍ هي أحسنُ المعاني؛ لأنَّ مَعْناها ذاتُ اللّه أو صفاته[3].

أسماؤُه أحسنُ الأسماءِ لإنبائها عن أحسنِ المعاني وأشرفِها

دلالة الواو في قوله ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ﴾، وصِلَةُ هذه الجُملة بما قبلها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ عاطفةٌ،

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 9/ 397.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 700.
(3) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1077.

أوَّلُ الآيـةِ أمرٌ بالدُّعاءِ وآخرها صفةُ هذا الدُّعاء

والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾، وهذه الواو أكَّدتِ المعنى المُشترك بين الجُملتين؛ وهو الحديث عن الدُّعاء، إلّا أنَّ الجُملة المعطوف عليها في أوَّلِ الآية هي الأمر بالدُّعاء ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾، والجُملة المعطوفة في آخر الآية في الصِّفةِ التي يكون الدُّعاءُ عليها من مُجاوزةِ المُخافتة والتَّقصيرِ عن الجهر ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾[1].

دلالة النَّهي في قوله ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ﴾:

النَّهي نهيُ تنزيهٍ ونـدبٍ يتحقَّق به أدبُ الدُّعاءِ وقراءةِ القُرآن

النَّهيُ هو نهيٌ عن الجهرِ المُفرِط[2]؛ لأنَّه لا واسطة بين مُطلق الجهر والمُخافتة، وهو نهيُ تنزيه وندبٍ[3]، يُفهمُ منه الإرشاد إلى أنَّه لا ينبغي الصّياح والصُّراخ في الصَّلاة؛ لأنَّ ذلك ليس من أدبِ الدُّعاء في الصَّلاة، ولا يجوزُ الإخفات إلى درجةٍ بعيدة، فهو أمرٌ إرشاديٌّ، ولذلك شُرع الإخفاتُ في الصَّلوات النَّهاريَّة، والجهرُ في الصَّلوات الليليَّة، ولعلَّ الآية غير ناظرة إلى التَّشريعِ الثّابت في الرِّوايات، وإنّما هي بصددِ الإرشادِ إلى الوسطيَّة في كيفيَّة الجهرِ والإخفات.

إيثار لفظ ﴿تَجۡهَرۡ﴾ دون (تُعْلنْ) مثلًا:

لـفـظُ الـجَـهْـرِ أنسبُ مع سياق الآيـات وسبب نزولها

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾ دون لفظ (العلن)؛ لكون لفظ (الجهر) أنسبَ للسّياق والمعنى المقصود؛ لأنَّ الإعلان لا يَقتَضي رفع الصَّوت، أي قد يكون بصوتٍ وقد لا يكون بصوت، بخلاف الجهرِ فإنَّه يقتضي رفع الصَّوْت، ومِنْه يُقال: رجلٌ جهير وجَهْوريّ إذا كانَ رفيع الصَّوْت[4]، كما أنَّ الجهرَ يتضمَّنُ كذلك رفعَ الصَّوتِ بشدَّة وإفراط؛ إذْ أصلُ الجهرِ ظُهورُ الشيِّءِ بإفراطٍ، وهذا أنسبُ كذلك مع سببِ نزول الآية

(1) الطَّحاوي، أحكام القرآن: 1/ 241.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 238.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 614 - 615.
(4) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 287.

الذي يَنصُّ على أنَّ الأمرَ مُتعلِّقٌ برفع الصَّوْتِ، فقد ورد عن ابن عبّاسٍ ﵄ أنّه قالَ: "نَزَلَتْ ورسول اللّه ﷺ مُختفٍ بمكة: فكانوا إذا سَمِعوا القُرْآنَ سَبّوا القُرْآنَ، ومَنْ أَنْزَلَهُ، ومَنْ جاءَ بِهِ، فَقالَ اللّه ﷻ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾"[1]، ورويَ أنَّ أبا بكر ﵁ كان يُخفي صوته بالقراءة في صلاته ويقول: "أُناجي رَبِّي وقد عَلِمَ حاجتي، وكان عمر ﵁ يرفعُ صوته ويقول: أزجرُ الشَّيْطان، وأوقظُ الوسنان، فأمر أبا بكر أنْ يرفع قليلًا وعمرَ أنْ يخفضَ قليلًا"[2].

المُراد بالصَّلاة هُنا وعِلَّة التَّعبير بالمَجاز فيها:

الجهرُ والمخافتةُ من نعوتِ الأقوال لا من نعوتِ الأفعالِ

تحتملُ الصَّلاة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ الدُّعاء، وقد روي عن أُمِّ المؤمنين السَّيدة عائشة ﵂ أنَّ الآية نزلتْ في الدُّعاء[3]، وتحتمل أنْ يكون المُراد: بقراءةِ صلاتك، بتقدير مُضاف[4]، وتحتملُ كذلك العبادةَ المعروفة وهي الصَّلاة، ومن فسَّر الصَّلاة بذلك فإنَّما أراد قراءتها خاصَّة؛ لأنَّها التي توصف بالجهر والمُخافتة[5]، أي: على المجاز المُرسل بقرينةِ أنَّ الجهر والمُخافتة من شأنِ القراءة لا أفعالِ الصَّلاة[6]، والعلاقةُ جزئيَّة، بإطلاق اسم الكُلِّ (الصَّلاة) على الجزء (القراءة)، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المقصودَ الأعظم في الآية الصَّلاة، بخلافِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء: 78] فقد أُطلق اسم الجزء (القراءة) على الكُلِّ (الصَّلاة)؛ لأنَّ المقصود الأعظم هُناك القراءة في الفجر[7].

(1) البخاري، صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: 110]، الحديث رقم: (4445)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب: الصَّلاة، باب: التَّوسط في القراءة في الصَّلاة الجهريَّة، الحديث رقم: (446).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 586.

(3) صحيح البُخاري، كتاب: التَّوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾ [الملك: 13]، الحديث رقم: (7088).

(4) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/ 522.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 237.

(6) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 218، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 614.

(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 540.

ويؤكّد أنَّ المُراد عدم الجهر بالقراءة في الصَّلاة ما ورد في سبب النُّزول، فقد كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّى بأصحابه رفعَ صوته بالقرآن، فإذا سمعَ ذلك المشركون، سَبّوا القرآنَ ومن أنزله[1]، وتسميةُ القراءة صلاة؛ لكونها من أهمِّ أركانها، كما تُسَمَّى الصَّلاة ركعة[2].

وورد عن بعضِ السَّلف أقوالٌ فيمن فسَّرها بمعنى الصَّلاة: فقال عكرمة أنَّه نهيٌ عن الجهر بفعلِ الصَّلاة؛ لأنَّه كان يجهر بصلاته بمكَّة فتؤذيه قريش، فخافَتَ بها وأسرَّ، فأمره الله ألّا يجهر بها كما كان، ولا يُخافت بها كما صار، ويبتغي بَيْنَ ذلك سبيلًا، وقال ابن سيرين أنَّه نهيٌ عن الجهر بالتَّشهُّد في الصَّلاة، وقال الحَسَنُ البصري: يعني لا تجهر بصلاتك تُحَسِّنُها مرائيًا بها في العلانيَّة، ولا تُخافت بها تسيئها في السَّريرة، وهذا إنْ صَحَّ فيكون خطابًا للنَّبيِّ ﷺ والمُراد أُمَّتُهُ؛ إذ لا يجوز عليه شَيْءٌ من ذلك[3]، والأوَّل هو الأظهر[4].

سِرُّ إفراد الصَّلاة والعدول عن جمعها:

التَّوسُّط مطلوبٌ في كلِّ صلاة نُهيَ فيها عن الجهر والإخفات

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن الصَّلاة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ بصيغة الإفراد، وعَدَلَ عن صيغة الجمع، فلم يقل: (ولا تجهر بصلواتك)؛ اعتبارًا بكون الصَّلاة اسمَ جنْسٍ يَعُمُّ جَميعَ الصَّلوات التي نُهي فيها عن الجهر والإخفات، وأُمر بالوسط بينهما، ولأنَّه لا فائدة من التَّعبير بالجمع (بصلواتك)؛ إذ لا حاجةَ هُنا للإشارة إلى أعدادها وأنواعها، سواء كان المقصود من الصَّلاة في الآية الدُّعاء أو القراءة في الصَّلاة، أو الصَّلاة أو غير ذلك.

(1) سيِّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 452.
(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/ 522.
(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 217.
(4) الماوردي، النُّكت والعيون: 3/ 281.

نكتة إضافة الصَّلاة إلى ضمير المُخاطب:

في الإضافةِ إشعارٌ بمسؤولية المُصلّي عن صحَّة أداءِ صلاته وكمالها

أضافَ البيانُ الإلهيّ مُفردة الصَّلاة إلى ضمير المُخاطب (الكاف) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾؛ إشارةً إلى إشعارِ المصلي بأهميَّة الصَّلاة، وبمسؤوليَّته عن صلاته التي يُؤدّيها، فهي صلاته وهو المَسْؤولُ عن صِحَّة أدائها وكمالها، وسوف يُسأل عنها، وإشعارًا بأهميَّة المُصلّي عند اللّه؛ إذ إنَّ نسبةَ الصَّلاة التي هي ثاني ركنٍ في الإسلام إلى المصلي تدلُّ على عُلوِّ مكانته عند اللّه.

علّة عطف جملة ﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ على ما قبلها:

في العطفِ احتراسٌ واكتمالٌ للمعنى المقصود بالنَّهي الإلهيّ

عطفَ البيانُ القرآنيُّ جُملة ﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ على جملة ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾؛ لِما بينهما من معنى مُشترك؛ فكلاهما فعلُ نهى اللّه عنه، ولكن علَّة عطف قوله: ﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ هو "الاحتراس؛ لكيلا يجعل دعاءَه سِرًّا أو صلاتَه كلَّها سرًا، فلا يَبْلُغ أسماع المُتهيِّئين للاهتداء به؛ لأنَّ المقصودَ من النَّهي عن الجهر تجنُّب جَهْرٍ يَتوهَّمُ منه الكُفّارُ تَحكُّكًا أو تطاوُلًا"[1]، وبتقابل هذين اللَّفظين المُتضادَّيْن يتَّضح المعنى المُراد في القول المعطوف عليهما ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾، والمعنى: لا تجهرْ بقراءتك تفاديًا لشتائم وإيذاءِ الكافرين، ولا تجعلها غيرَ مسموعة لمَنْ خلفك من المُصلّين، وابتغِ السَّبيل الوسطَ بين الحالتين.

إيثارُ لفظ المُخافتة دون الإسرار:

في التَّعبير بالإخفات إظهارٌ لمدى البعدِ بين المُتقابِلَيْن المنهي عنهما

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظ المُخافتة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ دون لفظ (الإسرار)؛ لكون لفظ (المخافتة) أنسبَ للسّياق والمعنى المقصود من الإسرار؛ لأنَّ الجهر يُقابله ويُضادُّه الإخفات[2] لا الإسرار الذي هو ضدُّ الإعلان، والآية تأمرُ أنْ تكون حال القراءة، أو الدُّعاء بين أمرين مُتقابِلَيْن، قال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 238.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خَفَتَ).

تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾، وهذا أنسبُ كذلك مع سببِ نزولِ الآية الذي ينصُّ على أنَّ الأمرَ مُتعلِّق بالصَّوت جهرًا وإخفاتًا، أضفْ إلى ذلك أنَّ الإسرارَ لا نهي عنه في الشَّرع، بل هُناك صلواتٌ تكون القراءةُ فيها سِرّيَّةً، والإسرارُ هو ما يكون على وجهٍ يُسْمِعُ القارئُ نفسَه، والذِّكرُ اللِّساني إذا كان بحيث يُسْمِعُ القارئُ نَفْسَهُ فإنَّه يُؤثّر بالخيال الذي يُحْدِثُ قوّةً في الذِّكر القَلْبيِّ الرّوحاني، ولا يزالُ يتقوَّى كُلُّ واحد من هذه الأركان الثَّلاثة، وتنعكس أنوار هذه الأذكار من بعضها إلى بعض، وتصير هذه الانعكاسات سببًا لمزيد القوَّة والجلاء والانكشاف والتَّرقي من حضيض ظُلمات عالم الأجسام إلى أنوار مدبِّر النّور والظَّلام[1].

كما أنَّ التَّعبير بالإخفات دون الإسرار لإظهارِ مدى البُعد بين المُتقابِلَيْنِ من الجهر والإخفات - الذي هو الإسرار الذي لا يسمعه المُتَكلِّم به -، قال عبد اللّه بن مسعود: لم يخافتْ مَن أَسْمَعَ أُذُنَيه[2]، قال الشاعر:

أُخاطِبُ جَهْرًا إِذْ لَهُنَّ تَخافُتٌ *** وشَتَّانَ بَيْنَ الجَهْرِ والمَنْطِقِ الخَفْتِ[3]

ولكون التَّعبير بالإخفات الذي هو خفوضُ الصَّوتِ من جَزَعٍ[4] أنسبَ لحالِ الصَّحابة عند نزول الآية، فقد كانوا في مَكَّة ويتعرَّضون للأذى بسببِ صلاتهم، فهم في خوفٍ من قريش وأذاها.

سِرُّ الطِّباق بَيْنَ الجَهْرِ والمُخافتة:

المُطابقة دَلَّتْ على تَوسُّطِ كَمالِ حالِ القارئ أو الدّاعي في مناجاته لِرَبِّه

جمعَ البيانُ القرآنيّ بين لفظين مُتقابِلَيْنِ في المعنى، هُما: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ﴾ و﴿وَلَا تُخَافِتۡ﴾؛ زيادةً في تحسين الكلام وإيضاحه؛

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/ 444.
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 492.
(3) الرَّاغب، المُفردات، ص: 289، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص: 1/ 187.
(4) الكرماني، لباب التَّفاسير، ص: 1179.

إذ بضدِّها تتميَّز الأشياء، ودلالةً على بيانِ كمالِ حالِ القارئ، أو الدّاعي في مُناجاته لربِّه، بأنْ يتّصفَ بالوسطيَّة التي تميَّزت بها شريعةُ الإسلام، أي إنَّ الآية بما فيها من مُقابلةٍ هي بيانٌ للأسلوبِ القاصدِ المُستقيم، الذي يُدعى اللّهُ ﷻ به، ويُعبد عليه، وهو ألا يكون جهرًا صارخًا بالدُّعاء وبالصَّلاة، ولا خافتًا بهما، وإنَّما هو وسطٌ بَيْنَ هذا وذاك، فالجهرُ الصّارخُ يُدخلُ على الإنسان شعورًا خفيًّا أنَّ اللّه بعيدٌ عنه لا يسمعه إلّا إذا نوديَ نداءً عاليًا، ولهذا نَهى النَّبيُّ أصحابه عنه في بعضِ أسفاره، وكانوا كُلَّما عَلَوا شُرُفًا من الأرضِ رفعوا أصواتهم بالتَّكبير فنهاهم أنْ يبالغوا في هذا، فقال: "إنّكم لا تدعونَ ربًّا أصمَّ ولا غائبًا"[(1)]، أمّا الهمسُ بالدُّعاءِ والمُخافتةِ به فإنَّه يعزلُ صاحبه عن أنْ يسمعَ ما يناجي به اللّه، ومن ثَمّ فلا يتشكَّلُ له من دعائه من المعاني ما يصلُ شعورَهُ باللّه، ويَشُدُّ عقله وقلبه إليه![(2)].

فائدة الجارِّ والمجرور في ﴿بِصَلَاتِكَ﴾ و﴿بِهَا﴾:

النَّهي عن الجهر والمُخافتة مقيدٌ بالصَّلاة تحقيقًا لحِكَمها

قيَّدَ البيانُ القرآنيُّ النَّهيَ عن الجهرِ والنَّهيَ عن المُخافتةِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿بِصَلَاتِكَ﴾ و﴿بِهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾؛ لإفادةِ عدم النَّهي عن مُطْلقِ الجهر وعن مطْلقِ المُخافتة في كلِّ شيءٍ؛ وإنَّما النَّهي عن الجهرِ والمُخافتة مُقيدٌ بالصَّلاة على اختلافِ تفسيرها سواء أُريد بها الصَّلاة أو القراءة في الصَّلاة، أو الدُّعاء أو غير ذلك، وذلك لكونِ الجهرِ الصّارخ والمُخافتة في الصَّلاة لا يتوافقان مع حِكَمِ مشروعيَّة الصَّلاة وخُشوعها وخُضوعها.

(1) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر، الحديث رقم: (3968).
(2) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 8/ 575.

دلالة الواو في قوله ﴿وَٱبۡتَغِ﴾:

في العطف اكتمالٌ للمعنى المقصود وتوكيدٌ له

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾، وبهذا العطفِ يكتملُ المعنى المقصود ويتأكَّدُ؛ إذ بعد النَّهي عن الجهرِ والمُخافتة يأتي الأمرُ بأنْ يطلبَ القارئ في قراءته طريقًا وسطًا بين الجهر والمُخافتة.

إيثار التَّعبير بلفظ ﴿وَٱبۡتَغِ﴾:

التَّحقّقُ بمنزلةِ التَّوسُّط بَيْنَ الجهر والإخفات يحتاجُ إلى مزيدِ اجتهادٍ في الطَّلب

عَبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿وَٱبۡتَغِ﴾ دون غيره في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾، فلم يقلْ مثلًا: (واطلب بين ذلك سبيلًا)؛ لمُناسبةِ لفظ (الابتغاء) للسّياق، فقد سبقَ الأمرَ بالابتغاء ﴿وَٱبۡتَغِ﴾ نهيانِ مُتضادّان ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ﴾ و﴿وَلَا تُخَافِتۡ﴾ ممّا يستدعي الاجتهادَ في طلبِ المقصود من الطَّريق الوسط بين الجهرِ والمُخافتة، وهذا ما يتميَّز به لفظ (الابتغاء) عن لفظ (الطَّلب)؛ إذ إنَّه يعني بذل غايةِ الجهد في الطَّلب[1]، وقد جاء على صيغةِ (افتعال) التي تدلُّ على شِدَّةِ الطَّلبِ والمُحاولة والتَّحرّي.

والمعنى: اطلبْ بغاية جُهدكَ طريقًا وسطًا حسب مُقتضيات الحال والواقع[2]؛ ليحصلَ المقصود من إسماعِ النّاسِ القرآنَ وينتفي توهُّم قصدِ التَّطاول عليهم[3].

دلالة الأمر في قوله ﴿وَٱبۡتَغِ﴾:

فضلُ الاقتصاد بين الجهر المُنكَرِ والإخفات الذي لا يظهر

استعملَ القرآنُ فِعْلَ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾، وهو أمرٌ حقيقيٌّ، وخِطابهُ إلى النَّبيِّ ﷺ، ويشملُ أمَّته؛ لأنَّهم داخلون مع النَّبيِّ ﷺ فيما خوطِب به[4]، ويُفيدُ هذا الأمرُ

(1) الرَّاغب، المُفردات، ص: 136 - 137.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 539.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 238.
(4) الزَّركشي، البحر المحيط في أصول الفقه: 4/ 257.

استحبابَ توسُّطِ رفعِ الصَّوت في الدُّعاء، وفي قراءة القرآن في الصَّلاةِ الجَهريَّةِ بين المُبالغةِ في رَفعِ الصَّوتِ والإسرارِ[1]، وهذا في الأحوال العامَّة، ولكن إذا كان في رفعه الزّائد سببًا لإيذاءِ النَّفس والمُؤمنين، أو سَبِّ الدّينِ وسَبِّ اللّه ورسوله، فإنَّه يتوجَّب عليه التَّوسّط، وتحرمُ مُخالفته.

فائدة الظَّرف في قوله ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾:

المَنزلة بَيْنَ الجهر والإخفات توسطٌ شوَّق إليه الشّارع الحكيم واتَّسم به الدّينُ القويم

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ ﴿بَيۡنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾، وهو ظرفُ مكانٍ مُتَعَلِّقٌ بالفعل ﴿وَٱبۡتَغِ﴾، ولا يكون إلّا في شيئَين متعدِّدَينِ بينهما مسافة؛ فأفاد التَّعبير بالبينيَّة وجودَ مسافةٍ بين المُتقابلَين؛ وهُما الجهر والمُخافتة وتتوسَّطها مَنزلةٌ بينهما أمرَ بها اللّهُ سُبحانه في دِيْنٍ تميَّز بالوسطيَّة في جميع أحكامه.

كما أنَّ التَّعبير بالبينيَّة يُفيدُ التَّشويق والاهتمام بما سيأتي؛ لأنَّها ظرفٌ مُبهمٌ لا يتبيَّن معناه إلّا بإضافته إلى اسمين فصاعدًا، أو ما يقوم مقامهما، وهو في الآية اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾.

دلالةُ التَّعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

في الإشارة إيماءٌ إلى منهجِ التَّوسُّط والاعتدال، وبلاغة اختصار تغني عن التطويل

عبَّر البيانُ القرآنيُّ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يُشارُ به إلى البعيد في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ مع أنَّ المُشارَ إليه قريبٌ، فلم يقلْ: (وابتغِ بين هذا سبيلًا)؛ إشارةً إلى بعدهما عن المنهجِ الصَّحيحِ وهو التَّوسُّط والاعتدال، كما أنَّ في التَّعبير به اختصارًا في الكلام، أي لم يقل: (بين هذين الفعلين الجهر والإخفات)، إذِ الاختصارُ أبلغُ من التطويل بذكرهما.

نكتة إفراد الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أفردَ البيانُ القرآني اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ مع أنَّ المُشار إليه أمران، هُما: عدمُ الجَهْرِ وعدمُ

(1) السُّيوطي، الإكليل، ص: 169.

الإشارةُ إلى المعنى لا المرئي المُشاهَد تقتضي الإفراد

المُخافتة المعلومَيْن من فعلي ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ﴾ و﴿وَلَا تُخَافِتۡ﴾؛ مُراعاةً للمعنى، أي أفردَ اسمَ الإشارة؛ لتأويلِ المشارِ إليه بالمذكور المُتعدِّد، وذلك لأنَّ الجهرَ والإخفات في الصَّوت مِمّا لا يُشاهد، فلا يُشار إلى ذاتهما، ولكن يُشار إلى مضمونِ الكلام، وهو شيءٌ واحدٌ، أيّ مذكورٌ ومقولٌ، ومن هذا قوله تعالى: ﴿عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾ [البقرة: 68].

إيثار لفظ ﴿سَبِيلٗا﴾:

طَريقٌ وسَطٌ بينَ الجَهرِ والمُخافَتةِ يكون للأحبابِ مسموعًا وعن الأجانبِ ممنوعًا

آثرَ البيان القرآني استعمالَ لفظ ﴿سَبِيلٗا﴾ دون غيره من الألفاظ، فلم يقل مَثَلًا: (وابتغ بين ذلك طريقًا)؛ لاتّساع دلالة لفظ ﴿سَبِيلٗا﴾؛ إذ من معاني السَّبيل: الطَّريق الذي فيه سُهولة، وطريق الحَقِّ، ويُستعمل لكلِّ ما يُتوصَّل به إلى المطلوب[1]، والسَّبيل: الطَّريقُ وما وضَحَ مِنْهُ، وسَبيلُ اللّه عامٌّ يَقَعُ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ خالِصٍ سُلك بِهِ طَريقُ التقرُّب إِلى اللّه تَعالَى بأَداء الفَرائِضِ والنَّوافِلِ وأَنواع التّطوُّعات[2]، ويُستعملُ في معنى: (المَخرج، والهدى، والحُجَّة، والسُّنة والطَّريقة، والطّاعة والقربة)[3].

وكذلك لمُناسبةِ هذه المعاني للسّياق؛ إذ إنَّ طَلَبَ قَصْدِ السَّبيل يكون بفعل الابتغاء ﴿وَٱبۡتَغِ﴾ الذي يعني بذل غاية الجهد في طلبِ الشَّيء والتَّحرّي عنه، للوصول إلى المطلوب طاعةً لأمرِ اللّه تعالى وتَقَرُّبًا إليه، وذلك بالخروج من بَيْنِ الجهر والإخفات وصولًا إلى طريقٍ وسطٍ واضحٍ وعلى هدى، وهو أمرٌ يَتوجَّه إليه المُتوجِّهون، ويَؤُمُّه المُقتدون، فيوصلهم إلى المطلوب[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾:

في الآية استعارةٌ تصريحيَّة أصليَّة؛ حيث استعارَ السَّبيل -

(1) الرَّاغب، المُفردات، ص: 396.
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (سبل).
(3) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 264، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 3/ 186.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 200.

الذي معناه الطريقُ وما وضحَ منه[1]، وهو محلُّ المرور - للصَّوتِ الوسطِ بين الجهرِ والمُخافتة؛ بجامعِ أنّ كلًّا منهما أمرٌ يتوجَّه إليه المُتوجِّهون، ويَؤُمُّه المُقتدون فيوصلهم إلى المطلوب، فطوى ذكرَ المُشَبَّه، وصرَّح بذكرِ المُشبَّهِ به؛ ليجيءَ المعنى في صورةٍ واضحةٍ قريبةٍ من الأذهان[2].

تصوير بديع لابتغاءِ الصَّوتِ الوسطِ بالطَّريقِ وما وضَحَ منه

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدُّعاء والنِّداء:

الدُّعاءُ أصله هو أَنْ تُميلَ الشَّيْءَ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ[3]، ومعناه المحوريُّ: جذبُ الشَّيءِ، أو مُحاولةُ ضَمِّه إلى حيِّزٍ أو أمرٍ، كجذبِ النّاس إلى الوليمةِ والاجتماع، والسَّوق إلى الأمير أو إلى كل ذي شأنٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ٢٥﴾ [القصص: 25].

(الدُّعاءُ) لا يكون إلّا مع الاسم ويكونُ برفعِ الصَّوت وخفضِه، أما (النِّداءُ) فيكون مع الاسم وغيره، ولا يكونُ إلّا برَفعِ الصَّوتِ صياحًا

ويأتي الدُّعاءُ بمعنى التَّضرُّعِ إلى الله ﷻ في طلبِ أمر، والرَّغْبَةِ إليه فيما عِنْدَه من الخيْرِ، والابْتِهالِ إِلَيْهِ بالسُّؤالِ، قال تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55].

والدُّعاءُ: العبادة؛ لأنَّ العِبادةَ تَقرّبٌ إلى المعبودِ واعتزاءٌ إليه واستكفاءٌ به، فهي من الجذبِ والانجذابِ، ويأتي بمعنى النِّداء استلفاتًا أو استحضارًا أو استنهاضًا.

والدُّعاء: النِّداء والتَّسمية، يُقال: دعوتُه زيدًا ودعوتُه بزيدٍ إذا سمَّيتُه به[4].

وأمّا النِّداءُ: فأصلهُ يدلُّ على تجمُّعٍ، ومنه النّادي، والنَّديّ:

(1) الزَّبيدي، تاج العروس: (سبل).
(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 16/ 275.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دعو).
(4) الزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (دعو).

المجلسُ يندو القومُ حواليه، ومنه دارُ النَّدوة بمكَّة؛ لأنَّهم كانوا يندون فيها، أي يجتمعون[1]، ونادى فلانًا: دعاه وصاحَ به بأرفع الأصوات.

والنِّداء: رفع الصَّوت صياحًا.

والنِّداء: الظُّهور، ونادَى الشَّيءَ: رَآهُ وعَلِمَهُ، وتأتي بمعنى دعاء الشَّخص ليلتفت أو ليحضر عند المُنادي، والتَّنادي: نداء بعضهم بعضًا[2].

إذن: تتقاربُ معاني الدُّعاء والنِّداء في المعاجم اللُّغوية، وقد يُستعمل كُلٌّ منهما موضعَ الآخر، إلّا أنَّ الفرقَ بينهما هو أنَّ: النِّداء قد يُقال بـ(يا) أو (أيا) ونحو ذلك من غير أنْ يضمَّ إليه الاسم، وأمّا الدُّعاء لا يكادُ يُقال إلّا إذا كان معه الاسم[3]، وأيضًا: النِّداءُ يكونُ برفعِ الصَّوت، في حين الدُّعاءُ يكون برفع الصَّوتِ وخفضه، يُقال: دعوته من بعيد، ودعوتُ اللّه بنفسي، ولا يُقال ناديته في نَفسي[4].

الأسماء والصِّفات:

الاسمُ يدلُّ على الذّاتِ ومُتضمِّنٌ للصِّفة، والصِّفةُ لازمةٌ للذّاتِ

يمكن بيان الفرق بين الأسماء والصِّفات من خلال الرُّجوع إلى الأصلِ اللُّغويِّ وتعريفِ العُلماء لكلٍّ منهما من خلال الآتي:

الأَسْماءُ: جمع اسم، وأصله (سِموٌ) من العُلوِّ؛ لِأَنَّهُ تَنْويهٌ ودَلالَةٌ عَلى المَعْنَى[5]، وهو الَّذي بِهِ رُفِعَ ذِكْر المُسَمّى فيُعْرَفُ بِه، والاسْمُ ما يُعْرَفُ بِهِ ذاتُ الشَّيءِ[6]، وقيل: الاِسْم ما أنبأ عَن المُسَمَّى[7]، والاسمُ (مثل جِذْعٍ وقُفْلٍ) فكأنَّه كلمة تُعبِّر عن صفةٍ جسميَّةٍ لظاهر الشَّيء أو أعلاه تُتَّخَذُ علامةً له[8]، وقيل الاسم: ما دلَّ على معنى

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ندي).
(2) الزَّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (ندى).
(3) الرَّاغب، المُفردات، ص: 315، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 2/ 600.
(4) العسكري، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 38.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سمو).
(6) الرَّاغب، المُفردات، ص: 428.
(7) الكفويُّ، الكليَّات، ص: 83.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سمو).

في نفسه[1]، والاسمُ في أسماء اللّه هو اللّفظ الدّالُّ على الذّاتِ، أو عليها مع صفةٍ من صفاتها، سواء كان مُشتقًّا كالرَّحمان، والرَّحيم، أو مصدرًا كالرَّبِّ والسَّلام[2]، وأسماء اللّه المُشتقَّة كلٌّ منها يدلُّ على ذاتِ اللّه تعالى، وعلى الصِّفة التي اشْتُقّا منها معًا بالمُطابقة، وعلى الذّاتِ وحدها أو الصِّفة وحدها بالتَّضمُّن، ولكلٍّ منها لوازم يدلُّ عليها بالالتزام[3].

والصِّفاتُ: جمع صفة من (وصَفَ)، وأصلهُ هو تَحْلِيَةُ الشَّيْءِ، وصَفْتُهُ وصْفًا: نَعَتُّهُ بِما فيه، والصِّفَةُ: الأَمارَةُ اللّازِمَةُ لِلشَّيْءِ[4]، والصِّفَةُ: كالعِلْمِ والجَهْلِ والسَّوادِ والبياضِ، وقيل الصِّفة الحالةُ التي عليها الشَّيءُ من حِلْيَتِه ونَعْتِه[5].

إذن: الأسماءُ تدلُّ على ذاتِ اللّه تعالى مع صفاتِ الكمالِ القائمة به، في حين أنَّ الصِّفاتِ هي عبارةٌ عن كمالِ النَّعت القائمِ بذاته سبحانه، أي: الاسمُ يدلُّ على أمرين (على الذّاتِ وعلى الصِّفة)، في حين الصِّفاتُ تدلُّ على أمرٍ واحدٍ.

وبالتّالي يمكنُ اشتقاق صفاتٍ من أسماءِ اللّه، ولا يمكن اشتقاق أسماءٍ من صفات اللّه.

الجهر والإعلان:

هُناك تقاربٌ دلالي كبير بين لفظي الجهر والعلن، فكلاهما فيه معنى الظُّهور، ولذا يُعرَّف أحدهما بالآخر في اللُّغة، فمعنى جهر: أعلن، ومعنى الإعلان: المُجاهرة[6]، ومع هذا التَّقارب فقد فرَّق

الإعلانُ ضِدُّ السِّرِّ ولا يقتضي رفع الصَّوت، والجهرُ ظُهورُ الشَّيْءِ بإفراطٍ

(1) الجرجاني، التَّعريفات، ص: 24.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 9/ 116، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 5/ 441.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 1/ 38.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والفيومي، المصباح المنير: (وصف).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وصف)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 5/ 223.
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (جهر)، (علن).

العُلماء بينهما، حيث ذَكَرَ العسكري: "أَنَّ الإعلانَ خلافُ الكتمان؛ وهو إِظْهار المَعْنى للنَّفس ولا يَقْتَضي رفع الصَّوْت بِهِ، والجهرُ يَقْتَضي رفع الصَّوْت بِهِ، ومِنْه يُقال: رجلٌ جَهيرٌ وجَهْوريٌّ إِذا كانَ رفيع الصَّوْت"(1).

وقال الرّاغبُ: العَلانيَةُ: ضِدُّ السِّرِّ، وأكثر ما يُقال ذلك في المعاني دون الأعيان(2)، وأَصْل الجَهْرِ ظُهورُ الشَّيْءِ بإفراطِ حاسَّة البصر، كرأيته جِهارًا، أو حاسَّة السَّمع، نَحْو: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ [طه: 7](3).

الخفوت والخفض والإخفاء:

الخفوتُ خاصٌّ بالصَّوْتِ وهو ضِدُّ الجَهْرِ، والخفضُ ضدُّ الرَّفعِ، والإخفاءُ ضدُّ العَلَنِ

تتقاربُ هذه الألفاظ (الخفوت، الخفض، الإخفاء) في دلالاتها اللُّغويَّة، ويُستعمل أحدها مكان الآخر، ويُعَرَّف أحدها بالآخر، ولكن لكلٍّ من هذه الألفاظ ملامح دلاليَّة تميّزه، وإيضاحُ ذلك من خلال الآتي:

أوّلًا: الخفوتُ: من (خَفَتَ) أصله هو إِسْرارٌ وكِتْمانٌ، فالخَفْتُ: إِسْرارُ النُّطْقِ(4)، والخَفْتُ: ضِدُّ الجَهْرِ، وهو إخفاءُ الصَّوْتِ، وخافَتَ بصَوْتِه: خَفَّضَهُ، والخُفوتُ: ضَعفُ الصَّوت من شدَّة الجوع، والتَّخافُتُ: تكَلُّفُ الخُفوتِ، وهو الضَّعفُ والسُّكونُ وإظهارُه من غير صِحَّة(5)، والرَّجُلُ يُخافِتُ بقراءَته: إذا لم يُبَيِّنْ قراءَتَه بِرَفْعِ الصَّوْت، وخَفَتَ الصَّوْتُ خُفوتًا: سَكَنَ(6).

ثانيًا: والخَفْضُ: ضِدُّ الرَّفع، وخَفَضَ صوتَه: لانَ وسَهُلَ، والخَفْضُ: الدَّعةُ والسُّكون وسَعَةُ العَيْش والمطمئنُّ من الأَرْض، وخَفْضُ الصَّوْت: غضُّه(7).

---

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 287.
(2) الرَّاغب، المُفردات، ص: 582.
(3) الرَّاغب، المُفردات، ص: 208.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خفت).
(5) الزَّبيدي، تاج العروس: (خفت).
(6) الأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصّحاح: (خفت).
(7) الجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والمعجم الوسيط: (خفض).

ثالثًا: والإخفاءُ: السَّترُ والتَّغطيةُ، والخَفاء: ما يُستَرُ به كالغطاء[1]، وأَخْفَيْتُ الشيءَ: سَتَرْتُه وكتمته، وخَفَيْتُه: أَظْهَرْتُه، فهو منَ الأَضداد، وأخفى الصَّوتَ: كَتَمَهُ، ويقولونَ: بَرِحَ الخَفاءُ، أَيْ وضَحَ السِّرُّ وبَدا[2]، ونقيضُ الإخفاء العلانية، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ [إبراهيم: 38][3].

إذن: تفترقُ هذه الألفاظ (الخفوت، الخفض، الإخفاء) في أمور:

رابعًا: الخفوتُ خاصٌّ بالصَّوت، فهو إسرارُ النُّطق، في حين أنَّ الخفضَ والإخفاءَ لا يختصّان بالصَّوت فقط، بل يُطلَقان على الصَّوتِ وعلى غيره.

خامسًا: الخفوتُ ضِدُّ الجهر، والخفضُ ضِدُّ الرَّفع، والإخفاءُ ضدُّ العلن.

سادسًا: يتميَّز لفظُ الخفوت بأنَّ فيه معنى الضَّعف، ويُؤدّي إلى عدمِ التَّبيين.

سابعًا: ويتميَّز لفظُ الخفض بمعنى الدَّعة واللُّيونة والسُّهولة، في حين يتميزُ الإخفاء بمعنى السَّتر والتَّغطية.

الابتغاء والطَّلَبِ:

الابتغاءُ مُجاوزةٌ واجتهادٌ في الطَّلبِ، والطَّلبُ محاولةٌ وفحصٌ عن وجودِ الشَّيءِ وأخذِه

يتقاربُ لفظا (الابتغاء والطَّلب)؛ وذلك لأنَّ أصلَ (طلب) في اللُّغةِ يَدلُّ على ابتغاءِ الشَّيء، وأحدُ معاني أصل الابتغاء هو الطَّلب، ولكن مع هذا التَّقارُب الكبير يوجد ما يتميَّز به كلٌّ منهما عن الآخر، وبيان ذلك أنَّ:

أصلَ (الابتغاء) يدلُّ على الطَّلب، وبَغَيْتُ الشَّيء وابتغيته: طلبته[4]، والابتغاءُ جاء على صيغة الافتعال التي تدلُّ على شِدَّةِ الطَّلب والمُحاولة والتَّحرّي، والاجتهادِ في الطَّلب.

(1) الرَّاغب، المُفردات، ص: 290، والسَّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: 1/ 518.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خفي).
(3) ابن عبَّاد، المُحيط في اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (خفي).
(4) الرَّاغب، المُفردات، ص: 136 - 137.

وأصلُ (طلب) يَدُلُّ على ابتغاءِ الشَّيء[1]، والطَّلَبُ: مُحاولةُ وجدانِ الشَّيء وأخذه[2]، والطَّلَبُ: الفحصُ عن وجودِ الشَّيء عينًا كان أو معنى[3].

إذن: يتميَّز الابتغاءُ بمعنى المُجاوزة والاجتهاد في الطَّلب، ويكون محمودًا ومذمومًا، ويتميَّز الطَّلب بالمُحاولة، والفحص عن وجود الشَّيء وأخذه.

كما أنَّ الفعل من الابتغاءَ يكون من أفعال المُطاوعة، تقول: بَغَيْتُهُ فانْبَغَى[4]، في حين أنَّ الفعل من الطلب لا يكون من أفعالِ المُطاوعة، والفعلُ الذي له مُطاوِعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعولهِ من الذي لا مُطاوِعَ له.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طلب).

(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (طلب).

(3) الرَّاغب، المُفردات، ص: 523.

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بغي).

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾ [الإسراء: 111]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إعلانٌ بالتَّوحيدِ وإفحامٌ للكافرين وتنزيهُ مَن له الأسماء الحُسنى عن كلِّ نقصٍ

في مُناسبةِ هذه الآية لما قبلها أربعةُ أوجه:

الأوّل: لَمّا أمَرَ اللّهُ تعالى ألّا يُذكَرَ ولا يُنادى إلّا بأسمائِه الحُسنى؛ عَلَّمَه كيفيَّةَ التَّحميدِ له سبحانه[1]، بأن يقول: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ لا كما تقول اليهود والنَّصارى، ولا كما يقول المُشركون بأنَّ الملائكة بنات اللّه، تعالى اللّه عن ذلك عُلوًّا كبيرًا[2].

الثّاني: لَمّا أثْبَتَ تعالى لنفسِه الكريمةِ الأسماءَ الحُسْنَى؛ نَزَّهَ نفسَه عن النَّقائصِ، فقال: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾[3].

الثّالث: لَمّا كان النَّهيُ عن الجَهرِ بالدُّعاءِ أو قراءةِ الصَّلاةِ سَدًّا لِذَريعةِ زيادةِ تَصميم الكافِرينَ على الشِّرك؛ أعقَبَ ذلك بأمرِه بإعلانِ التَّوحيدِ؛ لِقَطعِ دابِرِ توهُّم مَن توهَّموا أنَّ (الرَّحمنَ) اسمٌ لِمُسمًّى غيرِ مُسمَّى اسمِ اللّهِ؛ فبَعضُهم توهَّمَه إلهًا شَريكًا، وبَعضُهم توهَّمَه مُعينًا وناصِرًا، فأُمِرَ النَّبيُّ بأن يقولَ ما يَقلَعُ ذلك كُلَّه، وأن يُعَظِّمَه بأنواعٍ مِن التَّعظيم[4].

الرّابع: بعد أنْ رَدَّ القرآنُ على شُبهةِ المُشركين - بأنَّ النَّبيَّ ﷺ يدعو إلهين - بقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أعقبَ ذلك تسجيلًا للرَّدِّ عَلَيهم، كما تقول عند

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 419.
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 315.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 130.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 239.

إفحام الخصم: الحَمدُ للّه عَلَى ظهورِ الحَقِّ وزهوقِ الباطل، فقال سُبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَمْ يَتَّخِذْ﴾: أصلُ الأخذ: حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمعُهُ، قالَ الخَليلُ: هو خِلافُ العَطاءِ، وهو التَّناوُلُ[2]، والإِخذُ بالكسر، الاسمُ، والأمر منه خُذْ، وأصلُه أُؤْخُذْ إلّا أنَّهم استثقلوا الهمزتين فحذفوهما تخفيفًا[3]، وهو من الأضداد: يُقال: أَخذَ الشَّيْءَ عَنْوة، إِذا أَخذه غَصْبًا وغَلَبَة، وأخذه عنوة إذا أَخذه بمحبَّة ورضًا من المأْخوذ منه[4]، وعليه فالاتِّخاذُ في الآية يَصدقُ على أَخْذِ شيءٍ موجودٍ للاستئثارِ به، ويَصدُقُ على تكوينِ شيءٍ للانتفاعِ به، وهو هُنا صالحٌ للمَعْنَيَيْن؛ لأنَّ منهم مَنْ يَعتقدُ تَولُّدَ الولَدِ عَنِ اللّه تعالى، ومنهم مَنْ يَعتقدُ أنَّ اللّه تَبنَّى بعض مَخْلوقاتِه[5].

2) ﴿شَرِيكٌ﴾: أصلُ (شرك) يَدُلُّ على مُقارَنَةٍ وخِلافِ انفرادٍ، والشِّرْكَةُ هي أن يكونَ الشَّيءُ بين اثْنَيْنِ لا يَنفرِدُ به أحدُهُما، يُقالُ: شارَكْتُ فُلانًا في الشَّيءِ، إذا صِرْتَ شَريكَهُ، وأَشْرَكْتُ فُلانًا، إذا جَعَلْتَهُ شَريكًا لَكَ[6]، والشَّريكُ: المُشارِك، يُقالُ: شَرِكْتُهُ في الأَمرِ وشارَكْتُهُ: إذا انْضَمَمتُ إلَيْهِ وخالَطْتُهُ، وصِرْتُ شَريكًا لَهُ[7]، ويُقالُ شَريك وأَشْراك كَما يُقالُ يَتيمٌ وأَيتام ونَصيرٌ وأَنصار[8]، والشِّرك: أَن تجْعَلَ للّه شَريكًا في رُبوبيَّته، تَعالَى اللّه عَنِ الشُّركاءِ والأنداد[9]، والمقصود بالشَّريك في الآية: النَّظيرُ والنِّد في الخَلْقِ والأُلوهيَّة.

3) ﴿ٱلْمُلْكِ﴾: أَصْلُ (ملك) يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ وصِحَّةٍ، يُقالُ: أَملَكَ عَجينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ، ومَلَّكْتُ الشَّيْءَ: قَوَّيْتُهُ، والأَصْلُ هذا، ثُمَّ قيلَ مَلَكَ الإِنسانُ الشَّيءَ يَملكُهُ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 613.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أخذ).
(3) الجوهري، الصِّحاح: (أخذ).
(4) ابن الأنباري، الأضداد، ص: 79.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 229.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرك).
(7) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيومي، المصباح المنير: (شرك).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (شرك).
(9) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (شرك).

مَلْكًا، والاسمُ المِلْكُ؛ لأنَّ يَدَهُ فيهِ قويَّةٌ صَحيحَةٌ[1]، والمُلْك: نَوْعٌ مِنَ المِلْك - بِكَسْرِ الميم -، فالمِلْكُ جِنْسٌ والمُلْكُ - بالضَّمِّ - نَوْعٌ مِنْهُ وهو أَعْلَى أَنْواعِه، ومَعْناهُ التَّصَرُّفُ في جَماعَةٍ عَظيمَةٍ، أَوْ أُمَّةٍ عَديدَةٍ تَصَرُّفَ التَّدْبير للشُّؤون، وإقامَة الحُقوق، ورِعايَة المَصالِح، ودَفْع العُدْوانِ عَنْها، وتَوْجيهها إلَى ما فيهِ خَيْرُها، بالرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ[2]، والمُرادُ بـ﴿ٱلْمُلْكِ﴾ في الآية: الحقُّ الدّائم للّٰه تعالى.

4) ﴿وَلِيٌّ﴾: أَصْلُ (ولي) يَدُلُّ على قُرْبٍ، ومِنْ ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ وَلْيٍ، أَي: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمّا يَليني، أَي: يُقارِبُني[3]، والوِلايَةُ: تَولّي الأمرِ، فإذا عُدّي (تَولَّى) بنفسِه اقتَضَى معنَى الوِلايَةِ والنُّصرة، وحُصولِه في أَقْرَبِ المواضِع، وإذا عُدّي بـ(عَنْ) لفظًا أو تقديرًا اقتَضَى معنَى الإعراضِ وتَرْكِ قُربه، فمِنَ الأوَّل قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51]، ومِنَ الثّاني قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران: 63][4]، والمقصودُ بالوليِّ في الآيةِ: النّاصر، والمُرادُ: نَفيُ النّاصِرِ لَهُ عَلَى وجْهٍ مُؤَكَّدٍ، ويَجوزُ تَضْمينُ (الوليِّ) مَعْنَى (المانِع) فَتَكونُ (مِنْ) لِتَعْدِيَةِ الاسْمِ المُضَمَّنِ مَعْناهُ[5].

5) ﴿ٱلذُّلِّ﴾: الذُّلُّ والذِّلَّةُ: مَصْدَرُ الذَّليل، ذَلَّ يَذِلُّ، وأَصْلُه: الضَّعْفُ، والهَوانُ، والاسْتِكانَة[6]، يُقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا وذِلَّةً وذَلالَةً ومَذَلَّةً: إذا ضَعُفَ وهانَ، فهو ذَليلٌ[7]، والجَمعُ: أَذِلَّةٌ، وضِدُّ الذُّلِّ: العِزُّ والقوَّةُ، ويُطْلَقُ على التَّذَلُّلِ، فَيُقال: ذَلَّ وتَذَلَّلَ، أي: هانَ، وضِدُّهُ: الصُّعوبَةُ، يُقال: ذَلَّ الشَّيْءُ، أَيْ: سَهُلَ ولانَ[8]، والذَّلولُ: السَّهْلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[9]، ويأْتي بِمعنى الخُضوعِ والانْقيادِ، وتَذَلَّلَ له، أَيْ: خَضَعَ[10]، والمقصود بـ﴿ٱلذُّلِّ﴾: العَجْزُ والافْتِقارُ، أَيْ: لَيْسَ لَهُ ناصِرٌ مِنْ أَجْلِ الذُّلِّ[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهري، الصّحاح: (ملك).
(2) الرّاغب، المُفردات: (ملك)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 213.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ولي).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 102.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 239.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذلَّ).
(7) ابن سيده، المحكم: (ذلَّ).
(8) الزَّبيدي، تاج العروس: (ذلل).
(9) اللَّخمي، شرح الفصيح، ص: 110.
(10) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (سكن).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 239.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

كَمالُ غِنَى اللهِ ﷻ عـن كـلِّ أحـدٍ، وانفرادُه بالمُلْكِ، وتَمامُ عِزَّتِه وسُلطانِه

أمرَ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يحمده ويُكَبِّره، فإنَّه لا يوجد من يستحقُّ الحمد والتَّكبير غيره، فكأنَّ البيان القرآني يقول: (وقُلْ - يا مُحَمَّدُ ﷺ - : إنَّ الثَّناءَ الجَميلَ هو للّه المتَّصِفِ بالكَمالِ، المُنَزَّهِ عن النَّقائِصِ، الَّذي لم يَجعَلْ له ولدًا، ولا يوجَدُ أحدٌ يُشارِكُه في مُلكِه وسُلطانِه، ولا يوجَدُ للّه وليٌّ يُناصِرُه ويُدافِعُ عنه، ويتعزَّزُ به، ويُعاوِنُه من أجْلِ ذلٍّ فيه أو عَجزٍ أو افتقارٍ ﷻ بل هو الغَنيُّ ذو العِزَّةِ والكِبرياءِ، وكُلُّ شَيءٍ خاضِعٌ له، وتَحتَ قَهرِه وقُدرتِه، ولا يكونُ إلهًا يُطاعُ ويُعبَدُ، مَن كان ذليلًا مَهينًا مُحتاجًا إلى وليٍّ، وعَظِّم - يا مُحَمَّدُ ﷺ - ربَّكَ تَعظيمًا تامًّا شَديدًا، فلا تَعبُدْ غيرَه، وأطِعْ أمرَه، واجتَنِبْ نَهْيَه، وأخبِرْ عنه بأوصافِه الحُسنى، وأفعالِه العَظيمةِ، ونزِّهْه عن كلِّ آفَةٍ ونَقصٍ)[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

العَطْفُ يُتَوِّجُ تنزيهَ اللهِ عن الشِّركِ بإعلانِ الحمدِ لأعظمِ مُستَحِقٍ له سُبحانه

دلالة الواو في قوله ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾، وكلاهما خِطابٌ إرشاديٌّ من اللّه لرسوله، وللأمَّة من خلاله، مع تنوُّعِ مضمون هذا الخِطاب؛ فالأوَّل أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ بأنْ يُبيِّن للكافرين التَّسويةَ بين تسميةِ اللّه بالاسم الجليل، وتسميتُه باسم الرَّحمان، وأنّ تعدّدَ الاسم لا يعني تعدُّد المُسمَّى، والثّاني: أمرٌ له بالحمدِ على وحدانيته وتَنزُّههِ عن كلِّ نقصٍ بما يَقطعُ دابرَ كُلِّ من توهّمَ الشِّرْكَ.

فائدة الأمر بلفظ ﴿وَقُلِ﴾ والعُدول عن الأمر بالحمد مُباشرة:

عبَّر البيان الإلهيُّ عن الأمر في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 138، والقُرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 345، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 130، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 468.

الدّلالة على ثباتِ الحمدِ وأهميّته، والإعلانُ به

بلفظ ﴿وَقُلِ﴾، وعدَلَ عن الأمر بالحمدِ مُباشرة، فلم يقل: (واحمد اللّه)؛ لأمور:

الأوَّل: أنَّ التَّعبيرَ بقوله (واحمد اللّه) يُفوِّت ما تدلُّ عليه الجُملةُ الاسميَّة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ من ثباتِ الحمدِ للّه ودوامه.

الثّاني: التَّعبيرُ عن الأمر بالحمد بلفظ ﴿وَقُلِ﴾ أكثرُ مُناسبةً للمعنى اللُّغويِّ للفظ الحمد؛ إذ هو الثَّناءُ بجميلِ الأوصافِ، ولا يكونُ إلّا باللِّسان[1].

الثّالث: مُناسبةُ السّياق للتَّعبير بلفظ ﴿وَقُلِ﴾؛ لأنَّه جاءَ تسجيلًا للرَّدِّ عَلَيهم بعد إبطالِ شُبهتهم بأنَّ النَّبيَّ يدعو إلهين ﴿ٱللَّهَ﴾ و﴿ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾، كما تقول عند إفحامِ الخصمِ: الحَمدُ للّه عَلَى ظهورِ الحقّ وزهوقِ الباطل[2].

الرّابع: فيه كذلك دلالةٌ على الاهتمامِ بالمقول؛ لأنَّ أصلَ الأمرِ بالقول في مقام التَّصدّي للتَّبليغ دالٌّ على الاهتمام، وهذا لا يَظهرُ فيما لو كان اللَّفظُ (واحمد اللّه).

الخامس: يحتمل أنْ يكون الأمر ﴿وَقُلِ﴾ خِطابًا للجميع، فيكون أمرًا لكلِّ واحدٍ بأنْ يقول ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾[3]، بما يدلُّ على أسلوبٍ حواريٍّ استدلاليٍّ في إقامةِ الحُجَّة على المُشركين.

نوع (أل) في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

الكاملُ الذّاتِ المنفردُ بالإيجادِ المستحقُّ لكلِّ الحمد

(أل) التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ استغراقيَّة[4]، فهو سُبحانه يستحقُّ كلَّ حمدٍ؛ لأنَّه الكاملُ الذّاتِ المُنفردُ بالإيجاد، والسَّببُ في أنْ يُجعل التَّعريف في الحمدِ للاستغراق لا للجنسِ أنَّ موجبَه مُستغرقٌ للمراتبِ كلِّها[5].

(1) السَّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: 1/ 450.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 613.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 339.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 616.
(5) الطِّيبي، فتوح الغيب: 9/ 400.

شمولُ نِعَمِ اللهِ تعالى وعظيمُ صفاتِه البالغةِ أعلى درجاتِ الكمالِ تستوجبُ الحمد

إيثار لفظ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ دون غيره:

عبَّر البيانُ القُرآني بمُفردة ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ دون الشُّكر، رغم أنَّ بَيْنَ لَفْظَيِ الحمد والشُّكر تقاربٌ دلاليٌّ؛ إذ يشتركان في معنى عام وهو الثَّناء الجميل؛ وذلك لأمرين:

الأوَّل: لاتِّساع دلالةِ الحمد؛ إذ الشُّكْرُ يختصُّ بما كان في مُقابلِ نعمةٍ مُسداةٍ، والحمدُ أعمُّ من ذلك، فقد يكون في مُقابلِ النِّعمة وغيرها، فله الحمدُ ﷻ على كُلِّ حالٍ على السَّراء والضَّراء والعطاء والمنع، وله الحمد على كُلِّ أقداره وعلى كُلِّ شرائعه، كما أنَّ الحمدَ عبارةٌ عن تعظيمِ الفاعلِ لأجلِ ما صدرَ عنه من الإنعام، سواء أكان ذلك الإنعامُ واصلًا إليك أم إلى غيرك، وأمّا الشُّكرُ فهو عبارةٌ عن تعظيمه لأجلِ إنعام وصلَ إليك[1].

وبناءً على ذلك فكلُّ شُكْرٍ حمدٌ، وليس كلُّ حمدٍ شكرًا[2]، فالحمدُ مُتضمِّن للشُّكر.

الثّاني: لمُناسبته للسّياق؛ إذ سُبِقَ بلفظ الأمر ﴿وَقُلِ﴾، ومعلوم أنَّ الحمدَ في اللُّغة لا يكون إلا باللِّسان، بخلافِ الشُّكْرِ، فإنَّه يكون باللِّسان والجوارح والجَنان[3]، كما أنَّ الحمدَ في اللُّغة يكون كذلك على صفةٍ في المحمود قاصرةٍ عليه[4]، وهذا يُناسبُ ما اختصَّ اللّهُ به في الآية من صفاتٍ ليس لغيره سُبحانه، وهو أنَّه لم يتخذْ ولدًا، ولم يكنْ له شريكٌ في المُلك، ولم يكنْ له وليٌّ من الذُّلِّ سُبحانه.

اختصاصُ الحَمدِ بالله لأنَّه أَعظَمُ مُستَحِقٍّ لأَنْ يُحْمَدَ

معنى اللّام في ﴿لِلَّهِ﴾ ومتعلَّق الجارِّ والمجرور:

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ للاختصاص، تفيدُ تخصيصه تعالى بالحمد، أي بقَصْرِ جنْس الحمدِ عليه تعالى؛

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/ 19.
(2) الرَّاغب، المُفردات، ص: 256، والسَّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: 1/ 450.
(3) السَّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: 1/ 450.
(4) الرَّاغب، المُفردات، ص: 256، والسَّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: 1/ 450.

لأنّه أَعظَمُ مُسْتَحِقٍّ لأَنْ يُحْمدَ، فالتَّخصيصُ ادِّعائيٌّ، وذلك بادِّعاء أنَّ دواعي حَمدِ غَيْرِ اللّه تعالى في جانبِ دواعي حمدِ اللّه بمنزلة العدم[1]، والجارُّ والمجرور مُتعلّقان بخبرٍ محذوف تقديره: الحمدُ ثابتٌ للّه.

دلالة الجملة الاسميّة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

الـثَّـبـاتُ على الـحـمـدِ لـلّـهِ يحقّقُ للمؤمنين مـقـامَ الـولاءِ لـلّـه وإخـلاصَ الـعـبـادةِ والعبوديَّة له

تدلُّ الجملةُ الاسميّةُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ثبوتِ الحمدِ للّه واستقراره أزلًا وأبدًا، فهي ليستْ محدودةً بزمنٍ، بل هي مُطلقةٌ من الزَّمان، والمعنى: الحمدُ للّه ثابتٌ في كلِّ حينٍ، وعلى كلِّ حالٍ، وفي هذا تعليمٌ للمُؤمنين أنْ يُداوموا على حمدهم وثنائهم للّه على المِنَّة الكُبرى بأنَّه سُبحانه بلغَ أعلى درجاتِ الكمال؛ إذ لم يتَّخِذ ولدًا، ولم يكنْ له شريكٌ في المُلك، ولم يكنْ له وليٌّ من الذُّلِّ، بما يحقّقُ لهم مقامَ الولاءِ للّه وإخلاصَ العبادةِ والعُبوديَّة له.

سِرُّ الوصف باسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

الـوصـفُ بـالـموصـولـيَّـةِ إيـذانٌ بعليَّةِ اسـتـحـقـاقـهِ سُبحانه للحمد

وصفَ البيانُ القرآنيُّ الاسم الجليل ﴿لِلَّهِ﴾ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ بهذه الصِّفاتِ الجليلة؛ إيذانًا بعلَّة استحقّاقه للحمد، فمَنْ كانتْ هذه نعوتُه كان مُستحقًّا للحمد دون غيره؛ إذ بهذه الصِّفاتِ يتمُّ الكمالُ والقُدرةُ التّامَّةُ على الإيجاد، وما يتفرَّع عليه من إفاضةِ أنواعِ النِّعم، وما عداه سُبحانه ناقصٌ مملوكٌ أو مُنعَّمٌ عليه[2].

دلالة صِلَةِ الموصول ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾:

مَـنْ يَـقْـدر على كـمـالِ الإنـعـامِ يستحقُّ كمالَ الحمدِ

رَتَّبَ البيانُ القرآني استحقاقَ الحَمدِ على اتِّصافه بهذه الصِّفات الجليلة في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾؛ تنبيهًا بمضمونها، وإشعارًا بعليَّةِ ما في حيِّزِ الصِّلةِ لاستحقاقِ الحمدِ[3]؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 239.

(2) أبو السُّعود إرشاد العقل السَّليم: 5/ 201، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 315.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 202، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 246.

لأنَّ تَرَتُّبَ الحُكم عَلى الوصف المُناسب يُشْعِرُ بالعليَّة، أي استحقَ سُبحانه الحمد؛ لأنَّهُ اتَّصف بصفاتِ التَّنزيه والجلال والكمال، ومنها أنَّه لم يتخذْ ولدًا؛ لأنَّه لو كان بعض المخلوقات ابنًا للّه تعالى لاستغنى عن رحمته؛ لأنَّه يكون بالبنوَّة مُساويًا له في الإلهيَّة المقتضية الغنى المُطلق، ولأنَّ اتِّخاذ الابن يتطلَّبُ به متَّخِذُه برَّ الابن به ورحمته له، وذلك يُنافي كونَ اللّهِ مُفيضَ كلِّ رحمة[1]، ولأنَّ الولدَ هو الشَّيء المتولَّدُ من جزءٍ من أجزاءِ ذلك الشَّيءِ، فكلُّ من له ولدٌ فهو مركَّب من الأجزاء، والمركَّب مُحدَث، والمحدَثُ مُحتاجٌ، والمُحتاجُ لا يقدرُ على كمالِ الإنعام فلا يستحقُّ كمالَ الحمد، كما أنَّ كلَّ من له ولد فإنَّه يُمسك جميعَ النِّعمِ لولده، كما أنَّ الولدَ هو الذي يقومُ مقامَ الوالدِ بعد انقضائه وفنائه، فلو كان له ولدٌ لكان منقضيًا، ومن كان كذلك لم يقدرْ على كمالِ الإنعام في كُلِّ الأوقات، فوجبَ أنْ لا يستحقَّ الحمدَ على الإطلاق[2].

سرُّ تقديم جُملة ﴿لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ على ما بعدها:

في تقديمِ نفيِ اتخاذِ الولدِ عن الله ارْتِقاءٌ في التَّنزيهِ مِن الأدنَى إلَى الأَعلَى

قدَّم البيانُ القرآنيُّ جُملة ﴿لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ على ما بعدها ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ﴾؛ لأنَّ المانعَ من إيتاءِ النِّعم إمّا فوقَه ﷻ، أو دونَه، أو مثلَه ﷻ، فبُنِيَ الكلامُ على التَّرقّي، وبُدِئَ من الأَدْونِ، وخُتم بالأعلى[3]، فنَفى أوَّلًا الولدَ خُصوصًا، ثمَّ نَفى الشَّريكَ في مُلْكِه، وهو أعمُّ من أنْ يُنْسَبَ إليه ولدٌ فيَشْرَكَه أو يَشْرَكَ غيرَه، ولمّا نَفى الولدَ ونَفى الشَّريكَ نَفى الوليَّ وهو النّاصرُ، وهو أعمُّ من أنْ يكونَ ولدًا أو شريكًا أو غيرَ شريكٍ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 173، والقاسمي، محاسن التّأويل: 6/ 523.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 419، والخطيب، تفسير القرآن بالقرآن: 8/ 576.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 184.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 7/ 128.

نُكتة استعمال الفعل ﴿لَمۡ يَتَّخِذۡ﴾ والعدول عن قوله (لم يلدْ):

نفيُ اتخاذِ الولدِ أشملُ في الدّلالة على المقصودِ وأنسبُ للحالِ والسّياق

استعملَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿لَمۡ يَتَّخِذۡ﴾ وعَدَلَ عن قولِه: (لم يلدْ)؛ لأمور:

الأوَّل: لأنَّه أشملُ في الدِّلالة على المقصود؛ إذ إنَّ نفيَ اتِّخاذِ الولد ظاهرٌ في نفيِ التَّبنّي، ويُعْلَمُ منه نفيُ أنْ يكونَ له سُبحانه ولدٌ لصُلْبٍ مِنْ بابٍ أولى، وقد نفى ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ [الإخلاص: 3][1]، بخلاف ما لو عَبَّر هُنا بقوله (لم يلد) فإنَّه يقتصرُ على ولَدِ الصُلْبِ فقط.

الثّاني: لأنَّه أنسبُ لحالِ النَّصارى؛ إذ هم فريقان: منهم من قال: عيسى ولدُ اللّه حقيقةً، ومنهم من قال: إنَّ اللّه اتّخذَه ولدًا تشريفًا له، كما اتَّخذ إبراهيم خليلًا تشريفًا له[2].

الثّالث: لأنَّه أنسبُ للسّياق الذي يدلُّ على التَّنزيه المُطلق للّه من أيِّ نقصٍ أو حاجةٍ لأحدٍ أو نصيرٍ، ومن ثَمّ فإنَّ التَّعبير بقوله ﴿لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ أنسبُ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يتَّخذ ولدًا ليكون ناصرًا ومُعينًا له على الأمر المطلوب، أو للعِزّة والمُكاثرة والتَّقوّي به من ضعفٍ، أو ليكونَ الولدُ ذِكْرى وامتدادًا لأبيه بعد موته، أي إنَّ اتخاذَ الولد إنَّما يكون للحاجة، ولذلك قال في سورة أخرى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 68][3].

دلالة نفي المُضارع ﴿لَمۡ يَتَّخِذۡ﴾ والعدول عن (ما اتَّخَذَ):

التَّعبيرُ في نفي اتخاذه الولدَ سُبحانه تفنّنًا في الأسلوب وتناسقًا مع السّياق

عبَّرَ البيانُ القُرآنيُّ عن نَفْي اتِّخاذ اللّه الولدَ بصيغةِ المُضارع المَنْفيِّ في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾؛ تنوعًا وتفنّنًا في الأسلوب؛ فإنَّ استقراءَ القُرآن العظيم يدلُّ على أنَّ اللّهَ نفَى اتخاذه الولد بعدَّة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 184.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 364.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 364.

أساليب؛ فقدْ ذكره بأسلوبِ افتراضِ المُستحيل؛ ليُبيِّنَ الحقَّ بفرضِه؛ إذ علَّقه أولًا بالأداةِ التي تَدُلُّ على عدم وجودِه ﴿لَّوۡ﴾ [الزمر: 4]، قال تعالى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الزمر: 4]، ونفاهُ بصيغةِ الماضي فقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾ [المؤمنون: 91]، ونفاهُ هُنا في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ بصيغة المُضارعِ المَسبوق بـ(لم)، ومن خصائصها أنَّها تنقل المُضارع إلى معنى الماضي.

وكذلك فإنّ التّعبير عن نَفْي اتِّخاذ اللّه الولدَ بصيغةِ المُضارع المَنْفيِّ هو المناسب للسّياق؛ فقد وردتْ الأفعالُ المَنفيَّة كُلُّها في الآية بصيغة المُضارع ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ﴾ و﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ﴾.

سِرُّ تنكير ﴿وَلَدٗا﴾:

التَّنكيرُ دلالةٌ على عُمومِ نفيِ الولدِ عن الله سُبحانه

نكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿وَلَدٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾، للدَّلالة على نفيِ جِنْسِ الولد، وشمول جميعِ الأفرادِ بالنَّفي؛ لأنَّ النَّكِرة في سياق النَّفي تُفيدُ الشُّمول، فهو سُبحانه لم يتّخذْ أيَّ ولدٍ سواء بالتَّبنّي أو بالنَّسب، وسواء كان ذكرًا أم أنثى؛ لأنَّ ذلك لا يكون إلّا للحاجةِ وبالحاجةِ؛ وهي من أسوأ الأوصافِ، تعالى اللّهُ عن ذلك علوًا كبيرًا.

فائدة عطف جُملة ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ على ما قبلها:

من تَنَزُّه عن الولدِ والشَّريكِ كان مُستوجبًا لأعظمِ أنواعِ الحمد

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ على قوله: ﴿لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ لأنَّها الصِّفةُ الثّانيةُ التي تشتركُ مع الصِّفةِ السّابقةِ المعطوفةِ عليها في بيانِ سببِ استحقاقِ الحمد للّه؛ إذْ لو جازَ أنْ يكونَ له شريكٌ لم يُعرف حينئذ أنَّ هذه النِّعم والمنافع حصلتْ منه أو من شريكه، فلا يُعرف المُستحقُّ للحمد والشُّكر(1).

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 8/ 184.

ولأنَّ الشَّرِكة موجبةٌ للتَّنازع بين الشَّريكين، ومُؤدّيةٌ إلى الفساد، إذ قد يمنع أحد الشَّريكين شريكه الآخر من إفاضةِ الخيرِ إلى أوليائه، قال تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22][1].

بلاغة دخول النَّفي على الفعل ﴿يَكُن﴾:

نفيُ الشَّريكِ عن الله سُبحانه ثابتٌ ومؤكّدٌ ومُستمرٌّ في كلِّ الأزمنة

دخولُ حرف الجزم والنَّفي (لم) على فعلِ الكون المضارع ﴿يَكُن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ نقلَ الفعلَ المُضارع إلى معنى النَّفيِ في الزَّمن الماضي، وأفادَ تأكيدَ ثباتِ نفي الشَّريكِ عنه سُبحانه على الدَّوام والاستمرار؛ لأنَّه دخلَ على جملةٍ اسميَّة، ويترتّبُ على ذلك أنْ يكون نفيُ الشَّريكِ عن اللّه في الماضي والحاضر والمُستقبل، أي في كُلِّ الأوقات.

تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَّهُۥ﴾ على ﴿شَرِيكٌ﴾:

في التَّقديمِ اهتمامٌ بذكره سُبحانه وقصْرُ نفيِ الشَّراكة عنه

قدَّم البيانُ القرآنيُ المُسنَدَ ﴿لَّهُۥ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿شَرِيكٌ﴾ في قولِه: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾، ولم يقل: (ولم يكن شريكٌ كائنًا له)؛ لأمور، منها: الاهتمامُ بذكرِه سُبحانَه، وللتَّشويقِ إلى ذكرِ المُسْنَدِ إليه.

ومنها: إفادةُ القصْر، والمعنى: نفيُ الشَّراكةِ مقصورٌ على اللّه لا يَتخطَّى إلى غيرِه، فهو من قصرِ الموصوفِ على الصِّفة[2]؛ لأنَّ الشَّرِكة في الملكِ إنّما تُتصوّر لمنْ لا يَقْدِرُ على الاستقلالِ به، ومن لا يقدرُ على الاستقلالِ عاجزٌ فضلًا عن تمامِ ما هو له، فضلًا عن نظامِ ما هو عليه، وهذا حالُ المخلوقِ لا الخالق سُبحانه[3].

دلالة التَّنكير في ﴿شَرِيكٌ﴾:

لا يكونُ إلهًا من لم ينفردْ بالملكِ والسُّلطانِ

نكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿شَرِيكٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾؛ لأمرين:

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 315.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/ 241.
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 315.

الأوّل: الدِّلالة على نفيِ جِنْسِ الشَّريك وشمولِ جميعِ الأفراد بالنَّفي؛ لأنَّ النَّكرة في سياق النَّفي تفيدُ الشُّمول، والمعنى: لم يوجد بوجهٍ من الوجوه له شريكٌ في الملك، ولا ولدٌ ولا غيره، لأنَّ ذلك لا يكون إلّا من عجز[1]، ولا يكون إلهًا من يكون مُحتاجًا إلى معينٍ على ما حاول، ولم يكن مُنفردًا بالمُلك والسُّلطان[2].

الثّاني: التَّقليلُ والتَّحقيرُ، والمعنى: لم يكن له شريكٌ في الملكِ مهما كانت شَراكتُه قليلةً، أي نفيُ أدنى شراكةٍ له، وانتفاءُ الشَّيءِ القليلِ يقتضي انتفاءَ الشَّيءِ الكثير بطريقِ الأولى.

فائدة قيد الجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلْمُلْكِ﴾:

نفيُ الشَّراكةِ في المُلكِ عن اللهِ هو نفيٌ لما دونها

قيَّد البيانُ القرآنيُّ عدمَ وجود الشَّريك بالجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلْمُلْكِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ مع أنَّه لا شريكَ له مطلقًا، لا في الملك، ولا في التَّدبير، ولا في الوجود، ولا في الإمكان، ولا في غير ذلك من أنحاء الشَّركة؛ وذلك مُراعاةً لأكملِ وجوهِ الشَّراكة المتحقِّقة واقعًا، وهي الشَّراكة في المُلك، أو لأنَّ الملكَ يشملها جميعًا؛ فالشَّريكُ في المُلك هو شريكٌ في التَّدبيرِ والتَّصرّف وغير ذلك، وأمّا الشَّراكةُ في غير المُلك فلا تستدعي وجود الشَّراكة في المُلك، أو لأنَّ الشَّراكة في المُلك تمثيلٌ من واقع النَّاس بما يكون أدلَّ على المقصود من تنزيهِ اللّهِ عن الشَّريك، وذلك أنَّ الشَّراكةَ في المُلْكِ أكثرُ ما يُؤدّي إلى التَّنازع؛ لعلاقته بالسُّلطةِ والمالِ الذي فُطِرَ النّاس على حُبِّهما.

سِرُّ العطف في قوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾:

فــي الـعـطـفِ تكتملُ أوصافُ تنزيهِ اللهِ عن النَّقص والعجزِ

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ على قوله تعالى: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾؛ لأنَّها الصِّفة الثّالثة التي تشترك مع الصِّفتَيْنِ السّابقتين المعطوفة

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 540.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 589.

عليهما في بيانِ سببِ استحقاقِه سُبحانه للحمد؛ إذ لو جاز عليه وليٌّ يلي أمره لم يجبْ شُكره؛ لتجويز أنَّ غيره حمله على ذلك الإنعام، أو منعه منه، أمّا إذا كان منزّهًا عن الولد وعن الشَّريك وكان مُنزَّهًا عن أنْ يكون له وليٌّ يلي أمره كان مُستوجِبًا لأعظمِ أنواعِ الحمد، ومُستحقًا لأَجَلِّ أقسام الشُّكر[1]، فبهذا العطفِ اكتملتْ أوصافُ تنزيهِ اللِّه سبحانه عن أيِّ نقصٍ أو عجز.

معنى ﴿وَلِيٌّ﴾ وفائدة تنكيره:

تعدَّدت معاني لفظِ ﴿وَلِيٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ بما يدلُّ على عظيمِ تنزيهه ﷻ، فشملتْ معنى: (النّاصر، مِنْ والاهُ إذا نَصَرَهُ[2]، ومعنى القريب؛ لأنَّ أصلَ (ولي) يدلّ على قرب[3]، ومعنى الحليف والمانع؛ لأنَّ الوليَّ لقُربه فهو في الغالب يُحِبُّ وليّه فينصره ويمنعه).

تـعـدّدُ معاني لـفـظِ (ولـيّ) وعـمـومـهـا مُبالغةٌ في تنزيهِ الـلـهِ عـن أيِّ نقصٍ

وقد نكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿وَلِيٌّ﴾؛ لإفادةِ نفي أيّ ولي للّه بما يحمله من معانٍ سبقَ ذكرها؛ لأنَّ النّكرة في سياقِ النَّفي تفيدُ الشمول، والمعنى: لم يكن له أيّ ناصرٍ أو قريبٍ أو حليفٍ أو مانعٍ لاعتزازه تعالى بنفسه، وعدمِ حاجته للمولاة والنُّصرة، أو لم يوالِ أحدًا من أجلِ مَذَلَّةٍ به، ليدفعَها بموالاته[4].

دلالة ﴿مِّنَ﴾ في قوله ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قَوْلِه: ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ تحتملُ أن تكون بمعنى لام التَّعْليل، والمعنى: (لَيْسَ لَهُ ناصِرٌ مِنْ أَجْلِ الذُّلِّ)، والمُرادُ: نَفيُ النّاصرِ لهُ عَلَى وجهٍ مُؤَكَّدٍ، فَإِنَّ الحاجَةَ إِلَى النّاصرِ لا تكونُ إِلّا مِنَ العَجزِ عَنِ الانتِصارِ لِلنَّفسِ.

(مِـنْ) تعليلٌ لنفيِ النّاصرِ لله عَلَى وجهٍ مُؤَكَّدٍ فـهـو الـعـزيـز سُبحانه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 420.
(2) الجوهري، الصِّحاح، والزَّبيدي، تاج العروس: (ولي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ولي).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 184، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 6/ 523.

وتحتملُ أن تكون لتَعديَةِ الاسمِ المُضَمَّنِ معناهُ، وذلك على تضمين ﴿وَلِيٌّ﴾ معنَى (المانِع)[1].

فائدة قيد الجارّ والمجرور ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾:

قيّدَ البيانُ القرآنيُّ عدمَ اتّخاذه سُبحانه وليًا في قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ بالجارِّ والمجرور ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾؛ ليُبيِّن أنَّه سُبحانه لم يتخذْ وليًّا لأجل ذُلٍّ أو لنقص أو سَدِّ خُلةٍ[2]، وإنَّما اتَّخذ أولياءَ لإيمانهم وصلاحهم وطاعتهم وحبِّهم للّه تعالى، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257]، أي لا لطلبِ العِزّة والنُّصرة والقوَّة، فإنَّه القويُّ العزيز؛ ذلك أنّ اتِّخاذ الوليِّ قد يكونُ للانتصارِ والاعتزازِ به والاحتماءِ من الذُّلِّ، وقد يكونُ للتَّفضُّلِ والرَّحمة لمَن والَى من صالحي عِبادِه[3]، فهو سُبحانه لا يوالي من يواليه من الذُّل، كما يوالي المخلوقُ المخلوقَ، وإنَّما يوالي أولياءَه إحسانًا ورحمةً ومحبَّة لهم، ليتعزَّزوا هم بذلك ويكونوا عظماء[4].

لـه العـزَّةُ والكبرياءُ فلم يتخذْ وليًّا لأجلِ ذُلٍّ وإنَّما لأجلِ تَفضُّلٍ ورحمةٍ لمَن أحبَّه

إيثار لفظ ﴿ٱلذُّلِّ﴾ دون غيره:

آثر البيانُ الإلهيُّ استعمالَ لفظ ﴿ٱلذُّلِّ﴾ في قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ دون غيره من الألفاظ كالضَّعَةِ والهَوانُ والضَّعف والخضوع؛ وذلك لاتّساع دلالة لفظ ﴿ٱلذُّلِّ﴾؛ إذ تشملُ المعاني المذكورة وزيادة، فهي تدلُّ في أصلِ معناها على الضَّعْف، والهَوانِ، والاِسْتِكانَة[5]، والذّلُ ما كان عن قَهْرٍ[6]، كما أنَّه ضِدُّ العِزِّ والقوَّة[7]، ومن معانيها القِلَّة والتَّواضع والخضوع[8].

نفيُ كُلِّ معاني (الذُّل) أبلغُ في تقريرِ كمالِ تنزيهِ اللهِ سُبحانه

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 239.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 345.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط في التَّفسير: 7/ 128.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنة: 7/ 131.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذلّ).
(6) الرَّاغب، المُفردات، ص: 330.
(7) الزَّبيدي، تاج العروس: (ذلل).
(8) ابن الجوزي، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 300.

وشمولُ هذا اللَّفظ لهذه المعاني كلّها يُناسبُ السّياق الذي يقرّرُ كمالَ التَّنزيه للّه ﷻ.

دلالة الواو في قوله ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾:

تَنَزُّهُه سبحانه عن اتّخاذِ الولدِ والشَّريك والذُلِّ يستوجبُ تكبيره وتعظيمه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وقد جاء العطفُ لدلالةِ ما تقدَّم في المعطوف عليه على أنَّه تعالى هو الكاملُ وما عداه ناقص، ولذا استحقَّ التَّكبير[1]، ويكون المعنى: أنَّ التَّحميدَ يجبُ أنْ يكون مقرونًا بالتَّكبير[2]، ولذلك عطفَ عليه قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾، أي: وعظِّمه تعظيمًا على نفيِ اتِّخاذِ الولدِ والشَّريكِ ووليِ الذُّل وكلِّ ما لا يليق به.

إيثار صيغة الأمر ﴿وَكَبِّرۡهُ﴾ والعدول عن عبارة (قل الله أكبر):

تكبيرُه سُبحانه لا تَسَعُهُ العبارةُ ولا تفي به القوَّةُ البشريّة

بعدما تقدَّم من ذِكْرِ صفاتٍ للّه تقتضي التَّكبير آثرَ البيانُ القرآنيُّ في صيغة الأمر لَفْظَ ﴿وَكَبِّرۡهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾، وعَدَلَ عن عبارة (قل اللّه أكبر)؛ إشارةً إلى أنَّ تكبيره ﷻ مِمّا لا تسعهُ العبارة، ولا تفي به القوَّة البشريَّة، وإنْ بالغَ العبدُ في التَّنزيهِ والتَّمجيدِ، واجتهدَ في العبادةِ والتَّحميد، فلم يبقَ إلّا الوقوف بأقدام المَذلَّة في حضيضِ القصور، والاعتراف بالعجزِ عن القيام بحقِّه ﷻ، وإنْ طالتْ القصور[3]، أي: إنَّ الأمر بالتَّكبيرِ لا يقتصرُ فقط على قولك اللّه أكبر، بل كَبِّره وعظِّمه في كُلِّ أحوالك وأفعالك وأقوالك.

ويمكن أنْ تكون الفائدةُ - بالإضافةِ إلى ذلك - التَّنوّعَ في الأسلوب بين اقتران الأمرين؛ إذ عبَّر عن الأمر الأوَّل وهو التَّحميد

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 184.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 420.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 184.

بصيغة ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وعبَّر عن الأمر الثّاني وهو التَّكبير بصيغة ﴿وَكَبِّرۡهُ﴾.

فائدة التَّعبير بالمصدر والإتيان به من جنس المأمور به:

جمالٌ في السَّمع، ووضوحٌ في المعنى، وتأكيدٌ على أهمّيّةِ التَّكبير

أتى البيانُ القرآني بالمصدر ﴿تَكۡبِيرَۢا﴾ بعد فعل الأمر ﴿وَكَبِّرۡهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾، مُستعملًا في ذلك جناسَ الاشتقاق؛ إذ اجتمعَ اللَّفظان في الأصلِ الاشتقاقيِّ (كَبَرَ)؛ وذلك زيادةً في إيضاحِ المعنى وترسيخه في الذِّهن، وتأكيدًا على أهميَّة فعلِ التَّكبير للّه تعالى، وذلك بسببِ تكرُّر الجَذْر، إضافةً إلى أنَّه لونٌ من ألوانِ البديع جاء على أحسنِ صورةٍ، إذ جعلَ العبارةَ سهلةً مُستساغةً على الأذُن؛ لتجدَ في النَّفسِ القبولَ، وتقعَ في القلبِ أحسنَ موقع.

وفائدةُ التَّعبير بالمصدر ﴿تَكۡبِيرَۢا﴾ توكيدُ الفعل[1]، أي توكيدُ الأمر الوارد في تعظيمِ اللّه سُبحانه، وفيه تنبيهٌ على أنَّ العبدَ وإنْ بالغَ في التَّنزيه والتَّمجيد، واجتهدَ في الطّاعة والتَّحميد ينبغي أنْ يعترِفَ بالقصور في ذلك[2].

فائدة التَّنكير في ﴿تَكۡبِيرَۢا﴾:

مَن يعطي عظيمَ النِّعم سُبحانه يستحقُّ عظيمَ التَّكبير

نَكَّر البيانُ الإلهيّ لفظَ ﴿تَكۡبِيرَۢا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾؛ لإفادةِ الكمال من حيث التَّعظيمُ وكثرةُ التَّكبير؛ لأنَّ مَن هذه صِفاتُهُ هو الذي يَقْدِرُ على إعطاءِ النِّعَم العظيمةِ التي يعْجزُ غيرُه عن إسدائها، ويستحقُّ التَّعظيمَ والتَّكبيرَ لأجلها تكبيرًا وتعظيمًا كثيرًا[3]، وهذا التَّعظيمُ للتَّكبير يتمثَّل في أنْ يحملَ أنواعًا من معاني التَّكبير؛ **أوَّلها:** تكبيرهُ في ذاتهِ، وأنَّه غنيٌّ عن كُلِّ ما سواه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 240.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 201.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 240.

وثانيها: تكبيره في صفاته بأنْ يُعتقد أنَّها صفاتُ الجلال والعِزِّ والعظمةِ والكمالِ، وأنّها أزليّةٌ قديمةٌ سرمديَّة، وثالثها: تكبيرهُ في أفعاله عن أنْ يجريَ في سُلطانه شيءٌ لا على وفقِ حكمه وإرادته، ورابعها: تكبيره في أحكامه بأنْ يُعتقد أنَّه مَلِكٌ مُطاع وله الأمر والنَّهيُ والرَّفع والخفض، وخامسها: تكبيره في أسمائه بألّا يُذكر إلّا بأسمائه الحُسنى، ولا يوصف إلّا بصفاته المُقدَّسة العالية المُنزَّهة؛ وسادسها: تكبيره عن أنْ يكونَ تكبيرُ الإنسان وافيًا بكنْهِ مجدِه وعزَّته؛ لأنَّ عقلَ الإنسانِ وفهمه لا يفي بمعرفةِ جلالِ اللّه، ولسانُهُ لا يفي بشكره، وجوارحه وأعضاؤه لا تفي بخدمته[1].

بلاغة رَدِّ العجز على الصَّدر بين ختام سورة الإسراء ومطلَعِها:

كما ازدانتْ فاتحةُ الاسراء بتسبيحِ الله وتمجيده توّجتْ خاتمتها بحمدِ الله وتكبيره

استُفتحتْ سورة الإسراء بمعجزة الإسراء التي كانت مظهرًا من مظاهر التَّكريم الإلهي لخاتم الأنبياء والمُرسلين؛ ليكون العمادَ الذي أقيمتْ عليه موضوعات هذه السّورة الكريمة بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، واختُتمتْ بما يستدعيه هذا التَّكريم من الحمد للّه، وتعظيمه فقال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾.

كما أنَّها افتُتحتْ بالتَّسبيح، واختتمتْ بالتَّحميد والتَّكبير، وهذه أذكارٌ مقترنةٌ في القرآن والسُّنَّة وسائر الكلام، أوَّلها التَّسبيحُ وختامها التَّكبير، وهذه براعةٌ رشيقةٌ وبلاغةٌ أنيقة.

وكذلك افتُتحتِ السّورةُ بالتَّسبيح، ممّا طَبَعَ السّورة به، فشاعَ فيها التَّسبيحُ إلى حدٍّ كبير[2]، ولا يوجدُ سورةٌ تدانيها في التَّسبيح وكثرته، واختُتمت بتسبيحِ أحبابِ الرَّحمان المستمسكين بكتابه،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 420.

(2) المُستغانمي، جواهر الدُّرر في علم مقارنات السّور، ص: 164.

﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ لنستشعرَ عظمةَ هذه السّورة وأثرها في الإسراء بروحِ النَّبيِّ ﷺ، وبروح كلِّ مؤمنٍ به إلى عالمِ التَّسبيح.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الاتخاذ والامتلاك:

الاتِّخاذُ أخذُ الشَّيءِ وتحصيله واكتسابه، والامتلاك مُلكُ الشَّيءِ والسَّيطرةُ عليه والقدرةُ على التَّصرُّف فيه

يوجد تقاربٌ بين لفظي (الاتخاذ والامتلاك)؛ إذ يشتركان في معنى حَوْزِ الشَّيء، ويتميَّز كُلٌّ منهما عن الآخر وفْقًا للآتي:

الاتخاذُ: مصدر من باب الافتعال، وأصله من تَخِذ يَتْخَذ تَخْذًا، ومعنى الأَخذ والتَّخْذ واحد، وهو حَوْزُ الشَّيء وتحصيلُه، والاتِّخاذ يُعَدَّى إلى مفعولين، ويجري مجرى الجَعْل[1]، وتَخِذْتُ مالًا أي كَسَبْتُه، وقيل: الاتخاذ افتعالٌ من الأَخْذ[2].

والامتلاكُ من (ملك) يُقال: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَملِكُهُ مَلْكًا لأنَّ يَدَهُ فيهِ قويَّةٌ صَحيحَةٌ[3]، وامتلكَ الشَّيءَ: مَلَكَه أي حازَه، وقدَرَ على التَّصرُّف فيه، وامتلكَ نواصيَ الأمور: سيطرَ عليها[4].

إذن: الاتخاذُ هو أخذُ الشَّيء وتحصيله واكتسابه، والامتلاكُ هو ملكُ الشَّيء والسَّيطرةُ عليه والقُدرةُ على التَّصرُّف فيه.

الشَّريك والقرين:

الشَّريكُ لا ينفردُ بالشَّيءِ المُشترك، والقرينُ مُصاحبٌ ومقارنٌ لقرينه ومجتمعٌ معه

يوجد فرقٌ بين الشَّريك والقرين رغم تقاربهما، وإيضاح ذلك:

أوّلًا: الشَّريك: أصله من (شَرَكَ) ويَدُلُّ على مُقارَنَةٍ وخِلافِ انْفِرادٍ، ومنه الشِّرْكَةُ، وهو أَنْ يَكونَ الشَّيْءُ بَيْنَ اثْنَيْنِ لا يَنْفَرِدُ

(1) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 2/ 57.
(2) الخليل، العين: (أخذ)، والزَّبيدي، تاج العروس: (تخذ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ملك).
(4) أحمد عمر، معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة: (ملك).

بِهِ أَحَدُهُما[1]، سواء كان ذلك الشَّيء عينًا أو معنى، والمُشاركةُ: خلطُ المُلْكَيْنِ[2].

ثانيًا: القرينُ: أصله من (قَرَنَ) ويدلُّ على جَمع شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، وقَرِينَةُ الرَّجُلِ: امرَأَتُه[3]، والقَرينُ المُصاحِبُ، والقَرينُ يَكونُ في الخَيْرِ والشَّرِّ، فقرينُ الإنسانِ مُصاحِبُه من المَلائِكَةِ والشَّياطين وكلِّ إِنْسانٍ[4].

إذن: يشتركُ الشَّريكُ والقرينُ بمعنى المُقارنة، ويتميَّز الشَّريكُ بمعنى الشَّركة؛ وهو عدمُ انفرادِ أحدهما بالشَّيءِ المُشترِك، فيكونُ بينهما اختلاطٌ في ملكيّة الشَّيءِ المُشترك والتَّصرُّف به.

في حين يتميَّز لفظُ القرين بمعنى الجمعِ، فالمُقارنة تفيدُ قيام أحد القرينين مع الآخر، ومُصاحبته له، ولا يشترطُ أنْ يكون مُشاركًا له في شيء.

الولي والنَّصير:

الـوليُّ القريبُ مـن ولَـيِّـه، والنَّصيرُ النّاصرُ والمُعينُ والمقوّي لمن ينصره

كثيرًا ما يُفسَّر الولي بالنَّصير، ويُستعملُ أحدهما مكانَ الآخر، رغم وجودِ فروقٍ بينهما، وذلك كالآتي:

الولي: أصلُ (ولي) يدلُّ على قرب[5]، والولْيُ: القربُ والدُّنوُّ، والوليُّ: المُحِبُّ وهو ضِدُّ العَدوِّ، من والاهُ إذا أَحَبَّه، والمَوْلَى: (المُعْتِقُ والمُعْتَقُ وابْنُ العَمِّ والجارُ والحَليفُ والصديق والنصير)؛ مِنْ والاهَ إذا نَصَرَهُ[6].

والنَّصيرُ: أصلُ (نَصَرَ) يدلُّ على إِتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِه، والنَّصْرُ: العَطاءُ[7]، والنَّصرُ: إعانة المَظْلوم، والنُّصْرَةُ: حُسْنُ المَعونة، والنَّصير: النّاصِر، ونَصَره مِنْهُ نَصْرًا ونُصرَةً: نَجّاه وخلَّصه[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرك).
(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 3/ 313.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قرن).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (قرن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ولي).
(6) الجوهري، الصِّحاح، والزَّبيدي، تاج العروس: (ولي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (نصر).

إذن: يتميَّز الولي بمعنى القُرب، في حين يتميَّز النَّصير بمعنى العون وإيتاء الخير لمن ينصره.

فالنَّصيرُ هو من يقدِّمُ العونَ والنُّصرةَ لمن ينصره، وقد لا يكون قريبًا له، كما أنَّ الوليَّ مع أنّه قريبٌ لوليهِ يمكن أنْ لا ينصره.

ولكن غلبَ إطلاقُ النَّصيرِ على الوليِّ؛ لأنَّ الوليَّ لقُرْبِهِ فهو في الغالب يُحِبُّ وليَّه فينصره.

وقد فرَّق العسكري بين الوليِّ والنَّصير فذكر: أنَّ الولايةَ قد تكون بإخلاصِ المَودَّة، أما النُّصرة فتكونُ بالمعونة والتَّقوية، وقد لا تكون النُّصرة مع حصول الولاية[1].

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 189.

سُورَةُ الكَهفِ

سُورَةُ الكَهْفِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

الأصحّ أنَّ سورة الكهف كُلَّها مَكّيَّة

تُعدُّ سورة الكهف من السّورِ المكّيَّة التي نزلت قبل الهجرة النَّبويَّة، وعند تتبَّع كُتب التَّفسير القديمة والحديثة نجد بعض اختلافٍ في النَّقل عنهم بين من جعلها مكّيَّة باتِّفاق، وبَيْنَ من استثنى بعض آيات عدَّها مدنيَّة[1].

والشَّيء المُلاحظ أنَّ آيات السّورة مُتوازنة، وليس بين فصولها تغاير أسلوبيٌّ بالرَّغم من تنوِّعها، وهذا وذاك معًا ممّا يُبَرِّر القول بأنَّها نزلت مُتتابعة حتَّى تمَّت[2] فالذي تطمئنُّ إليه النَّفس أنَّ سورةَ الكهفِ مكّيَّةٌ كُلُّها[3]، والفترة الزَّمنيّة التي نزلت فيها هذه السّورة يبدو أنَّها من أواخر العهد المكّيِّ؛ فهي مُتأخرة النُّزول[4]، وهي فترة حافلةٌ قد تراكمت فيها أحداث جِسام عاشها المُسلمون في مكَّة المُكرَّمة، حيث نزلت بعد فترة طويلة من حياة المُسلمين بها، وبعد مُدَّة مُعاناة واضطهاد لَقيَ فيها النَّبي ﷺ والمسلمون ما لاقَوْهُ وتقلَّبت عليهم فيها أحوالٌ من التَّكذيب والتَّشكيك، فنزلت حافلة بما يُسلّي الرَّسول ﷺ ويُثبِّته، ويرفع منزلته، ويُعلي قدره في تلك الفترة الحرجة من حياته ﷺ.

وسورة الكهف هي السّورة الثّامنةَ عشرةَ في ترتيب المُصحف الشَّريف، وقعت بين سورتَي الإسراء ومريم، وعدد آياتها مئةٌ وعشرُ

(1) للاستزادة يُنظر: مقاتل، تفسير مقاتل: 2/ 278، والهواري، تفسير كتاب الله العزيز: 3/ 405، وابن الجوزي، زاد المسير: 5/ 112، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 6/ 470، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 345، ودروزة، التَّفسير الحديث: 3/ 423، والطَّبطبائي، الميزان: 3/ 367.

(2) دروزة، التَّفسير الحديث: 3/ 423.

(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 459.

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 459.

آياتٍ عند الكوفيّين، ومئةٌ وخمسُ آياتٍ عند المَدَنيّين والمكّيّين، ومئةٌ وسِتُّ آياتٍ عند الشّاميّين، ومئةٌ وإِحْدَى عَشْرَةَ عند البَصْريّين[1].

وترتيبها النُّزوليُّ - عند مَن اعتنوا به -: الثّامنة والسِّتّون[2]، بعد سورة الغاشية، وقبل سورة النَّحل.

من فضائل السورة:

وقد ورد في فضلها الكثير من الآثار، من أصحِّها: ما رواه البُخاريُّ عن عبد الله بن مسعود أنَّه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: "إنَّهُنَّ من العِتاق الأول وهُنَّ من تِلادي"[3]، ومنها ما رواه مُسلم عن أبي الدَّرداء أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "من حفظ عشر آيات من أوَّل سورة الكهف عصم من الدجّال"[4]، ولَعَلَّ السَّبب في ذلك أنَّ موضوع السّورة الأساس قد قام على بناء منهجٍّ عمليٍّ للوقاية من الفِتَن، فضلًا عن كون فتنة المسيح الدَّجّال تُمثِّل ذُروة الصِّراع بَيْنَ المادّيَّة والإيمان وهو المحور النّاظم لآيات السّورة.

أسماء السّورة الكريمة:

الاسم المعروف والمشهور لها هو سورةُ (الكهف)

سُمّيت السّورة في جميع المصاحف سورة الكهف، ولا يُعرف لها اسمٌ ثابتٌ سواه، وقد ذكر بعضهم أنّها تُسمَّى سورة (أصحاب الكهف) لحديث ضعيف[5] نقله السُّيوطيُّ[6] عن ابن مَردويه فيما يرويه عن عائشة أمِّ المُؤمنين: "ألا أُخبركم بسورة ملء عظمتها ما بَيْنَ السَّماء والأرض ولكاتبها من الأجر مثل ذلك، ومن قرأها يوم

---

(1) الدَّاني، البيان في عدِّ آيّ القرآن، ص: 179.
(2) السُّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43، دروزة، التفسير الحديث: 5/ 50.
(3) البخاري، الجامع الصَّحيح، كتاب التَّفسير، باب تأليف القرآن، حديث رقم: (4708)، والعِتاق: جمع عتيق وهو القديم، وكذلك التَّالد بمعنى القديم، والمُراد أنَّهن نزلن في أوَّل ما نزل من القرآن، يُنظر: مكي، الهداية: 4/ 352.
(4) مُسلم، صحيح مُسلم، بَابُ فَضْلِ سورَةِ الْكَهْفِ وَآيَةِ الْكُرْسِيِّ، حديث رقم(809).
(5) الألباني، ضعيف الجامع الصغير، ص: 316.
(6) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 193.

الجمعة غُفِرَ له ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الجُمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه اللّه أيَّ الليل شاء؟ سورة أصحاب الكهف".

المحاور الرئيسة للسورة:

والمحور الرَّئيس للسّورة يكمن في: العصمة من أمواج الفتن المُتلاطمة، فتنة السُّلطان، وفتنة الشَّباب، وفتنة المال، وفتنة الولد، والاغترار بالدُّنيا الفانية، وفتنة إبليس اللَّعين، وفتنة العلم، وفتنة يأجوج ومأجوج، وفتنة الأهواء، وتُبيِّن السّورة مَعْلَمَ النَّجاة وكهف الأمان من كُلِّ هذه الفتن باتِّباع المنهج الرَّبانيِّ، والاستعانة باللّه واللُّجوء إليه[1].

ولهذا كانت قراءة سورة الكهف نورًا كاشفًا وعلاجًا ناجعًا للفتن جميعها من خلال تصحيح العقيدة، وتصحيح المفاهيم الخاطئة بميزان اللّه[2]، وكان تُمثِّل القيَم الحقيقيَّة في سورة الكهف عقيدة وسلوكًا عصمة من أنواع الدَّجل كُلِّها، وعلى رأسها فتنة المسيح الدَّجّال[3].

ويرى بعضُ الباحثين أنَّ الخيط النّاظم لآيات السّورة قائمٌ على العلم؛ فالعلم هو الذي حَفِظَ أصحاب الكَهْف على عقيدتهم ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ١٣﴾ [الكهف: 13]، والعلم هو الّذي مَكَّنَ الرَّجُلَ الصّالح من دعوة صاحب الجنّتَيْن إلى الحقِّ والعودِ إلى الصّواب: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ٣٨﴾ [الكهف: 37 - 38]، وقِصَّة موسى عليه السلام مع العبد الصالح قامت على موضوع العلم، وكذا الحال في قِصَّةِ ذي القرنَيْن الّذي أكرمه اللّه تعالى بالعلم: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ٨٤﴾ [الكهف: 84] ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ٩٦﴾ [الكهف: 96]، فالعلم هو الجامع لقصص السّورةِ الأربعة.

ويرى بعضهم أنَّ الجامع بين قصص هذه السّورة هو البناء والهدم؛ ففتية الكهف أوَوْا إلى ملاذهم الذي كان يمكن أن يُهدم عليهم لو قُبض عليهم، ثمّ شاء اللّه بعد أن آمن قومهم أن يبنوا عليهم مسجدًا تقديرًا لهم، وصاحب الجنّتَيْن ابتُلي بالهدم بعد كمال

(1) مسلم وآخرون، التّفسير الموضوعيّ لسور القرآن الكريم: 4/ 288.
(2) شحاته، عبدالله، أهداف كلّ سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، ص: 207.
(3) مصطفى مسلم، مباحث في التّفسير الموضوعيّ، ص: 190.

البناء والعمران، وموسى عليه السلام عاين البناء والهدم في مشاهداته كلّها؛ فكلّ هدمٍ رآه كان بناءً في حقيقة الحال، وأمّا ذو القرنَين فقد بنى الرّدم على يأجوج ومأجوج ليخلّص النّاس من شرورهم، ولا زال يأجوج ومأجوج ينقرون في سدّهم المقام عليهم حتّى يؤذن لهم بالخروج عند قيام السّاعة.

وتناول بعضهم سورة الكهف من منظور أنّها حملت منهجًا في البناء والإصلاح، فقد تناولت نماذج إصلاحيّة فريدة وشاملة، على مستويات: الإصلاح العقديّ، والاجتماعيّ، والاقتصاديّ، والثّقافيّ، والسّياسي.

وتناولها بعضهم على أنّها سورة الدّعوة والدّعاة؛ فقد حظيت بنماذج من الدّعاة الّذين أثّرت دعوتهم بغيرهم على كافّة الصّعد ومختلف المجالات، فالفتية دعوا قومهم، والصّاحب دعا صاحبه إلى الحقّ، والعبد الصّالح دعا موسى عليه السلام لمتابعته، وذو القرنَين دعا الأقوام لعبادة اللّه.

والحقيقة أنّه لا يوجد تعارضٌ حقيقيٌّ بين كلّ ما تقدّم؛ فالسّورة في تناولها للفتن المتنوّعة قد أبرزت القيم الحقيقيّة للأشياء بميزان الحَقِّ سبحانه وتعالى لا بموازين البشر، وبيَّنت أثر العلم السَّليم في الوقاية من ظُلمات السُّقوط والفشل، وبيّنت أثر الدَّعوة والدُّعاة في الوقاية من شرور هذه الفتن، وبيَّنت دور الإصلاح والمُصلِحين في حفظ الأمّة على ميزان الحقِّ، وبيَّنت أنّ بناء الحضارات واضمحلالها مرهونٌ بالاستقامة على منهاج اللّه ودينه.

المُناسَبة بين اسم السّورة وموضوعاتها:

الإشـــارة إلى عناية اللـه سبحانه وتعالى وحِفْظِهِ وسِتْرِهِ فهي كهف أولياء الله الصّالحين

قد تقدَّم في الرِّوايات أنَّ السّورة تُسمَّى "سورة الكهف" وتُسمى "سورة أصحاب الكهف" وفي التَّسمية الأولى النَّظَرُ إلى المكان الذي تَمَّ اللُّجوء إليه لحمايتهم من الفتنة التي تَعَرَّض لها الفتية فلجئوا إلى مكان حصين عصمهم من الأعين وحفظ عليهم دينهم وعقائدهم.

فلو نظرنا إلى هذا الاسم وإلى موضوعات السّورة، لوجدنا بين الاسم والموضوعات مُناسبة لطيفة، إنَّ مَن تَدَبَّر الموضوعات المعروضة في هذه السّورة الكريمة ولجأ إليها كانت له كالكهف الحصين من الفتن جميعها، كما ذكر ذلك رسول اللّه ﷺ، فإنْ كان الوضع الذي لجأ إليه الفتية كَهْفًا محسوسًا ملموسًا، فإنَّ الكهف الذي يأوي إليه قارئ هذه السّورة كهف معنويٌّ من عناية اللّه ﷻ وحِفْظِه وسِتْرِه فلا تُؤثِّر فيه الفتن المعروضة ولو كانت مِثْلَ قِطَعِ اللَّيل المُظْلِم[1].

فالسّورة ذكرت أهمَّ أسباب الفتن في الحياة الدُّنيا، وبيَّنت موقف المُؤمن منها، وشرعت له أسباب السَّلامة والنَّجاة بأسلوب القِصَّة، فكانت في موضوعها موافقة لاسمها كهف السَّلامة والأمان[2].

وإذا نظرنا إلى الاسم الآخر للسّورة "سورة أصحاب الكهف" نُلاحظ أنَّ الأشخاص أصحاب العقيدة الحقَّة والمَوقف السَّديد هم الملاحَظون في التَّسمية، فلو نظرنا إلى هؤلاء الفتية: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف: 13 - 14]، نجدهم يُمثِّلون موقف المُتمسِّكين بالقيم الصَّحيحة الذين يملكون الميزان الرَّبانيَّ لقياس الأمور بها، الإيمان، الجرأة في الحَقِّ، المَنطق السَّليم، الحُجَّة المقنعة، التَّضرع إلى اللّه ﷻ، اتخاذ الأسباب الظّاهرة في مُقارعة الباطل، يعقب كل ذلك العناية الرَّبانية بهم وتسخير جزء من الكون لحمايتهم وحفظهم، ثُمَّ نَصْرُه دعوتَهم ولو بعد حين، فأصحاب الكهف أنموذج فريد للوقوف في وجه الباطل، وسيرتهم مثال لمن يبتلى ويفتتن في دينه، لذا كانت هذه التسمية أيضًا مناسبة للموضوعات في سورة الكهف[3].

المَوضوعات الرَّئيسة للسّورة:

تنوَّعت موضوعات هذه السّورة وتعدَّدت، ويمكن تقسيم موضوعاتها والآيات التي تناولت تلك الموضوعات في النِّقاط الآتية:

---

(1) مصطفى مسلم، مباحث في التَّفسير الموضوعي، ص: 179.
(2) طهماز، محمَّد عبد الحميد، العواصم من الفتن في سورة الكهف، ص: 36.
(3) مصطفى مسلم، مباحث في التَّفسير الموضوعي، ص: 180.

مَدارُ القَصَصِ الأربعة في السّورة والتَّعقيبات بينها قائمٌ على ترسيخ أصول العقائد والعصمة من الفِتَنِ

أوّلًا: الآيات الكريمة من (1 - 8) افتتحت السّورة بحمد الله وشُكره على نعمة القُرآن المُنزَّل على نبيِّه مُحمَّدٍ ﷺ، والذي اتَّسم بالاستقامة وعَدَم العِوجِ؛ ليكون كاشفًا للطَّريق الصَّحيح، عاصِمًا من كُلِّ فتنة لمن اعتصم به، ثُمَّ تبع ذلك البيان لحقيقة الحساب والجزاء لمن أساء وأحسن، مع بيان المنهج الحَقِّ في العصمة بالعلم الثّابت والإيمان والعمل الصّالح، والمنهج الباطل لمن افتتن وجهل وافترى على الله كَذِبًا، ثُمَّ بيان حقيقة هذه الحياة الدُّنيا بزينتها وزُخرفها من أنَّها دار اختبار وابتلاء، وذلك عصمة من الوقوع في الفِتَنِ والرُّسوب في الاختبار.

ثانيًا: الآيات الكريمة من (9 - 27) ذكرت قِصَّة أصحاب الكهف، فتية هربوا بدينهم من مجتمع يعجُّ بالوثنيَّة والجور والماديّة المتمثّلة بالمتع والشهوات، فآووا إلى الكهف، فحدثت لهم معجزة عظيمة تمثّلت في نومهم فيه قرابة ثلاثة قرون، فكانت تلك القصّة دالّة على الاعتصام بالدّين في جوّ اصطبغ بكلّ مقوّمات الفتن، فلم يرضخوا إلى ضغوط مجتمعهم، ولم يبالوا بتلك الفتن، بل سارعوا إلى الترفّع عن شهوات الدنيا ومتعها، معلنين خضوعهم واستسلامهم واعتصامهم بخالقهم ﷻ.

ثالثًا: الآيات الكريمة من (28 - 31) عقّبت على قصّة أصحاب الكهف خطابًا للنّبيّ ﷺ، وذلك بأمره بتلاوة الكتاب، وأن يصبّر نفسه مع المؤمنين الفُقراء، وأن لا يطيع أصحاب الأهواء، ثمّ بيان حرية اختيارهم في سلوك طريقيّ الحقّ أو الباطل، ثمّ بيّنت جزاء كلّ من أصحاب الطريقيّن.

رابعًا: الآيات الكريمة من (32 - 44) ذكرت قِصَّة صاحب الجَنَّتيَن الذي آتاه الله كلّ شيء، فافتتن بماله وبنيه، فكفر بأنعم الله وأنكر البعث، فأهلك الله تعالى جنَّتيْه.

خامسًا: الآيتان (45 – 46) ضَرَبَتا مثلًا للحياة الدُّنيا إزاء الآخرة، وبيَّنتا أنَّ الأموال والبنين زينة الحياة الدُّنيا، ولكنَّ الباقيات الصّالحات أفضل عند اللّه.

سادسًا: الآيات الكريمة من (47 – 59) عرضت لبعض مشاهد يوم القيامة في سياق تهديد المغرورين بفتن الحياة الدُّنيا وزوال زينتها وبيان مآلهم فيها، ثُمَّ تحدَّثت الآيات عن أصل تلك الفتنة والزّينة والغواية واتِّخاذ صاحبها عدوًّا، فذكرت الآيات مَشهدًا سريعًا من قصَّة آدم عليه السلام صوَّر تمرُّد إبليس على ربِّه بعدم طاعته وامتثال أمره في السُّجود، فافتتن إبليس بنفسه ولم يعصمها من الطَّرد من رحمة اللّه، ولم يكن إبليس وفتنته إلّا كيدًا ضعيفًا، فلم يقدر على شهود خلق السَّماوات والأرض فضلًا عن خلقهما.

سابعًا: الآيات الكريمة من (60 – 82) عرضت قصَّة موسى عليه السلام مع الخضر، وكان موسى عليه السلام قد ظنَّ أنَّه أعلمُ أهل الأرض، فأوحى اللّه تعالى له بأنَّ هُنالك من هو أعلم منه فذهب للقائه والتَّعلُّم منه، فلم يَصْبِرْ على ما فعله العبد الصالح؛ لأنَّه لم يُدرك الحكمة في أفعاله وإنَّما أخذ بظاهرها فقط، فجاءت تلك القِصَّة لتُبيِّن العصمة من فتنة العلم، وذلك بالتَّواضُع وعَدَمِ الغُرور بالعلم.

ثامنًا: الآيات الكريمة من (83 – 98) عرضت قِصَّة ذي القرنين الذي كان حاكمًا عادلًا يمتلك العلم، وينتقل من مشرق الأرض إلى مغربها، ويُعينُ النّاس، ويدعو إلى اللّه، وينشر الخير، حتَّى وصل إلى قوم خائفين من هجوم يأجوج ومأجوج، فأعانهم على بناء سَدٍّ لمنعهم عنهم، فمنع الحاكم العادل صاحب السُّلطة والقوَّة الظُّلمَ عنهم، ولم تَغُرَّه السُّلطة لاستباحة ما حرَّم اللّه، ولم يُدخله الغرور والطَّيش لاستيلائه على مُقدَّرات الأرض، فكانت العصمة له من فتنة السُّلطة بالتجائه إلى اللّه وتذكُّر الآخرة، والإخلاص له سبحانه وتعالى في الأعمال، فكان الحاكم العادل أُنموذجًا للعصمة من فتنة السُّلطة وتسخيرها الوجهة السَّليمة.

تاسعًا: الآيات الكريمة من (99 – 108) عرضت مشاهد الحشر يوم القيامة، حيث يجمع اللّه الكُلَّ للحساب بلا استثناء، فهو اليوم الذي تتمحَّص فيه الحقائق، وهو خاتمة الحساب لمن عُصِم من الفتنة ولمن زلَّت فيه قدمه، فأمّا الكافرون الذين غشيت قلوبهم الفتن، وغطَّت عيونهم الحُجُبُ، فجهنَّم مصيرهم تعرض لهم عرضًا، فكانت موازينهم

مغلوطة خاسرة، فضلّوا فلم يحسنوا صنعًا، فكان الجزاء من جنس العمل أن ليس لهم في الآخرة وزنٌ، وأمّا المُؤمنون فقد عَصَموا أنفسهم من الفتن بالإيمان والعمل الصالح، فكانت لهم الجَنَّة خالدين فيها لا يتحوَّلون عنها جزاء ثباتهم وتمسُّكهم واعتصامهم بحبل اللّه المتين.

عاشرًا: ثُمَّ كان الخِتام بالآيتَيْن (109 - 110) ببيان المنهج العاصم من الفتن، - كما البدء - وهو التَّمسُّك بوحي القرآن وما حضَّ عليه من العمل الصّالح والإخلاص له سُبحانه بتوحيده ونبذ الشَّريك معه.

بيان المُناسبة بَيْنَ السّورة وسابقتها ولاحقتها:

السّورة مُتَّصلة تمامًا بسورتيّ الإسراء ومريم مضمونًا وأسلوبًا

جاءت هذه السّورة في التَّرتيب المُصحفيِّ بعد سورة الإسراء، وقد تلمَّس وجهَ اتِّصالهما الإمامُ البِقاعيُّ بقوله: لمّا خُتمت الإسراء بأمر الرَّسول ﷺ بالحمد عن التّنزّه عن صفات النَّقص لكونه أعلم الخلق بذلك، بدأت هذه السّورة بالإخبار باستحقاقه سُبحانه الحمدَ على صفات الكمال التي منها البراءة عن كُلِّ نقصٍ، مُنبهًا بذلك على وجوب حمده بما شرع من الدّين على هذا الوجه الأحكم بهذا الكتاب القيِّم الذي خضعت لجلاله العُلماء الأقدمون، وعَجَزَ عن مُعارضته الأوَّلون والآخرون، الذي هو الدَّليل على ما ختمت به تلك من العظمة والكمال، والتَّنزُّه والجلال، فقال مُلَقِّنًا لعباده حمدَه، مُعلمًا لهم كيف يثنون عليه، مفقهًا لهم في اختلاف العِبارات باختلاف المَقامات ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1](1).

يقول أبو حيّان: "ومُناسَبَةُ أَوَّلِ سورة الكهف لِآخِرِ ما قَبْلَها أَنَّهُ لَمّا قالَ ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: 105] وذَكّرَ المُؤْمِنينَ بِهِ أَهْلَ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 2.

العِلْمِ وأَنَّهُ يَزِيدُهُم خُشوعًا، وأَنَّهُ تعالَى أَمَرَ بالحَمدِ لَهُ وأَنَّهُ لَم يَتَّخِذْ ولَدًا، أَمَرَهُ تعالَى بِحَمدِهِ عَلَى إِنْزالِ هَذا الكِتابِ السّالِمِ مِنَ العِوجِ، القَيِّمِ عَلَى كُلِّ الكُتُبِ، المُنْذِرِ مَن اتَّخَذَ ولَدًا، المُبَشِّرِ المُؤْمنينَ بالأَجْرِ الحَسَنِ، ثُمَّ اسْتَطْرَدَ إِلَى حَديثِ كفّارِ قُرَيْشٍ والتَفَتَ مِنَ الخِطابِ في قَوْلِهِ وكَبِّرْهُ تَكْبيرًا إِلَى الغَيْبَةِ في قَوْلِهِ ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِ﴾ [الكهف: 1] لِما في عَبْدِهِ مِنَ الإِضافَةِ المُقْتَضيَةِ تشريفَه"(1).

وذكروا في ارتباطها بسورة الإسراء وجوهًا أخرى مِنها:

أوّلًا: أنَّ سورة الإسراءِ افتُتِحت بالتَّسبيح، والكهفِ بالتَّحميد، وهُما مُقترنان في سائر الكلام في نحو: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: 3].

ثانيًا: تَشابه ختامِ الإسراء وافتتاحِ الكهف، فإنَّ في كلٍّ مِنهُما حَمدًا.

ثالثًا: أنَّه جاء في سورة الإسراء: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾ [الإسراء: 104] ثُمَّ فَصَّلَ ذلك في سورة الكهف بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾ [الكهف: 98] إلى قوله: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠﴾ [الكهف: 100](2).

والأهمُّ من كلِّ تلك الوجوه الكثيرة التي ذكروها أنَّ كِلتا السّورتين اعْتَنَتا بتسلية النَّبيِّ ﷺ والتَّسرية عن قلبه، وكلتاهما نزل بأوقات اشتدَّت فيها الحاجة إلى رفع معنويَّته ﷺ وتوجيهه في كيفيَّة التَّعامل مع خصوم هذا الدّين وأعدائه.

أمّا عن صِلَتِها بسورة مريم بعدها، فإنَّهُ تعالَى لمّا ضَمَّنَ في سورة الكهف قَصَصًا عَجَبًا كَقِصَّةِ أَهْلِ الكَهْفِ، وقِصَّةِ موسَى مَعَ العبد الصالح، وقِصَّةِ ذي القَرْنَيْنِ، ضمَّن سورة مريم أيضًا قَصَصًا عَجَبًا مِنْ ولادَةِ يَحْيَى بَيْنَ شَيْخٍ فانٍ وعَجوزٍ عاقِرٍ، وولادَةِ عيسَى مِنْ غَيْرِ أَبٍ، فَلَمّا اجْتَمَعا في هَذا الشَّيْءِ المُسْتَغْرَبِ ناسَبَ ذِكْرُ هَذِهِ السّورَةِ بَعْدَ تِلْكَ(3).

والحقيقة أنَّ السّورتَيْن تَشتركان كذلك في إثبات الوحدانيَّة للّه تعالى ونفي الشَّريك والولد عنه: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ [مريم: 35]، ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ

(1) أبو حيَّان، البحر المُحيط: 7/ 135.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 15/ 113.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 237.

بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ [مريم: 81 - 82]، وكذلك في تناول البعث: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: 66 - 67].

فَضْلًا عن اشتراكهما في بعض الحوارات والمَشاهد القصصيَّة المُرتبطة بمحاورهما الخاصَّة.

الخصائص الأسلوبيّة والموضوعيّة لسورة الكهف:

أولًا: موضوعًا:

تفرَّدت سورة الكهف بذكر ثلاث قصص لم تَتَكَرَّر في أيِّ سورة أخرى، ومشهدٍ من قصَّة موسى عليه السلام لم يتكرَّر ذكره في موضعٍ آخر، حيث عرضت السّورة لِقصَّة أصحاب الكهف، وقِصَّة صاحب الجَنَّتَيْنِ، وقِصَّة ذي القرنين، وهذه القَصَص لم تُذْكَر لها أي إشارة في سور أخرى، أمّا قِصَّة موسى عليه السلام فتفرَّدت في ذِكْرِها في جانب التَّعليم والتَّتَلْمُذ على العبد الصالح عليه السلام، وفي تلك القصص ودلائلها ما يصبُّ مُباشرة في محور السّورة.

وقد تميَّزت السّورة الكريمة بِذِكْرِ القيم الصَّحيحة والقيم الزّائفة في كُلِّ مَقاطِعِها، وفي ذلك دلالة على العصمة من الفتن، ففي قِصَّةِ أصحاب الكهف، تمثَّلت القيَمُ الصَّحيحة بموقف أصحاب الكهف من الإيمان ورفضهم ضغوط قومهم عليهم، وتمثَّلت القيم الزّائفة بموقف القوم الذين أشركوا مع الله إلهًا آخر، وفي قِصَّة صاحب الجَنَّتَيْنِ تمثَّلت القيم بَيْنَ من آمن بالله فلم تغرَّه المادّيّات، وبَيْنَ من كفر فأبطرته النِّعمة وتكبَّر، وفي قصَّة موسى والعبد الصالح تعليم للقيم الصَّحيحة في التَّواضع، وفي قصِّة ذي القرنين تَمَثُّلٌ للقيم الصَّحيحة في توجيه السُّلطة الوجهة السَّليمة والإصلاح في الأرض، وذلك في مُقابل القيم الزّائفة من إفساد يأجوج ومأجوج، وكذا دور المُؤمنين من اتخاذ معايير القيم الصَّحيحة من إيمانٍ وعملٍ صالح في مُقابل معايير القيم الزّائفة لدى الكافرين(1).

وظهر في أثناء ذلك كُلِّه دَوْرُ الرِّعاية والعناية الإلهيَّة بعباده أثناء مُقارعتهم ومواجهتهم للفتن، ففي الكهف الذي أوى إليه الفتية لجوءٌ ورعايةٌ لهم من فتنة الدّين،

(1) مسلم، مباحث في التَّفسير الموضوعي، ص: 189 - 330.

وفي إنزال الطُّمأنينة والرَّبط على القلوب عنايةٌ ووقايةٌ لهم، وكذا الحماية لهم والحفظ بالشَّمس ومن الشمس والتَّقلُّبُ حتَّى يحسبهم الرّائي أيقاظًا، وفي قِصَّةِ صاحب الجَنَّتَيْنِ حِفظٌ ورعايةٌ للصّاحب المُؤمن من أن يُفْتَنَ بما أوتي صاحب الجنَّتين، وفي قصّة موسى عليه السلام والعبد الصالح الرِّعاية بالمَساكين، وباليتيمين، وبالوالدين من أن يتضرَّروا أو يُفْتَنوا، وفي قِصَّة ذي القرنين الرِّعاية للمظلومين من فساد يأجوج ومأجوج، وفي ذلك كُلِّه دلالةٌ على معيَّة اللّه سبحانه وتعالى لعباده ووقايتهم وعدم تركهم دون ناصرٍ أو معين.

ومازت هذه السّورة كغيرها من السّور المكِّيَّة في تناولها لوظائف القرآن الكريم ومَيِّزاته، فقد قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ① قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ② مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ③ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ⑤④﴾ [الكهف: 54]، وخُتِمَتْ بقوله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ①⓪⑨﴾ [الكهف: 109].

وتميَّزت السّورة الكريمة أيضًا، بأنَّ قصصها ومَشاهدها قامت على ذكر الغيبيّات، فعدَد الفتية غيب، ومُدَّة لبثهم غيب، والفجوة في الكهف غيب، وقِصَّة العبد الصالح مع موسى عليه السلام قامت على عدم قُدرته على إدراك المُغيَّبات، وأَمرُ ذي القرنين غيب، وتفاصيل أمر يأجوج ومأجوج غيب، وذِكْرُ تفاصيل الآخرة لكلا الفريقين غيب، وفي هذا دلالة على أنَّ في الكون أشياءَ لا نُدركها بالعين المجرَّدة ولا نفهمها، ولكنَّ اللّه تعالى يُدَبِّر بقدرته في الكون، وعلينا أن نُؤمن بها حتَّى لو لم نرَها أو نفهمها، وإنَّما نُسَلِّم بغيب اللّه تعالى، وفي ذلك دلالة على أنَّ الإيمان بالغيب والتَّسليم له سُبحانه من مُقوِّمات العصمة من الفتن.

وقد أكَّدت السّورة الكريمة على ضرورة العمل الصّالح والإحسان فيه والمُحاسبة عليه في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا﴾ وقال تعالى: ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ⑦﴾ [الكهف: 7]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ③⓪﴾ [الكهف: 30]، وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ [الكهف: 49]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾

[الكهف: 88]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ۝١٠٧﴾ [الكهف: 107]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ۝١١٠﴾ [الكهف: 110]، وفي كُلِّ ذلك دلالة على أنَّ العمل الصّالح والإحسانَ فيه مقوِّم من مُقوِّمات العِصمة من الفتن.

ثانيًا: أسلوبًا:

تميَّزت السّورة الكريمة بأسلوب البَدْء بالحمد الدّالّ على الاستغراق بالتَّعريف والمصدر، وهي إحدى خمس سور بدأت بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إضافة إلى (الفاتحة، الأنعام، سبأ، فاطر)، وفي ذاك البَدْء دلالة على عِظَم نعمة اللّه على عِباده في إرشادهم وبيان ما يعتصمون به من هَدْيِ القُرآن للنَّجاة من الفتن.

وقد تميَّزت السّورة الكريمة بأسلوب الحوار والمُقابلة في الحديث، فذكرت (قال) ومُشتقاتها ثلاثًا وثلاثين مَرَّة، و(السُّؤال) أربع مَرّات، و(الحوار) مَرَّتَيْن، و(الجدل) مرَّتين، و(المراء) مرَّتَيْن، حيث نَجِدُ الحِوار بارزًا في القصص الأربعة المذكورة، وهذا بيان وإظهار لأبعاد الشَّخصيات في القِصَّة، والتي قد لا تظهر بالسَّرْدِ والوصف وحده، خاصَّة فيما يتعلَّق بالحالة النَّفسيَّة العميقة، وفيما يتعلَّق بالسَّبيل الأفضل للتَّعليم والتَعَلُّم؛ لذا قرَّرت السّورة محورها من خلال هذا الأسلوب العميق الذي يَسْبُرُ أغوار النَّفس للوصول إلى برِّ الأمان من تلك الفتن.

وتميَّزت السّورة الكريمة أيضًا، بوحدة الفاصلة، التي اختصَّت بحركة (الفتح) المُتحوِّلة إلى (الألف المديَّة) مِمّا يُحْدِث في النَّفس اطمئنانًا وراحة نفسيَّة، فهذه الرّاحة النَّفسيّة تجمع في ثناياها لطف اللّه وعنايته ورعايته بعباده في التَّخلُّص من الفتن، فتبعث على التَّثبيت للقلب، بما احتوته السّورة الكريمة من تأكيد مقوِّمات العصمة من الفتن، فتكون تلك الفواصل لها علاقة بمحور السّورة.

وأخيرًا، فقد حَظيَتِ السّورة الكريمة بألفاظ تفرَّدت بها عن غيرها من السّور من جهة الجذر والمادَّة؛ وهذه الألفاظ هي: ﴿ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 9] ﴿فَجۡوَةٖ﴾ [الكهف: 17] و﴿أَيۡقَاظٗا﴾ [الكهف: 18] و﴿سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: 29] و﴿تَبِيدَ﴾ [الكهف: 35] و﴿مَوۡئِلٗا ۝٥٨﴾ [الكهف: 58] و﴿يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77] و﴿أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 79] و﴿غَصۡبٗا ۝٧٩﴾ [الكهف: 79] و﴿رَدۡمًا ۝٩٥﴾ [الكهف: 95].

وإنَّ الجامع لهذه الألفاظ أنَّها ذات اتِّصال مُباشر بمحور السّورة (العواصم من الفتن)، فاللَّفظ الأوَّل ﴿ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: 9] كان اسمًا للمَلجأ الآمن والحرز العتيد والملاذ الحصين للمُؤمن من الفتن، وكذا اللَّفظ العاشر ﴿رَدْمًا ۝٩٥﴾ [الكهف: 95] كان اسمًا للسَّدِّ المنيع والحصن المَتين، وما بينهما من الألفاظ الثَّمانية اتَّسمت بالرِّعاية والعناية الكاملة خلال الصِّراع الذي تخلَّل وجود المُؤمن في الفتن، فتارة نرى فيها جانب العصمة للمُؤمِن والنَّجاة له من الفتن، كما في ﴿فَجْوَةٍ﴾ [الكهف: 17] و﴿أَيْقَاظًا﴾ [الكهف: 18] و﴿يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77] و﴿أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 79]، وتارة أخرى نرى قَصْفًا وقصمًا للكافر الذي لم ينج من الفتن نُصرة وعصمة للمُؤمن، كما في ﴿سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: 29] و﴿تَبِيدَ﴾ [الكهف: 35] و﴿مَوْئِلًا ۝٥٨﴾ [الكهف: 58] و﴿غَصْبًا ۝٧٩﴾ [الكهف: 79]، فسُبحان من أنزل الكتاب مُعجِزًا دقيقًا بليغًا في ألفاظه.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ [الكهف: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

حَمدُ الله على تنزُّهِه عن صفاتِ النَّقصِ مُلازمٌ لحمدِه على اتِّصافه بصفاتِ الكمالِ

في مُناسبة هذه الآية لِما قبلها أربعة أوجه:

الأوَّل: اختتمَ البيانُ القرآنيُّ سورةَ الإسراء بالتَّسبيح ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ [الإسراء: 108]، وبالأمر بالحمد ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ [الإسراء: 111] وافتتح الكهف بالتَّحميد ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ لكون التَّسبيح والتَّحميد قرينان في القرآن والسُّنّة وسائر الكلام، وفي الحديث: "سُبحان اللّه وبحمده"(1).

الثّاني: اختُتمتْ سورةُ الإسراء بالأمرِ بالحمدِ للّه الذي لم يتَّخذْ ولدًا ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ [الإسراء: 111] وافتُتحتْ سورة الكهف بالحمدِ على إنزالِ هذا الكتاب منذِرًا للقائلين بأنّ اللّه اتّخذ ولدًا، ومبشِّرًا للمؤمنين بالأجر الحسن(2).

الثّالث: ابتُدأتْ السّورةُ الكريمة بالتَّحميدِ بعد أنْ خُتمتْ السّورة السّابقة بالأمر بالتَّكبير، فهو المحمودُ الكبير الذي ليس فوقه أحدٌ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ(3).

الرّابع: لَمّا خُتمتْ سورةُ الإسراء بأمرِ الرَّسول ﷺ بالحمدِ عن التَّنزُّه عن صفاتِ النَّقصِ؛ لكونه أعلمَ الخلقِ بذلك، بدأتْ سورة الكهف بالإخبارِ باستحقاقهِ سُبحانه الحمد على صفاتِ الكمال التي منها البَراءةُ عن كلِّ نقصٍ، منبّهًا بذلك على وجوبِ حمده بما

(1) صحيح البخاري، كتاب: الدَّعوات، باب: فضل التَّسبيح، الحديث رقم: (6406).

(2) السُّيوطي، تناسق الدُّرر في تناسب السّور، ص: 99 - 100.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4484.

شرعَ من الدّين على هذا الوجه الأحكم بهذا الكتاب القيِّم، فقال مُلقّنًا لعباده حمده، مُعلّمًا لهم كيف يثنون عليه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَبْدِهِ﴾: أصلُ (عبد) يَدُلُّ على لينٍ وذُلٍّ[2]، ومنه قولهم: طريقٌ مُعبَّدٌ، أي: سَهْلٌ مُذلَّلٌ؛ لكثرة وطء الأقدام له[3]، والعَبْدُ: الإنسانُ، يُقالُ: فُلَانٌ عَبْدُ اللّه أَيْ مَملوكٌ لَهُ، ويُجْمَعُ عَلَى عَبيدٍ وعِبادٍ وغَلَبَ الجَمعُ الأَوّلُ عَلَى عَبْدٍ بِمَعْنَى مَملوكٍ، وهو ضِدُّ الحُرِّ، وجَمعُهُ: عَبيدٌ، والجَمعُ الثّاني على عَبْدٍ بِمَعْنَى آدميٍّ، وهو تَخْصيصٌ حَسَنٌ مِنَ الاسْتِعْمالِ العَرَبيِّ[4]، والاسْتِعْبادُ والإِعْبادُ: اتِّخاذُ الشَّخْصِ عَبْدًا ورَقيقًا[5]، والعُبوديَّةُ: إظهار التَّذلُّل، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غاية التَّذلُّل، ولا يستحقّها إلّا من له غاية الإفضال، وهو اللّه تعالى[6]، والمقصودُ بالعَبْدِ في الآية: من خضع خضوعًا مُطلقًا للّه ﷻ والمُراد به: سيِّد الخَلْق محمَّد صلَّى عليه وسلَّم.

2) ﴿عِوَجَا﴾: أَصْلُ العِوجِ: المَيْلُ في الشَّيْءِ سَواءٌ كانَ حِسًّا أَوْ مَعْنًى، يُقالُ: عَوِجَ الشَّيْءُ يَعْوَجُّ عِوجًا أَيْ مالَ، وقيلَ: العَوَجُ يُسْتَعْمَلُ في كُلِّ ما كانَ مُنْتَصِبًا كالحائِطِ والعودِ، والعِوجُ في ما كانَ في بِساطٍ أَوْ مَعْنًى نَحْو دينٍ ومَعاشٍ[7]، والاعوجاجُ: الانْحِناءُ والانْعِطافُ، يُقالُ: اعْوَجَّ العودُ يَعْوَجُّ اعْوِجاجًا إذا انحنى، وكُلُّ شَيْءٍ تَعْطِفُهُ تَقولُ: عُجْتُهُ فانْعاجَ، وضِدُّ الاعْوِجاجِ الاسْتِواءُ والاسْتِقامَةُ[8]، ويُطْلَقُ الاعْوِجاجُ أَيْضًا بِمَعْنَى: الانْحِرافِ، تَقولُ: في رَأْيِ فُلانٍ اعْوِجاجٌ أَيْ: مَيَلانٌ وانْحِرافٌ عَنِ الصَّوابِ، ومِنْ مَعانيه: أَيْضًا: الزَّيْغُ والاخْتِلافُ[9]، والمُرادُ بالعِوجِ في الآية: عِوجُ مَدْلولاتِ كَلامِهِ بِمُخالَفَتِها لِلصَّوابِ وتَناقُضِها وبُعْدِها عَنِ الحِكْمَةِ وإِصابَةِ المُرادِ[10].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 2.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عبد).
(3) الجوهري، الصِّحاح، وابن سيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 7.
(5) الخليل، العين، والجوهري، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(6) الرَّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (عبد).
(7) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عوج).
(8) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عوج).
(9) الجوهري، الصِّحاح، وابن سيده، المُحكم، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عوج).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 247.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

أعظمُ نعمة من الله تعالى على عباده إنزال القُرآن الكريم

يقولُ الحقُّ تعالى مُفتتحًا سورةَ الكهف بالثَّناءِ على نفسِه: الحَمدُ للّه الَّذي أنزَلَ على عَبدِه مُحَمَّدٍ القُرآنَ، أنزَلَه والحالُ أنَّه لم يَجعَلْ فيه أيَّ نَوعٍ مِن المَيلِ والزَّيغِ عن الحَقِّ، والتَّناقُضِ والاختِلافِ، والخَلَلِ في ألفاظِه ومَعانيه؛ فأخبارُه صادِقةٌ، وأحكامُه عادِلةٌ.

فالآية الكريمة خبرٌ مِن اللّه تعالى أنَّه حمِد نفسَه، وفي ضمنِه إرشادُ العبادِ ليحمَدوه على إرسالِ الرَّسولِ إليهم، وإنزالِ الكتابِ عليهم(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الجملة الخبريّة ودلالتها في قوله ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

إنـزالُ الكِتابِ أعظمُ نعمةٍ تستوجبُ استحقاقَه سبحانه للحمدِ المطلقِ والثناءِ التامّ

موقعُ الافتتاحِ بهذا التَّحميدِ على إنزالِ الكتابِ في جُملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ كموقعِ الخُطبةِ؛ يُفتتَحُ بها الكلامُ في الغرَضِ المُهِمِّ، وغرضُه هنا التَّنويهِ بالقُرآنِ؛ بأنّه لَمّا كانَ إنزالُ القُرآنِ على النَّبيِّ ﷺ أجزَلَ نعماءِ اللّه تعالى على عِبادِهِ المُؤمنينَ؛ لأَنَّهُ لم يتركهم هَمَلًا، بل أنزلَ عليهم المَنهجَ الذي به تستقيمُ حياتهم، وبه تصلحُ أمورهم، فهو سَبَبُ نَجاتِهم في حَياتِهمُ الأبديَّةِ، وسَبَبُ فَوْزِهم في الحَياةِ العاجِلَةِ بِطيبِ الحياةِ وانتظامِ الأَحوالِ والسّيادةِ على النّاسِ، وأجزلَ نعماءِ اللّه على النَّبيِّ ﷺ بِأَنْ جَعَلَهُ واسِطَةَ ذلك ومُبَلِّغَهُ ومُبَيِّنَهُ؛ لأجلِ ذلك استحَقَّ اللّه تعالى أكملَ الحمدِ إخبارًا وإنشاءً(2)، أي فأخبَرَ أنَّ مُستحِقَّ الحمدِ هو اللّهُ تعالى لا غيرُه، وفي ضِمنِه إرشادُ العبادِ ليحمَدوه على إرسالِ الرَّسولِ إليهم، وإنزالِ الكتابِ عليه(3)، يقول

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 141، 142، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 135، وابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة الكهف، ص: 8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 246.

(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمان، ص: 469.

التَّفتازانيُّ: "كلُّ سورةٍ افتُتحتْ بالحمدِ فللإشارةِ إلى نعمةٍ من أُمَّهاتِ النِّعَم"[1].

وكذلك فإنّ جُملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جُملةٌ اسميّةٌ تدلُّ على ثبوت الحمد للّه واستقراره أزلًا وأبدًا، فهي ليستْ محدودةً بزمنٍ، بل مُطلقة من الزَّمان، بخلافِ الجُملةِ الفعليَّة التي تُحدَّد بزمن، كما لو قال: (أحمد اللّه حمدًا)، والمعنى: الحمدُ للّه ثابتٌ في كلِّ حينٍ وعلى كلِّ حالٍ، أضفْ إلى ذلك أنَّ العدول عن الجملة الفعليَّة إلى الاسميَّة لتتأتَّى كذلك الدَّلالة على العموم المُستفاد في المقام من أل الجنسيَّة، والدَّلالة على الاهتمام المُستفاد من التَّقديم، وليس واحد من هذه الثَّلاثة بممكنِ الاستفادة لو بقيَ المصدرُ منصوبًا[2].

وبالتّالي فيجبُ على المسلم ألّا ينقطعَ عن الحمدِ، ولذا جعلَ اللّهُ لها عظيمَ الأجر وجزيلَ الثَّواب، فقال النَّبي ﷺ: "والحمدُ للّهِ تملأُ الميزانَ، وسُبحانَ اللّهِ والحمدُ للّهِ تَملآنِ أو تملأُ ما بين السَّماواتِ والأرضِ"[3].

بلاغة تقديم لفظ الحمد على الاسم الجليل:

في التَّقديم تذكيرٌ بعِظَمِ نِعمَةِ تنزيلِ القرآن وبوجوبِ المُسارعةِ بالحمدِ عليها

قدَّم البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ رغم أنَّ ذِكْرَ اسم اللّه تعالى أهمُّ؛ لأنَّ المقامَ هُنا مقامُ الحمد؛ إذ هو ابتداءُ أوّلَى النِّعم بالحمدِ، وهي نِعمَةُ تنزيلِ القرآنِ الذي فيه نجاحُ الدّارين، فتلك المِنَّةُ من أكبرِ ما يُحمَدُ اللّه عليه من جلائلِ صفات الكمال لا سيما وقد اشتملَ القرآنُ على كمالِ المعنى واللَّفظ والغاية، فكان خُطورُهُ عند ابتداءِ سماعِ إنزاله وابتداءِ تلاوته، مُذَكِّرًا بما لِمُنْزِلِهِ تعالى من الصِّفاتِ الجميلة، وذلك يُذَكِّرُ بوجوبِ حَمدِهِ، وأَنْ لا يُغْفَلَ عَنْهُ، فكان المقامُ مقامَ الحمدِ لا محالة، فلذلك قُدِّم[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 4.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 157.
(3) صحيح مسلم، كتاب: الطَّهارة، باب: فضل الوضوء، الحديث رقم: (223).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 158.

دلالة (ال) في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾:

هو المحمودُ سُبحانه ولا محمودَ بحقٍّ سواه وكلُّ آحادِ الحمدِ تعودُ إليه

أل التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للاستغراق، أي استغراق كُلِّ الحمد وأعلاه، فالحمدُ المُطلَقُ الكاملُ بكلِّ أفراده هو مُختصٌّ باللّه سُبحانه، فهو المحمودُ ولا محمودَ بحقٍّ سواه، وكلُّ آحادِ الحمدِ تعودُ إليه بإطلاق، وليسَ لغيره حمدٌ إلَّا نسبيٌّ، وفي دائرةٍ محدودةٍ، هي دائرةُ المخلوق الذي لا يملكُ شيئًا إلّا من اللّه تعالى[1]، فهو صاحبُ النِّعم كلِّها، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 53]، وإذا كانتْ النِّعم كلُّها مِن اللّه فالحمدُ سيكون للّه سُبحانه.

سِرُّ اختصاص الحمد باسم الجلالة دون غيره من الأسماء:

اختصاصُ الحمدِ باسمِ الجلالة لإحاطةِ ذاته الشَّريفة بصفاتِ الكمال

اختصَّ البيانُ القرآني الحمدَ باسم الجلالة ﴿لِلَّهِ﴾ دون غيره من الأسماء الحُسنى في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ للإحاطةِ بصفاتِ الكمالِ والجلالِ التي يدلُّ عليها اسم اللّه الجليل، أي المُستحِقُّ لذلك لذاته[2]، ولأنَّه الأنسبُ للسّياق؛ الذي هو سياقُ علوٍّ ورفعةٍ وعظمةٍ ومَهابةٍ للمُنزِل (اللّه) المتفضِّل بعظيم العطاءِ، وللمنزَل ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي هو أعظمُ النَّعماء، وللمنزَلِ عليه ﴿عَبْدِهِ﴾ الذي هو خاتمُ الأنبياء، ولتربيةِ مهابةِ اللّه في النُّفوس، بذِكْر الاسم الأعظمِ الجامع لكلِّ صفاتِ الجلال والجمال والكمال.

نكتة استعمال اسم الموصول في قوله ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾:

ترتيبُ استِحقاقِ الحَمدِ على نعمةِ إنزالِ القرآن إيذانٌ بكونها أعظمَ نعمائه

وصفَ البيانُ القرآنيُّ اسم الجلالة بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي رَتَّبَ استِحقاقَ الحَمدِ على إنزالِه؛ لأمور:

الأوَّل: تنويهًا بمضمونِ الصِّلةِ، أي إيذانًا بعِظم شأنِ التَّنزيلِ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4484.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 2.

الجليلِ، كيف لا وعليه يدورُ فَلَكُ سعادةِ الدّارين[1]، وهو أعظَمُ نَعْمائِه سُبحانه؛ وذلك لأنَّه الهادي إلى ما فيه كَمالُ العِبادِ، والدّاعي إلى ما به يَنتَظِمُ صَلاحُ المَعاشِ والمَعادِ[2]، والحاصلُ أنَّ إنزالَ الكتابِ نعمةٌ فيها كلُّ النِّعمِ المُستوجبةِ للحمد[3].

الثّاني: إشعارًا بعِلّيَّة ما في حَيِّزِ الصِّلَةِ لاستحقاق الحمدِ[4]؛ لأنَّ ترتُّبَ الحُكْمِ عَلى الوصفِ المُناسبِ يُشعرُ بالعلّيِّة[5]، أي إنَّ صلةَ الموصول تُشيرُ إلى سببِ الحمدِ، أو بعض أسبابه، فإنَّ الحمدَ لا يكونُ إلّا بنعمةٍ، وهذه النِّعمةُ أجَّل النِّعمِ وأعظمها في الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّها نعمةُ إنزالِ الكتابِ على عبده[6]، الذي منافعُ إنزاله متعديَّةٌ غير قاصرة، ألّا ترى أنَّه قال: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وإنزالهُ نعمةٌ عليه ﷺ بأنْ أطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على أسرارِ علوم التَّوحيد والتَّنزيه، وصفاتِ الجلال والإكرام، وأسرارِ أحوالِ الملائكة والأنبياء وأحوالِ القضاءِ والقدر وغير ذلك، ونعمةٌ علينا؛ لأنَّه مشتملٌ على التَّكاليفِ والأحكامِ والوعد والوعيد والثَّواب والعقاب[7].

الثّالث: تنويهًا بشأنِ النَّبيِّ ﷺ، بأنَّ إنزالَ الكتابِ عليه يقتضي كونَه مُكَمِّلًا للأرواح البشريَّةِ، وناقلًا لها من حضيضِ البهيميَّةِ إلى أعلى درجاتِ المَلَكيَّةِ، وهذا تنبيهٌ على أنَّ أعلى مقاماتِ العبادِ مقامًا أنْ يصيرَ العبدُ عالمًا في ذاته مُعلِّمًا لغيره[8].

إيثار استخدام الفعل ﴿أَنزَلَ﴾ وصيغته:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالفعل ﴿أَنزَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ الذي يدلُّ على الإنزالِ جُملة، دون الفعل (نَزَّل) الذي يَدُلُّ على النُّزول المفرَّق، أي عَبَّرَ بالإنزالِ دونَ التَّنزيلِ؛ مُراعاةً للمعنى المقصود، وهو وصفُ جُملةِ الكتابِ بالإعجازِ بأنَّه لا عِوج فيه، وأنَّه قيِّمٌ من غيرِ نَظَرٍ إلى التَّفريقِ والتَّدريجِ[9]، بخلاف قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 202، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 246.
(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 272.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 4.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 202، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 246.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 3.
(6) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4484.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 422.
(8) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 421.
(9) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 3.

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: 1] فإنَّه جاء بالفعل الذي يُفيدُ التَّفريقَ والتَّدريج ﴿نَزَّلَ﴾ [الفرقان: 1]؛ لأنَّ المعنى المقصود في سورة الفرقان تكرارُ الإنذار؛ لكونه أوقعَ في القلوب وأعظمَ في التَّأثير، وأصدعَ وأردعَ، والنّاسُ بحاجةٍ إلى إنذارٍ بشكل مُستمرٍّ، كما أنَّ كلمةَ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: 1] فيها معنى التَّفريق، فهي فارقٌ بين كلِّ ملتبسٍ، وفارقٌ بَيْنَ الحَقِّ والباطل.

التَّعبيرُ بالإنزالِ مُراعاةً للمعنى المقصود وهو وصفُ جُملةِ الكتابِ بالإعجازِ

وأمّا التَّعبير بصيغة الماضي ﴿أَنزَلَ﴾ مع أنَّ الكتاب ما زال ينزِل؛ فإنَّه إمّا للإشارةِ إلى النُّزولِ الأوَّل جُملةً إلى بيتِ العِزَّة في السَّماءِ الدُّنيا ليلة القدر، أو للإشارةِ إلى اليقينِ بتحقُّقِ اكتمالِ نزوله، أي كأنَّه وقعَ حتَّى صحَّ أن يُخبر عنه أنَّه قد حصل.

فائدة الجارِّ والمجرور ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾:

قرآنٌ عظيمٌ نزلَ من اللهِ العظيمِ على عبده النَّبيِّ العظيمِ

عبّرَ البيان القرآنيُّ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ تنويهًا بمقامِ المُنْزِلِ ﷻ، والمُنزَلِ وهو القرآن الكريم، والمنزَلِ عليه وهو النَّبي ﷺ، ومقامهم مقامُ علوٍّ ورفعةٍ، وذلك لكون ﴿عَلَىٰ﴾ يُفيدُ الاستعلاء، والتَّنزُّل لا يكون إلّا من علوٍّ، قال الرّازي: "وإنزالُ الكتابِ عليه عبارة عن إنزالِ نور الوحي عليه من فوق إلى تحت"(1)، وهذا فيه من الكمالِ والرِّفعةِ ما فيه، ومُناسبةً للسّياق الذي هو سياقُ علوٍّ ورفعةٍ وعظمة لمنزل القرآن سُبحانه باستعمالِ الاسم الجليل (الله)، وللقرآنِ باستعمالِ الاسم الجامعِ لكلِّ الكمالات ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾، وللنَّبيِّ ﷺ باستعمالِ لفظ ﴿عَبْدِهِ﴾ وتقديمه على لفظ ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾، كما أنَّ مجيءَ الجارِّ والمجرور أفادَ تقييدَ نزول القرآن بأنَّه على عبده (محمَّد ﷺ) لا على أحدٍ غيره، وهذا فيه من التَّكريمِ والتَّشريف والتَّعظيم لمقامِ النَّبيِّ ﷺ ما فيه.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 422.

فائدة ذكر النَّبيِّ ﷺ في قوله ﴿عَبۡدِهِ﴾:

اختصاصُ النَّبيِّ بإنزالِ القُرآن عليه بيانٌ لغايةِ كمالِ درجاتِه ورفعةِ قدرِه

خَصَّ اللّه سُبحانه رَسولَه ﷺ بالذِّكر بعد أنْ أَثْنَى اللّه عَلَى نَفْسِه بإِنْعامِهِ على خلقه في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ولم يقل: (الذي أنزل الكتاب)؛ لأنَّ إنزالَ القُرآنِ عليه كان نِعمةً على الخُصوصِ، وعلى سائِرِ النّاسِ على العُمومِ[1].

إيثار لفظ العُبوديَّة في قوله ﴿عَبۡدِهِ﴾:

عبوديَّتُه ﷺ صفةُ تشريفٍ وتفخيمٍ ورفعٍ للمقام

عدلَ البيانُ القرآنيُّ عن الخطابِ بأن يقول: أنزل الكتاب عليك، كقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ [الكهف: 6] إلى ذكرِ النَّبيِّ ﷺ بوصفِ العبوديَّة للّه؛ تقريبًا لمنزلتِه وتنويهًا بما في إنزالِ الكتابِ عليه من رفعةِ قدرِه وتفخيم شأنِه وتكريمه كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: 1][2]، وتنبيهًا على علّة تخصيصه بالإنزالِ عليه[3]، وهي عبوديَّتُه للّه تعالى، لإمعانِه في الخُضوعِ والتَّواضعِ للّه تعالى، وهي حيثيَّة الرَّفعِ ذاتها في الإسراءِ والمعراج إذ قال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، وهي الصِّفةُ التي ذكرها اللّه لخيارِ خَلْقِه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١﴾ [الصّافات: 171].

لطيفةُ الإضافة وشرفُها في قوله ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِ﴾:

في الإضافة إلى اللهِ إعلامٌ بتشريفه النَّبيَّ ﷺ وتنبيهٌ على بلوغِهِ أعلى معارجِ العبادةِ

أضافَ البيانُ القرآنيّ لفظ (عبد) إلى اللّه سُبحانه في قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ إعلامًا بتشريفه ﷺ[4]، وتنبيهًا على بُلوغه ﷺ أعلى معارجِ العبادة، وإشعارًا بأنَّ شأنَ الرَّسولِ أنْ يكونَ عبدًا للمُرسِل لا كما زعمتْ النَّصارى في حقِّ عيسى عليه السلام[5].

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 3/ 172.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 247.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 3.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 3.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 202.

وإشعارًا بأنّه مَهما سَمَتْ منزلته ﷺ، وعَلَتْ مكانته فهو عبدُ اللّه تعالى، وأنَّ الذين عبدوا مع اللّه تعالى بعض مخلوقاته، قد ضَلّوا ضلالًا بعيدًا[1].

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور على معمول ﴿أَنزَلَ﴾:

في التَّقديمِ دلالةٌ على صحَّةِ رسالتِه بتخصيصِه بما لا يقدرُ عليه غيرُه

تأخيرُ المفعول الصَّريح ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ عن الجارِّ والمجرور ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مع أنَّ حقَّه التَّقديمُ عليه، للدَّلالة على صِحَّة رسالته بما لا تحتاجُ فيه قريش إلى سؤالِ اليهود ولا غيرهم من تخصيصه بما لا يقدرُ عليه غيره من إنزالِ القرآن عليه[2].

وكذلك لمزيدِ الاهتمامِ بكونِ النَّبيِّ ﷺ عبدَه، فإنَّه عبدُ اللّه ومبلّغُ رسالته، ومن اختصّه لنبوَّته، وهو أعلمُ حيث يجعلُ رسالته[3]، وأنَّه الذي أسرى به إلى حضراتِ مجدِه ليُريَهُ من آياته[4].

وأيضًا ليتَّصل بلفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ قوله تعالى ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾[5]، أي الكتاب الذي ليس فيه شيءٌ من العِوج.

إيثار لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على لفظ (القرآن):

القرآنُ هو الكتابُ الكاملُ الغنيُّ عن التَّعريفِ الحقيقُ باختصاصِ هذا الاسم

آثر البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ للإشارة إلى كمالِ الكتابِ في ذاته وشُهرته؛ فهو الجديرُ بأنْ يُسمَّى كتابًا، وليس غيره جديرًا بهذه التَّسمية، وله ذلك الشَّرف الذّاتي؛ لأنَّه يشتملُ على كلِّ ما يُصلِحُ البشرَ في معاشهم ومعادهم، وله شرفٌ آخرُ إضافيٌّ؛ وهو أنَّه مُنزَّلٌ من اللّه سُبحانه[6]،

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 466.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 3.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4485.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 3.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 202.
(6) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4485.

أي: أنزلَ سُبحانه على عبده محمَّدٍ ﷺ الكتابَ الكاملَ في بابه، الغنيَّ عن التَّعريف، الحقيقَ باختصاصِ هذا الاسم به، المعروفَ بهذا الاسم من بينِ سائرِ الكتب[1]، الجامعَ لمعاني الكُتُبِ السّابقة[2].

وتوجيه آخر، وهو الدّلالة على أنَّ هذا الوحي سيُحفظ كتابةً في السُّطور، وهو دليلٌ على أنَّ اللّهَ جعل هَدْيَهُ موثَّقًا مكتوبًا، ولم يجعله هديًا شفويًّا فقط، وإذا كان كتابًا، وتكفَّل اللّهُ بحفظهِ فلا يُمكن أنْ يُغيَّر ولا أنْ يُبدَّل.

معنى أل التَّعريف في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

اللّامُ العهديّةُ بيانٌ لعظمةِ الكتابِ الجامعِ لمعاني الكمالِ في ذاته

أل التَّعريف في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ عهديَّةٌ؛ ومعهودها ذهنيٌّ، وكأنَّه لا يوجد كتابٌ غيره باعتبارِهِ أكملَ الكتب على الإطلاق، ولأنَّ الذي أُنزلَ على رسول اللّه ﷺ كتابٌ واحدٌ هو القرآن الكريم، ولأنَّ اسم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من أسماء القرآن الكريم، أي المُراد بالكتاب هو جميعُ القرآن الكريم، أو جميع المُنَزَل حينئذ، أي ما وقعَ إنزاله من يوم البعثة في غار حراء إلى يوم نزول هذه السّورة[3]، فيكون من بابِ التَّعبير عن البعضِ بالكُلِّ تحقيقًا للنُّزولِ للجميع[4]، والكتاب حيثما ذُكر في القُرآن يُراد به القُرْآن ما لم يُصرف عنه بقرينة، وهُنا كَذَلكَ[5].

دلالة الواو في قوله ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل﴾:

الواو بَيْنَ العاطفةِ والاعتراضيَّةِ والحاليَّةِ إبطالُ ما يَرمي به المشركون الكتابَ من العوج

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ تحتمل أن تكون عاطفة، والمعطوفُ عليه الصِّلة قبلَها: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ﴾[6]، فتكون

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 202.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 3.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 247.
(4) الطّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 466.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 3.
(6) السَّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 7/ 433.

جُملة ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ من جملة المحمودِ عليه[1]، والمعنى: الحمدُ لله على نعمةِ إنزال الكتاب، ونعمةِ سلامته من العِوج.

وتحتمل أن تكون اعتراضيَّةً، والجُملةُ بعدها مُعترِضةٌ بَيۡنَ الكتاب وبَيۡنَ الحال منه؛ وهو ﴿قَيِّمٗا﴾، والتَّقدير: (أنزل الكتاب على عبده قَيِّمًا، ولم يجعلْ له عِوجًا).

وتحتمل أن تكون حاليَّةً من الكتاب، والجُملة بعدها حاليَّةٌ، و﴿قَيِّمٗا﴾ حالٌ أخرى للكتاب؛ تصريحًا بما يلزم عن كونه لا عِوجَ فيه تأكيدًا له، والمعنى: أنزلَ على عبد الكتاب، والحالُ أنَّه لم يجعلْ له شيئًا من عِوج في مدلولاتِ كلامه بمُخالفتها للصَّوابِ وتناقضها وبعدها عن الحِكمة وإصابةِ المُراد، بل هو مستقيمٌ في جميعِ معانيه من غيرِ اختلاف أصلًا، هادٍ إلى كُلِّ صواب[2].

والمقصود من هذه الجملة المُعترضة أو الحاليَّة أو العاطفة إبطالُ ما يرميه به المشركون من قولهم: (افتراه، وأساطير الأوَّلين، وقول كاهن)؛ لأنَّ تلك الأمور لا تخلو من عِوجٍ، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء: 82][3].

نُكتة استعمال المُضارع المنفيِّ ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل﴾ دون الماضي (ما جعل):

إعجازُ القُرآنِ بانتفاءِ العِوج عنه مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ مهما امتدَّ الزَّمان

أفادَ صوغ ﴿يَجۡعَل﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل﴾ بصيغة المُضارع المنفي الذي يدلُّ على تجدُّد واستمرارِ هذا النَّفي، أي إنَّ انتفاءَ الخَللِ والعَيۡبِ في لفظِ القرآن وفي معناه أمرٌ مُتجدِّدٌ مُستمِرٌّ مهما امتدَّ الزَّمانُ وتطوَّرتِ العلوم، وهذه المعاني لا يدلُّ عليها التَّعبير بالفعل الماضي فيما لو قال: (ما جعل).

(1) الصَّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1088.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 3.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 247.

سِرُّ تعدية الجَعْلِ بـ(اللّام) دون (في):

في التَّعدية باللّامِ نفيُ قابليَّةِ الكتابِ للعِوج وإمكان ذلك فيه

عدَّى البيانُ القُرآنيُّ الجعْل باللّام دون (في) في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾؛ لأنَّ العِوجَ المعنويَّ[1] يُناسِبُه حرفُ الاختصاصِ دونَ حرْفِ الظَّرفيَّة؛ لأنَّ الظَّرفيَّةَ من علائقِ الأجسام، وأمّا معنى الاختصاص فهو أعمُّ، فالمعنى: أنَّه مُتَّصِفٌ بكمالِ أوصافِ الكُتُبِ من صِحَّةِ المعاني والسَّلامةِ من الخطأ والاختلافِ، وهذا وصْفُ كمالٍ للكتابِ في ذاته، وهو مُقْتَضٍ أنَّه أَهلٌ للانتفاعِ به[2]، أي أنَّه مُستقيمٌ لا عِوجَ فيه مُنذُ البداية، فهذا من خصائصه، ولو قال: (ولم يجعل فيه عوجًا) لكان من المُحتمل أنَّ هذا العِوجَ حدثَ للقُرآن في زمان ما ثُمَّ زالَ عنه، يقول البِقاعي: "لمّا كان الجامعُ لا يخلو من عِوجٍ أو قابليَّةٍ له إلّا إنْ كان من علّام الغيوب نفى القابليَّةَ والإمكانَ دلالةً على أنَّه من عنده"[3].

سِرُّ تقديم ﴿لَّهُۥ﴾ على ﴿عِوَجَاۜ﴾:

في التَّقديمِ بيانٌ لأهميَّةِ الكتابِ الكاملِ وإعجازه وحِفْظِهِ وضرورةِ الاعتناءِ به

قدَّم القرآنُ الجارَّ والمجرور ﴿لَّهُۥ﴾ على ﴿عِوَجَاۜ﴾ في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾؛ للفتِ الانتباهِ إلى شِدَّةِ عنايةِ اللّهِ بهذا الكتاب الخاتم، وإلى إعجازه وخلوِّه من أيِّ نقصٍ أو خلل؛ إذ (الهاء) ضَمير عائدٌ إلى الكتاب.

وللتّنبيه بضرورةِ الاهتمامِ والعنايةِ بالكتاب الجامع للكمالات.

ولإفادةِ اختصاصِ الكِتابِ الخاتمِ بحفظه من التَّحريف دون غَيْرِه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9].

---

(1) العِوَج بكسر العين أكثر ما يكون استعمالًا في المعاني، تقول: هذا كلام لا عوجَ فيه، أي: لا ميلَ فيه، وأمَّا العَوَجُ - بفتح العين - فأكثر ما يكون استعمالًا في الأعيان تقول: هذا حائطٌ فيه عَوَجٌ، الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 465.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 248.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 3.

توجيه الوقف على قوله ﴿عِوَجَاۜ﴾:

في الوقف على (عِوجًا) ضَربٌ من البيان

قَرَأَ حَفْص ﴿عِوَجَاۜ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ بسكتةٍ لَطيفَةٍ من غيرِ قطع، ولا تَنْوين على الألف[1]، وهذا الوقفُ غيرُ تامٍّ؛ لأنَّ المعنى: الحمد للّه الذي أنزل على عبده الكتاب قَيِّمًا ولم يجعل له عوجًا[2]، ولكنْ يُحَسِّنُ هذا الوقفَ أنّه يُبَيِّنُ أنَّ ﴿قَيِّمٗا﴾ مُنفصلٌ عن ﴿عِوَجَاۜ﴾، وأنَّه حالٌ في نيَّةِ التَّقديم[3]، أو أنْ يكون ﴿قَيِّمٗا﴾ منصوبًا بفعل مضمرٍ تقديره (أنزله قَيِّمًا)[4]، وأنَّ جُملةَ ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ مُعترضةٌ؛ ولأنَّ في السّكت مباعدةً بين وصفين متباعدين في المعنى، متقاربين في البناء[5].

إيثارُ لفظ ﴿عِوَجَاۜ﴾ دون غيرها:

نَفيُ العِوجِ هو نـفـيٌ عـن أيِّ ميلٍ أو انحرافٍ أو انـحـنـاءٍ أو فسادٍ وهو عَيْنُ الاستقامة

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظ ﴿عِوَجَاۜ﴾ دون غيره من المُرادفات، مثل: (الزَّيغ، الضَّلال، المَيْل) في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾؛ لأمرين:

الأوَّل: لاتِّساع دلالة لفظ ﴿عِوَجَاۜ﴾؛ إذ يشتملُ على معانٍ أكثر من غيرها، فمن معاني العِوج (الميل، والانحناء، والانحراف، والالتواء، والفساد) كما أنَّه يُستعمل في المعاني الماديَّة واللُّغويَّة.

الثّاني: لمُناسبته السّياق؛ الذي يشتملُ على لفظ ﴿قَيِّمٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾؛ إذ إنَّ العِوجَ في اللُّغة ضِدُّ الاستقامة، من قولهم: "وعَوَّجْت الشَّيءَ ضِدُّ قَوَّمته"[6]، ولفظ ﴿قَيِّمٗا﴾ يعني في اللُّغة الاستقامةَ والاعتدالَ مع حُسن، من قولهم:

---

(1) الدَّاني، التَّيسير في القراءات السَّبع، ص: 142.
(2) الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 2/ 756.
(3) السُّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 295.
(4) ابن الجزري، النَّشر في القراءات العشر: 1/ 426.
(5) محمَّد الأسلمي، التَّفسير والمُفسِّرون في غرب أفريقيا: 2/ 598.
(6) الزَّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (عوج).

وخُلُقٌ قَيِّم أَيْ مُسْتَقيم حسَن[1]. فالبيانُ القرآنيُّ بعد نفي العِوجِ عن القرآن أوَّلًا أثبتَ استقامته ثانيًا، أي ليس فيه خَلَلٌ ولا نقصٌ بوجهٍ من الوجوهِ، لا في ألفاظه، ولا في مَعانيهِ، وهذا يستلزمُ كمالَ اعتدالِه واستقامتِه بأنْ يكون قيّمًا مُعتدلًا لا إفراطَ فيه ولا تفريط، وقيِّمًا على غيره من الكتب، فهو مكمِّلٌ لغيره، وقائمٌ على مصالحِ العباد.

كما أنَّ معنى العوج الذي يُستعمل في المعاني المادّيَّة واللُّغويَّة يتناسبُ مع حالِ القرآن الذي هو ألفاظٌ مقروءةٌ ومكتوبةٌ.

دلالة تنكير لفظ ﴿عِوَجَاۜ﴾:

كتابُ اللهِ منزَّهٌ عن أي عِوجٍ بأيِّ وجهٍ من الوجوهِ

نَكَّر البيانُ القرآني لفظ ﴿عِوَجَاۜ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾؛ لإفادة العُموم؛ إذ النَّكرة في سياق النَّفي تفيد تعمُّ[2]، أي تشملُ نفيَ كُلِّ أنواع العِوج؛ أي: خالٍ من أيِّ عِوجٍ مهما كان ضئيلًا، لا من خارجه ولا من أصلِ تكوينه، والمعنى: لم يجعلْ له سُبحانه أيَّ شيءٍ من العِوج بنوعِ اختلالٍ في النَّظم وتَنافٍ في المعنى، أو انحرف عن الدَّعوة إلى الحَقِّ[3]، فهو في غايَةِ الاِسْتِقامَةِ لا تَناقُضَ ولا اخْتِلافَ في مَعانيهِ، ولا حَشو ولا ركاكة في تراكيبه ومبانيه[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العِوج والزيغ والميل والضَّلال:

العِــوجُ ضدُّ الاستقامة مُطلقًا، والزَّيغُ انحرافٌ شديدٌ عن الاتجاهِ المُستقيم، والميلُ انحرافٌ إلى أحدِ الجانبين، والضَّلالُ ضدُّ الهدى والرَّشاد

تشتركُ جميع هذه الألفاظ (العوج، الزَّيغ، الضَّلال، الميل) في معنى الانحراف عن الاتجاه المُستقيم، إلّا أنَّ لِكُلٍّ من هذه الألفاظ ما يُميِّزه، ويتَّضح ذلك من خلال إمعان النَّظر في أصلها ومعناها اللُّغويِّ:

أوّلًا: العوجُ: أصلُ (عَوجَ) يَدُلُّ عَلَى مَيَلٍ في الشَّيْءِ أَوْ مَيْلٍ[5]،

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (قوم).
(2) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 466.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 202.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 135.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عوج).

وعَوِجَ الغُصنُ: مال، انحنى، التوى، ضِدُّ استقام، وعَوِجَ المَرءُ: ساءَ خُلُقه، وانحرفَ دينُه، وعِوجُ الدّينِ والخُلُقِ: فَسادُه ومَيْلُه، وعَوَّجْتُ الشَّيءَ ضِدُّ قَوَّمته[1].

ثانيًا: الزَّيغ: أَصْل (زَيَغ) يَدُلُّ عَلَى مَيْلِ الشَّيْءِ، وزاغَت الشَّمسُ: مالَتْ وفاءَ الفَيْءُ[2]، وزاغ: مالَ عنِ القَصْدِ، وزاغَ عنِ الطَّريقِ: عَدَلَ[3]، والزَّيغ: الميلُ عن الاستقامة، والزّائغ: المائل[4].

ثالثًا: الميلُ: أصلُ (مَيَلَ) يَدُلُّ عَلَى انْحِرافٍ في الشَّيْءِ إِلَى جانِبٍ مِنْهُ[5]، فالميلُ: العدولُ من جهةِ الوسط إلى أحدِ الجانبين، ويُستعمَلُ في الجَوْر[6]، ومالَ عَنْ الطَّريقِ: تَرَكَهُ وحادَ عَنْهُ، ومالَ الحائِطُ: زالَ عن استوائه، وانحرفَ، وانعطفَ، وعدلَ عمّا كان عليه[7].

رابعًا: الضَّلال: أصلُ (ضَلَّ) يدلُّ على ضياعِ الشَّيءِ وذهابِهِ في غيرِ حقِّه[8]، وهو ضِدُّ الهُدى والرَّشاد، والضَّلالُ يُقال لِكُلِّ عُدُلٍ عَن الحَقِّ، عَمدًا كانَ أَو سَهوًا، يَسيرًا كانَ أَو كثيرًا[9].

إذن: يتميَّز لفظ (العوج) بأنَّه ضِدُّ الاستقامة، ويُستعمل في المعاني الماديَّة واللُّغويَّة.

ويتميَّز لفظ (الزَّيغ) بمعنى الانحراف بشِدَّة عن الاتجاهِ المُستقيم إلى جهة أُخرى.

ويتميَّزُ لفظ (الميل) بمعنى الانحراف إلى أحدِ الجانبين، ويُستعمل كثيرًا في الجور.

ويتميَّز لفظ (الضَّلال) بمعنى الضَّياع، وبأنَّه ضِدُّ الهُدى والرَّشاد.

وقد ذكر العسكري الفرق بَيْنَ الزَّيغ والميل: وهو أنَّ الزَّيغَ مُطلَقًا لا يكون إلّا الميل عن الحقِّ، يُقال: فلانٌ من أهلِ الزَّيغ، ويُقال أيضًا: زاغَ عن الحقِّ، ولا أعرف زاغ عن الباطل؛ لأنَّ الزَّيغ اسمٌ لميلٍ مكروه، ولهذا قال أهل اللُّغة: الفرغُ زيغٌ في الرُّسغ، والميلُ عامٌّ في المحبوبِ والمكروه[10].

---

(1) الزَّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (عوج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زيغ).
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (زوغ).
(4) السَّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: 2/ 157، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 3/ 154.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ميل).
(6) الرَّاغب، المُفردات، ص: 784، والسَّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: 4/ 133.
(7) الفيومي، المصباح المنير، ومعجم اللُّغة العربيَّة المُعاصرة: (ميل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضل).
(9) الزَّبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(10) العسكري، الفروق اللُّغويَّة بترتيب وزيادة، ص: 269.

﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣﴾

[الكهف: 2 - 3]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

كِتابُ اللهِ قَيِّمٌ لا عِوجَ فيهِ يُنْذِرُ الكافِرينَ ويُبَشِّرُ المُؤْمِنينَ

لمّا وصفَ اللّهُ تعالى الكتابَ بما له من العَظمةِ في جميعِ ما مضى من أوصافه؛ من الحكمة والإحكام، والتَّفصيلِ والبيان، والحقيَّة، والإخراج من الظُّلماتِ إلى النّور، والجمعِ لِكُلِّ معنى والتِّبيانِ لِكُلِّ شيء، وأنَّه الكتابُ الذي يقوِّم الاعوجاجَ ويهدي إلى الحقِّ، أتبعهُ بذكرِ فائدته، وسببِ إنزاله، مُقدِّمًا ما هو الأهمُّ من درءِ المفسدةِ بالإنذارِ، فقال: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ ثُمَّ بِجَلْبِ المصلحة بقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَيِّمٗا﴾: الأصلُ (قوم) يدلُّ على انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ، قَوَّمتُ الشَّيْءَ تَقْويمًا، وأَصْلُ القيمَةِ الواوُ، وأَصْلُهُ أَنَّكَ تُقيمُ هَذا مَكانَ ذاكَ، ومِنَ البابِ: هَذا قِوامُ الدّينِ والحَقِّ، أَيْ بِهِ يَقومُ[2]، والقَيِّمُ: صِفَةُ مُبالَغَةٍ مِنَ القيامِ المَجازيِّ الَّذي يُطلَقُ على دَوامِ تَعَهُّدِ شَيْءٍ ومُلازَمَةِ صَلاحِهِ[3]، والقَيِّمُ أيضًا: هو المُسْتَقيمُ[4]، والدِّينُ القَيِّمُ: المُسْتَقيمُ الَّذي لا زَيْغَ فيهِ ولا مَيْلَ عَنِ الحَقِّ، والقَيِّمُ كذلك: الَّذي يَتَوَلَّى القيامَ بالأمرِ رِعايَةً لهُ وحِفْظًا، وقيِّمُ القَوْمِ: الَّذي يَقومُ بِشأْنِهِم ويَسوسُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 6.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قوم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 248.
(4) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المُحكم: (قوم).

أمرَهُم، وقَيِّمُ المرأة: زَوجُها، وقَيِّمُ اليَتيم: هو الَّذي يقومُ بأمرِه، ويَتَعَهَّدُ شُؤونَهُ بالرِّعايَةِ والحِفْظِ[1]، والمُرادُ بالقيِّمِ في الآية: المُستَقيمُ، أو المُقَوِّمُ لأمورِ مَعاشِهم ومَعادِهم.

2) ﴿بَأۡسٗا﴾: الأَصْلُ (بأس) يدلُّ على الشِّدَّةِ وما ضارَعَها[2]، البأْسُ والبَئِسُ، على مثالِ فَعِلٍ، العَذابُ الشَّديدُ والبأْس أيضًا: الحَرْبُ ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى قيلَ لا بَأْسَ عليكَ، ولا بَأْسَ، أَي: لا خَوْفَ[3]، ورَجُلٌ ذو بَأْسٍ وبَئِيسٌ، أَي: شُجاعٌ، والبُؤْسُ: الشِّدَّةُ في العَيْشِ[4]، والمُرادُ بالبأْسِ في الآية: شِدَّةُ الحالِ في الحَياةِ الدُّنْيا[5].

3) ﴿مِّن لَّدُنۡهُ﴾: الأصلُ (لدن) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، يُقالُ لِلَّيِّنِ مِنَ القُضْبانِ: لَدْنٌ[6]، ولَدُنْ: ظَرْفٌ غَيْرُ مُتَمَكِّنٍ بِمَنْزِلَةِ (عِنْدَ)، وهو أخصّ منها؛ لأَنَّه يدلّ على ابتداء نهاية، نحو: أقمتُ عنده من لدن طلوع الشَّمس إلى غروبها، فيوضع لدن موضع نهاية الفعل، وقَدْ أَدخلوا عَلَيْه (مِنْ) وحْدَها مِنْ حُروفِ الجَرِّ، قالَ تَعالَى: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ [النِّساء: 67][7]، والمُراد بقوله: ﴿مِّن لَّدُنۡهُ﴾ في الآية: مِنْ قِبَلِه أو مِنْ عِنْدِه.

4) ﴿مَّٰكِثِينَ﴾: أَصْلُ المَكْثِ يَدُلُّ على تَوقُّفٍ وانْتِظارٍ وتلبُّثٍ في المَكانِ[8]، يُقال: رَجُلٌ مَكِيْثٌ قَد مَكَثَ مَكاثَةً: وهو الرَّزِيْنُ الَّذي لا يَعْجَلُ في أمرِه[9]، والماكِثُ: المنتظر[10]، والمُكْثُ: المَقام، مَكَثَ يمكثُ مَكْثًا ومُكوثًا، وهو ماكثٌ، وقد قالوا أيضًا: رَجُلٌ مَكِيْثٌ: إذا أَقامَ بالمَكانِ[11]، والمقصود بالمُكْثِ في الآية: الاستقرار في المكان[12].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أنزَلَ اللهُ تعالى القُرآنَ على نَبيِّه مُحَمَّدٍ مُستَقيمًا، قائِمًا على مَصالِحِ العِبادِ في دينهم

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (قوم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بأس).
(3) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (بأس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المُحكم: (بأس).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 249.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لدن).
(7) الجوهري، الصِّحاح، والرَّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لدن).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن الأثير، النِّهاية: (مكث).
(9) ابن عبَّاد، المُحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (مكث).
(10) الخليل، العين: (مكث).
(11) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (مكث).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 250.

ودُنياهم، مُهيمِنًا على سائِرِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، مُصَدِّقًا لها، وشاهِدًا بصِحَّتِها؛ ليُنذِرَ الكافِرينَ عَذابًا شَديدًا في الدُّنيا والآخِرةِ، يأتيهم مِن عِندِ اللهِ؛ وليُبَشِّرَ المُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه وبكُلِّ ما يَجِبُ عليهم الإيمانُ به، وقد صَدَّقوا إيمانَهم بقيامِهم بالأعمالِ الصّالِحةِ؛ ويُبَشِّرُهم بأنَّ لهم ثَوابًا عَظيمًا جَميلًا، وهو الجنَّةُ، والحالُ أنَّهم باقونَ في الأجرِ الحَسَنِ الَّذي أعَدَّه اللهُ لهم، بلا زَوالٍ ولا انقِطاعٍ[1].

مُضاعفةُ ثواب الحسنات للمؤمنين ومنح الأجر العظيم وهو الجنَّة

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة ذِكْر ﴿قَيِّمًا﴾ عقيب قوله ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾:

الفائدة من ذكر قوله: ﴿قَيِّمًا﴾ عَقيبَ قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ لتأكيد وصفِ القرآن الكريم بأنّه لا عِوج فيه؛ بمعنى مُستقيمًا معتدلًا لا إفراط فيه ولا تفريط[2].

القرآنُ مستقيمٌ لا عوجَ فيه ومهيمنٌ على غيره من الكتبِ وقائمٌ بمصالحِ العباد

أوْ إضافةُ معاني أخرى من الحُسن والاستقامةِ والتَّقويم للكتب الأخرى وغير ذلك[3]، ولذا أتى بصيغةِ المُبالغة ﴿قَيِّمًا﴾؛ أي: بعد نفي المعاني السَّلبيَّة عنه أثبتَ له معانيَ إضافيَّةً، منها: أنَّه سببٌ لهدايةِ الخلقِ، وأنَّه يجري مجرى من يكون قيمًا على الأطفال، والقرآن كالقيِّم الشَّفيقِ القائمِ بمصالحِ العباد[4]؛ لأنَّ القيَّم يُطلَق على دوام تعهُّدِ الشَّيء وملازمةِ صلاحه، والتَّيقظِ لأحواله، فالقرآنُ قيّمٌ على هدي الأمَّة وإصلاحها، وكمالُه متعدٍّ بالنَّفع[5].

ومنها: أنَّه المُهيمنُ على ما دونه، فالقُرآنُ مهيمن على الكتب السَّماويَّة، ومصدقٌ لها، وشاهدٌ بصحتها[6]، وله الوصاية عليها كما

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 146، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 135، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 470.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 593، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/ 272.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 423، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 248.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 423.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 248.
(6) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 494.

في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48] وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم: 43]، أي: المُهيمنُ على الأديانِ السّابقة[1].

إذن فالقُرآنُ منفيٌّ عنه أيُّ عِوجٍ، وهو مع ذلك قيِّم معتدلٌ لا إفراطَ فيه ولا تفريط، وقيِّمٌ على غيره من الكتبِ، فهو مُكَمِّلٌ لغيره، وقائمٌ على مصالحِ العِباد.

دلالة الطِّباق بين العوج المنفي والقيِّم المُثبت:

القُرآنُ كامِلٌ في نَفْسِهِ مُكَمِّلٌ لِغَيْرِهِ

جمعَ البيانُ القرآنيُّ بين لفظين مُتقابلين في المعنى وهما: نفيُ العوجِ وإثباتِ الاستقامة في قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمًا﴾ مع أنَّ الظّاهر أنَّ في أحدهما غنىً عن الآخر لفائدة مُهمَّة؛ وهي التَّأكيد، فَرُبَّ مستقيم مشهودٍ له بالاستقامة لا يخلو من أدنى عِوجٍ عند السَّير والتَّفحُّص والتَّدقيق، فجاء النَّصُّ بهما ليقطعَ أيَّ احتمالٍ بنسبةِ العوج لهذا الكتاب العظيم[2]، فيكون حينئذٍ كاملًا مُستقيمًا في نفسه؛ لأنَّ نفيَ العِوجِ عنه وصفٌ سَلبيٌّ دلَّ على كماله في نفسه، وقيِّمٌ وصفٌ إيجابيٌّ فيكون مُكَمِّلًا قيّمًا بمصالحِ العباد، أو قيِّمًا على الكتبِ السّالفة، فقد بَلَغَ في الاستقامةِ والكمالِ والتَّكميل الحَدَّ الأعلى والأسمى[3].

دلالة اللّام في قوله ﴿لِّيُنذِرَ﴾:

عِلَّةُ إنزالِ القرآنِ إنْذارُ الكافِرينَ وبِشارَةُ المؤْمنينَ

اللّام في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ مُتعلِّقة بقوله: ﴿أَنزَلَ﴾ على معنى المفعول لأجله؛ لتُفيدَ التَّعليل، ولتُبَيِّنَ أنَّ العِلَّة من إنزالِ القرآن الكريم على رسول اللّه مُحمَّد ﷺ إنَّما هي إنذارٌ للكافرين وبُشرى للمُؤمنين[4].

ولكن ليس في جعل الإنذار عِلَّة لإنزالِ الكتاب ما يقتضي اقتصارَ

(1) الشَّعراوي، خواطر الشَّعراوي: 14/ 8834.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/ 702.
(3) الطيبي، حاشيته على الكشَّاف: 9/ 405 وابن التَّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 5.
(4) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 467.

عِلَلِ إنزاله على ذلك؛ لأنَّ الفِعْلَ الواحد قد تكون له عِلَلٌ كثيرة يُذكر بعضها ويُترك بعض[1].

إيثار استعمال لفظ الإنذار دون غيره:

كلَّما كانَت المخافةُ أَشدَّ كانَت النِّعْمَةُ بالإنذار أعظم

آثر النَّصُ القرآنيُّ استعمالَ لفظ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ دون غيرها كالتَّخويف مثلًا في قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾؛ لاتّساع دلالة لفظ الإنذار؛ إذ إنَّه يشتمل في اللُّغة على التَّخويف والإبلاغِ والإعلامِ بالمُخَوَّف منه والتَّهديد والتَّحذير مِمّا يسوء؛ ليُحَذِّره ويستعدَّ له، والإنذارُ: إِحْسانٌ من المُنْذِر، وكُلَّما كانَت المخافة أَشدَّ كانَت النِّعْمَةُ بالإنذار أعظم، ولِهَذا كانَ النَّبي ﷺ أعظمَ النّاس بإنذاره لَهُم عِقاب اللّه تَعالَى[2]، وهذا يَتناسَبُ مع مقصدِ إنزالِ القرآن الكريم[3]، ويُناسبُ حالَ المُخاطبين بالإنذار وهم الكُفّار ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾[4]، ويناسبُ سياق الآية؛ إذ جاء لفظ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ مُقابل لفظ ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ التي تُفيدُ الإخبارَ بما فيه مَسَرَّة؛ ليكون بينهما طباق، وهذا من المُحَسِّنات البديعيَّة في القرآن.

فائدة استعمال صيغة المُضارع في قوله ﴿لِّيُنذِرَ﴾:

إنذارٌ متجدِّدٌ ومُستمِرٌّ وباقٍ ما بقيَ القُرآن.

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بالمُضارع في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾؛ للدَّلالة على تَجَدُّد الإنذار وتكرُّرِهِ في كلِّ زمان ومكان؛ لأنَّ عِلَّة وحكمةَ إنزالِ القُرآن الإنذارُ والتَّبشير، فهذا الإنذارُ مُستمرٌّ ما بقيَ القرآن الكريم، أي باقٍ ببقاءِ الحياة لخلود القرآن.

وهذا يقتضي من البشر أنْ ينتبهوا إلى هذا الإنذار، ويعملوا وفْقَ ما يخبرهم به ويحذِّرهم منه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 249.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية، ص: 242.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (نذر).
(4) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 467، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 14.

بلاغة حذف المفعول الأوّل في ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا﴾:

في حَذْفِ المفْعولِ الأَوَّلِ تَعْميمٌ وإيجازٌ وترغيبٌ وتهديدٌ

فعل (أنذر) يتعدَّى إلى مفعولين، فيمكن أنْ يكون التَّقدير (ليُنْذِرَ العالم) أو (لينذر العباد) أو (لينذركم) أو (لينذر الذين كفروا بَأْسًا شَديدًا)؛ لكنَّ البيانَ القرآنيَّ حذفَ المفعولَ الأوّل في ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا﴾[1]؛ لواحدةٍ من الحكم الآتية:

الأولى: قصدُ التَّعميم[2]؛ ليشملَ كلَّ الخَلق إِنْسَهُم وجنَّهم، ومُؤمنهم وكافرهم، فقَصَرَه على مفعولٍ واحدٍ ليعمَّ كُلَّ من يصحُّ قبوله الإنذار ولو تقديرًا، وقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ يؤكّدُ هذا العموم؛ إذ هو من ذكرِ الخاصِّ بعد العامِّ.

الثّانية: ترغيبًا للكافرين في قبولِ الهِداية والإيمان، واستمالةً لهم نحو الحقِّ والنّور المُبين[3]، فلو صرَّح بذكرهم لكان فيه تنفيرٌ لهم من قبولِ الهدى والإيمانِ بالحقِّ.

الثّالثة: تنزيلًا للفعلِ منزلة اللّازم؛ لأنَّ المقصودَ المنذَرُ به - وهو البأس الشَّديد - تهويلًا له، ولتهديدِ المُشركين المُنكرين إنزالَ القرآن من الله[4]، ولهذا اقتصرَ على بيانِ المنْذَر به لا المنْذَر[5]؛ لأنّه الغرضُ المسوقُ إليه.

الرّابعة: اختصارًا واكتفاءً؛ على قاعدة (ما يلحظ لا يلفظ) لكونه مفهومًا من السّياق؛ إمّا لظهور أنَّه ينذرُ الذين لم يؤمنوا بهذا الكتاب ولا بالمُنْزَل عليه؛ لدلالة مُقابله عليه في قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[6]، ولقرينةِ كونِ المنْذَر به هو بأسٌ شديد، وهذا لا يكون إلّا

(1) أبو حيَّان، البحر المُحيط: 7/ 136.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 248.
(3) القُرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 352.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 248.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 6.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 12/ 7، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 249.

للكافرين، أو لوروده في الآية بعدها وهو قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، فحذف المنذَر في الآية الأولى لدلالةِ ذكره في الآية الثّانية[1].

نُكتة تقديم الإنذار على التَّبشير:

الغرضُ الأهمُّ من نزولِ الكتاب هو الإنذارُ لإبطالِ ما عليه المُشركون من الباطل

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الإنذارَ على التَّبشير في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على غيرِ عادةِ القرآن في مواضع أخرى، حيث يقدِّم البشارة على الإنذار، ولا سيما أنَّه في آخر سورة الإسراء قدَّم البِشارة على النِّذارة في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، إلّا أنَّه هُنا قدَّم الإنذارَ لأمور:

الأول: لأنَّ الأهمَ من نُزولِ الكتاب هو الإنذارُ[2]؛ ولأنَّه الغرضُ الأهمُّ لإبطال ما عليه المُشركون من الباطل، وما يخلفونه في النّاس من العوائدِ الباطلة[3]، ولأنَّ الغالبَ على الإنسان مُخالفته للأوامر؛ لِما جُبل عليه من النَّقائصِ فكان الإنذارُ أهمَّ.

الثّاني: لأنَّ درءَ المفاسد مُقدَّم على جلبِ المصالح، ولمّا كان دفعُ الضَّرر أهمَّ عند ذوي العُقول من إيصال النَّفعِ لا جرم قدَّم الإنذار على التَّبشير[4].

الثّالث: لأنَّ التَّخليةَ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ، فقدَّم الإنذار على التَّبشير[5].

معنى البأس وإعرابه ﴿بَأۡسًا﴾:

البأسُ الشَّديدُ منَ اللهِ العُقوبةُ العاجلةُ في الدُّنيا والعذابُ الأليمُ في الآخرة

يحتمل معنى لفظ ﴿بَأۡسًا﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا﴾ عِدَّة معانٍ[6]؛ منها: شِدَّة الحالِ في الحياة الدُّنيا، وذلك هو الذي أُطلق

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 136.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 8.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 14.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 424.
(5) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 16/ 284.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 249.

على اسم البأس في القرآن، وعليه درجَ الطَّبريُّ حيث قال: "وعنى بالبأسِ العذابَ العاجل، والنَّكالَ الحاضر والسَّطوة"[1]، وفي هذا إيماءٌ بالتَّهديدِ للمُشركين بما سيلقَونه من القتل والأسر بأيدي المُسلمين[2].

ومن معاني لفظ ﴿بَأۡسًا﴾ عذابُ الآخرة فإنَّه بأسٌ شديدٌ.

ويجوز أن يحتمل كلَّ ما يشملُ بأسَ عذاب الآخرة، وبأسَ عذاب الدُّنيا، ببدرٍ وغيرها[3]، أي: "عاجلَ عُقوبته في الدُّنيا، وعذابًا أليمًا في الآخرة"[4].

وهذا العذاب المَوصوف بأنَّه بأسٌ شديد، من باب إطلاقِ الوصف وإرادة الموصوف[5]، وكثيرًا ما يحذف في القرآن الموصوف ويُكتفى بصفته.

وأمّا إعرابه: فهو مفعول به ثانٍ للفعل (أنذر) الذي يأخذُ مفعولين فحذف الأوَّل، وأبقى المفعول الثّاني؛ لأنَّ الكلامَ مَسوقٌ من أجله[6].

علَّة تنكير ﴿بَأۡسًا﴾:

فــي التَّـنكـير دليلٌ عَلى كثرةِ العَذابِ وتهويله وأنَّــه مُختصٌ بالكافرينَ

نَكَّر البيانُ القرآني لفظ ﴿بَأۡسًا﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا﴾؛ لإفادةِ التَّكثير والتَّهويل؛ بمعنى أنَّ ذلك البأسَ كثيرٌ ومهولٌ ومخيفٌ، وفي تهويل البأس واستعراض كثرته إيماءٌ على أنَّ هذا البأسَ مُختصٌّ بالكافرين[7].

نُكتة وصف البأس بالشِّدَّة:

وصْفُ البأسِ بالشَّديدِ إضافَةُ شِدَّةٍ إلى شِدَّةٍ وأنَّــه مختصٌّ بالكافرين

جاء النَّصُّ القرآنيُّ بوصفِ البأس بأنَّه شديدٌ في قوله تعالى: ﴿بَأۡسًا شَدِيدًا﴾ رغم أنَّ كُلَّ عذابِ اللّه شديدٌ؛ لتأكيدِ شِدَّةِ العذاب وقسوته وغلظته، ولزيادةِ التَّأكيد على أنَّ هذا البأسَ الشَّديد في

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 593.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 249.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/ 495.
(4) القُرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 348.
(5) أبو زهرة، وهرة التَّفاسير: 9/ 4486.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 531.
(7) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 8.

الآية مُختصٌّ بالكافرين[1]، فاجتمعتْ شِدَّةٌ على شِدَّةٍ؛ لأنَّ أصلَ معنى البأس في اللُّغة يدلُّ على الشَّدةِ وما ضارعها[2]، ثُمَّ وصَفَه بأنَّه شديدٌ.

أنَّ كلَّ عذابٍ صادرٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هو عَذابٌ شَديدٌ أليمٌ

فائدة الجارِّ والمجرور في قوله ﴿مِّن لَّدُنۡهُ﴾:

جاء النَّص القرآنيُّ بـ ﴿مِّن لَّدُنۡهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ هذا البأسَ صادرٌ من عند اللّه تعالى، لا من عند غيره[3]؛ فحرفُ ﴿مِّن﴾ جاء هُنا لابتداءِ الغاية، فالبأسُ من لدن اللّه على الكافرين بمُقابلة كفرهم وتكذيبهم[4]، وذلك إمّا على سبيلِ الحقيقة إذا كان معنى البأس الشَّديد هو عذاب الآخرة، أو على سبيل المَجاز إذا كان معنى البأس الشَّديد هو عذاب الدُّنيا، "أمّا في عذابِ الآخرةِ فظاهر، وأمّا في عذابِ الدُّنيا؛ فلأنَّ بعضه بالقتل والأسر، وهُما من أفعالِ النّاس، ولكنَّ اللّهَ أمر المُسلمين بهما فهما من لدنه"[5].

وفي التَّقييد بأنَّه صادرٌ عن اللّه تعالى إرهابٌ بهذا العذاب؛ لأنَّه آتٍ من عند الواحد القهّار، وبيانٌ لشِدَّته وتأكُّدِ وقوعه، فلا مناص منه، ولا سبيل للابتعاد عن وقوعه[6].

ولَمّا كان الإنذارُ - الذي هو إعلامٌ فيه تخويفٌ وتهديد - والبأس - الذي هو العذاب -، ووصْفُهُ بالشَّديد كلُّ ذلك من لَدُن اللّه سبحانه دون تحديدٍ لزمانِ العذاب ومكانه أعطى هذا كُلُّه تهديدًا وتحذيرًا أكثرَ وأشدَّ، فهو إمّا عذابُ الاستئصالِ في الدُّنيا، أو عذاب النّار في العقبى، أو كلاهما[7].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 8.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بأس).
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 137.
(4) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 16/ 284.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 249.
(6) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4486.
(7) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 16/ 284.

سِرُّ إيثار لفظ ﴿لَّدُنۡهُ﴾:

في إيثار (لَدُنْهُ) مُبالغةٌ في الإنذار بقُربِ حضورِ البأسِ الشَّديد

استعمل النَّص القرآنيُّ لفظ ﴿لَّدُنۡهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾؛ لأنَّه أَخَصُّ وأبلغُ من لفظ (عند)؛ فهو يدلُّ على ابتداءِ نهايةٍ، فيوضع (لدن) موضع نهايةِ الفعل[1]، وهو ظرفٌ يدلُّ على أوَّل الغايةِ وإن كان مبهمًا من حيث الزمانِ والمكانِ، وهو يستدعي حضورًا، فأنت تقول: عندي صاحب، حتى وإن كان غائبًا عن مجلسك، ولا تقول: لدي صاحب، إلّا وهو معك في مجلسك[2].

وهذه المعاني للفظ (لدن) أنسبُ للسّياقِ الذي يتحدَّث عن الإنذارِ بالبأسِ الشَّديد؛ إذ هو بأسٌ شديدٌ قريبُ الحضورِ بالنسبة لزمان المنذَرين أو مكانهم، كما أنَّ دلالته على ابتداءِ نهاية الفعل أشدُّ في الإنذار، وكأنَّ وقوع البأسِ قد بلغَ ذروته، وممّا يُؤكِّد هذه المعاني اقتصار ورود (لدن) في القرآن الكريم مع اللّه، إلّا في موطن واحد هو قوله: ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦﴾ [الكهف: 76][3].

إضافةُ (لدن) إلى ضمير الغائب في ﴿لَّدُنۡهُ﴾:

في الإضمار اختصارٌ في الكلامِ وتعظيمٌ لمضمونه

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿مِّن لَّدُنۡهُ﴾ يعودُ على اللّه تعالى؛ فهو من عندِ اللّه تعالى الّذي لا يُعذِّبُ عذابَه أحد، ولا يوثِقُ وثاقه أحد، وقد آثرَ القرآنُ إضافةَ (لدن) إلى ضميرِ الغائب دون الاسمِ الصَّريح، فلم يقل: (من لدن اللّه)؛ لأمرين:

الأوَّل: اختصارًا؛ لدلالةِ السّياق عليه؛ على قاعدة (ما يلحظ لا يلفظ) إذ أتى باسم اللّه صريحًا في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ وأتى به ضميرًا غائبًا يعودُ على الاسمِ الصَّريح في ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿يَجۡعَل﴾،

(1) الراغب، المفردات، ص: 739، والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 245.
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 4/ 20.
(3) السامرائي، معاني النحو: 2/ 219.

﴿لِّيُنذِرَ﴾، ﴿وَيُبَشِّرَ﴾، ولأنَّ إعادةَ ذكر الاسم الظّاهر بضميره أحسُ من إعادته بلفظه.

الثّاني: تعظيمًا للإنذار بالبأسِ الشَّديد، وزيادة تخويفٍ به؛ وذلك يُفيده إضمار الاسم.

دلالة عطف جُملة ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على ما قبلها:

عطفُ بشارة المؤمنين على إنذارِ الكافرين يُظهر حكمة إنزالِ الكتاب

جاءتْ جُملة ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفًا على جُملة: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا﴾؛ لكونها سَبَبًا آخرَ لإنزالِ الكتاب، وقد أثارتْهُ مُناسبةُ ذكرِ الإنذارِ ليبقى الإنذارُ موجَّهًا إلى غيرهم[1]، فلو لم يُعطف بذكرِ البشارة للمؤمنين لظَنَّ القارئُ أنّ الإنذارَ لجميعِ النّاس مُؤمنهم وكافرهم، إذن فهو عَطْفُ تبشيرِ المؤمنين على إنذارِ الكافرين.

نُكتة التَّصريح بالمفعول الأوَّل في ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ وحذف المفعول الأوَّل في ﴿لِّيُنذِرَ﴾:

في التصريح بذكرِ المبشَّرين تشريفٌ، وفي حذفِ المنذَرين تحقيرٌ

صرَّح البيانُ القُرآنيُّ بالمفعول الأوَّل في قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في حين حذف المفعول الأوَّل في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾؛ لأمور ثلاثة:

الأوَّل: تشريفًا للمُؤمنين وتصريحًا بصفةِ الإيمان عندهم ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تبشير؛ ولتكون هذه الصِّفة أدعى للسّامعين على أنْ يتحلَّوا بها، لينالوا البشارةَ التي أخبرهم بها اللّه، وتحقيرًا للكافرين بعدمِ ذِكْرِهم، والاكتفاء بالعذاب الشَّديد الذي أُعِدَّ لهم.

الثّاني: تقييدًا للبشارة بالمؤمنين دون غيرهم، وهذه عادةُ القرآن الكريم، بما يُفيد بأنَّ الإيمانَ شَرْطٌ في البشارة، بخلاف الإنذار فقد حُذِفَ مفعولُه؛ لإفادة العموم كما تقدَّم، لأنَّه في أصله يشملُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 250.

كُلَّ النّاس، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾ [الفرقان: 1]، وقال سُبحانه: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ㉟ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ㊱﴾ [المدَّثر: 35 - 36].

الثّالث: اختصارًا واكتفاءً؛ لأنَّ ذِكْرَ المؤمنين يدلُّ على من يُقابلهم وهم الكافرون؛ لأنَّ الأشياء تُعرَف بضدِّها، أو لأنَّه ذُكِرَ في قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ على رأي من اعتبرَ أنَّ المُنْذَر واحدٌ في الآيتَيْن.

سِرُّ جمع المبشَّر والمبشَّر به في آية واحدة والاقتصار على المُنْذَر أو المنذَر به في آيات الإنذار:

في تكرار الإنذار إطْناب يوحي بمزيدِ من التَّهديدِ والتَّخويفِ للكافرين

ذكرَ البيانُ الإلهي المبشَّر والمبشَّر به في آية واحدة في قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ في حين اقتصرَ على ذكر المُنْذَر به وحذفَ المنذَر في الآية الثانية في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾، ثم كرر الإنذار في الآية الرابعة لكنه اقتصرَ على ذكرِ المنذَر وحذفَ المُنْذَر به في قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، أي لم يكرِّر البشارةَ حيث أتى بالمُبَشَّر والمبشَّر به في آية واحدة، في حين كرَّر الإنذار في آيتين فأتى مرَّة بالمُنذَر به، ومرَّة بالمُنذَر، وهذا من بديع الحذف وجليل الفصاحة[1]، فقد حذف المنذَر أوَّلًا؛ لدلالةِ الثّاني عليه، وحذفَ المُنذَر به ثانيًا؛ لدلالةِ الأوَّل عليه - هذا على قول من قال إنَّ المنذَر في الآيتين واحد -، وأمّا من قال إنَّ المنذَر في الآيةِ الأولى عامٌّ، والمُنذَر في الآية الثّانية خاصٌّ؛ فيكون من بابِ ذكرِ الخاصّ بعد العامِّ، وفي الحالتين مزيدُ تأكيدٍ على الإنذار، ومزيدٌ من التَّخويفِ والتَّهديدِ للكافرين، والتَّركيزُ على كلٍّ من المُنذَر به ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ والمنذَر ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ على حدة؛ إذ كلٌّ منهما يستحقُّ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط في التَّفسير: 7/ 136.

الوقوف عليه والحذر منه، فهو شيءٌ عظيمٌ مخيفٌ، ومِمّا يُؤكِّد الإنذارَ أيضًا تقديم الإنذار على التَّبشير.

بلاغة المُقابلة بين إنذارِ الكافرين بالبأسِ الشَّديد وتبشيرِ المؤمنين بالأجر الحسن:

في المُقابلةِ بين الجملتين إظهارٌ للبونِ الشّاسعِ بين المنذَرين والمبشَّرين

تظهرُ بلاغةُ المُقابلة في الجُملتين: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾، ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ من خلالِ الأمور الآتية:

الأوَّل: في آيةِ الإنذارِ قال: ﴿لِّيُنذِرَ﴾، وفي آية التَّبشيرِ قال: ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ وهذا طباق.

الثّاني: في الأولى حذفَ المنذَرَ، وذكرَ المنذَر به، وفي الثّانية ذَكَرَ المُبَشَّر والمبشَّرَ به.

الثّالث: في الأولى قال: ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾، وفيه ما فيه مِنَ الشِّدة والعذاب الأليم، وفي الثّانية قال: ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾، وفيه من الحُسْنِ والجمالِ ما فيه.

الرّابع: في الأولى خلَّى الجزاء فيها عن المؤكِّدات؛ لتُعطيَ مهلةً للنّاس كي يُؤمنوا ويتَّقوا البأس الشَّديد، وفي الثّانية: جاء الجزاءُ مؤكَّدًا بالجُملةِ الاسميَّة، ومُصَدَّرًا بحرف التَّوكيد ﴿أَنَّ﴾؛ ليحرصَ النّاسُ على الوصول إلى هذا الجزاءِ من خلال الإيمان والعمل الصّالح.

الخامس: في كِلْتا الجُملتين جاءَ الفعلُ بصيغةِ المُضارع؛ ليُفيدَ التَّجدُّدَ والاستمرار في الإنذار والبشارة.

وفي هذه المُقابلة بين الجُملتين إظهارٌ للبونِ الشّاسعِ بين المنذَرين والمبشَّرين، مع إمتاعِ أهلِ الفكرِ بالاستنباط.

سِرُّ التَّعبير باسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

في التَّقييدِ بالموصولِ دلالةٌ على عليَّة استحقاقِ المؤمنين البشارةَ العظيمة

عبَّر القرآن بالاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا﴾ ولم يقل: (العاملين)، لأمرين:

الأوَّل: للتَّركيزِ على الصِّلة وأهمّيتها والتَّرغيبِ بها، وهي عملُ الصّالحات، وأنَّها أعظمُ صفاتِ المُؤمنين؛ ليكونَ أدعى للسّامعين على أنْ يتحلَّوا بهذه الصِّفة؛ لينالوا البشارةَ التي أخبرهم بها اللّٰه سُبحانه، وفيها إيماءٌ إلى استحقاقهم هذا التَّبشير العظيم؛ بأنَّهم جمعوا بين الإيمان والعمل الصّالح[1]، "وأنَّ مدارَ قبولِ الأعمالِ هو الإيمان"[2].

الثّاني: لإظهارِ مدى البونِ الشّاسع بين حالِ المُنذَرين وجزائهم، وحالِ المُبشَّرين وإكرامهم؛ إذ إنَّه لَمّا ذَكَرَ أقبحَ حالٍ للمنذَرين وهو نسبة الولد للّٰه، وأنذرهم بالبأس الشَّديد، أتبعَ ذلك بذكرِ أفضلِ حالٍ للمُؤمنين باستمرارهم في العمل الصّالح، وبشَّرهم بالأجرِ الحسنِ ماكثين فيه أبدًا.

الثّالث: للتَّنويهِ على أهميَّة الاسمِ الموصولِ وتفخيمِه وتعظيمِه وعمومه، بما يدلُّ على كثرةِ الدّاخلين تحتَ هذه البشارة، وسعةِ رحمةِ اللّٰه تعالى وفضله، وشمولِ بشارته لكلِّ من يعمل الصّالحات من المؤمنين.

دلالة استخدام صيغة المُضارع في قوله ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الاسْتِمرارُ في الأعمالِ الصّالحةِ شرطٌ لاستحقاقِ المؤمنين للبشارة العظيمة

استعملَ البيانُ القرآنيُّ صيغةَ المُضارعِ التي تدلُّ على التَّجدُّدِ والاستمرار ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الاستمرارَ في عملِ الصّالحات شرطٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 250.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 203.

لاستحقاق المؤمنين لهذه البشارة العظيمةِ والفوز بها، وأنْ يكون هذا دأبَهم وشأنَهم(1).

سِرُّ الاكتفاء بالصِّفة عن الموصوف في قوله ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

في الاكتفاءِ بالصِّفةِ عن الموصوفِ إيجازٌ واهتمامٌ بصفة الصّالحات

اكتفى البيانُ القرآني في قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بِذِكْرِ الصِّفةِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عن ذكرِ الموصوف وتقديره: (الأعمال)، فلم يقل: (الذين يعملون الأعمال الصّالحة)، وذلك لأمرين:

الأوَّل: لكونه مفهومًا من السّياق؛ إذ قوله ﴿يَعْمَلُونَ﴾ قد دلَّ على أنَّها أعمال، وإذا استوى الذِكْرُ والحذفُ فالحذفُ أبلغ، وهذه عادةٌ أغلبيَّة في القرآن؛ إذ يحذفُ الموصوف (الأعمال) ويذكر الصِّفة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وإذ ذكرَ الصِّفة والموصوف فيكون هذا لغرضٍ أو فائدة تتعلَّق بالسّياق.

الثّاني: الاهتمامُ والتركيزُ على الصِّفةِ؛ وهي كونها صالحة.

ويمكن أنْ تكون ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هي صفةٌ جرتْ مجرى الأسماءِ وخرجتْ عن كونها صفة(2).

موقع جملة ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ من الإعراب:

في بيانِ الأَجْرِ الحَسَنِ الدّائم كمالُ التَّبشير وتمامُ سرورِ المُبَشَّرين

جُملة ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ مصدرٌ مؤوَّل، ولإعرابها وجهان:

الأوَّل: مفعولٌ به ثانٍ لفعلِ ﴿وَيُبَشِّرَ﴾، بما يبينُ المُبشَّرَ به، وهذا القول مقبول على رأي من قال إن فعل ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ يتعدَّى إلى مفعولين.

الثّاني: أنَّ المصدرَ المؤوَّل منصوبٌ بنزع الخافض، وهو حرف الباء، أي (ويُبَشِّرَ المؤمنين الذين يعملون الصّالحات بأنّ لهم أجرًا حسنًا)(3)، ويكون الجارُّ والمجرور متعلّقين بفعلِ ﴿وَيُبَشِّرَ﴾، وتأويلُ المصدر يكون: بالأجر الحسن(4).

(1) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّري الجامع: 15/ 113.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 352.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 250.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 531.

وقد عدلَ البيانُ القرآني عن التَّعبير بالمصدرِ المؤوَّل (بالأجر) إلى الجملةِ الاسميَّة ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا﴾ التي تفيدُ الثباتَ والاستمرار؛ وذلك للدَّلالةِ على أنَّ المُبشَر به وهو الأجرُ الحَسَنُ ثابتٌ ملازمٌ لهم على إيمانهم باللّٰه ورسوله، وعملهم في الدُّنيا الصّالحات، ويُناسبُ ذلك أنَّ ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ هو حالٌ من الضَّمير في ﴿لَهُمۡ﴾ أي المؤمنين من قوله: ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا﴾، وهذا يدلُّ على كمالِ البشارةِ وتمامِ السُّرور بها.

دلالةُ تصدير الجُملة بحرف التَّوكيد في قوله ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا﴾:

وعْدُ اللهِ ثابتٌ مؤكَّدٌ لا خُلْفٌ فيهِ ولا تأْخيرٌ

صَدَّرَ البيانُ القرآنيُّ جُملةَ ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا﴾ بحرف التوكيد ﴿أَنَّ﴾؛ لأمور:

الأوَّل: لتأكيدِ مضمونِها، وهو ثبوتُ الأجرِ الحسنِ للمؤمنين الذين يعملون الصّالحات، وأنَّه وعدٌ لا يمكنُ أنْ يتخلّفَ، وهذا يتناسبُ مع ما اشتملتْ عليه الجُملة من مؤكّدات تفيدُ مُبالغاتٍ لا تخفى[1].

الثّاني: للإيذانِ بكمالِ مُباينةِ حالهم لحالِ المنذَرين قبلهم.

الثّالث: لإظهارِ المزيدِ من العنايةِ بحالِ المؤمنين والاهتمام بخبرهم[2].

عِلَّة تقديم ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿أَجۡرًا حَسَنًا﴾:

في التَّقديمِ اختصاصُ المؤمنين بالأجْرِ الحَسَنِ واهتمامٌ بهم

في تقديم ﴿لَهُمۡ﴾ مزيدُ اختصاصٍ بالمؤمنين، أي لهم لا لغيرهم، واهتمامٌ بالمقدَّم وهم المؤمنون الذين يعود عليهم الضَّمير (هم)، وتشويقٌ للمؤخَّر وهو الأجرُ الحسن، بما يقتضي زيادةَ الحرص على أنْ يكونَ العبدُ من المؤمنين الذين يعلمون الصّالحات لينالَ الأجرَ الحَسَنَ.

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/ 445.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/ 524.

نُكتة وصف الأجر بالحَسن في قوله ﴿أَجۡرًا حَسَنًا﴾:

في وصفِ الأَجْرِ بالحسن تبشيرٌ أيُّما تبشير

وصَفَ البيانُ القرآني الأجرَ الذي أعدَّهُ للمُؤمنين الذين يعملون الصّالحات بالحَسَنِ، فقال سُبحانه: ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا﴾؛ ليدلَّ على أنَّ هذا الأجرَ قد بلغَ غايةَ الجمالِ والكمالِ؛ لأنَّ الحُسْنُ في اللُّغة هو الجَمالُ[1]، وهو كلُّ مُبهِجٍ مرغوبٍ فيه مُستحسنٍ من جهة العقلِ والهوى والبصر والبصيرة[2]، كما أنّ الحُسْنَ ضدُّ القُبْحِ[3]، والإِحْسانَ: ضدُّ الإِساءَةِ، ولذلك وصفَ به أسماءه سُبحانه فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: 180]، فدلّتْ هذه المعاني كذلك على أنّ هذا الأجرَ لا مُكدِّرَ فيه ولا مُنَغِّصَ بوجهٍ من الوجوه ولا انقطاعَ له؛ إذ لو وُجد فيه شيءٌ من ذلك لم يكن حُسْنه تامًّا، فكان وصفُ الأجرِ بالحسنِ تبشيرًا أيَّما تبشير.

كما أنَّ الوصفَ بالحُسْنِ جاء مُناسِبًا لوصفِ الصَّلاح في عملهم؛ إذ الجزاءُ من جنسِ العمل، فلمّا كان العملُ صالحًا كان الأجرُ حَسَنًا[4]؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف: 30].

إيثار لفظ ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ دون غيره من مُرادفاته:

أَجْرٌ حَسَنٌ فيه إقامةٌ واسْتقرارٌ وبَقاءٌ واطمئنانٌ وانتفاعٌ

آثَرَ البيانُ القرآني استعمالَ لفظ ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ في قوله: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ دون غيره من الألفاظ المُرادفة كالإقامةِ أو الثَّباتِ أو اللُّبث؛ لاتِّساع دلالة لفظ (المُكث)، ومُناسبته للسّياق الوارد فيه؛ إذ من معاني المُكْثِ: التَّوقُّف والانتظار[5]، والأناة، والمهل، والنُّزول، والإقامة،

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (حسن).
(2) الراغب، المفردات، ص: 235.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(4) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 469.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مكث).

والثَّبات، والنَّفع[1]، واللُّبث، والتَّلبُّث في المكان زَمَنًا كالمقيم الثّابت[2]، وهذه المعاني تتناسبُ مع حالِ المبشَّرين ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والأجرِ الحسن الذي أعدَّه الله لهم، ليكونوا في تمام السَّعادة، فهم مُقيمون في هذا الأجر ثابتين فيه كالمُقيم الثّابت في أناةٍ واطمئنانٍ واستقرارٍ لا نزاعَ فيه قط[3]، مُنتفعين بهذا الأجر الحَسَنِ.

سِرُّ التَّعبير بصيغة اسم الفاعل دون الفعل في قوله: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا﴾:

دوامُ مكوث المبشَّرين في الأجرِ الحسن دلالةٌ على كمالِ التَّبشير

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بصيغةِ اسم الفاعل - وهو من أهمِّ الأسماء الصَّرفيَّة في اللُّغة العربيَّة - دون الفعل في قوله: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا﴾، فلم يقل (يمكثون فيه أبدًا)؛ زيادةً في إيضاحِ المعنى وهو استقرارهم في الأجر الحسن؛ لأنَّ اسم الفاعل من المُشتقّات التي توضِّحُ المعنى، وتحدِّدُ الدَّلالةَ عليه بشكلٍ أدقَّ.

وللإشارةِ إلى ثبوتِ ودوامِ المكوث في الأجر الحَسَنِ؛ لأنَّ الفعلَ يُفيدُ التَّقييد بزمنٍ مُعَيَّنٍ، بخلافِ اسم الفاعل فإنَّه يدلُّ على حَدَثٍ ثابتٍ غير مُحدَّدٍ بزمن، فيشمل الماضي والحال والمُستقبل، بما يُعطي للمعنى مزيدًا من المُبالغة لثبوتِ ودَوام استقرارهم في الأجر الحسن لا مجرَّد الحدوث؛ كونه مُتَعَلِّقًا بالجُملة الاسميَّة التي تدلُّ أيضًا على الثَّباتِ والدَّوام.

وللإشارة إلى تجدُّدِ ودوام المكوث في هذا الأجر؛ لأنَّ المُشتقّات في قوَّة الفعل المُضارع الذي يُفيد التَّجدُّد والاستمرار[4].

تقديم ﴿فِيهِ﴾ على ﴿أَبَدٗا﴾:

في تَقْديمِ (فِيْهِ) عَلى (أَبَدًا) مَزِيدُ اهْتِمامٍ بالأَجْرِ الحَسَنِ وبيانٌ لعظمته وكماله

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ ظَرْفَ المكان على ظرف الزَّمان ﴿أَبَدٗا﴾ في

(1) الدَّامغاني، الوجوه والنَّظائر، ص: 181، والرَّاغب، المُفردات، ص: 772، والسَّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: 4/ 103.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (مكث).
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4487.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 134.

قوله: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ مع أنَّ كِلا الظَّرفين مُتعلِّق بـ ﴿مَّٰكِثِينَ﴾[1]؛ اهتمامًا بما يعود عليه ضمير ﴿فِيهِ﴾ وهو الأجرُ الحسن، وبيانًا لعظمته وكماله، ودلالةً على أنَّه كالمُحيط بهم لا يُفارقهم طرفةَ عينٍ؛ إذ إنَّه شَبَّهَ ما لهم من اللَّذّاتِ والمُلائمات بالظَّرف الذي يَسْتَقِرُّ فيهِ حالُهُ[2]؛ "أي مقيمين فيه، فجعله ظرفًا لإقامتهم"[3]، لا يبغون عنه حِولًا، ولا تتطلَّع نفوسهم إلى مُفارقة ما هم فيه، فلا ملل في الجَنَّة، وهذا كذلك أنسب في السّياق لكلمة ماكثين التي جاءت قبلها، والتي تعني الاستقرار في المكان، ثُمَّ أتبعه بـ الظَّرفيَّة الزَّمانيَّة ﴿أَبَدًا﴾ التي تعني الدَّوام من غير انتهاء؛ ليكتمل نعيمُ هذا الأجر بمجموع الظَّرفَيْن، وهذا النَّعيم هو الإحاطَةُ والدَّوامُ.

فائدة الظَّرف ﴿أَبَدًا﴾:

أبديَّةُ النَّعيمِ إكمالٌ للبشارةِ وتتميمٌ للمسرَّة

قيّدَ البيانُ القرآنيُّ المكوثَ في الأجرِ الحسنِ بظرف الزَّمان ﴿أَبَدًا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾؛ إتمامًا لكمالِ البشارةِ للمؤمنين الذين يعملون الصّالحات وتتميمًا للمسرَّة؛ فإنَّ الأجرَ الحَسَنَ الذي وعدهم به ليس فقط محيطًا بهم لا يُفارقونه، بل هو أجرٌ أبديٌّ خالدٌ بإخلادِ اللّٰه سبحانه لهذا النَّعيم؛ ولذلك "لَمّا كان المُكْثُ لا يقتضي التَّأبيد قال ﴿أَبَدًا﴾، وهو ظرفٌ دالٌ على زمن غير مُتناهٍ"[4]، وقال ابن عاشور: "فليس قوله: ﴿أَبَدًا﴾ بتأكيدٍ لمعنى ماكثين بل أُفيدَ بمجموعها الإحاطة والدَّوام"[5].

ولا بُدَّ من الإشارةِ إلى أنَّ إكمالَ البشارة للمؤمنين وتتميمَ المسرَّة لهم بأبديَّةِ النَّعيم، والعدولِ عن ذكر خلودَ الكافرين في النّار جاء مُناسبًا لمقام الحمد الذي ابتدأتْ به السّورة[6].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 531.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 250.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 137.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 137.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 250، ومحمَّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 15/ 114.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 12/ 9.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القَيِّم والمستقيم:

يكاد يكون لفظا (القيِّم والمُستقيم) مترادفين؛ إذ يشتركان في أصلهما اللُّغويِّ، ويُعرَّف أحدهما بالآخر، وإيضاحُ ذلك كما يلي:

القَيِّمُ هو المستقيمُ الحَسَنُ القيِّمُ على غيره، والمُستقيمُ هو المعتدلُ المُستوي

أصلُ (القيِّم والمُستقيم) من مادَّة (ق وم) وهو يدلُّ على انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ[1]، وقَوَّمَ الشَّيْءَ تَقْويمًا فهو قويمٌ أي مستقيم[2]، وأمرٌ قَيِّمٌ: مُسْتقيم، ومنه الدِّين القيِّم أَيْ المُسْتَقيمُ الَّذي لا زَيْغ فيهِ ولا مَيْل عَنِ الحَقِّ، وخُلُقٌ قَيِّم أَيْ مُسْتَقيمٌ حسَنٌ، والقَيِّمُ: السَّيِّدُ، وسائِسُ الأمرِ[3].

إلّا أنَّ لفظ (القَيِّم) صفة مُشَبَّهة تدلُّ على الثُّبوت من قام يقوم قيَمًا، فهو قَيِّمٌ.

ولفظ (المُستقيم) اسم فاعل من استقامَ يستقيم استقامةً، فهو مُسْتَقيمٌ، واسْتَقامَ: اعْتدَل واسْتَوى، والاسْتِقامَةُ: الاعْتدالُ والاستواء[4].

إذن: لفظ (القيِّم) أبلغُ من لفظ (المستقيم)، فالقيِّمُ يدلُّ على صفةٍ ثابتة، وفيه مُبالغة؛ إذ يشتملُ على معنى المُستقيم المعتدل، بالإضافة إلى معنى الحسن، وكذلك "معناه أنَّه مُكَمِّلٌ لغيره وقائمٌ بمصالح الغير"[5].

فالقرآنُ قيِّم مُعتدلٌ لا إفراط فيه ولا تفريط، وقيِّمٌ على غيره من الكتب، فهو مكمِّلٌ لغيره، وقائمٌ على مصالح العباد.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قوم).
(2) الجوهري، الصِّحاح: (قوم).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (قوم).
(4) أحمد عمر، معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة: (قوم).
(5) الزَّركشي، البُرهان في علوم القرآن: 3/ 277.

الـبـأسُ شـدّةٌ في العـذاب وفي الحرب والفقر، والعذابُ إيجاعٌ شديدٌ وعقوبة

البأس والعذاب:

يتقارب لفظا (البأس، العذاب) ويُفَسَّر أحدهما بالآخر، إلا أنَّ لكلٍّ منهما ما يُميِّزه، وذلك وفق الآتي:

أوّلًا: البأسُ أصله يدلُّ على الشِّدَّةِ وما ضارَعَها[1]، والبأسُ: العذابُ، والشِّدَّة في الحرب، والخوف، والفقر[2].

ثانيًا: والعذابُ قيل أصله الضَّرْبُ ثُمَّ اسْتُعِيرَ ذَلِكَ فِي كُلِّ شِدَّةٍ[3]، وقيل أصله من المنع، وسُميّت العقوبة والإيلام عذابًا باعتبار منعها من معاودة ما عوقِب عليه[4]، والعَذابُ الإيجاع الشَّديد[5]، والنَّكالُ والعُقوبَة[6].

ثالثًا: العذاب أحدُ معاني البأس في الاستعمال القرآنيِّ؛ إذ البأس ورد في القرآن بمعنى شِدَّة العذاب، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [غافر: 84]، وبمعنى شِدَّة الفقر، ومعنى الحرب، والسَّطوة والنِّكاية[7].

إذن: يتميَّز البأس بمعنى الشِّدَّة، في حين يَتَمَيَّزُ العذاب بمعنى الإيجاع والإيلام الشَّديد.

كما أنَّ أحدَ معاني البأس في اللُّغة وفي الاستعمال القرآنيِّ العذابُ، في حين أنَّ البأسَ ليس أحدَ معاني العذاب، وإنَّما أتى البأسُ والشِّدَّةُ وصفًا للعذاب كما في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ [الأعراف: 165] أي شديد.

المُكثِ والإقامة:

يتقارب لفظا (المُكث والإقامة) في دلالاتهما اللُّغويَّة، إذ يشتركان

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بأس).
(2) الجوهري، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (بأس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عذب).
(4) السَّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: 3/ 43.
(5) الرَّاغب، المُفردات، ص: 554.
(6) الزَّبيدي، تاج العروس: (عذب).
(7) العسكري، الوجوه والنَّظائر، ص: 128، وابن الجوزي، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 185.

المُكثُ انتظارٌ مع لُبثٍ وثبات، والإقامةُ دوامٌ واستقرارٌ مع لُبثٍ وثبات

في معنى اللُّبث والثَّبات، ويفترقان في بعض المعاني التي يتميَّز بها كلٌّ منهما، وإيضاح ذلك كما يلي:

أوّلًا: المُكْثُ أصله (مَكَثَ) ويدلُّ على توقُّفٍ وانتظارٍ(1)، والمُكْثُ: الأَناةُ واللُّبْثُ والاِنْتِظارُ، ومكث: أقام وتَلَبَّثَ فهو ماكِثٌ، ويقال المُكْثُ: الإقامةُ مَعَ الاِنْتِظارِ، والتَّلَبُّث في المَكانِ(2)، أو ثباتٌ مع انتظارٍ(3)، والمَكيثُ: المقيم الثّابت، والمعنى المحوريُّ اللُبْث والتَّلبُّث في المكان زَمَنًا كالمقيم الثّابت(4).

ثانيًا: والإقامة من مادَّة (ق وم) وهو يدلُّ على انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ(5)، ويعبَّرُ بالإقامةِ عن الدَّوام والاستقرار، والإقامَةُ في المكان: الثَّبَات(6)، وأَقامَ الشَّيْءَ: أَدامَه، وأَقامَ بالمَوْضِعِ إقامَةً اتَّخَذَهُ وطَنًا، وأَقامَ بالمَكانِ إقامةً: لَبِثَ(7).

إذن: يتميَّزُ لفظُ المكثُ بمعنى الانتظار مع اللُّبثِ والتَّلبُّث والثَّباتِ زمنًا، في حين يتميَّز لفظ الإقامة بمعنى الدَّوام والاستقرار مع اللُّبث والثَّبات.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مكث).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير: (مكث).
(3) الرَّاغب، المُفردات، ص: 772، والسَّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: 4/ 103.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (مكث).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قوم).
(6) الرَّاغب، المُفردات، ص: 692 - 693، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفَّاظ: 3/ 357.
(7) ابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير: (قوم).

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ [الكهف: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في تَكرارِ الإنْذارِ تَوْضيحٌ وتَأْكيدٌ لِلغَرَضِ مِنْ سَوْقِ الآياتِ

جاءتْ هذه الآيةُ استكمالًا وتتمّةً لما بدأت به السّورة من بيان العِلَّة التي من أجلها نزل القرآن، بأنَّه ينذرُ الكافرين، ويبشِّر المؤمنين، أي الآية هي "تعليلٌ آخرُ لإنزالِ الكتاب على عبده، وقد جُعل تاليًا لقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾"(1).

ولمّا كان الغالبُ على الإنسانِ مُخالفته للأوامر؛ لِما جُبل عليه من النَّقائصِ كان الإنذارُ أهمَّ فأعاده، وذكر فيه بعض المتعلَّق المحذوف من الآية التي قبلها تبكيتًا لليهود المُضِلّين لهؤلاء العرب ولمن قال مثلهم(2).

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يجتمع الإيمان بالله تعالى ونسبة الولد إليه

خَصَّ اللّه تعالى بالإنذار في هذه الآية فرقةً من الكافرين، نسبوا إليه سُبحانه ما هو مُنَزَّهٌ عنه، فقال: ويُنذِرَ الكافِرينَ - الذين قالوا: اتَّخَذ اللّهُ لِنَفسِه ولَدًا - عَذابَه الشَّديدَ في العاجِلِ والآجِلِ، وهؤلاء ثلاث طوائف: الأولى: المشركون، الّذين قالوا: الملائكة بنات اللّه، وهم المقصودون في الآية مُباشرة، والثّانية: اليهود، القائلون عزيز ابن اللّه، والثّالثة: النّصارى، القائلون المسيح ابن اللّه، والأخيرتان تدخلان في عموم الإنذار؛ لاتِّحاد السَّبب(3).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

وجه عَطْفِ جُملة ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ﴾ على ما قبلها:

جاء النَّصُ القرآنيٌّ بقوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 250.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 7.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 147، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 470، والمراغي، تفسير المراغي: 15/ 115، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 251.

في عطف الخاصِّ على العامِّ تَنْبيهٌ على أَهَميةِ الخاصِّ وخُطورَتِه

معطوفًا على قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾، من باب عَطْفِ الخاصِّ عَلى العامِّ؛ إذ جاء الإنذارُ الأوّلُ عامًّا في حقّ كلِّ من استحقَّ العذاب، وجاء الثّاني خاصًّا بمن أثبتَ للّه ولدًا[1]، وفي هذا تَنبيهٌ على أهَمّيّةِ الخاصِّ وخطورتِه، وأنّ أقبحَ أنواعِ الكفر والمعصية إثباتُ الولد للّه تعالى[2]، وهكذا القرآن الكريم إذا ذكرَ قضيّةً كليَّة عطفَ عليها بعضَ جزئيّاتها تنبيهًا على كونها أعظمَ جزئيّاتِ ذلك الكُلِّ[3].

وكذلك بالعطفِ اكتملَ المعنى بكلِّ وجوهه من قوله سُبحانه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا﴾ إلى هُنا، فبقوله ﴿لِّيُنذِرَ﴾ الأولى عُرف بها المنذَر به، وبقوله ﴿وَيُنذِرَ﴾ الثانية عُرف به المنذَر، وكذلك بالمُقابلة مع الآية التي قبلها التي ذُكِرَتْ فيها البشارة، فقد ذُكر فيها الفريقُ المبشَّر والبِّشارة، وبذكر البشارةِ بها عُرف في هذه الآية المنذَر به[4].

سِرُّ التَّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

كلُّ من نَسَبَ لله الولد يستحقُّ الإنذارَ الشَّديد

عبَّر البيانُ القرآنيّ بالاسم الموصول مع صلته ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ في قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ دون الاسم الظّاهر (القائلين)، لأمور:

الأوَّل: لقصدِ التَّعميم؛ لأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من ألفاظ العُموم، فيشمل كُلَّ من قال: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾، سواء كانوا المُشركين الذين تتحدَّث عنهم الآيةُ كونهم جعلوا الملائكة بنات اللّه[5]، ويدخلون دخولًا أوليًّا، أو اليهود الذين قالوا: عزيرٌ ابن اللّه، أو النَّصارى الذين قالوا:

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 468.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 425، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 12/ 421.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 8.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 251.
(5) ليس المُراد بهم النَّصارى الذين قالوا بأنَّ عيسى ابن الله تعالى، ولأنَّ القُرآن المكيَّ ما تعرض للرَّدِّ على أهل الكتاب مع تأهُّلِهم للدُّخول في العموم لاتّحاد السَّبب، يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 251.

عيسى ابن اللّه، أو كُلُّ من يدَّعي نفس الدَّعوى إلى يوم القيامة، فلم تحدِّد زمنًا أو مكانًا أو ناسًا بأعينهم.

الثّاني: للإيماءِ إلى وجهِ استحقاقِ التَّهديدِ بالعذاب الشَّديد، وأنَّ العُقوبة جاءتْ نتيجةَ قولهم الشَّنيع بأنَّ اللّه اتَّخذ ولدًا.

الثّالث: مُقابلةً للاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الذي أفادَ استحقاقَ المؤمنين للبُشرى والأجر الحَسَنِ بعملهم الصّالحات.

نكتة تخصيص ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ بالإنذار:

أعظمُ أنواع الكفر أَنْ دَعَوْا للرَّحْمنِ ولدًا

خصَّ النّص القرآني افتراءَ الكافرين باتخاذ اللّه الولد بالذكر دون سائر الموبقات والآثام، فلم يقل: (وينذر الكافرين الذين قالوا..)، كما قال في شأن المؤمنين: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ﴾؛ استعظامًا لكفرهم[1]؛ لأنَّ هذا القول من أعظم أنواع الكُفْرِ وأشنعِه وأقبحِه، وكأنَّ كلَّ كفرٍ هو أخفُّ من هذا الجُرم[2]، قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١﴾ [مريم: 90 - 91]، ولأنَّهم قد عُرِفوا بهذه المقالة بين أقوامهم، وبَيْنَ المُسلمين، فأراد اللّهُ أنْ يذكرها لهم؛ تشنيعًا عليهم بهذه المقالة، وإيماءً إلى أنَّهم استحقّوا ما أُنذروا به لأجلها ولغيرها، فمضمون الصِّلة من موجبات ما أُنذروا به[3].

دلالة استعمال صيغة الماضي ﴿قَالُواْ﴾:

الإِنْذارُ بالعَذابِ يتناول كُلَّ من قال (اتَّخذَ الله ولَدًا) ولو مَرةً واحدة

آثر النَّص القرآني استعمال ﴿قَالُواْ﴾ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ في صلة الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لأمور:

الأوّل: لأنَّ المقامَ لا يحتاجُ إلى تَجَدُّدٍ واستمرار، وإنَّما يكفي أنْ

---

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/ 272.

(2) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 468.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 251.

يقولها مرَّة واحدة دون توبةٍ حتَّى يستحقَّ هذا الإنذارَ الشَّديد، وهذا ما يتحقّق بصيغة الماضي.

الثّاني: للدَّلالة على تحقيقِ صدورِ تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سَبَقَ[1].

الثّالث: لأنَّ الماضي إذا وقعَ صلةً لموصول صلحَ للاستقبال، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [المائدة: 34][2].

ويتحصَّل من هذه الأمور أنَّ من قال هذه الكلمة في الماضي، أو سيقولها فيما بعد فإنَّ الإنذارَ والوعيد بالبأس الشَّديد يأتي عليه ويتناوله.

سِرُّ إيثار استعمال الفِعْلِ ﴿ٱتَّخَذَ﴾:

التَّعبير بفعل الاتخاذ أنسبُ لسياق الإنذار الشَّديد وحالِ المنذَرين

آثر البيانُ القرآني استعمالَ الفعل ﴿ٱتَّخَذَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾؛ في حين استعمل فعل (ولَدَ) في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢﴾ [الصّافات: 151 - 152]؛ لمُناسبةِ كُلِّ فعلٍ للسّياق الوارد فيه، ففي آية الكهف استعمل لفظ الاتخاذ؛ لاتّساعه لعدَّة معاني؛ إذ أصله يدلُّ على حَوْزِ الشَّيءِ وتحصيله[3]، والاتخاذ افتعالٌ من الأخذ، ومن معانيه الكسب، والصُّنع، والجَعْل، والعمل[4]، وهذا يُناسبُ السّياق الوارد في الإنذار الذي شملَ إنذار كلّ من نسَب اتخاذ الله للولد سواء بالولادة أو بالتَّبنّي أو بالجعل أو بالصُّنع أو بالحَوز والتَّحصيل، إمّا استعانةً، وإمّا اعتمادًا، وإمّا اعتدادًا، وإمّا امتدادًا، أي ليشملَ المُشركين الذين قالوا: الملائكة بنات الله، ويشمل اليهودَ القائلين عزيرٌ ابن الله، ويشملَ النَّصارى الذين هم فريقان: فريقٌ قال: عيسى ولد الله

---

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 468.

(2) السَّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 3/ 452.

(3) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 2/ 57.

(4) الزَّبيدي، تاج العروس: (تخذ).

حقيقة، وفريقٌ قال: إنَّ اللّه اتخذه ولدًا تشريفًا له[1]، وهذا الشُّمول في الإنذار يتناسب مع كون الإنذار هو عِلَّةُ إنزال الكتاب الخاتم للعالمين.

في حين سياقُ آية الصّافات يَتناسب مع نفي الولد الحقيقيِّ عن اللّه سُبحانه؛ إذ إنَّ السّياق ورد في الرَّدِّ على فئةٍ مُعيَّنة من الذين نسبوا للّه الولد، وهم المُشركون الذين نسبوا للّه البنات، فقد ورد قبلها قول الحَقِّ سُبحانه: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩﴾ [الصّافات: 149].

دلالة إسنادهم الاتِّخاذ إلى ﴿ٱللَّهُ﴾:

إسنادُهم الاتّخاذ إلى (اللّه) دليلٌ على عظيمِ فريتهم وجرأتهم على اللّه

إسنادُ الكافرين الاتخاذَ إلى اللّه في قوله سُبحانه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ فِريةٌ على اللّه تعالى، وتدلُّ على عظيم جرأتهم على اللّه، وفظيعِ جرمهم؛ لأنَّ اتِّخاذ الولد نقصٌ في جانبِ واجب الوجود؛ إذ يترتَّب عليه أمران باطلان لا يليّقان بذات اللّه: **الأوَّل**: مُشابهة الحوادث، وأنْ يكون للّه سُبحانه نظيرٌ مثله، لأنَّ الولد مثيلُ أبيه، فكيف يكون للّه تعالى شبيهٌ ومثيل، **والثّاني**: أنَّه ينبئ عن احتياجِ اللّه للولد لنُصرته، واللّه تعالى غنيٌّ حميد لا يحتاج لشيء، ويحتاج إليه كلُّ شيء سُبحانه، تعالى عمّا يقولون علوًّا كبيرًا[2].

ولذلك خصَّهم القرآن بالإنذار الخاصِّ بعد الإنذارِ العامِّ ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا﴾.

نكتة تنكير ﴿وَلَدٗا﴾:

عُمومُ المُطْلَقِ شامِلٌ لِلذَّكَرِ والأُنْثَى

نكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿وَلَدٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾؛ لتفيد عموم النَّوعيَّة، فالمقصودُ مُطْلَقُ الولد سواء كان ذكرًا أو أنثى أو واحدًا أو جمعًا[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 364.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4487.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 50.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الإنذار والتَّخويف:

الإنـذارُ تخويفٌ مع إعْلام مَوضِع المخافة ليحذر منه، والتَّخويفُ الحَمـلُ على الذُّعر والفزع

يوجد تقاربٌ بين لَفْظَيّ (الإنذار، التَّخويف)، إذ يشتركان في معنى التَّحذير من أمرٍ ما والتَّحرُّز منه؛ إلّا أنَّ لِكُلٍّ منهما ما يُميِّزه، وإيضاحُ ذلك، أنَّ الإنذارَ أصلهُ يدلُّ على تَخْويفٍ أَوْ تَخَوُّفٍ، ومنه الإِنْذارُ: الإبلاغُ، ولا يكون إلّا في التَّخويف والتَّحذير، ونَذِرَ بالشَّيْءِ وبالعَدوِّ: نَذْرًا: عَلِمَهُ فحَذِرَه، وأَنذَره أيضًا: حذَّره وخَوَّفَهُ في إبلاغه، ونَذِرْتُ بِهِم فاسْتَعْدَدْتُ لَهُم وحَذِرْتُ مِنْهُم والنذير: المنذر، وهو المحذِّر والمخوّف[1].

والتَّخويفُ أصلهُ يدلُّ على الذُّعرِ والفَزَعِ، وخَوَّفَهُ، تَخْويفًا: أَخافَهُ، وخَوَّفْتُه: جَعَلْت فيه الخَوْفَ، وصَيَّرْتُه بحالٍ يَخافُه النَّاسُ[2]، والخَوْف: توقّع مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونة أو معلومة، ويُضادُّه الأمن، ويُستعمل ذلك في الأمورِ الدُّنيويَّة والأخرويَّة، والخوفُ من اللّه تعالى لا يُراد به ما يخطرُ بالبال من الرُّعب، وإنَّما يُراد به الكَفُّ عن المعاصي واختيار الطّاعات، والتَّخويفُ من اللّه: الحَثُّ على التَّحَرُّز[3].

إذن: يتميّزُ الإِنْذار بمعنى الإعلام والتَّحذير والتَّخويف، في حين يتميَّز التَّخويف بمعنى الإخافة والحمل على الفزع والذُّعر.

فالإنذارُ هو تخويفٌ مع إِعْلام مَوضِع المخافة ليحذرَ منه، والإنذارُ: إِحْسانٌ من المُنْذِر، وكلما كانَت المخافة أَشدَّ كانَت النِّعْمَة بالإنذار أعظمَ، ولِهَذا كانَ النَّبيُّ ﷺ أعظمَ النّاس مِنَّةً بإنذاره لَهُم عِقاب اللّه تَعالَى[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (نذر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن عبَّاد، المحيط في اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (خوف).
(3) الرَّاغب، المُفردات، ص: 303.
(4) العسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 242.

الولد والوليد:

الـولدُ هو الابـنُ صغيرًا أو كبيرًا ذكـرًا أو انثى جمعًا أو مفردًا، والوليدُ الصَّبيُ حـين يـولـد أو العبد

يتقاربُ لفظا (الولد، الوليد) إذ يشتركان في أصلهما من مادَّة (و ل د) وهو دَليلُ النَّجْلِ والنَّسْلِ[1]، إلّا أنَّ هُناك من جعلَ بينهما فروقًا، ومنها: الولَدُ يُطلق على الصَّغير والكبير، في حين الوليدُ: يُقال لمن قَرُبَ عهدُه بالوِلادة، فهو المَوْلودُ حينَ يولَدُ، وهو الطِّفْل.

والولَدُ يُطلق على الابْن والابْنَة؛ أي الذَّكر والأنثى، في حين الوليدُ: هو الصَّبيُّ حينَ يولَدُ، والأُنثى وليدَةٌ، وقالَ بَعْضُهُم: بَلْ هو لِلذَّكَرِ دونَ الأُنثى.

والولَدُ يكون واحِدًا وجمعًا، وقَدْ جَمَعوا الولَد فقالوا: أَولادٌ ووِلْدانٌ، في حين أنَّ الوليد يكون واحدًا، والجمع وِلْدانٌ ووِلْدَةٌ.

والوليدُ يُطلق أيضًا على العَبْد، وقَدْ تُطْلَقُ الوليدةُ عَلَى الجاريَةِ والأَمَة وإن كانَتْ كَبيرَةً، وقَيَّدَه بعضُهم بِمن يولَدُ في الرِّقّ[2]، في حين أنّ الولد لا يُطلق على العبد ولا على الجارية.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ولد).

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (ولد)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 5/ 278 - 279.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾ [الكهف: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من تمام الإنصافِ في الوعيد أن تلحقَ به علّتُه

بعد أن ذكر النَّظمُ الكريمُ الوعيدَ والإنذار للذين نسبوا للّه تعالى الولد، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤﴾ [الكهف: 4]؛ أتبعه ببيان أنَّ قولهم ذلك نابعٌ عن الجهل، متضمِّنًا بيان علَّة ذلك الإنذار والوعيد الشَّديدين، فبعد الإنذار استأنف مُعلِّلًا في جواب ﴿مِنۡ﴾، كأنَّه قال: ما لَهُم خُصّوا بهذا الوعيد الشَّديد؟ فقال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿كَبُرَتۡ﴾: (كبر) أَصلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الصِّغَرِ، ويُقالُ: أَكْبَرْتُ الشَّيْءَ: اسْتَعْظَمْتُهُ[2]، وكَبُرَ بالضم يَكْبُرُ، أي: عَظُمَ، فهو كَبير، فإذا أفرط؛ قيل: كُبّارٌ بالتَّشديد[3]، والكَبيرُ بحسب ما يُضاف إليه؛ فقد يكون صغيرًا في جنب شيءٍ، وكبيرًا في جنب غيره، وأصلُ ذلك أن يُستعملَ في الأعيان، ثم استُعير للمعاني، فتُستعمل الكبيرة فيما يشقُّ، ويصعب نحو: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ [الشورى: 13]، وأمّا قوله تعالى: ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ﴾؛ ففيه تنبيهٌ على عِظَم ذلك مِن بين الذُّنوبِ، وعِظَم عقوبته[4]، أي: عَظُمَت مقالَتُهم في الكُفر[5].

2) ﴿كَلِمَةٗ﴾: (كلم) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى نُطقٍ مُفهمٍ، تَقول: كَلَّمتُهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 8.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(3) الجوهري، الصحاح: (كبر).
(4) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(5) الإيجي، جامع البيان: 2/ 424.

أُكلِّمُهُ تَكْليمًا؛ وهو كَليمي؛ إذا كَلَّمكَ أَوْ كَلَّمتَهُ، ثُمَّ يَتَّسِعونَ، فَيُسَمّونَ اللَّفظَةَ الواحدَةَ المُفهمَةَ كَلمَةً، والقِصَّةَ كَلِمَةً، والقَصيدَةَ بِطولِها كَلِمَةً[1]، والكَلامُ يقعُ على الألفاظِ المَنظومة، وعلى المَعاني التي تحتها مجموعة، وعند النَّحويين يقعُ على الجُزءِ منه، اسمًا كان، أو فعلًا، أو أداة، والكلمةُ تقعُ على كلِّ واحدٍ مِن الأنواع الثَّلاثة، قال تعالى: ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ﴾؛ كتسميتهم القصيدة كَلِمَةً، فالكَلِمَةُ هاهنا القضيَّة، فكلُّ قضيَّة تُسمَّى كلمةً، سواء كان ذلك مقالًا أم فِعالًا[2]، والمعنى: "كَبُرَتْ مقالتُهم كلمةً، والمُرادُ بهذه الكلمةِ هو قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾"[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

زعمُ البُنوَّة للإله جـهـلٌ مـحـضٌ مُتأصِّل بقائليه

يُخبر اللّهُ تعالى عن هؤلاءِ الذين ادَّعوا الولدَ للّه تعالى أنَّ قولَهُم ذلك لم يأتِ عن علم، بل إنَّما يصدرُ عن جهلٍ مُفرطٍ وتقليد للآباء[4]، أي: "ليس عند هؤلاء المشركين شيءٌ مِنَ العلم على ما يَدَّعونه للّهِ مِنِ اتِّخاذِ الولدِ، كما لم يكن عند أسلافهم الذين قلَّدوهم؛ عَظُمَت هذه المقالةُ الشَّنيعةُ التي تخرجُ مِن أفواهِهم، ما يقولون إلّا قولًا كاذبًا"[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الجملة في صدر الآية عمّا قبلَها:

الـوعـيـدُ جديرٌ بكلام مستقلٍّ

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ﴾؛ سيقت للإخبار بمضمونها، وبيان علَّة الإنذار[6]، وتوضيح

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلم).
(2) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 320.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 6.
(5) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 294.
(6) السّمين، الدر المصون: 7/ 439، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 8.

حال الذين ادَّعوا أنَّ للَّه ولدًا تعالى اللَّه عما يصفون، فهي "مستأنَفةٌ لبيان حالِهم في مقالهم، أي: مالهم بذلك شيءٌ من علم أصلًا"[1]، فهذا الحال يُبيِّن شدَّة شناعة كفرهم، فهم يقولون على اللَّه تعالى الكذبَ، ويفترون الضَّلالَ.

دلالةُ ﴿مَّا﴾ وأثرها في المعنى:

من الحقائق الثابتةِ رسوخُ جهلِ الكافرين والمشركين بالله تعالى

آثرَ النَّظمُ الكريمُ النَّفي بـ ﴿مَّا﴾ والجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ دون أن يقول: (لا يعلمون) للدَّلالة على رسوخ هذا النَّفي فيهم، فحقيقتهم أنَّهم خُلوٌّ من العلم به، وليس المرادُ بيانَ تجدُّد جهلهم، بل هو ثابت لهم مِنَ الأصل، فـ ﴿مَّا﴾ هنا لنفي حقيقة عِلْمِهِم من غير تقييد بزمن، فهي آكدُ في النفي، وأدلُّ على الإطلاق، وهو وجهٌ من وجوه استعمالها؛ إذ يُؤْتى بها لزيادة الاهتمام بالنفي[2].

سرُّ تقديم الجار والمجرور على العلم:

تسليطُ النَّفي على المشركين أبلغُ من تسليطه على العلم

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملةِ مِنَ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُم﴾ و﴿بِهِۦ﴾ على الاسم في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾، وأصل الجملة: ما مِنْ علم لهم به، فيقتضي نظمُ الجملة العربيَّة تأخيرَ الاسم النَّكرة؛ لأنَّه لو قُدِّم؛ لم يكن دالًّا على مُعيَّن مُعرَّف، فيكون الحكم عليه حكمًا على مجهول، وهو غير مُفيد، فوجَب تأخيره وتقديم شبه الجملة؛ لأنَّ المهمَّ هو المُخبَر بهِ لا المُخبَر عنه، وهو أنَّ الانتفاء متعلِّق بهم، ثم أتبعه بذكر المنفيِّ، فتَقديمُ ﴿لَهُم﴾ هنا للاهتمام، وتقديم ﴿بِهِۦ﴾ لبيان شناعة قولهم شيئًا متعلِّقًا بذات اللَّه ﷻ، ليس لهم به عِلْمٌ، وأصلُ ﴿بِهِۦ﴾ أن يكون بعد ﴿عِلۡمٍ﴾ صفةً له، فلمّا قُدِّم عليه؛ صار حالًا.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 203.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 283.

تلبُّس المشركين بما قالوا دليلٌ على جهلهم ووهمهم الكاذب

معنى الباء في ﴿بِهِۦ﴾، وعَوْدُ الضميرِ فيه:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾ للمُلابسةِ، أي: بالذي تلبَّستُم من مَقولةٍ شنعاء، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ إلى المصدر (القول) المأخوذ من الفعل (قالوا)، أي: ما لهم بذلك القول مِن عِلم[1].

ويجوز أن يكون عائدًا إلى الولد، أو الاتِّخاذ، فضلًا عنِ القولِ، والمعنى: أنَّهم يقولونه عن جهلٍ مُفرط وتوهُّم كاذب، أو تقليد لما سمعوه مِن أوائلهم مِن غيرِ علم بالمعنى الذي أرادوا به، فإنَّهم كانوا يُطلقون الأب والابن بمعنى المُؤثِّر والأثر، أو هو عائدٌ على اللّه تعالى؛ إذ لو علموه لما جوَّزوا نسبة الاتخاذ إليه[2]، فهؤلاء المعتقدون في اللّه هذا المعتقد لا علم لهم بما للّه سبحانه مِن قدر يتنزَّه به عن الصاحبة والولد، وعن الشَّريك في الملك، وهذا يعني: أنَّ عِلمَهم باللّهِ هو علمٌ ناقصٌ، مشوبٌ بالأوهام والضلالات[3].

كلُّ ما يمكن أن يكون عِلمًا هو تحت حكم النَّفي عنهم

دلالةُ ﴿مِنۡ﴾ وأثرها في المعنى:

أدخلَ النَّظمُ الجليل حَرْفَ الجرِّ ﴿مِنۡ﴾ على النَّكرة في سياق النَّفي في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ﴾، وجيء بها هنا لتأكيد النَّفي[4]، فيكون النَّفي معها دالًّا على الاستغراق، فهو يتتبَّع كلَّ علم ثم ينفيه؛ حتّى لا يبقى أيُّ شيء يمكن أن يُطلق عليه عِلمٌ، فيثبت لهم الجهل إثباتًا مؤكَّدًا؛ فليس وراء العلم غير الجهل، "أيِّ: ما لهم أي علم، بل يرمون القول من غير تفكُّر، ولا تدبُّر"[5].

فائدة تنكير ﴿عِلۡمٍ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عنِ العلمِ بصيغة التَّنكير في قوله

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 136، 15/ 251.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل التأويل: 3/ 272.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 583.
(4) السّمين، الدر المصون: 7/ 440.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4487.

ليس لهم من العلم شيء إذ اعتقدوا نسبة الولد لله تعالى

تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه لم يكن لهم أيُّ علم، فهو منتفٍ مِنَ الأصل؛ لأنَّ ما ظنّوه وما اعتقدوه لا يمكن أن يتعلَّق العلم به؛ لأنَّ ذلك الاعتقاد منافٍ للحقيقة؛ إذ لا وجود له[1]، فدلَّ الشُّمول في النَّكرة على عمومِ النَّفي واستغراقِهِ.

فائدةُ جملةِ الحال:

أقبحُ الكفرِ الكذبُ من غير شُبهةٍ

جملة ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ﴾ حالٌ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ [الكهف: 4]، وفائدةُ ذكر هذه الحال أنَّها أَشْنَعُ في كُفرِهِم، وهي أن يقولوا كذبًا ليستْ لهم فيه شُبهةٌ، فأطلقَ العِلْمَ على سبب العِلْم، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ﴾ [المؤمنون: 117][2].

الجهلُ والبهتانُ مَظِنَّةُ التقريع

وفي جملة الحال تبكيتٌ، "وتوبيخٌ لهم على تَفوُّهِهِم بكلامٍ يدلُّ على إيغالِهم في الجَهْل والبُهْتان"[3].

بلاغةُ نفي الشَّيءِ بإيجابه:

انتفاءُ العلمِ إمّا للجهل، وإمّا للاستحالة

ويُسمّى بـ(عكس الظاهر) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ﴾ [الكهف: 4 - 5]، وهو أن تذكُرَ كلامًا، يدلُّ ظاهرُهُ على أنَّه نفي لصفة موصوف، وهو نفيٌ للموصوفِ أصلًا، فاتخاذ اللّه ولدًا في نفسه محال، فكيف قيل: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ﴾؟ معنى ذلك: ما لهم به من علم؛ لأنَّه ليس ممّا يُعلم لاستحالتِه، وانتفاء العلم بالشَّيء؛ إمّا للجهل بالطريق الموصل له، وإمّا لأنَّه في نفسه محال لا يستقيم تعلُّق العلم به، فقد ورد الكلامُ على سبيل التَّهكم والاستهزاء بهم[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 251.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 468.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 141، وينظر: القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 10.

انتفاءُ العلم عن الآباء يؤولُ إلى بطلانِ تقليدهم

فائدةُ عطفِ الآباء على الضَّمير:

عطفَ النَّظمُ الجليل الآباءَ على الضَّمير في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾؛ تقريرًا للنَّفي، وتأكيدًا للمعنى، وقطعًا لحجَّتهم؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: 23]، فلمّا كان العلم مُنتفيًا عنِ الآباء؛ فأنَّى لهم أن يُقلِّدوهم، وكيف لهم أن يكونوا جديرين بالتقليد[1]، ويتضمَّن التَّنبيهَ على حرمة أن يقولَ أحدٌ على الله تعالى ما لا علم له به، ولا سيَّما في أمر العقائد وأصول الدّين[2].

الجهلُ في الكفار متأصِّلٌ، وبئس الميراثُ الضَّلال والكفر

سرُّ تكرارِ (لا) في جملة العطف:

وتكرار (لا) لتأكيد النفي، ونُفي العلم عنهم لعدِّهم مُقلِّدين مُتَّبعين، وكذلك نفيهُ عن آبائهم الذين قُلِّدوا؛ لأنَّهم الذين سهَّلوا تلك الأوهام في نفوسهم، فضلّوا، وأضلّو كثيرًا، وضلّوا عن سواء السَّبيل[3]، وفيه إشارة إلى أنَّ السَّلَفَ والخَلَفَ سواءٌ في الجهل بهذا العلم بالله، فهم جميعًا على غفلة وسَفَهٍ وضلال[4].

تهويلُ المقولةِ بالإنشاء يقتضي الفصل عن الإخبار

نكتةُ فصلِ جملة ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ﴾:

فصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ﴾ عن الجملة السّابقة في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾؛ لِما بينهما مِن اختلاف؛ إذ الأولى خبريَّة والثّانية إنشائيَّة، فاستأنف للتَّشاؤم مِن تلك المقولة الشَّنيعة[5]، كما أنَّ في هذا الاستئناف تهويلًا لما سبق ذكرُهُ من سوء مقولتهم وقُبْحِها، فوصفها بالعِظَم لتعلُّقها بالكذب على الله تعالى[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 251.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 8.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4488.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 583.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 252.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 8.

إيثارُ لفظِ ﴿كَبُرَتْ﴾ على ما يُقاربُهُ من ألفاظ:

نسبةُ البنوَّة لله تـعـالى أشـنـعُ مظاهر الكفر

آثَر النَّظم الحكيمُ استعمالَ لفظ ﴿كَبُرَتْ﴾ دون (عظُمَت)؛ للدَّلالة على أمرَين: كِبَرِ الذَّنب، وعِظَم القُبْح، والأصل في لفظ (كبر) الدَّلالة على الضَّخامة، ويُستعمل للدَّلالة على القوَّة والشِّدَّة في صفةٍ ما مِن الصِّفات، وهو هنا مُستعمل في التَّعجيب مِن كِبَر هذه الكلمة في الشَّناعة بِقَرينة المقام.

وعبَّر النَّظم الجليـــل بالفعل الماضي في قولـــه تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ بضمِّ البـــاء للدَّلالة على الذَّمِّ[1] والتَّعجيـــب، والمعنى: (ما أكبرَها كلمةً!)[2]، "ودلَّ على قَصْد التَّعجيب منها انتصابُ ﴿كَلِمَةً﴾ على التَّمييز؛ إذ لا يحتمل التمييزُ هنا معنًى غير أنَّه تمييزُ نســـبةِ التَّعجيب"[3].

وتحريرُ ذلك أنَّ صيغة (فَعُلَ) تفيدُ التَّحوُّل إلى درجة التَّعجُّب، فالمتعجِّب بهذا الفعل ينظر إلى الأصل الذي بدأ منه الفعل، ثم بلغ هذا المبلغ، تقول: (ما أكبر هذه الكلمةَ!)، فتصفها بالكِبَر الآن، أمّا قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾؛ فإنَّ معناها: أنَّ هذه الكلمة قيلَت، فبَلَغَت مِنَ الكِبَر درجةً عظيمةً يُتعجَّبُ منها، أي: إنَّ هذه الكلمة خرجت مِن أفواههم، واتَّسعت، وأضلَّت خلقًا كثيرين، فتُعجِّبَ مِن هذه الكلمةِ كيفَ بلغتْ هذا الكِبَرَ[4].

نكتةُ إطلاقِ لفظ ﴿كَلِمَةً﴾ مرادًا بها الكلام:

شـهـرةُ المقولةِ وتكرارُها يُنزلها مـنـزلـةَ الكلمة الواحدة

أطلقَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ الكلمة على الكلام في قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْۚ﴾ جريًا على ما شاع من استعمال العرب لذلك، كما قالوا: كلمة التَّوحيد عن قول: لا إلهَ إلّا اللّهُ، فهذه

(1) مجموعة من المؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1290.
(2) السّمين، الدر المصون: 7/ 440.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 252.
(4) السامرائيّ، معاني النحو: 4/ 289.

الكلمة مقصودٌ بها مقالتهم الشَّنيعة "في الكفر والافتراءِ لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكادُ يليقُ بجناب كبريائِه"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في وصف الكلمةِ بالكِبَرِ:

تفظيعُ معنى الكلمة تشنيعٌ على اعتقادِهم

يرى الشَّريفُ الرضي أنَّ "وصْفَ الكلمةِ في قوله سبحانه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْۚ﴾ بالكِبَرِ استعارةٌ، والمُراد أنَّ معناها فظيعٌ، وفحواها عظيم، وتقدير الكلام: كبُرتِ الكلمةُ كلمةً"[2] شنيعةً اعتقدوها، وصرَّحوا بها إيمانًا بها وتسليمًا.

سرُّ نعتِ الكلمة بالجملة بعدها:

تلفُّظ كلمةِ الكفر كافٍ في بيان شناعة الجُرم

وصف النَّظم الجليل لفظَ الكلمة بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْۚ﴾؛ للدَّلالة على تشنيع جُرأتهم واستعظامها، وإظهار وقاحتهم في قولها والتَّفوُّه بها[3]؛ "لأنَّ المعنى: كبر خروجها، أي: عظُمت بشاعتُه وقباحته، بمجرَّد التَّفوُّه، فما بالك باعتقاده"[4].

إيثارُ لفظِ ﴿تَخْرُجُ﴾ دون ما يُقاربه:

صرَّحوا بمقولة الكفر لفظًا ونطقًا

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الخروج في قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْۚ﴾؛ لأنَّ الخروج يدلُّ على البروز، خرج خُروجًا: بَرَزَ من مَقرِّه أو حاله[5]؛ وذلك للدَّلالة على كونها لفظةً مِنَ الألفاظ الَّتي قد صدعوا بها، فهي بارزةٌ ظاهرة تخرجُ مِنَ الأفواه خروجَ الذَّوات مِنَ المقرِّ، والتَّعبير بالخروج مبالغة في زيادة قُبْحِ التَّكُلُّم بها، فإذا كان خروجها مِن أفواههم قبيحًا؛ فإنَّ لَوْكَ ألسنتهم لها أقبحُ.

سرُّ استعمالِ صيغة المضارع (تخرُجُ):

آثرَ النَّظمُ الجليل التَّعبيرَ بالفعل المضارع عن خروج الكلمةِ في قوله

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 204.
(2) الشريف الرضيّ، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/ 205.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 204.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 6.
(5) الرّاغب، المفردات: (خرج).

تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ تصويرًا لحالهم أثناء التَّفوُّهِ بتلك المقولة الشَّنيعة، فصوَّر فظاعة جرأتهم على النُّطق بها؛ إذ لم يكفهم حضورُها في نفوسهم، وتردُّدها في أذهانهم، حتّى تلفَّظوا بها، وقد تكرَّر منهم ذلك التَّلفُّظُ، واستمروا عليه بما أشار إليه التَّعبيرُ بالمضارع[1]، فهو يستحضر صورةَ الخروج تعبيرًا عن فظاعة تلك المقولة.

تصويرُ الفعل الشَّنيع كشفٌ لعتوِّهم وجرأتهم

دلالةُ التَّعبير بشبه الجملةِ مِنَ الجار والمجرور:

علَّقَ النَّظمُ الجليل الفعل ﴿تَخْرُجُ﴾ بشبه الجملة مِنَ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على كون الكلمة خارجةً من أفواههم، وتأكيد كونهم تلفَّظوا بهذه المقولة، فهذا الكذبُ الشَّنيع قد بدر منهم، وقد قالوا كلمةَ الكفر، وفيه "إيماءٌ إلى أنَّ مثل ذلك الكلامِ ليس له مصدرٌ غيرُ الأفواه؛ لأنَّه لاستحالته تتلقّاه، وتنطق به أفواههم، وتسمعه أسماعهم، ولا تتعقَّلُه عقولهم؛ لأنَّ المحال لا يعتقده العقلُ، ولكنَّه يتلقاه المقلِّد دون تأمُّل"[2]، فهي تخرج مِنَ الأفواه غيرَ محكومة بميزان العقلِ.

مصدرُ أقوالهم الأفواه لا العقولُ

سرُّ فصلِ جملة ﴿إِن يَقُولُونَ ...﴾ عمّا قبلها:

فَصَلَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾؛ لأنَّها تأكيدٌ لمضمون الجملة السّابقة في قوله جلَّ شأنه: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ "لأنَّ الشَّيء الذي تنطق به الألسن، ولا تحقُّقَ له في الخارج ونفس الأمر هو الكذب، أي: تخرج من أفواههم خروجَ الكذبِ، فما قولهم ذلك إلا كذب، أي: ليست له صفةٌ إلّا صفةُ الكذبِ"[3]، فلمّا أخبر أنَّهم لا علم لهم بذلك؛ بيَّن أنَّ قولهم كذب؛ إذْ ليس لأحد علمٌ به، فقولهم لا حقيقة له بوجه من الوجوه[4].

النّاطقُ بلا علم جاهلٌ لا يتورَّع عن الكذب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 252.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 253.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 9.

معنى ﴿إِن﴾، وسرُّ إيثارها على (ما):

لا يقولون على وجه التَّأكيد في ذات الله تعالى غيرَ الكذب

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بحرف النَّفي ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ دون النَّفي بـ(ما)؛ لأنَّ النَّفي بـ ﴿إِن﴾ أشدُّ تأكيدًا، وهي أبلغُ في النَّفي؛ فلذا غالب استعمالها أن تأتي بعدها إلّا في الحصر، لما فيها من تأكيد الانتفاء، فيكون القصر بها أبلغَ في تأكيد المضمون، "أي: لا يقولون إلّا كذبًا لا مساغ له من حقٍّ، ولا يقوله مدرك فاهمٌ يعرف حقيقةَ الألوهيَّةِ، ولله في خلقه شؤون"[1].

بلاغةُ القصرِ في حصر قولهم بالكذب:

عقيدة المشركين مبناها على الكذب، فلا يصدرُ منهم غيره

قصَرَ النَّظمُ الجليل قولهم على الكذب في قوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾؛ فنفى أن يكون قولهم شيئًا غيرَ الكذب، فهو قصر غيرُ حقيقيٍّ؛ لأنَّهم يقولون غيرَ ذلك في حياتهم، وإنَّما نفى عموم القول عنهم في شأن الله تعالى، واستثنى من ذلك النَّفي قولَهُمُ الكذبَ[2]، وهو قصرُ موصوف على صفة، فقصر قولَهم على صفة الكذبِ.

إيثارُ استعمال ﴿يَقُولُونَ﴾ مضارعًا:

قولُهُمُ الكذبَ على الله تعالى لا ينفكُّ عنهم

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع الدّالِّ على التَّجدُّد والاستمرار في قوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾؛ لأنَّهم قد دأبوا على تلك المقولةِ دهورًا متتابعةً، لا ينقطعون عنها في زمان، يرثها جيلٌ إثرَ جيل، فهو قول دائم متجدِّد.

نكتةُ تنكير ﴿كَذِبًا﴾:

الكذبُ بنسبةِ الولد لله تعالى أشنعُ الكذب ومنتهى القُبح

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الكذب بالنكرة في قوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ تهويلًا لشأن ما قالوه، فهو كذب عظيم، فما قولهم بأنَّ لله تعالى ولدًا إلّا كذبٌ "لا يكادُ يدخُل تحتَ إمكانِ الصدق

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4488.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 253.

أصلًا"[1]، وتفخيمُ تكذيبهم بهذه المقولة ضرورةٌ؛ لكونه يتعلَّق بذات اللّه تعالى، فهو أفحش الكذب، وأقصى غاية في الشَّناعة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(كَبُرَتْ) و(عظُمت):

كَبُرَ خلاف صَغُرَ، والعِظَمُ كِبَرٌ مع قوَّة

(عظم) أَصلٌ يدلُّ على كِبَرٍ وقوَّةٍ[2]، والعظيم قد يكون من جهَة الكَثْرَة ومن غير جهَة الكَثْرَة، ولذلك جازَ أَن يوصف اللّه تعالَى بأنَّهُ عَظيم، ولم يوصف بِأَنَّهُ كثير[3]، و(كَبَرَ) أَصلٌ يدلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[4]، نحو: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: 13]، وأمّا قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾؛ ففيه تنبيهٌ على عِظَم ذلك مِن بين الذُّنوب وعِظَم عقوبته[5]، أي: عظمت مقالتهم في الكفر[6]، فالعِظَمُ يدلُّ على القوَّة وعلى الكبر، فلو قال: (عظُمت) مكان قوله جلَّ شأنه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ لدلَّ على أنَّها تتَّصف بأنَّها قويَّة مع كونها كبيرةً، وليس هذا المرادَ، فليست هي مِنَ القوَّة في شيء، بل هي كبيرة الشَّأنِ في الكفر، تبيينًا لشدَّة قبحها.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 204.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عظم).
(3) العسكري، الفروق، ص: 183.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(5) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(6) الإيجي، جامع البيان: 2/ 424.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد تكذيب الدَّعوة تُساق التَّسليةُ للدّاعي حفظًا له مِنَ الهلاك

لمّا استفتحَ النَّظمُ الجليلُ السّورةَ بالحمدِ على نعمةِ الكتابِ وبشارةِ المؤمنين، وإنذارِ القائلين بالولد مِنَ النَّصارى، وعظَّم جُرْمَهم بقوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، ولمّا كان صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم شديدَ الحرصِ على إيمانهم شفقةً عليهم، وتعظيمًا لتوحيد اللّه تعالى؛ خفض عليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ﴾ تسليةً له ﷺ، فالتحمتِ الآيُ أعظمَ التحام، وأحسنَ التئام[1]، فبعد الإنذار "سرّى اللّه تعالى عن رسوله ﷺ، وواساهُ في حزنِه على المشركين لتركِهِمُ الإيمانَ، وبُعدهم عنه" بهذه الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَٰخِعٞ﴾: (بخع) أصلٌ يدلُّ على القتلِ وما داناهُ مِن إذلالٍ وقهرٍ[2]، بخَعَ نفسَه يَبخَعُها بَخعًا وبُخوعًا: قتلها غيظًا أو غَمًّا، قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾، أي: مُخْرِجٌ نفسَك، وقاتلٌ نفسَك ومهلكها، ونُقل عن الأخفش أنَّه قال: يُقالُ: بَخَعْتُ لَكَ نفسي ونُصحي، أيْ: جَهَدْتها[3]، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: 8] حَثٌّ على ترك التَّأسُّف[4]، قال اللَّيث: بخع الرَّجلُ نفسَه؛ إذا قتلَها غيظًا مِن شدَّة وجدِه بالشَّيء.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 9 - 12.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بخع).
(3) ابن منظور، اللسان: (بخع)، ولم أقف على ما عُزي إلى الأخفش في كتابه معاني القرآن.
(4) الرّاغب، المفردات: (بخع)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب (21/ 426).

2) ﴿ءَاثَٰرِهِمۡ﴾: (أثر) أصلٌ يدلُّ على رَسْم الشَّيْءِ الباقي[1]، والأثرُ: بَقيَّةُ ما يُرَى مِن كُلِّ شيءٍ، وما لا يُرَى بَعدَ أَنْ تَبقَى فيهِ علقةٌ، وأَثَرُ السَّيفِ: ضَرْبَتُهُ[2]، وأثرُ الشَّيء: حصولُ ما يدلُّ على وجوده، يقال: أثَرَ، وأثَّرَ، والجمع: الآثار، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: 27][3]، ومعنى ﴿ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾، أي: "على فراقهم ومن بعد توليهم وإعراضِهم"[4]، ومعنى الآثار في الآية: "جمع أثرٍ، وهو ما يُؤثِرُهُ، أي: يُبقيه الماشي، أو الرّاكب في الرَّمل، أو الأرض من مواطئ أقدامِهِ، وأخفافِ راحلتِه، والأثرُ أيضًا: ما يُبْقيه أهلُ الدّار؛ إذا ترحَّلوا عنها من تافهِ آلاتِهم التي كانوا يُعالجون بها شؤونهم كالأوتاد والرَّماد"[5].

3) ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾: أَصلُ (حدث) كَوْنُ الشَّيءِ لم يكن، يُقالُ: حَدَثَ أَمرٌ بَعد أن لم يكن، والحَديثُ مِن هَذا؛ لِأَنَّهُ كَلامٌ يَحدُثُ مِنهُ الشَّيءُ بَعدَ الشَّيءِ[6]، والحديث: نقيضُ القديم، يقال: أَخذني ما قَدُمَ وحَدُث، والحديث: الخبرُ، يأتي على القليل والكثير، ويُجمَعُ على أحاديثَ[7]، ويُسمَّى القرآن حديثًا، قال تعالى: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩﴾ [النجم: 59][8]، والمراد بقوله جلَّ شأنه: ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾: القرآن[9].

4) ﴿أَسَفًا﴾: (أَسف) أَصلٌ يَدلُّ على الفَوتِ والتَّلَهُّفِ[10]، والأَسَفُ: أشدُّ الحزن، وقد أَسِفَ على ما فاته، وتأَسَّفَ، أي: تلهَّف، وأَسِفَ عليه أَسَفًا، أي: غَضِبَ[11]، ويُقال للحزنِ والغضبِ معًا، أو لكلِّ واحدٍ منهما على الانفراد، وحقيقته: ثورانُ دم القلب شهوةَ الانتقام، فمتى كان ذلك على مَن دونه؛ انتشرَ، فصارَ غضبًا، ومتى كان على مَن فوقه؛ انقبضَ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثر).
(2) الخليل، العين: (أثر).
(3) الرّاغب، المفردات: (أثر).
(4) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 320.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 254.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حدث).
(7) الجوهري، الصحاح: (حدث).
(8) السّمين، عمدة الحفاظ: (حدث).
(9) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 320.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أسف).
(11) الجوهري، الصحاح: (أسف).

فصارَ حزنًا، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: 55]، أي: أغضبونا[1]، فعلى هذا يأتي الأسف في القُرْآن على وجْهَيْن: أَحدهما: الحزنُ، والثّاني: الغَضَب[2]، والمراد به في الآية الحزنُ؛ "لأنّه على مَن لا يَملِكه، ولا هو تحت يدِ الأَسِف، ولو كانَ الأسف من مُقتدرٍ على مَن هو في قبضته وملكه؛ لكان غضبًا[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

هدايةُ الخلق بيد الخالقِ وحسْبُ المبلِّغ الدَّعوة إلى الله

يُخبرُ اللّهُ تعالى النَّبيَّ هاديًا له ومعلِّمًا ومرشدًا ألّا "تبخع نفسك مِن بعد تولّيهم عنِ الإيمانِ وإعراضِهم عنه أسفًا وحسرة عليهم، فقد اشتدَّ وجدُك عليهم، وبلغت حالًا مِنَ الأسَى والحسرةِ صِرتَ فيها أشبهَ بحال مَن يُحدِّث نفسه أن يبخعها أسًى وحسرةً عليهم، وما كان مِن حقِّك أن تفعلَ ذلك، إن عليكَ إلّا البلاغُ، وليس عليك الهدايةُ"[4]، فإشغالُ النَّفس بالغمِّ، والأسفِ ليس فيه فائدة، ومِنَ العِبَرِ في هذه الآية أنَّ على المأمور بدعاء الخلق إلى اللّه "التَّبليغَ والسَّعي بكلِّ سبب يوصل إلى الهداية، وسدّ طُرق الضَّلال والغواية بغاية ما يمكنه، مع التَّوكُّل على اللّه في ذلك، فإنِ اهتدوا فبها ونِعمت، وإلّا فلا يَحزن، ولا يَأسف، فإنَّ ذلك مُضعفٌ للنَّفس، هادمٌ للقوى، ليس فيه فائدة، بل يمضي على فعلِه الذي كُلِّف به، وتوجَّه إليه، وما عدا ذلك، فهو خارجٌ عن قدرته"[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ في مفتتح الآية:

مِن حِرصِ نبيِّ الرَّحمة على قومِهِ أَساهُ على تولّيهم

افتتحَ النَّظمُ الجليل قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ

(1) الرّاغب، المفردات: (أسف).
(2) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 91.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 496.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 15/ 116.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 470.

﴿ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ بالفاء الدّالَّة على التَّفريع؛ لأنَّها مترتِّبة على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤﴾ [الكهف: 4]؛ لأنَّهم بحكم المكذِّبين، فكان النَّبيُّ ﷺ في ضيق شديدٍ مِن تكذيبهم، دلَّ على ذلك مقابلته بقوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الكهف: 2][1].

معنى (لعلّ) وفائدةُ الخطاب في الآية:

سبيلُ الأنبياء عدمُ الاكتراث بكفر الكافرين

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الرَّجاء (لعلَّ) في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ لتنبيه النَّبيِّ ﷺ مِن أن يكون مغتمًّا أو حزينًا على كفرهم به، وعدم إيمانهم، وفائدتها في الخطاب تسليةُ النَّبيِّ ﷺ لقلَّة الاكتراث بهم[2].

بلاغةُ المجاز في (لعلَّ):

صورةُ التأسُّفِ والحزن بلغت حدَّ توقُّعِ الناسِ الهلاكَ

حقيقةُ (لعلَّ) "إنشاءُ الرَّجاء والتَّوقُّع، وتُستعمل في الإنكار، والتَّحذير على طريقة المجازِ المُرسل؛ لأنَّهما لازمان لتوقُّع الأمر المكروه"[3]، وهي أيضًا "للترجي، وهو الطَّمع في الوقوع أو الإشفاق منه، وهي هنا استعارة، أي: وصلتَ إلى حالة يتوقَّع منك النَّاسُ ذلك لما يُشاهَدُ مِن تأسُّفك على عدم إيمانهم"[4]، فلعلَّ هنا استُعْمِلت بين الحذر مِن الهلكة، والإشفاق من الوقوع فيها.

بلاغةُ الاستفهامِ الإنكاري:

الحزنُ على ما ليس أمره باليد مَظِنَّةُ النهي

وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ بمعنى النهي، أي: لا تبخع نفسك، ولا تُهلِكْها حزنًا وأسفًا لإعراضِ قومك عنِ الإيمان.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 253.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 254.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 254.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 197، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 6.

سرُّ إيثار ﴿بَٰخِعٞ﴾ على هَيْئة اسم الفاعل:

لا ينبغي للمؤمن الاتِّصاف بالغِلْظة على نفسه لكُفر النّاس بدعوته

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بـ(البخع) في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾، وهو دالٌّ على قتل النَّفس، وأصلهُ أن يبلغ الذّابحُ بالقطع إلى القفا، وأُطلق على القتل المشوب بغيظ[1]، ففي هذه اللَّفظة دلالةٌ على القتل بكيفيَّة خاصَّة، والمراد به بيانُ سوء القتل للنَّفس وتبشيعه، تنفيرًا منه وتتميمًا للتَّحذير والتَّسلية، وجيء به بصيغة اسم الفاعل للدَّلالة على أنَّ الذَّمَّ حاصلٌ بمجرَّد التَّحلّي بهذه الصِّفة، من غير اقتضاء الشُّروع فيها وإحداثها، تنفيرًا من الاتِّصاف بها، وجيء بلفظ ﴿بَٰخِعٞ﴾ على هيئة اسم الفاعل أيضًا؛ لتصوير حالةِ أسفه، وشدَّة حزنه في ذهن السّامع واسْتِحضارها[2].

دلالةُ لفظ (نفس) وسرُّ إضافته:

عِظَمُ الهمِّ والغمِّ مقتلةٌ للنَّفس متلفةٌ لها

عبَّر النَّظمُ الجليل بالنَّفس في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ للدَّلالة على شدَّة الغمِّ والوجد الذي هو فيه[3]، بحيث إنَّه في حال مَن يُتَوقَّع منه أن يوشك أن يُقْبِلَ على قتْلِ نفسه لشدَّة ما فيه من غمٍّ وألم، والإضافة إلى ضمير المخاطَبِ تهويلٌ لشأن القتل؛ إذ إنَّ قتْلَ النَّفس مُحرَّمٌ بالنَّصِّ.

دلالةُ حرفِ الاستعلاء في ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ للدَّلالة على الاستعلاء المجازيِّ، وهو شدةُ الاتصال بالمكان؛ لأنَّ البَخْع لم يكن على الآثار حقيقة، ويجوز أن يكونَ ﴿عَلَىٰٓ﴾ للتَّعليل، والمعنى: لعلَّك مُهلكٌ نفسك لأجل إعراضهم عنك[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 254.

(2) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 15.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 12.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 254.

بلاغةُ التشبيهِ في الآية الكريمة:

حزنُ الدّاعي على كُفرِ قومِهِ كوجْدِ فاقدٍ أهلَهُ يبكي على آثارهم

في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ تمثيلٌ ضمنيٌّ، فهو تشبيهٌ لحال النَّبيِّ ﷺ في شدَّة حِرصه على إيمان النّاس، وفي غمِّه مِن إعراضِهم بحال مَن فارقَهُ أهلُهُ وأحبَّتُهُ، فهَمَّ بقتل نفسه وجدًا عليهم، وتحسُّرًا على آثارهم؛ إذ الشَّفقة على خلق اللّه والرَّحمة عليهم مِن لوازم مَحبَّةِ اللّه والدَّعوة إليه[1]، فلمّا أدبروا عنِ الإيمان، وتباعدوا عنه، وأعرضوا عنِ الشَّرع، فكأنَّهم مِن فرط ذلك الإدبارِ قد بعدوا، فهو في آثارهم يحزن عليهم[2]، وجاز أن يكون مِن باب التَّشبيه لذكر طرفيه، وهُما النَّبيُّ ﷺ وباخع؛ بأن يُشبَّه ﷺ لشدَّةِ حرصه على الأمر بمَنْ يُريد قتل نفسه لفوات أمر تَحَقُّق إيمانهم[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في الآية:

المتوقَّعُ مِنَ المُفارِقِ أحبَّتَهُ هلاكُ نفسِه

يذهب العماديُّ إلى أنَّه "يجوز حملُ النَّظمِ الكريم على الاستعارة التبعيةِ بجعل التَّشبيهِ بين أجزاءِ الطرفين لا بين الهيئتَين المنتزَعتين منهما، كما في التمثيل"[4]، وهي عند الآلوسيِّ "استعارةٌ تمثيليَّة؛ وذلك أنَّه مثَّل حاله ﷺ في شدَّة الوجد على إعراض القوم وتولّيهم عنِ الإيمان بالقرآن وكمال الحزن عليهم؛ بحال مَن يُتوقَّع منه إهلاك نفسه إثر فوتِ ما يحبُّه عند مفارقة أحبَّته تأسُّفًا على مُفارقتهم وتلهُّفًا على مُهاجرتهم، ثمَّ قيل ما قيل، وهو أولى من اعتبار الاستعارة المُفردة التَّبعيَّة في الأطراف"[5].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 6.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 496.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 197.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 204.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 197، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 6، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4489.

نكتةُ إيثارِ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

وقوعُ الإيمانِ مِنَ المُعرضين مُستبعَدٌ لفرط إدبارِهم

القاعدةُ أنَّ الفعل إذا كان مُحقَّقًا وقوعُهُ؛ فالمُناسب له (إذا)، وإنْ كان مُحقَّقًا عدمُهُ؛ أتى بـ ﴿إِن﴾؛ فـ (إذا) لتحقُّق الشَّرط، وتحقُّق الجزاءِ، أمّا ﴿إِن﴾؛ فإنَّها لا تُفيد تحقُّقَ الشَّرط، ومِن ثمَّ لا يتحقَّق الجزاء[1].

وسياق الآية في قوله تعالى: ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ استبعادُ وقوع الإيمان مِنَ الكافرين، لكونهم في إدبار وتباعُدٍ عن الإيمان، وإعراض عن الشَّرع، فَكأنَّهم من فرط إِدبارهم قد بعدوا[2]، وللإشعار بأنَّهم باقون على تَولّيهم، وإعراضهم، ولذلك جاء بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا).

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفي ﴿يُؤۡمِنُواْ﴾:

مِن رحمةِ الله تعالى بنبيِّه تهيئةُ نفسه لما سيلقاه مِنَ الشَّدائد

في قوله تعالى: ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ عبَّر بصيغة الفعل المضارع ﴿يُؤۡمِنُواْ﴾ المقتضيةِ الحصولَ في المستقبل، أي: إنِ استمرَّ عدم إيمانهم، إيماءً إلى أنَّهم غيرُ صائرين إلى الإيمان، ولتهيئة نفسه ﷺ أن تتحمَّل ما سيلقاه من عنادهم رأفةً من ربِّه به[3].

بلاغةُ التَّصريحِ باسم الإشارة للقريبِ:

حضورُ القرآنِ في الأذهانِ مِنَ الوضوحِ كأنَّهُ شاخصٌ يُشار إليه

صرَّحَ النَّظمُ الجليلُ باسم الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾، فأنزل القرآنُ منزلة المُشار إليه؛ "لأنَّه لحضوره في الأذهان كأنَّه حاضرٌ في مقام نزولِ الآية، فأشيرَ إليه بذلك الاعتبار"[4]، ودلالتُه على القُرب وقعت في مَوقع حسنٍ بليغ؛ فلمّا صوَّر بُعدهم بما دلَّ عليه ذِكرُ الآثار؛ أتبعه بتصوير قربِ ما دعاهم إليه، ويُسّرِ تناوله[5]، وهذا القُربُ - الدّالُّ على أنَّ الإيمانَ بهذا

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 50، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/ 1444.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 496.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 255.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 255.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 13.

الكتاب ينبغي أن يُسارِعَ إليه كلُّ عاقلٍ - هو السِّرُّ في تَوقُّعِ إهلاكِهِ نفسَه على عدم إيمانهم.

نكتةُ إطلاقِ لفظ ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ على القرآن:

نُـزولُ القرآنِ مُتجدِّدٌ مُتدرِّجٌ حسب الوقائعِ الحادثة

أطلقَ النَّظمُ الجليل لفظ الحديث على القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾؛ لأنَّ القرآنَ دائمُ النُّزولِ مُتجدِّدٌ على حسب التَّدرُّج[1]، "وإطلاقُ اسم الحديث على القرآن باعتبار أنَّهُ إخبارٌ مِنَ اللّه لرسوله؛ إذ الحديثُ هو الكلام الطَّويل المتضمِّن أخبارًا وقصصًا، سُمّي الحديثُ حديثًا باعتبار اشتماله على الأمر الحديث، أي: الذي حدَثَ وجَدَّ، أي: الأخبار المُستجِدَّةُ التي لا يعلمها المخاطَبُ"[2]، ولأنَّه تعالى شبَّهه بما يُتَحَدَّثُ به، فإنَّ اللّه خاطب به المكلَّفين[3].

بلاغةُ حذْفِ جواب الشَّرط في الآية:

إعراضُ المشركين عنِ الإيمانِ يُسبِّبُ قتْلَ النَّفس غمًّا

أوردَ النَّظمُ الجليل جملةَ الشَّرط محذوفةَ الجواب في قوله تعالى: ﴿بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ لظهور المعنى، والاعتماد على المفهوم مِن الجملة السّابقة في قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾[4]، أي: إن لم يؤمنوا بهذا الحديث؛ فأنت قاتلٌ نفْسَك غمًّا.

دلالةُ لفظ ﴿أَسَفًا﴾ وإعرابه:

تصويرُ حالِهِ ﷺ في شدَّة حرصِهِ على هداية قومه

الأَسفُ: المُبالغةُ في الحُزنِ، وفي انتصابه وُجوهٌ: **الأوَّل**: أنَّه نُصِبَ على المصدَرِ، ودلَّ ما قَبلهُ مِن الكلام على أنَّه يأسَفُ، **الثّاني**: يجوزُ أن يكون مفعولًا له، أي: للأسفِ، كقولك: (جئتك ابتغاء الخير)، **والثّالثُ**: قال الزَّجّاج: ﴿أَسَفًا﴾ منصوبٌ؛ لأنَّه مصدرٌ في موضع الحالِ[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 13.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 255.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 261.
(4) السّمين، الدر المصون: 7/ 441، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 204.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 426.

سرُّ التَّعبيرِ عَنِ الأسفِ بالمصدرِ المنكَّر:

الأســـفُ هَـمٌّ شديد لا يزولُ

في قوله تعالى: ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ عبَّر الذِّكر الحكيم عَنِ الأسف بالمصدر المنكَّر لبيان المُبالغة في الحُزن والغضب، فالأسف هو الهمُّ الشَّديد والحزن العميق الذي لا يذهب، بل يبقى كقوله تعالى: ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ [الأعراف: 150]، أي: مهمومًا همًّا يسكن في القلب، ولا يكونُ كالغضب يعرض ثمَّ يزول، كالزوبعة تثور ثمَّ تهدأُ، أمّا الأسف والهمُّ؛ فيبقى[1].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

باخعٌ وقاتلٌ وهالكٌ:

البَخْعُ أخصُّ مِنَ القتل والهلاك، فهو قتْلٌ مشوبٌ بغيظٍ

﴿بَٰخِعٞ﴾: (بخع) أَصلٌ يدلُّ على القتلِ وما داناهُ مِن إذلالٍ وقَهرٍ[2]، وبخَعَ نفسَه: قتلها غيظًا أو غمًّا، قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾، أي: مُخرِجٌ نفسَك، وقاتلٌ نفسَك، ومُهلِكُها؛ فآثرَ التَّعبيرَ بلفظ (البخع) في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ لما فيه من دلالة على سوءِ القتلِ وشدَّتهِ؛ لكونه مقترنًا بالغيظ، فهو يُطلَقُ على القتل المشوب بغيظٍ[3]، فآثر التَّعبيرَ به تنبيهًا على سوء قتل النَّفسِ همًّا على كفر الكافرين، وهذا المعنى لا يتحقَّقُ في لفظَي القتلِ والهلاك لعموم دلالتهما.

الأسفُ والحزنُ والبثُّ والحسرة والغمُّ والهَمُّ والأسى:

الأســـف حـزنٌ شديدٌ جاثمٌ على القلب لا يزولُ

(أسف): أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الفَوْتِ والتَّلَهُّفِ[4]، والأَسَفُ: أشدُّ الحزن، وقد أَسِفَ على ما فاته، وتأسَّفَ، أي: تلهَّف، وأَسِفَ عليه أَسَفًا، أي: غَضِبَ[5]، فـ(الأسف) حَسْرةٌ مَعها غضبٌ أو غيظ[6]، وهو المبالغة في

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 704، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4490.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بخع).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 254.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أسف).
(5) الجوهري، الصحاح: (أسف).
(6) العسكري، الفروق اللغوية: 267، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3852.

حزنٍ أو غضب[1]، لفعل يخالفه مع عدم القدرةِ على الانتقام، أمّا الغضب؛ فممَّن يقدر عليه[2]، وهو "الهمُّ الشَّديد الذي لا يذهب، فهو باقٍ لا يزول، كقوله تعالى: ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ [الأعراف: 150]، أي: مهمومًا همًّا يسكن في القلب، فهو ليس كالغضب، حيث إنَّهُ يَعرِض، ثمَّ لا يلبث أن يزول[3]، و(الحزن): ما يكون في النَّفس من الآلام الدَّفينة، فالحزنُ يُفيد غِلَظ الهمِّ، و(البَثُّ): الهمُّ العارض الذي لا يُمكن الصَّبر عليه، وينتشر في النَّفس، ويسدُّ عليها أسباب السرور، فهو يُفيد أنَّه ينبثُّ، ولا ينكتم، من قَوْلك: أبثثْتُهُ ما عندي، وبَثَثْتُهُ؛ إذا أعلمته إيّاه[4]، و(الحَسْرَة): غمٌّ يَتَجَدَّدُ لفوت فائِدَة، فَلَيْسَ كلُّ غمٍّ حسرةً، و(الغَمُّ): معنًى ينقبض القلبُ مَعَهُ، ويكون لوُقوع ضَرَرٍ قد كانَ، أَو لتوقُّعِ ضَرَرٍ يكونُ، أَو يتوهَّمُهُ، و(الهمُّ): هو الحزن الَّذي تطول مدَّتُهُ حَتَّى يُذيبَ البدنَ[5]، و(الأسى): حزنٌ على الشَّيْءِ الَّذي يفوت، و(الكَمَد): حزنٌ لا يُسْتَطاع إمضاؤه[6].

واختيرَ الأسفُ في الآية؛ "لأنَّه على مَن لا يملك، ولا هو تحت يدِ الآسفِ، ولو كان الأسفُ مِن مُقتدرٍ على مَنْ هو في قبضته ومُلكِهِ كان غَضبًا، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: 55]، أي: أغضبونا"[7]، وهو الأنسبُ للآية تعبيرًا عن شدَّة حزن النَّبيِّ ﷺ على كُفرِ قومه الذين لا يملكُ أمرَهُم، وإعراضِهم عن الهداية والخير في دعوته.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 496.
(2) الشهاب، عناية القاضي: 6/ 75.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4490.
(4) العسكري، الفروق اللغوية: 267، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3852.
(5) العسكري، الفروق اللغوية: 266 - 267.
(6) الكفوي، الكُلّيّات، ص: 114.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 96.

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧﴾ [الكهف: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد إرشاد النّبيّ لترك الأسف؛ سلّاه بأنَّ زينة الحياة للابتلاء لا للبقاء

لمّا سيقت الآيةُ السّابقة إرشادًا للنَّبيِّ ﷺ بألّا يُهلك نفسه تأسُّفًا على كفرهم وامتناعهم عن قبول الدَّعوة؛ بيَّن في هذه الآية "عِلَّة إرشاده إلى الإعراض عنهم بغير ما يَقدر عليه مِنَ التَّبليغ للبشارة والنِّذارة بأنَّهم لم يخرجوا عن مراده سبحانه، وأنَّ الإيمانَ لا يقدِرُ على إدخاله قلوبَهُم غيرُهُ"(1)، ومِن المناسبة أنَّ النَّظم الجليل لمّا ابتدأ السورةَ بالحمد لله مشيرًا إلى نعمة إنزال القرآن على قلب النَّبيِّ ﷺ، وافتراق النّاس تُجاهَه فريقَيْن: فريقًا هداهُ اللهُ، فاتَّبع الحقَّ، وخالفَ الهوى، ولم ينشغل بزُخْرف الحياة الدُّنيا، وفريقًا حقَّت عليهم الضَّلالة، فاتَّبع الهوى والدُّنيا؛ بيَّن هنا حقيقة الدُّنيا وما عليها مِن زينة، وأنَّها دارُ ابتلاء، فكم مِن عبدٍ للّه قد اشترى أُخراه بدنياه، وعلى رأس هؤلاء العُبّاد رسولُ اللّه ﷺ، وقصَّةُ أهل الكهف نموذجٌ يُحتذى به، وكم مِن أناسٍ قد باعوا آخرتَهُم بعرض زائلٍ، وقصَّة صاحب الجنَّتين تَشهدُ على ذلك.

فالآيةُ تسليةٌ للنَّبيِّ صلّى اللّه عليه وآله وسلَّم على إعراض المشركين بأنَّ اللّه أمهلَهم، وأعطاهم زينة الدُّنيا لعلهم يَشكرونه، وأنَّهم بَطروا النِّعمة، فإنَّ اللّه يسلب عنهمُ النِّعمةَ، فتصير بلادهم قاحلةً، فخَلْقُ ما على الأرض مِنَ الزِّينة هو لابتلاء النّاس واختبارِهم أيُّهم أَحۡسَنُ عَمَلٗا؛ إذ ليسوا على نمطٍ واحدٍ في الاستقامة واتِّباع الرسل، بل لا بدَّ أن يكون فيهم مَن هو أحسن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 13.

عملًا، ومَن هو أسوأُ عملًا، فلا تغتمَّ، وتحزنْ على مَن فضَّلتُ عليه بأنَّه يكون أسوأ عملًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زِينَةً﴾: (زين) أصلٌ يدلُّ عَلَى حُسنِ الشَّيءِ وتَحْسينِه، فالزَّينُ نَقيضُ الشَّيْنِ[2]، وزَيَّنَهُ: إذا أَظهَرَ حُسْنَه، وقولُه: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ١٦﴾ [الحِجر: 16]، فَإِشارَةٌ إلى الزِّينةِ الَّتي تُدرَكُ بالبصرِ الَّتي يَعرفُها الخاصَّةُ والعامَّة، وإلى الزِّينة المعقولة الَّتي يَختصُّ بمعرفتها الخاصَّة، وذلك أحكامها وسيرها، وتَزْيينُ اللّٰه للأشياء قد يكونُ بإبداعِها مُزيَّنة، وإيجادِها كذلك[3]، والزِّينة اسمٌ جامعٌ لكُلِّ شَيءٍ يُتَزَيَّن به[4].

2) ﴿أَحْسَنُ﴾: (حسن) أصلُهُ الحُسنُ ضِدُّ القُبْحِ[5]، والحُسنُ أكثرُ ما يُقالُ في تَعارفِ العامَّة في المُستحسنِ بالبصرِ، يُقال: رجل حَسَنٌ وحُسّان، وامرأة حَسناء وحُسّانَة، وأكثرُ ما جاءَ في القرآنِ مِنَ الحُسنِ، فللمُستحسَنِ مِن جهةِ البصيرةِ، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: 18]، أي: الأبعد عنِ الشُّبهة، والإحسانُ يُقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الآخرين، يُقال: أَحسنَ إلى فلان، والثّاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا، أو عمل عملًا حسنًا[6]، وحُسنُ العملِ في هذه الدُّنيا الزُّهد فيها وتَرْكُ الاغترار بها[7].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يُخبرُ اللّٰهُ تعالى أنَّه جعلَ ما على وجه الأرض مِنَ المخلوقات

تحويلُ هيئة الأرضِ من مكانٍ موحِش إلى مِهادٍ مُزيَّنةٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 96، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 256.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(3) الرّاغب، المفردات: (زين).
(4) ابن منظور، اللسان: (زين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(6) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(7) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 287.

والجمادات زينةً لها ولأهلها، كالنَّبات والشَّجر والأنهار والجماد، وغير ذلك مِن النِّعَم كالذَّهب والفضَّة، والغايةُ مِن ذلك اختبارهم: أيُّهم أحسنُ عملًا بطاعتنا، وأيُّهم أسوأُ عملًا بالمعاصي[1]، والآية سيقت لتسلية النَّبيِّ ﷺ، أي: لا تهتمَّ للدُّنيا وأهلِها، فأمرها وأمرهم إلى فناء وذهاب، فإنَّما جعلنا ما على الأرض زينة وامتحانًا وخبرة[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل الجملة في صدر الآية عمّا قبلها:

لا ينبغي إهلاك النَّفس تأسُّفًا وحال الدُّنيا أنَّها زينة وابتلاء

فصلَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾؛ لأنَّها سيقت للاستئناف التَّعليليِّ، فهي تعليل للإشفاقِ والتَّوقُّع الَّذي تدلُّ عليه (لعلَّ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾، والقصد مِن هذا التَّعليل تَسلية النَّبيِّ ﷺ، وتسكين أسفه وغيظه[3]، فالإخبارُ بجعْلِ اللّه تعالى ما على الأرض زينةً لها تذكيرٌ بقدرة اللّه تعالى، وبخاصَّة "ما كان منها إيجادًا للأشياء وأضدادها مِن حياة الأرض وموتها المماثل لحياة النّاسِ وموتهم، والمماثل للحياة المعنويَّةِ والموت المعنوي مِن إيمان وكفرٍ، ونعمة ونقمة، كلُّها عِبَرٌ لمن يعتبر بالتَّغيُّر ويأخذ الأهبة إلى الانتقال مِن حال إلى حال، فلا يثق بقوَّته وبطشه، ليقيس الأشياء بأشباهها، ويعرِضُ نفسه على معيار الفضائلِ وحُسنى العواقب"[4].

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الغَيبة إلى التكلُّم:

الثَّناءُ والإنذار واقعان بلسان العباد عَنِ الله تعالى، والله هو الجاعلُ حقيقة

التفتَ النَّظم الجليل مِنَ الغيبة الَّتي يقتضيها الاسم الظّاهر في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الكهف: 1]، وقوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ [الكهف: 4]، إلى الخطاب بصيغة المتكلِّم في قوله جلَّ

(1) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 13، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 294.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 496.

(3) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 12.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 256.

شأنه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾؛ لأنَّ الإنذار يقع بلسان الرُّسل عنِ اللّه تعالى، أمّا الجعل؛ فهو مسندٌ للّه تعالى على وجه الحقيقة، ولا يقع بواسطة، فالتفت إلى صيغة المتكلِّم المعظِّمِ نفسَهُ اعتبارًا للواقع.

فائدةُ تصديرِ الجملة بأداة التوكيد:

علّةُ النّهي عن الأسف أنَّ الأرض مزيّنة للابتلاء لا للحياة الأبديّة

صدَّرَ النَّظمُ الجليل الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ بحرف التَّأكيد (إنَّ)؛ لأنّها في موقع التَّعليل[1]، ومِن شأن (إنَّ) أن تكون في مُفتتح بعض الجمل التَّعليليَّة لسابق القول، وأدخل الحرف على ضمير التَّعظيم تفخيمًا للخطاب وتعظيمًا لمضمونه، أي: لا تبتئسْ بكُفْرِهم، وصدِّهم عنِ الإيمان؛ لأنّا بعظمتنا جعلنا الأرض زينةً للابتلاء، ولم نجعلها للتَّنعُّم.

إيثارُ الفعلِ ﴿جَعَلۡنَا﴾ ماضيًا:

تحويلُ الأرض إلى هيئتها الحسنةِ عريقٌ في القِدَمِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ﴾؛ لأنَّ هذا الجعْلَ لم يقع في الحاضر أو المستقبل، بل حَدَثَ زمانَ خلقِ الأرض وتكوينها، فجعلها على هذه الصِّفةِ منذُ يوم خلقها؛ وجاء التَّعبيرُ بالجعل دون التَّصيير؛ لأنَّه كان في وقت إنشائها وخلقها، فـ(صار) "تدلُّ على تحوُّل الموصوف من صفةٍ إلى أخرى، كقولك: صار الطّين خزفًا[2]، فهو تحويل الوصف لا تحويل الهيئة تامَّةً.

سرُّ إسنادِ الفعل إلى المُتكلم المُعظِّم نفسَه:

جعلُ الأرضِ زينةً عملٌ عظيم الشَّأن، لا يقع إلّا من إلهٍ قادرٍ عظيم

أُسْنِدَ النَّظمُ الجليلُ الفعلَ إلى ضمير التَّعظيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ تعظيمًا لمضمون الخطاب، أي:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 256.

(2) السّمين، عمدة الحفاظ: (صير).

"جعلنا بما لنا مِنَ العظمة"[1]؛ لأَنَّ جَعْلَ الأَرضِ على تلك الصِّفة والهيئة شأنٌ عظيم، وهو مِن خصائص الخالق لا يشاركهُ فيه أحد.

كلُّ ما حوتِ الأرضُ مِن زينةٍ إنَّما جيء بهِ للابتلاء

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿مَا﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ الدّالِّ على العموم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً﴾؛ للدَّلالة على أَنَّ كلَّ شيء على الأرض ممّا لا يُعْقَلُ زينةٌ، أي: "إنا جعلنا ما عليها ممَّن عدا مَنْ وُجِّهَ إليه التَّكليفُ مِنَ الزَّخارف حيوانًا كان أو نباتًا أو معدِنًا"[2]، فالإبهامُ في ﴿مَا﴾ يتناول كلَّ شيء، فيدلُّ على أنَّ كلَّ شيء وُضِع في الأرض إنَّما جيء به على وجه يحقِّق الابتلاء.

الابتلاءُ بما ظهر وعرفه النّاسُ مِن زينة الأرض

دلالةُ التَّعبيرِ بالجار والمجرور وحرف الاستعلاء:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بشبه الجملة مِن حرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ ومجروره في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً﴾؛ للدَّلالة على أنَّ كلَّ شيء استقرَّ على الأرض إنَّما هو زينة، والغاية منها الابتلاءُ، فكلُّ ما على الأرض عمومًا، وليس شيء إلّا وفيه زينةٌ مِن جهة خَلقهِ وصنعتهِ وإحكامهِ"[3]، فتقييدُ كون الابتلاء واقعًا بما على الأرض إيماءٌ إلى ما ظهر مِن زينتها، وعرفه النّاس في زمانهم.

حُسنُ الأرض وزينتُها حقيقة مشاهَدَة ونعمة للامتنان

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿زِينَةً﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الزّينة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾؛ لما فيه مِنَ الكِفايةِ الدَّلاليَّة، فلفظُ الزّينةِ وصفٌ لحقيقة الحياة الدُّنيا، لما فيها مِنَ اللَّهو واللَّعب، وهو ظاهر لموافقته ما طُبِعتْ عليه نفوسُ النّاس مِن حبِّ الهوى والمتاع، فلذا كان

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 13.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 204.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 497.

التَّنبيه بلفظ الزِّينة كافيًا على التَّمام[1]، ويَتضمَّن هذا اللَّفظ الدَّلالة على الامتنان، فجاء "نظمُ هذا الكلام على أسلوب الإعجازِ في جَمع معانٍ كثيرةٍ يَصلح اللَّفظُ لها مِن مُختلف الأغراض المقصودة؛ فإنَّ الإخبارَ عن خلق ما على الأرض زينةً يجمعُ الامتنانَ على النّاس والتَّذكيرَ ببديع صُنْعِ الله؛ إذ وضع هذا العالم على أتقن مثال ملائم لما تحبُّه النُّفوس مِنَ الزّينة والزُّخرف"[2].

فائدةُ التّقييدِ بشبه الجملة ﴿لَّهَا﴾:

الأرضُ دارُ اختبار وابتلاء واعتبار

قُيِّدَتِ الزّينةُ في قوله تعالى: ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ بالأرض بوساطةِ شبه الجملة ﴿لَّهَا﴾؛ لكون الأرضِ هي محلَّ الاختبار، ومحطَّ الاعتبار، ومنزل العمل الموصلِ إلى الحياة الآخرة، أو المعنى: "شهوات لأهلها تُزيَّنُ في أعينهم وأنفسِهم"[3]، "ملائِمَةً لطباعهم"[4].

دلالةُ اللّامِ الدّاخلة على فعل الابتلاء:

الغايةُ مِن تزيين الأرض وزخرفها إظهارُ أعمال القلوب

أدخلَ النَّظمُ الجليلُ اللّامَ على الابتلاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾، وهي اللّام التَّعليليَّة، فلمّا أخبر بتزيينها؛ أخبر بعلَّته، أي: نفعل ذلك لنُعاملهم مُعاملةَ المُختبر[5]، فعلَّل جعْلَ ما على الأرض زينة بأنَّه كائنٌ للابتلاء، أي: "لا تهتمَّ للدُّنيا وأهلها، فأمرها وأمرُهُم أقلُّ بفنائه وذهابه، فإنّا إنَّما جعلنا ما على الأرض زينةً وامتحانًا وخبرة"[6]، وابتلاءً لهم مع علمنا بأمرهم وما سيحدث منهم مُسْبقًا، ولكن لنعرف معرفةَ الواقع وشهادة الواقع[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 13 - 14.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 257.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 285.
(4) الخلوتي، روح البيان: 5/ 217.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 13.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 496.
(7) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 14/ 8841.

سرُّ صَوْغِ فعل الابتلاء مضارعًا:

كشفُ صلاحِ النّاس من عدمِه من سنَّةِ الله تعالى في خلقِهِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الابتلاءِ بصيغة الفعل المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾؛ لأنَّ الابتلاءَ يدلُّ على كثرة الاختبار والحبس عليه، يقال: بَليَ الثوب بِلًى وبَلاءً، أي: خَلِقَ، وبَلَوْتُهُ: اختبرتُه كأنّي أخلقْتُهُ مِن كثرة اختباري له[1]، والمراد مِنَ الابتلاءِ إظهارُ ما يعلمه اللّه تعالى مِن حقائقهم بالفعل المشاهَدِ، فإنَّ اللّه تعالى لا يحوجُه الاختبار ليعلم صالحهم مِن غيره، فهو يعاملهم مُعاملة المُختبِرِ الذي يسأل لخفاء الأمر عليه، فما كنّا نعلمهُ منهم يصير ظاهرًا مِن خلال أفعالهم[2].

نكتةُ الإخبارِ بضمير الغَيبةِ دونَ الخطاب:

الابتلاءُ سُنّةٌ ماضية في النّاس جميعًا

أخبرَ النَّظمُ الجليلُ بضمير الغيبة في قوله تعالى: ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾، دونَ أن يقول: (لنبلوكم)؛ لأنَّ الضَّمير في ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ﴾، و﴿أَيُّهُمۡ﴾ عائدٌ على ما يُفهَمُ مِنَ السّياق، وهم سكّانُ الأرض، "فإنَّ معاملة الابتلاء إنَّما هي لأهلها وهو الإنسان؛ لأنَّه المُتصرِّف في الأرض دون غيره"[3]، فضمير الغيبةِ يدلُّ على أنَّ الابتلاء شاملٌ لكلِّ أحد، ولو جاء بضمير الخطاب؛ لكان الكلام محتمِلًا اقتصار الابتلاء على الحاضرين دونَ غيرِهم، فلمّا أُريد العمومُ؛ عدل إلى ضمير الغيبة.

نوعُ (أي) ودلالتها في: ﴿أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ﴾:

تبيينُ درجات النّاس في حُسْنِ العمل إنصافٌ وعدلٌ

أوقعَ النَّظمُ البليغُ فعلَ الابتلاء على (أيٍّ) في قوله تعالى: ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾، وفيها وجهان: **الأوّل**: أن تكونَ استفهاميَّةً مرفوعةً بالابتداء، والخبر عنها قوله: ﴿أَحۡسَنُ﴾، وتكون الجملة الاسميَّة في محلِّ نصبِ مُعلَّقةً للفعل (نَبْلُوهُم)؛ لأنَّه يَتضمَّن

(1) الرّاغب، المفردات: (بلى).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 13.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 16.

معنى العلم؛ إذ الابتلاء سببُ العلم[1]، **والوجه الثّاني**: أن تكونَ مَوصولةً بمعنى الذي، فهو مَبنيٌّ على الضمِّ في محلِّ نصب بدل مِنَ الضَّمير في الفعل (نَبْلُوهُم)[2].

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿أَحْسَنُ﴾ ودلالة صيغته:

تمايزُ الأعمالُ والنّاس فليس قربُهم من الجليل بمنزلة واحدةٍ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿أَحْسَنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ للدَّلالة على الاستكثار مِنَ الأعمال الحسنة[3]، والتَّعبيرَ بصيغة (أفعل) دون أن يقول: (لنبلو الحسن عملًا)؛ للدَّلالة على أنَّ المراد استبانةُ الدَّرجات ضمن كلا الفريقين، فالأمرُ لا يقع بالفصل بين أهل الجنَّة والنّار وحسبُ، بل هناك تَمايزٌ بين كلِّ قَبيل منهما، فيمتازون إلى درجاتهم على وفق أعمالهم، فـ "الاختبارُ لتنزيل النّاس منّا؛ فمَن اتَّجه إلى الخير ناله بقدره، ومَن اتَّجه إلى غيره تردّى في منحدر المعصية"[4].

نكتةُ اصطفاءِ لفظ ﴿عَمَلًا﴾ دون غيره:

مقصودُ تزيين الأرض إظهارُ تباين أعمال الخلق

اصطفى النَّظمُ الجليلُ لفظَ العمل فاصلةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ فجعل علَّة تزيين الأرض أنَّها ابتلاءٌ؛ لمعرفة عمل النّاس إزاء ذلك التَّزيين، وآثر العمل؛ لأنَّه يشمل كلَّ الأعمال، فإنَّ مِن لوازم هذه الزّينة تنبيهَ العقولِ على الفكر في موجدها وباريها، وتقديم الشُّكر لخالقها، فينقسم النّاس إلى شاكرٍ موفٍ بحقِّ ذلك وكافرٍ جاحد به، ومِن لوازم تلك الزّينة أنَّها تثير الشَّهوات ممّا يفضي إلى تغالُب النّاس واعتداء بعضهم على بعض، فعِلَّة جعلِ ما على الأرض زينةً إنّما هو لمعرفة أعمال العباد القلبيَّة والبدنيَّة[5].

(1) السّمين، الدر المصون: 7/ 443 - 444.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 143.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 16.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4491.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 257.

العملُ ما يصدر بقصدٍ صالحًا أو طالحًا، وهو الحقيقُ بالمؤاخذة

أوثرَ التَّعبيرُ بلفظ (العَمَل)؛ لأنَّه كلُّ فعل يكون بقصد، فهو أخصُّ مِنَ الفعل؛ لأنَّ الفعل قد يُنسبُ إلى الحيوانات التي يقع منها فعلٌ بغير قصد، وقد يُنسب إلى الجمادات، والعَمَلُ قَلَّما يُنسب إلى ذلك، ويُستعمَل العَمَلُ أيضًا في الأَعْمالِ الصالحة والسَّيِّئة، ومِمّا لا شكَّ فيه أنَّ العمل الصالح لا يكون إلّا عن قصد، ولذلك قيل: ﴿أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزِّينةُ والزُّخرفُ:

الزُّخرف أخصُّ مِنَ الزِّينة، فهو المُزَوَّقُ منها

﴿زِينَةٗ﴾: (زين) أصلٌ يدلُّ عَلَى حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه، فالزَّينُ نَقيضُ الشَّيْنِ[2]، والزِّينة اسْمٌ جامِعٌ لِكُلِّ شَيءٍ يُتزيَّن بِهِ[3]، أمّا الزُّخرفُ؛ فهو الزِّينَةُ المزوَّقة، ومنه قيل للذَّهب: زُخرفٌ، قال تعالى: ﴿بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾ [الإسراء: 93]، أي: ذهب مزوَّق[4]، فآثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالزِّينة؛ لأنَّ زينة الأرض أعمُّ مِنَ الذَّهب المزوَّق.

الابتلاءُ والاختبارُ والفتنةُ:

الابتلاءُ أعمُّ مِنَ الفتنة، فهي مُختصَّة بأشدِّ الابتلاءِ

الابتلاء في الأَصل، التَّكليف بالأمر الشّاق[5]، ولا يكون إلّا بتحميل المكاره[6]، والفتنة ما يتبيَّن بها حال الإنسان مِنَ الخَير والشَّر يُقال: فتنتُ الذَّهَب بالنّار، لتعلم أنّه خالصٌ أو مشوب[7]، فهي أشدُّ الاختبار؛ لأنَّها مشتقَّة من الحرق بالنّار، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13][8]، وفي قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا

(1) الراغب، المفردات: (عمل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(3) ابن منظور، اللسان: (زين).
(4) الراغب، المفردات: (زخرف).
(5) الكفوي، الكليات، ص: 34.
(6) العسكري، الفروق، ص: 216.
(7) الكفوي، الكليات، ص: 692.
(8) العسكري، الفروق، ص: 217.

عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، آثرَ التَّعبيرُ عن زينة الأرض بأنَّها الابتلاءُ دون الفتنة؛ لأنَّ زينة الأرض ليست أشدَّ الابتلاء، بل هي مطلق الابتلاء.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ٨﴾ [الكهف: 8]

بعد جعل الزّينةِ للابتلاء يجعلها الباري قاعًا صفصفًا

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيّن النَّظمُ الجليل أنَّ الله تعالى جعل ما على الأرض زينةً لها ولأهلها؛ أتبعَ ذلك بأنَّه سبحانه تعالى مبيدٌ لذلك كلِّهِ ومُفنيه[1]، وهذا الإخبارُ مِن تمام التَّسلية، فالإخبارُ بأنَّ ما على الأرض زينة لها، ثمَّ الإخبار بأنَّه سيؤول إلى تراب يَجعلُ التَّسلية أجدى وأبلغَ، ومِنَ المناسبة أنَّه عقَّب على تأسُّف النَّبيِّ ﷺ بأنَّ الحساب سيكون يوم البعثِ، فذكرَ ما يبيِّن شمولَ قدرته على إعادة الخلائق، كما ابتدأهم، ولمّا كان ذلك غائبًا عنِ الأذهان، ومستورًا عنِ العقول بهوى النفوس؛ نبَّه عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَعِيدٗا﴾: (صعد) أصلٌ يَدلُّ على ارتفاع ومَشَقَّة، فَأَمّا الصَّعيدُ؛ فَهو: وجهُ الأَرضِ، والمَكانُ عَلَيهِ تُرابٌ أَو لَم يَكُن[3]، يُقالُ للحَديقَةِ؛ إِذا خَرِبت، وذَهَبَ شَجْراؤُها: قَد صارَت صَعيدًا، أي: أرضًا مُستَوِيَةً لا شَجَرَ فيها[4]، والصَّعيدُ يُقال لوجه الأرض، وللغبار الذي يَصعَدُ من الصُّعودِ، ولهذا لا بدَّ للمتيمِّم أن يعلقَ بيده غبارٌ، قال: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ [النساء: 43][5]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿صَعِيدٗا جُرُزًا﴾، "أي: ترابًا بأن نُهلكَ تلك الزّينة بإزالة اخضرارها، فيزولُ

(1) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 13.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 14.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صعد).
(4) ابن منظور، اللسان: (صعد).
(5) الرّاغب، المفردات: (صعد).

المانع مِن استيلاء الترابِ عليها، ثم نُسلِّط عليها الشُّموس والرياح، فيردُّها بذلك إلى أصلها ترابًا"[1].

2) ﴿جُرُزًا﴾: (جرز) أصلٌ يدلُّ على القَطْع، يُقالُ: جَرَزْتُ الشَّيءَ: قَطَعتُه، وسَيفٌ جُرازٌ، أيْ: قَطّاعٌ، وأَرْضٌ جُرُزٌ لا نَبْتَ بها، كَأَنَّهُ قُطِعَ عَنها[2]، أو انقطع عنها المطر[3]، قال ﷻ: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾، أي: مُنقطع النَّبات مِن أصلِه، وأرض مَجْروزَة: أُكِلَ ما عليها[4]، وذهب نباتُها، وبقيت لا شيءَ فيها ولا نفع[5]، أي: يجعل اللّهُ تعالى الأرض صعيدًا "يابسًا لا نبات فيها بعد أن كانت خضراءَ معشبةً"[6].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الـوعـدُ بجعل تلك الزينةَ كأن لـم تـكـن إنـذارا وتخويفا

يُخبر النَّظمُ الجليل مؤكِّدًا أنَّ اللّه تعالى بعظمته وجلاله سيجعل ما على الأرض مِن تلك الزِّينة عند انقضاء الدُّنيا ترابًا، لا نبات فيه، والمعنى: أنَّ الحساب آتٍ، وأنَّه لا بدَّ مِنَ المجازاة والفصل بين العباد[7]، وفي الآية تسلية النَّبيِّ ﷺ: "كأنَّه قيل: لا تحزن عليهم، فإنَّه لا عليك أن يهلكوا جميعًا؛ لأنَّا نُخرج جميعَ الأسباب مِنَ العدم إلى الوجود للابتلاء، ثم نُفنيها، ولا حيف ولا نقص، أو لا تحزن، فإنّا مُفنون ذلك ومُجازون لهم بحسب أعمالهم"[8].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ عطف جملة ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ﴾ على ما قبلَها:

إفـنـاءُ الحـيـاة على الأرض بعد تـزيـيـنـهـا مِـن تـمـام التَّسلية والاعتبار

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 14.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جرز).
(3) الجوهري، الصحاح: (جرز).
(4) الرّاغب، المفردات: (جرز).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 497.
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 287.
(7) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 14، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 294.
(8) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 7.

معطوفةٌ على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾[1]؛ لأنَّ هذه الجملة تكميلٌ للعبرة وتحقيق لفناء العالم، أي: سنحوِّلُ الزّينةَ التي على الأرض إلى تراب قاحل، فلا يكون على الأرض إلّا التُّراب الجافُّ الأجرد الذي لا يصلحُ للحياة، وهذا هو فناءُ العالم[2].

سرُّ تَكرارِ (إنّا) في الآيات:

تأكيدُ الوعدِ المستقبليّ ممتازٌ عن تأكيد الفعلِ الماضي

كرَّر النَّظمُ الجليل (إنّ) في الجملة المعطوفة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ دون أن يقولَ: (ولجاعلون)؛ لتستقلَّ كلُّ جملة من الجملتين بمؤكِّد خاصٍّ، تقوية للتَّأكيد، وتحقيقًا للمضمون، فالإخبار الأوَّل جاء بالفعل الماضي ﴿جَعَلۡنَا﴾، والإخبار الثّاني جاء بصيغة المستقبل الدّالِّ عليها اسم الفاعل ﴿لَجَٰعِلُونَ﴾، فيكون تأكيد الحدثين الماضي والمستقبل تأكيدًا لحقيقة الحياة التي بُنيت على الإيجاد أوَّلًا ثم الإفناء ثانيًا، إيماء إلى انتفاء دوامها.

دلالةُ اللام والتعبير باسمِ الفاعل ﴿لَجَٰعِلُونَ﴾:

نهايةُ الحياةِ حقيقةٌ مؤكَّدة ووعد محقَّقٌ

عبَّر النَّظمُ الجليل عن مآل الأرضِ باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك كائنٌ في المستقبل[3]، وإنَّما جيء باسم الفاعل بصيغة الجمع تبعًا لضمير التَّعظيم ﴿وَإِنَّا﴾، ولم يعبِّر بالفعل بأن يقول: (سنجعل) للدَّلالة على ثبات هذا الوصف[4]، وأدخل اللّام المزحلَقة على خبر (إنّ) الدّالَّةِ على التَّأكيد؛ لأنَّ المعنى مؤكَّدُ الوقوع محقَّق المجيء.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 143.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 258.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 205.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 14.

نكتةُ تكرارِ ﴿مَا﴾، وفائدةُ إعادةِ القيد ﴿عَلَيۡهَا﴾:

ما جُعِلَ زينةً، واغترَّ به الأنامُ يُجعَلُ ترابًا وفناءً

كرَّرَ النَّظمُ الجليلُ التَّركيبَ: ﴿مَا عَلَيۡهَا﴾ بعد أن قال في الآية السّابقة: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾؛ للدّلالة على أنَّ تلك الزّينةَ التي جُعلت على الأرض، ستكونُ ترابًا أجرد، لا يصعب علينا شيء منه[1]، فالتَّكرار يشير إلى كمال القدرةِ على الإيجاد والإفناء، فما أوجدَ على الأرض سيُحوِّله إلى تراب، ويُعيده إلى أصله.

إيثارُ لفظ ﴿صَعِيدٗا جُرُزًا﴾:

ما يسرُّ العيون بزينته سيؤول إلى أرض مستوية قاحلة

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالصَّعيد الجرز في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾؛ للدّلالة على فناء الحياة، تكميلًا للاعتبار ببيان فناء تلك الزّينة، أي: سنجعلُ ما على الأرض معدومًا فانيًا، فلا يكون على الأرض غيرُ الصَّعيدِ الجرز، وهو التُّراب الجافُّ الأجرد، فلا تصلح الحياة فوقه، وذلك هو فناء العالم[2]، فالتَّعبير بالصَّعيد الجرُزِ دون التُّراب؛ لأنَّ التُّراب حاصل في الأرض في كلِّ الأحوال، أمّا إزالة الزّينة؛ فهي كائنةٌ على سطح الأرض، وبإزالتها يكون وجه الأرض صعيدًا جافًّا أجرد، أي: "مثل أرض بيضاء لا نبات فيها، بعد أن كانت خضراء مُعشبة، في إزالة بهجته، وإماطة حُسنه، وإبطال ما به كان زينة: من إماتة الحيوان، وتجفيف النبات والأشجار، ونحو ذلك ذكر مِنَ الآيات الكليَّة تزيين الأرض ممّا خلق فوقها مِنَ الأجناس التي لا حصر لها وإزالة ذلك كلِّه كأن لم يكن[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 14.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 258.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/ 704.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الصعيدُ والتُّرابُ:

الصَّعيدُ أخصُّ مِنَ التُّراب في دلالته

الصَّعيد: وجْهُ الأَرْضِ، والمَكانُ عَلَيْهِ تُرابٌ أَوْ لَم يَكُنْ[1]، والصَّعيدُ يُقال لوجه الأرض، وللغبار الذي يَصْعَدُ من الصُّعودِ، ولهذا لا بدَّ للمتيمِّم أن يَعْلَقَ بيده غبارٌ قال: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النِّساء: 43][2].

التراب: (ترب) التَّاءُ والرَّاءُ والباءُ أَصْلانِ: أَحَدُهُما التُّرابُ وما يُشْتَقُّ مِنْهُ، والآخَرُ تَساوي الشَّيْئَيْنِ[3]، يقول الأصفهانيُّ: "تَرِبَ: افتقر، كأنَّه لصق بالتراب، قال تعالى: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦﴾ [البلد: 16]، أي: ذا لصوقٍ بالتراب لفقره، وأَتْرَبَ: استغنى، كأنَّهُ صار له المال بقدر التراب[4].

وقد عبَّر الذِّكر الحكيمُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ بلفظ الصَّعيد دون التُّراب؛ لأنَّ موطنَ زينة الأرضِ هو وجهُها وسطحُها، لا مطلق التُّرابِ المعروف.

الجُرُز والزَّلَق:

الجُرُزُ أرض يبست فلا تُنبت، والزَّلَقُ أرض أُزيل نباتُها

وُصفَ الصَّعيدُ في سورة الكهف بالجرُزِ وبالزَّلق، أمّا الزَّلقُ؛ فمِن (زلق)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَزَلُّجِ الشَّيءِ عَن مَقامِه، والمَزْلَقَةُ والمَزْلَقُ: المَوْضِعُ لا يُثْبَتُ عَلَيْه، والزَّلقُ: العَجُزُ من كُلِّ دابَّةٍ، وسُمّيَتْ بذلِكَ؛ لِأَنَّ اليَدَ تزلَقُ عنها، وكذلِكَ ما يُصيبُها من مَطَرٍ ونَدًى[5]، وأَرض مَزلقة: لا يَثْبُتُ عَلَيها قَدَمٌ، وكَذَلِكَ الزَّلّاقة، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ۝٤٠﴾ [الكهف: 40]، أَي: أَرْضًا مَلْساء لا نَباتَ فيها أو مَلساءَ لَيسَ بها شَيءٌ[6]، فقوله تعالى ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صعد).
(2) الرّاغب، المفردات: (صعد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ترب).
(4) الرّاغب، المفردات: (ترب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زلق).
(6) ابن منظور، اللسان: (زلق).

﴿ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠﴾ [الكهف: 40]، إنَّما أُزلق النَّباتُ عنها بسبب ذلك الحُسبانِ، وأمّا الجُرُزُ؛ فيقال: أرضٌ جُرُزٌ: لا نبات بها، كأنِ انقطعَ عنها، أو انقطع عنها المطرُ[1]، فالصّعيد الجُرُزُ: ما كان بلا نبات بسبب انقطاعِ المطر، والصَّعيد الزَّلقُ: ما أُزيل عنه النَّباتُ بسبب الحُسبان منَ السَّماء.

(1) الجوهري، الصحاح: (جرز).

﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد ذِكْرِ الآيات العظامِ، تهوينُ شأنِ ما سألوا عنه مِن قصَّة الفتية

بعد أن ذكرَ النَّظمُ الجليلُ مِن آيات اللّه العظام بتزيين الأرضِ وابتداء الخلق، ثم بيان القدرة على إفنائه؛ أتبعه بتهوين قصَّة أصحاب الكهف، وما جرى معهم بالنَّظر إلى هاته الآياتِ الشّاخصة أمام أعينهم يرونها كلَّ زمانٍ، فلمّا كانت تلك الآياتُ "من العجائبِ التي تضاءل عندها العجائبُ، والغرائبِ التي تخضع لديها الغرائبُ، وإن صارت مألوفة بكثرةِ التَّكرارِ، والتَّجلي على الأبصار، هذا إلى ما لهُ من الآيات التي تزيدُ على العدِّ، ولا يُحصَرُ بحدٍّ، مِن خَلْقِ السَّماوات والأرض، واختلاف اللَّيل والنَّهار، وتسخير الشَّمس والقمر والكواكب، وغير ذلك؛ حقَّر آية أصحاب الكهف، وإن كانت مِن أعجبِ العجبِ؛ لاضمحلالها في جنب ذلك؛ لأنَّ الشَّيء إذا كان كذلك؛ كثر أُلْفُهُ فلم يعد عجبًا، فنبَّه على ذلك بقوله تعالى عطفًا على ما تقديره: (أعلمتَ أنَّ هذا وغيره من عجائب قدرتنا؟): ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ﴾"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَسِبۡتَ﴾: (حسب) أصلهُ من العَدِّ، تقولُ: حَسَبتُ الشَّيءَ أحسُبُهُ حَسْبًا وحُسْبانًا، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرحمن: 5]، ومِن قياسِ البابِ الحِسبانُ: الظَّنُّ؛ وذلكَ أَنَّهُ فَرَّقَ بَينَهُ وبَينَ العَدِّ بِتَغييرِ الحَرَكَةِ والتَّصريفِ، والمَعنَى واحِدٌ؛ لِأَنَّهُ إذا قالَ: حَسِبتُهُ كَذا؛ فكأنَّهُ قالَ: هوفي الَّذي أَعُدُّهُ مِنَ الأُمورِ الكائِنَةِ[2]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 14 - 15.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).

وقوله جلَّ شأنه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: 2]، ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: 42]، فكلُّ ذلك مصدره الحِسْبانُ، فـ"الحِسْبانُ: أن يُحكمَ لأحدِ النقيضَيْن من غيرِ أنْ يَخْطُرَ الآخَرُ بباله؛ فيَحْسِبُه، ويعْقِدُ عليه الأصبعَ، ويكونُ بمَعرِضٍ أن يعتريَه شَكٌّ، ويقاربُ ذلك الظنُّ، لكن الظنَّ: أنْ يُخْطِرَ النقيضَيْن بباله، فيُغلِّبَ أحدَهما على الآخَرِ"[1].

2) ﴿ٱلۡكَهۡفِ﴾: (كهف) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، وهيَ غارٌ في جَبَلٍ، وجَمعُهُ: كُهوفٌ[2]، والكَهف: كالمَغارة في الجَبَلِ إلّا أَنَّه أوسع مِنها، فَإذا صَغُرَ؛ فَهو غارٌ[3]، والمُراد بالكَهفِ في الآيةِ: الغارُ الواسعُ المنقورُ في الجبل كالبيت[4].

3) ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾: (رقم) أَصلٌ يَدُلُّ عَلَى خَطٍّ وكِتابَةٍ وما أَشبَهَ ذَلِكَ، فالرَّقمُ: الخَطُّ، والرَّقيمُ: الكِتابُ[5]، الرَّقْمُ: الخطُّ الغليظ، وقيل: هو تعجيم الكتاب، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾ [المطففين: 9]، حُمِلَ على الوجهَيْن، ورَقمَتا الحمار: الأثرُ الذي على عضديه، وأرض مَرْقومَةٌ: بها أثرُ نباتٍ، تشبيهًا بما عليه أثرُ الكتاب[6]، والرَّقْمُ: الكتابة والخَتْمُ، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾ [المطففين: 9]، والرَّقيمُ: الكتاب، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾، يقال: هو لوحٌ فيه أسماؤهم وقصصهم[7]، وفي معنى الرَّقيم في الآية خَمسَةُ أَقوال: أَحدهما: عَن ابنِ عَبّاسٍ أَنَّه لَوحٌ كُتبت فيهِ أسماؤهم، الثّاني: أَنَّه الدَّواة بِلُغَةِ الرّوم عَنْ مُجاهِدٍ، الثّالِثُ: القَرْيَةُ عَنْ كَعْبٍ، الرّابِعُ: الوادي، الخامِسُ: الكِتابُ عَنِ الضَّحّاكِ وقَتادَةَ، وإِلى هَذا القَوْلِ يَذْهَبُ أَهلُ اللُّغَةِ، وهو فَعيلٌ في مَعْنَى مَفْعول[8]، فأصحُّ الأقوال أنَّه اللوح الذي كُتِبَتْ فيه أسماؤهم وأنسابُهم وقصَّتهم، مأخوذ من رقمتُ الكتابَ؛ إذا كتبتُه[9].

(1) الرّاغب، المفردات: (حسب)، وفيه لفظة (بعرض) بدل (بمعرضٍ)، والمتّسق مع النصّ ما أثبتناه، يُنظر: الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 128.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كهف).
(3) ابن منظور، اللسان: (كهف).
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/ 704، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 15.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رقم).
(6) الرّاغب، المفردات: (رقم).
(7) الجوهري، الصحاح: (رقم).
(8) ابن منظور، اللسان: (رقم).
(9) طنطاوي: التفسير الوسيط: 8/ 474.

4) ﴿عَجَبًا﴾: (عجب) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى كِبْرٍ واسْتِكْبارٍ لِلشَّيْءِ، فالعُجْبُ: أَنْ يَتَكَبَّرَ الإنْسانُ في نَفْسِه، تَقولُ: هو مُعْجَبٌ بِنَفْسِه، وتَقولُ مِنْ بابِ العَجَبِ: عَجِبَ يَعْجَبُ عَجَبًا، وأَمرٌ عَجيبٌ، وذَلِكَ إذا اسْتُكْبِرَ واسْتُعْظِمَ[1]، والعُجْبُ والعَجَبُ: إنكارُ ما يَرِدُ عَلَيْك لقِلَّةِ اعْتيادِه، وجمعُ العَجَبِ: أَعْجابٌ، وهو النَّظَرُ إلى شيءٍ غَيْرِ مأْلوف ولا مُعتادٍ[2]؛ ولهذا قال بعض الحكماء: العَجَبُ ما لا يُعرف سببُهُ، ولهذا قيل: لا يصحُّ على اللّه التَّعَجُّبُ؛ إذ هو علّام الغيوب لا تخفى عليه خافية، يقال: عَجِبْتُ عَجَبًا، ويقال للشيء الذي يُتَعَجَّبُ منه: عَجَبٌ، وقوله جلَّ شأنه: ﴿كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾، أي: ليس ذلك في نهاية العَجَبِ؛ بل في أمورنا أعظم وأَعْجَبُ منه[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

لـيـسـت قـصَّـةُ أصحاب الكهفِ بـأعـجـبَ مِـنَ الآياتِ المبثوثةِ في الآفاق

يُخاطبُ اللّهُ تعالى النَّبيَّ ﷺ تعريضًا بالذين سألوه عن قصَّة أصحاب الكهف، فهم سألوا عن عجيبٍ، ولم يُبْصِروا ما هو أعجب، فلمّا تعجَّبوا مِن قصَّةِ أصحاب الكهف، وسألوا عنها النَّبيَّ ﷺ على سبيل الامتحان والتَّحدّي؛ خاطبه النَّظمُ الجليلُ بما مُجمل معناه: "بل أظننتَ - يا محمَّدُ ﷺ - أنَّهم كانوا عجبًا مِن آياتنا فقط؟ لا تحسب ذلك، فإنَّ آياتِنا كلَّها عجبٌ؛ فإنَّ مَن كان قادرًا على جعل ما على الأرض زينةً لها للابتلاء، ثمَّ جعل ما عليها صعيدًا جرزًا كأن لم تغْنَ بالأمس؛ لا تستبعدُ قدرتَهُ ولا حفظه ورحمته بالنِّسبة إلى طائفة مخصوصة، وإن كانت قصَّتهم خارقةً للعادة؛ فإنَّ آياتِ اللّه سبحانه كذلك وفوقَ ذلك"[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجب).
(2) ابن منظور، اللسان: (عجب).
(3) الرّاغب، المفردات: (عجب).
(4) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 14 - 15.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الاستهلالِ في ابتداء قصَّةِ أهل الكهف:

ابتداءُ القصَّةِ بإنكار العجب منها مِن مقاصدِ السّورة

في افتتاح النَّظم الجليل قصَّةَ أصحاب الكهف بقوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ براعةُ استهلال[1]، وذلك أنَّه انتقل إلى القصَّة التي هي مِن مقاصد السّورة، وهي بيان قصَّة أصحاب الكهف وإنكار حِسبان أنَّها مِنَ الآيات العجيبة[2]، مع نسيان الآيات العظام مِنَ الخلق وإعادته، فهو "كالانتقالِ مِنَ الدّيباجةِ والمقدِّمةِ إلى المقصودِ، على أنَّ مناسبة الانتقالِ إليه تتَّصل بقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾؛ إذ كان ممّا صرف المشركين عن الإيمان إحالتُهُمُ الإحياء بعد الموت، فكان ذِكْرُ أهل الكهف وبعْثُهم بعد خُمودِهم سنينَ طويلة مثالًا لإمكانِ البعث"[3].

دلالةُ ﴿أَمۡ﴾ في: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ﴾ والخطاب فيه:

الانتقالُ من حديث الإنذار والتَّسلية إلى قصَّة أهل الكهف

الخطابُ لرسول اللّه ﷺ، والمرادُ إنكارُ حُسبانِ أمَّته[4]، فعبَّر النَّظم الجليل بـ ﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ﴾ للانتقال من حديثٍ إلى حديث آخَرَ، وهي هنا بمعنى (بل)، وليست هي للإضراب، فهي لا تُبطلُ الحديث السابق إضرابًا عنه، كما هو الأصل في الدَّلالة، بل هي لمجرَّد الانتقال إلى حديثٍ آخَرَ[5]، ويُحتمَلُ أن تكونَ على بابها بالدَّلالة على الإضراب، فتكونَ "للاستفهام مع الإضراب لمن عجبته، وأنَّها ليست أكثر من عجائب الوجود والخلق

(1) براعة الاستهلال: الابتداء الحسن الذي يناسب المقصود من الكلام، قالوا: "يسمّى الابتداء المناسب للمقصود براعة الاستهلال"، يُنظر: السّبكي، عروس الأفراح: 2/ 341، والدسوقي، حاشيته على مختصر المعاني: 4/ 288.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 205.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 258.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 205.

(5) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 14.

بإرادةِ اللّه، فليس بقاء أجسام إنسانيَّة حيَّةً أمدًا طويلًا، كما أنَّه ليس وجودهم راقدين أكثر من ثلاثمئة سنة أمرًا عجبًا في ذاته من خلق السموات والأرضِ وما فيهما، أو من خلق الإنسان مِن طينٍ، أو مِن أدوار خَلقِ الإنسان مِن نطفةٍ مِن ماءٍ إلى علقة إلى مضغةٍ، ليس بقاؤهم أحياءً رقودًا أعجبَ مِن هذا الخلق العظيم"[1].

آياتُ الله تعالى أعظمُ من قصَّة فتية الكهف

ويجوزُ في ﴿أَمۡ﴾ أنْ تكونَ عطفًا على معنى الاستفهام في ﴿فَلَعَلَّكَ﴾، أو بمعنى ألف الاستفهام على الإنكارِ، والتَّعجيبِ، فهو تقرير للنَّبيِّ ﷺ على حسابه أنَّ أصحاب الكهف كانوا عجبًا، بمعنى إنكار ذلك عليه، أي: لا يعظُمُ ذلك بحسب ما عظَّمه عليك السائلون مِنَ الكفرة، فإنَّ سائر آيات اللّه أعظمُ مِن قصتهم وأشيع[2]، ومنها إماتةُ الأحياء بعد حياتهم؛ فهي أعظم مِن عجب إنامة أهل الكهف؛ لأنَّ في إنامتهم إبقاءً للحياة في أجسامهم، وليس في إماتة الأحياء إبقاءٌ لشيء من الحياة فيهم على كثرتهم وانتشارِهم[3].

بلاغةُ التعريضِ في جملة الحِسْبان:

الغفلةُ آفةُ التدبُّر وانتفاء العِبَرِ

في حِسْبان الذين طلبوا من النَّبيِّ صلّى اللّه عليه وآله وسلَّم بيانَ قصة أهل الكهفِ من أجل استعلام ما فيها من العجبِ تعريضٌ بغفلتهم، بأنَّهم سألوا عن عجيبٍ، وكفروا بما هو أعجبُ، وهو انقراضُ العالم، فإنَّهم كانوا يُعرِضون عن ذِكْر فناء العالمين، ويقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24]، أي: إنِ الحياةُ إلّا حياتُنا الدنيا لا حياة الآخرة، وإنَّ الدهر يهلكنا، وهو باقٍ.

سرُّ إيثار الحِسْبان دون الظنِّ:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالحِسْبان دون الظَّنِّ في قوله تعالى:

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4495.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 356.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 259.

﴿أَمۡ حَسِبۡتَ﴾؛ لأنَّ الظَّن ضربٌ من الاِعۡتِقاد، والحِسۡبانُ لَيۡسَ باعتقاد[1]، فالظَّنُّ يدلُّ على أنَّهم اعتقدوا ذلك، وهذا يدلُّ على اليقين، ولكنَّهم لمّا لم يكونوا كذلك، وأراد اللّه تعالى أن ينكرَ عليهم أدنى درجات الظَّنِّ؛ آثر التَّعبيرَ بالحِسۡبان دون الظَّنِّ، فضلًا عن أنَّ الحِسبان أنسبُ بقصَّة أصحاب الكهف؛ إذ إنَّها قائمة على الحساب في سِنيِّ لَبۡثِهم في الكهف، وعددهم، واختلاف الناس فيه.

الحِسبان أدنى درجةً من الظَّنِّ في اعتقاد القول

نكتةُ إيثار لفظ ﴿أَصۡحَٰبَ﴾، وسرُّ إضافته:

اصطفى النَّظمُ البليغُ التَّعبيرَ بلفظِ الأصحابِ في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾؛ لأنَّ الصّاحب يدلُّ على مُقارَنَةِ شَيۡءٍ ومقاربته[2]، والصحبة قرينة الدَّوام، والملازمة[3]، فلمّا كان الفتية قد اقترنوا بالكهف تلك المدَّة المتطاولة، ولازموه مُكثًا فيه، وحصل ما حدث معهم داخلَهُ، كانوا قرناء به، فصاروا أصحابه، ولا صاحب للكهف، بل هو جامعُهم ومأواهم أَووا إليه، فصاروا مقترنين به، فاصطفاء لفظ الأصحاب تعبيرٌ عن تلك الحقيقة.

الصاحبُ هو القرين الملازمُ على الدوام

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿ٱلۡكَهۡفِ﴾ مُعرَّفًا:

الكهفُ: الغار، والفجوة، والنقبُ، والشقُّ المُتَّسع في الجبل، فإن لم يتَّسع سُمّي غارًا فقط[4]، والألف واللام فيه للعهد؛ لكونه كهفَ الفتيةِ المعلومِ ذِكۡرُهم، والذي اتَّخذوه مستقرًّا لهم[5].

الكهف مُستَقَرُّ الفتيةِ في نقبِ الجبل

دلالةُ ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ ومعنى العطفِ:

انقسم القولُ في ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ على وجهين، فمَن قال: إنَّهم و(أَصۡحَابَ الكَهۡفِ) طائفتان؛ قال: أخبر اللّه تعالى عن أحدهما،

أصحابُ الكهف والرّقيم وصفان لطائفة واحدةٍ

(1) العسكري، الفروق، ص: 99.
(2) مقاييس اللغة: (صحب).
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 7/ 401؛ 9/ 105.
(4) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1091، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 14/ 8847.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 474.

ولم يُخبر عن الآخرِ، ومَن قال: إنَّهما طائفةٌ واحدة، ذكروا في المراد به أقوالًا مُتعدِّدة، منها: أنَّه اسم كلبهم، ومنها أنَّه اسم الجبل أو الوادي الذي كان فيه الكهف، ومنها أنَّه اسم القرية التي خرج منها هؤلاء الفتية، أو لوح مِن ذهب، أو فضَّة، أو حجر كُتِبَ عليه أسماؤهم وقصَّتهم، وقالوا غير ذلك[1].

القول الرّاجح

ولعلَّ أقربَ الأقوال إلى الصواب أنَّ المُراد به اللوحُ الذي كُتِبَت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصَّتهم، فيكون الرَّقيمُ بمعنى المرقوم - فهو فعيل بمعنى مفعول - وهو مأخوذٌ مِن: رقمتُ الكتابَ؛ إذا كتبتُه، وبذا يكون أصحابُ الكهف والرقيم طائفةً واحدةً أُضيفت إلى شيئَيْن، معطوفٌ أحدُهما على الآخر[2]، وهو المناسب للسّياق لينتفي التباينُ بين تفصيل الحديث عن قصَّة أصحاب الكهف، وعدم الحديث عن (أصحاب الرَّقيم) في السورة كلِّها إجمالًا أو تفصيلًا، فيغدو ذِكْرُهم مثارَ استفهامٍ وسؤالٍ.

دلالةُ ﴿مِنْ﴾ الدّاخلة على الآيات:

الآيـاتُ الكونية العظيمةُ شاخصةٌ لكلِّ ناظر وليس بعضها قصَّتهم

أدخل النَّظمُ الجليل حرف الجرِّ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾؛ للدَّلالة على التَّبعيض، أي: "ليست قصَّة أهل الكهف منفردة بالعجب من بين الآيات الأخرى، كما تقول: سأل فلانًا، فهو العالم منّا، أي: المنفرد بالعلم من بيننا"[3]، فالإنكارُ جيء به لردِّ هذا الظَّنِّ، فقصَّتهم ليست من بعض الآيات العجيبة؛ لأنَّ هناك أعجبَ منها ما لا يحصر مِن عظيم الآيات والمعجزات، فلمّا تعجَّبوا مِن قصة أصحاب الكهف، وسألوا عنها النَّبيَّ ﷺ؛ أنكر النَّظمُ الجليل ذلك

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 98، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 474.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 474 - 475، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 14/ 8847.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 260.

بقوله: بل أظننتم أنَّهم كانوا عجبًا مِن آياتنا فقط؟ لا تحسبوا ذلك، فإنَّ آياتِنا كلَّها عجيبةٌ[1].

نكتةُ التعبيرِ بلفظ ﴿ءَايَتِنَا﴾، وسرُّ إضافته:

دلائلُ الحقِّ وفيرةٌ بالغة العِظَم جليلة القدر

عبَّر النَّظم الجليل بلفظ الآيات في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ مِنْ ءَايَتِنَا﴾ تعبيرًا عن الآيات الدّالَّة على عظمة الخالق، والتي من جملتها ما ذكر مِن جعْل ما على الأرض زينَةً لها، ثم إفنائه بجعلِه صعيدًا جُرزًا حتّى كأنَّها لم تغنَ بالأمس، فمن كان قادرًا على ذلك؛ فلا تستبعدْ قدرتَهُ وحفظه ورحمته بأولئك الفتية، وإن كانت قصَّتهم خارقةً للعادة؛ فإنَّ آياتِ اللّه سبحانه كذلك وفوقَ ذلك[2]، فلا تحسبْ أنَّ قصَّتَهم مِن جملة تلك الآيات، وإضافتُها إلى ضمير المتكلِّم المعظِّم نفسَهُ تعظيمٌ لشأن هذه الآيات، وإشارةٌ إلى أنَّها كائنة بعلمه وإرادته وإتقانه ﷻ.

سرُّ تقديمِ الجارّ والمجرور على ﴿عَجَبًا﴾:

تقديمُ نفي كونها مِن آياتِ اللهِ أبلغُ في نفي التَّعظيم والعجب عنها

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبه الجملة مِنَ الجارِّ والمجرور على الخبر في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا﴾ دون أن يقول: (كانوا عجبًا من آياتنا)؛ فنفى كونهم من الآيات المضافة للّه تعالى المكتسبة التَّعظيم بتلك الإضافة، قبل أن يصفها بالعجب، وهو الأهمُّ؛ لأنَّ اتِّصافها بكونها مِن آياتِ اللّه ينفي ضمنًا العجبَ عنها، ولأنَّ الظَّنَّ وقع بكونها كائنةً من آيات اللّه تعالى، فبدأ بنفي ذلك أوَّلًا.

جمالُ المبالغةِ بالوصف بالمصدر ﴿عَجَبًا﴾:

آياتُ اللهِ هي العجبُ نفسُهُ فأنَّى لكم إغفالها والتَّعجُّب من غيرها؟

وصف النَّظمُ الجليل الآياتِ بالمصدر ﴿عَجَبًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا﴾ للمبالغة في صفة العجب لتلك الآيات، فيكون المعنى أنَّ قصَّةَ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 322.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 322.

أصحاب الكهف ليست من تلك الآيات بالغةِ العجب[1]، والمبالغةُ متحصِّلة من كون الآيات هي العجب ذاتَه، أي: ليست عجيبةً حسبُ، بل هي العجب نفسُهُ، وجيء بهذه المبالغة ردًّا "على ما لزم من تهويل السائلين من الكفرة من اليهود والعرب، والواقع أنَّهم - وإن كانوا من العجائب - ليسوا بعجب بالنِّسبة إلى كثرة آياتنا"[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحِسْبان والظَّنّ:

الحِسبان خاطرة مفتقرة للدَّليل، والظَّنُّ ترجيحٌ يضاهي اليقين

الحِسبان: حكم بلا ترجيح لافتقاره إلى الدَّليل، والظَّنُّ: ترجيح قريب من اليقين، والحسبان دونه في ذلك؛ لأَنَّ "الظَّنَّ ضربٌ من الاعتقاد، وقد يكون الحِسبان ليس باعتقادٍ، ألا ترى أنَّك تقول: أحسب أنَّ زيدًا قد مات، ولا يجوز أن تعتقد أنَّه مات مع علمك بأنَّه حيٌّ"[3]، فآثر النَّظم الجليل التَّعبير بالحسبان في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ دون الظَّنِّ تعبيرًا عن أنَّهم لم يعتقدوا ذلك، ولم يترجَّح في أذهانهم، ولم يعبِّر بالظَّنِّ؛ لأنَّهم لم يكونوا في يقينٍ من ذلك.

الكهف والغار:

ما اتَّسع من الثُّغور في الجبال كهفٌ، وما ضاق منها غارٌ

(كهف) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، وهيَ غارٌ في جَبَلٍ، وجَمعُهُ: كُهوفٌ[4]، وهو كالمَغارة في الجبَلِ إِلّا أَنَّه أَوسع مِنْها، فَإِذا صَغُرَ: فَهو غارٌ[5]، وفي الآية المراد بالكهف: الغارُ الواسع المنقور في الجبل كالبيت[6]؛ لأنَّهم جماعةٌ لا يؤويهم الغار؛ إذ لا يقوم بشروط المأوى لجماعة كثُر عددهم، من حيث السَّعةُ، والاستيعاب، وانسيابيَّةُ التحرُّك.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 206.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 15.
(3) العسكري، الفروق، ص: 99.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كهف).
(5) ابن منظور، اللسان: (كهف).
(6) الزمخشري، الكشاف: 2/ 704، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 15.

﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ [الكهف: 10]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد نفي العجب عـن قـصَّـتـهـم شـرعَ بروايتها إجابةً لسؤالهم

لمّا ذكر النَّظمُ الجليلُ في الآية السّابقة إنكارَ حِسبانهم أنَّ قصَّة أصحاب الكهف مِنَ الآيات العجيبةِ؛ شرع في بيان قصَّتهم إجابة عن سؤالهم، ومن المناسبة كذلك أنَّه "لمّا صغَّر أمرهم بالنِّسبة إلى جليل آياته، وعظيم بيِّناته، وغريب مصنوعاته؛ لخَّص قصَّتهم التي عدّوها عجبًا، وتركوا الاستبصار على وحدانيَّة الواحد القهّار بما هو العجب العجيب، والنَّبأ الغريب، فقال تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى﴾"[1]، مُبتدئًا بذكر أحوالهم؛ ليُعلم الناس بثبات إيمانهم باللّه ورجائهم فيه[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوَى﴾: (أوى) أَصلٌ يدلُّ على التَّجمُّعِ، يُقالُ: أَوى الرَّجُلُ إلى مَنزِلِه وآوى غَيرَهُ أويًّا وإيواءً، قالَ اللّه تعالَى: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾ [المؤمنون: 50]، والمَأوى: مَكانُ كُلِّ شَيْءٍ يأوي إلَيهِ لَيلًا أَو نَهارًا[3]، أَويْتُ مَنْزلي وإلى مَنْزلي: عُدْتُ، وآوانا: أَي ردَّنا إلى مأوىً لَنا، ولَم يَجْعَلْنا مُنتَشِرينَ كالبهائم، والمَأْوى: المنزلُ[4]، تقول: أوى إلى كذا: انضمَّ إليه، وآواهُ غيره يُؤْويه إيواءً، قال ﷻ: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ [هود: 43]، وقال تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يوسف: 69]، أي: ضمَّه إلى نفسه[5]، ومعناه في الآية "صاروا إليه، ونزلوه، وسكنوه، والتَجؤوا إليه، وجعلوه مأواهم"[6].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 17.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 259.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوى).
(4) ابن منظور، اللسان: (أوا).
(5) الرّاغب، المفردات: (أوى).
(6) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 15.

2) ﴿ٱلۡفِتۡيَةُ﴾: (فتي) أصلٌ يَدلُّ عَلَى طَراوةٍ وجِدَّةٍ، الفَتيُّ: الطَّريُّ مِنَ الإِبلِ، والفَتَى مِنَ النّاسِ: واحِدُ الفِتْيانِ[1]، والفَتاءُ: الشَّباب، والفَتَى والفَتيَّةُ: الشابُّ والشابَّةُ، والفِعْلُ فَتو يَفْتو فَتاء[2]، والمراد في الآية بالفتية أصحاب الكهف، جمع فتًى، وهو الطَّريُّ من الشَّباب[3].

3) ﴿وَهَيِّئۡ﴾: (هيأ) أصله يدلُّ على الاستعداد، كالنّاقة المتُهَيِّئَة التي قَلَّما تُخْلفُ أن تَحمل؛ إذا قُرِعَتْ، والهيئة حالُ الشَّيء وكيفيَّتُه، أي: صورَته وشكله، بأن تُعِدَّه؛ ليكون شيئًا معيَّنًا مطلوبًا، كقوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ [آل عمران: 49]، و﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾، أي: أَعِدَّهُ وسَوِّه[4]، وتَقولُ: هِئْتُ للأَمر أَهيءُ هَيْئَةً، وتَهَيَّأْتُ تَهَيُّؤًا، ورَجُلٌ هَيِّئٌ: حَسَنُ الهَيْئَةِ، وهَيَّأَ الأَمرَ تَهْيِئَةً وتَهْييئًا: أَصْلحه، فَهو مُهَيَّأٌ[5]، والمراد في الآية إصلاح الأمر وإعداده[6].

4) ﴿رَشَدٗا﴾: (رشد) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى اسْتِقامَةِ الطَّريق، فالمَراشِدُ: مَقاصِدُ الطُّرُق، أَصابَ فُلانٌ مِنْ أَمرِهِ رُشْدًا ورَشَدًا[7]، وهو خلاف الغيِّ، يُستعمل استعمالَ الهداية[8]، رَشَدَ الإنسان، يَرْشُدُ رُشْدًا، ورَشِد يَرْشَد رَشَدًا ورَشادًا، فَهو راشِد ورَشيد، وهو نَقيضُ الضَّلالِ؛ إذا أَصاب وجْهَ الأَمر والطَّريقِ، والإِرْشادُ: الهدايَةُ والدَّلالَةُ[9]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾، أيْ: "إصابةً للطريق الموصلِ إلى المطلوب واهتداءً إليه"[10].

المَعنى الإِجماليُّ:

يخاطب اللّهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ مُذكِّرًا إيّاه: "اذكر - أيُّها الرسول - حين لجأ الشبّان المؤمنون إلى الكهف؛ خشيةً من فتنة قومهم لهم، وإرغامهم على عبادة الأصنام، فقالوا:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتى).
(2) ابن منظور، اللسان: (فتا).
(3) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 16.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (هوأ - هيأ).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (هيأ).
(6) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 16.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رشد).
(8) الرّاغب، المفردات: (رشد).
(9) ابن منظور، اللسان: (رشد).
(10) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 206.

ربَّنا أعطنا مِن عندك رحمة، تثبِّتنا بها، وتحفظنا مِنَ الشَّرِّ، ويسِّر لنا الطريق الصواب الذي يوصلنا إلى العمل الذي تحبُّ، فنكون راشدين غيرَ ضالّين"[1].

لجوءُ الفتية إلى الكهف والتَّضرُّع للمولى الجليل للثَّبات على الإيمان

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة ﴿إِذۡ﴾ في صدر الجملة:

العـجـبُ من قصَّتهم مصاحِبٌ من أوَّل الإيواء

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالظَّرف ﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾، وهو ظرف للزَّمان الماضي متعلِّق بـ ﴿عَجَبًا﴾[2] في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾، فيكون العجب بشأن قصَّتهم حاصلًا منذ بداية الإيواء، وأجاز أئمَّة التَّفسير أن يكون مفعولًا به لفعل مقدَّر تقديره (اذكر)، أي: اذكر حين التجأَ[3]، فتكون الجملةُ فعليَّةً ابتدائيَّة، فهي مستأنفة استئنافًا بيانيًّا للجملة التي قبلها[4]، فلمّا استهلَّ بذكر قصَّتهم، وأنكر حِسبانهم إيّاها من عظيم الآيات؛ أُثيرَ سؤال مفاده: فما كان من شأنهم؟ فقيل: اذكر حين التجأ الفتيةُ إلى الكهف، فشرع في بيان قصَّتهم إجابة لسؤالهم، و"المقصود إجمال قصَّتهم ابتداء، تنبيهًا على أنَّ قصَّتهم ليست أعجبَ آيات اللَّه"[5].

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿أَوَى﴾، وصيغة الماضي:

الإيواءُ يدلُّ على اللُّجوء بعد الطَّلب والهرب من الفتنة

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿أَوَى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾، إيماء إلى أنَّ الفتية قد طوردوا حتّى أووا إلى الكهف؛ لأنَّ الإيواء إنَّما يكون عن منازعة يحسون بأنَّهم لا قِبَل لهم بردِّ مَن يطاردهم، وفرارًا من أن يَفتنوهم عن دينهم[6]، وقد جاء

(1) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 294.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 145.
(3) السّمين، الدر المصون: 7/ 446.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 265.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 265.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4496.

التَّعبير بالفعل الماضي للدَّلالة على أنَّهم بمجرَّد عثورهم على الكهف ألقوا رحالهم فيه، واستقرّوا به[1]، طلبًا منهم لسرعة الاختفاء عن أعين قومهم.

ينفر من كلِّ أمَّةٍ في كلِّ زمانٍ قِلَّةٌ من المصلحين

دلالةُ جمعِ الفتية:

كان الفتيةُ الذين أووا إلى الكهف قليلي العدد؛ ولذلك عبَّر عنهم بجمع القِلَّة على وزن (فِعْلَة)، فهو جمعٌ يدلُّ على العدد القليل ما بين ثلاثة إلى عشرة، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ مَن ينهض بأعباء الإصلاح، ومواجهة الظلم في كلِّ زمانٍ هم نفرٌ قليلون.

أصحابُ الكهف فتيةٌ بسنِّ الشَّباب

نكتةُ الإظهارِ في مقام الإضمارِ، والتَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡفِتۡيَةُ﴾:

أظهرَ النَّظمُ الجليل لفظَ الفتية في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ دون أن يقول: (إذ أووا) فوضع الظّاهرَ موضعَ المضمر؛ "لتحقيق ما كانوا عليهِ في أنفسهم من حال الفتوةِ"[2]، وللتَّنصيص على وصفهم وبيان سِنِّهم، وأنَّهم كانوا فتيةً في سنِّ الشَّباب[3]. "أي: إنَّهم شبّان في باكورة أعمارهم، نفوسُهم غضَّةٌ لم ترهقها الأوهامُ، ولا العادات والتَّقاليد، وموروثات الآباء العتيقة التي عشَّشت في رؤوس مَن قبلَهم، بل إنَّهم على الفطرة السَّليمة، والشَّبابُ دائمًا أسرع الناس إلى الحق؛ إن لم يكن في توجيههم ما يعوق عنه، أو يسدُّ الحجاب دونه"[4].

في لفظ الفتوَّةِ إيماءٌ بالرجولة المتضمِّنة استقلاليَّةَ القرار وسداده

وذكرَهُم بوصف ﴿ٱلۡفِتۡيَةُ﴾ الدّالِّ على كونهم أترابًا متقاربي السِّنِّ؛ "للإيماء إلى ما فيه من اكتمال خَلق الرجولية المُعبَّر عنه بالفتوَّة، الجامع لمعنى سداد الرأي، وثبات الجأش، والدفاع عن

(1) طنطاوي، الوسيط: 8/ 476.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 206.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 16.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4495.

الحقِّ"[1]، وبذا فهم أهلٌ "لتحقيق حالهم بتغليبهم جانبَ اللّه على جانب أهويتهم في حال شبابهم"[2].

فائدةُ الجار والمجرور ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾:

تحديدُ المكان ركنٌ أصيل من أركان القصص

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بشبه الجملة في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم بعد خروجهم مِن قريتهم ومفارقتهم قومَهم ذهبوا إلى جَبَلِهم الذي فيه الكهف، واتَّخذوه مأوًى[3]، والكهف ليس مكانًا للبقاء، والفرار مِن ذلك الطّاغية، لقربهِ مِن قريتهم، ولم يكن في خَلَدِهم أنَّهم سوف ينامون تلك المدَّة المتطاولة، كما أنَّ تعليقَ شبه الجملة ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ بالإيواء يكشف السَّبب في تسميتهم بأصحاب الكهفِ، فهم قد أووا إلى الكهف، وهو موطنُ المعجزة التي ظهرت فيهم.

نوعُ (ال) في لفظ ﴿ٱلْكَهْفِ﴾، ودلالتها:

الكهفُ الذي عرفوه وأَلِفوه جعلهُ اللهُ تعالى موقعًا لتلك الآية الباهرة

عرَّفَ النَّظمُ الجليلُ الكهفَ باللّام الدّالَّة على العهد في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾؛ لأنَّه كهف قريب لقريتهم، مشهور ببلدتهم[4]، فلم يَدُرْ في بالهم أنَّهم سَيلبثون فيه هذه المدَّة المتطاولة، وهم إنَّما أووا إليه في بدء أمرهم، ثمَّ التَجَؤوا إلى مولاهم الجليل ليهيّئَ لهم مِن أمرهم فرَجًا، فلم يكن كهفًا مميَّزًا بما يرجِّحه على شيء آخر، بل كهفَهم المعتادَ القريب من بلدتهم.

دلالةُ العطفِ بالفاء ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ﴾:

البدارُ باللُّجوء إلى المولى الجليل مِن معالم الإيمانِ المتين

عطفَ النَّظمُ البليغ فعلَ القول على الإيواء بالفاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ﴾؛ لأنَّهم بادروا بالابتهال إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 266.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 8.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 206.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 18.

اللّه فورَ استقرارِهم في الكهف[1]، من غير مهلة، وهذا يدلُّ على قوَّةِ توكُّلهم على ربِّهم؛ إذ لم يختلفوا، ويطيلوا التَّفكير في شأنهم، بل هرعوا على الفورِ إلى مناجاة المولى؛ ليهيِّئَ لهم ما يُنجّيهم برحمة من لدنه.

بلاغةُ الحذفِ في ﴿رَبَّنَآ﴾:

اللـــه تـعـالى أقربُ للعبدِ من نـفـسـه؛ فهو الذي يتولَّى أمره

حذفَ النَّظمُ الجليل حرفَ النِّداء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا﴾ أي: يا ربَّنا، لأنَّ خطاب العباد ربَّهم لا يحوج للنِّداء، لقربه منهم، واستبطانه أسرارَهم.

إيثارُ لفظ الرُّبوبيَّة وإضافته إلى ضمير المتكلِّمين:

مُصطفي البشرِ ومطهِّرُ قلوبِهم لا يخذل عبادَهُ الصادقين

إيثارُ لفظ الرُّبوبيَّة مع إضافته إلى ضمير المتكلِّمين للإشارة إلى سبق نعمائِه عليهم، فنادوا ربَّهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ﴾، أنت الذي خلقْتَنا، وكوَّنتنا، وطهَّرت قلوبنا، وخلَّصت نفوسنا من الشِّرك وأوهامه[2]؛ فمُنَّ علينا برحمةٍ عظيمةٍ تناسبُ عنايتك بأتباع الدِّين الذي أمرتَ بِه[3].

دلالةُ فعلِ الأمرِ في ﴿ءَاتِنَا﴾:

التَّضرُّع إلى الله تعالى بالدُّعاء مــخُّ الـعـبـادة ولبُّها

عبَّرَ النَّظمُ البليغُ بفعل الأمر في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾ الدّالِّ على الطَّلب إنشاءً للدُّعاء؛ لأنَّه من أدنى رتبة إلى أعلى رتبة، ففعلُ الأمرِ الصّادر من العباد في خطابهم للمولى الجليل إنَّما يُراد به الدُّعاءُ والطَّلبُ على سبيل الحاجة والافتقار، فهو ليس للأمر، بل للدُّعاء والاسترحام.

سرُّ إيثارِ فعل (الإيتاء) على غيره:

شدَّةُ رَغَبهم إلى الله دليلُ قـوَّةِ إيمانهم

أوثرَ لفظُ (الإيتاء) دون (الإعطاء)؛ لأنَّ الإتيانَ أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له مطاوعٌ، يُقال: أعطاني،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 18، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 266.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4496.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 266.

فعطوتُ، ولا يُقال في الإيتاء: آتاني، فأتيت، وإنَّما يُقال: آتاني فأخذتُ، والفعل الذي له مطاوع أضعفُ في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له[1]، وطلبُهم بلفظ الإيتاء يناسبُ قوَّةَ لجوئهم إلى الله تعالى، وشدَّةَ حاجتهم إلى رحمته.

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن لَّدُنكَ﴾:

لا يرتجي المؤمنُ مِنَ الله تعالى إلّا كمالَ رحمته

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾ ابتدائيَّةٌ متعلقة بآيتنا، أو بمحذوفٍ وقعَ حالًا من مفعوله الثاني[2]، فالنجاة أنْ تبتدِئَ من لدنك رحمتنا، ويجوز أن تكون للتَّجريد، كما في قولك: رأيتُ منك رَشَدًا[3]، أيْ: بلغَ من رؤيته الرَّشَدَ منه حدًّا يجوز معه أن يستخلص منه آخرَ مثلَهُ في صفة الرَّشَدِ، ومعناها في الآية الدلالة على المبالغة في كمال الرَّحمةِ المرجوَّةِ من لدنه تعالى.

سرُّ تقديمِ الجار والمجرور على المعمول:

سألوا أعلى الرَّحمات لما فيهم من الضّيق الشَّديد

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة مِنَ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾، دون أن يقول: (آتنا رحمة من لدنك)، على مقتضى الأصل في ترتيب نظم الجملة العربيَّة؛ لأنَّ تقديم الجارِّ والمجرور أفاد الاختصاص، أي: إنَّهم لم يسألوا الله تعالى مطلق الرَّحمة، بل "رحمةً مختصَّةً بأنَّها مِن خزائن رحمتك وجَلائل فضلك، وهي المغفرةُ في الآخرة والأمن من الأعداء والرِّزق في الدُّنيا"[4].

نكتةُ إيثارِ التَّعبير بـ ﴿لَّدُنكَ﴾ على (عندك):

الرَّحمةُ صادرةٌ من ذات الجليل، لا من حيِّزٍ مكانيٍّ عنده

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالظَّرف (لدى) دون (عند) في قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾؛ للدَّلالة على صدور الرَّحمة

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 85.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 206.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 323.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 16.

من اللّه تعالى، ومن مستبطن الأمور التي عنده وأسرارها الخفيَّة[1]؛ لأنَّ (لَدُن) تدلُّ على عنديَّة صدورٍ وامتداد مِن رقَّة الباطن، لا عنديَّة مكان وتحيُّز فيه، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: 6]، أي: صادرًا منه ﷻ، أي: مِن خزائن رحمته سبحانه[2]، فهو أبلغُ من (عند) وأخصُّ، قال تعالى: ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۝٧٦﴾ [الكهف: 76][3]، فآثر التَّعبيرَ بـ(لدن) للدَّلالة على صدور الرَّحمة منه تعالى، أي: "من خزائن رحمتِك الخاصَّةِ المكنونةِ عن عيون أهلِ العادات"[4]، فيؤول المعنى: أنَّهم طلبوا رحمةً صادرة من ذات اللّه تعالى، وهي أبلغُ رحمةً، ولا رحمةَ بعدها.

فائدةُ التَّعبير عن الرَّحمة بالتَّنكير:

تعظيمُ الرَّحمة وإطلاقها توكُّلًا على الله تعالى

جاءَ النَّظمُ الحكيمُ بلفظ الرَّحمة بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾؛ لما في التَّنكير من دلالةٍ على التَّعظيم والتَّنويع، فتشملُ المغفرةَ في الآخرة والأمنَ من عدوِّهم، وتهيئةَ الرِّزق في الدُّنيا[5]، فعظَّموا شأن الرَّحمة التي سألوها، فهي رحمة خاصة عظيمة وافرة، وجعلوها مطلقةً على وفق ما يقدِّر اللّه تعالى لشأنهم، فهو يعلم ما ينفعهم، وهو اللَّطيف بعباده.

دلالةُ عطفِ جملة ﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾:

من تمامِ الرَّحمة تهيئةُ أمور النَّجاة والتَّوفيق

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾[6]، فبعد أن سألوا اللّه تعالى رحمةً مخصوصةً؛ أتبعوا ذلك بأن "سألوا اللّهَ أن يقدِّرَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 18.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لدن).
(3) الرّاغب، المفردات: (لدن).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 206.
(5) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 16.
(6) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 145.

لهم أحوالًا تكون عاقبتها حصول ما خوَّلهم مِنَ الثَّبات على الدّين الحقِّ والنَّجاة مِن مناوأة المشركين"[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالتَّهيئة:

مفارِقُ الدّيار فارًّا بدينِهِ أحوجُ إلى إصلاح حالِهِ وتوفيقه للرَّشاد

التهيئةُ هي إعدادُ أسباب حصول الشيء[2]، وعبَّر النَّظم الجليل بلفظ التَّهيئة في قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ طلبًا منهم أن يُحدِث الله تعالى لهم ما يُصلح لهم حالهم، فالهيئة من: هيَّأْتُ الشَّيء، أي: أصلَحتُهُ[3]، فقوله جلَّ شأنه: ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ يعني: أصلحْ لنا من أمرنا، ورتِّب، وأتمم ما فيه الخير والرَّشاد[4]، وإنَّما سألوا بهذا اللَّفظ؛ لأنَّهم فارقوا أهلهم، وتركوا كلَّ شيء، فلا مأوى غير الكهف يُؤْوِيهم، فكانوا أحوجَ شيء إلى إصلاح حالهم، وهذا ما يعبِّر عنه طلب التَّهيئة.

فائدةُ القيدِ بالجار والمجرور ﴿لَنَا﴾:

في الشَّدائد المرءُ إلى إخوانه أحوجُ

قيَّدَ النَّظمُ الجليل فِعلَ التَّهيئة بشبه الجملة من الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ سؤالهم لجميعهم، فلا تكون التَّهيئة لبعضهم، أي: لا تخيِّب منّا أحدًا[5]، وهذا القيدُ يفيد أن تكون تلك التَّهيئة واصِلةً لهم، مخصَّصةً بهم؛ فليس المرادُ مطلقَ التَّهيئة، بل ما يصل أثرها إليهم ممّا يحتاجونه.

إيثارُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿أَمۡرِنَا﴾، وسرُّ إضافته:

طلبُ الرِّعاية مناسبةٌ لواقع الحال

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ للدَّلالة على الحال الذي هم عليه من مفارقة الكفّار[6]، وتركِ الدّيار والاجتهادِ في إقامة الدّينِ وحفظِ إيمانهم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 266.
(3) الجوهري، الصحاح: (هيأ).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 206.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 18.
(6) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 16.

فالأمر كلمةٌ تدلُّ على مجموع ما هم فيه مِن شأن الإيمانِ واعتزال النّاس والخروجِ إلى الكهف، وإضافتهُ إلى ضمير المتكلِّمين للإشارة إلى ما لا يخفى على الجليل من خصوص حالِهم، فكلمةُ الأمر تصفُ مجموعَ ما هم فيه، فيكون طلبُ التَّهيئة مراعيًا لهذا الحال.

تقديمُ المرغوبِ به أفصحُ في بيان الحاجة

سرُّ تقديم ﴿لَنَا﴾ على ﴿مِنۡ أَمۡرِنَا﴾:

قدَّمَ النَّظمُ البليغُ شبهَ الجملة ﴿لَنَا﴾ على شبه الجملة ﴿مِنۡ أَمۡرِنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا﴾؛ إيذانًا من أوَّلِ التَّعبير بأنَّ ما سألوه هو مرغوبٌ فيه لديهم، وأنَّهم بحاجة له[1]، والتَّعبيرُ ﴿مِنۡ أَمۡرِنَا﴾ يوحي بالحالة الشَّديدة التي هم بها، فقدَّموا ما يشعرُ برغبتهم بالمسؤول على الحالة الموجبة لسؤالهم ذلك.

الاعتناءُ بالسّائل وحالِهِ أوْلى مِن بيان المسألة

علَّةُ تقديم شِبْهَي الجملة على المفعول به:

قدَّم النَّظمُ البليغ شبهَي الجملة على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾، ولم يقل: (وهيّء رشدًا لنا من أمرنا)؛ وذلك "لإظهار الاعتناءِ بهما وإبرازِ الرغبةِ في المؤخَّر بتقديم أحواله، فإنَّ تأخيرَ ما حقُّه التَّقديمُ عمّا هو من أحواله المُرَغَّبة فيه، كما يورث شوقَ السّامعِ إلى وروده، وينبئُ عن كمال رغبةِ المتكلِّمِ فيه واعتنائه بحصوله لا محالة"[2].

مآلُ الهدايةِ إلى الـرَّشَـدِ حُسْـنُ العاقبة

علَّةُ إيثارِ لفظ الرَّشَدِ نكرةً:

الرَّشد: إدراكُ الأمور إدراكًا مستقيمًا لا عِوجَ فيه[3]، وإصابةُ الطريق الموصلِ إلى المطلوب، والاهتداءُ إليه[4] من خيرٍ، وحقٍّ، ونفعٍ، وصلاحٍ، ووجه إيثاره مفتوحَ الرّاء والشّين في هذه السّورة، وفي هذا الموضع؛ لأنَّ تحريك الحرفَيْنِ فيهما أنسبُ بالكلمات الواقعة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 206.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 206.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4496.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 206.

في قرائن الفواصل[1]، ووجهُ تنكيرِه ليعمَّ جماع المعاني التي ذُكِرت؛ رجاء أنْ تحقِّقَ لنا حُسْن العاقبة، بأنْ تجعلنا مهتدين غير ضالّين، ثابتين على الحقِّ غيرَ حائرين.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيواءُ واللُّجوءُ:

المَلْجأُ يدلُّ على التَّحصُّن بمعقل، والمأوى منزلٌ يؤوى إليه

المَأْوى: مَكانُ كُلِّ شَيْءٍ يأوي إِلَيْهِ لَيْلًا أَوْ نَهارًا[2]، أَوِيتُ مَنْزِلي وإِلى مَنْزِلي: عُدْتُ، وآوانا، أَي: ردَّنا إِلى مأْوًى لَنا، ولَم يَجْعَلْنا مُنْتَشِرينَ كالبهائم، والمَأْوى: المنزلُ[3]، تقول: أوى إلى كذا: انضمَّ إليه، وآواهُ غيره يُؤْويهِ إيواءً، قال ﷺ: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ [هود: 43]، ومعناه في الآية "صاروا إليه، ونزلوه، وسكنوه، والتجؤوا إليه، وجعلوه مأواهم"[4]، وأمّا المَلْجَأُ؛ فهو المَكانُ يُلْتَجَأُ إِلَيْهِ، قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ﴾ [الشورى: 47]، وهو المَعْقِل، وما يُتَحصَّن به؛ قلعةً ونحوها، يُقالُ: لَجَأْتُ إِلَى فُلانٍ، والتَجَأْتُ: اسْتَنَدْتَ إِليه، واعْتَضَدْتَ بِهِ[5]، فالملجأُ: مكان أو معقل يتحصَّن به كقلعة، واللجوء هو التَّحصُّن طلبًا للحماية والسَّلامة، وإنَّ التَّعبيرَ عن أصحاب الكهف بأنَّهم أووا إلى الكهف أدقُّ في التَّعبير؛ لأنَّ الكهف ليس معقلًا ولا حصنًا.

التَّهيئةُ والإعدادُ:

التَّهيئةُ إصلاحُ الحال، والإعدادُ جعْلُ المطلوب متناولًا متاحًا

التَّهيئةُ هي إصلاح الشَّيءِ، وجعلُ الحالة بحيثُ تكون مناسبةً للمطلوب، فهي تحقيقُ الحالة المناسبة، أمّا الإعداد؛ فيدلُّ على جعلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 267.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوى).
(3) ابن منظور، اللسان: (أوا).
(4) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 15.
(5) ابن منظور، اللسان، والسمين، العمدة: (لجأ).

المطلوب متاحًا للتناول بحسب الحاجة، ولا يخلو الإعدادُ من أخذ العبد بالأسبابِ، فعبَّر في الآية بالتَّهيئة؛ لأنَّها مطلبُهم - وإن تقطَّعت بينهم الأسباب - وهو إصلاح الحالة التي تُناسب خروجهم مِن بلدهم، ومفارقتهم مساكنهم، فحالهم أحوجُ إلى الإصلاح.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد الدُّعاء والضَّراعة التَّفضُّلُ بحسن الإجابة

بعد أن لجؤوا إلى الكهف وفقَ الأخذِ بالأسباب، ولجؤوا إلى اللّه تعالى بحسن الضَّراعة والاستمداد؛ أَتْبَعَ النَّظم الكريم ذلك بأنَّ اللّه تعالى أجاب دعاءهم، وأنزلَ عليهم رحمته، فكان "الإيواءُ إلى الكهف فرارًا مِن أذى المشركين، ولهم في ذلك الوقت القوَّةُ والسُّلطان، والعذاب مسلَّطٌ على رقاب المؤمنين، وخصوصًا القلَّةَ الشابَّة منهم، ولكنَّ النجاةَ قد وفَّرها اللّه تعالى لهم، فأبعدهم عن الأحياء المشركين، ولتتم لهم الطهارةُ التامَّة، وتتم بهم الحُجَّة الكاملة، وهو صنيع اللّه تعالى، فقال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضَرَبْنَا﴾: (ضرب) أصلُ الضَّرْبِ: إيقاعُ شيءٍ على شيء، وضَرَبَ الخيمةَ بضربِ أوتادها بالمطرقة، وتشبيهًا بالخيمة قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [آل عمران: 112]، أي: التحفتهم الذِّلَّة التحافَ الخيمة بمن ضُرِبَتْ عليه، وعلى هذا: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: 112](2)، وضَرَبَ الوتدَ يَضْرِبُهُ ضَرْبًا: دَقَّهُ حَتَّى رَسَب في الأَرض، ووتِدٌ ضَرِيبٌ: مَضْروبٌ، وضَرَبَ الدِّرْهمَ يَضْرِبُه ضَرْبًا: طَبَعَهُ(3)، ومعنى الضَّرب على الآذان في الآية إلقاء النَّوم عليهم، ويُعبَّر عن هذا ونحوه بالضَّرب؛ تبيينًا لقوَّة سدِّ الآذان

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4497.
(2) الرّاغب، المفردات: (ضرب).
(3) ابن منظور، اللسان: (ضرب).

وشدَّةِ اللصوق في الأمر المتكلَّم فيه، ومنه ضربُ الذِّلَّة والمسكنة، والجزية[1]، أي: "سددنا آذانَهم بالنَّوم الغالب عن سماع الأصوات، أي: ضرَبْنا على آذانِهم الحجابَ"[2].

2) ﴿عَدَدًا﴾: (عَدَّ) أصلٌ يدلُّ على العَدِّ الَّذي هو الإحصاءُ، فالعَدُّ: إحصاءُ الشَّيءِ، تقولُ: عَدَدْتُ الشَّيءَ أَعُدُّهُ عَدًّا، فَأَنا عادٌّ، والشَّيْءُ مَعْدودٌ، والعَديدُ: الكَثْرَةُ[3]، والعَدَدُ: مِقْدارُ ما يُعَدُّ ومَبْلَغُه، والجَمعُ أَعداد[4]، وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾، فَذِكْرُهُ للعَدَدِ تنبيهٌ على كثرتها[5]، أي: ذوات عددٍ للدَّلالة على الكثرة[6].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

من معالم رحمةِ الله إلقاءُ النَّوم عليهم حتّى ينتهي سببُ خوفهم

يُخْبِرُ النَّظمُ الجليلُ عنِ اللّهِ تعالى أنَّه بعد أن أوى هؤلاء الفتية إلى الكهف، وتضرّعوا إلى المولى الجليل بذلك الدُّعاء البليغ، أنامهم اللّه تعالى نومًا ثقيلًا بأن ضرب على آذانهم داخل الكهف حجابًا ثقيلًا يمنعهم مِنَ السَّماع والتَّأثُّر بالأصوات، فصاروا لا يسمعون شيئًا يوقظهم، فَبَقوا نائِمين سِنين متطاولةً ذاتَ عددٍ كثير، بيَّنها النَّظمُ الجليلُ لاحقًا في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ۝٢٥﴾ [الكهف: 25][7].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا﴾:

من رحمة الله تعالى بالمضطرِّ إجابتُهُ على الفور

عطفَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 500.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 17.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدّ).
(4) ابن منظور، اللسان: (عدد).
(5) الرّاغب، المفردات: (عدّ).
(6) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 17.
(7) طنطاوي، الوسيط: 8/ 477.

﴿فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾ على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ بالفاء؛ لما فيها من دلالة على التَّعقيب، فهم أووا إلى الكهف، فضَربَ اللّه على آذانِهم بلا مُهلة مُعتبرة[1]، والسببيَّة فإنَّ النَّوم من نتائج الرَّحمة التي طلبوها، فاللّهُ تعالى استجابَ دُعاءَهم ومِن جُملة استجابته أن أنامهم[2]، وفي العطف بالفاء دلالة على سُرعة إجابة دُعائهم مِنَ اللّه تعالى، ويجوز أن تكونَ مُتفرِّعةً بالفاء على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ﴾، فيدلُّ العطفُ بها على أنَّ اللّه تعالى قد عجَّل لهم على الفور حصولَ ما قصدوه ممّا لم يكن في حسبانهم[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالماضي، وإسناده إلى (نا):

سرعةُ الإجابة حاصلةٌ منجزة، حدثت مرَّة واحدة

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفعل الماضي عنِ الضَّرب على آذانهم في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾؛ للدَّلالة على سرعة الاستجابة، ولأنَّ المرادَ سردُ أحداث القصَّة من غير تصوير ولا دلالة على التَّجديد؛ لأنَّ الضرَّبَ وقع مرَّةً واحدة لم يتكرَّر، وليدلَّ على قوة المباشرة واللُّصوق واللُّزوم، ومنه قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [آل عمران: 112]، وضرب الجزية، وضرب البعث[4]؛ فلذا لم يعبِّرْ عن ذلك بالفعل المضارع، وأسندَ فعلَ الضَّرب إلى ضمير التَّعظيم تعظيمًا لهذا الحدث؛ إذ إنَّه خارقٌ للعادة، ولا يفعلُهُ إلّا الإلهُ العظيم.

بلاغةُ الكنايةِ في الضَّربِ على الآذانِ:

سدَّتْ عنهم أسبابَ الإيقاظ، وهيَّئت لهم أسبابَ النَّوم غيرِ المعتاد

كنَّى النَّظمُ الجليل بالضَّرب على الآذان في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾ عنِ النَّوم، وإنَّما يُعبَّر بالضَّرب

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4497.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 17.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 268.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 144.

عن إلقاء النَّوم عليهم، وعن غيره "لتبيُّنِ قوَّة المباشرة وشدَّة اللُّصوق في الأمر المتكلَّم فيه والإلزام، ومنه ضرب الذِّلَّة والمسكنة، ومنه ضرب الجزية"(1)، فالضَّربُ في الآية يعني سدَّ الآذان بحجابٍ حتّى لا يصل صوتٌ يُنبِّههم مِن رُقادهم، ويوقظهم مِن نومِهم، فهو كنايةٌ عن سدِّ الآذان، وعن منعِ السمع، وعنِ التصرُّف(2).

المُستَثقِلُ النَّومَ لا يسمعُ حين يُصاحُ به

ويجوز أنْ يكون الضربُ "كنايةً عن الإنامة الثَّقيلة: لأنَّ المستثقِلَ في نومه يُصاحُ به، فلا يسمعُ(3)، وحملُه على تعطيلها، كما في قولهم: ضرَبَ الأميرُ على يدِ الرعيَّةِ، أي: منعهم من التصرُّف.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ الضربِ:

الإنامةُ المستثقلة ضربٌ بالحجاب على الآذان

وفي قوله تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ بديعة للإنامةِ المستثقلةِ التي لا يكاد يُسمع معها، أي: أَنَمناهم على طريقة التمثيل المبنيِّ على تشبيه الإنامةِ الثقيلةِ المانعة عن وصول الأصواتِ إلى الآذان بضرب الحجابِ عليها(4)، أو "شُبِّه إلقاءُ النوم بضرب الحجاب، واستُعير اسم المُشبَّه به للمُشبَّه، واشتُقَّ مِنَ الضرب: ﴿فَضَرَبۡنَا﴾ بمعنى (أنمنا)، استعارة تصريحية تبعيَّة، أي: أنمناهم إنامةً لا يُنتَبَهُ منها بالصياح(5)، أو على الاستعارة المكنية بتشبيه الإنامةِ الثَّقيلة بضربِ الحجابِ على الآذان(6).

سرُّ تخصيص الآذان بالضربِ:

الآذانُ طريقُ اليقظة بوصفها منفذَ الصِماخ لاستقبال الصُّراخ

وإنَّما خُصَّت الآذان دون العيون مع أنَّ النَّوم يتعلَّق بها؛ لأنَّ المراد المبالغةُ في النَّوم، فإنَّ النَّائم في الأكثر يتنبَّه بسبب نُفوذ الصُّراخ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 500.

(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 271، والماوردي، النكت والعيون: 3/ 288، والغزنوي، باهر البرهان: 2/ 850، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4497.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 416.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 144، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 206.

(5) الشهاب، عناية القاضي: 6/ 77، والصاوي، حاشيته على تفسير الجلالَيْن، ص: 1093، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 8.

(6) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 202.

في منفذ الصِّماخ"[1]، فتخصيصُ الآذان بالذِّكر مع اشتراك سائرِ المشاعرِ، والحواس لها في الحَجْبِ عنِ الشُّعور عند النَّوم؛ لكونها الأحوجَ إلى الحَجْب عادة؛ إذ هي الطريقةُ للتَّيقُّظ غالبًا لا سيما عند انفرادِ النّائم واعتزاله عن الخلق[2]، فهي "الجارحةُ التي منها عَظُمَ فسادُ النَّوم، وقلَّما ينقطع نومُ نائمٍ إلّا من جهة أُذُنهِ، ولا يستحكم نومٌ إلّا مع تعطُّلِ السَّمع"[3].

فائدةُ جمعِ ﴿ءَاذَانِهِمۡ﴾ وإضافتها:

النِّعمةُ بصرفهم عن ذلك الزَّمان شاملةٌ لكلِّ أحدٍ منهم

جاء النَّظمُ الجليلُ بلفظِ الآذان جمعًا في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الضَّرب وقع في آذانهم جميعًا، فكلُّ أذنٍ من آذانهم وقع فيها ضرب على السَّمع، ولم يقل: (فضربنا عليهم في الكهف) فذكر الآذان تأكيدًا؛ لكونهم إنَّما ناموا بأمر الله تعالى بحجبهم عنِ السَّمع.

نكتةُ تكرارِ قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡكَهۡفِ﴾:

جعلَ الكهفَ مأوى آيةٍ من آيات الجليل المعجزة

كرَّرَ النَّظمُ الجليلُ شبه الجملة ﴿فِي ٱلۡكَهۡفِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾؛ لأنَّه الكهف المعهود[4]، وفي تكرارهِ "إشارة إلى أنَّ في الكهف ذاته يصعبُ عليهم فيه الإحساسُ بما عند الأحياءِ مِن عذاب وإيلام، وقد استمرَّ ذلك أمدًا طويلًا، ليس يومًا ولا شهرًا، ولا سنة، بل سنين عدة"[5]، تأكيدًا لكونه مكان الإيواء واللَّبث؛ لأنَّ ذلك ممّا تستغربه النُّفوس لشدَّة غرابته، وفيه تأكيدٌ لكونه معجزةً.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 416.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 206.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 500.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 19.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4497.

إيثارُ التَّعبيرِ بتنكير لفظ السِّنين:

تطاولتِ السّنينُ حتّى تفلّت حِسابُها وجُهِلَ مقدارُها

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ السِّنين نكرةً في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾؛ لأنَّ مدَّة لَبثِهم كانت مجهولةً، فعبَّر بها للدَّلالة على واقع الحال[1]، وفي التَّنكير دلالةٌ على التَّكثير، فلمّا كانت مدَّة لَبثِهم طويلةً مجهولةَ القدْرِ؛ عبَّرَ عن ذلك بالتَّنكير إشارةً إلى كثرة السِّنين وكونها ممّا لا يُقطع بالعلم به.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿عَدَدٗا﴾:

لَبِثوا سنين عديدةً لا معدودةً تحقيقًا وعدًّا

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿عَدَدٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾؛ لأنَّه لمّا ذكر السِّنين ربَّما يُظَنُّ أنَّ ذكرها إنَّما كان للمبالغة؛ لأنَّه نومٌ مخالف للعادة؛ حقَّق الأمر بأن ذكر بعده لفظَ العدد[2]، وإنَّما عبَّر به دون (معدودة)؛ لأنَّ العددَ يدلُّ على الكثرة، كقوله تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجن: 28]، وأصحابُ الكهف لَبِثوا زمانًا طويلًا: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾ [الكهف: 25]، وأمّا المعدودة؛ فهي للقلَّة، كقوله جلَّ شأنُه: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ [يوسف: 20]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: 80][3]، فيستفاد من وصف السِّنين بالعدد أنَّها سنين كثيرةٌ متطاولة، فضلًا عن توكيد كثرتها؛ لأنَّ الشَّيء إذا قلَّ؛ فُهِمَ مِقدارُهُ، ومِقدارُ عدده، فلم يحتَجْ إلى أن يُعَدَّ، فإذا كثُرَ؛ احتاج إلى أن يُعدَّ[4]؛ كما يجوز أن يكون التَّنكير فيها دالًّا على التَّقليل، وعليه يكون وصفُ السِّنين بذلك "إمّا للتَّكثير، وهو الأنسبُ بإظهار كمالِ القدرة، أو للتَّقليل وهو الأليقُ بمقام إنكارِ كون القصةِ عجبًا مِن بين سائر الآياتِ العجيبة، فإنَّ مدَّة لَبْثِهم كبعض يومٍ عنده ﷻ"[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 19.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 19.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 81.
(4) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 271، والقنّوجي، فتح البيان: 8/ 17.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 207.

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ١٢﴾ [الكهف: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد طولِ المنامِ بالضَّرب على الآذان أيقظَهم مِن رقادهم

بعد أن بيَّن النَّظمُ الجليل أنَّ الفتيةَ لمّا أووا إلى الكهف، وضرب اللّٰه تعالى على آذانهم السِّنين الطَّويلة التي لا تُحصى إلّا بالعدِّ والحساب؛ ذكر أنَّه بعد ذلك أيقظهم مِن رقادهم، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾[1]، فبعد ذكر النَّوم أتبعَهُ بذكر الإيقاظ تتميمًا للقصَّة وبيان ما حدث لهم بعد ذلك النَّوم الطَّويل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾: (بعث) أصلٌ يدلُّ على الإثارَة، ويُقالُ: بَعَثْتُ النّاقةَ: إذا أثرتَها[2]، بَعَثْتُه فانبَعَثَ، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به، فَبَعَثْتُ البعيرَ: أثرتُهُ وسيَّرته، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]، أي: يخرجهم، ويسيرهم إلى القيامة، فالبعث ضربان: بشريٌّ، كبعث البعير، وبعث الإنسان في حاجة، وإلهي يختصُّ به الباري تعالى، ولم يقدر عليه أحد وهو إحياء الموتى، كقوله جلَّ شأنه: ﴿فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾ [الروم: 56]، يعني: يوم الحشر، وأمّا قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾، وذلك إثارةٌ، وعلى هذا قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ [الأنعام: 60]، والنَّوم مِن جنس الموت؛ فجعل التَّوفّي فيهما، والبعثَ منهما سواءً[3]، فالمرادُ بالبعث من النَّوم: إيقاظُهم من تلك النَّومة[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4497.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(3) الرّاغب، المفردات: (بعث).
(4) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 17.

2) ﴿ٱلۡحِزۡبَيۡنِ﴾: (حزب) أصلٌ يدلُّ على تَجمُّع الشَّيء، فمِن ذَلك الحِزْبُ: الجَماعَةُ مِنَ النّاسِ[1]، وهو جماعة فيها غلظ، قال ﷻ: ﴿أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾[2]، وكُلُّ قَوْمٍ تَشاكَلَتْ قُلوبهُم وأَعْمالُهم؛ فَهُم أَحزابٌ، وإِنْ لم يَلْقَ بعضهم بَعْضًا بِمَنْزِلَةِ عادٍ وثَمودَ وفِرعَوْنَ أولئِكَ الأَحْزابُ[3]، وأمّا قوله تعالى: ﴿أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ﴾؛ فالمراد بالحزبين الفريقانِ من المؤمنين والكافرين المختلفين في مدَّةِ لَبثِهم[4].

3) ﴿لَبِثُوٓاْ﴾: (لبث) أصل يَدُلُّ عَلَى تَمكُّثٍ، يقالُ: لَبِثَ بالمَكانِ: أَقامَ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾ [الأحقاف: 35][5]، والمعنى المحوري: ملازمةٌ للمكان ممتدَّة، وهي المكث في المكان: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾ [الكهف: 25]، ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤﴾ [الأحزاب: 14] هذا بيان لعدم رسوخ الإيمان في قلوبهم حينذاك؛ إذ لا يثبتون عليه إلّا قليلًا قبل أن يُفْتَنوا، ﴿قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾ [البقرة: 259]، وليس في القرآن من التركيب إلّا اللَّبْثُ المكاني أو الزماني، وهو منه[6].

4) ﴿أَمَدٗا﴾: الأَمَدُ: الغايةُ كالمدى، يُقالُ: ما أَمَدُكَ؟ أي: مُنتهى عمرك[7]، والأَمَدُ: مدَّةٌ لها حدٌّ مَجهول؛ إذا أُطلق، وقد يَنحصرُ نحو أن يُقال: أمد كذا، كما يقال: زمان كذا، والأمد يقال باعتبار الغاية[8]، الأَمَدُ: مُنْتَهَى الأَجل، وللإِنسان أَمَدانِ: أَحدهما ابْتِداءُ خَلْقِهِ الَّذي يَظْهَرُ عِنْدَ مَوْلِدِهِ، والأَمد الثّاني: المَوْتُ[9]،، والمُراد في الآية الكريمة: الغاية[10].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يُخبرُ النَّظمُ الجليلُ أنَّ اللّه تعالى بعد أن أنامهم، فإنَّه قد أيقظهم بعد زمان طويل؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزب).
(2) الرّاغب، المفردات: (حزب).
(3) ابن منظور، اللسان: (حزب).
(4) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 17 - 18.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبث).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (لبث).
(7) الجوهري، الصحاح: (أمد).
(8) الرّاغب، المفردات: (أمد).
(9) ابن منظور، اللسان: (أمد).
(10) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 207.

إيقاظُ أصحاب الكهفِ من نومهم يُظهر معلومَ الله تعالى الأزليّ

وذلك ليُظهرَ للنّاسِ ما كان يعلمه في الأزل، فتُعرَفُ أيُّ الطّائفتين المتنازعتين في مدَّة لَبثِهم أضبطُ في الإحصاء، فهل لَبِثوا يومًا أو بعض يوم، أو أنَّهم قد لَبِثوا هناك مدَّةً طويلةً[1]؟

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ حرفِ العطف ﴿ثُمَّ﴾:

العجبُ في قصَّتهم تأخُّرُ إيقاظهم بعد نومهم

آثرَ النَّظمُ الكريمُ العطفَ بـ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالَّةِ على التّراخي والمهلة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ تعبيرًا عن الواقع، فهو الأنسبُ للسّياق؛ "لأنَّ الزَّمنَ تطاول بين دخولهم الكهف وضربِ اللّٰه تعالى على آذانهم، فقد كانت سنين كثيرةً لا تُعرفُ إلّا بالعدِّ والإحصاء"[2].

جمالُ الاستعارةِ في التَّعبير عن الإيقاظ بالبعث:

الإيقاظُ مِن ذلك النَّوم الطَّويل دليلٌ لبعث الموتى من الأجداث

استعارَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ البعثِ للإيقاظِ مِنَ النَّومِ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾، فشبَّه النّائمَ بالميّت، أي: أيقظناهم مِن نومهم إيقاظًا يُشبِهُ بعْثَ الموتى[3]، وحذف المشبَّهَ به، وهو الميِّت وأبقى لازمةً مِن لوازمِه، وهي البعث، فهي استعارةٌ مكنيَّة، والجامع بينهما الإفاقةُ بعد عدمها، "وحُسْنُ هذه الاستعارةِ هنا أنَّ المقصودَ مِن هذه القصَّةِ إثباتُ البعثِ بعد الموت، فكان في ذكر لفظ البعثِ تنبيهٌ على أنَّ في هذه الإفاقة دليلًا على إمكان البعثِ وكيفيته"[4]؛ لأنَّ البعثَ في عُرف الشرعِ إحياء الموتى مِن قبورِهم، ففيه رمزٌ إلى أنَّهم كالموتى بشدَّة نومهم؛ فإيقاظهم مثل الإحياء[5].

توجيهُ الحقيقةِ في لفظ البعث:

المبعوثُ هو الخارج من النَّوم إلى الانتباه

ويحتمل لفظُ البعثِ الحقيقةَ؛ إذ يُقال لكلِّ مَن خرج من الموتِ

---

(1) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 294.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4498.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 8.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 269.
(5) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 12/ 23.

إلى الحياة أو من النَّوم إلى الانتباه: مبعوث، وتأويلُ (مبعوث) أنَّه قد زال عنه ما كان يَحبسه عن التَّصرُّف والانبعاث[1]، فـ"البعثُ: التحريك عن سكون؛ إمّا في الشَّخص، وإمّا عنِ الأمر المبعوث فيه، وإنْ كان المبعوثُ فيه متحرِّكًا"[2]، و"يحتمل أن يكون حَقيقَةً؛ لأنَّ البعثَ في الأمر بمعنى: الإقامة من المكان"[3].

إسنادُ الفعلِ (بعث) إلى ضمير العظمةِ:

خرقُ العادةِ في نومهم وإيقاظِهم بعد زمنٍ كائنٌ بعظمة الله تعالى

أسندَ النَّظمُ الجليلُ فعلَ البعثِ إلى ضمير التَّعظيم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾، أي: نبعثهم بما لنا من العظمة؛ لأنَّ الحدث الذي وقع بنومهم وإيقاظهم غاية في الغرابة والعجب، ولا يقوى على فعله غيرُ الإله العظيم، فمن ذا الذي يُنيمُ جماعةً ما مئاتِ السّنين، ثم يوقظهم وهم أحياءٌ؟ إنَّه الإله العظيمُ الجليل القادر، فكان التَّعظيم تعبيرًا عن ذلك.

دلالةُ اللامِ في قوله: ﴿لِنَعۡلَمَ﴾:

علَّةُ البعثِ إظهارُ علمهِ الأزليِّ

أدخلَ النَّظمُ البليغُ لامَ الجرِّ على الفعل المضارع المنصوب بأنْ مقدَّرةً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ﴾؛ للدَّلالة على التَّعليل، فإظهارُ ما يعلمه اللّه تعالى مِن شأنهم هو الغايةُ من ذلك البعثِ، ويجوز أن تكون اللّامُ للعاقبة، أي: عاقبةُ ذلك البعث إظهارُ العلم بمَن أحصى مدَّتهم[4]، وذكر الفخر الرازي أنَّ "اللّامَ لام الغرض؛ فيدلُّ على أنَّ أفعال اللّه معلَّلةٌ بالأغراض"[5].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ العلم:

علمُ الله تعالى الأزلي يتجلَّى في واقع حياة النّاس

أسندَ النَّظمُ الجليلُ العِلمَ إلى ذاتِه الجليلةِ في قوله تعالى:

---

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 271.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 145.

(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 23.

(4) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 17.

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 429.

﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ﴾، وعلمُ اللّه تعالى حاصلٌ لا يحتاج إلى تحقيقه أن يبعثَهم، فإنَّ اللّه تعالى يعلم كلَّ شيء في كلِّ زمان، فيعلم ما كان وما سيكون، فاللّه تعالى لا يعلم جديدًا، لم يكن يعلمُهُ سابقًا، فالمراد أن يظهرَ ما كان يعلمهُ اللّه تعالى، ويجعله واقعًا يعلمونه، فيكون ما كان يعلمُهُ اللّه تعالى في الغيب واقعًا محسوسًا يعلمه النّاس، بعد أن كان مجملُ علمهم الظَّنَّ والرَّجم بالغيب[1].

بلاغةُ الكنايةِ في لفظ العلم:

المـجـازاةُ من معاني ذكر علمِ الله تعالى

طريقةُ القرآن الكريم المسلوكةُ في ذِكْر علم اللّه تعالى بالأشياء أنْ يُجعلَ كنايةً عن بعض ذِكْر لوازمه المناسبة لموقعه، فقد يُجعل كنايةً عن المجازاة، كما في قوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 143]، أي: لنجازي المتَّبع بالثواب والمنقلب بالعقابِ، وفي قوله تعالى: ﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ﴾، جعل كنايةً عن ظهور أمرهم لتطمئنَّ بازدياد الإيمان قلوبُ المؤمنين، وتنقطعَ حجَّةُ المنكرين[2].

بلاغةُ المجازِ في لفظ العلمِ:

الاختـبـار سُنَّة من سُنن اللهِ في خلقهِ

وقد "يُحملُ النَّظمُ الكريمُ على التمثيل المبنيِّ على جعل العلمِ عبارةً عن الاختبار مجازًا بطريق إطلاقِ اسمِ المسبَّبِ على السَّببِ، وليس من ضرورة الاختبارِ صدورُ الفعل المختبَرِ به عن المختبَرِ قطعًا، بل قد يكون لإظهار عجزِه عنه على سنن التَّكاليفِ التعجيزيةِ كقوله تعالى: ﴿فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: 258]، وهو المراد ههنا، فالمعنى: بعثْناهم لنعاملهم معاملةَ من يختبرهم"[3].

ويجوز أن يكون العلمُ هنا بمعنى التمييزِ، فيكون بعثُهم لتمييز

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4498.
(2) الشهاب، عناية القاضي: 6/ 78.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 207.

أيِّ الحزبَيْنِ أحصى لما لبثوا أمدًا، فهو مجازٌ مِن طريق ذكرِ السَّبب وإرادةِ المسبِّب؛ إذ إنَّ العلمَ سببٌ للتمييز[1].

دلالةُ ﴿أَيُّ﴾، وفائدةُ إضافتها إلى ﴿ٱلْحِزْبَيْنِ﴾:

ليس كلُّ أحدٍ مصيبًا في قوله، وتعيينُ المحقِّ مطلبٌ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باسم الاستفهام ﴿أَيُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾، وإضافتُها إلى الحزبين للدَّلالة على التَّعيين، فهي تدلُّ على أنَّ أحد الحزبين يعلم وجه الحقِّ، وأفاد الاستفهام "التَّنبيهَ إلى أنَّ الزَّمنَ طال حتّى اختلفوا في قدرِه، وبعثوا مِن مَراقدِهم ليتعرَّفوا الزَّمان، وفي أيِّ زمان هم، وبذلك يعرفون أيَّ القائلين أصدقُ قيلًا؟"[2].

دلالةُ تعريف الحزبَيْن بالألف واللّام:

مناطُ الحديث عن الاختلافِ بين الفريقَيْن ذاتهما

سَمّى اللّه تعالى الفريقَيْن: حزبَيْن؛ لأنَّ الحزبَ ما ينحاز إلى أمر مُعيَّن من دين أو حربٍ أو نصرةٍ، وحزبُ اللّه في دينه هم المفلحونَ[3]، وعرَّف النَّظمُ البليغ لفظ الحزبين بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾؛ للدَّلالة على العهد، فلا عهدَ لغير المذكورين[4]، والمرادُ به المختلفين في شأن مدَّةِ لَبثِهم، سواءٌ أريد بالحزبين هم وقومُهم، أم الخلافُ الذي وقع بينهم؛ إذ قالوا: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: 19].

دلالةُ صيغة ﴿أَحْصَىٰ﴾، وإعرابُ ﴿أَمَدًا﴾:

إظهارُ العلمِ بمَن حسب المدَّة، ومَن كان أدقَّ في حسابها

اختلفَ أئمَّةُ التَّفسيرِ في صيغة ﴿أَحْصَىٰ﴾ هل هي فعل ماضٍ أم اسم تفضيل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾، فعلى قول الجمهور منهم أنَّها فعل ماضٍ بمعنى حَسِبَ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 478.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4499.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4498.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 208.

وضبط[1]، "فالظاهر الجيِّدُ فيه أنَّه فعل ماضٍ، وأَمَدًا: منصوبٌ به على المفعول"[2]؛ أيْ: لنعلمَ مَن حَسِبَ وضَبطَ مدَّةَ إقامتهم بلا تفاضل، أي من فعل ذلك؟ والعلَّةُ في ذلك أنَّ اسم التَّفضيل لا يكون مِن فعل رباعيٍّ إلّا في الشّاذ[3]، وأجاز آخرون ذلك لكثرة وروده مِن الرُّباعي، فيكون اسمَ تفضيل، "والتَّفضيلُ منصرفٌ إلى ما في معنى الإحصاء من الضَّبط والإصابة، والمعنى: لنعلم أيُّ الحزبين أتقنُ إحصاءً؟ أي: عدًّا بأن يكون هو الموافق للواقع ونفس الأمر، ويكون ما عداه تقريبًا ورجمًا بالغيب"[4].

فائدةُ قوله: ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾:

تخصيصُ معرفةِ الإحصاء لمدَّةِ لَبثهم يُفصحُ عن طول نَومهم هناك

قيَّدَ النَّظمُ الجليلُ الإحصاءَ المراد معرفته بشبه الجملة مِن حرف الجرِّ واسم الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الإحصاءَ معلَّقٌ بمدَّةِ لبثهم لا بعددهم الذي وقع فيه خلاف كذلك، ويُشير أيضًا إلى أنَّ مدَّةَ اللَّبث قد طالت بحيث وقع فيها خلافٌ بالعدِّ والإحصاء، فلمّا قال: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾؛ دلَّ على أنَّها كثيرة، وقوله: ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ يشير إلى تأكيد تلك الكثرةِ والتَّطاول.

دلالةُ (ما)، وسرُّ التَّعبير باللَّبث، وصوغه ماضيًا:

مدَّةُ لَبثِهم طالت حتّى إنَّها من طولها أُبهمت لغرابتها

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسم الموصول (ما)[5] في قوله تعالى: ﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ دون أن يقول: (أحصى لمدَّة لبثهم)؛ وذلك إيثارٌ لما في (ما) من دلالة على التَّهويل المتأتّي من الإبهامِ الذي فيها، فهو يشير إلى أنَّ زمانَ لَبثِهم أمرٌ فيه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 19.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 500.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 146.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 270، وينظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4499.
(5) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 18.

من الغرابة، والإبهام، والاستطالة بحيثُ إنَّهُ وقع فيه خلاف، وأوثر التَّعبيرُ باللَّبث دون المكث، وكلاهما يدلُّ على الإقامة الطويلة.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البعثُ والإيقاظُ:

البعثُ إحياءُ الميِّت حقيقةً، والإيقاظُ تنبيهُ النّائمِ من نومِهِ

(بعث) أصلٌ يدلُّ على الإثارَةِ[1]، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علَّق به، فقوله ﷻ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]، أي: يخرجُهم، ويسيِّرهم إلى القيامة، والنَّوم مِن جنس الموت، فجعل التَّوفِّي فيهما، والبعث منهما سواءً[2]، فالمراد بالبعث مِنَ النَّوم إيقاظُهم مِن تلك النَّومة[3]، وأمّا اليَقَظةُ؛ فهي نَقيضُ النَّوْم، وهو الانْتباهُ مِنَ النَّوْم، وأَيْقَظْتُهُ مِن نَومِه، أَي: نَبَّهته، فتَيَقَّظ[4]، فعبَّر النَّظمُ الجليلُ عن نومهم بالبعث؛ لأنَّ نومهم قد طال، فصاروا أشبه بالموتى؛ لأنَّ اللّه تعالى قد ضرب على آذانهم، فلا يستيقظون إلّا كما يبعثُ الموتى.

الحزبُ والفريقُ:

الفريقُ جزءٌ منفصل من جماعة، والحِزب جماعةٌ فيها قوَّة وتجمُّع

الفريق هو الجَماعَة من جماعَة أَكثر منها، تَقول: جاءَني فريق مِنَ القَوْم، وفريقُ الخيل هو ما يُفارق جمهورها في الحلبة، فَيخرج منْها[5]، أمّا الحزبُ؛ فهو جماعة فيها غلظ، قال ﷻ: ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾[6]، وكُلُّ قَوْم تَشاكَلَتْ قُلوبهُم وأَعْمالُهم؛ فَهُم أَحْزابٌ، وإِنْ لَم يَلْقَ بعضُهم بَعْضًا بِمَنْزِلَة عادٍ وثُمودَ وفِرعَوْنَ أولَئِكَ الأَحْزابُ[7]، وأمّا قوله تعالى: ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾، أي: الجماعتين من

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(2) الرّاغب، المفردات: (بعث).
(3) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 17.
(4) ابن منظور، اللسان: (يقظ).
(5) العسكري، الفروق: 277 - 280.
(6) الرّاغب، المفردات: (حزب).
(7) ابن منظور، اللسان: (حزب).

المؤمنين والكافرين المختلفين في مدَّة لُبْثِهم[1]؛ فأطلق عليهم حزبين لقوَّة جماعة كلٍّ منهما.

اللَّبثُ والمكْثُ:

اللَّبثُ استقرارٌ بزمنٍ محدَّد، والمكْثُ الاستقرار المطلقُ في المكان

نلْحَظُ أنَّ (اللَّبث) يدلُّ على الإقامة في زمنٍ محدَّد، كما في الآيات: ﴿قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾ [البقرة: 259]، وقوله: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾ [يوسف: 42]، وقوله: ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ [الإسراء: 76]، وقوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣﴾ [طه: 103].

و(المُكث) هو مُطلقُ الإقامةِ في المكان غيرُ محدَّدٍ بزمنٍ، ومنه قوله: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ [النمل: 22]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: 17]، وقوله: ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه: 10].

الأمدُ والأبدُ والزَّمانُ:

الزَّمنُ أعمُّ، والأبدُ زمنٌ غيرُ محدود، والأمدُ مدَّةٌ مجهولة لها غاية

الأَمَدُ والأبدُ يتقاربان، لكنَّ الأبدَ: عبارةٌ عن مدَّة الزمان التي ليس لها حدٌّ محدود، ولا يتقيَّد، لا يُقال: أبدُ كذا، والأَمَدُ: مدَّةٌ لها حدٌّ مجهول؛ إذا أُطلِقَ، وقد ينحصر نحو أن يُقال: أمدُ كذا، كما يُقال: زمان كذا، والفرق بين الزَّمان والأمد أنَّ الأمدَ يُقال باعتبار الغاية، والزَّمان عامٌّ في المبدأ والغاية، ولذلك قال بعضهم: المدى والأمد يتقاربان[2].

(1) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 17 - 18.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمد).

﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣﴾ [الكهف: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ الاختلافِ والظُّنون الشُّروع في قصِّ الحقيقةِ

لمّا ذكر النَّظمُ الجليلُ قوله تعالى: ﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾؛ دلَّ ذلك على أنَّ ثَمَّ اختلافًا وقع في أمر الفتية، فأعقب ذلك الخبرَ بالإخبار عن أنَّه ﷻ سيُخبر عن أمرهم على وجه الحقِّ[1]، فلمّا "كان الكلامُ على اختلاف وقع في مدَّتهم، وكان الحزبان معًا هم ومَن خالفهم متقاربين في الجهل بإحصائهِ على سبيل القَطْعِ، وكان اليهودُ الذين أمروا قريشًا بالسُّؤال عن أمرهم تشكيكًا في الدّين لا يعلمون أمرهم على الحقيقة؛ نبَّه على ذلك بقوله جوابًا لمن كأنَّه قال: أيُّهما أحصاه؟ ﴿نَّحۡنُ﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَقُصُّ﴾: (قصص) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَتَبُّعِ الشَّيْءِ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: اقْتَصَصْتُ الأَثَرَ؛ إذا تَتَبَّعْتُهُ، ومِنْ ذَلِكَ اشْتِقاقُ القِصاصِ في الجِراحِ، وذَلِكَ أَنَّهُ يُفْعَلُ بِهِ مِثْلُ فِعْلِهِ بالأَوَّلِ، فَكَأَنَّهُ اقْتَصَّ أَثَرَهُ، ومِنَ البابِ القِصَّةُ والقَصَصُ، كُلُّ ذَلِكَ يُتَتَبَّعُ، فَيُذْكَرُ[3]، والقِصَّةُ: الخَبَرُ، وهو القَصَصُ، وقَصَّ عَلَيَّ خبرَهُ يقُصُّه قَصًّا وقَصَصًا: أَوْرَدَهُ[4]، والقَصَصُ: الأخبار المتتبِّعة، قال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [آل عمران: 62]، ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ﴾ [يوسف:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 501.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 20.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قصّ).
(4) ابن منظور، اللسان: (قصص).

[111]⁽¹⁾، والمراد بقوله جلَّ شأنه: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم﴾ الإخبار بأمرهم سردًا، لا مفرَّقًا بأن يروى شيئًا فشيئًا؛ لأنَّ تفريق الإخبار ليس بقصصٍ[2].

2) ﴿نَبَأَهُم﴾: (نبأ) أصلٌ يدلُّ على الإتْيانِ مِنْ مَكانٍ إِلَى مَكانٍ، يُقالُ لِلَّذي يَنبَأُ مِن أَرضٍ إِلَى أَرضٍ نابِئٌ، وسَيْلٌ نابِئٌ: أَتَى مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، ومِنْ هذا القياسِ النَّبَأُ: الخَبَرُ؛ لِأَنَّهُ يَأْتي مِنْ مَكانٍ إِلَى مَكانٍ[3]، والنَّبأ: خبرٌ ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غَلَبَة ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل: نَبَأٌ حتَّى يتضَمَّن هذه الأشياءَ الثَّلاثة، وحقُّ الخبر الذي يقال فيه: نَبَأٌ أن يتعرّى عن الكذب، كالتَّواتر، وقوله: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: 6]، تنبيهٌ أنَّه إذا كان الخبر شيئًا عظيمًا له قدر؛ فحقُّه أن يُتوقَّف فيه[4]، والمرادُ في الآية الخبرُ الذي له شأنٌ وخطرٌ، أي: نحن نخبرُكَ بخبرهم[5].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

قصَّةُ أصحابِ الكهف على وجهِ الحقِّ

يُخبر اللّهُ تعالى النَّبيَّ ﷺ بأنّا نحن نقصُّ عليك خبرهم العظيم بالصِّدق واليقين الذي لا شكَّ فيه، لا غيرنا، إنَّ أصحابَ الكهف الذين أووْا إلى الكهف، الذين سألك عن نبئهم الملأُ من مشركي قومِك، فتيةٌ آمنوا بربِّهم، وزدناهم إلى إيمانهم بربِّهم إيمانًا، وبصيرةً بدينهم، حتّى صبروا على هجران قومهم، والهرب مِن بين أظهرهم بدينهم إلى اللّه، وفراق ما كانوا فيه مِن خفض العيش ولينه، إلى خشونة المكث في الكهف[6].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (قصص).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 501.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(4) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(5) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 18.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 615، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 294.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل جملة ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ﴾ عمّا قبلَها:

بعدَ إجمالِ قصَّتهم يَحسُنُ الشُّروعُ بتفصيلها

فصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجملة في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، فلمّا وقع الاختلاف في شأنِهم - في قوله تعالى: ﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ - فقد جاء الإخبارُ عن قصَّتهم "جوابًا لمن كأنَّه قال: اسألِ الإيضاحَ وبيان الحقِّ من خلاف الحزبين"[1].

سرُّ الافتتاحِ بالضَّمير، وتقديمِه على الفعل:

الحقُّ ما قصَّه اللهُ تعالى لا غيره

افتتحَ النَّظمُ الجليلُ الآيةَ بالضَّمير ﴿نَّحۡنُ﴾، وقدَّمه على الفعل ﴿نَقُصُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ﴾ دون أن يقول: نقصُّ عليك، فقدَّم الضَّمير لتكون الجملة اسميَّةً دالَّةً على الثُّبوت وتأكيد المعنى وتقوية مضمونه، كما أنَّ هذا التَّقديم يفيد الاختصاص، أي: نحن نقصُّ قصصهم بالحقِّ لا غيرنا[2]، وتصدير الجملة بضمير التَّعظيم تفخيمٌ لشأن المرويِّ؛ لأنَّه جيء به بعد ذكر الإحصاء، وما تبعه من خلاف، فجاء التَّعبيرُ على الغاية من التَّأكيد، فاللّه تعالى بعظمته هو يقصُّ نبأهم، فلا حقَّ بعد ذلك.

إيثارُ استعمالِ الفعل ﴿نَقُصُّ﴾ دونَ غيرِه من مرادفاته:

روايةُ قصَّتِهم على وفقِ وقائعها تفصيلًا وتتبُّعًا

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ القصِّ دون غيرِه في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ للدَّلالة على أنَّ الإخبارَ هنا إخبارٌ متتبِّعٌ لآثارهم قدمًا فقدمًا[3]، فاللّه تعالى يقصُّ "قصصَهم بالحقِّ من وقت أن نشؤوا، وخوطِبوا بالوحدانيَّةِ في وسط الوثنيَّة بعد بعْث عيسى عليه السلام، ومجيءِ بعض رجالهِ إليهم في الرّومان داعين إلى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 21.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 271.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 21.

التَّوحيد"[1]، فأوثِر القصُّ؛ لأنَّه يدلُّ على تقفّي الأحداث من أوَّلها قدمًا فقدمًا، فهو يدلُّ على التَّفصيل والتَّتبُّع.

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكَ﴾ على معمول الفعل:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ بتقديم ذكره

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة على المفعول به في قوله تعالى: ﴿نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم﴾ دونَ أن يقولَ على الأصل: (نقصُّ نبأهم عليك)؛ لأنَّ القصَّ بالوحي يقع على النَّبيِّ ﷺ دون غيره، فهو من خصائصه، كما أنَّ تقييدَ القصِّ بكونِه على النَّبيِّ ﷺ فيه تشريفٌ له؛ إذ لو قال: نقصُّ نبأهم بالحقِّ؛ لاستقام المعنى، فإنَّما قيَّد كون القصص قد وقع على النَّبيِّ ﷺ؛ فهو تشريفٌ له، ومن تمام التَّشريف تقديمُ ذكره.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ النَّبأ دون الخبر:

غرابةُ القصَّة وعظمةُ شأنها يناسبها الإنباءُ الدّالُّ على عظمة الخبر

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ النَّبأِ دونَ لفظِ الخبرِ في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم﴾؛ لكون النَّبأ يدلُّ على الخبر ذي الشَّأن العظيم، أي: نحن نخبرك بخبرهم العظيم[2]، وإنَّما كان خبرهم عظيمًا لمخالفته المعتادَ من شأن النّاس، فمن ذا الذي ينام قرونًا مُتتابعة، ويبقى حيًّا كلَّ ذلك الزَّمان؟ فهو نبأ تحفُّه العظمةُ مِن كلِّ طرف، فكان نبأً لا خبرًا.

إطلاقُ لفظ (النَّبأ) دليل انحصار القصَّة

قال تعالى في قصة أهلِ الكهف: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾، ولم يَقُلْ: (من نبأهم)، كما قال تعالى في قصَّة ذي القرنين: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ٨٣﴾ [الكهف: 83]؛ لأنَّ قصَّة أهل الكهف منحصرةٌ، وأمر ذي القرنين غيرُ منحصر[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4499.

(2) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 18.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 99.

مِنَ الحقِّ نسبةُ الفضل لأهله

فائدةُ إضافةِ النَّبأ إلى ضمير الغائبين:

أضافَ النَّظمُ الجليل لفظَ النَّبأِ إلى ضميرِ الغائبين في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذا الخبرَ العظيم حدث بسببهم، فلو لم يكونوا قد ثبتوا على الإيمان، وفارقوا بلدتهم فرارًا بدينهم لما وقع هذا النَّبأُ العظيم، فهو نبأهم الذي حدث بسببهم.

قولُ اللهِ تعالى متلبِّسٌ بالحقِّ لا ينفكُّ عنه

سرُّ تقييد القَصِّ بقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

قيَّد النَّظمُ الجليلُ فعلَ القصِّ بشبه الجملة ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه قصٌّ مُتلبِّس بالحقِّ لا ينفكُّ عنه، فهو قصٌّ مصاحب للحقِّ، لا يُغادر الصِّدقَ، ولا يُخالطه بخلافه[1]، وفيه دلالةٌ على أنَّ رواية كلِّ أحد لقصَّتهم إنَّما هي خلاف الحقِّ، أي: "ليس أحدٌ غيرُنا إلا قصًّا ملتبسًا بباطل زيادةً أو نقصًا"[2]، وهذا يدلُّ على أنَّ خبرهم معروفٌ لدى النّاس، ولكن على وجه يخالف الحقَّ[3].

ذِكرُ النَّبأِ يغري بمعرفةِ العظمةِ التي فيه

سرُّ فصلِ جملة ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ﴾:

فصلَ النَّظمُ الحكيمُ الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾؛ لأنَّها جملةٌ مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، سيقت للجواب عن سؤالٍ اقتضاهُ ذِكْرُ النَّبأ قبلها، فكأنَّه قيل: (وما كان نبأهم؟) فقيل: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾[4]، فالجملة منفصلةٌ لبيان القصص المذكور على وجه الإجمال قبلَها[5].

نكتةُ تصديرِ الجملة بأداةِ التوكيد:

صدَّرَ النَّظمُ البليغُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ

(1) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 18، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4499.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 21.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 15/ 124.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 21، والقنّوجي، فتح البيان: 8/ 18.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4499.

حداثةُ أسنانِهم وخلوُّهم من شيخ مرشدٍ أمرٌ غاية في الغرابة

﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ بأداة التَّوكيد (إنّ) تقويةً للخبر واهتمامًا بمضمون الجملة[1]، فهو تأكيدٌ لكونهم أحداثَ السِّنِّ، وتأكيدُ هذا المعنى يُشير إلى أنَّ المراد الاهتمامُ بمضمون الجملة، وهو كون أصحاب الكهف شبابًا عارضوا الإشراكَ في قومهم، كما أنَّ فيه غرابةً أن يتَّخذ مجموعة مِنَ الشَّباب هذا المقام بالغ الصُّعوبة والشِّدَّة لما فيه من المواجهة مع الباطل وأعوانه دون أن يكون معهم مرشدٌ من شيخ كبير له دربة وتجرِبةٌ في الحياة.

سرُّ التَّصريح بلفظ ﴿فِتۡيَةٌ﴾ مع تقدُّم ذِكْره:

الفتيةُ أقبلُ لمعارضة الإشراك من الشُّيوخ

صرَّحَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الفتيةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ مع تقدُّمِ ذِكرهِم، فلم يقل: (نحن نقصُّ عليك نبأهم، إنَّهم آمنوا بربِّهم)؛ تأكيدًا لصفة كونِهم شبابًا أحداث السِّنِّ، كما أنَّ أكثر المستجيبين للّه تعالى ولرسوله ﷺ كذلك، أمّا الشُّيوخُ من قريش؛ فقد استمرّوا على ضلالهم إلّا قليلًا منهم[2]، فيكون التَّصريح بلفظ الفتيةِ يتضَمَّن تعريضًا بالشّيوخ، وتبيينًا بأنَّهم لا غرابة في صدِّهم عن الإيمان.

نكتةُ الإخبارِ عن الفتية بـ ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾:

صفاتُ الرُّبوبيَّة والإيمان بها سبيلٌ للإيمان بوحدانيَّة الألوهيَّة

أخبرَ بليغُ النَّظم عن الفتية في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ بأنَّهم قد آمنوا بربِّهم؛ للدَّلالة على أنَّ إيمانهم جاء بالنَّظر في صفات الرُّبوبيَّة، فهو "المحسن إليهم النّاظر في مصالحهم الذي تفرَّد بخلقهم ورِزْقِهم، وهداهم بما وهب لهم في أصل الفطرةِ من العقول الجيّدة النّافعة"[3]، فكان إيمانهم مبنيًّا على الملاحظة في شأن الحياةِ من حيثُ إنَّهم مربوبون له مملوكون[4]، فردّوا ما بهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 271.
(2) القاسمي، محاسن التّأويل: 7/ 8 - 9.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 21.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 148.

من نِعَم إلى المولى الجليل، فنالوا بذلك الإيمانَ القويم، وهذا المعنى لا يتحصَّلُ لو قيل: (آمنوا بنا)، والتَّعبيرُ بالماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ فيه إشارةٌ إلى تحقُّق إيمانهم، فضلًا عن كونه حديثًا عن زمن ماضٍ.

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الغيبةِ إلى التَّكلُّم:

زيادةُ الهدى بعد حلول الإيمان نعمةٌ عظيمة الشَّأن

التفتَ النَّظمُ البليغُ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ من الغَيبة إلى التَّكلُّم، فلم يقل: (آمنوا بربِّهم، وزادهم هدى)؛ وذلك أنَّه لمّا دلَّ لفظ الرُّبوبيَّة على الإحسان، وقد أحاطَهم المولى تعالى بعظيم قدرته الباهرة؛ التفت إلى مقام التَّعظيم[1]، "لما في لفظة (نا) من العظمة والجلال، وزيادته تعالى لهم هدًى هو تيسيرُهم للعمل الصالح والانقطاعُ إليه ومباعدةُ الناس والزُّهدُ في الدُّنيا، وهذه زيادةٌ في الإيمان الذي حصل لهم"[2]، وتفخيمٌ لشأنِ نعمته عليهم بزيادةِ الهدى، وكون هذا الهُدى وقعَ لهم بما للّه تعالى مِن عظمة، فهو زيادةٌ عظيمة بالغةُ الأثر في حياتهم وقصَّتهم.

إيثارُ العطفِ بلفظ الزيادة، وصيغة الماضي:

زيادةُ الهدى إعدادٌ للفتية ليكونوا معالم هدًى وأنصار حقٍّ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ العطف على جملة إيمانهم بالتَّعبير بلفظ الزِّيادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾؛ للدَّلالة على الأعمال بعد الإيمان "أي: يسَّرناهم للعمل الصّالح والانقطاع إلى اللّه ﷻ ومباعدة النّاس والزُّهد في الدُّنيا، وهذه زيادات على الإيمان"[3]، كما أنَّ هذه الزِّيادةَ وقعت قبل إعلانِهم الإيمانَ وتمرُّدِهم على المشركين، فكانت زيادة الهدى تمهيدًا وإعدادًا من اللّه تعالى لهم؛ ليواجهوا تلك العصبةَ الضّالَّة "بما قذفنا في

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 21.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 148.
(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 3/ 501.

مَنْ يُقبِلْ على الله؛ يُهدَ ويُفلِحْ

قلوبهم من المعارفِ، وشرحنا لهم صدورهم من المواهب التي حملتهم على ارتكاب المعاطب، والزهد في الدنيا والانقطاع إليه"[1].

وفي جملة العطف إيماءٌ إلى أنَّ مَن يُجبْ داعيَ ربِّهِ، ويُقبل مستجيبًا لندائه؛ يجدِ اللّهَ تعالى له هاديًا مرشدًا، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: 11]، وما تقرَّب عبدٌ إلى اللّه تعالى إلا جوزي بتقرُّبِ اللّه تعالى منه أضعافًا، ومَنْ تقرَّبَ اللّهُ سبحانه منه؛ رَبِحَ وأفلحَ.

سرُّ التعبيرِ بلفظ الهدى دونَ الإيمان:

الإيمانُ يدلُّ على التَّصديق، والهدايةُ تقتضي الدَّلالة والتَّوفيق للأصلح

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الهدى في قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ دون أن يقول: وزدناهم إيمانًا؛ لأنَّ إيمانَهم قد بلغ من المكانة ما جعلهم يفارقون الأهلَ والدّيار، فكانوا أحوجَ إلى الإرشاد وتوفير سبل النَّجاة من زيادة الإيمان؛ لأنَّ الإيمان يدلُّ على التَّصديق، والهداية تقتضي الدَّلالةَ والتَّوفيق للأصلح.

۞ الفروقُ المُعجَميَّة:

النَّبأُ والخبرُ:

النَّبأُ أخصُّ من الخبر لاختصاصه بعظم المخبَرِ عنه

النَّبأُ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمة يحصلُ به علمٌ أو غَلَبَة ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل: نَبَأٌ حتّى يتضمَّنَ هذه الأشياء الثَّلاثة، وحقُّ الخبر الذي يقال فيه: نَبَأٌ أن يتعرَّى عنِ الكذب، كالتَّواتر، وقوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: 6]، تنبيهٌ إلى أنَّه إذا كان الخبر شيئًا عظيمًا له قدرٌ؛ فحقُّه أن يُتوقَّف فيه[2]، والمراد في الآية الخبر الذي له شأنٌ وخطرٌ، أي: نحن نخبرك بخبرهم[3]. "وأيُّ خطرٍ وشأن أكبرُ من عدد من الناس ينام نحو ثلاثمئة سنة أو تزيد، وهو حي،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 21.
(2) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(3) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 18.

ويتكفَّله اللّه تعالى حتى يوقظَهُ من مرقدهِ، وهو لا يدري على التَّعيين متى رقد؟[1] فآثر التَّعبيرَ بلفظ النَّبأِ دون الخبرِ؛ لمّا كان خبرهم وقصَّتهم عظيمةَ الشَّأن.

الإرشادُ أخصُّ وهو بيانُ الطَّريق، والهداية توفيق ودلالة بلطف

الهدى والرَّشاد:

الهدايةُ دلالةٌ بلطف، وهي التَّوفيقُ الذي يَختصُّ به مَنِ اهتدى، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد ﷺ: 17][2]، وأمّا الإرشادُ إلى الشَّيء؛ فهو التَّطريق إليه والتَّبيُّن له[3]، فهو نوعٌ مِنَ الهداية يتعلَّق بالدَّلالة على الطَّريق، فعبَّرَ في الآية بالهدى للدَّلالة على أنَّه تعالى وفَّقهم للعملِ بمقتضى الإيمان.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4499.

(2) الرّاغب، المفردات: (هدى).

(3) العسكري، الفروق، ص: 209.

﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤﴾ [الكهف: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإيمانُ قولٌ يصدِّقه العمل

لمّا خُتِمَتِ الآيةُ السّابقةُ بالجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ مبيِّنةً إيمانَهم وإكرام اللّه تعالى لهم بزيادة الهدى؛ أتبعه بقوله تعالى: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ﴾؛ لبيانِ أنَّهم لم يكتفوا بمجرَّد التَّصديق ومعرفة الحقِّ، بل أتبعوها بإعلانِهم ذلك الإيمانَ في قومِهم المشركين، وأنَّ الإيمانَ يقتضي الإعلان ومواجهة الكافرين، وكلُّ ذلك بفضل اللّه تعالى ومنَّته.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَرَبَطۡنَا﴾: (ربط) أصلٌ يَدلُّ عَلَى شَدٍّ وثَباتٍ، مِن ذلكَ رَبَطتُ الشَّيءَ أَرْبِطُهُ رَبطًا، والَّذي يُشَدُّ بِهِ رِباطٌ[1]، وفلان رابِطُ الجأشِ؛ إذا قويَ قلبُهُ، وقوله تعالى: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ إشارةٌ إلى نحو قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: 4]، وقوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: 22][2]، والرِّباطُ: الفُؤاد كأَنَّ الجِسْمَ رُبِطَ بِه، ورَجُلٌ رابِطُ الجَأْشِ ورَبيطُ الجأشِ، أَي: شَديدُ القَلْبِ كأَنَّهُ يرْبُطُ نفْسَه عَنِ الفرار يكُفُّها بجُرْأته وشَجاعته، ورَبَطَ جأْشُه: اشتدَّ قلبُه ووثُقَ، وحَزُمَ، فَلَم يَفِرَّ عِنْدَ الرَّوْعِ، وربطَ اللّهُ عَلَى قلبه بالصَّبرِ، أَي: أَلهَمه الصَّبْرَ وشدَّه وقوّاه[3]، والمراد في الآية تقويةُ القلوب بالصَّبرِ على المجاهدة والثَّباتِ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ربط).
(2) الرّاغب، المفردات: (ربط).
(3) ابن منظور، اللسان: (ربط).
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 9.

2) ﴿شَطَطًا﴾: (شطّ) أصلٌ يدلُّ على البُعْدِ، والمَيَلِ[1]، والشَّطاطُ: البُعْدُ، شَطَّتْ دارُه تَشُطُّ شَطًّا وشُطوطًا: بَعُدت، وكُلُّ بَعيدٍ شاطٌّ، والشَّطَطُ: مُجاوزةُ القَدْرِ في بَيْعٍ، أَو طلَبٍ، أَو احْتِكام، أَو غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ كُلِّ شيءٍ[2]، وهو الإفراط في البعد، وعبَّر بالشَّطَطِ عن الجور، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾، أي: قولًا بعيدًا عن الحقِّ، وشَطُّ النَّهر حيثُ يبعد عن الماء من حافَّته[3]، والمُرادُ به في الآية الإفراطُ في الكفران، وذلك بنسبة الألوهيَّة لغير اللّه تعالى[4].

۞ المَعنى الإِجْماليُّ:

يثبّتُ الله الذين آمنـوا بالقـول الثّابت

يُتِمُّ اللّهُ تعالى خبرَ أصحاب الكهفِ بأنّا قد قوَّينا قلوبَهم بالإيمان، وألهمناهم الصَّبر، وشددنا عزيمتهم، حين قاموا بين يدي الملك الكافر، وهو يلومهم على تَرْكِ عبادةِ الأصنام، فقالوا له: ربُّنا الذي نعبده هو ربُّ السَّموات والأرض، لن ندعو مِن دون ربِّ السموات والأرض إلهًا؛ لأنَّه لا إله غيره، وإنَّ كلَّ ما دونه فهو خَلْقَهُ، ولئن دعونا إلهًا غير إله السَّموات والأرض؛ لقد قلنا إذًا شططًا مِنَ القول، مجاوزًا مقداره في الباطل والغلوِّ[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَرَبَطْنَا﴾:

الـرَّبـطُ على القـلـوب فضلٌ من ربِّهـم الذي زادهم هدًى

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[6]، فلمّا أخبر عن إيمانهم، وأنَّه زادهم هدًى؛ أعقبه بذكر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شطّ).
(2) ابن منظور، اللسان: (شطط).
(3) الرّاغب، المفردات: (شطط).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 274.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 615.
(6) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 150.

تقوية القلوب والرَّبط عليها، أي: "قوَّيناها بالصَّبر على هجران الأوطان والفرار بالدّين إلى بعض الغيران، وجسَّرناهم على القيام بكلمة الحقِّ والتظاهر بالإسلام"(1).

دلالةُ فعلِ (الرَّبط) ماضيًا مُسندًا إلى ضمير العظمةِ:

عظيمُ ما أقبلوا عليه من مواجهةٍ يستدعي نعمةَ التَّثبيت

أُسنِدَ فعلُ الرَّبطِ المتحقَّقُ في الزمن الماضي إلى ضمير العظمةِ والجلال (نا) في قوله تعالى: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾، تفخيمًا لشأن منَّته عليهم بتقوية قلوبهم بالصَّبر على المجاهدة والثَّبات على الإيمان، لعظيم ما أقبلوا عليه مِن فعل المواجهة للملك، وهم نفرٌ قليل في مُقتبل العمر.

جمالُ الاستعارةِ ﴿وَرَبَطۡنَا﴾:

ربطُ القلوبِ يحافظ على مكنونها من الإيمان واليقين

استعارَ النَّظمُ الجليل لفظَ الرَّبطِ في قوله تعالى: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على تثبيت الإيمان في قلوبِهم وعدم التَّردُّد فيه(2)؛ لأنَّ الرَّبط هو الشَّدُّ بالحبل، فالاستعارة تصريحيَّة تبعيَّةٌ؛ لأنَّها وقعت بالفعل (ربط)، فشبَّه قلوبهم بوعاءٍ ممتلئ إيمانًا، وقد ربطَ عليها رباطًا محكمًا، يشدُّ عليهم، فلا تضطربُ أمام العوارض(3)، فهذا الرَّبطُ يحافظ على مكنون قلوبِهم، فلا يحصل لهم رعبٌ أو تردُّدٌ واضطراب؛ فلمّا "كان الفزعُ وخور النَّفس، يُشبه بالتَّناسُب الانحلالَ؛ حَسُنَ في شدَّة النَّفس وقوَّة التَّصميم أن يُشبهَ الرَّبطَ"(4)، ومنه: (فلانٌ رابطُ الجأشِ)؛ إذا كانت نفسُهُ لا تتفرَّقُ عند الفزع والحرب، وقال تعالى: ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ [القصص: 10](5).

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 288.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 272.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4501.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 501.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 148.

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾:

تمكُّنُ الإيمانِ من قلوبِهم فلا انفكاكَ عن عقيدة الحقِّ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على تمكُّن الرَّبطِ والإيمانِ من قلوبهم، وفيه "إشارةٌ إلى أنَّه إيمانٌ قويٌّ لا تؤثِّر فيه الشُّكوك، ولا يعرض له وهنٌ، ولا يدركه خللٌ بوجهٍ، بل هم مصمِّمون عليه، كما تربط الحملَ على الدّابةِ"[1]، فدلَّ الاستعلاءُ على تمكُّن ذلك الرَّبطِ، فالإيمانُ ثابت راسخٌ في قلوبهم، فلا تردُّد ولا انفكاك عن عقيدتهم مهما عارضهم به المشركون.

سرُّ إيثارِ لفظِ (القلوب) مجموعًا:

القلوبُ مواطنُ الهداية والتَّأثير

اختيرَ الربطُ على القلوب دون غيرها كالأنفسِ مثلًا؛ لأنَّ القلبَ كما كان موطنَ الهداية ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: 11]؛ فهو موطنُ السكينةِ والطُّمأنينة والاستقرار والتأييدِ بنور الإيمان.

دلالةُ القيام بين الحقيقة والمجازِ:

النُّهوضُ إلى الحقِّ قيامٌ وجسارة وإقبال على جليل الأعمال

وصفَ النَّظمُ الجليلُ فِعلهم بالقيام في قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ﴾، وهو يحتمل الحقيقةَ والمجاز، فالمعنى على الحقيقة أنَّهم قاموا بين يدي الملك الكافرِ، غيرَ مبالين به، وهو مقام يحتاجُ إلى الرَّبط على القلب؛ لأنَّهم قد خالفوا دينَ الملك، ولم يعتبروا هيبتَهُ، وأمّا المجازُ، فالقيام تعبيرٌ عن انبعاثهم وعزمِهم على الهروب بدينهم ومنابذة قومِهم وأهلِهم[2]، فهو مستعارٌ "للإقدام والجسرِ على عمل عظيم، وللاهتمام بالعمل أو القول، تشبيهًا للاهتمام بقيام الشَّخصِ من قعود للإقبال على عملٍ ما"[3].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 81.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 501.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 272.

فائدةُ استعمالِ الفاءِ في قوله: ﴿فَقَالُواْ﴾:

إثرَ قيامِهم أعلنوا إيمانَهم وصدعوا بعقيدتِهم

آثرَ النَّظمُ الجليلُ العطفَ بحرف الفاء في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ﴾؛ لأنَّ القولَ مترتِّبٌ على قيامهم ومواجهتهم، وأنَّهُ وقع ردفَ قولهِم لبيان مبادرتهم بدعوتهِم وإعلان إيمانهم، فالفاء يدلُّ على أنَّ قولهم قد وقع مواجهةً، فبعد أن قاموا، ووقفوا، قالوا تلك المقولةَ لإعلان إيمانهِم والصَّدع به، والعطف بالواو لا يقتضي التَّرتيبَ، فتكون المواجهة غيرَ مؤكَّدة، فلمّا جاء العطف بالفاء؛ دلَّ ذلك على أنَّ القول وقع بعد ذلك من غير مهلةٍ؛ دلالة على قوَّةِ إيمانهم، وشدَّة يقينهم بقضيَّتهم؛ إذ سارعوا إلى التصريح بألوهيَّتهِ تعالى، وربوبيَّته، وتوحيدهم له ﷻ.

نكتةُ تعريفِ (الرب) بالإضافة:

مِن حُسن الحديث تعيينُ المتحدَّثِ عنه بما لا يقبل الاختلاط

عرَّفَ النَّظمُ الجليلُ المسندَ إليه، وهو لفظُ (الرَّبِّ) بإضافته إلى ضمير المتكلِّم في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تعريفًا للّه تعالى أمام قومِهم بالإضافة إليهم؛ وذلك لأنَّ الفتيةَ قد عُرِفوا مِن قبلُ بأنَّهم عبدوا اللّه، أو أنَّ قومهم لم يكن لديهم معرفةٌ باسم علم للّه تعالى، فكان تعريفهم باللّه تعالى عن طريق الإضافةِ لذلك[1]، أَيْ: "رَبُّنا الذي نعبده رَبُّ السَّمواتِ والأَرْضِ بحيث يدخل تحت ربوبيته كلُّ معبود سواه"[2].

فائدةُ الإخبارِ عن المُسنَد إليه بـ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

إزالةُ جهلِ الغافلين عن الإلهِ الحقِّ بتعريفِه بملكِهِ الذي لا ينكرونه

أخبرَ بليغُ النَّظم عن المسند إليهِ ﴿رَبُّنَا﴾ بقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ للإخبار بهذه الحقيقة وتعريفًا لقومهم باللّه تعالى، مما أنَّ فيه إشارة إلى إبطال كلِّ إلهٍ سواه، فربُّنا الذي نعبده هو رَبُّ السَّمواتِ والأَرْضِ، فيدخل تحت ربوبيَّته كلُّ شيء وحتّى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 272 - 273.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 10.

آلهة قومهم التي عبدوها من دون اللّه تعالى[1]، فلا شيءَ يخرج عن السَّموات والأرض، فإذا كان اللّهُ تعالى هو ربَّهما؛ فما بقي لآلهتهم المزعومة غير الكذبِ والشَّطط والادِّعاء.

نكتةُ تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

من أماراتِ رسوخِ إيمان الفتيةِ معرفتُهم بعظيم قدرة ربِّهم

وجهُ تقديم السموات على الأرض في أغلب مواضع ورودِها تقدُّمُ خَلْقِها على خَلْق الأرض[2]، وتعدُّدها وانفراد الأرض، ولأنَّها منشأ أحكامِه تعالى، ومصدر قضاياه، ومُتنزَّل أوامره ونواهيه وأرزاقه ووعده ووعيده، فإنَّ كلَّ ما يؤمرون به، وينهون عنه، وما يرزقونه في الدنيا، وما يوعدونه في العقبى؛ كلُّه مقدَّرٌ مكتوب في السّماء، ولأنَّها وما فيها من الآثار العلويات أظهرُ دلالةً على القدرة الباهرة، وأبينُ شهادةً على الكبرياء والعظمة[3]، ومراعاةُ التقديم في حديث الفتية يومئُ بدقيق معرفتهم ربَّهم، وعظيمَ قدرته، وبديع خلقه، وإتقان صنعته؛ وذلكم من دلائل رسوخ إيمانِهم.

علَّةُ فصلِ جملة ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ﴾:

قصْرُ العبادة عليه سبحانه هو مقصودُ تفرُّده بمُلك السَّموات والأرض

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ استئنافيَّة، فهو استئناف بعد الاحتجاج بأنَّ ربَّهم هو ربُّ السَّموات والأرض، والغايةُ من هذا الاستئناف إظهارُ القصد من ذلك الاحتجاج[4]، ففائدةُ الاستدلال بكونهِ هو ربَّ السَّموات والأرض بيانُ صحَّة ما هم عليه من التَّوحيد، فكان التَّصريحُ بنفي عبادة سواه هو المقصود من بيان كونه ربَّ كلِّ شيء.

دلالةُ النفي بـ ﴿لَن﴾ دون (لا):

تأكيدُ الإخلاص بنفي الإشراك من معالم الإيمان

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بحرف النَّفي ﴿لَن﴾ دون (لا) في قوله

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 10.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 78.
(3) الخلوتي، روح البيان: 4/ 97.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 273.

تعالى: ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ حكاية لنفيهم المؤكَّد المستمرِّ للأبد[1]، فإنَّ النَّفي بـ ﴿لَن﴾ هو نفي للمستقبل، أي: لن نعبد الآن وفي كلِّ زمان غيره إلهًا قطُّ، فهذا الحرف يدلُّ على أنَّهم أكَّدوا نفي الألوهية عن كلِّ أحدٍ غيرِ الله تعالى نفيًا مؤكَّدًا[2]، فما أحسن ما وحَّدوا الله تعالى بأنَّه ربُّهم الموجدُ السمواتِ والأرضَ المتصرف فيها على ما يشاء، بتوكيد هذا التوحيد بالبراءة من إلهٍ غيره بلفظ النفي المستغرقِ تأبيدَ الزمان[3].

تقديمُ قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على ﴿إِلَٰهٗاۖ﴾:

تعجيلُ ذكر المعبود بعد النَّفي يفصح عن توحيده بالعبادة

آثرَ النَّظمُ الكريمُ تقديمَ شبه الجملة على المفعول به في قوله تعالى: ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ﴾ دون أن يقول على أصل ترتيب الجملة: (لن ندعو إلهًا من دونه)؛ فعجَّلوا بذكر المستثنى من النَّفي - وهو الله تعالى المضمَّن في عبارة: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على المنفيِّ، وهو قوله: ﴿إِلَٰهٗاۖ﴾ تشريفًا لذكر إلههم، فاستثنوا من النَّفي إلههم الحقَّ بتقديم ذكره؛ تعجيلًا لإثبات أحقيَّته بالعبادة على سبيل التَّوحيد والانفراد.

إيثارُ لفظ ﴿إِلَٰهٗاۖ﴾ على قوله: (ربًّا):

الدُّعاءُ والعبادة تتعلَّق بالإلهيَّة لا بالرُّبوبيَّة

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الإله دون الرَّبِّ في قوله تعالى: ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ﴾؛ لأنَّ الدُّعاء يكون للإله المعبود، ولو أُريدَ بالدُّعاء هنا العبادة؛ فإنَّ المعنى واحد، فالعبادة تتعلَّق بالألوهيَّة لا بالرُّبوبيَّة، فكان التَّعبير بالإله مراعاةً لما ذُكِرَ في السّياق، والعدولُ عن أن يقول: ربًّا، كما قال في صدر الجملة: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ﴾؛ "للتَّنصيص على رد المخالفين حيث كانوا يسمّون أصنامَهم آلهةً وللإشعار بأنَّ مدارَ العبادة وصفُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 210.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4501.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 149.

الألوهية وللإيذان بأنَّ ربوبيَّتَهُ تعالى بطريق الألوهيةِ لا بطريق المالكية المجازية"[1].

سرُّ فصلِ جملة: ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ﴾ عمّا قبلَها:

رفضُ الشِّرك صادرٌ عن دراية ومعرفة بالحقِّ

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾؛ لأنَّها استئنافيَّة، والاستئناف فيها بيانيٌّ، تبيينًا لما أفاده توكيد نفي عبادتهم غيرَ اللّه تعالى[2]، كأنَّه قيل: (ولمَ أنتم لا تعبدون غير اللّه، وما وجهُ الخطأِ بالشِّرك؟) فأجابوا بذلك.

دلالةُ التَّعبير باللام و(قد):

الشِّركُ كذبٌ وضلال مؤكَّد محقَّق

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ باللّام و(قد) في قوله تعالى: ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾؛ للدَّلالة على التَّأكيد والتَّحقيق، فاللّام موطِّئةٌ للقسم تدلُّ على تأكيد مضمون الجملة، و(قد) تدلُّ على التَّحقيق[3]، فيكون الكذبُ والبعد عن الحقِّ مُؤكَّدًا مُحقَّقًا، وهذا يدلُّ على قوَّة علمهم ويقينهم بما اعتقدوا؛ إذ راحوا يؤكِّدون أنَّ الشِّرك بُعْدٌ عن الحقِّ وضلالٌ عن الصّواب.

فائدةُ قوله: ﴿إِذٗا﴾، وتقديمه على المعمول:

مبالغةٌ منهم في تأكيدِ نفي عبادتِهم غيرَ اللّه تعالى

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجواب ﴿إِذٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾؛ للإشارة إلى أنَّها متفرِّعةٌ عن الجملة التي قبلها، وهي قوله جلَّ شأنه: ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ﴾[4]، وذلك لبيان أنَّهم إذا بدا منهم الإشراكُ على سبيل الافتراض؛ فإنَّهم ينسبون لأنفسِهم عند ذلك الشَّطط والجور عن الحقِّ، وهذا مبالغة منهم في تأكيد نفي عبادتِهم غيرَ اللّه تعالى، "أي: لن نعبد غيره إلهًا قطُّ، فلا نقِرُّ بالعبودية لغيره، ويفرضون أنَّه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 210.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 273.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4501.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 273.

وقع منهم ذلك، فيقولون مؤكّدين بما يشبه القسم: ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾"[1].

دلالةُ لفظِ ﴿شَطَطًا﴾ وبلاغتُهُ:

لا بُعْدَ عن الحقِّ كبُعْدِ المشرك وضلاله

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الشَّططِ في قوله تعالى: ﴿لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾؛ للدَّلالة على إفراط الشِّرك في البُعد عن الحقِّ ومجانبته للعدل والصَّواب، والشَّطط مصدر جيء به للوصف مبالغة في الصِّفة، أي: هو نفس الشَّططِ لقصد المبالغة[2]، فالقول الشَّططُ هو عبادة غيرِ اللّه تعالى، لا شطط غيرُه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرَّبطُ والتَّثبيتُ:

الرَّبطُ تقوية للطّالب، والتَّثبيت تقويةٌ للمطلوب

الرَّبطُ من (ربط)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى شَدٍّ وثَباتٍ[3]، فالرَّبط يدلُّ على الجرأة والشَّجاعة، وأمّا التَّثبيت؛ فمن (ثبت) أصلٌ يدلُّ على دَوام الشَّيْءِ[4]، والثَّبات ضدُّ الزوال، يُقال: ثَبَتَ يَثْبُتُ ثَباتًا، قال اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ [الأنفال: 45]، وقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [إبراهيم: 27]، أي: يُقوّيهم بالحُجَج القويَّة[5]، فالمُراد من التثبيت هو عدمُ الزَّوال بعارض يردُ، والمُراد من الرَّبط الشَّدُّ على القلب ليواجه الشَّدائد الآتية، فالرَّبط للمواجهة والهجوم، والتَّثبيت تسكينٌ للدِّفاع طلبًا لعدم الزَّوال، فكان الرَّبطُ على قلوب الفئة المؤمنةِ أنسبَ لمواجهتهم قومَهم وإعلانَهم الإيمانَ بربِّ العالمين.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4501.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 19.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ربط).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثبت).
(5) الرّاغب، المفردات: (ثبت).

تتقاربُ دلالاتُ هذه المفردات، ولكلٍّ منها ما يميِّزه مِنَ الآخر

الشَّطط والجَور والظُّلم والبغي:

الجور خلاف الاسْتقامَة في الحكم، وهو العُدولُ عَن الحقِّ، ونقيضُه العدْلُ، وهو العُدول بالفِعْلِ إلَى الحقِّ، والظُّلم ضَرَرٌ لا يُسْتَحقُّ، ولا يعقبُ عِوضًا، وأصل الظُّلم نُقْصانُ الحقِّ، ونقيضه الإنصاف وهو إعْطاء الحقِّ على التَّمام، وأمّا البَغي؛ فهو شدَّة الطَّلب لما لَيْسَ بِحَقٍّ بالتَّغليب(1)، والشَّطط من (شَطَّ)، وأَصْلهُ يدلُّ على البُعْدِ، والمَيْل(2)، والشَّطَطُ: مُجاوزَةُ القَدْرِ في بَيْعٍ، أَو طلَبٍ، أَو احْتِكام، أَو غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ كُلِّ شيءٍ(3)، وهو الإفراطُ في البُعْدِ، وعبَّر بالشَّطَطِ عن الجور، قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾، أي: قولًا بعيدًا عن الحقِّ(4)، وفي الآية عبَّرَ بالشَّطط؛ لأَنَّه جاء صفة للقول، فدعاءُ غيرِ اللّه تعالى هو بُعدٌ عن الحقِّ، وإفراطٌ في الكفران، وذلك بنسبة الألوهيَّة لغير اللّه تعالى(5).

(1) العسكري، الفروق: 231 - 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شطّ).
(3) ابن منظور، اللسان: (شطط).
(4) الرّاغب، المفردات: (شطط).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 274.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

كشفُ الباطلِ وتهوينه بعد إعلان التَّوحيد والحق

لمّا أعلنوا التَّوحيدَ وجابهوا المشركين من قومِهم؛ لم يكتفوا بذلك، بل أتبعوهُ ببيان بطلانِ عقيدة المشركين من قومهم[1]، فشرعوا في الاستدلال على كون الشِّركِ شططًا بأنَّه لا دليل عليه، وأنَّهم لم يقلِّدوا قومهم، بل فارقوهم لكونهم ليس لديهم دليلٌ على عقيدة الشِّرك[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِسُلۡطَٰنِۭ﴾: (سلط) أصلٌ يدلُّ على القوَّةِ والقَهرِ، مِن ذلك السَّلاطَةُ مِنَ التَّسَلُّطِ وهو القَهرُ، ولِذَلِكَ سُمِّيَ السُّلطانُ سُلطانًا، والسُّلطانُ: الحُجَّةُ[3]، وإنَّما سُمِّي الحجَّة سلطانًا، وذلك لما يلحق مِنَ الهُجوم على القُلوبِ، لكنَّ أكثرَ تسلُّطه على أهلِ العلم والحكمةِ مِنَ المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ [غافر: 35]، وقال: ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: 10][4]، والمرادُ بِه في الآية الكريمة: الحجَّةُ الظّاهرة البيِّنة على دعواهم[5].

2) ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾: (فري) أصلُه يدلُّ على قَطعِ الشَّيءِ، ثمَّ يُفرَّعُ منهُ ما يُقارِبُهُ، وفُلانٌ يَفْري الفَرِيَّ؛ إذا كان يَأتي بالعَجَبِ، كَأَنَّهُ يَقطَعُ الشَّيءَ قَطْعًا عَجَبًا، ويُقالُ: فَرَى فُلانٌ كَذِبًا يَفْريهِ؛ إذا خَلَقَهُ[6]، والفَرْيُ:

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4501.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 22.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلط).
(4) الرّاغب، المفردات: (سلط).
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 210.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرى).

قطْعُ الجلدِ للخرزِ والإصلاحِ، والإِفْراءُ للإفساد، والِافْتِراءُ فيهما وفي الإفساد أكثر، وكذلك استُعمِلَ في القرآن في الكذب والشِّرك والظُّلم، نحو: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء: 48]، وفي الكذب نحو: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ [الأنعام: 140]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [المائدة: 103][1]، والافتراء افتعالٌ مِنَ الفري، يدلُّ على المبالغة في الفري والكذب[2]، وذلك أنَّهم افتروا عليه، وزعموا أنَّ له شركاءَ، تعالى اللّه عمّا يصفون[3].

المَعْنى الإجماليُّ:

لا ظلمَ كظلم مَن يُشرك بالله تعالى

يُخبر النَّظمُ الجليل أنَّهم قالوا لقومهم أو أنَّهم قالوا لبعضهم: هؤلاء قومنا عملوا، أو نحتوا لهم آلهةً غير اللّه، فهلّا أتَوا على عبادتهم لها بدليلٍ واضح؛ تبكيتًا لهم، فلا يمكن بحال الإتيانُ بتلك الحجَّة على عبادة الأوثان، ولا بدَّ من تلك الحجَّةِ، فإنَّ الدّين لا يُؤْخَذُ إلّا بالبرهان، فلا أحدَ أشدُّ ظلمًا ممَّن اختلق على اللّه الكذبَ؛ لأنَّهم لم يأتوا ببرهانٍ، فهم ظالمون في حقِّ اللّه بجعلهم وافترائِهم آلهةً زعموا أنَّها مساويةٌ له في رتبته العليا، تعالى اللّه عمّا يشركون[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل جملة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا﴾ عمّا قبلَها:

سببُ مفارقتِهم قومَهم بناءُ دينهم على الظُّنون والأوهام

فصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ﴾؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ، فإنَّ قوله جلَّ شأنه: ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ يثير في نفس السّامع أن يتساءل: وهل هناك مَن يقول هذا الشَّطط، ويشرك باللّه تعالى؟[5] وفيه بيانُ ركنٍ أصيل

(1) الرّاغب، المفردات: (فرى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 10.
(3) الإيجي، جامع البيان: 2/ 427.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 289، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 10.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 274.

من أركان قصَّتهم؛ إذ لولا مفارقة قومهم لهم بالاعتقاد لما كان منهم أن يقوموا، ويقولوا ما قالوا، ولا أن يخرجوا إلى الكهف، فذكر كون قومِهم اتَّخذوا من دون الله تعالى آلهة هو السَّبب الرَّئيس في المفارقة، وفي ظهور هذه القصَّة، فكان بيانه بعد إعلان توحيدهم بيانًا لأصل القصَّة وسبب المفارقة.

سرُّ التَّعبيرِ باسم الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

هانَ شأنُهم بإشراكِهم حتّى استغنى الأبناء عن ذكرهم باسمهم

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن القوم باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ﴾ تحقيرًا لهم[1]، فذِكرُ المُتحدَّث عنه بالإشارة دون اسمه فيه تهوينٌ من شأنه، كما أنَّ الحديث عن القوم باسم الإشارة يدلُّ على "تمييزهم بما سيُخبِر به عنهم، وفي هذه الإشارةِ تعريضٌ بالتَّعجب من حالهم وتفضيح صنعهم، وهو من لوازم قصد التَّمييز"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالقوميَّة، والإضافة إلى ضمير المتكلِّمين:

أسوأُ الضَّلال ضلالُ القوم كلِّهم، بحيث غابَ عنهم الرُّشد

عبَّروا عن أهلهم وبلدِهم بلفظ القومِ، وإضافتُهُ إلى ضمير المتكلِّمِ في قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا﴾ إشارةٌ إلى "ما يربطهم بهم من صلاتِ الجوار والنَّسب أحيانًا، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ واجب هذه الصلاتِ أن يرشدوهم ويهدوهم"[3]، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّهم إنَّما يتكلمون بعلم ودراية، لا بظنٍّ وأوهام، كما يفعل المشركون إذ يعبدون آلهة بلا سلطان ولا برهان؛ لأنَّهم إذ يعترضون على إشراك قومهم، فإنَّهم بهم أعلم لما عاينوا من الحياة بينهم، كما أنَّ التَّعبيرَ بلفظ القوم يدلُّ على أنَّ هناك إجماعًا بينهم على ذلك الشِّرك والانحراف عن الدّين القويم.

---

(1) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 20.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 274.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4501 - 4502.

دلالةُ الإخبارِ على الإنكارِ:

إنّما قبح الشِّرك لـوضـع آلـهة عاجزةٍ برتبة ربِّ السَّموات الأرض

أخبر النَّظمُ الجليلُ عن اسم الإشارة بالجملة الخبريَّةِ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ إنكارًا عليهم[1]، فالجملة خبرٌ جيءَ بِهِ للإنكار "عليهم دون الإخبار؛ إذ اتخاذُهم آلهةً من دون اللّٰه معلومٌ بَيْنَ المتخاطبين، فليس الإخبارُ به بمفيدٍ فائدةَ الخبر"[2]، فشركُهم لا يخفى، والتَّصريح به؛ لأنَّه موطنُ الخلاف وسببُ الخروج والمفارقة، كما أنَّ فيه تقبيحًا لفعلهم؛ إذ إنَّهم اتَّخذوا من دون ربِّ السَّموات والأرض القائم على كلِّ نفس آلهةً لا تنفعُ، ولا تضرُّ.

سرُّ إيثارِ لفظ الاتِّخاذ، وصيغة الماضي:

تـكـلُّفُ الـشِّـرك ينفي البراءةَ عنه بتسويغ وراثتِه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الاتِّخاذ في قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم عملوا، أو نحتوا لهم آلهةً لعبادتها[3]، فهم قد تكلَّفوا أخذها، ويدلُّ الاتِّخاذ على أنَّهم مَن جعلها آلهة، وهي ليست من ذلك في شيء، فبذلوا جهدًا، واصطنعوا هذه الآلهة التي ليس لديهم عليها حجَّة وبرهان.

تقديمُ قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على: ﴿ءَالِهَةًۖ﴾:

مـن عـجـائـبِ النّاس إشراكُهم الـحـجـارة بـربِّ الـسَّـمـوات والأرض

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة من الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾، ولم يقلْ على الأصل: (اتَّخذوا آلهة من دونه)؛ تهويلًا لشأن الشِّرك، فإنَّ الإثمَ حاصلٌ بسبب كون العبادة كائنةً لغير اللّٰه تعالى، فتقديمُ ذِكرِ أنَّ معبودَهم هو غير اللّٰه أبلغُ في إظهار خطئه وفحشه.

دلالةُ ﴿لَّوۡلَا﴾ وأثرها في المعنى:

تعجيزُ المشركين بالاحتجاج على أصنامهم

عبَّرَ النَّظمُ البليغُ في قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 210.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 274.

(3) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 10.

بـ ﴿لَّوۡلَا﴾ الدّالَّةِ على التَّحضيض تعجيزًا لهم؛ لأنَّه تحضيضٌ على ما لا يمكن لهم فعله بحال من الأحوال[1]، "أي: هَلّا يأتون على عبادتهم لها بحجَّة نيرة ظاهرة تصلح للتَّمسك بها، وفيه تبكيتٌ؛ لأنَّ الإتيانَ بحجة على عبادة الأصنام محالٌ"[2]، فلولا: تحضيضٌ صَحِبَهُ الإنكارُ؛ إذ يستحيل وقوعُ سلطان بيِّنٍ على ذلك، فلا يمكن فيه التحضيضُ الصرف، فحضّوهم على ذلك على سبيل التعجيز لهم[3].

إيثارُ استعمالِ ﴿يَأۡتُونَ﴾ ومضارعِهِ:

العجزُ عن الإتيانِ بدليل على طول الزَّمان دليلٌ على فقدانه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾؛ لما في المضارع من دلالةٍ على الدَّوام والتَّجدُّد والاستمرار، وفي ذلك تنبيهُ انتفاءِ الدَّليل على معتقدهم، أي: إنَّ قومنا من حين عبادتهم إلى الآن لم يأتوا على ذلك بدليل، فهلّا يأتونَ به الآنَ[4]، فيكون طلبُهم بالفعل المضارع يشيرُ إلى تعجيزهم؛ لأنَّ وقتَ الإيتاءِ بهذا الدَّليل مفتوحٌ في كلِّ زمان، ومع ذلك فإنَّهم عاجزون عنه، وهذا أبلغُ في بيان فقدانهم الحجَّةَ والبرهان على شركهم وضلالهم.

فائدةُ الجار والمجرور ﴿عَلَيۡهِم﴾:

البرهانُ المقبولُ مشروط فيه التَّمكُّنُ من البيان، وسلامة المنطق

علَّقَ النَّظمُ الجليلُ الإيتاءَ بالسُّلطان بحرف الجرِّ (على) الدّالِّ على الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾ للدَّلالة على أنَّ البرهان يجب أن يكون قاطعًا، أي: دليلًا قاهرًا[5]، فالدَّليلُ لا يكون دليلًا؛ ما لم يكن متمكِّنًا من الإفصاح عن موطن الاستدلالِ، فهم طلبوا أن يقدِّموا حجَّة بحيثُ لا تنتقضُ بأن تكونَ متمكِّنةً في بيان صحَّة دينهم ومعتقدهم.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 501.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 20.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 149.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 22.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 23.

نكتةُ تنكيرِ ﴿بِسُلۡطَٰنِۢ﴾، ووصفه بـ ﴿بَيِّنٖ﴾:

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن السُّلطان بالتَّنكير في قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖ﴾ للدَّلالة على أنَّهم مدعوّون لتقديم أيِّ دليلٍ كان، "أي: هَلّا يأتون على عبادتهم لها بحجَّة نيِّرة ظاهرة تصلح للتَّمسُّك بها"[1]، وحين لم يقدِّموا ما يمكن أن يعدَّ دليلًا؛ دلَّ ذلك على أنَّهم اتَّخذوا تلك الآلهة بمحض الافتعال ونيَّة الإشراك.

كما أُتيح الزَّمانُ لتقديم البرهان؛ أُتيحَ لهم كلُّ نوعٍ من أنواع الدَّلائل

ووصف السلطانَ بكونهِ بيّنًا، أي: واضحًا، بحجَّة ظاهرة الدَّلالة على مدعاهم، فإنَّ الدّين لا يُؤخذ إلّا بهِ، واستُدِلَّ به على أنَّ ما لا دليل عليه من أمثال ما ذُكر مردودٌ[2].

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَمَنۡ﴾:

أدخل النَّظمُ الجليلُ الفاء على الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ للدَّلالة على السَّببيَّة، أي: بعد طلب البرهان والعجز عنه؛ سبَّب ذلك أنَّ افتراء الشَّريك على اللّٰه تعالى لا أظلم منه[3]، أي: إنّا "قد جمعنا الأدلَّة كلَّها في الاستدلال على تفرُّد اللّٰه باستحقاقه للعبادة، بأنَّه تفرَّد بخلق الوجود، فتسبَّب عن عجزهم عن دليل أنَّهم أظلمُ الظّالمين لافتعالهم الكذب عن ملك الملوك ومالك الملك"[4].

العجز عن الدَّليل مع الجرأة على الفعل غاية الظُّلم

بلاغةُ الاستفهامِ في الآية:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ للنَّفي، أي: لا أحد أظلم ممن تعمَّد الكذبَ على اللّٰه تعالى، بإثبات الشَّريك إلى اللّٰه تعالى[5]، والنَّفي

بعدَ الطَّلبِ والتَّحرّي يتبيَّن أنَّه لا ظالم أظلمُ من المشرك

(1) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 20.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 210.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 82.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 23.
(5) القنّوجي، فتح البيان: 8/ 20، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4502.

بالاستفهام أبلغُ من النَّفي الصَّريح؛ لما فيه من تساؤل يثير الانتباه على أنَّ الأظلم انتفى وجودُهُ بعد التَّحرّي والطَّلب، وفيه تقريرٌ لِعظَمِ جُرم الدّاعين مع اللّه آلهةً[1].

دلالةُ صيغةِ (أَفْعَل) في قوله: ﴿أَظْلَمُ﴾:

الشِّركُ ظلمٌ فريد لا مساوي له في رتبته

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن الظلم بصيغة (أفعلَ) في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لبيان أنَّ الكاذب المفتري على اللّه تعالى بنسبة الشَّريك إليه واتِّخاذ آلهةٍ من دونه كائنٌ في أعلى رتبة من رُتَبِ الظُّلم، فلا مساوي له في الظُّلم، فالمُشركُ ارتكب أشنعَ الظُّلم وأقبحَهُ، وكلُّ ظلم دونه أهونُ منه، أي: "لا مساوي له في الظُّلم والكفر، إشارةً إلى أنَّهم لا يأتون ببرهان، فهم ظالمون في حقِّ اللّه؛ لافترائهم عليه بأنَّ في رتبته العليا شركاءَ يساوونه فيها"[2].

سرُّ العدولِ عن (المفتري) إلى (مَن افترى):

لا يسلمُ مفترٍ على اللّه الكذبَ من وصفِ الظُّلم

التَّعبيرُ بالموصول (مَن) فيه إيماءٌ إلى تحقُّق الخبر، وإظهار علَّة الظلم، وأنَّها السبب في هذا الوصف، فكلُّ مَن يفتري على اللّه الكذب يندرج ضمن وصف الظُّلم، وفي الإتيان بالدّالِّ منه على الإبهام (مَن) ليعمَّ كل مفترٍ، وليشمل كلَّ مَن ينطبق عليه هذا الوصف، وليس القوم الذين ذُكروا في الآية حسبُ، وليتجاوزَ المُتَّصِفَ به على وجه الرسوخ، والمحقَّقَ بصيغة اسم الفاعل إلى إدخال مقترفهِ لأدنى ملابسةٍ، وذلك لفداحةِ الفعل وشناعته.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة الافتعال ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾:

الشِّركُ عملٌ بكلفة وافتعال وبذل جهد، تعبيرًا عن سوء نيَّتهم وفعلهم

صاغ النَّظمُ الجليلُ لفظَ الافتراء بصيغة الافتعال بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 501.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 10.

للدَّلالة على شدَّةِ الافتراء، وافترى: افتعال لإفادة المبالغةِ في الفري، يقال: افترى الجلدَ، كأنَّهُ اشتدَّ في تقطيعه، فأطلقوا على الإخبار عن شيءٍ بأنَّهُ وقع، ولم يقع اسم الافتراء بمعنى الكذب، ونظيره إطلاق اسم الاختلاق على الكذب[1]، فهم كذبوا على اللّه تعالى بتكلُّفٍ وحرص وقصد، فجهدوا أنفسهم لافتعال ذلك، وهذا يحيل تحمُّل الخطأ الفاحش عليهم، فلا مفرَّ لهم من تحمُّل آثامهم برميها على الآباء والأجداد.

فائدة الجارِّ والمجرور: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

يعظُم الافتراءُ بمَن افتُري عليه ولا أفحش من افتراء على الله تعالى

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بشبه الجملة في قوله تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾؛ لتأكيدِ عِظم ذلك الافتراءِ، فإنَّ الافتراءَ قبيحٌ لذاتهِ، ولكنَّه سيكون أكثر قبحًا بمقصده، وكذا يزداد قبحًا باعتبار مكانة من افتري عليه، فلمّا كان الافتراءُ بشأن الاعتقاد والأديان كان افتراءً قبيحًا، ولمّا كان على اللّه تعالى كان أشدَّ الافتراءِ وأقبحَهُ، وفائدة ذلك هنا تقبيحُ الإشراك باللّه تعالى، وفضْحُ قومهم بأنَّهم إنَّما يعبدون تلك الإلهةَ بمحض الافتراء والانحراف عن الحقِّ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿كَذِبٗا﴾ بعد الافتراء:

قصدُ الكذبِ في الافتراء أفحشُ من الافتراءِ ذاتهِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بذكر الكذب بعد الافتراءِ في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾، وكان الافتراءُ وافيًا في الدَّلالة على الكذبِ؛ وذلك لأنَّ التَّصريح بالكذب بعد الدَّلالة عليه تأكيد عليه[2]، ومبالغة في بيان فحشِه، فالشَّيءُ يعظم بمن نُسِبَ إليه، فلمّا كان الافتراءُ متَّصفًا بكونه على اللّه تعالى؛ كان أفحشَ الافتراء وأتمَّهُ، فحسُن تأكيده لبيان ذلك الفحش.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 10.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 10.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السلطانُ والحجَّةُ:

السُّلطان أقوى من الحجَّةِ؛ إذ يحمل معنى القوة في التنفيذ

اشتُقَّ السُّلطانُ من السُّلطة، بمعنى القوَّة والسَّلاطة لحدَّة اللِّسان[1]، أما الحُجَّة؛ فهي البرهان[2]، وهي الدلالة المبيِّنةُ للمحجَّة، أي: المقصدُ المستقيمُ الذي يقتضي صحَّةَ أحد النَّقيضين[3]، فالسُّلطان أقوى من الحجَّة؛ لأنَّه يحمل معنًى زائدًا على الحجَّة، وهو القوَّة في التَّنفيذ، ولذلك آثر القرآنُ هنا السُّلطانَ دون الحجَّة؛ لأنَّها في معرض إثبات إلهيَّة المعبود، فيجب أن تكون حجَّةً بالغة في القوَّة لإحداث الإقناع.

الافتراءُ والكذبُ:

الافــتراء كـذبٌ في حــقِّ غـيره، فهو أبلغُ الكذب وأشدُّه

الكذبُ: هو الإخبارُ بما لا يطابق الواقع، والافتراء: أخصُّ منه؛ لأنَّه يدلُّ على الكذب في حقِّ الآخرين بما لا يرضونه، وأمّا الكذبُ؛ فإنَّه قد يكون في حقِّ المتكلِّم نفسه، ولذا يقال لمن مدح أحدًا بما ليس فيه: إنَّه كاذبٌ في وصفه، ولا يقال: هو مفترٍ؛ لأنَّ في ذلك ممّا يرتضيه المقول فيه غالبًا، وقال سبحانه حكاية عن الكفار: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، لزعمهم أنَّه أتاهم بما لا يرتضيه اللّٰه سبحانه مع نسبته إليه، وأيضًا قد يحسن الكذبُ على بعض الوجوهِ، كالكذب في الحرب، وإصلاح ذات البين، وعدَّة الزَّوجة، كما وردت به الروايةُ، بخلاف الافتراءِ[4]، فعبَّر عن اتِّخاذهم إلهًا غير اللّٰه تعالى بالافتراء؛ لأنَّهم كذبوا على اللّٰه تعالى بما لا يرتضيه، بأن جعلوا له شركاءَ في العبادةِ.

---

(1) الكفويّ، الكليات، ص: 493.

(2) الجوهري، الصحاح: (حجج).

(3) الرّاغب، المفردات: (حجّ).

(4) العسكري، الفروق: 449 - 450.

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾

[الكهف: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سلامةُ الدّينِ مقدَّمةٌ على سُكنى الأوطانِ

لمّا استدلَّ الفِتْيةُ في الآياتِ السابقة على صحة معتقَدِهم، وعَلِموا سَفَهَ مَنْ خالفهم مِنْ قومِهم، وأنهم لا قِبَلَ لهُم بمقاومتِهم لكثرتِهم، جاءت هذه الآيةُ لتبين لهم سبيل الحفاظ على دينهم بِهجْرتِهم لهم، واعتزالهم لما يعبدون من دون اللّٰه؛ فألهمهم اللّٰه أن يأووا إلى الكهف؛ ليَسلَمَ لهُم دينُهم[1]، ولينشر لهم من رحمته.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾: (عزل) "أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تنحيةٍ وإمالةٍ، تقول: عَزَلَ الإنسانُ الشيءَ يَعزِلُه، إذا نحّاهُ في جانب، وهو بمَعْزِلٍ وفي مَعْزِلٍ مِنْ أصحابِهِ، أي: في ناحيةٍ عنهُم، والعُزْلَةُ: الاعتزالُ، والرَّجلُ يَعزِلُ عنِ المرأةِ، إذا لم يُرِدْ ولدَها، ومِنَ البابِ: الأعزلُ: الَّذي لا رُمحَ معَهُ"[2].

والاعتزالُ: تجنُّبُ الشيءِ[3]، فتارةً يكونُ في الظّاهرِ كالاعتزالِ بالبدنِ، قالَ تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ [النساء: 90]، وتارةً في الباطنِ كالاعتزالِ في الاعتقادِ، قالَ: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 48][4]، والاعتزالُ أيضًا: التَّباعدُ والانفرادُ عن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 23، وعلوان، الفواتح الإلهية: 1/ 473.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزل).
(3) الراغب، المفردات: (عزل).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (عزل).

مخالطةِ الشَّيءِ؛ فمعنى اعتزالِ القومِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾: تَرْكُ مخالطتِهم، والتَّباعدُ عن عبادةِ الأصنام[1].

2) ﴿فَأۡوُۥٓاْ﴾: (أوى) "أصلانِ: أحدُهما: التَّجمُّعُ، والثاني: الإشفاقُ"[2]، يقالُ: أَوى إلى كذا يَأْوي أُوِيًّا ومَأْوًى: انضمَّ إليه، وآواهُ غيرُه يُؤْويه إيواءً، قالَ ﷻ: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]، وقالَ: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ [هود: 43]، وقالَ: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يوسف: 69][3]، ويقالُ: أَوَيْتُ لفلانٍ آوي له مَأْوِيَةً، وهو أنْ يَرِقَّ له ويرحمَه[4]، ومعنى ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾: (الْجَؤوا إليه[5]، واجعلوهُ مَأْوًى لكم تُقيمونَ فيه وتأْوُونَ إليه)[6].

3) ﴿يَنشُرۡ﴾: (نشر) "أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فَتْحِ شيءٍ وتشعُّبِه"[7]، ومن ذلك: بسطُ الثَّوبِ والصَّحيفةِ والسَّحابِ والنِّعمةِ والحديثِ، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠﴾ [التكوير: 10] أي: بُسِطَتْ، وقالَ: ﴿وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ٣﴾ [المرسلات: 3]، أي: الملائكةِ التي تَنشُرُ الرِّياحَ، أوِ الرِّياحِ التي تَنشُرُ السَّحابَ، وقالَ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ٤٧﴾ [الفرقان: 47]، أي: جعلَ فيهِ الانتشارَ وابتغاءَ الرِّزقِ، وانتشارُ النّاسِ: تصرُّفُهم وتفرُّقُهم في الحاجاتِ[8]، وأصلُ النَّشْرِ في الأجرامِ، ثمَّ تجوِّزَ بهِ في المعاني[9]، ومعنى ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾: يَبْسُطْ لكُم مِنْ رِزقِه[10].

4) ﴿وَيُهَيِّئۡ﴾: هيَّأَ الأمرَ تهيئةً وتهييئًا: أصلحَهُ، فهو مُهيَّأٌ، والهَيْئَةُ: صورةُ الشيءِ وشَكْلُه وحالُه[11]، قالَ تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ [آل عمران: 49][12].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 276.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوى).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أوى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أوى).
(5) الخازن، لباب التأويل: 3/ 159.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 150.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).
(8) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل، ومجمع اللغة العربية - القاهرة، معجم ألفاظ القرآن الكريم: (نشر).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (بسط).
(10) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 145، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 275.
(11) الزبيدي، تاج العروس: (هيأ).
(12) الراغب، المفردات: (هيأ).

ومعنى ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم﴾: ويُعِدَّ لكُم[1]، ويُسهِّلْ لكُم[2].

5) ﴿أَمۡرِكُم﴾: الأمرُ: الشَّأنُ، وجمعُهُ: أُمورٌ، ومصدرُ أمرتُهُ إذا كلَّفتَهُ أنْ يفعلَ شيئًا، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعالِ والأقوالِ كلِّها، وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123][3].

6) ﴿مِّرۡفَقٗا﴾: (رفق) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على موافقةٍ ومقاربةٍ بلا عُنْفٍ، ثمَّ يُشتقُّ منهُ كلُّ شيءٍ يدعو إلى راحةٍ وموافقةٍ، ومنهُ: مَرْفِقُ الإنسانِ؛ لأنَّهُ يستريحُ في الاتِّكاءِ عليهِ، والرُّفقةُ - وهم الجماعةُ الَّذينَ يترافقونَ في السَّفرِ - لِما بينَهم مِنَ الموافقةِ، ولأنَّهم إذا تماشَوْا تحاذَوْا بمَرافقِهم[4].

وارتفق بالشيءِ: انتفعَ به واستعانَ[5]، والمِرْفَقُ: ما يُرتفَقُ ويُنتفَعُ بهِ[6]، ومنهُ: قوله تعالى: ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ أي: ما ترتفقونَ بهِ وتنتفعونَ[7]، وفيه وفي العُضْوِ المعروفِ لغتانِ: فتحُ الميمِ وكسرُ الفاءِ، والعكسُ[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ هاجرَ إلى اللهِ تولّاهُ وكفاهُ

في هذه الآية يخاطبُ الفِتْيةُ بعضُهم بعضًا ويقولونَ: وإذ فارقتُم قومَكم وتنحَّيْتُم عنهم جانبًا، وابتعدتُم عن مخالطتِهم، وتباعدتُم عن كلِّ مظاهرِ الشِّركِ والكفرِ، وما عبدتم إلا اللّه الواحد القهار، فالتَجِؤوا إلى غارِ الجبلِ، واجعلوهُ مَأْوًى لكُم تُقيمونَ فيهِ وتأوونَ

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم: (هيأ).
(2) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 182.
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، ومجمع اللغة العربية - القاهرة، معجم ألفاظ القرآن الكريم: (أمر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رفق).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رفق).
(6) مجمع اللغة العربية - القاهرة، معجم ألفاظ القرآن الكريم: (رفق).
(7) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 145، والزمخشري، الكشاف: 2/ 707، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 275.
(8) السمين، عمدة الحفاظ: (رفق).

إليهِ؛ يَبْسُطْ لكُم ربُّكم مِنْ رِزقِهِ وفضلِهِ، ويسهل لكم من أمركم ما تنتفعون به في حياتكم من أسباب العيش، ويُعِدَّ لكم ما تنتفعونَ بهِ في الدارين[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ اعتزالَ المؤمِنِ قَومَه الكُفّارَ ومَعبوديهم، من أسبابِ لُطفِ اللّهِ به ورَحمته، وإلى أنَّ المشروعَ عند وقوعِ الفِتَنِ في النّاسِ، أن يَفِرَّ العَبدُ منهم خَوفًا على دينِه، كما جاء في الحديثِ: "يوشِكُ أن يكونَ خَيرَ مالِ المسلم غَنَمٌ يَتبَعُ بها شَعَفَ الجِبالِ ومواقِعَ القَطْرِ؛ يَفِرُّ بدينِه من الفِتَنِ"[2]، ففي هذه الحالِ تُشرَعُ العُزلةُ عن النّاسِ، ولا تُشرَعُ فيما عداها؛ لِما يَفوتُ بها من تَركِ الجَماعاتِ والجُمَعِ، وترشدُ إلى الجمعِ بين التبرّي من الحول والقوةِ، والالتجاءِ إلى اللّه في صلاح الأمر، ودعائه بذلك، وبين الثقة باللّه أنه سيفعل ذلك[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سر التَّعبيرِ بالظرفية ﴿وَإِذِ﴾:

إفـــادةُ معنى السببيّةِ لاقترانِ الأمرِ بالإيواء إلى الكهفِ بجوابِهِ

عُبِّرَ بالظَّرفِ ﴿وَإِذِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ - وهو متعلِّقٌ بالفعلِ ﴿فَأۡوُۥٓاْ﴾ - ليفيدَ معنى السببيَّةِ لاقترانِ الأمرِ بالإيواء إلى الكهفِ بجوابِهِ؛ وهو ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾[4]، أي: ولأجلِ اعتزالِكم قومَكم الكفّارَ وما يعبدونَهُ مِنْ دونِ اللّهِ، فاتَّخذوا الكهفَ مأوًى ومكانَ اعتصامٍ يَنشُرْ لكُم ربُّكم مِنْ رحمتِهِ ويُهيِّئْ لكُم مِنْ أمركم

(1) الواحدي، البسيط: 13/ 547، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 211، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 276.

(2) البخاري، صحيح البخاري برقم: (19) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁، وهو من أفراد البخاري على مسلم.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 14 - 142، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 472، والشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 217.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4503.

مِرْفقًا، وهذا يدلُّ على أنَّ اعتزالَ المؤمنِ قومَهُ الكفّارَ ومعبوديهم مِنْ أسبابِ لُطْفِ اللّهِ بهِ ورحمتِهِ[1].

دلالة التعبير بالإضمار في قولِهِ: ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾:

التهوينُ من شأنِ قومهم، وعدمُ الاحتفاءِ بهم

آثر القرآنُ الكريم التعبير بالإضمار وهي الهاء في قولِهِ تعالى: ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ بدلًا من الإظهار، فلم يقل: (وإذِ اعتزلتُم قومَكم عَبَدَةَ الآلهةِ)[2]؛ وذلك للتهوين من شأنهم وعدم الاحتفاء بهم، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنَ لا يُحابي في الحقِّ أحدًا، ويهجرُ أهلَ الباطلِ وإن كانوا أهلَهُ وعشيرتَهُ.

بلاغةُ الالتفاتِ من الخطاب إلى الغَيْبة:

أهلُ الحقِّ ثابتونَ عليهِ، يتواصَوْنَ بهِ وبالصَّبرِ عليهِ

تظهر بلاغة الالتفات من الخطاب إلى الغَيْبة في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ على أنَّ حكاية أقوالِ القائلينَ لا يلزم أنْ تكونَ كلُّها صادرةً في وقتٍ واحدٍ؛ فيجوزُ أنْ يكونوا قالَ بعضُهم لبعضٍ ذلكَ في مقامٍ آخرَ بعدَ اليأسِ مِن ارعواءِ قومِهم عن فتنتِهم، ويجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ في نفسِ المقامِ الَّذي خاطَبوا فيهِ قومَهم بأنْ غيَّروا الخطابَ مِنْ مواجهةِ قومِهم إلى مواجهةِ بعضِهم بعضًا، وهو ضربٌ مِنَ الالتفاتِ، ونكتتُهُ الدّلالةُ على ثباتِهم على الحقِّ، وأنَّهم يتواصَوْنَ بهِ، ويتواصَوْنَ بالصبرِ عليهِ.

وعلى الاحتمالينِ فالقرآنُ اقتصرَ في حكايةِ أقوالِهم على المقصدِ الأهمِّ منها في الدّلالةِ على ثباتِهم دونَ ما سوى ذلكَ ممّا لا أثرَ لهُ في الغرضِ، وإنَّما هو مجرَّدُ قَصَصٍ[3].

سر التعبير بالاعتزال دون غيره:

آثر القرآن الكريم التعبير بالاعتزال دون غيره، كالهجر

(1) ابن جزي، التسهيل: 1/ 460، والشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 2017.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 617، والواحدي، البسيط: 13/ 547، والبغوي، معالم التنزيل: 3/ 182.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 276.

والمفارقة؛ لأن الاعتزال هو تجنُّب الشيءِ عُمالةً كانت أو براءة أو غيرهما بالبدن كان ذلك أو بالقلب، وعلى هذا يكون الاعتزال في الظاهر والباطن للبدن والاعتقاد، ولذلك استعمله القرآن الكريم أكثر في أمر الاعتقاد، قال تعالى: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 48]، وقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾ [النساء: 90]، واستعمل أيضًا في مفارقة البدن، قال تعالى: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ [البقرة: 222][1]، بخلاف المفارقة فإنها تكون في الأبدان أكثر، قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ [الكهف: 78]، أما الهَجْر فهو أعم منهما؛ لأنه يكون بالبدن أو اللسان أو القلب، قال تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34].

جمعُه معنى المفارقة وعدم المخالطة في الظاهر والباطن

والملاحظ مما سبق أن التعبير بالاعتزال هو المناسب في هذا السياق؛ لجمعه معنى المفارقة وعدم المخالطة في الظاهر والباطن، ويلزم من ذلك عدم الرضا بما يعبده قومهم، وهذا أمر قلبي لا يتأتى إلا بالتعبير بالاعتزال، ومما يؤكد ذلك مجيئه على صيغة الافتعال، التي تحمل معنى التكلُّف، وبذل الجهد للوصول إلى المراد.

دلالة التعبير بالماضي ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾:

تحقق الاعتزال في قلوب الفتية قبل ظهوره على أبدانهم

عبر القرآن الكريم بالفعل الماضي ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾؛ للدلالة على تحقّق الاعتزال في قلوبهم قبل ظهوره على أبدانهم.

معنى الواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾:

اعتزال الفتية لكلّ ما يتعلَّقُ بالشِّركِ وأهلِهِ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾ للعطفِ، إذ عطفت هذه الجملة على الهاءِ في ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾، والمعنى: وإذِ اعتزلتُموهم واعتزلتُم معبوديهم أو عبادتَهم[2]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنَ الحريصَ على سلامةِ دينِهِ وإيمانِهِ يعتزلُ كلَّ مظاهرِ الشِّركِ والكفرِ.

---

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات: (عزل).

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 707، وابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/ 501.

احتمالُ (ما) الموصولية والمصدرية والنَّفي

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾:

آثر القرآن التعبير بـ ﴿وَمَا﴾ دون غيرها في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ لتعدد المراد بها، فيجوزُ فيها ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أنْ تكونَ موصولة بمعنى (الذي)، والعائدُ مقدَّرٌ، أي: واعتزلتُم الذي يعبدونَهُ.

والثاني: أنَّها مصدريَّةٌ، أي: واعتزلتُم عبادتَهم، أي: تركتُموها.

والثالث: أنَّها نافيةٌ، وأنَّهُ مِنْ كلامِ اللّهِ تعالى يُخبِرُ بهِ عنِ الفِتْيةِ أنَّهم لم يَعبُدوا غيرَ اللّهِ، وعلى القول الأخير فهذهِ الجملةُ معترِضةٌ في أثناءِ القصَّةِ لتحقيقِ اعتزالِهم[1].

استمرارُ كفرِ قومِ الفِتْيةِ المؤمنين

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قولِهِ: ﴿يَعْبُدُونَ﴾:

اختيرَ لفظُ المضارعِ ﴿يَعْبُدُونَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ لبيانِ استمرارِهم على كفرِهم وعبادتِهم للأصنامِ والأوثانِ، والإشعارِ بأنَّ ذلكَ دَيْدَنٌ لهؤلاءِ القومِ لا ينقطعونَ عنهُ بحالٍ، وفي هذا دليل على أن قومَ الفِتْيةِ قد أُشرِبوا في قلوبِهم عبادةَ الأصنامِ.

احتمالُ الاستثناءِ الاتصال أو الانفصال أو بمعنى غير

دلالةُ الاستثناءِ في الآيةِ الكريمة:

يَحْتَمِلُ الاستثناءُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ثلاثةَ أوجهٍ:

الأوَّلُ: أنْ يكونَ منقطعاً، ويكون المعنى أنَّ الكفّارُ الذينَ فرَّ أهلُ الكهفِ منهم لا يعرفونَ اللّهَ، ولا علمَ لهُم بهِ، وإنَّما يعتقدونَ الأُلوهيَّةَ في أصنامِهم فقطْ.

والثاني: أنْ يكون متصلاً، والمراد أنهم كانوا يعرفونَ اللّهَ ويُعظِّمونَهُ كما كانَتْ تفعلُ العربُ بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، لكنَّهم يُشرِكونَ أصنامَهم معَهُ في العبادةِ[2].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 275، والسمين، الدر المصون: 7/ 454.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 501، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 211، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 210.

والثالثُ: أنَّ ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (غير)، مِنْ غيرِ تقحُّمٍ في المتَّصلِ أوِ المنقطعِ، ومِنْ غيرِ ادِّعاءٍ لا دليلَ عليهِ؛ وهو أنَّهم كانوا يعبدونَ معَ اللّهِ غيرَهُ؛ فإنَّ ذلكَ يحتاجُ إلى سندٍ تاريخيٍّ، كما هو ثابتٌ عندَ العربِ[1].

سرُّ التعبيرِ بلفظِ الجلالةِ في الآية:

التـمـسك بالتوحيد ونبذ الشرك

ولمّا كانَ سياقُ الآيةِ للحديثِ عنِ التمسُّكِ بالتوحيدِ والإيمانِ، ونبذِ الشِّركِ وعبادةِ الأوثانِ - ناسبَ ذلكَ الإتيانُ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الدالِّ على واجبِ الوجودِ، الذي لهُ صفاتُ الكمالِ، المستحِقِّ للعِبادةِ[2]؛ ليقعَ في ذِهنِ السّامعِ تقابلٌ بينَ اعتزالِ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ، وإيقاعِ العبادةِ لمستحِقِّها.

معنى الفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾:

للتَّفريع على الجملة قبلها، أو مضمَّنة معنى الشَّرطِ

آثر التعبيرُ القرآنيُّ الإتيانَ بالفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾، وذلك لتعدد معانيها:

فيَحْتَمِلُ أن تكونَ الفاءُ للتَّفريعِ على جملة ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ باعتبارِ إفادتِها معنى: اعتزلتُم دينَهم اعتزالًا اعتقاديًّا، فيُقدَّرُ بعدَها جملةٌ؛ نحوُ: اعتزِلوهم اعتزالَ مفارقةٍ فَأْووا إلى الكهفِ، أو يُقدَّرُ: وإذِ اعتزلتُم دينَهم يُعذِّبونَكم فَأْووا إلى الكهفِ، وعلى هذا يكونُ ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ على حقيقتِهِ[3].

وقيلَ: ﴿وَإِذِ﴾ مضمَّنةٌ معنى الشَّرطِ، وجوابُها: ﴿فَأۡوُۥٓاْ﴾؛ كما يقالُ: (إذْ أذنبتَ فاستغفرِ اللّهَ وتُبْ إليهِ)[4]، وعلى هذا يتعيَّنُ أنْ يكونَ ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ مُستعمَلًا في إرادةِ الاعتزالِ[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4503.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 24.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 276.
(4) الفراء، معاني القرآن: 2/ 136، وابن جرير، جامع البيان: 17/ 617.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 276.

دلالةُ الأمرِ في فعل الإيواء:

النُّصح والمَشورة

جاء التعبير بالأمر في قوله تعالى: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ على معنى النصح والمشورة وليس على الحقيقة؛ لأن السياق يدل على ذلك، حيث صدر ذلك من الفِتْيةِ عندما علموا أنَّ قومَهم مُصِرّونَ على كفرهم، وأَيِسوا بعدَ المراجعة مِنْ رجوعِهم عن غَيِّهم وباطلِهم إلى الحقِّ والتوحيدِ قالَ بعضُهم لبعضٍ على سبيلِ النُّصحِ والمَشورةِ الصّائبةِ: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾[1].

سرُّ إيثارِ الفعلِ ﴿فَأْوُۥٓاْ﴾ على غيرِه:

لجمعه بين الإيواء والكفاية

آثر القرآنُ التعبيرَ بالإيواء في قوله تعالى: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾، وذلك لما يحمله هذا اللفظ من معنى يتناسب والسياق القرآني؛ فهو يدلُّ على الملاذ والملجأ والحماية، وهذا هو المناسب للسياق في حديث فتية الكهف عندما قال بعضُهم لبعضٍ: إذ فارَقْنا الكفّارَ، وانفرَدْنا باللّهِ تعالى - فلنجعلِ الكَهْفَ مأوًى لنا، ونتَّكلْ على اللّهِ تعالى؛ فإنَّهُ سيَبسُطُ لنا رحمتَهُ، ويَنشُرُها علَيْنا[2]، وفيه دفعٌ لما قد يعترضُهم مِنْ وساوسِ الشَّيطانِ؛ مِنْ أنَّهم يفارقونَ قومَهم إلى مكانٍ وليسَ معَهم شرابٌ ولا طعامٌ؛ فيُهلِكونَ أنفُسَهم[3]؛ فيكونُ في اختيارِ التعبيرِ بالفعلِ ﴿فَأْوُۥٓاْ﴾ الدالِّ على جعلِهم الكَهْفَ مأوًى لهم إشارةٌ إلى أنَّهم يريدونَ اعتزالَ قومِهم فترةً ليسَتْ باليسيرةِ، وأنَّهم مع ذلكَ واثقونَ بإمدادِ اللّه تعالى لهم بما يحتاجونَ إليه خلالَ هذهِ الفترةِ الطويلةِ.

وفيه إشارة إلى شدة تمسكهم بدينهم، حيث عزموا على ترك الملذات وما هم فيه من سبل النعيم، ورضوا بدلًا من ذلك بالإيواء إلى الكهف.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 276.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 502.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 145.

نكتةُ التعبير بـ ﴿إِلَى﴾ دون اللام في قوله: ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾:

الإيـواء إلى الكهف غاية ينتهي إليها أمر فرار الفتية

آثر القرآنُ التعبير بـ ﴿إِلَى﴾ دون اللام في قوله تعالى: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾؛ لأن الإيواء إلى الكهف غاية ينتهي إليها أمرهم؛ لأنهم طورِدوا من قومهم حتى آووا إلى الكهف، بخلاف التعبير باللام الذي يدل على الاختصاص، ويكون المعنى أنهم اختصوا الكهف بالإيواء لذات الكهف، وهذا غير مراد؛ لأنهم آووا إلى الكهف خشية أن يُفْتَنوا في دينهم.

دلالةُ تعريفِ في قولِه: ﴿ٱلْكَهْفِ﴾:

احتمالُ العهدية والجنسية

يجوزُ أنْ يكونَ تعريفُ ﴿ٱلْكَهْفِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ تعريفَ العهدِ؛ بأنْ كانَ الكهفُ معهودًا عندَهم يتعبَّدونَ فيهِ مِنْ قبلُ، أي: فأْووا وانصرفوا إلى الكهفِ المعهودِ ملتجِئينَ إلى ربِّكم مِنْ خوفِ عدوِّكم متوكِّلينَ عليهِ في رزقِكم ومَعاشِكم[1]، ويجوزُ أنْ يكونَ للجنس، والمعنى: فأْووا إلى كهفٍ مِنَ الكُهوفِ[2].

سر التعبير بالكهف دون الغار:

الكهف المكان المتَّسع داخل الجبل، ولا يطلق إلا على الغار في الجبل

آثر القرآنُ التعبير بالكهف في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ دون الغار؛ لوجود فرق بينهما، فالكهف لا يطلق إلا على الغار في الجبل وجمعه كهوف، بخلاف الغار فيطلق على المكان المنهبط من الأرض، وعلى الغار في الجبل؛ فهو أعم من الكهف، قال تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ [التوبة: 57][3].

وأيضاً؛ لأن الكهف يطلق على المكان المتِّسع داخل الجبل؛ فإن لم يتسع فيطلق على الغار.

(1) علوان، الفواتح الإلهية: 1/ 473.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 277.
(3) الراغب الأصفهاني، المفردات: (غور، كهف).

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ المجزومِ ﴿يَنشُرۡ﴾:

مَنْ قويَ رجاؤُهُ في الله وثِقَ بحصول مطلوبه

آثر القرآن الكريم التعبيرَ بالفعلِ المضارعِ المجزوم ﴿يَنشُرۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾؛ للدلالة على شدة ثقتهم بلطف ربهم، وظهر أثر ذلك بالرَّبطِ على قلوبهم المذكورِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [الكهف: 14]؛ بما عَلِموا مِنْ قُدرتِهِ تعالى على كلِّ شيءٍ، وحمايتِهِ مَنْ لاذَ بِهِ ولجأَ إليه، وعبدَهُ وتوكَّلَ عليهِ[1].

وفيه إشارة إلى تجدُّدِ فضل اللّٰه عليهم ورحمتِه بهم، مناسبة لطول المدة التي لبثوها في الكهف.

التعبير بصيغة النَّشر في قوله: ﴿يَنشُرۡ﴾:

حسن ظن أصحاب الكهف بربهم

آثر القرآن الكريم التعبير عن مطلب فتية أصحاب الكهف بصورة الوثوق لحصول ما يريدون بصيغة النَّشر دون غيره؛ وذلك لصِدقِ إيمانِ الفِتْيَةِ وحُسْنِ ظنِّهم بربِّهم ﷻ الذي لا حدودَ لهما، ولشدَّةِ ثقتِهم بلُطْفِ ربِّهم بهم ويقينهم به؛ فساقوا مطلوبَهم مَساقَ الحاصلِ الواقعِ[2]، وهو بسط من اللّٰه تعالى فيه معنى الامتداد والسطوع والشمول، الدالّ على ظِلالِ السَّعَةِ والبُحبوحةِ متلوَّةً بالرحمةِ التي وسعَتْ كلَّ شيءٍ.

بلاغةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَنشُرۡ﴾:

ذهابُ نفسِ السّامعِ في تقديرِهِ كلَّ مذهبٍ

لَمّا كانَ صِدقُ إيمانِ الفِتْيَةِ وحُسْنُ ظنِّهم بربِّهم ﷻ بالغًا الغاية حُذِفَ مفعولُ الفعلِ ﴿يَنشُرۡ﴾ في قولِهم: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، فلم يُقَل مثلًا: (يَنشُرْ لكُم الخيرَ)[3]؛ لتذهبَ نفسُ السّامعِ في تقديرِهِ كلَّ مذهبٍ ممكنٍ، وتتخيَّلَ ما شاءَتْ مِنَ الخيرِ والنّورِ والعطايا والمِنَحِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 24.
(2) أبو حيان البحر المحيط: 7/ 150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 277.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 211.

براعةُ الاستعارةِ في: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ﴾:

تصوير المعقول بالمحسوس

تظهر بلاغة الاستعارة في قوله تعالى على لسان الفتية: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، إذ شُبِّهَ تعليقُ الصفة المتكرِّرُ بنَشْرِ الثَّوب في أنَّهُ لا يُبقي مِنَ الثَّوبِ شيئًا مَخْفيًّا[1]، فإذا الكهفُ فضاءٌ فسيحٌ رَحيبٌ تنتشرُ فيهِ الرَّحمةُ، وتتَّسعُ خُيوطُها، وتمتدُّ ظِلالُها، وتشملُهم بالرِّفقِ واللِّينِ والرَّخاءِ، ومَنْ ترك شيئًا للّٰهِ عوَّضَهُ اللّٰهُ خيرًا منهُ.

دلالة تعلق النشر بالرحمة:

توفُّرُ تعلُّقِها بالمرحومينَ الفارّين إلى الله

تعلق الفعل ﴿يَنشُرۡ﴾ بالرحمة في قوله: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾؛ لأن الضّيقَ يقابلُهُ البَسْطُ والسَّعَةُ، ولذلكَ قالَ الفِتيةُ وهم واثقونَ برحمةِ اللّٰهِ، معتقدونَ أنَّ الَّذي هاجروا إليهِ لن يُسلِمَهم ولن يَخذُلَهم، وسوفَ يوسِّعُ عليهم برحمتِهِ هذا الضّيقَ[2]، فالمراد بتعلق النَّشْرِ بالرَّحمةِ: توفُّرُ تعلُّقِها بالمرحومينَ.

علَّةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَكُمۡ﴾ في الموضعينِ:

العِنايةُ بالمقدَّمِ والتشويقُ للمؤخَّرِ

قدَّم القرآن الكريم الجارَّ والمجرورَ ﴿لَكُمۡ﴾ مرَّتينِ - في مقام النَّشر والتهيئة - في قول الفتية المؤمنة: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾؛ إيذانًا مِنْ أوّلِ الأمرِ بكونِ المؤخَّرِ مِنْ منافعِهم - إذ معنى ﴿لَكُمۡ﴾: لأجلِكم - والتشويقِ إلى وُرودِه[3]، وإفادةِ الاختصاصِ[4] بالفتية الذين تضرعوا إلى اللّٰه تعالى بأن يبسط لهم ويوسع عليهم من رحمته في الدارين، فكان التقديم بمثابة الإعلان عن قبول مطلوبهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 277، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4503.

(2) الشعراوي، خواطر: 14/ 8856.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 211، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 211، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4503.

(4) صديق خان، فتح البيان: 8/ 21.

سرُّ التَّعبير بالربوبية دون الألوهية:

طلبِ الرِّعايةِ والإحسانِ

في تعبيرِ الفتيةِ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهم: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ - دونَ أنْ يقولوا: (يَنْشُرْ لكُم اللّهُ) - إشارةٌ إلى أنَّهم حينَ تركوا سَعَةَ الدُّنيا وزينتَها ملتجِئينَ إلى الكهفِ المُظلِم الضيِّقِ قد استنَدوا إلى مالكِ أمرِهم الَّذي لم يزلْ يُحسِنُ إليهم[1]؛ لأنَّ لفظَ الرَّبِّ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ يُشيرُ إلى التربيةِ والتنميةِ شيئًا فشيئًا، وهو مناسبٌ لسياقِ طلبِ الرِّعايةِ والإحسانِ، وسياقِ الوُثوقِ بالكَلاءَةِ والحفظِ.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿رَبُّكُم﴾:

دلَّتِ الإضافة في قوله تعالى: ﴿رَبُّكُم﴾ على تشريفهم وعلو مكانتهم وشدة صلتهم بربهم.

وجهُ التعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾:

منشأُ السعة لرحمته تفضُّلُه سبحانَهُ

دَلَّ التعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قولِ الفِتْيَةِ: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ على ابتداء الرحمة منه سبحانه تفضُّلًا وتكرُّمًا على أصحاب الكهف، وفي هذا هَضْمٌ مِنَ الفِتْيَةِ لأنفُسِهم، وإسنادٌ للنِّعَمِ والهِباتِ إلى مالكِها وواهبِها ﷻ، وتعليمٌ للعِبادِ بأنَّ استحقاقَ الجزاءِ برحمةِ اللّهِ وفضلِهِ لا بسَعْيِ العبدِ وعملِه، والعبدُ الفَطِنُ يتعلَّقُ بالمعبودِ لا بالعِبادةِ.

ويجوز أن تكون ﴿مِّن﴾ تبعيضية، ويكون المعنى: وينشر لكم من بعض رحمته؛ لأن اللّه ﷻ لا حدود لرحمته لا كمًّا ولا كيفًا، وما يتعامل به الخلق هو جزء من الرحمة، ولا سيما أنَّ الأمر يتعلق بالفتية في الإيواء إلى الكهف.

سرُّ إيثارِ لفظِ (الرَّحمةِ) في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾:

لمّا أسلمَ الفِتْيَةُ أمرَهم للّهِ ﷻ، وتبرَّؤوا مِنْ حَوْلِهم وقوَّتِهم، ولجَؤوا إلى حَوْلِ اللّهِ وقوَّتِه، وقَوِيَ رجاؤُهم بحصولِ مطلوبِهم؛ وهو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 24.

سلامةُ دينِهم، وسلامةُ دُنياهم ببَسْطِ الخيرِ لهم وتهيئةِ ما ينتفعونَ به، وأسنَدوا فِعْلَ ذلكَ كلِّهِ إلى مالكِهم ومُربّيهم - عقَّبوا ببيانِ أنَّ منشأَ ذلكَ هو رحمتُهُ تعالى، فقالوا: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾[1]، ولم يقولوا مثلًا: (مِنْ فضلِه)، أو (مِنْ بركتِه)؛ لأن لفظ الرحمة لفظ عامٌّ وإطلاقاته في القرآن عديدة؛ فيطلق على الرزق، وعلى النصر، وعلى الفتح، وعلى العافية والتوفيق، إلى غير ذلك من المعاني التي ذكرها العلماء في المراد بالرحمة، وكلها مناسبة لسياق أصحاب الكهف في مكثهم وفى هجرتهم إلى الله، ولا يؤدي هذه المعاني إلا التعبير بلفظ الرحمة[2].

الرَّحمةِ من آثار الرُّبوبيَّةِ

نكتةُ إضافةِ الرَّحمةِ إليهِ تعالى:

أُضيفَتِ الرَّحمةُ إلى الرَّبِّ تنزَّهَ وتقدَّسَ في قولِ الفِتْيةِ: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾؛ تأكيدًا لعِظَم شأنِها وفخامةِ أمرِها؛ بأنَّها الرَّحمةُ الصادرةُ عن مالكِ أمرِ العبادِ ومُغذّيهم بالنِّعَم السّابغةِ التي لا تنقطعُ عنهُم طرفةَ عَيْنٍ، وفي ذلكَ بَعْثٌ للطُّمأنينةِ والسَّكينةِ في نُفوسِ الفِتْيةِ الَّذينَ تركوا الدُّنيا وزينتَها ومَطاعمَها ومَشاربَها ولذّاتِها، وانقطعوا للحيِّ القيّومِ ربِّ العالمينَ، ولا يَضيعُ مَنْ كانَ في كَنَفِ الرَّحمةِ وظِلالِ الرُّبوبيَّةِ.

تفخيمُ شأنِ الرَّحمةِ وتعظيمُ أمرِها

معنى الواوِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَيُهَيِّئۡ﴾:

دَلَّ التعبير بالواو في قوله تعالى: ﴿وَيُهَيِّئۡ﴾ على أن الفتية لم يقتصروا في رجائِهم على طلبِ بَسْطِ الأمنِ ونحوِ ذلكَ مِنْ وُجوهِ الخيرِ الواسعةِ في قولِهم: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، بل ضمّوا إليهِ على سبيلِ العطفِ رجاءَ تهيئةِ أسبابِ ما ينتفعونَ بهِ وهم في حالِ الضّيقِ والحاجةِ، فقالوا: ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾.

جمعُ تهيئةِ أسبابِ الانتفاعِ وبَسْطِ وُجوهِ الخيرِ

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 12/ 30.
(2) الدامغاني، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: (رحم).

سر التعبير بالتهيئة دون غيره:

التهيئةُ فيها معنى الإصلاح مع الإعداد

آثر القرآن الكريم التعبير بالتهيئة في قوله: ﴿وَيُهَيِّئْ﴾ دون الإعداد بأن يقول: (ويُعِدَّ لكم)؛ لأن التهيئة فيها معنى الإصلاح مع الإعداد، وهذا هو المناسب لحال أصحاب الكهف في لبثهم وإقامتهم فيه لهذه المدة الطويلة التى قد يطرأ عنها فساد أو عطب في أجسادهم؛ فكان التعبير بالتهيئة هو المناسب لتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال، وحركة الشمس عند طلوعها وعند غروبها.

دلالة التعبير بالمضارع ﴿وَيُهَيِّئْ﴾:

دلّ التعبير بالمضارع ﴿وَيُهَيِّئْ﴾ على تجدُّدِ التهيئة والإصلاح لأصحاب الكهف مع طول مقامهم، وفي هذا دليل على مزيد العناية والرعاية.

فائدةُ تكرارِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَكُم﴾:

مزيدُ العناية بحصول مطلوبهم وتثبيتِ نفوسِهم

كُرِّرَ شِبْهُ الجملةِ ﴿لَكُم﴾ مرَّتينِ في قولِه تعالى: ﴿يَنشُرْ لَكُم رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾؛ لِما يترتَّبُ على التكرارِ مِنْ مزيدِ العنايةِ بحصولِ المطلوبِ - وهو بَسْطُ الخيرِ وتهيئةُ ما ينتفعونَ بهِ - لهم، ومزيدِ التثبيتِ لنفوسِهم على ما عزمَتْ عليهِ مِنَ الأويِّ إلى الكهفِ.

نكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿مِّنْ أَمْرِكُم﴾ على المفعول:

العنايةُ والتشويقُ ومراعاةُ الفاصلةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنْ أَمْرِكُم﴾ على المفعول به ﴿مِّرْفَقًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾؛ للعنايةِ بالمقدَّم؛ وهو أمرُهم الذي يريدونَ أنْ يُهيَّأَ منهُ ما ينتفعونَ بهِ، وللتشويقِ إلى المؤخَّرِ؛ وهو المِرْفَقُ، إضافةً إلى ما يترتَّبُ على هذا التَّقديمِ مِنْ مراعاةِ الفاصلةِ.

علةُ اختيارِ لفظِ ﴿مِّرْفَقًا﴾ دونَ غيرِه:

اختار القرآن لفظَ المِرْفَقِ في فاصلةِ الآيةِ، في قول الله: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾، ولم يَقُلْ مثلًا: (ويُهيِّئْ لكم مِنْ أمرِكم

مُعينًا)؛ لأنَّ لفظَ المِرْفَقِ عامٌّ يشملُ كلَّ وجوهِ الانتفاعِ والارتفاقِ، فيكونُ أنسبَ بقولِه: ﴿مِّنۡ أَمۡرِكُم﴾؛ لأنَّ الأمرَ عامٌّ أيضًا، وهذا العمومُ يتلاءَمُ معَ مقامِ الافتقارِ والالتجاءِ الذي كانَ عليهِ هؤلاءِ الفتيةُ؛ فقد فوَّضوا شأنَهم كلَّهُ للّهِ تعالى في كل ما يحتاجون إليه في الدارين.

تناسبُ اللَّفظِ معَ مقامِ الافتقارِ والالتجاءِ

دلالةُ صيغةِ (مِفْعَلٍ) في قولِهِ تعالى: ﴿مِّرۡفَقٗا﴾:

صيغةُ (مِفْعَلٍ) مِنْ صيَغِ اسمِ الآلةِ، فيكونُ ﴿مِّرۡفَقٗا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ اسمَ آلةٍ لما يُرتفَقُ به، أي: يُنتفَعُ به، مِنَ الرِّفقِ بمعنى النَّفعِ، لا مِنَ الرِّفقِ الَّذي هو ضدُّ الخُشونةِ[1]، ويجوزُ أنْ يكونَ اسمًا مِنَ الرِّفقِ بمعنى النَّفعِ أيضًا؛ كالدِّرهمِ[2].

شمول كل ما ينتفع به أو يساعد على النفع

نكتةُ تنكيرِ ﴿مِّرۡفَقٗا﴾:

لمّا صدرَ كلامُ الفِتْيةِ عن نُفوسٍ غمرَها اليقينُ بحصولِ المأمولِ مِنَ اللّهِ تعالى نكَّروا ﴿مِّرۡفَقٗا﴾ في قولِهم: ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾؛ تفخيمًا لشأنِهِ وتعظيمًا؛ لأنَّهُ صادرٌ عمَّنْ لا حدودَ لفضلِهِ.

التَّفخيمِ والتَّعظيمِ

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾:

استُعيرَتْ تهيئةُ المِرْفَقِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ للإكرامِ بهِ والعِنايةِ، تشبيهًا بتهيئةِ القِرى للضَّيفِ المُعتنى بهِ[3]، وعلى هذا تكونُ الاستعارةُ تصريحيَّةً تبعيَّةً.

تشبيهُ ما جعله الله من التيسير والتسهيل بتهيئةِ القِرى للضَّيفِ

ويجوزُ أنْ تكونَ مكنيَّةً؛ بأنْ شُبِّهَ المِرْفَقُ بالقِرى الذي يُعَدُّ للضَّيفِ المُعتنى بهِ، ثمَّ حُذفَ المشبَّهُ بهِ؛ وهو القِرى، وأُبقيَ على شيءٍ مِنْ لوازمِهِ - وهو التَّهيئةُ - على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ.

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 31.
(2) النيسابوري، إيجاز البيان: 2/ 515.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 277.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الاعتزال والمفارقة والهِجْران:

الهِجْرانُ أعمُّ، والمفارقةُ غالبةٌ في الأبدانِ، والاعتزالُ فيهِ انفرادٌ عن المخالطةِ

تشتركُ الكلماتُ الثلاثُ في أنَّ فيها مباينةَ شيءٍ ومتاركتَهُ، ثمَّ يُلحَظُ ما يأتي:

الاعتزالُ تارةً يكونُ في الظّاهرِ كالاعتزالِ بالبدنِ، وتارةً يكونُ في الباطنِ كالاعتزالِ في الاعتقادِ[1]، والاعتزالُ أيضًا: التَّباعدُ والانفرادُ عن مخالطةِ الشَّيءِ[2].

والمفارقةُ تكونُ بالأبدانِ أكثرَ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ﴾ [الكهف: 78][3].

والهَجْرُ والهِجْرانُ: إمّا بالبدنِ، أو باللِّسانِ، أو بالقلبِ، فقولُهُ تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34] كنايةٌ عن عدمِ قُرْبِهنَّ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ٣٠﴾ [الفرقان: 30] هذا هَجْرٌ بالقلبِ، أو بالقلبِ واللِّسانِ، وقولُهُ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ٥﴾ [المدثر: 5] حثٌّ على المفارقةِ بالوجوهِ كلِّها[4].

والحاصلُ: أنَّ الهِجرانَ أعمُّ مِنَ الاعتزالِ والمفارقةِ؛ لأنَّهُ يشملُ المتاركةَ بالبدنِ واللِّسانِ والقلبِ، وهما يختصّانِ بالمتاركةِ بالبدنِ والقلبِ، ويغلبُ استعمالُ المفارقةِ في الأبدانِ، وينفردُ الاعتزالُ بما فيهِ مِنَ الإشارةِ إلى معنى الانفرادِ عن مخالطةِ الشيءِ.

(أوى) و(لجأ) و(لاذ):

الأويُّ إلى الشَّيءِ: الانضمامُ إليهِ واتِّخاذُهُ مأوًى؛ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: 10]، وقولِهِ: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ [هود:

---

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (عزل).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 276.

(3) الراغب، المفردات: (فرق).

(4) الراغب، المفردات: (هجر).

43]، وآواهُ غيرُهُ يُؤْوِيهِ إيواءً إذا ضمَّهُ إليهِ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يوسف: 69][1].

اللَّوذُ واللُّجوءُ فيهما معنى طلبِ النُّصرةِ

والالتجاءُ واللُّجوءُ إلى الشَّيءِ: الاستنادُ إليهِ والاعتضادُ بهِ، ويقالُ: ألجأَ فلانًا، أي: عصمَهُ، ويقالُ: ألجأتُ فلانًا إلى الشَّيءِ إذا حصَّنتُهُ في ملجأٍ، واللَّجَأُ والمَلْجَأُ: المَعْقِلُ والمَلاذُ[2].

واللَّوْذُ بالشَّيءِ: الاستتارُ والتحصُّنُ بهِ، يقالُ: لاذَ بهِ إذا عاذَ بهِ، والمَلاذُ: المَلْجَأُ والحِصْنُ[3].

ويُلحَظُ من تتبُّعِ معاني هذهِ الكلماتِ - مع تقاربِها الشَّديدِ - أنَّ اللَّوذَ واللُّجوءَ فيهما معنى طلبِ النُّصرةِ ونحوِ ذلكَ مِنَ الشيءِ الَّذي يُلاذُ بهِ أو يُلجَأُ إليهِ.

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أوى).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (لجأ).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (لوذ).

﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [الكهف: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإشارةُ إلى تحقيقِ رجائِهم في ربِّهم بعدَ الأويِّ إلى الكهفِ

لمّا ذكرت الآية السابقة قول بعض الفتية لبعضهم ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ الآية، جاءت هذه الآية لتبيِّن حالَهم بعد أن آووا إلى الكهف وتحقق رَجاؤُهُم في ربهم بما هَيَّأَهُ لهم في أمرهم من إسعادهم والحفاظ عليهم من عوامل التغير بتسخير الشمس لهم وتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال، وكل ذلك من باب الجزاء لهم على هدايتهم ولطف اللّٰه بهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَّزَٰوَرُ﴾: (زور) "أصلٌ واحدٌ يدلُّ على المَيْلِ والعُدولِ، مِنْ ذلكَ: الزّورُ: الكذبُ؛ لأنَّهُ مائلٌ عن طريقةِ الحقِّ"[1]، والزّورُ أيضًا: كلُّ شيءٍ يُتَّخذُ ربًّا ويُعبَدُ مِنْ دونِ اللّٰهِ[2]، والزَّوَرُ: وسطُ الصَّدرِ، أو أعلاهُ - وهو ما ارتفعَ منهُ إلى الكتفينِ - أو هو مُلتقى أطرافِ عظامِ الصَّدرِ حيثُ اجتمعَتْ[3]، وقد يقالُ: رجلٌ زَوَرٌ، فيكونُ مصدرًا موصوفًا به، والأزورُ: المائلُ الزَّوَرِ[4]، ومعنى قولِهِ تعالى: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾، أي: تميلُ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زور).
(2) الجوهري، الصحاح: (زور).
(3) الزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (زور).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (زور).
(5) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ص: 395، وابن جرير، جامع البيان: 17/ 619.

2) ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾: اليمينُ: ضدُّ اليسارِ، والجهةُ اليُمنى: هي التي تبدأُ مِنْ جانبِ شِقِّكَ الأيمنِ أو يدِكَ اليُمنى مُبتعِدةً على استقامةِ جانبِكَ إلى ما شاءَ اللّهُ[1]، والمرادُ بـ ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾: الجهةُ صاحبةُ اليمينِ أي: الجهةُ اليُمنى[2].

3) ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾: الشمال: المقابل لليمين، قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧﴾ [ق: 17]، والمراد بذات الشمال الجهة التي تبدأ من شقك الأيسر أو يدك اليسرى.

4) ﴿تَّقۡرِضُهُمۡ﴾: (قرض) "أصلٌ صحيحٌ، وهو يدلُّ على القَطْعِ"[3]، ومنهُ: قَرَضَ الفأرُ الثَّوبَ، والقَرْضُ: الدَّينُ المعروفُ؛ وهو إعطاءُ الشَّيءِ وردُّ بدلِه صورةً، وأقرضَهُ: أعطاهُ قَرْضًا، واستقرضَهُ: سألَهُ القَرْضَ[4]، ويقالُ: قَرَضَ في سَيْرِهِ يَقْرِضُ قَرْضًا: عَدَلَ يَمنةً ويَسْرةً[5]، فسُمّيَ قطعُ المكانِ وتجاوزُهُ قَرْضًا مَجازًا واتِّساعًا[6]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: تقطعُهم وتُجاوزُ مكانَهم إلى أحدِ الجانبينِ[7]، أي: أنَّها لا تَطلُعُ في كهفِهم[8].

5) ﴿فَجۡوَةٖ﴾: (فجو) يدلُّ على اتِّساعٍ في شيءٍ[9]؛ فالفَجْوةُ: المتَّسَعُ بينَ شيئَين، وفَجْوةُ الدّارِ: ساحتُها، والفَجا: تباعدُ ما بينَ الفَخِذينِ، أو ما بينَ الرُّكبتينِ، أو ما بينَ السّاقينِ[10]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ﴾ أي: ساحةٍ واسعةٍ[11]، يعني: بحيثُ لم يكونوا قريبينَ مِنْ فم الكهفِ[12].

6) ﴿يَهۡدِ﴾: (هدى) "أصلانِ: أحدُهما: التَّقدُّمُ للإرشادِ، والآخرُ: بعثةُ لُطفٍ، فالأوَّلُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (يمن).
(2) الواحدي، البسيط: 13/ 550، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 443، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم: (يمن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرض).
(4) السمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (قرض).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (قرض).
(6) الراغب، المفردات، ومعجم ألفاظ القرآن: (قرض).
(7) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 273، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 224، والسَّمرقندي، بحر العلوم: 2/ 340.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 278.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فجو).
(10) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (فجو).
(11) الفراء، معاني القرآن: 2/ 137، والراغب، المفردات: (فجو).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 279.

قولُهم: هديتُهُ الطَّريقَ هدايةً، أي: تقدَّمتُهُ لأُرشدَهُ"[1]، والهدايةُ: دلالةٌ بلُطفٍ، ومنهُ: هَوادي الوحْشِ أي: متقدِّماتُها الهاديةُ لغيرِها[2].

وهدايةُ اللّهِ تعالى للإنسانِ على أربعةِ أوجهٍ؛ الأوَّلُ: الهدايةُ التي عمَّ بجنسِها كلَّ مكلَّفٍ؛ مِنَ العقلِ والفِطْنةِ والمعارفِ الضَّروريَّةِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50]، والثّاني: الهدايةُ التي جعلَ للنّاسِ بدعائِهِ إيّاهم على ألسنةِ الأنبياءِ، وإنزالِ القرآنِ، ونحوِ ذلكَ، وهو المقصودُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: 73]، والثّالثُ: التَّوفيقُ الذي يختصُّ بهِ مَنِ اهتدى، وهو المعنيُّ بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد ﷺ: 17]، والرّابعُ: الهدايةُ في الآخرةِ إلى الجنَّةِ، وهو المعنيُّ بقولِهِ: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ [محمد ﷺ: 5][3].

وهذه الهدايات الأربع مترتبة فمن لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث التي قبلها[4].

ومعنى ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾: مَنْ يُرشِدْ إلى الإيمانِ، ويوفِّقْ إليهِ[5].

7) ﴿يُضْلِلْ﴾: الضَّلالُ في الأصلِ: إمّا العُدولُ عنِ الطَّريقِ المستقيمِ، وإمّا الضَّياعُ، والأوَّلُ يقابلُهُ الهدايةُ، والثّاني يقابلُهُ الوُجْدانُ، والضَّلالُ يقالُ لكلِّ عُدولٍ عنِ المنهجِ عمدًا كانَ أو سهوًا، يسيرًا كانَ أو كثيرًا[6]، ويقالُ: ضلَّ الكافرُ إذا غابَ عنِ الحُجَّةِ[7].

والإضلالُ ضربانِ: أحدُهما: أنْ يكونَ سببُهُ الضَّلالَ، وذلكَ على وجهينِ: إمّا بأنْ يَضِلَّ عنكَ الشَّيءُ؛ كقولِكَ: (أضللتُ البعيرَ)، أي: ضلَّ عنّي، وإمّا أنْ تحكمَ بضلالِهِ، والضَّربُ الثّاني: أنْ يكونَ الإضلالُ سببًا للضَّلالِ، وهو أنْ يُزيِّنَ للإنسانِ الباطلَ ليَضِلَّ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(2) السمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (هدي).
(3) الراغب، المفردات: (هدي).
(4) الراغب، المفردات: (هدي).
(5) معجم ألفاظ القرآن الكريم: (هدي).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (ضلل).
(7) الزبيدي، تاج العروس: (ضلل).

113]، أي: يتحرَّونَ أفعالًا يقصدونَ بها أنْ تَضِلَّ، فلا يحصلُ مِنْ فعلِهم ذلكَ إلَّا ما فيهِ ضلالُ أنفسِهم[1].

ومعنى (أضلَّهُ): جعلَهُ لا يهتدي، وأحدثَ بِهِ الضَّلالَ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[2].

8) ﴿وَلِيًّا﴾: (ولي) "أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قُرْبٍ، مِنْ ذلكَ: الولْيُ: القُرْبُ، يقالُ: تباعدَ بعدَ ولْيٍ، أي: قُرْبٍ، وجلسَ ممّا يَلِيني، أي: يُقارِبُني"[3]، ومن الباب: المَوْلَى، ولهُ معانٍ؛ منها: الصّاحبُ، والحليفُ، وابنُ العمِّ، والنّاصرُ، والجارُ، وكلُّ مَنْ وليَ أمرَ آخرَ فهو وليُّهُ[4]، والوليُّ لهُ معانٍ كثيرةٌ أيضًا؛ منها: المُحِبُّ، وهو ضدُّ العدوِّ، اسمٌ مِنْ والاهُ إذا أحبَّهُ، ومنها: الصَّديقُ، ومنها: النَّصيرُ، مِنْ والاهُ إذا نصرَهُ، والوليُّ في أسماءِ اللّهِ تعالى هو النّاصرُ، وقيلَ: المتولّي لأمورِ العالمِ القائمُ بها[5].

وولاية اللّه على نوعين: ولاية خاصة لأوليائه المتقين يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، والإيمان، وينصرهم على عدوهم، ويصلح لهم أمور دنياهم، ودينهم، وولاية عامة، وهي ولاية الخلق، والتدبير الشاملة للخلق كافة، للبَرِّ، والفاجر، والمؤمن، والكافر[6].

9) ﴿مُّرْشِدًا﴾: (رشد) "أصلٌ واحدٌ يدلُّ على استقامةِ الطَّريقِ"[7]، والرُّشْدُ: ضدُّ الغَيِّ؛ فالرُّشْدُ: الهدايةُ، والغَيُّ: الضَّلالُ، قالَ تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: 256][8]، وأرشدَهُ اللّهُ ورشَّدَهُ: هداهُ[9]، ومعنى قولِهِ تعالى: ﴿مُّرْشِدًا﴾ أي: هاديًا[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بين اللّه ﷻ حالَ أصحاب الكهف بعد دخولهم فيه، وترى أيها الرسول - أو لكلِّ مَنْ

---

(1) الراغب، المفردات: (ضلل).
(2) معجم ألفاظ القرآن: (ضلل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ولي).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (ولي).
(6) ابن القيم، مفتاح دار السعادة: 1/ 494.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رشد).
(8) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (رشد).
(9) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (رشد).
(10) معجم ألفاظ القرآن: (رشد).

خَـرْقُ نواميسِ الـكـونِ كـرامـةً لأولياءِ اللهِ

يصلُح له الخطاب - الشمسَ إذا ظهرَ شعاعُها تنصرفُ عنهم إلى جهةِ اليمين، وإذا غابَ شعاعُها تنصرفُ عنهم إلى جهةِ الشِّمالِ، وهم في متَّسع مِنْ داخلِ الكهفِ، ولم يكونوا قريبينَ مِنْ فم الكهفِ، وكانَ فمُهُ مفتوحًا إلى الشَّمالِ الشرقيِّ، فالشمسُ إذا طلعَتْ تَطلُعُ على جانبِ الكهفِ ولا تخترقُهُ أشعَّتُها، وإذا غربَتْ كانَتْ أشعَّتُها أبعدَ عن فمِ الكهفِ منها حينَ طُلوعِها، وهذا تدبيرٌ عجيبٌ يسَّرَهُ اللّهُ لهُم بحكمتِهِ؛ ليكونَ داخلُ الكهفِ معتدلًا، فلا يصيبَ البِلى أجسادَهم، وذلكَ مِنْ علاماتِ قُدرةِ اللّهِ[1]، ومنْ يوفِّقْهُ اللّهُ تعالى إلى الاهتداءِ فهو المهتدي الكاملُ الهدايةِ، ومَنْ يَسْلُبْهُ التَّوفيقَ والإرشادَ فلنْ تجدَ لهُ ناصرًا يُعينُهُ ويهديهِ إلى ما فيهِ خيرُهُ وصلاحُهُ.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى بيانِ لطف اللّه تعالى بأوليائه بإكرامهم في هجرتهم إليه، وتقريرِ أنَّ الهداية بيد اللّه وحده، ولا سبيلَ إلى نيل الهداية إلا من اللّه؛ فهو الهادي والمرشد لمصالح الدارين، فالمهتدي من هداه اللّه، والضالُّ من أضله اللّه، وترشدُ العبدَ - ضمنًا - إلى ديمومة طلب الهداية من اللّه، والتعوذ به من الضلال؛ لأنه مالك ذلك[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سر العطف في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾:

عـطـفُ بـعـضِ أحـوالِـهـم على بعضٍ

العطف بالواو في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ على ما سبق لشدة الاتصال بينهما، وهذا ظاهر في عطفِ بعضِ أحوالِهم على بعض؛ فبعدَ ذكرِ إجماعِهم على الأويِّ إلى الكهفِ، انتُقِلَ إلى بيانِ تحقُّقِ رجائِهم في ربِّهم بما هَيَّأَهُ لهم من أسباب الانتفاع والرعاية لهم والحفاظ عليهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 278 - 279.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن: 472، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 245.

بلاغة الإيجازِ بعدَ ذكرِ الأمرِ بالأويِّ إلى الكهفِ:

ظهورُ جَرَيانِهم على موجَبِ الأمرِ، وردُّ عَجُزِ الكلامِ على صَدْرِهِ

تظهر بلاغة الإيجاز في هذه الآية باختصار المشهد وعدم سرد كل تفاصيله؛ إذ ترك ذكر أنهم آووا إلى الكهف؛ لأن ذلك مفهوم من السياق ولم يُصرَّحْ به؛ إيذانًا بعدمِ الحاجةِ إليهِ لظهورِ جَرَيانِهم على موجَبِ الأمرِ بهِ؛ لكونِهِ صادرًا عن رأيٍ صائبٍ[1]، وتعويلًا على قولِهِ تعالى في صَدْرِ القصَّةِ: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]، فرُدَّ عَجُزُ الكلامِ على صَدْرِهِ[2].

دلالة الخطاب في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾:

شدة ظهور الأمر ووضوحه

اختُلِفَ في تعيينِ المخاطَبِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾ على قولين:

أحدُهما: المخاطَبُ هو النَّبيُّ ﷺ أي: وترى يا محمَّدُ[3]، والكلامُ معَهُ ﷺ يكونُ خطابًا لأمَّتِهِ أيضًا[4].

والثّاني: الخطابُ عامٌّ لكلِّ مَنْ يتأتَّى منهُ الرُّؤيةُ، أي: وترى أنتَ أيُّها المخاطَبُ[5]، ويدخلُ فيهِ رسولُ اللّهِ ﷺ دخولًا أوَّليًّا[6]، وفي القول الثاني العمومُ، ويدلُّ على مبالغةٍ في ظُهورِ الأمرِ بحيثُ يصحُّ أنْ يراهُ كلُّ مَنْ تُمكِنُ منهُ الرُّؤيةُ[7].

بلاغةُ استعمالِ فعلِ الرُّؤيةِ دون غيره:

استعمالُ الكلامِ في لازمِ معناهُ كنايةً أو مجازًا

آثر القرآن الكريم استعمالَ فعل الرؤية دون غيره كالإبصار؛ لأن المراد لازم المعنى، ويكون التعبير من باب استعمالِ الكلامِ في

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 211، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 211.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 278.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 619، ومكي بن أبي طالب، الهداية: 6/ 4341، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 275.

(4) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 31.

(5) الواحدي، البسيط: 13/ 550، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 443، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 368.

(6) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 31.

(7) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 211.

لازمِ معناهُ كنايةً أو مجازًا، ويكون المراد بالرؤية رؤيةً فَرْضيَّةً، وهذا المعنى لازمُ معنى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾، فيكونُ كنايةً أو مجازًا[1]؛ لأنَّ مَنْ خوطِبَ بهذا يرى هذا المعنى، بل معناهُ: أنَّكَ لو رأيتَهُ لرأيتَهُ على هذهِ الصّورةِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى﴾:

استحضار صورة الشمس حول الكهف

عُبِّرَ بالفعلِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾؛ لأنَّ التعبيرَ بهِ في مِثلِ هذا الموطنِ الذي يُتحدَّثُ فيهِ عن أمرٍ مضى - يفيدُ استحضارَ الصّورةِ؛ لأنَّ المضارعَ ممّا يدلُّ على الحالِ الحاضرِ الذي مِنْ شأنِهِ أنْ يُشاهَدَ، كأنَّهُ يُستحضَرُ بلفظِ المضارعِ تلكَ الصّورةُ؛ ليشاهدَها السّامعونَ، ولا يُفعَلُ ذلكَ إلا في أمرٍ يُهتمُّ بمشاهدتِهِ[3]؛ كما نحنُ فيهِ؛ إذ هو علامةٌ مِنْ علاماتِ قُدرةِ اللّهِ ولُطفِهِ بعبادِهِ المؤمنينَ المتوكِّلينَ عليهِ، فأُريدَ استحضارُ صورةِ الشَّمسِ العجيبةِ في حالَيْ طُلوعِها وغُروبِها.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾:

إفادةُ العهدِ الذِّهنيِّ

عُرِّفَتِ الشَّمسُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾ بـ(أل) التي تدلُّ على العهدِ الذِّهنيِّ؛ لأنَّهُ إذا أُطلقَ هذا اللَّفظُ تنصرفُ الأذهانُ إلى الشَّمسِ المعهودةِ المعروفةِ التي أقامَها اللّهُ ﷻ في هذا الكونِ لمصالحَ وحِكَمٍ كثيرةٍ.

غرضُ التعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾ مع طلوع الشمس وغروبها:

تحقق طلوع الشمس وغروبها

آثر القرآنُ الكريم التعبيرَ بـ ﴿إِذَا﴾ حالتي طلوع الشمس وغروبها على الفتية المؤمنين في كهفهم دون (إن) في قوله ﷻ: ﴿إِذَا طَلَعَت﴾ و﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾؛ لأنَّ الأصلَ في استعمالِ (إذا) أنْ تدخلَ على الذي

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 31.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 443، وابن عادل، اللباب: 12/ 440، والشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 220.
(3) التفتازاني، المختصر، ص: 287.

تُيُقِّنَ وقوعُهُ أو رَجَحَ، والأصل في استعمالِ (إنْ) أنْ تدخلَ على المشكوكِ فيهِ[1]، وطُلوعُ الشَّمسِ وغُروبُها كلاهما متحقِّقٌ؛ لذلك آثر التعبير بـ ﴿إِذَا﴾ دون (إن).

سر التعبير بطلوع الشمس دون بزوغها:

الطلوعُ يطلقُ على تمام الظهور

آثر القرآنُ الكريم التعبيرَ بالطلوع دون البزوغ؛ لأن البزوغ أخص من الطلوع؛ فيطلق على أول ظهور الشمس، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ [الأنعام: 78]، والمراد عند أول أحوال طلوعها؛ أما الطلوع فيطلق على تمام الظهور، وهذا هو المناسب للسياق في حديثه عن لطف الله بأصحاب الكهف في حركة الشمس التي اكتمل ضَوْؤُها وانتشر أثر حرارتها.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في قولِه ﷻ: ﴿إِذَا طَلَعَت﴾:

الماضي أنسبُ بمقامِ القطعِ بوقوعِ الشَّرطِ

استُعملَ الفعلُ الماضي في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿إِذَا طَلَعَت﴾؛ لأنَّهُ لمَّا كانَ الأصلُ في ﴿إِذَا﴾ أنْ تُستعملَ في المقطوعِ بِهِ - وطُلوعُ الشَّمسِ مقطوعٌ بِهِ - غُلِّبَ لفظُ الماضي معَها؛ لدلالتِهِ على الوقوعِ قطعًا؛ نظرًا إلى نفسِ اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ؛ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ تقلبُ الماضيَ إلى المضارعِ.

وجهُ التعبير بالفعل ﴿تَّزَاوَرُ﴾ دون غيره:

تصويرُ حال الشمس بما يحمله من وظيفة النور

آثر القرآن الكريم التعبير بالفعل ﴿تَّزَاوَرُ﴾ دون غيره من الأفعال المقاربة الدالَّة على الميل؛ لما يحمله من معنى يناسب تصوير مشهد الشمس في علاقتها بالكهف ومن فيه؛ فالقرآن يصور حال الشمس إذا طلعت بأنها تميل عن الكهف متجهة ناحية اليمين؛ فلا تؤذيهم حرارة الشمس، ولا ينالهم منها إلا الشعاع القليل الذي يؤدي وظيفة النور بهدوء، وهذا المعنى لا يتأتى إلا من الفعل ﴿تَّزَاوَرُ﴾؛ بما يحمله من معنى الميل في حركة الشمس طلوعًا وغروبًا.

---

(1) التفتازاني، المختصر، ص: 270، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 1/ 169.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَّزَاوَرُ﴾ و﴿تَّقۡرِضُهُمۡ﴾:

التعبيرُ بالمضارع يـدلُّ على تكرُّرِ الأمـرِ، وتصوير الحدثِ

الإتيانُ بفعلِ المضارعةِ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلكَ كلَّ يومٍ[1]، وأنَّ ذلكَ كانَ شأنَ الشَّمسِ معَهم طَوالَ فترةِ لُبْثِهم في الكهفِ؛ فالشمس كأنها جزءٌ من هذا الكهف قد شغلت به عن الدنيا كلها، وجعلت مدار فَلَكِها حوله وحده كأنها مُسَخَّرَةٌ لمن هم في هذا الكهف، دون الكائنات كلها، كأنها أمٌّ حانية عليهم ترعاهم بعينيها وتُظِلُّهم بظلِّها[2]، إضافةً إلى تصويرِ الحدثِ وكأنَّهُ يقعُ الآنَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (تفاعَلُ) في قولِهِ علا وعزَّ: ﴿تَّزَاوَرُ﴾:

الـحـرص على عــدم دخــول شعاع الشمس في الكهف

عُبِّرَ بصيغةِ التَّفاعلِ في قولِهِ جلَّ وتقدَّسَ: ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾؛ للمبالغةِ في حصولِ التَّزاورِ - وهو المَيْلُ - مِنَ الشَّمسِ[3]، كأنَّها تبالغُ في المَيْلِ عن كهفِهم إلى الجهةِ اليُمنى؛ حرصًا منها على ألا يَطلُعَ شُعاعُها فيهِ فيُعجِّلَ ببِلى أجسادِهم، فسبحانَ من ألهمَها ذلكَ، وسخَّرَها لهُ!

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿تَّزَاوَرُ﴾:

تشبيهُ الشَّمسِ بالإنسانِ المتزاورِ عــنِ الــشَّيءِ بصدرِهِ ووجهِهِ

في قولِهِ تعالى في ذكرِ الشَّمسِ: ﴿تَّزَاوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ استعارةٌ؛ لأنَّ التَّزاورَ أصلُهُ المَيْلُ، وهو مأخوذٌ مِنَ الزَّوْرِ؛ وهو الصَّدْرُ، فكأنَّهُ سبحانَهُ قالَ: إنَّ الشَّمسَ تميلُ عن هذا الموضعِ كما يميلُ المتزاورُ عنِ الشَّيءِ بصدرِهِ ووجهِهِ[4]، والاستعارةُ على ذلكَ مكنيَّةٌ، وفيها إبرازٌ للشَّمسِ بصورةِ الإنسانِ الذي تَصدُرُ عنهُ هذهِ الأفعالُ بقصدِهِ وإرادتِهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 277.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 601.
(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 32.
(4) الشريف الرضي، تلخيص البيان: 2/ 208، والقونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 32.

سرُّ إضافةِ الكهفِ إلى الفتيةِ في الآية:

الدلالة على طول مكثهم فيه

أُضيفَ الكهفُ إلى الفتيةِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾؛ لأنَّهم أَووْا إليهِ، واتَّخذوهُ مأوًى ومَلْجَأً لهُم؛ فالإضافةُ لأدنى ملابَسةٍ[1].

وفيه إشارة على طول المكث التى حدَّدها القرآن بقوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾ [الكهف: 25]؛ فَلِطولِ هذه المدة صار كأنه مِلْكٌ لهم لم ينازعهم أحدٌ فيه؛ لذلك أضافهم إليه.

بلاغةُ الحذفِ في قولِه: ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾:

الاستغناءُ بالصِّفةِ عنِ الموصوفِ

في قولِه تعالى: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّ ﴿ذَاتَ﴾ بمعنى صاحبةٍ، وهي صفةٌ لمحذوفٍ يدلُّ عليهِ الكلامُ، والتَّقديرُ كأنَّهُ قيلَ: (تَزاورُ عن كهفِهم جهةً صاحبةَ اليمينِ)[2].

دلالة التعريفِ في قولِه: ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ و﴿ٱلشِّمَالِ﴾:

التَّعريفُ فيهما عِوضٌ عنِ المضافِ إليهِ، أو للعهدِ

أوردَ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ و﴿ٱلشِّمَالِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ معرفتينِ؛ لأنَّ التعريفَ فيهما عِوضٌ عنِ المضافِ إليهِ، أي: يمينِ الكهفِ وشِمالِه، فيدلُّ ذلك على أنَّ فمَ الكهفِ كانَ مفتوحًا إلى الشِّمالِ الشَّرقيِّ[3]، ويجوزُ أن يكونَ التعريفُ للعهدِ بدليل قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾؛ إذ الضَّميرُ راجعٌ إلى الكهفِ، وكذا المرادُ منهما[4].

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾:

التَّشريكُ بينَ هذهِ الجملةِ وسابقتِها في الحكمِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ عاطفةٌ،

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 211، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 211.

(2) الواحدي، البسيط: 13/ 550، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 443، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 279.

(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 12/ 33، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 279.

(4) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 12/ 33.

عطفَتْ هذهِ الجملةَ على سابقتِها؛ وهي قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: وتراها عندَ غُروبِها تَقْرِضُهم أي: تَعْدِلُ عنهُم[1]، وفيه دليل على وجود اشتراك في تصوير حركة الشمس على الكهف عند طلوعها وغروبها.

وجهُ التعبير بقوله: ﴿غَرَبَت﴾:

تـصـويرُ حالة غياب الشمس بـضـوئـهـا وحرارتها

آثر السياق الكريمُ التعبيرَ بالفعل ﴿غَرَبَت﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾، دون غيره من الأفعال المقاربة في المعنى، مثل: (توارت)؛ لأن الغروب معناه: غيبوبة الشمس؛ بخلاف (توارت) فإنه يدل على مجرد الاستتار، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢﴾ [ص: 32] وليس هذا هو المقصود في مثل هذا المشهد، بل المراد تصوير حالة غياب الشمس بضوئها وحرارتها، أما الاستتار؛ فلا يلزم منه غياب الضوء والحرارة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في قولِهِ: ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾:

المـاضي أنـسبُ بـمقـامِ القطعِ بوقوعِ الشَّرطِ

استُعمِلَ الفعلُ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾؛ لأنَّهُ لمّا كانَ الأصلُ في (إذا) أنْ تُستعملَ في المقطوعِ بهِ - وغُروبُ الشَّمسِ مقطوعٌ بهِ - غُلِّبَ لفظُ الماضي معَها؛ لدلالتِهِ على الوقوعِ قطعًا؛ نظرًا إلى نفسِ اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) تقلبُ الماضيَ إلى المضارعِ.

براعةُ الطِّباقِ في طلوعِ الشمس وغروبِها:

الإشـارةُ إلى أنَّ الفتيةَ محفوفونَ بـرعـايـةِ الـلـهِ ولُطْفِهِ بينَ طرفَيْ رحلةِ الشَّمسِ

جُمِعَ بينَ ذكرِ الطُّلوعِ وذكرِ الغُروبِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾؛ مراعاةً للطِّباقِ بينَهما، وهو مِنْ محسِّناتِ الكلامِ المعنويَّةِ؛ ليقعَ في ذهنِ السّامعِ معنيانِ متقابلانِ، أحدُهما يُشيرُ إلى الشَّمسِ في أوَّلِ رحلتِها اليوميَّةِ، والآخَرُ يُشيرُ إليها في آخرِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 212.

رحلتِها، والفتيةُ المؤمنون بينَ طرفَيْ هذهِ الرِّحلةِ محفوفونَ برعايةِ اللّهِ ولُطْفِه.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾:

تظهر بلاغة الاستعارة في قولِهِ ﷻ: ﴿تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ من ناحيتين:

القـرضُ هنا مستعارٌ للتجاوزِ أو لإعطاءِ الدَّينِ

أولهما: أنْ يكونَ المرادُ: أنَّها تَجوزُهم عادلةً بمَطْرَحِ شُعاعِها عنهُم[1] شيئًا فشيئًا حتى يتم الغروب، مِنْ قولِهم: (قَرَضْتُ الشَّيءَ بالمِقْراضِ) إذا قَطَعْتَهُ بهِ، والمِقْراضُ متجاوزٌ لأجزاءِ الشَّيءِ بالتَّدريجِ حتى ينتهيَ إلى آخرِها.

ثانيهما: أنْ يكونَ المرادُ: أنَّها تُعطيهم القليلَ مِنْ شُعاعِها عندَ مُرورِها بهِم، ثمَّ تسترجعُهُ عندَ انصرافِها عنهُم، تشبيهًا بقَرْضِ المالِ الذي يُعطيهِ المُعطي ليستردَّهُ، ومعنى قَرْضِ المالِ أيضًا مأخوذٌ مِنَ القَطْعِ؛ لأنَّ المُقرِضَ يُعطي للمُقترِضِ جزءًا مِنْ مالِه[2].

علَّةُ إيقاعِ التَّزاورِ على كهفِهم، والقَرْضِ على أنفُسِهم:

دفـع المضار وجلب المنافع لأصحاب الكهف

أسند القرآن الكريم التزاور على الكهف والقرض على الفتية أنفسهم في قوله تعالى: ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾؛ للدلالة على أنَّ بابَ الكهفِ - كما قيلَ - شماليٌّ، وأقربُ المشارقِ والمغاربِ إلى محاذاتِهِ رأسُ مَشْرِقِ السَّرطانِ ومَغْرِبِه، والشَّمسُ إذا كانَ مدارُها كذلكَ تَطلُعُ مائلةً عن بابِ الكهفِ مقابلةً لجانبِهِ الأيمنِ؛ وهو الَّذي يَلي المغربَ، وتَغرُبُ محاذيةً لجانبِهِ الأيسرِ، فيقعُ شُعاعُها على جنبيه، وتُحلِّلُ عُفونتَهُ، وتُعدِّلُ هواءَهُ، ولا يقعُ عليهِم فيُؤذيَ أجسادَهم ويُبليَ ثيابَهم، ومَيْلُ البابِ إلى جانبِ الغربِ كانَ أكثرَ، ولذلكَ أوقعَ التَّزاورُ

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 81.
(2) الرضي، تلخيص البيان: 2/ 209.

على كهفِهم والقَرْضُ على أنفُسِهم في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾(1).

بلاغةُ الجمعِ بينَ ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ و﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾:

الطِّباقِ بينَ الجهتينِ محسِّن بديعي

جُمِعَ بينَ جهتَيِ اليمينِ والشِّمالِ في قولِهِ ﷻ: ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾؛ مراعاةً للطِّباقِ بينَهما، وهو مِنْ محسِّناتِ الكلامِ المعنويَّةِ؛ ليقعَ في ذهنِ السّامعِ معنيانِ متقابلانِ، أحدُهما الجهةُ الَّتي تقعُ عن امتدادِ شِقِّهِ الأيمنِ، والآخرُ الجهةُ الَّتي تقعُ عن امتدادِ شِقِّهِ الأيسرِ.

إيثارِ لفظِ ﴿ٱلشِّمَالِ﴾ على لفظِ (اليسارِ):

مِنْ عاداتِ القرآنِ مقابلةُ اليمينِ بالشِّمالِ دونَ اليسارِ

أوثِرَ لفظُ ﴿ٱلشِّمَالِ﴾ على لفظِ (اليسارِ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾؛ لأنَّ ذلك أسلوب قرآني ورد ذكره في مواضع عديدة من القرآن الكريم، قابل فيه اليمين بالشمال؛ لأنَّ اليد الشمال تتمكّن مع اليمنى من احتواء الشيء والتفاف اليدين حوله، وسائر ما في القرآن من (شمال) و(شمائل) تعني الجهة المقابلة للجهة اليمنى(2) في المواضعِ الَّتي وردَ فيها ذكرُ هاتينِ الجهتينِ؛ كقولِهِ تعالى بعدَ هذهِ الآيةِ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾، وقوله: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧﴾ [ق: 17]، وقوله: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧﴾ [المعارج: 37]، مع استخدام القرآن الكريم (اليمين) في سياقات متعددة، منها الإشارة إلى الجهة المعروفة باليمين، أو في معاني القَسَم والعهد، أو بمعنى الدّين والشريعة، أو للإشارة إلى أهل الفوز من الصالحين في الآخرة الذين يُعطَوْن كتبهم بأيمانهم.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 211.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شمل).

معنى الجملةِ الحاليَّة: ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾:

زيادةُ التَّعجيبِ مِنْ حالِهم

الواوُ للحالِ، وجملةُ ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ حاليَّةٌ تدلُّ على مزيدِ التَّعجيبِ مِنْ حالِهم؛ لكونِهِ أمرًا بديعًا، أي: ترى الشَّمسَ تميلُ عنهُم يمينًا وشِمالًا، ولا تَحومُ حولَهم، معَ أنَّهم في متَّسعٍ مِنَ الكهفِ مُعرَّضٍ لإصابتِها لولا أنْ صَرَفَتْها عنهُم يدُ التَّقديرِ[1].

غرضُ التعبير بالإضمار في قوله: ﴿وَهُمۡ﴾:

تقدُّم التعبير بالإظهار، وللإشارة إلى أنهم في موضع عدم الظهور

آثر القرآنُ الكريمُ التعبير بالإضمار في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ﴾ عن الفتية، ولم يأت به مُظهَرًا بأن يقول: (والفتية في فجوة منه) إما لسبق التعبير بالإظهار في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ﴾ [الكهف: 13]، أو للإشارة إلى أنهم في موضع عدم الظهور، حيث أووا إلى فجوة من الكهف؛ فصار الإضمار مناسبًا لحالة الخفاء التي هم فيها.

دلالة التعبير بالظرفية في قولِه: ﴿فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾:

الدَّلالةُ على كونِ الكهفِ مُستقَرًّا لهُم

دل التعبير بالظرفيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ على كونِ الكهفِ مأوًى للفتيةِ؛ إذ هُم مُستقِرّونَ في متَّسعٍ منهُ، وهو مُشتمِلٌ عليهِم اشتمالَ الظَّرفِ على المظروفِ، فسُبحانَ مَنْ جعلَ الكهفَ مَوْطِنًا للأمنِ والرِّعايةِ، وهو في العادةِ مِنْ مَظانِّ الهلاكِ وانقطاعِ مسالكِ الحياةِ، وفيه إشارة إلى حُنوِّ الكهف عليهم حنوَّ الأم على ما في أحشائها.

سر التعبير بـ ﴿فَجۡوَةٖ﴾ دون غيرها:

الإشارةُ إلى وسط الكهف المتسع

آثر القرآنُ الكريمُ التعبير بالفجوة دون غيرها من المفردات المقاربة في المعنى في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾؛ للإشارة إلى وسط الكهف المتسع، إذ الفجوة معناها الساحة الواسعة، وهي وسط الكهف؛ إذ لا أوسع في الكهف من الوسط.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 708، والسمين، الدر المصون: 7/ 459، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 211.

وفيه إشارة إلى الحفاظ عليهم، بحيث ينالهم روح الهواء ولا يؤذيهم كربُ الغار ولا حرُّ الشمس(1).

دلالة تنكير ﴿فَجْوَةٍ﴾:

الاستغراق والتَّعظيم

يَحْتَمِلُ تنكيرُ ﴿فَجْوَةٍ﴾ أَنْ يكونَ للإفرادِ، أي: للقصدِ إلى فردٍ مِنْ أفرادِ الجنسِ، أي: وهم في فَجْوةٍ مِنْ فَجَواتِ الكهفِ، ويحتملُ أَنْ يكونَ للتَّعظيم، أي: وهم في فَجْوةٍ عظيمةِ الشَّأنِ لا يُحيطُ بها الوصفُ؛ لأنَّها على اتِّساعِها لا تصيبُها الشَّمسُ لا في الصَّباحِ ولا في المساءِ، ويَعضُدُ هذا الاحتمالَ كونُ الجملةِ الحاليَّةِ: ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾؛ للدَّلالةِ على مزيدِ التَّعجيبِ مِنْ حالِهم كما تقدَّمَ.

وجهُ التعبير بـ(من) في قوله: ﴿مِّنۡهُۚ﴾:

الإشارةُ إلى وسط الغار، الأصلح لهم

دل التعبير بـ(من) في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ على التبعيض؛ لأنهم أووا إلى وسط الغار المتسع الذي عبر عنه القرآن بقوله: ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾، فهو المكان الأصلح للحفاظ على أبدانهم، بخلاف بقية الأجزاء في الكهف؛ فقد تؤدى إلى فساد أجسادهم.

دلالة عود الضَّميرِ في ﴿مِّنۡهُۚ﴾:

الضَّميرُ راجعٌ إلى الكهفِ المذكورِ في السّياقِ السّابق

ضميرُ ﴿مِّنۡهُۚ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ راجعٌ للكهفِ المذكورِ سابقًا في قولِهِ ﷻ: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ أي: وهُم في فَجْوةٍ - أي: متَّسعٍ - مِنَ الكهفِ(2).

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تفخيمُ شأنِ المُشارِ إليه

الإشارةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ راجعةٌ إلى ما مرَّ مِنَ الشَّأنِ العجيبِ للشَّمسِ، وإلى ما ذكر من حديثهم بهداية الله لهم إلى التوحيد وإيوائهم إلى الكهف ونحو ذلك، وصيغةُ البُعدِ لتفخيم

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 33.

(2) ابن عادل، اللباب: 12/ 442.

المُشارِ إليهِ[1]، ببيانِ أنَّهُ أمرٌ رفيعُ المنزلةِ عظيمُ المرتبةِ، حقُّهُ أنْ يُشارَ إليهِ إشارةَ المحسوساتِ العاليةِ البعيدةِ.

والمعنى: ما صنعَ اللّهُ بهِم مِنْ تزاوُرِ الشَّمسِ وقَرْضِها حالتَي الطُّلوعِ والغُروبِ، معَ كونِهم في مَوْقِعِ شُعاعِها - مِنْ آياتِ اللّهِ العجيبةِ الدّالَّةِ على كمالِ علمِهِ وقُدرتِهِ[2]، وما منَّ اللّه به عليهم من الهداية للتوحيد والإيواء إلى الكهف.

دلالةُ ﴿مِنۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾:

المُشارُ إليهِ بعضُ آياتِ اللهِ

إنَّ ما سبقَ مِنَ الصِّفةِ العجيبةِ للشَّمسِ عندَ طُلوعِها وغُروبِها شيءٌ يسيرٌ مِنْ آياتِ اللّهِ القادرِ العظيمِ الَّذي لا يُحاطُ بكُنْهِ قُدرتِه، ولا تُحصى آياتُهُ الدّالَّةُ على استحقاقِهِ الألُوهيَّةَ والعبادةَ، ويُشيرُ إلى هذا المعنى حرفُ ﴿مِنۡ﴾ الدالُّ على التَّبعيضِ؛ فلا يُلتفَتُ لِمَنْ يعترضُ على هذهِ الآيةِ، ويقولُ: كيفَ تميلُ الشَّمسُ؟! وكيفَ تُغيِّرُ اتِّجاهَها؟! لأنَّ الخالقَ سبحانَهُ خلقَ الخلقَ، وأعطى لكلِّ مخلوقٍ قانونَهُ الَّذي يسيرُ بهِ، ومعَ ذلكَ لم يتركْ للمخلوقِ أنْ يفعلَ بقانونِهِ ما يريدُ، بل لهُ سبحانَهُ قيّوميَّةٌ على القانونِ، تُبطِلُهُ إنْ شاءَ، وتُحرِّكُهُ إنْ شاءَ[3].

سر التعبير بالآيات دون غيرها:

الجمعُ بين الآياتِ الشرعية والآيات الكونية

آثر السياق الكريمُ التعبيرَ بالآيات في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ دون غيرها من المفردات؛ لِتعدُّدِ المراد بها في القرآن الكريم: فتطلق على الآية الكونية القَدَريَّة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: 190]، والمراد بها هنا الآيات الكونية التي يتعرف بها أصحاب

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 28، والقونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 35، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 279.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 211.

(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 14/ 8858.

العقول السليمة على أن خالقها هو اللّٰه وحده ﷻ، وتطلق على الآية الشرعية الدينية كقوله تعالى: ﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: 11]، وهي تحمل معنى العلامة التي تدلّ على صدق رسول اللّٰه ﷺ، وبناءً على المعنى المذكور سابقًا يكون التعبير بلفظ الآيات في قصة أصحاب الكهف هو الأوفق؛ لجمعه بين الآيات الشرعية والآيات الكونية.

نكتةُ جمعِ الآياتِ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾:

الدلالة على الكثرة والتنوع

جاء التعبير القرآني بلفظ الآيات جمعًا في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾، ولم يأت مفرداً؛ لأنه لمّا كانَتْ آياتُ اللّٰهِ المُحيطِ بكلِّ شيءٍ علمًا وقُدرةً مع أصحاب الكهف لا تُحصى لكثرتها وتنوعها - عُبِّرَ عنها بلفظِ الجمعِ في قولِه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾[1].

ومن هذه الآيات: ما أخبر اللّٰه به من الضَّرْبِ على آذانهم في الكهف ونومهم نومًا خارجًا عن طبع الخلق وعادتهم، وذلك بطول مدته كما ذكرها القرآن في قوله: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾ [الكهف: 25]، ومنها ما أخبر اللّٰه به من تزاور الشمس إذا طلعت ذات اليمين، وقرضها إياهم ذات الشمال عند الغروب، ومنها تقليبهم ذات اليمين وذات الشمال لحفظهم، إلى غير ذلك من الآيات التي منحها اللّٰه لأهل الكهف خارقة للعادة[2].

سرُّ إضافةِ الآياتِ إلى لفظِ الجلالةِ:

التعظيم والتشريف

أُضيفَتِ الآياتُ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾؛ تفخيمًا لشأنها، ورفعًا لمنزلتها؛ لأنَّها آياتٌ عجيبةٌ بديعةُ الشَّأنِ، وهي مِنْ آثارِ قُدرةِ المَلِكِ الأعلى ذي الجلالِ والعظَمةِ والكِبْرياءِ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 443.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 147.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 443، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 211.

نكتةُ الاعتراضِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾:

التَّنويهُ بفضل أصحابِ الكهفِ

جملةُ ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ مُعترِضةٌ في خلالِ القصَّةِ؛ للتَّنويهِ بشأنِ أصحابِها[1]؛ لأنَّ ما وقعَ لهُم مِنَ الحفظِ والرِّعايةِ والكراماتِ أمرٌ عظيمٌ بديعٌ، حقُّه أنْ يُنوَّهَ بِه، وأنْ يُذكرَ للثَّقَلينِ إلى قيامِ السّاعةِ أنَّهُ علامةٌ مِنْ علاماتِ قُدرةِ اللّهِ سبحانَهُ الَّذي سخَّرَ لأوليائِهِ الشَّمسَ على خلافِ مَجْرى عادتِها كلَّ يومٍ، وخَرَقَ لهُم نواميسَ الكونِ.

دلالة الفصل في قولِهِ: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾:

إفادةُ الاستئنافِ البيانيِّ

فُصِل قولُهُ: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ عما قبله؛ لأنه استئنافٌ بيانيٌّ لِما اقتضاهُ اسمُ الإشارةِ في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾؛ مِنْ تعظيمِ أمرِ الآيةِ وأصحابِها الدّاخلينَ في عمومِ ﴿مَن﴾ الشَّرطيَّةِ، والمعنى: أنَّهم كانوا مهتدينَ؛ لأنَّ اللّهَ هداهُم فيمَنْ هدى؛ تنبيهًا على أنَّ تيسيرَ ذلكَ لهُم مِنَ اللّهِ هو أثرُ تيسيرِهم لليُسرى والهُدى[2].

دلالة التَّعبيرِ بأسلوب الشَّرطِ في الآية:

الهدى والإضلال بيد الله وحده

جيءَ بالشَّرطِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾؛ لإفادةِ عُمومِ الكلامِ وشُمولِه كلَّ مَنْ هداهُ اللّهُ، وكلَّ مَنْ أضلَّهُ اللّهُ؛ ليدخلَ في المهديّينَ هؤلاءِ دخولًا أوَّليًّا، فيكونُ الكلامُ ثناءً عليهم بأبلغِ وجهٍ؛ لأنَّهُ بيانٌ لاهتدائِهم مقترنٌ بسببِهِ؛ وهو أنَّهُ سبحانَهُ اختصَّهم بهذهِ الكرامةِ السَّنيَّةِ، وحرمَ غيرَهم مِنْ قومِهم منها، وفي هذا دلالة على أن الهدى والإضلال بيد اللّه وحده؛ فمن هداه اللّه فلا مُضلَّ له، ومن أضلَّه فلا هاديَ له، وهذا المعنى واضح من خلال آيات كثيرة في القرآن الكريم ولا يحتاج إلى تمثيل لظهوره ووضوحه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 279.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 279 - 280.

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ الهدايةِ ﴿يَهۡدِ﴾ مضارعًا:

تجدُّدُ خلقِ الهدايةِ منهُ سبحانه وتعالى

جيءَ بفعلِ الهدايةِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ مضارعًا، ولم يُقَلْ مثلًا: (مَنْ هداهُ اللّهُ)؛ لإفادةِ أنَّ خلقَ الاهتداءِ في قلوبِ العِبادِ - وهو مِنْ شؤونِ الإلهِ الواحدِ - أمرٌ متجدِّدٌ منهُ جلَّ وعزَّ؛ يهدي مَنْ يشاءُ متى يشاءُ.

وفيه إشارة إلى حرص الإسلام على فتح باب الهداية وتجدُّده في كل وقت وحين لمن يُقبل على اللّه.

دلالة التعبير بالإظهار في موضع الإضمار:

خَلْقُ الهداية في القلوب لا يكون إلا لله رب العالمين

أُظهِرَ لفظُ الجلالةِ في مقامِ الإضمارِ، فقيلَ: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (مَنْ يَهْدِهِ فهو المُهتدِ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ خلقَ الهدايةِ في القلوبِ يكونُ ممَّنْ لهُ الخلقُ والأمرُ، الذي يحكمُ ما يشاءُ، ويفعلُ ما يريدُ، ولا مُعقِّبَ لحُكمِهِ[1].

وفي إظهارُ لفظِ الجلالةِ عونٌ على تأديةِ هذا المعنى وإنْ فُهِمَ المقصودُ بدونِهِ، وفيهِ أيضًا تعظيمٌ لشأنِ هدايةِ أصحابِ الكهفِ المندرجينَ في عموم ﴿مَن﴾؛ ببيانِ أنَّ اللّهَ تعالى بعنايتِهِ ولُطفِهِ هو الذي تولَّى هدايتَهم، ولولا ذلكَ لم يَهْتَدوا، فالمهتدي مَنْ هداهُ اللّهِ كهؤلاءِ[2].

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾:

ربطُ جوابِ الشَّرطِ بفعل الشرط

الفاءُ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ رابطةٌ لجملة جوابِ الشَّرطِ؛ لأنها جملة اسمية، وهي من الجمل التي تقترن بالفاء إذا وقعت جوابًا للشرط.

نكتةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في قولِهِ: ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾:

جيءَ بالضَّميرِ ﴿فَهُوَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 28، والشربيني، السراج المنير: 2/ 356.
(2) الواحدي، البسيط: 13/ 556، والمراغي، تفسير المراغي: 15/ 128.

﴿ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَنْ يَهْدِهِ اللّٰهُ ﷻ ويَشْرَحْ صدرَهُ للإيمانِ فهو المخصوص بالهداية، ولنْ تجدَ لهُ مُضِلًّا مُغْوِيًا[1]، وهذا بناءٌ على أنَّ التعريفَ في ﴿ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ للجنسِ، فيفيدُ مجموعُ قولِه: ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ قَصْرَ الهدايةِ على مَنْ هداهُ اللّٰهُ.

قَصْرُ الهدايةِ على مَنْ هداهُ اللهُ

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾:

الدَّلالةُ على الرُّسوخِ في الهدايةِ

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾، ولم يعبر بالفعل، فلم يُقَلْ مثلًا: (مَنْ يَهْدِهِ اللّٰهُ يَهْتَدِ)؛ لأنَّ التَّعبيرَ باسم الفاعلِ يفيدُ الاستقرارَ والثُّبوتَ على الهدايةِ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أَنَّ مَنْ هداهُ اللّٰهُ بمنِّهِ وتوفيقِهِ فهو الرّاسخُ في الهدايةِ، والَّذي ثبتَ إيمانُهُ في قلبِهِ ثُبوتَ الجبالِ.

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾:

احتمالُ التَّعريفِ للعهدِ الذِّهنيِّ والجنسِ

يحتملُ تعريفُ ﴿ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ وجهينِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ التَّعريفُ للعهدِ الذِّهنيِّ، فالمُعرَّفُ مُساوٍ للنَّكرةِ، فكأنَّهُ قيلَ: (فهو مُهتدٍ)، وفائدةُ الإخبارِ عنهُ بأنَّهُ مُهتدٍ التَّمهيدُ لذكرِ مقابلِهِ؛ وهو: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾؛ كما يقالُ: (مَنْ عرفَني فقد عرفَني، ومَنْ لم يَعرِفْني فأنا فلانٌ).

والثاني: أنْ يكونَ التَّعريفُ في قولِهِ: ﴿ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ تعريفَ الجنسِ، فيفيدُ قصرَ الهدايةِ على الَّذي هداهُ اللّٰهُ قصرًا إضافيًّا، أي: دونَ مَنْ تريدُ أنتَ هُداهُ، وأضلَّهُ اللّٰهُ[2].

سر حذف الياء في قوله: ﴿ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾:

جاء لفظ ﴿ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ مرسومًا في المصاحف من غير (ياء) هنا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 28.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 215، وقد ذكر هذين الوجهين في تفسير الآية (97) من سورة الإسراء.

التناسبُ مع المشهد الذي يصوِّر الهداية الخفية

وفي سورة الإسراء، بخلاف موضع سورة الأعراف؛ فقد جاء بإثبات الياء في قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: 178]؛ وذلك لأن سياق سورة الأعراف مبنيٌّ على ظهور الهداية أخذًا من آية الميثاق التي تبرز أن الفطرة المركوزة في الإنسان تحمل معنى الهداية الظاهرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: 172]؛ لذلك ناسب إظهار الياء في قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: 178] بخلاف موضع سورة الكهف الذي يتحدث عن الفتية الذين آووا إلى الكهف؛ فلم يأت بذكر (الياء) في لفظ ﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾ من باب التوافق والتناسب مع هذا المشهد الذي يصور الهداية الخفية لهم والتي لم يطلع عليها أحد إلا الله.

وذهب البعض إلى أن حذف ياء المهتد في رسم المصحف؛ لأنهم وقفوا عليها بدون ياء على لغة من يقف على الاسم المنقوص غير المنون بحذف الياء، وهي لغة فصيحة غير جارية على القياس، ولكنها أوثرت من جهة التخفيف لثقل صيغة اسم الفاعل مع ثقل حرف العلة في آخر الكلمة، ورسمت بدون ياء؛ لأن شأن أواخر الكلم أن ترسم بمراعاة حال الوقف[1].

والناظر إلى هذا القول يجد عدم سلامته من المعارضة؛ لأن ما ذكر فيه من علة غير مُسلَّم بها؛ لوجود موضع سورة الأعراف التي كتبت بإثبات الياء ﴿ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: 178]؛ لذلك ما ذكر أولًا هو الأوفق بالتعليل.

معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾:

الجمع بين أسلوب الترغيب والترهيب

جيءَ بواوِ العطفِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾؛ لبيانِ حالِ مَنْ أضلَّهُ اللّهُ بعدَ بيانِ حالِ مَنْ هداهُ اللّهُ؛ جريًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 215.

على عادةِ القرآنِ في تعقيبِ الترغيبِ بالترهيبِ، وعكسِه؛ ليرتسمَ أمامَ ناظرِ العبدِ صورةُ طريقِ الهدايةِ وصورةُ طريقِ الإضلالِ، وليعلمَ أنَّ خلقَ الهدايةِ وخلقَ الضَّلالِ بيدِ اللّهِ وحدَهُ، يختصُّ برحمتِهِ مَنْ يشاءُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ الإضلالِ مضارعًا:

تجدُّدُ خَلقِ الإضلالِ منهُ سبحانَهُ

جيءَ بفعلِ الإضلالِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ مضارعًا، ولم يُقَلْ مثلًا: (ومَنْ أضلَّهُ)؛ لإفادةِ أنَّ خلقَ الإضلالِ في قلبِ مَنْ شاءَ اللّهُ لهُ الضَّلالَ أمرٌ متجدِّدٌ منهُ جلَّ وعزَّ؛ لأنَّ ذلكَ بقدرة الإلهِ الواحدِ الَّذي يرجعُ إليه أمرُ الخلقِ كلِّه في كلِّ حينٍ، فاللّهُ ﷻ هو المُتمكِّنُ من قُلوبِ العِبادِ كُلِّهم؛ فالعَبدُ ليْس إليه شَيءٌ مِن أَمرِ سَعادته، أو شَقاوتِه، بلْ إنَّ الأمرَ كلَّه للّهِ؛ فإنِ اهتَدَى فبِهدايةِ اللّهِ تَعالَى إيّاه، وإنْ ضَلَّ فبِصَرْفِه له بِحِكمَتِه وعَدلِه، وعِلمِه السّابقِ، كما أنَّ ثُبوتَه على الإيمانِ فبتَثبيتِه ﷻ، كما قال اللّهُ تَعالَى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: 17].

بلاغةُ الطباقِ بينَ ﴿يَهۡدِ﴾ و﴿يُضۡلِلۡ﴾:

الطِّباقُ بذكرِ الإضلالِ في مقابلةِ الهدايةِ

عُقِّبَ ذكرُ الهدايةِ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ بذكرِ الإضلالِ في قولِهِ: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾؛ لإفادةِ الطِّباقِ الَّذي هو مُحسِّنٌ معنويٌّ للكلامِ، وفيهِ في هذهِ الآيةِ رسمٌ لصورةِ الحالِ القبيحِ في مقابلةِ صورةِ الحالِ الحَسَنِ.

سر التعبير بالفعل ﴿يُضۡلِلۡ﴾ بالإظهار:

الدلالةُ على وضوح ضلال من لم يهده الله

جاء التعبير بالفعل المضارع ﴿يُضۡلِلۡ﴾ مفكوكًا، ولم يأت مدغمًا (يُضِلّ) من باب التناسب مع أسلوب الشرط في قوله: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ الذي دّلَّ على إظهار أمر الهداية، كما أكد ذلك جواب الشرط ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾، والذي يدل على انتفاء هداية من أظهر اللّه ضلاله بقوله: ﴿فَلَن﴾ (التي تفيد تأكيد النفي)؛

لذلك ناسب التعبير بالفعل ﴿يُضۡلِلۡ﴾ مفكوكًا الذي يدل على وضوح ضلال من لم يهده الله؛ يؤكد هذا المعنى ما ذكره البقاعي عند قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ إضلالًا ظاهريًا بما دل عليه الإظهار بإعمائه عن طريق الهدى، فهو لا غيره الضال[1].

دلالة تعدد الخطاب في قولِهِ: ﴿فَلَن تَجِدَ﴾:

العموم والخصوص

يحتملُ الخطابُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ وجهين:

أحدُهما: أنْ يكونَ المخاطَبُ هو النَّبيَّ عليه الصلاة والسلام، أي: فلن تجدَ يا محمَّدُ؛ لأنَّ مِثلَ هذا الكلامِ مَسوقٌ لتسليتِهِ صلى الله عليه وسلم على عدمِ استجابةِ الكافرينَ لهُ.

والثَّاني: أنْ يكونَ الخطابُ عامًّا لكلِّ مَنْ يتأتَّى منهُ البحثُ والتَّتبُّعُ والتقصّي، أي: فلن تجدَ أنتَ أيُّها المخاطَبُ، ويدخلُ فيهِ رسولُ اللّهِ عليه الصلاة والسلام دخولًا أوَّليًّا، وفي العُمومِ مبالغةٌ في ظُهورِ أمرِ عدمِ وِجْدانِ وليٍّ مُرشِدٍ لمَنْ شاءَ اللّهُ إضلالَهُ.

دلالة النَّفيِ بـ ﴿فَلَن﴾ دون (لا) في الآية:

اليأس مِنْ وِجْدانِ وليٍّ مُرشِدٍ لمَنْ أضلَّهُ اللّهُ

جاء النفي بـ ﴿فَلَن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ دون (لا)، فلم يُقَلْ مثلًا: (فلا تجدُ)؛ لإفادةِ اليأسِ والقُنوطِ مِنْ وِجْدانِ الوليِّ المُرشِدِ لمَنْ حكمَ اللّهُ عليهِ بالضَّلالِ، أي: مَنْ يَخْلُقْ فيهِ الضَّلالَ لصرفِ اختيارِهِ إليهِ فلن تجدَ لهُ أبدًا - وإنْ بالغتَ في التتبُّعِ والاستقصاءِ - وليًّا مُرشدًا[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَن تَجِدَ﴾:

الدَّلالةُ على استمرارِ نفيِ وِجْدانِ وليٍّ مُرشِدٍ لمَنْ أضلَّهُ اللّهُ

جيءَ بالفعلِ المنفيِّ مضارعًا في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾؛ لإفادةِ استمرارِ نفيِ وِجْدانِ وليٍّ مُرشِدٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/ 453.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 212.

لِمَنْ أضلَّهُ اللّهُ، ولتصوير مشهد ترسمه الآيةُ أمامَ ناظرَيْك بصورةِ باحثٍ دَؤوبٍ مستمرٍّ في البحث عن وليٍّ يرشده، وأنّى له ذلك.

وجهُ التَّغاير بينَ جملتَيْ جوابِ الشَّرطِ:

مراعاةُ الفاصلةِ معَ إفادةِ نُكتةٍ أخرى

كانَ مُقتضى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (ومَنْ يُضلِلْ فهو الضّالُّ)؛ ليكونَ نظيرَ مقابلِه؛ وهو قولُهُ تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى ما في الآيةِ - وهو قولُهُ: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ - لإفادةِ نُكتةِ استمرارِ نفي وِجْدانِ وليٍّ مُرشِدٍ كما سبقَ، ولأنَّ في قولِهِ: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ كنايةً لطيفةً؛ لأنَّ نفيَ وِجْدانِ الوليِّ المُرشِدِ كنايةٌ عن نفي وجودِهِ؛ لأنَّهُ لو كانَ موجودًا لوُجِدَ وعُرِفَ[1]، ولمراعاةِ ملاءمةِ الفاصلةِ لما قبلَها وما بعدَها، وتلاؤمُ الفواصلِ مِنْ محسِّناتِ الكلامِ البليغِ.

نكتةُ التعبير بقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾:

آثر القرآن الكريم التعبير بقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ دون أن يقول: (فلا وليَّ لهُ)؛ لأنَّ نفيَ الوِجْدانِ يستلزمُ البحثَ عن الوليِّ وعدمَ وجودِهِ، وهو أشقُّ مِنْ مجرَّدِ عدمِهِ[2].

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في مقام الولاية:

تعجيلُ المَساءةِ لأهلِ الضلالِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾؛ لتعجيلِ المَساءةِ؛ ببيانِ أنَّ البحثَ لهذا الضالِّ عن وليٍّ مُرشِدٍ لم يُسفِرْ بعدَ التقصّي والتتبُّعِ إلّا عن الخَيبةِ له، وفيه المسارعة إلى ذكر التبكيت والتوبيخ لأهل الضلال؛ إضافةً إلى أنَّهُ لو قيلَ: (فلن تجدَ وليًّا مُرشِدًا لهُ) لاختلَّ التلاؤمُ بينَ فواصلِ الآياتِ.

(1) ذكر نكتة الكناية ابن عاشور في التحرير والتنوير: 15/ 216، في تفسير الآية (97) من سورة الإسراء.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 82.

التَّنكيرُ لإفادةِ التَّحقيرِ

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَلِيًّا﴾ و﴿مُّرْشِدًا﴾:

لمّا كانَ السّياقُ لإثباتِ اليأسِ والقُنوطِ مِنْ وِجْدانِ وليٍّ مُرشِدٍ لمَنْ شاءَ اللّهُ إضلالَهُ ناسبَ الإتيانُ بهما في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ مُنكَّرينِ؛ لإفادةِ التَّحقيرِ، وبيانِ أنَّكَ لن تجدَ لهُ وليًّا مُرشِدًا حقيرًا شأنُهُ فضلًا عن وجود ولي عظيم، وهذا يُقوّي المبالغةَ في نفيِ الوِجْدانِ؛ إذ لم يُعثَرْ بعدَ البحثِ والتَّتبُّعِ على وليٍّ مرشدٍ وإنْ قلَّ شأنُهُ.

مناسبةُ ذكرِ الإرشادِ لذكرِ الإضلالِ

سِرُّ وصفِ الوليِّ بالمُرشِدِ في الآية:

وُصِفَ الوليُّ بالمُرشِدِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾؛ لِما في الإتيانِ بصفةِ الإرشادِ مِنَ المناسبةِ لذكرِ الإضلالِ؛ لِما بينَهما مِنَ التَّضادِّ، وللإشارةِ إلى أنَّ هذا الضّالَّ غارقٌ في ضلالِهِ مُستمِرٌّ عليهِ، يُبحَثُ لهُ عن وليٍّ يُرشِدُهُ لطريقِ الخروجِ من الضَّلالِ، وليس ثَمَّةَ.

الحذفُ المقابلي من بدائع القرآن الكريم وإيجازه الرائع

بلاغةُ الاحتباك في سياق الآية:

لمّا كانَ انفرادُ الفتيةِ المؤمنة بالهُدى عن أهلِ ذلكَ القرنِ كلِّهم عجَبًا - وُصِلَ بِهِ ما إذا تُؤُمِّلَ زالَ العَجَبُ؛ وهو قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾، فبُيِّنَ أنَّ مَنْ يَهْدِهِ الَّذي لهُ الأمرُ كلُّهُ بخلقِ الهدايةِ في قلبِهِ فهو المهتدي، فلن تجدَ لهُ مُضِلًّا مُغويًا، ومَنْ يُضلِلْ فهو لا غيرُهُ الضّالُّ، فلن تجدَ لهُ مِنْ دونِ اللّهِ وليًّا مُرشِدًا، فتجدُهُ يرى الآياتِ بعينِهِ، ويسمعُها بأُذُنِهِ، ويُحِسُّها بجميعِ حواسِّهِ، ولا يعلمُ أنَّها آياتٌ، فضلًا عن أنْ يتدبَّرَها وينتفعَ بها، فالآيةُ فيها فنُّ الاحتباكِ، بحيثُ يجتمع في الكلام متقابلان، ويحذف من كلِّ واحد منهما مقابله؛ لدلالة الآخر عليه؛ فقد ذُكِرَ الاهتداءُ في الآية أوَّلًا دليلًا على حذفِ الضَّلالِ ثانيًا، وذُكِرَ المُرشِدُ ثانيًا دليلًا على حذفِ المُضِلِّ أوَّلًا[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 29، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 81.

سر اختلاف الفاصلة في هذه السورة مع سورتي الأعراف والإسراء:

اختلفت فاصلة هذه الآية مع موضع سورة الأعراف وسورة الإسراء، إذ جاءت فاصلة سورة الأعراف ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف: 178]، وموضع سورة الإسراء ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾.

مناسبةُ موضع الكهف نفيُ الهداية عمَّن ضلَّ

وسبب ذلك اختلاف السياق في كل منها: فموضع سورة الأعراف يسبقه قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: 175] الآية، والسياق في هذا متعلق بأهل الكتاب الذين بَعُدوا عن الهدى بعدًا كبيراً، وكذبوا بآيات الله الدالة على صدق رسوله ﷺ من أجل الدنيا وزخارفها؛ لذلك حكم القرآن عليهم بالخسران الكامل في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف: 178]؛ لأنهم خسروا الدنيا والآخرة.

أما آية الإسراء فهي حديث عن مشركي مكة الذين أشركوا بالله واتخذوا من دونه أولياء، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ٤٢﴾ [الإسراء: 42]، وغيرها من الآيات الواردة في هذا السياق من هذه السورة؛ لذلك ناسب نفي الولاية عن هؤلاء الشركاء وبيان مصير المشركين يوم القيامة بقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ٩٧﴾ [الإسراء: 97].

أما موضع الكهف فهو في سياق الحديث عن أصحاب الكهف الذين آمنوا بالله ﷻ وتعلق رجاؤهم به؛ فنشر لهم من رحمته، وهيأ لهم من أمرهم مرفقاً؛ وذلك بتسخير حركة الشمس عند طلوعها وغروبها للحفاظ عليهم؛ فلما كان ذلك كله دالًّا على أن الله هو الولي المرشد لمن هداه، ناسب في هذا الموضع نفي ذلك عمَّن ضل بقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

البصرُ والرُّؤيةُ والنَّظرُ:

الرُّؤيةُ أعمُّ مِنَ البصرِ والنَّظرِ من حيثُ قوى الإدراكِ

أصل مادة (بصر) في اللغة: وضوح الشيء، يقال: بصرتُ بالشيء، إذا صرتَ به بصيرًا عالماً، وأبصرته إذا رأيتَه، وأصل مادة (رأى) في اللغة: العلم بالشيء إما بالعين أو بالقلب، وأصل مادة (نظر): تأمل الشيء ومعاينته، وعلى هذا فالناظر في هذه الألفاظ الثلاثة يجد بينها تقاربًا في المعنى، ذلك أنَّ الإبصار يتميز بالوضوح، والرؤية تتميز بالعلم، والنظر يميزه التأمل؛ لذلك فالبصرُ: يُقالُ للجارحةِ النّاظرةِ، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: 77]، ويقالُ للقوَّةِ الَّتي في الجارحةِ النّاظرةِ، وقد يُطلَقُ على البصيرةِ؛ وهي الإدراكُ الذي في القلبِ(1).

والرُّؤيةُ: إدراكُ المرئيِّ، وهو على أضربٍ بحسَبِ قوى النَّفسِ، فتكون بالحاسَّةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ [آل عمران: 13]، أو بالوهم والتخيُّلِ؛ نحوُ: أرى أنَّ زيدًا منطلقٌ، أو بالتفكُّرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ [الأنفال: 48]، أو بالعقلِ، كقولِه تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النجم: 11].

و(رأى) إذا عُدّيَ إلى مفعولينِ اقتضى معنى العلمِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ [سبأ: 6]، وإذا عُدّيَ بـ(إلى) اقتضى معنى النَّظرِ المُؤدّي إلى الاعتبارِ؛ كقولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفرقان: 45](2).

والنَّظرُ: تقليبُ البصرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشَّيءِ ورؤيتِه، وقد يُرادُ بِهِ التأمُّلُ والرَّويَّةُ، يقالُ: نظرتَ فلم تَنظُرْ، أي: لم تتأمَّلْ ولم تتروَّ، وقولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 101] أي: تأمَّلوا، واستعمالُ النَّظرِ في البصرِ أكثرُ عندَ العامَّةِ، وفي

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (بصر).

(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (رأى).

البصيرةِ أكثرُ عندَ الخاصَّةِ، ويقالُ: نظرتَ إلى كذا إذا مددتَ طَرْفَكَ إليهِ، رأيتَهُ أو لم تَرَهُ، ونظرتَ فيهِ إذا رأيتَهُ وتدبَّرتَهُ[1].

والحاصلُ: أنَّ هذه الألفاظ الثلاثة تشترك جميعها في معنى تأمل الشيء لإدراكه، ولكن لكل منها درجة في الإدراك؛ فأعلاها الرؤية التي تتميز باليقين، ثم الإبصار الذى يتميز بالوضوح، وأدناها النظر الذي قد يكون بتوجه العين إلى الشيء دون رؤيته، وقد يكون تدبرًا مع الرؤية[2].

البُزوغُ والشُّروقُ والطُّلوعُ:

البُزوغُ أوَّلُ الظُّهورِ، والشُّروقُ والطُّلوعُ تمامُهُ

البُزوغُ: طُلوعُ الشَّيءِ وظُهورُهُ، يقالُ: بزغَتِ الشَّمسُ إذا طلعَتْ، وبزغَ نابُ البعيرِ إذا طلعَ[3].

والشُّروقُ: الإضاءةُ والفتحُ، ومِنْ ذلكَ: شرقَتِ الشَّمسُ إذا طلعَتْ، وأشرقَتْ إذا أضاءَتْ، والشُّروقُ: طُلوعُها[4]، والشَّرقُ: خلافُ الغربِ[5].

والطُّلوعُ: الظُّهورُ والبُروزُ، يقالُ: طلعَتِ الشَّمسُ طُلوعًا[6].

وعلى هذا التعريفِ فلا فرقَ بينَ الثَّلاثةِ.

وفُرِّقَ: بأنَّ البُزوغَ أخصُّ مِنَ الطُّلوعِ والشُّروقِ؛ فهما تمامُ الظُّهورِ، وهو أوَّلُ الظُّهورِ، ولهذا قالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ [الأنعام: 78] أي: لمّا رآها في أوَّلِ أحوالِ طُلوعِها تفكَّرَ فيها، فوقعَ لهُ أنَّها ليسَتْ بإلهٍ.

ثمَّ فُرِّقَ بينَ الشُّروقِ والطُّلوعِ: بأنَّ الشُّروقَ يقالُ في الشَّمسِ

---

(1) الراغب، المفردات: (نظر).

(2) داود، معجم الفروق الدلالية فى القرآن الكريم، ص: 133.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بزغ).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرق).

(5) الخليل، العين: (شرق).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلع).

والقمرِ فقطْ؛ فلا يقالُ: شَرَقَ فلانٌ، والطُّلوعَ يقالُ فيهما وفي غيرِهما؛ فيقالُ: طلعَتِ الشَّمسُ، ويقالُ: طلعَ الرَّجلُ؛ فالطُّلوعُ أعمُّ من الشُّروقِ[1].

الضَّلالُ والغَيُّ:

الضَّلالُ كلُّ عُدولٍ عنِ المنهجِ، والغَيُّ جهلٌ ناشِئٌ مِن اعتقادٍ فاسدٍ

الفرقُ بينَ الضَّلالِ والغَيِّ: أنَّ الضَّلالَ يقالُ لكلِّ عُدولٍ عنِ المنهجِ، عمدًا كانَ أو سهوًا، يسيرًا كانَ أو كثيرًا[2]، والغيَّ: جهلٌ مِن اعتقادٍ فاسدٍ؛ لأنَّ الجهلَ قد يكونُ مِنْ كونِ الإنسانِ غيرَ معتقِدٍ اعتقادًا لا صالحًا ولا فاسدًا، وقد يكونُ مِن اعتقادِ شيءٍ فاسدٍ، وهذا الثّاني يقالُ لهُ: غَيٌّ، قالَ تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾ [الأعراف: 202][3].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 308، وزيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 279، والنزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 279.
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (ضلل).
(3) الراغب، المفردات: (غوى).

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾ [الكهف: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ إلى بيانِ ما في حالِ أهلِ الكهفِ مِنَ العِبرةِ

لمّا ذكرت الآية السابقةُ بعضَ أحوال آيات اللّه العجيبة مع أصحاب الكهف؛ وذلك بتسخير حركة الشمس عند طلوعها وغروبها للحفاظ عليهم مما يفسد جسدهم ويؤثر في هيئتهم، جاءت هذه الآية لتستكمل طرفًا آخر من بقية أحوالهم العجيبة، قال تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾.

ومن المناسبة أيضاً: لمّا نبَّه سبحانَهُ بقولِهِ: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ على أنَّ أمرَ الهدايةِ والضَّلالِ بيدِهِ؛ تسليةً للنَّبيِّ ﷺ وتثبيتًا أنْ يُهلِكَ نفسَهُ بسببِ عدمِ إيمانِ قومِهِ - عطفَ على ما مضى بقيَّةَ أمرِهم فقالَ: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾ الآيةَ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ﴾: الحِسابُ: استعمالُ العددِ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس: 5]، والحسيبُ والمحاسبُ: مَنْ يُحاسبُكَ، و(حَسِبَ) يُستعملُ في معنى الكفايةِ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 173]، أي: كافينا هو، وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: 42]، وقولُهُ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: 2]، وقوله: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 29.

﴿يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: 4] - كلُّ ذلكَ مصدرُهُ الحُسْبانُ[1]، والحسبان كذلك أن يحكم لأحد النقيضين من أن يخطر الآخر بباله فيحسبه ويعقد عليه الإصبع، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك، ويقارب ذلك الظن، لكن الظن أن يخطر النقيضين بباله؛ فيغلب أحدهما على الآخر[2].

2) ﴿أَيۡقَاظٗا﴾: (يقظ) أصلٌ يدلّ على إثارة السّاكنِ وتحريكه[3]، واليَقَظةُ: التَّنبُّهُ ضدُّ النَّوم[4]، واليَقِظُ هو المتنبّهُ المُتفطّنُ لِمَنْ يَتربَّصُ به، وتَيَقَّظَ فُلانٌ للأمر إذا تنبَّه، ويقالُ للّذي يُثيرُ التُّرابَ: (قد يقَّظَهُ)، إذا فَرَّقه وأثاره[5]، و﴿أَيۡقَاظٗا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا﴾: جمعُ يَقِظٍ؛ وهو المُنْتبهُ المُتفطّنُ[6].

3) ﴿رُقُودٞۚ﴾: أصل (رقد) يدلّ على النوم أو امتداد جسم، بثبات وسكون وإقامة طويلة[7]، والرُّقادُ: المُستطابُ مِنَ النَّومِ القليلِ، يقالُ: رَقَدَ رُقودًا، فهو راقدٌ، والجمعُ: رُقودٌ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾، وإنَّما وصفَهم بالرُّقودِ معَ كثرةِ مَنامِهم؛ اعتبارًا بحالِ الموتِ، وذلكَ أنَّهُم اعتقدوا موتَهم، فكانَ ذلكَ النَّومُ قليلًا في جنبِ الموتِ[8].

4) ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ﴾: قلبُ الشَّيءِ: تصريفُهُ وصرفُهُ عن وجهٍ إلى وجهٍ، كقلبِ الثَّوبِ، وقلبِ الإنسانِ، أي: صرفِهِ عن طريقتِهِ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ [العنكبوت: 21]، والانقلابُ: الانصرافُ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: 144]، وتقليبُ الشَّيءِ: تغييرُهُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ نحوُ: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأحزاب: 66]، وتقليبُ الأمورِ: تدبيرُها والنَّظرُ فيها؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾ [التوبة: 48]، وتقليبُ اللّهِ القُلوبَ والبصائرَ: صرفُها مِنْ رأيٍ إلى رأيٍ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [الأنعام: 110]، وتقليبُ اليدِ: عبارةٌ عن النَّدمِ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ [الكهف: 42][9]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (حسب).
(2) الراغب، المفردات: (حسب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (يقظ).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (يقظ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (يقظ).
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 503، والسمين، عمدة الحفاظ: (يقظ).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رقد).
(8) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (رقد).
(9) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (قلب).

وللقلبِ أصلٌ آخرُ: هو خالصُ الشَّيءِ وشريفُهُ؛ كقلبِ الإنسانِ وغيرِهِ؛ لأنَّهُ أرفعُ شيءٍ فيهِ[1]، ومعنى المفردةِ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾: ونُحرِّكهُم[2].

5) ﴿بَسِطٌ﴾: (بسط) "أصلٌ واحدٌ؛ وهو امتدادُ الشَّيءِ في عَرْضٍ أو غيرِ عَرْضٍ"[3]، وبَسْطُ الشَّيءِ: نَشْرُهُ وتوسيعُهُ، ومنهُ يقالُ: بسطَ الثَّوبَ: نشرَهُ، ومنهُ: البِساطُ، وهو اسمٌ لكلِّ مبسوطٍ[4]، قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾ [نوح: 19]، والبِساطُ: الأرضُ المتَّسعةُ، وبَسْطُ الكفِّ يُستعملُ تارةً للطَّلبِ؛ نحو: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ [الرعد: 14]، وتارةً للأخذِ، نحو: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: 93]، وتارةً للضَّربِ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: 2]، وتارةً للبذلِ والإعطاءِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64]، وبَسْطُ اليدِ: مدُّها؛ كما في قولِهِ تعالى هنا: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾[5].

6) ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾: (وصد) أصلٌ يدلُّ على ضمِّ شيءٍ إلى شيءٍ[6]، و(أصد) لُغَةٌ فيه، يقالُ: أوصدتُ البابَ وآصدتُهُ، أي: أغلقتَهُ[7]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾ [الهمزة: 8]، بمعنى: مُطْبَقَةٌ مُغْلَقَةٌ، ويُقال: اسْتَوْصَدْتُ في الجبل، إذا اتَّخذْتَ منه حظيرة من الحجارة للمال، والوَصيدُ: النّباتُ المتقارب الأصول[8]، والوصيدُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾، قيلَ: هو البابُ، وقيلَ: هو فِناءُ الكهفِ، وقيلَ: العَتَبةُ[9].

7) ﴿لَوَلَّيْتَ﴾: أَصْلُ (ولي): يَدُلُّ على قُرْبٍ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أي: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمّا يَليني، أي: يُقارِبُني[10]، وصيغة التضعيف مع التعدية بـ (عن) - ولو تقديرًا - تفيد الإدبار والتّباعد، فيقالُ: ولَّى وتولَّى هاربًا توليةً إذا أدبرَ وذهبَ وفارق ما هو قريب، وولَّى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم: (قلب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بسط).
(4) الجوهري، الصحاح: (بسط).
(5) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (بسط).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصد).
(7) الراغب، المفردات: (وصد)، والجوهري، الصحاح: (أصد، وصد).
(8) الراغب، المفردات: (وصد)، والجوهري، الصحاح: (أصد، وصد).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 624، والزمخشري، الكشاف: 2/ 709، والسمين، عمدة الحفاظ: (وصد).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

عنهُ إذا أعرضَ أو نأى، وكذلكَ: (تولَّى عنهُ)؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ [يوسف: 84][1]، ومعنى ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾: لرجعتَ وأدبرتَ وتباعَدْتَ[2].

8) ﴿فِرَارًا﴾: أصلُ الفَرِّ الكشفُ مع المفارقة والمباعدة، تقولُ: فَرَرْتُ عنِ الدّابةِ فِرارًا إذا كشفتَ عن سِنِّها لتعرفَ كم عمرُها، والافترارُ: ظُهورُ السِّنِّ مِنَ الضَّحكِ، بخفّة وإسراع، ومن هذا الأصلِ الفرارُ بمعنى الانكشاف بالهرب وبالتَّباعُدِ عنْ موضِعٍ[3]، قال تعالى: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾ [المدثر: 51]، والفِرارُ: الرّوغان والهربُ مِنْ شيءٍ يُخافُ[4].

9) ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾: أصل المَلْء يدلّ على تجمّعِ الشّيء في أثناء زمانٍ أو وعاء، يُقال: أقامَ مَليًّا، أي: دهرًا طويلًا، والمُلاءة: ما يَمْلأ البَدَنَ، والمَلأ: النّاسُ والجماعة يجتمعون على رأيٍ[5]، والمَلْءُ: الاسمُ للمقدارِ الَّذي يملأُ، وسُمّيَ به لأنَّه مُساوٍ لوعائِهِ في قَدْرِهِ[6]، ومعنى: ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾: (لاجتمع فيك الرعب).

10) ﴿رُعْبًا﴾: (رعب) أصلٌ يدلّ على امتلاء جوفِ شَيْءٍ طَرِيّ، فالسّنام الرّعيب: الممتلئُ المرتجّ لشدّة طراوته وامتلائه[7]، والرُّعْبُ والرُّعُبُ: الفزعُ، وهو أشدّ الخوف[8]، قال تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: 26]، فيُقالُ لِمَنْ خافَ حَتّى ارْتَعَدَتْ فرائِصُهُ: مَرْعوبٌ ورَعيبٌ، لأنَّهُ امْتَلَأَ فَزَعًا حتّى اهتزّ واضطربَ، فيقال: رَعَبْتُه فَرَعَبَ رُعْبًا، والرُّعْبُ: الانقطاع مِن امْتلاءِ الخَوف[9]، والمراد في الآية: الخوفُ الذي يملأُ الجوفَ حتّى يظهر على البَدَن.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

بَيَّنَتِ الآيةُ حالةَ أصحاب الكهف لمن يراهم يحسبهم في حالِ يقَظَةٍ؛ لانفتاحِ أعيُنهِم

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (ولي).
(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم: (ولي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فرر).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (فرر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ملأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملأ).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رعب).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (رعب).
(9) الراغب، المفردات: (رعب)، والزمخشري، الكشاف: 2/ 709، والسمين، عمدة الحفاظ: (رعب).

أصحابُ الكهفِ تَحوطُهم عين الرِّعايةِ الربانية

وهم نيامٌ، كأنَّهم ينظرونَ إلى مَنْ أمامَهم، ونُحرِّكُ هؤلاءِ الفتيةَ في رَقْدتِهم مرَّةً للجنبِ الأيمنِ، ومرَّةً للجنبِ الأيسرِ؛ كي ينالَ النَّسيمُ جميعَ أبدانِهم، ولا يتأثَّرَ ما يَلي الأرضَ منها بطولِ المُكْث، وكلبُهم مُلْقٍ يديهِ على الأرضِ مبسوطتينِ غيرَ مقبوضتينِ بفِناءِ الكهف، لو شاهدتَهم في رَقْدتِهم التي رقدوها في الكهفِ لأدبرتَ عنهُم هاربًا فارًّا منهُم، ولمُلِئَتْ نفسُكَ حينَ اطِّلاعِكَ عليهِم خوفًا وفَزَعًا؛ لأنَّ اللّهَ قد ألبسَهم هيبةً ووقارًا؛ كي لا يصلَ إليهِم واصلٌ، ولا يلمسَهم أحدٌ حتى يشاءَ اللّهُ[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى بيان عجيب تدبير اللّه تعالى وتصرُّفه في مخلوقاته، وأنَّ اللّه تعالى قادرٌ على حفظهم من الأرض، من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنتُه في الكون، ويربطَ الأسباب بمسبباتها، وإلى أنه إذا كان بعضُ الكِلاب قد نال هذه الدرجةَ العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر اللّه تعالى بذلك في كتابه ﷻ، فما ظنُّك بالمؤمنين الموحِّدين المخالطين المُحبين للأولياء والصالحين؟[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ التعبير بالواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾:

تعدد معاني الواو ثراءٌ للمعنى

آثر القرآن الكريمُ التعبيرَ بالواو في قوله تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا﴾؛ لتعدد معانيها بناءً على الاختلاف في إعرابِ قولِه تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ﴾:

فقيلَ: هي جملة مستأنَفة، وليسَ في الكلام تقديرٌ[3].

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 15/ 128.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 371، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: 472، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 245.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 153، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 213.

وقيلَ: في الكلامِ حذفٌ تقديرُهُ: لو رأيتَهم لحسِبتَهم أيقاظًا[1].

وقيلَ: الواوُ عاطفةٌ لقولِه: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾ على بقيَّةِ القصَّةِ، وما بينَهما - وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ - اعتراضٌ[2].

علةُ إيثارِ فعلِ الحُسْبانِ دونَ غيرِه:

إبرازُ أنَّ في الكلامِ رائحةَ التَّشبيهِ

آثر القرآن الكريمُ التعبيرَ بالحسبان في قوله: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ﴾ دون الظن؛ لأن الحُسْبانَ تغليبُ أحدِ النَّقيضينِ على الآخرِ دونَ إخطارٍ للآخرِ بالبالِ، فقولُهُ: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا﴾ مفادُهُ أنَّ الرائيَ إذا رآهم يحكمُ بأنَّهم أيقاظٌ، ولا يُخطِرُ في بالِهِ أنَّهم نيامٌ؛ بخلاف التعبير بالظن؛ فإنه يطلق على ترجيح أحد الأمرين على الآخر، وهذا غير مراد هنا؛ لأن المشهد يعطي صورة اليقظة.

وأيضًا اختيرَ فعلُ الحُسْبانِ دون الظن، ولم يُقَلْ: (وتظنُّهم)؛ ليكونَ في الكلامِ رائحةُ التشبيهِ، فقولُكَ مثلًا: (حسِبتُ زيدًا في جُرْأتِه الأسدَ، وعمرًا في جودِهِ الغَمامَ) حاصلُهُ تشبيهُ زيدٍ بالأسدِ وعمرٍو بالغَمام، وحاصل ما في الآيةِ تشبيهُ أهلِ الكهفِ في حالِ نومِهم بالأيقاظِ في بعضِ صفاتِهم؛ لأنَّهم كانوا مفتَّحي العُيونِ في حالِ نومِهم[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في فعلِ الحُسْبانِ:

الدَّلالةُ على تكرُّرِ هذا الأمرِ مدَّةَ لبثِهم في الكهفِ

آثر القرآن الكريمُ التعبيرَ بالمضارع في قوله سبحانَهُ: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا﴾ دون الماضي؛ لأن المشهد صفةُ حالٍ قدِ انقضَتْ، وجاءَتْ أفعالُها مستقبَلَةً تجوُّزًا واتِّساعًا[4]، للدَّلالةِ على أنَّ ذلكَ يتكرَّرُ مدَّةً طويلةً[5].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 444.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 280.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 8/ 156.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 503.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 280.

سرُّ عدم تعيينِ المخاطَبِ في ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ﴾:

احتمالُ الخطابِ للعُمومِ والخُصوصِ

لم يعين القرآن الكريم المخاطَبَ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾؛ لاحتماله للعموم والخصوص؛ فيمكن أنْ يكونَ خاصًّا للنَّبيِّ ﷺ، أي: وتحسَبُ يا محمَّدُ[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ عامًّا لكلِّ أحدٍ، أي: وتحسَبُ أيُّها المخاطَبُ[2].

ومِثلُ ذلكَ يقالُ في المقطع الثاني من الآية الكريمة: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾.

دلالة التعبير بالإضمار في ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ﴾:

الإشارةُ إلى حالة رقود الفتيةِ التي تشبه النوم

آثر القرآن الكريم التعبير بالإضمار عن الفتية في ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾، ولم يقل: (وتحسَبُ يا محمَّدُ ﷺ، أو أيُّها المخاطَبُ الفتيةَ الَّذينَ قصَصْنا عليكَ قصَّتَهم أيقاظًا وهُم نيامٌ)[3]؛ للإشارة إلى أنهم في موضع الخفاء؛ لأنهم في حالة الرقود التي تشبه النوم؛ فحالة الظهور غير مناسبة لهذا المشهد.

سر التعبير بجمع القلة ﴿أَيۡقَاظٗا﴾:

الدلالة على قلَّة حركتهم

آثر القرآن الكريم التعبير بجمع القلة ﴿أَيۡقَاظٗا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا﴾: جمعُ (يَقِظٍ) بكسر القافِ؛ كـ (أنكادٍ) في (نَكِدٍ)[4]، أو جمعُ (يَقُظٍ) بضمِّ القافِ[5]؛ للدلالة على أن اللّه ﷻ أراكهم وكلَّ مخاطب أن حركتهم قليلة المرات.

معنى الواوِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾:

الواوُ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾ للحالِ، أي: وتظنُّهم أيقاظًا

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 623.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2 708، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 152.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 623، والزمخشري، الكشاف: 2/ 708.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/ 708، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 280.
(5) السمين، الدر المصون: 7/ 459، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 280.

تصوير مشهد حال الفتية في الكهف

لانفتاحِ أعيُنِهم والحالُ أنَّهم راقدونَ نائمونَ[1]، وهذهِ الجملةُ تقريرٌ لِما لم يُذكَرْ فيما سبقَ؛ اعتمادًا على ذكرِهِ السّابقِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ [الكهف: 11][2].

وجهُ حسبانهم أيقاظًا مع أنهم رقود:

عبر القرآن الكريم عن وصف حال فتية الكهف لمن يراهم، يحسبهم أيقاظًا مع أنهم رقود لانفتاح أعينهم، ومثل ذلك منشأ ظن أنهم أيقاظ أو لكثرة تقلبهم، وكثرة التقلب توحي لمن يراهم اليقظة دون الرقود.

بلاغةُ إيثارِ الرُّقودِ في قولِهِ: ﴿وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾:

اختيارُ ما هو أبلغُ في تأديةِ المعنى المرادِ

أوثِرَ الرُّقودُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾ على الرقاد والهجوع والنوم؛ لما في لفظ الرقود من معنى يميزه عن بقية الألفاظ المشتركة معه في الحقل الدلالي التي سبق ذكرها، إذ إنه يطلق على المستطاب من النوم القليل، بخلاف الهجوع فيطلق على النوم ليلًا فقط، قال تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾ [الذاريات: 17]، أما النوم فيطلق على معانٍ متعددة منها استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، ويطلق على توفّي الله الأنفسَ من غير موت، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: 42]، وقيل للنوم موت خفيف، والموت نوم ثقيل[3].

ومما يؤكد ذلك استعمال القرآن في التفريق بينهما، حيث جعل الرُّقادَ أشدَّ مِنَ النَّوم؛ قالَ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩﴾ [القلم: 19]، وقالَ: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52][4].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 16/ 302.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 212.
(3) الراغب، المفردات: (نوم).
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 82.

سرُّ إيثار جمعِ الكثرة في ﴿رُقُودٌ﴾ دون جمع القلة:

المبـالغـة في وصفهم بالرقاد

آثر القرآن الكريم جمع الكثرة ﴿رُقُودٌ﴾ في قولِه: ﴿وَهُمۡ رُقُودٌ﴾ دون جمع القلة (راقدون)؛ للمبالغة في وصفهم بالرقاد؛ لأنه هو الآية المعجزة في قصتهم، والنوم هو الحقيقة التي قررها النظم القرآني من قبل في قوله: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ [الكهف: 11]؛ فبالغ في شدة النوم باستعارة الضرب له، أما اليقظة فهي حسبانٌ وتَخيُّلٌ يقع للرائي من انفتاح عيونهم وتقلُّبِهم ذات اليمين وذات الشمال؛ لذلك ناسب استعمال جمع الكثرة ﴿رُقُودٌ﴾؛ للإيحاء بشدة نومهم الذي لا يقطع استغراقَه حركةُ تقلبهم لتتجاوب مع الاستعارة في قوله: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ [الكهف: 11]، يؤكد ذلك ما قاله الزمخشريُّ - ومن تبعه -: "أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات"[1]، وبذلك تلتقي صيغة جمع الكثرة مع القول بأن الرقود مصدرٌ أُطلِقَ على الفاعلِ، واستوى فيهِ القليلُ والكثيرُ؛ كرُكوعٍ وقُعودٍ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه: ﴿وَهُمۡ رُقُودٌ﴾:

نـومُ الـفـتـيـةِ ثابتٌ ما لَبِثوا في كهفِهم

جيءَ في الإخبارِ عن نومِ الفتيةِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَهُمۡ رُقُودٌ﴾ بالجملةِ الاسميَّةِ دون الفعلية (يرقدون)؛ للدَّلالةِ على أنَّ نومَهم دائمٌ مُستمِرٌّ مدة لُبْثِهم في الكهفِ[3]، ولو عبر بالفعلية التي تدلُّ على التجدد والحدوث لذهب المعنى الإعجازي الذي أراده القرآن من قوله: ﴿وَهُمۡ رُقُودٌ﴾ بوصف الدوام والاستمرار.

دلالة تقديم المسنَد إليه في قوله: ﴿وَهُمۡ رُقُودٌ﴾:

قُدِّمَ المسنَد إليه في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ رُقُودٌ﴾؛ لتقوية الحكم لا للحصر[4].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 705.

(2) الخضري، الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، ص: 171.

(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 37.

(4) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 38.

بلاغةُ الطباق بينَ الإيقاظِ والرُّقودِ:

الجمعُ بينَ معنيينِ متقابلينِ

جُمِعَ بينَ الإيقاظِ والرُّقودِ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾؛ لِما في الجمعِ بينَهما مِنْ صنعةِ الطِّباقِ، وهو مُحسِّنٌ معنويٌّ للكلامِ، يَرسُمُ في ذهنِ السّامعِ صورةَ نائمينَ يُظَنّونَ أنَّهُم بخلافِ ذلكَ، وفيه إبرازٌ وتجليةٌ لقُدرةِ اللّهِ الحافظِ لأوليائِهِ!

بلاغةُ الإدماجِ في قولِه: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾:

بيانُ كرامةِ الفتيةِ وعظيمِ قُدرةِ اللهِ في شأنِهم

في قولِه تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾ المعطوفِ على ما تقدَّمَ مِنْ تفاصيلِ القصَّةِ انتقالٌ إلى ما في حالِ الفتيةِ مِنَ العبرةِ لِمَنْ لو رآهُم مِنَ النّاسِ، مُدمَجٌ فيهِ بيانُ كرامتِهم على اللّهِ، وعظيمِ قُدرةِ اللّهِ في شأنِهم، وهو تعجيبٌ للرّائي مِنْ حالِهم[1].

معنى الواوِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ﴾:

تعدد معانيها ثراءٌ للمعنى

اختُلِفَ في دلالةِ الواوِ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾:

فقيلَ: الواوُ استئنافيَّةٌ، وقولُهُ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ خبرٌ مستأنَفٌ للإخبارِ بحالٍ جديدٍ من أحوالِهم العجيبةِ[2].

وقيلَ: يجوزُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ، وجملةُ ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ حاليَّةٌ أيضًا؛ كجملةِ ﴿وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾؛ وفائدتُها بيانُ أنَّ ظنَّ الرّائي أنَّهم أيقاظٌ بسببِ كثرةِ تقلُّبِهم[3].

علةُ التعبير بالتقليب دون الحركة:

التقلُّب هو المناسبُ حالة الرقود في النوم

آثر القرآن الكريم التعبير بالتقليب في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ﴾ دون الحركة؛ لأن التقليب يطلق على صرف الشيء عن وجهه إلى وجه آخر، كقلب الثوب وقلب الإنسان، أي صرفه عن طريقه، ويطلق

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 280.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 503، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 153، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 214.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/ 427.

على تغيير وضع الشيء من ظاهره إلى باطنه؛ بخلاف الحركة فإنها تطلق على انتقال الجسم من مكان إلى مكان، وهذا غير مراد في مشهد أصحاب الكهف، بل المراد صرفهم من ذات اليمين إلى ذات الشمال، وليس انتقالهم من المكان، ولأن التقلُّب هو المناسب مع حالة الرقود في النوم.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفعيلِ معَ المضارعِ في التقلُّب:

الـدَّلالـةُ على كـثرةِ التَّقليبِ واستمرارِه التَّجدُّديِّ

جيءَ بصيغةِ التَّفعيلِ في قولِه ﷻ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾، ولم يُقَلْ: (ونَقلِبُهم) بالتخفيفِ؛ للدَّلالةِ على كثرةِ تقليبِهم[1]؛ لأنَّ الغرضَ مِنْ هذا التَّقليبِ صيانةُ أجسادِهم مِنْ أنْ تأكلَها الأرضُ، وهذا يستدعي كثرةَ فعلِ ذلكَ بهِم؛ لأنَّ مُدَّةَ لُبْثِهم في الكهفِ كانَتْ طويلةً، ويُعزِّزُ ذلكَ استعمالُ صيغةِ المضارعِ ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ﴾ الدالَّةِ على الاستمرارِ التَّجدُّديِّ[2]، وهذا التَّجدُّدُ بحسَبِ الزَّمنِ المحكيِّ، ولا يلزمُ أنْ يكونوا كذلكَ حينَ نزولِ الآيةِ[3].

دلالة إسنادِ التَّقليبِ إلى اللهِ سبحانَهُ بنونِ العظَمةِ:

بيانُ مزيدِ اعتناءِ اللهِ جلَّ شأنُهُ بأمرِ الفتيةِ

أُسنِدَ التَّقليبُ إلى اللهِ سبحانَهُ في ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ مقرونًا بنونِ العظَمةِ؛ لبيانِ مزيدِ اعتناءِ اللهِ بشأنِ الفتيةِ وحفظِهم وصيانتِهم عنِ الآفاتِ التي تفسد أبدانهم على طول الزمان؛ فلو لم يقلَّبوا لأكلتهم الأرض؛ لذلك أُسنِدَ التَّقليبُ إلى ذي العظَمةِ والجلالِ ﷻ؛ لأنه هو الفاعلُ لذلكَ[4] على الحقيقة، القادر على خلق التقلب لهم على صورته الحالية على الأسباب العادية، وفيه إشارةٌ إلى أن رعاية الأسباب لا تُعارِض خوارق العادات.

وفيه دعوة إلى تعليم الإنسان كيف يتقى الأذى ويدفع الضرر عن

---

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 36، والواحدي، البسيط: 13/ 557.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 82، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 214.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 281.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 153، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 29.

نفسه، وهذا مأخوذ من حركة التقلب التي يلزم من تعبير القرآن عنها أنها كانت بمشهد من الخلق، وإلا لو كانت خفيةً فما الفائدة من إظهار هذه الخارقة ؟.

سر إسناد التقليب إلى الفتية دون الكلب:

الحفاظُ على أجسادهم، وخصائص جسم الكلب تمنع تحلُّله

أسند القرآن الكريم التقليب إلى الفتية ولم يسنده إلى الكلب؛ لبيان الفرق بين جسد الإنسان وجسد الكلب؛ فلكل منهما خصائصه التي تميزه؛ فناسب مع الإنسان التقليبُ للحفاظ على جسده من العفونة والتحلل، أو ما يسمونه الآن حديثًا بـ"قرحة الفراش"؛ لذلك كان تقليب المريض الذي طال مرضه مطلب أساس للحفاظ عليه من قرحة الفراش؛ أما جسد الكلب فاكتشفَ العلمُ حديثًا وجود غدد في جسمه تساعده على المكث دون حركة مدة طويلة من الزمن[1].

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾:

اللّامُ عِوضٌ عن المضافِ إليهِ، أو للعهدِ

تحتملُ اللّامُ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ أنْ تكونَ عوضًا عنِ المضافِ إليهِ، ويحتملُ أنْ تكونَ للعهدِ، والمعنى على الوجهينِ: ونُقلِّبُهم جهةَ يمينِهم وجهةَ شِمالِهم[2]، وليسَ المرادُ: جهةَ يمينِ الكهفِ وجهةَ شِمالِهِ[3]، وحكمةُ ذلكَ: أنَّ اللّهَ أجرى عليهِم حالَ الأحياءِ الأيقاظِ، فجعلَهم تتغيَّرُ أوضاعُهم مِنْ أيمانِهم إلى شمائلِهم، ومِنْ شمائلِهم إلى أيمانِهم؛ لتبقى أجسامُهم بحالةِ سلامةٍ[4].

بلاغةُ الإيجازِ في قولِهِ: ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾:

الاستغناءُ بالصِّفةِ عنِ الموصوفِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّ ﴿ذَاتَ﴾ بمعنى صاحبةٍ، وهي صفةٌ لمحذوفٍ يدلُّ عليهِ

(1) موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي.
(2) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 37.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 16/ 303.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 281.

الكلامُ، والتَّقديرُ - كأنَّهُ قيلَ -: ونُقلِّبُهم جهةً صاحبةَ اليمينِ وجهةً صاحبةَ الشِّمالِ.

بلاغةُ الطباق بينَ ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ و﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾:

إبـراز المعنى وتصويره في ذهن السامع

جُمِعَ بينَ جهتَي اليمينِ والشِّمالِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾؛ مراعاةً لُمحسِّنٍ معنويٍّ؛ وهو الطِّباقُ بينَهما؛ ليقعَ في ذهنِ السّامعِ عندَ تصوُّرِ صورةِ تقليبِ الفتيةِ معنيانِ متقابلانِ، أحدُهما الجهةُ الواقعةُ عن امتدادِ أيمانِهم، والآخرُ الجهةُ الواقعةُ عن امتدادِ شَمائلِهم.

معنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَكَلۡبُهُم﴾:

بيانُ حالِ الكلبِ عندَ حِراستِهم وهم نيامٌ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ للحالِ، والمعنى: ونُقلِّبُ أجسادَهم جهةَ أيمانِهم وجهةَ شمائلِهم، والحالُ أنَّ كلبَهم باسطٌ ذراعيهِ عندَ بابِ الكهفِ وفِنائِهِ.

دلالة وصف الكلب ببسط ذراعيه:

دَلَّ وصفُ الكلب ببسط ذراعيه في قوله تعالى: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ على العنايةِ بهم؛ فكما حفظَهم اللّهُ بالتَّقليبِ عن إهلاكِ الأرضِ، حفظَهم عن الأعداءِ بكلبٍ[1].

غرضُ إضافةِ الكلبِ إلى الفتيةِ في قولِهِ: ﴿وَكَلۡبُهُم﴾:

الدلالة على أن من أحب أهل الخير نال من بركة صحبتهم

اختُلِفَ في وجهِ إضافةِ الكلبِ إلى الفتيةِ في قولِهِ عزَّ سلطانُهُ: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ من ناحية ملكيته وعدمها: فقيلَ: هو كلبٌ مرّوا به، فتبعَهم فطرودهُ مرارًا فلم يرجعْ، فأنطقَهُ اللّهُ تعالى فقالَ: لا تخشَوْا جانبي؛ فإنّي أحبُّ أحبّاءَ اللّهِ، فناموا حتى أحرسَكم، وقيلَ: هو كلبُ راعٍ قد تبعَهم على دينِهم[2]، وقيلَ:

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 13.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276.

كلبُ صيدِ أحدِهم أو زَرْعِهِ أو غَنَمِهِ[1]، والإضافةُ في جميعِ الأقوالِ لأدنى ملابَسةٍ.

ومِنْ لطائفِ صُحبةِ الكلبِ لهُم: أنَّ مَنْ أحبَّ أهلَ الخيرِ نالَ مِنْ بركتِهم، فهذا كلبٌ أحبَّ أهلَ فضلٍ وصحبَهم فذكرَهُ اللهُ في كتابِهِ[2]، فأعظِم بإضافةِ الكلبِ إليهم!

سر التعبير بالاسمية في ﴿بَٰسِطٌ﴾:

التعبيرُ بالاسمية مشعرٌ بثباتِ الصفة واستمرارها

آثر القرآن الكريم التعبير بالاسمية في قوله تعالى: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾، دون التعبير بالفعلية (يبسط)؛ للوظيفة المنوطة بالكلب من ناحية الحماية والحراسة لهم من الأعداء؛ فلو عبر بالفعل (يبسط) لم يؤدِ الغرض المطلوب من وجوده؛ لأن الفعل يدل على التجدد في الحركة، ومعنى ذلك أن الكلب يبسط ذراعيه مرة بعد مرة، وهذا غير مراد؛ لأنه يلفت نظر الأعداء لهؤلاء الفتية؛ أما التعبير بالاسمية فهو مشعرٌ بثبات الصفة واستمرارها، وهذا معنىً مقصود في الحفاظ على الفتية.

سببُ إعمالِ ﴿بَٰسِطٌ﴾ في ﴿ذِرَاعَيۡهِ﴾:

حكايةُ الحالِ الماضيةِ وتحققها

الأصلُ في اسمِ الفاعلِ عندَ كثيرٍ مِنَ النُّحاةِ: أنَّهُ لا يعملُ إذا كانَ بمعنى الماضي أو الاستمرارِ، وأمّا في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾؛ فقد أُعمِلَ ﴿بَٰسِطٌ﴾، ونصبَ ﴿ذِرَاعَيۡهِ﴾؛ لأنَّهُ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ[3].

ومعنى حكايةِ الحالِ الماضيةِ عندَ النُّحاةِ: أنَّ القصَّةَ الماضيةَ كأنَّها عُبِّرَ عنها في وقوعِها بصيغةِ المضارعِ كما هو حقُّها، ثمَّ حُكِيَتْ تلكَ الصّيغةُ بعدَ مُضيِّها[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 624، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 212.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 504، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 144.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/ 709، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 504، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276.

(4) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 38.

سرُّ تخصيص الذِّراعينِ بالذكر دونَ باقي أعضاءِ الكلبِ:

بيانُ الهيئةِ الَّتي يكونُ عليها الكلبُ عندَ الحراسةِ

ذُكِرَ الذِّراعانِ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ دونَ باقي أعضاءِ الكلبِ؛ لأنَّ المقصودَ الإشارةُ إلى أنَّهُ كانَ حارسًا لهُم، والكلبُ يَبْسُطُ ذراعيهِ عادةً عندَ الحِراسةِ[1]، وفي ذكرِهما ردٌّ لقولِ مَنْ قالَ: إنَّ المرادَ بالكلبِ: رجلٌ منهُم قعدَ عندَ بابِ الغارِ حارسًا لهُم، فسُمِّيَ باسمِ الحيوانِ اللَّازمِ لذلكَ الموضعِ مجازًا، ووجهُ الرَّدِّ: أنَّ بَسْطَ الذِّراعينِ في العُرْفِ مِنْ صفةِ الكلبِ حقيقةً[2].

وجهُ التعبير بالوصيد دون غيره:

اجتماعُ معاني الوصيدِ هو المناسب للسياق

عبر القرآن الكريم بالوصيد في قوله تعالى: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾، دون غيره؛ لتعدد المعاني التي يحتملها لفظ الوصيد؛ فيطلق على الباب، وعلى عتبة الباب، ويطلق على مجرد الفِناء داخل الكهف، ويترتب على ذلك تحديد موضع الكلب؛ فإذا كان الوصيد هو عتبة الباب؛ فالكلب يكون داخل باب الغار، وإن كان المراد به الفِناء؛ فالكلب يكون خارج باب الغار؛ لهذه المعاني كان التعبير بالوصيد هو المناسب للسياق[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾:

بيانُ موضعِ الدخولِ من الكهفِ

استُعيرَ الوصيدُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ لمدخَلِ الكهفِ؛ لأنَّ الكهفَ لا يكونُ لهُ بابٌ ولا عَتَبَةٌ، وإنَّما المرادُ موضعُ الدُّخولِ منهُ[4]، شُبِّهَ بالبابِ الَّذي هو الوصيدُ؛ لأنَّهُ يوصَدُ ويُغلَقُ[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لَوِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾:

امتناعِ التَّولّي لامتناعِ الاطِّلاعِ

عُبِّرَ بـ ﴿لَوِ﴾ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 225.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 372، والشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 225.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 150.
(4) ابن عادل، اللباب: 12/ 445.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 281.

﴿فِرَارٗا﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (إذا اطَّلعتَ)؛ لأنَّها حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ، فتفيدُ في هذا المقامِ أنَّ التولّيَ فِرارًا لم يقعْ؛ لأنَّ الاطِّلاعَ على الفتيةِ وهم نائمونَ بهيئتِهم الَّتي يَكْسوها الهَيْبَةُ والوقارُ لم يقعْ؛ لأنَّ الكلامَ عن قصَّةٍ خلَتْ في القُرونِ السّالفةِ، ولا يُتصوَّرُ مِنَ المخاطَبِ الاطِّلاعُ عليها حقيقةً.

علةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿ٱطَّلَعۡتَ﴾:

مراعاة الاستعمال اللغوي لـ(لو)

عُبِّرَ بالفعلِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾؛ لأنَّ (لو) للشَّرطِ في الماضي، فيلزمُ في جملتيها الفعليَّةُ الماضويَّةُ[1]، أي: لو اطَّلعتَ عليهم حينَ كانوا في تلكَ الحالةِ قبلَ أنْ يبعثَهم اللهُ لهربتَ مِنْ شدَّةِ الخوفِ، ولامتلأ قلبُكَ هَلَعًا وفَزَعًا[2].

سر اصطفاء الفعلِ ﴿ٱطَّلَعۡتَ﴾:

تنوُّعُ وجوهِ بلاغتِه مِنْ حيثُ الصّيغةُ والتَّضمينُ والمجازُ

في التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿ٱطَّلَعۡتَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾ بلاغةٌ مِنْ وجوهٍ:

أحدُها: أنَّ الاطِّلاعَ في الأصلِ: الإشرافُ على الشَّيءِ ورؤيتُه مِنْ مكانٍ مرتفعٍ[3]، لأنَّهُ افتعالٌ مِنْ طَلَعَ إذا ارتقى جبلًا، فصيَغُ الافتعالِ للمبالغةِ في الارتقاءِ[4].

وثانيها: أنَّهُ ضُمِّنَ معنى الإشرافِ، فعُدّيَ بـ(على)[5].

وثالثُها: أنَّهُ استُعمِلَ مجازًا مشهورًا في رؤيةِ الشَّيءِ الَّذي لا يراهُ أحدٌ[6].

(1) التفتازاني، المختصر، ص: 284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 281.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 213.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 282.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 282.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 282.

سرُّ تقديمِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على ﴿فِرَارٗا﴾:

تعجيلُ ذكرِ المَخوفِ منهُ

لمّا كانَ حالُ الفتيةِ وهُم رُقودٌ في كهفِهم على درجةٍ عظيمةٍ مِنَ الهَيْبةِ والإخافةِ، بحيثُ لو اطَّلعَ أحدٌ على شأنِهم، ورآهُم على ما هُم عليهِ لأخذَ الهَلَعُ والفَزَعُ بمَجامعِ قلبِهِ - بُولِغَ في إفادةِ أنَّ الرّائيَ لا يملكُ نفسَهُ عندَ رؤيتِهم عن الهربِ، وذلكَ بتقديمِ المَخوفِ منهُ المُعبَّرِ عنهُ بـ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ المفيدِ تعجيلَ المَساءةِ، فقالَ تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾.

سر الجمع بين التولي والفرار:

الفرارُ نوع من التولية، فبينهما عموم وخصوص

جمع القرآن الكريم بين التولي والفرار في قوله تعالى: ﴿لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾؛ لتأكيد وصف هذه الحالة التي تعتري من يطلع عليهم لو اطّلع؛ لأن الفرار نوع من التولية؛ فبينهما عموم وخصوص من وجه، وهذا مادة الاجتماع في التحقق، ومادة الافتراق تولي الظهر بلا فرار، والفرار حين المواجهة بدون تولي الظهر[1].

إعرابُ ﴿فِرَارٗا﴾ وأثره في المعنى:

نَصْبُ (فِرارًا) على المصدرية أو الحالية أو مفعولٍ لهُ

يحتملُ ﴿فِرَارٗا﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾ وجوهًا مِنَ الإعرابِ، منها: أنَّهُ منصوبٌ على المصدرِ لبيانِ النَّوعِ؛ لأنَّ معنى ﴿لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ﴾: لفَرَرْتَ منهُم[2]، فالتولي والفرار من واد واحد، وهو كقولِكَ: قعدتُ جُلوسًا[3]، ومن وجوه الإعراب: أنَّهُ حالٌ[4]؛ أي: (لولَّيتَ منهُم فارًّا)، وتكونُ الحالُ مؤكِّدةً[5]؛ كقولِهِ تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا﴾ [النمل: 19][6]، وتُعرب أيضًا: مفعولٌ لهُ[7]؛ لأنَّ التولّيَ بمعنى الرُّجوعِ[8].

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 39.
(2) الزجاج، معاني القرآن: 3/ 275، والواحدي، البسيط: 13/ 563.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 82.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276.
(5) السمين، الدر المصون: 7/ 461.
(6) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 82.
(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 154.
(8) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 82.

تصويرُ الهيئة المُخيفةِ لأصحاب الكهف

نكتةُ التعبير بالفرار دون الهروب:

آثر القرآن الكريمُ التعبير بالفرار في قوله تعالى: ﴿لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾ دون (هروبًا)؛ لوجود فرق بينهما؛ فالفرار يكون مع الخوف؛ بخلاف الهروب فقد يكون مع خوف أو دون خوف؛ يؤكد هذا استعمالُ القرآن الكريم ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾ [الشعراء: 21]؛ فذُكِر سبب الفرار بالخوف؛ بخلاف الهروب الذي ورد ذكره في قوله تعالى في سورة الجن بقوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢﴾ [الجن: 12].

الاشتراك بين قوله (ولَمُلِئْتَ مِنْهُم رُعْبًا) وقوله (لوليت منهم فراراً)

معنى الواوِ في ﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾:

يفيدُ مجموعُ قولِه جلَّ شأنُه: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾ أنَّ الرّائيَ لو اطَّلعَ على أهلِ الكهفِ وهم نائمونَ لترتَّبَ على ذلكَ أمرانِ؛ وهما تولّيهِ فارًّا، وامتلاءُ قلبِه رُعْبًا، وكلاهما ممتنعٌ لامتناعِ فعلِ الشَّرطِ؛ وهو ﴿ٱطَّلَعۡتَ﴾ الواقعُ بعدَ ﴿لَوِ﴾، وقد دلَّ على هذا التشريكِ في الحكمِ بينَهما واوُ العطفِ.

إبراز المبالغة في الفعل مع تعدد اللغات

معنى القراءاتِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمُلِئۡتَ﴾:

قُرِئَ قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَمُلِئۡتَ﴾ بقراءتينِ في المتواتر: إحداهما: بتشديدِ اللّامِ ﴿وَلَمُلِّئۡتَ﴾، وهي قراءةُ نافعٍ وأبي جعفرٍ وابنِ كثيرٍ، والثانية: بتخفيفِ اللّامِ، وهي قراءةُ الباقينَ[1].

والمعنى واحدٌ إلّا أنَّ في التَّشديدِ مبالغةً في المَلْءِ[2]، كأنَّه قيلَ: مُلِئْتَ ثمَّ مُلِئْتَ ثمَّ مُلِئْتَ[3].

إبراز المعنى المعقول في صورة المحسوس

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾:

تظهر بلاغة الاستعارة التمثيلية في قوله تعالى: ﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 310، والقاضي، البدور الزاهرة، ص: 191.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 444.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 504.

﴿رُعۡبٗا﴾ في تمثيل الصِّفةُ النَّفسيَّةُ بالمظروفِ، ومُثِّلَ عقلُ الإنسانِ بالظَّرفِ، ومُثِّلَ تمكُّنُ الصِّفةِ مِنَ النَّفسِ بمَلْءِ الظَّرفِ بالمظروفِ؛ فكانَ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ[1]، كأنَّ الرّائيَ مُلِئَ رُعْبًا مِنْ قَرْنِهِ إلى قَدَمِهِ[2].

نكتةُ تقديمِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على ﴿رُعۡبٗا﴾:

زيادةُ التَّهويلِ والتَّخويفِ

قُدِّمَ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على ﴿رُعۡبٗا﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تهويلٍ لحالِ الفتيةِ وهُم رُقودٌ في كهفِهِم، فبولِغَ أوَّلًا في إفادةِ أنَّ الرّائيَ لهُم لا يملكُ نفسَهُ عن الهربِ مِنْ شدَّةِ الخوفِ، فقيلَ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾ بتقديمِ المَخوفِ منهُ المُعبَّرِ عنهُ بـ ﴿مِنۡهُمۡ﴾، ثمَّ زيدَتِ المبالغةُ ببيانِ أنَّ الرائيَ لهُم تُملأُ نفسُهُ بالهَلَعِ والفزَعِ، فقيلَ: ﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ بتقديمِ المُرعِبِ المعبَّرِ عنهُ بـ ﴿مِنۡهُمۡ﴾؛ ليفيدَ هذا التَّقديمُ مفاجأةَ نفسِ الرّائي بالذُّعرِ في أوَّلِ لحظاتِ وقوعِ عينِهِ عليهِم وهُم على هذا الحالِ المَهيبِ، إضافةً إلى أنَّ هذا التَّقديمَ يترتَّبُ عليهِ مراعاةُ تلاؤمِ الفواصلِ.

بلاغةُ تكرارِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

زيادةُ تأكيدِ حصولِ الخوفِ والهلعِ للمُطَّلِعِ على الفتيةِ وهُم رُقودٌ

كُرِّرَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾؛ لتأكيدِ حصولِ الخوفِ والهَلَعِ للمُطَّلِعِ على الفتيةِ وهُم رُقودٌ في كهفِهِم؛ لأنَّ هذا التَّكرارَ أفادَ أنَّ هيئتَهم باعثٌ لهُ على الهربِ فزَعًا، وباعثٌ لهُ على الهَلَعِ الشَّديدِ الَّذي يأخذُ بمَجامعِ القلبِ والنَّفسِ.

إعرابُ ﴿رُعۡبٗا﴾ وأثرُه في المعنى:

يحتملُ ﴿رُعۡبٗا﴾ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ أنْ يكونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 282.

(2) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 39.

ثراءُ المعنى بحصول التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ

مفعولًا ثانيًا لـ﴿وَلَمُلِئۡتَ﴾[1]، ويحتمل أنْ يكونَ تمييزًا، وهو تمييزُ نسبةٍ مُحوَّلٌ عنِ الفاعلِ[2] إذ تقديرُهُ: ولَمُلِئَ رُعْبُكَ، على أنَّ الإسنادَ مجازٌ عقليٌّ؛ مِثلُ: سيلٌ مُفعَمٌ[3]، وهذا الإعراب اشتمل على نُكَتٍ، منها التَّفصيلُ بعدَ الإجمالِ على نصبِ ﴿رُعۡبٗا﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ على التمييز، وهو تمييزُ نسبةٍ مُحوَّلٌ عن الفاعلِ في المعنى[4]؛ لأنَّ الرُّعْبَ هو الَّذي يملأُ - وكونُ الرُّعْبِ يملأُ مجازٌ عقليٌّ مشهورٌ لإفادةِ عِظَمِهِ؛ كما يقالُ في الحُسْنِ: إنَّهُ يملأُ العُيونَ[5] - فلمّا بُنِيَ الفعلُ لما لم يسمَّ فاعله؛ لقصدِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ صارَ ما حقُّهُ أنْ يكونَ فاعلًا تمييزًا، وهو إسنادٌ بديعٌ حصلَ منهُ التَّفصيلُ بعدَ الإجمالِ[6].

نكتةُ تأخيرِ ملءِ الرعب عن التولية بالفرار:

الرُّعْبُ مِنَ الفتيةِ سابقٌ على القُرْبِ منهُم ومُتأخِّرٌ عنهُ

تأخيرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ عن قولِهِ: ﴿لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾ دونَ العكسِ؛ للإيذانِ باستقلالِ كلٍّ منهُما في التَّرتُّبِ على الاطِّلاعِ؛ إذ لو روعيَ ترتيبُ الوجودِ - وهو المَلْءُ رُعْبًا ثمَّ الفِرارُ - لتبادرَ إلى الفهمِ ترتُّبُ المجموعِ مِنْ حيثُ هو هو عليهِ، وللإشعارِ بعدمِ زوالِ الرُّعْبِ بالفِرارِ كما هو المعتادُ[7]، وفي ذلكَ إشارةٌ لشدَّةِ الخوفِ منهُم؛ لأنَّ الهاربَ مِنْ شيءٍ مَخوفٍ إذا بَعُدَ عنهُ اطمأنَّتْ نفسُهُ، وأَمِنَ مِنْ خوفِهِ، والهاربُ منهُم لا يزالُ مرعوبًا؛ فالرُّعْبُ منهُم سابقٌ على القُرْبِ منهُم ومتأخِّرٌ عنهُ[8].

---

(1) السمين، الدر المصون: 7/ 461، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 216.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 216، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 283.
(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 39.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 154.
(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 82، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 216.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 283.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 213.
(8) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 82.

سر التعبير بالرعب دون الخوف:

آثر السياق الكريمُ التعبير بالرعب دون الخوف؛ لوجود فرق بينهما؛ فالرعب هو الخوف الذي يملأ الصدر والقلب، بخلاف الخوف؛ فهو توقع مكروه في المستقبل عن أمارة مظنونة أو معلومة، والمناسب هنا هو التعبير بالرعب الناتج عن شدة الخوف بسبب الهيئة التي هم عليها، والهيبة التى ألبسهم اللّه إياها من عظيم خلقتهم وانفتاح عيونهم.

تصويرُ الرعب الناتج عن شدة الخوف من هيئة أصحاب الكهف

نكتةُ تنكيرِ ﴿رُعۡبٗا﴾:

لّما كانَ المقامُ مقامَ تهويلٍ وتعظيمٍ لهيئةِ الفتيةِ وهم رُقودٌ في كهفِهم، وبولِغَ في إفادةِ شدَّةِ استيلاءِ هَيْبتِهم على قلبِ المُطَّلِعِ عليهم - كانَ مِنْ جملةِ عناصرِ التَّهويلِ تنكيرُ ﴿رُعۡبٗا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾؛ لما يُفيدُهُ هذا التَّنكيرُ مِنْ أنَّ الرُّعْبَ الَّذي يَغمُرُ نفسَ الرّائي رُعْبٌ عظيمُ الشَّأنِ لا يُقادَرُ قَدْرُ هَوْلِه وفظاعتِه، فهو كالسَّيلِ العَرِمِ يجتاحُ عقلَ الرّائي وقلبَهُ ونفسَهُ، ويَفيضُ مِنْ جوانحِه.

التَّهويلِ والتعظيم لهيئة الفتية

۞ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحُسْبانُ والظَّنُّ:

فُرِّقَ بينَ الحُسْبانِ والظَّنِّ: بأنَّ الحُسْبانَ: أنْ يحكمَ لأحدِ النَّقيضينِ مِنْ غيرِ أنْ يُخطِرَ الآخرَ ببالِه، والظَّنّ: أنْ يُخطِرَ النَّقيضينِ ببالِه، فيُغلِّبَ أحدَهما على الآخرِ[1].

الظَّنُّ فيهِ تغليبٌ لأحدِ النَّقيضينِ على الآخرِ، والحُسْبانُ لا تغليبَ فيهِ

اليقَظةُ والصَّحْوُ:

الصَّحْوُ أعمُّ مِنَ اليقَظةِ؛ فكلاهما يُطلَقُ على التَّنبُّهِ مِنَ النَّومِ، وينفردُ الصَّحْوُ بأنَّهُ يُطلَقُ على الإفاقةِ مِنَ السُّكْرِ[2].

الصَّحْوُ أعمُّ مِنَ اليقَظةِ

(1) الراغب، المفردات: (حسب).

(2) الزبيدي، تاج العروس: (يقظ)، (صحو).

الرُّقادُ والهُجوعُ والنَّومُ:

النَّومُ أعمُّ مِنَ الرُّقادِ والهُجوعِ

فُرِّقَ بينَ الرُّقادِ والهُجوعِ والنَّوم: بأنَّ الهُجوعَ: النَّومُ ليلًا، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾ [الذاريات: 17][1]، وقد يكونُ الهُجوعُ بغيرِ نوم، والرُّقادُ: المُستطابُ مِنَ النَّوم القليلِ[2]، والنّومُ: أعمُّ منهُما؛ لأنَّهُ يكونُ باللّيلِ والنَّهارِ، قليلًا وكثيرًا.

الهربُ والفِرارُ:

الفِرارُ يكونُ معَ خوفٍ، والهربُ يكونُ معَ خوفٍ ودونَ خوفٍ

الفِرارُ: الرَّوغانُ والهربُ مِنْ شيءٍ خافَهُ، والهربُ قد يكونُ معَ خوفٍ، وقد يكونَ دونَ خوفٍ[3]، هذا بحسَبِ الأصلِ، أمّا في استعمالاتِ القرآنِ الكريمِ فقدِ اقترنَ الخوفُ بكلٍّ منهُما؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢﴾ [الجن: 12]، وقولِهِ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾ [الأحزاب: 16]، وقولِهِ: ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾ [الشعراء: 21]، وقولِه: ﴿فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ٥١﴾ [المدثر: 51]، وقولِهِ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾ [الجمعة: 8].

الرُّعْبُ والخوفُ والفَزَعُ والهَلَعُ:

الرُّعْبُ والهَلَعُ والفَزَعُ مراتبُ عاليةٌ مِنَ الخوفِ

اختُلِفَ في معاني هذهِ الكلماتِ، ومِنْ جملةِ ما قيلَ:

الرُّعْبُ: هو الخوفُ الذي يملأُ الصَّدرَ والقلبَ، وقيلَ: هو أشدُّ الخوفِ[4].

والخوفُ: توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ[5].

والهَلَعُ: الجَزَعُ وقلَّةُ الصَّبرِ، وقيلَ: هو أسوأُ الجَزَعِ[6].

والفَزَعُ: انقباضٌ يعتري الإنسانَ مِنَ الشيءِ المُخيفِ، وقيلَ: هو الخوفُ الشديدُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: 103][7].

---

(1) الزبيدي، تاج العروس: (هجع).
(2) الراغب، المفردات: (رقد).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (فرر)، (هرب).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (رعب).
(5) الراغب، المفردات: (خوف).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (هلع).
(7) معجم الفروق اللغوية، ص: 404.

والنّاظرُ في هذهِ المعاني يلحظُ أنَّ بينَها تقاربًا، وأنَّ الرُّعْبَ والهَلَعَ والفَزَعَ مراتبُ عاليةٌ مِنَ الخوفِ، وأنَّ الخوفَ مبنيٌّ على توقُّعِ مكروهٍ، والبواقيَ مبنيَّةٌ على مفاجأةِ شيءٍ مُخيفٍ؛ كهُجومِ غارةٍ وما أشبهَ ذلكَ[1].

(1) معجم الفروق اللغوية، ص: 404.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩﴾

[الكهف: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إعلامُ أهلِ الكهفِ بالعِبرةِ في أنفُسِهم

لمّا تحدثت الآية السابقة عن الآيات والخوارق الكونية التي أعطاها الله لفتية الكهف لتكون عظة وعبرة لكل من سمع عنهم أو رآهم؛ جاءت هذه الآية لتعطف مشهدًا آخر مِنَ القصَّةِ الَّذي فيهِ عِبرةٌ لأهلِ الكهفِ بأنفُسِهم؛ ليعلَموا ما أكرمَهم اللّهُ بهِ؛ مِنْ حفظِهم عن أنْ تنالَهم أيدي أعدائِهم، ومِنْ إعلامِهم عِلمَ اليقينِ ببعضِ كيفيَّةِ البعثِ؛ فإنَّ علمَهُ عظيمٌ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ﴾: السُّؤالُ: استدعاءُ معرفةٍ أو ما يُؤدّي إلى المعرفةِ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ [الإسراء: 85]، واستدعاءُ مالٍ أو ما يُؤدّي إلى المالِ؛ فاستدعاء المعرفة جوابه على اللسان واليد خليقةٌ له بالكتابة أو الإشارة، واستدعاء المال جوابه على اليد واللسان خليقةٌ لها إما بوعد أو بردٍّ، وإذا كان السؤال لاستدعاء مال؛ فإنه يتعدى بنفسه أو بـ(من)؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾ [الأحزاب: 53]، وقوله: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 283.

فَضۡلِهِۦٓ﴾ [النساء: 32]، وتساءَلوا: سألَ بعضُهم بعضًا[1]، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾[2].

2) ﴿لَبِثۡتُمۡۖ﴾: (لبث) أصلٌ يدلُّ على تمكُّثٍ[3]، واللُّبْثُ: الإقامةُ بالمكانِ، يقالُ: لَبِثَ بالمكانِ: أقامَ بِهِ ملازمًا لهُ، قالَ تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: 14][4]، ومعنى ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ﴾: أقمتُم[5].

3) ﴿بِوَرِقِكُمۡ﴾: (ورث) أصلانِ يدلُّ أحدُهما على خيرٍ ومالٍ، والآخرُ على لونٍ مِنَ الألوانِ"[6]، ومِنَ الأصلِ الأوَّلِ: الورِقُ بكسرِ الرّاءِ وسكونها؛ وهو اسمٌ للفضَّةِ؛ سواءٌ كانَتْ مضروبةً أم لا[7]، كما في قولِهِ تعالى: ﴿بِوَرِقِكُمۡ﴾[8].

4) ﴿أَزۡكَىٰ﴾: أصلُ الزَّكاةِ: النُّموُّ الحاصلُ عن بركةِ اللّهِ تعالى، ويكونُ ذلكَ في الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، يقالُ: زَكا الزَّرعُ يَزْكو، إذا حصلَ منهُ نُموٌّ وبركةٌ، ومنهُ الزَّكاةُ لما يُخرِجُه الإنسانُ مِنْ حقِّ اللّهِ تعالى في مالِه إلى الفقراءِ، وتسميتُهُ بذلكَ؛ لما يكونُ فيها مِنْ رجاءِ البركةِ، أو لتزكيةِ النَّفسِ، أو لهُما جميعًا، فإنَّ الخيرينِ موجودانِ فيها[9]، ومعنى: ﴿أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾: أطيبُ وأحسنُ[10].

5) ﴿بِرِزۡقٖ﴾: الرِّزْقُ يقالُ للعطاءِ الجاري تارةً دنيويًّا كانَ أم أُخرويًّا، وللنَّصيبِ تارةً، ولِما يصلُ إلى الجوفِ ويُتغذَّى به تارةً، يقالُ: أعطى السُّلطانُ رِزْقَ الجُندِ، ورُزِقْتُ عِلْمًا، وقالَ جلَّ شأنُه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [المنافقون: 10]، أي: مِنَ المالِ والجاهِ والعِلمِ[11]، وقولُه تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾ أي: بطعامٍ يُتغذَّى بهِ[12]،

---

(1) الزبيدي، تاج العروس: (سأل).
(2) معجم ألفاظ القرآن الكريم: (سأل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبث).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (لبث).
(5) المراغي، تفسير المراغي: 15/ 130.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورق).
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 446.
(8) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ورق).
(9) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (زكو).
(10) المراغي، تفسير المراغي: 15/ 130، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 285.
(11) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (رزق).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 285.

وقيل: عنى به الأغذية، ويمكن أن يُحمل على العموم فيما يؤكل ويلبس ويستعمل.

6) ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾: (لطف) "أصلٌ يدلُّ على رِفْقٍ، ويدلُّ على صِغَرٍ في الشَّيءِ"[1]، ويُعبَّرُ باللَّطافةِ واللُّطْفِ عنِ الحركةِ الخفيفةِ، وعن تعاطي الأمورِ الدَّقيقةِ، وقد يُعبَّرُ باللَّطائفِ عمّا لا تُدرِكُهُ الحاسَّةُ[2]، والتلطُّفُ للأمرِ: التَّرفُّقُ لهُ[3]، ومعنى ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾: وليترفَّقْ[4]، وليتكلَّفِ اللُّطْفَ في المعاملةِ[5].

7) ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ﴾: الشَّعَرُ معروفٌ، وجمعُهُ: أشعارٌ، ومنهُ استُعيرَ: شَعَرْتُ كذا، أي: علمتُ عِلْمًا في الدِّقَّةِ كإصابةِ الشَّعَرِ، وسُمّيَ الشّاعرُ شاعرًا؛ لفِطْنتِهِ ودِقَّةِ معرفتِهِ[6]، وأشعرتُهُ فشَعَرَ، أي: أدريتُهُ فدَرَى[7]، ومعنى ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾: ولا يُعْلِمَنَّ[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إنـامـةُ أهـلِ الـكـهـفِ مُـدَّةً طـويـلـةً آيـةٌ، وإيقاظُهم آيةٌ أخرى

بينت الآية مشهدًا من قدرة اللّه تعالى على إحياء الموتى من خلال ما أجراه على أصحاب الكهف؛ فقال: كما أرقَدْنا هؤلاءِ الفتيةَ في الكهفِ، وحَفِظْنا أجسامَهم مِنَ البلى على طولِ الزَّمانِ - بعَثْناهم مِنْ رَقْدتِهم، وأيقَظْناهم مِنْ نومِهم، لنُعرِّفَهم عظيمَ سُلطانِنا، وعجيبَ فعلِنا في خلقِنا، وليزدادوا بصيرةً في إخلاصِ العبادةِ للّهِ إذا تبيَّنوا طولَ الزَّمانِ عليهم وهُم بهيئتِهم حينَ رَقَدوا، ولتكونَ العاقبةُ أنْ يسألَ بعضُهم عن مُدَّةِ لُبْثِهم؛ لأنَّهم استنكروا

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لطف).
(2) الراغب، المفردات: (لطف).
(3) الجوهري، الصحاح: (لطف).
(4) معجم ألفاظ القرآن الكريم: (لطف).
(5) المراغي، تفسير المراغي: 15/ 130.
(6) الراغب، المفردات: (شعر).
(7) الجوهري، الصحاح: (شعر).
(8) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 225.

مِنْ أنفُسِهم طولَ رَقْدتِهم، فقالَ بعضُهم: كم لبثْتُم؟ فأجابَ آخرونَ وقالوا: لَبِثْنا يومًا أو بعضَ يوم، وقال آخرون - التبس عليهم الأمر -: فَوِّضوا عِلْم ذلك لله، فربُّكم أعلم بالوقت الذي مكثتموه في هذا الكهف، وحينَ عَلِموا أنَّ الأمرَ مُلتبِسٌ عليهِم عَدَلوا إلى الأهمِّ في أمرِهم؛ وهو احتياجُهم إلى الطَّعام والشَّراب، فقالوا: فابعثوا بدراهِمكم هذهِ إلى المدينةِ، فليُبصِرْ أيُّ الأطعمةِ أجودُ وألذُّ، فليأتِكم بمقدارٍ منهُ، وليترفَّقْ في دخولِ المدينةِ، وفي شرائِهِ، وفي إيابِهِ منها، ولا يُخبِرَنَّ بمكانِكم أحدًا مِنْ أهلِها(1).

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الأدب فيمن اشتبه عليه العلمُ أن يردَّه إلى عالمه، وأن يقف عند حدِّه، وإلى جواز أكل الطيبات والمطاعم اللَّذيذة إذا لم تخرج إلى حدِّ الإسراف المنهيِّ عنه، وخصوصًا إذا كان الإنسان لا يلائِمُه إلّا الشَّهيَّ منها(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾:

عطف ببعض مشاهد القصَّةِ على ما سبقَ مِنْ أجزائِها

الواوُ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ عطفٌ لجزءٍ مِنَ القصَّةِ على ما سبقَ من أجزائِها، وفي هذا الجزءِ عِبرَةٌ لأهلِ الكهفِ بأنفُسِهم؛ ليَعلَموا ما أكرمَهم اللّهُ بهِ، مِنْ حفظِهم عن أنْ تنالَهم أيدي أعدائِهم بإهانةٍ، ومِنْ إعلامِهم عِلمَ اليقينِ ببعضِ كيفيَّةِ البعثِ، فإنَّ علمَهُ عظيمٌ(3).

دلالةُ التعبير بالكافِ في قولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾:

الكافُ للتَّشبيه بمذكورٍ سابقٍ

آثر القرآنُ الكريمُ التعبير بالكاف في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ دون (مثل)؛ لدلالتها على التشبيه بين أمر

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 627، والمراغي، تفسير المراغي: 15/ 131.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 473.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 283.

البعث وما سبق من خوارق العادة في الضرب على آذانهم ونومهم مدة طويلة؛ فكما أنامهم هذه المدةَ الطويلة بعثهم، ولما كان وجهُ الشبه لا يلزم فيه الاتفاق من كل ناحية؛ عبَّر بالكاف دون (مثل).

نكتةُ إيراد اسم الإشارة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

تنوُّع مرجعِ الإشارة وفْق السّياق

عبَّر القرآن الكريم باسم الإشارة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ لتعدد المراد به، إذ اختُلِفَ في مرجعِ الإشارةِ المشبَّهِ بهِ في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: فقيلَ: هو إشارةٌ إلى المصدرِ المفهومِ مِنْ ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [الكهف: 11]، أي: مِثْلَ جعلِنا إنامتَهم هذهِ المُدَّةَ الطَّويلةَ آيةً جعَلْنا بعثَهم آيةً[1]، ووجهُ الشَّبهِ كونُ كلٍّ منهُما آيةً على قُدرتِهِ الباهرةِ[2].

وقيلَ: هو إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [الكهف: 11]، وقولِهِ: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ [الكهف: 13]، وقولِهِ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾، أي: كما فعَلْنا بهِم هذهِ الأشياءَ بعَثْناهم[3].

وقيلَ: هو إشارةٌ إلى حفظِهم، أي: كما حَفِظْناهم طولَ تلكَ المُدَّةِ كذلكَ بعَثْناهم مِنَ الرُّقادِ[4].

ويجوزُ أنْ يكونَ تشبيهُ البعثِ المذكورِ بنفسِهِ؛ للمبالغةِ في التَّعجيبِ[5].

سرُّ تقديمِ المشبَّهِ بهِ في ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾:

للاهتمامِ والحصرِ

الكافُ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ﴾ للتَّشبيهِ بمذكورٍ سابقٍ، والمعنى على القولِ برجوعِ الإشارةِ إلى المصدرِ المفهومِ مِنْ ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [الكهف: 11]: بعَثْناهم بعثًا مشابهًا للإنامةِ الطَّويلةِ في المُدَّةِ المديدةِ، ووجهُ الشَّبهِ كونُهما آيةً

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 709، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 155.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 83، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 284.

(3) الواحدي، البسيط: 13/ 565، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 445.

(4) النيسابوري، إيجاز البيان: 2/ 516.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 284.

على كمالِ قُدرتِهِ تعالى، فقولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ صفةٌ للمصدرِ المحذوفِ، وتقديمُ المشبَّهُ بِهِ للاهتمامِ، ويحتملُ الحصرَ[1].

علةُ التعبير بالبعث دون غيره:

توظيف القصة في التدليل على إثبات وقوع البعث يوم القيامة

آثر القرآنُ الكريم التعبيرَ بالبعث في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ دون غيره من المفردات المشابهة؛ للدلالة على أن بعث أصحاب الكهف على هيئة خاصة؛ لأن أبدانهم لم تتغير، بل وثيابهم لم تَبْلَ؛ فكان التعبير بالبعث من أجل توظيف القصة في التدليل على إثبات وقوع البعث يوم القيامة.

وفيه إشارة إلى سهولة ويسر بعث أهل الكهف؛ لأنه من باب إيقاظ النائم رغم طول المدة.

بلاغةُ الاستعارةُ في ﴿بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾:

التَّنبيهُ على إثباتِ البعثِ بعدَ الموتِ

المرادُ بالبعثِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾: الإيقاظُ مِنَ النَّومِ، لا البعثُ مِنَ الموتِ[2]، أي: أيقَظْناهم مِنْ نومِهم إيقاظَ مفزوعٍ؛ كما يُبعَثُ البعيرُ مِنْ مَبْرَكِهِ، وحُسْنُ هذهِ الاستعارةِ أنَّ المقصودَ مِنْ هذهِ القصَّةِ إثباتُ البعثِ بعدَ الموتِ، فكانَ في ذكرِ لفظِ البعثِ تنبيهٌ على أنَّ في هذهِ الإفاقةِ دليلًا على إمكانِ البعثِ وكيفيَّتِهِ[3].

دلالة التعبير بالفعل الماضي: ﴿بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾:

دلَّ التعبير بالماضي على تحقق وقوع البعث لفتية أصحاب الكهف، وأنه أمرٌ يسير على الله؛ لأنه هو الذي بدأ الخلق وهو الذي يعيده؛ لذلك يجب على المؤمن الإيمان بالبعث، وألّا يعتريه شكٌّ في ذلك.

---

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 41.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4507، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 14/ 8861.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 269.

نكتةُ نونِ العظَمةِ في ﴿بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾:

تفخيم شأنِ البعثِ وتعظيمُه

أُسنِدَ البعثُ إلى اللّهِ سبحانَهُ بنونِ العظَمة، فقيلَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ لزيادةِ الاعتناءِ بشأنِ هذا البعثِ؛ ببيانِ أنَّهُ صادرٌ عن ذي العظَمةِ والكِبْرياءِ والقُدرةِ التامَّةِ الَّذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ جلَّ وتقدَّسَ، والمعنى: بعَثْناهم بما لنا مِنَ العظَمة[1].

معنى اللّامِ في قوله: ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

ثراءُ المعنى المُلتَقط من الصيرورة أو السَّببية

آثر القرآن الكريم التعبير باللّام في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ لتعدد المراد منها؛ فمنهم من قال: إنها لامُ الصَّيرورةِ والعاقبةِ على الرّاجح؛ كما في قولِه ﷻ: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8]؛ لأنَّ بعثَهم لم يكنْ لنفسِ تساؤلِهم[2]، وإنَّما كانَ لإظهارِ كمالِ قُدرةِ اللّهِ تعالى[3]، والمعنى: بعَثْناهم لتكونَ العاقبةُ أنْ يتساءَلوا بينَهم عن المُدَّةِ الَّتي لَبِثوها[4].

ومنهم من قال إنها للسبَبيَّة[5]، والمعنى: بعَثْناهم لكي يتساءَلوا بينَهم، وليتناقشوا في مُدَّةِ لُبْثِهم، فما كانوا ليتساءَلوا لو استمرّوا في رُقودِهم[6].

وفيه إشارة إلى أنَّ اللّه تعالى خلق كل شيء لوظيفة وليس سُدًى، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: 56]؛ فبيَّن الوظيفة بأنها العبادة، والشاهد من ذلك أن من عمل عملًا أو فعل فعلًا لغير ما علم أنه يكون؛ فهو عابثٌ أو جاهلٌ بعواقبه، تعالى اللّه عن ذلك علوًا كبيراً[7].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 30.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 505، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 374.

(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 83.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4508.

(5) السمين، الدر المصون: 7/ 462.

(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4508.

(7) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 151.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

الدلالة على وقوع التَّساؤلِ في المستقبلِ

عُبِّرَ عن التَّساؤلِ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ حصولَ التساؤلِ أمرٌ مستقبلٌ بالنِّسبةِ لزمانِ حصولِ البعثِ؛ فهُم يُبعَثونَ أوَّلًا، ثمَّ تكونُ العاقبةُ أنْ يسألَ بعضُهم بعضًا عن المُدَّةِ الَّتي لَبِثوها في كهفِهم.

دلالةُ صيغةِ التفاعلِ في ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

إبراز صورة الاشتراك في الحوار فيما بينهم

تدلُّ صيغةُ التَّفاعلِ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ على وقوعِ التَّشاركِ بينَ الفتيةِ في السُّؤالِ عن مُدَّةِ لُبْثِهم، والمعنى: ليسألَ بعضُهم بعضًا[1]، فيترتَّبَ عليهِ ما فُصِّلَ مِنَ الحِكَمِ البالغةِ[2].

وفي هذهِ الصّيغةِ دلالةٌ أيضًا على أنَّ هذا التَّساؤلَ في غايةِ الظُّهورِ[3].

سرُّ تسميةِ المحاورةِ تساؤلًا:

بحث كل منهم عن حقيقة لبثهم في الكهف

سُمّيَتِ المحاورةُ الَّتي جرَتْ بينَ الفتيةِ تساؤلًا، فقيلَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ لأنَّها تحاورٌ صادرٌ عن تطلُّبِ كلٍّ رأيَ الآخرِ للوصولِ إلى تحقيقِ مُدَّةِ لُبْثِهم في الكهفِ، والَّذينَ قالوا: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ هُم مَنْ عدا الَّذي قالَ: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ﴾[4].

دلالة التعبير بالظرفية ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

الدلالة على أن السُّؤالَ خاصٌّ بأحوالهم

دل التعبير بقوله: ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بإضافةِ الظَّرفِ (بينَ) إلى ضميرِهم، على أنَّ المرادَ التَّساؤلُ عن أخبارٍ تتعلَّقُ بهم، ولا تَعْدوهم، أي: ليتساءَلوا عن أحوالِهم في نومِهم ويقَظتِهم، فيزدادوا إيمانًا وثباتًا ويقينًا؛ بما ينكشفُ لهُم مِنَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 627.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 213.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 30.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 284.

الأمورِ العجيبةِ، والأحوال الغريبةِ، فيَعلَموا أنَّهُ لا علمَ لأحدٍ غيرِنا، ولا قُدرةَ لأحدٍ سِوانا، وأنَّ قُدرتَنا تامَّةٌ، وعلمَنا شاملٌ[1].

وجهُ فصلِ قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾:

شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ ما بينَ الجملتينِ

فُصلت هذه الجملة عما قبلها؛ لأنه لمّا كانَ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ مُحرِّكًا للسّامعِ ومُقتضيًا لِأَنْ يقالَ: ما كانَ تساؤُلُهم؟ أُجيبَ بقولِهِ تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ﴾، ففُصِلَ بينَ الجملتينِ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأَنَّ الثانيةَ جوابٌ عن سؤالٍ اقتضَتْهُ الأولى، ففُصِلَتْ عنها كما يُفصَلُ الجوابُ عنِ السُّؤالِ، وهذا الاستئنافُ بيانيٌّ[2].

مجيء ﴿قَآئِلٞ﴾ على صيغة اسم الفاعل منكّرًا:

تعزيزُ مكانةِ القائلِ

أوثِرَ التَّعبيرُ باسمِ الفاعلِ ﴿قَآئِلٞ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ﴾، ولم يُقَلْ: (قالَ أحدُهم)؛ إشارةً إلى أنَّ القائلَ المذكورَ قائلٌ نِحْريرٌ عارفٌ بطريقِ السُّؤالِ والاستدلالِ[3]، وهذا يدلّ على أن هذا القائل استشعر طول لُبْثِهم بما رأى من هيئتهم، أو لغير ذلك من الأمارات[4].

ويرفُد ذلك ما يدل عليه التّنكير الموصوف من تفخيم هذا القائل وتعظيمه أيضًا، لما يحملُه من سِمَةِ الفكر والملاحظة لهيئتهم الّتي هم عليها.

دلالة التَّعبيرِ بشِبْهِ الجملة ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

تأكيدُ صُدورِ التَّساؤلِ منهُم لا من غيرهم

لمّا ذُكِرَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أنَّ بعثَهم

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 30.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 213، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 218، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 284.

(3) واستشهد ابنُ عَرفة على ذلك بالعرف من قول العلماء فقال: "كما يقولُ بعضُ العلماءِ في معرضِ تقريرِ المسائلِ: ولقائلٍ أنْ يقولَ كذا، إذا كانَ السُّؤالُ قويًّا"، يُنظر: ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 83.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 31.

سيترتَّبُ عليهِ في العاقبةِ وقوعُ التَّساؤلِ فيما بينَهُم، وعُطِفَ عليهِ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ﴾ الآيةَ - أُكِّدَ صُدورُ التَّساؤلِ منهُم بالإتيانِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾؛ دفعًا لِما قد يُتوهَّمُ مِنْ أنَّ السائلَ مِنْ غيرِهم.

غرضُ التعبيرِ بـ ﴿كَمۡ﴾ في قوله: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ﴾:

إبــراز عجزهم عــن الإحــاطــة بمدة مكثهم

دلَّ التعبير بقوله: ﴿كَمۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ﴾ على إبراز عجزهم عن معرفة المدة التي مكثوها في الكهف، ولاسيما أنَّ بعثهم لم يكن بعد مدة يسيرة، بل كان بعد زمن طويل؛ ظهرت فيه بدائع قدرة السائل على مشاهدته لحالهم التي هم عليها؛ لذلك كان سؤاله بـ ﴿كَمۡ﴾ عن مُدَّةِ لُبْثِهم في الكهفِ، أي: كم يومًا أقمتُم نائمينَ؟[1]، وهي منصوبةٌ بالفعلِ الَّذي بعدَها؛ كما في قولِكَ: كم يومًا صُمتَ؟؛ لأنَّ الفعلَ الَّذي بعدَها غيرُ مُشتغِلٍ عنها بضميرِها، وفي مِثلِ ذلكَ تكونُ ﴿كَمۡ﴾ مُعرَبةً على حسَبِ اقتضاءِ العاملِ، والمُميِّزُ محذوفٌ تقديرُهُ: كم يومًا لَبِثْتُم؟ حُذِفَ لدلالةِ الجوابِ عليهِ[2].

سرُّ إيثارِ اللُّبثِ على الرُّقادِ:

اللُّبثُ أعمُّ من اليقظة والرقاد

عُبِّرَ باللُّبْثِ دونَ الرُّقادِ، في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ﴾، ولم يُقَلْ: (كم رقدتُم)؛ لأنَّ الرُّقادَ يقتضي الاستغراقَ في النَّومِ، والمُستغرِقُ لا يدري ما حلَّ بهِ، ولا يعرفُ ما يَحدُثُ، فعُبِّرَ باللُّبْثِ الَّذي هو أعمُّ مِنَ اليقَظةِ والرُّقادِ؛ ليَحسُنَ السُّؤالُ[3].

نكتةُ إسنادِ الجوابِ إلى ضميرِ جماعتِهم:

من باب الموافقة أو التَّوزيعِ

أسند الجوابِ إلى ضميرِ جماعتِهم الذين قالوا: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾: إمّا لأنَّهم توافقوا عليهِ، وإمّا على إرادةِ التَّوزيعِ، أي:

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 155، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 31.
(2) السمين، الدر المصون: 7/ 462، وزاده، حاشيته على تفسير البيضاويِّ، ص: 458.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 83.

منهُم مَنْ قالَ: لَبِثْنا يومًا، ومنهُم مَنْ قالَ: لَبِثْنا بعضَ يومٍ، وعلى هذا يجوزُ أنْ تكونَ ﴿أَوْ﴾ للتَّقسيم في القولِ؛ بدليلِ قولِه بعدَ ذلكَ: ﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾، أي: لمّا اختلفوا رجعوا فعدلوا عنِ القولِ بالظَّنِّ إلى تفويضِ العلمِ إلى اللهِ سبحانَهُ؛ فالقائلونَ: ﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾: إمّا جميعُهم كما هو الظّاهرُ، وإمّا بعضُهم، وأُسنِدَ إلى جميعِهم؛ لأنَّهم رأَوْهُ صوابًا[1].

سر التعبير بقوله: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ :

جاء التعبير القرآني ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ بناءً على أنهم دخلوا الكهف أول النهار واستيقظوا في آخره؛ أو أنهم قالوا ذلك بناءً على سلامة أبدانهم وثيابهم.

دلالةُ تنكيرِ ﴿يَوۡمًا﴾:

التَّنكيرُ للإفرادِ أو التَّقليلِ

نُكِّرَ ﴿يَوۡمًا﴾ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾؛ لإفادةِ الإفرادِ بالقصدِ إلى فردٍ مِنْ أفرادِ الجنسِ، أي: لَبِثْنا يومًا مِنْ أفرادِ الأيّامِ، ويحتملُ التَّقليلَ؛ بأنْ يَعُدّوا مُدَّةَ لُبْثِهم في الكهفِ قليلةً.

سر التعبير بـ ﴿أَوۡ﴾ في قولِه: ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾:

ثراءُ المعنى بين الشكِّ والتفصيل والإضراب

آثر السياقُ الكريم التعبيرَ بـ ﴿أَوۡ﴾ دون غيرها في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾؛ لما تحمله من معانٍ متعددة في هذا السياق، حيث اختُلِفَ في معناها على ثلاثةِ أقوالٍ:

أحدُها، وهو الظّاهرُ: أنَّها للشَّكِّ، والمعنى: لم نتحقَّقْ مِقدارَ لُبْثِنا، أي: لا ندري أنَّ مُدَّةَ ذلكَ هل هي مِقدارُ مُدَّةِ يوم أو مِقدارُ مُدَّةِ بعضِ يوم، والظّاهرُ أنَّهم قالوا ذلكَ؛ لأنَّ أثرَ النَّومِ لم يذهبْ مِنْ بصرِهم وبصيرتِهم[2]، ويجوز أن يكون صدر ذلك منهم لمّا لم يروا في أنفسهم علامات وآثار تدل على طول المكث والمقام.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 284.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 155، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 83، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 218.

والثّاني: أنَّها للتَّفصيلِ، أي: قالَ بعضُهم: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا﴾، وقالَ بعضُهم: (لَبِثْنا بعضَ يوم)(1).

والثّالثُ: أنَّها للإضراب؛ بأنْ قالوا أوَّلًا: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا﴾، ثمَّ عَدَلوا عنهُ إلى: (لَبِثْنا بعضَ يوم)(2).

علة قولِ الفتيةِ: ﴿أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾:

دخولُهم الكهفَ كانَ غُدْوةً، وبعثُهم كانَ آخِرَ النَّهارِ

تعليل قولِ الفتيةِ: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾: إنَّهم دخلوا الكهفَ غُدْوةً، وبعثَهم اللّهُ في آخِرِ النَّهارِ، لذلكَ قالوا: ﴿يَوۡمًا﴾، فلمّا رأَوُا الشَّمسَ باقيةً قالوا: ﴿أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾، وكانَ قد بَقِيَتْ مِنَ النَّهارِ بقيَّةٌ(3).

أو لأنَّهم دخلوا الكهفَ غُدْوةً، وانتبهوا ظَهيرةً، وظنّوا أنَّهم في يومِهم أو اليومِ الَّذي بعدَهُ، فقالوا ذلكَ(4).

دلالة التعبير بقوله: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾:

التباسُ الأمرِ عليهم دعاهم إلى تفويض العِلْم لله

دل التعبير بقوله: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾ على أن الفتية كانوا على غير علم بالمدة الحقيقية التي لبثوها؛ لذلك فوَّضوا العلم بها إلى اللّه ﷻ، ويمكن أن يقال: إنهم لما رأوا الآيات العجيبة التي لا تحتمل أن تكون في يوم أو بعض يوم؛ لعظمها وعلو قدرها، وكلوا الأمر إلى اللّه تعالى.

غرضُ إبهامِ القائلِ: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾:

القصصُ القرآني لا يدقِّق في التفاصيل

أبهم القرآن الكريم تعيينَ القائلِ: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾، وذلك للاختلاف في تعيينه، فقيلَ: هو البعضُ القائلُ أوَّلًا: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾؛ فيتَّحدُ قائلُ القولين(5).

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 155، والسمين، الدر المصون: 7/ 426.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 83.

(3) الواحدي، البسيط: 13/ 566، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 445.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276.

(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 84.

وقيلَ: هو بعضٌ آخرُ منهُم، وقد قالوا ذلكَ بما سنحَ لهُم مِنَ الأدلَّةِ، أو بإلهامٍ مِنَ اللّهِ ﷻ، وفيه إشارة إلى موافقتهم ورضاهم بهذا القول.

دلالة فصل جملة قوله: ﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾:

فصلت هذه الجملة عمّا قبلها؛ لأنها استئنافية، والاستئنافُ في الحكايةِ، والخطابُ في المحكيِّ يَقضي بأنَّ الكلامَ جارٍ على سبيلِ المحاورةِ والمجاوبةِ؛ لذلك فصلت لأنها من المحاورات.

سرُّ اختيارِ صفةِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهم: ﴿رَبُّكُمۡ﴾:

الإشـــارةُ إلى معاني الرِّعايةِ والإحسانِ

عُبِّرَ بصفةِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهم: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾، ولم يقولوا مثلًا: (اللّهُ أعلمُ بما لَبِثْتُم)؛ لِما تُشيرُ إليهِ الرُّبوبيَّةُ مِنْ معاني الرِّعايةِ والإحسانِ[1]، والمعنى: قالوا: ربُّكم المُحسِنُ إليكُم المُتفضِّلُ عليكُم بالنِّعَمِ والحفظِ والكَلاءَةِ أعلمُ بمُدَّةِ لُبْثِكم في الكهفِ؛ لأنَّهُ المحيطُ علمُهُ بكلِّ شيْءٍ، الَّذي لا تخفى عليهِ خافيةٌ.

دلالة الإضافةِ في قوله: ﴿رَبُّكُمۡ﴾:

تشريفُ الفتيةِ وإعلاء قدرهم

أُضيفَ الفتيةُ إلى لفظِ (الرَّبِّ) في قولِهِ تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾؛ تشريفًا لهُم، وإيذانًا بأنَّهم لا يزالونَ في كَنَفِ الإنعامِ والإحسانِ، وأنَّهم مُفوِّضونَ جميعَ أمورِهم إلى العالِمِ بكلِّ شيءٍ، ومِنْ جملةِ معلوماتِهِ علمُهُ بمدَّةِ لُبْثِهم في الكهفِ.

نكتةُ تفويضِ العلم بمُدَّةِ لُبثِهم إلى اللهِ تعالى:

حُسْنُ الأدبِ في التصويب

بعدَما وقعَ الاختلافُ بينَ الفتيةِ في مُدَّةِ لُبْثِهم في الكهفِ هل هي يومٌ أو بعضُ يوم، وتكلَّموا بناءً على ما تبادرَ إلى أذهانِهم في أوَّلِ الأمرِ - قالَ بعضُهم: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾، فأحالوا العلمَ إلى اللّهِ تعالى، أي: أنتُم لا تعلمونَ مُدَّةَ لُبْثِكم، وإنَّما يعلمُها اللّهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 32.

سبحانَهُ، وهذا ردٌّ منهُم على الأوَّلينَ بأجملِ ما يكونُ مِنْ مراعاةِ حُسْنِ الأدبِ[1]، فقد أبانوا عن خطئِهم دونَ أنْ يُصرِّحوا بالتَّخطئةِ.

سر اختيار صيغة (أفعلَ) في مقام العلم:

احتمالُ صيغةِ (أفعلَ) في هذا المقامِ للتَّفضيلِ وعدمِهِ

آثر القرآن الكريم التعبير بصيغة (أفعلَ) في قولِهِ تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾؛ وذلك لاحتمالها معنى التفضيل وعدمه على قولين:

أحدُهما: أنَّها للتَّفضيلِ، والمُفضَّلُ عليهِ محذوفٌ، والمعنى: ربُّكم أعلمُ مِنْ كلِّ أحدٍ[2]، وفي هذا إشارة إلى أن القرآن أثبت لهم بعض العلم.

والثّاني: أنَّها بمعنى أصلِ الفعلِ دونَ الزّيادةِ، فلا توجِبُ العلمَ لأحدٍ، فتكونُ مسلوبةَ التفضيلِ، والمعنى: ربُّكم عالمٌ بما لبثتُم[3]، وعلى هذا سَلَب عنهم صفة العلم؛ لأن ما قالوه مبنيٌّ على التخمين والظن وليس على دليل.

المعاني المحتملة في التعبير بـ(ما) في الآية:

ثــراءُ المعنى النــاتج عن المصدرية، والصفة، والموصولية

آثر القرآن الكريم التعبير بـ ﴿بِمَا﴾ دون غيرها في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾؛ لأنها تحتمل أن تكون مصدريَّة، أي: (ربُّكم أعلمُ بمُدَّةِ لُبْثِكم)، وتحتمل أن تكون موصوفةً، والمعنى: (ربُّكم أعلمُ بمُدَّةٍ لَبِثْتُموها)، وتحتمل أنَّها موصولةٌ، والمعنى: (أعلم بالمُدَّةِ الَّتي لَبِثْتُموها)[4]، ولا تعارض بين هذه المعاني؛ لأنَّ السياق يحتملها.

علةُ تكرارِ فعلِ اللُّبْث:

بيان محط الاهتمام وإظهار خوارق العادات في قصتهم

تكرَّرَ في الآيةِ ذكرُ فعلِ اللُّبْثِ أكثرَ مِنْ مرَّةٍ لإفادةِ التَّحيُّرِ والدَّهَشِ مِنْ مدَّتِهِ، وبيانِ أنَّه مَحَطُّ الاهتمامِ وأصلُ الإعجازِ في قصَّتِهم؛

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 213.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 32.
(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 42.
(4) اطفيش، تفسير اطفيش: 5/ 334.

لأنَّها غيرُ مألوفةٍ؛ فقيلَ أوَّلًا: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ﴾، ثمَّ قيلَ: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾، ثمَّ قيلَ: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾، وفي هذا التكرار عناية بالحدث وبيان أهميته.

سر التعبير بالفاءِ في قولِهِ: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾:

ثـراءُ المعنى المأخوذ من السببية، أو الفصيحة، أو التفريعية

آثر القرآن الكريم التعبير بالفاء دون غيرها في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾، وذلك لتعدد معناها؛ فمنهم من قال إنَّها للسببيَّةِ، أي أنَّهُ تسبَّبَ عن إسنادِ العلم إلى اللّهِ تعالى أنْ يقالَ: اتركوا الخَوْضَ في هذا، واشتَغِلوا بما ينفعُكم؛ بأنْ تبعَثوا أحدَكم بورِقِكم هذهِ إلى المدينةِ[1].

ومنهم من قال إنَّها للإفصاحِ عن شرطٍ مُقدَّرٍ تقديرُهُ: إنْ كنتُم لا تعلمونَ كم لَبِثْتُم فاشغَلوا أنفُسَكم بأنفُسِكم، واطلُبوا غذاءً لكُم[2].

ومنهم من قال إنها للتَّفريعِ، وتفريعُ قولِهم: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ على ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾؛ لأنَّهُ في معنى: فدَعوا الخَوْضَ في مُدَّةِ اللُّبْثِ، فلا يَعلَمُها إلا اللّهُ، وخُذوا في شيءٍ آخرَ ممّا يُهِمُّكم[3].

بلاغةُ الأسلوب الحكيم:

في الآيةِ ضربٌ لطيفٌ مِنَ الانتقالِ والتَّناسبِ؛ وهو الأسلوبُ الحكيمُ

في قولِه ﷻ: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ نوعٌ لطيفٌ مِنَ الانتقالِ؛ وهو الأسلوبُ الحكيمُ؛ وهو تلقّي السائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على أنَّ غيرَهُ أَولى بحالِهِ، كأنَّهم قالوا: ربُّكم أعلمُ بمُدَّةِ لُبْثِكم، لا طريقَ لكُم إلى علمِها، فخُذوا في شيءٍ آخرَ ممّا يُهِمُّكم؛ وهو الإتيانُ بطعامٍ لكُم[4]، وهو فنٌّ بلاغيٌّ يُثري النص ويُعطيه عمقًا وجمالًا.

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 710، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 32.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4508.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 285.

(4) الزمخشري، الكشاف: 2/ 710، والطيبي، فتوح الغيب: 9/ 430، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 284.

سر التعبير بقوله: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ﴾:

آثر السياقُ التعبير بالبعث في قوله: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ﴾ دون (أرسلوا)؛ لأن البعث يختلف عن معنى الإرسال في التنبيه والإيقاظ والإثارة، بخلاف الإرسال فهو مبنيٌّ على التأنى وعدم السرعة، والمناسب في هذا المشهد هو التعبير بالبعث؛ لأنهم لمّا أيقظهم الله تعالى وعادوا إلى حياة البشرية احتاجوا إلى الطعام لسدِّ جوعهم، وهذا يناسبه السرعة المأخوذة من البعث.

المقامُ يناسبه السرعة المأخوذة من البعث

نوعُ التَّغليبِ في ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ﴾:

في قولِه ﷻ: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ تغليبٌ؛ لأنَّ الظّاهرَ أنَّ المتكلِّمَ داخلٌ في الخطابِ على سبيلِ التَّغليبِ[1].

تغليبُ المخاطَبِ على المتكلِّمِ

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿أَحَدَكُم﴾:

آثر التعبير القرآني اصطفاء لفظ ﴿أَحَدَكُم﴾ في قوله: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ﴾ دون أن يقول: (فابعثوا واحدَكم)؛ لإيهامِهِ إرادةَ: (فابعثوا سيِّدَكم)، فكثيرًا ما يقالُ: (جاءَ واحدُ القومِ)، ويُرادُ: جاءَ سيِّدُهم[2].

دفع إيهامِ إرادةِ سيِّدِ الفتيةِ وكبيرهم

معنى الباءِ في قولِهِ ﷻ: ﴿بِوَرِقِكُمۡ﴾:

الباء في ﴿بِوَرِقِكُمۡ﴾ في قولِهُ جلَّ وعزَّ: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾؛ للملابسة، المفيدة للاقتران والمصاحبة، أي: فابعَثوا أحدَكم مُصاحِبًا لورِقِكم وملتبِسًا بها[3].

وفيه إشارة إلى أن التزود في حال الخروج لا ينافي التوكل على الله، كما فعل أصحاب الكهف بحمل دراهم الفضة معهم.

الملابَسةُ دالةٌ على الاقترانِ والمصاحبة

(1) ابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 43.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 219.
(3) السمين، الدر المصون: 7/ 462.

سرُّ الإشارةِ إلى الورِقِ بـ ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾:

الإشارةُ إلى حاضرٍ معيَّنٍ

دل التعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ مع أن السياق في ظاهره قد يستغنى عنها بأن يقال: (فابعثوا أحدكم بورقكم إلى المدينة)، على أن الفتيةَ قد استصحبوا حينَ خرجوا فارّينَ دراهمَ لنفقتهم، وكانَتْ حاضرةً عندَهم عندَ الأمرِ بالبعثِ إلى المدينةِ، فلهذا أشاروا إليها إشارةَ الحاضرِ القريبِ بقولِهم: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾[1]، وكأنَّ القائلَ ناولَها بعضَ أصحابِهِ؛ ليشتريَ بها قوتَ يومِهم ذلكَ[2].

دلالةُ إضافة الورق للجماعة:

جوازُ الوكالةِ وصحَّتُها

أضاف القرآن الكريم الورِقَ إلى الجماعة في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ﴾، مع أن القائل لا شكَّ أنَّهُ كانَ لهُ فيهِ نصيبٌ، فدلَّ ذلكَ على جوازِ الوكالةِ، وأنَّها ليسَتْ بمُبدَّعةٍ، بل كانَتْ في القرونِ الماضيةِ، وهي متوارَثةٌ[3].

ويدلُّ أيضًا على جوازِ خَلْطِ دراهمِ الجماعةِ والشِّراءِ بها والأكلِ مِنَ الطَّعامِ الَّذي بينَهم بالشِّركةِ وإنْ تفاوتوا في الأكلِ[4].

وتدلُّ على أنَّ السَّعيَ في إمساكِ الزّادِ أمرٌ مُهِمٌّ مشروعٌ، وأنَّهُ لا يُبطِلُ التَّوكُّلَ[5].

علةُ التعبير بالمدينة دون القرية:

الإشارةُ إلى المِصْرِ الجامعِ المحصَّنِ

جاء التعبير القرآني بلفظ المدينة في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ دون القرية؛ لوجود فرق بينهما مع اشتراكهما في المعنى العام من البنيان العُمراني؛ إلا أن القرية تطلق

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 156، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 285.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 214.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 152، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 506.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 220.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 446.

على الموضع الذي يجتمع فيه الناس مع كثرتهم؛ أخذًا من قَرَيت الماءَ في الحوض، إذا جمعتَه، ويقال: قَرَيت الضيف، جمعتُ له ما أكرمه به، والمراد الجمع بكثرة؛ أما المدينة فهي تحمل معاني التمدن والحضارة، كما حكى القرآن الكريم في قصة يوسف عليه السلام: ﴿۞وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف: 30] ... ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف: 31] إلى آخر مظاهر الحضارة المذكورة في هذه القصة، وهذا ما ينطبق على المدينة التي كان فيها فتية الكهف.

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾:

بيانُ مدينتِهم المعهودةِ الَّتي خرجوا منها

تعريفُ ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ للعهدِ، والمرادُ بها: مدينتُهم الَّتي خرجوا منها، قيلَ: وتُسمَّى الآنَ طرسوسَ، وكانَ اسمُها يومَ خرجوا منها أفسوسَ[1]، والمعنى: فابعَثوا أحدَكم إلى مدينتِكم المعهودةِ الَّتي فرَرْتُم منها؛ ليأتيَ بما تحتاجون إليه من الطعام.

معنى الفاءِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَلْيَنظُرْ﴾:

ترتب النظر على البعث

الفاءُ في ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ للعطفِ[2]، حيث عُطفت هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم﴾؛ لما بينهما من اتصال في المعنى؛ لأن النظر مترتب على البعث في قوله: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم﴾.

دلالة اللام في قوله: ﴿فَلْيَنظُرْ﴾:

الأمـرُ دالٌّ على ترابط الفتية

اللّامُ للأمرِ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ﴾، وفيه إشارةٌ إلى وجود قيادة لهذه الفتية أخذًا من قوله قبل ذلك ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟﴾، ومن قوله: ﴿فَلْيَنظُرْ﴾، ولعل هذا يكون بحكم أن الجماعة لابد وأن تؤمِّر لها أميرًا يَسوسُ أمرَها وينظِّم أحوالَها.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 627، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 156، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 219.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4509.

سرُّ التعبير بالنظر في قوله: ﴿فَلۡيَنظُرۡ﴾:

الجمعُ بين إعمال النظر والإدراك الحسن

آثر القرآن التعبير بالنَّظر دون غيره في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرۡ﴾؛ لأنه يحتمل أكثر من معنى؛ فيجوزُ أنْ يكونَ مِنْ نظرِ العينِ، ويجوزُ أنْ يكونَ مِنْ نظرِ القلبِ[1]، والمعنى: ليتخيَّرْ ما هو أزكى نَماءً وأطيَب طعامًا[2]، وفي التعبير به إشارة إلى أخذ الأسباب في اختيار أجود الطعام.

نكتةُ التعبير بـ(أيّ) في قوله: ﴿أَيُّهَآ﴾ ومرجع الضمير فيها:

ثراءُ المعنى بين الاستفهامية أو الموصولة

آثر القرآن الكريم التعبير بـ(أيّ) في قوله: ﴿أَيُّهَآ﴾ دون غيرها؛ لتعدد المراد بها؛ فيجوز أنْ تكونَ استفهاميَّةً، ويجوز أنْ تكونَ موصولةً[3]، واختُلِفَ في مرجعِ الضَّميرِ فيها:

فقيلَ، وهو الظاهرُ: الكلامُ على تقديرِ حذفِ مضافٍ، أي: فلينظُرْ أيُّ أهلِها أزكى طعامًا[4]، وتقديرُ المضافِ لأنَّ (أيًّا) يدخلُ على متعدِّدٍ، والمدينةُ واحدةٌ، وأهلُ المدينةِ متعدِّدٌ[5].

وقيلَ: الضَّميرُ للمدينةِ مرادًا بها أهلُها مجازًا.

وقيلَ: الضَّميرُ راجعٌ إلى ما يُفهَمُ مِنْ سياقِ الكلامِ، كأنَّهُ قيلَ: (أيُّ المآكلِ أزكى طعامًا)[6].

وقيلَ: ﴿أَيُّهَآ﴾ يَصدُقُ على أيِّ مكانٍ مِنَ المدينةِ؛ لأنَّ المدينةَ كلٌّ لهُ أجزاءٌ كثيرةٌ، منها دكاكينُ الباعةِ، أي: فليَنظُرْ أيُّ مكانٍ منها هو أزكى طعامًا[7].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 156.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4509.
(3) السمين، الدر المصون: 7/ 464.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/ 710، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 84.
(5) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 44.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 156، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 220.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 285.

سر التعبير بـ ﴿أَزۡكَىٰ﴾ دون أفضل في الآية:

اصطفى القرآن الكريم التعبير بالتزكية في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾، دون أفضل، لما يحمله لفظ التزكية من معان متعددة؛ فيطلق على الحلال، ويكون المعنى: أَحَلَّ طعاماً؛ لأن بعض أهل تلك المدينة كانوا يذبحون للأصنام وباسم الأوثان التي كانوا يعبدونها، ويطلق على أطيب الطعام وأجوده؛ لأن الطعام الطيب أزيد للعقول وأصلح للنفوس، ويجوز أن يكون المراد به الأرخص والأكثر؛ لأنهم في مكان لا يدرون متى الخروج منه؛ فطلبوا الأكثر لشدة حاجتهم إليه، ويكفي وقت مقامهم إذا طال[1].

تضمُّن لفظِ التزكية معان متعددة

غرضُ التَّعبيرِ بأفعلِ التَّفضيلِ ﴿أَزۡكَىٰ﴾:

آثر القرآن الكريم التعبير بقوله: ﴿أَزۡكَىٰ﴾ على وزن أفعل التفضيل دون (زكي)؛ للدلالة على أن الفتية يطلبون مع شدة جوعهم أطيب الطعام وأجوده، ولم يقبلوا بمطلق الطعام، بل كانوا حريصينَ على تزكيةِ طعامِهم، واختيارِ أطيبِه وأطهرِه وأبعدِه عنِ الحرام[2]، فعبَّروا باسم التَّفضيلِ، وقالوا: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾.

حرصُ الفتيةِ على تزكيةِ طعامِهم واختيارِ أطيبِهِ وأطهرِه

وجهُ التعبير بالطعام دون الغذاء:

آثر السياقُ التعبير بالطعام في قوله: ﴿أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾ دون الغذاء؛ لأن الطعام يطلق على ما تمَّ إعداده ليكون جاهزًا للتناول، وعند تركه يفسد سريعًا، في حين أن الغذاء قد يكون جافًّا فيتحمل التخزين مدة من الزمان، كما في ادخار الحَبِّ في السنابل، ومما يؤكد ذلك أن القرآن الكريم يستخدم التعبير بالإطعام في الكفارات، دون الغذاء؛ تلبية لحاجة الفقير.

المرادُ الطعام المُعَدُّ جاهز التناول

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 152.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 14/ 8863.

إدخالُ الإتيانِ بالرِّزقِ في حيِّزِ المأمورِ به

معنى الفاءِ في ﴿فَلۡيَأۡتِكُم﴾:

الفاءُ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾ عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ على جملةِ: ﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾، أي: ليتخيَّرْ ما هو أزكى وأطيبُ طعامًا، فليأتِكُم بقَدْرٍ منهُ يكفيكُم[1].

مراعاة معنى الانتفاع فيه

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (الرِّزقِ) في الآية:

اختيرَ لفظُ الرِّزقِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾؛ لأنه يدل على الانتفاع، وفي هذا إشارة إلى العموم من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى تحديد نوع الطعام؛ فهو مأتيٌّ به للانتفاع.

ومما يُذكر في سرِّ التعبير أيضًا أنَّ لفظ الرزق مجاز مرسَلٌ باعتبار ما يؤول إليه، والمعنى: فليأتِكم بطعام تأكلونَهُ[2]؛ لأنَّ إطلاقَ الرِّزقِ على الطَّعام باعتبارِ ما يَؤولُ إليهِ إنْ فُسِّرَ بما يَسوقُهُ اللّهُ تعالى إلى الحيوانِ يأكلُهُ[3].

القَدْرُ اليسير مِنَ الطَّعامِ الحلالِ يكفي الفتية

نكتةُ تنكيرِ ﴿بِرِزۡقٖ﴾:

لمّا كانَ غرضُ الفتيةِ مِنْ إرسالِ أحدِهم إلى المدينةِ هو النَّظرَ في أنواعِ الطَّعامِ، واختيارَ أطيبِهِ وأطهرِهِ وأبعدِهِ عنِ الحرامِ، ولم يُريدوا مِنْ ذلكَ إلا القدرَ الذي يدفعُ غائلةَ الجوعِ عن أنفُسِهم بعدَ الإيقاظِ دلَّ على ذلكَ تنكيرُ الرِّزقِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾، والمعنى: فليأتِكم بعدَ النَّظرِ في أطهرِ الطَّعامِ بقدرٍ يسيرٍ منهُ على قَدْرِ حاجتِكم.

والتعبير بـ ﴿مِّنۡهُ﴾ في جملة: ﴿فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾؛ للتبعيض، وهو مزيد إيضاح لكفاية القليل من الطعام، أو للابتداءِ[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4509.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 639.
(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 45.
(4) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 45.

نكتةُ التَّعبيرِ بالتلطف في الفعل:

المبالغةُ في طلبِ التَّلطُّفِ في التَّخفّي

عبر القرآن الكريم بالتلطف دون اللُّطف في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾؛ للدلالة على بذل الجهد في إظهارِ أمر التلطف وتكلُّفِه[1]، ويظهر ذلك المعنى من جانبين:

أحدُهما: وليتكلَّفِ اللُّطْفَ فيما يُباشِرُهُ مِنْ أمرِ المبايعة؛ حتى لا يُغبَنَ[2]، وعلى هذا الوجهِ يكونُ النَّهيُ في قولِه: ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ للتَّأسيسِ[3].

ثانيهما: وليتكلَّفِ اللُّطْفَ في أمرِ التَّخفّي؛ حتَّى لا يُعرَفَ[4]، وهذا أظهرُ[5]؛ لأنَّهُ يناسبُهُ قولُهُ: ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾، وعلى هذا الوجهِ يكونَ النَّهيُ في قولِه: ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ تأكيدًا للأمرِ بالتَّلطُّفِ[6].

دلالة إبهام المأمورِ في قولِه: ﴿فَلۡيَأۡتِكُم﴾ و﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾:

احتمالُ تعيينه وعدمه

لم يُعَيَّن المأمور في قوله: ﴿فَلۡيَأۡتِكُم﴾ و﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾؛ لاحتمال أنْ يكونَ الأمرُ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿فَلۡيَأۡتِكُم﴾ و﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ لأحدٍ غيرِ مُعيَّنٍ سيوكِّلونَهُ، أي: إنْ تبعَثوهُ يأتِكم برزْقٍ، ويحتملُ أنْ يكونَ المأمورُ مُعيَّنًا بينَهم، والإجمالُ في حكايةِ كلامِهم لا في الكلامِ المحكيِّ، وعلى الوجهينِ فهُم مأمورونَ بأنْ يوصوهُ بالإتيانِ والتَّلطُّفِ[7].

معنى الواوِ في ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ و﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ﴾:

الواوُ عاطفةٌ لإدخالِ التَّلطُّفِ وعدمِ الإشعارِ في حيِّزِ المأمورِ بِهِ

ولمّا انعقدَ أمرُ الفتيةِ على بعثِ أحدهم بدراهِمِهم إلى المدينةِ؛ ليشتريَ لهُم طعامًا يأكلونَهُ أَمَروا بالتَّلطُّفِ في التخفّي، وعدمِ إعلامِ

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 84.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 710، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 214.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/ 710، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 156.
(6) صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 8/ 28.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 285.

أحدٍ بأمرِهم؛ لئلا يُفتضحَ، فالواوُ في ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ و﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ﴾ للعطفِ وإدخالِ هذينِ الأمرينِ في حيِّزِ المأمورِ بهِ.

بلاغةُ المجازِ في ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾:

التَّركيبُ محتملٌ للمجازِ المُرسَلِ والكنايةِ

قولُهُ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ معناهُ: ولا يَفعَلَنَّ ما يُؤدّي مِنْ غيرِ قصدٍ منهُ إلى الشُّعورِ بنا، فسُمّيَ ذلكَ إشعارًا منهُ بهِم؛ لأنَّهُ سببٌ فيهِ[1]، فيكونُ مِنْ بابِ ذكرِ المُسبَّبِ وإرادةِ السَّببِ مجازًا مُرسَلًا أو كنايةً؛ إذِ الإشعارُ يتحقَّقُ لا محالةَ إنْ فعلَ ما يُؤدّي إليهِ، فلا مَساغَ لنهيِ الإشعارِ بلا نهيٍ عن سببِهِ، فيكونُ المرادُ نهيَهُ عنِ السَّببِ، وذلكَ يستلزمُ النَّهيَ عنِ المُسبَّبِ[2].

سر التعبير بنفي الشعور دون نفي العلم في قوله: ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ﴾:

المناسبُ نفيُ الشعور حتى لا يتعرض الفتيةُ للإيذاء

آثر التعبير بنفي الشعور في قوله: ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ﴾ دون (ولا يعلمنَّ)؛ لوجود فرق بينهما؛ فالشعور هو ابتداء العلم من جهة الحواس؛ بخلاف العلم: فهو اعتقاد الشيء على سبيل الثقة، والمناسب هنا هو نفي الشعور حتى لا يتعرضوا للإيذاء من أهل المدينة، فاحتاطوا لذلك بنفي الشعور.

علةُ توكيدِ الفعلِ ﴿يُشۡعِرَنَّ﴾ بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ:

شِدَّةُ حرصِ الفتيةِ على عدمِ الاطِّلاعِ على أمرِهم

ولمّا كانَ حرصُ الفتيةِ على إخفاءِ أمرِهم شديدًا، بالغوا في النَّهيِ عن عدمِ الإعلامِ بهِم، وذلكَ مِنْ خلالِ توكيدِ النَّهيِ بالنّونِ الثَّقيلةِ، فقالوا: ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾؛ تحذيرًا مِنْ عواقبِ الاطِّلاعِ عليهِم المُضمَّنةِ في جملةِ: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ الواقعةِ تعليلًا للنَّهيِ، وبيانًا لوجهِ توكيدِ النَّهيِ بالنّونِ[3].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 711، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 156.
(2) ابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 45.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286.

عُموم أحوال الفتيةِ المنهيِّ عن الإطلاعِ عليها

نكتةُ تعليقِ ﴿بِكُمْ﴾ بـ ﴿يُشْعِرَنَّ﴾:

قولُهُ: ﴿بِكُمْ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يُشْعِرَنَّ﴾، فمدخولُ الباءِ هو المشعورُ، أي: المعلومُ، والمعلومُ إنَّما يكونُ معنىً مِنَ المعاني، فتعلُّقُ الضَّميرِ المجرورِ بفعلِ ﴿يُشْعِرَنَّ﴾ مِنْ قَبيلِ تعليقِ الحكم بالذّاتِ، والمرادُ بعضُ أحوالِها، والتقديرُ: (ولا يُخبِرنَّ بوجودِكم أحدًا)، فيكونُ في الكلامِ مضافٌ محذوفٌ، فيشملُ جميعَ أحوالِهم مِنْ عددِهم ومكانِهم وغيرِ ذلكَ[1].

تعجيلُ المَسرَّةِ بعدمِ الإشعارِ بهم، ومراعاةُ الفاصلةِ

علَّةُ تقديمِ ﴿بِكُمْ﴾ على ﴿أَحَدًا﴾:

ولشِدَّةِ توقّي الفتيةِ مِنَ الاطِّلاعِ على شأنِهم بالغوا في توصيةِ المبعوثِ إلى المدينةِ بأخذِ الحيطةِ والحَذَرِ، فأمروهُ أوَّلًا بالتَّلطُّفِ في التَّخفّي، ثمَّ نَهَوْهُ نهيًا مُؤكَّدًا عنِ الإشعارِ بأمرِهم، وقدَّموا الضَّميرَ المجرورَ العائدَ إليهم على المفعولِ، فقالوا: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾؛ لإفادةِ تعجيلِ المَسرَّةِ بعدمِ الإشعارِ بهم، إضافةً إلى ما يترتَّبُ على هذا التَّقديمِ مِنْ مراعاةِ الفاصلةِ.

إفادةُ العُمومِ

سرُّ تنكيرِ ﴿أَحَدًا﴾:

لمّا كانَ مقامُ الفتيةِ مقامَ حَذَرٍ شديدٍ وخوفٍ مِنِ افتضاحِ أمرِهم، ونهَوا المبعوثَ إلى المدينةِ عنِ الإعلامِ بأمرِهم - ناسبَ أنْ يكونَ تنكيرُ ﴿أَحَدًا﴾ في ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ للعُمومِ؛ لأنَّهُ نكرةٌ في سياقِ النَّهيِ، كأنَّهُ قيلَ: (ولا يُشعِرنَّ بكُم جميعَ النّاسِ)[2].

❁ الفروقُ المُعجَميَّةُ:

البعثُ فيهِ تنبيهٌ وإيقاظٌ، والإرسالُ فيهِ رِفقٌ ورحمةٌ غالبًا

البعثُ والإرسالُ:

قيلَ في الفرقِ بينَ البعثِ والإرسالِ عدَّةُ أقوالٍ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286.

منها: أنَّ الإرسالَ لا يكونُ إلا برسالةٍ وما يَجْري مَجْراها، وأمّا البعثُ فيجوزُ دونَ ذلكَ[1].

ومنها: أنَّ الاستعمالَ القرآنيَّ لكلمتَي (البعثِ) و(الإرسالِ) يشتركُ في مَلْمَحٍ دلاليٍّ عامٍّ؛ هو التَّوجيهُ، وبينَ الكلمتينِ ملامحُ دلاليَّةٌ فارقةٌ؛ هي أنَّ البعثَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ والإيقاظِ والإثارةِ، والإرسالَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ الرِّفْقِ والرَّحمةِ إلا في المواضعِ التي جاءَ مركَّبًا فيها معَ حرفِ الاستعلاءِ (على)؛ نحوُ: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣﴾ [الفيل: 3][2].

اللُّبْثُ والمكْثُ والإقامةُ:

اللُّبْثُ: الإقامةُ بالمكانِ، يقالُ: لَبِثَ يَلْبَثُ فهو لابِثٌ ولَبِثٌ لُبْثًا، وقيلَ: اللُّبْثُ: الإقامةُ الطَّويلةُ، فهي أخصُّ مِنَ الإقامةِ؛ فكلُّ لُبْثٍ إقامةٌ، وليسَ كلُّ إقامةٍ لُبْثًا[3].

والمكْثُ: ثباتٌ وتوقُّفٌ معَ انتظارٍ[4]؛ كما في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ [النمل: 22][5].

الرِّفْقُ واللُّطفُ واللّينُ:

الرِّفقُ يدلُّ على موافقةٍ ومقاربةٍ بلا عُنْفٍ، فالرِّفقُ: خلافُ العُنفِ، ويُشتقُّ منهُ كلُّ شيءٍ يدعو إلى راحةٍ وموافقةٍ[6].

واللُّطْفُ يدلُّ على رِفْقٍ في العملِ، ويدلُّ على صِغَرٍ في الشَّيءِ[7].

واللّينُ: ضدُّ الخُشونةِ، ويقالُ: هو في ليانٍ مِنْ عيشٍ، أي: نعمةٍ[8].

اللُّبثُ يقترنُ بطولِ الزَّمنِ، والمُكْثُ يقترنُ بالانتظارِ، والإقامةُ لا يُشترطُ فيها ذلكَ

الرِّفقُ فيهِ موافقةٌ ومقاربةٌ، واللُّطفُ هو الرِّفقُ في العملِ، واللّينُ ضدُّ الخُشونةِ

---

(1) معجم الفروق اللغوية، ص: 103.

(2) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 136 - 137.

(3) السمين، عمدة الحفاظ: (لبث).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكث).

(5) الراغب، المفردات: (مكث).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رفق).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لطف).

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لين).

العلمُ والشُّعورُ:

قيلَ في الفرقِ بينَ العلمِ والشُّعورِ: إنَّ العلمَ هو اعتقادُ الشَّيءِ على ما هو بهِ على سبيلِ الثِّقةِ، والشُّعورَ هو ابتداءُ العلم بالشَّيءِ مِنْ جهةِ المشاعرِ؛ وهي الحواسُّ، ولذلكَ لا يوصَفُ تعالى بأَنَّهُ شاعرٌ، ولا بأنَّهُ يَشعُرُ، وإنَّما يوصَفُ بأنَّهُ عالمٌ، ويعلمُ، وقيلَ: إنَّ الشُّعورَ هو إدراكُ ما دقَّ للُطفِ الحسِّ، مأخوذٌ مِنَ الشَّعَرِ لدِقَّتِهِ[1].

الشُّعورُ ابتداءُ العلمِ مِنْ جهةِ الحواسِّ، والعلمُ اعتقادُ الشَّيءِ على سبيلِ الثِّقةِ

(1) معجم الفروق اللغوية، ص: 372 - 374.

﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠﴾ [الكهف: 20]

بيانُ علَّةِ التَّحذيرِ مِنْ إشعارِ القومِ بأمرِ أهلِ الكهفِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكرت الآيةُ السابقة نهيَ الفتيةِ مبعوثَهم إلى المدينةِ لإحضارِ الطَّعام عنِ الإشعارِ بهم وقالوا: ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ جاءت هذه الآية؛ لبيان علة التحذير من شعور القوم بهم؛ فقال تعالى على لسانهم؛ فقالوا: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ الآيةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَظۡهَرُواْ﴾: (ظهر) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ[2]، يقالُ: ظَهَرَ عليه: غلبَهُ، ويقالُ: ظاهرتُهُ: عاونتُهُ، قالَ تعالى: ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾ [الممتحنة: 9][3]، وأصلُ ذلكَ مِنَ الظَّهرِ الَّذي هو الجارحةُ؛ لأنَّ المعاونَ يساعدُ صاحبَهُ بجوارحِه، وأقواها ظَهْرُهُ، ثمَّ جُعِلَ عبارةً عن كلِّ معاونةٍ وإنْ كانَتْ بغيرِ الظَّهرِ حتَّى باللِّسانِ[4]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ [الجن: 26]، أي: لا يُطلِعُ عليهِ[5]، والظُّهورُ: ضدُّ الخفاءِ، قالَ تعالى: ﴿وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 48]، أي: بدا ما وعدَ اللّهُ به رسولَهُ والمؤمنينَ مِنَ النَّصرِ، وفشا دينُ الإسلامِ، وأصلُ ذلكَ مِنْ حُصولِ الشَّيءِ على وجهِ الأرضِ، ثمَّ صارَ مُستعمَلًا في كلِّ بارزٍ للبصرِ والبصيرةِ[6]، ومعنى ﴿إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾: يَغلِبوكم[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 38، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 327، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(3) الراغب، المفردات: (ظهر).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (ظهر).
(5) الراغب، المفردات: (ظهر).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (ظهر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم: (ظهر).

2) ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾: (رجم) "أصلٌ واحدٌ يرجعُ إلى وجهٍ واحدٍ؛ وهي الحجارةُ"[1]، مِنْ ذلكَ الرِّجامُ: الحجارةُ، والرَّجْمُ: الرَّميُ بالرِّجام، يقالُ: رُجِمَ فهو مرجومٌ، قالَ تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ١١٦﴾ [الشعراء: 116]، أي: المقتولينَ أقبحَ قِتْلةٍ، ويُستعارُ الرَّجمُ للرَّمي بالظَّنِّ والتَّوهُّم، وللشَّتم والطَّردِ، نحوُ قولِه تعالى: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: 22]، وقولِه: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ٤٦﴾ [مريم: 46]، أي: لَأَقولَنَّ فيكَ ما تكرهُ، والشَّيطانُ الرَّجيمُ: المطرودُ عنِ الخيراتِ، وعن منازلِ الملإِ الأعلى[2]، ومعنى: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾: يرموكم بالحجارة، فيقتلوكم.

3) ﴿مِلَّتِهِمْ﴾: المِلَّةُ: الشَّريعةُ؛ كمِلَّةِ الإسلام والنَّصرانيَّةِ واليهوديَّةِ، وقيلَ: هي مُعظَمُ الدِّينِ[3]، وقيلَ: هي كالدِّينِ، وهو اسمٌ لِما شرعَ اللّٰهُ لعبادِهِ على لسانِ الأنبياءِ؛ ليتوصَّلوا بهِ إلى جوارِ اللّٰهِ[4]، وملحظُ اشتقاقها من شريعة تمُدُّ ويزَوِّدُ بها لإصلاح حال الخلق ومآلهم دائمًا[5].

4) ﴿تُفْلِحُوٓاْ﴾: الفَلاحُ: الفَوْزُ والظَّفَرُ بالبُغْيةِ[6]؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥﴾ [البقرة: 5]، وأصلُهُ مِنْ فَلَحْتُ الحديدَ: شَقَقْتُه، ومنهُ الفَلّاحُ؛ لأنَّهُ يَشُقُّ الأرضَ[7]، والفَلاحُ نوعانِ: دُنيويٌّ وأُخرويٌّ، فالدُّنيويُّ: الظَّفَرُ بالسَّعاداتِ الَّتي تَطيبُ بها الحياةُ، وهي البقاءُ والغِنى والعِزّ، والأُخرويُّ أربعةُ أشياءَ: بقاءٌ بلا فَناءٍ، وغِنًى بلا فقرٍ، وعِزٌّ بلا ذُلٍّ، وعلمٌ بلا جهلٍ[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية يبالغُ الفتيةُ في التَّحذيرِ مِنْ عاقبةِ الإعلامِ بأمرِهم، ويقولُ بعضُهم لبعضٍ: إنَّ قومَكم إنْ يَطَّلِعوا على مكانِكم ويَغلِبوكم يُعذِّبوكم بأنواعِ العذابِ الفظيعةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجم).
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رجم).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (ملل).
(4) الراغب، المفردات: (ملل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ملل).
(6) الجوهري، الصحاح: (فلح).
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (فلح).
(8) الراغب، المفردات: (فلح).

وجوبُ أخذِ المؤمنِ الحِذْرَ مِنْ وقوعِهِ بأيدي الكفرة

إلى أنْ يُعيدوكُم في دينِهم الَّذي هُم عليهِ أو يقتلوكم شرَّ قِتْلةٍ رميًا بالحجارةِ، وإنْ رجعتُم إلى دينِهم فلا فَوْزَ ولا ظَفَرَ لكُم في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[1].

وترشدُ الآية إلى الحث على التحرُّز، والاستخفاء، والبعدِ عن مواقع الفتن في الدّين، واستعمالِ الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدّين، وإلى شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدّين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم وتركهم أوطانهم في الله، وإلى ذكر ما اشتمل عليه الشرُّ من المضارِّ والمفاسد، الداعية لبغضه، وتركه، وأنَّ هذه الطريقةَ هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الجملةُ تعليلٌ لِما قبلَها

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ عمّا قبلَهُ - وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ - ولم يُعطَفْ عليهِ؛ لأنَّ بينَ الجملتينِ شِبْهَ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ بيانٌ وتعليلٌ لِما قبلَها، بيانُ ذلكَ: أنَّ الفتيةَ لمّا نهَوا المبعوثَ إلى المدينةِ عنِ الإشعارِ بأمرِهم أتَوْا بهذهِ الجملةِ على سبيلِ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لبيانِ علَّةِ النَّهيِ عنِ الإشعارِ[3]، كأنَّهُ قيلَ: (ولا يُشعِرَنَّ بكُم أحدًا؛ لأنَّهم إنْ يَظْهَروا عليكُم...)[4].

سرُّ التَّوكيدِ بـ(إنَّ):

مقامُ أخذِ الحيطةِ والحذرِ يستدعي مزيدَ التأكيد

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ بـ(إنَّ)؛ لأنَّهُ تعليلٌ لِما قبلَهُ، والتَّعليلُ كثيرًا ما يُؤتى في صدرِهِ بـ(إنَّ) الدالَّةِ عليهِ[5]،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 145 - 146، والمراغي، تفسير المراغي: 15/ 132.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 473.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 214، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286.
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 229.
(5) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 45.

ولأنَّ مقامَ أخذِ الحيطةِ والحذرِ يستدعي مزيدَ التَّأكيدِ والتَّشديدِ على عدمِ اطِّلاعِ الكفرةِ على شأنِ الفتيةِ؛ لِما يترتَّبُ على ذلكَ مِنَ المفاسدِ الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، والفتيةُ مُتيقِّنونَ مِنْ حصولِ هذهِ المفاسدِ في حالِ حصولِ الاطِّلاعِ، ولذلكَ أكَّدوا كلامَهم؛ لأنَّ مَنْ قَويَ اعتقادُ المعنى في نفسِهِ أخرجَ الكلامَ المُعبِّرَ عنهُ في صورةِ التَّأكيدِ.

دلالة التعبير بالإضمار في قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾:

مرجعُ الضَّميرِ فيهِ أقوالٌ متقاربةٌ مِنْ حيثُ المآلُ

آثر القرآن الكريمُ التعبير بالإضمار في قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ للاختلاف في مرجعِ الضَّميرِ في ﴿إِنَّهُمْ﴾ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ على أقوالٍ متقاربةٍ:

منها: أنَّ الضَّميرَ راجعٌ إلى الأهلِ المُقدَّرِ في ﴿أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾[1].

ومنها: أنَّ الضَّميرَ راجعٌ إلى ما دلَّ عليهِ المعنى مِنْ كفّارِ تلكَ المدينةِ[2].

ومنها: أنَّ الضَّميرَ راجعٌ إلى ﴿أَحَدًا﴾ في قولِهِ: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾؛ لأنَّهُ في معنى الجمعِ لوقوعِهِ في سياقِ النَّهي[3].

سرُّ التعبير بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

مراعاة مقام الفتية من الحذر والاحتياط

آثر السياقُ التعبير بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا) في قوله: ﴿إِن يَظْهَرُواْ﴾ مع أنهما للشّرطِ في الاستقبالِ، لكنَّ الأصلَ في (إنْ) أنْ تُستعملَ في مقامِ عدمِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، وأصلَ (إذا) أنْ تُستعملَ في مقامِ الجزمِ بوقوعِهِ[4]، ومقامُ الفتيةِ هنا مقامُ شدَّةِ حذرٍ واحتياطٍ؛ لئلا يَظهَرَ القومُ عليهم، وقد بالغوا في التَّحذيرِ مِنْ ذلكَ، فكانَ ظُهورُ القومِ عليهِم بعدَ كلِّ هذهِ التَّدابيرِ في حكمِ الأمرِ النّادرِ المُستبعَدِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 711، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 506، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 157.

(3) ابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 45، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286.

(4) التفتازاني، المختصر، ص: 270.

الوقوعِ، فاستعمَلوا حرفَ الشَّرطِ ﴿إِن﴾ وقالوا: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾:

مراعاة القاعدة النحوية

تشتركُ (إنْ) و(إذا) في أنَّهما للشَّرطِ في الاستقبالِ، ولذلكَ تكونُ جملتا الشَّرطِ والجزاءِ معَهما فعليَّتينِ استقباليَّتينِ، ولا يُخالَفُ ذلكَ إلّا لنكتةٍ[1]، وقد جاءَتا على الأصلِ هنا، فقالَ الفتيةُ: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾.

دلالة تعديةِ الفعلِ ﴿يَظۡهَرُواْ﴾ بـ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

تضمينُ فعلِ الظُّهورِ معنى الغلَبةِ

عُدّيَ الفعل ﴿يَظۡهَرُواْ﴾ بـ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لتضمينه معنى الغلبة؛ لأن الظُّهورَ في الأصلِ: البُروزُ دونَ ساترٍ، ويُطلَقُ على الظَّفَرِ بالشَّيءِ، وعلى الغلَبةِ على الغيرِ، وهو المرادُ هنا في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾[2]، ولذلكَ عُدّيَ بـ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾.

سرُّ ذكرِ الرَّجْمِ دونَ غيرِه مِنَ العقوباتِ:

تخصيصُ الرَّجمِ بالذِّكرِ لكونِهِ أخبثَ أنواعِ القتلِ

ذُكِرَ الرَّجْمُ في قولِ الفتيةِ: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ دونَ غيرِهِ مِنَ العقوباتِ الَّتي يحصلُ بها القتلُ؛ لأنَّهُ أخبثُ أنواعِ القتلِ[3]؛ لِما فيهِ مِنَ الإذلالِ والإهانةِ والتَّعذيبِ[4]، ولأنَّهُ كانَ عادةَ قومِهم في ذلكَ الزَّمانِ[5]، والفتيةُ عارفونَ بهِ، فلذلكَ خصّوهُ بالذِّكرِ.

علةُ تقديم الرجم على الإعادة:

مدح الله الفتيةَ في ثبوتهم على الدين الصحيح

قدَّم القرآن الكريم الرجم على الإعادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ إِن

(1) التفتازاني، المختصر، ص: 276.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286.

(3) الواحدي، البسيط: 13/ 569، والزمخشري، الكشاف: 2/ 711، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21، 446.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 286.

(5) الزمخشري، الكشاف: 2/ 711، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 327.

﴿يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾؛ للدلالة على مدح اللّٰه تعالى للفتية من ثبوتهم على الدين الصحيح وعدم التفريط فيه مهما كلفهم ولو بقتلهم بالحجارة.

سر التعبير بـ ﴿أَوۡ﴾ في ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ﴾:

(أَوْ) بمعنى (إلّا)، أو لمنع الخُلوِّ

آثر القرآن الكريم التعبير بـ ﴿أَوۡ﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾؛ لأنها تحتمل معنيين:

أحدُهما: أنْ تكونَ بمعنى (إلّا)، والمعنى: إنْ يَغلِبوكم يَرجُموكم، ولن يُنجيَكم مِنَ الرَّجْمِ إلّا أنْ تَعودوا طَوْعًا أو كَرْهًا إلى الوثنيَّةِ الَّتي فَرَرْتُم منها، وفي هذهِ الحالِ تكونُ الخسارةُ الدّائمةُ إلى يومِ القيامةِ[1].

والثّاني: أنْ تكونَ لمنعِ الخُلوِّ، أي: لا يخلو أمرُهم عن أحدِ الأمرينِ؛ وهما: إرجاعُكم إلى دينِهم، أو قتلُكم[2].

دلالة التعبير بـ(العَوْدِ) في قولِه: ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ﴾:

احتمالُ بقاءِ العَوْدِ على ظاهرِه، واحتمالُ كونِه بمعنى الصَّيرورةِ

عَبَّر القرآن الكريم بالعَوْدِ دون غيره في قولِه: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾؛ لاحتماله وجهينِ مِنَ المعنى:

أحدُهما: أنْ يكونَ بمعنى الصَّيرورةِ، والمعنى: إنْ يَظْهَروا عليكُم يَرْجُموكُم أو يُدخِلوكم في مِلَّتِهم بالإكراهِ العنيفِ، ويُصيِّروكم إليها، والعَوْدُ في معنى الصَّيرورةِ أكثرُ شيءٍ في كلامِهم، يقولونَ: ما عُدتُ أفعلُ كذا، يريدونَ ابتداءَ الفعلِ[3]، وكونُ العَوْدِ بمعنى الصَّيرورةِ: إمّا على سبيلِ الحقيقةِ كما هو الظّاهرُ، وإمّا على سبيلِ المجازِ[4].

والثّاني: أنْ يكونَ على ظاهرِه، ويُرادَ: أنَّ الفتيةَ كانوا أوَّلًا

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 145، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4510.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 287.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/ 711، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 157.

(4) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 46.

على دينِ قومِهم ثمَّ آمَنوا[1]، ويخافونَ أنْ يُرجِعَهم قومُهم إلى ما كانوا عليه.

نكتةُ التعبير بالبناء للمفعول في قولِهِ: ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ﴾:

جاء التعبير القرآني ببناء الفعل ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ﴾ للمفعول؛ للدلالة على إكراه قومهم لهم إلى العودة في دينهم، وفيه إشارة إلى تحملهم للأذى المتوقع صدوره منهم لكي يعودوا إلى مِلّتِهم.

سرُّ التعبير بالظرفية في قوله: ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾:

المبالغةُ في إظهارِ كراهةِ الفتيةِ الرُّجوعَ إلى مِلَّةِ قومِهم

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿فِي﴾ على التَّعبيرِ بـ(إلى)، فقيلَ: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾، ولم يُقَلْ: (إلى مِلّتِهم)؛ للدَّلالةِ على الاستقرارِ في الكفرِ الَّذي هو أشدُّ شيءٍ عندَهم كراهةً[2]، وفي ذلكَ مبالغةٌ في إظهارِ الكراهةِ[3]، ومعنى الظَّرفيَّةِ الَّذي تدلُّ عليه كلمةُ ﴿فِي﴾ يوحي بأنَّ الكفرةَ يَودّونَ أنْ يَغمسوا الفتيةَ في الكفرِ غَمسًا، بحيثُ يشتملُ عليهم الكفرُ اشتمالَ الظَّرفِ على المظروفِ.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿مِلَّتِهِمۡ﴾:

إظهارُ كمالِ التَّبرُّؤِ مِنْ مِلَّةِ قومِهم

تدلُّ إضافةُ المِلَّةِ إلى ضميرِ القومِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ على كمالِ تبرُّؤِ الفتيةِ مِنْ مِلَّةِ قومِهم؛ لأنَّ المعنى: يُرجِعوكم إلى المِلَّةِ الَّتي هي مِنْ خصائصِهم[4]، ولا شأنَ لكُم بها وقد أكرمَكم اللهُ بالإيمانِ.

وجهُ تكرارِ ضميرِ الخطابِ في المواضعِ الأربعةِ:

حملُ المبعوثِ على الاستخفاءِ، وحثُّ الباقينَ على الاهتمامِ بالتَّوصيةِ

يُلحَظُ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾، وقولِه: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ - أنَّ الفتيةَ جاؤوا بضميرِ الخِطابِ في أربعةِ مواضعَ؛ للمبالغةِ في حَملِ المبعوثِ على

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 276.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 214، وإسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 229.

(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 46.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 287.

الاستخفاءِ، وحثّ الباقينَ على الاهتمامِ بالتَّوصيةِ؛ فإنَّ إخلاصَ النُّصحِ أدخلُ في القَبولِ، واهتمامَ الإنسانِ بشأنِ نفسِه أكثرُ[1].

دلالة ترتيب نفي الفلاح على الإكراهِ على الرُّجوعِ إلى الكفر:

الإكـــراهُ على الكفرِ قد يكونُ سببًا لاستدراجِ الشَّيطانِ المُكرَهَ إلى استحسانِه

معنى قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾: إنْ دخلتُم في مِلَّتِهم حقيقةً ولو بالكُرْهِ والإلجاءِ لن تَفوزوا بخيرٍ لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، ووجهُ الارتباطِ بينَهُ وبينَ ما قبلَهُ: أنَّ الإكراهَ على الكفرِ قد يكونُ سببًا لاستدراجِ الشَّيطانِ المُكرَهَ إلى استحسانِ الكفرِ والاستمرارِ عليه، فلا يَرِدُ: أنَّ إظهارَ الكفرِ بالإكراهِ معَ إبطانِ الإيمانِ معفوٌّ عنهُ في جميعِ الأزمانِ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ﴾:

استمرارُ انتفاءِ الـــفـــلاحِ في المستقبلِ على تقديرِ الرُّجوعِ إلى الكفرِ

لمّا حذَّرَ الفتيةُ مِنْ ظُهورِ قومِهم عليهِم، وبيَّنوا أنَّ ما يترتَّبُ على هذا الظُّهورِ إنْ حصلَ هو الرَّجْمُ أو الرُّجوعِ بالإكراهِ إلى الكفرِ قبَّحوا أمرَ الرُّجوعِ إلى الكفرِ ببيانِ أنَّهُ يُفضي إلى خُسرانٍ مُستمرٍّ لا انقطاعَ لهُ، فعبَّروا بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ الدالَّةِ على ذلكَ، فقالوا: ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾، فضلًا عمّا في التَّعبيرِ بهِ مِنْ مناسبةِ ما سبقَ مِنَ الأفعالِ المضارعةِ.

دلالةُ حرفِ الجوابِ ﴿إِذًا﴾:

تأكيدُ التَّحذيرِ مِنَ الإرجاعِ إلى مِلَّتِهم

يدلُّ حرفُ الجوابِ ﴿إِذًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ على شرطٍ محذوفٍ تقديرُهُ: ولن تُفلِحوا إنْ رجعتُم إلى مِلَّتِهم أبدًا[3]، وفي هذهِ الجزائيَّةِ تأكيدٌ للتَّحذيرِ مِنَ الإرجاعِ إلى مِلَّتِهم؛ بأنَّها يترتَّبُ عليها انتفاءُ فلاحِهم في المستقبلِ[4].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 214، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 220.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 85، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 220.
(3) الواحدي، البسيط: 13/ 570، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 446.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 287.

فائدةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ ﴿أَبَدًا﴾:

تأكيدُ ما دلَّ عليهِ حرفُ النَّفيِ

لمّا نفى الفتيةُ الفلاحَ في المستقبلِ على تقديرِ الرُّجوعِ إلى الكفرِ، وقالوا: ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ - أتَوْا بالظَّرفِ ﴿أَبَدًا﴾؛ تأكيدًا لِما دلَّ عليهِ النَّفيُ بـ ﴿وَلَن﴾ مِنَ التَّأبيدِ أو ما يُقاربُهُ[1]، أي: لن تُفلِحوا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[2]، وفيهِ مِنَ التَّشديدِ في التَّحذيرِ ما لا يخفى[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَوْدُ والرُّجوعُ:

العَوْدُ رجوعٌ إلى الشَّيءِ بعدَ انصرافٍ، والرُّجوعُ عَوْدٌ إلى ما كانَ منهُ البَدْءُ

قيلَ في التَّفرقةِ بينَ العَوْدِ والرُّجوعِ: العَوْدُ: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ بعدَ الانصرافِ عنهُ: إمّا انصرافًا بالذّاتِ، أو بالقولِ والعزيمةِ، قالَ جلَّ شأنُهُ: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [المؤمنون: 107][4]، والرُّجوعُ: العَوْدُ إلى ما كانَ منهُ البَدْءُ، أو تقديرُ البَدْءِ مكانًا كانَ أو فعلًا[5].

وحاصلُ هذا القولِ: أنَّ الرُّجوعَ يُلحَظُ فيهِ العَوْدُ إلى ما كانَ منهُ البَدْءُ دونَ التفاتٍ للانصرافِ عنهُ أوَّلًا، والعَوْدَ يُلحَظُ فيهِ الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ بعدَ الانصرافِ عنهُ، والفرقُ - كما يظهرُ - دقيقٌ جدًّا.

يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في العَوْدِ ملاحظةَ الاعتيادِ على الشَّيءِ ونُزوعِ النَّفْسِ إليهِ، وكأنَّ العائدَ يرجِعُ بعدَ الانصرافِ إلى ما تألفُهُ نفسُهُ وتَنزِعُ إليهِ.

وقيلَ: الفرقُ بينَ الرُّجوعِ والعَوْدِ: أنَّ الرُّجوعَ: فعلُ الشَّيءِ ثانيةً، ومصيرُهُ إلى حالٍ كانَ عليها، والعَوْدُ: يُستعمَلُ في هذا المعنى على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 287.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 146.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 214.
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (عود).
(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (رجع).

الحقيقةِ، ويُستعمَلُ في الابتداءِ مجازًا، يقالُ: قد عادَ إليَّ مِنْ فلانٍ مكروهٌ، وإنْ لم يكنْ قد سبقَهُ مكروهٌ قبلَ ذلكَ، وتأويلُهُ: أنَّهُ لَحِقَني منهُ مكروهٌ[1]؛ فيكونُ العَوْدُ أعمَّ مِنَ الرُّجوعِ.

المِلَّةُ والدِّينُ:

المِلَّـةُ لا تُضافُ في الغالبِ إلَّا إلـى نـبـيٍّ، ولا تُستعمَلُ إلَّا في جملةِ الشَّرائعِ

فُرِّقَ بينَ المِلَّةِ والدِّينِ مِنْ وجهينِ:

أحدُهما: أنَّ المِلَّةَ لا تُضافُ إلَّا إلى النَّبيِّ الَّذي تُسنَدُ إليهِ؛ نحوُ: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [آل عمران: 95]، ولا تكادُ توجَدُ مُضافةً إلى اللّهِ، ولا إلى آحادِ أُمَّةِ النَّبيِّ، لا يقالُ: (مِلَّةُ اللّهِ)، ولا يقالُ: (مِلَّتي ومِلَّةُ زيدٍ)؛ كما يقالُ: (دينُ اللّهِ)، و(دينُ زيدٍ)[2].

وعدمُ إضافتِها لغيرِ النَّبيِّ أمرٌ أغلبيٌّ؛ إذ قد تُضافُ إلى آحادِ النّاسِ؛ كما في الآيةِ الَّتي نحنُ بصَدَدِها؛ إذ قالَ الفتيةُ: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾، وكما في قولِهِ تعالى: ﴿۞قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: 88].

والثّاني: أنَّ المِلَّةَ لا تُستعمَلُ إلَّا في جُملةِ الشَّرائعِ دونَ آحادِها، فلا يقالُ: (الصَّلاةُ مِلَّةُ اللّهِ)[3].

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 250، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 157.
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ملل).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (ملل).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾ [الكهف: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأدلـةُ المشيرةُ إلى البعثِ حاضرةٌ في أعاجيب قصص القرآن

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة بعثَ أهل الكهفِ، وما صدَرَ عنهم من تساؤلٍ حول نومِهم، ناسب أن تنتقلَ القصَّةُ إلى ذكرِ إعثار اللّه عليهم، الَّذي هو "مَوْضِعُ عِبرَةِ أَهلِ زَمانِهم بِحالِهم وانتِفاعِهم باطمِئنانِ قُلوبِهم لِوُقوعِ البَعْثِ يَوْمَ القيامَةِ بِطَريقَةِ التَّقْريبِ بالمُشاهَدَةِ وتَأْييدِ الدّينِ بما ظَهَرَ من كَرامَةِ أَنصارِه، وقَدْ كانَ القَوْمُ الَّذينَ عَثَروا عَلَيْهِم مُؤْمِنينَ مِثْلَهُم، فكانَتْ آيَتُهُم آيَةَ تَثبيتٍ وتَقويَةِ إيمانٍ، فالكَلامُ عَطْفٌ على قَوْلِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ [الكَهْف: 19]"(1)، فهو انتقالٌ من ذكرِ عجيبةِ بَعثِهم، إلى ذِكرِ عجيبةِ الإعثارِ عليهم، وهو مِنَ الأدلَّة المُشيرة إلى البعثِ، بما شاهدَه النّاسُ من واقعِ مَن يُعايشون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾: يَرجِعُ مُنتَهى أصولِ الإعثارِ إلَى أَصلٍ واحدٍ وهو إثارةُ الغبار، فيُقال: عَثَرَ الفَرَسُ يَعْثُرُ عِثارًا، وذلك إذا سَقَط لِوجْهِه، قالَ بَعْضُ أَهْلِ العلم: إنَّما قيلَ عَثَرَ مِنَ الاطّلاعِ، وذلك أَنَّ كُلَّ عاثِرٍ فلا بُدَّ أَنْ يَنظُرَ إلَى مَوْضِعِ عَثْرَتِه، ويُقالُ: عَثَرَ الرَّجُلُ يَعْثُرُ عُثورًا وعَثَرًا، إذا اطَّلَعَ على أَمرٍ لَم يَطَّلِعْ عَلَيْهِ غَيْرُهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 287.

وأَعْثَرْتُ فُلانًا على كذا، إذا أَطلَعتَهُ عَليهِ[1]، ويُتجوَّزُ به فيمَن يطِّلعُ على أَمرٍ مِن غيرِ طَلبِه، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: وقّفناهُم عَليهِم مِن غيرِ أَنْ يَطْلبوا[2].

2) ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾: (نزع) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على قَلْعِ شيءٍ، ونَزَعْتُ الشَّيْءَ مِن مَكانِهِ نَزْعًا، والمِنزَعُ: الشَّديدُ النَّزْعِ، ونَزَعَ عَنِ الأَمرِ نُزوعًا: تَرَكَهُ، وعادَ الأَمرُ إِلَى النَّزَعَةِ، أَيْ: رَجَعَ إِلَى الحَقِّ، وأَرادَ بالنَّزَعَةِ جمعَ نازِعٍ، وهو الَّذي يَنْزِعُ في القَوْسِ: يَجْذِبُ وتَرَهُ بالسَّهْمِ، وفُلانٌ قَريبُ المَنْزَعَةِ، أَيْ قَريبُ الهِمَّةِ، ومَنْزَعَةُ الرَّجُلِ: رَأْيُهُ، ونازَعَتِ النَّفْسُ إِلَى الأَمرِ نِزاعًا، ونَزَعَتْ إِلَيهِ، إذا اشْتَهَتْهُ، ونَزَعَ عَنِ الأَمرِ نُزوعًا، إذا تَرَكَهُ[3]، والتَّنازُعُ والمُنازَعَةُ: المُجاذَبَة، ويُعَبَّرُ بهما عنِ المُخاصَمة والمُجادَلة[4]، ومعنى التَّنازع في الآيةِ تَجاذُبُ الحَديثِ والرَّأيِ في شَأنِ السّاعة، أو في شَأنِ أصحابِ الكهفِ.

3) ﴿غَلَبُواْ﴾: (غلب) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ وقَهْرٍ وشِدَّةٍ؛ مِن ذلك: غَلَبَ الرَّجُلُ غَلْبًا وغَلَبًا وغَلَبَةً[5]، والمَعنى المِحْوريّ لهذه المادة: شدَّةٌ مع علوٍّ ما وعِظَم جِرْم، ومن عِظم الجِرم، دلَّ على الكثرة قولهم: اِغْلَوْلَبَ القومُ: كثروا، ومن الشِّدَّة قيل: غلبه: قهره[6]، ومعنى ﴿غَلَبُواْ﴾ أي: حكموا، وهم الولاة[7]، أي: غَلبوا على أَمرِ أصحابِ الكهفِ[8].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

تُبَيِّنُ الآيةُ عجيبَ صَنيعِ اللهِ تعالى بأصحابِ الكهف، فكما أنامَهم تلك المُدَّة الطَّويلة، وبعثهم هذا البعث الخاصّ، وأَطلعَ النّاسَ عَليهم ليُعلِّمَ هؤلاء النّاس عن طريق المعاينة والمشاهدة، أَنَّ وعْدَ الله بالبعث حَقٌّ وصدقٌ وليعلموا كذلك أنَّ السّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، ولا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عثر).
(2) الراغب، المفردات: (عثر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عثر).
(4) الراغب، المفردات: (نزع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غلب).
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 507.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 640.

شكَّ في حصولها، فإنَّ مَن شاهدَ أهلَ الكهف، وعرفَ أحوالَهم، أو سمعَ عنهم الخبرَ اليقين أيقنَ بأنَّ مَن كانَ قادرًا على إنامتِهم تلك المدَّة الطويلة، ثمَّ على بعثِهم بعدَ ذلك مِن نومِهم؛ فهو قادرٌ على إعادةِ الحياةِ إلى الموتى، وعلى بعثِ النّاس يومَ القيامةِ للحسابِ والجزاءِ[1].

تيسيرُ السُّبُل لبيانِ صدق الرُّسُل

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

عطفُ الحكمةِ على الحكمة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا﴾ عَطَفتِ الجملةَ على جملةٍ: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ [الكهف: 19]، أُريدَ بها بيان الحكمة الَّتي من أجلها أَطْلَعَ اللّهُ ﷻ النّاسَ على هؤلاء الفتية، فكما كان ﷻ قادرًا على بعثهم مِن نومهم تلك المدَّة الطَّويلة فهو قادرٌ كذلك على إراءة النّاس حالَهم وما صاروا إليه، وهو مِن عطفِ الجمل الخبريَّة على مثيلتها؛ لتشريكها في الحكم الإعرابي مع وجود الجهة الجامعة، والمناسبة بين هاتين الجملتين ممّا أوجب الوصل بينهما.

بلاغةُ التَّشبيهِ ودلالتُه:

يومئُ التَّشبيهُ بأنَّ الإعثارَ عليهم لم يكن بالأمرِ الهيِّن اليسير

شُبِّهت حالة الإعثار على أصحاب الكهف في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾، واطّلاع القوم عليهم وعلى ما رأوه منهم؛ بحالة نومهم الطَّويل ثمَّ بعثهم، وهي تشبيه حالةٍ بحالة، وأداة التشبيه؛ الكاف، ووجه الشَّبه؛ آية اللّه ﷻ وقدرته في الإعثار عليهم كما كانت آيةً في إنامتهم هذه المدَّة الطَّويلة، وفي هذا التَّشبيه المعطوف على السّابق إيماءٌ إلى أنَّ الإعثارَ عليهم لم يكن بالأمر الهيِّن، أو بالأمر اليسير، وإن لم ترد تفاصيلُ ذلك في القرآن، إلّا أنَّ الإشارة التَّشبيهيّة تومئُ إليه، أو أن يكون من باب تشبيه الغاية بالغاية، فكأنَّه ﷻ يقول: كما "أنمناهم وبعثناهم، لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم، ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم أَنَّ وعْدَ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 492.

اللّه حَقٌّ وهو البعث، لأن حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يُبعث"[1].

نكتة ذكر اسم الإشارة البعيد:

المعاني العالية يُشار إليها بما يُناسب مكانتها في النُّفوس

المراد من ذكر اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ تمييز أمر الإعثار عليهم؛ لكونه أمرًا غريبًا يحتاج إلى الاطِّلاع عليه، مع تعظيم قدرة اللّه تعالى الَّذي أنامهم هذه المدَّة، ثمَّ أفاقهم بعدها أحياءً، أي: ومثل ذلك الإعثار الذي له المكانة العالية في نفوس المؤمنين، وزيادة في هذه الأمور سَبْقُه بهيئة البعث بالأوصاف المذكورة آنفًا، وصار ما يتبع هذا البعث علامات أخرى تدلُّ على قدرة اللّه تعالى في هذه الآية العجيبة.

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة:

إعْثارُ اللهِ تعالى عَليهِم آيةٌ، وهِدايتُه لَهُم رَحْمَة

جاء التعبير بلفظ الإعثار للاطلاع على الشيء، والحصول عليه والفوز به؛ فاستعير العثور من معناه الحقيقي وهو السُّقوط عليهم، ثم اشتُقَّ من العثور ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾، بتشبيه وجدانِهم لأصحاب الكهفِ بالعثور عليهم على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، والقرينة عقلية لاستحالة العثور حقيقة، وورود التَّعبير بها مبالغة في الاطِّلاع والحصول عليهم.

نكتةُ استعمال مفردة عثر:

أصحابُ الكهفِ دَعَوا إلى الله بعجيبِ نومِهم لا بصريحِ عقلِهم

استعمل النَّظم كلمة ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾ دون أن يقول: أطلعناهم، أو أريناهم، وما إلى ذلك من تعبيرات من شأنها الدلالة على المعنى المراد، وهو أنَّ هذه المفردة تومئ إلى أنَّ القوم عثروا عليهم من حيث لا يتوقعون، والظّاهر أنَّهم كانوا يمشون في طريقٍ فأعثرهم اللّه تعالى فيها، فوجدوا القومَ، فاللّه أعثرهم عليهم، لا هم عثروا عليهم، وبه يظهر أنَّ حكمة اللّه تعالى كائنةٌ في أصحاب الكهف

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 477.

بأن يكونوا عبرةً وعظةً ودلالةَ صدقٍ لقومِهم، وأنَّهم وإن لم يكونوا داعين اللّه بلسانِ حالِهم لخوفِهم على دينهم، جعلهم اللّه داعين إليه بإنامتهم، وهذا من بديع التَّعجب من هذه القصَّة.

كلُّ ما جاء من العظيمِ عظيم

نكتة إسناد ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾ إلى ضمير العظمة:

أُسند فعل ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾ إلى ضمير العظمة؛ لكونه ﷻ هو القادر على إنامتهم ثم إفاقتهم ثم إطْلاعِ القوم عليهم، وما كانوا يعلمون من حالهم شيئًا إلّا بعد هذه الإفاقة وذلك العثور؛ ففي الإسناد تعظيم لقدرة اللّه تعالى، وآية عجيبة منه تعالى على الإحياء والإماتة.

اعتناءُ النَّظم بذكرِ المقصودِ بالسّياق

نكتة حذف مفعول ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾:

حذف مفعول فعل ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾؛ لقصد العموم إذ المعنى: وكذلك أطلعنا الناس عليهم، أو أطلعنا أهلَ المدينة على حالهم، ولما كانوا هم المقصودين بالكلام حذف المفعول، لمعرفة ذلك بداهةً، وليكون موطنُ العبرةِ في الإعثار عليهم.

الكهفُ تجويفٌ في باطنِ جبلٍ تحت أقدام السّائرين

بلاغة استعمال حرف الاستعلاء:

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ حرفِ الاستعلاء ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، وحرفُ الجرِّ (على) يُفيد الاستعلاءَ على الشَّيء؛ للإحاطةِ بِهِ مِن جميع جوانبِهِ، بِحيثُ لا يغيب منه أيُّ جزء، وعلا الشيء ارتفع عليه وأحاط به، وقد جاء استعمالُه في هذا السّياق مناسبًا للفظ العثور حقيقة ومعنى؛ فيُقال: عثرَ على ضالَّته؛ وجدَها وأحاطَ بها، فمعنى أعثرنا عليهم: أي جعلنا أهلَ القريةِ يعثرون عليهم في جوف الكهف، ويومِئُ حرف الاستعلاء إلى أنَّ الكهف في تجويفٍ يكون تحت أقدام السّائرين، فهو يحتاج إلى انتباهةٍ شديدةٍ من فوق ليُعثر عليهم، ولم يكن ذلك إلّا بفعل اللّه تعالى وإرادته.

معنى اللام ودلالتها:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ للتَّعليل، والمعنى:

غايةُ أفعال الله تعالى حِكَمٌ وعِبَر

أعثرنا عليهم مِن أجل أن يعلموا، واللّام بهذا صارت رابطةً بين فعل ﴿أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ وفعل ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾، أي: أعثرنا لأجل العلم بأنَّ وعدَ اللّه حقٌّ، فغايةُ الإعثارِ العلم.

تعيين مرجع الضمائر:

الضَّميرُ في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عائد إلى الفتيةِ أصحاب الكهف، والضَّمير في الفعل ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ عائد على أهل المدينة الَّذين اطَّلعوا عليهم، وهو مفعول الفعل ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾.

بلاغة مجيء مفعولي (علم) جملة:

وقوعُ المعاني جملةً أرسخ في تثبيت جزئياتها

ورد مفعولا الفعل ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ جملة مؤكَّدة مقرونة بكونها وعدًا مِنَ اللّه ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾، وهذا الوعد هو يوم القيامة وهو الحقُّ الثّابت، وقد جاء المفعولان جملةً لبيانِ أنَّ مضمونَها مترابطٌ في آحادِه ومفرداته ومعانيه ودلالاته، فيقع ذلك كلُّه موقع المعلوم يقينًا، باعتبارِه معنًى كليًّا مترابطًا.

سرُّ مجيء المسند إليه تركيبًا إضافيًّا:

شمولُ كلِّ وعدٍ من الله تعالى، والبعث يدخل دخولًا أوليًّا

جاء المسند إليه تركيبًا إضافيًّا لا علَمًا في قوله تعالى: ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ فلم يقل: أنَّ البعث حق؛ وذلك لإضافة الوعد للّه تعالى، فيُكسبه جلالًا وصدقًا وهيبةً، فتضمن معنى الصدق؛ لأنَّه وعد اللّه تعالى، وهو أشملُ مِنَ البعث ومرادفاته، فيدخل فيه كلُّ موعودٍ مِنَ اللّه تعالى، والبعث يدخل دخولًا أوليًّا.

نكتة ذكر الحقِّ دون الصِّدق:

الحقُّ أشمل وأوسع دلالةً من الصِّدقِ فناسب السياق

ذُكر الحقُّ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ دون الصِّدق، فلم يقل: أن وعد اللّه صدقٌ، للعموم؛ فأصل الحَقّ: المطابقة والموافقة، وهو هنا مطابق لما ذُكرَ مِن وعد اللّه تعالى ببعث هؤلاء وقيام السّاعة في كون ذلك أمرًا ثابتًا مُتحقَّقًا، أمّا الصِّدق فهو "والكذب أصلهما في القول، ماضيًا كان أو مستقبلًا، وعدًا كان أو غيره، ولا يكونان

بالقصد الأوّل إلّا في القول، ولا يكونان في القولِ إلّا في الخبرِ دونَ غيرِه من أصنافِ الكلام"[1]، وعليه فذكرُ الحقِّ أوسع وأشمل وأدلُّ على كون البعث حقًّا ثابتًا، كما أنَّ فيه دفعًا للشكِّ وإغلاقًا لباب مَن يجعله صدقًا أو كذبًا أو شكًّا وارتيابًا.

غرض تنكير لفظ ﴿حَقٌّ﴾:

ورد لفظ ﴿حَقٌّ﴾ في وصف وعد اللّه تعالى نكرة للتَّعظيم، وهو كونه متحقَّقًا ثابتًا لا يتخلَّف لكونه وعده ﷻ كما أفاد العموم، فأي وعد من اللّه تعالى فهو حقٌّ ثابت.

بلاغة الإطنابِ في عطف الخاصِّ على العام:

إثباتُ السّاعة مرّتين بالعموم لبيان أنّها حقٌّ وبالخصوص لنفي الرَّيب

عطف قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ على قوله تعالى: ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فالجملةُ المعطوفة فيها نفي الريب عن الساعة، والجملةُ المعطوف عليها فيها إثبات أن وعد اللّه حق، فيُسأل هل هذا من قبيل التكرار؟ وما بلاغة العطف؟

والجواب: أنَّ هذا من قبيل إثبات العموم، أي: عموم الموعود الإلهي الحق، فإثبات الساعة لأنَّها جزءٌ من ذلك الموعود، فعلى هذا تكون من عطف الخاص على العام، وهو سبب مِن أسباب الإطناب، والغرض منه التَّنويه بشأن الخاص، والتَّنبيه على فضله حتَّى كأنَّه شيء آخر، فذكر كون ﴿ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ داخل في تحقيق وعد اللّه تعالى وهو البعث ثم أُعيد ذكره مرَّة أخرى وهو كون السّاعة لا ريب فيها تنويهًا وتعظيمًا لشأنها.

وإذا فسرنا الوعد بالبعث فقط؛ فيكون مِن بابِ عطف العام على الخاص، باعتبارِ أنَّ السّاعة شاملةٌ للإِحياءِ والبعث والحشر والحساب والجزاء والأول أقوى وأظهر.

(1) الرّاغب، المفردات: (صدق).

بلاغةُ المجازِ المرسل بذكر السّاعة دون القيامة:

السّاعة هي أحد أوقات القيامة، فهي جزء منها؛ فسُمّيت القيامة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ بالساعة من قبيل إطلاق الجزء على الكلِّ؛ لكونه أظهر أوقاتها، وهو الَّذي تقع فيه المحاسبة والمجازاة عن الكلِّ وهو القيامة، وفيها مراعاة حالة القدرة الَّتي أنامت هؤلاء تلك المدَّة الطَّويلة، ثم أفاقتهم في لحظةٍ انكشف فيها أمرهم، وهو الوقت الدنيويُّ الَّذي يناسب هذه الحالة دون القيامة الَّتي تأتي آخرًا، واشتُهِر التعبير بها عن القيامة حتَّى صارت علَمًا عليها بالغلبة.

السّاعة أشهر أسماء القيامةِ، وهي المناسبة لساعة بعث أهل الكهف

بلاغة نفي الريب دون الشَّك:

ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ دون أن يقول: (لا شك فيها) من نفي الريب، أبلغ من نفي الشَّكِّ الَّذي هو التَّردد؛ لأنَّ في الرَّيب يقع التَّوهم ثم يزول، ولم يستعمل الشَّك في القرآن الكريم إلّا في مقام المتردِّد، ونفي الريبِ هو نفيٌ لكلِّ ما قد يقع في النَّفسِ من اضطراباتٍ نحو معتقدٍ ما، ويغلب الشَّكُّ في أمور العقليّات، والذي يقابل الرّيب هو الطُّمأنينة، وهي مختصَّة بالقلبِ والنَّفس، أما الشك فيقابله اليقين، وقد يقع الأمر اليقينيُّ عقلًا لكن داعية النَّفس لم تهدأ، فإذا ما اطمأنَّ القلب نُفي الرَّيب.

يقابل الرَّيبَ الطُّمأنينةُ والشَّكَّ اليقينُ

معنى حرف الظَّرفية:

مجيء حرف الظَّرفية في قوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾؛ للدّلالة على تمكُّن نفي الرَّيب، أي: أنَّ وقوع أمر السّاعة أمرٌ مقطوع به، فهو أمرٌ مستقرٌ استقرارًا لا يرتاب فيه مُرتاب، ونفي الرَّيبِ هو لكيفيَّة وقوعها لا لمجرَّد العلم بها، "فَهو إنْ صارَ عِلمُهُم بِذلك عَن مُشاهَدَةٍ تَزولُ بِها خَواطِرُ الخَفاءِ الَّتي تَعتَري المُؤمِنَ في اعتِقادِهِ حينَ لا يَتَصَوَّرُ كَيفيَّةَ العَقائِدِ السَّمعيَّةِ وما هو بِرَيبٍ في العِلمِ ولَكِنَّهُ

الرّيبة إن وقعت بعد العلم بالسّاعة ففي كيفيّتها

في الكَيفيَّةِ، وهو الوارِدُ فيهِ أَنَّهُ لا يَخطُرُ إلّا لِصِدّيقٍ ولا يَدومُ إلّا عِندَ زِنديقٍ"[1].

توجيه تعلُّق الظَّرفية:

إدمــاجُ ذكـرِ التـنـازعِ كشفٌ لأحداثٍ تاريخيَّة

تعلق الظَّرف في قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ بفعل ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾، "أَي: أَعثَرنا عَلَيهِم حينَ تَنازَعوا أَمرَهُم، وصيغَ ذلك بِصيغَةِ الظَّرفيَّةِ لِلدّلالَةِ على اتِّصالِ التَّنازُعِ في أَمرِ أَهلِ الكَهفِ بالعُثورِ عَلَيهِم، بِحَيثُ تَبادَروا إِلَى الخَوضِ في كَرامَةٍ يَجعَلونَها لَهُم، وهَذا إِدماجٌ لِذِكرِ نِزاعٍ جَرَى بَينَ الَّذينَ اعتَدَوا عَلَيهِم في أُمورٍ شَتَّى جَمَعَها قَوْلُه تَعالَى: ﴿أَمۡرَهُمۡۖ﴾"[2].

بلاغة الاستعارة ودلالتها:

لا يكونُ التَّنازعُ إلّا في الملمّات

شُبِّه التَّجاذب بالتَّنازع واشتُق منه الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وذلك لبيان شدَّة تجاذب أطراف الحديث بينهم، كأنَّه شيءٌ يُتنازع فيه، أو أنَّه سيصل بهم إلى التَّنازع الحقيقيِّ، "والتَّنازُعُ: الجِدالُ القَويُّ، أَي يَتَنازَعُ أَهلُ المَدينَةِ بَيْنَهُم شَأْنَ أَهلِ الكَهفِ، مِثلَ: أَكانوا نِيامًا أَم أَمواتًا، وأَيبقون أَحياءً أَم يموتون؟ وأيبقون في ذلك الكَهفِ أَم يَرْجِعونَ إِلَى سُكْنَى المَدينَةِ، وفي مُدَّةِ مُكثِهِم؟"[3].

نكتة التعبير بالمضارع:

التَّعبيرُ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ يُفيد التَّجدُّدَ والاستمرارَ، واستحضارَ صورة هذا التَّنازع كأنَّه ماثلٌ أمامنا.

تعيينُ مرجعِ ضمائر: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ﴾:

إذا طـال وقت التـنـازع كـثُر الداخلون فيه

عادَ ضميرُ فعل ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ والضَّمير المضاف إليه الظَّرف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 288.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 288.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 288.

﴿بَيْنَهُمْ﴾ إلى أهل المدينة الَّذين أطلعهم اللّه تعالى على أصحاب الكهف، أمّا ضمير ﴿أَمْرَهُمْۖ﴾ فيُحتملُ أن يكون عائدًا على أصحاب الكهف، أو إلى أهل المدينة، أي: ماذا يفعلون بهؤلاء الفتية؟ وهذا ما سار عليه جمعٌ من المفسِّرين كما سيأتي بيانه.

معنى الأمر بناء على اختلاف مرجع الضَّمير:

فتية الكهف حيَّروا عقول مَن في مدينتهم

المراد بالأمر في قوله تعالى: ﴿أَمْرَهُمْۖ﴾ الشَّأن، والمعنى: "يَتنازعون في شأنهم، فمنهم من يقول: إنَّهم وجدوا في زمن كذا، ومنهم من يقول إنَّهم مكثوا في كهفهم كذا سنة، ومنهم من يقول نبني حولهم بنيانًا صفته كذا، ويجوز أن يكون الضمير في ﴿أَمْرَهُمْۖ﴾ يعود إلى الذين أطلعهم اللّه على الفتية، فيكون المعنى: اذكر وقت تنازع هؤلاء الذين عثروا على الفتية وتخاصمهم فيما بينهم، حيث إن بعضهم كان مؤمنًا، وبعضهم كان كافرًا، وبعضهم كان يؤمن بِبَعْثِ الأرواح والأجساد، وبعضهم كان يؤمن ببعث الأجساد فقط"(1).

معنى الفاء ودلالتها الإيجازيَّة:

الفصيحة والتَّفريعيَّة تلتقيانِ في تقدير محذوف

جاءت الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ﴾ فصيحة أو تفريعيَّة، ومعنى الفصيحة أنَّها تُفصح عن مقدَّر في الكلام كأنَّه قيل: "وكذلك أعثرنا الناس على أصحاب الكهف حين تنازعهم في أمر البعث؛ فتحققوا ذلك وعلموا أن هؤلاء آية من آياتنا، فتوفاهم اللّه تعالى بعد أن حصل الغرض من الإعثار؛ فقالوا: ابْنوا إلى آخره"(2).

وأمّا كونها تفريعيَّة فعلى معنى أنَّه قد طويَ "وَصْفُ العُثورِ عَلَيهِم، وذُكِرَ عَودُهُم إلَى الكَهفِ لِعَدَمِ تَعَلُّقِ الغَرَضِ بِذِكرِهِ، إذ لَيسَ مَوضِعَ عِبرَةٍ لِأنَّ المَصيرَ إلَى مَرقَدِهِم وطُروَّ المَوتِ عَلَيهِم شَأنٌ مُعتادٌ لِكُلِّ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 493.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 235، 234.

حَيٍّ، وتَفريعُ فقالوا على يَتَنازَعونَ"[1]، والفصيحة والتَّفريعيَّة تتفقان في تقدير محذوفٍ.

غرض الأمر في قوله ﴿ٱبۡنُواْ﴾:

لين في الكلام لا تجده في كلام ذوي النفوذ وأرباب الغلبة

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿ٱبۡنُواْ﴾ ليس على حقيقته، بل المراد منه الإرشاد؛ فقد انقسم القوم في شأن هؤلاء الفتية حين توفّاهم الله تعالى فأشار البعض بأن يُبنَى عليهم بُنيان يحفظهم وأن يتركوا التَّنازع فيما بينهم، وأن يَكلوا أمرهم إلى ربِّهم فهو أعلم بهم وأدرى بحالتهم، وهناك مَن قال: نسدُّ عليهم باب كهفهم مع تركهم على حالتهم فلا يدخل الناس عليهم حفظًا لتربتهم تلك، وهناك من قال: نبني عليهم مسجدًا لإتيانه واتِّخاذهم قدوة، فالأمر للإرشاد.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

الاعتناءُ بأهلِ الكهف ببناءٍ خاصٍّ

المرادُ من تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ﴾ التَّخصيص، ومعناهُ أن يكون بُنيانًا خاصًّا بهم، ومقصورًا عليهم ليكون علامة على هدايتهم وحسن سيرتهم، فلا يكون كأيِّ بناءٍ مبنيٍّ على غيرِهم، فدلَّ التَّقديم على العنايةِ بشأنِهم، والرِّعاية لحالهم بعد موتهم.

بلاغة استعمال حرف الاستعلاء ودلالته:

علوٌّ مخصوص لأهل الطاعة والكرامة

الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ﴾ حقيقة في علوِّ البناء عليهم، والمراد به الإحاطة والشمول، علا الشيءُ الشيءَ أحاط به من جميع جوانبه، فالاستعلاء لا يُراد به الفوقيَّة المباشرة فحسب، بل الإحاطة من الجوانب بحيث يصير البُنيان آتيًا على مكانهم كلِّه، يحيط بهم من جميع جوانبهم حتَّى يصير عليهم كالغطاء لا ينفذ إليهم شيء يضيرهم من خلاله.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 289.

نكتة ذكرِ لفظ ﴿بُنۡيَٰنٗاۖ﴾:

المقترحاتُ الأوليَّة ليست شرطًا أن تكون النِّهايات الفعليَّة

البنيان أعمُّ من المسجد، فاقتُرِح ابتداءً بناء بُنيانٍ عليهم في قوله تعالى: ﴿ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ﴾، ولم يقولوا: (مسجدًا)، "وإنَّما ارتَأَوا أَن يَبنوا عَلَيهِم بُنيانًا لِأَنَّهُم خَشَوا عَلَيهِم مِن تَرَدُّدِ الزّائِرينَ غَيرِ المُتَأَدِّبينَ، فلَعَلَّهُم أَنْ يُؤْذوا أَجسادَهُم وثيابَهُم باللَّمسِ والتَّقليبِ، فأَرادوا أَن يَبنوا عَلَيهِم بِناءً يُمكِنُ غَلْقُ بابِهِ وحِراسَتُهُ"(1)، فَكانَتْ غايةُ البناءِ ابتداءً لأجل الحماية، والمقترحات الأوليَّة لا تكون هي النِّهايات الفعليَّة.

توجيه موقع جملة ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ﴾ البلاغي:

دعوة لتفويض الأمور كلِّها لله تعالى

هذه الجملة يُحتمل أن تكون حكاية لكلام طائفة من المتنازعين في شأن أصحاب الكهف، قالوا بذلك ليقطعوا النِّزاع في شأنهم وتفويض أمرهم إلى الله تعالى على معنى: ربُّهم أعلم بأمرهم وأحوالهم الَّتي تنازعنا فيها، أو تكون معترضة ردًّا للمتنازعين الَّذين خاضوا في شأنهم والمراد: اتركوا أيها الخائضون المتنازعون ما أنتم عليه من التَّنازع والخوض فإنّي - أي الله تعالى - أعلم بشأنهم وأدرى بحالهم فكفّوا عن هذا الخوض والتنازع في أمرهم.

نكتة اختيار عنوان الربوبيَّة:

اختيار الألفاظِ باعتبارِ السّياق ومناسبة المقام

وردَ التَّعبير بلفظ الربوبيَّة في قوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ﴾؛ لإظهار نعمة الله تعالى عليهم، وهو مأخوذ من التَّربية، فالله تعالى هو الَّذي أوجدهم وربّاهم وأولاهم بصنوف النِّعم، والَّتي مِنْها أنَّه سبحانه هو الَّذي أماتهم ثم بعثهم على علم منه ﷻ؛ ولذا جاء هذا الاسم مقرونًا بالعلم، أي: ربهم الذي تولَّى ذلك كلَّه أعلم بهم، فناسب ذكر الرُّبوبيَّة لأنَّ المقام مقامُ عنايةٍ ورعايةٍ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 289.

فائدةُ اختيار صيغة أفعل التفضيل:

قطعُ التَّنازع وتفويض الأمر لصاحبِ الأمر

آثر النَّظم الإتيان بصيغةِ أفعل التفضيل في قوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْۚ﴾ بعد أمر التَّنازع والخوض في أمر هؤلاء الفتية أنائمون هم أم موتى؟ أأحياءٌ يبقون أم موتى يدفنون؟ أصالحون هم أم لا؟ كل هذه خواطر مرَّت على عقول هؤلاء الخائضين في شأنهم، فجاء التَّعبير بأفعل التفضيل لبيان أنَّ هناك من هو أعلم منكم بشأنهم، فهنا مفضَّلٌ وهو علم اللّٰه تعالى، ومفضَّل عليه وهو علم هؤلاء الخائضين؛ فكأنَّه قيل: (لا طريق لكم إلى علم هذا الأمر الَّذي تخوضون فيه)؛ لأنَّ اللّٰه تعالى الَّذي أوجدهم ورعاهم هذه المدَّة الطويلة أعلم منكم بهم، فالمرادُ من هذا التَّعبير لا مجرَّد الإخبار، بل قطع التنازع في شأنِهم، وتفويض ذلك للّٰه تعالى.

علَّة فصْلِ الجملة عن السّابقة:

فُصلت هذه الجملة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ﴾ عن سابقتها لشبه كمال الاتِّصال، وهو ما يُسمَّى بالاستئناف البياني، على طريقة المحاورات؛ فكأنَّه قيل: (ماذا فعل هؤلاء بعد ذلك؟) فجاء الجواب: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ﴾.

فائدةُ استعمال الاسم الموصول:

التَّنبيه على تغيُّر الأحـوالِ وتبدُّل الأيّام

الاسم الموصول من الأسماء المبهمة، ولذا فهو مفتقر دائمًا إلى الصِّلة فهي الَّتي تُزيل إبهامه، والمراد به في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ﴾ زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام، والإيماء والإشارة إلى معرفة الأمر الَّذي قاله هؤلاء، والَّذين قالوا ذلك هم ولاة الأمور بالمدينة، وأنَّهم هم مَن قالوا باتِّخاذ المسجد عليهم؛ ليكون شعارًا يُعرفون به، وهم أرباب الغلبة ونفوذ الكلمة: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾، أي: نصلي فيه تبركًا بهم وبمكانهم، ففي استعمال الاسم الموصول إيماءٌ إلى أنَّ القائلين هم من آل إليهم أمر الإيمان وخضعوا

لدين اللّه تعالى، بعد ضعف أصحاب الكهف والتجائهم إليه هروبًا بدينهم، فهو تنبيهٌ على الضدّيَّة في تحول الأحوال، فما كان اليوم ضعفًا فغدًا قوَّة، وما كان اليوم قوّةً فغدًا سيكون ضعفًا.

دلالة استخدام مفردة الغلبة:

الغلبةُ على التَّحقيق لربِّ العالمين

المراد بالغلبة في اللغة: القهر والقدرة على الشَّيء، وقد استعمل النَّظم هذه المفردة في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟﴾؛ لبيانِ أنَّ الغلبة كانت بعد صراعٍ ونزاعٍ، فتمكَّن المؤمنون من الغلبة على غيرِهم مِن المنكرين، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ المؤمن إذا كانت له الغلبة فإنَّما يأمر بما يُرضي اللّه تعالى علانيةً، وعليه ألّا يستعجل قطف ثمارِ العمل، فالأمر للّه تعالى وحدَه، وهذا حال أصحاب الكهف أنَّهم مكثوا في الكهف إلى أن أَذِن اللّه لهم بالبعث بعد النوم المديد، ولم تكن الغلبة لهم، كما أنَّها ليست لغيرِهم على التَّحقيق، بل لربِّ العالمين.

فنُّ التَّرديد:

لكلِّ أمرٍ وجهةٌ هو مولّيها

التَّرديد هو "أن يُعلِّق المتكلِّم لفظة من الكلام على معنى ثمَّ يردُّها بعينها ويُعلِّقها بمعنى آخر"[1]، فـ﴿أَمْرَهُمْ﴾ الأولى عائدة إلى أصحاب الكهف أو إلى المتنازعين في أمرهم، و﴿أَمْرِهِمْ﴾ الثّانية تعود على الولاة وأُمراء المدينة، وجوِّز كونه عائدًا إلى الفتية.

معنى اللام ودلالتها:

مَنْ عَزَم على أمرٍ أكَّده

اللام في قوله تعالى: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ لام القسم المقدَّر، والتَّقدير: (واللّه لنتخذنَّ)، وتُسمَّى اللام المؤكِّدة، ولام الابتداء للإيذان بكونه محكومًا عليه، ومن هنا اقترنت بنون التَّوكيد الثَّقيلة لِوكادَةِ أمر اتِّخاذ المسجد عليهم، فهم عزموا على ذلك عزمًا يدل على تأكيدٍ لا يُقبل معه التَّردد، أو التَّراجع.

---

(1) ابن النَّقيب، مقدِّمة ابن النَّقيب، ص: 284.

غرض التَّوكيد في ﴿لَنَتَّخِذَنَّ﴾:

قوة أرباب الغلبة تجعل كلامَهم نافذًا

التوكيد في قوله تعالى: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ يعكس قوة هؤلاء القائلين، وأنَّ الكلام الصادر عنهم هو الكلام النّافذ، كما يعكس التَّوكيد شدَّة الرَّغبة في صيانة أجساد أهل الكهف مِن أذى النّاس كرامة لهم وكونه مقصدًا يُزار لأخذ العبرة وتعهُّد الناس هذا الكهف الخاص بهم.

سرُّ العدول عن لفظ البنيان إلى الاتِّخاذ:

الوعد الأكيد يُنادي على قوّة الألفاظ والتراكيب

بدأ النَّظم بذكر قول الأولين بالأمر بالبناء، وفي قوله تعالى: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ ذكر الإخبارَ بالاتِّخاذ، وهو افتعال من الأخذ، والأخذ هو حوز الشيء وتحصيله إمّا تناولًا وإمّا قهرًا، ويأتي بمعنى جعل شيء على شيء، والأخذ العمل بقوة وعزيمة، بينما البناء فهو اسم لما يُبنى وهو عام في كُلِّ ما يُبنى، ويُحتمل أن يؤخذ محلًّا وألّا يؤخذ، أمّا المسجد فهو متَّخَذٌ للمقصد والزّيارة فيناسبه هنا الاتِّخاذ وليس الوقوف على حدِّ البُنيان، كما أنَّ ذكرَ الاتخاذ لبيان قوة عزيمة اتخاذ المسجد، فهو ليس مجرد بناءٍ، بل اتخاذ قائم على العزيمة والثبات.

دلالة تقديم الجار والمجرور:

لكلِّ أمرٍ عظيم ملابساتٌ تُناسبه

تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ للتخصيصِ، والمرادُ: عليهم لا على غيرِهم لكونِهم المخصوصين بذلك دون سواهم، إذ هم أهلٌ لاتِّخاذ المسجدِ عليهم؛ لصلاحِهم وتقواهم على حسب اعتقاد القائلين بذلك آنذاك.

بلاغة استعمال حرف الاستعلاء:

مسجد كبير يحيط بِكهفهم تكريمًا لهم وصيانة لحُرمتهم

الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ حقيقي لا مجازي، ومجيء الظَّرفيَّة باستعمال لفظ العلو هنا دليل على الإحاطة والشُّمول لكهفهم هذا؛ ليشمل جميع الأجزاء الَّتي يحلُّ بها هؤلاء الفتية وإحاطته بهم.

نكتةُ ذكر لفظ ﴿مَّسۡجِدٗا﴾ دون (بنيانًا):

اتِّخاذُ المَساجِدِ علـى قُبـورِ الصّالِحينَ مِن سُنَّةِ النَّصارَى

لما ذكر المتقدِّمون اقتراحهم ببناء البنيان، قال الذين غلبوا على أمرهم أنَّهم سيتَّخذون مسجدًا، وهذا يدلُّ على أنَّهم انتقلوا من عموم الطَّرح إلى الخصوص، فهم يريدون مسجدًا يُثبت أنَّهم على شريعة الحقِّ، فالمساجد لا تُتَّخذ إلّا على المؤمنين، "وإنَّما رَأَوا أَن يَكون البِناءُ مَسجدًا ليكونَ إكرامًا لهم ويَدومَ تعهُّد النّاسِ كهفهُم، وقَد كانَ اتِّخاذ المَساجِدِ على قُبورِ الصّالِحينَ مِن سُنَّةِ النَّصارَى، ونَهَى عَنهُ النّبيُّ صلّى اللّه عَلَيْهِ وآله وسلّم"[1] في شريعتِنا، والمقصدُ أنَّ اتخاذَ المسجد كان عنوانًا للعبادة الحقَّة، والمسلك القويم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرَّيْبُ والشَّكُّ:

الـشَّـكُ تـساوي النقيضين عقلًا، والرَّيب اضطراب القلب في أمرٍ ما

الرَّيبُ يأتي بِمَعنى الشَّكِّ مَع التُّهمَة؛ تَقولُ: رابَني الشيءُ وأَرابني، بِمَعنَى شَكَّكني؛ وقيل: أَرابني في كذا أي شَكَّكني وأَوهَمني الرِّيبةَ فيه، وهو مأخوذٌ مِنَ الرّائبِ مِنَ اللَّبَنِ، وهو ما مُخِضَ فأُخِذَ زُبْدُه؛ المَعنَى: عَلَيكَ بالَّذي لا شُبهَةَ فيهِ كالرّائبِ مِنَ الأَلبانِ، وهو الصّافي[2]، تَقولُ: رابَني هَذا الأَمرُ، إِذا أَدخَلَ عَلَيك شَكًّا وخَوفًا، وأَرابَ الرَّجُلُ: صارَ ذا ريبةٍ، وقَد رابَني أَمرُهُ[3]؛ فالرَّيْبُ: أن تتوهّم بالشَّيء أمرًا ما، فينكشفُ عمّا تتوهّمه، قال اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ [الحج: 5]، ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة: 23]، تنبيهًا أن لا ريبَ فيه، وقوله: ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطور: 30]، سمّاه ريبًا لا أنَّه مُشكِّك في كونه، بل من حيث تشكّك في وقت حصوله، فالإنسان أبدًا في ريب المنون من جهة وقته، لا من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 289.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ريب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ريب).

جهة كونه، والرِّيبَةُ اسم من الرّيب قال تعالى: ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 110]، أي: تدلّ على دغل وقلّة يقين[1]، فالرَّيب يكون في يقين القلب، لا في قناعة العقل، فليس العقل بدافعٍ ريبةَ القلب إن وجدت، فإذا دفعها القلب فقد كمل الرُّسوخ.

(الشَّكُّ): الشّين والكافُ أَصلٌ واحِدٌ مُشتَقٌّ بَعْضُه مِن بَعضٍ، وهو يَدُلُّ على التَّداخُلِ، مِن ذلك قَولُهُم شَكَكتُه بالرُّمح، وذلك إِذا طَعَنتَهُ فداخَلَ السِّنانُ جسمَهُ، والشَّكُّ خِلافُ اليَقين، وإنَّما سُمّيَ بذلِكَ لأنَّ الشَّاكَّ كأنَّهُ شُكَّ لَهُ الأَمرانِ في مَشَكٍّ واحِدٍ، وهو لا يَتَيَقَّنُ واحدًا منهُما، فمن ذلك اشتِقاقُ الشَّكِّ، تقولُ: شَكَكتُ بَينَ ورَقَتَين، إِذا أَنتَ غَرَزتَ العودَ فيهما فجَمعتَهُما[2]، فالشَّكُّ اصطلاحًا: اعتدال النّقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النّقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما، والشَّكُّ ربّما كان في الشَّيء هل هو موجود أو غير موجود؟ وربّما كان في جنسه، من أيّ جنس هو؟ وربَّما كان في بعض صفاته، وربَّما كان في الغرض الذي لأجله أوجد[3].

التنازع، والخصومة، والمجادلة:

التَّنازع: النّزع يَدُلُّ على قَلعِ شَيءٍ، ونَزَعتُ الشَّيءَ مِن مكانِه نزعًا، والمِنزَعُ: الشّديدُ النّزعِ، والمِنزعةُ كالمِلعقةِ يكونُ مع مُشتارِ العسلِ، ونزع عنِ الأمرِ نُزوعًا: تركهُ، وأراد بالنّزعةِ جمع نازِعٍ، وهو الّذي ينزِعُ في القوسِ: يجذِبُ وترهُ بالسّهم، وفُلان قريبُ المنزعةِ، أي قريبُ الهمّةِ، ومنزعةُ الرّجُلِ: رأيُهُ، ونازعتِ النّفسُ إلى الأمرِ نزاعًا، ونَزَعَتْ إليهِ، إذا اشتهتهُ، ونزع إلى أبيهِ في الشّبهِ[4]، ويُستعمَل ذلك في الأعراض، ومنه: نَزْعُ العَداوة والمَحبّة مِنَ القلبِ، قال تعالى:

التَّنازع أخذ الدَّليل مِنَ الخصم، والخصومة مُطلق النِّزاع، والمجادلة إحكام الدَّليل على الخصم

(1) الراغب، المفردات: (ريب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شكَّ).
(3) الراغب، المفردات: (شكَّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزع).

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ [الأعراف: 43]، والتَّنازُعُ والمُنازَعَةُ: المُجاذَبَة، ويُعَبَّرُ بهما عن المُخاصَمة والمُجادَلة، قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ [النساء: 59]، ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ [طه: 62][1]، والمنازعة في الخصومة: مجاذبة؛ كلٌّ يريد أن يقتلع أمرًا من يد صاحبه[2]، فالنَّزع إخراج شيءٍ من آخر حسيًّا كان أو معنويًّا.

الخصومة: هي المُنازَعَةُ، والخِصامُ: مَصدَرُ خاصَمتُه مُخاصَمَةً وخِصامًا، وقَد يُجمَعُ الجَمعُ على خُصوم، قالَ: وقَد جَنَفَت عَلَيَّ خُصومي[3]، وأصلُ المُخاصَمَة: أن يتعلَّق كلٌّ واحد بخصم الآخر، أي جانبه وأن يَجذب كلٌّ واحد خصم الجوالق من جانب، والخَصيمُ: الكثير المخاصمة[4]، فالخصومة هي منازعة يُراد منها إثبات خطأ المقابل بإقامة الدَّليل عليه.

المجادلة: الجدَلُ يأتي مِن بابِ اسْتِحْكام الشَّيْءِ في اسْتِرْسالٍ يَكونُ فيه، وامتِدادِ الخُصومَةِ ومُراجَعَةِ الكَلام، ويُقالُ لِلزِّمام المُمَرِّ: جَديلٌ، والجَدولُ: نَهرٌ صَغيرٌ، وهو مُمتَدٌّ، وماؤُه أَقوى في اجتِماعِ أَجزائِهِ مِنَ المُنبَطِحِ السّائِحِ[5]، والجِدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من: جَدَلْتُ الحبل، أي: أحكمت فتله، ومنه: الجَديل، وجدلت البناء: أحكمته، ودرع مَجدولَة، والأَجْدَل: القصر المحكم البنية، والمِجدَل: القصر المحكم البناء، ومنه: الجِدال، فكأنّ المتجادلين يفتل كلّ واحد الآخر عن رأيه، وقيل: الأصل في الجِدال: الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالَة، وهي الأرض الصلبة[6]، والمعنى المحوري للكلمة: امتداد الشيء شديد الأثناء بالتفاف بعضه على بعض أو التفاف مثله عليه، ومنه جادله: خاصمه في شدَّة ولَدَد، فالمجادلة التفاف كل على الآخر بإصرار[7]، وعليه فالمجادلة هي إثبات قوَّة المجادل بالحجَّة والبرهان في مقابل النَّظير.

وعليه فالتَّعبير بالتنازع هو الأنسب لما فيه من بيان أنَّهم لما تنازعوا في أمرهم، أراد كلٌّ منهم أن ينتزع من الآخر الدليل على صحَّة دعواه.

---

(1) الراغب، المفردات: (نزع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نزع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).
(4) الراغب، المفردات: (خصم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل).
(6) الراغب، المفردات: (جدل).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جدل).

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾ [الكهف: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

غفلةُ النّاس عن الغايات وانشغالهم بالشّكليّات

لمّا ذكرتِ الآيةُ السابقة تنازع النّاس في أصحاب الكهف، وأنَّ اللّه تعالى جعلهم آيةً على البعث، ناسب أن يذكر اختلاف النّاس في فرعيّات شأنهم، وهو ذكر عددهم، والانشغال عن الحكمة الكبرى في قصّتهم، فذكر ما شاع في "قِصَّةِ أَهْلِ الكَهْفِ حينَ نَزَلَ بها القُرآنُ، وصارَتْ حَديثَ النَّوادي، فكانَت مَثارَ تَخَرُّصاتٍ في مَعرِفَةِ عَدَدِهِم، وحَصرِ مُدَّةِ مُكثِهِم في كَهفِهِم، ورُبَّما أَملَى عَلَيْهِمُ المُتَنَصِّرَةُ مِنَ العَرَبِ في ذلك قِصَصًا، وقَدْ نَبَّهَهُمُ القُرْآنُ إِلَى ذلك وأَبْهَمَ على عُمومِ النّاسِ الإِعْلامَ بذلك لِحِكْمَةٍ، وهيَ أَنْ تَتَعَوَّدَ الأُمَّةُ بِتَرْكِ الاشْتِغالِ فيما لَيسَت مِنهُ فائِدَةٌ لِلدّينِ أَوِ لِلنّاسِ، ودَلَّ عِلمُ الاِستِقبالِ على أَنَّ النّاسَ لا يَزالونَ يَخوضونَ في ذلك"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَجۡمَۢا﴾: (رجم) أَصْلٌ واحِدٌ يَرْجِعُ إِلَى وجْهٍ واحِدٍ، وهو الرَّميُ بالحِجارَةِ، مِن ذلك الرِّجامُ، وهيَ الحِجارَةُ، يُقالُ رُجِمَ فُلانٌ، إِذا ضُرِبَ بالحِجارَةِ[2]، والرَّجْمُ: الرّمي بالرِّجام، يقال: رُجِمَ فهو مَرْجومٌ، قال تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦﴾ [الشعراء: 116]، أي: المقتولين أقبح قتلة، ويُستعار الرّجم للرّمي بالظّنّ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 289.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجم).

والتّوهّم، وللشّتم والطّرد، نحو قوله تعالى: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ والشّيطان الرَّجيمُ: المطرود عن الخيرات، وعن منازل الملأ الأعلى[1]، والرجم: القول بالظَّن والحدس، ﴿وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾، أي: حدسًا وتخمينًا لا عن أساس، وهذا كما نقول: كلام مرسل[2].

2) ﴿بِعِدَّتِهِم﴾: (عدّ) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ لا يَخْلو مِنَ العَدِّ الَّذي هو الإِحصاءُ، ومِنَ الإِعدادِ الَّذي هو تَهْيِئَةُ الشَّيْءِ، وإِلَى هَذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ تَرْجِعُ فُرُوعُ البابِ كُلُّها، فالعَدُّ: إِحْصاءُ الشَّيْءِ، تَقولُ: عَدَدْتُ الشَّيْءَ أَعُدُّه عَدًّا فأَنا عادٌّ، والشَّيءُ مَعْدودٌ، والعَديدُ: الكَثْرَةُ، وفُلانٌ في عِدادِ الصّالِحينَ، أَي يُعَدُّ مَعَهُم، والعَدَدُ: مِقْدارُ ما يُعَدُّ[3]، والعَدَدُ: آحاد مركّبة، وقيل: تركيب الآحاد، وهما واحد[4]، والمقصود بالآية عدد أصحاب الكهف على التَّحقيق.

3) ﴿تُمَارِ﴾ - ﴿مِرَآءٗ﴾: المِراءُ مِمّا يَتَمارَى فيهِ الرَّجُلانِ من هَذا، لِأَنَّهُ كَلامٌ فيهِ بَعْضُ الشِّدَّةِ، ويُقالُ: ماراهُ مِراءً ومُماراةً[5]، والمِريَةُ: التَّرَدُّد في الأمرِ، وهو أخصّ مِنَ الشّكّ، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾ [فصلت: 54].

والامتراء والمُماراة: المحاجّة فيما فيه مرية، قال تعالى: ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾ [مريم: 34]، ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾، وأصله من: مَرَيْتُ النّاقةَ: إذا مسحت ضرعها للحلب[6]، ومن هذا المراء: المجادلة؛ إذ هي بسبب الشّك وعدم اليقين فيما يقول الآخر، وكل من المتمارين يعالج صاحبه ليستخرج ما عنده ثم يستزيد، أي: لا يكتفي ولا يقنع[7].

4) ﴿تَسۡتَفۡتِ﴾: الفُتْيا هي البيان، يُقالُ: أَفْتَى الفَقيهُ في المَسْأَلَةِ، إِذا بَيَّنَ حُكمَها، واستَفتَيتُ، إِذا سَأَلتَ عَنِ الحُكم، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ [النساء: 176][8]، والفُتْيا والفَتْوى: الجواب عمّا يُشكل مِنَ الأحكام، ويُقال: استَفتَيتُه

(1) الراغب، المفردات: (رجم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رجم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدَّ).
(4) الراغب، المفردات: (عدَّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مريَ).
(6) الراغب، المفردات: (مرى).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مرى).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتى).

فأَفتاني بكذا"(1)، والفتيا: تبيين المشكل، فهو من المفارقة والتَّمييز وفضِّ التباس الأمر وتشابكه(2)، فالاستفتاءُ في الآيةِ هو طلبُ الفتيا في شأنِ أصحاب الكهف.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تُبيِّنُ الآيةُ اختلافَ النّاسِ في عددِ أصحاب الكهف، وهم مَن خاض في قصتهم في زمن رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وآله وسلّم، سيقول بعض الخائضين في أمر الفتية من أصحاب الكهف، هم ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقول بعضهم: هم خمسة سادسهم كلبهم، وما ذلك الذي صدر عنهم إلا قذفٌ بالظنّ بغير يقين علم(3)، وقد أشارت الآية بأنَّهم سبعة وثامنهم كلبهم، وقد فوّضت العلم على حقيقته إلى رب العالمين، ثم نهت الآية النبيَّ صلى اللّٰه عليه وآله وسلم عن المماراة فيهم إلا مراءً ظاهرًا، كما نهته عن طلب العلم بعددهم.

لا ينبغي للعالم العاقل أن يتابع النّاس في انشغالهم فيما لا نفع فيه

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى السّين ودلالتها الإيجازيّة:

السّين في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ﴾ حرف استقبال، وتأتي للاستمرار، وقد "جاءَ بِسينِ الِاستِقبالِ لِأَنَّهُ كانَ في الكَلامِ طَيٌّ وإِدْماجٌ، والتَّقْديرُ فإذا أَجَبْتَهُم عَنْ سُؤالِهِم وقَصَصْتَ عَلَيْهِم قِصَّةَ أَهْلِ الكَهْفِ فسَلْهُم عَنْ عَدَدِهِم فإِنَّهُم إِذا سَأَلْتَهُم سَيَقولونَ"(4)، ولَم يأتِ بها فيما بعدهُ لِعطفِهما عليْه، فأخذَت حكمها المُسْتَقبلي.

النَّظم يكشف عن خفايا النُّفوس وثنيّات القلوب

نكتة استعمال صيغة المضارع في فعل القول:

استعملت صيغة المضارعة في فعل القول في قوله تعالى:

حشدُ الجهود فيما لا نفعَ فيه منكرٌ في العقول

(1) الراغب، المفردات: (فتى).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فتو/ فتى).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 641.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 113.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ ثلاث مرّاتٍ، والفعل المضارع يدلُّ في أصل استعماله على التَّجدُّد والاستمرار، ونكتة ذلك هنا هو التَّنبيه على أنَّ ما يصدر عنهم من الأقوال هو غايةُ عنايتهم في هذا الأمر العجيب، وفي هذه القصة الغريبة، فأفاد التَّعبير بالمضارع الاستنكار على جعل جلِّ رعاية النّاس هو معرفة عدد أصحاب الكهف.

تعيين مرجع ضمير ﴿سَيَقُولُونَ﴾:

إيماءُ الآيةِ إلى ترك الاعتداد بما يرد عن أخبار أهل الكتاب

المراد بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ الخائضون في قصتهم على عهد النبيّ ﷺ من أهل الكتاب الذين لا علمَ لهم بحقيقة العدد، فيقول فريقٌ منهم: ثَلاثَةٌ رابِعُهُم كَلبُهُم، ويَقولُ فريقٌ آخر: خَمسَةٌ سادِسُهُم كَلْبُهُم، فهم "أهل التوراة من معاصري محمد ﷺ، وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص"[1]، وقيل إنَّ الضمير يعود على غَيْرِ مَذْكورٍ؛ لِأَنَّهُ مَعْلومٌ مِنَ المَقام، أَيْ: يَقولُ النّاسُ أَوِ المُسْلِمونَ، إِذْ لَيْسَ في هَذا القَوْلِ حَرَجٌ ولَكِنَّهُم نُبِّهوا إِلَى أَنَّ جَميعَهُ لا حُجَّةَ لَهُم فيهِ[2]، وكذلك الضَّمير في الفعلين الآخرين يسير على منوال سابقه، والصَّحيح أن لا اختلاف في بيان مرجع الضَّمير؛ فإنَّ الأصل في هذا هم أهل الكتاب، لا سيما النصارى، والمسلمون وغيرهم قد أخذ عنهم هذا الخبر، وفيه إيماءٌ إلى ترك الاعتداد بكلام أهل الكتاب في قصصهم، فإنَّ الاعتناء بها لا خيرَ فيه ما لم يُنبِّه القرآن عليه.

غرضُ حذفِ المسندِ إليه:

حُذف المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ لأمرين:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 508.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 290.

منتهى آمال ضعيف الرّأي المسارعة في ذكر الأخبار

الأول: عدم الفائدة من ذكره بعد فعل القول، وتقدير المسند إليه: (عددهم) أو (هم)، وفي الحذف إيجاز واختصار لكون ذلك معلومًا للسامع، إذ حذف ما يُعلم جائز.

الآخر: تنبيه المخاطَب على مَوطن العبرة في إيراد قولهم، فالابتداءُ بالخبر ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾ يؤكِّد على موطن الإنكار عليهم، وأنَّ غاية أمرهم التسابق إلى ذكر العدد، فهو غاية أحلامهم، ومنتهى رجائهم.

فائدة مجيء ﴿رَّابِعُهُمْ﴾ على وزن اسم الفاعل:

نمطٌ مخصوصٌ من الصّياغة صيَّر الثلاثة إلى أربعة

جيء بذكر تصيير عدد أصحاب الكهف بصيغة اسم الفاعل ﴿رَّابِعُهُمْ﴾، و﴿سَادِسُهُمْ﴾، و﴿وَثَامِنُهُمْ﴾، وذلك أن هذا العدد سيصيّر عددَ أصحاب الكهف إليه بعد ضمِّ الكلب إليهم، وعليه فتقدير المعدود هو أشخاص؛ وإنَّما قدَّرنا أشخاصًا؛ لأنَّ رابعهم اسم فاعل أضيف إلى الضمير، والمعنى: أنَّه رابعهم، أي: جعلهم أربعة، وصيَّرهم إلى هذا العدد، فلو قدر ثلاثة رجال استحال أن يصير ثلاثة رجال أربعة لاختلاف الجنسين[1].

نكتة الاقتصار على الأرقام الفرديَّة:

النّاسُ تميل إلى ظنونها لا إلى الحقِّ المبين

يُلاحظ أنَّ ما ذكره النّاس في عدد أصحاب الكهف هو أعداد فرديَّة، ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾، و﴿خَمۡسَةٌ﴾، و﴿سَبۡعَةٌ﴾، وكَأَنَّ أَقوالَهم تَمالَأَت على أَنَّ عِدَّتَهُم فرديَّةٌ تَيَمُّنًا بِعَدَدِ المُفرَد، وإلّا فلا دَليلَ على ذلك دونَ غَيرِهِ، وقَدْ سَمَّى اللهُ قَوْلَهُم ذلك: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾[2]، وهذا يدلُّ على أنَّ ما قالوه هو عن ظنٍّ لا عن يقينٍ قاطع؛ فإنَّ الإنسان رهنُ ما يميل إليه، لا رهن ما يصله من الحقِّ.

دلالةُ ذكرِ قيد ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾:

لما كان اختلاف النّاسِ في تعيين العدد الخاصِّ بهؤلاء الفتية قائمًا على

(1) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 561، 560.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 290.

في القيود ما يُظهر المعاني للمستنبط المعهود

التَّخمين، جاء قيد ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ بعد القولين الأوّلين؛ إشعارًا بأنَّهما دون القول الثّالث في القوّة والقبول، فقوله تعالى: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ تَكْذيب لتِلْك المقالة، ويُؤيِّدُهُ قَول ابْن عَبّاس رضي الله عنهما حين جاءَت الواو انْقَطَعت العدة، أَي: لم يبْق عدَّة يلتَفت إِلَيها؛ فإِن قلت: إذا كانَ المُراد التَّصْديق فما وجه مَجيء: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾، قلت وجه الجُملَة الأول توكيد صِحَة التَّصْديق بِإِثبات علم المُصدق، ووجه الثّانيَة الإِشارَة إِلَى أَن القائِلين تِلْكَ المقالة الصادقة قَليل، أَو أَن الَّذي قالَها مِنهُم عَن يَقين قَليل، أَو لما كانَ التَّصْديق في الآيَة خفيًّا لا يَستَخْرِجه إِلّا مثل ابْن عَبّاس، قيل ذَلِك، ولِهَذا كانَ يَقول: أَنا من ذَلِك القَليل، هم سَبْعَة وثامنهم كلبهم(1).

بلاغة الاستعارة التَّصريحيّة في لفظ ﴿رَجۡمَۢا﴾:

التّخمين كالحجارة التي تُرمى فتُخطئ وتُلحق ضررًا

شُبّه إرسال الكلام من غير علم بالرجم وهو الرَّمي بالحجارة الَّتي لا تُصيب غرضًا في قوله تعالى: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ على سبيل الاستعارة التصريحيَّة، وبلاغةُ الاستعارة في كون الرَّجم هو رمي الحجارة مع عدم إصابتها أحدًا، فهو رميٌ بغير طائل ولا فائدة، وهذا حال الظَّنِّ والتَّكلُّم بغير علم، ونكتته المبالغة في تصوير حالتهم تلك في عدم القطع والتَّثبُّت في بيان عدد هؤلاء الفتية، بل فيه إشارة إلى أنَّ كلامهم قد يكون فيه ضررٌ عليهم، إذ من شأن الرّاجم أن يُصيب غير المقصود فيُؤذيه.

معنى الباء ودلالتها:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ للتَّعدية، والمراد بها: إيصال الفعل اللازم إلى المفعول به "كَأَنَّهُم لَمّا تَكَلَّموا عَنْ أَمرٍ غائِبٍ كانوا يَرْجُمونَ بِهِ"(2)، والمعنى: يرمون رميًا بالخبر الغائب عنهم والَّذي لا اطِّلاع لهم على حقيقته وإتيانًا به أو ظنًّا بذلك.

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 2/ 36، 35.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 290.

معنى تعريفِ لفظِ الغيب:

جرأةُ الخائضين في الغيبيّات دليلُ خبثِ النّيّات

التَّعريف في لفظ الغيب في قوله تعالى: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ للعهد العلميِّ أو الحضوريِّ لعدم سبق ذكرٍ للمعرَّف لا صراحة ولا كناية، فالسّامع يدرك المقصود به بمجرد سماع اللفظ، وهذا يدلُّ على جرأة القائلين لأخبار الغيب، دون تحقُّقٍ وتثبت، وهذا شأنهم في المعتقدات كلِّها.

نوع الواو في قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمۡ﴾:

معاملة السّبعة معاملة أعداد العقود وعلى التَّحقيق فالواو للعطف

اختلف اللغويون في معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ على أقوال:

الأول: واو الثَّمانية، ذكرها جماعَة من الأدباء كالحريري ومن النَّحْويين الضُّعَفاء كابْن خالويه، ومن المُفَسّرين كالثَّعْلَبيِّ، وزَعَموا أَن العَرَب إِذا عدّوا قالوا: سِتَّة سَبْعَة وثَمانية؛ إيذانًا بِأَن السَّبْعَة عددٌ تامّ، وأَن ما بعْدها عدد مُسْتَأْنف.

الثاني: واو العطف، لعطفِ جملَةٍ على جملَة، إِذِ التَّقْدير: (هم سَبْعَة)، ثمَّ قيل: (الجَميع كَلامهم)، وقيل العَطف من كَلام اللّٰه تَعالَى، والمعْنَى: (نعم هم سَبْعَة وثامنهم كلبهم).

الثالث: واو الحال، وعَلى هَذا فيُقدَّر المُبْتَدَأ اسْم إشارة، أَي: (هَؤُلاءِ سَبْعَة) ليَكون في الكَلام ما يعْمل في الحال[1].

والتحقيق أنها واو العطف، لكن لما اختص استعمالها بمحل مخصوص، وتضمنت أمرًا غريبًا واعتبارًا لطيفًا، ناسب أن تُسمى باسم غير جنسها، فسميت واو الثمانية لمناسبة بينها وبين سبعة، وذلك لأن السبعة عندهم عقد تام كعقود العشرات، لاشتمالها على أكثر مراتب أصول الأعداد، فإن الثمانية عقد مستأنف؛ فكان

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 2/ 36، 35.

بينهما اتصال من وجه، وانفصال من وجه، وهذا هو المقتضي للعطف، وهذا المعنى ليس موجودًا بين السبعة والستة[1]، فهي واو عطفٍ، اختصَّت بهذا الاسم لهذه المناسبة اللطيفة.

بلاغة الاستئناف البيانيّ:

علمُ اليقينيّات مهما قلَّ شأنُها فهي لعَلّامِ الغُيوبِ

فُصِل قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ عمّا سبق؛ لشبه كمال الاتِّصال، وهو الاستئناف البياني، كأنَّه قيل: (ماذا يُقال لهم؟) فقيل: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، ونكتةُ ذلك: ما "تُثيرُه جُملَةُ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ إلَى آخِرها مِن تَرَقُّبِ تَعْيِينِ ما يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ مِن أَمرِ عِدَّتِهِم؛ فأُجيبَ بِأَنْ يُحالَ العِلْمُ بِذلك على عَلّامِ الغُيوبِ"[2].

دلالة استعمال لفظ الرّبوبيَّة:

إظهارُ الفضل لصاحبِ الفضل

ورد التعبير بلفظ الربوبية في قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾؛ للاعتراف بمزيد فضل اللّه تعالى وإنعامه، حيث أحسن إلى نبيِّه ﷺ وأعلمه أمر هؤلاء الفتية، فهو المربي الَّذي تعهد نبيَّه بالتَّربية والتَّأديب.

غرض الإضافة وفائدتها:

ليس بعد إضافتك لخالقك فخرٌ يُذكر

الإضافة في قوله تعالى: ﴿رَّبِّيٓ﴾؛ لتعظيم المضاف، وتشريف المضاف إليه وهو الضَّمير العائد إلى النَّبيِّ صلى اللّه عليه وآله وسلم المفهوم من خطاب ﴿قُل﴾، مع ما فيها من إظهار التَّربية الإلهيّة، حيث إنَّ هذه الكلمة جاءت تعليمًا من اللّه تعالى لنبيِّه صلَّى اللّه عليه وآله وسلم، مع ما في الإضافة من الإيجاز اللفظيِّ.

نكتة استعمال صيغة أفعل التّفضيل:

علمُ الله تعالى لا يقربه حدسٌ أو تخمين

أُسند اسْمُ التَّفْضيلِ ﴿أَعۡلَمُ﴾ إلَى ﴿رَّبِّيٓ﴾ لإفادةِ "أَنَّ عِلْمَ اللّه بِعِدَّتِهِم هو العِلْمُ الكامِلُ، وأَنَّ عِلْمَ غَيْرِهِ مُجَرَّدُ ظَنٍّ وحَدْسٍ قَدْ

(1) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 567، 566.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 293.

يُصادِفُ الواقِعَ وقَدْ لا يُصادِفُهُ"[1]، فاستعمال صيغة التَّفضيل هنا لإلغاءِ كلِّ علم مقطوعٍ به ممّا صدر عن هؤلاء، فليست المفاضلة باعتبار وجود المفضول، بل المراد إلغاء وجود المفضول في العلم، وما جاء في قوله تعالى: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ فهو باعتبار الاستثناءِ، وعلم القليل مصدره الوحي، فمردُّ العلم للّه تعالى.

مردُّ العلومِ إلى الوحي

علَّةُ فصْلِ الجملة عن السّابق:

جملة: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ "مُستَأنَفَةٌ استِئنافًا بيانيًّا؛ لِأَنَّ الإِخبارَ عَنِ اللّه بِأَنَّهُ الأَعلَمُ يُثيرُ في نُفوسِ السّامِعينَ أَنْ يَسْأَلوا: هَلْ يَكونُ بَعْضُ النّاسُ عالِمًا بِعِدَّتِهِم عِلْمًا غَيْرَ كامِلٍ، فأُجيبَ بِأَنَّ قَليلًا مِنَ النّاسِ يَعْلَمونَ ذلك، ولا مَحالَةَ هُم مَنْ أَطْلَعَهُمُ اللّه على ذلك بوحْيٍ وعلى كُلِّ حالٍ فهُم لا يوصَفون بالأَعلَميَّة؛ لِأَنَّ عِلمَهُم مُكتَسَبٌ مِن جِهَةِ اللّه الأَعلَمِ بِذلك"[2].

نكتةُ استعمال ﴿مَّا﴾ في النفي:

أداءُ وظيفة النَّفي ونفي العموم

استعمَلَ النَّظمُ ﴿مَّا﴾ للنَّفي في قوله تعالى: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾، دون أن يأتي بلا أو بلن، وذلك أنَّ هذه الأداة دالَّةٌ على عمومِ النَّفي؛ لتقومَ بوظيفةِ النَّفي مِن جهةٍ، ونِفي العموم من جهةٍ ثانية، وبه تكون أبلغ في أداء الوظيفة الدّلاليَّة لها من غيرها في هذا السّياق؛ إذِ الغرضُ نفيُ عموم العالِمين إلّا مَن أثبتتِ الآيةُ علمَهم بهم.

بلاغةُ القصر ونوعه:

العلماء الرَّبانيّون قليلٌ في العبادِ

القَصْرُ في قولِه تعالى: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ قصرُ صِفة على مَوصوف قصرًا إضافيًّا لاحتمالِ مَن يعلم غير هذا القليل، وطريقه النَّفي والاستثناء، قصر صفة العلم لعدد هؤلاء الفتية على موصوف، وهم الجماعة القليلة الَّتي علمت عددهم، فنُفيَ العلم عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 293.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 293.

جمع غفير إلّا عن قليل منهم علموا عدَّتهم حتَّى قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: أنا من القليل، وهذا يدلُّ على أنَّ أتباعَ الوحي هم العلماء الرَّبانيّون، وهم قليل في خضم كثرة العباد.

نكتة التَّعبير بالمضارعِ ﴿يَعۡلَمُهُمۡ﴾:

يـتـجـدَّدُ نـفـيُ العـلـمِ الموهوم بتجدُّد ادّعائه

جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ الفعل المضارع ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ﴾؛ للدّلالةِ على نفي التَّجدُّد والاستمرار لهذا العلم الموهوم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ادِّعاءَ العلم مستمرٌّ في شأنِ عددهم، وبتجدُّدِ هذا الادِّعاء يتجدَّد نفيُه، وهذا على إعمال النَّفي، وعلى جعل التقدير: (يعلمهم قليل فإنَّ تجدَّد علم هؤلاء يكون ثابتًا لمن علَّمه اللّٰه تعالى ذلك.

نكتةُ العدول عن ذكر العدد إلى ذكر الذّات:

أسلوبُ الحكيم يوجّه الأنظار إلى الحقيق بالأنظار

عدلَ النَّظمُ عن ذكرِ العددِ إلى ذكرِ الذّات في قوله تعالى: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾، فلم يقل: (ما يعلم عدتهم إلّا قليل)، وذلك لتوجيه الأنظار على طريقة أسلوب الحكيم، إلى أنَّه كان ممّا ينبغي أن تعتنوا بمعرفة هؤلاء الفتية في صفاتهم وأحوالهم ومكانتهم، لا أنْ تَعتنوا بعدَدِهم مع الحرصِ على عدِّ كلبهم!

فنُّ الجناس بين ﴿أَعۡلَمُ﴾ و﴿يَعۡلَمُهُمۡ﴾:

وفـوق كـلِّ ذي علم عليم

الجناس بين الاسم ﴿أَعۡلَمُ﴾ والفعل ﴿يَعۡلَمُهُمۡ﴾ جناسٌ ناقص؛ لكون الاثنين من مادَّة واحدة، وهي العلم، وللاشتراك في أكثر حروف الكلمتين، وزاد العبارة توضيحًا وجمالًا، ودلَّ كلٌّ واحدٍ منهما على المراد منه بأبلغ معنى وأفصحه.

غرضُ تنكيرِ ﴿قَلِيلٞۗ﴾:

أهـلُ الـعـلـم الرّاسخون قِلَّة في العدد والنَّوع

جاءَ لفظُ ﴿قَلِيلٞۗ﴾ منكَّرًا لتعظيم شأنِ هؤلاء القليل العالمين بعدد أصحاب الكهف، فهؤلاء القليل راسخون في الإحاطة بخبر الفتية والعلم بعدَّتهم، ولبيان النَّوعيَّة، فهم نوعٌ قليلٌ موصوف بالعلم.

معنى الفاء ودلالتها:

إذا نزل اليقين ارتفع مراء المجادلين

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ إمّا أن تكون تفريعيَّة، وهي لتفريعِ النَّهي عنِ المراء في عدد أصحاب الكهف على تفويض العلم بعدَّتهم إلى اللّهِ تعالى، كأنَّه قالَ: (إذا علمتَ أنَّ ربَّك هو الأعلمُ بعدتهم؛ فلا تمارِ فيهم)، "أَي: إِذْ أَرادَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ الْمُماراةَ في عِدَّةِ أَهْلِ الكَهْفِ لِأَخْبارٍ تَلَقَّوْها مِن أَهْلِ الكِتابِ، أَو لِأَجلِ طَلَبِ تَحقيقِ عِدَّتِهِم فلا تُمارِهِم، إِذْ هو اشتِغالٌ بِما لَيسَ فيهِ جَدوى، وهَذا التَّفريعُ وما عُطِفَ عَلَيهِ مُعتَرِضٌ في أَثناءِ القِصَّةِ"[1].

وإمّا أن تكون سببيَّة، "فتسبَّب عن ذلك أن يقول لك على سبيل البتِّ الدّاخل تحت النَّهي عن قفوِ ما ليسَ لك به علم: لا تمارِ، أي: تُجادل وتراجع ﴿فِيهِمۡ﴾ أحدًا ممَّن يتكلَّم بغير ما أخبرتك به"[2].

وتحتمل أن تكون الفاء فصيحة داخلة على أداة النَّهي، حيث أفصحت عن مُقَدَّر: كأنَّه قال: (إذا عرفت هذا - وحُقَّ لك أن تعرفه - فلا تُمارِ).

غرض النّهي في ﴿فَلَا تُمَارِ﴾:

إرشاد المسترشد تأكيدٌ على المحاسنِ وتثبيتٌ للمكارم

الغرضُ مِن النَّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ إرشاده ﷺ إلى عدم مُجادلة أهل الكتاب في عدَّة أصحاب الكهف، إلّا جدال المُتيقِّن العالم بحقيقة الخبر، أو لتأكيد ذلك، حيث عُرِف من سلوكه ﷺ عدم مماراته في مثل هذه الأمور.

بلاغةُ القصْر ونوعه:

مع اليقين؛ المراءُ جائز بحُسنٍ ولين

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ قصر صفة على موصوف، حيث قصر صفة المراء، وهو الجدال، على موصوف، وهو المراء الظّاهر المتيقَّن، وطريقه النَّفي والاستثناء، وهو قصرٌ إضافيٌّ، المقصود به قصر تعيين نوعِ المراء الجائز.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 293.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 41.

بلاغة المجاز بحذف المضاف:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ مجازٌ بحذف المضاف، والتقدير: (فلا تمار في عدَّتهم)؛ لدلالة ظاهر القول عليها، ولكونها معلومة من السّياق، وبلاغة المجاز في أن يكون النَّهي عن المراءِ فيهم عمومًا، ليكون آكد في عدَّتهم، ولو قال: (في عدتهم) لانتقل المراء في أمورٍ أخرى تخصُّهم، فكان إيثار العموم عن طريق حذف المضاف أبلغ في النَّهي عن المراء في العدَّة.

النَّهي عن العمومِ آكدُ في الخصوص

نكتةُ التَّعبير بالمراء صيغةً ودلالة:

المُرادُ بالمِراءِ المُجادلة "والتَّماري: تَفاعُلٌ مُشتقٌّ مِنَ المِريَةِ، وهيَ الشَّكُّ، واشتِقاقُ المُفاعَلَةِ يَدُلُّ على أنَّها إيقاعٌ مِنَ الجانِبَينِ في الشَّك، فيؤول إلَى مَعنَى المُجادَلَةِ في المُعتَقَدِ لِإبْطالِه، وهو يُفْضي إلَى الشَّكِّ فيه، فأَطلَقَ المِراءَ على المُجادَلَةِ بطَريقِ المَجازِ، ثُمَّ شاعَ فصارَ حَقيقَةً لَمّا ساوى الحَقيقَةَ، والمُرادُ بالمِراءِ فيهِمْ: المِراءُ في عِدَّتِهم كَما هو مُقتَضَى التَّفريع"[1]، ونكتةُ التَّعبير بهذا اللَّفظِ، هو الابتعادُ عَنْ مَواطنِ الفِتنِ في شأنِ الأخبارِ الصّادِقةِ، وبيانُ منهجِ القرآن في شأنِ تفاصيل السابقين.

النَّهي عن الجدال في تفاصيل أخبار السّابقين

نكتة تقييدِ المراء بقوله: ﴿ظَٰهِرًا﴾:

أتى المِراءُ مُقيَّدًا بكونِه ظاهرًا، ومن هنا فارق المراء الحقيقيَّ المذموم، "والمِراءُ الظّاهِرُ: هو الَّذي لا سَبيلَ إلَى إنْكارِه ولا يَطولُ الخَوْضُ فيه، وذلك مِثْلُ قَوْلِه تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، وقَوْلِه تعالى: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، فإنَّ هَذا مِمّا لا سَبيلَ إلَى إنْكارِه وإبايَتِهِ لِوُضوحِ حُجَّتِهِ، وما وراءَ ذلك مُحْتاجٌ إلَى الحُجَّةِ فلا يَنْبَغي الاشْتِغالُ بِهِ لِقِلَّةِ جَدْواهُ"[2]، فكأنَّه قال له: "إذا كان الشأن كما

المراءُ الظّاهر واضحُ الحجَّة قويُّ البرهان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 294.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 294.

أخبرْناكَ عن حالِ أصحابِ الكهفِ، فلا تُجادِلْ في أمرهم أحدًا مِنَ الخائضين فيه إلّا جدالًا واضحًا لا يتجاوز حدود ما قصصناه عليك - أيُّها الرَّسول الكريم - ولا تطلبِ الفتيا في شأنهم مِن أحدٍ؛ لأنَّ ما قصصناهُ عليك مِن خبرهم، يُغنيك عن السؤال، وعنْ طلبِ الإيضاحِ مِن أهلِ الكتاب أو مِن غيرهم"[1]، والمعنى: "لا ترجع إليهم في شأنِ الفتية ولا تصدِّق القول الثّالث من حيث صدوره منهم، بل من حيث التَّلقي مِنَ الوحي"[2].

ذكر الاستثناء مع المراء وحذفه مع الاستفتاء:

للمراءِ استثناءٌ إن كان هادفًا، وليس كذلك الاسْتِفْتاء لانعدام العالِمين

لمّا كان النَّهيُ عنِ المراء هو النَّهي عن المجادلة، فإمّا أن يكون جدالًا يتَّسم بالحقِّ والصِّدق، وإمّا أن يكون بالباطل، وإظهاره في صورة الحقِّ، فله إذن صورتان: صورة المحقِّ، وصورة المبطل الَّذي يُلبس الحقَّ ثوبَ الباطل ففيه مفاعلة، فالواجب أن يكون هذا الجدالُ جدالَ العالم المتيقِّن بحقيقة الخبر فورد بأسلوبِ الإرشادِ على سبيلِ الاستثناءِ، فاقترن المراء بالاستثناء لإظهار الحق وإقرار الصِّدق، أمّا الاستفتاء فهو طلب الفتيا من المسْتَفْتي فلا حاجة لورود الاستثناء فيه، إذِ السؤال موجَّه إلى المجيب مباشرة، ولهذا أُرشد ﷺ إلى عدم الرجوع إلى أحد فيما أرشده الله تعالى إليه وأفتاه فيه، ومن هنا لا داعي للاستثناء لكونه صورة واحدة وظرفًا واحدًا.

قالَ الرّازيُّ: "واعْلَم أَنَّهُ تَعالَى لَمّا ذَكَرَ هَذِهِ القِصَّةَ أَتبَعَهُ بِأَنْ نَهَى رَسولَهُ عَنْ شَيْئَيْنِ، عَنِ المِراءِ والِاسْتِفْتاءِ، أَمّا النَّهْيُ عَنِ المِراءِ، فقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾، والمُرادُ مِنَ المِراءِ الظّاهِرِ ألّا يُكَذِّبَهُم في تَعْيينِ ذلك العَدَدِ، بَل يَقولُ: هَذا التَّعْيينُ لا دَليلَ عَلَيْهِ، فوجَبَ التَّوقُّفُ وتَرْكُ القَطْعِ، ونَظيرُه قَوْلُه تعالَى: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 497.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 247.

﴿ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: 46]، وأَمّا النَّهْيُ عَنِ الاستِفتاءِ فقَولُهُ: ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾، وذلك لِأَنَّهُ لَمّا ثَبَتَ أَنَّهُ لَيسَ عِنْدَهُم عِلْمٌ في هَذا البابِ وجَبَ المَنْعُ مِن اسْتِفْتائِهِم"[1].

بلاغةُ الكناية:

نفي العلم عن كلِّ أحدٍ وإثباته للنّبيِّ الخاتم

النَّهي عن استفتاء النّاس في شأنِ أصحاب الكهف، كِنايَةٌ "عَنْ جَهْلِهِم بِأَمرِ أَهْلِ الكَهْفِ، فضَميرُ مِنهُم عائِدٌ إِلَى ما عادَ إِلَيْهِ ضَميرُ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ﴾، وهُم أَهْلُ مَكَّةَ الَّذينَ سَأَلوا عَنْ أَمرِ أَهْلِ الكَهْفِ، أَوْ يَكونُ كِنايَةً رَمزيَّةً عَنْ حُصولِ علم النَّبيِّ صلّى اللّه عَلَيْهِ وآله وسلّم بِحَقيقَةِ أَمرِهِم، بِحَيْثُ هو غَنيٌّ عَنِ اسْتِفتاءِ أَحَدٍ، وأَنَّهُ لا يُعْلِمُ المُشْرِكينَ بِما عَلَّمَهُ اللّه مِن شَأْنِ أَهْلِ الكَهْفِ"[2].

نكتة تقديم ﴿فِيهِمۡ﴾ على ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ وتقديمهما على ﴿أَحَدٗا﴾:

ما اختصّ الله تعالى بعلمه، لا يُطلع عليه أحدًا

لمّا كان أمرُ الفتيا هو الأهمَّ في المماراة، والاستفتاء شأنهم، قُدِّم ما يتعلَّق بهم وهو ﴿فِيهِمۡ﴾، ولمّا كان المجادلون في شأن هؤلاء سواء مَن عاصره ﷺ؛ كأهل مكَّة، أُخِّر الحديث عنهم في الجار والمجرور ﴿مِّنۡهُمۡ﴾.

وتقديم هذين القيدين ﴿فِيهِمۡ﴾، و﴿مِّنۡهُمۡ﴾ على المفعول ﴿أَحَدٗا﴾ تَّخصيصٌ، أي: تخصيصُ عدم طلب الفتيا في شأن أصحاب الكهف مِن أحدٍ مِن النّاس؛ لعدم علمهم بذلك الأمر، حيث أقاموا قولهم على الظَّنِّ والشَّكِّ والرَّجم بالغيب، ولأنَّ عدَّتهم هيَ عند ربِّك الَّذي علّمك إيّاه فلا تُجادل أحدًا منهم، أو تطلب منهم فتيا في هذا الأمر أبدًا.

فائدةُ اختيار ﴿أَحَدٗا﴾:

استغراقُ العمومِ الكلّيّ في النَّهي عن الاستفتاء دليل المبالغة في النّهي

لفظ (أحد) يستعمل على ضربين: أحدهما: في النفي فقط، والثاني: في الإثبات، فأمّا المختص بالنفي فلاستغراقِ جنس

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/ 108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 294.

النّاطقين، ويتناول القليل والكثير على طريق الاجتماع والافتراق، نحو: ما في الدار أحد، أي: لا واحد ولا اثنان فصاعدًا لا مُجتمعين ولا مُفترقين، ولهذا المعنى لم يصحّ استعماله في الإثبات، لأنّ نفي المتضادين يصح، ولا يصحّ إثباتهما، فلو قيل: في الدار واحد لكان فيه إثبات واحدٍ مُنفرد مع إثبات ما فوق الواحد مجتمعين ومُفترقين"، وعلى هذا ورد التّعبير بهذا اللّفظ ﴿أَحَدًا﴾؛ لاستغراق جميع المجادلين والمتمارين في شأن أصحاب الكهف أو المستفتين منهم النّاطقين بعددهم مع اختلافهم في هذا العدد فأفاد التّعبير به استغراق العموم الكليِّ لمجادليهم ومُفتيهم على السَّواء.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المراء والجدال:

المراءُ أخصُّ مِنَ الجدال، والجدالُ قائمٌ على قوَّة المحاجَّة

المِرْيَةُ: التَّردُّد في الأمر، وهو أخصُّ مِنَ الشَّكِّ، والامتراءُ والمُماراة: المُحاجَّة فيما فيه مرية[1]، و"الجدال: الرجوع عن المذهب، فإن أصله من الجَدْل، وهو شدة الفَتْل، ومنه الأجدل؛ لشدَّة قوَّته من بين الجوارح"[2]، وهو "المُفاوضة على سبيل المُنازعة والمُغالبة، وأصله من: جَدَلْتُ الحبل، أي: أحكمت فتله، ومنه: الجَديل، وجدلت البناء: أحكمته"[3]، فالمراء أخصُّ مِنَ الجدال، ويكون الجدالُ في الأمور الكبار، وهو ما يحتاج إلى قوَّة احتجاجٍ واستدلال.

الاستفتاء والسُّؤال:

الاستفتاء خاصٌّ بطلب بيان حكم، والسّؤال أعمُّ منه

الفُتيا: البيان، يُقالُ: أَفتَى الفَقيهُ في المَسأَلَة، إذا بَيَّنَ حُكمَها، واستَفتَيتُ، إذا سَأَلتَ عَنِ الحُكم، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: 176][4]، والفُتيا والفَتوى: الجواب عمّا

(1) الراغب، المفردات: (مرى).
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 158.
(3) الراغب، المفردات: (جدل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتى).

يُشكل مِنَ الأحكامِ، ويُقال: اسْتَفتَيْتُه فأَفتاني بكذا"[1]، والفتيا: تَبيين المشكل، فهو مِن المفارقة والتَّمييز وفضِّ التباس الأمر وتشابكه[2]، فالاستفتاء في الآية هو طلب الفتيا في شأن أصحاب الكهف، وأمّا السؤال فهو أعمُّ من ذلك، لأنَّه استعلام عن الخبر والبيان، فالسُّؤالُ: "استدعاء معرفة، أو ما يؤدّي إلى المعرفة"[3].

(1) الراغب، المفردات: (فتى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فتو/ فتى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سأل).

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ٢٤﴾ [الكهف: 23 - 24]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقال من خبرِ الماضي إلى فعل المستقبل

لما نهتِ الآيةُ السّابقة عن استفتاءِ النّاسِ في أمرِ أصحاب الكهف، وكان ذلك موجبًا لقصر همته على ربِّه سبحانه، فكانَ مِنَ المعلوم أنَّه إذا سُئل عن شيءٍ، التفتت نفسُه إلى تعرفه من قبله، فربَّما قال لما يعلم مِن إحاطة علم اللّه سبحانه وكرمه لديه: سأُخبركم به غدًا، كما وقعَ مِن هذه القصص، علَّمه اللّه ما يقول في كلِّ أمرٍ مُستقبل يعزم عليه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾[1]، فهو انتقالٌ مِنَ الإخبار عن كلام النّاس في عدّة أصحاب الكهف في الماضي، إلى توجيه النبيِّ ﷺ فيما يقول في شأن المستقبل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَسِيتَ﴾: النِّسيان إغْفالُ الشَّيْءِ، إذا لَم تَذكُرُهُ، نِسيانًا، وقالَ بَعضُهُم: الأَصلُ في البابِ النِّسيانُ، وهو عُزوبُ الشَّيءِ عَن النَّفسِ بَعدَ حُضورِهِ لَها"[2]، وهو "تَركُ الإنسانِ ضبطَ ما استودِعَ، إمّا لضَعفِ قلبِهِ، وإمّا عن غفلةٍ، وإمّا عن قصدٍ حتى يَنحَذِفَ عن القلبِ ذِكرُهُ، يقال: نَسيتُه نِسياناً"[3].

2) ﴿رَشَدًا﴾: (رشد) أَصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على استِقامَةِ الطَّريقِ، فالمَراشِدُ: مَقاصِدُ الطُّرُقِ، والرُّشدُ والرَّشَدُ: خِلافُ الغَيِّ، وأَصابَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 43.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسي).
(3) الراغب، المفردات: (نسي).

فُلانٌ مِن أَمرِهِ رُشدًا ورَشَدًا ورِشدَةً، وهو لِرِشدَةٍ خِلافُ لِغَيَّةٍ[1]، ويُستعملُ استعمال الهداية، يُقال: رَشَدَ يَرْشُدُ، ورَشِدَ يَرْشَدُ قال تعالى: ﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: 51]، وقالَ بعضُهم: الرَّشَدُ أخصّ من الرُّشْدِ، فإنّ الرُّشْدَ يقالُ في الأمور الدُّنيويّة والأُخرويّة، والرَّشَدُ يُقال في الأمور الأُخرويَّة لا غير[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

على المرءِ تفويض أموره لله تعالى وجعلها في مضمون مشيئته تعالى

الآيةُ خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، والمعنى: لا تقولنَّ لأجل شيء تعزم على فعله في المستقبل: إني فاعل ذلك الشيء غدًا، وهو يعمُّ كلَّ ما يوصف بأنَّه شيءٌ ممّا يقع تحت فعله ﷺ، إلّا وأنت مقرن قولك هذا بمشيئة اللّه تعالى وإذنه، بأن تقول: سأفعل هذا الشّيء غدًا إن شاء اللّه، وإذا وقع نسيانٌ عن الاستثناء فليكن عند تذكّره، ثم ادعُ اللّه تعالى أن يهديك طريق الرّشد المبين.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

بعد التَّخلية تأتي التَّحلية

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ عاطفة، عطفت نهي عزم الإنسان على أمر من الأمور إلّا بتعليق المشيئة على النَّهيين السّابقين، وهما النَّهي عن المماراة إلّا بالحق وعدم استفتاء أحدٍ مِنَ النّاس، وهي مِن قبيل عطف التَّحلية على التَّخلية، فإذا ترك المُؤمن مماراة النّاس ولم يستفت أحدًا منهم، حسُن أن يتحلَّى بتعليق المشيئة باللّه تعالى، وبه يكون تمام التَّوكل والامتثال.

بلاغة النَّهي بعد النَّهي:

ورَدَ النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ تابعًا لسابقَيْه؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رشد).
(2) الراغب، المفردات: (رشد).

فصار مِن مُتمِّمات القصَّة ومِن هُنا أُلحق بهما، وهو على التَّحقيق إنشاءٌ لأمر استتباعي، فإنَّ عَدَمَ المُماراة، وترك الاستفتاء، هو توكلٌ واعتمادٌ على الله تعالى، والنَّهي عن قولِ سأفعل ذلك غدًا بدون تعليق بالمشيئة هو مِنِ استتمام الإرشاد الرَّباني، فاجتمع نهيٌ عن طلب الأخبار السّابقة، ونهي عن أفعالٍ مُستقبلة، إلا بتفويض الأمر لله تعالى.

متابعةُ النَّهي للنَّهي استتمامٌ لـلأمـرِ وتكميلٌ للحقِّ

غرض النَّهي في ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾:

اكتنزَ النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ﴾ تأديب النَّبيِّ ﷺ وإرشادَه أن يقول شيئًا إلّا بتعليقه بمشيئة الله تعالى، ولو كان ذلك الشَّيءُ آتيًا عن طريق الوحي نفسِه، وهذا في غاية الاحتراز أن يقع العبد فيما لا ينبغي له.

إرشادٌ وتأديبٌ لما يكون في الأوقات كلِّها

معنى اللّام ودلالتها:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِشَاْيۡءٍ﴾ لام التَّعليل وهي الَّتي يصلح موضعها "من أجل"، والمراد: لا تقولن مِن أجل فعلِ شيءٍ مِنَ الأشياء كيت وكيت إلّا أن يشاء الله تعالى أن تفعله بقولك: إن شاء الله.

غرضُ تنكير لفظ ﴿لِشَاْيۡءٍ﴾:

نكَّر النَّظمُ لفظَ ﴿لِشَاْيۡءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ﴾ للتَّقليل، والمراد: ولا تقولنَّ لشيء مهما كان قليلًا في العدد أو صغيرًا في الحجم والاعتبار: إنّي فاعل ذلك غدًا، إلا أنّ تعلِّقه بمشيئة الله تعالى، وفيه تنبيهٌ على أنَّ المطلوب هو التَّوكل وتفويض الأمور إلى الله تعالى بقطع النَّظر عن حجمها واعتبارها.

تفويضُ الأمور عـبـادة بقطع الـنَّـظـر عـن اعتبارها

نكتة استعمال اسم الفاعل ﴿فَاعِلٌ﴾:

استعمل النَّظم صيغة اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَاعِلٌ﴾ للدّلالة على الثبوت والاستمرار، مع ارتقاب المستقبل، وهو أن يكونَ الفعل في المستقبل، فجمعت الصيغة بين العزم في الفعل والاستقبال

التَّـنـبـيـهُ على العزمِ المستقبليِّ بكونه بالمشيئة الإلهيّة

في الزمن، ليشمل كلَّ فعلٍ مِن شأن صاحبه أن يسعى إليه في المستقبل، ولم يقل: (إني سأفعل) لما يوحيه اسم الفاعل من العزم؛ فكأنَّه قد فعله، فأشبه هنا الفعل الماضي، وهذا في غاية التنبيه على ألا يُفكّر العبد بأمرٍ إلا أن يكون بمشيئة المولى سبحانه.

غرضُ استعمال اسم الإشارة:

مهما كانت الأفعال واضحةً فهي بحاجةٍ إلى إذن المولى

الأصل في الإشارة أن تكون لمحسوس، إلّا أنَّه قد يُنزَّل غيرُ المحسوس منزلة المحسوس بقصد تمييز المشار إليه أكمل تمييز، وفي قوله تعالى: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ أُشير به إلى الشَّيء، والغرض مِن ذلك تنزيل الشّيء منزلة المحسوسِ في نيَّةِ الفاعلِ، فإنَّ من أراد أن يفعل شيئًا عازمًا عليه، فيكون واضحًا جليًّا، وفيه مَزيد تأكيدٍ على ألّا يكون الشَّيء مهمًّا كان واضحًا إلّا بمشيئة اللّه تعالى.

بلاغة المجاز المرسل في لفظ ﴿غَدًا﴾:

كأنَّ الزَّمان كلَّه يوم غد

أطْلَقَ النَّظم لفظ ﴿غَدًا﴾ والمراد الزَّمان المستقبل كلُّه، وهذا مجاز مرسل علاقته الجزئيّة، بإطلاق الجزء وإرادة الكل، "فلَيْسَتْ كَلِمَةُ ﴿غَدًا﴾ مُرادًا بِها اليَوْمَ الَّذي يَلي يَوْمَهُ، ولَكِنَّهُ مُسْتَعْمَلٌ في مَعْنَى الزَّمانِ المُسْتَقْبَلِ، كَما يُسْتَعْمَلُ اليَوْمُ بِمَعْنَى زَمانِ الحالِ، والأَمسُ بِمَعْنَى زَمَنِ الماضي، وقَدْ جَمَعَها قَوْلُ زُهَيْرٍ:

وأَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ والأَمسِ قَبْلَهُ *** ولَكِنَّني عَنْ عِلْمِ ما في غَدٍ عَمِ

وظاهِرُ الآيَةِ اقْتِصارُ إعْمالِها على الإخْبارِ بالعَزْمِ على فِعْلٍ في المُسْتَقْبَلِ دونَ ما كانَ مِنَ الكَلامِ إنْشاءً"[1]، ونُكتةُ استعمالها حَصْرُ الزَّمان المستقبليّ كلّه كأنَّه جُمع في غدٍ.

بلاغةُ الاستثناءِ ونوعُه:

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ مفرَّغٌ كأنّه قال:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 297.

الأفعالُ معلَّقةٌ وإنفاذُها مُعلَّقٌ بمشيئة الله تعالى

(قل إذا أردت فعل شيء: إن شاء الله)، فالاستثناء مِنَ النَّهي، أو من ﴿فَاعِلٌ﴾ أي: لا تقولنَّ: إنّي فاعلٌ غدًا حتَّى تقرن به قوله إن شاء الله، والثّالث: أنَّه منقطع، وموضع إن شاء الله نصبٌ على وجهين: أحدهما على الاستثناء، والتَّقدير: (لا تقولنَّ ذلك في وقت إلّا وقت أن يشاء الله)، أي: يأذن، فحذف الوقت وهو مراد، والثاني: هو حال، والتَّقدير: (لا تقولنَّ أفعل غدًا إلّا قائلًا إن شاء الله)، فحذف القول، وهو كثير[1].

والوجه الثاني مردودٌ؛ لأنَّه لو قال: إني فاعلٌ كذا إلا أَنْ يشاء اللّهُ، كان معناه: إلا أن تَعْتَرِضَ مشيئةُ اللّهِ دونَ فِعْلِه، وذلك ممّا لا مَدْخَلَ فيه للنهي، فالنَّهيُ عن مثلِ هذا المعنى لا يَحْسُن[2].

بلاغةُ الإيجازِ بتقديرِ المحذوف:

تقديرُ المحذوفِ بتأويل مآلات الكلام

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ استثناءٌ لا يمكن حَملُه على ظاهرِه؛ لأنَّه يكونُ داخلًا تحت القول فيكونُ مِنَ المقول، ولا ينهى اللّهُ نبيَّه أَنْ يقول: إني فاعل ذلك غدًا إلّا أَنْ يشاءَ اللّهُ؛ لأنَّه كلامٌ صحيحٌ في نفسِه لا يمكنُ أَنْ يَنْهى عنه، فاحتيج في تأويلِ هذا الظاهرِ إلى تقديرٍ، فقُدِّر: إلّا أَنْ تقولَ: إلّا أَنْ يشاءَ اللّه، أو إلّا أَنْ تقولَ: إنْ شاء اللّه، والمعنى: إلّا أَنْ تذكُرَ مشيئةَ اللّه، فليس ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ مِنَ القولِ الذي نَهَى عنه[3].

نكتة ذكر لفظ الجلالة:

مِن تعظيم الله تعالى الإقرارُ بالضَّعف وكمالُ التَّفويض

آثر النَّظم اختيارَ عنوان الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ لتربية المهابة في النُّفوس، وإظهار التعظيم لجلاله ﷻ مع إظهار الانقطاع إليه، ويُراد به التَّسهيل والإقدار

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 101.
(2) السَّمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 468.
(3) السَّمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 468.

والتَّخلية، والبقاء على ما هو عليه مِنَ الأحوال الصّادقة، كما ذكر تعظيمًا للّه تعالى أن يُقطعَ شيء دونه واعترافًا بأنَّه لا حول ولا قوَّة إلّا به سبحانه.

بلاغة عطف الأمر ﴿وَٱذۡكُر﴾ على النَّواهي المتقدِّمة:

الأمـرُ بالذِّكر بمثابة العلاج الاستتباعيِّ للنِّسيان

بعدَ تقدُّم النَّواهي السّابقة حسُن عطف الأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾؛ لبيان أثر ديمومة الذِّكر في التَّوفيق، "أَي: لا تَعِد بِوعدٍ؛ فإِن نَسيتَ فقُلْتَ: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ﴾، فاذكُرْ رَبَّكَ، أَي: اذْكُرْ ما نَهاكَ عَنهُ"[1]، فجاء الأمر بمثابة الاحتراز والعلاج الاستتباعي لما يعتري الإنسان مِن نسيانٍ.

بلاغةُ الكنايةِ في الأمرِ بالذِّكر:

إطلاقُ الذِّكر وإرادة ما يلزم عنه من الامتثال

المُراد بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر﴾ التَّدارُكُ، وهو هُنا مُشتَقٌّ مِنَ الذُّكْرِ - بِضَمِّ الذّالِ -، وهو كِنايَةٌ عَنْ لازِمِ التَّذَكُّرِ، وهو الامتِثالُ، كَما قالَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ ﵁: "أَفْضَلُ مِن ذِكْرِ اللّهِ بِاللِّسانِ ذِكْرُ اللّه عِنْدَ أَمرِهِ ونَهْيِهِ"[2]، والكناية هنا مِن إطلاق اللازم وهو الذِّكر، وإرادة الملزوم عنه وهو الامتثال، كناية عن صفة وهي كناية قريبة لعدم تعدُّد الوسائط.

نكتة الإتيان بعنوان الرّبوبيّة في الأمر بالذِّكر:

المنعِم بصنوف النِّعم أحقُّ أن يُذكر رغبةً في شكره

تقدم ذكر قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ بإيثار عنوان الألوهية، وهنا في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ آثر اختيار عنوان الرُّبوبيَّة، ونكتةُ ذلك الجمع بين توحيد الألوهيّة في أمر المشيئة، وتوحيد الرُّبوبيّة في التّذكُّر، إذِ النِّسيان من عوارض الإنسان، وهذا أمر راجعٌ إلى الخلق الربانيّ، فهكذا اقتضت حكمة اللّه تعالى، ولذلك آثر ذكر الربوبيّة باعتبار أنَّ الذي خلق الإنسان بهذه الصورةِ هو الذي يَعذره إن نسيَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 298.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 298.

غرض إضافة الرُّبوبيّة إلى كاف الخطاب:

محبَّةٌ تُنزِلُ العبدَ القريبَ لُطفًا وقربًا

وفي تَعْريفِ الجَلالَةِ بِلَفْظِ الرَّبِّ مُضافًا إِلَى ضَميرِ المُخاطَبِ في قوله: ﴿رَّبَّكَ﴾ دونَ اسْمِ الجَلالَةِ العَلَمِ مِن كَمالِ المُلاطَفَةِ ما لا يَخْفَى[1]، وفيه من الإيناس والرَّحمة والتَّلطُّف به ما فيه وهو يعكس عظيم مقام المحبَّة له ﷺ.

تقييدُ الأمر بالذِّكر بشرط النِّسيان:

النِّسيان من شأن الإنسان وهو مدفوعٌ بالتَّدارك

قُيِّد الأمر بالذكر في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ بالشَّرط؛ لأنَّ النسيان لما كان من شأن الإنسان، وهو غير مؤاخذٍ به، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾، أي: المحسن إليك برفع المؤاخذة حال النسيان ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾، والاستثناء بالاستعانة والتوكل عليه وتفويض الأمر كله بأن تقول: إن شاء اللّه، ونحوها في أيّ وقت تذكرت[2]، فالأمر بذكر اللّه تعالى في هذا السّياق يُراد منه دفع غائلة النِّسيان، ولذلك قُيِّد به.

نكتةُ ذكر لفظ النّسيان دون الغفلة:

يُتجاوزُ في الجِبِلّيّات ما لا يُتجاوز في الإرادات

آثر النَّظم استعمال مفردة النسيان في قوله تعالى: ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ وذلك أنَّ النِّسيان أمرٌ جبليٌّ، بينما الغفلة فهي أوسع من النسيان، أو نتيجة معصيةٍ، وعلى هذا فالتعبير بالنسيان هنا أبلغ من التَّعبير بالغفلة؛ لأنَّ المراد به النسيان بسبب جبليٍّ، أمّا الغفلة فهي سهو لا تحفُّظَ فيه ولا تيقُّظ، والغافل هو السّاهي اللاهي ولا يليق هنا مع مقامه ﷺ، إذ هو لم يغفل عن ذكر ربِّه جل وعلا.

غرض حذف مفعول ﴿نَسِيتَ﴾:

ذكرُ المعلوم بداهةً يُتحامى في النَّظم إلا لنكتةٍ

حُذِف مفعول فعل ﴿نَسِيتَ﴾ فلم يقل: (إذا نسيت ذكر مشيئة ربك)؛ لأنَّه ظاهر من السياق، وهو النَّهي عن قولك لشيء: إنّي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 298.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 42.

فاعل إلّا أن تقرنه بالاستثناء وهو المشيئة، فتقدير المفعول هنا: إذا نسيت مشيئة ربك، فحذف للعلم به، ولأنَّ الغرض بيان الفاعل دون النَّظر إلى المفعول.

بلاغةُ عطف الإنشاء على الإنشاء:

التَّدارك لما فات متبوعٌ بدعاءٍ لما هو آت

قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ﴾ إمّا أن يكون مَعْطوفًا على جُملَةِ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ﴾، أو على جُملَةِ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، أَي: اذْكُرْ أَمرَهُ ونَهْيَهُ، وقُلْ في نَفْسِكَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾، أَي: ادْعُ اللّه بِهَذا[1]، والاحتمال الثّاني أولى بالقبول؛ لما فيه من عطف القول على القول، فإنَّ الذِّكر قولٌ، فالأول احترازٌ عن منسيٍّ، والثاني دعاء، وما ألطف شفع الذّكر بالدُّعاء.

نكتة استعمال ﴿عَسَىٰٓ﴾:

رجاء العبدِ عبادةٌ يحفُّها أدبٌ

عسى تأتي "للترجي في المحبوب والإشفاق في المكروه، قال ابن فارس: وتأتي للقرب والدنو، وقال الكسائي كل ما في القرآن من عسى على وجه الخبر فهو موحد، ووحد على عسى الأمر أن يكون كذا، عن ابن عباس قال: كل عسى في القرآن فهي واجبة، وقال الشافعي: يقال: عسى من اللّه واجبة"[2]، وهي "مُستَعمَلَة في الرَّجاءِ تَأَدُّبًا، ويَجوزُ أَن يَكونَ المَعْنَى: وارْجُ مِنَ اللهِ أَنْ يَهْديَكَ فيُذَكِّرَكَ أَلّا تَعِدَ وعْدًا بِبَيانِ شَيْءٍ دونَ إِذْنِ اللّهِ[3].

نكتة إظهار ﴿رَبِّي﴾ وحقُّه الإضمار:

في سياق الدُّعاء يحسن ذكرُ ألفاظ الرّجاء

أظهر النَّظم ﴿رَبِّي﴾ وهو مذكورٌ في الآية ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾، وهذا من خروج الكلام عن مقتضى الظّاهر لموافقة مقتضى الحال، وهو تعليم العبد الرجاء، فإنَّ مثل هذه المواطن يُستحبُّ فيها ذكر اللّه تعالى، والتّقرُّب إليه بألفاظ الكمال والجمال.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 299.
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 288.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 299.

غرض إضافة لفظ الرُّبوبية لضمير المتكلِّم:

أُضيف لفظُ الرُّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي﴾ لتشريف المضاف إليه وتعظيم المضاف، مع ما فيه مِن الإيجاز.

معنى اللام ودلالتها:

الرَّشاد ثمرة مرجوَّة مِن ثمار الهداية

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِأَقۡرَبَ﴾ بمعنى إلى الَّتي هي لانتهاء الغاية، والمراد إلى شيء أشدَّ قربًا، إذ هي الغاية المرادة مِن الهداية، يُقال: هديته إلى كذا وهديته لكذا، فالمُراد بها الغاية أو النتيجة الَّتي يُراد الوصول إليها، فهي الثَّمرة المرجوة مِن هذه الهداية.

معنى حرف ﴿مِنۡ﴾ ودلالته:

الأفعال الصّالحة تُرقّي صاحبها في معارج القدس

حرفُ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا﴾؛ لبيان الجنس الَّذي لا تنفك عنه مطلقًا، والمراد لشيء أحسن وأكمل ممّا وعدتكم به، والمراد "الذي عزمت على فعله، ونسيت الاستثناء فيه فقضاه اللّٰه ولم يؤاخذني، أو فاتني أو تعسر عليّ لكوني لم أقرن العزم عليه بذكر اللّٰه ﴿رَشَدٗا﴾، أي من جهة الرُّشد بأن يوفقني للاستثناء فيه عند العزم عليه مع كونه أجود أثرًا وأجل عنصرًا فأكون كل يوم في ترق بالأفعال الصالحة في معارج القدس"[1].

نكتة استعمال اسم الإشارة القريب ﴿هَٰذَا﴾:

الأرشد ما اختاره اللّٰه للطريق الأوحد

المشار إليه في قوله تعالى: ﴿لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا﴾ ما ذُكر مِن قصَّة أهل الكهف لكون هذا الكلام واردًا في ثناياها معترضًا في داخلها، واستعمال اسم الإشارة القريب لإحضار المشار إليه في ذهن السّامع مع تصوُّره له مع سبق ذكر أوصاف لهذا المشار إليه، أو تعليله لكون ما يهديه اللّٰه تعالى إليه أرشد ممّا أُشير إليه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 42.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦﴾ [الكهف: 25 - 26]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقال من ذكر القصَّة إلى ذكر النَّتيجة

بعد أن بينتِ الآية السّابقة إرشاد النبيِّ ﷺ لما يقول إذا وقع نسيانٌ في تعليق المشيئة بما يريد، رجع النَّظم بالعطفِ على قصة أصحاب الكهف، بعد أن تخلل الاعتراض بينها بقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ﴾ إلى قوله: ﴿رَشَدٗا﴾، "فجاء هنا إتمام هذه القصَّة فكانت هذه الآية كالنَّتيجة الَّتي خُتمت بها القصَّة مبيِّنة المدَّة الَّتي مكثها هؤلاء الفتية في كهفهم، ثم تُعلن أنَّ الله تعالى هو الأعلم بمدَّة لبثهم لا غيره، وأنَّه هو الَّذي تولَّى أمرهم حفظًا وصيانة وإبقاءً وتخليدًا لذكراهم ورفعة شأنهم، ولمّا "كان علم مدَّة لبثهم أدق وأخفى من علم عددهم، شرع في إكمالها مبينًا لهذا الأخفى"[(1)].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَبِثُواْ﴾: (لبث) أصل يَدُلُّ على تَمَكُّثٍ، يُقالُ: لَبِثَ بالمَكانِ[(2)]، أقام به ملازمًا له، قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ﴾ [العنكبوت: 14][(3)]، فمعنى لبث يدور حول "ملازمة للمكان ممتدَّة، وهي المكث في المكان، وليس في القرآن من التَّركيب إلّا اللُّبث المكاني أو الزَّماني وهو منه"[(4)].

2) ﴿وَلِيّٖ﴾: (ولي) أَصْلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ، مِن ذلك الولْيُ: القُرْبُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 43.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبث).
(3) الراغب، المفردات: (لبث).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لبث).

يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أَيْ قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمّا يَلِيني، أَيْ: يُقارِبُني، والوليُّ: المَطَرُ يَجيءُ بَعْدَ الوَسْميِّ، سُمّيَ بِذلك لِأَنَّهُ يَلي الوسميَّ، ومِنَ البابِ المَوْلَى: المُعْتِقُ والمُعْتَقُ، والصّاحِبُ، والحَليفُ، وابْنُ العَمِّ، والنّاصِرُ، والجارُ، كُلُّ هَؤُلاءِ مِنَ الولي وهو القُربُ، وكُلُّ مَنْ ولِيَ أمرَ آخَرَ فهو وليُّهُ، والبابُ كُلُّه راجِعٌ إِلَى القُرْبِ[1]، والولاء يكون في الدّين، والصّداقة والنّصرة والاعتقاد، والوِلايَةُ النُّصْرةُ، والوَلايَةُ: تَولّي الأمرِ، وقد يقال: اللّهُ تعالى وليُّ المؤمنين ومَوْلاهُم، فمِنَ الأوَّل قال اللّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: 257]، ومن الثاني قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٣﴾ [آل عمران: 63][2]، ومعناه في الآية: الناصر، أي: ما لهم من دون اللّه من ناصر ومعين.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الخبر اليقين والدليل الصّادق لبيان عدد الفتية ومدّة لبثهم

أخبرتِ الآيةُ عن مقدار المدَّة الَّتي مكثها هؤلاء الفتية في كهفهم من يوم رقادهم فيه إلى أن بعثهم اللّه ﷻ، وهي: ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾، وهذه مدَّة إقامتهم فيه، وهذه المدَّة المذكورة حسب السَّنة القمريَّة معادِلةً ثلاث مائة بالسَّنة الشَّمسيَّة لكون التفاوت بين كلِّ مائة سنة قمرية إلى مثيلتها ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾، ثمّ أنهى كلَّ هذا بتذييلٍ جاء مضمونه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ لتفويض أمر علم ذلك إليه ﷻ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

القول الفصل في مدَّة لبثهم في الكهف

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ واو العطف، وهي إمّا أن تكون قد عطفت الجملة على مَقولِهم في قَوْلِه: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، "أَيْ ويَقولونَ: لَبِثوا في كَهْفِهم، لِيَكونَ مَوْقِعُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(2) الراغب، المفردات: (ولي).

قَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ كَمَوْقِعِ قَوْلِهِ السّابِقِ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، وعَلَيْهِ فلا يَكونُ هَذا إِخْبارًا عَنْ مُدَّةِ لُبثِهِم، وعَنِ ابنِ مَسعودٍ أَنَّهُ قَرَأَ: (وقالوا لَبِثوا في كَهْفِهِم) إِلَى آخِرِهِ، فذلك تَفسيرٌ لِهَذا العَطفِ، ويَجوزُ أن يَكونَ العَطفُ على القِصَّةِ كُلِّها، والتَّقْديرُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إِلَى آخِرِهِ، وهُم لَبِثوا في كَهْفِهِم ثَلاثَمِائَةِ سَنَةٍ وتِسْعَ سِنينَ"[1]، والتَّقدير الثاني قريبٌ من معنى الاستئناف.

نكتةُ استعمال اللّبث دون النَّوم:

الـلـبـث طـول ملازمة للمكان والـنـوم يسير الانقطاع

جاء التَّعبير بمفردة اللبث في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ﴾، واللُّبث بالمكان هو الإقامة فيه، والملازمة له، بينما النَّوم فيُطلق على المدَّة اليسيرة من استرخاء أعصاب الدِّماغ[2]، ولمّا كان نومهم ليس كنوم بقيّة البشر، كان الأنسب لنوم هؤلاء الفتية هو استعمال مفردة اللبث، وفيه استعارةٌ حيث شُبِّه رقاد الفتية ونومهم في هذه المدَّة في الكهف باللبث الذي هو الإقامة والملازمة مع عدم حركة أو سماع ونحوهما، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعيَّة.

فائدة إضافة الكهف إلى الضَّمير:

تـشـريـف المكان بـتـخـصـيـصـه بأصحابه

أضيف لفظ الكهف في قوله تعالى: ﴿كَهْفِهِمْ﴾ إلى ضمير الغيبة العائد على الفتية، تخصيصًا لهم في كونه كهفًا خاصًّا بهم لا بغيرهم حتَّى صار معروفًا ومشهورًا بهم، مع ما في الإضافة من تشريفٍ لشأن الكهف في كونه حاضنًا للمؤمنين، وتوحي الآية أنَّ هذا الكهف خاصٌّ بالفتية، إذ هو كهفهم الذي لن يكون لغيرهم، ولذلك فهو على وجه اليقين ليس معروفًا، وهذا سرُّ انتشار الأقوال الكثيرة في تعيين الكهف في مواضع كثيرةٍ في العالم الإسلامي.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 300.
(2) الراغب، المفردات: مادتي: (لبث، نوم).

دلالة استعمال ﴿سِنِينَ﴾:

الأغلب أن يساق الذَّمّ مع لفظ (السّنين)

آثَرَ النظمُ الكريم استعمال لفظ ﴿سِنِينَ﴾ دون (أعوام) في قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ﴾، وذلك للإشارة "إلى ذمها بما وقع فيها من علوِّ أهل الكفر وطغيانهم؛ بما أوجب خوف الصديقين وهجرتهم"[1]، وهذه الإشارة هي مما يقع في باب اللطائف.

معنى الواو ودلالتها:

دقَّةُ النّظم القرآنيّ في بيان الأخبار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ للعطف، وهي معطوفة على الخبر السابق: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ﴾، فيكون التقدير: (وازدادت مدّة لبثهم تسعًا)، وهذا تعبير دقيق عن عدد السنوات التي لبثها أصحاب الكهف في كهفهم.

بلاغة إسناد اللّبث والازدياد لأصحاب الكهف:

لو اطّلعتم على الغيب لاخترتم الواقع

أسند فعل اللبث والازدياد إلى أصحاب الكهف في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ على سبيل المجاز العقلي، حيث أُسند فعل الازدياد إلى الفتية، والذي زادهم هو الله تعالى، ونكتةُ ذلك بيان أنَّ الزيادة كانت كأنَّها صادرة عنهم، وأنَّهم لو خُيِّروا لاختاروها، لما فيها من مصلحة راجحة لهم، كما جاء في قول بعضهم: (لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع).

علّة فصل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾:

الله تعالى هو الأعلم بمدَّة لبثهم

فصلت هذه الجملة عن سابقتها لكونها استئنافًا فلمّا قيل: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ﴾ أمر ﷺ أن يردَّ العلم إلى الله تعالى ردًّا على مقالهم وتقييدًا له فهو الأعلم بمدّة لبثهم تلك.

توجيه المتشابه اللفظي:

جاء اختيارُ عنوان الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 43.

بِعِدَّتِهِم﴾، بينما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ فذكر عنوان الألوهية، والجملتان في سياق إثبات العلم للّه تعالى، فيُسأل عن ذلك:

الزّمان لله وحدَه إيجادًا وتقديرًا

والجواب: أنَّ الأولى في عدد الأشخاص الذين رعاهم اللّه تعالى ورزقهم وهم نيام، والثانية في عدد السنين، والزمان كله للّه تعالى، فذكر العلم في الأولى لتعلقه بعلم التربية والرعاية، والثانية لتعلقه بعلم الغيب، فأوثر لكل سياق ما يناسبه، كما قال تعالى: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ [المزمل: 20]، فبدأ بذكر عنوان الربوبيّة فيما يتعلّق بقيام الليل وهو عبادة؛ لأنَّ الأمر متعلق بالرعاية والعناية، بينما ذكر عنوان الألوهية فيما يتعلق بالزمن ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ [المزمل: 20].

وجه ذكر صيغة أفعل التفضيل:

كلُّ علمٍ دون علم الله تعالى فليس بعلمٍ على التَّحقيق

لسائل أن يسأل عن وجه ذكر اسم التفضيل ﴿أَعۡلَمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾، وتوجيه ذلك أنَّه إن جعلنا قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ﴾ من قيل النّاس، أي: ويقولون: لبثوا في كهفهم كيت وكيت، فصيغة التَّفضيل على بابِها، بإسناد العلم للّه تعالى، وأنَّه الأعلم بحقيقةِ اللبث، كما سبق بيانه في معنى الواو، وإن كانت من كلام اللّه تعالى، فيُسأل عن نكتة استعمال صيغة التَّفضيل؟! والجواب: أنَّ ذلك من باب القطع بما كان من لبثهم، فيكون ردًّا على مزعوم غير مذكورٍ في السياق، فبعد أن أخبر أنَّهم اختلفوا في عددهم، أشار إلى أنَّهم مختلفون في لبثهم، وقطع ذلك بأن أخبر أنَّ اللّه أعلم بما لبثوا على الحقيقة؛ بقصد تفويض الأمر للّه تعالى، فهذا توجيه اختيار اسم التفضيل في هذا السياق.

معنى حرف الباء و(ما):

حرفُ الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ للتَّعدية، حيث تعلّقت بصيغة ﴿أَعۡلَمُ﴾، و(ما) إما أن تكون موصولة، أي: أعلم بالذي لبثوه، أو مصدريَّة، أي: بلبثهم.

فنُّ الجناسِ في ﴿لَبِثُواْۖ﴾:

الجناس في قوله تعالى: ﴿لَبِثُواْۖ﴾ الواردة في مطلع الآيتين: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾، جناس اشتقاقي تام.

بلاغة استعمال اللام في ﴿لَهُۥ﴾:

الاختـصـاص يُفيد التَّعليل السّياقي

أفادت اللّام في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الاختصاص العلمي، أي: أنَّ علم غيب السماوات والأرض له تعالى دون غيره من الخلق، وفيها معنى التَّعليل، أي: هو أعلم بما لبثوا؛ لأنَّه تعالى يعلم الغيب وحده، فأفاد اختصاصَه بالعلم تعليلُ عدم علم من دونه سبحانه في شأن الغيبيّات.

نكتة تقديم المسند على المسند إليه:

تخصيص الله بعلم الغيب توحيدٌ محض

قُدِّم المسند وهو الجار والمجرور على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ للتخصيص، أي: علمُ غيب السماوات والأرض لله ﷻ لا لغيره، وهو ردٌّ على الَّذين يزعمون علم خبر أهل الكهف على التَّحقيق.

معنى إضافة ﴿غَيۡبُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

التَّنبيه على الأدنى بذكر الأعلى

أُضيف لفظ ﴿غَيۡبُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، والغيب أوسع من ذلك بكثير، وذلك لأنَّ الإضافة إلى هذين الأمرين يدخل فيهما كلُّ ما يتصوره الإنسان من عالم الغيوب، وما يقع تحت الإدراك لا يخرج عن السماوات والأرض، فأثبت علم غيبهما له تعالى دون سواه، "ومن كان عالمًا

بغيب السماوات والأرض، يكون عالمًا بهذه الواقعة، لا محالة وهو إله السماوات والأرض ومدبِّر العالم له غيبُ السَّماوات والأرض"[1]، فأثبت الأعلى للتَّنبيه على الأدنى، ولبيانِ أنَّ إدراك البشر محدود في مثل هذه الحادثة فكيف بما هو أعلى منها؟! ففيه تنبيهٌ على قصور علم البشر، وسعة علم رب البشر سبحانه.

غرض التَّعجب وبلاغته:

ليس لله مثيلٌ في إدراكِ ألطف الأشياء وأكبرها حجمًا

اشتمل قوله تعالى: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾ على صيغة تعجُّبٍ من إدراكه المسموعات والمبصرات، وذلك "للدَّلالة على أنَّ أمره في الإدراك خارجٌ عن حدّ ما عليه إدراك السامعين والمبصرين؛ لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها، كما يدرك أكبرها حجمًا وأكثفها جرمًا، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر"[2]، وفي استعمال صيغة التَّعجب تنبيهٌ على أنَّ النّاس ليس بمقدورِها درك هذه المسموعات والمبصرات، فهو خلاف ما يظنّونه ويعتقدونه مِن قدرتهم على الإحاطة، فإنَّ التعجب مِن علم اللّه تعالى دليلٌ على انتفائه عن غيره، وهذا غرض التَّعجب.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتها:

نفي وجود الوليّ على التَّحقيقِ من دون الله تعالى

أداة ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾ نافية ولها صدر الكلام، وهي تدخل على الأسماء والأفعال، وهي هنا بمعنى ليس لكونها اسميَّة ترفع وتنصب على لغة الحجازيين، والمراد بها نفي الولاية عن هؤلاء.

بلاغة تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَهُم﴾:

تقديم الجار والمجرور ﴿لَهُم﴾ للتخصيص، أي ما لهؤلاء على وجه الخصوص وليّ من دون اللّه تعالى، وذلك على سبيل المبالغة.

---

(1) ابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب: 12/ 467.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 481.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

لا وليَّ على الحقيقة إلّا الله تعالى

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾ إبطالٌ لِولايَةِ آلِهَتِهم بِطَريقَةِ التَّنْصيصِ على عُمومِ النَّفْيِ بِدُخولِ ﴿مِّن﴾ على النَّكِرَةِ المَنْفيَّةِ(1).

بلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿دُونِهِۦ﴾:

لا وليَّ من دون الله إلا وهو دون الله تعالى

لفظ دون يدلُّ في أصل استعماله على القاصر عن الشيء، والمعنى: ليس لهم مَن يتولّاهم من دون أمر اللّه تعالى، وهي نقيض فوق الَّذي يدلُّ على العلوِّ والتَّقدُّم، واستُعمل في قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾؛ لبيان أنَّ كل ما يُزعم أنَّه وليٌّ من دون اللّه تعالى فهو دون اللّه تعالى.

نكتة تقديم نفي الولاية على نفي الإشراك:

إبطال الولاية المزعومة مقدّمة لإبطال الآلهة الموهومة

قُدِّم ذكر نفي الولاية في قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾، وعُطِف عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾، وهو نفي أن يُشركَ سبحانه أحدًا في حكمه، وذلك لأنَّ الولاية هي اعتماد العبد على وليٍّ وناصرٍ يُعين ويعضِّده، وهو مقصد من مقاصد النَّفس الَّتي تميل إلى مَن يتولّاها، فلمّا كان ذلك كذلك قُدِّم ذكرها، لنفي أيِّ ولاية متوهمة لدى المشركين، ثمَّ عُطف على ذلك نفي اتِّخاذ شركاء معه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: 91]، فالجملةُ المعطوفة "رَدٌّ على زَعْمِهِم بِأَنَّ اللّه اتَّخذَ آلِهَتَهُم شُرَكاءَ لَهُ في مِلْكِهِ"(2)، وبه يكون نفي ولاية الشركاء مقدَّمًا على نفي أن يتخذ سبحانه شركاء، من باب تقديم نفي القريب المتخذ من دون اللّه، على البعيدِ المزعوم مع اللّه تعالى.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 302.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 302.

تنويع التعبير عن نفي الولاية ونفي الإشراك:

عبَّر النظم بالجملة الاسميّة في نفي الولاية ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾، بينما آثر التعبير بالفعلية في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾، وذلك أنَّ الاسميَّة دالَّةٌ على ثبوت النَّفي المستمر في أذهان المشركين، فنفي الولاية أمرٌ ثابت مستمرٌ إذ هو أصل التوحيد والعقيدة وأُسُّ الدّين، أمّا نفي أن يُشرك اللّه أحدًا في حكمه فهو نفي لتصور متجدِّد في العقل البشريِّ، فأتت كلُّ صيغة بما تناسب معناها.

نفي تجدُّد تصور أن يكون مع الله شريك

توجيه القراءات:

قَرَأَ الجُمهورُ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ بياءِ الغيبةِ على النَّفْي، وقَرَأَ ابنُ عامرٍ: ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ بالتّاءِ والجَزم على النَّهْي[1]، فعلى قراءة الجمهور الضَّميرُ عائِدٌ إِلَى اسْمِ الجَلالَةِ في قَوْلِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾، وعلى قراءةِ ابْنِ عامرٍ بتاءِ الخِطابِ وجَزْمِ ﴿تُشْرِكْ﴾ على أَنَّ (لا) ناهيَةٌ، والخِطابُ لرَسول اللّه صلّى اللّه عَلَيْهِ وآله وسلّم، مُرادٌ بِهِ أُمَّتُهُ، أَوِ الخِطابُ لِكُلِّ مَن يَتَلَقّاهُ[2]، فعلى قراءة الجمهور يكون نفيُ أن يكونَ اللّه تعالى قد اتخذ شركاء معه كما يزعم المشركون، وعلى قراءة ابن عامر يكون النَّهي عن مشابهة المشركين في اتخاذ شركاء، فبين القراءتين تكامل في الجمع بين النفي والنهي؛ لإفادةِ العمومِ الزماني.

القراءات القرآنيّة غزارة معنى وقوّة مبنى

نكتةُ تقديمِ القيد على المفعول:

تقديم قيد ﴿فِي حُكْمِهِۦٓ﴾ على المفعول ﴿أَحَدًا﴾؛ لبيان موطن الاهتمام، فإنَّ النَّفي على قراءة الجمهور والنهي على قراءة ابن عامر يُشيران إلى أنَّ حكم اللّه تعالى لا يكون إلا له من دون خلقه، وأنَّ مدار الأمر على نفي ما يُعتقد من إثبات ذلك للشركاء كما

الله مُستغنٍ عن خلقه في الخلق والأمر

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 117، وابن الجزري، النشر: 2/ 310.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 302.

زعم المشركون، أو أن يطرأ على هذه الأمَّة في إدخال حكمٍ على حكمِ اللّه تعالى.

حكم الله تعالى داخل في ربوبيّته وألوهيته

سرُّ استعمال لفظ الحكم دون ما يُقاربه:

آثر النَّظم استعمال كلمة الحكم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾، والمراد الملك والأمر وما يدخل تحت دلالة لفظ الحكم، فيكون الحكم هنا مقصودًا به حكم اللّه تعالى في خلقه، وفي تصريف شؤون النّاس، وفي نهيه وأمره، فأوجز ذلك كلَّه في لفظ الحكم؛ لأنَّه لا يكون شيءٌ من ذلك إلّا بعد حكم اللّه تعالى، واللّه سبحانه جلَّ في علاه، لا يُشرك أحدًا في حكمه في ذلك كلِّه، فأوجز هَذا اللفظ في هذا السياق معاني كثيرة، ودلالات جمَّة.

لفظٌ وجيزٌ دالٌّ على معانٍ كثيرةٍ ودلالاتٍ كبيرة

نكتةُ إيثار لفظ ﴿أَحَدًا﴾:

آثرَ النَّظمُ استعمال لفظ ﴿أَحَدًا﴾ في هذا السّياق لغرضِ العموم، أي: لا يُشرك أحدًا في حكمه من الإنس والجن والملائكة، وما يزعمه المشركون من اتخاذ الآلهة والولد، وهذا على قراءة الجمهور النافية، وعلى قراءة النَّهي فللعموم كذلك، والمعنى لا تُشرك في حكم اللّه أحدًا من العلماء أو الحكام أو العوام أو أصحاب الأموال أو ما يزعمه المبطلون، أو أهل الكتاب، أو زاعمو العلم من المحرِّفين والمفسدين، فأدَّى هذا اللفظ إيجازًا بديعًا، أغنى عن الكثير من الألفاظ.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

اللُّبثُ والمكثُ:

يغلب اللبث في الإقامة الطويلة، والمكث يغلب في الأناة

اللّامُ والباءُ والثّاءُ حَرْفٌ يَدُلُّ على تَمَكُّثٍ، يُقالُ: لَبِثَ بالمَكانِ: أقامَ[1]، وهو مختصٌّ بالإقامة الطويلة والملازمة للمكان[2]، وفُسِّر اللبث

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبث).

(2) الراغب، المفردات: (لبث).

بالمكث، وهو دالٌّ على التَّأخر والإبطاء في المكان"[1]، ويكون في الزمان والمكان[2]، بينما المكث فيَدُلُّ على تَوقُّفٍ وانْتِظارٍ[3]، فهو دالٌّ على الأَناةِ[4]، فاللبث يكون لما طال زمانه، ويغلب على المكث الأناة والرزانة.

الكهف والمغارة:

المغارة تجويفٌ هابطٌ في الجبلِ، والكهفُ أوسعُ منه

الكَهَفُ غارٌ في جبَلٍ، وجَمعُه كُهوفٌ[5]، وهو كالمَغارة في الجَبَلِ إلّا أَنه أَوسع مِنها، فإِذا صَغُرَ فهو غارٌ[6]، والمغارة مأخوذة من الغورِ وهو المُنْهَبِطُ من الأرض، يقال: غارَ الرجل، وأَغارَ، وغارَتْ عينه غَوْرًا[7]، وعليه فالكهف أوسع وأشمل من الغار، وهو يتناسب مع عدد هؤلاء الفتية والكلب المرافق لهم.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (لبث).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لبث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكث).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (مكث).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كهف).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (كهف).
(7) الراغب، المفردات: (غور).

﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾ [الكهف: 27]

الانتقال من الحديث عن التجاء أصحاب الكهف إلى الأمر بالالتجاء إلى القرآن

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكر اللّه تعالى قصَّة الفتية أهل الكهف، واختلاف القوم في عددهم وما كان لهم من كرامات، حتَّى أريد أن يكون كهفهم معلمًا يزار بأن يُتَّخذ عليهم مسجدٌ وبنيانٌ، وذكرت مدَّة لبثهم في كهفهم هذا مع تفويض الأمر في شأنهم إلى اللّه تعالى، وأمره ﷺ ألّا يعزم على أمر حتى يُقَدِّم مشيئة اللّه مسبقًا على هذا العزم، وأنَّه لا ولاية إلّا ولاية اللّه تعالى، رجع هنا آمرًا له ﷺ بتلاوة هذا القرآن الَّذي كان له فضل تناول هذه القصَّة وبيان أسرارها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَدِّلَ﴾: (بدل) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو قيامُ الشَّيْءِ مَقامَ الشَّيْءِ الذّاهِبِ، يُقالُ: هَذا بَدَلُ الشَّيْءِ وبَديلُه، ويَقولونَ بَدَّلْتُ الشَّيْءَ: إذا غَيَّرْتُه وإنْ لَم تَأْتِ لَهُ بِبَدَلٍ[1]، والإبدال والتَّبديل والتَّبَدُّل والاستبدال: جعل شيء مكان آخر، وهو أعمّ من العوض، فإنّ العوض هو أن يصير لك الثاني بإعطاء الأول، والتبديل قد يقال للتغيير مطلقًا وإن لم يأت ببدله[2]، ومعنى ﴿مُبَدِّلَ﴾ أي: لا مغير لكلمات اللّه تعالى بالإنقاص والزيادة.

2) ﴿مُلۡتَحَدٗا﴾: (لحد) أَصْلٌ يَدُلُّ على مَيْلٍ عَنِ اسْتِقامَةٍ، يُقالُ: أَلْحَدَ الرَّجُلُ، إِذْ مالَ عَنْ طَريقَةِ الحَقِّ والإيمانِ[3]، والمُلْتَحَدُ: المَلْجَأُ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).

(2) الراغب، المفردات: (بدل).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لحد).

لأَن اللّاجِئَ يَميلُ إِليه؛ قالَ الفَرّاءُ في قَوْلِه: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: 22 - 23] أَي مَلْجَأً ولا سَرَبًا أَلجَأُ إِليه[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي: التجاء، أو موضع التجاء[2].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الكهف الحقيقيُّ للعبد كلام الله تعالى ففيه النَّجاة والإنابة

توجه الآية خطابها للنَّبيِّ ﷺ بأن يتلو ما أوحي إليه من القرآن، تلاوة مقرونة بالبلاغ للناس؛ لبيان ما ورد فيه من المعجزات الَّتي تضمَّنها ما لم يتضمَّنها كتاب آخر، مع الأمر بإظهار ما فيه من أوامر ونواهٍ، لأنَّه كتاب عزيز لا يُستطاع تبديل أو تغيير ما ورد فيه إذ هو وحيُ الله تعالى الَّذي تكفَّل بحفظه فحوى وعدًا للطّائعين، ووعيدًا للعاصين، وبيَّن أنَّه لا ملجأ ولا ناصر من دونه ﷻ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

عطف الامتثالِ الحقِّ على الاعتقاد الحقّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ﴾ لعطفِ هذه الجملة على جُملَةِ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ۖ﴾، فهي من عطف الإنشاء على الإنشاء، أي قل الله أعلم بما لبثوا، لبيان الاعتقاد الحق فيما يُخبر به الله تعالى، وهذه الآية لبيان الامتثال للكتاب الحق.

بلاغة الكناية بالأمر بالتِّلاوة على الثبات والدَّوام:

تلاوةُ الكتاب وسيلةُ الالتزام بأمر الله ونهيه

آثر النَّظم الأمر بالتلاوة على الأمر بملازمة الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾، وهو المقصود لبيان أنَّ مقصود التلاوة العلم بكيفية الملازمة، "وجوز أن يكون ﴿وَٱتْلُ﴾ أمرًا من التلو بمعنى الاتباع، أي: اتبع ما أوحي إليك والزم العمل به، وقيل وجه

(1) ابن منظور، لسان العرب: (لحد).
(2) الراغب، المفردات: (لحد).

الربط أنه سبحانه لما نهاه عن المِراء المتعمق فيه، وعن الاستفتاء أمره سبحانه بأن يتلو ما أوحي إليه من أمرهم؛ فكأنه قيل: (اقرأ ما أوحي إليك من أمرهم واستغن به ولا تتعرض لأكثر من ذلك أو اتبع ذلك وخذ به ولا تتعمق في جدالهم ولا تستفت أحدًا منهم)؛ فالكلام متعلق بما تقدم من النواهي"[1]، وجميع هذه المعاني آيلة إلى معنى الالتزام بالكتاب.

وهذا من باب الكناية حيث أطلق ﷻ هنا اللازم، وهو الأمر بالتِّلاوة وأراد الملزوم وهو الدَّوام والاستمرار بلا انقطاع مع الاتِّباع، وهي كناية عن صفة.

نكتةُ استعمال ﴿مَآ﴾ ودلالتها:

تلاوة القرآن كلّها خير بدون استثناء

أداة ﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أُوحِىَ﴾ اسم موصول بمعنى الَّذي، أي: "أوحيناه إليك، والمراد به التَّعظيم والحث عليه، وهو مفيد للعموم، ومفهوم الموصول أنَّ ما لم يوح إليه لا يتلوه، وهو ما اقترحوا أن يقوله في الثناء عليهم"[2]، ونكتة استعمال ﴿مَآ﴾: العموم، أي: اتل جميع ما أوحي إليك من القرآن دون استثناءٍ، ففيه الخير العميم.

دلالة بناء الفعل ﴿أُوحِىَ﴾ للمفعول:

الوحي هو موطن العناية والاهتمام

بُني الفعل ﴿أُوحِىَ﴾ للمفعول؛ لأن الخطاب للنبي صلّى اللّه عَلَيۡهِ وآله وسلّم وهو على القطع بأنَّ الموحي إليه هو اللّه ﷻ، فهو مفهوم من سياق الكلام، ومن هنا حُذِف المسند إليه للعلم به، فإنّ العلم بالفاعل يُغنيه عن ذكره، إلا إن وجدت نكتة، والنكتة هنا في الحذف إذ المراد العناية بالوحي وهو القرآن الكريم.

دلالة استعمال حرف (إلى) الدّاخل على كاف الخطاب:

استعمل حرف (إلى) في قوله تعالى: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيۡكَ﴾ وهي دالة

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 257.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 49.

على انتهاء الغاية، والمقصود هنا رسول الله ﷺ، فدلَّ ذلك على تشريفه وتفخيم أمره أن جعله الله تعالى الغاية التي لأجلها أنزل القرآن الكريم، والمراد: اتل ما أوحى الله، وكانت نهايته عندك، إذ الغاية من هذه التِّلاوة ملازمتها، ثمَّ اتِّباع ما ورد فيها من أوامر ونواهٍ.

شرفُ النَّبي بأن كان غاية الإيحاء وموطن الوحي

نكتةُ تقديم حرف انتهاء الغاية على حرف ابتدائها:

قُدِّم ذكر حرف انتهاء الغاية على ابتداء الغاية في قوله تعالى: ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾، وذلك لمراعاة الزمان والرتبة، فالإيحاء كان أولًا، ثم كانت التلاوة، فانتهى الإيحاء إليه، وبدأت التلاوة بعد ذلك، فالتلاوة لا تكون من كتاب الله تعالى، إلّا بعد الإيحاء، فيبدأ من حيث انتهى الإيحاء، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ تلاوته هي تلاوة وحيٍ محض، وأنَّ النبي ﷺ تالٍ لما أوحي إليه، وهو مناسب لسياق الآيات الدالة على أنَّ العلم لله تعالى وحده، وأنَّ مرجع معرفة الحق الثابت هو من الله تعالى.

مراعاة الرُّتبة والزّمان والإيماء إلى أنَّ القرآن وحيٌّ محض

فائدة الإطناب:

آثر النَّظم الإطناب في قوله تعالى: ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾، فلم يقل: (اتل القرآن لا مبدل لكلماته)، وذلك لبيان أنَّ هذا القرآن هو إيحاء من الله تعالى، وأنَّ ما جاء في شأن أصحاب الكهف وحي لا معرفة من البشر، وذكر الكتاب لبيان أنَّه موثق ولا قدرة لأحدٍ على أن يبدل فيه شيئًا، فكما نزل من الله تعالى، فهو باقٍ على حاله إلى يوم الدين، فأخذت جملة الإطناب دون الإيجاز بالتعبير بالقرآن أو الكتاب أو الوحي، لذكر هذه الفوائد، والتنبيه على هذه الفرائد، وكله مما ينساب مع السياق.

التَّنبيه على الفرائد والإيماء إلى الفوائد

غرض إضافة اسم الربوبيّة إلى ضمير المخاطب:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾، إضافتان؛ الأولى إضافة الكتاب إلى لفظ الربوبية، وهذا تشريف للكتاب النازل من

اكتساب الرّسالة والرّسول الشَّرفَ والفخامةَ والمهابةَ

عند الله تعالى، وهي دليل العناية والرعاية والتربية، والأخرى إضافة لفظ الربوبيّة إلى ضمير الخطاب، لتشريف المضاف إليه، فاجتمع فيه تشريف الرسالة، وتشريف الرسول، واكتسبا هذا الشرف من لفظ الربوبيّة، كما أكسبت هذه الإضافة ثقةً وتسلية لرسول الله ﷺ فيما يعانيه من تكذيب قومه، فهو تصديق وتشريف وتفخيم.

سر التعبير باسم الفاعل ﴿مُبَدِّلَ﴾:

التَّعريض بأهل التَّحريف ونفيه عن الكتاب العزيز

آثر النَّظم التَّعبير باسم الفاعل ﴿مُبَدِّلَ﴾ دون المصدر (تَبديل) لبيان أنَّه ليس لأحد أن يُبدِّل كلمات الله تعالى، فهو تنزيهٌ للكتاب أن تلمسه أيدي المبدلين، وهذا منساب مع سياق الآيات، إذ هي في شأن قصة أصحاب الكهف، وقد وقع فيها من التحريف الشيء الكثير، فاختيار اسم الفاعل يومئ إلى ذلك، وتعريضٌ بمن بدّل الكتب السابقة، وهذا بخلاف ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس: 64]، لأنَّها بمثابة الوعد، فحسن الإتيان بالمصدر.

سرُّ التعبير بالكلمات:

كلُّ ما يندرج تحت كلمات الله لا يقبل التَّبديل

الكلمات في قوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ هي أصول الكلمات، كما يُقال: كلمة التوحيد وكلمة العدل، فكلمات الله تعالى هي الكلمات التي صدرت وأصبحت كلمات قائمة في وجودها وثباتها، فأتت لفظة (الكلمات) بصيغةِ الجمع لتشمل كلَّ الكلمات، فتدخل العقائد والأخبار والأحكام، وبه يكون نفي التبديل على حقيقته، "ومنهم من خص الكلمات بالإخبار؛ لأن المقام للإخبار عن قصة أصحاب الكهف وعليه لا يحتاج إلى تخصيص النكرة المنفية لما سمعت من حال الخبر، ومن الناس من خص الكلمات بمواعيده تعالى لعباده الموحدين، فكأنه قيل: اتْلُ ما أوحي إليك ولا تبال

بالكفرة المعاندين فإنه قد تضمن من وعد الموحدين ما تضمن ولا مبدل لذلك الوعد"[1]، والأصل حمل الكلام على العموم، لا سيّما مع انتقاء صيغة الجمع.

دلالة إضافة الكلمات إلى الضمير:

أضيفت الكلمات إلى ضمير الجلالة للتشريف والتفخيم والتنويه بشأنها؛ فهي ليست كأيِّ كلماتٍ، بل أصول الكلمات كلها، وعليها مدار الأمر كله.

نكتة استعمال أداتَي نفي في سياق واحد:

جاءت كلُّ أداةٍ لنفي ما اختصَّت به من المعنى

استعملتِ الآية أداتي نفي، وهما ﴿لَا﴾، و(لن)، فجاءت ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، و(لن) في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ﴾، أمّا ﴿لَا﴾ فهي نافية للجنس، وأَصْلُ النَّفْيِ بِها نَفْيُ وُجودِ اسْمِهِ، والمُرادُ هُنا نَفْيُ الإذْنِ في أَنْ يُبَدِّلَ أَحَدٌ كَلِماتِ اللّه[2]، وأما (لن) فهي لنفي الفعل في المستقبل؛ وهي في نفي الاستقبال آكد من لا[3]، فجاءت الأولى لنفي وجود جنس المبدّل، فهذا استغراق لكلِّ ما يُتصور أنَّه مبدِّل، وهذا أعم في النَّفي، والثّانية لنفي وجود الملتجأ من دون اللّه تعالى في المستقبل، فواحدة جاءت لنفي جميع الأفراد، والأخرى جاءت لنفي وجود الملتجأ في المستقبل، ونكتة اختصاص كلِّ واحدة بما اختُصّت به، هو أنَّ تصور وجود المبدل يناسبه النفي بلا، ونفي احتمال طروِّ الملتجأ في المستقبل يُناسبه لن، وكلتاهما للاستغراق، فواحدة لاستغراق الأفراد، والأخرى لاستغراق الزمن المستقبل.

بلاغة استعمال ﴿تَجِدَ﴾ صيغة ومعنى:

لن تدرك ملجأ أو ناصرًا من دون الله تعالى

الوجود في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ بمعنى الإدراك والوجدان، والمراد هنا: لن تدرك ملجأ أو ناصرًا من دون

(1) الألوسي، روح المعاني: 15/ 257.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 303.
(3) الزركشي، البرهان: 4/ 387.

اللّه تعالى، وكأنَّ الملجأ الَّذي تريد إيجاده وإدراكه قد ضاع منك فتلمَّس غيره فلن تجد إلّا اللّه تعالى ملجأً وناصرًا، ووجود الشيء تمام الحصول عليه بحيث يكون لك، فهو كناية عن استحالة وجود ملتجأٍ من دون اللّه تعالى مهما بحثت واجتهدت في ذلك.

فائدة استعمال مفردة ﴿مُلۡتَحَدًا﴾ بصيغة الافتعال:

غاية الغبن الظنُّ بوجود مُلتجأٍ من دون الله تعالى

المراد بالملتحدِ الملجأ الذي يُلجأ إليه عند إلمام مُلِمَّة، وأصله من الالتحاد بمعنى الميل، والتحد إلى كذا أي: مال إليه، "والمُلْتَحَدُ: اسْمُ مَكانٍ ميميٌّ يَجيءُ على زِنَةِ اسْمِ المَفْعولِ مِن فِعْلِه، والمُلْتَحَدُ: مَكانُ الالتحاد، والالتِحادُ: المَيْلُ إلَى جانِبٍ، وجاءَ بِصيغَةِ الافْتِعالِ لِأنَّ أصْلَهُ تَكَلُّفُ المَيْلِ، ويُفْهَمُ مِن صيغَةِ التَّكَلُّفِ أنَّهُ مَفَرٌّ مِن مَكْروهٍ يَتَكَلَّفُ الخائِفُ أنْ يَأْوِيَ إلَيْهِ، فلِذلك كانَ المُلْتَحَدُ بِمَعْنَى المَلْجَأِ"(1)، ونكتة التعبير بهذه المفردة وبهذه الصيغة، هو نفي وجود ما يُلتجأ إليه عن طريق الميل، أي: مهما ملتَ إلى أيِّ جهةٍ من الجهات فلن تجد ذلك الملجأ من دون اللّه تعالى، فهي زيادة في بيان الاستحالة لوجود هذا المعنى.

بلاغة الكناية:

تمام الخيبة فيما يُظنُّ فيه النَّجاة

جاء نفي وجود الملتحد، الَّذي هو الميل إلى جانب يحتمي به الإنسان من المخاوف والمحاذير يريد النَّجاة به، والمراد: لن تجد شيئًا يُنجيك من عقاب اللّه تعالى، والمَقْصودُ مِن هَذا تَأْيِيسُهُم مِمّا طَمِعوا فيه(2)، كنايةً عَنْ خيبة الأمل وبوار السَّعي من مكان يُظنُّ فيه النَّجاة فصار كالسَّراب الخادع.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التِّلاوة والقراءة:

التِّلاوة الِاتِّباعُ، يُقالُ: تَلَوْتُه إذا تَبِعْتَهُ، ومنه تِلاوةُ القُرْآنِ، لِأنَّهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 304.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 304.

الـتّـلاوة أعـمُّ مــن الــقــراءة لاشـتـمـالـهـا عـلى المتابعة، فبينهما عموم وخصوص

يُتْبِعُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ[1]، وتَلاهُ: تبعه متابعة ليس بينهم ما ليس منها، وذلك يكون تارة بالجسم وتارة بالاقتداء في الحكم، ومصدره: تُلُوٌّ وتُلْوٌ، وتارة بالقراءة وتدبّر المعنى، ومصدره: تِلاوة، والتلاوة تختص باتباع كتب اللّه المنزلة، تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب، أو ما يتوهم فيه ذلك، وهو أخصّ من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة، لا يقال: تلوت رقعتك، وإنما يقال في القرآن في شيء إذا قرأته وجب عليك اتباعه[2].

وقرأت الشيء قرآنًا: جمعته وضممت بعضه إلى بعض، ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة سلى قط وما قرأت جنينًا، أي لم تضم رحمها على ولد، وقرأت الكتاب قراءة وقرآنا، ومنه سمّي القرآن، وقال أبو عبيدة: سمّي القرآن لأنه يجمع السّورَ فيضمها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾ [القيامة: 17] أي: جمعه وقراءته، ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨﴾ [القيامة: 18] أي: قراءته، قال ابن عبّاس: فإذا بيَّنّاه لك بالقراءة فاعمل بما بيَّنّاهُ لك[3].

التَّبديل والتغيير:

يـلـزم عـن نفي الـتـبـديـل نفي الـتـغـيـير، ولا يلزم العكس

دلَّت كلمة التغيير في اللغة على حلول شيء مكان آخر، أو ذهاب شيء ومجيء آخر بدله، فهو قريب من معنى التبديل، "فالتبديل هو التغيير، يقال: أبدلت الشيء بالشيء إذا بدلت عينًا بعين"[4]، فالتغيير هو التبديل إلا أن فيه معنىً غيرَ موجود في التبديل، وهو التباين التام بين البدلين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 64]، لم يقل: لا تغيير لكلمات اللّه؛ لأنه يلزم عن نفي التبديل نفي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تلو).

(2) الراغب، المفردات: (تلو).

(3) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (قرأ).

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 113.

التغيير، ولا يلزم العكس، فلما نفى عن كلماته التبديل لزم نفي التغيير، ولو نفى التغيير لم يلزم منه نفي التبديل، ومنه قول الشاعر:

لَنَضْرِبَنَّ بأيدينا رُؤوسَكُمُ *** بَني فُعالَة حَتّى تَقْبَلوا الغيرا[1]

فلم يُسَمِّ الدّية بَدَلاً، وإنّما سمَاها غِيَراً؛ لأن بينها وبين المقتول تبايئًا تامًّا؛ "فالغِيَر: الاسم من قولك: غيَّرت الشيء فتغيَّر"[2]، "وأصله من التغيير؛ لأن القود قد كان وجب فغُيِّرَ بالدِّيَة، ومنه قول بعضهم لعمر ﵁: (هلّا غيرت بالدية، هلا أخذتَ الدية مكان القود)"[3].

(1) ابن دريد، الاشتقاق، ص: 19، والجبوري، شعر هدبة بن الخشرم العذري، ص: 99.

(2) الجوهري، تاج اللغة: 3/ 340.

(3) ابن سيده، المخصص: 2/ 70.

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الصَّبرُ عنوانُ الثَّباتِ ومعدنُ الأثباتِ

لمّا فرغتِ الآيتان من قصّة أهلِ الكهف وما فيها من عِبرةِ المُصابرةِ على ما أوحَى اللّه للرّسلِ، وذِكْرِ التزامِ الفتْية وحرصِهم على نُصرةِ الرّسالة، وجهادِهم وتَخلّيهم عن متاع الدّنيا وزينتِها، قال بعدَها: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: 27]، فما يُتلَى من كتابِ اللّه تدورُ حولَه القيَمُ كُلُّها، ولا مُبدّلَ لكلماتِ اللّه، فكان ذلك مَدْعاةً للصَّبر وحبْسِ النَّفْسِ عليها، فهي أعظمُ ما يستحقُّ أن تبذلَه الأنفسُ؛ فناسبَ أن يأتيَ الإرشادُ الرَّبّانيُّ بعد ذلك في قولِه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾؛ فما أشْبَه هؤلاء بفِتْيَةِ أهلِ الكهفِ، وما أجدرَ حبسَ النّفس والصّبرَ معهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ﴾: الغُدْوةُ والغَداةُ من أوّل النّهار، وقوبلَ في القرآن الغُدوُّ بالآصال، نحو قوله: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الأعراف: 205]، وقوبلَ في التّنزيل الغداةُ بالعَشيِّ، قال تعالى: ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾[1]، وبالرَّواح في قولِه تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ [سبأ: 12]، وقد غَدَوْتُ

(1) الرّاغب، المُفرَدات، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (غدا).

أَغْدو، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ [القلم: 22][1]، والغُدْوةُ: البُكْرةُ، وقيل: ما بين صلاةِ الفجر وطلوعِ الشّمس[2].

2) ﴿وَٱلْعَشِيِّ﴾: العَشيُّ من زوال الشّمسِ إلى الصّباح، والعِشاءان: المغربُ والعِشاءُ الآخرة، أوِ المغربُ والعَتَمة[3]؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النّازعات: 46]، والعِشاءُ: من صلاة المغرب إلى العَتَمة، وعَشَوْتُ النّارَ: قصدتُها ليلًا؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الزخرف: 36]، والعَواشي: الإبلُ التي ترعى ليلًا، والعَشاءُ: طعامُ العِشاءِ، وبالكَسر: صلاةُ العِشاءِ[4]، العَشي والعَشيّة: آخرُ النّهار، والجمعُ: عَشايا وعشيّات، والعُشْوة (بالضَّمِّ والكسر): النّارُ الَّتي تُرى في اللّيل من بُعد[5].

3) ﴿تَعْدُ﴾: (عدا) يدلّ على التّجاوز ومنافاة الالتئام[6]، وفي هذه الآية قولُه: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا تُجاوِزِ النّظرَ إلى غيرهم، فيلفتَ نظرَك مظاهرُ الحياة الدّنيا وزينتُها عند غيرهم منَ الأثرياء وسادةِ القوم.

4) ﴿فُرُطًا﴾: (فرط) إذا تقدّم تقدّمًا بالقصدِ يَفْرُطُ[7]، ومنه قولُه ﷺ: "أنا فَرَطُكُم على الحَوْض"[8]، وقولُه تعالى: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ [طه: 45]؛ أيْ: يتقدّمَ، والإفْراطُ: أن يُسرفَ في التّقدّم، والتَّفْريطُ: أن يُقصِّرَ في الفَرَطِ[9]، أي التّقدّم، يُقال: ما فَرَّطْتُ في كذا؛ أيْ: ما قصّرتُ[10]، وأمّا قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾؛ ويحتملُ أن يكون الفُرُطُ بمعنى التّفريطِ والتّضييعِ؛ أي: أمرُهُ الذي يجبُ أن يُلزمَ، ويحتملُ أن يكون بمعنى الإفراطِ والإسرافِ؛ أيْ: أمرُه وهواه الذي هو بسبيلِه[11].

---

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (غدا).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (غدا).
(3) الرّاغب، المُفرَدات، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (عشا).
(4) الرّاغب، المُفرَدات: (عشا).
(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (عشا).
(6) الرّاغب، المُفرَدات: (عدا).
(7) الرّاغب، المُفرَدات، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (فرط).
(8) البخاري، صحيح البخاري، باب في الحوض، الحديث رقم: (6205).
(9) الرّاغب، المُفرَدات، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (فرط).
(10) الرّاغب، المُفرَدات: (فرط).
(11) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 167.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

أهلُ الإيمانِ أَوْلَى بالمُجالَسةِ وأنقى بالمُؤانسةِ

ساقتِ الآيةُ الكريمةُ لونًا منَ الأدبِ السّامي والتّوجيهِ العالي؛ إذ بيّنتْ أنّ أَوْلى النّاسِ بالرّعايةِ والمجالسةِ همُ المؤمنون الصّادقون[1]؛ إذ قال قومٌ من رؤساء الكَفَرَةِ لرسول الله ﷺ: نَحِّ هؤلاء المَواليَ الذين كأنّ ريحَهم ريحُ الضّأنِ، وهم: صهيبُ وعمّارٌ وخبّابٌ وغيرُهم من فقراءِ المسلمين؛ حتى نجالسَك ونستمعَ منك، ونرجو أن نتبعَك، كما قيل لنوح عليه السلام: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111]؛ فنزلتِ الآيةُ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾[2]، وكان النّبيُّ ﷺ شديدَ الحرصِ على إيمان أشرافِ قُريشٍ؛ يكادُ يبخعُ نفسَه حسرةً عليهم[3]؛ فجاء الأمرُ منَ الله تعالى أن يَصبِرَ نفسَه في الجلوس مع هؤلاءِ الفقراءِ[4]، فعليك - أيّها الرّسولُ الكريمُ - أنْ تحبسَ نفسَكَ وتُعوِّدَها على مجالسةِ أصحابِك ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ ويعبدونَه ويُداومون على ذلك يُريدون وجْهَ اللّه تعالى، ثمّ نهاه عنِ الغفلةِ عنهم، بعد أنْ أمرَه بحبْسِ نفسِه عليهم، فلا تصرِفْ عيناك النّظرَ عنهم[5]، ولا تُجاوِزْ نظرَك إلى غيرِهم بالإعراضِ عنهم، فتطلبْ مجالسةَ الأشرافِ والأغنياءِ تألُّفًا لقلوبِهم، وذلك لئلّا يُؤدّيَك إلى الغَفْلَة عنه سبحانه مُنشغلًا بالذين اتّبعوا أهواءَهم مُتهاوِنين في قضيّة الإيمانِ مُضيِّعين لها[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ وصْلِ الجُملةِ بالسّابق:

عطفُ الإنشاءِ على الإنشاءِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ عاطفةٌ جملةَ: (اصْبِرْ

(1) طنطاويّ، الوسيط، ص: 2710.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 670.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 463.
(4) طنطاويّ، الوسيط، ص: 2710.
(5) طنطاويّ، الوسيط، ص: 2710.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 29.

نَفْسَكَ) على جملةِ: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ [الكهف: 27]، والعطفُ هو من عطْفِ الإنشاءِ على الإنشاءِ، لبيانِ علائقِ الأوامرِ بعضِها ببعضٍ.

بلاغةُ عطْفِ الأمرِ بالصّبرِ على الأمرِ بالتّلاوةِ:

تِلاوةُ القرآنِ مَسلكُ الأبرارِ وهي ثابتةٌ بالصّبرِ وصُحبةِ الأخيارِ

عُطفَ قولُه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ على قوله: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ [الكهف: 27]، عطفًا للأمر بالصّبر على الأمرِ بالتّلاوة، وتظهرُ بلاغةُ ذلك بأنَّ تلاوةَ القرآن الكريم تحتاجُ إلى رسوخِ صفةِ الصّبر عند المؤمنين، فتلاوةُ القرآن هي الطّاقةُ الكامنةُ في النّفس التي تمنحُها القدرةُ على الصّبرِ والثّباتِ مع جماعةِ المسلمين المُرابطين، ومواصلةِ الدّعوةِ إلى اللّه تعالى في جميع الأحوالِ والأحايين، فالعَملان مُتكاملان؛ فتلاوةُ القرآن وتدبّرُ آياته تُنشّطُ طاقة الإيمانِ في النّفس، ممّا يمنحُها القوّةَ والمُصابرةَ على الحقّ، وتمنحُ قوّةُ الإيمان الحرصَ الشّديدَ على تلاوة القرآنِ والتّدبُّرِ فيه والعملِ بمُقتضاه، وذلك من أعظم التّعبّدِ ومُصابرةِ النّفسِ على الحقِّ.

بلاغةُ الإطنابِ بذِكْرِ قيدِ ﴿نَفۡسَكَ﴾:

النَّفسُ أصلُ المنازعاتِ والمُجاذباتِ، فإنْ صبرتْ فما بعدَها أصبرُ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ الإطنابَ في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾؛ فذَكَر قيّدَ ﴿نَفۡسَكَ﴾؛ لأنّ الخطابَ للنّبيّ ﷺ وأُريد به أمّتُه من بعدِه، فذُكرتِ النّفسُ لأنّها محطُّ تقديم زُخرفِ الحياةِ الدّنيا وزينتِها؛ ولهذا قال بعدَها: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، فتطلبَ مجالسةَ الأغنياءِ وأهلَ الجاه والشّرفِ، قصدًا منك نُصرةَ الدّين من خلالِهم؛ فإنّ هذا الدّينَ لا يُنصرُ إلّا بالإيمانِ الخالص، ممَّن يريدُ وجهَه سبحانه، فلم يَقُلْ: (واصبر مع الذين)؛ لبيانِ أنَّ النَّفسَ فيها تجولُ الخواطرُ والحواراتُ الدّاخليّةُ، وهي أصلُ الصَّبرِ واليقين، كما أنَّها أصلُ كلِّ شهوةٍ، وهي ركنُ كلِّ معصيةٍ؛ فإذا صبرَ صاحبُها وصبَّرها نجا من مُعضِلاتِ الفتنِ ومصائبِ المِحَن، فذَكَرها هنا للدّلالةِ على أنَّها أَوْلى ما يجبُ الاعتناءُ به.

(الذين يدعون ربَّهم) قاعدةٌ كُلّيَّةٌ يندرجُ تحت أفرادها

فائدةُ استعمالِ حرْفِ المعيّةِ دونَ العطْفِ:

ذُكِر حرفُ المعيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ وكان مقتضَى الظّاهرِ أن يقول: (واصبر نفسَك والّذين)؛ إذِ المخاطَبُ هو قدوتُهم بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، فكيف جعله تابعًا لهم؟! والجوابُ: أنَّه ليس المقصودُ أن يصبرَ هو ويصبرَ الّذين يَدعون ربَّهم مع كونِه تحصيلَ حاصلٍ؛ بلِ المُرادُ أن يصبرَ معهم؛ فهم كالقاعدةِ التي يَندرجُ المخاطَبُ تحت أفرادِها، وذلك بشرطِ كوْنِهم يَدعون ربّهم على الدَّوام؛ ففيه أنَّ الأمّةَ لا تجتمعُ على الضَّلالةِ، والأمرُ بالصَّبر هنا يَظهرُ منه كبيرُ اعتناءٍ بهؤلاء المؤمنين منَ الفقراء والضّعفاء[1]، و(مع) اسمُ مكانِ الاجتماع أو وقتِه[2]، وهي كلمةٌ تضمُّ الشَّيءَ إلى الشَّيءِ[3]؛ فتكونُ (مع) لفائدةِ التزام الجماعة المؤمنةِ التي تستقرُّ بالتزامِها النّفسَ على الإيمان، ويؤكِّدُ ذلك حديثُ رسول اللّه ﷺ: "المؤمن للمؤمن كالبُنيان يشدُّ بعضُه بعضًا"[4].

أصْحابُ الكهفِ هـمُ الـذيـن يَـدْعـون ربَّهـم بالغَداةِ والعَشيِّ

بلاغةُ التَّعريفِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

استُعمِلَ الاسمُ الموصولُ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ دونَ أن يقولَ: (مع المؤمنين)؛ وذلك للتّعريف بمَنْ أمرَ اللّه رسولَه ﷺ أن يَصبرَ نفسَه معهم، وفائدةُ الاسم الموصولِ هنا بيانُ أنَّ المذكورين مَعروفون بهذه الصِّفات التي ذكرتْها الآيةُ لهم، وهي عامَّةٌ في كلِّ مَنِ اتّصفَ بهذه الصِّفات إلى يوم القيامةِ، فإنَّ المؤمنَ مأمورٌ بأن يَصبرَ نفسَه مع مَنِ اتَّصف بهذه الصِّفات، وهي مناسبةٌ جدًّا لقصَّة أصحابِ الكهفِ، كأنَّه قال له: (اصبرْ نفسَك في كهف الصّالحين، إلى أن يأذنَ لك ربُّ العالمين).

---

(1) الآلوسيُّ، روحُ المَعَاني: 8/ 290.

(2) السّيوطيُّ، همع الهوامع: 1/ 217.

(3) الزَّبيديُّ، تاج العروس: 5/ 514.

(4) مسلم، صحيح مسلم، باب: المؤمن للمؤمن كالبُنيان، الحديث رقم: (6677).

بلاغةُ المجازِ في ذِكْرِ الخاصِّ ﴿يَدۡعُونَ﴾ وإرادةِ العامِّ (العبادة):

الدُّعاءُ أكثرُ العباداتِ دَورانًا في القلوبِ والألسُنِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظِ الدّعاء دون العبادةِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾؛ والدّعاءُ جزءٌ منَ العبادةِ فهو مَجازٌ مُرسَلٌ أُطلق فيه الخاصُّ وأُريدَ العامُّ، ووجْهُ ذِكْر الخاصّ وإرادةِ العامِّ: العنايةُ بهذا الخاصِّ، لا سيَّما في مرحلةِ ما قبْلَ انتشارِ الإسلام وقيامِ دولته، وتطبيق العبادةِ بمفهومِها الشّامِلِ، ففي هذه المرحلةِ تكونُ العبادةُ أكثرَ ما تكونُ في الدُّعاءِ خاصَّةً؛ فإنَّ الدّعاء يأتي طلبًا لكشفِ الضّرّ، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ [الأنعام: 40 - 41]، تنبيهًا أنّكم إذا أصابتْكم شدّةٌ لم تفزعوا إلّا إليه، وقوله: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ [الأعراف: 56]، وقولُه: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾ [الزّمر: 8]، وقولُه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ [يونس: 12][1]، والدّعاءُ لطلبِ المنفعةِ من اللّه سبحانه: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾ [يونس: 106].

فوائدُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع ﴿يَدۡعُونَ﴾:

تعليلُ الأمرِ بالصَّبرِ في ملازمةِ الثّابتين على الحقِّ

دلَّ المضارعُ في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ على التّجدُّد والاستمرار، فدعاءُ هؤلاء مُستمرٌّ مُتجدّدٌ مع تجدّدِ الزّمان والأحداث، يريدون وجْهَ اللّه، ويُريدون رضاه سبحانه، ودلّ على تعليلٍ للأمر بالصّبرِ؛ كأنَّه قال: (اصبرْ نفسَك معهم لأنَّهم يَدعون ربَّهم في كلِّ وقتٍ وحين)، وكذلك دلّ على الاستمرارِ من حيث هو دليلٌ على ثبات قلوبِهم على الإيمان وكمالِ عزيمتِهم؛ فقدِ استحقّوا بذلك المدْحَ والثّناءَ منَ اللّه تعالى في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾، وهذه هي صورةُ الالتزامِ التي يريدُها اللّه تعالى من عباده المؤمنين.

(1) الرّاغب، المُفرَدات: 1/ 190.

سرُّ التّعبيرِ بعنوانِ الرّبوبيّةِ في سياقِ العبوديّةِ:

دعاءُ الرّبِّ لبيان الحاجةِ الدّائمةِ إلى رعايته ورأفتِه وحمايتِه

عبَّرتِ الآيةُ بالرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ رغم أنَّ السّياق سياقُ عبوديَّةٍ، لأنَّ الرّبَّ هو المُربّي وهو الرّحيمُ بهم، فهم يَدعونَه طلبًا لرحمته، وكلمةُ (الرَّبِّ) معناها في اللّغة: المُربّي، وهو الموجِّه والمُرشدُ والقيِّمُ والرّازقُ، فقال هنا: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾؛ وذلك لبيانِ الحاجةِ الدّائمةِ إليه في دعائِهم وتضرُّعِهم حتَّى يُثبّتَ قلوبَهم على الإيمان، فناسَبَ ذِكْرُ الدّعاءِ مع الرّبِّ، ومنها قولُه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦﴾ [السّجدة: 16]، ولو قال: (يعبدون)؛ لناسَبَ ذكرَ (اللّه) تعالى، ومثالُه قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ [الحَجّ: 11]، أمّا قولُه: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾ [غافر: 14]؛ فالدّعاءُ هنا بمعنى: العبادة، بقرينةِ قولِه: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: 14].

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

الألسُنُ تلهجُ بلفظِ الرُّبوبيّة إظهارًا لِما تُضمِرُه بواطنُ القُلوبِ

أظهرَ النَّظمُ الكريمُ ما حقُّه الإضمارُ في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾؛ ولم يَقُلْ: (يدعونَه)؛ كما قال: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾ [الكهف: 27] متابعةً لِما سبقَ ذِكْرُه من لفظِ الرُّبوبيّةِ؛ وبلاغةُ ذلك بيانُ علمِهم وإيمانِهم بأنّ الأمرَ في التّمكين والنّصرِ يكونُ من عند ربّهم وحدَه سبحانه، ثمّ إظهارِ معنى الرّبوبيّةِ منَ التّربية في نفوسِهم، فهُم صابرةٌ نفوسُهم بدعاء ربِّهم على ما هم فيه من شظَفِ العيش وقسْوةِ الأحوال، وتَحدّي المُعارضين والمُعاندين، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ النُّطقَ بلفظِ الرّبوبيَّة سائرٌ في ألسنتِهم.

نُكتةُ الإضافةِ في ﴿رَبَّهُم﴾:

الجماعةُ المؤمنةُ متَّفِقةٌ على الإيمان مُتّحدةٌ بتوحيدِ الله تعالى

لمّا صُدِّرتِ الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾، كان مقتضَى ظاهرِها أن يكونَ النَّظمُ (الذين يدعون ربك)، لكنَّ النَّظمَ آثرَ

التَّعبيرَ بضميرِ الجمعِ الغائبِ ﴿رَبَّهُم﴾ تناسُبًا مع النَّفَسِ الجمعيِّ الذي يوحِّدُهم ويَدعوهم إلى التزام جماعةِ المؤمنين المُرابطين في دعاء اللّه وعبادتِه، وما في ذلك من دلالةِ قُربِهم إلى ربّهم، وإشارةً إلى صدْقِ إيمانِهم به، فأضافَ الرُّبوبيّةَ إلى ضمير الجمعِ الغائبِ (هم)؛ فهم أقربُ ما يكونون إلى ربِّهم، وهم في دعائِهم وعبادتِهم.

معنَى حرفِ الباءِ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾:

التـزامُ المؤمنين في رباطٍ مع الله تعالى بالدّعاءِ والعبادةِ

الباءُ للإلصاقِ والاختلاط[1]، والإلصاقُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾ مَجازيٌّ، وفيها معنى الظَّرفيّة[2]؛ فدُعاؤهُم للّه تعالى مُلتصقٌ بالفترتَيْن الزّمنيّتَيْن؛ وهما: الغداةُ والعَشيّ، ولكنْ حُذفتِ الباءُ الثّانيةُ إيجازًا؛ والمعنى: أنّ دعاءَهم مُلتصقٌ بكلِّ وقتٍ من أوقاتِ يومِهم؛ فلا يفارقُ أوقاتهم كلَّها.

بلاغةُ الكنايةِ عنِ الموصوف:

(الغداةُ) و(العشيُّ) إمّا إشارةٌ إلى الصّلواتِ أو عمومِ العبادةِ

إذا فسَّرنا قولَه تعالى: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ بالصَّلوات الخمس؛ فهو كنايةٌ عن صلواتِهم والتزامِهم بها؛ وإلى هذا ذهب ابنُ عمر ومُجاهدٌ وغيرُهما، ولعلّ قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ يصلُحُ أن يكونَ قرينةً لهذه الكنايةِ بإرادة وجْهةِ الصّلاة، وقال قَتادة: إلى صلاة الفجرِ وصلاةِ العصر، وقد يُقال إنَّ ذلك يُرادُ به العُمومُ؛ أيْ: يَدعون ربَّهم على الدّوام دون كَلَلٍ أو مَلَلٍ[3]؛ وهو الأوفقُ بالمقامِ والأرعى لحقِّ الكلام.

نُكتةُ إيثارِ لفظِ (الغداة) على مرادفاتِها:

الغـداةُ وقتٌ مُمتدٌّ في بدايةِ النَّهارِ إلى الزَّوال

يدلُّ قولُه تعالى: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾ على أوّلِ النّهار، وفائدةُ اختيارِ الغَداة هو أنّهم يَبدؤون نهارَهم بدعاءِ اللّه تعالى، وهو على خلاف

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 304.
(2) الرّضي، شرح الرّضي على الكافية: 2/ 363.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 670، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 166.

القول (بالصّباح) أو غيرِها من الألفاظ، هذا فضلًا عن كونه من طلوعِ الشَّمس، إلى زوالها، وبينَها وبين العَشيّ طِباقٌ؛ فهما يتكاملان لتغطيةِ دورانِ اللّيلِ والنّهارِ واليوم واللّيلة.

نكتةُ إيثارِ لفْظِ العَشيِّ على مرادفاتِها:

استغراقُ سائرِ الوقت الذي لا يَستغرقُه لفظُ الغداةِ

يدلُّ لفظُ: ﴿وَٱلۡعَشِيِّ﴾ على الوقت كلِّه من زوال الشّمسِ حتّى آخرِ اللّيل إلى الصّباح، ففي هذه اللّفظةِ دلالةٌ على فترةٍ زمنيّةٍ طويلةٍ تجمعُ اليومَ واللّيلةَ، ولِلفْظ العشيِّ خصوصيّةٌ أنّه يشملُ أوقاتًا مهمّةً؛ هي الظُّهرُ والعصرُ والمغربُ والعشاءُ واللّيلُ، وهي مع الغَداةِ تجمعانِ اليومَ واللّيلةَ.

فنُّ بديعِ الطِّباقِ بين (الغَداةِ) و(العَشيِّ):

المؤمنُ يَدعو ربَّه في وقتِه كلِّه بدَيْمومةٍ وحُسنِ توجُّهٍ

بين (الغَداة) و(العَشيّ) طباقٌ؛ لأنّهما بمجموعِهما يدلّان على اليوم واللّيلة؛ فالغَداةُ من طلوع الفجرِ حتى الزّوال، والعَشيُّ من الزّوال حتّى آخرِ اللّيل، أو حتّى طلوعِ الفجر.

ويُرادُ بذكرِ هذيْن الوقتيْن مداومةُ العبادةِ في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾؛ أيْ: يدعونه ليلًا ونهارًا، وشاع استعمالُ مثلِ هذه العبارة للتّعبير عنِ الدّوام[1]، ويبقَى مفهومُ دَيْمومة العبادةِ في معناه المَجازيّ؛ لأنّ حقيقتَه خارجةٌ عن طاقة البشر، ولكنّه يدلُّ على رسوخ الإيمان ونقاءِ القلبِ، مع حبِّ اللّه ودُعائِه، واللّجوءِ إليه والاطمئنانِ إلى رضاه سبحانه فيكونُ ذلك كلُّه في جميع أوقاتِهم.

توجيهُ تخصيصِ (الغَداةِ) و(العَشيِّ) بالذِّكْر:

خصوصيّةُ العبادةِ في طرفَيِ اليومِ واللّيلةِ

على القولِ بأنَّ المقصودَ بـ(الغداةِ) و(العشيِّ) في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ طَرَفا النّهارِ[2] إشعارٌ بفضلِ العبادةِ

---

(1) طنطاوي، الوسيط، ص: 2710.

(2) طنطاوي، الوسيط، ص: 2710.

فيهما؛ لأنّهما محلُّ الغفلةِ والاشتغالِ بالأمور الدّنيويّة غالبًا؛ أيْ: يعبدونَه في طَرَفَي النَّهار، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ [هود: 114].

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ:

الأمرُ بالصَّبرِ والنَّهيُ عنِ الطَّردِ استكمالٌ لمُلازمةِ المؤمنين

نظيرُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الأنعام: 52]؛ ففي تلك الآيةِ نهَى اللّه تعالى رسولَه ﷺ عن طردِهم، وفي هذه الآية أمرَهُ بمجالستِهم والمُصابرةِ معهم[1]، فآيةُ (الأنعام) نهتْ عن طردِهم، وهذه الآيةُ أمرتْ بمُلازمتِهم، وباجتماع الأمرِ والنَّهيِ يكتملُ الالتصاقُ بالمؤمنين، ونُكتةُ مجيءِ الأمرِ هنا أنَّه معطوفٌ على الأمر بالتّلاوةِ، ونُكتةُ النَّهي في آية (الأنعام) أنَّه مقدِّمةٌ لذِكْر فتنةِ الكافرين بالمؤمنين، وهمُ الذين طلبوا طردَهم ليؤمنوا؛ فجاءت كلُّ آيةٍ بموقعِها الأنسبِ بها.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يُرِيدُونَ﴾:

تجديدُ النّيّةِ في الأعمالِ الصّالحةِ

الإرادةُ في قولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ هي دليلُ النّيّةِ، وفي التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يُرِيدُونَ﴾ معنَى التّجدّدِ، فهم يُجدّدون نيّتَهم ابتغاءَ وجْهِ اللّه سبحانه، وطاقةُ الإيمان في قلوبِهم هي المُحرِّكُ الذي يُؤدّي إلى التّجدّدِ والاستمرارِ في إرادة وجْهِه سبحانَه في جميع الأعمالِ، وفي تجدُّدِ الإرادةِ دليلُ تجدُّدِ الإيمانِ.

نُكتةُ التّقييدِ بقولِه تعالى: ﴿وَجۡهَهُۥۖ﴾:

إرادةُ وجْهِ الله شاملةٌ لكلِّ ما يُرضي الله تعالى

قولُه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ حالٌ من ضمير ﴿يَدۡعُونَ﴾؛ أيْ: يدعونَه تعالى مُخلصين له فيه، وذَكَر الوجهَ؛ والمُرادُ اللّهُ ﷻ، وذلك على عادة العربِ في إطلاق الوجه وإرادةِ صاحبِه، وقد جرت عادةُ القرآنِ على أن يُطلقَ الوجهُ ويُرادَ به اللّه ﷻ؛ كقوله تعالى: ﴿كُلُّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 98.

﴿شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: 88]؛ يعني اللّه ﷻ، وقولُه: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 115]؛ يعني: فَثَمَّ اللّه، وقولُه: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾ [الرّوم: 39]؛ يعني تريدون بها اللّه ورضاه، وكقولِه: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: 9] يعني اللّه[1] وطلبًا لرضاه، فذِكْرُ الوجه وإرادةُ اللّه أشملُ من أن يذكرَ رضاه؛ لدخولِه ضمنًا، فمَنْ أراد وجهَ اللّه؛ فقد أراد محبَّتَه ومغفرتَه ورحمتَه ورضوانَه.

فائدةُ عطْفِ النّهي ﴿وَلَا تَعۡدُ﴾ على الأمرِ ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾:

عُطف النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ﴾ على الأمر في قولِه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ وهو عطفُ جملةٍ إنشائيَّةٍ على أخرى مثلِها رغمَ اختلافِهما في المعنَى؛ إذ تحقَّقَ بين الجُملتَيْن جانبٌ مِنَ الاتّفاق، وجانبٌ مِنَ الاختلاف؛ فوجبَ الوصلُ بينهما، وهذان هُما شَرْطا العطْفِ تحقُّقًا بين الجُملتَيْن، فهي حالةٌ سمّاها البلاغيّون التّوسّطَ بين كمال الانقطاعِ وكمالِ الاتّصال، أمّا فائدةُ هذا العطف فهو الجمعُ بين غرضِ النّهيِ وغرضِ الأمرِ؛ فالصّبرُ على النّفسِ ورغباتِها يقتضي الاستمساكَ بجماعةِ المؤمنين، والنَّهيَ عن صرف العينَيْن يقتضي عدمَ إغفالِهما عنِ المؤمنين وصرفِهما عنهم، فنُزِّلَتِ الجملةُ الثّانيةُ منزلةَ الضّابطِ لِما وردَ في الأولى؛ أي: اصبرْ، ولا تتركِ الصَّبرَ بطلب الحياةِ الدّنيا.

> لا بدَّ للصَّبرِ من ضابطٍ مُتمِّمٍ له في جميعِ أحوالِه

بلاغةُ تضمينِ فعْلِ ﴿تَعۡدُ﴾ معنَى الإعراضِ:

عُدّي فعلُ ﴿تَعۡدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ بحرفِ (عن)؛ لتضمين الفعلِ (عدا) معنَى الإعراض[2]، ونُكتةُ هذا التَّضمين إعطاءُ مجموعِ معنيَيْن، وذلك أقوى من إعطاءِ معنًى فذٍّ، وما في ذلك منَ الإيجاز اقتصادًا في النّظمِ، وتوسُّعًا

> النَّهيُ عن عَدْوِ العينَيْن أبلغُ منَ النّهيِ عنِ الإعراضِ وكلاهما مُتحقِّقٌ

(1) يحيى بن سلام، التّصاريف: 156 - 157.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 670 - 671.

في المعنى، ورجعَ المعنى إلى قولك: ولا تَقتحِمهم عيناك مُجاوزتَيْن إلى غيرهم[1]؛ فالمعنى الأوّل: اقتحامُ العينَيْن ما تراهما من صلاحِ الجماعةِ المؤمنةِ، والمعنى الثّاني: مُتجاوزًا إيّاها إلى أفرادٍ هم ليسوا أهلًا للإيمان ولو كانوا كذلك لَما أملَوا الشّروطَ على رسول اللّه ﷺ، ومن هنا تظهرُ نُكتةُ اختيارِ فعلِ ﴿تَعۡدُ﴾ دون (تُعرِضْ عنهم)، وهو النَّهيُ عنِ الإعراض، والتَّحذيرُ من أدنى تَجاوُزٍ لهم، فإنَّ بدايةَ الإعراضِ هو التَّجاوزُ، فلمّا نهَى عنِ البدايةِ اليسيرةِ - وهي عدو العينَيْن - كان النَّهيُ عنِ الإعراض أبلغَ وأشدَّ.

بلاغةُ الإسنادِ المَجازيِّ:

أُسنِدَ الفعلُ إلى غيرِ فاعلِه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾؛ إذْ أُسنِدَ الفعلُ ﴿تَعۡدُ﴾ إلى العينَيْن، فهو على سبيل المجازِ العقليِّ، لبيانِ أنَّ العينَيْن عندما تنظران إلى هؤلاء فإنّها تغضُّ الطّرفَ عنهم؛ ولهذا قال: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، ولم يَقُلْ: (تريدان زينة الحياة الدّنيا)؛ فعُلِمَ أنّ الإسنادَ في ﴿تَعۡدُ﴾ كان لجُزءِ الفاعلِ الحقيقيِّ؛ لعلاقةِ الجُزئيّةِ؛ فذَكَرَ الجُزءَ وأراد الكُلَّ وهو رسولُ اللّه ﷺ، وفائدةُ ذلك بيانُ ما يدورُ في النّفس ممّا هو ناتجٌ عن مقياسِ النَّظر فحسبُ دون سواه منَ الحواسِّ الأخرى، ممّا جعلَه قاصرًا أمام الحقيقةِ والإحاطةِ بها.

مقياسُ النّظَرِ وحدَه قاصرٌ على الإحاطةِ بالحَقيقةِ كُلِّها

نُكتةُ المَجازِ المُرسلِ:

المقصودُ من قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ نهيُه ﷺ عنِ الإعراض عنهم والمَيلِ إلى غيرهم، فذكرَ الجُزءَ - وهما العينان الشّريفتان - وأراد الكُلَّ، وهو المخاطَبُ رسولُ اللّه ﷺ، فهو مَجازٌ مُرسَلٌ علاقتُه الجُزئيّةُ، وإنّما جيء بقوله: ﴿عَيۡنَاكَ﴾ والمقصودُ هو ﷺ؛ لأنّهما بهما تكونُ المراعاةُ للشّخص والتّلفّتُ له، والمعنى:

النّظرُ مبدأُ تقْييمِ الأفرادِ والأقوامِ والأحوالِ

(1) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 15/ 305.

ولا تَعْدُ أنت عنهم النّظرَ إلى غيرهم[1]، وفائدتُه بيانُ ما تَزدريه نفسُك بسببِ ما تراه عيناكَ من فقر حالِ هؤلاء، بينما تنظرُ إلى حال الأغنياءِ منَ الكفّار الذين طالبوك بتركِ الفقراء والصّعاليكِ ليُجالسوك، فيكونُ للعينَيْن شأنٌ مُهمٌّ في إجراء هذه المقابلةِ بين الحالَتيْن: الفقراءِ منَ المؤمنين، والأغنياءِ الأسيادِ منَ الكافرين.

بلاغةُ جملةِ الحالِ:

بيانُ الطَّبيعة البشريّة في الميل إلى زخرف الحياة الدّنيا

قولُه تعالى: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ في موضعِ الحالِ من قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾؛ أيْ: مَن جعلنا قلْبَه غافلًا عنِ الذِّكر بالخُذلان، أو: وجدْناه غافلًا عنه، ولم نجعَلْهم منَ الذين كتبْنا في قلوبِهم الإيمانَ[2]، فبيّنتْ جملةُ الحال صورةَ النّفس التي تميلُ إلى زُخرفِ الحياة الدّنيا وزينَتِها، وارتباطِ ذلك بالعينَيْن وما تراهما، فعَدْوُ العينَيْن عنِ المؤمنين هو حالٌ من إرادةِ زينةِ الحياة الدّنيا.

وللنَّبرِ أثرٌ في المعنى؛ فلو قرأ قارئٌ هذه الجملةَ بنبْرِ الاستفهامِ لازداد جمالُ معناها وبانت قوّةُ مبْناها.

نُكتةُ التَّعبيرِ بمُفرَدةِ الإرادةِ بصيغةِ المضارع:

تجديدُ التَّحذير من إرادةِ الحياةِ الدُّنيا

جاء الفعلُ المضارعُ في قولِه تعالى: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ لإفادةِ التّجدُّدِ والاستمرار؛ إذ أفادَ المضارعُ ﴿تُرِيدُ﴾ استمراريّةَ تجدُّدِ تلك الإرادة، وتَكرارِ النّفس وإلحاحِها، وفيه تجديدُ التَّحذير بسببِ تجديدِ ذِكرِ الحياةِ الدُّنيا، ثمّ إنّه قال هنا ﴿تُرِيدُ﴾ بعد أن قال عنهم ﴿يُرِيدُونَ﴾، فكرّر الفعلَ على صيغتِه المضارِعة، وفي ذلك معنَى الدّعوةِ إلى تحويل إرادةِ النّفس الفرديّةِ (تجاهَ زينةِ الحياة) إلى إرادة الجماعةِ المؤمنةِ (تجاهَ طلبِ الآخرة)، الذي عبّرَ عنه بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾؛ أيْ: يريدون اللّٰه تعالى والدّارَ الآخرةَ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 167.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 718.

زينةُ الحياةِ هي الجانبُ المؤثِّرُ في النّفسِ والجاذبِ لها

براعةُ ذِكْرِ المضافِ ﴿زِينَةَ﴾ دون الاكتفاءِ بالمُضافِ إليه:

أُضيفَ لفظُ ﴿زِينَةَ﴾ إلى ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، ولم يكتفِ بأن يُقال: (تريدُ الحياةَ الدّنيا)، وذلك لأنَّه لو أطْلَق الحياةَ الدّنيا دون النَّصِّ على الزّينةِ لفات مقصودُ الكلام؛ فإنَّ الغايةَ التي لأجلِها يمدُّ الإنسانُ عينَيْه هي زينةُ الحياة الدُّنيا لا مُطلقُ الحياة الدّنيا، فقد تكونُ الحياةُ مُنغَّصةً بألوان المُنغِّصاتِ، والإنسانُ إنَّما يميلُ بطبْعِه إلى زينتِها وجمالِها وما فيها من متاعٍ.

الحياةُ الدّنيا هي محطُّ ميولِ النّفسِ ورغباتِها

بلاغةُ الإطنابِ بذكرِ الموصوفِ: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

لم يكتفِ النَّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ بالصِّفةِ بأن يُقالَ: (زينة الدّنيا)؛ بل ذَكَر الموصوفَ وهو ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾؛ ليناسبَ ذِكْرَ المضاف ﴿زِينَةَ﴾، فلمّا ذَكَرَ ﴿زِينَةَ﴾ اقتضى ذِكْرَ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾؛ لأنَّ الزينةَ إنَّما تكونُ في الحياةِ نفسِها، لا باعتبارِها الوصفيِّ ﴿ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، والإنسانُ يطمعُ في الحياةِ وآثارِها الماتعةِ؛ فصار التّعبيرُ مُنسجمًا مع ما تَهواه النّفسُ وتميلُ إليه، ومن هنا ناسبَ ذِكْرُ الموصوف.

تأسيسُ قاعدةِ العملِ المستقلِّ عن رغائبِ المُخالِفين

بلاغةُ عطْفِ جملةِ ﴿وَلَا تُطِعۡ﴾ على السّابق:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ﴾ نهيٌ جامعٌ عن ملابسةِ شيءٍ ممّا يأمرُه به المشركون، فبلاغةُ عطْفِ ﴿وَلَا تُطِعۡ﴾ على ما قبْلَه تتأتّى منَ الوصلِ بين الجُملتَيْن الانشائيّتَيْن، فعطفَ جملةَ النّهي ﴿وَلَا تُطِعۡ﴾ على جملة نهي سابقةٍ ﴿وَلَا تَعۡدُ﴾ المُتغايرتَيْن في المعنى، فتكونُ العلاقةُ بين الجُملتَيْن هي التّوسّطُ بين كمال الانقطاعِ وكمالِ الاتّصالِ، ثمّ إنّ المقصودَ من تَكرار النّهيِ هو تأسيسُ قاعدةٍ لأعمال الرّسولِ والمسلمين تُجاهَ رغائبِ المشركين، وتأييسِ المشركين من نوالِ شيءٍ ممّا رغبوه منَ النّبيِّ ﷺ(1)، ومن ثَمّ تكونُ هذه القاعدةُ بمثابة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 306.

دليلٍ لِمَنِ اقتفى أثرَ الرّسول في الدّعوة إلى دين اللّه وابتغاءِ وجْهه سبحانه، تأسيسًا لعمل الجماعةِ المؤمنةِ، وقيامِ دولةِ الرّسول ﷺ.

التّغايُرُ في التّعبيرِ عنِ المؤمنين والغافلين في الاسمِ الموصول:

المؤمنون يأتلِفون على الخيرِ معًا بينما الكافرُ في انفرادٍ شُعوريٍّ

قال ﷻ في حقِّ المؤمنين: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾، وقال في غير المؤمنين: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا﴾ فغايرَ في استعمالِ لفظِ الاسم الموصولِ، فالاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يأتي لجماعةِ الذّكور ويختصُّ بالعقلاء، بينما الاسمُ الموصولُ ﴿مَنۡ﴾ فهو مشتركٌ لمعانٍ عدّةٍ بلفظٍ واحدٍ، فيُستعملُ للمُفرد والمُثنّى والجمعِ والمُذكّرِ والمُؤنّث، وتظهرُ براعةُ الاستخدامِ في الآية الكريمةِ كلٌّ في مَحلّه؛ فاستخدمَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع المؤمنين للدّلالة على أنّ المؤمنَ لا بُدّ له من أن يكونَ مع إخوانه ليتماسكَ بهم، وليصبرَ وليدعو اللّه معهم، فالمصاحبةُ والمعيّةُ ركنٌ ركينٌ في تحقيق هذا المعنَى العظيم؛ ألا وهو الإيمانُ ودَيْمومتُه، وتصبيرُ النّفس على نبْذِ الأهواء وزينةِ الحياة الدّنيا.

وأمّا مع الكفّار فقد أتى بـ ﴿مَنۡ﴾؛ وهو اسمٌ موصولٌ بمعنى (الذي)؛ وهو أكثرُ ما يكونُ للمفرد، فجعلَ مَن يَغفلُ قلبُه عن ذِكْر اللّه في حالة الانفراد؛ وهذه هي صفةُ الغافلين في أغلب أحوالِهم، كما قال تعالى: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر: 14].

التّغايُرُ في التّعبيرِ عنِ المؤمنين والغافلين في صيغةِ الفعلِ:

المؤمنُ مُتجدِّدُ النّيةِ، وغيرُهُ راسخُ الغفْلةِ

قال ﷻ في حقِّ المؤمنين: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾، وقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾، وقال في حقِّ الكافرين: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، فاستعملَ المضارعَ مع أفعال المؤمنين، والماضيَ مع الغافلين، وفائدةُ ذلك أنّ المضارعَ يدلُّ على التّجدّد مع الزّمنِ، فالمؤمن يحتاجُ إلى تجديدِ النّيّة واستمرارِ الرّجاء والعملِ، بينما أفاد الماضي الدّلالةَ على الوقوع والرّسوخ، فأصبح اتّباعُ الهوى عندهم لكثرته راسخًا صفةً من صفاتهم وخُلُقًا من أخلاقِهم، وطبعًا ممّا طبعَ اللّه على قلوبهم، وكأنّ المؤمنَ يعيشُ

يومَه وأحداثَه فيُجدّدُ إيمانَه ونيّتَه، والغافلَ يعيشُ الماضيَ ولا صلةَ له بالحاضر، وقلبُه مطبوعٌ على الغفلةِ والكفرِ.

براعةُ التّغايُرِ في الإسناد: ﴿يَدۡعُونَ﴾، و﴿أَغۡفَلۡنَا﴾:

المقابلةُ بين صدْقِ الإيمان وادّعائِه

أُسندتِ الدّعوةُ والإرادةُ إلى جماعة المؤمنين؛ فقال سبحانه: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾، فبيّنَ من خلال ذلك ما يبذلُه المؤمنون من المُصابرة والمُرابطةِ، والتّواصلِ مع اللّه، ودعوتِه وعبادتِه، وطلبِ نصرِه ورجاءِ مغفرتِه، وإشغالِ النّفس بالحقّ، وبذْلِ الجهدِ في ذلك كلِّه، بينما أُسندَ إغفالُ القلب إلى اللّه ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾، فهو مُقدِّرُ الأمورِ كلِّها سبحانه؛ إذ لم يُعتدَّ بقولهم إنّهم يريدون مجالسةَ الرّسول بشرْطِهم؛ فالإيمانُ لا يقبلُ الشّرطَ، فهؤلاء غافلون عنِ اللّه تعالى وعن ذِكْرِه وابتغاءِ مرضاتِه سبحانه، فأُسندَ فعلُ الإغفال إلى اللّه تعالى، تأكيدًا لوقوعِ غفلتِهم، ولبيانِ أنّهم ما غفلوا إلّا بإرادةِ اللّه تعالى.

براعةُ التّغايُرِ في الجمعِ والإفرادِ: ﴿يَدۡعُونَ﴾ و﴿أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾:

المؤمنون يجمعُهم الإيمانُ، والغافلون يُفرّقُهمُ الهوى

فائدةُ التّغايُرِ بين الجمعِ والإفراد؛ أنّ الجمعَ يدلُّ على الجماعةِ والتزامِ المعيّةِ والصّحبةِ للمؤمنين، فقال تعالى في حقِّ المؤمنين: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾، وقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾، بينما في حقِّ الغافلين قال: ﴿أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؛ فالإفرادُ مُلازِمٌ لذِكْرِ الغفلة، ثمَّ إنّ اتّباعَ الهوى لا يكونُ من جماعة؛ لأنّ لكلِّ فردٍ هوى نَفسِه الخاصَّ به، فهو يتّبعُه وحدَه، وفي هذا التَّقابلِ بين الفريقَيْنِ بيانُ اتّحادِ المؤمنين وفُرقةِ الكافرين.

تَوجيهُ تخصيصِ القلْبِ بالذِّكرِ:

ذِكْرُ القلْبِ يوازي إطلاقَ السَّببِ وإرادةَ المُسبّبِ

خُصَّ القلبُ بالذّكر في قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ دون أن يُقال: (من أغفلناه)؛ وذلك لبيانِ أنَّ مدارَ عملِ الإنسانِ هو القلبُ، كما قال ﷺ: "ألا وإنَّ في الجسدِ مُضغة إذا صَلحَت صَلح

الجَسَد كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كلُّهُ؛ ألا وهي القلبُ"[1]، فالقلبُ أصلٌ أصيلٌ في النّيَّةِ والإيمانِ والعمل، فذُكِرَ القلبُ في الآيةِ لبيانِ أنَّ سببَ غفلَتِهم هي قلوبُهُمُ الخاوية، وأنَّ على الإنسانِ أن يَحذرَ من غفلةِ قلبِهِ وذهابِ يَقظتِه، فتخصيصُ القلب بالذِّكر يوازي ذِكْرَ العلَّةِ وإرادةَ المعلول، أو إطلاقَ السّببِ وإرادةَ المُسبَّب.

نُكتةُ اختيارِ (النَّفس) و(القلب) في السّياقِ الأنْسب:

النَّفسُ معدنُ النَّوازِع، والقلبُ أصلُ القَبولِ

جاء تخصيصُ النَّفس بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ خطابًا للنّبيِّ ﷺ، بينما جاء تخصيصُ ذِكْر القلبِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ في الإخبارِ عن حالِ المُشركين، فاختلفَ اختيارُ المُفرَدَة، أمّا في ذِكْر النَّفسِ فهي في سياق الأمرِ بالصَّبر، والصَّبرُ: حبسُ النَّفسِ عنِ الجَزَعِ والسّخطِ[2]، والمُرادُ بالخطاب على الحقيقةِ أمّةُ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنّ فيه دعوةً إلى المصابرةِ والتزامِ الجماعةِ، وهذا لا يمكنُ إلّا أن يكونَ مُلزِمًا لجميعِ الأمّة، ولمّا كان الأمرُ لِمَن آمن وحرصَ على التزامِ الجماعةِ؛ فإنّ ذلك يقتضي حملَ النَّفسِ على المكارهِ والتماسِ القُرْبة إلى اللهِ، وصرفُها عمّا تنازعَ إليها من هواها[3].

أمّا إغفالُ القلب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾؛ فهو المناسبُ لذِكرِ الإغفالِ، إذِ القلبُ هو الذي يغفلُ عمّا يجبُ أن يكونَ يقِظًا له، وأصلُ الإغفال: إيجادُ الغفلةِ؛ وهي الذّهولُ عن تذكّرِ الشّيءِ، وأُريد بها هنا غفلةٌ خاصّةٌ؛ وهي الغفلةُ المُستمرّةُ المُستفادةُ من جَعْلِ الإغفالِ منَ اللهِ تعالى كنايةً عن كونِه في خِلْقةِ تلك القلوبِ، وما بالطّبعِ لا يتخلّفُ، ويأتي ذلك الطّبعُ من كثرةِ

(1) البخاريّ، صحيح البخاري، باب فضل من استبرأ لدينه، الحديث رقم: (52).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 371.
(3) القصّاب، النّكت الدّالّة على البيان: 2/ 193.

ممارسةِ الباطلِ والرّضا به، وقدِ اعتضدَ هذا المعنى بجملةِ ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، فإنّ اتِّباعَ الهوى يكونُ عن بصيرةٍ لا عن ذهولٍ، فاتبِّاعُ الهوى كسْبٌ من قُدرتِهم[1].

لطيفةٌ في العلاقةِ الاشتقاقيّةِ بين (غَفَلَ) و(غَلَفَ):

تمامُ الغفْلةِ عن ذِكْرِ الله يكونُ بعد اكتمالِ تغْليفِ القلبِ

يُقال: قلبٌ أَغْلَفُ كأنَّما غشيَ غِلافًا فلا يَعي شيئًا، والغِلافُ: الصّوانُ[2]، وقولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ [البقرة: 88]، وتقول: هكذا القلوبُ الغُلْفُ، ليس معها إلّا الخُلْفُ[3]، أمّا التَّغافُلُ فهو: التَّعَمُّدُ، وأغفلتُ الشّيءَ: تركتَه غُفْلًا وأنت له ذاكرٌ، والمُغَفَّلُ: مَنْ لا فِطنةَ له[4]، والعلاقةُ الاشتقاقيَّةُ بين (غفل) و(غلف) أنّ أحدَهما سبيلٌ للآخر؛ فمَنْ غفلَ عن ذِكْرِ اللّه فقد غُلّف قلبُه غشاوةً فهو لا يَعي.

فائدةُ إضافةِ (الذّكرِ) إلى ضميرِ العَظَمَة:

توبيخُ الغافلِ يَزدادُ بكونِه غافلًا عن ذِكْرِ العظيمِ

أُضيف لفظُ الذِّكرِ إلى نون العظمةِ في قوله تعالى: ﴿أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾؛ إذِ المطلوبُ كثرةُ الذّكر ومُداومتُه، فإنّ أمثالَ هؤلاء الغافلين قد يذكرون اللّه مرَّةً أو مرّاتٍ؛ فلا تؤثّرُ في أفعالِهم أو علاقاتِهم، فإنّهم في حقيقتِهم غافلون عنِ الذِّكْر المرجوِّ المطلوب الذي يُغيِّرُ الأنفسَ، ويُبدِّلُ القُلوبَ، ويُزيلُ الغشاوةَ، فالذّكرُ الصّادقُ ما يفعلُه أولئك المؤمنون الذين يَدعون ربّهم بالغَداة والعَشيِّ في كلّ وقتٍ وفي كلّ حالٍ، يريدون بذلك وجْهَ اللّه وحدَه، فيكونُ التّوحيدُ محورَ ذلك الذِّكْر والرّجاءِ منَ اللّه تعالى، فأفادتِ الإضافةُ أمريْن: **الأوّل**: الإيماءُ إلى حال المؤمنين في ذِكْر اللّه تعالى على الدَّوام، **والآخرُ**: زيادةُ التَّوبيخ؛ فهم لا يَغفلون عن أيِّ ذِكْرٍ، بل هم عن ذِكْر الرحمن هم غافلون.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 306.
(2) الخليل، العين: 4/ 419.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 1/ 708.
(4) الخليل، العين: 4/ 419.

توجيهُ عطْفِ ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ بالواو لا بالفاءِ:

الغافلُ يتّبعُ هواه من تِلقاءِ نفسِه لا جبرًا فيما يَفعلُ

لسائلٍ أن يسألَ عن وجْهِ عطْفِ قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ الذي أُسنِدَ فيه اتِّباعُ الهوى إلى الغافلِ على قوله تعالى: ﴿أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾ الذي أُسندَ فيه فعلُ الإغفالِ إلى اللّه تعالى؛ ولو كان المُرادُ أنَّه تعالى جعل قلبَه غافلًا جعْلًا جبريًّا لقال: (ولا تُطعْ مَنْ أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتّبع هواه)؛ لأنّ على هذا التّقديرِ يكونُ ذلك من أفعال المُطاوعةِ وهي إنّما تُعطفُ بالفاء لا بالواو[1]، فأفاد العطفُ بالواوِ الجمعَ بين إغفالِ القلبِ واتّباعِ الهوى، وكأنّهما يَعملان في منظومةٍ واحدةٍ؛ فدلَّ ذلك على أنَّ شرَّ أحوالِ الإنسانِ أن يكونَ قلبُه خاليًا من ذِكْرِ الحقِّ بعيدًا عنه، مُمتلئًا منَ الهوى الدّاعي إلى الاشتغالِ عن ذِكْر اللّه[2]، فهو عطفُ خبرٍ على خبرٍ، لا ترتيبُ أمرٍ على آخرَ، وفائدةُ ذلك بيانُ أنَّ الإغفالَ إنَّما كان بإرادة اللّه تعالى، وباختيار الغافلِ لا جبْرًا، فكان قولُه: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ بمثابةِ إزالة توهُّم الجَبْر.

بلاغةُ الاستعارةِ المَكنيّةِ في لفْظِ ﴿هَوَىٰهُ﴾:

هوى النّفسِ مثلُ قرينِ السّوءِ؛ يجرُّ صاحبَه إلى المهالكِ

شُبِّه الهوى في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؛ بإنسانٍ دالٍّ على الشّرِّ، أو بشيطانٍ يدلُّ على سُبُل الضّلالِ، فحُذِف المُشبَّه به وصُرّح بالمُشبَّه مع ذكرِ لازمٍ من لوازمِ المُشبَّه به وهو كونُه مَتبوعًا؛ فالاستعارةُ أصليَّةٌ مَكْنيَّةٌ، أوحتْ للمُتلقّي أنّ للهوى تأثيرًا في نفسِ صاحبه يقودُه حيث يشاءُ.

توجيهُ ذِكْرِ ﴿وَكَانَ﴾ وبلاغةِ التّرقّي في الآيةِ:

دَيدنُ الغافلين تمكُّنُ الهوى منهم وانفراطُ أمرِهم

ذِكْرُ فعل ﴿وَكَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ يدلُّ على تمكُّنِ الخبرِ منَ الاسم؛ أيْ: حالةُ تمكُّنِ الإفراطِ والاعتداءِ على

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 99.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 100.

الحقِّ[1]؛ فقد دخل في مرحلةٍ جديدةٍ منَ الطُّغيان وغفلةِ القلب واتّباعِ الهوى، وهو تمكّنُ الإفراطِ منه وتشرُّبُ قلبِه به، وجاء هذا الوصفُ على طريقةِ فنِّ التّرقّي في بيان ما أحدثوا في قلوبِهم على مراحلَ متواليةٍ؛ أيْ: أصبح أمرُه فُرُطًا لا سبيلَ للرُّجوع عنه لتمكُّنِه ودَيْمومتِه، وكونِه ديدنَه في الحياةِ كلِّها.

تخصيصُ معنى الأمرِ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾:

تخصيصُ معنَى الأمــرِ بالدّين تخصيصٌ سياقيٌّ

أُضيفَ الأمرُ إلى ضميرِ الغيبةِ المُفردِ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾؛ والمرادُ بالأمرِ الأمرُ الذي يلزمُه الحفظُ له، والاهتمامُ به، وهو أمرُ دينِه، يكونُ مخصوصًا بإيقاعِ التَّفريطِ والتّقصيرِ فيه، ووجْهُ جعلِ المُراد بالأمرِ أمرَ الدّين سياقُ الآياتِ، وهذه صفةُ مَن لا ينظرُ إلى دينه؛ بل هو غافلٌ عنه؛ وإنّما مُجملُ عملِه يكونُ للدّنيا، فبيّنَ تعالى من حال الغافلين عن ذِكْر اللّه التّابعين لهواهم؛ أنّهم مُقصِّرون في مُهمّاتهم، مُعرضون عمّا وجب عليهم منَ التَّدبّرِ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله تعالى: ﴿أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾:

الجمعُ بين معنَيَي التّضييع والإسرافِ في أمورِ الدّين

يحتملُ لفظُ (الفُرُط) في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ أن يكونَ بمعنَى التَّفريط والتَّضييع؛ أيْ: أمرُه الذي يجبُ أن يُلتزمَ؛ فيكونُ حالُ الغافلين أنّه قد ضُيّع دينُهم وما يَنبغي الالتزامُ به، كما يُضيَّعُ الشَّيءُ الثَّمين، فيستحقُّ عليه التّوبيخَ والتّعنيفَ، فتكونُ الاستعارةُ في الأمر، فذكرَ المُشبَّه وهو (الأمرُ)، وحذفَ المشبّهَ به؛ فهي استعارةٌ مَكْنيَّةٌ.

ويحتملُ أن يكونَ بمعنَى الإفراط والإسرافِ؛ أيْ: أمرُه وهواه الذي هو بسبيلِه[3]، قيل فُرُطًا؛ أيْ: مُجاوِزًا للحدِّ من قولهم: فرسٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 306.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 100.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 512.

فَرَطٌ إذا كان مُتقدِّمًا الخيلَ[1]، فيكونُ قد أسرف وتقدّمَ في الأهواء وتجاوزَ الحدَّ فيها، كما يتقدّمُ المتسابقُ نحو هدفِه بُغيةَ الفوز فيكونُ مُجاوِزًا أقرانَه فيها؛ وهي استعارةٌ تصريحيّةٌ، ويكونُ مجاوزًا للحدِّ في اتّباع الأهواءِ، وقد فسَّره مَعْمَر بنُ المُثَّنى بالعبارتَيْن؛ أي: التّضييعِ والإسرافِ[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغَداةُ والبُكْرَةُ والصّباحُ:

الغداةُ يغلبُ استعمالُه في الأسماءِ، والبُكْرَةُ في الأفعالِ، والصُّبحُ شاملٌ لهما

الغَداةُ اسمٌ لوقتٍ[3]، والغُدْوةُ والغَداةُ من أوّلِ النَّهار، وقوبلَ في القرآن (الغُدوِّ) بـ(الآصال)، نحو قولِه: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الأعراف: 205]، وقوبل (الغداةُ) بـ(العَشيّ)، قال تعالى: ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الأنعام: 52]، وبالرَّواح، قال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ [سبأ: 12][4].

والبُكْرَة التي هي أوّلُ النّهار، فاشتُقَّ من لفظه لفظُ الفعل، فقيل: بَكَّرَ فلانٌ بُكورًا: إذا خرج بُكْرَةً، والبَكور: المبالِغُ في البُكْرة، وبَكَّر في حاجته وابْتَكر وباكَرَ مُباكَرَةً، وتصوّرَ منها معنَى التَّعجيل لتقدُّمها على سائر أوقات النّهار؛ فقيل لكلّ مُتعجِّلٍ في أمرٍ: بِكْرٌ[5].

والصّبحُ لون منَ الألوان؛ قالوا: أصلُه الحُمرةُ، قالوا: وسُمّيَ الصّبحُ صُبْحًا لحُمرَتِه، كما سُمّيَ المصباحُ مصباحًا لحُمرَتِه، ولذلك يقال: وجهٌ صبيحٌ، والصّباحُ: نور النّهار، وهذا هو الأصلُ[6].

العَشيُّ والمَساءُ والعِشاءُ:

إذا فاء الفَيْءِ سُمّيَ عشيةً، ثمَّ أصيلًا بعد ذلك، ويُقال فاء الفَيْءُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 100.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ص: 398.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 383.
(4) الرّاغب، المُفرَدات، ص: 603.
(5) الرّاغب، المُفرَدات، ص: 140.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: 3/ 328.

العشيُّ ما يُقابلُ الغَداة، والمساءُ بعدَ العصْر، والعشاءُ عندَ العَتْمَة

إذا زاد على طول الشَّجرة؛ ويُقال: أتيتُه عَشيَّةَ أمس، وسآتيه العَشيَّةَ ليومك الذي أنت فيه، وسآتيه عَشيَّ غدٍ بغير هاء، وسأتيه بالعَشيِّ والغَداة؛ أيْ: كلَّ عشيّ وكلَّ غداة.

وإذا كان بُعَيدَ العصر فهو المساءُ، ويُقال للرَّجل عند العصرِ إذا كان يبادرُ حاجةً: قد أمسيتَ، وذلك على المبالغة[1].

والعِشاء، وهو أوَّل ظلام اللّيل، وعَشواءُ اللّيل: ظُلمتُه، ومنه عَشَوْتُ إلى ناره، ولا يكونُ ذلك إلا أنْ تخبطَ إليه الظَّلامَ، والعاشيةُ: كلُّ شيءٍ يعشو باللّيل إلى ضَوء نارٍ، والعَشيُّ: آخر النَّهار، وقد قيل: كلُّ ما كان بعدَ الزّوال فهو عَشيٌّ[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 383.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: 4/ 322.

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ [الكهف: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ الوصيَّةِ بالصَّبرِ يحسُنُ ذِكْرُ الموقفِ الفيصلِ منَ النّاس

لمّا رغَّبَ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ في أوليائِه وزهَّدَ في أعدائه؛ ناسبَ أن يذكرَ على إثْرِ ذلك ما يقولُ لهم على وجهٍ يَعمُّهُم، ويَعمُّ غيرَهم، فقال: ﴿وَقُلِ﴾؛ أيْ: قُلْ لهم ولغيرهم: هذا الذي جئتُكم به منَ الوحْيِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ كائنًا ﴿مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾[1]، فهو انتقالٌ من ذِكْرِ الوصيَّةِ بصحبة المؤمنين والحذرِ منَ المشركين، إلى الأمر بالموقفِ الفيصلِ الذي لا يقبلُ المساومَةَ أوِ المُداهَنة بدعوى الحكمةِ والتَّسامحِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾: العَتادُ: ادّخارُ الشَّيءِ قبل الحاجةِ إليه كالإعداد، والعَتيدُ: المُعِدُّ والمُعَدُّ، والشَّيءُ العَتيد: الحاضرُ المُهَيّأُ، قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣﴾ [ق: 23]؛ أَيْ: هذا ما كتبتُه من عمله عَتيد؛ أَيْ: مُعْتَدٌ مُعَدٌّ، وقولُه تعالى: ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ [يوسف: 31]؛ أَيْ: هَيَّأَت، وقولُه: ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾؛ قيل: هو أفعَلْنا من العَتادِ، وقيل: أصلُه أعدَدْنا[2].

2) ﴿سُرَادِقُهَاۚ﴾: السُّرادِقُ؛ قيل: فارسيّ مُعرَّبٌ، والسُّرادِقُ: كلُّ ما أحاطَ بشيءٍ من حائط أو مِضْرَبٍ. وقولُه تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 464.
(2) الرّاغب، المُفرَدات، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز، مادّة: (عتد).

﴿سُرَادِقُهَاۚ﴾؛ أيْ إنّهم قد أُحيطوا بالنّار من كلِّ جانبٍ، وقيل: بيت مُسَرْدَقٌ: مَجْعولٌ على هيئة سُرادِق[1].

3) ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾: المُهْلُ: دُرْديُّ الزَّيت، قال: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ٤٥﴾ [الدُّخان: 45][2]، والمُهْلُ: خُثارةُ الزَّيت، ويُقال: النُّحاسُ الذّائب، وقيل: الفلِزُّ، وهو جواهرُ الأرض منَ الذَّهَب والفِضّة، وقيل: ضَرْبٌ منَ القَطِرانِ إلاّ أنّه ماءٌ رقيقٌ يُشبه الزّيتَ، وهو يَضْرِبُ إلى الصُّفْرة[3]، وقيل: خَبَثُ الجواهر، أو: ما ذاب من صُفْرٍ أو حديدٍ[4].

4) ﴿مُرۡتَفَقًا﴾: الرِّفقُ: لينُ الجانب ولطافةُ الفعل، وصاحبُه رفيقٌ، ورفيقُكَ: الذي تجمعُه وإياك رُفْقةٌ واحدةٌ في سفر يُرافقكَ، وتُسمَّى الرِّفقةَ ما داموا مُنضَمّين في مجلسٍ واحدٍ ومسيرٍ واحدٍ، قال تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النّساء: 69]؛ أيْ: رفقاءُ في الجنّة، وما يقابلُ هذا المعنى في النّار هو المُرادُ في قوله: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾، والارتفاقُ: التَّوكُّؤُ على مِرفَقِه، والمِرْفَقُ من كلّ شيءٍ، منَ المُتّكأ واليدِ والأمر، قال اللّه: ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ [الكهف: 16]؛ أيْ: رفقًا وصلاحًا لكم من أمركم[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُخاطبُ الآيةُ رسولَ اللّه ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾؛ أيْ: وقل أيّها الرّسولُ لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبَهم عن ذِكْرِنا واتّبعوا أهواءَهم وكان أمرُهم فرطًا، قلْ لهُم: هذا الذي جئتُكم به من قرآنٍ هو الحقُّ من ربِّكم، وليس من أحدٍ سواه؛ والرّبُّ هو الخالقُ والمُربّي والرّازقُ، وقولُه: ﴿فَمَن شَآءَ

الحقُّ أبلجُ واضحٌ، وغايةُ التزامِه بيّنةُ المآلِ، وعاقبةُ مخالفتِه ظاهرةُ الحالِ

(1) الرّاغب، المُفرَدات، مادّة: (سردق).
(2) الرّاغب، المُفرَدات، مادّة: (مهل).
(3) الخليل، العين، مادّة: (مهل).
(4) ابن سِيدَة، المُحكَم، مادّة: (مهل).
(5) الخليل، العين، مادّة: (رفق).

﴿فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ ليس لبيان التّخيير بين الإيمان والكفر؛ بلِ المُرادُ به التّهديدُ والتّخويفُ، بدليل قوله بعدَها: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾، فما جئتُكم به هو الحقُّ الذى يجبُ اتِّباعُه، فمَنۡ شاء أن يؤمنَ به فلْيفعل؛ فإنّ عاقبتَه الخيرُ والثّوابُ، ومَن شاء أن يكفر به فلْيكفر؛ فإنَّ عاقبتَه الخُسرانُ والعقابُ(1).

فقد هيّأنا وأعددْنا للكافرين نارًا عظيمةً، أحاط بهم سُرادقُها؛ أيۡ: أحاط بهم سياجُها إحاطةً تامّةً؛ فهم مُحاصَرون فيها من كلِّ جانبٍ، وقولُه: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ بيانٌ لِما يَنزلُ بهم من عذابٍ عندما يطلبون الغوثَ ممّا هم فيه من كروبٍ، و﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾: يُطلَقُ على ما أُذيب من عناصِرِ الأرضِ ومعادِنِها مثلَ الحديد والرَّصاص والنُّحاسِ، ونحوِ ذلك؛ أي إنّ هؤلاء الكافرين إن يطلبوا الغوثَ عمّا هم فيه من كربٍ وعطَشٍ يُغاثوا بماء كالمُهل في شدّة حرارته، هذا الماءُ الذي يحرق الوجوهَ حال اقترابها منه، فهو بئسَ الشّرابُ الّذي يُغاثون به، ﴿وَسَآءَتۡ﴾ النّارُ منزلًا يَنزلون به، و(المُرتفق): المُتّكأُ منَ الارتفاق؛ وهو الاتّكاءُ على مِرۡفق اليد، ومُتّكأً يتَّكئون عليه(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها:

بيانُ مكانةِ الحقِّ تتويجٌ لِما سبقَ منَ الإرشادِ والتَّوجيه

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ عاطفةٌ، والجملةُ معطوفةٌ على الأوامر السّابقةِ، فعطفَ الأمرَ بالإعلام بمجيء الحقِّ منَ الله سبحانه، والحقُّ هو القرآنُ الكريمُ وما يُتلى عليهم؛ لأنّه ذَكَر قبلَها ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾ [الكهف: 27]، وهذا

(1) طنطاويُّ، الوسيط، ص: 2712.
(2) طنطاوي، الوسيط، ص: 2712.

العطفُ يقتضي دخولَ جُملَته في جملة الأوامرِ والنَّواهي السّابقةِ التي هي بمثابة إرشادٍ وتوجيهٍ في كيفيَّة التَّعاملِ مع المخالفين، الذي يُعدُّ تتويجًا لِما سبقَ.

معنَى التّعريفِ في لفْظِ ﴿ٱلْحَقُّ﴾:

القرآنُ بمضامينِه هو الحقُّ منَ الله تعالى

قولُه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ﴾؛ المعنى: وقل لهم يا محمّدُ: هذا الحَقُّ مِنْ رَبِّكُم؛ أيِّ: هذا القرآنُ، والأمرُ بالإعراض عنكم وترك طاعتكم، وصبِّر النّفسَ مع المؤمنين[1]، وقد أفاد تعريفُ الحقّ هنا التّفخيمَ والتّعظيمَ، فلا شيءَ أحقُّ ممّا جاء من عند الله تعالى؛ وهو القرآن الكريمُ الذي جاءكم بأحقِّ طريقٍ وأصدقِه، وهو طريقُ الرّسول عن جبريل عليه السلام عن الله سبحانه.

بلاغةُ لفظِ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ بين أن تكونَ مُسْندًا إليه ومُسْندًا:

تقديم المُسنَد إليه (الحق) للتَّشويقِ

قُدِّمَ المُسنَدُ إليه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ للتَّشويقِ، فإنَّ السّامع عندما يسمع لفظَ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ بهذا التَّعريف يتشوّقُ لمعرفة الخبرِ، فيأتي الخبر مُتمكّنًا في النَّفسِ، فكلُّ حقٍّ هو من عند الله، ولا حقَّ في الوجود إلا أنْ يكونَ من عندِ الله سبحانه، وهذا على جعْلِ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ مبتدأً.

حذفُ المُسنَدِ إليه لتوجيه الأنظارِ إلى المُسنَدِ

ويجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ على تقدير: (هذا الحَقّ)؛ أيِّ: هذا القرآنُ أو هذا الإعراضُ عنكم، وتركُ الطّاعة لكم وصبرُ النّفس مع المؤمنين[2]، وقال الزَّمخشري: الحقُّ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والمعنى: جاء الحقُّ وزاحتِ العللُ فلم يبقَ إلّا اختيارُكم لأنفسكم ما شئتم منَ الأخذ في طريق النّجاةِ أو في طريق الهلاكِ[3]، وتكونُ نكتةُ الحذفِ توجيهُ الأنظارِ إلى المُسنَدِ، فهو المطلوبُ في

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 513.
(2) ابو حيّان، البحر المحيط: 7/ 168.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 672.

الإيراد، وعلى تقدير تقديم المُسنَد إليه أو حذْفِه؛ فإنَّ النُّكتةَ ظاهرةٌ في بيان أنَّ الحقَّ هو ما كان من عند الله تعالى وحدَه دون سواه، وأنَّ ما يدَّعيه النّاسُ من غير طريقِ القرآنِ، فهو باطلٌ يوصلُ صاحبَه إلى النّار المحيطةِ بالباطل الذي يدَّعونَه.

دلالةُ ﴿مِن﴾ الابتدائيَّةِ:

الحقُّ المعتبَرُ هو ما انتهى إلى المؤمنين منَ القرآن

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾؛ للابتداء، فإنَّ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ ابتداءً هو منَ اللّه تعالى، وكلُّ حقّ في ابتدائِه هو من عندِ اللّه، لكن أراد النَّظمُ هنا القرآنَ، وتقديرُه: هذا الحقُّ؛ أيْ: هذا القرآنُ[1]، ودلَّ حرفُ الابتداء على الانتهاءِ، أيْ: نزلَ الحقُّ منَ اللّه تعالى ليصلَ إلى رسول اللّه ﷺ والمؤمنين، فما بين الابتداء والانتهاءِ يكونُ الحقُّ جليًّا واضحًا، وفيه أنَّ ما انتهى إليه الحقُّ هو الحقُّ المُعتَبَرُ، وما دونَه فهو باطلٌ لا قيمةَ له عندَ اللّه تعالى، ولو تكاثرَ على زعمِه وادِّعائه المُبطِلون.

وجهُ إضافةِ لفْظِ الرّبوبيّةِ إلى كاف خطابِ الجميع:

خالقُ الأكوانِ وصاحبُ الأفضالِ هو الحقيقُ بالعبادةِ والتَّوحيدِ

أُضيفَ لفظُ الرُّبوبيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ إلى ضميرِ الخطاب، والرّبُّ هو المُربّي، وهو الرّازقُ والمُقدِّرُ والقيّومُ، فيكونُ الخطابُ مُستغرقًا للنّاس جميعًا بقرينةِ قولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾؛ فتكونُ إضافةُ لفظِ الرّبوبيّة إلى كاف خطابِ الجميعِ قد أفاد نسبةَ أنّ المُربّيَ والرّازقَ والمُقدّر والقيّومَ، وصاحبَ جميع الأفضالِ عليكم وخالقَها لكم، هو ربُّكم، فمن بابٍ أَوْلى أن يكون صاحبُ هذه الأفضال مُنزّلَ الحقِّ عليكم؛ لتكونوا على الحقِّ وعلى المَحَجَّة البيضاءِ.

معنَى الفاء ودلالتُها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 513.

دلَّتِ الفاءُ على التَّعقيبِ والتَّهديدِ

لترتُّبِ ما بعدَها على ما قبْلَها بطريق التّهديد، والمعنَى؛ أيْ: عقيبَ تحقّقِ أنّ ما أوحيَ إليّ حقٌّ لا ريبَ فيه، وأنّ ذلك الحقَّ من جهة ربّكم، وبعدَ ذلك مَن شاء أن يُؤمن به أو أن يصدّقَك فيه فلْيؤمن، ومَن شاء أن يكفر به أو يُكذِّبَك فيه فلْيفعل[1]، وفي العبارة منَ التَّهديد، وإظهارِ الاستغناء عن متابعتِهم، وعدمِ المُبالاةِ بهم وبإيمانِهم - وجودًا وعدمًا - ما لا يَخفى[2].

بلاغةُ الكنايةِ في التّسويةِ بين الطَّرفَيْن:

استغناءُ الله عن عبادِه، وإظهارُ عدمِ الاكتراثِ

سوَّتِ الآيةُ في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ بين مشيئةِ الإيمان ومشيئةِ الكفرِ للنّاس، والمقصودُ في التّسوية في ذلك عند المُتكلِّم الكنايةُ عن قلَّة الاكتراثِ بفعلِ المُخاطَب؛ أيْ: إنَّ ذلك الإيمانَ أوِ الكفرَ لا يزيدان من مُلكِ الله شيئًا ولا يُنقصان، والله الغنيُّ والنّاسُ همُ الفقراءُ إليه، وجُعلتِ الصّلةُ هنا فعلُ المشيئةِ إيماءً إلى أنَّ رائدَهم في تعيين معبوداتِهم هو مجرّدُ المشيئةِ والهوى بلا دليلٍ[3].

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿فَلۡيُؤۡمِن﴾ و﴿فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾:

إرادةُ الوعدِ والوعيدِ لا طلبُ الفعلِ

فعلُ ﴿فَلۡيُؤۡمِن﴾ وفعلُ ﴿فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ مُستعمَلان كنايةً عنِ الوعد والوعيدِ، وصيغةِ الأمرِ لا لمعنى الطَّلب، فهذه الصّيغةُ وعدٌ ووعيدٌ وليست بتخييرٍ[4]، وقرينةُ عدمِ إرادة الطّلبِ التَّقابلُ وبيانُ عاقبة الفريقيْن، فإنَّ هذا يجعلُ المطلوبَ بصيغة الأمرِ هو لازمَها وهو المعنى الكنائيُّ.

بلاغةُ الاستعارةِ في الأمرِ ﴿فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾:

عدمُ المُبالاة بالكافرين

الأمرُ والتّخييرُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾؛ ليس على

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 219.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 30.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 359.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 107.

حقيقتِه، فالأمرُ بالكفر غيرُ مُراد؛ فهو استعارةٌ للخُذلان والتّخليةِ بتشبيهِ حالِ مَن هو كذلك بحال المأمورِ بالمخالفة، ووجْهُ الشَّبَه هو عدمُ المبالاة والاعتناء به فيهما، وهذا ردٌّ عليهم في دعائِهم إلى طرد الفقراءِ المؤمنين ليجالسوه ويتبعوه، فقيل لهم: إيمانُكم إنّما يعودُ نفعُه عليكم، فلا نبالي به حتى نطردَهم من أجل ذلك[1].

بلاغةُ تقديمِ الجملةِ على الجملةِ المقابلةِ لها:

طلبُ الإيمان بالله هو مِحورُ الرّسالاتِ السّماويّةِ

قُدِّمتْ جملةُ ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن﴾ على جملةِ ﴿وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾؛ لأنّ إيمانَهم مرغوبٌ فيه[2]، وهو سببُ إرسالِ الرُّسلِ بالرّسالاتِ السّماويّة، ودعوةِ النّاس إلى الإيمان ونهْيِهم عنِ الكفر؛ إذ سبقتِ الأوامرُ والنّواهي لنبْذِ الكفر والتزامِ الإيمان وأهلِه؛ بل إنّ محورَ القضيّةِ كلِّها هو طلبُ الإيمان للنّاس، والعبارةُ وإن كانت كنايةً عنِ الوعد والوعيد؛ أيْ: فليخترْ كلُّ امرئٍ لنفسِه ما يجدُه غدًا عندَ اللّه سبحانه[3]؛ إلّا أنَّ فيها إيماءً إلى التَّرغيب في الإيمانِ، وأنَّه وإن كان الأمر اختياريًّا للعبادِ إلّا أنَّ الإيمانَ هو أوّلُ ما يُذكرُ.

فنُّ بديعِ الطِّباقِ في ﴿فَلۡيُؤۡمِن﴾ و﴿فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾:

إحاطةُ الله بمشيئاتِ عبادِه كلِّها وتسْويتُها في ميزان الله تعالى

في قولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ طِباقٌ بين لفظَيِ الإيمان والكفرِ، "وفاعلُ المشيئةِ في الموضعَيْن ضميرٌ عائدٌ إلى (مَنْ) الموصولةِ في الموضعَيْن"[4]، ويُفيد هذا الأسلوبُ شمولَ كلِّ المشيئاتِ واختياراتِ النّاس؛ فقد شملَ ذلك الطّباقُ مَنْ يؤمنُ وإيمانُه مشوبٌ بالكفر، ظنًّا منه أنّه مُؤمنٌ، فيكونُ ظالمًا لنفسِه، فإنّما يظهرُ ذلك واضحًا جليًّا يومَ القيامة إذْ قال بعدها: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾، وفائدةُ هذا الطِّباق أيضًا التّسويةُ؛ فاللّه

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 30 - 31.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 307.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 513.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 307.

تعالى لا ينتفعُ بإيمان المؤمنين، ولا يضرُّه كُفْرُ الكافرين؛ بل نَفْعُ الإيمان يعودُ عليهم، وضرَرُ الكفرِ يعودُ عليهم كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: 7](1).

علةُ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾:

التّهديدُ لِمَنْ شاء الكُفرَ وتعليلُ استحقاقِه الوعيدَ

جملةُ ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ "مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنّ ما دلَّ عليه الكلامُ من إيكالِ الإيمان والكفر إلى أنفسِهم، وما يُفيدُه مِنَ الوعيد كلاهما يُثيرُ في النّفوس أن يقول قائلٌ: فماذا يُلاقي مَنْ شاء فاستمرَّ على الكفر؟! فيُجاب بأنّ الكفرَ وخيمُ العاقبة عليهم"(2)، فإنّ في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ وعيدٌ شديدٌ، وتأكيدٌ للتّهديدِ وتعليلٌ لِما يُفيده مِنَ الزّجر عنِ الكفر، أو لِما يُفهمُ من ظاهر التّخييرِ في قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾ من عدمِ المُبالاة بكفرِهم، وقلّةِ الاهتمام بزجْرِهم عنه، فإنّ إعدادَ جزائِه من دواعي الإملاءِ والإمهال، وهو تعليلٌ للأمر بما ذُكرَ مِنَ التّخييّر التّهديديِّ(3).

فائدةُ فنِّ اللّفِّ والنّشرِ غيرِ المُرتَّب:

إبرازُ عذابِ الكافرين باعتبارِ أنَّ المُتقدِّمَ هو محضُ تهديدٍ

في الآية مع سابقتها لفٌّ ونشرٌ غيرُ مرتّب؛ إذ بدأ بالمؤمنين وثنَّى بالكافرين، ثمّ بدأ بذكر عاقبةِ الظّالمين، وثنَّى بجزاء المؤمنين، "فلمّا تقدّمَ الإيمانُ والكفرُ، أعقبَ بما أعدّ لهما، فذكر ما أعدّ للكافرين يَلي قوله: ﴿فَلْيَكْفُرْۚ﴾، وأتى بعد ذلك بما أعدَّ للمؤمنين، ولمّا كان الكلامُ مع الكفّار، وفي سياق ما طلبوا منَ الرّسول ﷺ كانت البداءةُ بما أعدَّ لهم أهمَّ وآكدَ(4)، وفائدةُ اللّفِّ والنّشرِ المعكوسِ إبرازُ عذاب الكافرين؛ باعتبارِ أنّ ما سبقَ ليس تخييرًا، وإنّما هو تهديدٌ لهم،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 107.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 308.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 31.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 169.

وأنْ لا سبيلَ لِمَنْ أراد النّجاةَ لنفسه إلا الإيمانُ باللّه سبحانه؛ فحصرَ الكافرين بين طرفَي الإيمان، ممّا أوحى بانحسارِ الكفر وخذلانِه، شاء مَن شاء وأبى مَن أبى.

غرضُ إسنادِ فعلِ (أعدّ) إلى ضميرِ العَظَمَة:

إعدادُ نارِ جهنّمَ لِمَن ظلمَ نفسَه بالكفرِ

قولُه: ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ مأخوذٌ منَ العتاد؛ وهو الشّيءُ المُعدُّ الحاضرُ[1]، وقد أُسندَ ذلك الإعدادُ إلى ضمير العظمة (نا)؛ لبيان شديدِ الاعتناء به؛ وما يتضمّنُه منَ الوعيد العظيم للظّالمين أنّه إعدادُ اللّه تعالى لتلك النّارِ التي جاء وصفُها فيما بعد، فلمّا وصَفَ تَعالى الكفرَ والإيمانَ والباطلَ والحقَّ؛ أتبعه بذِكْر الوعيدِ على الكفرِ والأعمال الباطلةِ، وبذِكْر الوعدِ على الإيمانِ والعمل الصّالح، فقال تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾؛ إذِ المعنى: اعتَدْنا لِمَنْ ظلمَ نفسَه تلك النّارَ التي جاء وصْفُها[2].

سرُّ العُدولِ عن وصْفِ (الكفرِ) إلى وصْفِ (الظُّلم):

الظُّلمُ هو علّةُ الكفرِ الحقيقيّةُ التي بها تتحقّقُ الخسارةُ

بعد أن ذكرَ النَّظمُ الكريمُ صفةَ الكُفر في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾؛ عَدَلَ إلى وصْفِهم بالظّالمين في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾، وذلك أنّ التّعبيرَ عنِ الكافرين بـ(الظّالمين) للتّنبيهِ على أنَّ مشيئةَ الكفر واختيارَه تجاوزٌ عنِ الحدِّ، ووضعٌ للشّيء في غير موضعِه[3]؛ فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾؛ أيْ: أعتدْنا لمَن ظلم نفسَه، ووضع الإيمانَ في غير موضعِه، والأَنَفةَ في غير محلِّها، فعندما استحسن بهواه وأنِفَ عن قَبول الحقِّ وأدارَ ظَهْرَه للإيمان؛ فيكونُ قد ظلم نفسَه ظلمًا عظيمًا، فأخبرَ تعالى أنَه أعدَّ لهؤلاء الأقوام نارًا وهي الجحيمُ[4]، أو يمكنُ أن يكونَ المُرادُ بالظّالمين أهلَ

---

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 513.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 102.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 31.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 102.

الشّركِ؛ لأنَّهم أَوْلَى مَنْ يستحقُّ عذابَ اللّه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13].

ويظهرُ سرُّ العُدولِ عنِ الكفرِ إلى الظُّلم في الانتقال من ذِكْر النّتيجةِ وهي الكفرُ، إلى ذِكْر سببِها وعلّتِها وهو الظُّلمُ.

غرضُ تنكيرِ ﴿نَارًا﴾:

بيانُ عظيمِ شأنِ النّـارِ وما فيها من أهوالٍ

لمّا ذَكَر ﷻ ما أعدّه للظّالمين الذين اشترطوا على رسولِ اللّه ﷺ التَّمايُزَ في العناية بهم واستبعادَ الفقراء منَ المؤمنين؛ فقد توعّدَهم ﷻ بقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾؛ وجاء التّنكيرُ للنّار للتَّهويل والتَّعظيم، ثمّ يأتي وصفُ تلك النّار ليُعلمَ عظيمُ شأنِها وما أعدّ اللّه فيها منَ العذاب المُهين.

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفرَدَةِ الإحاطةِ:

كنايةٌ عنِ اليأس منَ الخلاصِ منَ النّار

وصَفَ تعالى النّارَ بقوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾؛ والسُّرادقُ هو الحجزةُ التي تكونُ حول الفُسطاط، فأثبتَ للنّار شيئًا شبيهًا بذلك يُحيطُ بهم من جميع الجهات، والمُراد أنّه لا مُخلّص لهم منها، ولا فُرْجةَ يتفرَّجون بالنّظرِ إلى ما وراءَها من غير النّارِ؛ بل هي محيطةٌ بهم من كلِّ الجوانب، فهي كنايةٌ عنِ اليأس منَ الخلاصِ منَ النّار.

ويمكنُ أن يُرادَ بالسُّرادق الدّخانُ الذي وصفَه اللّه في قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠﴾ [المُرسَلات: 30] كنايةً عنِ الأبعاد الثّلاثة، فدلّ ذلك على شمول الفضاءِ والإحاطةِ بهم من كلّ جانبٍ؛ لأنّ الدّخانَ لا يتحدّدُ باتّجاه واحدٍ؛ وإنّما تكونُ حركتُه بالاتّجاهات كُلِّها، فيملأُ الفضاءَ كُلَّه، وقالوا هذه الإحاطةُ بهم إنّما تكونُ قبلَ دخولِهم النّارَ، فيغشاهُم هذا الدّخانُ، ويُحيطُ بهم كالسّرادق حولَ الفسطاط[1].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 102.

بلاغةُ تقديمِ ﴿بِهِمۡ﴾ على الفاعلِ ﴿سُرَادِقُهَاۚ﴾:

اختلاطُ الدّخان والنّارِ بأجساد الكافرين وأنفاسِهم

قُدّمَ شبهُ الجملة الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِمۡ﴾ على الفاعل ﴿سُرَادِقُهَاۚ﴾؛ لإفادةِ اختصاصِهم بهذه الإحاطة، وبهذا النّوع منَ العذاب في النّار، فكأنَّ الإحاطةَ لم تكن إلّا لهم، ولعلّ معنَى الإحاطة بالدّخان فيه مدلولٌ أقوى؛ لملاصقةِ ذلك الدّخانِ لأجسادِهم، واختلاطِه بأنفاسِهم، وهذا مُنتزَعٌ من دلالة الباءِ؛ أيْ: أحاط الدُّخان بالأجسادِ حتى تخلَّلَها.

بلاغةُ التّشبيهِ والاستعارةِ في لفظِ ﴿سُرَادِقُهَاۚ﴾:

النّارُ تُحيطُ بالكافرين كخيمةٍ مُغلَقةٍ عليهم

المقصودُ بالسُّرادقِ في قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾؛ أيْ: فُسطاطُها، وهي الخيمةُ؛ إذْ شبّه ما يحيطُ بهم منَ النّار بالسُّرادق[1]؛ فإنّ انتشارَ لهبِ النّار في الجهات شبيهٌ بالسُّرادق، وهو تشبيهٌ مُؤكّدٌ من قَبيل تشبيهِ المُضافِ بالمُضاف إليه؛ أيْ: تشبيهِ السُّرادق بالنّار، ويُطلقُ السُّرادق على الحُجْرة أوِ الحظيرة حول الفُسطاط، للمَنْع منَ الوصولِ إليه[2]، وقيل: هو الخيمةُ، وقيل كذلك: الحُجزةُ؛ أي: الحاجزُ الذي يكون محيطًا بالخَيمة يمنعُ الوصولَ إليها، فقد يكونُ من جنس الفُسطاط أديمًا أو ثوبًا، وقد يكونُ غيرَ ذلك كالخندق[3]، وقيل: هو دخانٌ يحيطُ بالكُفّار قبل دخولِهم النّارَ[4].

إقفالُ النّارِ على الكافرين مثلُ إقفالِ حُجرةٍ على أصحابِها

ويمكنُ أن يكونَ السّرادقُ في الآية هنا تخْييلًا لاستعارةٍ مَكنيّةٍ بتشبيه النّارِ بالدّار[5]، أو تشبيهِها بالحُجْرة؛ فالسّرادقُ هو الجدارُ المحيطُ، تمامًا كالحجرةِ التي تدور وتُحيط بالفُسطاط[6]، وأثبت لها

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 672.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 31.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 308.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 672.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 308.

(6) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 513.

سُرادقَ مبالغةً في إحاطة دارِ العذابِ بهم، وشأنُ السّرادق يكونُ في بيوت أهل التّرفِ؛ فإثباتُه لدار العذابِ استعارةٌ تهكميّةٌ[1].

دلالةُ استعمالِ (إنْ) دونَ (إذا) مع تحقُّقِ الاستغاثةِ:

خطابُ المُنكِرين بناءً على اعتقادِهم تهكُّمٌ بهم

تُستعملُ (إنْ) في المعاني محتملةِ الوقوعِ والمشكوكِ في حصولها[2]، وهي على خلاف (إذا) التي تكون للمقطوع بحصوله ولكثيرِ الوقوع[3]، وقد جاءت هُنا (إنْ) مع أنّ الاستغاثةَ حاصلةٌ منهم لا مَحالة؛ لِما يَرون ويذوقون من سوءِ العذابِ في تلك النّارِ المهولة العظيمة؛ وذلك لأنّ الآية خطابٌ لهم، وهم المُنكِرون لهذه النّار، فإنّ جانب الاستغاثة عندهم مشكوكٌ فيه من قِبَلهم؛ بل هو عندهم من قبيل الوهم، فاستعمل (إنْ) للتّعبير عن تلك الاستغاثة في اعتقادِهم؛ فقال: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾، وفيه على هذا استعارةٌ تهكميَّةٌ.

نُكتةُ التّعبير بصيغةِ المضارع ﴿يَسۡتَغِيثُواْ﴾:

الاستغاثةُ مُتجدِّدةٌ ما دامتِ السّماواتُ والأرضُ إلّا ما شاء ربُّك

فائدةُ استعمالِ صيغةِ المُضارع في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ الدّلالةُ على التّجدّدِ والاستمرارِ، فهم دائمو الاستغاثةِ، فلن يُغاثوا إلا بماءٍ كالمُهل، فتزيدُ حاجتُهم إلى إطفاء النّارِ في أجسادِهم، فيستغيثون بماء ليُبرّدوا أجسادَهم، فلا يُغاثون إلا بماءٍ كالمُهل، وهكذا دواليْكَ، كما أنَّ فيها تصويرًا لحالِهم وهم يَستغيثون في النّار والعياذُ باللّه من أهلِها.

دلالةُ بناءِ الفعل للمفعولِ ﴿يُغَاثُواْ﴾:

إغاثةُ أهلِ النّارِ مزيدُ عذابٍ وتجديدُ عقابٍ

عبّر النَّظمُ الكريمُ عن فعل استغاثةِ أهلِ النّار بصيغةِ المَبْنيِّ للمفعول؛ ليدلَّ على هوان حالِهم عند مُغيثِهم، وأنّهم لا مُغيثَ لهم حقيقةً من هذه النّار، إنّما هو عقابٌ وعذابٌ فوق عذابِهم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 308.

(2) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 9/ 4، والعلوي، الطّراز: 3/ 298 - 299.

(3) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 149.

فتكونُ الإغاثةُ تهكُّمًا بهم وبحالِهم، وبناءُ الفعل للمفعول يزيدُ منَ التَّهكُّم بحالِهم.

فنُّ الجناسِ بين: ﴿يَسۡتَغِيثُواْ﴾ و﴿يُغَاثُواْ﴾:

تتنوّعُ استغاثةُ أهلِ النّارِ ويتنوّعُ عذابُهم فيها

الجناسُ يدلُّ على سرعة الاستجابة بسبب تتابعِ الكلمتَيْن: ﴿يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ﴾، ويحتملُ أن تكون هذه الاستغاثةُ حقيقيّةً، وأنّهم إذا طلبوا ماءً ليشربوا، أو ليُبرِّدوا أجسادَهم من نار جهنّم فإنّهم سوف يغاثون بهذا المُهْل، قال تعالى: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥﴾ [الغاشية: 4 - 5]، ويحتملُ أن يستغيثوا من حَرّ جهنّم فيطلبوا ماءً يصبّونه على أجسادهم للتّبريد فيُعطون هذا الماء، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [الأعراف: 50]، وقال في آية أخرى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: 50]، فإذا استغاثوا من حرِّ جهنَّمَ صُبَّ عليهم القَطِرانُ الذي يعمّ كلَّ أبدانِهم فتكونُ عليهم كالسّرابيل والقمصان[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكُّميّة في قولِه تعالى: ﴿يُغَاثُواْ﴾:

استغاثةُ الكافرين من شدَّة العذابِ طلبُ زيادةِ العذابِ

قولُه تعالى: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ واردٌ على سبيل الاستهزاء[2]؛ فالاستغاثةُ: طَلَبُ الغوثِ؛ وهو الإنقاذُ من شدَّة حرّ جهنَّمَ على أجسادهم طلبًا بتخفيف الألم، والاستغاثةُ من شدّة العطش النّاشئ عن الحَرِّ فيَسألون الشّراب، وقد أومأ إلى شمولِ الأمرَيْن؛ إذ ذكرَ وصفَيْن لهذا الماء بقوله: ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾، والإغاثةُ مستعارةٌ للزيادة ممّا استُغيثَ من أجله على سبيل التَّهكُّم، وهو من تأكيد الشَّيْء بما يُشبه ضدَّه[3]؛ أيْ: وإن يستغيثوا من شدّة العذاب؛ يَزِدْهم عذابًا وألمًا فوق عذابِهم وآلامِهم.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 103.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 103.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 308.

براعةُ تشبيهِ الماءِ بالمُهْل:

شُبِّه الماءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ بالمُهلِ؛ والتّشبيهُ في سواد اللّونِ وشدّة الحرارةِ، فلا يزيدُهم الماءُ إلا عذابًا، ولذلك عقّبَ بقوله: ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾[1]، والمُهْلُ: ما أُذيبَ من جواهر الأرض، وقيل: دُرْديُّ الزَّيتِ[2]، وقال ابنُ مسعود: هو كُلُّ ما أُذيب من ذهبٍ أو فضّةٍ أو رصاصٍ أو نحوِ هذا منَ الفِلِزِّ حتى يميعَ[3]، فالمُهْلُ صهيرُ المعادن، وفي الآية إشارةٌ علميّةٌ إلى قوله: ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ مع أنّهم يطلبونَه للشُّرب، وبيانُ ذلك أنّ صهيرَ المعادن لشدّة إشعاعِه بالحرارة؛ فإنّه يشوي وجوهَ الذين يقتربون منه يُريدون أن يَشربوا منه فلا يَشربون، ونكتةُ تشبيهِ الماءِ بالمُهْلِ تقريرُ التَّهكُّم؛ فهم يطلبون ماءً فيأتيهمُ الماءُ؛ لكنَّه ليس على الصِّفة الّتي أرادوها؛ بل على صفةٍ أخرى مُنافيةٍ لغايتِهم في طلبِ الماءِ.

إتيانُ المطلوبِ لا على صفةِ طالبِه؛ بل على صفةٍ منافيةٍ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَشۡوِي﴾:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارعِ في قوله تعالى: ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ للدّلالةِ على أنَّ طلبَهم لهذا الماء يتجدَّدُ، ومع تجدُّد طلبِهم للماءِ يتجدَّدُ شويُ وجوهِهم، وهم في كلِّ مرَّة يَطلبون فيه الماءَ تُشوى وجوهُهم، ومع ذلك فلا يتوقّفون عنِ الاستغاثة، كما أنَّ الفعلَ المضارعَ يدلُّ على أنَّ شوْيَ الوجوهِ لا يقعُ دفعةً واحدةً؛ بل شيئًا فشيئًا، وهذه خاصّيَّةُ صهارةِ المعادن أنّها تُشعُّ طاقتُها بسبب انصهارِ المعدن فيها.

نارٌ حارقةٌ لا تفقدُ طاقتَها في التّجدُّدِ والاستمرارِ

معنَى التَّعريفِ والجمعِ في لفظِ ﴿ٱلۡوُجُوهَۚ﴾:

فائدةُ التّعريف في لفظ ﴿ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ التَّعميمُ؛ فكلُّ مَنْ أصابه هذا الماءُ شَوى وجْهَه، وفائدةُ جمعِ الوجوه أنَّها تُصبحُ كالوجه الواحدِ فلا يُعرف أحدٌ منَ الآخر، ولا يُميّزُ أحدٌ منَ الآخر؛ لأنَّ وجوهَهم

تنوُّعُ الوجوهِ في النّار كتنوُّعِها في الدُّنيا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 308.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 672.

(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 513.

تكونُ قدِ انشوتْ وذهب جلدُها، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النّساء: 56]، كما أنَّ الوجوه أنواعٌ يومَ القيامةِ، كما كانت أنواعًا في الدُّنيا في كفرِها ونفاقِها.

بلاغةُ المَجازِ المُرْسَلِ في قوله: ﴿ٱلْوُجُوهَ﴾:

جزاءُ المُعرِضِ بوجهِهِ عنِ الحقِّ تعريضُه للنّارِ في الآخرة

عبَّر بالوجوه في قوله تعالى: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ وأراد جميعَ أبدانهم، والمعنى أنَّه ينضجُ به جميعُ جلودهم كقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ [النّساء: 56][1]، والوجهُ أشدُّ الأعضاء تألُّمًا من حرِّ النّار، قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾ [المؤمنون: 104][2]، وهذا من قَبيل المجازِ المرسلِ، فذكرَ الوجْهَ وأراد الجسدَ كلَّه، وعلاقةُ هذا المجازِ الجزئيّةُ، وفائدتُه أنّه ذكرَ ما يواجهُ به الإنسانُ غيرَه، وما يُعرف به الإنسانُ عن غيره منَ النّاس، فيكونُ أولئك قدِ اختلطت أشكالُهم فلا يُعرف أحدٌ منَ الآخر لبشاعةِ ما قد أصابَهم من شواء الوجوهِ وسلخِها واختلاطِ معالِمها، وخصَّ الوجوهَ هنا؛ لأنّ هؤلاء أعرضوا بوجوهِهم عنِ الإيمان، ولم يُقدّموا شيئًا ابتغاءَ وجهِ اللّه؛ فناسب ذِكْرُ وجوهِهم مجازًا عن جميع أجسادِهم.

نُكتةُ جملةِ ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾:

التّأكيدُ على ذِكْرِ العذابِ المحسوسِ بالعذابِ المعنويِّ

جملةُ ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ "مستأنَفَةٌ ابتدائيّةٌ لتشنيعِ ذلك الماء مشروبًا كما شُنِّع مُغتَسَلًا بقوله: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾، وفي عكسه الماءُ الممدوحُ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ٤٢﴾ [ص: 42]"[3]، وقولُه: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾؛ أي إنَّ الماء الذي هو كالمُهْل بئسَ الشّراب؛ لأنَّ المقصودَ بشُرْب الشّراب تسكينُ الحرارة، وهذا يبلغُ في احتراق الأجسام مبلغًا عظيمًا[4]، ونكتةُ هذه الجملة بعد بيان شَوْيِ الشّراب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 169.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 309.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 309.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 103.

للوجوه؛ التَّأكيدُ على ذلك بذكرِ وصْفٍ معنويٍّ، أيْ: إن لم تعلم بؤسَه؛ فاعلم أنَّه بئسَ الشَّرابُ.

بلاغةُ الحذفِ ونكتةُ العُدول عنِ الماءِ إلى الشَّرابِ:

لا يُغاث أهلُ النّار بماءٍ إنّما بشَرِّ الشّرابِ

المخصوصُ بالذّمِّ في قوله تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ محذوفٌ دلَّ عليهِ قوله: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ﴾؛ والتّقديرُ: (بئس الشّرابُ ذلك الماءُ)، أو (بئسَ الشّرابُ هو)؛ أيِ: الماء الذي يُغاثون به(1)، وحُذفَ لفائدةِ ألّا يُتوهَّم بأنّه (ماء)، فلو قيل: (بئس الشَّرابُ الماءُ الذي يشربون)؛ لتَصَوَّرَ السّامعون أنّه من قَبيل ماءِ الدُّنيا الذي يعرفونه؛ لكنّه ليس بماء أصلًا، إنّما هو بئسَ ما يُشربُ، وإنْ يستغيثوا فإنّما يُغاثون به، فيُجبَرون على شُرْبه ليزدادوا عذابًا فوق عذابِهم، ودلّ على ذلك قولُه: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾.

أثرُ توجيهِ العطفِ وتعيينِ المعطوف عليه في المعنى:

عطفُ الذَّمِّ على الذَّمِّ تشنيعٌ بعد تقريعٍ

جملةُ ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ معطوفةٌ: إمّا على جملةِ ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾؛ فهي عطفُ ذمٍّ على مثلِه؛ وإمّا على جملة ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾؛ وحينئذٍ فمعنى العطفِ يتعيَّنُ بمعنى جملة ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾؛ فإذا جعلناها مستأنَفَةً لإنشاء ذمِّ تلك النّار بما فيها(2)؛ فهي آخذةٌ حُكمَها، وإذا جعلناها حالًا أو صفةً ثانيةً؛ فهي كذلك آخذةٌ حكمَها.

والأَوْلى في ذلك أن تكون معطوفة على ذمٍّ مثلِها؛ وهو قولُه تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾، وتكونُ جملةُ ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ حالًا منَ الماء؛ أيْ: إنْ استغاثوا أُغيثوا بماءٍ مثل المُهَل، حالَ كونِه شاويًا للوجوه، ثم استأنف استئنافًا ابتدائيًّا بقصد الذَّمِّ ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾، وعطف عليه ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 169.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 309.

بلاغةُ ذِكْرِ المُرْتَفَق في حقِّ الكافرين:

لا ارتفاقَ في النّار، وهو محمولٌ على المُشاكَلةِ أوِ التَّهكُّم

معنى ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾؛ أيْ: ساءتِ النّارُ منزلًا ومجتمعًا للرّفقةِ؛ أيْ: مُتكأً منَ المرفق؛ والمُرتفق: الشّيءُ الذي يُرتَفق به؛ أيْ: يُطلبُ رفقُه باتّكاءٍ وغيره[1]، وأصلُ الارتفاق نصبُ المِرْفَق تحت الخَدِّ[2]؛ فهو المُتّكأُ، ولا ارتفاقَ لأهل النّار ولا اتِّكاءَ، فيُسألُ عن سرِّ هذا البيان في شأنِ أهل النّارِ؟ والجوابُ أنَّه محمولٌ إمّا على المشاكلةِ لقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾[3]؛ وإمّا يُحملُ على سبيلِ التّهكُّم بالكافرين[4].

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 514.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 31.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 672.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 31.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ۝٣١﴾ [الكهف: 30 - 31]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ لبيانِ التَّقابُلِ بين الأضدادِ

بعد الإخبارِ عمّا أعدَّ اللّه للكافرين في النّار من عذاب؛ انتقل الذِّكرُ الحكيمُ للإخبار عمّا أعدَّ للمؤمنين من نعيم في الجنَّة، وهذا منَ التَّقابُلِ التَّتميميِّ لبيانِ حالَي النّاس ممَّن شاءَ الإيمانَ، وممَّن شاء الكفرَ، فهو انتقالٌ من بيانِ حالِ أهل الشَّقاوةِ إلى بيانِ حال أهلِ السَّعادة، "فلمّا ذَكَر مكانَ أهلِ الكفر وهو النّارُ؛ ذَكَر مكانَ أهلِ الإيمان؛ وهي جنّاتُ عدنٍ، ولمّا ذَكَر هناك ما يُغاثون به وهو الماءُ كالمُهل؛ ذَكَر هنا ما خُصَّ به أهلُ الجنّة من كون الأنهار تجري من تحتِهم، ثمّ ذَكر ما أنعم عليهم منَ التّحليةِ واللّباسِ اللّذين هما زينةٌ ظاهرةٌ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسَاوِرَ﴾: جَذْرُ الكلمة هو: (سور)؛ والسِّوار: حُليٌّ من ذهب أو فضةٍ يُحيط بموضع منَ الذِّراع[2]، سَوَّرْتُ الجاريةَ، وجاريةٌ مُسَوَّرَةٌ ومخَلْخَلَة، قال: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزُّخرف: 53]، وقولُه: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: 21]، وقولُه تعالى في هذه الآية: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾[3]، أيْ: مُحلّاةٌ بأساورِ الذّهبِ والفِضّة.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 170.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 312.
(3) الرّاغب، المُفرَدات: (سور).

2) ﴿خُضۡرٗا﴾: جَذْرُ الكلمة هو: (خضر)؛ قال تعالى: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾ [الحَجّ: 63]، ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٍ﴾، فَخُضْرٌ جمعُ أخضر، والأخضرُ: لونٌ معروفٌ مُريحٌ للنَّظر، ولذا فإنّ عمومَ لون الشّجر أخضر، وقيل: سوادُ العراق للموضع الذي تكثرُ فيه الخُضْرةُ[1]، واللّون الأَخضرُ بين البياض والسّواد، وربّما سمَّوا الأَسودَ أَخضرَ، ويُسمَّى اللّيلُ أَخضرَ لسواده، وقولُه: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ ٦٤﴾ [الرّحمن: 64]: خضراوان؛ لأَنّهما تضربان إلى السّواد من شدَّة الرّيّ، وقولُه تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا﴾ [الأنعام: 99]؛ قال الأَخفش: يريد الأَخضر؛ أَيْ: ورَقًا أَخضر، وكلُّ شيءٍ ناعم فهو خَضِر، يقال: أَخذ الشّيءَ خِضْرًا مِضْرًا؛ أَي: غضًّا طَريًّا، وخُذْهُ خِضْرًا مِضْرًا؛ أَيْ: هنيئًا مريئًا[2]، ويمكنُ أن يجمع المعنيَيْن فيكونُ فوق لونه المقبولِ للنَّظر ناعمَ الملمس غضًّا طريًّا، ويؤكّدُ ذلك قولُه: ﴿مِّن سُندُسٍ﴾؛ وهو الثّوبُ النّاعمُ.

3) ﴿سُندُسٍ﴾: السُّندس: نمارقُ منَ الحَرير[3]، وقيل: صنفٌ منَ الثّياب؛ وهو رقيقُ الدّيباج[4]، وقولُه: ﴿مِّن سُندُسٍ وَإِسۡتَبۡرَقٍ﴾.

4) ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٍ﴾: الإسْتَبْرَقُ: قيل: فارسيٌّ مُعرَّبٌ، وتصغيرُه: أبَيْرِقٌ[5]، قال الزّجّاج في قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ﴾ [الإنسان: 21] هو الدّيباج الصَّفيقُ الحسَنُ، وهو ما غلُظ منَ الحرير والإبْرَيْسَم[6]؛ وهو الدّيباجُ الغليظُ المنسوجُ بخيوط الذّهب، يُلبس فوق الثّيابِ المُباشرةِ للجلد[7].

5) ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾: جَذْرُ الكلمة هو (تكأ)؛ قالَ الخطابيّ: كلّ مُعْتَمِدٍ على شَيْء مُتَمَكنٍ مِنْهُ فَهو مُتّكِئٌ[8]، والمُتَّكَأ: المكانُ الذي يُتّكأُ عليه، والمِخَدَّةُ: المُتّكأ عليها، قال تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا﴾ [طه: 18]، وقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾ [الطّور: 20]، وقال: ﴿عَلَى

---

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (سور).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (خضر).
(3) الكفويّ، الكلّيّات: (سندس).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سندس).
(5) أبو بكر الرّازيّ، مختار الصّحاح: (استبرق).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (استبرق).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 313.
(8) عياض، مشارق الأنوار: (تكأ).

﴿ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦﴾ [يس: 56]، وقال: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾ [الواقعة: 16][1].

6) ﴿ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾: جَذْرُ الكلمة هو: (أرك)؛ والأريكةُ: حِجْلة حَجَلة على سرير، وجمعُها: أرائِك[2]، والحِجْلة الحَجَلة: قُبَّةٌ من ثيابٍ تكونُ في البيت، تجلسُ فيها المرأةُ أو تنامُ فيها، ولذلك يُقال للنّساء: ربّات الحِجال، فإذا وُضع فيها سريرٌ للاتّكاء أوِ الاضطجاع؛ فهي أريكةٌ، ويجلسُ فيها الرَّجُل وينامُ مع المرأة، وذلك من شعار أهلِ التَّرَف[3]، وسُمّيتِ الأريكةُ بذلك؛ إمّا لكونِها في الأرض مُتَّخذةً من أراكٍ، وهو شجرةٌ معروفةٌ، أو لكونِها مكانًا للإقامة[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أهلُ الجنّةِ في نعيمٍ مقيمٍ لا يَتحوّلون عنه

اشتملتِ الآيةُ الكريمةُ على ألوانٍ متعدّدةٍ منَ التّكريم والثّوابِ لِمن اختار الإيمانَ طريقًا لهم موصلةً إلى الجنّة، فقد بيّن سبحانه في هذه القطعةِ القرآنيّةِ حُسنَ عاقبتِهم، فاللّه تعالى ضامنٌ لهم أجرَهم وحقَّهم، بما أعدّه لهم من ألوان النّعيم في الآخرة؛ في جنّات الإقامةِ، فلا رحيلَ بعدها ولا تحوُّلَ عنها، فكما أنّهم ثبتوا على الاستقامةِ والعملِ الصّالح فإنّهم سيُجزَون بجناتٍ يُقيمون فيها إقامةً دائمةً، تجري من تحت مساكنِهم الأنهارُ، ويُحلّون في تلك الجنّاتِ بأساورَ من ذهب على سبيل التّزيُّن والتّكريم، هذا فضلًا عن جميلِ الثّياب؛ إذ يتزيّنون فيها بأساورَ من ذهبٍ، ويلبسون فيها ثيابًا خُضرًا من رقيقِ الحرير ومن غليظِه، أمّا جلوسُهم فإنّهم مُتّكئون في الجنّاتِ على الأرائك شأنَ المتنعّمين المترفِّهين؛ وذلك

(1) الرّاغب، المُفرَدات: (تكأ).
(2) الرّاغب، المُفرَدات: (أرك).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 314.
(4) الرّاغب، المُفرَدات: (أرك).

هو ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ ذلك الذي وعدَهم الله به وهو الجنّةُ ونعيمُها، ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾؛ أي: حَسُنت مجالسُهم استقرارًا ومسكنًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الجملةِ عنِ السّابق:

وصْفُ عذابِ أهلِ النّارِ يُحرِّكُ الأذهانَ للسّؤالِ عن نعيمِ الأبرارِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا مُراعًى فيه حالُ السّامعين منَ المؤمنين، فإنّهم حين يسمعون ما أُعدّ للمشركين تَوجَلُ قلوبُهم خوفًا، وتتَشوّفُ نفوسُهم طمعًا إلى معرفة ما أُعدَّ للّذين آمنوا، وجريًا على عادة القرآنِ في تعقيب الوعيد بالوعد، والتّرهيب بالتّرغيب[2]، فالفَصْلُ بين الجُملتيْن لشِبْه كمالِ الاتّصال بينهما؛ والجملةُ الثّانيةُ بمنزلة جوابٍ عن سؤالٍ افتراضيٍّ يُفهمُ منَ الجملة الأولى، فإنْ كان هذا عذابَ الذين ظلموا فما بالُ المؤمنين وكيف سيكونُ حالُهم يومَ القيامة؟ فالجملةُ تعليلٌ للحثّ على الإيمان المفهومِ منَ التّخييرِ المُتقدّمِ بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾"[3].

بلاغةُ التّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

تحقُّقُ الوعدِ والوعيدِ

افتُتِحت جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بحرف التّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾؛ وذلك لتحقيق مضمونِها، وتكرَّرُ حرفِ (إنَّ) في الجملة المُخبَر بها عنِ المبتدأ الواقعِ في الجملةِ الأولى لمزيد العنايةِ والتّحقيقِ[4]؛ فهي توكيدٌ لتحقيقِ وعْدِ الله للمؤمنين ووعيدِه على الكافرين.

---

(1) طنطاويّ، الوسيط: 8/ 511 - 512.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 310.

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 31.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 310.

بَلاغةُ اختلافِ التّقسيمِ في التّعبيرِ عنِ الظّالمين والمؤمنين:

وعيدُ الكافرين مشوبٌ بالتَّرغيب في التَّوبةِ، ووعدُ المؤمنين تثبيتٌ للطُّمأنينةِ

في إخبارِ اللّه عن شأنِ الظالمين قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾، ففيه منَ التّهديد والوعيد ما لا يخفَى، والفعلُ الماضي يدلُّ على قِدَم ما أودعَ اللّه في النّار من أسباب العذاب، ولإفادةِ أنَّ هذا الذي أُعِدَّ لهم بإمكان الكافرِ أن ينأى بنفسِه عنه، فيتركَ أسبابَه ويُقبلَ على التَّوبة، بينما في شأنِ المؤمنين قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فعبّرَ بالاسم ليدلّ على الرّسوخ والثّباتِ لِما سيأتي وصفُهُ منَ النّعيم؛ فلم يَقُلْ: (إنّا أعتدنا للمؤمنين) كما قال في شأن الظّالمين، وذلك لبيانِ أنَّهم راسخون في الجنَّة، وأنَّ اللّه تعالى لا يُضيعُ أجرَهم بما قدَّموه منَ الأعمالِ الصّالحةِ؛ ففيه توريثُ الطُّمأنينةِ والسَّكينة؛ فإنَّ شأنَ العباد في الدُّنيا كثرةُ السُّؤالِ عنِ المَسَرّات لجلبِ الطُّمأنينة؛ فإذا أُجيبوا اطمأنّوا.

نُكتةُ حذفِ مُتعلّقِ فعلِ الإيمان:

إذا أُطلقَ الإيمانُ يُرادُ منه الإيمانُ باللّه تعالى

لم يُذكرْ متعلّقُ الإيمان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ فلم يَقُلْ: (إنَّ الذين آمنوا باللّه)، ونُكتةُ ذلك أنّه لمّا سبقَ أن ذكرَ قولَه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾، ثمّ قال: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾، فإنّه استغنَى هنا عن ذِكْر متعلِّقِ الايمان؛ لأنّه قد سَبق وعُلمَ ذلك من ذِكْر المؤمنين باللّه، وليكونَ إطلاقُ الإيمان مُنصرِفًا في الأذهان إلى شيءٍ واحدٍ وهو الإيمانُ الحقُّ الذي إذا أُطلقَ لا يكونُ إلا للّه تعالى.

بلاغةُ تركيبِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الإيمانُ والعملُ الصّالحُ بينهما تلازمٌ اقترانيٌّ يُنتجُ معيارًا للقَبولِ

جرى هذا التّعبيرُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مجرَى التّركيبِ الاصطلاحيِّ، فهو إطلاقٌ على طائفةٍ منَ النّاس همُ المؤمنون أوِ المُصلِحون، وقد ورد هذا التّركيبُ في القرآن كثيرًا، فارتبط مدحُ الايمان بالعمل الصّالحِ، فهما لا يفترقان، فمَن ادّعى

الإيمانَ عليه أن يُصدّقَ ادّعاءَه بالعمل الصّالح، وتكمُنُ بلاغتُه في قَرْنِ الإيمان بالعمل الصّالح اقترانًا تلازُميًّا بحيث يُنتجان مفهومًا واحدًا يشملُ الإيمانَ والعملَ الصّالح معًا.

بَلاغةُ تَكرارِ (إنَّ):

تأكيدُ قبولِ الأعمالِ ببيانِ عدْلِ الله تعالى وفضْلِه

موقعُ (إنَّ) الثّانيةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ بليغ؛ لأنّ لجملتِها استقلالًا بمضمونها من حيث هي مفيدةٌ حُكمًا يَعُمُّ ما وقعت خبرًا عنه، فتكونُ أجورُ مَن أحسنوا الأعمالَ في هذه الدّنيا مضمونةً غيرَ مُضيَّعةٍ، فذلك حكمٌ جديرٌ بالتّأكيد لتحقيق حصولِه لِمَن استحقَّه[1]، فأفادت (إنَّ) الثّانيةُ تأكيدًا لقَبولِ أعمالِ المؤمنين والجزاءِ عليها[2]، وذلك بذِكْرِ عدْلِ الله تعالى وفضْلِه على العبادِ، وهذا ما يورِّثُ الطُّمأنينةَ والسَّكينةَ في القلوبِ.

موقعُ جملةِ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ بين الخبريّةِ والاعتراضِ:

التّذكيرُ بجزاءِ الله للمؤمنين ربطٌ للقلوبِ وتسكينٌ للنُّفوس

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾؛ إمّا أن يكونَ خبرًا عن حُكمٍ يعمُّ جزاءَ كلِّ مَن أحسن عملًا وضمانَ أجرِه، والمبتدأُ جملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والعائدُ محذوفٌ تقديرُه: (مَن أحسن عملًا منهم).

وإمّا أنْ يكونَ اعتراضًا مُؤكِّدًا للمعنَى، مُذكّرًا بأفضال الله، مُنبّهًا على حُسن جزائِه بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾[3].

بَلاغةُ مجيءِ المُسنَدِ إليه ضميرَ العظَمة:

أتى المُسنَدُ إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ ضميرَ العظَمة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 310.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 104.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 514.

جزاءُ المؤمنين مضمونٌ بضمانِ الله تعالى لهم

(نا) لتعظيم شأنِ مَن أحسن عملًا، ولبيان عظيم أجورِهم، وأنّه سبحانه لمّا تكفّل بثبات أجورِهم وعدمِ ضياعها فقد ضَمِنَ لهم ذلك ليأتيَهم الأجرُ حتمًا، فهو جزاءٌ مضمونٌ لا يُضاع قطعًا.

بَلاغةُ التَّعريض في ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾:

اللهُ سبحانه وحدَه الذي لا تَضيعُ عندَه أجورُ العاملين

جاء تعبيرُ النَّظم الكريمِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ بالنّفي دون الإثبات؛ دون أن يقول: (إنا نجزي أجر مَن أحسن عملًا)، وفي ذلك تعريضٌ بالذين يعبدون من دون اللّه؛ فتضيعُ حقوقُ تلك العبادة مع آلهتهم التي عبدوها واستعانوا بها، فلا يَلقَون منهم إلّا الخذلانَ المبينَ، وهو تعريضٌ أيضًا بمَنْ يأكلون حقوقَ النّاس، ويُضيعون أجورَ أصحابِ الحقوق، فاللّه سبحانه لا يُضيعُ أجرَ مَنْ آمن وأحسنَ عملًا.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفْظِ الإضاعةِ:

انعدامُ الانتفاعِ بالشَّيء كإضاعتِه وتلَفِه

حقيقةُ الإضاعة إتلافُ الشَّيء من مظنّةِ وجوده، وتُطلقُ مجازًا على انعدام الانتفاعِ بشيء موجود؛ فكأنّه قد ضاع وتلفَ، قال تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ [آل عمران: 195]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: 143]، ويُطلقُ على منع التّمكينِ من شيءٍ والانتفاعِ به تشبيهًا للمَمنوع بالضّائع في اليأس مِنَ التّمكُّن منه كما في هذه الآية؛ فهي استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ إذ صرّح بالمُشبَّه به وحذفَ المُشبّهَ، فاللّه تعالى لا يمنعُ أجورَ المُحسنين؛ أيْ: إنّا لا نَحْرِمُ من أحسنَ عملًا أجرَ عملِه(1).

فائدةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

بيانُ علّةِ استحقاقِ الأجرِ الحَسَنِ

بعد أن قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ كان مقتضَى الظّاهر أن يقول (أجرهم) في قوله تعالى: ﴿أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾؛ لكنَّه عَدَلَ عن مقتضى الظّاهر إلى مُقتَضى الحال؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 310.

وذلك لبيان سببِ ما استحقّوه منَ الأجر؛ وهو حُسنُ عملِهم، وتأكيدُ حُسنِ أعمالهم، وجدارةِ ما استحقّوه منَ الأجر والثّوابِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿مَنْ﴾:

إفـادةُ عمومِ المُحسنين والتَّعريضُ بالمُسيئين

أفاد التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ في قوله: ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ التّعميمَ، ولذلك لم يَقُلْ: (أجرَ الذي أحسن عملًا)؛ فقد يُفهمُ منها نوعٌ منَ المحسنين، كما أنّها تتضمّن معنَى التّعريض بمَنْ لم يُحسنْ عملَه، فمعنى التّعميمِ أنّ هذه الخصلةَ والمُكافأةَ منَ اللّه ليست خاصّة بأولئك الذين قال فيهم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾؛ وإنّما هي عامّةٌ بكلِّ مَن سار على نهجِهم واتّبعَ سبيلَهم، وأفرد الاسمُ الموصولُ ﴿مَنْ﴾ دون (الذين) لفائدةِ أنّ كلَّ إنسان يستطيعُ أن يكون بمفردِه وشخصِه مُحسِنًا في عمله.

نُكتةُ العُدولِ عن صفةِ الصّلاحِ إلى صفةِ الإحسان:

الأعمالُ الصّالحةُ المَبنيَّةُ على الإيمان هي الإحسانُ

لمّا قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فُهِم أنَّهم سينالون الأجرَ والثَّواب على أعمالهم الصّالحة؛ فكان مُقتضى الظّاهر أن يقول: (إنّا لا نضيع أجر مَن صلُح عملًا)؛ لكنَّه عدل إلى صفة الإحسانِ فقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، وذلك لأنّ الإحسانَ هو غايةُ الأعمالِ الصّالحةِ المبنيَّة على الإيمان، فأفاد اختيارُ صفةِ الإحسان بيانَ أنَّ العمل الصّالحَ المَبْنيَّ على الإيمان هو الإحسان، وفيه مزيدُ ثناءٍ على المؤمنين، لأنَّهم مُحسِنون فيما يُقدِّمونه من أعمال.

بَلاغةُ الإطنابِ:

المُداومةُ على الأعمالِ الصّالحةِ شرطُ الختامِ

أطنبَ النَّظمُ الكريمُ في وصفِ المُحسنين بجملة: ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾؛ لأنّ مقتضَى الإيجازِ أن يقول: (أجر المحسنين)، لكنَّ النَّظمَ آثَرَ الإطنابَ؛ فأتى بالاسم الموصولِ ﴿مَنْ﴾ لإشرابه معنَى الشَّرطِ

الضِّمنيّ؛ كأنَّه قال: (إنّا لا نضيع أجرهم إنْ أحسنوا عملًا)، وصلَةُ الموصولِ ﴿أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾؛ لتعليلِ عدمِ إضاعة أجرِهم؛ فهذا الشّرطُ والتَّعليلُ يُشعر بضرورةِ عدمِ الاسترخاءِ للأعمال الصّالحةِ، فإنَّ المداومةَ عليها شرطُ الختامِ.

فائدةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

تفصيلُ الأجرِ المُجمَلِ وعظيمِ التّشويقِ للمؤمنين

فُصلَ قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّ "الجملةَ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًا؛ لأنَّ ما أُجمِلَ من عدم إضاعة أجرِهم يستشرفُ بالسّامعِ إلى ترقُّب ما يُبين هذا الأجرَ"[1]، فهي بيانٌ للأجرِ المُبهَم[2] في الجملةِ السّابقةِ بناءً على ما يترقَّبه السّامعُ منَ المعرفةِ.

فلمّا أثبت اللّه تعالى الأجرَ المُبهمَ إجمالًا بقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ أردفه بالتَّفصيل من وجوه: أوّلُها بيانُ صفة مكانِهم؛ وهو قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وثانيها: بيانُ صفةِ لباسِهم وتَحلّيهم فقال: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾، ثمّ بيّن ثالثًا صفةَ جلوسِهم فقال في صفتِها: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾.

نُكتةُ الإشارةِ بالبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

سُموُّ مكانةِ المؤمنين عندَ الله وعظيمُ منزلتِهم

أُتي باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾؛ لبيانِ بُعدِ منزلةِ المُشار إليه وارتفاعِ مكانته، "وافتتاحُ الجملة باسم الإشارةِ لِما فيه منَ التّنبيه على أنَّ المشارَ إليهم جديرون لِما بعدَ اسم الإشارة لأجلِ الأوصافِ المذكورةِ قبلَ اسمِ الإشارةِ؛ وهي كونُهم آمنوا وعملوا الصّالحات"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 311.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 311.

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ ﴿لَهُمۡ﴾ على المُسنَدِ إليه:

قُدِّم المُسندُ ﴿لَهُمۡ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، والجملةُ كلُّها ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ خبرٌ لاسم الإشارة؛ وذلك لإكرام المؤمنين بتخصيصِهم بتلك الجنّاتِ، أي إنَّه قصرَ المُسنَدَ إليه - وهي تلك الجناتُ - على المُسنَد، ليختصّوا بها، وتكونَ لهم خاصّةً كاستحقاقٍ يُميّزهم لحُسن صنيعِهم في الحياة الدّنيا.

أكرمَ الله تعالى المؤمنين بجنّاتٍ لا يُخرجون منها

نُكتةُ الإضافةِ في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾:

أضيفتْ ﴿جَنَّٰتُ﴾ إلى لفظُ ﴿عَدۡنٖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ والمعنى: جزاؤهم جنّاتُ عدنٍ، ومعنى العَدَن: الإقامةُ، ومنه المَعْدِن؛ لأنّ حجرَه مُقيمٌ فيه ثابتٌ[1]، فيكونُ المعنى؛ أولئك لهم جنّاتُ إقامةٍ دائمةٍ، بمعنى الخلودِ، كما يقال: هذه دارُ إقامةٍ، وهو وصفٌ للجنّاتِ، وهو الأنسبُ بحال الخلودِ لأهلِها، ويجوزُ أن يكونَ اسمًا لموضعٍ مُعيَّنٍ منَ الجنّة وهو وسطُها وأشرفُ أماكنِها[2]، ويجوزُ أن يكونَ هذا الاسمُ للجنّة؛ لأنّ مَن يدخلُها فإنّه مُقيمٌ فيها، لا يرغبُ بالتّحوُّل عنها لِما فيها منَ النّعيم المقيمِ.

وصفُ الإقامةِ الدّائمةِ للجنّاتِ مُناسبٌ لحالِ خلودِ أصحابِها

بَلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع ﴿تَجۡرِي﴾:

تدلُّ صيغةُ المضارع في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ على التّجدّدِ والاستمرارِ في الجريان، فماءُ أنهارها لا ينضبُ ولا يأسُنُ، فهو دائمُ التّدفّق والجريانِ، كما أنَّ فيها تصويرًا لهذه الأنهارِ حالَ جريانِها.

معنَى حرفِ ﴿مِن﴾ ودلالتُه:

حرفُ ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ للابتداءِ، حيث جُعلتِ الأنهارُ تجري من تحتِهم؛ فيكونُ منبعُ هذه الأنهار من

الأنهارُ تجري كأنَّها تنبعُ من تحت أهلِ الجنّةِ

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 514.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 104.

تحتِهم، كأنَّه قال: (تنبعُ فتجري من تحتهم)، وفيها تصويرٌ بليغٌ لجمالِ هذه الأنهارِ التي تنبعُ من تحت أهلِها، أو أن يكونَ الجريانُ مُشبَّهًا بالنَّبعِ، فيكونَ المعنَى: (تجري من تحتهم بسرعةٍ ونقاءٍ كأنَّها تنبعُ من تحتهم).

بلاغةُ التَّعريضِ بإضافةِ الظَّرفِ إلى ضميرِ أهلِ الجنّة:

إغاظةُ المُشركين بتقرير ما أُعِدَّ لأهلِ الجنَّة من الخيراتِ

قولُه تعالى: ﴿مِن تَحۡتِهِمُ﴾ بمنزلة (مِنۡ تَحۡتِها)؛ لأنّ تحت جناتِهم هو تحتٌ لهم، ووجْهُ إيثارِ إضافةِ (تحت) إلى (أصحاب الجنّة) دون (الجنّات) زيادةُ تقريرِ المعنَى الذي أفادتْه اللّامُ الشّبيهةُ بلام المِلك في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ﴾؛ أيِ إنّ ذلك كنايةٌ عن تمليك تلك الجنّاتِ لهم، "فاجتمع في هذا الخبر عدّةُ مُقرِّراتٍ لمضمونِه، وهي: التّأكيدُ مرّتيْن، وذِكْرُ اسمِ الإشارة، ولامُ المِلك، وجرُّ اسم الجهةِ بـ ﴿مِن﴾، وإضافةُ اسمِ الجهة إلى ضميرِهم، والمقصودُ من ذلك: التَّعريضُ بإغاظةِ المشركين لتتقرَّرَ بِشارةُ المؤمنين أتَمَّ تقرُّرٍ"[1].

غرضُ جمعِ ﴿جَنَّٰتُ﴾:

الجنّاتُ أنواعٌ كثيرةٌ ودَرجاتُها مُتباينةٌ

جاءتِ الجنّاتُ جمعًا في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ للتّكثيرِ، ولبيانِ كثرةِ أنواعِ الجنّاتِ التي دخلَها أهلُ الإيمانِ، ولبيانِ عظيمِ ما أصابه المؤمنون منَ الخير والفضلِ والجزاءِ، وقد أجملَ البيانُ القرآنيُّ تفصيلَ أنواعِ تلك الجنّاتِ، دون أن يذكرَها كما كان بالنّسبةِ للأنهارِ في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾ [محمد ﷺ: 15] لكثرتِها وتبايُنِ درجاتِها، ولتشويقِ المؤمنين لِما فيها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 311.

نُكتةُ تقديم ﴿مِن تَحۡتِهِمُ﴾ على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ذكرَ أنَّ من صفاتِ تلك الجنّاتِ أنَّ الأنهارَ تجري من تحت ساكنيها؛ وذلك لأنَّ أفضلَ المساكنِ في الدّنيا البساتينُ التي تجري فيها الأنهارُ[1]، فقدّمَ ﴿مِن تَحۡتِهِمُ﴾؛ لأنّهم قد خُصّوا بتفجيرِ تلك الأنهارِ بمجرّد كينونَتِهم فيها، وهو موطنُ التّرغيبِ والتّشويقِ.

مِهمازُ التّرغيبِ ومَوطنُ التّشويقِ أن تتفجّرَ الأنهارُ من تحت أهلِها

نُكتةُ بناء الفعل المضارع ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ للمفعولِ:

جملةُ ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ في موضع الصِّفة لـ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، والتّحليةُ: التّزيينُ، والحليةُ: الزّينةُ، وأُسندَ الفعلُ إلى المفعول؛ لأنّهم يَجدون أنفسَهم مُحَلّين بتكوينِ اللّه تعالى[2]، وفي المضارع معنَى التّجدّدِ، فتتجدّدُ لهم التّحليةُ باستمرار، وهذا من دواعي التَّرغيبِ في الجنَّة، إذ إنَّ التَّحليةَ بأساورَ من ذهب في الدنيا من شأنِها الثّباتُ لصعوبة التَّجديدِ والتّبديلِ، أمّا الجنَّةُ فقد مُدحت بوجودِ صفةِ تبديلِ الحِلية لأهلِها، وهي صفةٌ عزيزةٌ ونادرةٌ في الدُّنيا.

التّحليةُ كالأوْسمةِ يَستحقُّها أهلُ الجنَّة بدخولِها

نُكتةُ ذِكْرِ قيْدِ ﴿فِيهَا﴾:

أفاد حرفُ الجرِّ (في) الظّرفيّةَ الحقيقيَّةَ في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ﴾؛ ومعنَى ذلك أنّ التّحليةَ تكونُ وهم مُستقرّون فيها، فهي لهم كالوعاء، فمَنْ دخلَ هذه الجنانَ استحقّ التّحليةَ، وما أجملَ أن يُحلَّى الإنسانُ في جنَّةٍ وهو مستقِرٌّ فيها، لا أن يُحلَّى ثمّ يذهبَ إليها.

التّحليةُ في الجنَّة لا كالتَّحليةِ خارجَها ثمّ الذّهابِ إليها

معنَى حرفِ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾:

و﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ مزيدةٌ للتّأكيد على رأي الأخفشِ[3]،

للجنَّةِ ذهبٌ يُحلَّى به أهلُ الجنّةِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 104.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 311.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 171.

ويجوزُ أن تكونَ للابتداء؛ وهو ما ذهب إليه الزّمخشريُّ[1]، وهو مُتعيِّنٌ عند الذين يمنعون زيادتَها في الإثباتِ[2]، فبيّن بأيّ شيء يُحلّون؛ إنّها أساورُ من ذَهَبِ تلكَ الجِنان، وكأنّه ذهبٌ ناشئٌ فيها.

فائدةُ تنكيرِ ﴿أَسَاوِرَ﴾ وجمعِها:

تَشويقُ السّامعِ لمعرفةِ جمالِها وحُسنِها

تنكيرُ ﴿أَسَاوِرَ﴾ لإبهام أمرِها في الحُسن[3]، فتكونُ في موضع تشويقٍ للسّامعِ وترغيبٍ في تحصيلِها، وتعجيبٍ لِما في تلك الجنّاتِ من نعيم مقيم لَمَن يدخلُها منَ المؤمنين، والأساورُ: جمعُ سِوار على غيرِ قياسٍ، وقيل: أصلُهُ جمعُ (أسورة) الذي هو جمعُ (سِوار)، فصيغةُ جَمعِ الجمعِ ﴿أَسَاوِرَ﴾ للإشارة إلى اختلاف أشكالِ ما يُحلَّون به من تلك الأساور، فإنَّ الحِليَةَ تكونُ مُرصَّعةً بأصنافِ اليواقيتِ[4].

معنَى حرفِ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾:

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾: للتّبْيين[5]، ويحتملُ أن تكونَ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ للتّبعيضِ لا للتّبْيين[6].

نُكتةُ الاكتفاءِ بذِكْرِ الذَّهبِ:

مُناسبةُ الذّهبِ للإستبرقِ في التّرصيعِ

ذُكِرَ الذَّهبُ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ اكتفاءً؛ أيْ: من ذهب وفضّة؛ كما اكتُفي في آية سورة الإنسان بذِكْر الفضّة عن ذِكْر الذّهب بقوله: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: 21]، فتكونُ كلُّ آية قد ذَكَرتْ جانبًا منَ التّحلية بالأساور، ولكلٍّ منَ المعدنَين جمالُه الخاصُّ[7]، واكتفى بذِكْر الذّهب تناسبًا مع ذِكْر الإستبرقِ، وهو الدّيباجُ الخَشِنُ الذي يُرصَّعُ بالذّهب.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 312.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 312.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 171.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 312.

دلالةُ الفعلِ المضارع ﴿وَيَلۡبَسُونَ﴾:

دلَّ الفعلُ المضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرًا مِّن سُندُسٍ﴾ على الاستمرارِ التّجدّديِّ، فاللُّبس يتجدّدُ عندهم باستمرارٍ من أنواع اللّباس منَ السُّندس والإستبرق، ولا يُعلمُ سرُّ التّجدّدِ مع الزّمن وسرعةِ ذلك التّجدّد؛ وفائدتُه إمتاعُ النّفس بأجملِ النّظرِ وأبهى الحُلِل، دون سأمٍ منها أوِ اعتيادٍ عليها.

إمتاعُ النَّفسِ بتجديد اللِّباس ودفعِ السَّأمِ

نُكتةُ إسنادِ فعلِ ﴿وَيَلۡبَسُونَ﴾ إلى الفاعل:

اللِّباسُ: سَترُ البدن بثوبٍ من قميص أو إزار أو رداءٍ، وغرضُ اللّباس هو السّترُ والتّجميل، وقد أُسندَ فِعْلُ اللّباس إليهم أنفسِهم؛ لأنّ اللّباسَ فيه من سَتر البدن ممّا يتخيّرون، فإكرامُهم أن يَلبَسوا هم بأنفسِهم ما يشاءون منَ الثّياب، بخلاف التّحليةِ بالأساور، فقد بُنيَتِ التّحليةُ للمفعول؛ لأنّ التّحليةَ للزّينة، فأُكرِموا بأنْ يُحلّوا من جهة فاعلٍ.

لباسُ أهلِ الجنّة يكونُ للسَّترِ والتّزيين

نُكتةُ تنكيرِ ﴿ثِيَابًا﴾ وجمعِه:

الثَّوبُ هو الشّقّةُ منَ النّسيج، والجمعُ والتّنكيرُ للتّكثير في قوله تعالى: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا﴾؛ إذْ لا يُعدُّ ولا يُحصَى ما يكونُ لأهل الجنّة منها، وتَتَجَدّدُ على أجسادهم أنواعُ الثّياب؛ كي لا تسأمَ النّفوسُ منها، ولا تعتادُها العينُ أبدًا.

ثيابُ أهلِ الجنّةِ كثيرةٌ لا تُحصَى

تَوجيهُ تخصيصِ ﴿خُضۡرًا﴾ بالذِّكر:

اللّونُ الأخضرُ أعدلُ الألوانِ وأنفعُها عند البَصَر، ويأتي أيضًا بمعنى الطّريِّ ناعمِ الملمس، وكان من شعار الملوك[1]، قال النّابغةُ الذُّبيانيُّ:

يَصونونَ أجسادًا قديمًا نعيمُها *** بخالِصَةِ الأردانِ خُضرِ المناكِبِ[2]

فوُصِفت الثّيابُ بـ(خضرٍ) للجمعِ بين صفة الطَّراوةِ والجِدّة.

الأخضرُ جمَعَ بين جمالِ اللّونِ وطراوةِ الملَمَسِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 312.

(2) الشَّنْتَمَرِيّ، أشعار الشّعراء السّتّة الجاهليّين، ص: 34.

فائدةُ حرفِ الجرِّ في قوله: ﴿مِّن سُندُسٍ﴾:

جاء حرفُ الجَرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ للبيان، والسُّندسُ: نوعٌ منَ الحرير الطّريِّ الذي يُلبسُ على البدن، ويكونُ تحت الإستبرق الذي يظهرُ خارج البدن.

براعةُ الجمعِ بين السُّندسِ والإستبرق:

طباقٌ بين متقابلَيْن يكتملُ بهما حُسْنُ اللِّباس

جمعَ البيانُ القرآنيُّ بين السُّندس؛ وهو ما رَقّ منَ الدّيباج، وبين الإستبرق؛ وهو الغليظُ منه، جمعًا بين النّوعيْن[1]، وفيها دلالةُ الشُّمول؛ إذْ يَلبَسون ما يشاءون ممّا أنعمَ اللّه عليهم، فبينَ السّندسِ والإستبرقِ طباقٌ في النَّوعِ الواحدِ منَ الثّيابِ؛ إذْ جمعَ بين الرّقيق والغليظِ، وما يسترُ الجسمَ وهو السّندسُ، وما يوضع للزّينة فحسبُ وهو الإستبرقُ، وبهما يكونُ تمامُ اللِّباسِ.

نُكتةُ مجيءِ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ اسمَ فاعلٍ:

بيانُ حالِ أهلِ الجنّةِ منَ النّعيمِ والتّرفِ

جاءت صيغةُ الاتِّكاءِ في قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾ بصيغةِ اسمِ الفاعل للدّلالةِ على أنّ الفعلَ قد وقعَ وانقطعَ[2]، وليدلَّ على تأكيدِ ما سيحدثُ وهو نعيمُهم وترفُهُم بالرّاحةِ والاتّكاءِ على الأرائك، فإذا أُريدَ به معنَى ما هم فيه ولم ينقطعْ، أو ما سيفعلونَه بعدُ ولم يقعْ؛ جرَى مَجْرَى الفعلِ المضارع في عملِه وتقديرِه.

و﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ في موضع الحالِ من ضميرِ ﴿وَيَلۡبَسُونَ﴾[3]، والاتّكاءُ: جِلسةُ الرّاحة والتّرفِ؛ فالآيةُ تصفُ حالَ التّرف عند أهل الجنّةِ، فهم أهلُ السّعادة والتّرفِ والخلودِ والعنايةِ بنعيم اللّه عليهم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 314.

بَلاغةُ الكنايةِ بذِكْر الاتّكاءِ:

خُصّ الاتّكاءُ بالذِّكر لأنّه هيئةُ المُنعَّمين والملوكِ على أسِرَّتِهِم[1]، وهل أنعَمُ وأكرمُ ممّن حازوا المكانةَ العاليةَ عند ربِّهم فرحين بما آتاهم وأكرمَهم؟ فقدِ استحقّ هؤلاء كلَّ أنواعِ التّنعيم منَ اللّه سبحانه، وقد أجزلَ اللّه لهمُ العطاءَ والثّوابَ؛ فذكرَ الاتِّكاءَ كنايةً عنِ التَّرف والنَّعيم.

بيانُ أعظمِ ما يصلُه إنسانٌ منَ التّرف والنّعيمِ

وجْهُ ترتيبِ النِّعَم مع اختلافِ الصّيغِ:

في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ رتّبَ النِّعَمَ تحليةً وملبسًا واتّكاءً بحسبِ هذا التّسلسلِ؛ إذ قدّمَ ذِكْرَ التّحليةِ على اللُّبس؛ لأنّ النّظمَ في صددِ وصْفِ الجنّاتِ؛ فكانت تحليتُهم عنصرًا رئيسًا لَمَن دخلَ هذه الجنانَ، فقال: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا﴾ وكأنّ التّحليةَ صفةٌ لازمةٌ في هذه الجِنان، ثمّ انتقل إلى اللّباس باعتبارِ أنّه صفةُ أهلِ الجنّاتِ، ثمّ انتقلَ إلى الاتّكاء على الأرائكِ وأخّرَه؛ لأنّه جمعَ بين صفتَي الجنّاتِ وأهلِها ليصفَ جلوسَهم وتفاخُرَهم بأنفسِهم.

الجنّةُ مراتبُ عاليةٌ ونعيمُها درجاتٌ مُتدانيةٌ

وبُنِيَ فعلُ ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ للمفعول وفعلُ ﴿وَيَلۡبَسُونَ﴾ للفاعل؛ إذْ أضاف اللُّبسَ إليهم لاحتمال أن يكونَ اللِّبسَ إشارةً إلى ما استوجبوه بعملِهم، وأن يكونَ الحُليُّ إشارةً إلى ما تفضَّل اللّه عليهم ابتداءً من زوائد الكرم[2]، فمَن دخل الجنّةَ حُلّيَ فيها كوسامٍ يستحقُّه، وجاء الاتّكاءُ باسم الفاعلِ لبيانِ أنّه حركةٌ إراديَّةٌ تنشأُ بعدَ التَّنعُّم بنعيمِ أهلِ الجنَّةِ.

تَوجيهُ المُتشابِه اللَّفظيِّ في ترتيب ذِكْرِ النِّعم:

قُدِّم ذِكرُ الحليّ على اللّباس هنا؛ لأنّ ذلك وقَع صفةً للجنّات

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 104.

الكلامُ في سورة الإنسانِ جرَى على أصحاب الجنّةِ لا على الجنّةِ نفسِها

ابتداءً، فقال: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ﴾، وكانت مظاهرُ الحُليّ أبهجَ للجنّات، فقدّم ذِكْرُ الحُليِّ وأُخِّر اللّباس؛ لأنّ اللّباسَ أشدُّ اتّصالًا بأصحاب الجنّةِ لا بمظاهر الجنّةِ، والاتّكاءُ صفةٌ ومظهرٌ مشتركٌ للجنّات وأهلِها، ولكنّه عكسُ ذلك في سورة الإنسان في قوله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ﴾ [الإنسان: 13] وقوله: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١﴾ [الإنسان: 21]؛ لأنّ الكلامَ في سورة الإنسان جرَى على صفات أصحابِ الجنّة لا على الجنّة نفسِها[1]؛ ولهذا فقد خُتِمت بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ٢٢﴾ [الإنسان: 22].

تَوجيهُ المتشابِه اللَّفظيِّ في ذِكْرِ القيْدِ ﴿فِيهَا﴾:

الاكتفاءُ بذِكْرِ القيْدِ في الجملةِ الأولى عن تَكرارِه في الثّانيةِ

يُلاحظُ أنَّ قيدَ ﴿فِيهَا﴾ ذُكِرَ في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا﴾ بينما حُذف بعدَ ﴿وَيَلۡبَسُونَ﴾؛ وسرُّ ذلك أنّ التَّحليةَ تكونُ كالوسام الذي يُحلَّى به أهلُ الجنّة حالَ دخولِهم فيها، فهو أوّلُ ما يوضعُ على أجسادِهم لحظةَ دخولِها، ولذلك بُني الفعلُ للمفعول أيضًا، فتكونُ التّحليةُ عائدةً على الجنّاتِ، أمّا قولُه: ﴿وَيَلۡبَسُونَ﴾؛ فاللّباسُ عائدٌ على الأفراد وممّا يختارونَه وينتقونَه هم، ولذا فلا داعيَ للنَّصِّ عليه، أو أن يكونَ ذلك من قَبيل الاكتفاءِ بذكْرِ القَيْدِ في الجملة الأولى.

دلالةُ حرفِ الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾:

كنايةٌ عنِ الرِّفعةِ والمكانةِ، أو تشبيهٌ بأسيادِ المجالسِ

معنَى الاستعلاء في فعلِ الاتّكاءِ أنّهم سادةُ المجالس؛ فلا يسودُ عليهم أحدٌ منَ الخَلْق، والاستعلاءُ على الأرائك؛ أي: الجلوسُ عليها، فمعنى الاستعلاء هنا حقيقيٌّ أُريد به معنىً ثانٍ مَجازيًّا، وهو الهيمنةُ على المجلس والحديثِ والرّأيِ، من حيث إنّهم لا يَسمعون فيها لغوًا ولا كِذّابًا، فحيث يتّكئون فيها فهُم سادةُ المجلس وأربابُ الحديث

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 314.

فيه، وذلك لا باعتبارِ وجودِ سيادةِ بعضِ أهلِ الجنَّةِ على بعض أهلِها الآخَرين، بل بتشبيه حالِهم كلِّها بحالِ الأسياد في الدُّنيا، وفي ذلك كنايةٌ عن ترفيعِهم وعُلوِّ شأنِهم ومكانتِهم.

معنَى التّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾:

أرائكُ الجنّةِ تتّصفُ بأعلى درجاتِ الكمالِ والرّاحة

﴿ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾ جمعُ (أريكة) وهي سريرٌ في حَجَلَة؛ أمّا للسّريرِ وحدَه فلا يُسمَّى أريكةً[1]، وتعريفُ الأرائك لفائدةِ بيانِ ما لها، ففي التّعريفش منض الدّلالة على الكمالش ما ليس في التّنكير، فهي الأرائكُ الكاملةُ في هذا الوصفِ، و(أل) هنا تُفيدُ الاستغراقَ؛ فهي تستغرقُ كلَّ الأرائك في الجنَّةِ، وهي تستوعبُ جميعَ درجاتِ الجنَّة، وأنَّ لكلِّ أهلٍ درجةَ أرائكَ خاصَّةً بهم، فتلك الأرائكُ التي هي مظهرٌ من مظاهر البذخِ والتّنعّم، هي هنا على أعلى درجاتِ ذلك الوصفِ، ثمّ ما تُقدّمُه منَ الرّاحة التّامّة للمُتّكئين عليها.

عِلّةُ فصلِ جُملةِ ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾:

استئنافُ المدحِ منَ النّعيمِ المُعجَّلِ

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ عن سابقتِها؛ لأنَّها جملةٌ استئنافيَّةٌ، فبعدَ أن ذَكَرَ ما لأهل الجنَّةِ من نعيمٍ، استأنفَ مدحًا لهم، كما سبق بيانُه في جملة أهلِ النّار.

نكتةُ ذِكرِ ﴿ٱلثَّوَابُ﴾ دونَ (الأجر) مع تقدُّمِه:

تقدَّمَ ذِكْرُ الأجرِ في قوله تعالى: ﴿أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾؛ وذلك لتفسيرِ الأجر بأنَّه ثوابٌ؛ وهذا أبلغُ؛ إذِ استحقُّوا الأجرَ؛ فنالوا الثَّوابَ عليه.

نُكتةُ حذفِ المخصوصِ بالمدحِ:

تشويقُ النَّفسِ المؤمنةِ نعمةٌ من نِعمِ القرآنِ على أهلِه

قولُهُ تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ استئنافُ مدحٍ، ومخصوصٌ بالمدح محذوفٌ لدلالةِ ما تقدَّم عليه؛ والتّقديرُ: (نعم الثّواب ما وُعدوا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 104.

به)، أو: (نعمَ الثّوابُ الجنّاتُ الموصوفةُ)[1]، وحذْفُ المخصوص بالمدح أبلغُ من ذِكْره، وذلك لإطلاق المدحِ في الثّواب، فكأنَّه لا أنعمُ منَ الثّواب الذي يُثابوه، ولتذهبَ النَّفسُ فيه مذاهبَ الجمال والجلال.

بلاغةُ التّرديدِ في لفْظِ ﴿مُرۡتَفَقًا﴾:

ارتفاقُ أهلِ الجنَّةِ حقيقةٌ وارتفاقُ أهلِ النّارِ مَجازٌ

وفي القطعةِ القرآنيةِ ما يُسمّيه البلاغيّون بـ(التّرديد)[2]، فـ (المرتفق) في قوله: ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ لأهل الجنَّةِ مُستعمَلٌ في معناه الحقيقيِّ، بخلاف مقابِلِه المُتقدِّمِ في قوله: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ لأهلِ النّار[3]، فهو مُستعمَلٌ في معناه المجازيِّ، وهو التَّهكّمُ بأهلِ النّار، وهذا قريبٌ منَ الطِّباق المَعنويِّ في المآل.

فنُّ الاستتْباعِ في الآية:

تَوالي المَدْحِ لأهلِ الجنّة، وتَوالي الذَّمِّ لأهلِ النّارِ

الاستتْباعُ: هو المدحُ بشيءٍ على وجهٍ يَستتبعُ مَدْحًا آخرَ[4]، أو: هو الوصْفُ بشيءٍ على وجهٍ يَستتبعُ الوصفَ بشيءٍ آخرَ، مدحًا أو ذمًّا[5]، وهذا ظاهرٌ في الآيتَيْن الكريمتَيْن حيث استتبعَ مدْحًا في الوصْف تلو المدح في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 172، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 314.

(2) فنُّ التَّرديد أحد فنون علم البديع، ويعتمد في أساسه التكرار اللفظي، وهو أن يُعلِّقَ المُتكلِّم لفظةً من الكلام بمعنًى، ثم يردّها بعينها ويُعلّقها بمعنًى آخر، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: 124]، يُنظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التّحبير، ص: 44.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 314.

(4) السَّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 428.

(5) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 317.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحريرُ والسُّندسُ والإستبرقُ:

السّندسُ: نمارقُ منَ الحرير[1]؛ وهو رقيقُ الدّيباج، وفي تفسير الإستبرق: إنّه غليظُ الدّيباج[2]، وأصلُ كلمتيَ سندسٍ وإستبرقٍ فارسيٌّ، فالسُّندسُ يُلبسُ على الجسد مباشرةً ويُلامسُه، بينما الإستبرقُ يكونُ لبسُه فوقَ الثّياب كلباسٍ خارجيٍّ يحوي النّقشَ والتّطريزَ والزّينةَ، والحريرُ اسمٌ جامعٌ لهما.

السُّندسُ رقيقُ الحرير، والإستبرقُ غليظُه، والحريرُ اسمٌ عليهما

(1) الكَفَويّ، الكُلّيّات، ص: 519.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 13/ 106.

﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف: 32 - 34]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من وصفِ الفريقيْن إلى التّمثيلِ بهما

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ حالَ الفريقَيْن من أهل النّارِ وأهلِ الجنَّة في الدّنيا والآخرة، ناسبَ أن يَذكرَ مَثَلًا يَستوعبُ الفريقَيْن، فكان ذِكْرُ ضَرْبِ مَثَلِ الرّجلَيْن مناسبًا للفريقَيْن؛ لبيانِ الحالِ في الدُّنيا قبل أن ينقلبَ الإنسانُ على وجهِه فيخسرَ الدُّنيا والآخرة، فهو انتقالٌ منَ الحديث عن واقع أهلِ الجنّةِ وأهلِ النّار في الدّنيا والآخرة، إلى التّمثيلِ بهما؛ ليقعَ الاعتبارُ وتقوى الفطنةُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا﴾: من دلالات الأصل (حفف) الإحاطة، وطواف الشيء بالشيء[1]؛ يُقال: حَفَوْا به واحْتَفوْا، أي: أطافوا، وهم حافّون به، وقوله ﷺ: "حُفَّت الجنَّة بالمكاره، وحُفَّتِ النّار بالشَّهَوات"[2]؛ أيْ: أُحيطت الجنّةُ بما يكرهُه الإنسانُ، وأُحيطت النّارُ بما تميل إليه النّفسُ، وما تجنحُ إليه منَ الشّهوات، وقولُه هنا: ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾[3]، وقولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الزُّمر: 75]؛ أيْ: مُطيفين بِحافَّتَيْهِ؛ أيْ: جانبيْه[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حفف).
(2) مسلم، صحيح مسلم، باب: حُفّت الجنّة بالمكاره، الحديث رقم: (7232).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حفف).
(4) الرّاغب، المُفرَدات: (حفف).

2) ﴿أُكُلَهَا﴾: الأُكُل بالضّم يعني الثَّمرةَ، وقولُه تعالى هنا: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾؛ أيْ: ثمرتَها، وقولُه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرّعد: 35]؛ يعني: ثمرتَها، وقولُه: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرّعد: 4]، ونظائرُها في سورة سبأ وإبراهيم[1]، والأُكُلُ ثَمَرُ النّخل والشّجرِ، وكلُّ مأكولٍ أُكُلٌ؛ ومنه قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: 35][2].

3) ﴿ثَمَرٌ﴾: الثَّمَرُ اسمٌ لكلّ ما يُتطعَّمُ من أحمالِ الشّجرِ، والواحدةُ: ثَمَرَةٌ، والجمعُ: ثِمارٌ وثَمَراتٌ، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 22]، وقولِه: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ [النّحل: 67]، وقولِه: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 99]، وقولِه: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الرّعد: 3]، والثَّمَرُ قيل: هو الثِّمارُ، وقيل: هو جَمعُه، ويُكنَّى به عنِ المالِ المُستفادِ، وعلى ذلك حملَ ابنُ عباس: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾، ويُقال: ثَمَّرَ اللّه مالَه، ويُقال لكلّ نفعٍ يصدر عن شيءٍ: ثَمَرَةٌ؛ كقولك: ثمرةُ العِلْمِ العملُ الصّالحُ، وثمرةُ العملِ الصّالحِ الجنّةُ[3]، الثَّمرُ: حملُ الشَّجرِ، والثَّمَرُ: أنواعُ المالِ، والولَدُ ثَمَرةُ القَلْبِ، وأثْمَرَتِ الشّجرةُ[4].

4) ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾: من دلالات الأصل (حور) الدّوران والإياب والتّردُّدُ[5]، إمّا بالذّات وإمّا بالفكر، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾ [الانشقاق: 14]؛ أيْ: لن يُبعثَ، وحارَ الماءُ في الغدير: تردّدَ فيه، وحارَ في أمره: تحيّرَ، ومنه: المِحْوَرُ للعود الذي تجري عليه البَكرةُ لتردّدِه، والقومُ في حَوَرٍ؛ أيْ: في تردّدٍ إلى نقصان، والمُحاوَرَةُ والحِوارُ: المرادّةُ في الكلام، ومنه التَّحاوُرُ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: 1][6]، وحاورَه محاورةً وحوارًا جاوبَه وجادلَه، وهذا هو المقصودُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: 37][7]، إذْ يتضمّنُ هذا القولُ قناعةً وتأكيدًا وحرصًا على الرّأي.

5) ﴿نَفَرًا﴾: (نفر) أصل صحيح يدلّ على تجافٍ وتباعد، والنَّفَر أيضًا مِنْ قياسِ

(1) الدّامغانيّ، قاموس القرآن: (أكل).
(2) أبو بكر الرّازيّ، مختار الصّحاح: (أكل).
(3) الرّاغب، المُفرَدات: (ثمر).
(4) الخليل، العين: (ثمر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حور).
(6) الرّاغب، المُفرَدات: (حور).
(7) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (حار).

الباب لأنَّهم يَنْفِرونَ لِلنُّصْرَةِ[1]؛ والنَّفَرُ: منَ الثّلاثة إلى العشرة، يُقال: هؤلاءِ عشرةُ نَفَر؛ أيْ: عشرةُ رجال، ولا يُقال: عشرون نفرًا، ولا ما فوقَ العَشَرة، وهؤلاء نَفَرُك؛ أيْ: رَهْطُك الذّين أنتَ منهم، والنَّفرُ النَّفيرُ، والجماعةُ: أنفارٌ، وهمُ الذّين إذا حَزَبَهُم أمرٌ اجتمعوا ونفروا إلى عدوّهم[2]، ويُقال: (ونفرنا خُلوف)؛ أيْ: جماعتنا ورجالنا مسافرون، والخُلوف: الَّذين غابَ رِجالهم عَن نِسائِهِم[3]، وقوله في الآية: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾؛ يعني: الأنصارَ والخَدَم[4].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

الخطابُ للرَّسول ﷺ في أن يضربَ مثلًا لقومه؛ للمؤمنين منهم والكافرين؛ أيْ: واضربْ لهم مثلًا من حيثيّةِ العصيانِ مع النّعمةِ، والطّاعةِ مع الفقر، حالَ رَجُلَيْن: جعلْنا للكافر منهما جنَّتَيْن، اشتملتا على خيراتٍ عظيمةٍ منَ الأعناب، وأحاطَهما بنخلٍ فزادهما بهجةً وفائدةً، وجعلنا بين أشجارهما زرعًا، وبذلك تكونُ الجَنّتان جامعتيْن للأقوات والفواكه، مُشتملَتيْن على ما من شأنِه أن يشرحَ الصَّدرَ نفعًا وسرورًا، ثم بيّنَ أنّ كلَّ واحدةٍ منَ الجنّتيْن ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ من أصنافِ الثّمارِ والزّروعِ ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ أيْ: ولم تنتقصْ من هذا المأكولِ شيئًا في سائر السِّنين؛ بل كان أكلُ كلِّ واحدةٍ منهما وافيًا كثيرًا، ثمّ ضمنَ اللّه لهُما وجودَ الماء ودوامَه لغرضِ الرَّيِّ وجودةِ المَنْظر؛ فقال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾؛ ليصلَ ماءُ النّهرِ إلى كلِّ أشجارها وزروعِها، ثمّ بيّن سبحانه أنّ صاحبَ هاتيْن الجنّتيْن كانت له أموالٌ أخرى غيرُهما فقال: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾؛ أيْ: أموالٌ كثيرةٌ منَ الذّهب والفضّة والحيوانِ وغيرِ ذلك، وقولُه: ﴿فَقَالَ

الدُّنيا مَثَلٌ مبسوطٌ واعتبارٌ منظورٌ لأهل النَّظرِ المبسوطِ والتَّأمُّلِ المنظورِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفر).
(2) الخليل، العين: (نفر).
(3) عياض، مشارق الأنوار: (نفر).
(4) السّيوطيّ، مُعتَرَك الأقران: 3/ 323.

لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾؛ أيْ: فقال صاحبُ الجنَّتيْن لصاحبه المؤمنِ الشّاكرِ: أنا أكثرُ منك مالًا وأعزُّ منك عشيرةً وحَشَمًا وأعوانًا، وهذا شأنُ مَن غمرتْهم شهواتُ الدُّنيا وزينتُها بَطَرًا وفسادًا في الأرض[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في قولِه تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾:

أحوالُ النّاسِ في الدّنيا

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا﴾؛ إمّا أن تكون واو عطْفٍ على جملة: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾؛ فإنّه بعدَ بيانِ ما أعدّ اللّه تعالى لأهل الشّرك منَ العذاب، وذكْرِ ما يقابلُه ممّا أعدّه للّذين آمنوا منَ الثّواب، ضربَ مثلًا لحال الفريقيْن بمثل قصّةٍ أظهرَ اللّه فيها تأييدَه ومدْحَه للمؤمن، وإهانتَه وعقابَه للكافر[2]، وهي قريبةٌ من عطْفِ القصَّة على القصَّة.

وإمّا أن تكونَ واو الاستئناف[3]؛ فلا علاقةَ لِما بعدَها بما قبْلَها، فلمّا انتهى من وصْفِ أحوالِ أهلِ النّارِ وأحوالِ أهلِ الجنّة انتقل لضربِ مثالٍ أرضيٍّ دُنيويٍّ، وبيانِ أحوالِ النّاس في الدّنيا بين مؤمنٍ شاكرٍ لنِعَم اللّه، وكافرٍ مُنكرٍ لها.

غرضُ فعْلِ الأمرِ ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾:

بيانُ منهجيْن متناقضَيْن في الحياة للبيانِ والتّوضيحِ

خرج الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا﴾ إلى معنى التّبْيين والتّوضيح للفريقيْن منَ المُشركين والمؤمنين بمَثَلِ رجليْن كان حالُ أحدِهما مُعجبًا مؤنقًا، وحالُ الآخر بخلاف ذلك؛ فكانت عاقبةُ صاحبِ الحالِ المؤنقةِ تَبابًا وخسارةً، وكانت عاقبةُ الآخر نجاحًا؛ ليظهرَ للفريقيْن ما يجرُّه الغرورُ والإعجابُ إلى صاحبه منَ المهالك،

(1) طنطاويّ، الوسيط، ص: 2714.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 315.
(3) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 182.

وما يلقاه المؤمنُ الحصيفُ العارفُ بسُنن اللّه منَ التّذكير والتّدبّرِ في العواقبِ، فيكونُ مُعرّضًا للصّلاح والنّجاحِ[1].

نُكتةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ ﴿لَهُم﴾:

العنايةُ بالمُعاصِرين لنزولِ الخطابِ

قُدّمَ ﴿لَهُم﴾ على المفعولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا﴾؛ ليدلَّ على الاهتمامِ بالمَعْنيّين بهذا المثلِ، وهم مَنْ ذُكر سابقًا بخطاب النّبيّ مبتدئًا من قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾، وقولِه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾، فاهتمَّ بهؤلاء الذين عاصروا التّنزيلَ بهذا الخطاب، ثُمّ صار المثلُ سائرًا على جميع مَن كان حالُه كحالِ أحدِ الرّجلَيْن.

تعيينُ مَرجعِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿لَهُم﴾:

النّاسُ جميعًا مَعْنيّون ويدخلُ المذكورون في السّياق دخولًا أوّليًّا

الضَّميرُ في قوله: ﴿لَهُم﴾ يحتملُ أن يكون عائدًا على المشركين من أهل مكّة المُتجبّرين الطّالبين منَ الرّسول ﷺ طردَ الضّعفاءِ المؤمنين، فمثلُ الرّجلِ الكافر بإزاء المتجبّرين، والرّجلِ المؤمن بإزاء ضعفاءِ المؤمنين، وظهر بضرب هذا المثلِ الرّبطُ بين هذه الآية والتي قبلها؛ إذ كان مَن أشركَ إنّما افتخرَ بماله وأنصاره، وهذا قد يزولُ فيصيرُ الغنيّ فقيرًا، وإنّما المفاخرةُ بطاعة اللّه تعالى، والتّقديرُ: (واضربْ لهم مثلًا قصّةَ رجُليْن)[2]، فبيّنَ أنّ النّاس ينقسمون إلى فُسطاطَيْن؛ الأوّل: مؤمن، والثّاني: غافلٌ كافرٌ معاندٌ، فمجموع هؤلاء قال فيهم هُنا: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾؛ أيّ: لهؤلاء جميعًا؛ مؤمنِهم وكافرِهم، فهو قد شملَهم كُلَّهم لضرورة أن يسمعَ هذا المَثَلَ كلُّ واحد، فيكونَ الضّربُ وحيًا ممّا أوحاه اللّه تعالى؛ ليتعبّدَ به النّاسُ منَ المؤمنين، وليعلمَ كلُّ واحدٍ منهم أين يكونُ مكانُه، وما هو مقامُه في هذا المَثَل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 315.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 173 - 174.

بلاغةُ التّمثيلِ بحال الرّجليْن:

التّمثيلُ لبيانِ جمالِ المعاني وكمالِ الدّلالاتِ

المَثَلُ في اللّغة: الشَّبيهُ والنّظيرُ، وهو الكلامُ البليغُ المشتملُ على تشبيهٍ بديعٍ، وضَرْبُ المَثَلِ: إيرادُه، وعبَّرَ عن إيراده بالضّرب لكثرة تَكرار مثالِه، وشدَّةِ ما يحدثُ عنه منَ التّأثير في نفسِ السّامع[1]، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا﴾ إنْ كانَ حالُ هذيْن الرَّجُليْن المُمثَّلُ به حالًا معروفًا؛ فالكلامُ تمثيلُ حالٍ محسوسٍ بحالٍ محسوسٍ[2]، وإن كان حالُ الرّجليْن حالًا مفروضًا؛ فالكلامُ على كلّ حالٍ تمثيلُ محسوسٍ بمحسوسٍ؛ لأنّ تلك الحالةَ مُتصوَّرةٌ مُتخيَّلةٌ، فهذه الهيئةُ التي ذكرَها اللّه تعالى لا يكاد المرءُ يتخيَّلُ أجملَ منها في مكاسب النّاسِ[3].

نُكتةُ التّعبيرِ بالجَعْلِ دون الإنعامِ:

رزقُ الله تعالى مبنيٌّ على السُّننِ الكونيّةِ

معنَى ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا﴾: قدّرنا له أسبابَ ذلك، ومعنَى ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾: ألهمناه أن يجعلَ بينهما[4]، والجَعْلُ يُفيدُ قيامَ سُنّةٍ كونيّةٍ، فجعلَ اللّه تعالى هذه الزّروعَ تنمو على أفضلِ وجْهٍ وهي بهذا التّرتيبِ وعلى هذه الهيئةِ، فقال على التّرتيب: ﴿جَعَلۡنَا﴾ و﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا﴾ و﴿وَجَعَلۡنَا﴾؛ ليدلَّ على تلك السُّنّةِ في الخَلْق، فأتى بالجَعْل لبيان معنى التّصْيير، وأنَّ ما يكونُ للنّاس في الدُّنيا مُرتَهَنٌ بالسُّنَنِ الكونيَّةِ، لا باعتبارِ الدّينِ والإيمان.

غرضُ تقديم ﴿لِأَحَدِهِمَا﴾ على ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾:

مراعاةُ النَّظْمِ لفهمِ المخاطَبِ في عدمِ الالتباسِ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لِأَحَدِهِمَا﴾ على المفعول في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ﴾ اختصاصًا له بمِلْك الجنّتيْن دون الآخر، وأفاد التّقديمُ تناسُبَ النّظم؛ إذ قدّمَ ﴿لِأَحَدِهِمَا﴾؛ وهو اللّفظُ الدّالُّ على الواحد، وأخَّر ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾ الدّالَّ على اثنيْن، لصرْفِ الخاطرِ أن تكونَ الجنّتان للرّجليْن معًا.

---

(1) طنطاويّ، الوسيط، ص: 2713.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 316.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 515.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 317.

نُكتةُ اختيار لفظِ الجنّةِ دون البُستان:

التَّنبيهُ على مِنَنِ الله تعالى على عبادِه

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ اختيارَ لفظِ الجنَّةِ دون البستان في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ﴾ لفائدةِ وصْفِ تلك الجنةِ بصفاتٍ؛ منها كونُها كثيرةَ الشّجرِ والزّرعِ، وسُمّي البستانُ جنّةً لاستتارِ ما يَستترُ فيها بظلِّ الأشجار، وأصلُ الكلمة منَ السَّترِ والتّغطيّةِ[1]؛ ففيه تنبيهٌ على عظيم المِنَنِ على صاحبها.

فائدةُ جمعِ الأعنابِ:

تـنـوُّعُ أشجار الأعـنـاب وبيانُ اتِّساعِ الجنَّة

جُمعتِ الأعنابُ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾؛ لبيان كثرتها والدّلالةِ على كثافتها بحيث لا يُرى فيها إلّا أشجارُ العنب، فضلًا عن دلالة الجمعِ على تنوّعِ أشجارِ الأعناب وثمارِها التي تُعرف بمئات الأصنافِ، وفيه امتنانٌ على صاحبِها، إذْ لا تكونُ الأعنابُ الكثيرةُ إلّا في البساتين الكبيرةِ.

بَلاغةُ استعمالِ ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا﴾ التّصويريّةُ:

احـتـضـانُ الجنّتيْن بأشجارِ النّخيلِ

قولُه تعالى: ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾ صفةٌ أخرى من صفات هاتيْن الجنّتيْن، فيها منَ الجمال والتّخْييل؛ إذ جعلنا النَّخْلَ محيطًا بالجنَّتيْن، و(الحفافُ) جانبُ الشّيءِ، والأحفّةُ جمع؛ فمعنى قول القائل: (حفّ به القوم)؛ أيْ: صاروا في أحفَّتِه؛ وهي جوانبُه[2]، وقولُه: ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا﴾ بمعنى: وجعلنا ذلك لها من كلِّ جهةٍ[3]، فَصَوَّرتْ كلمةُ ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا﴾ تلك الإحاطةَ الكاملةَ للنّخل بالجنّتيْن، وكأنّ النّخلَ قدِ احتضنَ بتراصِّه وأنساقِه هاتيْن الجنّتيْن، وجعلَهما مثلَ قطعةٍ واحدةٍ مُحاطةٍ بالخير من كلِّ جانبٍ.

معنَى حرفِ الباء في قوله تعالى: ﴿بِنَخۡلٖ﴾:

جاءتِ الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِنَخۡلٖ﴾ للإلصاق، فدلّ التّعبيرُ على

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 515.

أنّ النّخل قد أُلصقت بحافّات الجنّتين وكأنّها قد رَسمت حدودَها تمامًا؛ وذلك لبيان جمال المشهدِ وروعتِه فيهما، و(حفّ) مُتعدٍّ إلى مفعولٍ واحدٍ فتزيدُه الباء مفعولًا ثانيًا، وهذه الصّفةُ ممّا يؤثرُها المزارعون في مزارعِهم، وهي أن يجعلوها محفوفةً بالأشجار المُثمِرة لفوائدَ هي: الإنتاجُ، والحفظُ، وحُسْنُ المنظر[1].

جمالُ المنظرِ واستثمارُ الأرضِ

نُكتةُ استعمال (النّخلِ) دون (النّخيل):

لفظُ (النّخل) يدلُّ على الأكثرِ من (النّخيل)، وذلك أنّ النّخلَ اسمُ جنسٍ جمعيٍّ، والنّخيلُ جمع، واسمُ الجنس أشملُ وأعمُّ من الجمع، ذلك أنّ اسمَ الجنس يشملُ المفردَ والمثنّى والجمعَ، ويقعُ على القليل والكثير، ويشملُ النَّخلَ المُثمِرَ وغيرَ المُثمر؛ فأفاد اسمُ الجنس هنا العمومَ.

النّخلُ أعمُّ من النّخيل، وهو المقصودُ في السّياق

فائدةُ استعمال ﴿جَعَلۡنَا﴾ دون مرادفاتِها:

في الآية الكريمة ذُكر الجَعْلُ للجنّتَيْن والزّرع، بينما جُعِلَ الحَفُّ في ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا﴾ للنّخل، وفائدةُ ذلك أنّ (الحَفّ) بالنّخل يمكنُ أن يكونَ أو لا يكون، فهي للزّينة ولرسْم حدودِ الجنّتَيْن، فضلًا عن كون النّخل مُثْمِرًا، بينما (الجَعْل) للجنّتَيْن قد شملَ الأعنابَ؛ فهي أهمُّ أنواع الأشجار والثّمار في الجنّات، فقال: ﴿جَعَلۡنَا﴾ لأهمّيّته وضرورته، أمّا الزّرعُ فيحتاجُ إلى (جعل) آخرَ فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾؛ لأنّه ليس من أصول ما يُزرعُ في الجنة؛ فميّزه عن أشجار الأعناب.

التّمايزُ بين أصنافِ الشّجرِ والزّرعِ

فقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾ المقصودُ منه أمورٌ: **أوّلُها**: أن تكونَ تلك الأرضُ جامعةً للأقوات والفواكه، **وثانيها**: أنّ مثلَ هذه الأرض تأتي في كلّ وقت بمنفعة أخرى وهي ثمرةٌ أخرى، فكانت منافعُها دارّةً متواصلةً[2]، فيكونُ الجَعْلُ للدّلالة على سُنَّةٍ وقانونٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.

في الزّراعة يقدّمُ أمثلَ الحالاتِ الزّراعيّةِ والبيئاتِ المناسبةِ، فقدّمَ بينهما لاختصاصِ المكان بأفضلِ الحالات والبيئاتِ الزّراعيّة، وبذلك فإنّ (الجَعْل) يكونُ لِما هو ضروريٌّ تُستثمرُ فيه أرضُ الجنّات، والحفُّ لِما فيه من تزيينٍ وتصويرٍ جميلٍ لها.

نُكتةُ تقديمِ ﴿بَيۡنَهُمَا﴾ على ﴿زَرۡعٗا﴾:

أُقيمتِ الجنّةُ على نظامٍ هندسيٍّ بديعٍ

قُدّمَ النَّظمُ الكريمُ قيدَ ﴿بَيۡنَهُمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾ على المفعولِ؛ لبيانِ المكانِ الأفضلِ للزّروع، وهو ما يكونُ بين الأشجار قريبًا من مجاري المياه، فقد قال بعدها: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ الجنّةَ أُقيمت على نظامٍ هندسيٍّ مَكينٍ، وهو ما يعكسُ جمالَ هذه الجنَّةِ التي بسببِها ضلَّ صاحبُها، وأُغرقَ في الملذّاتِ.

دلالةُ إسنادِ الأفعالِ إلى الله تعالى:

بيانُ قوانينِ الزّراعةِ والاستثمارِ في الأرض

لمّا قال تعالى في الأولى: ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾؛ أتمّ ذلك الجَعْلَ بقوله: ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾؛ فتكونُ الصّورةُ الأولى قد تمّت؛ وهي واحدةٌ من سُنن الطّبيعة في إنشاء الجِنان، ثمّ أضاف قانونًا زراعيًّا آخرَ بقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾، فكلّما أوردَ بيانَ قانونٍ في الخلق ليدُلَّ على سُنَّةٍ كونيّةٍ في خلقِه وتقديرِه قال: ﴿جَعَلۡنَا﴾، فالقانونُ الأوّلُ هو: أن تكونَ الجنَّةُ من أعنابٍ محفوفةٍ بنخل، فأفرد لها ﴿جَعَلۡنَا﴾؛ ثمّ قدّمَ قانونًا آخر؛ وهو: أسلوبُ استثمارِ الأرض التي بين الأشجار؛ لتكونَ الجنّتان على أمثل حالةٍ، فأفرد لها ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ الثّانيةَ؛ فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾.

بلاغةُ التَّرتيبِ بذكر الأعنابِ فالنّخلِ فالزّرع:

جاء التّرتيبُ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾؛ بذِكْرِ الأعنابِ؛ لأنّ أصنافَها لا تكاد تُحصرُ؛ حتى إنّه

في الأصل الواحدِ يحصلُ تنوُّعُ الثّمرة ولذلك جمعَها[1]، إذ يُقدَّرُ وجودُ ما يقاربُ عشرةَ آلاف نوعٍ منه، ولأنّ أشجارَ الأعناب أسرعُ نموًّا وإثمارًا منَ النّخل، ثمّ ارتقَى إلى ذِكْر النّخلِ فقال: ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾، وأعدادُ أصنافِها يتجاوزُ ألفَيْ صنفٍ، وأفرد الزّرعَ فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾؛ لأنّه تصلحُ معه الدّوراتُ الزّراعيّةُ، فيُزرعُ في كلّ موسم أنواعٌ منها، فيكونُ مختلطًا في أنواعِه وثمارِه وأوقاتِه، ويتنوّعُ ذلك كلُّه خلالَ العامِ الواحدِ.

ترتيبُ النّظْمِ بحسبِ نظامِ الزّراعةِ للأشجارِ وأصنافِ النّباتِ

التّوكيدُ باستعمال ﴿كِلۡتَا﴾:

مجيءُ ﴿كِلۡتَا﴾ اسمًا مفردًا أُكِّد به مؤنّثان مُعرَّفتان، وقولُه: ﴿ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ حملٌ على اللّفظ؛ لأنّ ﴿كِلۡتَا﴾ لفظُه لفظٌ مفردٌ، ولو قيل (آتتا) على المعنَى لجازَ[2].

الجنّتان في حالةٍ أمثليّةٍ وتطابُقٍ في الأوصافِ

دلالةُ التّعريفِ في ﴿ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾:

التّعريفُ في قوله: ﴿ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾ للتّعظيمِ والتّفخيم، فهما جنّتان عظيمتان بما احتوت من صفاتٍ؛ لذلك فقد أتبعَها بعدَها بقوله تعالى: ﴿ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾؛ فهذه هي الحالةُ المُثلَى لهما، فقد وفّتِ الجنّتان بما هو مرجوٌّ منهما عند صاحبِهما.

بلغتِ الجنّتان في الوصفِ الحالةَ المُثلى

فائدةُ المجازِ العقليِّ بإسناد الإيتاءِ إلى الجنّتَيْن:

إسنادُ الإيتاء إلى الجنّتيْن من قَبيلِ الإسنادِ المجازيِّ، فـ (الإيتاء) هو إيتاءُ الشّجرِ والزّرعِ الذي فيها، وليس إيتاءَ الجنّتيْن نفسيْهما، وهذا مجازٌ عقليٌّ علاقتُه المكانيّةُ لفائدةِ بيانِ أنّ هذا الأسلوبَ في الزّرع يكون له الأثرُ الكبيرُ في تحقيق أعظم إنتاج، وفي ذلك دلالةٌ أيضًا على أنّ الأفضالَ ليست أفضالَ صاحبِ الجنّتيْن، وإنّما هي من أقدارِ اللّه تعالى فيما أكنَّه في هذه النّباتاتِ والأشجارِ من عظيم

بيانُ خصبِ الجنّتيْن وأثرِ ذلك في الوفرةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 124.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.

الأسرارِ في الخَلْق والإنباتِ والإثمار؛ فهي جميعُها من أفضالِ اللّه على عباده.

بلاغةُ الإطنابِ وفائدتُه:

وصفُ كمالِ الجنَّتيْن في الإنتاجِ

وجملةُ ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ مُعترضةٌ بين الجُمَل المُتعاطفةِ؛ والمعنى: أثمرتِ الجنَّتان إثمارًا كثيرًا[1]؛ فهي من قَبيلِ الإطناب في الوصْف والتّبْيين لحال الجنّتيْن، وفائدتُها بيانُ ما اتّصفت به الجنّتان منَ الكمال في الإنتاج، وبلوغِ أرقى ما يمكنُ أن يصلَه المحصولُ فيها.

براعةُ استعمالِ مفردةِ (الأُكُل) دونَ (الثمار):

ثمارُ الجنَّتيْن كلُّها يُنتفعُ بها دون هَدْرٍ أو تلَفٍ

استعملَ النَّظمُ مفردةَ ﴿أُكُلَهَا﴾ دون (ثمارها)؛ ليدلَّ على أنّ الثّمارَ هي بكاملِ الصّلاحيةِ للأكل، بينما هي في أشجارِها ومكنونِها في زرعِها ونباتِها، فثمارُ الأشجارِ تُقطفُ وتُؤكلُ، وهذا من كمال جودةِ إنتاجِها، ولو قال: (ثمارها)؛ لَمَا أفاد هذا المعنى؛ بل أفاد معنًى آخرَ وهو أنَّ الجنَّةَ تُنبتُ الثِّمارَ، وقد يُصيبُها مرضٌ أو جائحةٌ، فلا يُنتفعُ بها.

فائدةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم﴾:

التَّعريضُ بصاحب الجنَّتيْن الذي ظلمَ نفسَه بالكُفر بأنعُمِ اللّه

في قولِه تعالى: ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾: "استُعيرَ الظُّلمُ للنَّقص بتشبيهِ هيئةِ صاحبِ الجنَّتيْن في إتقان خَبْرِهما وترقُّبِ إثمارِهما بهيئةِ مَن صار له حقٌّ في وفرةِ غَلَّتها بحيث إذا لم تَأْتِ الجنَّتان بما هو مُترقَّبٌ منهما، أشبهَتا مَن حَرمَ ذا حقٍّ حقَّه فظلَمَه، فاستُعيرَ الظّلمُ لإقلالِ الإغلال، واستُعيرَ نفيُه للوفاءِ بحقِّ الإثمارِ"[2]، وتكمنُ فائدةُ الاستعارةِ في التَّعريضِ بصاحبِ الجنَّتيْن؛ إذ قد ظلَمَ نفسَه فكفَرَ بأنْعُمِ اللّه تعالى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 318.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 318.

نُكتةُ الإيجازِ بالحذفِ:

معنى: ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾؛ أي لم تَنقُصْ من أُكُلها شَيئًا؛ أي لم تنقصْه عن مقدار ما تُعطيه الأشجارُ في حال الخِصبِ، ففي الكلام إيجازٌ بحذفِ مضافٍ، والتّقديرُ: (ولم تظْلِم من مقدارِ أمثالِه[1]، أو ممّا يُتوقّعُ منها، أو ممّا يُرجَى منها شيئًا)، ففيه نُكتةٌ، وهي أنَّ صاحبَ الجنَّتين رُزِق بما رجاه منها، فهو يرى أنَّها لم تُنقصْ شيئًا منَ المقدار الذي توقّعَه ورجاه، وهذا في غاية المدحِ للجنَّةِ، وغايةِ الذَّمِّ لَمَن كفرَ بها.

صاحبُ الجنَّتيْن رُزِقَ ما رجاه؛ لكنَّه كفرَ حقَّ مَن رجاه

غرضُ تنكيرِ ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾:

أفادَ التَّنكيرُ للفظِ شيءٍ في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾؛ التّقليلَ والتّحقيرَ، فهي لم تُنقصْ أقلَّ ما يُتوقّعُ في العادةِ من مثيلاتِها.

بَلاغةُ الكنايةِ في: ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ كنايةٌ عن أمثلِ إنتاجٍ، فلا يكونُ أفضلَ وأمثلَ منه؛ إذ لم يطرأ عليها أيُّ سلْبٍ أو نقْصٍ، وعدمُ إصابتِها بأوبئةٍ أو أمراضٍ قد تؤدّي إلى تلَفِ أجزاء منَ الثّمار، وهذه الكنايةُ أبلغُ منَ الوصف المباشرِ لحالِ الثّمار في الإنتاجِ.

ثمارُ الجنَّةِ كاملةٌ تامَّةٌ خاليةٌ منَ التَّلفِ والعيْبِ

بلاغةُ الإطنابِ بالاحتراس:

بعد أنْ ذكرَ الجنّتين المُتكاملتَين جمالًا وعطاءً، وما تبثُّه في نفوس النّاظرين منَ البهجة والسّرور؛ احترسَ بقوله: ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ من أن يكون ثمَّةَ نقصٌ في الأكل الذي آتتْه، فلا يُتبادرُ إلى الذّهن نقصٌ طارئٌ عليها غيرُ منظورٍ.

لا نقصَ يُذكرُ في عطاءِ الجنّتين

وجْهُ إسنادِ تفجيرِ الأنهارِ لله تعالى، بعد إسنادِ (الإيتاء) للجنّتَين:

بعد أن أسندَ الإيتاءَ للجنّتين، وهو إيتاءُ الشّجر والنّبات فيها بما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 318.

خطابُ النَّظْمِ لِما يَجولُ في الأذهانِ ولِما استقرَّ في الحُسبانِ

أودعَه الله تعالى منَ القُدرةِ على إخراجِ الثّمرِ؛ بحسبِ نواميسِ حياةِ النّباتِ والإنتاجِ في تنوّعِ ثمارِها، قال هُنا ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾، فجاءَ الإسنادُ للّه تعالى، وذلك لأنّ تفجيرَ الأنهارِ منَ الأمورِ التي يراها النّاسُ عظيمةً، ولا يَنسبون فضْلَها لأنفُسِهم أو لحُسنِ عملِهم، بخلافِ ما يَنسبونَه لأنفسِهم من حُسنِ الزّراعةِ، وبراعةِ التّجارة، والقُدرةِ على كسبِ الرِّزقِ، فإنَّ إسنادَ الإنسانِ الفضلَ لنفسِه فيها أوضحُ، كذلك يصنعُ الإنسانُ في أن يَنسبَ حُسنَ الإثمارِ للأرضِ والنّبتِ التي خرج فيها، فالاختلافُ في الإسنادِ باعتبارِ ما يجولُ في خواطرِ الإنسانِ.

نُكتةُ المبالغةِ في صيغةِ التّفجير؛ والنَّهرُ واحدٌ:

امتدادُ النّهرِ وجريانُه خلال الجنّتَين وبين زروعِها

جاءت صيغةُ فعلِ تفجيرِ الأنهارِ في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾، بتشديد الجيم، وإنّما شدّدَ ﴿وَفَجَّرۡنَا﴾ وهو نهرٌ واحدٌ؛ لأنّ النّهر يمتدُّ؛ فكأنّ التّفجّرَ فيه كلِّه، وأعلمَ اللّه تعالى أنّ شربَهما كان من نهرٍ واحدٍ، وهو أغزرُ الشّربِ[1]، والظّاهرُ أنّ ماءَ النّهر كان يروي الجنّتين ممّا يدلُّ على غزارتِه، وقوّةِ تدفّقِه، والتّشديدُ في قوله: ﴿وَفَجَّرۡنَا﴾ للمبالغة، والتّخفيفُ هو الأصلُ لأنّه نهرٌ واحدٌ والتّشديد على المبالغة لأنّ النّهر يمتدُّ فيكونُ كأنهارٍ[2].

نُكتةُ تقديمِ ﴿خِلَٰلَهُمَا﴾ على ﴿نَهَرٗا﴾:

تصويرُ بلوغِ الماءِ إلى أصولِ الجنّتَيْن وفروعِها

ومعنى ﴿خِلَٰلَهُمَا﴾؛ أيْ: وسطَهما وبينَهما، ومنه يُقال: خللتُ القومَ؛ أيْ: دخلتُ بين القوم[3]، دلَّ ﴿خِلَٰلَهُمَا﴾ على تشعّب فروعِ النَّهَر خلالَ الزّروع، فتخليلُ تشعُّباتِ النّهر بين أشجارِها أمرٌ يحسُن الاهتمامُ به عند صاحب الجنّةِ؛ ليضمنَ وصولَ الماء إلى كلّ شجرةٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 174 - 175.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.

أو نباتٍ فيها، فقدّم ﴿خِلَٰلَهُمَا﴾ للاهتمام، كما أنّ قوله: ﴿خِلَٰلَهُمَا﴾ يدلُّ ضمنًا على غزارة مياه النّهر المُتفجِّر ودَيْمومتِها، فحسُن تقديمُ التّخليل للاهتمام بتحقُّقِ هذا الشّرطِ الأصيلِ في الزّراعة وغزارةِ الإنتاج، وأفادَ كذلك وصولَ الماء دونَ الحاجة إلى وسائلَ وأدواتٍ وكُلَفٍ إضافيّةٍ.

معنَى الواو ودلالتُها في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾:

عطاءُ الله تعالى لصاحبِ الجنَّتيْن تعدّاهما إلى أنواعِ الأموال

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ استئنافيّةٌ[1]؛ أيْ: أنواعٌ من المال، من ثمَّر مالَه؛ إذا كثر، وعن مجاهد: الذّهبُ والفضّةُ[2]؛ أيْ: كانت له إلى الجنَّتيْن الموصوفتَيْن الأموالُ الدَّثِرةُ منَ الذَّهب والفضَّة وغيرِهما، وكان وافرَ اليسار من كلّ وجْهٍ، مُتمكِّنًا من عمارة الأرض كيف شاء[3]، فدلّ ذلك على الغِنَى في كلّ شيءٍ من متاعِ الدّنيا، كأنَّه قال: (وله فوق المذكورِ ذهبٌ وفضّةٌ).

توجيهُ القراءاتِ في ﴿ثَمَرٌ﴾:

(الثّمرُ) هو ما حملتِ الأشجارُ، ويُطلَق أيضًا على أنواعِ الأموال

قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾: قرأ عاصمٌ بفتح الثّاء والميم ﴿ثَمَرٌ﴾؛ وهو جمعُ (ثمار) أو (ثمرة)، وقرأ أبو عمرو بضمّ الثّاء وسكون الميم في الحرفيْن: ﴿ثُمْرٌ﴾، والباقون بضمّ الثّاء والميم في الحرفيْن ﴿ثُمُرٌ﴾[4]، وقد ذَكَر المعنى بالضّمِّ أنواعَ الأموال من الذّهب والفضّة وغيرِهما في المال والولدِ، وبالفتح: حَملُ الشَّجَرِ[5]، والقولان مُحتملان للَّفظِ عند المُفسِّرين، إلّا أنَّ ما يُقوّيه السّياقُ أن يكون للذّهب والفضَّة.

توجيهُ الاستعارة في لفظِ ﴿ثَمَرٌ﴾:

(الثّمر) مُشتقّ مِن اسمِ الثّمرة على سبيل الاستعارة؛ لأنّ الأرباحَ

(1) الصّافي، إعراب القرآن الكريم: 15/ 185.
(2) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/ 376.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 310.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 106.

وعفو المال يُشبهان ثَمَرَ الشّجر، وشاع هذا المجازُ حتى صار حقيقةً، قالَ النّابِغَةُ الذُّبيانيُّ:

مَهْلًا فِداءٌ لَكَ الأَقْوامُ كُلُّهم *** وما أُثَمِّرُ مِن مالٍ ومِن ولَدِ[1]

بديعُ اختيارِ الألفاظِ وأثرُها في الإيجازِ:

الأكلُ نتاجُ الشَّجرِ، والثّمرُ نتاجُ الأكلِ

ناسبَ استعمالُ كلمةِ ﴿ثَمَرٌ﴾ مع قوله عنِ الجنّتين: ﴿ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾؛ وهو ثمرُ الشّجر؛ فجاء بمفردة ﴿ثَمَرٌ﴾؛ للدّلالة على أنواع الأموال الأخرى؛ فجمع ثمرَ الشّجر وثمرَ الأموال، وعبَّر عن ثمرِ الشَّجرِ بالأكلِ لبيان تحقُّق الانتفاعِ بها، وعبَّر عنِ الأموال بالثَّمَر لبيان أنَّ أصلَ هذه الأموال هو ثمارُ الأشجار؛ فأفاد أنَّ حَمل الشّجرِ لم يتوقَّف نفعُه على الأكل؛ بل تعدّاه إلى أمرٍ آخرَ وهو التّجارةُ وتحصيلُ الأموالِ المتنوِّعةِ، وهذا من بديع اختيارِ الألفاظ الدّالَّةِ على معانٍ مُكتَنَزَةٍ.

فنُّ التّتميمِ في بيان حالِ الجنّتيْن:

تكاملُ حالةِ الجنّتيْن بأبهَى الصّورِ

بعدَ أن بيّنَ في قوله: ﴿جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾ أنّ الجنّتيْن على نسقٍ معيّنٍ فيهما الأعنابُ والنّخيلُ، فقد تمَّمَ ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾؛ لئلّا يُتوهَّمَ أنّ الانتفاعَ قاصرٌ على النّخيل والأعنابِ، ولتكونَ كلٌّ منَ الجنّتيْن جامعةً للأقواتِ والفواكهِ، مُتواصلةَ العمارِ على الشّكلِ الحسنِ والتّرتيبِ الأنيق، ثمّ تمّمَ ذلك بقوله: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ ليدلَّ على دَيمومةِ الانتفاعِ بهما، فإنّ الماء هو سرُّ الحياة، وإذن فقدِ استكملَ هذا الرّجلُ كلَّ الملاذّ، واستوفى ضروبَ النِّعمِ ثمّ تمّمَ ذلك بقوله: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ لاستحضارِ الصّورةِ التّامّةِ للانتفاعِ بالمواردِ[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 318.

(2) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 184.

معنَى الفاءِ ودلالتُها في قوله: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾:

توقّعُ غرورِ مَن آتاه الله مالًا وجاهًا

الفاءُ في قولِه: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ لتفريعِ جملةِ (قال) على الجُملِ السّابقةِ؛ لأنّ ما تضمّنتْه الجُمَلُ السّابقةُ من شأنِه أن ينشأَ عنه غرورٌ بالنّفس[1] لصاحبِ الجنّتَيْن والأموالِ وعزّةِ النّفرِ، ففرّع هنا ذلك المُتوقَّعَ من صاحبِ الجنّتَيْن، وهذا التَّوقُّعُ يوجبُ الحَذَرَ من الوقوعِ في مزالِقِ الغرورِ والكِبْر.

نُكتةُ اختيارِ لفْظِ (الصّاحب):

الصُّحبةُ اشتراكُ الرَّجُلَيْن في امتلاكِ كلٍّ منهما جنَّةً

الصّاحبُ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ بمعنى المُقارنِ في الذِّكر، حيث انتظمَهما خبرُ المثَل، أو أُريدَ به المُلابسُ المُخاصِمُ، والمُرادُ بـ(الصّاحب) هنا: الرّجلُ الآخرُ منَ الرَّجلَيْن؛ أيْ: فقال: مَن له جنَّتان في حوارٍ بينهما، ولم يتعَلَّقِ الغرضُ بذِكْرِ مكانِ هذا القول ولا سببِه لعدم الاحتياجِ إليه في الموعظةِ[2]، ولعلّه اختارَ الصّاحبَ هنا لبيانِ القُرْب بين الرّجليْن منَ العلاقةِ الاجتماعيّة؛ كصداقةٍ، أو نسبٍ، أو اشتراكٍ في عملٍ متشابهٍ.

معنَى إضافةِ الصّاحبِ إلى الضّمير:

تحذيرُ المؤمنين من بعضِ أنواعِ الصُّحبةِ

في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أضافَ الصّاحبَ إلى الضّمير؛ لبيانِ حالةِ منَ التّواصُلِ بين الرّجل وصاحبِه، ممّا يقتضي تقارُبًا في الفهمِ وانسجامًا في الفكرِ، لكنّه هنا أظهرَ فرقًا كبيرًا بينَهما؛ مُؤدّاه الانشغالُ بمُترَفات الدّنيا، وجعْلُها هي الأصلَ في تقييم الحياةِ والوجودِ من جانبِ أحدِهما، وقوّةِ الإيمان باللّه من الجانبِ الآخر، وبهذا التّبايُنِ يُبيِّنُ الفرقَ بينهما، وأنَّ المقصودَ بالصُّحبةِ صحبةُ المُحاورةِ والاشتراكِ في مهنةٍ واحدةٍ؛ ففي الإضافةِ تعريضٌ بمَنْ ينزلقُ وراءَ صاحبِه في كُفْره وجحودِه، وأنَّ الاشتراكَ في أمرٍ لا يعني

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 319.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 319.

بتاتًا الاشتراكَ في كلِّ شيءٍ، وأنَّ على الإنسانِ أن يَحْذرَ من صاحبِه في كثيرٍ منَ الأحيان.

بَلاغةُ جملةِ ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾:

عنادُ المُحاوِرِ في الكفرِ دليلٌ على سقوطِهِ في براثنِ الباطلِ

الواوُ حاليّةٌ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ والجملةُ حالٌ من ضميرِ ﴿فَقَالَ﴾، وهذه الجملةُ إطنابٌ دلّتْ على الحوارِ الذي استدعى الأدلَّةَ في كلّ مسألةٍ، والمحاورةُ مراجعةُ الكلام من قولِهم: حارَ؛ إذا رجعَ[1]، فقولُه: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ دليلٌ على تمكُّنِ الغرورِ والكفرِ لدى صاحبِ الجنّتيْن؛ لأنّه يعاودُ صاحبَه بالأدلّة على ما يعتقدُه من أنّ المالَ والثّراءَ هو الأصلُ في تَقْييم الحياةِ والوجودِ.

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليه:

التَّعريضُ بالمُشركين في اغترارِهم بأموالِهم

قُدِّمَ المُسنَدُ إليه ﴿أَنَا۠﴾ على المُسنَدِ ﴿أَكۡثَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا﴾؛ لإفادةِ معنى التّخصيصِ، وذلك لأنّ المُسنَدَ وهو الكثرةُ في المال هو أمرٌ حاصلٌ في الواقع، فقدّمَ ﴿أَنَا۠﴾ لتخصيص نفْسِه بالكثرة دونَ صاحبِه الذي يحاورُه، ويظهرُ من ذلك شدّةُ الإعجابِ بالنّفس، ففيه تعريضٌ بكفّارِ قريشٍ الذين كانوا مُعْجبين مغرورين بأنفسِهم، لمّا طلبوا منَ الرّسول ﷺ عدمَ مجالسةِ الفقراءِ منَ المؤمنين، فحالُه مع صاحبِه كحالِ المشركين مع المؤمنين.

براعةُ تقديمِ كثرةِ المالِ على عِزّةِ النّفَرِ:

تقديمُ الأصلِ الجالبِ للقوّةِ والمَنَعةِ وما تهواه الأنفسُ

في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ قَدّمَ ذِكْرَ المال على الولد، فبدأ بالمال؛ لأنّه الأصلُ لدى مُعظم النّاس في الغرورِ، ثمّ ذكرَ عِزّةَ النّفرِ؛ والنّاسُ مجبولون على حبّ المالِ، والانصياع إلى أصحابه، فلولا عزّةُ المال لَما حقّقَ عزّةَ النّفر، فقدّمَ الأصلَ على التّابع، والولدُ بغير مالٍ عيلةٌ وشدّةُ فقرٍ، وفي هذا المعنَى ما فيه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 107.

منَ التّعريض بأولئك الذين يتّبعون أهلَ الأموال بُغية الكسب، دون النّظرِ إلى مواضعِ الحقّ والباطل.

فائدةُ تنكيرِ المال والنّفَر:

نُكِّر المالُ والنَّفرُ في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾؛ لإفادةِ التّكثيرِ والتّفخيم، فمالُه لا يُحصَى؛ لكثرةِ ما أوتيَ من أصنافه، والنّاسُ تَبَعٌ له لعلمِهم بما يملكُ منَ المال والجاه، طمعًا في أن يصيبَهم منه، فهم كثيرٌ لكثرة مالِه، ومَنْ كثُر أتباعُه عزَّ شأنُه بين النّاسِ.

مَنْ كثُر مالُه وأتباعُه عزّ شأنُه بين النّاسِ

بَلاغةُ الاكتفاءِ في ذِكْر ﴿مِنكَ﴾ في المال دونَ الولد:

جاء الاكتفاءُ في الآيةِ في ذِكر قيْدِ ﴿مِنكَ﴾ في (المال) ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا﴾ دون (الولد) ﴿وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾؛ لِما للمال من دورٍ محوريٍّ، وطاقةٍ مؤكّدةٍ في جعل أصحابِ الأموال هم المُتحكِّمون في الأمور كلّها؛ الفرديّةِ والمجتمعيّة، وهذا على خلاف الولد؛ إذ لا يكونُ الولدُ دومًا طاقةً مضمونةً في القوّة والتّمكين.

المالُ طاقةٌ مضمونةٌ في القوّةِ والتّمكينِ

دلالةُ استعمالِ ﴿نَفَرٗا﴾ دون (ولدًا):

قولُه: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾؛ يعني أنصارًا وحَشَمًا، وقيل: أولادًا ذكورًا، لأنّهم ينفرون معه دون الإناث[1]، فدلالة النّفر على الأتباع أبلغُ ممّا لو قال: (وأعزّ ولدًا) التي تدلُّ على القلّة، فالأتباعُ لا حصْرَ لهم ولا حدَّ، ثمّ إنّ اختيارَ الأتباع يكونُ منوطًا باختياره هو على قدرِ تأييدِهم ومُناصرتِهم، على خلاف الأولاد الذين قد يكونُ بعضُهم مخالفًا غيرَ مؤيّدٍ لأبيه فيما يأمرُ ويفعلُ.

كلُّ نفرٍ تابعٌ ومؤيّدٌ، وليس كذلك كلُّ ولدٍ

الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الجنّةُ) و(البستانُ):

الجنّةُ هي البستانُ الذي تجنُّه الأشجارُ[2]؛ وهي قطعةُ أرضٍ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 124.

الجنّةُ كثيفةُ الشّجرِ مُتداخلةُ الأغصانِ، والبستانُ أعمُّ منها

تنْبتُ فيها الأشجارُ حتى تغطّيَها ففيها معنَى الاستتارِ[1]، و(جَنَّ) هو السَّتر والتّستّرُ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾ [الأنعام: 76]، والجنّةُ ما يصيرُ إليه المسلمون في الآخرة، وهو ثوابٌ مستورٌ عنهم اليومَ، والجنّةُ البستان، وهو ذاك؛ لأنّ الشّجرَ بورقِه يسترُ[2]، والبستانُ: كلُّ أرض يحوطُها حائطٌ، وفيها نخيلٌ مُتفرِّقةٌ وأشجارٌ، يمكنُ الزّراعةُ في وسط الأشجارِ؛ فهي بستانٌ، و(بستان) معرّبُ (بوستان)؛ وإن كانتِ الأشجارُ مُلتفَّةً، لا يمكنُ زراعةُ أرضِها؛ فهي كرمٌ[3].

والفرقُ بين الجنّةِ والبستانِ أنّ الجنّةَ تكونُ كثيفةَ الشّجر متداخلةَ الأغصان، وهذه الصّفةُ تدلُّ على جودة الحالِ، وتوافُرِ العناصر والمياهِ، أمّا البستانُ فلا يُشترطُ ذلك فيها، فقد تكونُ أشجارُها مُتفرّقةً غيرَ متداخلةٍ على أغلبِ أحوالِها.

المُحاورةُ والمُجادلةُ:

المُحاورةُ مراجعةُ الـكلامِ، والمُجادلةُ المخاصَمَةُ فيه

المُجادلةُ هي المخاصمةُ فيما وقعَ فيه خلافٌ بين اثنَيْن، والمخاصَمَةُ منازعةُ المخالفةِ بين اثنَيْن على وجه الغلظةِ، وتختلفُ المخاصمةُ عنِ المُعاداة؛ بأنّ المخاصمةَ من قَبيل القولِ، والمُعاداةَ من أفعالِ القلوب[4]، أمّا المحاورةُ فهي المراجعةُ في الكلام[5]، من حارَ يحورُ إذا رجع، وقوله: سألتُه فما أحارَ كلمةً[6].

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح، ص: 180.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/ 421.
(3) الكَفويّ، الكُلّيّات، ص: 227.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 488.
(5) حجازيّ، التّفسير الواضح، ص: 416.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥﴾ [الكهف: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

استكمالُ قصّةِ صاحبَي الجنّتَين، وبيانُ أنّ انْقِطاعَ النِّعَمِ يُنَغِّصُها عَلى أَصْحابِها

بَعْدَ أن بيَّنَ اللّهُ سبحانه زَهْوَ صاحبِ الجنّتين بحاله وفَخْرَه بها واسْتِعلاءَهُ عَلى غيرِه، وذلكَ في قولِه تَعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف: 34]؛ ذَكَرَ أَنَّ صاحبَ الجَنَّتينِ بيَّنَ صورةً مِنْ صوَرِ كَثْرَةِ مالِه المَنْصوصِ عليها قَبْلُ، وقَد أَرى المُؤْمِنَ جَنَّتَهُ على حالٍ موجبةٍ للبَهْجَةِ والسُّرورِ، مُدَّعيًا دوامَ ذلكَ وعَدَمَ انقطاعِهِ؛ لما عُلِمَ مِنَ أنَّ استحضارَ انقطاعِ النِّعمة يُنَغِّصُها عَلى صاحِبِها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَنَّتَهُۥ﴾: (جنن) أصلٌ يدُلُّ على السَّتْرِ، ومِنْهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾ [الأنعام: 76]؛ أي: سَتَرَه بظلامِه[2]، والجَنَّةُ في الدُّنيا هي البُسْتان؛ لأنَّ الشَّجرَ بورَقِه يَسْتُرُ، والجَنَّةُ في الآخِرة: ثَوابٌ مَسْتورٌ عَنّا اليَوْمَ[3]، والجَنَّةُ: الحديقَةُ ذات الشّجَرِ والنَّخْلِ[4]، وهي المرادةُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾.

2) ﴿تَبِيدَ﴾: (بيد) تدلُّ اشتقاقاتُها على خُلوِّ البراحِ الواسِعِ المُمتَدِّ ممّا يَنْبُت في مِثْلِه مَعَ جلادَةِ ظاهِرِه، ومِنْهُ: البيداءُ؛ وهيَ المَفازةُ المُسْتَوِيةُ يَجْري فيها الخيلُ، ويرِدُ بادَ بمَعْنى: انْقطعَ، يُقال:

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 463.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جنن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنن).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جنن).

بادَ الشَّيءُ؛ إذا انْقَطَع وذهَب وهَلَكَ[1]، وأبادَهُ اللّهُ؛ أي: أَهْلَكَهُ، ومِنْهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾؛ أَيْ: تَهْلِكَ أو يَهْلِك شَجَرُها[2].

الشَّكُّ في فناءِ الدّنيا وحَتميّةِ المَعادِ، مِن أَعْظَمِ موجِباتِ الكِبْرِ عَندَ العِبادِ

❁ المَعنى الإجماليُّ:

ودَخَلَ بُسْتانَهُ، وهو ظالمٌ لنَفْسِه بكُفْرِه بالبَعْث، وشَكِّه في قيامِ السّاعَة، ونِسْيانِه المعادَ إلى اللّه تعالى، فقالَ - لمّا عايَنَ جَنَّتَه، ورَآها وما فيها مِنَ الأشجارِ والثِّمار والزُّروعِ والأَنْهارِ المُطَّرِدة شَكًّا في المَعادِ إلى اللّه تعالى - : (ما أظُنُّ أَنْ تَبيدَ هذه الجَنَّةُ أبدًا، ولا تَفْنى ولا تَخْربَ)[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ مَوْقِعِ الجُملَةِ مِمّا قَبْلَها في المطلع:

الأَصْلُ في لَفْظِ القَوْلِ أن يَقَعَ عَلى وجْهِ المخاطَبةِ للغيرِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ في موضعِ الحالِ مِنَ الضَّميرِ المُسْتَتِر في (قالَ) مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف: 34]، والمَعنى: أنَّه قالَ ذلكَ، والحالُ أنَّه قَدْ دخل جَنَّتَهُ مرافقًا لصاحبه المؤمن، كَما يدلُّ عليه لفظُ القَوْلِ في قولِه: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، وذلكَ لأنَّ الأَصْلَ في القَوْلِ أن يكونَ خطابًا لآخرَ، أي: قالَ ذلك لصاحبِهِ[4].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿وَدَخَلَ﴾:

الفَخْرِ والخُيلاء، كلاهما بَريدٌ للكُفْرِ والشّقاء

عُبِّرَ بالفِعْلِ الماضي ﴿وَدَخَلَ﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾؛ لإفادَةِ تحقُّقِ دخولِه، وأنَّ قالةَ السّوءِ التي قالَها بَعْدُ كانَتْ ناشئةً مِنْ زَهْوِه بما رآهُ وعاينَهُ من حالِ جَنَّتِه التي أوْجبَتْ له فخرًا وخيلاءَ، ترتَّب عليه تصريحٌ بالكُفْرِ بالبعثِ والجزاءِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بيد).
(2) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بيد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 22، ونخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 298.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 320.

دلالةُ الإسنادِ إلى الضّميرِ المُستترِ في ﴿وَدَخَلَ﴾:

التّعبيرُ بالضّميرِ المُستترِ إشعارٌ بغَيْبتِه عنِ الحقِّ واستغراقِه في الظُّلمِ، فإنّ الظُّلمَ غشاوةٌ وعمايةٌ عن رؤيةِ الحقِّ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمَفْعولِ به مُضافًا:

بيانُ أنّ الإضافَة، تَنْقَسِمُ إلى ما تَنْقَسِمُ إلَيْه اللّامُ

عُبِّر بالمَفْعولِ به ﴿جَنَّتَهُۥ﴾ مُضافًا في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفۡسِهِۦ﴾؛ للدّلالَةِ على العَهْدِ؛ فإنَّ الإضافةَ تَرِدُ لما تردُ إليه اللّامُ، فكما تَأْتي اللّامُ مرادًا بها العَهْدُ؛ فكذلك الإضافةُ، والمرادُ: دخلَ جنَّتَهُ التّي تقدَّمَ ذِكْرُ أحوالِها وعددِها وصفاتِها وهيْئاتِها[1]، ويجوزُ أن تَكونَ الإضافَةُ لإرادَةِ العمومِ؛ أي: دخلَ كلَّ ما هوَ جنَّةٌ له يتَمَتَّعُ بها[2]، ولا يَخْفى أنَّ المَعْنى عَلى هَذا أنَّ دخولَهُ ذلك ليسَ في زمنٍ واحدٍ؛ إذْ يتعذَّرُ عقلًا دُخولُهُ جنَّتينِ في وقتٍ واحدٍ، وإنّما المَعنى: حَصَلَ مِنْهُ دُخولُ إِحْداهُما ثُمَّ تَلاهُ دُخولُهُ الأُخْرى.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَفْعولِ به ﴿جَنَّتَهُۥ﴾ مُفْرَدًا:

لا نَصيبَ في جَنَّةِ الآخِرَةِ لأَهْلِ الكُفْرِ والضّلالِ

جاءَ التَّعبيرُ عَنِ المفعولِ به ﴿جَنَّتَهُۥ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ مفردًا، وفي ذلكَ أَوْجُهٌ[3]:

أَحَدُها: أنَّ المرادَ به الجنسُ، فيشمَلُ كُلَّ ما لهُ مِنْ جنَّةٍ، وهُما اثْنَتانِ، كما دلَّ عليه قولُ اللّه ﷻ: ﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ﴾ [الكهف: 32].

ثانيها: الإيماءُ إلى أنَّه لا جنَّةَ لهُ غيرُها؛ إذْ ليس لهُ حظٌّ في الآخرةِ، ولا نصيبٌ في الجنَّةِ التي وُعِدَها أهلُ الإيمانِ.

ثالثُها: أنَّ إفرادَ الجنَّةِ هو باعتبارِ الوجودِ كذلكَ؛ إذْ لا يَتَأَتّى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 222.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 261.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 517، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 463، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 89.

له أن يدخلَهما معًا في زمنٍ واحدٍ، وإنَّما حالَ دخولِه سيواجِهُ جنةً واحدَةً، ثُمَّ يَدْخُلُ الأُخْرى بَعْدُ.

رابُعها: أنَّهُ أُفْرِدَ؛ لكونِ الإفرادِ هوَ الأصلَ، ولَم يتعلَّق غرضٌ بتعدُّدِها.

خامِسُها: أنَّ إفرادَها للإيماءِ إلى اتِّصالِ إحداهُما بالأُخْرى.

دلالةُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في لفظ ﴿جَنَّتَهُۥ﴾:

عَـوْدُ الضَّـمير عـلى صـاحِـب الجَنَّةِ الّذي عليْه مَدارُ القِصَّةِ

الضَّميرُ في ﴿جَنَّتَهُۥ﴾ مِنْ قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، راجِعٌ إلى أحَدِ الرَّجُلَيْنِ؛ وهوَ الّذي آتاهُ اللّهُ تعالى جَنَّتينِ، كما في قولِ اللّه ﷻ: ﴿۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: 32]، والمَعْنى: أنَّه دخلَ الجنَّةَ الّتي هي خاصَّةٌ بهِ، وهي لَهُ مِلْكٌ.

دلالةُ جملة ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ﴾ على الاعتراض وعلى الحالية:

مِن صوَرِ جُحودِ النِّعَمِ، التَّوسُّلُ بها إلى المَعاصي

قولُ اللّه تَعالى: ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ، وقعَت أثناءَ الكَلامِ، والمُرادُ بها التَّنبيهُ عَلى أَنَّ هَذا الرَّجُلَ لَمّا توسَّلَ بتلكَ النِّعَمِ إلى الكُفْرِ والجُحودِ بقُدْرَةِ اللّه تَعالى عَلى البَعْثِ؛ كانَ واضِعًا تلكَ النِّعمَ في غَيْرِ مَوْضِعِها(1).

تَأَصُّلُ الظُّلْمِ في الرَّجُلِ الكافِرِ؛ لارتِباطِ الظُّلمِ بالكفر

ويَجوزُ أن تكونَ الجُملةُ حاليَّةً(2)، والمَعْنى: دخَلَ جَنَّتَهُ والحالُ أنَّه كافِرٌ بنِعْمَةِ اللّه تعالى مُقابِلٌ إيّاها بغَيْرِ ما يَجِبُ؛ إذِ الواجبُ شُكْرُ النِّعمةِ لا كُفْرُها، والوجهُ الأوَّلُ أَوْلى؛ لأنَّ حملَ الجملةِ على الحاليَّةِ قَد يوهِمُ أنَّ ظُلْمَ الرَّجُلِ لَم يَكُن مستمرًّا، بل مقارِنًا لدُخولِه؛ إذِ الأصلُ في الحالِ أن تَكونَ مُقارِنةً لعامِلِها.

وفي التَّعبيرِ بالحال جُملَةً اسميَّةً في قولِه: ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾

---

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 463.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 176.

إيماءٌ إلى استِمرارِه على الظُّلْم ودوامه عليه، حتَّى صار مُتَأَصِّلًا فيهِ؛ وذَلِكَ لما تَدُلُّ عليه الجُملَةُ الاسميَّةُ مِنَ الدَّوام.

الغَرَضُ من ورود الخبرِ ﴿ظَالِمٌ﴾ اسمَ فاعلٍ:

في التَّعبير بالخَبَرِ ﴿ظَالِمٌ﴾ اسمَ فاعلٍ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ إشعارٌ بأنَّ الظُّلْمَ صارَ طَبْعًا لَهُ؛ لملازَمَتِه إيّاهُ، حَتّى صارَ الظُّلْمُ بِمَنْزِلَةِ اسْمِ العلَم له.

مَعْنى اللّامِ في ﴿لِّنَفْسِهِۦ﴾ ودِلالَتُها:

خُطورَةُ الشِّرْكِ، وبشاعةُ إنْكارِ البَعْثِ والجَزاءِ

اللّام في ﴿لِّنَفْسِهِۦ﴾ مِنْ قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ صِلةٌ يُرادُ بها تقويةُ العامل، وفي ذلك تَوْكيدُ نِسْبَةِ ظُلْمِ صاحب الجَنَّتَيْنِ لنَفْسِه، وذلكَ لخُطورَةِ ما أقدَمَ عليه مِنَ الشِّرْكِ باللّه تَعالى وإِنْكارِ البعثِ والجزاءِ.

دلالةُ مَوْقِعِ جُملَةِ ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ﴾ مِمّا قَبْلَها:

الاسْتِئْنافُ البَيانيُّ ذو أثرٍ بالغٍ، في إبْرازِ مُتابَعَةِ المُتَلَقّي وشَوْقِهِ

قولُ اللّه تَعالى: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ مُستأنفٌ استئنافًا بيانيًّا، ولذا فُصلت الجملةُ عمّا قبلَها؛ لأنَّها ناشئةٌ عَنْ سؤالٍ يُفهم مِنَ التي قَبْلَها؛ وذلكَ لأنَّ اللّهَ سبحانه لمّا قالَ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أَوْرَثَ في نفسِ السّامِعِ استعلامًا عن قولِ هذا الرَّجُلِ أو فعلِه الذي استَحَقَّ به الوصفَ بالظُّلم لنفسِه عِنْدَ دخولِه جَنَّتَه، فجاءَ الجوابُ: أنَّهُ ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، فإنَّه قالَ ذَلِكَ لما اسْتَوْلى عليه مِنْ طولِ الأمَلِ وشدَّةِ الحِرْصِ والتَّمادي في الغَفْلَةِ واطِّراحِ النَّظَرِ في عواقِبِ الأمورِ[1].

سِرُّ إيثارِ التَّعْبيرِ بِـ﴿مَآ﴾ النّافيَةِ:

المُبالَغةُ في الشِّرْكِ والضَّلالِ، مدعاةٌ للغرور والوبال

في إيثارِ النَّفْيِ بِـ﴿مَآ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ دلالَةٌ عَلى صُدورِ هذه المَقالَةِ مِنْهُ عَلى وجْهِ التَّأكيدِ[2]؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 59، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 222.

(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4530.

إمعانًا مِنْهُ في الضَّلال والشِّرْك، وذلكَ لأنَّ في ﴿مَآ﴾ مَعْنى التَّأكيد، كَما قالَ سيبَوَيْه: "وإذا قالَ: (لقَدْ فعل)؛ فإنَّ نَفْيَهُ: (ما فعل)؛ لأنَّه كأنَّه قالَ: (واللّه لَقَدْ فعل)، فقالَ: (واللّه ما فعل)"[1]، فهيَ آكَدُ في النَّفْيِ مِنْ (لَم)[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿أَظُنُّ﴾:

تَكرارُ الظَّنِّ يُصَيِّرُهُ اعْتِقادًا راسِخًا، لا انفكاكَ عنه

جاءَ التَّعْبيرُ عَنِ الظَّنِّ بالفِعْلِ المُضارِعِ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾؛ للإشْعارِ بتَكَرُّرِ هذا الظَّنِّ مِنْهُ، وأنَّه ليسَ ظنًّا عَرَضَ لَهُ مرَّةً، بل اسْتَمَرَّ معَهُ حتّى صارَ بِمَنْزِلَةِ الاعْتِقادِ الرّاسِخ.

دلالةُ مجيءِ مفعولِ الظَّنِّ مصدرًا مؤوَّلًا ﴿أَن تَبِيدَ﴾:

النَّفسُ إذا عظُمَتْ رغبتُها في استبعادِ شيءٍ، طالَ كلامُها حولَه

قولُه تعالى: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ جاء التّعبيرُ فيه بأنْ والفعلِ المضارعِ، كاشفًا عمّا في نفْسِ ذلك الظّالم مِن استبعادِ إبادةِ جنّتِه، فطال التّعبيرُ عن ذلك، ولو قيل: ما أظنُّ إبادتَها، أو غيرَ ذلك، لكان التّعبيرُ أقصرَ، وهو ممّا لا يُلائمُ حالَه في الاستبعادِ، ويؤيّدُه التّعبيرُ باسمِ الإشارةِ والتّقييدِ بالظّرفِ ﴿أَبَدًا﴾، وكذلك التَّعبيرُ بـ ﴿أَن﴾ المصدريَّةِ فيه دلالةٌ على نفي ظنِّ الإبادةِ في الزَّمنِ المستقبل، فهو مطمئنٌّ لدوامِ جنَّتِه وعدمِ زوالِها حاضرًا ومستقبلًا.

نُكتةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾:

بيانٌ لما حَكَمَ عليْهِ بعَدَمِ الزَّوالِ

في التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ مِن قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، زيادَةُ تقريرٍ للأمرِ الذي حَكَمَ عليه بعَدَمِ الفَناءِ، فقال: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾؛ أيْ: الجنَّةُ التي دَخَلَها وهيَ حاضِرَةٌ أمامَهُ.

الغَرَضُ مِنَ التَّقْييدِ بالظَّرْف:

قُيِّدَ الفِعْلُ ﴿تَبِيدَ﴾ المنفيُّ اعتقادُهُ بظَرْفِ الزَّمان ﴿أَبَدًا﴾ في قَوْلِ

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.
(2) السّامرائيّ، معاني النَّحو: 4/ 569.

أثرُ المُبالَغةِ في تَقْريرِ الباطِلِ، والإغْراقِ في الغَفْلَةِ والانْحِرافِ

اللّه تَعالى: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ إمعانًا مِنَ الرَّجل في الباطلِ، وإغراقًا مِنْهُ في الغَفْلَةِ، وذلكَ أنَّه لمّا حَسُنَ قيامُهُ بجنَّته بما أوتيَهُ من مالٍ وخَدَم؛ حدَّثَتْهُ نفسُه أنَّها تَبْقى حسنةً مدَّةَ حياتِه، وهذا هو مرادُهُ بالأبَدِ، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ الأبدُ على أَصْلِه في اسْتِغْراقِ الزَّمانِ المُسْتَقْبَلِ، وهوَ أمرٌ مخالفٌ للحِسِّ، إلّا إذا كانَ المُرادُ أنَّ ما حَوَتْهُ هذه الجنَّة مِن أشخاصِ أَثْمارِها وأَفْرادِ أَشْجارِها إنْ فنيَ؛ فإنَّهُ يَخْلُفُه غَيْرُه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجَنَّةُ والحَديقَةُ:

بَيْنَ الجَنَّةِ والحَديقَةِ عُمومٌ وخُصوصٌ وجْهيٌّ

فرَّقَ أَبو عَليٍّ بينَ الحديقَةِ والجَنَّة؛ بأنَّ الجنَّةَ في كَلامِ العَرَب لا تُسمَّى كَذَلِكَ إلّا إذا كان فيها نَخيلٌ وعِنَبٌ، فإن لَم يَكُنْ فيها ذَلِكَ وكانَت ذاتَ شَجَرٍ؛ فهيَ حديقةٌ ولَيْسَت بجَنَّةٍ[2].

وفي لَفْظِ الحَديقَةِ يُلْحَظُ مَعْنى وُجودِ حاجِزٍ أَحْدَقَ بها مِنْ جوانبِها، وأمّا الجنَّةُ؛ فإنَّ لفظَها مُشْعِرٌ بالاسْتِتارِ الذي فيها؛ لكثرةِ أشجارِها، فيَكونُ بَيْنَ الجَنَّةِ والحَديقةِ عُمومٌ وخُصوصٌ وجْهيٌّ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 176.

(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جنن)، وأحمد رضا، معجم متن اللّغة: 1/ 584.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا مِّنۡهَا مُنقَلَبًا ٣٦﴾ [الكهف: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

ازْدِيادُ الطُّغْيانِ زَهْوًا بما عليْه مِن حالٍ، محضُ غرورٍ وسوءِ مآلٍ

لمّا ذكَر اللّهُ سبحانه عَن صاحِبِ الجنَّتين أنَّه قدِ اسْتَوْلى عليه مِن طولِ الأمل، وشِدَّة الحِرْصِ عَلى الدُّنيا والتَّمادي في الغَفْلَةِ ما جَعله يطَّرِحُ النَّظرَ في العواقِبِ، حتّى زعَم أنَّ جنَّته لن تبيدَ؛ بيَّنَ أنَّ طُغْيانَهُ ازداد، فزَعَم أنْ لا بَعْثَ ولا جزاءَ، استلذاذًا مِنْهُ بما هو فيه، واعتمادًا عليه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَآئِمَةً﴾: (قوم) تدلُّ اشْتِقاقاتُها عَلى انْتِصابِ شَيْءٍ إلى أَعْلى عَلى وجْه الثُّبوتِ، ومِنْهُ قامَةُ الإنسانِ وقيامُهُ[2] والإقامَةُ في المكانِ[3]، ومِنْهُ سُمّيَ أداءُ الصَّلاةِ إقامةً؛ لما في أدائِها مِنْ إظْهارِها والدّوامِ علَيْها[4] وقيامُ السّاعةِ: ظُهورُها وثبوتُها، وقولُ اللّه تعالى حكايةً عَنْ صاحبِ الجنَّتينِ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، أيْ: ما أظنُّها كائنةً ثابتةً.

2) ﴿رُّدِدتُّ﴾: (ردد) تدورُ تصريفاتُها على رَجْعِ الشَّيْءِ[5]، ومِنْهُ الارْتِدادُ: الرُّجوعُ، وسُمّيَتِ الرِّدَّةُ بذَلكَ؛ لأنَّها رجوعٌ إلى الكُفْرِ[6]، وقولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ معناهُ: أُرْجِعْتُ إلى رَبّي للحِسابِ والجزاءِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 59.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قوم).
(3) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 85.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردّ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ردد).

3) ﴿مُنقَلَبًا﴾: (قلب) تدلُّ على معنَيين كُلّيَّين: خالصُ شيءٍ وشريفُهُ، وردُّ شيءٍ مِن جهةٍ إلى جهةٍ[1] يُقال: قَلَبَ الشيءَ، وقَلَّبه: إذا حَوَّله ظَهْراً لبطْنٍ[2]، وقلَّبَ الأُمورَ: بحثَها ونظرَ في عواقبها، وتَقَلَّبَ في الأُمور وفي البلاد: تصرَّف فيها كَيفَ شاءَ[3]، والانقلابُ: الانصرافُ، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾؛ فإنَّ معناهُ: مُنْصَرَفًا ومردًّا ومرجعًا.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

اعْتِقادُ العَبْدِ كَرامَتَهُ بكثرة المالِ عِنْدَ ذي الجلالة، باطلٌ لا محالة

بَعْدَ أَن أخبرَ اللّهُ تعالى عَنْ زعمِ الرَّجُلِ عدمَ فناءِ جنَّتِه؛ أخبرَ عنهُ أنَّهُ قال: ما أَعْتَقِدُ أنَّ القيامَةَ واقعةٌ، وإن فُرِضَ وقوعُها - كما قالَ لَهُ صاحبُهُ المُؤْمِنُ - ورُجِعتُ إلى ربّي؛ لأَجِدَنَّ عندَهُ أفضلَ مِن هذه الحَديقَةِ مَرْجِعًا ومردًّا؛ لكرامَتي ومَنْزِلَتي عِنْدَهُ؛ إِذْ لَوْلا ذلك ما أَكْرَمَني في الدُّنيا بهَذا المالِ الوفيرِ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دِلالَةُ الواوِ في ﴿وَمَآ أَظُنُّ﴾:

بيانُ تَتِمَّةِ مَقالَةِ الرَّجُلِ الكافِرِ؛ لاستكمالِ مشاهدِ القصّةِ

الواوُ في ﴿وَمَآ﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ حكايةً عنِ الرَّجُلِ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ عاطِفَةٌ الجُملَةَ بعدَها على قولِه قَبْلُ: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، فالجملَةُ داخلةٌ في حيِّزِ القولِ كسابِقَتِها، وبَيْنَ الجُملَتَيْنِ توسُّطٌ بين الكمالَيْنِ؛ لاشتراكِهما في الخَبَرِيَّةِ، وبينَهما تناسُبٌ في اللَّفْظِ والمَعْنى، فأمّا مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ فلاتِّفاقِهما في المُسْنَدِ والمسنَدِ إليه ﴿أَظُنُّ﴾، وأمّا مِنْ جِهَةِ المَعْنى فلأنَّهما تُخْبِرانِ عمّا يعتقِدُهُ هذا الرَّجُلُ مِنْ أحوالِ الدّنيا والآخرَةِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلب).
(2) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (قلب).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (قلب).
(4) نخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 298.

سِرُّ إيثارِ التَّعْبيرِ بـ(ما) النّافيَةِ:

المُبالَغَةُ في قالَةِ السّوءِ؛ إمعانٌ من صاحبها في الانْحِرافِ

في إيثارِ النَّفْيِ بـ(ما) في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ دلالَةٌ عَلى صُدورِ هذه المَقالَةِ مِنْهُ عَلى وجْه التَّأكيدِ[1]؛ إمعانًا مِنْهُ في الضَّلال والشِّرْك، وذلكَ لأنَّ في (ما) مَعْنى التَّأكيد، كَما قالَ سيبَوَيْه: "وإذا قالَ: (لقَدْ فعل)؛ فإنَّ نَفْيَهُ: (ما فعل)؛ لأنَّه كأنَّه قالَ: (واللّه لَقَدْ فعل)، فقالَ: (واللّه ما فعل)"[2]، فهيَ آكَدُ في النَّفْيِ مِنْ (لا)[3].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿أَظُنُّ﴾:

تَكَرُّرُ الظَّنِّ، يُصَيِّرُهُ اعْتِقادًا راسِخًا

جاءَ التَّعْبيرُ عَنِ الظَّنِّ بالفِعْلِ المُضارِعِ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾؛ للإشْعارِ بتَكَرُّرِ هذا الظَّنِّ مِنْهُ، وأنَّه ليسَ ظنًّا عَرَضَ لَهُ مرَّةً، بلِ اسْتَمَرَّ معَهُ حتّى صارَ بمَنْزِلَةِ الاعْتِقادِ الرّاسِخِ.

فائدة التَّعبيرِ بالمَفْعولِ به ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾:

تَعْظيمُ يَوْمِ القِيامَةِ، وتَفْخيمُ شَأْنِه، مقصدٌ هامٌّ في سياقِ الآيةِ

﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ في جملة: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، هي ساعَةُ الحسابِ والجزاءِ، الكائِنَةُ يومَ القيامَةِ، وإذا وردَ إطلاقُ السّاعَةِ في القرآنِ؛ فالمرادُ: ساعةُ الحسابِ والجزاءِ، والسِّرُّ في ذلك: الإيماءُ إلى عظَمَتِها، حتّى كأنَّه ليسَ بحَقيقٍ أن يُسمّى ساعةً إلّا هيَ[4].

دلالةُ التّعبيرِ بالمفعول الثّاني اسمَ فاعلٍ ﴿قَآئِمَةً﴾:

كثرةُ المالِ تؤدّي إلى الطّغيانِ في التّكذيبِ، بنفيِ كينونةِ السّاعةِ

التّعبيرُ بالمفعول به الثّاني اسمَ فاعلٍ ﴿قَآئِمَةً﴾، تأكيدٌ لعدمِ قيامِها في ظنّه، تناسبًا مع ظنّه الخلودَ في الدّنيا لكثرة ماله، ممّا أعماه عنِ الحقّ ومشاهدته، ويفوتُ التّأكيدُ لو قيل: تقومُ، فهو باسم الفاعل ينفي كينونتَها أصلًا، لذا يُبيّن المفسّرون معنى ﴿قَآئِمَةً﴾ بـ(كائنة).

---

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4530.

(2) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 569.

(4) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4530.

دِلالَةُ الواوِ في ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾:

بيانُ عقيدةِ الرَّجُلِ الكافِرِ في أمرِ الآخِرَةِ، وتوهُّمِه حسنَ المآل

الواوُ في ﴿وَلَئِن﴾ مِنْ قولِ اللّه سُبْحانَهُ حكايةً عنِ الرَّجُلِ: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ عاطِفَةُ الجُملَةَ بعدَها على قولِه قَبْلُ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾، فهذه الجملَةُ داخلَةٌ في جملَةِ القولِ كسابِقَتِها، وبَيْنَ الجُملَتَيْنِ توسُّطٌ بين الكمالَيْنِ؛ لاشتراكِهما في كونهما من مقول القول، فأمّا كونُ ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ جملةً خبريَّةً؛ فظاهِرٌ، وأمّا كونُ ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا﴾ جملةً خبريَّةً؛ فلأنَّ التَّحقيقَ في جملةِ الشَّرْطِ أنَّها بحسبِ جوابِها، فإن كانَ جوابُها خبرًا؛ كانَتْ جملةً خبريَّةً، كما في هذه الآيَةِ، ثُمَّ إنَّ بينَ الجملَتَيْنِ تناسُبًا في اللَّفْظِ والمَعْنى، فأمّا مِنْ جهَةِ اللَّفْظِ؛ فلاشْتِراكِهما في المُسْنَدِ إلَيْهِ، وأمّا مِنْ جِهَةِ المَعْنى؛ فلأنَّهما تُخْبرانِ عن معتقَدِ الرَّجُلِ في أحوالِ الآخِرَةِ.

غَرَضُ الإخْبارِ بـ ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾:

مِنْ شَأْنِ أَهْلِ الكُفْرِ التَّهَكُّمُ والسُّخْرِيَةُ بأَهْلِ الإيمانِ

الجُملَةُ الخبريَّةُ: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ خرجَتْ عن أَصْلِ دِلالَتِها إلى مَعنى التَّهكُّمِ؛ وذلك لأنَّ صاحبَ الجَنَّتَيْنِ اعتقد دوامَ جنَّتِه بقولِه: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾، ثُمَّ انتقلَ إلى نَفْيِ قيامِ السّاعَةِ، وليسَ ثَمَّتَ تلازُمٌ بينَ الاعْتِقادَيْنِ، إلّا أنَّه أرادَ التَّوَرُّكَ على صاحبِه المُؤمنِ تَخطِئَةً له، ولذا جاءَت جُملَةُ: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾، مِنْ بابِ التَّهكُّمِ به، والقرينةُ على إفادةِ التَّهكُّمِ، قولُهُ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾، فهو نظيرُ قولِ العاصِ بنِ وائلٍ السَّهْميِّ لخَبّابِ بنِ الأَرَتِّ رضي الله عنه: (لَيَكونَنَّ لي مالٌ هُنالِكَ، فأَقْضيكَ دَيْنَكَ مِنْهُ)[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 321.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بجُملَةِ القَسَمِ في ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾:

بُلوغُ الرَّجُلِ الكافِرِ الغايَةَ في الغُرورِ، تعبيرٌ عن سوءِ المصيرِ

اللّامُ في ﴿وَلَئِن﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾، لامٌ موطِّئةٌ للقسَم، واللّامُ في ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ واقعةٌ في جوابِ القسَم، وقد أُكِّدتِ الجملَةُ بالقسَمِ وبنون التَّوكيدِ في الجوابِ، وهو بهذا يقيسُ حالًا مستقبَلَةً على حالٍ حاضرَةٍ، حتّى كأنَّ جنَّةَ الدُّنيا ممتدَّةٌ إلى الدّارِ الآخرةِ، بل تفوقُها، وهذا مُنْتَهى درجاتِ الغُرورِ[1]، وفي هذا التَّأكيدِ أيضًا تقويةٌ لتَهَكُّمِه بصاحبِه المؤمِنِ[2].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ المَبْنيّ للمَفْعولِ في ﴿رُّدِدتُّ﴾:

اسْتِمرارُ الرَّجُلِ الكافِرِ في الاسْتِهْزاءِ بصاحِبِه المؤْمِنِ

في بناءِ الفعْلِ ﴿رُّدِدتُّ﴾ للمَفْعولِ مِنْ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ إبهامٌ للرّادِّ، والمَعنى: لَئِنْ ردَّني رادٌّ[3]، فعدلَ عنِ التَّعبير بـ (لئن ردَّني ربّي إليهِ)؛ إشعارًا بعدمِ إيمانه بهذا الفَرْضِ الذي فرضَهُ، وأنَّ مقالَتَهُ هذه صادرةٌ على وجْه التَّهَكُّم والاستهزاءِ بصاحبه المؤمِنِ فحسبُ.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي وإيثارِه على المضارعِ في ﴿رُّدِدتُّ﴾:

السّياقُ هنا للمضارعِ لا للماضي، لكنّه عبّرَ بالماضي زيادةً في التّهكّمِ بمُجاراة الرّجلِ في القناعة بالرّدِّ، كأنّه مُتحقّقٌ بالإيمان به، وفيه إمعانٌ في الاستهزاءِ.

سرُّ القيْدِ بالمجرورِ في ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾:

الإمعانُ في الاستهزاءِ، يوردُ الشّكَّ إيرادَ اليقينِ

سِرُّ التّقْييدِ بالمجرورِ في حكايةِ معنى كلامِه، إظهارُ ثقتِه فيما لديه، واغترارِه بطولِ الأملِ، لما الْتَمَسَه من إمدادِ اللّه تعالى له من التّوسعةِ عليه في الدّنيا، ويقينًا منه بأنّ التّوسِعةَ في الدّنيا دليلٌ على حبِّ ربِّه له، وأنّى له ذلك؟.

---

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4530.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 321.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 60.

إيثارُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ:

في إيثار التَّعبيرِ باسْمِ اللهِ الرَّبِّ في قولِه: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ مناسبَةٌ لذِكْرِ السَّعَةِ والنَّعيمِ المنتظَرِ في الآخرةِ، وذلك لأنَّ اسمَ (الرَّبِّ) متضمِّنٌ معانيَ كثيرةً، مِنها: الإحسانُ، فكأنَّ المعنى: الذي أحسَنَ إليَّ في هذه الدّارِ الدُّنْيا بإعطائه لي هذه الجنَّةَ؛ سَيُعْطيني في الآخِرَةِ أَفْضَلَ منها؛ لكرامَتي عليْه[1].

مِن آثارِ اسْمِ الرَّبِّ عُمومُ إحْسانِه ودَوامُهُ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ المؤكَّدِ ﴿لَأَجِدَنَّ﴾:

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ في جملةِ الجَوابِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾؛ للدّلالَةِ عَلى وفْرَةِ الخَيْرِ الذي يَزْعُمُ وُجدانَهُ في الآخرة، بحيثُ سَيكونُ خَيْرًا متجدِّدًا مُسْتَمِرًّا لا انقطاعَ فيهِ؛ إذْ كُلَّما تجدَّدَ لَهُ خَيْرٌ؛ تَجَدَّدَ له وُجْدانُه.

زَعْمُ الكافِرِ وُجْدانَهُ عَظيمَ الخَيْرِ، ووافِرَهُ في الآخِرَةِ

الغَرَضُ مِنْ تنْكيرِ ﴿خَيۡرٗا﴾ ومجيئِه على التّفضيل:

نُكِّرَ لفظُ ﴿خَيۡرٗا﴾ مِنْ قول اللهِ سبحانه حكايةً عن صاحبِ الجَنَّتَيْنِ: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ تعظيمًا وتكثيرًا للخيرِ المتوقَّعِ حُصولُهُ لَهُ في الآخِرَةِ، فهو خيرٌ عظيمُ القَدْرِ، كثيرُ العَدَدِ، وقدْ جاءَ على صيغةِ التَّفضيلِ إمعانًا في ثقته بالعطاءِ الأكثرِ في الآخرةِ، بناءً على أنّ ما أُعطيَهُ في الدّنيا كان دليلَ مَرضاةِ ربِّه عنه.

تَعْظيمُ الخَيْرِ المُنْتَظَرِ وتَكْثيرُهُ، مِن مظاهرِ الغُرور

الغرضُ منَ التَّقييدِ بالجارّ والمجرورِ ﴿مِّنۡهَا﴾:

التَّقْييدُ بالمجرورِ لُزومُ التَّعبيرِ بأفعلِ التَّفضيلِ، زيادةً في إظهارِ اليقينِ بالعطاءِ الأُخرويِّ، بناءً على العطاء الدّنيويِّ زيادةً في الغفلة.

تَنَوُّعُ القِراءاتِ في ﴿مِّنۡهَا﴾:

قرأ نافِعُ وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وأبو جَعْفَرٍ: ﴿مِّنۡهُمَا﴾ بالتَّثنيةِ،

التَّفَنُّنُ في اللَّفْظِ مَعَ اتِّحادِ المَعْنى وتَكامُلِهِ، من فصيحِ البيانِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن الكريم: 10/ 404، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 60.

وقرأ باقي العشَرةِ: ﴿مِّنۡهَا﴾[1]، فأمّا قراءةُ التَّثْنِيَةِ ففيها رُجوعٌ إلى أوَّلِ الكلامِ في قَوْلِه: ﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ﴾ [الكهف: 32]، وأمّا الإفرادُ فجَرْيًا عَلى قولِه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾؛ تفنُّنًا في حِكايَةِ كَلامِه مرَّةً بالتَّثْنِيَةِ وأُخْرى بالإِفْرادِ[2].

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيّ في انْتِقاءِ الألْفاظِ المُلائِمَةِ لسياقاتِها

تَوْجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيِّ، بين آيتَي الكهف (36) وفصّلت (50):

جملة: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾، وجملة: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ [فصلت: 50]، والآيتانِ مُتَّحِدتانِ في الغايَةِ؛ إذْ كلٌّ مِنْهُما في وصْفِ حالِ الكافِرِ المُنْكِرِ للبَعْثِ والجَزاءِ؛ ولذا تقدَّمَ كلَّ واحدَةٍ مِنْهُما قولُهُ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾، إلّا أنَّ آية الكهْفِ أَقْوى في بيان بُعْدِ الكافر الذي ضُرِبَ به المَثَلُ عَنْ حالِ الإيمانِ، فجاءَت فيها جملة: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾، وجملة: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾، بخلافِ ما في سورَةِ فصّلت؛ فإنَّها صُدِّرَت بما يَصْلُحُ لاتِّصافِ الكافِرِ والمؤمِنِ بِه، وهوَ قولُه: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ٤٩﴾ [فصلت: 49]، فلمّا افْتَرَقَتِ الآياتُ فيما تقدَّم؛ ناسَبَ آيةَ الكَهْفِ قولُه: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾؛ لما يومئُ إليه لَفْظُ الرَّدِّ ﴿رُّدِدتُّ﴾ مِنَ القَهْرِ والتَّعْنيفِ غالبًا بحَسَبِ الاسْتِعْمالِ لا بحَسَبِ الوَضْعِ، بخِلافِ لَفْظِ الرُّجوع ﴿رُّجِعۡتُ﴾ [فصلت: 50]؛ فإنَّهُ لا يَدُلُّ على القَهْرِ والتَّعنيفِ الذي يَدُلُّ عليه لَفْظُ الرَّدِّ[3].

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 311، وقال الداني: "وفي الكهف في مصاحف أهل المدينة ومكة والشام: ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُمَا مُنقَلَبٗا ٣٥﴾ [الكهف: 35] بزيادة ميم بعد الهاء على التثنية، وفي سائر مصاحف أهل العراق ﴿مِّنۡهَا﴾ ميم على التوحيد"، يُنظر: الداني، المقنع، ص: 108.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 321.

(3) ابن الزبير الغرناطيّ، ملاك التأويل: 2/ 318 - 319.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّاعَةُ والقيامَةُ:

السّاعَةُ والقيامَةُ مُتَّحِدانِ باعْتِبارِ الماهيَّةِ، مُخْتَلِفانِ باعْتِبارِ الأَوْصافِ

ليَوْمِ البَعْثِ والجَزاءِ أسماءٌ كثيرةٌ، وذلك مُشْعِرٌ بأهَمّيَّتِها وعَظَمَتِها؛ لأنَّ كَثْرَةَ الأسماءِ دليلٌ عَلى عظمَةِ المُسَمّى، ومِنْ ذلكَ: السّاعَةُ والقيامَةُ، وهُما مِن جِهَةِ المَدْلولِ واحدٌ، ولكِنَّ الاخْتِلافَ بَيْنَهُما مِنْ حيثُ الصِّفاتُ والأَحْوالُ، فأمّا لفظُ السّاعةِ مرادًا به يومُ القيامة فقد ورَدَ في آياتٍ كثيرَةٍ؛ كقوله تَعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: 31]، وقولِه سُبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ۝٨٥﴾ [الحجر: 85]، وقولِه ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: 46]، وفي إطلاقِ لَفْظِ السّاعَةِ عَلى يومِ القيامة وجوهٌ؛ مِنْها: قُرْبُ وقوعِها، أو سُرْعَةُ مَجيئِها، حتّى كأَنَّ الوَقْتَ الذي بينَها وبينَ القيامَةِ لَم يَسْتَغْرِقْ إلّا هَذا المقدارَ اليَسيرَ مِن الزَّمن، أو لسُرْعَةِ انْقِضاءِ الحِسابِ فيها[1].

وأمّا القيامَةُ؛ فقد ورَدَ ذكرُها مرارًا في القُرآنِ الكريمِ، وفي لفظِ القيامَةِ إشارةٌ إلى قيامِ النّاسِ المشارِ إليه في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: 5 - 6]، وأصلُ القيامَةِ في اللُّغَة: القيامُ دَفْعَةً واحدةً، وسمّيَ يومُ البعثِ يومَ القيامَةِ؛ لأنَّ النّاسَ يقومونَ مِنْ قبورِهم للحسابِ، كما قال اللّهُ سُبحانَهُ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: 6]، ولأنَّهُ يومٌ تُقامُ فيه الأَشْهادُ، كما في قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: 51]، ولأنَّهُ يومٌ يُقامُ فيه العَدْلُ، كما قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الأنبياء: 47][2].

---

(1) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 406 - 407.

(2) ابن عثيمين، شرح الأربعين النَّووية، ص: 356.

فتبيَّنَ مِمّا تقدَّمَ أنَّ المرادَ بالسّاعةِ والقيامَةِ واحدٌ وهو يومُ البَعْثِ والجزاءِ، وأنَّ الاختلافَ بَيْنَهُما إنَّما هوَ في دلالة كلٍّ اسمٍ على وصفٍ مِنْ أَوْصافِ ذَلِكَ اليومِ، أو مَرْحَلَةٍ مِن مَراحِلِه، أو مَوْقِفٍ مِن مواقِفِهِ[1].

(1) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 402.

المحتويات